



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للعلوم



عمر
عليه السلام

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

كازكاكازكاكازكاكازكا

الموجز في

تاريخ فلسطين السياسي

(منذ فجر التاريخ حتى سنة 1948)

كازكاكازكا

الياس شوفاني

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي

كاتب:

الياس شوفاني

نشرت في الطباعة:

مؤسسة الدراسات الفلسطينية

رقم الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
١١	الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى
١١	اشارة
١١	المحتويات
١٤	تقديم
١٥	مقدمة
١٩	الفصل الأول عصور ما قبل التاريخ (العصور الحجرية)
١٩	مقدمة
١٩	اشارة
٢١	أولاً: العصر الحجرى القديم (الباليوليت)
٢١	أ) الباليوليت الأدنى
٢٢	ب) الباليوليت الأوسط
٢٤	ج) الباليوليت الأعلى
٢٨	ثانياً: العصر الحجرى الوسيط (الميزوليت)
٣١	ثالثاً: العصر الحجرى الحديث (النيوليت)
٣٧	رابعاً: العصر الحجرى - النحاسى (الكالوليت)
٣٩	المراجع
٣٩	باللغة العربية
٣٩	باللغات الأجنبية
٤٠	الفصل الثانى عصور التاريخ الأولى
٤٠	مقدمة
٤٠	اشارة
٤٣	أولاً: عصر المدن الأولى

٤٩ ثانيا: الهكسوس
٥٢ ثالثا: الكنعانيون
٦٠ رابعا: العبرانيون
٦٥ خامسا: الفلسطينيين
٦٧ سادسا: الإسرائيليون
٧٨ المراجع
٧٨ باللغة العربية
٧٩ باللغات الأجنبية
٧٩ الفصل الثالث عصور التاريخ القديم
٧٩ أولا: العصر الفارسي
٨٣ ثانيا: العصر الهليني
٨٣ اشارة
٨٧ أ) ثورة الحشمونيين
٩٠ ب) المدن الهلنستية
٩٣ ثالثا: العصر الروماني
٩٣ اشارة
٩٤ أ) حكم هيرودوس (٣٧-٤ ق.م.)
٩٧ ب) ظهور المسيحية
٩٩ ج) حكم الولاة الرومان
١٠٢ رابعا: العصر البيزنطي
١٠٢ اشارة
١٠٦ العمران
١١٠ المراجع
١١٠ باللغة العربية

١١٠ باللغات الأجنبيةة
١١٠ الفصل الرابع العصور الوسطى
١١٠ أولا: الفتح العربى
١١٧ ثانيا: العصر الأموى
١١٧ اشارة
١٢٠ السكان و العمران
١٢٣ ثالثا: العصر العباسى
١٢٧ رابعا: العصر الفاطمى
١٣١ خامسا: مملكة أورشليم اللاتينية
١٣١ اشارة
١٣٥ أ) الحملة الأولى
١٣٩ ب) الحملة الثانية (١١٤٦ - ١١٤٩ م)
١٤٢ ج) الأوضاع الاقتصادية- الاجتماعية
١٤٦ سادسا: العصر الأيوبى
١٤٦ اشارة
١٥٤ السكان و العمران
١٥٥ سابعا: العصر المملوكى
١٥٥ اشارة
١٥٨ الإدارة المملوكية
١٦١ المراجع
١٦١ باللغة العربية
١٦٢ باللغات الأجنبيةة
١٦٢ الفصل الخامس العصر العثمانى
١٦٢ أولا: الاحتلال العثمانى

- ١٦٨ ثانيا: ظاهر العمر الزيدانى
- ١٧٢ ثالثا: أحمد باشا الجزائر
- ١٧٥ رابعا: حملة محمد على
- ١٧٥ اشارة
- ١٧٩ تنظيمات إبراهيم باشا
- ١٨١ خامسا: فترة التنظيمات العثمانية
- ١٨١ اشارة
- ١٨٩ امتيازات و قناصل
- ١٩١ سادسا: اليقظة القومية
- ١٩٢ اشارة
- ١٩٨ أ) المنظمات العربية السرية
- ٢٠٠ ب) مقاومة الاستيطان الصهيونى
- ٢٠٦ المراجع
- ٢٠٧ باللغة العربية
- ٢٠٧ باللغات الأجنبية
- ٢٠٧ الفصل السادس الصراع بشأن فلسطين
- ٢٠٧ أولا: بداية الاستيطان الصهيونى
- ٢٠٧ اشارة
- ٢١٣ الهجرة الصهيونية الأولى
- ٢١٧ ثانيا: الصهيونية السياسية
- ٢١٧ اشارة
- ٢٢٢ أ) البراءة الدولية
- ٢٢٤ ب) الصراعات الداخلية
- ٢٢٧ ثالثا: وعد بلفور

- ٢٢٧ اشارة
- ٢٣١ (أ) المشاركة العربية في الحرب
- ٢٣٦ (ب) الدور الأميركي في استصدار وعد بلفور
- ٢٣٩ (ج) النشاط الصهيوني العسكري في الحرب
- ٢٤١ رابعا: الانتداب البريطاني
- ٢٤١ اشارة
- ٢٤٥ (أ) لجنة المندوبين الصهيونية
- ٢٤٨ (ب) ترسيم الحدود
- ٢٤٩ (ج) مقاومة الانتداب
- ٢٥٤ خامسا: الانتداب يرعى الاستيطان
- ٢٥٤ اشارة
- ٢٥٩ تشكيل المؤسسات الاستيطانية
- ٢٧٠ سادسا: الطريق إلى الثورة
- ٢٧١ اشارة
- ٢٧٥ (أ) الكتاب الأبيض الأول
- ٢٧٨ (ب) صك الانتداب
- ٢٧٩ (ج) المقاومة الفلسطينية للانتداب
- ٢٨٥ (د) ثورة البراق
- ٢٨٩ (ه) الكتاب الأبيض الثاني
- ٢٩٤ سابعا: الثورة العربية الكبرى
- ٢٩٤ اشارة
- ٣٠٠ (أ) ثورة القسام
- ٣٠٣ (ب) الإضراب العام
- ٣٠٨ (ج) مشروع التقسيم الأول

- ٣١١ (د) استئناف الثورة
- ٣١٨ نامنا: حرب فلسطين الأولى
- ٣١٩ اشارة
- ٣٢٣ (أ) المشروع الصهيوني في الحاضنة الأميركية
- ٣٣٠ (ب) القضية في الأمم المتحدة
- ٣٣٥ (ج) الحسم العسكري
- ٣٤١ (د) العمليات العسكرية في إطار الخطة د
- ٣٤٤ (ه) دخول الجيوش العربية المعركة
- ٣٤٧ (و) الهدنة الأولى
- ٣٤٩ (ز) مرحلة القتال الثانية
- ٣٥٠ (ح) الهدنة الثانية
- ٣٥١ (ط) مرحلة القتال الثالثة و الأخيرة
- ٣٥٤ المراجع
- ٣٥٤ باللغة العربية
- ٣٥٤ باللغات الأجنبية
- ٣٥٤ فهرست
- ٤٦٠ تعريف مركز القائمية باصفهان للتمريات الكمبيوترية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي

إشارة

سرشناسه : شوفاني، الياس

Shufani, Ilyas

عنوان و نام پديدآور : الموجز في تاريخ فلسطين السياسي.../ الياس شوفاني.

مشخصات نشر : لبنان ، بيروت : موسسه الدراسات الفلسطينية ، ١٩٩٨م. = ١٣٧٧.

مشخصات ظاهري : [٦٠٩] ص

وضعت فهرست نويسي : فهرست نويسي قبلي

يادداشت : كتابنامه: ص. ٥٤٢ - ٥٤١.

موضوع : فلسطين -- تاريخ -- از آغاز تا ١٩٤٨م.

رده بندي كنگره : DS١٠٩/٩/ش٨م٩/١٣٧٧

شماره كتابشناسي ملي : م٨١-٣٥٧٨٠

تعداد جلد: ١

نوبت چاپ: دوم

المحتويات

١ تقديم

٣ مقدمة

الفصل الأول: عصور ما قبل التاريخ (العصور الحجرية) ١١

١١ مقدمة

أولاً: العصر الحجري القديم (الباليوليت) ١٣

أ) الباليوليت الأدنى ١٣

ب) الباليوليت الأوسط ١٦

ج) الباليوليت الأعلى ١٨

ثانياً: العصر الحجري الوسيط (الميزوليت) ٢٤

ثالثاً: العصر الحجري الحديث (النيوليت) ٢٩

رابعاً: العصر الحجري- النحاسي (الكالكويت) ٣٨

المراجع ٤٢

الفصل الثاني: عصور التاريخ الأولى ٤٣

٤٣ مقدمة

أولاً: عصر المدن الأولى ٤٧

ثانياً: الهكسوس ٥٧

ثالثا: الكنعانيون ٦١

رابعا: العبرانيون ٧٥

خامسا: الفلسطينيون ٨٢

سادسا: الإسرائيليون ٨٥

المراجع ١٠٤

الفصل الثالث: عصور التاريخ القديم ١٠٥

أولا: العصر الفارسي ١٠٥

ثانيا: العصر الهليني ١١١

أ) ثورة الحشمونيين ١١٧

ب) المدن الهلنستية ١٢٣

ثالثا: العصر الروماني ١٢٦

أ) حكم هيرودوس (٣٧-٤ ق.م) ١٢٩

ب) ظهور المسيحية ١٣٣

ج) حكم الولاة الرومان ١٣٦

رابعا: العصر البيزنطي ١٤٠

- العمران ١٤٦

المراجع ١٥٣

الفصل الرابع: العصور الوسطى ١٥٥

أولا: الفتح العربي ١٥٥

ثانيا: العصر الأموي ١٦٦

- السكان و العمران ١٧١

ثالثا: العصر العباسي ١٧٥

رابعا: العصر الفاطمي ١٨٢

خامسا: مملكة أورشليم اللاتينية ١٨٧

أ) الحملة الأولى ١٩٣

ب) الحملة الثانية (١١٤٦-١١٤٩ م) ١٩٩

ج) الأوضاع الاقتصادية- الاجتماعية ٢٠٤

سادسا: العصر الأيوبي ٢١١

- السكان و العمران ٢٢٢

سابعا: العصر المملوكي ٢٢٤

- الإدارة المملوكية ٢٢٩

المراجع ٢٣٥

الفصل الخامس: العصر العثماني ٢٣٧

- أولاً: الاحتلال العثماني ٢٣٧
- ثانياً: ظاهر العمر الزيداني ٢٤٧
- ثالثاً: أحمد باشا الجزار ٢٥٢
- رابعاً: حملة محمد علي ٢٥٨
- تنظيمات إبراهيم باشا ٢٦٤
- خامساً: فترة التنظيمات العثمانية ٢٦٧
- امتيازات و قناصل ٢٧٩
- سادساً: اليقظة القومية ٢٨٣
- أ) المنظمات العربية السرية ٢٩٣
- ب) مقاومة الاستيطان الصهيوني ٢٩٧
- المراجع ٣٠٧
- الفصل السادس: الصراع بشأن فلسطين ٣٠٩
- أولاً: بداية الاستيطان الصهيوني ٣٠٩
- الهجرة الصهيونية الأولى ٣١٨
- ثانياً: الصهيونية السياسية ٣٢٥
- أ) البراءة الدولية ٣٣٢
- ب) الصراعات الداخلية ٣٣٦
- ثالثاً: وعد بلفور ٣٤١
- أ) المشاركة العربية في الحرب ٣٤٦
- ب) الدور الأميركي في استصدار وعد بلفور ٣٥٤
- ج) النشاط الصهيوني العسكري في الحرب ٣٥٩
- رابعاً: الانتداب البريطاني ٣٦٢
- أ) لجنة المندوبين الصهيونية ٣٦٨
- ب) ترسيم الحدود ٣٧٣
- ج) مقاومة الانتداب ٣٧٥
- خامساً: الانتداب يرفع الاستيطان ٣٨٣
- تشكيل المؤسسات الاستيطانية ٣٩٠
- سادساً: الطريق إلى الثورة ٤٠٨
- أ) الكتاب الأبيض الأول ٤١٥
- ب) صك الانتداب ٤٢٠
- ج) المقاومة الفلسطينية للانتداب ٤٢٢
- د) ثورة البراق ٤٣١
- هـ) الكتاب الأبيض الثاني ٤٣٧

- سابعاً: الثورة العربية الكبرى ٤٤٦
 أ) ثورة القسام ٤٥٥
 ب) الإضراب العام ٤٦٠
 ج) مشروع التقسيم الأول ٤٦٧
 د) استئناف الثورة ٤٧٢
 ثامناً: حرب فلسطين الأولى ٤٨٤
 أ) المشروع الصهيوني في الحاضنة الأميركية ٤٩٢
 ب) القضية في الأمم المتحدة ٥٠٣
 ج) الحسم العسكري ٥١٠
 د) العمليات العسكرية في إطار الخطة د ٥٢١
 هـ) دخول الجيوش العربية المعركة ٥٢٦
 و) الهدنة الأولى ٥٣٠
 ز) مرحلة القتال الثانية ٥٣٢
 ح) الهدنة الثانية ٥٣٥
 ط) مرحلة القتال الثالثة و الأخيرة ٥٣٧
 المراجع ٥٤١
 فهرست ٥٤٣
 الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢

تقديم

التاريخ ليس الحقيقة، على الأقل ليس كلها، لكن العمل به يكتسب شرعيته العلمية من تحرى الحقيقة. وعندما يكف المؤرخ عن السعي لها يفقد تلك الشرعية؛ أما عندما يجافى الحقيقة في عمله، فإنه ينتج شيئاً آخر تماماً. و إذ لا أدعى الحياد في موضوع هذا الكتاب، فقد وجدت في البحث عن الحقيقة التاريخية و تدوينها ما يلبي انحيازي، فلم يعد من مبرر لتلافيها. و الكتابة في تاريخ فلسطين أمر محفوف بمخاطر الانزلاق نحو إخضاع الحقيقة التاريخية للهوى السياسي، و خصوصاً لما لهذا البلد من قضية تتباين الأهواء بشأنها، الأمر الذي انعكس طبيعته الحال على أعمال الباحثين في تاريخها عبر العصور. و لقد واجهت هذه المشكلة في جمع مادة الكتاب و تصنيفها و صوغها، و بذلت الجهد في اعتماد الموضوعية منهاجاً في التعامل مع القضايا الشائكة التي يطرحها تاريخ هذا البلد، الفريد في موقعه الجغرافي و التراثي و السياسي. و بناء على ذلك، توخيت الدقة في جمع مادته، و من المصادر التي اعتقدتها أكثر وثوقاً، و بالتالي معالجتها بأسلوب المؤرخ لا المنافع السياسي.

و لقد رأيت أن أجمع بين دفتي هذا المجلد الصغير نسبياً قصة كاملة من تاريخ فلسطين الغني، و منذ أقدم العصور المعروفة، فكان لا بدّ من التركيز على الجانب السياسي من تلك القصة الطويلة. و مع ذلك، و لاعتبارات حجم الكتاب، و نظراً إلى غزارة المادة الواجب تغطيتها، لم يكن لديّ مفر من التكتيف الشديد في أسلوب الصوغ. و قد نجم عن ذلك العدول عن الإشارة إلى المراجع في متن النص، تحاشياً لإغراق الكتاب بالحواشي، و تمّ الاكتفاء بإيراد بعض أهم المراجع في ذيل كل فصل.

و يخرج الفصل الأخير عن هذه القاعدة، نظراً إلى طبيعته الخاصة، كونه يتناول الصراع بشأن فلسطين في العصر الحديث.

و إذ تضمن الكتاب فصلا مختصرا في عصور ما قبل التاريخ، اعتبرته توطئة لما يليه، و تعريفا بحضارة البلد منذ القدم، فقد رأيت أن أتوقف به عند حرب ١٩٤٨، و أختمه باتفاقات الهدنة التي انتهت إليها تلك الحرب، على اعتبار أن ما بعد ذلك يدخل في السياسة المفتوحة على احتمالات تحاشيت الخوض فيها و التكهن بمآلها.

و كان طبيعيا أن أعتد على عدد كبير من المراجع و الدراسات في وضع هذا الكتاب. و أرجو أن أكون وفقت في اختيار المصادر الموثوق بها، و اصطفاء المعلومات و التواريخ الدقيقة، و بالتالي تمكنت من تقديمها للقارئ بمنهج علمي و أسلوب محكم.

و أخيرا، و ليس آخرا، لا يفوتني أن أشكر مؤسسة الدراسات الفلسطينية في بيروت على تبني مشروع إعداد الكتاب، و تولى نشره.

الياس شوفاني ١٩٩٦

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣

مقدمة

إذا صححت مقولته أن الخارج من الجغرافيا يغادر التاريخ أيضا، فالأكيد أن القابع في قلبها لا بد من أن يحس بنبضه. و لئن انطبق ذلك على عدد من البلدان المعمورة، فإن فلسطين تتصدر القائمة. فقد كانت تعتبر حتى نهاية القرن الخامس عشر، «صرة» العالم الأهل (الأيكومين)، و شكلت مركزيتها أحد أسس علمي الجغرافيا و الكارتوغرافيا إلى حينه، حتى أثبتت الاكتشافات الحديثة غير ذلك. لكن المسألة ظلت عالقة بالأذهان، و لو بصورة مجازية. ففلسطين تقع في الطرف الجنوبي الغربي من الهلال الخصيب، و بذلك تشكل الرقعة المحاذية للجسر البري الذي يصل آسيا بإفريقيا، و بالتالي الأقرب من بلاد الشام لوادي النيل. و هي ليست جسرا بين قارتين كبيرتين فحسب، بل بين محيطين أيضا: الأطلسي و الهندي. فساحلها جزء من الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط الذي هو امتداد للمحيط الأطلسي، و طرفها الجنوبي يقع على خليج العقبة الذي هو امتداد للمحيط الهندي، عبر البحر الأحمر، و بموقعها هذا شكلت فلسطين ملتقى لطرق بريه و بحرية، منذ أقدم العصور المعروفة، و أدت دورا مهما في التجارة الدولية و التبادل الحضاري بين الأمم. كما أنها نقطة تقاطع طرق جوية في العصر الحديث. و كان طبيعيا أن يتأثر تاريخها بهذا الموقع الاستراتيجي، و أن تؤثر هي من هذا الموقع في تاريخ المنطقة و العالم.

و يخترق فلسطين من الشمال إلى الجنوب الانهدام السوري- الإفريقي في غور الأردن، الأمر الذي جعلها معبرا لأجناس بشريه و حيوانية و نباتية منذ العصور الموعلة في القدم. و فيما هي جزء من الهلال الخصيب، الذي يشكّل شبه دائرة من الأراضي الزراعية يمتد من الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، مروراً بشمال سورية، وصولاً إلى بلاد ما بين النهرين، فإنها تقع بين البحر في الغرب و الصحراء في الشرق؛ و هذا ما جعلها تتأثر بهما مناخيا و سكانيا أيضا. و كان أثر الصحراء فيها على الصعيد الديموغرافي أكبر، إذ ظلت موجات متتالية من هجرة القبائل تندفع من قلب الصحراء العربية إلى جميع أنحاء الهلال الخصيب، و منه فلسطين. لكن البحر أدى دورا في هذا المجال أيضا، إذ إن فلسطين نزلتها شعوب البحر، كما شهدت حركات استيطانية في عصور متعددة، جاءت من منطقة حوض البحر الأبيض المتوسط. غير

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤

أن العامل الأكثر أثرا في تاريخها القديم هو وقوعها بين مركزى الحضارات التاريخية الأولى: وادي دجلة و الفرات من جهة، و وادي النيل من جهة أخرى. أمّا في العصور اللاحقة، فقد كان لموقعها الاستراتيجي و مكانتها الدينية و الطرق التي تتقاطع فيها و في جوارها، أثر كبير في صوغ تاريخها.

لكن فلسطين، و من موقعها الجغرافي أيضا، لم تكن محط أنظار هجرات قبائل و شعوب للاستقرار بها، و لا نقطة تبادل تجاري و حضاري فحسب، بل كانت أيضا ممرا للجيوش في حملاتها المتبادلة و ساحة للمعارك بين العمالقة. لذلك، و طوال تاريخها، كانت

فلسطين عرضة لضغوط سياسية من جميع الاتجاهات، و كجزء عضوي من بلاد الشام، ظلت عنصرا مهما في الصراعات أو التحالفات الداخلية فيها. و بينما كانت قبائل الصحراء تتوغل فيها، و خصوصا عندما تكون السلطة المركزية فيها ضعيفة، للإفادة من أراضيها و الاستقرار و التحول إلى الزراعة، كانت سواحلها عرضة لغزوات من البحر بهدف السيطرة على الداخل السوري، الذي كانت له أهمية تجارية دولية طوال العصور. و بعد نشوء الإمبراطوريات الكبيرة في العراق و مصر أصبحت فلسطين، و لفترات طويلة، ممرا لجيوشها في صراعاتها بشأن السيادة و السيطرة على هذا الجسر الواصل / الفاصل بينها. و علاقة فلسطين بهذين القطبين قديمة قدم التاريخ؛ و بالنسبة إلى مصر فقد كانت قائمة منذ ما قبل التاريخ. فالطريق الذي يعبر سيناء مزروع بالمحطات و الآبار لخدمة القوافل التجارية، التي كانت سيلا للتبادل الحضاري أيضا، و خصوصا مع الجزء الجنوبي منها.

و منذ أيام المملكة القديمة في مصر (الألف الثالث قبل الميلاد)، رأى الفراعنة في فلسطين، على الأقل في جنوبها، سدا يحمي بلادهم من جهة حدودها الضعيفة في الشمال الشرقي، و على الخصوص إزاء تسلل القبائل الرحالة عبرها، و التوغل في سيناء إلى وادي النيل، فحاولوا تعزيز نفوذهم فيها، و إن عبر حكام محليين. و قد تغير هذا المنظور جذريا بعد غزو الهكسوس لمصر، و من ثم طردهم منها، أيام السلالة الثامنة عشرة، التي كان أبرز فراعنتها تحتمس الثالث (١٤٦٨-١٤٣٦ ق. م.)، الذي دمر قوة الهكسوس و الكنعانيين في معركة مجدو، و احتل المنطقة حتى نهر الفرات.

و في المقابل، رأى فيها ملوك آشور و بابل و فارس خشبة القفز إلى مصر و احتلالها، الأمر الذي تكرر مرات كثيرة. أما قوى البحر الأبيض المتوسط - اليونان و الرومان - فقد أرادت السيطرة على فلسطين لتكريس هيمنتها على ذلك البحر من جهة، و للتوغل في شرقه من أجل وضع اليد على ثروات البلاد الواقعة هناك من جهة أخرى. و في المقابل، رأت قوى الشرق - و خصوصا العرب - في فلسطين أقصر الطرق للوصول

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥

إلى البحر و ثرواته التجارية. و نتيجة هذه الأطماع المتضاربة، وقعت فلسطين تحت حكم هذه القوة أو تلك، و لفترات طويلة، مباشرة أو مداورة، عبر حكام محليين.

إلما إنه عندما توفرت الظروف الموضوعية - غياب قوة خارجية مهيمنة - و تواكبت ذاتيا مع قيام حكومة قادرة على فرض الأمن الداخلي، و بالتالي الاستقرار و صيانة الحدود في وجه الغزاة الصغار، قامت في فلسطين ممالك استطاعت أن توظف ميزات البلد لمصلحتها. فقامت بدور الوسيط في التجارة الدولية، كما أصبحت عنصرا فاعلا في السياسة الإقليمية، سواء بالتحالف مع ممالك أخرى في بلاد الشام، أو بالتناحر معها في صراع بشأن الموارد و السيطرة على الثروات و مصادرها. و يبرز ذلك في الكثير من الحالات: الهكسوس و العموريين و الكنعانيين و الإسرائيليين و الفينيقيين، و حتى الدولة الأموية و الدولة الصليبية، وصولا إلى إسرائيل الراهنة. فمن موقعها المتوسط بين شبكتي الطرق - البرية و البحرية - كان لفلسطين نصيب من التجارة الدولية، كما في أيام سليمان، و بعده في فترة ازدهار مملكة الأنباط، و حتى في أيام مملكة أورشليم اللاتينية (الصليبية). و في ظل الخلافة الإسلامية، أصبحت فلسطين جزءا وسطا من دولة عظمى مترامية الأطراف، و عنصرا مكملا لمحيطها، متجاوزة كونها حلقة في شبكة بديلة للالتفاف على الطرق التي تمر بقلب الصحراء العربية، في اتجاه البحر الأحمر.

و بإلقاء نظرة سريعة إلى تعاقب القوى التي حكمت فلسطين، تبرز التقلبات في تاريخها السياسي، خلال السنوات الأربعة الآلاف الماضية. فبعد فترة طويلة من النفوذ المصري، ضعف هذا الحكم فيها خلال القرن الثالث عشر قبل الميلاد، و بدأت مرحلة - دامت نحو خمسة قرون - غابت فيها عن البلد الهيمنة الخارجية، أسوة ببقية بلاد الشام. و في هذا الفراغ من القوى الكبرى الإقليمية، قامت ممالك محلية في كل بلاد الشام، بما فيها فلسطين: الفلسطينيين و الفينيقيون و الكنعانيون و الإسرائيليون و الأراميون و العمونيون و المؤابيون و الأدوميون و سواهم. و في فلسطين قامت مملكة داود و سليمان في بداية الألف الأول قبل الميلاد، لكنها ما لبثت أن انقسمت إلى

مملكة يهودا وإسرائيل (نحو ٩٣٠ ق.م.) إلما إنه في القرن الثامن قبل الميلاد، عادت مملكة آشور إلى التوسع الكبير فاحتلت فلسطين، ودخلت مصر في أيام أسرحدون (٦٨١-٦٦٩ ق.م.) و على أنقاض آشور قامت بابل، فاحتل ملكها نبوخذنصر فلسطين كلها (٥٨٧ ق.م.). لكن الوارث الحقيقي لأشور كان مملكة فارس، التي غزا ملكها الثاني، قمبيز (٥٢٥ ق.م.)، مصر، وأصبحت فلسطين جزءا من الولاية الفارسية الخامسة- عبر نهرا- التي عاصمتها دمشق.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦

وبغزو الإسكندر المقدوني الشرق، دخلت بلاد الشام في منعطف تاريخي، وفي دائرة تأثير حضاري جديد- اليونانية (الهيلينية)- و شهدت تحولا سكانيا و حضاريا. لقد احتلها اليونان (٣٣٣ ق.م.)، وهم يحملون لواء الهلينة (نشر الحضارة اليونانية)، وفي مشروعهم توحيد العالم على أساس قيمها و نمط الحياة الذي أنتجته.

واقترنت خلفاء الإسكندر على ميراثه، وأهملوا إلى حد كبير رسالته، فشهدت فلسطين صراعا بين البطالسة و السلوقيين بشأنها. و بعد فترة من الفوضى، ازدهرت البلاد اقتصاديا، و خربت استيطانا يونانيا كثيفا، و حركة عمرانية واسعة، تمثلت في بناء مدن كثيرة على النمط الهليني (بولس). و ورثت روما ملك اليونان و تراثهم، و تفوقت عليهم في إدارة الدولة. فاحتلت فلسطين (٦٣ ق.م.)، و نعمت البلاد بفترة من الاستقرار السياسي، و الانتعاش الاقتصادي، في إطار الإمبراطورية الرومانية المترامية الأطراف. و عندما انقسمت هذه الإمبراطورية (٣٩٥ م)، وقعت فلسطين في الشطر الشرقي منها- بيزنطة- الذي تبني المسيحية ديانة رسمية، الأمر الذي أعطى فلسطين أهمية خاصة، و انعكس عليها إيجابا، بفضل علاقتها بالتراث المسيحي. و عدا فترة قصيرة (٦١١-٦٢٨ م)، عندما احتلها الفرس ثانية، ظلت فلسطين جزءا من الإمبراطورية البيزنطية حتى الفتح العربي (٦٣٦ م).

و في ظل الدولة الأموية، التي اتخذت من بلاد الشام قاعدة لها، و حكمت الأقاليم الواقعة بين إسبانيا في الغرب، و الهند و تركستان في الشرق، نعمت فلسطين بالازدهار، كما شهدت استقرار الكثير من القبائل العربية الجديدة بها، الأمر الذي غير طابعها الديموغرافي بصورة جذرية. إلا- إنها، أسوء غيرها من بلاد الشام، تراجعت في العصر العباسي، بل تدهورت الأوضاع فيها إلى الفوضى و عدم الاستقرار. ثم عادت لتحتل بؤرة اهتمام المشرق الإسلامي في أيام مملكة أورشليم اللاتينية، فحظيت خلال تلك الفترة بقدر وافر من الإعمار، استمر خلال الحكمين الأيوبي و المملوكي. ثم تحولت مرة أخرى إلى سنجق (مقاطعة) هامشي في العصر العثماني، الذي امتد أربعة قرون تخللتها فترة من الحكم الذاتي أيام ظاهر العمر الزيداني، الذي قضى عليه أحمد باشا الجزائر في القرن الثامن عشر. و سلطت حملة نابليون الأضواء على فلسطين، بعد فترة طويلة من النسيب تعود إلى ما بعد الحملات الصليبية تقريبا، و اشتدت بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح، و بالتالي انتقال التجارة بين الشرق الأقصى و أوروبا الغربية إليها. و كان من أهداف حملة نابليون ضرب هذا الطريق، الذي يعطى بريطانيا الأفضلية على فرنسا، و إعادة الاعتبار إلى طرق البحر الأبيض المتوسط، و بالتالي إلى مصر و الشرق الأدنى،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٧

الأمر الذي فيه مصلحة فرنسا كدولة متوسطة.

و جاءت حملة محمد علي لتضع فلسطين في قلب المسألة الشرقية، أي في بؤرة التنافس الأوروبي بشأن النفوذ في أراضي السلطنة العثمانية، تمهيدا لاقتسامها.

و بعد حفر قناة السويس، زادت أهمية فلسطين الاستراتيجية كخط دفاع عن ذلك الممر المائي، الذي أصبح الأهم في العالم. و في سياق انحلال السلطنة العثمانية من جهة، و تنامي الإمبريالية الأوروبية من جهة أخرى، ترافق بروز الحركة القومية العربية مع نشوء الفكرة الصهيونية، و ما نجم عنها من مشروع استيطاني يرمي إلى تشكيل مركز إقليمي مضاد لحركة شعوب المنطقة. و في الحرب العالمية الأولى، صدر وعد بلفور، و بعد الحرب العالمية الثانية قام الكيان الصهيوني (إسرائيل)؛ و بذلك تشكلت القضية الفلسطينية

التي لا تزال تعتبر القضية المركزية للأمم العربية. وقد غطت هذه القضية تاريخ فلسطين، بل تاريخ الوطن العربي، الحديث. ومن المرجح أن الاسم فلسطين مشتق من اللفظ فلسطينيا- بلاد الفلسطينيين؛ و هم من شعوب البحر التي نزلتها في نهاية الألف الثاني قبل الميلاد. والاسم يشير إلى الجزء الجنوبي من ساحلها، حيث أقام هؤلاء ممالكهم، ثم جرى تعميمه على البلد كله لاحقا. ولا يرد في المصادر المتوفرة من الشرق الأدنى القديم ذكر لاسمها قبل الألف الثاني قبل الميلاد. ولعل وثائق إبلا (تل مردوخ) تكشف معلومات جديدة في هذا الموضوع. وفي النصوص الأكادية منذ نهاية الألف الثالث قبل الميلاد، يشار إلى بلاد الشام عامة باسم أمورو (عمورو)، الذي يفسر على أنه يعني الأرض الغربية- غرب الفرات. كما تطلق هذه المصادر اسم بحر أمورو على البحر الأبيض المتوسط، وهو الاسم الذي أطلق على سكان هذه البلاد، فأصبحوا يعرفون به أيضا- «العموريون».

ومنذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد، يرد اسم أرض- كنعان للدلالة على فلسطين، كلها أو بعضها، وذلك في وثائق ماري (تل الحريري) والالاح (تل عطشانة) من سورية، و وثائق نوزي من العراق. والصيغة الواردة فيها هي كناخي أو كناخنا، التي تقارب الصيغة المعروفة من تل العمارنة في مصر. أما المصادر الآشورية (القرن الثامن قبل الميلاد)، فتورد الاسم فلسطينيا، أو فلسطين، للدلالة على الجزء الجنوبي من الساحل الفلسطيني، كما ترد صيغة مشابهة في التوراة: إيرتس بلستيم (أرض الفلسطينيين). والاسم فلسطين (بالتين)، باللهجة الأرامية، أول ما يرد عند المؤرخ اليوناني هيرودوتس (٤٨٤-٤٢٠ ق.م)، بصيغة «سورية الفلسطينية»، للدلالة على الجزء الجنوبي من سورية. وقد عممه رسميا الإمبراطور هدریان (١١٧-

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨

١٣٨ م)، وتكرس الاسم في العصر البيزنطي، وفي التراث المسيحي، فأصبح الاسم الكنسي الرسمي مضافا إليه صفة الأرض المقدسة، التي أصبحت أحيانا تستعمل اسما للبلد. ولاحقا اعتمده العرب بعد الفتح، فدعوا جزءا منها جند فلسطين، الذي هو أحد «كور» بلاد الشام. وقد عرفت أجزاء متعددة من البلاد بأسماء مختلفة عبر العصور، كما دعاها اليهود إيرتس يسرائيل (أرض- إسرائيل)، وهو الاسم الذي شاع استعماله بينهم بعد خراب الهيكل الثاني (٧٠ م).

وكما عرفت فلسطين أسماء متعددة، هكذا أيضا عاصمتها القدس، المدينة المقدسة للديانات التوحيدية الثلاث- اليهودية والمسيحية والإسلامية. وكذلك الأمر بالنسبة إلى عدد كبير من مدنها القديمة، إذ أطلقت عليها أسماء متعددة عبر العصور.

والاسم الأقدم المعروف للقدس هو أورشاليم، نسبة إلى إله السلم الكنعاني. وهو يرد بهذه الصيغة، أو القريبة منها، في الوثائق المصرية منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد، في رسائل تل العمارنة. وفي التوراة، يرد الاسم بالصيغة العبرية يروشاليم، كما يشار إليها بأسماء صفة متعددة. ومن أسماء القدس ييوس، نسبة إلى اليبوسيين (الكنعانيين) الذين أسسوها وبنوا فيها حصنا. واستولى عليها منهم الملك داود، فصارت تعرف باسمه مدينة داود، بعد أن عمّرها وسعها، وجعلها عاصمة ملكه. وأطلق عليها هدریان اسم إيليا كاييتولينا (١٣٥ م)، عندما أعاد بناءها كمدينة رومانية بعد خرابها. إلا إن قسطنطين الكبير (٣٠٦-٣٣٧ م)، أعاد إليها اسم أورشليم بعد اعتناقه المسيحية. ومنذ الفتح العربي، استبدل اسم إيليا بيت المقدس، والقدس، حتى يومنا هذا.

ولم تكتشف في فلسطين حتى الآن وثائق مكتوبة من عصور التاريخ الأولى، أسوة بالعراق ومصر، وحتى سورية. لكن يستبعد ألا تكون الكتابة معروفة فيها خلال تلك الفترة، لما كانت تربطها بتلك الأقطار من علاقات حضارية وسياسية وتجارية.

والاكتشافات الأخيرة في إبلا (تل مردوخ) قد غيرت الصورة التي كانت قائمة حتى وقت قريب، من أن الكتابة، التي عرفت في مصر والعراق منذ الألف الرابع قبل الميلاد، لم تدخل بلاد الشام إلا بعد فترة طويلة. فقد أبرزت المكتشفات في أرشيف إبلا أن الكتابة عرفت في سورية قبل ذلك بألف عام، الأمر الذي يضعها في مصاف المركزين الحضاريين الآخرين في الشرق الأدنى القديم. وإلى أن يتم اكتشاف مثل هذه الوثائق في فلسطين، سيبقى البحث في تاريخها القديم يعتمد كثيرا على ما تزوده مصادر الأقطار المجاورة، فضلا عن الدراسات الأثرية، التي وفرت حتى الآن معلومات مهمة جدا عن فلسطين في تلك العصور. وهي على العموم تؤكد أهميتها في

محيطها، حضاريا و سياسيا و اقتصاديا، كجزء عضوي و حيوي من بلاد الشام،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩

المتفاعلة بدورها، و في المجالات جميعها، مع العراق شرقا، و مصر غربا، و أناضوليا شمالا، بينما حدودها مفتوحة جنوبا على الجزيرة العربية.

و من أقدم المصادر التاريخية المتوفرة عن فلسطين كتاب هيرودوتس «الحواليات» من القرن الخامس قبل الميلاد، و «برديات زينون» من القرن الثالث قبل الميلاد، التي تعتبر من الوثائق المهمة عن الحياة الاقتصادية و الاجتماعية في فلسطين في تلك الفترة. و هناك تواريخ بوليبيوس (٢٠٨-١٢٦ ق.م)، و ديودوروس الصقلي (٨٠-٢٠ ق.م)، و بليني (٢٣-٧٩ م)، و كذلك كتاب الجغرافي سترابو (٢١-٦٣ م).

و من العصر البيزنطي، كتب أسقف قيساريا- يوسيبوس (٢٦٣-٣٣٩ م تقريبا)- عن حياة الإمبراطور قسطنطين، و تاريخ الكنيسة، و كتاب الجغرافيا. كما تتوفر معلومات مهمة عن فلسطين في كتب المؤرخين و الجغرافيين و الرحالة العرب: البلاذري و الإصطخري و ابن حوقل و ابن الفقيه و المقدسي، و غيرهم كثيرون. كما وصفها رحالة غربيون، قصدوها بدوافع دينية منذ العصور الوسطى، و منهم: السويسري فابري الذي زارها في فترة ١٤٨٠-١٤٨٣ م، و الألماني و لوف في سنة ١٥٧٥ م، و الهولندي ريلاند في سنة ١٧٠٩ م، و الألماني سيتزن في سنة ١٨٠٠ م، و السويسري بوركهارت في فترة ١٨٠١-١٨١٢ م. و قام روبنسون، و زميله سميث، بتسجيل أسماء المواقع الفلسطينية، بعد زيارتين قصيرتين في سنة ١٨٣٨ م و سنة ١٨٥٢ م.

و نظرا إلى أهمية فلسطين الدينية، فقد أولاهها علماء الآثار و اللاهوت و التاريخ و الجغرافيا اهتماما كبيرا، بالنسبة إلى غيرها من الأقطار العربية المحيطة. كما أنها جذبت، عبر العصور، الحجاج و الرحالة الذين دوّنوا في كتبهم و مذكراتهم ما شاهدوه فيها. و منذ منتصف القرن التاسع عشر، و في سياق التنافس الأوروبي بشأن النفوذ في الشرق الأوسط، شكلت فلسطين بؤرة اهتمام لجمعيات الاستكشاف الأثرية و التوراتية و الجغرافية و غيرها. و في القرن العشرين، راحت الدراسات المتعلقة بآثار فلسطين تتخذ طابعا منهجيا و علميا. و إذ أثرى ذلك معرفتنا بالبلد من نواح مختلفة، إلّا إنه أوجد في الوقت نفسه الكثير من الإرباكات أيضا، نجمت عن الأهواء الدينية و السياسية التي حكمت أعمال بعض الباحثين. و فضلا عن الدوافع الدينية، التي جرى التعبير عنها في الدراسات التوراتية، و علم الآثار التوراتي، و ذلك بمحاولة إخضاع تاريخ فلسطين و آثارها للنص التوراتي، فقد أدّت الصهيونية دورا كبيرا في تشويه هذا التاريخ، قديما و حديثا، بما يخدم أغراضها. و هذا يلقي عبأ كبيرا على الباحثين العرب لتلافيه، و خصوصا نتيجة ندرة الدراسات العربية الرصينة في هذا الموضوع الذي يهم الوطن العربي كافة.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١

الفصل الأول عصور ما قبل التاريخ (العصور الحجرية)

مقدمة

إشارة

ثبتت اللقى التي صودف أن عثر عليها مبعثرة في مواقع معينة، و كذلك نتائج المسوحات الأثرية السطحية لمناطق محددة، و من بعدها الحفريات المبرمجة في عدد من المواقع و المغاور، أن فلسطين كانت، منذ أقدم العصور المعروفة لوجود الإنسان العاقل (Homo Sapiens) على الأرض، مهدا لحضارات مادية مهمة في عصور ما قبل التاريخ. و قد اتسمت هذه الحضارات أحيانا بطابع خاص، فتميّزت بأنماط فريدة من التطور المادي و الإنتاج الاجتماعي، غير أنها ظلت على العموم جزءا لا-ينفصل عن محيطها-الهلال

الخصيب.

تضافرت عدة عوامل طبيعية- الموقع و البيئة و الطوبوغرافيا و المناخ- لتوفر الأوضاع الملائمة لازدهار تلك الحضارات المادية البدائية، التي اعتمد الإنسان فيها على الصيد، كصيد الحيوانات أو الأسماك، و على جمع الغذاء من النباتات التي تنمو و تثمر في المحيط، وفق الأوضاع المناخية الملائمة. و بذلك تمكنت جماعات بشرية بدائية من إنتاج قيم مادية و حضارية ظلت على العموم، و خلال فترات زمنية طويلة، رهنا بقدرة تلك الجماعات على التكيف وفق متغيرات المحيط، و التي بدورها ظل مصيرها مرتبطا- إلى حد كبير- بعوامل البيئة المسيطرة. فموقع فلسطين- على الجسر البري الذي يصل إفريقيا بآسيا، ثم بأوروبا- جعل منها ممرا لانتقال الإنسان، كما الحيوان و النبات، و انتشاره من إفريقيا، التي يقول العلماء المختصون إنها كانت موطن المخلوقات البشرية الأولى. و التشكيلة الواسعة من الملامح الطبيعية و الجغرافية ساهمت في بروز أنماط من التجمعات البشرية، قادرة على تطوير حضارة مادية، نتيجة الأوضاع المناخية التي سادت عصر البليستوسين الجيولوجي، الذي يعتبره العلماء عصر ظهور الإنسان و انتشاره على الأرض، قبل أكثر من ١،٠٠٠،٠٠٠ عام.

و منذ عصر البليستوسين الأدنى، الذي يبدو أنه ساد فلسطين فيه مناخ أكثر رطوبة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢

و حرارة، تتكشف أمامنا حضارة إنسانية حجرية استمرت بلا انقطاع طوال العصور الحجرية الطويلة، المعروفة بما قبل التاريخ. و يستدل على الأوضاع المناخية التي و اكبت ظهور الجماعات البشرية في فلسطين منذ بداية البليستوسين و حتى نهاية العصور الحجرية من بقايا عظام الحيوانات الاستوائية التي أظهرتها حفريات أجريت في مواقع سكن إنسان ذلك العصر، كما من مخلفاته الأخرى المتنوعة، بكل ما تخلل تلك الفترة الطويلة من تقلبات مناخية. و الأكيد أنه نجم عن تلك التقلبات المناخية تبدلات جوهرية في نمط حياة الإنسان، أ كانت لناحية تكيفه وفق قوى الطبيعة، أم لناحية صراعه معها، و بالتالي، ما تسبب به ذلك من أزمات حياتية، وضعت أمام خيارات صعبة من الإقامة أو الرحيل. و لعلها اضطرت به إلى تطوير تقنيات حضارته المادية بما تستدعيه الحاجة إلى التغلب على الإشكالات التي تولدها الطبيعة القاسية.

و في الواقع، فإنه عبر اقتفاء أثر تلك التقنيات و مخلفاتها بوسائل علمية حديثة و متنوعة، توصل العلماء إلى تقسيم تلك العصور الطويلة إلى مراحل زمنية تقريبية.

و من خلال المسوحات و الحفريات الأثرية، و عبر ما توصل إليه العلماء المختصون من تقنيات و أساليب لدراسة مخلفات الإنسان القديم، تبرز عصور ما قبل التاريخ المديدة تشكيلات حضارية و مادية و روحية، تطورت و ارتقت بمرور الزمن. و باستعمال تلك التقنيات و الأساليب العلمية الحديثة، أمكن تقسيم تلك العصور إلى مراحل. و جرى تحديدها بفترات زمنية تقريبية، هي في العرف الشائع كما يلي:

١- العصر الحجري القديم: (الباليوليت) (Paleolithic Age) :

و هو يمتد منذ أكثر من ١،٠٠٠،٠٠٠ سنة ق.م. إلى ما قبل ١٠،٠٠٠ سنة ق.م. و يقسم في العادة إلى ثلاث مراحل فرعية:

أ- الباليوليت الأدنى من ١،٠٠٠،٠٠٠ سنة ق.م. إلى ٧٠،٠٠٠ سنة ق.م.

ب- الباليوليت الأوسط من ٧٠،٠٠٠ سنة ق.م. إلى ٣٥،٠٠٠ سنة ق.م.

ج- الباليوليت الأعلى من ٣٥،٠٠٠ سنة ق.م. إلى ١٠،٠٠٠ سنة ق.م.

٢- العصر الحجري الوسيط: (الميزوليت) (Mesolithic Age) :

و هو يمتد من ١٠،٠٠٠ سنة ق.م. إلى ٧٥٠٠ سنة ق.م. (و هناك من يقسمه إلى أدنى و أعلى).

٣- العصر الحجري الحديث: (النيوليت) (Neolithic Age) :

و هو يمتد من ٧٥٠٠ سنة ق.م. إلى ٤٥٠٠ سنة ق.م. (و هناك من يقسمه إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣

ما قبل الفخار و ما بعده).

٤- العصر الحجري - النحاسي: (الكالكوليت) (Chalcolithic Age):

و هو يمتد من ٤٥٠٠ سنة ق.م. إلى ٣١٠٠ سنة ق.م. (و هناك من يجد فيه مراحل متعددة).

و لا بدّ من التشديد على أن هذا التقسيم التراتبي ليس إلّا مصطلحا لتوالي طبقات تراكمية لآثار الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، من الأسفل إلى الأعلى، و هو لا يزال مسألة قابلة للاختلاف بين العلماء في هذا الحقل، إلّا إنه يعطى تصوّرا عاما لمسار تطور الحضارة المادية لإنسان العصور الحجرية.

أولا: العصر الحجري القديم (الباليوليت)

(أ) الباليوليت الأدنى

اكتشفت مخلفات الإنسان القديم الذي عاش في هذا العصر في فلسطين أول مرة سنة ١٩٣٤ م في موقع بالقرب من مدينة بيت لحم، و ذلك في أثناء حفر بئر على عمق ١٥ مترا. و يبدو أن المكان استعمل لذبح الحيوانات المصيدة، إذ عثر في الموقع على عظام متحجرة (مستحاثات) لحيوانات استوائية، كالفهد و وحيد القرن و الظبي و الزرافة و الفيل، تعود إلى عصر البليستوسين الجيولوجي الأدنى. و كان عدد من هذه العظام قد كسر بشكل طولي لاستخراج النخاع منه، كما يبدو، الأمر الذي يدل على أن الفاعل هو إنسان. و بناء على ذلك تمّ الافتراض أن الإنسان قد عمّر فلسطين في هذا العصر، و استمر في تطوير حضارته المادية و الروحية فيها خلال العصور اللاحقة، متأثرا - بطبيعة الحال - بمحيطه، و مؤثرا فيه.

أمّا مواقع إقامة الإنسان الأكثر قدما في فلسطين، فقد عثر عليها في غور الأردن، إذ اكتشف في موقع العبيدية إلى الجنوب الغربي من بحيرة طبرية، و على عمق ٢٠٥ أمتار تحت مستوى سطح البحر، أقدم ما عرفه علم الآثار حتى الآن من المخلفات البشرية في العالم، ما عدا صخور إفريقيا الوسطى. و قد وجدت هذه المخلفات المتحجرة مطوية في طبقات جيولوجية، تشكلت بعد استقرار الإنسان هناك في عصر البليستوسين الأدنى. و تشير هذه التشكيلات الجيولوجية إلى أن الموقع كان يقوم على شاطئ بحيرة، اختفت بفعل عوامل الطبيعة في الانهدام السوري -

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤

الإفريقي، الذي يشكل غور الأردن جزءا منه.

و يعتقد العلماء أن الإنسان الذي عمّر المواقع الأولى المعروفة في فلسطين و محيطها هو من الجنس المعروف باسم الإنسان منتصب القامة (Homo Erectus) و هو أرقى من سلفه الإنسان الصانع (Homo Habilis)، الذي لم تكتشف آثاره خارج إفريقيا حتى الآن بصورة مؤكدة. و يعيد الباحثون ظهور الإنسان منتصب القامة على الأرض إلى ما قبل ٥٠٠، ٥٠٠، ١ عام. و هو جنس متوسط القامة، ذو دماغ متطور، امتلك معرفة تصنيع مختلف الأدوات، الحجرية و الخشبية و العظمية، ليجعل منها سلاحا، أو ليستخدمها في قضاء حاجاته الحياتية الأخرى. و كان يصنّعها عن سابق تصوّر و تصميم، بحيث يتلاءم شكلها مع الهدف المتوخى منها قدر الإمكان.

دلّت المخلفات الأثرية للإنسان منتصب القامة على أنه عاش على جانبي نهر الأردن، و عند مجري نهر الليطاني و العاصي في لبنان و سورية، كما في مواقع أخرى بعيدة مثل الأزرق في الأردن، و كذلك في موقع بردا بلكا في العراق. و في سورية، عثر على آثار هذا الإنسان في ست مرخو، عند مصب النهر الكبير الشمالي، و اللطامنة في مجرى نهر العاصي عند حماة، و في القرماشى و يبرود و الكوم.

و في لبنان، وجدت آثاره في موقع جب جنين، في البقاع، و بين صور و صيدا على الساحل. أما في فلسطين، ففضلا عن موقع العبيدية، وجدت آثاره في جسر بنات يعقوب، و على مقربة من بحيرة الحولة، و في وادي قطفة في الجنوب، كما في مغارة الطابون في جبال الكرمل، و غيرها على الساحل.

و يعيد العلماء الطبقات الأثرية السفلى في موقع العبيدية إلى نحو مليون عام، و هم يميزون بين مرحلتين في التراكمات التي غطتها المياه لاحقا: الأولى، و هي تشبه الطبقة الثانية في أولدوفاي (Olduvai) - تنزانيا، و أدواتها على العموم من البازلت؛ و الثانية، تنتمي إلى حضارة أبيفيل (Abbeville Culture) في فرنسا، و أدواتها من الشظايا الحجرية. و توحى المخلفات البشرية و البقايا الحيوانية من موقع العبيدية، و كذلك من امتداده شمالا و جنوبا، بعلاقة حضارية بدائية مع إفريقيا، تمحورت في غور الأردن، و انتشرت على جانبيه، شرقا و غربا، فوصلت إلى شاطئ البحر غربا و إلى الأزرق في الأردن شرقا.

و استخلص بعض الباحثين، استنادا إلى ما تم اكتشافه من مخلفات بشرية و بقايا حيوانية - يعيدها البعض إلى ما قبل مليون عام مضى - أن الجسر البري، الذي يشكل الطرف الجنوبي الغربي للهلال الخصيب، كان الممر الذي عبرت منه طلائع الإنسان الأولى من إفريقيا إلى آسيا و أوروبا، ربما إلى جانب ممرات أخرى في الغرب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥

و الشرق. و عدا كون هذه المكتشفات توحى بأصول إفريقية، فإنها في سورية الكبرى تتشابه في الصفات و في تقنيات التصنيع، التي يقسمها البعض إلى ثلاث مراحل قديمة جدا هي: الكلاكتونية و الأشولية و التياسية، و منهم من يجمعها في الأشولية.

و تبقى معرفتنا ب حياة الإنسان في هذا العصر الحجري الموعغل في القدم ضئيلة.

و هي أقرب إلى الفرضيات منها إلى الحقائق الملموسة، و تتلاءم ضآلتها طردا مع طول الفترة الزمنية التي يغطيها هذا العصر. و الاعتقاد السائد هو أن هذا الإنسان البدائي عاش متنقلا، يجمع قوته مما توفره الطبيعة و يصارع، على ضعفه، لبقى في قيد الحياة، و يستعين بتطور دماغه ليعوض من هشاشة بنيته الجسدية بالنسبة إلى عالم الأحياء المحيط به. و يعثر على آثاره منتشرة على سطح الأرض، و في جوفها، كما في بعض الملاجىء و المغاور. لكنه بمرور الزمن أصبح أكثر قدرة على التحكم في مصيره في مواجهة عوامل الطبيعة، فراح يصنع أدوات صيده، و يعمل ذهنه في ابتداع السبل لضمان أمنه و وقاية جسده، و الدفاع عن نفسه و توفير مقومات حياته، في إطار الجماعات الصغيرة التي تشكلت بالتكاثر عبر الزمن.

و على الرغم من ضآلة المعلومات عن هذا العصر الطويل، و انحصار المواقع المعروفة منه أصلا في الانهدام السورى - الإفريقي. (مجارى أنهار الأردن و الليطاني و العاصى) و بنسبة أقل في الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، فإنها تؤكد أهمية هذا العصر في تطور الجنس البشرى. فالإنسان منتصب القامة (هومو إركتوس) كان أول الأجناس البشرية ذات الدماغ الكبير التي احتلت الشرق الأدنى القديم بالتدرج، و عاش متنقلا - في أودية الأنهار و المناطق الساحلية، و كان أول من تكيف وفق المناخ المعتدل و المناخ البارد.

و لا يزال المواطن الأصلي لهذا الإنسان غير معروف على وجه التأكيد، مع وجود مؤشرات إلى إفريقيا. و هناك مسائل كثيرة، مثل بنيته الجسدية، أو حضارته المادية، لا تزال من دون حلول مرضية في هذه المرحلة من تطور البحث العلمى في هذا المجال. و لكن الأكد أنه وقع في نهاية هذا العصر، أى قبل نحو ١٠٠،٠٠٠ عام، تطور تقنى مهم في جميع أنحاء الشرق الأدنى، يبرز في التجهيز المادى لهذا الإنسان، و في تطوير أساليب صيده، و تنظيم مواقع سكنه، و فى ابتكار وسائل إشعال النار و استخدامها لمصلحته.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦

في هذا العصر الحجري القديم الأوسط، وقبل نحو ١٠٠,٠٠٠ عام، ظهر جنس جديد من البشر في العالم، واكتشفت آثاره في عدة مناطق من الشرق الأدنى، امتدت من ساحل البحر الأبيض المتوسط إلى العراق. ويتضح من مخلفات هذا الإنسان المادية، ومن الهياكل العظيمة المتحجرة التي اكتشفت في المغاور، حيث دفن موتاه، أنه كان أكثر تطورا من سلفه منتصب القامة، أكان في شكله الفيزيولوجي، أم في إنجازاته الحضارية- المادية والروحية. وقد أثار اكتشافه قضايا علمية لا تزال موضوع نقاش بين العلماء، حول علاقته بالإنسان العاقل (Homo Sapiens)، وكيفية، زمان ومكان تطوره إلى المرحلة الأرقى- فيزيولوجيا وحضاريا.

أثار عثور العالم الألماني يان فوهلروت (J. Fuhlrott) سنة ١٨٥٦ م، على هياكل عظيمة متحجرة لهذا الإنسان ضجة كبيرة في أوساط العلماء، وخصوصا أنه جاء متزامنا مع نشر داروين كتابه «أصل الأنواع». وكان ذلك في وادي نياندر (Neander) بالقرب من دوسلدورف في ألمانيا، وعليه سمي إنسان النياندرتال (Neanderthalensis) (- Homo). وتتبع الاكتشافات، وخدمت الضجة، وبرز إنسان جديد، ذو دماغ كبير نسبيا (١٠٠٠-١٢٠٠ سم ٣) ووجهه مسطح وأقل بروزا إلى الأمام وحواجبه أقل كثافة من سلفه وجمجمته أكثر استدارة ووجهته أقل تراجعاً وميلانا نحو الخلف، وله ذقن شبه واضح.

وأغلبية مخلفات هذا الإنسان في الشرق الأدنى وجدت في مغاور، وقله فقط في مواقع مكشوفة، الأمر الذي استخلص منه العلماء أنه قد سكن المغاور وأقام فيها بصورة عامة، وأدار حياته، كما أدى شعائره الدينية ودفن موتاه. وفضلا عن الكم الكبير من بقايا هذا الإنسان التي وجدت في فلسطين بصورة خاصة، فقد تم اكتشاف مثلها في سورية: كهف الدوّارة وجرف العجلة، و وادي عفرين، وفي مغارة شانيدار (جنوب كردستان) في العراق، ومغارة بيسيتون في غرب إيران، ورأس الكلب وكسار عقيل في لبنان. والهياكل العظيمة المتحجرة التي اكتشفت من هذا العصر في فلسطين تعتبر من اللقى بالغ الأهمية في علم الآثار، كونها تحمل صفات متطورة نحو الإنسان العاقل الحالي.

كما أثار اكتشاف النياندرتال في مغاور فلسطين جدلا عنيفا بين العلماء، و حاروا في مسألة علاقته بقرينه الأوروبي، وفي أصله ومصيره. ويعود ذلك إلى أن الهياكل العظيمة التي اكتشفت في فلسطين تخصّ جنسا بشريا متقدما من الناحية الفيزيولوجية عن الإنسان الذي وجدت عظامه المتحجرة في أوروبا. فهو أقرب إلى الإنسان

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧

العاقل، ويحمل ميزات خاصة، جعلتهم يصنفونه كجنس خاص، وأطلقوا عليه اسم الإنسان القديم الفلسطيني، وعرف علميا باسم Palaeo-anthropus Palaestiniensis.

ومع أنه كان معاصرا لإنسان أوروبا النياندرتالي، إلّا إنه كان متقدما عليه في حضارته المادية، وفي تكنولوجيا إنتاجها. ويستخلص من دراسة العدد الكبير من الهياكل العظيمة التي وجدت في شمال فلسطين، أن الإنسان القديم الفلسطيني (أو الجليلي) كان قصير القامة بالنسبة إلى الإنسان العاقل ويحمل على كتفيه العريضتين جمجمة كبيرة مستطيلة، عظمها سميك، وحدقتا العينين واسعتان تحف بهما نتوءات بارزة. أما الأنف فمسطح، وعظام الحنك ناعرة صلبة، والأسنان كبيرة، وفي الحنك الأسفل ذقن صغير واضح، والصدر واسع والعضلات ضخمة، وهو ما يعطيه قوة جسدية كبيرة. واليدان كبيرتان، لكن عظام الأصابع محدودة الحركة. والفخذ عنده أقصر من الساق، والظهر يميل إلى الانحناء نحو الأمام، حيث يبقى الرأس مائلا في هذا الاتجاه.

وتتضارب الآراء في شأن مصير الإنسان القديم الفلسطيني. فهناك من يعتقد أنه تطور ليصبح الإنسان العاقل، بدليل تطور حضارته المادية، وتقنية صناعه أدواته الحجرية، وهو ما يشير إلى تحول طبيعي ومتدرج في هذا الاتجاه. في المقابل، هناك من يقول بانقراضه من دون خلف، أو بتزاوجه مع جنس آخر هو الإنسان العاقل، أو بانتقاله إلى أوروبا وامتزاجه هناك بالنياندرتال المحلي، أو القضاء عليه، واحتلال مكانه. وبغياب الدليل على نظرية أفضل، لا بدّ من القبول حاليا، بأن النياندرتال الفلسطيني هو الذي تحوّل فيزيولوجيا، وتطور حضاريا نحو الإنسان العاقل، الجدد المباشر للإنسان الحالي، و صانع الحضارة بمعناها الشامل.

والإنسان القديم الفلسطيني هو صانع الحضارة المoustيرية في الشرق الأدنى، وهي الحضارة نفسها التي صنعها النياندرتال في أوروبا، إلّا إنها تتميز في فلسطين بتقنية متقدمة، الأمر الذي يدل على أن نمط حياة الإنسان القديم الفلسطيني كان متقدما على نمط حياة معاصره في أوروبا. وقد وجدت حضارته المادية، من مقابض و مكاشط متنوعة، إضافة إلى أدوات عظيمة قليلة، و نصال طويلة ذات ميزات متطورة و مشتركة مع أدوات الإنسان العاقل، في المغاور و في جوارها إلى جانب هياكله العظمية، حيث كان يدفن موتاه. و هو على العموم من سكان المغاور، و صياد ماهر، انتقل بنمط حياته من مرحلة الجمع و القطف و الاغتذاء بالحيوانات الصغيرة، و ربما الميته، إلى مرحلة الصيد الفعلي؛ و هذا ما يتطلب وجود جماعات بشرية مزودة بأسلحة حادة، و قادرة على اقتناص الحيوانات الضخمة التي كانت منتشرة في الشرق الأدنى.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨

و مع أن مواقع الحضارة المادية المكتشفة من هذا العصر (المoustيرية) منتشرة في أنحاء الشرق الأدنى، إلّا إن الهياكل العظيمة التي تم العثور عليها لا تزال حتى الآن محصورة في مغاور جبال الجليل. و كان أولها في مغارة الزطية في وادي العمود، الذي يصب في بحيرة طبرية، ثم في مغارة الأميرة في مجرى وادي العمود الأوسط، ثم اكتشفت هياكل متعددة في مغارتي السخول و الطابون في جبال الكرمل، و هما متقاربتان جدا، الأمر الذي دعا إلى الاعتقاد أن إحداهما كانت مدفنا لسكان الأخرى في مرحلة ما. و كذلك وجدت هياكل في مغارة القفزة بالقرب من الناصرة.

و قد بلغ مجموع هذه الهياكل العشر، و منها ما يحمل ملامح مشتركة للإنسانين - النياندرتال و العاقل.

إن الموقع النموذج لآثار إنسان فلسطين القديم هو مغارة الطابون، في جبال الكرمل الجنوبية - الغربية، و في جوارها المباشر: مغارة السخول. و قد نقتبت هذه المغارة منذ الثلاثينات من هذا القرن، و أعيد تنقيبها في السبعينات، و بسبب الحفريات المنهجية، أعطت هذه المغارة تراتبية للسويات الأثرية المتواصلة، منذ الباليوليت الأدنى، تعلوها ثلاث سويات من الباليوليت الأوسط. و بناء عليه، فقد، كشفت اللقى عن الحضارة اللفلوازية الممهّدة للحضارة المoustيرية، و هي تمثل المرحلة الأولى و الأقدم لحضارة النياندرتال المادية في هذه المنطقة، و لذلك أطلق بعض العلماء عليها اسم الحضارة الطابونية.

و مهما يكن الأمر، فالوضع الراهن لمعرفتنا عن إنسان ما قبل التاريخ يشير إلى أن الشرق الأدنى كان في عصر الباليوليت الأوسط مركز الثقل الحضاري و الإنساني الأهم. و تدل البقايا الحيوانية في المواقع التي أجريت فيها الحفريات على غنى الثروتين - الحيوانية و النباتية. و في نهاية هذا العصر، أي قبل نحو ٣٥,٠٠٠ عام، حدث تغير مناخي جذري، جعل المنطقة فقيرة في نباتها، و بالتالي في حيوانها؛ و هو ما يسميه البعض أزمة الحيوان. و راح الإنسان يقتفى أثر الحيوان نحو غابات أوروبا، الأمر الذي نقل مركز الثقل الإنساني و الحضاري إليها، كما تكشف عن ذلك الآثار الغزيرة من هذا العصر في أوروبا، مقارنة بشحها في الشرق الأدنى في عصر الباليوليت الأعلى.

ج) الباليوليت الأعلى

قبل نحو ٣٥,٠٠٠ عام، ظهر على المسرح العالمي إنسان جديد، سرعان ما انتشر في أكثر بقاع الأرض، و بظهوره دخلت البشرية عصرا جديدا، يطلق عليه العلماء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩

اسم الباليوليت الأعلى، الذي استمر إلى نحو ١٠,٠٠٠ سنة ق.م.، و به انتهى العصر الحجري القديم. و يسمى المختصون هذا الجنس البشري الإنسان العاقل (Sapiens) (Homo)، تأكيدا لصلته المباشرة و القريبة بالإنسان الحالي. و في هذا العصر، حقق الإنسان إنجازات تقنية جديدة، قدمت فائدة كبيرة لنمط حياته، و أثرت في تقدمه الاقتصادي، و أغنت حضارته المادية و الروحية.

و ينظر المختصون باستغراب إلى ظاهرة أن هذا الإنسان لم يزدهر في منطقة ظهوره، أي الشرق الأدنى، و تحديدا فلسطين، بل هاجر شمالا، إلى أوروبا، و هناك أبدع حضارة مادية غنية، و روحية رفيعة المستوى. و بحسب المعلومات الأثرية المتوافرة، و هي لا تزال حتى الآن فرضية إلى حد كبير، تبدلت الأدوار الحضارية في هذا العصر. فبعد أن كانت آسيا و إفريقيا تشكلان مركز النشاط الإنساني الرئيسي في الباليوليت الأوسط، أصبحت أوروبا هي المركز في الباليوليت الأعلى، حيث حدثت الإنجازات الكبيرة للإنسان الجديد، و في الميادين كلها تقريبا، بينما ظل الشرق الأدنى هامشيا في هذا المجال.

و لا يتفق العلماء على الأسباب الكامنة وراء هذا التبدل في الأدوار الحضارية لإنسان ما قبل التاريخ، كما يختلفون بشأن مصير الإنسان القديم الفلسطيني، بين الانقراض، أو الاختلاط بأجناس أخرى، أو الارتقاء نحو الإنسان العاقل. و من أكثر النظريات رواجاً تلك التي تقول بانقلاب مناخى في الشرق الأدنى، تحوّل فيه من الحار- الرطب إلى الحار- الجاف، بما استتبعه من فقر نباتي، و بالتالى هجرة الحيوان، و فى إثره الإنسان الصياد، إلى مناطق الغابات الغنية فى أوروبا. و بناء عليه، فقد أطلقت صاحبة هذه النظرية- دوروثى بيت (Dorothy Bate) - على الظاهرة اسم أزمة الحيوان.

و يتابع الآخذون بنظرية أزمة الحيوان استخلاصهم فيقولون إنه على الرغم من الازدهار الكبير الذى حققه الإنسان الفلسطينى فى الباليوليت الأوسط، و الذى ورثت إنجازاته الجماعات اللاحقة، فقد برزت فى نهايته أزمة اقتصادية، منهم من يسميها الأزمة الاقتصادية الأولى فى تاريخ الإنسان القديم، و امتدت زمنا طويلا، حتى العصر الحجري الحديث. و هم يعزون هذه الأزمة إلى التقلبات المناخية، التى حركت سلسلة من الأزمات الحياتية الدورية، حلتها الجماعات البشرية فى معظم الأحيان بالرحيل، بينما ظلت مجموعات صغيرة، طورت حضارتها بما تفرضه أحوال الطبيعة الجديدة، و ما نجم عن ذلك من تكيف فى أنماط حياتها و تقنيات صناعتها أدواتها. فموجة الحر التى اجتاحت المنطقة تسببت، أولا و قبل كل شيء، بفقر الغطاء

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٠

النباتى فيها. و بناء عليه، هجرت قطعان الحيوانات إلى مناطق نباتية غنية، و سار الإنسان الصياد فى إثرها، و كما يبدو على شكل قبائل. أما من تبقى من تلك القبائل فى المنطقة، فقد وجب عليه الاقتناع بالقليل، و الاعتياد على الأوضاع الجديدة: صيد الحيوانات الصغيرة نسيبا و الأسماك، الأمر الذى أدّى بطبيعة الحال إلى تطوير أدوات الصيد. فهذا التراجع الاقتصادى العام، ترافق مع ظهور الأدوات الصوانية الصغيرة (Microliths)، ذات الأشكال الهندسية المتعددة، التى ركبت على أنصبه من مواد عضوية كالخشب و العظام و القرون.

و يعتقد العلماء أن الإنسان الذى صنع حضارة الباليوليت الأعلى الراقية، امتلك صفات جسدية متطورة: دماغا كبيرا لا يقل حجما و أهلية عن دماغ الإنسان الحالى، و ملامح أكثر نعومة، و هيكل عظميا شبيها جدا بالذى ينتصب عليه الإنسان الحديث. و الواضح أنه كان صاحب يدين ماهرتين و رشيقتين، بصورة لم يسبق لها مثيل، الأمر الذى مكّنه من صنع أدوات أكثر تشديدا من تلك التى صنعها النياندرتال. و يبرز ذلك فى صناعة الشفرات الطويلة و الجميلة، التى كانت نتاج تقنيات جديدة، و على درجة عالية من الرقى. و هذه التقنيات تظهر ذكاء و مهارة و خيالا لدى إنسان الباليوليت الأعلى لم تسجل من قبل، فوفرت له المزيد من الغذاء.

تميز هذا الإنسان من سلفه ببناء المساكن، و إذ لم يهجر المغاور هجرا كاملا، فإنه تعدّاها إلى إقامة البيوت المستديرة فى جوارها. و هذه البيوت- كما يظهر- عبارة عن أكواخ و خيام، تقام على مصاطب محفورة، أو محاطة بالحجارة أو بأكوام التراب. و السقف فيها من جلود الحيوانات، تقوم على دعائم مائلة، يشبهها البعض بخيام الهنود الحمر فى أميركا. كما أن هذا الإنسان هو أول من عرف الإضاءة المنزلية مستخدما لذلك سراجا حجريا، يغذيه بدهن الحيوان. و يقدر الباحثون أن تنوع الأواني المنزلية، و كذلك تطور أدوات العمل و الصيد، و رقى أغراض الزينة، تفترض نوعا من التخصص فى العمل. و بالتالى قيام المشاغل الحرفية الأولى.

و لعل الإنجازات الأكثر أهمية لإنسان الباليوليت الأعلى فى أوروبا، الذى تفوق على معاصره فى الشرق الأدنى، كما تدل المكتشفات

حتى الآن، تبرز من خلال ميزاته الفكرية و الروحية التي لا- سابق لها. و هي تتجلى على الخصوص في ميوله الفنية، التي عثر عنها بالرسوم الملونة على جدر المغاور العميقة، و التي تبهر الأنظار بجمالها و دقة تعبيرها، الأمر الذي يوحى بأهميتها الدينية. و الواضح أنه امتلك حسا فنيا ملحوظا في صناعة أدوات الزينة من عقود و أعلاق و أساور، إذ أتقن نظم الأصداف الملونة، كما مهر بالحفر على العاج، و استعمال الأصباغ للأموات و الأحياء، و الاعتناء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١

بالمظهر الشخصي، و هذا ما يوحى بقيام علاقات اجتماعية راقية المستوى.

و من الواضح أننا في الباليوليت الأعلى نقف أمام إنسان قطع شوطا بعيدا في تنظيم حياته، و في صوغ علاقاته الاجتماعية، و السيطرة على المحيط، و التعامل مع البيئة. فحضارته و لا- شك أعلى كثيرا من حضارة أسلافه، ليس فقط فيما يتعلق بالأدوات و الأواني و الأغراض الأفضل صنعا، بل في تنوعها و تعدد أوجه استعمالها أيضا. و فضلا عن شظايا الحجارة الصوانية الراقية التصنيع، جرت الاستفادة من القرون و العاج. و بين مخلفاته نجد الإبر العظمية و الصنانير و الرماح المسننة و قواذف الأسهم، و كذلك القوس و النشاب، و الواضح أنه كان يرتدى الثياب التي صنعها من جلد الحيوانات، كونه لم يعرف نسج القماش.

و يطلق الباحثون على إنسان الباليوليت الأعلى في أوروبا اسم كرومانيون (Cro -Magnon) ، على اسم مغارة في فرنسا، تمثل الموقع النموذج لحضارته. و تظهر مخلفاته دلائل على حياة جماعية، تنضوي فيها أعداد أكبر من البشر في تجمعات مشتركة. و مثل هذا الوضع الجديد استلزم تقسيما للعمل، و بالتالي بروز الاختصاصات الحرفية و الفنية و الدينية، و كذلك تراتبية اجتماعية تنتهي بالقائد الفرد. و هناك دلائل قوية على أن إنسان كرومانيون شغل فكريا بعالم القوى الخفية، و أبدى اهتماما كبيرا بالأموات، و بطرق دفنهم، و تهيئتهم للعالم الآخر، من تضميخ للجسد، و ضمّ للذراعين فوق الصدر، و تزيين بالأعلاق و العقود، و تزويد بالأسلحة و غيرها من الأدوات التي تودع القبر مع الميت.

و في فلسطين اكتشف الكثير من المواقع التي تعود إلى عصر الباليوليت الأعلى، و منها أتت المعلومات الأولى عن هذا العصر في الشرق الأدنى، ثم تابعت الاكتشافات في سورية و لبنان و الأردن. و يقسم العلماء هذا العصر إلى مراحل حضارية: قديمة، تسمى الأحمرية، نسبة إلى ملجأ في عرق الأحمر، في سفوح جبال القدس الشرقية، و هو الموقع النموذج لهذه الحضارة في فلسطين، و التي توازي الحضارة الأوريناسية في أوروبا، و حديثه، تسمى الكبارية، نسبة إلى مغارة كباره، في الطرف الغربي لجبال الكرمل. و منهم من يميز مرحلة انتقالية بينهما، يسميها العتليتية نسبة إلى موقع عتليت على الساحل، جنوب حيفا.

و التنظيم التراتبي، من الأسفل إلى الأعلى، للحضارات المادية من الباليوليت الأعلى، يقوم على حفريات أثرية، جرى معظمها في فلسطين، و بعضها في المحيط، الأمر الذي ربما يتغير بحسب نتائج حفريات أخرى مستقبلية، و الموقع المهم للفترة الأولى هو الملجأ الصخري في عرق الأحمر. أما بالنسبة إلى الفترة الثانية و الأخيرة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢

للپاليوليت الأعلى فهي مغارة كباره، التي يعتبرها البعض مرحلة انتقالية إلى العصر الحجري الوسيط (الميزوليت). و نسبة إلى هذا الموقع سميت الحضارة الكبارية، التي انتشرت في جميع أرجاء سورية الكبرى، من النقب إلى الفرات، و من غور الأردن الجنوبي إلى جبال طوروس.

و عدا هذين الموقعين النموذجين، فقد اكتشفت آثار هذا العصر في مغارة الواد (وادي فلاح) في جبال الكرمل، و في مغارة القفزة، قرب الناصرة، حيث وجدت هياكل عظمية تعود لإنسان هذا العصر. و كذلك في مغارة الأميرة في وادي العمود الذي يصب في بحيرة طبرية، و في مواقع متعددة في النقب و الساحل، و منها عتليت.

أما في سورية، فقد وجدت في ملجأ بيرود و غيرها. و في لبنان، كشف موقع كسار عقيل التتالي الأكمل للتراتبية الطبقيّة من هذا

العصر حتى نهاية الأحمريّة.

و تظهر مغارة الأميرة مرحلة انتقالية إلى الباليوليت الأعلى المبكر، الذي تمثله الحضارة الأحمريّة. أمّا في كبارة فقد وصلت حضارة هذا العصر إلى ذروة انتشارها، فجعلت من سوريه الكبرى وحدة حضاريّة، لعلها الأولى في الشرق الأدنى القديم. و تبرز الكبارية تقدما ملحوظا في الحضارة المادية و تقنية إنتاجها. فهي تتميز بصناعة الشفرات الصوانية الصغيرة و الرقيقة، التي انتشر استعمالها على نطاق واسع، و كذلك بانتقال الإنسان من المغاور إلى منازل الصيد في العراء، و صيد الأسماك على ضفاف الأنهار و البحيرات. و يتضح أن الإنسان في هذه المرحلة أضاف الحبوب إلى وجبات طعامه، إذ وجد هاون من البازلت بالقرب من النقيب، على الشاطئ الجنوبي-الشرقي لبحيرة طبرية، و إلى جانبه مدقة لطحن الحبوب، التي من المؤكد أنها جمعت من البر، إذ لم تكن الزراعة معروفة للإنسان بعد.

و يولي الباحثون المختصون الحضارة الكبارية في فلسطين أهمية خاصة، لأنها- أساسا- محليّة، و لأنها انتشرت في سوريه الكبرى كلها، كحضارة موحدة متجانسة، انطوت على تحولات مادية كبيرة، و شكلت مرحلة انتقالية، مهّدت لظهور الحضارة النطوفية في العصر الحجري الوسيط (الميزوليت)، و بالتالي إلى استعادة الشرق الأدنى مركز الثقل الحضاري الإنساني، بعد أن انتقل في الباليوليت الأعلى إلى أوروبا. و في هذه الحالة أيضا، ظلت التقلبات المناخية هي الأكثر رواجاً في تفسير هذه الظاهرة، و بناء على ذلك، حدثت التبدلات في الأنماط الحضارية خلال العصور اللاحقة، وفق استجابة المجموعات البشرية للتحديات التي طرحتها الأحوال المناخية. و بينما تشبث إنسان أوروبا بنمط حياته و اقتصاده القائم أصلا على الصيد، فراح يرحل شمالا متعقبا قطعان الغزلان، و غيرها من الحيوانات التي هاجرت إلى مناطق

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣

الغابات المتراجعة شمالا بفعل المناخ، واجه إنسان الشرق الأدنى ظاهرة التصحر و الجفاف بتوزيع جديد للسكان، و تحوّل في نمط حياته، و تنوع في غذائه، نجم عن ذلك تطور في حضارته المادية. و يعتبر البعض هذه الفترة، التي امتدت من ١٨،٠٠٠ سنة ق. م. إلى ١٠،٠٠٠ سنة ق. م. تقريبا، فترة انتقالية من اقتصاد الصيد و الجمع و الالتقاط إلى اقتصاد الإنتاج. و منهم من يضمها إلى الميزوليت. و يستخلص الباحثون من دراسات متعددة- مناخية و جغرافية و جيولوجية و نباتية و حيوانية و إنسانية- أن مناطق صحراوية تكونت في الأردن و فلسطين في هذه الفترة، الأمر الذي انعكس في توزّع جديد للسكان. و انحصر التوزع الجديد في مناطق تتوفر فيها مصادر الماء و الغذاء، إذ أقام السكان مستوطنات مؤقتة لجماعات صغيرة من الصيادين. و إزاء نضوب مصادر معيشته، لجأ إنسان هذا العصر إلى تنويع غذائه، و أضاف إليه بذور الأعشاب البرية الصغيرة، و القمح و الشعير و غيرها. فأصبحت الحبوب على أنواعها عنصرا مهما في غذائه، و بالتالي في أدوات عمله التي أصبحت تضم أدوات الطحن و مناجل الحصاد و صنادير صيد الأسماك و غيرها. و على اعتبار أن الحضارة الكبارية تتبع الباليوليت الأعلى و الأخير، فهي تبشر بإنجازات كبيرة لاحقة، أبرزها بناء البيوت الأولى التي سكنها الصيادون و الملتقطون في المواسم، إذ إنهم بنوها على شكل حفر دائرية صغيرة، على السفوح و المنحدرات و المصاطب، جدرانها و أرضها من الطين و الحجر، و سقفها من الجلد و الأغصان. و في النقيب، على الشاطئ الجنوبي-الشرقي لبحيرة طبرية، اكتشف أقدم بناء معروف في بلاد الشام حتى الآن، يعود بناؤه إلى ما قبل نحو ١٤،٠٠٠ سنة ق. م. و على الرغم من التطور الحضاري المادي، فإنه لا يمكن اعتبار هذا العصر جديدا تماما، و خصوصا أن الاقتصاد البشري فيه ظل قائما على الصيد و الجمع و الالتقاط، و إن بكثافته أعلى.

و مهما يكن الأمر، فإن نهاية الباليوليت، و الانتقال إلى الميزوليت، يعنيان أمورا متباينة تماما بالنسبة إلى كل من أوروبا و الشرق الأدنى. فبينما آذن غروب الحضارة المجدلانية، ذات التراث المادي و الروحي الغني في الباليوليت الأعلى، بدخول أوروبا في فترة مظلمة استمرت خلال الميزوليت، فإنه بشر في المقابل بزوغ نهضة جديدة في الشرق الأدنى، بدأ نبضها في الحضارة الكبارية، و بلغ

ذروته في الحضارة النطوفية. و تبرز مؤشرات هذا التحوّل في الإنجازات المادية، التي عقبها تطورات اجتماعية و روحية. و يعتبر البعض هذه الفترة في الشرق الأدنى منعطفًا للحضارة الإنسانية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤

ثانيا: العصر الحجري الوسيط (الميزوليت)

العصر الحجري الوسيط هو مرحلة انتقالية بين نمطين أساسيين من التنظيم الاقتصادي: الأول جمع الغذاء، والثاني إنتاجه. و بعض الباحثين لا يعتبره عصرا قائما بذاته، فمنهم من يلحقه، كمقدمة للثورة الحضارية، بالعصر الحجري الحديث (النيوليت)، و منهم من يقسمه إلى مرحلتين، فيلحق الأولى بالبالوليت الأعلى لتشكّل نهايته، و الثانية بالنيوليت مشكّلة بدايته، التي تراكمت فيها الخبرات الإنسانية ممهّدة لما يسمى الثورة الحضارية في النيوليت. و في فلسطين قامت في هذا العصر حضارة زراعية بدائية، هي النطوفية، نسبة إلى وادي النطوف، في جبال القدس الجنوبية- الغربية.

و مرة أخرى، عاد الباحثون إلى الأسباب الكامنة وراء تبدل الأدوار الحضارية بين أوروبا و الشرق الأدنى، و برز مجددا التفسير المناخي. فقد تراجع الجليد في نصف الكرة الأرضية الشمالي نحو المناطق القطبية، و تراجعت مع الجليد الغابات، و تبعها الحيوانات المفضلة للصيد، التي تعقبها الصيادون و خصوصا غزال الرنة؛ و هكذا اختفت في أوروبا الجنوبية و الغربية الحضارة المجدلانية الغنية. أمّا في نصف الكرة الجنوبي، فمال الجو إلى الدفء، و ظهر غطاء نباتي جديد، و بالتالي عالم حيواني جديد، استغل فيه إنسان الشرق الأدنى القديم الأوضاع المناخية المواتية على أحسن وجه، و طوّر حضارته المادية و الروحية.

و هجر هذا الإنسان المغاور و الكهوف، و انتقل إلى السهول و الوديان، حيث نمت أنواع من الحبوب بريّة، كالقمح و الشعير، و عاشت حيوانات تفضل المناخ الدافئ، كالغنم و الماعز و البقر. و بتفاعل جدلي تقدمي بين إنسان الميزوليت و بيئته، نظم هذا الإنسان عملية استغلال البيئة بصورة واعية و متقدمة من سلفه، فطوّر أساليب عمله انطلاقا من قاعدة أن «الحاجة أم الاختراع». و استقر هذا الإنسان بانتقاله إلى مواقع وجود هذه النباتات و الحيوانات، حيث أقام مساكنه البدائية فيها، و برمج حياته على أساس الاستفادة الدائمة منها، و أنشأ قرى الصيادين الأولى التي انتشرت في طول المنطقة و عرضها.

و في مواقع استقراره، و مع تزايد أعداده، راح هذا الإنسان يعنى ببناء مساكنه، و رفع مستوى حياته الاقتصادي و الاجتماعي، عبر تأمين أسباب عيشه في محيطه، الأمر الذي استلزم تنظيما اجتماعيا، و تخصصا في العمل داخل الجماعات. و هكذا وفر الشرق الأدنى لهذا الإنسان الموطن الطبيعي المثالي، من حيث اعتدال المناخ،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥

و الكفاية من مصادر المياه، و الأحوال الطبيعية الملائمة لنمو النباتات الحبية، كالقمح و الشعير و العدس و الكرسة و غيرها، و كذلك الغطاء النباتي لرعى بعض أصناف الحيوانات اللبونة مثل البقر و الماعز و الغنم و الغزلان و غيرها، و بقي عليه أن يعمل ذهنه في استغلال محيطه بجهد و أدواته، و يبدو أنه نجح في ذلك.

و نحو ١٠,٠٠٠ سنة ق. م. انتشرت على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، و ما يليه من مناطق في الشرق الأدنى القديم، وصولا إلى العراق، حضارة جديدة هي الحضارة النطوفية، نسبة إلى وادي النطوف، غربي القدس، إذ اكتشف في مغارة شقبة الموقع النموذج لهذه الحضارة. و يعتقد حتى الآن أنها انطلقت من فلسطين، و من المنطقة الساحلية و جبال القدس بصورة خاصة، و شملت غور الأردن و شرقه، و كذلك لبنان و سورية و العراق، حيث اكتشفت الرقائق الصوانية التي صنعت منها مناجل الحصاد و أحجار الرحي و الجواريش و المدقات لطحن الحبوب و سحق مواد التخضيب، كما وجدت المطامير لتخزين الحبوب.

و برع النطوفي بأساليب تكيفه وفق محيطه، إذ إنه فضلا عن المسكن و الملابس و تنظيم حياته المجتمعية الجماعية من حيث تقسيم

العمل و التخصص، طوّرت تقنيات إنتاج أدوات عمله فأصبحت ذات جدوى عالية. و تتميز أغلبية الأدوات الصوانية النطوفية بحجمها الصغير و بأشكالها الهندسية المتعددة. و بما أنها تصنع من الشظايا على هيئة شفرات صغيرة، ذات حد واحد مستقيم، يقابله جانب هلالى الشكل من الخلف، أو ذات حدين متوازيين، و تركب في أنصبه من الخشب أو العظم أو القرن، و تسوى بحيث تؤدي عملها بنجاعة كبيرة، فقد أصبحت تفي بمتطلبات الحياة المتزايدة لهذا الإنسان في تحوله من نمط اجتماعي - اقتصادي إلى آخر.

و تعتبر الفترة النطوفية الخطوة الأولى على طريق المجتمعات الزراعية في بلاد الشام، كونها أنتجت حضارة محلية أصيلة، ذات طابع خاص، انتشر تأثيرها في المنطقة، فغطى سورية و لبنان وصولاً إلى وادي النيل، في موقع بالقرب من مدينة حلوان. و مع الانتقال إلى حياة الاستقرار، انقضى عصر الثقافات ذات الانتشار العالمي الواسع الناجم عن التنقل الدائم، و الاحتكاك المستمر و التفاعل، سلباً أو إيجاباً. و بناء على ذلك، راحت تقوم حضارات محلية في أصلها و فرعها، كانت كلما تقدمت اتخذت طابعا أكثر استقلالية و تمحورا حول الذات، أدى إلى تطور متواصل و متدرج.

و قد تضافرت لإنجاز هذه النقلة الحضارية النوعية في الشرق الأدنى، و نعني بذلك إنتاج الغذاء عبر الزراعة و تدجين الحيوانات، فضلا عن الصيد و الالتقاط، عوامل بيئية و إنسانية معا. فالبيئة وفرت للإنسان، و بصورة طبيعية، الحبوب و النباتات

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦

و الحيوانات القابلة للتدجين، الأمر الذي دعا إلى الاعتقاد أن المنطقة كانت الموطن الأصلي لهذه الأجناس. و هناك الكثير من الدراسات يثبت أن الأصول البرية لهذه النباتات و الحيوانات انتشرت بصورة طبيعية في المنطقة التي تضم القفاز و اليونان و هضبة الأناضول و أواسط آسيا و شمال غرب إيران و شمال العراق و بلاد الشام و وادي النيل الشمالي.

أما بالنسبة إلى العوامل الإنسانية، فتدل آثار الحضارة المادية للمجموعات البشرية التي عاشت في الشرق الأدنى القديم، على أنها حققت إنجازات كبيرة في العصور السابقة، جعلتها مهتأة لأن تكون رائدة الحضارة في العصر الحجري الوسيط.

و من هنا، فالنقلة النوعية التي تحققت عبر الحضارة النطوفية، و التي امتدت لتغطي منطقة شرق البحر الأبيض المتوسط، و شمال إفريقيا، وصولاً إلى تونس - حضارة قفصة - هي نتيجة سنه التطور الطبيعي، و وليدة الحاجات الحياتية المتزايدة التي اقتضتها مستلزمات الحياة لجماعات بشرية مستقرة تتكاثر بوتيرة متسارعة، من جهة، و تلبية النزعة الدائمة لتحسين الأوضاع المعيشية لأفراد تلك الجماعات، من جهة أخرى.

إن فزادة النطوفيين تكمن - أساساً - في خطواتهم السريعة نحو إنتاج غذائهم، ثم في الانتقال إلى حالة من الاستقرار، و تأسيس مستوطنات دائمة في مرحلة مبكرة من الحضارة الإنسانية. و قد أصبح من المؤكد الآن أن الجماعات البشرية النطوفية تميّزت منذ البداية بحركة نزوح من المغاور و الكهوف إلى المواقع المكشوفة في أرجاء الشرق الأدنى القديم كلها. و حدث ذلك بالتدريج، إذ بدأوا بناء منازل بسيطة، يسهل بناؤها كما يسهل هدمها، على المصاطب القريبة من الكهوف، و كانت على العموم مستديرة الشكل، أسفلها محفور في الأرض على عمق نصف متر تقريبا، و جدرانها و سقفها، من جذوع الأشجار المغطاة بالأغصان و الجلود.

لقد تمّ الكشف عن قرى نطوفية كثيرة، و في مواقع متعددة، تحمل سمات عامة مشتركة، من ناحية شكل البناء، أو التعبيرات الفنية، أو طقوس الدفن، أو تقنيات صناعة الأدوات الميكروليثية الهلالية، أو الأدوات الزراعية البازلتية. و تتركز هذه المواقع بشكل كثيف في فلسطين في السهل الساحلي الأوسط، و في جبال القدس و سفوحها الغربية. و في غور الأردن موقعان متباعداً، غاية في الأهمية: الأول في أريحا، و الثاني إلى الجنوب الغربي من بحيرة الحولة، في جوار عين الملاحه، الذي يعدّ الموقع النموذج لهذه الحضارة بعد التنقيبات التي أجريت فيه.

و موقع عين الملاحه القريب من نبع غزير يحمل الاسم نفسه، هو قرية نطوفية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧

تبلغ مساحتها ٢٠٠٠ م (٢)، اكتشفت في الخمسينات من هذا القرن، ونقب منها جزء صغير، كشف عن ثلاث سويات أثرية من هذا العصر. ويتضح أن سكان القرية أتقنوا بناء البيوت المستديرة، بقطر يراوح بين ٥-٨ أمتار، أسسها بضعه مداميك من الحجارة مغروسة في الأرض و جدرها من الطين، و سقوفها من الخشب، و أرضيتها مرصوفة بالحجارة، و في وسطها موقد، و بداخلها مخازن للحبوب ذات جدر من الطين القاسى جدًا.

و في الجزء الذي جرى تنقيبه من عين الملاحه عشر على أكثر من ٥٠٠، ٥٠ قطعة أثرية، تعطى بمجموعها صورة شامله لحياة مجتمع بلغ حدًا متقدمًا من الحضارة المادية و الروحية، و يقدر تعداد أفراده ب ٣٠٠ شخص. و أغلبه هذه اللقى هي من النصال المتنوعه الدقيقة الصنع، و أدوات أخرى ميكروليتية مركبة، هندسية الأشكال، ركبت في أنصبه لتكون مناجل للحصاد و غيرها. كما تضم أدوات عظيمة و مخارز و إبر و صنابير لصيد السمك و أنصبه عظيمة زينت بإشارات و رموز و صور لرؤوس غزلان و غيرها من الحيوانات. و يسترعى الانتباه وجود قطع فنيه منها لوحتان حجريتان تحملان نحتًا لملاحح إنسان مختزله، و عدد كبير من أدوات الزينه و الخرز و الأصداف، و جدد مدفونه مع الهياكل العظمية، في معظم الأحيان تحت مصطبه البيت، إضافة إلى التعبيرات الفنيه في أدوات العمل، و خصوصًا الأنصبه العظمية التي ركبت عليها الشفرات الميكروليتية الرقيقه، ذات الأشكال الهندسيه المتعدده- كالمثلث و المربع و المنحرف و الهلال ...

إلخ. و الواضح أن هذه الرقائق كان يصعب استعمالها من دون مقبض، فكانت تشد إلى النصاب بواسطة ألياف الأشجار، أو خيوط من الجلد أو خيوط من أطناج الحيوانات.

و من المواقع النطوفية الأكثر أهمية في فلسطين، حيث اكتشف العدد الأكبر منها بالنسبة إلى غيرها، أريحا و مغارة الواد (وادي فلاح). ففي الطبقة السفلى من تل السلطان (أريحا القديمة)، و جدد آثار تنتمي إلى الحضارة النطوفية- مناجل و صنابير عظيمة- كما عثر على بقايا معبد من هذا العصر، يعود بناؤه إلى الألف الثامن قبل الميلاد. أما عند مدخل مغارة الواد، القريبه من السهل الساحلي في جبال الكرمل، فقد اكتشفت قرية مكوّنه من منازل مستديرة، بنيت من الحجارة و الطين و الدعائم الخشبية، و فيها أدوات حجريه تعود إلى هذه الفترة.

و عند مدخل مغارة الواد اكتشفت حفر على سطح صخرى منبسطة يحيط به جدار حجري، و استخلص الباحثون أن هذا البناء الكبير نسبيًا استعمل كمعبد في العصر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨

النطوفى، فقد وجد في جواره ١٤ قبرا من هذا العصر. كما وجد مقبض منجل عظمى، عليه صورة رأس غزال، عثر على مثل له في مغارة كباره القريبه. أما في مغارة الواد فعثر على لوحه حجريه نحت عليها رأس إنسان مبسط، فضلا عن أدوات زينه و خرز و أطواق و أعلق و حلق مصنوع من الصدف و غيرها.

و لم تتوفر حتى الآن من الشرق الأدنى أية آثار تشير إلى تعبيرات فنيه عن قيم دينية قبل العصر النطوفى. غير إنه منذ بدايه الحضارة النطوفية، في الألف العاشر قبل الميلاد بدأت تتجلى عبر المكتشفات الأثرية ملامح فنون النطوفيين، المعبره عن معتقداتهم و ما ينتج في صدورهم من اهتمامات، أو ما يتفاعل في نفوسهم من مسائل الحياة، أصلها و مآلها، و من أمور البيئه المحيطه، و ما توفره أو تحجبه، و ما يريح الصانع أو يزعجه. و من الرسوم و المنحوتات و الدمى التي وصلت إلينا، يبرز الفن النطوفى تصويرا و تشخيصا مبسطا، تناول الحيوان بصورة عامه، و الغزال بصورة خاصه، و نادرا ما جسّد البشر.

و يتضح أن النطوفيين أولوا موتاهم عناية خاصه، و لا يكاد يخلو موقع جرى التنقيب فيه من مدافن للموتى، جماعية أو فرديه، و هي حفر ضحلة متقاربة، توضع الجثث فيها ممتيه و أطرافها مربوطه بألياف الأشجار. و كانت لهم طقوس في الدفن أظهرت رفضهم فكرة أن الموت هو نهاية الحياة، فزودوا الميت بحاجاته المفترضة و دفنوها معه، من طعام و سلاح و أدوات زينه. و كانوا يخضبون هذه

الجث، كأنما يعدونها لحياة أخرى. و تجدر الإشارة إلى أنه تم العثور في موقع عين الملاحه على كلب دفن مع صاحبه في قبر واحد. وقد يكون قد تم تدجينه في ذلك الحين.

و كشفت التنقيبات الحديثة انتشار الحضارة النطوفية، و إن ببعض التمايزات المحلية، من بحر قزوين (مغارة بلط)، إلى تونس (قفصة)، مرورا بمصر (حلوان).

أما في الهلال الخصيب فقد اكتشفت تلك الحضارة في موقعي زارزي و شانيدار في شمال العراق، و في عدد كبير من المواقع في سورية: يبرود و الكوم (البادية السورية) و الحمر (قرب دير الزور) و الطيبة (قرب درعا) و جيرود (قرب دمشق) و في الموقعين المهمين: المريبط و أبو هريرة، في حوض الفرات. و وجدت أيضا في مغارة جعيتا و غيرها في لبنان، و مواقع البيضا و العسافات و عين راحوب في الأردن، فضلا عن عشرات المواقع في فلسطين.

و على الرغم من التساؤلات التي يطرحها بعض الباحثين بشأن وجود حضارات متميزة اجتماعيا و اقتصاديا و تقنيا، و بالتالي من التحفظ على تعميم الوحدة الحضارية في هذا العصر على الشرق الأدنى، فإن منظورا شموليا يؤكد وجود حضارة موحدة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩

إلى درجة كبيرة، أطلق عليها الاسم الصّدي- النطوفية، امتدت من النيل إلى الفرات. و تظهر تلك الحضارة فوارق محلية، بنسب متفاوتة، أو تفاوتات في مستويات التقدم و الرقي، و هو طبيعة الأشياء نتيجة حياة الاستقرار، التي لا بدّ من أن تنطوي على درجة من الخصوصية، من دون أن يغيّر ذلك كثيرا في الأساس، إذ تلتقى الجماعات البشرية في السمات العامة لنمط حياتها و حضارتها المادية في هذه المنطقة، خلال هذا العصر.

ثالثا: العصر الحجري الحديث (النيوليت)

يمثل هذا العصر المرحلة الأخيرة من عصور ما قبل التاريخ الحجري، أي ما قبل الكتابة، و لهذا انطوى على مبهدات الانتقال إلى العصور التاريخية، بكل ما يعنيه ذلك من أهمية لحضارة الإنسان على الأرض. و يعتبره البعض أهم العصور على الإطلاق، قبل التاريخ و بعده. و ليس ذلك إلا لأنه شهد ثورة اقتصادية و اجتماعية كبيرة، تصعب المبالغة في تقدير أهميتها، فهي - إن جاز التعبير - ثورة الإنسان على الطبيعة، و تحقيق انتصارات مهمة عليها، في حين أن معظم الثورات اللاحقة كانت - إلى حد كبير - ثورة الإنسان على الإنسان لتحقيق هيمنته الجزء على الكل.

لقد ارتفع في هذا العصر القصير نسبيا، مستوى التقدم الإنساني الحضاري و المادي و الروحي إلى ذرى جديدة. فالإنجازات التي حققها إنسان هذا العصر، مستندا طبعا إلى تراث أسلافه، و فرت له المزيد من السيطرة على بيئته. و تحت وطأة مستلزمات المعيشة المتزايدة بآطراد، و ذلك نتيجة نزوب الموارد بالتدريج، من جهة، و تزايد العدد السكاني، مع التطلع إلى توفير أوضاع أفضل لنمط حياة الناس، من جهة أخرى، انطلقت، بفعل النشاط الذهني للإنسان، سلسلة من التطورات، اتخذت شكل طفرات، هي التي اصطلح على تسميتها ثورة النيوليت. و هذه الثورة هي التي وضعت الأساس المادي و الفكري المباشر للانعطاف الجذري و الأهم في تاريخ البشرية، و الذي يتلخص بالانتقال من الاعتماد الطفيلي على الطبيعة، إلى الإنتاج المستغل لخيراتها، عبر الجهد و العمل.

و الإنجازات الحضارية التي حققها إنسان النيوليت، و خصوصا في الشرق الأدنى، جعلته أقلّ عرضة للهلاك بسبب تقلبات المناخ، أو شحّ موارد الغذاء. و يعود ذلك - أساسا - إلى ابتكار الزراعة بفرعيها النباتي و الحيواني، فقد قامت هذه الزراعة - عدا الأحوال المناخية و الجهود البشرية - على العناصر الستة: القمح و الشعير و الماعز

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠

و الغنم و الخنازير و البقر. و بصورة ما، اهتدى هذا الإنسان إلى زراعة القمح و الشعير، بعد أن كان يجمعهما من البرّ خلال سنوات

طويلة، إذ إن موطنهما الأصلي هو الهلال الخصيب. أما تدجين الحيوانات و تربيتها فقد تطورا عن عملية الصيد، لأن الأجناس التي تم تدجينها أولا هي ذات استعداد فطري لذلك. و الأكيد أنها عاشت على شكل قطعان في المناطق التي أنتجت القمح و الشعير البريين. و انتقال إنسان النيوليت من نمط الاقتصاد الاستهلاكي، القائم على صيد الحيوانات و التقاط الحبوب و الثمار البرية، إلى النمط الإنتاجي عبر زراعة بعض أصناف تلك الحبوب، و تدجين أنواع معينة من الحيوانات، من دون أن يهجر الصيد تماما، شكّل منعطفًا حادًا في حياته. فقد جعله، أولا، و قبل كل شيء، سيد لقمة عيشه، و بالتالي قادرا على زيادة الإنتاج، و ربما توفير بعض الفائض، الذي قد يتم تبادلها، أي الاتجار به. و لكن الأهم، أنه بهذا الإنتاج، و دورته الموسمية، كان لا بدّ من أن يصبح أكثر استقرارا، و ربما تكاثرا، الأمر الذي يستلزم أن تصبح التجمعات السكانية أكثر تنظيما، مع ما يتطلب ذلك من تطوير المؤسسات لإدارة الحياة الجماعية، ماديا و روحيا.

فتدجين أنواع معينة من النبات و الحيوان، و بالتالي ابتكار الزراعة، كان خطوة عملاقة حققها الإنسان على طريق حضارته الكونية. و قد تسارعت و تيرات تطورها، منذ البدايه، و ربما بفعل عدة عوامل، بصورة مذهلة، و حدثت فيها تحولات دراماتيكية، أسست لظهور الدول و الحضارات التاريخية، بغناها و تعقيدها.

و نجمت عن هذه التطورات تحولات ثورية في عادات الإنسان الحياتية، فتوقف عن التجوال لأسباب ذاتية و موضوعية، و استقر بصورة دائمة راهنا بذلك مصيره بفعله في بيئته، و تفاعله مع محيطه. و نتيجة هذا الاستقرار تحولت قرى الصيادين السابقة إلى قرى مزارعين، و إن في مواقع مختلفة نسبيًا، و كان هذا التغيير جذريا إلى درجة أنه سمي ثورة.

لقد فرض الاستقرار و التفرغ لإنتاج مقومات المعيشة، على إنسان النيوليت أعمال ذهنه في إيجاد الحلول للمشكلات الناجمة عن هذا التحول في نمط الحياة، إذ كان عليه أن يوفر مستلزماته و أدواته، و أن يصوغ قيمه و علاقاته. فبنى البيوت الملائمة، و صنع الأدوات الموافقة لعملية الإنتاج الجديدة، كالمحاريث و المناجل و الجواريش و تشكيلة واسعة من الأواني المنزلية، و خصوصا بعد الاهتداء إلى صناعة الفخار، و كذلك اللباس، عبر الغزل و النسيج، و أدوات الزينة على أنواعها. و هذا ما كشفت عنه التنقيبات في المواقع الأثرية من مخلفات حضارة إنسان النيوليت

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١

المادية. أما بالنسبة إلى العلاقات الاجتماعية، و كذلك التعبيرات الفكرية و الروحية، فالمقولات المتداوله هي على العموم فرضيات ينقصها الدليل المادي المقنع.

إن ارتقاء إنسان النيوليت بنمط حياته، المادي و الاجتماعي، إلى مستوى الحالة الجديدة من الاستقرار، و ما ينجم عنها من مسكن و مآكل و ملابس، و صنع أدوات العمل الملائمة لنمط إنتاجه الجديد، و ابتكار المهارات و التقنيات التي ساعدته على تخطي العقبات إزاء التحديات الجديدة، جعله موضع اهتمام الباحثين في حقل ما قبل التاريخ. و مرّة أخرى، تضاربت آراؤهم في تقويم هذا العصر، و مراحل التحولات فيه، و الأهم، في تشخيص الأسباب التي أدت إليه. و إذا كان الإلمام بأحداث هذه الفترة القديمة من التعقيد بمكان، فإن تشخيص الأسباب الكامنة وراءها أكثر صعوبة و امتناعا.

إن أيًا من العوامل التي تعتمد لتشخيص أسباب النقلة الحضارية الواسعة لعصر النيوليت، لا يكفي وحده لتفسير الظاهرة، مكانا و زمانا. كما إن عامل المصادفة لا يمكن، بل لا يجوز أصلا، أن يعطى الأولوية بهذا الصدد. و كذلك الأمر بالنسبة إلى عاملى المناخ و البيئة، بمعزل عن العامل البشرى. فتضافر هذه العوامل مجتمعة، مع إيلاء الإنسان الأولوية، كعامل فعال في تطوير الحضارة، يمكنه - وحده - تقديم تفسير شامل، و بخطوط عريضة تستوعب الخاص في إطار العام، و ليس العكس، كما يفعل بعض الباحثين، و أحيانا لأسباب ليست علمية مجردة، أو منزهة.

و جميع الدلائل المتوفرة حاليا تشير إلى أن الهلال الخصيب، و فلسطين تحديدا، كان مهد الزراعة الأولى. و نشوء الزراعة في هذا

الجزء من العالم، لم يحدث بمعزل عن الأوضاع البيئية و المناخية التي سادت في حينه، و خصوصا بعد انحسار الجليد في الشمال، و بداية العصر الدافئ و المطر في المنطقة أولا، و من ثم الحار و الجاف نسبيا. فقد أدى ذلك إلى حصر توافر الماء في الأودية التي تجرّه من المناطق الجبلية البعيدة، و بالتالي، إلى اقتصار القرى الزراعية على الاعتماد على تلك الأودية، أو على العيش بالقرب من العيون و الينابيع. و شجعت الأوضاع التوجه نحو زراعة بعض أنواع الحبوب الموجودة في المنطقة، و التي كانت معروفة سابقا. و كذلك الحال بالنسبة إلى تدجين بعض أنواع الحيوانات اللبونة و الوديعه.

أما الشرق الأدنى القديم، و الذي يشكل وحدة جغرافية متكاملة، كانت مهد الحضارة التاريخية الأولى في المجرى الأسفل لبلاد الرافدين لاحقا، فقد تضافرت في مرتفعاته و أوديته و مروجه الأوضاع الملائمة في عصر النيوليت للانتقال إلى الزراعة. فالمناخ و البيئة و الثروتان: النباتية و الحيوانية، و فرت للمنطقة في المرحلة المذكورة،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢

الأوضاع الملائمة لإنسان النيوليت لحل المشكلات الحياتية التي و اكبنت انتقاله من الترحال إلى الاستقرار؛ و الأكيد أنه أفاد من الإنجازات الحضارية المادية التي ورثها عن أسلافه، و تحديدا النطوفيين، الذين هجروا المغاور، و أقاموا القرى في العراء، حيث تبلورت، إلى جانب الصيد، بدايات عملية الزراعة و تدجين الحيوانات.

و يرى الكثيرون من الباحثين أن هذا الانعطاف الزراعي كان وليد الحاجة، و جاء حلا لأزمة اقتصادية، نجمت عن تحوّل المناخ نحو المزيد من الجفاف، جعل إنسان النيوليت يواجه هذه الأزمة بالبحث عن حلّ لها، بدلا من الاستسلام لها بالرحيل.

و قد نجح في توجهه هذا بفضل تضافر عوامل بيئية، من جهة، و مستوى حضارى مادى و درجة من الوعي و التنظيم الاجتماعيين، من جهة أخرى. و الأكيد أن تزامن هذه التحوّلات المناخية مع ابتكارات حضارية مهمة، لا يمكن أن يكون مصادفة، و لا بدّ من وجود علاقة جدلية بينهما. فمن دون التناغم البيئي مع المستوى الحضارى، و بالتالي قدرة الإنسان الفكرية على صوغ علاقة جدلية تقدمية بينهما، لما حدثت هذه الثورة النيوليتية؛ و هى بالتأكيد لم تحدث بصورة انقلابية حادة.

فضلا عن التفاعل بين إنسان النيوليت و بيئته، لا بدّ من إيلاء أهمية خاصة إلى التفاعل بين الجماعات البشرية التي استقرت، أى العلاقات الخارجية، و إلى التناغم الاجتماعى داخل تلك الجماعات، أى العلاقات الداخلية. فالجماعات المستقرة حددت بالضرورة مجالا حيويا لها، و بالتالي صاغت نمطا من العلاقات مع الجوار، سلما أو حربا. و فى الوقت نفسه، راحت مع الاستقرار تصوغ علاقات داخلية، أخذت بالضرورة منحى جديدا من التعاون و التنظيم و تحديد الحدود بين العام و الخاص و الاحتراف و التخصص ... إلخ. فالاستقرار، و لضرورات ذاتية، و قيود خارجية تفرضها كثافة انتشار القرى و تخومها الحيوية، فرض على هذا الإنسان أن يبحث عن حلول للمشكلات التي تواجهه نتيجة التقلبات المناخية فى الرقعة التي يسيطر عليها، و ليس بالردّ العفوى كما كان يفعل فى السابق، أى بالرحيل إلى مواقع أخرى، سعيا لمصادر الغذاء. و بهذا يكون الاستقرار وضع قيودا داخلية و خارجية على حياة التنقل، و أسس لتشكيل المجتمعات الحضارية.

و عندما فقد هذا الإنسان حرية التجوال بحسب فصول السنة، بين المنخفضات و المرتفعات، و أصبح مرتبطا بالجماعة التي يعيش بين ظهرانيها، و بالرقعة التي راح يراكم فيها ثروته المادية، و يقيم فيها بيته، و ينمى قطيعه، و يزرع قطعة أرضه، فإنه دخل مرحلة جديدة فى حياته. و قد واجه إنسان النيوليت المشكلات الاجتماعية للحياة الجماعية فى القرية الزراعية، فكان لا بدّ من تشكيل سلطة، من فرد أو أكثر،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣

تضبط العلاقة بين أفراد الجماعة، و كذلك العلاقة بين الأفراد و رقعة الأرض التي يسيطرون عليها، و أيضا العلاقة بالجماعات المجاورة، أى حكومة بدائية. و الأكيد أنه مع توفر الفائض من الإنتاج المادى، فتح الباب على التجارة، أكان ذلك داخل الجماعة أم

بين الجماعات المتجاورة، القريبة منه أولاً، ثم البعيدة، والتي اتخذت بالضرورة صيغة التبادل البضاعي.

ومن مجمل ما يتوفر لدينا من معلومات عن هذا العصر يتضح أنه كان إبداعياً في نواح عدة. فحياة الاستقرار والزراعة أصبحت أكثر رقيًا، وتطلبت أنواعاً جديدة من الأدوات المصنوعة بتقنيات أعلى؛ كما أن حياة الجماعة استلزمت المزيد من التخصص والتنظيم، سواء على مستوى الفرد أو المجموع. أمّا فائض الإنتاج فقد حفز التجارة، وبالتالي التواصل بين الجماعات، وما ينجم عنه من تبادل الخبرات وانتشار المبتكرات. كل ذلك تواكب بالضرورة مع صوغ المؤسسات وتطويرها لتلبى حاجات الجماعة الداخلية والخارجية. ومع المؤسسات جاءت مجموعة القيم - الأيديولوجيا - والمعتقدات بشأن الكون المحيط والديانة والحقوق والواجبات، وبالتالي القانون والحكومة والدولة.

و إذ شكّل مجتمع النيوليت نقلة نوعية في حياة الإنسان، لكنه حتماً لم يكن نهاية المطاف، إنما على العكس، كان أقرب إلى خط البداية في تشكّل الحضارات القديمة. وكما في كل البدايات، لم تكن العملية سهلة. فمط الحياة الجديد تطلب مزيداً من النشاط والعمل، كما استلزم درجة أعلى من التخطيط والبرمجة، وبالتالي المعرفة. فالخروج إلى الصيد في الموسم شيء، والعناية بالقطيع المدجن: من رعى وسقى ومراقبه وحراسه وعنايه... إلخ، شيء آخر. كما إن التوجه إلى مواقع نمو النباتات البرية في الموسم لحصادها وجمع محاصيلها، هو غير زرع بذورها وتولى العناية بها حتى تؤتي ثمارها. وبالنتيجة، سواء كان ذلك عن وعى مسبق، أو من خلال الاستيعاب بالتجربة والخطأ أو بالتخطيط أو بالمصادفة، فقد فرضت الحياة الجديدة الكثير من البرمجة لضبط إيقاعها، الأمر الذي استوجب تراكم معرفياً متزايداً.

ومع ارتقاء المجتمعات تنوعت النشاطات، فكان لا بدّ من تقسيم العمل: زراعة وصناعة وتجارة، حتى وإن لم ترسم بينها حدود بيّنة. ومع التخصص ارتفع مستوى التقنيات، ومع تنوع النشاطات في إطار وحدة الجماعة، كان لا بدّ من تنظيم العلاقات بين الأفراد والجماعات، ومن وضع الأسس للأعراف والقوانين، وبالتالي صوغ الأيديولوجيا والمعتقدات. كل ذلك استوجب من إنسان النيوليت استغلال طاقاته الذهنية ليكون بقدرته الاستجابة للتحديات، الأمر الذي تمخض عن تراكم معرفي.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤

و كان كلما ازداد هذا التراكم، طرح أسئلة جديدة، وكلما اتسع، ضاق إطار الأشخاص الملمّين به، وصولاً إلى نشوء فئة من العقلاء، تحولت مع الزمن إلى طبقة الكهنة أو العرافين.

ومهما كانت سعادة إنسان النيوليت مرتبطة بحقله وقطيعه، إلّا إن دورة فصول السنة احتلت أهمية أكبر في همومه الفكرية، وحفرت لديه الإرادة على معرفة أسرار هذا التناوب الفصلي. ولهذا كان طبيعياً، و عبر الملاحظة، أن يربط بين هذا التناوب وتقلبات الطقس، وبين مواسم الزراعة والحصاد، وولادة الحيوانات في القطيع، والمطر والرياح والحر والبرد، وأثر ذلك كله في وفرة المحصول أو شحّه. وصاغ هذا الإنسان جملة من المعتقدات حول هذه الظواهر، شكّلت ديانته، فعمد إلى بعض الطقوس التي اعتبرها سبيلاً إلى المصالحة مع هذه القوى المدمرة في سورة غضبها، فصارت بمثابة عبادات يؤديها في مناسبات معينة، ويرى فيها استرضاء لهذه القوى الخفية، التي تستطيع أن تجلب له النعمة، أو تصب عليه النعمة.

لكن اهتمام المزارع الأول بأمور الطبيعة كالشمس والقمر والرياح والمطر ...

إلخ، لم يصرفه عن النظر إلى ذاته، والبحث عن أصلها ومآلها، وبالتالي موقع الأم في عملية الحياة، وصولاً إلى بروز الإلهة الأم، أو الأم الكاهنة. وهكذا أصبح الخصب هو العنصر الأهم بالنسبة إلى ذاته وإلى قاعدة إنتاجه. لذا قامت إلى جانب العبادات الموجهة لقوى الطبيعة، طقوس الخصب وتقديس الأرواح، وعبادة الأموات والأسلاف. وبمواكبة تطور الحضارة المادية، تبلورت قيم روحية، أخلاقية وفكرية، عبرت عنها الأسطورة، وكرست طقوسها العبادات، وأحاطت بها جميعاً هالة من القدسية.

ومهما تكن دوافع اعتراض بعض الباحثين على الأمر، علمية أو مغرضة، فإن الفكرة السائدة حتى الآن، وإلى أن يثبت عكسها، هي أن

الزراعة الأولى نشأت في بلاد الشام القديمة، و في سورية و فلسطين على وجه التحديد، و منهما انتقلت إلى بقية المناطق في العالم. و يبقى، حتى بين الذين يقرون هذه الحقيقة، تباين حول الأسباب الكامنة وراء هذه النقلة النوعية، التي يعتبرها البعض، بعد ابتكار النار، و قبل الثورة الصناعية الحديثة، أهم خطوة حضارية حققها الإنسان. و قد واكبت هذه النقلة تحولات كبيرة في الأوضاع الاجتماعية لإنسان النيوليت، طالت المسكن و المأكل و الملابس و أدوات العمل و أغراض الزينة و الأواني المنزلية و الديانة و التعبيرات الفنية، و مجمل العلاقات المجتمعية- الداخلية و الخارجية.

و في بلاد الشام مواقع كثيرة من عصر النيوليت، موزعة في مناطق متعددة-

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥

ساحلية و جبلية و صحراوية و نهريه و غيرها. لكن الموقع الذي أولى الأهمية المطلقة لفرادته هو أريحا، في جوار البحر الميت. ففي تل السلطان، موقع أريحا القديمة، القريب من عين السلطان، توجد آثار المدينة الوحيدة المعروفة حتى الآن في العالم، و التي يعود تاريخها إلى ما قبل ٩٠٠٠ عام. و هذه المدينة المسورة، سبقت ب ٤٠٠٠ عام أي استيطان مديني معروف حتى الآن. و لذلك فهي تشكل أحجية أثرية، تثير الكثير من التساؤلات التي لم يتفق الباحثون على الإجابة عنها، أو على تقديم تفسير متماسك و منطقي لازدهار مدينة كهذه في ذلك الزمان و المكان.

فأريحا، التي ينخفض موقعها (تل السلطان) نحو ٢٧٥ م تحت سطح البحر، و حيث معدل هطول الأمطار لا يزيد عن ١٠٠ ملم سنويا، و التي تدين بقيامها و بقائها للنبع المجاور، عين السلطان، هي ظاهرة فريدة، ليس في الشرق القديم فحسب، بل في العالم أيضا. فقد عاصرتها مستوطنات و قرى زراعية كثيرة في جميع أنحاء الهلال الخصيب و مصر، إلا إنه لم تكتشف حتى الآن في هذه المنطقة، آثار مدن محصنة قبل الجزء الأخير من الألف الرابع قبل الميلاد، في حين يعيد الباحثون أسوار أريحا إلى الألف السابع قبل الميلاد. و هي بذلك، و لكبر حجمها و عدد سكانها الذي يقدره البعض ب ٣٠٠٠ نسمة، تطرح الكثير من الأسئلة بشأن نشوئها و ازدهارها و مصادر ثروتها، و نظامها الاقتصادي- الاجتماعي.

و لأسباب موضوعية، أي فرادة الظاهرة، كما لأخرى ذاتية، أي أعمال التنقيب الواسعة و المنهجية التي أجريت فيها، فإن أريحا تعدّ الموقع النموذج الأرقى لهذا العصر و الذي يمكن من خلال المعلومات التي يوفرها تتبع مراحل الانتقال من النطوفية (الميزوليت)- القرية المفتوحة- إلى المدينة المسورة (النيوليت) حتى العصور اللاحقة و بصورة متواصلة و متكاملة. فقد ساهمت أوضاع أريحا البيئية الخاصة، بتطورها إلى مدينة بوقت مبكر جدا، بينما ظلت المستوطنات في مواقع أخرى، صغيرة، كما هو الحال في موقع وادي فلاح، حيث تحتل قرية صغيرة مصطبة محدودة عند مدخل المغارة. و يعزو بعض الباحثين ازدهار أريحا إلى اشتغال أهلها بالتجارة، و خصوصا بمستخرجات البحر الميت: الملح و القار و الكبريت.

و يتميز موقع أريحا بآثاره العمرانية، إذ كشف عن منازل مؤلفة من غرفتين و أكثر، مبنية من اللبن المسطح المحدّب و جدرانها مائلة إلى الداخل، و هو ما يشير إلى أن سقفها كانت مقببة. لكن أهم ما يثير الانتباه في الموقع في هذا العصر المبكر هو الأبنية الحجرية الواسعة، و السور الذي يقوم عليه برج عال. و تشير الدلائل إلى أن هذه التحصينات الضخمة بمقاييس العصر، صمّمت منذ البداية لأغراض دفاعية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٦

و يحيط بالسور خندق محفور في الصخر، عرضه ٢،٣ م، و عمقه ٧٥،٢ م، و يليه جدار من الحجر سماكته ٣ م، بقيت منه أجزاء على ارتفاع ٥ أمتار. و في السور برج حجري دائري الشكل، قطره عند القاعدة ١٢ م، و عند القمة ٩ م، و ارتفاعه ١٥،٩ م. و داخل البرج درج يؤدي إلى أعلاه، فيه ٢٢ درجة، و طول السور ٧٠٠ م و يحيط بمستوطنة مساحتها تزيد عن ٤٠ دونما.

فضلا عن تلك التحصينات، كشف عن مبان مركزية، منها معبد و خزّان ماء، بقيت جميعا بمثابة أحجية، إذ سبقت الأهرامات نحو

٤٠٠٠ عام. و عدا ما يفترضه ذلك من معرفة لفن البناء، و من مستوى عال من التقنيات، فإنه يشير الدهشة لما يتطلبه من طاقة بشرية، و ما يستلزمه من وجود سلطة مركزية، قادرة على حشد هذا الجهد و توفير حاجاته. و لذلك اعتبرت أريحا أقدم مدينة في التاريخ. و على الرغم من كل التنقيبات في المنطقة لم يعثر على مثل لها حتى الآن، و ظلت أريحا ظاهرة فريدة، تجاوزت عصرها من ناحية ضخامة أبنيتها، و عدد سكانها، و لم تتكرر إلّا بعد مرور آلاف السنوات. و لا شك في أن بناء مثل هذه المدينة استوجب وجود مجتمع متطور بعلاقاته و مؤسساته.

و قد عاصر السويّيات الأولى من أريحا موقع وادي فلاح، على الساحل بالقرب من حيفا. و جريا على عادة المنقبين، أطلق على مكتشفات هذا الموقع الحضارة الساحلية. و يقول البعض إن الحضارة الساحلية، أسوة بقرييناتها من النيوليت:

الخيامية، نسبة إلى موقع الخيام غرب البحر الميت، و الريحانية، نسبة إلى أريحا، و الطاحونية، نسبة إلى وادي الطاحون في جبال القدس، هي مرحلة، أو مراحل، متطورة عن النطوفية، و متكيفة أكثر وفق الأحوال المناخية الجديدة. و هناك من يرى أن النطوفية، التي كانت واسعة الانتشار، قد أخلت مكانها لثلاثة أنماط من الاستيطان المنتقل إلى الزراعة: ساحلي، في وادي فلاح؛ جبلي، في وادي الطاحون؛ و غوري، في أريحا. و قد أدت العوامل المحلية دورا في تمايزها بعد نشوئها.

أمّا موقع المريبط، على نهر الفرات في سورية، فينتهي إلى هذا العصر، و إليه ينسب بعض الباحثين الزراعة الأولى في العالم، و التي يعود تاريخها بحسب الكربون المشع، إلى سنة ٧٧٠٠ ق. م. و إلى الشمال منه، اكتشفت آثار الزراعة المعاصرة له في تل الشيخ حسن. و كذلك في تل أسود في محيط دمشق، الذي يمثل الموقع الأقدم للاستقرار في سورية الجنوبية. و يشير واقع البحث العلمي الحالي إلى أن المواقع السورية كانت السبّاق إلى صناعة الفخار، فقد وجدت بداياتها، لكن على

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧

نطاق ضيق، في موقع تل أسود. غير أن التعبير الأكثر دلالة على مستوى تطور هذه الصناعة المهمة، و التي أصبحت الأساس لتمييز الحضارات اللاحقة، جاء من منطقة العمق، شمال سورية، و منها انتشر في أرجاء الشرق القديم.

و يبدو أن صناعة الفخار وصلت متأخرة إلى فلسطين، و ربما من سورية، إذ تشير الدلائل المتوفرة إلى استخدامه في فترة مبكرة أكثر. و بناء على ذلك، تعتبر سورية موطن الفخار الأول. و تقدم منطقة العمق صورة عن تنامي المراحل في تطور هذه الصناعة و انتشارها، منذ بداية الألف السادس قبل الميلاد. و بينما تكشف هذه الصورة عن استمرارية حضارية في سورية، فإنها تظهر فجوة في فلسطين تم تخطيها لاحقا.

و يستخلص الباحثون من ذلك قيام هجرات من سورية إلى فلسطين في فترة ما بعد الفخار، أعطت دفعا لمستوطنات قديمة، مثل أريحا، و إقامة أخرى جديدة، مثل المنحتة، بالقرب من بيسان، و تل الأفحوانة، في دلتا اليرموك، التي أطلق عليها اسم الحضارة اليرموكية.

و تقابل حضارة العمق في سورية حضارة جبيل في لبنان، التي تحتل موقعا متميزا على الساحل، شمالي بيروت، من عصر النيوليت الفخاري في بلاد الشام.

و هاتان الحضارتان تعاصران مرحلة «حلف» الوسطى في العراق. و يظهر التأثير السوري على صناعة الفخار الأولى في فلسطين في عدد من المواقع، و خصوصا في منطقة الحولة: عين الملاحه و عينان و تل القاضى و غيرها، حيث وجدت الأواني الفخارية المشابهة لتلك التي اكتشفت في تل الرماد، في الجزء الجنوبي من سورية. أمّا في الأردن، فهناك الكثير من المواقع التي تعود إلى هذا العصر: البيضا (شمال البتراء) و عين غزال (بين عمان و الزرقاء) و غيرهما.

و مع انتهاء مرحلة النيوليت ما قبل الفخار، و التي عرفت باسم الحضارة الطاحونية، و الموقع النموذج لها هو أبو غوش، بالقرب من القدس، ظهرت في فلسطين ثلاث حضارات فخارية، هي: اليرموكية و الساحلية (و خصوصا في وادي رباح بالقرب من رأس العين) و

المنحثة (غور بيسان). وفي هذه المرحلة حدثت تغيرات متعددة، أكثرها وضوحا كان في مجال الأواني الفخارية من حيث الإتقان و الألوان و الزخارف، فضلا عن تنوع الأشكال. كما استبدلت البيوت المستديرة بأخرى مستطيلة، مؤلفة من غرفتين أو ثلاث. وبينما كانت الطاحونية تنحصر في الجنوب و الصحراء، دخلت كما يبدو شعوب أخرى من الشمال و الشرق، حملت معها إلى فلسطين صناعة الفخار.

و أهمية الحضارة اليرموكية، تل الأثحوانة، أنها تمثل المرحلة المبكرة لصناعة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨

الفخار في فلسطين و قد أطلق المنقب هذا الاسم عليها، لأنها تقع في دلتا اليرموك، عند مصبه في الأردن، حيث الموقع محصن بصورة طبيعية، و لذا استمر الاستيطان فيه لفترة طويلة، و الفخار الذي وجد فيه يقارب الفخار السوري. لكن أهم ما يميز الآثار اليرموكية هو التماثيل المصنوعة من الطين لرؤوس نساء، و دمي نسائية مبسطة و مختزلة، و كذلك دمي لأنواع معينة من الحيوانات التي أولوها اهتماما خاصا. و قد وجد في الموقع أكثر من مئة دمية، و تماثيل طينية و حجرية و رسوم فنية، تتعلق في أغليتها بالخصوبة البشرية. المخلفات الأثرية التي اصطلح على تسميتها الحضارة اليرموكية، عثر عليها في مناطق واسعة من بلاد الشام، تمتد من سهل العمق، في شمال سورية، إلى جبيل، في لبنان، فالساحل الفلسطيني، و غور الأردن، و كذلك في شرقي الأردن، في موقع عين غزال، بالقرب من الزرقاء، و في جنوبه أيضا. أما المرحلة التالية، و هي الأخيرة من النيوليت، فقد كشف عن مواقع كثيرة تعود إليها، و منها: مجدو (تل المتسلم، في مرج ابن عامر) و أريحا و بيسان و تل بلاطة و تل الفارعة (بالقرب من نابلس)، و غيرها.

رابعا: العصر الحجري – النحاسي (الكالوليت)

يمثل هذا العصر الانتقال من العصور الحجرية إلى المعدنية (البرونز)، و الذي حدث بالتدريج خلال الألف الرابع قبل الميلاد. و كما يدل اسمه، فإن تصنيع النحاس، و استعماله في أدوات عمل الإنسان و زينته، أصبحا رائجين، إلى جانب استمرار شيوع الأدوات الصوانية و الفخارية و العظمية. و يكتسب هذا العصر، على قصر فترته الزمنية نسبيا، أهمية خاصة، نظرا إلى الإنجازات الاقتصادية و الاجتماعية التي حققها إنسان النيوليت في مراحلها الأخيرة، قبل الانتقال إلى عصر المدن، و ذلك في فلسطين، كما في الشرق الأدنى القديم كله، إذ نشهد تسارع المسار الحضاري، ماديا و روحيا، و في مناطق واسعة من الهلال الخصيب و مصر.

فلازدهار الاقتصادى القائم على الزراعة و الرعي، مع شىء من التجارة، أعطى دفعا لتطور مفاهيم دينية و اجتماعية، جرى التعبير عنها بالعبادات، و خصوصا في طقوس دفن الموتى، و في بناء المؤسسات التي من خلالها جرى تنظيم الحياة في المجتمعات المستقرة، و إقامة المشاريع العامة، و وصولا إلى بناء المدن، أو تطور القرى الدائمة إلى مدن، في العصر اللاحق (البرونز). و تثير الأنصاب الحجرية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩

الضخمة بأنواعها المتعددة، الاهتمام بصورة خاصة، فهي إما أن تكون حجرا واحدا ضخما (ميجاليت) بالقرب من مقبرة، و إما أن تتألف من عدد منها، على شكل بناء، جدره حجارة تنتصب عموديا، و يغطيها حجر مسطح كبير، تعرف باسم دولمين. و قد انتشرت في شرقي الأردن أكثر من غريبه.

و تقع أغلبية المواقع المعروف أنها أقيمت في هذا العصر في جوار الأودية و الأنهار أو الينابيع و مصادر المياه الأخرى، الأمر الذي يشير إلى أنها اعتمدت أساسا على زراعة الرى، و قد بنيت في السهول الخصبة، أو في مناطق أخرى يسهل على السكان استغلالها و جلب المياه إليها. و في هذا العصر، كما في سابقه – النيوليت الأخير – كانت الحضارة المادية و الروحية في فلسطين موحدة على العموم، و منسجمة مع مواقع أخرى في المنطقة بعناصرها الأساسية. إلا إن خصوصية البيئه في كل موقع أعطته بعض الملامح الخاصة، الأمر الذي جعل تلك الحضارة متشابهة، و لكن ليس متجانسة أو متطابقة في تقاليدها و عاداتها، كما تبرز عبر آثارها.

و تتضح من الحفريات و المسوحات الأثرية زيادة عدد المستوطنات و تنامي حجمها و سكانها، على الرغم من استمرار اعتمادها أصلا على الزراعة. و الكثير من هذه المستوطنات استمر في البقاء، و تطور إلى ما بعد الكالكوليت، و تحوّل إلى مدن. و يبرز ذلك في شمال البلاد أكثر من جنوبها، و لعل ذلك بفعل تأثيرات سورية في هذا الجزء، إذ ساعدت في تحوّل المستوطنات فيه إلى مجتمعات حضرية مدنيّة، في حين أن الكثير منها في الجنوب هجر. و بينما يبرز في الشمال التفاعل مع سورية و لبنان، فإن الجنوب أقام علاقات تجارية و ثقافية مع سيناء و مصر.

و الموقع النموذج لحضارة الكالكوليت هو تليلات الغسول، إلى الشمال الشرقي من البحر الميت؛ و بناء على ذلك، سميت هذه الحضارة غسولية، و هي تعود إلى المراحل الأولى من هذا العصر، حيث أقيمت على عدد من التلال الصغيرة. و كشفت التنقيبات فيها عن بيوت مستطيلة الشكل، تضم أكثر من غرفة، جدرانها من الحجارة و اللبن، و سقوفها من القصب و الطين، و أرضيتها مرصوفة أو مقصورة. و أغلبية البيوت لها فناء مسوّر تمارس فيه الحياة اليومية، حيث وجدت المواقد و مطامير تخزين الحبوب و موقع جرة الماء و الجاروشة. و في داخل البيوت و خارجها وجد الكثير من الأدوات الصوانية، و الأواني الفخارية، و كذلك الأدوات النحاسية التي أعطت هذا العصر اسمه -الحجري- النحاسي (الكالكوليت).

و وجد على جدر بعض البيوت لوحات جدارية، مزخرفة بألوان متعددة، منقوش على بعضها أشكال هندسية، و على البعض الآخر صور تعبر موضوعاتها، كما يبدو،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠

عن أمور دينية، و إحدى الصور التي تصف عصفورا طويل الذنب، لها قيمة فنية كبيرة، في حين تمثل واحدة أخرى نجما، بينما تقدم الثالثة مشهدا دينيا لمعبود جالس، و أمامه أشخاص واقفون، يؤدون الطاعة و الولاء. كما وجدت في تليلات الغسول نواويس فخارية، دفن فيها الموتى داخل المنطقة السكنية، أو تحت مصاطب البيوت، و كانت كما يبدو، على صورة بيت سكني. و كشفت الحفريات الأخيرة عن غرفة كبيرة مستطيلة الشكل، يعتقد أنها كانت معبدا.

و في غور الأردن، و على جانبيه، مواقع كثيرة تضاهي تليلات الغسول حجما، و هي تعود في أغليتها إلى هذا العصر، و ما قبله- النيوليت الأخير- الذي مهد له.

و قد بنيت على العموم قريبا من مصادر المياه، كالسيول و الينابيع و الأودية، الممتدة بين بحيرة طبرية شمالا و البحر الميت جنوبا. أما في وادي عربة، فقد أقيمت المواقع بالقرب من مناجم النحاس، و اشتغل باستخراجه، كما هو الحال في خربتي أفدان و أفنان و غيرهما. و يتضح من ذلك أن أغلبية مستوطنات الشمال، المتأثرة بالحضارات السورية، اشتغلت بالزراعة، كما تشير إلى ذلك أيضا الأدوات الصوانية التي وجدت بأعداد كبيرة في هذه المواقع.

و يمثل تل الفارعة، بالقرب من نابلس، الموقع النموذج للاستيطان الكالكوليتي في سلسلة الجبال الوسطى، إذ كشفت التنقيبات عن استمرارية من عصر النيوليت، و حتى عصر البرونز- عصر بناء المدن. و كذلك الحال بالنسبة إلى مجدو (تل المتسلم) في مرج ابن عامر و بيسان و غيرهما. و ليس واضحا كيف انتهت حضارات الكالكوليت في شمال فلسطين، و لكن تظهر في نهاية الألف الرابع قبل الميلاد، و عشية عصر البرونز المبكر، تأثيرات شمالية، أدت في النهاية إلى قيام حضارات مادية جديدة. و إذ لم تمت الحضارة القديمة بين ليلة و ضحاها، فالأكيد أنها امتزجت بحضارات جديدة، و شكلت معها عصر البرونز المبكر- عصر بناء المدن.

أما في الجنوب فتحتل منطقة بئر السبع أهمية خاصة، نظرا إلى طبيعة المستوطنات و أساس اقتصادها، إذ إنها ليست في العادة قريّة من مصادر المياه، و بناء عليه، يعتقد الباحثون أن السكان زرعوا القمح و الشعير في موسم الشتاء، و اشتغلوا بالرعي في مناطق البادية، فضلا عن استخراج النحاس من وادي عربة، كما يبدو. و قد وجدت في مواقع بئر السبع: خربة البيطار و بئر الصفدى و تل أبو مطر، دلائل واضحة على تصنيع النحاس من أدوات و أفران. كما عثر في موقع بئر الصفدى على عدد كبير من الدمى و التماثيل المصنوعة من

العاج، و هي تعتبر من أقدم العاجيات المصنعة في الشرق الأدنى القديم، إضافة إلى الحلى النحاسية، و كلها معدة الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١
كما يبدو للتجارة مع الخارج.

و على طول الساحل الفلسطيني، اكتشفت مواقع من عصر الكالكوليت، اعتبرها البعض وحدة حضارية مستقلة، بينما هي في السمات الأساسية لا تتباين كثيرا عن حضارة الغسول، أو بئر السبع وغيرهما. لكن أصحابها مارسوا عادات دفن متباينة عن تلك المعروفة في الجبل و الغور. و قد وجدت توابيت من الصلصال المجفف، على صورة بيوت سكنية، استعملت للدفن في كهوف كبيرة محفورة في الصخر. و قد وجد مثل هذه المقابر في منطقة يافا، و بالقرب من الخضيرة، و كذلك في يازور. كما اكتشف بناء كبير، يبدو أنه استعمل كمعبد في خربة الشيخ ميصر، و هو يشبه المعبد الذي اكتشف في تليلات الغسول.
الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢

المراجع

باللغة العربية

- أور، فرنسيس. «حضارات العصر الحجري القديم». تعريب د. سلطان محيسن. دمشق، ١٩٨٩.
- شعث، شوقي (محرر). «دراسات في تاريخ و آثار فلسطين (وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية)». ٣ مجلدات. حلب، ١٩٨٧.
- كوفان، جاك. «ديانات العصر الحجري الحديث في بلاد الشام». ترجمة د. سلطان محيسن. دمشق، ١٩٨٨.
- محيسن، سلطان. «آثار الوطن العربي القديم (الآثار الشرقية)». دمشق، ١٩٨٨-١٩٨٩.
- «بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ (الصيدون الأوائل)». دمشق، ١٩٨٩.
- «عصور ما قبل التاريخ». دمشق، ١٩٩٠-١٩٩١.
- «الموسوعة الفلسطينية»، القسم العام. ٤ مجلدات. دمشق، ١٩٨٤.
- القسم الثاني (الدراسات الخاصة). ٦ مجلدات. بيروت، ١٩٩٠.

باللغات الأجنبية

- Anati, Emmanuel. Palestine Before The Hebrews. London, ٣٦٩١
 - Atlas of Israel. Jerusalem, ٠٧٩١
 - Burns, Edward McNall. Western Civilizations. ٨ th Edition. New York, ٣٧٩١
 - Dudley, Guilford A. A History of Eastern Civilizations. New York, ٣٧٩١
 - (Encyclopaedia Hebraica. Jerusalem) Hebrew
 - McNeill, William H. The Rise of the West. Chicago, ٣٦٩١
 - Redford, Donald B. Egypt, Canaan and Israel in Ancient Times. Princeton (N. J.), ٢٩٩١
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣

الفصل الثاني عصور التاريخ الأولى

مقدمة

إشارة

يعتبر ابتكار الكتابة عتبة العبور من عصور ما قبل التاريخ إلى العصور التاريخية الأولى. و يتفق العلماء حاليا على أن هذا الحدث المهم في مسيرة الحضارات البشرية الطويلة، وقع في بلاد ما بين النهرين (العراق)، في النصف الثاني من الألف الرابع قبل الميلاد، ثم انتقل بتواتر سريع إلى مناطق الشرق الأدنى القديم الأخرى. و بابتكار الكتابة، صار الناس يسجلون الأحداث المعاصرة، و عبر الوثائق المكتوبة، انتقلت المعرفة بهذه الأحداث من السلف إلى الخلف. و قد وصلت إلينا على صورة لوحات نقش عليها رموز، عمل العلماء على فكها. و بقي الأقدم منها أكثر غموضا، كما أنه الأكثر ندرة بطبيعته الحال.

لكن الكتابة ليست المركب الوحيد الذي آذن بدخول العصر الجديد، و إنما تواكب ذلك مع ظاهرتين أخريين ميزتا حضارة هذا العصر، على الأقل في جانبها المادي، و هما: بناء المدن الكبيرة، و انتشار استعمال المعادن- بدلا من الصوان- إلى جانب الفخار. و بناء عليه، يعتقد العلماء أنه كما يصح التقسيم إلى ما قبل التاريخ و ما بعده، على أساس ابتكار الكتابة، يصح كذلك التقسيم على أساس التمييز بين ظاهرة بناء المدن و ما سبقها. كما يمكن تقسيم التاريخ بحسب المواد الأولية التي استعملها الإنسان بصورة رئيسية في تشييد حضارته المادية- الصوان و الفخار و المعادن- و كل منها في حينه، و بحسب شيوع استعماله.

و إذا كانت الوثائق الأولى، على قلتها، لا تزال غير مفكوكة الرموز بالكامل، و بالتالي فهي لا توفر لنا المعلومات الكافية، فإن بقايا المدن الكبرى الأولى لا تزال مدفونة تحت طبقات سميكة من التراب و الحجارة، و معلوماتنا عنها قليلة نسبيا. و بناء عليه، فالباحثون في هذا العصر يعتمدون كثيرا على وثائق من فترات لاحقة، تطرقت، بصورة أو بأخرى، إلى أحداث سابقة، و لكنها خارج ذلك الزمان أو المكان، و تستوجب التمحيص في مقدار دقتها و صدقيتها. أمّا أعمال التنقيب فمستمرة، و هي كلما تقدمت قدمت المزيد من المعلومات، و حفريات إبلا تشكل دليلا على ذلك.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤

و يتفق العلماء على أن الكتابة ظهرت في مجتمعات المدن، و أن الحافز على ابتكارها كان تطور المعاملات الاقتصادية، في مجتمع مركب، يقوم على اقتصاد منوع، فيه درجة عالية من التخصص، و تؤدي التجارة دورا متعاظما فيه. و بعض النصوص الأولى التي وصلت إلينا لا تعدو كونها سجلات لأمر تتعلق بالحياة اليومية، مثل عدد رؤوس الحيوانات و أنواعها، التي أودعها المالك في يد الراعي للعناية بها، و ما شابه. و راحت هذه النصوص تتطور و يتسع استعمالها و انتشارها بالتواكب مع تطور العلاقات، الداخلية و الخارجية، لمجتمع المدن، و في المجالات جميعها- الاقتصادية و الحضارية و البشرية- و بحسب مقتضيات ذلك التطور كما و نوعا.

و يبقى النمو السكاني العنصر الأساسي في قيام المدن و تطور اقتصادها و تنوعه، ثم يليه التراكم الرأسمالي، كعنصر رئيسي ثان في حضارة المدن. و هذان العنصران يحفزان على تطوير الكتابة، كوسيلة فعلية لتسيير التعامل الاقتصادي و التفاهم الفكري، بمواكبة التوسع في العلاقات المجتمعية كافة، داخليا و خارجيا. ففي المدن ازداد نبض الحياة، و بالتالي التفاعل الحضاري الداخلي، الذي لم يلبث، بفعل التخصص و فائض الإنتاج أن استنفد إمكاناته الداخلية. فراح يبحث عن آفاق جديدة، و على نطاق أوسع و أشمل. و في الشرق الأدنى القديم طال جميع أجزاء المنطقة، الأمر الذي ينعكس في التأثيرات الحضارية المتبادلة، ماديا و روحيا.

و فضلا عن العدد الكبير من السكان الذي تركز في المدن، و ما استتبعه من تغيير في نمط الإنتاج الاجتماعي و علاقاته، تميزت المدن من القرى التي سبقتها بظاهرتين بارزتين: الأبنية العامة الشاهقة و الضخمة، و التحصينات الدفاعية. و إذ كانت الأولى عامل جذب سكاني إلى المدن في زمن السلم و الازدهار، فقد قامت الثانية بهذا الدور في زمن الحرب. و الأكيد أن اكتشاف البرونز، و استعماله

على نطاق واسع، ساعد مجتمعات المدن على تشييد هذه الأبنية و التحصينات. إلّا إن العامل الأساسي الذي مكن من ذلك، هو وجود مجتمع منظم، تسوده علاقات متطورة، و تحكمه سلطة مركزية فاعلة، و هو يمتلك المعارف و الأدوات اللازمة للقيام بالعمل المطلوب.

و هناك بالضرورة علاقة جدلية بين ازدهار المدن و ارتقاء النظام الاجتماعي.

و يتضح أن التطور على هذا الصعيد كان في اتجاه تبلور الملكية الاستبدادية، المرتكزة على الآلة العسكرية، وصولاً إلى قيام الإمبراطوريات، متعددة الأجناس و الشعوب.

و الازدهار مرتبط بفائض الإنتاج، و بالتالي تراكم رأس المال، و تعزيز التخصص و تطور الحرف و التجارة. و باستثناء الظاهرة الفريدة في فلسطين - أريحا - كان جنوب العراق

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥

(بلاد سومر)، هو السباق لقيام مثل هذه المدن - الدولة، و تبعته مصر. أمّا بلاد الشام فقد تأخرت عنهما، كمّا و نوعاً. و مع أنها شهدت في هذا العصر قيام المدن، إلّا إنها ظلت من حيث الحجم و الموارد أصغر من أن تشكل النّد لمدن كل من العراق و مصر.

و من المتفق عليه عموماً الآن، أن الانتقال من مجتمع القرية إلى حضارة المدينة - الدولة وقع في وادي دجلة و الفرات الأسفل. أمّا الأسباب التي أدت إلى هذا التطور النوعي، فيدور بشأنها نقاش واسع بين المؤرخين، و الطروحات عندهم متباينة. فهناك من يرى أن ظاهرة قيام المدن كانت النتيجة الطبيعية لتقدم القرى و ازدياد عدد سكانها، و امتلاكها الخبرات و الأدوات و المؤسسات ... إلخ. و يذهب البعض إلى حدوث طفرة درامية، أدّى استعمال المعادن دوراً كبيراً فيها. و هناك من يعود إلى نظرية المناخ، و بالتالي الجفاف، و ضرورة اللجوء إلى زراعة الرى، و تنظيم المجتمع على هذا الأساس. كما يطرح البعض هجرات جديدة من الشعوب، حملت معها سمات حضارتها من مواطنها الأصلية.

و إذ توجد دلائل تدعم وجهات النظر أعلاه كلها، فليس من المستبعد تضافر عوامل متعددة لإيجاد ظاهرة المدينة - الدولة. و مهما يكن الأمر، فإنه نحو سنة ٤٠٠٠ ق. م.، حدث انتقال مفاجيء في نمط حياة سكان وادي دجلة و الفرات، و خصوصاً في الجزء الأسفل منه. ففي هذا الجزء توفرت أرض خصبة، قابلة للاستصلاح بقليل من الجهد، و كذلك تنظيم عملية الرى، أو صيانة الحقول من الفيضانات الجارفة. و في الأرض الرخوة التي تخلفها مياه الأنهار لدى انحسارها بعد الفيضان، إضافة إلى مناخ حار، تنمو المزروعات بسرعة إذا توفرت مياه الرى في أشهر القيظ. و كذلك، ففي المستنقعات ثروة سمكية غنية، كما أن الثمر في جنوب العراق رفدت سلّة غذاء الناس في تلك المنطقة.

و تشير المعلومات المتوافرة إلى أنه نحو سنة ٤٠٠٠ ق. م.، ظهرت في جنوب العراق مدن كبيرة، لا تقل بحجمها عن المستوطنات التي تسقيها مياه الأمطار الغزيرة.

و هذا يدل على أن الناس في تلك المنطقة - حيث معدل سقوط الأمطار يتدنى إلى حد الانقطاع - قد ابتكروا أساليب للرى، بدءاً في جوار مجارى الأنهار، ثم راحوا يوسعون الرقعة المروية ببناء سدود أكبر و أفضل، و بطرق أكثر تعقيداً. و نحو سنة ٣٥٠٠ ق. م.، كانت حضارة المدن السومرية قد تأسست، و هو ما يدل على أن هذا الشعب قد امتلك القدرة، عبر تنظيم المجتمع، و تشكيل سلطة مركزية، على بناء أنظمة رى متطورة، سمحت له باستغلال الإمكانات الزراعية المتوفرة في وادي نهري دجلة و الفرات الأسفل.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦

إن معلوماتنا عن السومريين لا تعرفنا بأصلهم. و لغتهم، بالقدر المعروف عنها، لا تمت بصلّة إلى أية لغة أخرى معروفة. و يستشف من أساطيرهم أنهم جاؤوا العراق من الخليج العربي (دلمون - البحرين). و حتى الاسم سومر، الذي أطلق عليهم هو ترجمة أكادية (سامية - شرقية) للكلمة السومرية ساج - جيغا (Sag - giga)، و التي تعنى سود الرؤوس. و لعلهم وصلوا إلى العراق و هم يعرفون زراعة

الرّى، مع أن ديانتهم، وكذلك تعبيراتهم الفنية، تركز على عالم الحيوان، الأمر الذي يشير إلى أصول كانت تعمل بالرعى. ولكن الحضارة السومرية، كما تتكشف من خلال الحفريات، هي حضارة مدن لا لبس فيها.

و يتضح من دراسة الوثائق المكتشفة أنه منذ بداية التاريخ المسجل، عاشت في بلاد الرافدين شعوب متعددة ومختلطة. ولا شك أن ابتكار زراعة الرّى شكل عامل جذب إلى هذه الرقعة من الأرض، فجاءها المستوطنون من جهات متعددة للإفادة من خيراتها. و الوثائق الأولى المعروفة، المكتوبة بلغة سومرية، والتي جاءت من مدن متطورة في أقصى الجنوب، تظهر أن السومريين كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع شعوب أخرى سامية- أبرزها الأكاديون. و إذا كان السومريون هم الأكثرية في الجنوب، فإن نسبتهم تقل كلما توجهنا شمالا، لتصبح الأكثرية هناك من الساميين.

و على الرغم من الاختلاط الواسع، و صعوبة التمييز بين عناصر هذه الحضارة، فقد جرت العادة على تسميتها الحضارة السومرية. و التطور اللاحق لقيام مدن- الدولة السومرية في جنوب العراق، تميز بعدم الاستقرار السياسي، و أساسا بسبب تضاريس المنطقة الجغرافية. فهي تتميز بغياب الحواجز الطبيعية، أكان ذلك في وجه الغزاة من الخارج أم كعقبات في طريق الحملات العسكرية المنطلقة من الداخل. و بتفاعل جدلي متدرج، تحولت مدن- الدولة إلى دولة- المدن، و بمسار حتمى تقريبا نحو الدولة المركزية، و منها إلى الإمبراطورية. فلأسباب دفاعية، صدّ الغزاة قبل دخولهم تخوم الدولة، أو لأخرى هجومية، بحافز التوسع و السيطرة على الموارد و الهيمنة على السكان، توجهت أنظار الدولة المركزية إلى الخارج. و بوجود سلطة مركزية، ملكية استبدادية وراثية، تستند في قوتها إلى آلة عسكرية نظامية، أصبح قرار التوسع أكثر يسرا.

و في المسار نحو تشكل الإمبراطوريات، و بالتالى التوجه نحو التوسع و الهيمنة عبر الحملات العسكرية، سبق وادى الرافدين قريته وادى النيل، علما بأن الوادى نفسه أدى دورا مركزيا في وحدة كل منهما، بغض النظر عن الأسباب و الحوافز و الأساليب التى أدت إلى تلك الوحدة. فالصراع بشأن الموارد في جنوب العراق، فرض على

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧

المدن الأولى المزدهرة الصدام مع الغزاة، و من ثم، بعد توسعها، الصراع بين بعضها البعض. و عندما صارت الحرب نهجا، تشكلت التحالفات، و انتهت بانتصار هذا الطرف أو ذاك، و بالتالى إخضاع الآخرين، و ما يستتبعه من تمرد على المحتل عندما تلوح الفرصة. و بسبب الانفتاح على المحيط، سلبا أو إيجابا، تبلورت في العراق مبكرا فكرة الإمبراطورية الكونية، و تلقت بلاد الشام- التى بسبب تنوع تضاريسها الطبيعية غابت عوامل الوحدة السياسية بين مدنها- الصدمة الأولى المعروفة تاريخيا لهذه النزعة لدى الكيانات السياسية الكبيرة التى قامت في العراق.

في المقابل، و خلال فترة قصيرة بعد ازدهار حضارة وادى الرافدين، و ما نجم عن ذلك داخليا و خارجيا، برزت حضارة مثيلة في وادى النيل. و بسبب الفوارق في الأوضاع الطبيعية، و كذلك عوامل النشأة و التطور، تباينت الحضارة المصرية، شكلا و مضمونا، عن الحضارة العراقية. و بناء عليه، تباين أثر كل منهما في بلاد الشام، الواقعة في الوسط بينهما، فكانت تشكل أحيانا حاجزا يفصلهما، و أخرى جسرا يجمعهما، سلما أو حربا. و عزلة وادى النيل الخصيب، التى فرضتها الصحارى الواسعة، أكانت من الشرق أم من الغرب، تركت آثارها الواضحة في سلوك الدولة المركزية المصرية، داخليا و خارجيا، بما فى ذلك بلاد الشام. و إذ كان النيل العظيم عامل وحدة رئيسيا لواديه، فإن رتابة دورة فيضانه، و بالتالى انتظام الدورة الزراعية على ضفافه، فضلا عن الحواجز الطبيعية التى قلصت فعل المؤثرات الخارجية فيه، جعلت التطور السياسى في وادى النيل أكثر استقرارا منه في العراق.

و مع ذلك، و على الرغم من الفوارق فى أوضاع النشأة، و بالتالى فى مسالك التطور بين حضارتى العراق و مصر، فإن ازدهارهما المتزامن فى الشرق الأدنى القديم، جعل الصراع بينهما حتميا، كما جعل من بلاد الشام ساحة لهذا الصراع.

و بناء على ذلك، فإن تاريخ المنطقة، و لعصور طويلة، يجب أن يروى أساسا من مفهوم التفاعل، سلبا أو إيجابا، بين هذين المركزين

الحضاريين، بما يتركه ذلك من أثر في بلاد الشام، بدويلاتها المتعددة، و ردادات فعلها على حركة هذين القطبين. و في الواقع، قامت مدن كثيرة في بلاد الشام، معاصرة للمدن في كل من العراق و مصر، لكنها ظلت أصغر حجما و فعلا، و أقل قوة و أثرا.

أولا: عصر المدن الأولى

يكشف علم الآثار أن الكثير من مدن فلسطين التاريخية المهمة قد بنيت في عصر البرونز القديم، أي بداية الألف الثالث قبل الميلاد. لكننا لا نملك حتى الآن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨

شهادة مكتوبة واحدة على ذلك. و الوثيقة الأقدم المتوفرة تعود إلى بداية الألف الثاني قبل الميلاد، أي من عصر سلالات المملكة الوسطى في مصر، التي كانت لها سيادة على أرض كنعان. إلا إن الحفريات و المسوحات الأثرية تشير إلى أن منعطف حضاريا حدث في فلسطين، بموازة التطورات الكبيرة في العراق و مصر، و إن على مستوى أدنى. و يبرز هذا المنعطف من خلال كثافة الاستيطان المدني الجديد في فلسطين، و ذلك باستثناء أريحا، التي تشكل ظاهرة فريدة، سبقت عصرها بآلاف السنين.

و بقايا تلك المدن تقف اليوم في أغلبيتها على صورة تلال اصطناعية، و تحمل في كثير من الأحيان الاسم تل. و هذه التلال منتشرة في جميع أنحاء فلسطين، و لكل منها خاصيته الاقتصادية أو الاستراتيجية. و قد استمرت هذه المواقع فترات زمنية طويلة، و شهدت تقلبات سياسية، كانت في كثير من الأحيان عاصفة. فهدمت المدن بأسوارها و مبانيها، ثم أعيد تشييدها في الموقع نفسه، فتشكلت بذلك هذه التلال الاصطناعية. و عبر التنقيب في هذه التلال اكتشفت آثار الحضارة المادية و الروحية لسكان تلك المدن القديمة. و يلفت الانتباه في نتائج التنقيب الغنى الأثري في مقابل الشح في الوثائق المكتوبة. و لعل الكتابة لم تكن منتشرة في هذا الجزء من الشرق الأدنى القديم، على غرار مصر و العراق، أو أن اللوحات المكتوبة قد اندثرت، على عكس ما هو الحال في ماري و إبلا (سورية) و جبيل (لبنان).

و تكشف المسوحات الأثرية عن استيطان كثيف في جميع أنحاء فلسطين.

فضلا عن المدن (التلال) الكبيرة، هناك عدد غفير من المستوطنات الصغيرة و المتوسطة. و على طول نهر الأردن مثلا، تبرز كثافة هذه المواقع، إذ لا يبعد أحدها عن الآخر مسافة كيلومتر واحد أحيانا. و اللقى الأثرية تكشف عن علاقات حضارية مع كل من مصر و سورية و العراق. و إذ يسمى المختصون هذه الفترة عصر البرونز، فإن استعمال هذا المعدن لم يصبح شائعا إلا بعد نحو ألف عام، أي في بداية الألف الثاني قبل الميلاد. و مهما يكن الأمر، فالباحثون يقسمون هذا العصر إلى ثلاث مراحل:

الأولى: و تمتد من سنة ٣٣٠٠ ق.م. إلى سنة ١٨٥٠ ق.م.

الثانية: و تمتد من سنة ١٨٥٠ ق.م. إلى سنة ١٥٥٠ ق.م.

الثالثة: و تمتد من سنة ١٥٥٠ ق.م. إلى سنة ١٢٠٠ ق.م.

و من تباين صور الاستيطان يستخلص الباحثون تنوع أنماط المجتمعات في فلسطين و سواها، خلال هذه الفترة المهمة. فإلى جانب المدن، التي تشكل الظاهرة الجديدة المميزة لهذه الحقبة التاريخية عن سابقتها، كانت هناك قرى و مزارع صغيرة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩

منتشرة، كما عاشت جماعات حياة التنقل و الرعي و الصيد. و هم يستندون في هذا الاستنتاج إلى تنوع عادات و تقاليد دفن الموتى، و أشكال المقابر، و هو ما يدل على وجهات نظر متباينة بشأن الحياة و الموت و شخصية الإنسان و موقعه في المجتمع.

و نظرا إلى تواتر تدمير المستوطنات، و إعادة بنائها، الأمر الذي يبرز من خلال تراتبية الطبقات في التلال، يعتقد الباحثون أن هذا العصر شهد تحركات واسعة لجماعات بشرية، دارت بينها حروب طاحنة على الأرض و الموارد. و ما التحصينات إلا دلالة على ذلك، إذ لا

مدينة من دون أسوار.

و يستخلص الأثريون أن جماعات جديدة جاءت إلى فلسطين في عصر المدن الأولى، و ظلت الهجرات إليها تتوالى. و يؤيد علماء الأثروبولوجيا ذلك، من خلال التمييز بين أنماط متعددة من الهياكل العظمية المكتشفة في المدافن. و مع ذلك، فهم يؤكدون أن العنصر السائد ظل إنسان حوض البحر الأبيض المتوسط، أي العنصر الذي اصطلح على تسميته السامي، و الذي انتمى إليه النطوفيون- سكان فلسطين في العصور السابقة. و من دراسة الحضارة، المادية و الروحية، لسكان فلسطين في هذا العصر، يستخلص الباحثون نتيجة مفادها أن فلسطين شهدت تمازجا، عرقيا و حضاريا، خلال الألف الثالث قبل الميلاد، ليس له مثل في تاريخ المنطقة.

و هذا التمازج عمّ الشرق الأدنى القديم، و أدى دورا رئيسيا في صوغ حضارة هذا الجزء من العالم و تاريخه.

و إذ تتباين آراء الباحثين بشأن جنسية هذه الجماعات، و أصولها العرقية و مواطنها الأصلية، فإن أحدا لا ينكر الحضور المتميز للجماعات السامية، التي يعتقد أن موطنها الأصلي هو الجزيرة العربية. و من هذه الجماعات تفرعت الشعوب السامية القديمة المعروفة: الأكاديون و الآشوريون و العموريون و البابليون و الكنعانيون و الأراميون و غيرهم. و لا يشك أحد في أن بين هذه الشعوب علاقات قري، عرقية و لغوية و حضارية. و منهم من يقسم هذه الشعوب إلى سامية شرقية، تبلورت شخصيتها، و كذلك لغتها في العراق، و أخرى سامية غربية، تبلورت شخصيتها و لغتها في بلاد الشام. و هذه الأخيرة تدين باسم غربية إلى مصادر أكادية، استعملت مصطلح عمورو، أو أمورو، للإشارة إلى الجماعات التي تعيش في بلاد الشام، إلى الغرب من نهر الفرات.

و من الواضح أن بلاد الشام، و ضمنها فلسطين، لم تكن معزولة عن الثورة التي أحدثها قيام مدن-الدولة في مصر و العراق. و إن تأخرت عنهما بعض الوقت. و بينما سار العراق و مصر، و كل منهما لأسباب خاصة، على سكة الدولة المركزية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠

فالإمبراطورية، نتيجة ما ولده ازدهار المدن من تحولات اجتماعية داخلية، و ما نجم عن هذه التحولات من صوغ للعلاقات الخارجية، سلمية أو عدائية، ظلت بلاد الشام، و لأسبابها الخاصة أيضا، تراوح في مرحلة مدن-الدولة. و لما كانت الكتابة، و بالتالي الدخول إلى عصر التاريخ، تعبيرا عن هذا التطور، أولا في العراق، و من ثم في مصر، فقد تخلفت بطبيعة الحال مدن-الدولة في بلاد الشام عنهما في هذا المضمار. و لكنه لا بدّ من الإشارة إلى أن حفريات جديدة في سورية و فلسطين، كما هو الحال في إبلا، قد تغير هذا الاستنتاج الشائع حتى الآن، و المؤشرات في سورية واعدت أكثر منها في فلسطين.

و بناء عليه، فإنه عدا ما تكشفه الحفريات عن أوضاع المدن الأولى في فلسطين، هناك القليل من المعلومات التي توفرها الوثائق المكتوبة التي عثر عليها في العراق و مصر. و هذه الوثائق، نظرا إلى طبيعتها، و أولويات اهتمام كتابها، فضلا عن قلتها، لا تساعد كثيرا على إيجاد الأجوبة للأسئلة التي تطرحها نتائج التنقيبات الأثرية، كأعراض التغير الحضاري و الحرب و تدمير المدن و القرى و إعادة بنائها ...

إلخ. و لعل الوضع في شمال بلاد الشام أفضل حالا على هذا الصعيد من جنوبها، و ذلك بفضل الوثائق التي اكتشفت في ماري (تل الحريري) و لاحقا في إبلا (تل مردوخ)، و كذلك في جيبيل (بيبلوس) و أوغاريت (رأس الشمرا) و غيرها.

و مع ذلك، فإن ما يتوفر لدينا من معلومات يؤكد أن ثورة عصر المدن قد طالت فلسطين بكل أبعادها- السكانية و المادية و الروحية و العمرانية ... إلخ. و باستثناء الوحدة السياسية، التي لم تتحقق قط خلال هذه العصور، فإن المدن الفلسطينية امتلكت كل السمات الأساسية لتلك التي برزت في العراق و مصر. فقد راح عدد سكانها يزداد، و رقعتها تتسع، و تخطيطها يرتقى، و تحصيناتها تعلو، و أبنيتها المركزية تشمخ، و مرافقها تتطور. و الأكد أنه جنبا إلى جنب مع هذه التحولات، تطورت العلاقات الاجتماعية، و تميّزت الطبقات، و استقرت التراتبية السلطوية. و معها تعمقت مركزية النظام السياسي، و كذلك الاستقطاب الاجتماعي، من قمة الهرم- النبلاء- إلى قاعدته- العبيد- و ما بينهما- تجار و جنود و مزارعون و حرفيون- و في موقع خاص، الكهنة و الكتبة و الإداريون.

والصراع التناحري الذي نشب بين سكان هذه المدن، الذين ينعمون باستقرار الحياة فيها وازدهارها، وبين الجماعات البدوية، المتجولة على أطراف مجالها الحيوى، و المتربصة على الدوام بها، تتحين الفرص للانقضاض عليها، قد حفز بالضرورة سكان تلك المدن على إقامة التحصينات الدفاعية. ولما لم تعد الأسوار

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١

كافية، عمدت مدن-الدولة هذه إلى بناء قواتها العسكرية، و سرعان ما انتقلت بدورها من الدفاع إلى الهجوم مع احتدام التناقض، سواء مع الجماعات الغازية، أو مع المدن الأخرى المنافسة، بشأن الأرض أو الموارد أو من أجل الهيمنة. و تحولت الآلة العسكرية إلى حاضنة للسلطة، و من صفوفها برز الملوكة، و بسيوفها فرضوا سلطانهم و هيبتهم، و بدماء جنودها حققوا أحلامهم التوسعية.

و المدن السومرية، التي قامت و رسالتها خدمة الإله، مالكة الأرض، و واهب نعم السماء، و بالتالى تمحورت حول الهيكل، حيث يقيم و كلاء الإله-الكهنة- و يدرون شؤون ملكه، تحولت مع الزمن، و بتطور متدرج، يحكمه التفاعل بين الذاتى و الموضوعى، إلى مراكز للسلطة، تتمحور الحياة فيها حول بلاط الملك. و إذ لم يختف الهيكل و كهنته، فإنهما أصبحا فى خدمة الملك، الذى صار نائب الإله على الأرض، بل تجسيده المادى، أو هو نفسه أحيانا. و هكذا تنازلت المدن السومرية، بقيادة الكهنة، و بمجتمعها القائم على استرضاء الآلهة بدلا من الحرب، عن مكانها لمدن الدولة العسكرية، لأنها لم تكن فى موقع يؤهلها للتعامل الناجع مع الغزاة من القبائل الرحالة، التى كانت تجيد مهنة القتال، و لا تتورّع عن الحرب فى سبيل العيش الرغيد كسادة لسكان المدن.

و النمط السياسى الذى ساد فى فلسطين فى بداية عصر المدن، كان شبيها إلى حد كبير بذلك الذى قام فى العراق، لكنه تباين عن النمط المصرى، إذ كان الانقسام فى البداية بين الشمال و الجنوب، مصر العليا فى مواجهة مصر السفلى. لقد توحدت مصر فى بداية الألف الثالث قبل الميلاد، و قامت السلالة الأولى، مبتدئة بذلك سلسلة طويلة من السلالات، و كذلك جرى فى العراق، إذ تواقبت عملية التوحيد مع بدايات التوسع الإمبراطورى. و حتى فى شمال سورية قامت مراكز مدنية كبيرة: مارى و إبلا و غيرهما، بينما حافظت المدن الفلسطينية على استقلالها، و بالتالى، على تواضع دورها الحضارى بالنسبة إلى كل من العراق و مصر و سورية.

و المدن (التلال) الفلسطينية من عصر البرونز المبكر المنتشرة فى جميع أرجاء البلد، كانت على العموم تقع فى نقاط استراتيجية، تسيطر على المروج، أو على طرق التجارة الدولية القديمة. و يقدر عدد المواقع التى تعود إلى هذا العصر فى فلسطين بنحو ٩٠٠ مستوطنة، منها نحو ٢٠ مدينة كبيرة، و يقدر عدد سكانها مجتمعة بنحو ١٥٠،٠٠٠ نسمة. و تشير الدلائل المادية على أنها كانت مزدهرة، و تمتعت بتنظيم محلى جيد، و أدارت تجارة دولية ناجحة، فضلا عن الزراعة و الصناعة، لكنها، فى مقابل مدن العراق مثلا، تبقى صغيرة الحجم و الأهمية. ففى الوركاء (أوروك)

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٢

السومرية، تبلغ مساحة التل نحو ٤٠٠٠ دونم، فى حين لا تزيد مساحة تلال فلسطين بصورة عامة عن ٢٠٠ دونم، و هى موزعة فى الجبال و المروج، بينما الكثافة تتمركز فى غور الأردن و مرج ابن عامر و السهل الساحلى.

و لأنها لم تشكل وحدة سياسية، مع إنها شكلت وحدة حضارية فى إطار بلاد الشام، مع تميزات يفرضها الموقع و نمط الإنتاج الرئيسى، فإن مدن-الدولة هذه فى فلسطين لم تستطع الوقوف فى وجه الحملات المتعاقبة، إذ تناوب عليها كل من العراق و مصر منذ منتصف الألف الثالث قبل الميلاد. كما أن المدن الفلسطينية لم يكن فى قدرتها دائما صد موجات القبائل التى توغلت فى أراضيها، بل غزتها و احتلتها و دمرتها أحيانا، و هو ما تكشف عنه الحفريات الأثرية. و مع ذلك، فالعلاقات مع مصر و سورية و العراق، و حتى مع بلاد الأناضول، لم تكن عدائية على الدوام، إذ تخللتها فترات من العلاقات السلمية، و التبادل التجارى و الحضارى. و تبقى الأسوار العبية التى أحاطت بهذه المدن شاهدا على الهم الدفاعى الذى كان من نصيبها.

و هوية الجماعات التى بنت هذه المدن، أو التى غزتها و دمرتها، فتركتها خرابا أو شيدت مدنا جديدة على أنقاضها، لا تزال موضوع

نقاش بين المؤرخين وعلماء الآثار والأنثروبولوجيا. و إذ لا يخلو الجدل الدائر بشأن هذه المسألة من نزعات قطرية أو قومية أو حتى عرقية- شوفينية أحيانا، فإن غياب الوثائق المكتوبة، التي تقطع الشك باليقين، يترك الباب مفتوحا أمام الاجتهادات التي لا يخلو بعضها من الأغراض غير الموضوعية. و إذا كان التاريخ ليس كل الحقيقة أصلا، فإن أكثر ما يسيء إلى الحقيقة التاريخية محاولة توظيفها في خدمة أهداف لا تاريخية. و هذا العصر من تاريخ فلسطين بالذات، و لأسباب غير موضوعية، لعلها تتصل بالصراع العربي- الصهيوني، يثير جدلا، صاخبا أحيانا، بين الباحثين.

و الأمر الذي يزيد في تعقيد مسألة الوصول إلى معرفة أصول هذه الشعوب، هو أننا لا نعلم على وجه الدقة، ماذا كان أبناؤها يسمون أنفسهم، و بالتالي كيف كانوا يرون العلاقات بين بعضهم البعض، أو مع الشعوب الأخرى المجاورة. و أغلبية الأسماء التي نستعملها اليوم للدلالة على تلك الشعوب، هي بالتأكيد غير تلك التي استعملها أبناؤها للتعريف بأنفسهم و هويتهم. و الكثير من هذه الأسماء، التي تستند إلى وثائق قديمة وردت فيها، هو أقرب إلى الكنى، السلبية أحيانا كثيرة، التي أطلقها أبناء الحضارات العالية، في مصر و العراق، على الشعوب و الجماعات الأخرى. و في كثير من الأحيان، كانت هذه الأسماء- الكنى تشير إلى حالة اجتماعية أكثر من دلالتها على جماعة إثنية، أو تنسب الجماعة إلى موقع سكنها الجغرافي، و ليس إلى أصولها، أو انتمائها العرقي.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣

و الأكيد أن تعاقب وصول هذه الجماعات إلى السلطة، بل غلبتها على غيرها و الهيمنة على الآخرين، في هذه المنطقة أو تلك، لا يعكس بالضرورة تراتبية هجرتها زمنيا إلى المنطقة، أو حتى دخولها و التوغل فيها حربا، و بالتالي الاستيلاء بالقوة على السلطة. فجميع الدلائل المتوفرة تشير إلى أنه منذ أقدم العصور، عاش السومريون في خلف و العبيد، جنبا إلى جنب مع شعوب و جماعات أخرى، تتباين عنهم لغويا و حضاريا، أطلق عليها الباحثون اسم الشعوب السامية. ف «أكاد» ذاتها مأخوذة من اسم عاصمتهم ملكهم، و كذلك الحال بالنسبة إلى آشور و بابل و غيرهما.

و في غياب الوثائق التاريخية، تبقى الفجوات تتور معرفتنا بعلاقة الشعوب بعضها ببعض و التي ترد أسماؤها أو كناها، في المصادر اللاحقة، أي علاقة الأكاديين بالآشوريين و العموريين و الكنعانيين و الأراميين و العبرانيين ... إلخ. غير أنه مهما كانت أصول هذه الجماعات التي أقامت المدن الأولى بفلسطين في هذا العصر، فالمعلومات الواردة إلينا، أكانت من العراق أو مصر، تؤكد أنه على المستوى الحضاري، لم يكن سكان بلاد الشام أقل رقيًا. و قد زوّدت المدن في هذه المنطقة، بما فيها فلسطين، الممالك التي قامت في بلاد الرافدين و وادي النيل، أكان ذلك عبر التجارة أو الجزية، بالأخشاب و المعادن و غيرها من المواد الأولية، كما زودتها بالمصنوعات المتعددة كالعاجيات و سواها و بالمنتجات الزراعية كالنبيذ و زيت الزيتون.

و تفيد الوثائق المسمارية أن السومريين كانوا يطلقون اسم عمورو أو أمورو على قبائل إلى الغرب من الفرات، لم تكن مستقرة تماما. و كانوا يسمون جبل بشري (باسار)، في بادية الشام، مرتفعات العموريين، إذ كانت تلك النقطة خط التماس بين منطقة نفوذ الدولة المركزية و سيطرة تلك القبائل. و لعل قلعة مدينة ماري العظيمة، و التي تحولت إلى حامية متقدمة للحضارة السومرية- الأكادية، حتى قبل عصر سرجون الأول، قد أقيمت للتصدي لهذه القبائل، في الشمال الغربي، كما أقيمت قلعتا لا جاش و أوما في مواجهة القبائل الإيرانية في الجنوب الشرقي. و مع الزمن، أصبح مصطلح عمورو (أمورو) يعني كل ما هو غرب الفرات، جغرافيا و بشريا.

و من هنا، فمحاولات الباحثين إعادة بناء تاريخ فلسطين في هذه الفترة، و من مصادر متعددة- أثرية أو منقوشة أو مكتوبة- تبقى مليئة بالفجوات. و مع ذلك، يتضح أن العموريين أدوا دورا رئيسيا فيه. و الإشارات إليهم ترد في الكتابات السومرية- الأكادية، و يدعى بعض ملوكهم أنه حارب قبائل عمورو و انتصر عليها. و أول من ادعى ذلك هو ملك الوركاء (أوروك)، و اسمه لوجال زاجيسي، الذي يتفاخر بأنه فتح البلدان

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤

كلها، من البحر الأسفل (الخليج العربي)، إلى البحر الأعلى (المتوسط) نحو سنة ٢٣٧٥ ق.م. ومع معرفتنا أن بلاد الشام، و على الخصوص الشمالية، كانت محط أطماع ملوك العراق لخيراتها، و خصوصا الأخشاب و المعادن، و كذلك بعض المنتوجات الزراعية، فهناك شك في صحة هذا الادعاء.

إلا إن سرجون الأول (٢٣٤٠-٢٢٨٤ ق.م.)، ملك أكاد الأسطوري، الذي أسس سلالة قوية، و أقام أول إمبراطورية معروفة في العالم، يكرر ادعاء لوجال زاجيسي. فقد قام بحملات عسكرية في الجنوب و الشرق، لكن جلّ اهتمامه توجه إلى الغرب، إذ «أحست عمورو بوقع سلاحه»، مبكرا في سني حكمه. و هو يتفاخر بأنه لم يتوقف عند شواطئ البحر الأبيض المتوسط، بل توغل أيضا في آسيا الصغرى، و بأنه أقام سلطة دائمة في أرض عمورو. و بحسب المصادر الأكادية ضمت أرض عمورو كل المساحة الواقعة إلى الغرب من الفرات. و هي توازي، بصورة أو بأخرى، ما عرف لاحقا عبر النهر (عبر نهرا). و من هنا اسم العموريين، الذين تكلموا لغة سامية غربية، متباينة عن السامية الشرقية، التي استعملها الأكاديون و الآشوريون.

لم يعثر بعد على آثار أكاد، لكننا نعرف أنها كانت عاصمة إمبراطورية واسعة الأرجاء، بناها سرجون، و أوصلها ذروة قوتها و ازدهارها حفيده نارام سين (٢٢٦٠-٢٢٢٣ ق.م.)، الذي لقب نفسه «ملك أربع جهات الأرض»، و حتى «إله أكاد». و في الواقع امتدت مملكته من الخليج العربي (عمان، دلمون) إلى البحر الأبيض المتوسط، و لكن من دون فلسطين كما يبدو، التي بقيت في منطقة نفوذ مصر، في عهد المملكة القديمة. و المعروف أن نارام سين هذا هو الذي قضى على مملكة إبلا المزدهرة، نحو سنة ٢٢٥٠ ق.م. و بعده بدأت فترة تراجع، استمرت حتى سنة ٢١٥٠ ق.م. تقريبا، إذ انهارت أكاد، و سقطت في أيدي الجوتيين، و لا شك أنه كان للعموريين دور في ذلك.

و حمل الأكاديون معهم حضارة بلاد الرافدين، و نشرها في نطاق أوسع من مناطق حكمهم المباشر. و أبرز معالم ذلك الكتابة المسمارية التي انتشرت في غرب آسيا كلها، إذ أصبحت اللغة الأكادية وسيلة التخاطب الرسمي بين المراكز الإقليمية و عاصمة الإمبراطورية، إضافة إلى استعمالها في جميع العلاقات بينها. و قد جرت ملاءمة الخط المسماري ليعبر عن اللغات السامية المتداولة عبر الفرات. و مع ذلك انهارت هذه الإمبراطورية بعد أن عمّرت نحو ٢٠٠ عام. و بانهارها المترامن مع المملكة القديمة في وادي النيل، أفسح في المجال أمام العموريين لملء الفراغ، و التوسع شرقا في بلاد الرافدين، و غربا حتى تخوم الدلتا في مصر. و هناك من يرجح الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥

أنهم الهكسوس، كما يسميهم المصريون القدماء.

و يرى الكثيرون من المؤرخين و علماء الآثار أن العموريين أدوا دورا رئيسيا في التطورات التي وقعت في الشرق الأدنى القديم، في نهاية الألف الثالث و بداية الألف الثاني قبل الميلاد. ففي هذه الفترة بلور هؤلاء شخصيتهم الحضارية و السياسية في بلاد الشام، و لما ضعفت قبضة السلطة المركزية في كل من العراق و مصر- الإمبراطورية الأكادية و المملكة القديمة على الترتيب- برز العموريون كقوة حاسمة في المنطقة، و توغلوا في أراضي الطرفين، ليقوموا فيهما بدور كبير على مسرح الأحداث. و بذلك أرسى العموريون نمطا في جدل العلاقة المثلثة الجوانب، راح يتكرر المرة تلو الأخرى، بين مصر و بلاد الشام و العراق.

و إذا كانت المصادر العراقية توفر لنا معلومات أكثر عن الداخل السوري، نظرا إلى الصلات الوثيقة بينهما، فإن الوثائق المصرية تقدم مزيدا من المعلومات عن فلسطين و الساحل السوري. فبعد انهيار الإمبراطورية الأكادية الأولى- سلالة سرجون- قامت سلالات عمورية متعددة، ارتبطت بوحدة إثنية- حضارية، على الرغم من التباين السياسي الذي ساد العلاقات بينها. ففي العراق قامت سلالات في كل من:

إيسن و لارسا و بابل و آشور و أشنونا و كرانا. و في سورية: ماري (تل الحريري) و إبلا (تل مردوخ) و يمحاض (حلب) و الاالاخ (تل عطشانة) و قادش (تل النبي مند) و قطنا (تل المشرفة) و حاصور (تل القدح أو تل وقاص) و غيرها في فلسطين.

و إذ تضيف التنقيبات المستمرة معلومات جديدة عن الحضارة المادية لفلسطين في هذا العصر، فإنه لم يعثر حتى الآن على نص واحد مكتوب، و بناء عليه، فهناك القليل يمكننا قوله عن السياسة و المجتمع و الدين و اللغة. إلّا إنه منذ ظهور الكتابة في مصر، و ذلك في بداية المملكة الموحدة الأولى نحو سنة ٣٠٠٠ ق.م، هناك إشارات إلى فلسطين و غرب آسيا. فقد استعمل المصريون القدماء مصطلحات متعددة في تسميتهم جيرانهم إلى الشرق (سيناء)، و إلى الشمال الشرقي (فلسطين). و في هذه التسميات درجة من الاستخفاف و الازدراء (و خصوصا تجاه الجماعات غير الحضريّة)، كما إنها تنم عن معرفة بدائية بالجغرافيا، و وعى جنيني بالانتماءات الإثنية و اللغوية لسكان هذه المناطق.

و لا شك في أن الفراعنة الأوائل تطلعوا إلى مد نفوذهم في سيناء و فلسطين، فقد أولوا أهمية خاصة لمناجم النحاس و مقالع الفيروز في سيناء، و إن لم يكن لشىء إلّا لحماية هذه الموارد، فقد كان طبيعيا أن يسعوا لتأسيس قاعدة لنفوذهم في فلسطين. و في الواقع، فهناك دلائل على قيام فراعنة السلالات الأولى من المملكة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦

القديمة بحملات عسكرية و رحلات تجارية إلى فلسطين و الساحل السوري. و تظهر التنقيبات الأثرية معالم طريق في شمال سيناء، تصل بين الدلتا و جنوب فلسطين، و ربما إلى عراد (شرق بئر السبع) - منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد - هي بالتأكيد حلقة من الطريق البرى الشهير طريق البحر (Via Maris).

و أظهرت الحفريات في جيبيل (بيبلوس)، التي كانت تهيمن على مناطق أشجار الأرز في لبنان، و منذ بداية الألف الثالث قبل الميلاد، أدوات نقشت عليها أسماء ملوك مصر منذ السلالة الثانية فما بعد. و يرد في نقش حجر باليرمو الشهير أن سنّفرو الأول، من السلالة الرابعة (القرن السادس و العشرون قبل الميلاد)، أرسل أسطولا تجاريا - عسكريا، من أربعين سفينة لجلب الأخشاب من جيبيل. و بالنسبة إلى جيبيل، فهناك أسطورة فينيقية - كنعانية، تقول إنها أقدم مدينة في العالم، بناها الإله أيل الأكبر. و هناك دلائل على تجارة واسعة و مزدهرة بين هذه المدينة و مصر.

و حتى أيام السلالة الخامسة، دعا المصريون سكان الأقاليم الواقعة إلى الشرق و الشمال الشرقي بأسماء متعددة - هي في الأغلب أسماء صفة، مثل سكان الرمال (جرير - شع) أو المنيو أو الأوتيو، التي لا تزال غامضة المعنى. أمّا منذ السلالة السادسة (القرن الرابع و العشرون قبل الميلاد)، فيظهر الاسم عامو، ذو الدلالة الإثنية، و الأصل السامى، و قد يشير إلى العموريين. كما تبرز نقوش المدافن الفرعونية أسرى يمثلون أمام الملك نارمير، و هم ذوو ملامح آسيوية، يجثمون أرضا؛ بينما الفرعون شاهرا عصاه كأنما يريد أن يهوى بها على رأس الأسير. و تتكرر هذه الصورة في مواقع أخرى، إذ يظهر الفرعون و هو يهّم بضرب آسيوى.

و على الرغم من ندرة الوثائق المكتوبة، فإن النقوش و الآثار تشير إلى أنه مع تبلور السلطة المركزية في مصر، زادت العلاقات مع فلسطين و الساحل السوري و ثوقا. و بغض النظر عن المبالغات في النصوص و النقوش، فهناك دليل واضح على تنامي الاهتمام المصرى بغرب آسيا، لأسباب دفاعية، و خصوصا عن مناجم النحاس و الفيروز في سيناء، أو لأسباب اقتصادية تجارية كاستيراد الخشب و النبيذ و الصوف و القطران (القار) و الكبريت و العاجيات و صمغ الصنوبر (الذى يدخل في صناعة السفن) و زيت الزيتون، الذى استعمل لأغراض طبية و فى التحنيط. و فى هذه العلاقات، و حيث لم تنفع القوة، عمد الفراعنة إلى دبلوماسية التحالفات و الهدايا ... إلخ.

و نظرا إلى أهمية فلسطين بالنسبة إلى مصر، عمد الفراعنة بداية إلى الحملات العسكرية لتأديب الجماعات التي تهدد طرق التجارة، و من ثم إلى إقامة حاميات عسكرية فى مواقع استراتيجية على تلك الطرق، وصولا إلى إخضاع المدن، بحكامها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧

المحليين، للنفوذ المصرى، المداور أو المباشر. و من أيام السلالة السادسة (القرن الرابع و العشرون قبل الميلاد)، وصلتنا وثيقة مفصلة

عن النشاط العسكري المصري في فلسطين. و هي عبارة عن سيرة ذاتية للقائد أونى، الذى عمل عند الفرعون بيبى الأول، و قام بعدة حملات عسكرية إلى فلسطين. و تحدث في ذكر إحداهما عن جيشه «الذى عاد سالما بعد أن قطع أشجار تينهم و كرومهم». و عن أخرى، حيث وصل إلى أنف الغزاة (جبل الكرمل) على الساحل، و من هناك انتشر جيشه في البلاد، ينهب و يخرب و يستعرض بقوته سطوة الفرعون على كل من يثير القلاقل.

إن تكتيف النشاط العسكري المصري في غرب آسيا، و تحديدا في فلسطين، في الربع الأخير من الألف الثالث قبل الميلاد، يوحى بحالة من عدم الاستقرار على الحدود الشمالية الشرقية. و هو يتزامن مع تعاظم قوة الأكاديين في العراق، و تزايد نشاطهم العسكري إلى الغرب من الفرات. و يرى الباحثون أن هذه الحالة نتجت من حركة القبائل العمورية و تمركزها في هذه المنطقة، و يعتقد البعض أن آثار الدمار التي تظهرها الحفريات في المواقع (التلال)، لم تكن من فعل هذه القبائل، و إنما قام بها المصريون في حملاتهم المتكررة. و مهما يكن الأمر، فإنه ما أن بدأت السلطة المركزية في مصر تضعف (السلالة الثامنة)، حتى أصبحت هذه القبائل تدق أبواب الدلتا. و في الوقت نفسه كانت مدن جديدة تبنى على أنقاض القديمة، مثل تل بيت مرسيم، إلى الجنوب الغربي من القدس.

ثانيا: الهكسوس

قله من المشكلات في تاريخ الشرق الأدنى القديم شغلت الباحثين كما فعلت هوية الهكسوس. و اللفظ هو الصيغة اليونانية للكنية التي أطلقها المصريون على هذه الجماعة التي حكمت في الدلتا لمدة ٢٠٠ عام تقريبا، من عاصمتها أفاريس. و إذ تتوفر، من المصادر المتعددة، معلومات عن حضارة الهكسوس المادية و عاداتهم و معتقداتهم و مدنهم و تحصيناتهم و أساليب حربهم و تنظيمهم السياسي و الاجتماعي، يبقى أصلهم - مع ذلك - غامضا. فقد تضاربت آراء الباحثين المتعددين بهذا الشأن: حوريون أو حثيون أو قوقاز أو شعوب مختلطة هندية - أوروبية، أو سامية غربية، أى عمورية، و بالتالى فهم الكنعانيون أو الفينيقيون، كما يؤكد المؤرخ المصري مانيتو، من العصر الهليني في مصر. هناك أغلبية بين المؤرخين اليوم، ترى أن الهكسوس هم بالأصل عموريون، و قد تكون انضمت إليهم عناصر أخرى، مثل الحوريين. و يستند هؤلاء في رأيهم هذا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨

إلى دلائل مادية و لغوية، فأسماء ملوكهم المعروفين هي من أصول سامية غربية في الأغلب. كما أن حضارتهم المادية شبيهة بتلك التي قامت في فلسطين و بلاد الشام في تلك الفترة، و التي يطلق عليها اسم عصر البرونز الوسيط. و لأنهم جاؤوا إلى مصر من الخارج، و في مرحلة كانت السلطة المركزية ضعيفة، السلالتان ١٣ و ١٤، فقد سمّاهم المصريون في كتاباتهم التي وصلتنا حقا خاسوث (ملوك البلاد الأجنبية)، و منه اشتق الاسم اليوناني هكسوس في الكتابات من العصر الهليني، و في كتابات التابعين بعد ذلك. و إلى درجة لا تقل عن قضية أصلهم و هويتهم، تثير مسألة وصولهم إلى الحكم في مصر، و كيفية حدوث ذلك، نقاشا ساخنا بين المختصين. و الطروحات تتأرجح بين الانقلاب، و بالتالى الاستيلاء على السلطة من قبل عناصر آسيوية، كانت تسلمت بالتدرج إلى وادى النيل في فترات سابقة، و بين الغزو العسكري العاصف، و ما بينهما من هجوم عسكري خارجي، استفاد من مساندة عناصر محلية، استغلت ضعف السلطة المركزية، و تعاونت مع القادمين الجدد من أبناء جلدتها. و مهما يكن الأمر، فالمعروف أن الهكسوس برزوا كقوة موحدة، مستندة إلى آلة عسكرية مدربة جيدا، و إلى جهاز سلطة ذى كفاءة إدارية عالية، الأمر الذى يشير إلى تجربة طويلة بالحكم في موطنهم الأصلي.

و خلافا لما كان عليه الحال أيام السلالتين المصريتين ١٣ و ١٤، فإن النصف الثانى من القرن الثامن عشر قبل الميلاد شهد حالة من الاستقرار السياسى و الازدهار الاقتصادى، ليس في مصر فحسب، بل في الهلال الخصيب الغربى أيضا. و يعزى ذلك إلى قوة السلطة

المركزية التي أقامها ملوك الهكسوس في عاصمتهم أفاريس (تل اليهودية)، في الدلتا الشرقية. وقد برز بين هؤلاء اثنان، هما: حيان، الذي يشير اسمه إلى أصله العموري، وعا أو سير رع أبو فيس، الذي حكم ٤٠ عاما، ويبدو أنه اتخذ اسما مصرية. و ترد كذلك أسماء أخرى سامية الأصل، مثل: يعقوب هار و عنات هار و حور و غيرها لم تعرف أصولها حتى الآن.

و في هذه الفترة التي دامت قرابة قرنين، حكمت في مصر سلالتان غير واضحتي المعالم في الكتابات الهيروغليفية، و خصوصا ما يتعلق بأصولهما، و هما السلالتان ١٥ و ١٦. و أغلبية ملوك السلالة ١٥ تحمل أسماء غير مصرية، و إنما سامية. و يذكر منها حيان، الذي كما يبدو هو مؤسس هذه السلالة، و بالتالي الإمبراطورية الهكسوسية.

و في أيامه ازدهرت التجارة بين مصر و بلاد الشام، و صولا- إلى بلاد الرافدين، من جهة، و إلى جزر بحر إيجه و كريت، من جهة أخرى. أما ملوك السلالة ١٦، التي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩

تولت الحكم في بداية القرن السادس عشر قبل الميلاد، فقد غلب على أسمائهم الطابع المصري، الأمر الذي يشير إلى محاولتهم التقرب من السكان المحليين، و حتى الاندماج فيهم.

و في الفترة الأخيرة، يميل عدد من الباحثين المرموقين في دراساتهم الحديثة إلى الاقتناع بأن الهكسوس يتحدرون من الأرومة العمورية. و بناء عليه، فهم ينتمون إلى عائلة الشعوب التي أطلقت عليها المراكز الحضارية في مصر و العراق، حيث ابتكرت الكتابة، و بالتالي سجلت الأحداث، أسماء متعددة، ليست هي بالضرورة ما كانت تلك الشعوب تعرف نفسها بها، و خصوصا أنها لم تترك، أو لم تصلنا منها، و ثائق مكتوبة بلغتها. و من هنا، فهم الكنعانيون في فلسطين، و الفينيقيون في لبنان، و العموريون في سورية و شرق الأردن ... إلخ. و هناك من يدخل العبرانيين في هذه المجموعة.

و بناء عليه، فتشكيلة الأسماء المتعددة مثل عمورو و غامو و كئخنا و خابيرو و ريتنو و حيقا خاسوث و غيرها، هي كنى و صفات أطلقها أهل المدر على أهل الوب، في مرحلة كان الأولون في هبوط، و الأخيرون في صعود. و فضلا عن الدلائل اللغوية، التي يستند إليها الباحثون في تحديد الأصول السامية للهكسوس، فإنهم يدعمون مقولتهم بالمكتشفات الأثرية. فالحضارة المادية التي ظهرت معالمها في حفريات مواقع الهكسوس في الدلتا- تل الضبعة و تل المسخوطة و تل اليهودية (الذي يعتقد أنه موقع عاصمتهم أفاريس)- تبرز علاقة وثيقة بالحضارة الكنعانية في فلسطين، و الفينيقية على الساحل السوري.

و مهما يكن الأمر، فالواضح أن الهكسوس، لدى انتزاعهم السلطة في مصر، كانت لهم تجربة في ممارستها، الأمر الذي يدل على أنهم كانوا على تماس مباشر مع أصحاب الحضارة العالية في مصر، أو سواها، و منذ زمن طويل. فحتى لو كانت أصولهم بدوية، فإنهم لم يتأخروا طويلا- في استيعاب أنماط الحياة الحضارية، و توظيف إنجازات الحضارة المدنية في إدارة شؤون إمبراطوريتهم، داخليا و خارجيا.

و كذلك، ففي تعبيراتهم الفنية و ممارسة شعائرهم الدينية و الروحية و رقي عمارتهم و تحصيناتهم و أسلحتهم و أدواتهم المنزلية و زينتهم، كان الهكسوس لا يقلون عن الشعوب التي حكموها.

و هناك توافق عام بين الباحثين على أن النجاح الباهر الذي حققه الهكسوس في حروبهم، و بالتالي فرض سيطرتهم و إقامة إمبراطوريتهم، يعود بالأصل إلى الآلة العسكرية التي بنوها، و نظموا الفئة السائدة في مجتمعهم بالارتكاز إليها. و إذ ظل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠

البرونز المعدن الرئيسي في صناعة الأسلحة، فالاعتقاد السائد الآن هو أن الهكسوس كانوا أول من أدخل الحصان و المركبة الخفيفة السريعة، ذات الدولابين، إلى ساحة المعركة في الحرب. و بذلك أوجدوا قوات عسكرية صاعقة، لم تستطع جيوش المشاة التي واجهتهم الصمود أمامها.

و بناء مثل هذه القوات العسكرية تطلب إنشاء جيش نظامي، لما يستلزمه ذلك، سواء لناحية التدريب المستمر أو أداء الواجب. فكان طبيعياً أن تشكل طبقة من العسكريين، و النبلاء من قاداتهم، أعطوا إقطاعات، يعمل فيها عبيد، يحكمهم الفرسان. و كان هؤلاء يعرفون باللقب مريان، أى أبطال شجعان، و يعتقد بعض الذين يردون الهكسوس إلى أصول هندية-أوروبية، أن هذا المصطلح مشتق من لغة هندية-إيرانية. غير أنه ليس كذلك بالضرورة، فالكلمة مار تعنى السيادة و الشجاعة فى اللغات السامية، و المصطلح ذو مرة لا يزال يستعمل فى اللغة العربية حتى الوقت الحاضر.

و يستفاد من المعلومات المتوفرة أن النظام السياسى-الاجتماعى الذى ساد إمبراطورية الهكسوس كان إقطاعياً. فالملك منح النبلاء العسكريين إقطاعات، أداروها بأعوانهم من الفرسان، و اشتغل فيها أهلها المحليون أو عبيد من أسرى الحرب. و قد انتشر هذا النظام فى غرب آسيا كلها فى تلك الفترة، و فى شمال مصر، و استوجب بطبيعته بناء حاميات عسكرية، كانت بمثابة مقرات للنبلاء و أعوانهم و جنودهم. و تدل على هذه الحاميات بقاياها المنتشرة فى بلاد الشام، و خصوصاً فى فلسطين، و كذلك فى مدن الهكسوس فى الدلتا المصرية الشرقية، مثل تل اليهودية (موقع عاصمتهم أفاريس).

و تتميز هذه الحاميات-المدن بنمط مستحدث من التحصينات، فريد فى نوعه.

فحول الحصون أقيمت منحدرات ملساء هائلة من الردم و اللبن المجفف (طمم)، تحيط بها خنادق عميقة و شديدة الانحدار من الخارج. و فى الداخل، قلعة مسورة، هى مقام القائد، و حولها الرض، حيث أقام الفرسان و معهم عدتهم و خيولهم، و مستودعات سلاحهم و مؤنهم ... إلخ. و قد كشف عن مثل هذه التحصينات فى مواقع كثيرة، منها: تل الفارعة الجنوبية (شاروحين) و تل العجول (بيت عجلايم؟) و تل الدوير (لاخيش) و تل الجريشة (قرب يافا) و تل وقاص أو تل القدح (حاصور) و تل كيسان (فى سهل عكا)، و كذلك فى قادش (تل النبى مند) و قطنا (تل المشرفة) و حماة، فى سورية الوسطى، و غيرها.

و ما يتوفر لدينا من معلومات عن الهكسوس لا يؤيد كلام المؤرخ المصرى

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٦١

مانيتو (من عصر البطالمة) عنهم، إذ يقول: «لا-أعرف لماذا هبت رياح الغضب الإلهى علينا حتى تجاسر فجأة أناس من أصل غير معروف، جاؤوا من آسيا، فأغاروا فى عهد الملك توتيمايوس على بلادنا مصر، و استطاعوا بسهولة، و من دون قتال أن يستولوا عليها. و قد أسر هؤلاء القوم زعماء البلاد، و أحرقوا المدن بصورة وحشية و هدموا معابد الآلهة، و عاملوا السكان بمنتهى القساوة، فقتلوا بعضهم، و ساقوا النساء و الأطفال إلى العبودية...»

فالدلائل تشير إلى عكس ما يقول مانيتو، إذ أدخل الهكسوس إلى مصر عناصر حضارية جديدة، مادية و روحية، فى فترة كان الهبوط هو السممة العامة هناك. كما وفروا خلال حكمهم درجة عالية من الاستقرار بعد فترة من الاضطراب و الصراع بشأن السلطة فى مصر. و ازدهرت فى أيامهم العمارة و الفنون و التجارة الدولية. و طوروا الكثير من الصناعات العسكرية و غيرها. و يبرز النسيج بين هذه الصناعات، كما يتميز الخزف الهكسوسى بألوانه و زخارفه و تقنيات صناعته. و هو ما تكشفه الحفريات فى تل اليهودية و غيرها، فضلاً عن أنهم جلبوا إلى مصر الحصان و مركبة القتال و القوس المركب و صناعة الأسلحة البرونزية المتفوقة.

و على الرغم من أن الهكسوس حاولوا التقرب من سكان البلد الأصليين، و اتخذوا أسماء مصرية، و أبدوا احتراماً للعبادات المحلية و آلهتها، بينما حافظوا على ديانتهم الخاصة، فإنهم لم يفلحوا فى الحفاظ على سلطتهم. ففى منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد، شن أمراء طيبة الجنوبيون ما يسمى ب «حرب التحرير»، و طردوا الهكسوس من مصر، و طاردوهم إلى جنوب فلسطين، فقاتلوهم فى شاروحين (تل الفارعة الجنوبية)، إلّا إنهم فشلوا فى القضاء الكامل عليهم. و لذا، فالفراعنة، و منذ السلالة السابعة عشرة فما بعد، تلقوا من عصر حكم الهكسوس درساً مفاده أن خط الدفاع الأول عن شمال مصر هو جنوب فلسطين، فعمدوا إلى السيطرة عليه بصورة متعددة.

ثالثا: الكنعانيون

قله من الشعوب التي عمّرت فلسطين خلال تاريخها الطويل طبعت اسمها على البلد كما فعل الكنعانيون، و مع ذلك يدور جدل حاد بين الباحثين بشأن هويتهم.

و هذا الجدل لا يخلو من نزعات مغرضة، ترمى إلى توظيف البحث في هذه المسألة الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٢ لخدمة أهداف سياسية معاصرة، و تحديدا لمصلحة الصهيونية السياسية و مشروعها الاستيطاني في فلسطين، و خصوصا أن العصر الكنعاني في تاريخ فلسطين يتزامن مع ما يسمى عصر الآباء في التاريخ اليهودي. و باعتقاد أصحاب هذه النزعة أن التمويه على هوية الكنعانيين، و بالتالي إبراز علاقة البلد بمن يسمون أبناء إسرائيل، يخدم الادعاء الصهيوني بالحق التاريخي لليهود في فلسطين. غير أن موجة هذه الطروحات أخذت تنحسر في العقود القليلة الأخيرة.

و في سياق النشاط الصهيوني لتبرير الاستيطان اليهودي الحديث في فلسطين، جرى توظيف ما يسمى الدراسات التوراتية، بل علم الآثار التوراتي. و قد قام مؤخرا عدد من الباحثين المرموقين بنزع الشرعية العلمية عن تلك الدراسات، و نفى الأساس الموضوعي لذلك العلم. و يزداد الميل بين المختصين في تاريخ الشرق الأدنى القديم إلى اعتبار الكنعانيين جزءا من الأرومة العمورية التي تبلورت شخصيتها في بلاد الشام، خلال الألف الثالث قبل الميلاد، و تمددت شرقا في بلاد الرافدين، إذ أقامت هناك إمبراطورية بابل القوية، أيام حمورابي، كما أسست ممالك متعددة في الجزء الغربي من الهلال الخصيب، و إليها ينتمي الهكسوس الذين وصلوا مصر. و تشير الدلائل المتوفرة، و من مصادر متعددة، مكتوبة و سواها، و من العراق و سورية و مصر، إلى أنه أكان ذلك قبل قيام إمبراطورية الهكسوس في مصر، أو في فترة ازدهارها، أو حتى بعد سقوطها، ظلت فلسطين تشكل وحدة حضارية مع محيطها، ماديا و روحيا. فحكم الهكسوس في مصر لم يكن ظاهرة مقطوعة الجذور عن بلاد الشام، و لا- انتهت بطردهم من الدلتا و ملاحقتهم إلى جنوب فلسطين.

و الواضح أن نهاية حكم الهكسوس في مصر لم تؤد إلى انقلاب في النظام السياسي- الاجتماعي في المناطق التي كانت تحت حكمهم في فلسطين و سورية.

و الواقع، و كما يظهر من التنقيبات الأثرية، فإن فلسطين لم تشهد في تاريخها السابق ازدهارا للمدن المسورة شيئا بهذا العصر- النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. و قد أقيمت هذه المدن في مواقع جديدة، أو على أنقاض مدن أكثر قدما، معروفة من الألف الثالث قبل الميلاد. و هي، باستثناء حاصور (تل القدح) في شمال فلسطين، التي تبلغ مساحة التل الذي احتلته قرابة ٧٠٠ دونم، أقرب إلى القلاع منها إلى المدن، و خصوصا الكبيرة منها في شمال سورية: ماري و كركميش و يمحاض و قطنا و أوغاريت. غير أن عددها كبير، و هي تنتشر في جميع أنحاء البلد- في الساحل، كما في الجبل، و غور الأردن.

فعلى سبيل المثال لا الحصر، تم الكشف عن مدن محصنة من هذا العصر في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٣

المواقع التالية: تل القدح (حاصور) و تل القاضى (لايش) في الغور الشمالي و تل المتسلم (مجدو) و تعنك في مرج ابن عامر و تل الفارعة الشمالية و تل بلاطة (شيكم) قرب نابلس و تل بيت مرسيم و تل الدوير (لاخيش) و تل أبو شوشة (جيزر) و تل الفارعة الجنوبية (شاروحين) و تل العجول (بيت عجلايم)، في منحدرات جبال القدس الغربية حتى السهل الساحلي الجنوبي؛ و تل السلطان (أريحا) و تل دير علما في الغور الأوسط و الجنوبي و تل كيسان (أفيك) و تل دور (أخشاف) و رأس العين و تل جريشة و عسقلان، على الساحل من الشمال إلى الجنوب.

إن هذا العدد الكبير من المدن، المنتشرة في مناطق فلسطين جميعها، يشير إلى فترة من الاستقرار السياسي و الازدهار الاقتصادي. كما

و يبدو من توزيعها أن كل مدينة منها شكلت مركزا سياسيا-اقتصاديا في محيطها، حيث انتشرت قرى زراعية تابعة لها، الأمر الذي جعلها بمثابة مدينة-دولة. وكذلك، فهذا الانتشار يدل على تنوع مصادر الاقتصاد-زراعة وصناعة وتجارة. وعلى العموم، فقد أقيمت هذه المدن في مواقع استراتيجية، بالقرب من مصدر مياه، وتحيط بها أراض زراعية، كما يحتل عدد منها نقاطا مهمة على طرق التجارة الدولية الرئيسية، التي تؤكد الوثائق المتوفرة ازدهارها في هذه الفترة.

فمن وثائق مصرية وسورية وعراقية معاصرة، ترد معلومات مهمة عن المدن الفلسطينية في ذلك العصر، علما بأنه لم يعثر حتى الآن على مثل هذه الوثائق في فلسطين. إلا إن وثائق ماري (تل الحريري)، وإبلا (تل مردوخ) والالاح (تل عطشانة) وأوغاريت (رأس الشمرا)، في سورية، تزودنا بمعلومات مهمة عن الأوضاع السائدة في فلسطين، خلال النصف الثاني من الألف الثالث، والنصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. ويستدل من هذه المعلومات أن علاقة تجارية وسياسية وحضارية قامت بين هذه الدول في سورية، و بين مدن مهمة في فلسطين، مثل: حاصور ولايش ومجدو و يافا وأسودود وغيرها.

و تكتسب وثائق إبلا، المكتشفة حديثا، والتي لا تزال قيد الدرس، أهمية كبيرة، تتعدى ما تقدمه من معلومات عن العلاقات بين بلاد الشام وكل من العراق ومصر، والتي أدت إبلا-دورا مركزيا فيها. فهي تلقي أضواء غزيرة على ما هو معروف من وثائق ماري، من جهة، ومن المصادر المصرية، من جهة أخرى، ناهيك عما تضيفه من جديد، لأنها أرشيف مدينة-دولة مهمة بحد ذاتها. وهي إذ تعيد معرفة الكتابة في بلاد الشام نحو ١٠٠٠ عام إلى الوراء عما كان يعتقد حتى الآن، فإنها تؤكد الوحدة الحضارية-الإثنية-اللغوية لهذه البلاد، وذلك على الرغم من غياب وحدتها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٤

السياسية، عدا فترة حكم الهكسوس القصيرة نسبيا.

و يتضح من آلاف الرزم التي عثر عليها في إبلا، والتي تلقي أضواء جديدة على تاريخ شعوب المنطقة- في الألفين الثالث والثاني قبل الميلاد- فضلا عن لغاتهم وعاداتهم وعباداتهم وعلاقاتهم، أن سكان بلاد الشام عرفوا الكتابة منذ هذا التاريخ على الأقل. فشعوب سيناء في الجنوب، إلى شعوب جبال طوروس في الشمال، كانوا يعرفون اللغات والخطوط المتداولة في الشرق الأدنى القديم، إذ عرفوا الخطين- المسماري والهيريوغليفي، واستعملوهما في التعبير عن لغتهم هم. ثم لم يلبثوا أن طوروا الأبجديتين- الأوغاريتية والسينائية. وهذه الأخيرة هي النمط الأولى للخط الكنعاني، الذي أخذته العبرية القديمة.

ومنذ أيام المملكة الوسطى (نهاية الألف الثالث قبل الميلاد)، صارت الوثائق المكتشفة في مصر، من كتابات ونقوش، توفر المزيد من المعلومات عن فلسطين-علاقتها بمصر وأوضاعها السياسية والاجتماعية والاقتصادية، وحتى عبادات سكانها.

ومع أن علاقات محدودة قامت بين مصر وفلسطين من أيام المملكة القديمة، فإنها أيام حكم السلالتين ١٢ و ١٣ قد تطورت: أولا، بفعل الاستقرار الداخلي الذي تحقق، و خصوصا أيام السلالة ١٢، في فترة ١٩٩١-١٧٧٥ ق.م.، و ثانيا، لتعاطف اهتمام الفراعنة بمناجم النحاس والفيروز في سيناء، وبالتالي ضرورة حمايتها من تهديد القوى في فلسطين.

و يتحدث عدد من هذه النصوص عن الحملات العسكرية التي أرسلها فراعنة مصر، و خصوصا أيام السلالة ١٢، التي مثلت ذروة قوة المملكة الوسطى، إلى سيناء وفلسطين، وكذلك الحملات العسكرية-التجارية إلى الساحل، وربما إلى الداخل السوري. وهذه النصوص تشير إلى علاقات وثيقة، تقترب من بسط النفوذ، على الأقل في جنوب فلسطين، وإلى أخرى اقتصادية متينة مع جيبيل على الساحل.

و إذ لا-يستبعد بعض المبالغة في إنجازات تلك الحملات وأبعادها فإنها على أية حال تعطي معلومات عن الحالة السياسية-الاجتماعية في فلسطين، وغيرها من بلاد الشام.

و في تلك النصوص إشارات واضحة إلى عدد كبير من دويلات-المدن، يصل في بعض القوائم إلى العشرات، مثل: عسقلان و

حاصور و شيكم و حتى اورشليم، التي يرد اسمها لأول مرة منذ أيام السلالة ١٢. و لعل الأهم أنه في تلك الوثائق يرد اسم جديد لفلسطين، هو ريتنو، و يميز بين منطقتين - عليا و سفلى. و المعنى الدقيق لهذا الاسم ليس واضحا، لكنه بحسب استعماله يشير إلى وحدة سياسية، أكثر من دلالة على جماعة إثنية، أو حالة اجتماعية، كما جرت العادة في التسميات التي كان الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٥

الكتبة المصريون يطلقونها على الشعوب التي لم تكن ترقى في نظرهم إلى مستواهم الحضارى. و من هذه النصوص الرواية التاريخية لرحلة الوزير سنوحى (سانهيت)، الذي أمضى بحسب قوله فترة طويلة في فلسطين منتقلا. و إذ يفهم من روايته أن فلسطين لم تكن تحت الحكم المصرى المباشر، فإن أجزاء منها كانت في مناطق نفوذه، نحو سنة ٢٠٠٠ ق. م. و الوثيقة تقدم معلومات عن حياة الناس اليومية: عاداتهم و مأكلهم و ملابسهم ... إلخ، كما تتعرض لما تنتجه الأرض من المحاصيل: القمح و الشعير و العنب و التين، و تشير إلى انتشار زراعة الزيتون، و تسمى البلد «الأرض التي تدرّ العسل و اللبن». و يفهم من هذه الوثيقة المهمة أنه على أطراف المناطق الآهلة بكثافة، و التي كانت تابعة للمدن الرئيسية، عاشت جماعات لم تستقر تماما بعد، فهي تتعاطى الزراعة، بما في ذلك أشجار الفواكه، كما تعمل في تربية قطعان الضأن و البقر، من دون أن تترك الصيد. و نظامها الاجتماعى أقرب إلى القبلىة، إذ السلطة الفضفاضة في أيدي شيوخ القبائل، الذين انتحلوا لقب «ملك». و بصورة عامة، فالأسماء الواردة في هذه الوثيقة، كما في غيرها، سامية-غربية، سواء أكان ذلك للأشخاص و الجماعات أو المواقع، و حتى الآلهة- حد (هدد) و آنو و شماش (شمش) و بعل و بعل.

و يفهم من نصب تذكارى لأحد القادة العسكريين، سبكو، من منتصف القرن التاسع عشر قبل الميلاد، أن المصريين في تلك الفترة حكموا القسم الجنوبي و المركزى من فلسطين على الأقل. و هو يدعى أنه شارك في احتلال شيكم (تل بلاطة). و من هذه الفترة هناك شواهد مصرية على تقاليد الكنعانيين و ملابسهم و أسلحتهم، تظهر في النقوش على مشاهد المدافن و المنحوتات الأخرى، و خصوصا تلك التي وجدت في مغاور بنى حسن من أيام فراعنة السلالة ١٢. و قد وجد مثل هذه النقوش في سراييط الخادم (سيناء)، حيث مناجم النحاس، التي عمل فيها كما يبدو أسرى كنعانيون.

و تظهر مجموعة غربية من الوثائق، اصطلاح على تسميتها «كتب اللغات»، مقدار النفوذ المصرى في فلسطين أيام حكم السلالة ١٢ القوى. و عثر على هذه الوثائق مكتوبة على صحون و جرار أو دمي، فخارية، و فيها أسماء ملوك المدن في فلسطين و النوبة، المناوئين لسلطة الفرعون: و بناء عليه، فقد كانت معدة للكسر كتعبير عن تدمير صاحب الاسم الوارد فيها، و خضوع مدينته للسيادة المصرية. و الباحثون يميزون بين مجموعتين من هذه الكتب: الأولى، و هي الأكثر قدما (منتصف حكم السلالة)،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٦

و الثانية، متأخرة عنه بجيلين تقريبا، أى نهاية حكم السلالة ١٢، في القرن التاسع عشر قبل الميلاد. و فى المجموعتين أسماء لم يتم تحديدها بعد، لكن كليهما تضم أسماء حكام و مدن واضحة. ففى المجموعة الأولى، و هى الأصغر، ترد أسماء عسقلان و اورشليم و رحوب و عرقتا (على الشاطيء الفينيقى الأوسط)، و كذلك بلاد شوتو (لعله يعنى أبناء شيت- العمونيين و المؤابيين). أما الثانية، و هى الأوسع، و تضم رسوما تصف أسرى حرب، ففيها أسماء كثيرة واضحة الهوىة، منها: اورشليم و أفيك و شيكم و أخشاف و مشال و رحوب و حاصور و صور و عرقات و بقعات (البقاع) و شريون و لبو (ربما لبو- حماة) و أبوم (دمشق؟) و عشروت، و كذلك أراضى شوتو و كوشو، و بالطبع جبيل، المعروفة بعلاقتها الوثيقة مع مصر.

و أسماء الحكام فى المجموعتين سامية غربية على العموم، و هى ترد فى الكثير منها مركبة، تشتمل على أسماء الآلهة، مثل: إيل و هداد و حورون و شمش و غيرها، و هى الآلهة المعروفة لدى العموريين و الكنعانيين. و يتأكد هذا الأمر من المصادر الأكادية المسمارية المعاصرة. و هذا يدل على التجانس الإثنى، ليس فى فلسطين فحسب، بل فى بلاد الشام كلها، و كذلك فى العراق فى هذه

الفترة- أى ما بعد السومريين- وصولاً إلى مصر في حكم الهكسوس. هذا في الوقت الذي بدأت جماعات هندية-أوروبية، آتية من الشرق و الشمال الشرقي، تضغط على المنطقة بغرض التوغل فيها.

و بين مجموعتي الأسماء فرق ذو دلالة، يعتقد أنها تمتّ بصله إلى طبيعة التنظيم السياسي في الأماكن الواردة أسماؤها في الكتب. ففي المجموعة القديمة يرد أكثر من اسم شخص واحد في مدينة معينة، الأمر الذي اعتبر دلالة على الطابع القبلي للمجتمع، إذ حافظ كل رئيس على زعامته لقبيلته، و إن أقام في مدينة واحدة مع آخرين. أما المجموعة الثانية فهي تورد على العموم اسماً واحداً في كل مدينة، هو الحاكم، و استدل من ذلك على تبلور سلطه مركزية موحدة قائمه على وحدة استيطانية، بدلا من الوحدة القبلية، و بالتالي تشكل مدن-الدولة. و الأمر بالطبع، يتباين عنه في سورية، إذ الممالك كانت أكبر و أقوى.

إن قدرة العموريين على إقامة إمبراطوريتين في آن معا، إحداهما هكسوسية في مصر، و الأخرى بابلية في العراق، كان لا بدّ من أن تستند إلى كثافة سكانية في بلاد الشام، حيث تبلورت شخصيتهم. و حتى في غياب النصوص المكتوبة، فالأعداد الكبيرة من المدن المسورة التي اكتشفت في نواحي بلاد الشام كلها، و التي تعود إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٧

بداية الألف الثاني قبل الميلاد، تشير إلى عصر من الازدهار الكبير. و الكثير من هذه المدن يقع على طرق التجارة الدولية، الأمر الذي أدّى إلى نموها و تقويتها بسرعة.

و التحصينات الضخمة، كما القصور الملكية الفخمة، و المباني العامة الباسقة، تؤكد جميعها أن هذه المدن كانت بمثابة دول قوية و غنية، تحكم محيطها، و تسيطر على جزء من التجارة الدولية، كما تقيم علاقات متشعبة مع مثيلاتها.

و يظهر من اللوحات المسمارية المكتشفة في ماري (تل الحريري) و الالاح (تل عطشانة) في سورية، و كذلك من «كتب اللعنات» المصرية، أن العموريين كانوا قد أنشأوا سلالات ثابتة في مدن-الدولة التي انتشرت في بلاد الشام. و منها توغلوا في مصر و أسسوا إمبراطورية الهكسوس، كما فعلوا ذلك سابقا في العراق و أسسوا إمبراطورية بابل الأولى، التي بلغت أوج ازدهارها و اتساعها أيام حمورابي (١٧٢٨-١٦٨٦ ق.م.). و بينما عرفت الممالك في سورية بأسماء مدنها: ماري و يحاض (حلب) و قطنا و الالاح و غيرها، فإن المصادر أطلقت على فلسطين اسم أرض- كنعان (كناخني أو كنيانخي)، سواء في وثائق نوزي العراقية، أو تل العمارنة المصرية.

و تشير الدلائل إلى أن فلسطين، في نهاية الألف الثالث و بداية الألف الثاني قبل الميلاد، كانت تمرّ بمرحلة من التحوّلات الكبيرة سياسيا و اجتماعيا، إسوة ببلاد الشام عامة. فالمدن-الممالك تزداد عددا، و هي تتطور عمارة و بنية، كما تشهد ازدهارا و استقرارا، الأمر الذي يشير إلى تبلور السلطه أو السلطات المركزية التي أصبحت عاملا سياسيا مهما في المنطقة بأسرها. و تؤكد ذلك أعمال التنقيب في جبيل و أوغاريت و حماة و بيت شان و مجدو و جيزر و العيّ (التل) و غيرها. و شهدت بلاد الشام في هذه الفترة قيام ممالك عمورية (كنعانية) قوية مثل: ماري و طرقة و حران و يحاض و الالاح و قطنا و قادش و حاصور و مجدو و غيرها.

و حتى بعد طرد الهكسوس من مصر، حافظت الممالك العمورية على قوتها و سيادتها في الهلال الخصيب. و على الرغم من غياب وحدتها السياسية، فقد جمعتها وحدة حضارية، و ظلت العلاقات بين تلك الممالك قوية، و في مجالات متعددة، أهمها التجارية و الدبلوماسية. و إذ وقعت فلسطين، و خصوصا جنوبها، تحت النفوذ المصري، فقد بقيت، بابل في حوض دجلة و الفرات و آشور في أعالي الدجلة و يحاض في شمال سورية و قطنا في أواسط مجرى العاصي و حاصور في شمال فلسطين و أوغاريت و جبيل على الساحل الفينيقي، ممالك قوية و مزدهرة اقتصاديا.

كما قامت ممالك جديدة إلى الجنوب من ماري، في خانة و طرقة على الفرات الأوسط.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٨

و بعد طرد الهكسوس من مصر (منتصف القرن السادس عشر قبل الميلاد)، و مطاردهم حتى مدينة شاروحن (تل الفارعة الجنوبية)،

و بالتالى وقوع جنوب فلسطين تحت النفوذ المصرى، فإن الوضع لم يتغير بصورة جذرية، إذ إن المصريين لم يستبدلوا السكان، بل اكتفوا بضمان السيطرة عليهم. و من هنا، فالكنعانيون، الذين تربطهم صلات عرقية و حضارية و لغوية، مع الممالك السورية، التى بدورها أقامت صلات وثيقة مع العراق، شكلوا حلقة وصل، أو فصل، بين المركزين الحضاريين - مصر و العراق - و أدوا دورا مهما فى العلاقات بينهما، سلبا أو إيجابا، تبادلوا حضاريا، أو صراعا سياسيا، بكل ما نجم عن ذلك من تاريخ مشترك.

و فى هذا الإطار، و استنادا إلى الخلفية السياسية لقيام إمبراطورية الهكسوس و سقوطها، و إلى أرضية العلاقات الدولية التى تبلورت نتيجة قيام الممالك و الإمبراطوريات فى الشرق الأدنى القديم، أدى الموقع الجغرافى لفلسطين دورا حاسما فى صوغ تاريخها فى هذه المرحلة. لقد تعلم المصريون درسا مفاده أن خط الدفاع الأول عن الدلتا هو فلسطين، على الأقل جنوبها. لكنهم لم يعمدوا إلى الاستيطان فيها، بل اكتفوا بتعيين مندوبين لهم، تدعمهم قوة عسكرية محدودة، لضبط حركة الحكام المحليين، الأمر الذى أدى إلى تنشيط الحركة التجارية بين مصر و سوريا و العراق عبر المدن الكنعانية الواقعة على الطرق الدولية.

فعداء طرد الهكسوس أصبحت مصر تنظر إلى غرب آسيا نظرة جديدة، و خصوصا لأهميتها الاستراتيجية فى ضوء التطورات الجارية إلى الشمال - بروز دولة ميتانى (الكوشية)، و إمكان تهديد مصر مرة أخرى على غرار ما فعل الهكسوس.

و إذ كان الهمم فى البداية دفاعيا، و بالتالى اتخذ صيغة الحملات التآديبية، فسرعان ما تحوّل إلى سياسة هجومية، ترمى إلى فرض السيادة الدائمة، بما يعنيه ذلك من الحضور السياسى و العسكرى الثابت. و منذ البداية، و عى المصريون أن السيطرة على أرض - كنعان لا - تستتب عبر تغيير حكام المدن فيها، فأبقوا عليهم، و وضعوا لأنفسهم سياسة، تجمع بين الترهيب العسكرى و الترغيب الاقتصادى، للحفاظ على سلطتهم فيها.

و الحروب التى شنها فراعنة السلالة الثامنة عشرة (١٥٧٠ - ١٣١٠ ق.م)، أكان ذلك فى النوبة جنوبا أو أرض - كنعان شمالا، قد بدأت عصرا جديدا فى مصر، هو عصر الإمبراطورية. ففى السابق، و منذ تأسيس الفرعونية، كانت لمصر مناطق نفوذ، سواء فى الجنوب - النوبة - أو فى الشمال الشرقى - غرب آسيا - و لكن هذه المناطق لم تضم، أو يجرى استيطانها مصريا. أما الآن، فقد دخلت مصر على سكة

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٦٩

التوسع، و اختارت المبادرة إلى الاشتباك بالشعوب المجاورة، و العمل على إخضاعها و تسخير طاقتها البشرية و مواردها الطبيعية فى خدمة أغراضها هى.

كانت النوبة مهمة للفراعنة بسبب مناجم الذهب فيها، و كذلك الطاقة البشرية.

أما أرض - كنعان، فأهميتها استراتيجية أولا، و اقتصادية ثانيا. فمن الناحية الاستراتيجية، باحتلال فلسطين ينقل المصريون ساحة الصراع مع منافسيهم فى غرب آسيا إلى خارج حدودهم. و من الناحية الاقتصادية، الهيمنة على فلسطين تعنى السيطرة على طرق التجارة الدولية، و بالتالى التحكم فى حركة البضائع التى تمر بها.

و فى فلسطين كان يمرّ طريقان مفصليان فى التجارة الدولية آنذاك: الأول على الساحل، و هو طريق البحر، و الثانى فى الداخل، و هو طريق الملك، و الفراعنة أرادوا وضع يدهم عليهما.

فى النوبة أقام الفراعنة إدارة دائمة، فبنوا مدنا و قرى، و شحنوها بالجنود و المستوطنين. أما فى أرض - كنعان، فلم يفعلوا ذلك، بل عمدوا إلى الإفادة من الإدارة القائمة، و رفدوها بمندوبين من قبلهم، تدعمهم حاميات عسكرية، محدودة العدد و العدة. و فضلا عن ذلك، استخدموا قوة الردع التى شكلتها الحملات العسكرية التآديبية المتتالية. و يبدو أن المصريين وعوا حدود قدرتهم على ضبط الأوضاع فى فلسطين، آخذين فى الاعتبار إمكاناتهم الذاتية و الواقع السكانى فيها، و ما له من روابط مع بلاد الشام و العراق. و بناء عليه، زواجوا بين الترغيب و الترهيب، تحاشيا لدفع الكنعانيين إلى الوحدة و الانحياز إلى أبناء عمومهم فى الشمال ضد التغلغل

المصرى في غرب آسيا. و لكن هذه السياسة لم تصب نجاحا كاملا.

و عندما تهيأت أوضاع مصر لتبنى سياسة توسعية، كانت فلسطين، أسوة بكل الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط، قد بلغت شأوا حضاريا و سياسيا يصعب إلغاؤه بهزيمة عسكرية. فالمجتمع العمورى- الكنعانى فى هذا العصر (منتصف الألف الثانى قبل الميلاد)، كان يتمحور حول عدد من مدن-الدولة، تتفاوت حجما و قوة. و مع أنها شكلت وحدة حضارية- لغوية، إلا إنها افتقدت مقومات الوحدة السياسية. و مع ذلك، فقد قام فيها من تطلع إلى القيام بدور المركز السياسى، أو ادعى ذلك، و سعى لإقامة ملكية كبيرة، كما حدث فى حاصور و قادش و تونب (وسط سورية) و نوخاشى (جنوب حلب) و أوغاريت و غيرها، على سبيل المثال لا الحصر.

و بتولى السلالة ١٨ السلطة فى جنوب وادى النيل، نحو سنة ١٥٨٠ ق. م، بدأت مرحلة جديدة فى تاريخ مصر، عرفت باسم المملكة الجديدة، امتدت ٤٠٠ عام، تعاقبت فيها على السلطة السلالات ١٨ و ١٩ و ٢٠. و فيها بلغت مصر ذروة

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٧٠

عظمتها. و كان أحمرس الأول، مؤسس السلالة ١٨، هو الذى قضى على إمبراطورية الهكسوس، و احتل عاصمتهم أفارس. و من ثم طاردهم إلى جنوب فلسطين و حاصر القلعة الحصينة شارو حين مدة ثلاث سنوات، و احتلها و دمرها. و بذلك أسس رأس جسر على الساحل الفلسطينى، قاعدته فى مدينة غزة.

و ما كان لأحمرس أن يبادر إلى هذه السياسة الجديدة، و بالتالى ينخرط فى الصراعات الدائرة فى غرب آسيا، لو لا شعوره بالخطر الذى يهدد مصر من الشمال الشرقى، سواء من فلسطين، أو من ورائها. و إذ لم يكن مستعبدا أن يعود الهكسوس لغزو مصر، فقد برزت أيضا قوتان إلى الشمال من الهلال الخصيب، راحتا تضغطان جنوبا فى اتجاه شمالى سورية و العراق. فبينما بدأ الحثيون يتحركون من أواسط أناضوليا فى اتجاه الممالك العمورية فى شمال سورية، راح الحوريون، من جبال زاغروس، يضغطون على آشور فى شمال العراق. و مثل هذه التطورات ما كانت لتغيب عن أذهان حكام مصر الذين تخلصوا لتوهم من حكم الهكسوس.

عشية طرد الهكسوس من مصر، برز الحثيون فى أواسط الأناضول، و تمددوا جنوبا فى اتجاه شمال سورية، فدمروا الالاخ، و كذلك أرشو (شمال كركميش)، و من ثم هاجموا يمحاض (حلب) و خربوها. ثم ما لبثوا أن أغاروا على بابل و قضوا على ملكها. و لأسباب داخلية تراجعوا و انشغلوا فى صراعاتهم بشأن السلطة. و بذلك فتحوا الباب أمام الكاشيين (الكوشيين) لقطف ثمار حملتهم على بابل، و كذلك الحوريين للتمدد فى شمال سورية، و منها إلى فلسطين. فالحوريون، الذين أقاموا مملكة ميتانى (١٥٥٠ - ١١٢٠ ق. م). توسعوا غربا إلى كركميش و حلب و الالاخ، ثم جنوبا إلى قطنا و قادش. و يعتقد أنهم الذين قضوا على مملكة حاصور القوية فى شمال فلسطين.

و لعل نشاط الحوريين هو الذى حرك الفرعون العظيم تحتمس الأول (١٥٣٥ - ١٥١٠ ق. م)، للقيام بحملته الشهيرة إلى فلسطين و سورية، و وصولا إلى الفرات الأعلى. و تفيد المسئلة التى أقامها على الجانب الأيسر من الفرات، أنه اصطدم بالحوريين و هزمهم، إلا إنه لم يقض عليهم. و على الرغم من الانتصارات التى حققها، أو ادعاها، فى حملته هذه، فقد ظلت محدودة الأثر، و لم تنه الوضع فى سورية و فلسطين لمصلحة مصر. و على العكس، فبعد عودة الفرعون من حملته، و بروز مشكلات داخلية فى مصر، عادت ميتانى لتمارس نشاطها فى بلاد الشام و العراق، و تصبح المنافس الرئيسى لمصر بشأن النفوذ فى غرب آسيا.

و فقط عندما استتب الحكم فى مصر، و تسلم زمام السلطة تحتمس الثالث (١٥٠١ - ١٤٤٧ ق. م)، تجددت الحملات المصرية على فلسطين و سورية. و لعل

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٧١

السبب فى ذلك يعود إلى تحرك ملوك كنعان، بقيادة ملك قادش، و ربما بالتحالف مع ميتانى، لإنهاء النفوذ المصرى فى فلسطين. و كانت لملك قادش كما يبدو أطماع توسعية فى فلسطين. و تحرك الفرعون سنة ١٤٨٠ ق. م. لترسيخ الحكم المصرى فيها، و التقى

ملوك كنعان في معركة مجدو وهزمهم، إلا إنه عاد من دون القضاء عليهم، الأمر الذي استلزم القيام بحملات كثيرة لاحقا لإخضاع بلاد الشام للحكم المصري، و درء الخطر الحورى.

و فى نقوش سيرته، ترك تحتمس الثالث معلومات و فيرة عن بلاد الشام فى أيامه. و تبرز دولة قادش (فى أواسط نهر العاصى) كمحرك رئيسى ضد مصر، و كما يبدو، ليس بمعزل عن التحالف مع ميتانى. و فى أحد تلك النقوش يصف المعركة الكبيرة ضد تحالف ملوك كنعان بالقرب من مجدو. و قد باغت الفرعون أعداءه، عبر سلوكه طريق وادى عارة الضيق، الأمر الذى لم يتوقعه هؤلاء. و هكذا فرض عليهم القتال فى مرج صغير (قنا)، و حرمهم من الإفادة القصوى من مركبات الحرب الكثيرة التى جمعوها. لكن الجنود المصريين انصرفوا مبكرا إلى نهب المعسكرات، الأمر الذى أتاح الفرصة لملوك الحلف الكنعانى من أجل التحصن فى مجدو، و بالتالى، التفاوض على شروط التسليم بسيادة مصر عليهم.

و يقول الفرعون متفاخرا: «وقف جلالتي الملكية، و سمح لهم [الحكام بالعودة إلى مدنهم و سافروا جميعا يركبون الحمير لأنتى أخذت خيولهم.» و فى الواقع، و بعد حصار دام سبعة أشهر، من دون القدرة على اجتياح أسوار مجدو، رأى الفرعون القبول بشروط التسليم التى طلبها ملوك كنعان المحاصرين فأعطاهم العفو العام، عنهم و عن جنودهم و عائلاتهم، شرط أن يقبلوا السيادة المصرية، و يسلموا أسلحتهم و خيولهم. و إذ تم الاتفاق، و عاد كل منهم إلى بلده، إلا إن أمر السيادة لم يستتب.

و اضطر الفرعون إلى العودة إلى بلاد الشام فى ١٥ حملة، استطاع فى نهايتها إخضاع سورية كلها لحكمه. و لكن ذلك كان إلى حين فقط، إذ عاد ملوك كنعان إلى التمرد على سلطة الفرعون، المرة تلو الأخرى.

و فى عهد تحتمس الثالث، وصلت الإمبراطورية المصرية ذروة قوتها و توسعها.

فقد خضعت له بلاد الشام، لكنها لم تسلّم بالأمر، و خصوصا مملكة قادش فى سورية، إذ ظلت تتحين الفرص للتمرد على الحكم الفرعونى. و كذلك، و على الرغم من الهزيمة التى لحقت بدولة ميتانى الحورية، فى معركة كركميش سنة ١٤٧٢ ق. م، فإنها لم تسقط، بل ظلت تصارع بشأن البقاء و السيادة، على الأقل فى شمال شرقى سورية. ثم عادت و دعمت قادش فى تمردا سنة ١٤٦٣ ق. م، و هذا ما اضطر

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٧٢

تحتمس إلى مهاجمتها و احتلالها. و ظل الصراع قائما بين ميتانى و مصر حتى سنة ١٤١٥ ق. م، إذ عقد الطرفان معاهدة سلام بينهما، قامت على أساس نوع من توازن القوى.

و يتضح من الإجراءات التى اتخذها تحتمس الثالث إنه اعتبر الأراضى التى فتحها فى بلاد الشام وحدة خاصة فى الإمبراطورية المصرية. و الظاهر أنه أبقى على التقسيم الإدارى كما كان أيام الهكسوس، و فى أغلب الأحيان، أبقى على الحكام المحليين الذين أقسموا على الطاعة و الولاء له. إلا إنه عين مندوبين له لمراقبة الأوضاع، و جباة لجمع الضرائب و الأتاوات، و رفدهم بحاميات عسكرية، و أقام قلاعاً لهذه الحاميات، كما فى بيسان مثلا، و علاوة على ذلك، كان يقوم بين الحين و الآخر بحملة عسكرية، ربما سنوية، لتدعيم هيئته، أو لقمع تمرد ما.

و لضمان ولاء الحكام و النبلاء له، عمد تحتمس إلى أخذ بعض أبنائهم رهائن فى بلاطه. و منهم من خدم فى جيش الفرعون، و تثقف على خدمته و الولاء للحضارة المصرية، و من صفوفهم استبدل الفرعون الحكام الذين تمردوا عليه. و كان المنظور الفرعونى العام إزاء هذه الولايات أنها بمثابة حزام أمنى لأراضى الإمبراطورية فى مصر، و مصدر للدخل و المواد الخام و البضائع. و فضلا عن المهمات القتالية عند الحاجة، و الإجراءات الأمنية الجارية، كانت الولايات تدفع ثلاثة أنواع من الضرائب:

(١) عينية: منتوجات زراعية و صناعية تحتاجها مصر؛ (٢) طاقة بشرية: عمال فى المعابد و أراضى الملك و النبلاء؛ (٣) فتيان للخدمة فى بلاط الفرعون و جيشه، و فتيات للعمل كإماء فى قصور الطبقة الحاكمة.

والانتصارات التي حققها تحتمس الثالث، بإخضاع بلاد الشام و تحجيم دولة ميتاني، جعلته القوة الرئيسية في الشرق الأدنى القديم، و أصبح الجميع يخطب وده، و يرسل إليه الهدايا، و يسعى لإقامة علاقات صداقة معه. و لكن ذلك لم يدم طويلا. فالضرائب الثقيلة التي فرضها على السكان أرهقت كاهلهم، و الأتاوات التعسفية التي اقتصها منهم، بالمال و الرجال، ضيقت عليهم الخناق، و بالتالي زادت في حدة التذمر، و تحين الفرص للتمرد. و قد وقع ذلك فعلا، الأمر الذي اضطر خلفاء تحتمس إلى القيام بحملات جديدة لقمع الاضطرابات. و قد لجأ هؤلاء إلى سياسة الإجماع للسكان المحليين إلى مصر، و تشغيلهم هناك في الأعمال العامة، أكان ذلك للملك أو للمعابد.

و بعد توقيع معاهدة الصداقة بين ميتاني و مصر، سادت فترة من السلام في المنطقة، و خصوصا بعد تحديد مناطق النفوذ بينهما في بلاد الشام، و بالتالي تبعية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٧٣

الممالك الكنعانية المحلية لكل منهما. و كان مجرى العاصي، على العموم، هو الحد الفاصل، الأمر الذي يعنى أن فلسطين و الساحل الفينيقي كانا من نصيب المصريين.

إلما إنه في نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد، عاد الحثيون إلى البروز بقوة على مسرح الأحداث. فقضوا على ميتاني سنة ١٣٧٧ ق. م.، و واصلوا زحفهم في أراضى سورية، معتبرين أن مناطق نفوذ ميتاني هي ميراثهم الشرعي.

و اندلع الصراع بين مصر و الحثيين، الذين سعوا لإثارة القلاقل في مناطق النفوذ المصري، لكنهم لم يقدموا على احتلالها. و طالت الحرب بين الحثيين و المصريين، و استمرت أكثر من قرن، عجز فيها الطرفان عن الحسم، نظرا إلى توازن القوى بينهما، و أيضا بسبب بعدهما، كل عن عاصمه الآخر، كما أن الممالك الكنعانية في بلاد الشام كانت لها حسابات خاصة بها، تسعى لتحقيقها من خلال توظيف الصراع بين القوتين لمصلحتها. و منذ منتصف القرن الرابع عشر، بدأت قبضة مصر على أرض - كنعان تضعف، ليس إزاء الحكام المحليين فحسب، بل أيضا تجاه قبائل رحاله، عرفت باسم العاييرو (الحاييرو) من جهة، و تجاه الحثيين، من جهة أخرى. و مات توت عنخ أمون من دون وارث، و سعت أرملته للتحالف مع ملك الحثيين - شوبيلوليوما - و حتى الزواج منه، إنقاذا لعرشها، لكنها لم تفلح.

و على أرضية الصراع الداخلي بين الفرعون و طبقة الكهنه، الذي اتخذ طابعا لاهوتيا أيام أخناتون، و إزاء التهديد الحثي من الشمال، و اختلال الأمن في أرض - كنعان، بفضل العاييرو الرحل، قامت السلالة ١٩ في مصر (١٣٢٣ - ١١٩٠ ق. م).

تقريبا). و ذلك بعد موت توت عنخ أمون من دون وارث، و تولى بعض قادة الجيش ضبط الوضع الداخلي، إزاء عجز أرمله الفرعون عن ذلك. و سعى فراعنه هذه السلالة، بدءا بمؤسسها، القائد رعمسيس (رامسيس) الأول (١٣٢٣ - ١٣٢١ ق. م).

تقريبا) لاستعادة موقع مصر في غرب آسيا. و تبعه ابنه سيتي و حفيده رعمسيس الثاني، بانتهاج سياسة تذكر بتلك التي قادها تحتمس الثالث من السلالة ١٨. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي ؛ ص ٧٣

بصعود السلالة ١٩ إلى الحكم في مصر، بدأت مرحلة جديدة من تعاضم قوتها و توسعها، و ظهرت آثار ذلك في فلسطين أولا. فرعمسيس الأول، الذي حكم فترة قصيرة، لم يوجه اهتمامه إلى الولايات المصرية في آسيا. لكن ابنه سيتي الأول، الذي حكم نحو

عشرين عاما (١٣٢١ - ١٣٠٢ ق. م). تقريبا، سارع إلى استعادة سيادة مصر في غرب آسيا. فأقام الحصون على الطريق المؤدى إلى فلسطين في شمال سيناء. و قام بحملات تأديبية ضد القبائل الرحاله (شوسى)، التي كانت تهدد تجارة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٧٤

مصر مع بلاد الشام، بل قطعت الطريق الدولي عند غزة. و كانت هذه الحملة بداية نشاطه.

و عاد سيتي إلى فلسطين، و تجاوزها شمالا و اصطدم بالحثيين. ثم سارع إلى إنقاذ الحامية المصرية في بيسان، التي حاصرها تحالف

كنعاني بين ملوك: فحل ورحوب و ينوعام (على منابع الأردن). و لم يجد سیتی صعوبه في دحر هذا التحالف، على الرغم من الإزعاج الذي سببه العاييرو لمؤخرة جيشه. و في ينوعام تقبل مراسم طاعة حكام لبنان، ما عدا عمورو التي استطلت بحماية الحثيين. ثم قام بحمله أخرى، غير حاسمة، ضد قادش و عمورو، و الأكيد أنه اصطدم بالحثيين. و ترك سیتی مستلين - إحداهما مكسورة، في قلعة بيسان - تمجدان انتصاره على تحالف ملوك كنعان، و في المسلة المكسورة، التي يصعب تحديد زمانها بالدقة، يرد ذكر العاييرو بين القوى التي هزمها «الفرعون العظيم».

و في نهاية القرن الرابع عشر قبل الميلاد، مات العدوآن اللدودان: سیتی المصري، و مورسيلي الحثي، و احتل مكانهما ابناهما الشابان. و كان رعمسيس الثاني (١٣٥٠-١٢٣٣ ق.م. تقريباً) هو المبادر إلى فتح الصراع على الجانب المصري.

فقام بحمله على مملكة عمورو في شمال لبنان، و لم يشتبك مع الحثيين، لكن الحرب معهم بدأت فعلا. و قد نقش رعمسيس الثاني مسلة على نهر الكلب تخلد الحملة. و في عام حكمه الرابع، كما يرد في سيرته، خرج على رأس أربعة فيالق، من المشاة و الفرسان، و التقى الحثيين عند قادش، و دارت معركة شارك فيها أكثر من ٢٠,٠٠٠ رجل على الجانبين، و لعلها الأفضل توثيقاً من أية معركة أخرى معروفة، قبل معركة الماراثون بين الفرس و اليونان سنة ٤٩٠ ق.م.

و يفاخر رعمسيس، الذي نجا من الموت بأعجوبة، بفضل شجاعته و تردد ملك الحثيين، بأنه أحرز النصر في المعركة. و لعله على حق، مع أن الصراع مع الحثيين لم يحسم، و قادش لم تسقط بيده، و عمورو عادت إلى الانحياز إلى الحثيين، و كنعان تمردت فور انسحابه منها عائداً إلى مصر. و لذلك، اضطر رعمسيس إلى القيام بحملة أخرى إلى فلسطين، و دمر المدن، و مع ذلك عمد إلى عقد معاهدة سلام مع الحثيين. و بنود هذه المعاهدة الدبلوماسية الدولية وصلت إلينا بصيغتها - الحثية و المصرية. و هي تشير إلى توازن القوى بين الدولتين. و أقرّ الطرفان بالحدود بينهما، كما كانت أيام سیتی الأول. و قد توصلنا إليها بعد الاقتناع بعثية استمرار الحرب بينهما، و خصوصا أنهما يواجهان عدواً مشتركاً، هو شعوب البحر. و صارت المنطقة التابعة للحكم المصري تعرف باسم أرض - كنعان، الوارد ذكرها في التوراة.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٧٥

و يعتبر تل القدح (أو تل وقاص)، و هو موقع المملكة الأهم في فلسطين في تلك الفترة - حاصور - أكبر مواقع هذا العصر في فلسطين. و تبلغ مساحته نحو ٧٠٠ دونم. و قد كشفت الحفريات فيه عن مبان ضخمة متنوعة، أهمها الأ-كروبولس، الذي يعود إلى عصر الهكسوس، و قصر كبير عند البوابة، التي يعتقد البعض أن سليمان بناها لاحقاً. و يرد ذكر حاصور في وثائق ماري، من العهد البابلي القديم. و يظهر أن الموقع كان يوازي بأهميته الدول العمورية الكبيرة في شمال سورية، مثل: يمحاض (حلب) و قطنا (تل المشرفة) إلى الشمال من حمص و كركميش و إبلا (تل مردوخ).

و تحتل مجدو (تل المتسلم) في مرج ابن عامر، عند مدخل وادي عارة، الذي يشكل حلقة في طريق البحر الدولي المهم، موقعا استراتيجيا مرموقا. و قد كشفت الحفريات فيها، و في عدد من المواقع الأخرى، آثارا معمارية فخمة من هذا العصر.

و يبقى مصطلح كنعان مبهما. و يرجح أنه اشتق من صنعة صباغة الأرجوان، أو التجارة به، و التي مارسها السكان في عصر البرونز، الذين تطلق التوراة عليهم لقب «التجار» (أشعيا ٢٣: ٨). و الكنعاني وفق هذا المعنى هو تاجر البضائع الأرجوانية، أو صانعها، الذي أوجد لها سوقا في مصر، و عرف بها. و أطلق الاسم على سكان المدن الفينيقية الساحلية، و تطور ليشمل المنطقة جغرافيا، و يكتسب مضمونا إثنيا، فأصبح يدل على الأرض و السكان معا. أما كيف كان الكنعانيون يسمون أنفسهم، فليس لدينا ما يدل على ذلك في وثائق تعود إليهم. و هناك من يقول إن الاسم مشتق من الفلاحه، و الكنعاني هو الفلاح، ساكن المروج، العامل بالزراعة، خلافاً ل «العاييرو» أو «الشاسو» أو «الشوتو»، من الأقوام الرحل.

على العكس من الكنعانيين، الذين تعرضت علاقتهم التاريخية بفلسطين إلى محاولات الطمس والتبديد، فقد جرى إبراز علاقة العبرانيين بها وتضخيمها، إلى حد شيوخ فكرة الترابط التاريخي بينهم وبينها. وهذا تشويه متعمد للتاريخ. و تشويه آخر جرى تعميمه هو الخلط، الذي لا يخلو من قصد، بين العبرانيين و بنى إسرائيل، إذ سوّى بينهما، وهو ليس صحيحا، إذ إن العبرانيين شىء، و بنو إسرائيل شىء آخر.

و بفعل هذا التشويه صارت فلسطين تعرف على نطاق واسع باسم أرض - إسرائيل. و قد أدّت الدراسات التوراتية، و ليس من قبل اليهود فقط، دورا رئيسيا فى هذا التشويه الشائع. لقد جهد حملة لواء الدراسات و الآثار التوراتية فى توظيف غموض المصادر

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٧٦

الأخرى، أو غيابها، فى غير مصلحة علاقة الكنعانيين و سواهم بفلسطين. و لكنهم - و على العكس من ذلك تماما - عندما كان الأمر يتعلق بالعبرانيين عملوا على سدّ الثغرات بتأويلات و اجتهادات لا تصمد أمام النقد العلمى. و زجت التوراة، التى هى كتاب دينى فى الأصل، و ليس مصدرا تاريخيا، فى خدمة هدف تغييب الشعوب التى عمّرت فلسطين، و بالتالى إبراز الحضور الإسرائيلى، الذى استحوذ بدوره، من دون غيره، على الإرث العبرانى فى تاريخ فلسطين. و راح الباحثون فى الدراسات و الآثار التوراتية يواجهون معارضتهم فى الرأى بالسؤال: هل لديكم مصدر أفضل يدحض ما تورده التوراة؟

و فى الواقع، فإن ما يتوفر حتى الآن من مصادر مكتوبة و غيرها، يدحض الرواية التوراتية، ليس فى العام فحسب، بل فى الخاص أيضا. ففى المصادر - المصرية و العراقية و السورية - لا توجد إشارات معاصرة لما تسميه التوراة أبناء إسرائيل، أو لمن له علاقة توراتية بهم، قبل القرن الثانى عشر قبل الميلاد، و حتى فى القرون اللاحقة، بما فى ذلك مملكة داود و سليمان، فالإشارات قليلة جدا، و لا توحى بأهمية خاصة لهذه الظاهرة المركزية فى التوراة. فى المقابل، هناك غياب لأية دلائل فى التوراة، تنم عن معرفة كتبها بمصر و العراق أو بلاد الشام، فى الألف الثانى قبل الميلاد، و الذى تسميه الدراسات التوراتية عصر الآباء، أى عصر إبراهيم و إسحاق و يعقوب، و لا حتى معرفة محددة بمسألة دخول العبرانيين إلى مصر، و خروجهم منها، و الروايات متناقضة.

و يلفت الانتباه حقا غياب أى ذكر فى التوراة للإمبراطورية المصرية التى كانت تحكم أرض - كنعان فى عصر الآباء، كما تسميه. و كتبه التوراة لا علم لهم بالحملات الفرعونية المتكررة فى غرب آسيا، و لا بالتغلغل الحورى و الحثى. و ليست لهم دراية بحكام مدن - الدولة المنتشرة فى كل أرجاء البلد، و حتى أسماء الفراعنة العظام فى هذه الفترة الطويلة غير معروفة لديهم. فى المقابل، هناك عملاقة لشخصيات لم تجد المصادر الخارجية أية أهمية لذكورها، فغابت عنها تماما. و علاوة على ذلك، هناك خلط بالأحداث و بأسماء المواقع و التواريخ. و مثل هذا الجهل بالواقع الذى حاول كتبه التوراة توظيفه، يضع علامة استفهام كبرى على تأريخية الروايات التوراتية.

و يتضح لنا من الأمور المعروفة حتى الآن عن تاريخ الشرق الأدنى القديم، و هى غير قليلة، أن بؤرة اهتمام التوراة هى جماعة هامشية، لم تترك بصماتها على المحيط الذى عاشت فيه. و لذا، فالأهمية الكبيرة التى يوليها كتبه التوراة لهذه الجماعة - العبرانيين و الإسرائيليين - لا تجد لها صدى فى المصادر الأخرى. و بناء

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٧٧

عليه، تبقى التوراة على العموم المصدر الوحيد تقريبا عن هذه الجماعة. و الجهد الضخم الذى بذله هؤلاء الكتبة فى تصنيف و تحرير الروايات المتناقلة داخل الجماعة، و فى صوغها المتأخر على صورة تاريخ الأمة اليهودية، لا يجد ما يدعمه، لا فى المصادر التاريخية الأخرى المعروفة، و لا فى علم الآثار الذى حقق إنجازات مهمة على صعيد المنطقة.

و ما اصطلاح على تسميته علم التاريخ التوراتي، انطلق من عدد من المسلمات و المفاهيم الطوباوية، التي لا تصمد أمام النقد العلمي. و بالتأكيد، فإن المعتقدات الدينية، و هي فعل إيمان، قد أدت دورا رئيسيا في صوغ الفلسفة التي يستند إليها هذا العلم. و بناء عليه، فالروايات التي يوردها الكتاب المقدس، جرى اعتمادها على أساس أنها كتابات تاريخية حقيقية، على الباحثين وزر الكشف عن التعبيرات المادية لها في الواقع. و من هنا، نشأ علم الآثار التوراتي، الذي جاء ليقوم الدليل المادي على صحة تلك الروايات، بينما هو يستند إليها أصلا في تحديد الأحداث و المواقع، الأمر الذي أدخل هذه الدراسات في حلقة مفرغة، (دور) كان نتاجها «تاريخ» يقوم على التفكير الدوري.

و الباحثون الموضوعيون اليوم، في وضع أفضل لإخضاع هذه الروايات التوراتية للتحقيق و التقويم، بالاستناد إلى المصادر الأخرى المتوفرة. و مع ذلك، فهناك وجهات نظر متباينة بينهم. فمنهم من ينفي تأريخية الروايات عن عصر الآباء، جملة و تفصيلا، و يعتبرها أساطير و ملاحم أدبية، كتبت في عصور متأخرة، و من منظور يعالج الماضي بإسقاطات الحاضر، أو العكس. و منهم من يرى فيها نوى حقائق تاريخية، جرى تضخيمها بالمراجعات و أعمال التحرير و التصنيف اللاحقة. و مع ذلك يبقى النهج التقليدي، المتأثر بالانحياز الديني، أو السياسي، شائعا اليوم. و هذا النهج لا يحضه نهج مقابل، يعتمد الأساليب نفسها في البحث عن الحقيقة التاريخية، و يستند إلى روايات تحمل الطابع الأسطوري نفسه.

و أغلبية المؤرخين غير التوراتيين ترى اليوم أن العبرانيين هم العاييرو، أو الحاييرو، الذين يرد ذكرهم في وثائق ماري و نوزي، منذ بداية الألف الثاني قبل الميلاد. و يرد المصطلح في كتب «اللغات المصرية» من تلك الفترة أيضا.

و يفسره البعض أنه يعني «الرحل»، من الجذر السامي «عبر». بينما يعتبره آخرون مصرية، و يفسرونه بمعنى «الرعاة المتنقلين»، أو «مثيري الغبار». و تطلق عليهم المصادر المصرية كنية أخرى، هي «شوسى» أو «شاسو»، التي تعنى «الرحل» (قطاع الطرق). و بناء عليه، فهم من القبائل و الجماعات العمورية بصورة عامة، لم تستقر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٧٨

و تعمل بالزراعة، و إنما ظلت على الأطراف، بين الصحراء و الخضراء، تعمل أساسا بالرعى، أو بالتجارة الدولية، عبر نقل البضائع على دوابها، أو توفير الحماية لها، أو حتى المساهمة الفعلية فيها.

في هذا الإطار، يمكن قبول النوى التاريخية للروايات التوراتية، بعد تجريدها من العنصر القصصى و الأسطوري الذي نسج حولها على مرّ العصور. فالوصف التوراتي للجماعة التي قادها إبراهيم، بخطوطه العريضة، و ما تورده الأسفار الأولى من التوراة عن علاقة تلك الجماعة ببطون أخرى من قبيلتها، ينسجم بالعام، بغض النظر عن الخاص، مع الخريطة السكانية لللال الخصب، في بداية الألف الثاني قبل الميلاد. فإلى جانب سكان المدن المسورة، التي قامت و ازدهرت في ذلك العصر، أكان ذلك في السهول، أو المروج، أو على الطرق الرئيسية للتجارة الدولية، كانت هناك عناصر بدوية متنقلة على أطراف الصحراء، و في المناطق الجبلية قليلة السكان.

و يبدو أن العبرانيين ينتمون في بداية ظهورهم في فلسطين إلى هذه العناصر.

و على افتراض أن قصة رحيل إبراهيم، و غيره من أقاربه و أبناء عشيرته، من العراق إلى فلسطين، مرورا بمدينة حرّان، ليست أسطورة من نسج الخيال، فإنها بالتأكيد لا يمكن اعتبارها تاريخا، لأن التاريخ غائب عنها تماما. و تسترعى الانتباه ظاهرة أن الشخصيات التي تركز عليها الروايات التوراتية- إبراهيم و تيرح و ناحور و لوط و إسحاق و يعقوب و حتى يوسف، لا- يرد لها ذكر في المصادر الأخرى. و إذا أمكن استيعاب ذلك على أساس أن هذه الشخصيات المركزية في التوراة هي هامشية جدا بالنسبة إلى المراكز المدنية الكبرى في ذلك العصر، فإن ما يدعو إلى الاستغراب هو تعذر تعريف شخص واحد من الأسماء الواردة في تلك الروايات بثقة، بالاستناد إلى النصوص التاريخية المتوفرة.

و مشكلة أخرى تواجه الباحث في هذه الروايات، تتعلق بغياب التواريخ، و عفوية استعمال الأعداد. و على افتراض تاريخية الأحداث

المذكورة في أسفار التوراة القديمة، و بناء على الوصف العام للواقع السكاني و الاجتماعي - السياسي، في مناطق تجوال إبراهيم و عشيرته، ففي الإمكان اعتبار حدوث هذه الهجرة في أية فترة خلال ألف عام، منذ سرجون الأكادي إلى الاحتلال الإسرائيلي لبعض أرض - كنعان، أي في الفترة (٢٣٠٠ - ١٣٠٠ ق. م. تقريباً). و تتبلور لدى الباحثين مؤخرًا نظرية تربط هجرة العبرانيين إلى فلسطين، و نزول بعضهم إلى مصر، و من ثم الخروج منها على دفعات، بحركة الهكسوس في بلاد الشام. و يقول البعض إن المسوحات الأثرية في شرق الأردن و جنوب فلسطين تؤيد ذلك.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٧٩

إن الربط بين رحيل العبرانيين و هجرات القبائل العمورية، يضعهما في النصف الأول من الألف الثاني قبل الميلاد. و يرى كثيرون من العلماء أن إبراهيم عاش نحو القرن الثامن عشر قبل الميلاد. و بناء على ذلك، فإن نزول جماعات منهم إلى مصر، حدث على الأغلب في إطار توغل الهكسوس في الدلتا. و قصة يوسف، إذا انطوت على حقيقة تاريخية، فعلى الأغلب أنها وقعت في أثناء حكم الهكسوس، إذ ارتقى في بلاط ملوكهم إلى منصب رفيع. و عبودية العبرانيين في مصر بدأت بعد طرد الهكسوس منها، على اعتبار أنهم كانوا جزءًا من العناصر الغربية المهزومة، التي طردت من مصر، بينما بقي العبرانيون فيها. و خروجهم بقيادة موسى، وقع بعد ذلك بفترة زمنية. و بحسب الرواية التوراتية طالت العبودية مدة ٤٠٠ عام.

و الرواية التوراتية تؤكد أن العبرانيين كانوا جماعة سامية غربية، بدأت رحلتها في جوار مدينة أور في جنوب العراق، و منها إلى حران (حاران) في شمال بادية الشام، التي تفيد وثائق ماري و نوزي أنها كانت مستقرة لقبائل عمورية في بداية الألف الثاني قبل الميلاد. و إذ استقر جزء منهم في حران، تابع الباقون، و منهم إبراهيم و عائلته و أقاربه، الطريق إلى شرقي الأردن و فلسطين. و في فلسطين تنقل إبراهيم و أبناؤه و أتباعه بين النقب و المنطقة الجبلية الوسطى، إلى حدود شيكم (نابلس). و في هذه الأراضي رعوا قطعانهم، بعيدًا عن المراكز الكنعانية الحضرية القوية، و عن متناول يد الحاميات المصرية.

و قصة إبراهيم و أبناؤه و أتباعهم في التوراة تشير إلى جماعة هامشية، تعيش حياة قبلية شبه بدوية، يحكمها نظام اجتماعي أبوي، و تعمل أساسًا في رعي الغنم و الماعز، و تنتقل في المواسم طلبًا للماء و الكلاً. و فقط إسحاق (يتسحاق) عمل بالزراعة الموسمية في النقب الشمالي - الغربي. و هذه الجماعة كانت تضرب خيامها على أطراف المدن، بموافقة حكامها، و تحت حمايتهم. و هذا الوصف التوراتي العام يتطابق إلى حد كبير مع المضمون الاجتماعي لمصطلح عابرو، أو شاسو، المعروف من مصادر أخرى، و الذي يرد في التوراة بصيغة عبرية، دلالة على طبقة اجتماعية بدوية رحالة، ثم أصبح لاحقًا يستعمل للدلالة على بني إسرائيل فقط.

و إذا صح أن العبرانيين هم العابرو، فإنهم يكوّنون جزءًا من طبقة واسعة من سكان الهلال الخصيب، تميّزت بحياة البداوة و عدم الاستقرار، و تنقلت على أطراف الصحراء، إذ لم تكن الأعراف الاجتماعية و السياسية لسكان المدن تسرى عليها.

و عائلة إبراهيم بالذات ارتبطت مع المدن الكنعانية، و خصوصًا حبرون (الخليل) و أورشليم و شيكم، بعلاقات «جوار» (جير، بالعبرية) لفترة طويلة. و إطلاق الاسم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨٠

«عبرانيين» على «إسرائيل» حدث متأخرًا، و من قبل سكان المدن، أي الآخرين، و تبناه «بنو إسرائيل» للتعريف بأنفسهم إزاء هؤلاء الآخرين. و هكذا، و بمرور الزمن، انتحل جزء صغير من هذه الطبقة الواسعة اسمها العام، بينما الأجزاء الأخرى تبنت أسماء مختلفة.

و يستفاد من التوراة أن منطقة ترحال إبراهيم و عائلته امتدت من شيكم في الشمال، مرورًا بمدينة بيت أيل و العي و سالم (أورشليم) و حبرون (الخليل) و بئر السبع في النقب. و الترحال يحدده بلا شك موسم الرعي. ففي الشتاء كانوا ينزلون إلى المنخفضات، وصولًا إلى البادية و النقب، أمّا في الصيف فيصعدون إلى الجبال و المروج، و يتمددون شمالًا حتى دوتان (بالقرب من جنين). و في السنوات الماطرة كانوا يزرعون مجاري الأودية في النقب الشمالي قمحا و شعيرا، كما فعل إسحاق في وادي جرار (وادي غزة). و في سنوات

المحل المتتالية، وصلوا في تجوالهم إلى الدلتا الشرقية.

و في تجواله بالبلاط، كان إبراهيم يعرف باسم أبرام العبري، دلالة على مهنة الرعي التي كان يتعاطاها، و نمط الحياة الذي يعيشه- التنقل و عدم الاستقرار أو الارتباط بملكية الأرض. و هو يشعر أنه غريب في أرض- كنعان- جار- عبر اتفاق يعقده مع حاكم المدينة التي يضرب خيامه على أطرافها، إلى حد أنه يشتري لنفسه قبراً بثمان كامل. و إسحاق يحاول أن يستقر و يتحول إلى الزراعة في وادي جرار (وادي غزة). أما يعقوب فيعمل بالرعاية، و يشتبك مع أصحاب الأراضي التي يجول بقطعانه فيها، و يحاول أخذ الأرض بالقوة- بالقوس و السيف- و ذلك بالقرب من شيكم.

و يعقوب هو إسرائيل، الذي أسبغ اسمه على ذلك الجزء من العبرانيين الذي أصبح يعرف بكنية بني إسرائيل. و بحسب الرواية التوراتية، انقسم العبرانيون أيام إبراهيم إلى مجموعات إثنية، أقامت في جنوب فلسطين و شرقي الأردن. و بعض هذه المجموعات ظل قريبا من بعضه، مثل: أدوم و إسماعيل و مؤاب و عمون، و بعضها ابتعد مثل: قيدم و عماليق و غيرهما. و يمكن الافتراض أنه في نهاية عصر الهكسوس في مصر، و مع توسع المدن و ازدياد قوتها، ضاق مجال حركة القبائل، و دفعت أكثر فأكثر إلى أطراف الأرض الآهلة. و في تلك الأوضاع خرج يعقوب إلى مصر من منطقة بئر السبع. و كذلك ترك عيسو أرض- كنعان، و استقر في سعي (أدوم). و هكذا فعل المؤابيون و العمونيون في الأراضي التي أصبحت لاحقا ممالك لهم. و تصف التوراة هجرة العبرانيين إلى مصر، و بقاءهم في أرض غوشن (الدلتا)،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨١

كمنحة أعطاها الفرعون لهم بسبب يوسف، الذي تبوأ موقعا مرموقا في بلاطه. إلا إنه ليس هناك أي دليل آخر على نزولهم إلى مصر، مقامهم فيها، و خروجهم منها.

و تروي التوراة أنه بعد فترة، استعبدهم الفرعون، و وظفهم في بناء عاصمته، و هو أمر لا يستبعد، و خصوصا بعد طرد الهكسوس من مصر. و في الواقع، فهناك وثيقة من أيام رعمسيس الثاني (القرن الثالث عشر قبل الميلاد) تؤكد استخدام العبيرو في بناء هيكل رعمسيس. و إذ تورد الوثائق المصرية ذكر هروب جماعات مضطهدة من العبيد شرقا إلى سيناء، فإن أسطورة خروج بني إسرائيل من مصر، كما ترد في التوراة، لا تمتلك مقومات الرواية التاريخية.

و من الممكن أن حروب رعمسيس الثاني مع الحثيين، هي التي أتاحت فرصة الهروب للعناصر السامية، التي بقيت في مصر بعد طرد الحكام الهكسوس منها. و بناء عليه، فهذا الهروب وقع في القرن الثالث عشر قبل الميلاد، أيام حكم رعمسيس الثاني الطويل و المليء بالحمولات العسكرية. و في نصب تذكاري من السنة الخامسة لحكم مرنفتاح (نحو ١٢٢٠ ق. م)، يمجّد انتصاره على الفلسطينيين، يرد ذكر إسرائيل كعنصر مستقر في جبال فلسطين الوسطى. و هو كما يظهر في هذه الوثيقة يشير إلى كيان يمتلك ميزات الشاسو، في جبال نابلس. و في ضوء هذا الانتشار القبلي، عاد المصريون إلى تحصين الحاميات العسكرية في بيسان و دير علاً، لحماية طرق التجارة المجاورة.

و لا- يمكن اعتبار الرواية التوراتية عن خروج بني إسرائيل من مصر، و تيهيم في الصحراء مدة أربعين عاما، و ما رافق ذلك من قصص، و ثقفة تاريخية. و باستثناء أساس الحدث، أي عملية الخروج بحد ذاتها، و التي قد تنسجم مع التطورات اللاحقة لطرد الهكسوس، فالتفصيلات الأخرى جميعها لا يمكن اعتمادها كوقائع تاريخية. لقد أصبح هذا الخروج، في الصيغ اللاحقة للتراث الديني اليهودي، رمزا للانعتاق و تبلور شخصية الأمة اليهودية. فأسبغت عليه هالة من القدسية، و أضفى عليه طابع الإرادة الإلهية، و بالتالي أسطورة شعب الله المختار، الأمر الذي استلزم التعظيم على مجريات الأحداث كما جرت في الواقع. و لا غرو أن الأساطير و القصص و العجائب و الخوارق اختلطت في الرواية عن تلك الأحداث.

ليس هناك ما يدعم الوصف العجائبي التوراتي لأحداث و مواقع رحلة الخروج.

والجانب الجغرافي من الرحلة لا يزال غامضا، إذ إن أمكنة عبور البحر الأحمر، و نزول الوحي في جبل سيناء على موسى، وكذلك دخول القبائل أرض - كنعان، غير قابلة للتعريف والتحديد. ومع ذلك، فقد تبلور في التراث اليهودي أن جبل سيناء هو

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨٢

مقر إقامة «إله إسرائيل»، وهناك سلمت التوراة إلى موسى. وفي «التيه» تبلورت شخصية الجماعة التي أسميت أبناء إسرائيل. والتي أسبغ عليها لاحقا مصطلح الأمة اليهودية، وتشكل وعيها لذاتها على أساس «الاختيار الإلهي»، والتمايز عن بقية الشعوب، والفهم الحتمي للتاريخ، وعلاقة هذا التاريخ بالجمع بين اليهود، وما يسمونه أرض إسرائيل، هو البديل لما كان يعرف بأرض - كنعان.

خامسا: الفلسطينيون

ليس معروفا بالدقة حتى الآن من أين جاء ذلك الشعب - أو مجموعة الشعوب - الذي عرفت فلسطين به، كليا أو جزئيا، على الدوام أو على فترات متقطعة، خلال السنوات الثلاثة الآلاف الأخيرة، حتى يومنا هذا. و مرة أخرى، ليس أكيدا أنهم عرفوا بأنفسهم بهذا الاسم، لكن المصريين أطلقوه عليهم، كما ورد في وثائقهم. فقد ورد ذكرهم في عدد من المصادر المصرية، و خصوصا في اللوحات الجدارية من مدينة هابو - عاصمة رعمسيس الثالث (١١٨٤ - ١١٥٣ ق. م. تقريبا). و الصيغة الهيروغليفية للاسم هي «بلست». أما السجلات الآشورية فأوردته بصيغة «بلستو»، و في التوراة بصيغة الجمع «بلستيم».

بعد المعاهدة بين مصر و الحثيين، سادت فترة من الهدوء و الاستقرار، كانت الحدود فيها مفتوحة للتجارة و التبادل الحضاري، من مصر حتى البحر الأسود، و من الفرات إلى البحر الأبيض المتوسط و بلاد اليونان. و شهد الشرق الأدنى القديم في العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر قبل الميلاد، فترة من الازدهار و السلام و العلاقات التجارية و الحضارية، تعززت بزواج رعمسيس من ابنة ملك الحثيين، حاتوسيلي الثالث. و لكنها كانت فترة الهدوء الذي يسبق العاصفة، و التي جاءت فعلا، و هذه المرة من الشمال الغربي، من منطقة بحر إيجه، عبر موجات من الغزاة، عرفوا باسم شعوب البحر، و منهم الفلسطينيون. و وصلت هذه الموجة ذروتها في النصف الأول من القرن الثاني عشر قبل الميلاد.

لقد تضافرت عوامل متعددة، لعل أهمها ضعف الإمبراطوريتين - الحثية و المصرية - لتقذف إلى الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط هجرات واسعة، غيرت وجه العالم القديم. و هذه الهجرات أنهت عصر البرونز، و دشنت عصر الحديد، نحو سنة ١٢٠٠ ق. م. و إذ استطاعت مصر أن تصمد في وجه الغزاة، و تصدهم عن التوغل في أراضيها، و تفرض عليهم الاستقرار في الساحل الفلسطيني، فإن مملكة الحثيين سقطت جراء ضرباتهم. و بسقوط هذه المملكة، فتح الباب أمام

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨٣

الآشوريين للتحرك و ملء الفراغ الذي تشكل، من جهة، و أمام الأراميين للبروز كقوة في قلب سورية، مركزها دمشق، من جهة أخرى. و كذلك، و إلى الجنوب تحرك العمونيون و المؤابيون و المدينيون و الأدوميون و الإسرائيليون، لتثبيت استقلالهم على الأراضي الواقعة في أيديهم و توسيعها، و خصوصا على حساب الكنعانيين، في وسط فلسطين و جنوبها.

و لأسباب متعددة، أدت الدراسات التوراتية دورا فيها، يبرز الفلسطينيون إلى جانب الإسرائيليين، من دون سواهما، في أعمال المؤرخين و الأثرين. و في المقابل، يغيب عن هذه الأعمال، بدرجات متفاوتة، الدور الذي قام به سكان البلد الأصليين - الكنعانيون - و كذلك نتائج استقرار القبائل العمورية و الأرامية، التي كانت تجوب هضبة شرقي الأردن، و راحت تقيم ممالكها الخاصة و تبلور شخصيتها.

فالتوراة هي الشاهد الوحيد المكتوب تقريبا على المرحلة التي سبقت قيام مملكة إسرائيل. و بغياب مصادر أخرى، و الجروح نحو توظيف علم الآثار في خدمة الرواية التوراتية، و بالتالي تغييب القوى الأخرى: الكنعانيين و العمونيين و المؤابيين و المدينيين و الأدوميين، تبقى صورة تاريخ فلسطين لهذه الفترة مشوهة.

وقد غلب على شعوب البحر اسم الفلسطينيين مع أنهم كانوا جماعات متعددة، و تذكر المصادر ائتلافا بين سبع منها، سبق صدام رعمسيس الثالث بهم في عام حكمه الثامن، أى نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. ففي ذلك العام قام الفرعون بحملة على الساحل السوري-الفلسطيني، و هزم فيها الغزاة. و المصدر الوحيد للمعلومات عن هذه الحملة هو سجل رعمسيس نفسه، المحفوظ في قبره بمدينة طيبة. و لقد وصل رعمسيس الثالث إلى الحكم بعد موت والده رعمسيس الثاني، و بعد فترة من عدم الاستقرار الداخلى فى مصر حيث دام حكمه ٢٥ عاما. و استطاع فى السنوات الأولى من توليه الحكم دحر الغزاة، أكانوا من الغرب (ليبيا)، أو من الشمال-شعوب البحر.

و حركة شعوب البحر دشنت عصرا جديدا فى تاريخ الشرق الأدنى القديم، هو عصر الحديد. و إذا كان العامل الموضوعى لتغلغل هؤلاء الغزاة فى الجناح الغربى من الهلال الخصيب هو ضعف القوى المحلية، و عجزها عن صدهم و دحرهم، كما كانت تفعل سابقا، فإن العامل الذاتى لذلك الغزو لا يزال مسألة تباينت فيها آراء المؤرخين.

و إذ يسود الاقتناع بين الباحثين بأن دوافع هذه الحركة الجامحة تكمن فى التطورات التى وقعت فى بلاد اليونان و بحر إيجه و غرب الأناضول، فإن الحوافز المباشرة لهذه الهجرة الواسعة، لا تزال تثير نقاشا بينهم. وفى غياب المصادر الكافية، تتضارب المؤجى فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٨٤

الآراء و النظريات بشأن العوامل المحركة لهذه الاندفاع الضخمة، التى غيرت اللون السياسى للشرق الأدنى القديم كله. و بينما أدخلت حركة شعوب البحر نهجا جديدا فى الصراع السياسى بشأن الهيمنة على المنطقة، سوف يتكرر لاحقا، فإن حركة القبائل المحلية، و استقرارها و بلورة شخصيتها، و بالتالى التعبير السياسى عن ذلك بممالك جديدة، ظلت تتبع النمط السابق نفسه المعروف منذ قرون طويلة. فحتى الآن، كان الصراع يدور بين مركزين رئيسيين-العراق و مصر- و ما بينهما فى بلاد الشام، المتأثرة سلبا و إيجابا بهذا الصراع، فى حين أن نزاعاتهما مع الغزاة من ليبيا فى الغرب، أو مع عناصر هندية-أوروبية من الشرق و الشمال الشرقى لم تتوقف. أمّا الآن فقد دخل الشمال الغربى، الأمر الذى شكّل سابقة كان من شأنها أن تتكرر فى العصور اللاحقة، كما حدث فى حملة الإسكندر المقدونى، و لاحقا الاحتلال الرومانى، فما بعده حتى يومنا هذا.

و إذ تتضارب الآراء بشأن حوافز هجرة شعوب البحر، بين الجوع و الجشع و القرصنة، أو بين الانهيار الاقتصادى و الكوارث الطبيعية و الضغط الآتى من الشمال، فإن هناك اتفاقا على أن انحلال «ائتلاف مسينا»، و ما تبعه من سقوط طروادة، شكلا إيذانا بانفجار هذه الحركة الواسعة. و قد وقع ذلك نحو سنة ١٢٠٠ ق.م. و بفضل الروح القتالية العالية لتلك الشعوب، و تفوق سلاحها المصنوع من الحديد، استطاعت تحقيق النصر على جيوش الإمبراطوريتين-الحيثية و المصرية- و أتباعهما، و خصوصا بعد الضعف الذى اعترأهما جزاء الصراع الطويل من دون حسم. و فى فترة لا تزيد عن قرن من الزمن، اتخذ الشرق الأدنى القديم شكلا سياسيا جديدا، حدد المتنافسون الجدد فيه مسار تاريخه فى عصر الحديد.

ففى نهاية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، بدأت حركة شعوب جديدة من منطقة بحر إيجه، فى اتجاه الساحل الشرقى للبحر الأبيض المتوسط و شمال الدلتا فى مصر.

و هناك من يعزو هذه الحركة إلى الضغط الناتج عن توسع قبائل يونانية من بلاد البلقان جنوبا. و هذا التحرك معروف من أيام الفرعون مرنفتاح (١٢٢٤-١٢١٦ ق.م).

تقريبا، الذى واجه تحديا مزدوجا- من الغرب (ليبيا)، و من الشمال (بحر إيجه).

و تفيد المصادر المصرية أن هذا الفرعون تغلب على الغزاة و دحرهم. لكن هذه الموجة كانت الطليعة فقط، إذ تبعها موجات أكبر و أعظم، و كان أثرها على غرب آسيا أشدّ وقعا منها على مصر. و عندما استطاعت القوى المحلية صدّ الغزاة، اندفعوا فى اتجاه آخر، و بذلك تركوا بصماتهم فى جميع أرجاء حوض البحر الأبيض المتوسط الشرقى.

المؤجى فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٨٥

و مع مطلع القرن الثاني عشر قبل الميلاد، راحت هذه الموجة تتعاضم و تتقدم بزا و بحرا، من آسيا الصغرى، مروراً بسورية، وفلسطين، فمصر. و أخذت في طريقها مملكة الحثيين، و كذلك المدن السورية: كركميش و أوغاريت و أرواد و مملكة عمورو في شمال لبنان. و بفضل سوء الإدارة المصرية في ولاية كنعان، لم يجد الغزاة مقاومة تذكر في اندفاعهم نحو قلب مصر. و كانت هذه الأخيرة تمر بفترة من الاضطراب الداخلي، بعد موت مرنفتاح. و هذا ما زعزع أركان حكمها في فلسطين، و جعل الولاة فيها محبطين، أكان ذلك إزاء حركة شعوب البحر من الغرب، أو تغلغل القبائل من الشرق، و خصوصا تمرکز بني إسرائيل في سلسلة الجبال الوسطى، و تمددهم في اتجاه مرج ابن عامر و الجليل الأسفل.

و بعد أن تولى رعمسيس الثالث الحكم، و نجح في ضبط الأوضاع الداخلية و إقامة سلطة مركزية قوية، توجه إلى مقارعة شعوب البحر، فاستطاع دحرهم من الدلتا، و صدّ تقدمهم في جنوب فلسطين. و بعد هزيمتهم، ركب بعضهم البحر، و توجه غربا و انتشر في شمال إفريقيا، كما يبدو. أما الآخرون، فقد استقروا على الساحل الفلسطيني، و عملوا لاحقا في خدمة الفرعون، فحلوا محل الحكام المحليين الكنعانيين، و أسسوا مع الوقت خمس مدن- دولة، هي: غزة و عسقلان و أسدود و جات و عقرون. ثم ما لبثوا أن راحوا يتوسعون شمالا و شرقا، فاصطدموا بالقبائل الإسرائيلية، التي كانت في مرحلة الانتقال من حياة البداوة إلى الاستقرار في الداخل، و خصوصا في المنطقة الجبلية الوسطى.

و تمرکز الاستيطان الفلسطيني بداية في السهل الساحلي، و خصوصا في جزئه الجنوبي، ثم تمدد مع الزمن في اتجاه الجبال الوسطى، فأقام مراكز في الهضبة.

و يفيد مصدر مصري أن دور (جنوب حيفا)، كانت مركزا لجماعة منهم. و إذ لا تعرف حدود استيطانهم الشمالية، فقد دعى السهل الساحلي الجنوبي باسمهم، ثم جرى تسميته على فلسطين كلها لاحقا. و الفلسطينيون جلبوا معهم صناعة السلاح الحديدي- السيوف و الخوذ و الدروع- و كذلك نوعا متميزا من الفخار، يحمل طابعا يونانيا- قبرصيا. و في معبد تمّ كشفه في تل- القصيلة (شمال يافا) ظهرت تأثيرات مصرية و إيجية على فن العمارة الكنعانية المحلي.

سادسا: الإسرائيليون

الرواية التوراتية تؤكد أن إبراهيم سلف العبرانيين، هاجر من مدينة أور السومرية، و اتجه شمالا إلى حرّان، و من هناك إلى فلسطين. لكن شريعة موسى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨٦

تبلورت بعد الخروج من مصر، و في أثناء التجوال في الصحراء (التيه)، قبل الدخول إلى أرض- كنعان، و الاستقرار بها، بصورة أو بأخرى. و يسود الاعتقاد بين المؤرخين أن العبرانيين لم ينزلوا كلهم إلى مصر، و لا- كل من عرف لاحقا باسم الإسرائيليين خرج مع موسى من مصر. و الجماعة التي تبعته كانت من أصول متعددة، تجمعت حول رايته على قاعدة الشريعة التي بشر بها، و الهدف الذي سعى له في تجواله حول أرض- كنعان، باحثا عن سبل الدخول إليها.

و التغيير الفجائي في نمط حياة أتباع موسى، من العبودية لدى الفرعون إلى الحرية في التيه، استلزم أساسا روحيا للانضواء تحت راية قيادته لهم في ترحالهم و تحديد مآلهم. و كان طبيعيا، بل حتميا، أن تأخذ شريعة موسى طابعا دينيا، و خصوصا أن مسألة خروج الإسرائيليين من مصر بمجملها اتخذت صفة التدبير الإلهي. و بحسب التوراة، صعد موسى إلى جبل سيناء، مقام يهوى- إله إسرائيل- و اختلى به، و تسلّم منه الوصايا العشر. و بقبول أتباعه هذه الوصايا، أقاموا العهد مع يهوى، الذي أصبح حارسهم و مرجعهم الأعلى و الأخير.

و في الواقع، فإن ديانة يهوى و شريعة موسى أدتا دورا أساسيا في تجميع قبائل عبرانية محلية حول راية أتباع موسى، القادمين من

مصر، في مرحلة احتلال أجزاء من أرض - كنعان و استيطانها. و يهوى، كإله حرب قبلي، و شريعة موسى، كأساس للعهد معه، شكلا ضرورة حيوية للإسرائيليين في مرحلة الاحتلال، و بالتالي الصراع مع أهل البلد الأصليين، كما مع القبائل الأخرى المنافسة. ففي الصراع مع الفلسطينيين، كما مع الكنعانيين و القبائل الأخرى المندفعة من الشرق، برزت الحاجة إلى طلب المساعدة من يهوى و تدخله في القتال إلى جانب «شعبه المختار»، الذي قطع «العهد» معه.

أما بعد الاستقرار و التحول إلى الزراعة، فقد برز التأثير الكنعاني في العودة إلى عبادة آلهة الخصوبة، ذات الجذور العميقة في مجتمع المدن في الشرق الأدنى القديم، مثل: إيل و بعل و عشتار و غيرهم. و كان تقبل قطاعات من الإسرائيليين، و خصوصا من الطبقات العليا و الحاكمة، العبادات الكنعانية (الفينيقية) سببا في الصراع الداخلي، الذي اندلع مع قطاعات أخرى شعبية، كان يمثلها الأنبياء. و قد تشبثت هذه القطاعات الشعبية بوحداية عبادة يهوى، و بشريعة موسى، و خصوصا في أوقات الشدة، الأمر الذي برز منذ أيام داود و سليمان، أي أيام المملكة المتحدة، لكنه تفاقم بعد موت سليمان و انقسام المملكة.

و تنضح التوراة بالحض على التوبة إلى يهوى، و الخضوع لإرادته و التشبث

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨٧

بعبادته. كما أن يده تظهر في توجيه الأحداث التاريخية جميعها، و قوته تبرز من خلال العقاب الذي ينزله بالخارجين على طاعته، أو بالثواب الذي يمنحه للسائرين في دربه. و الخروج من مصر، كما احتلال أرض - كنعان، هما من العلامات التي كشف بها يهوى عن ذاته من خلال التاريخ. و هو بالتأكيد قادر على فعل العكس تماما، فهو عادل، كما هو صارم، لا- يتهاون في نقض العهد معه. و كناطقين باسمه، تبنى الأنبياء دعوته إلى عبادة مطلقه له، لا تقبل الشرك، و لا تطبيق الخروج على الطاعة و المعصية للإرادة. و بناء عليه، فإن سلام إسرائيل هو الدليل على رضى يهوى عنها، و المصائب التي تحل بها مؤشر إلى غضبه عليها. و هو أساس مفهوم هؤلاء الأنبياء لحركة التاريخ و فلسفته.

و انطلاقا من أن يد يهوى تحرك التاريخ العالمي عامه، و اليهودي خاصة، عالج كتبه التوراة، بالجمع و التصنيف و التحرير، الأحداث الواردة فيها، فجاءت رواياتهم غير تاريخية. و بينما اعتبرها البعض مجرد أساطير و لا تصلح مادة أولية للتاريخ، رأى فيها البعض نوى حقيقية للأحداث، يمكن الاستفادة منها في دعم المصادر الأخرى المكتوبة و الأثرية. في المقابل، ذهب البعض إلى توظيف المصادر الأخرى كبرهان، مباشر أو مداور، للواقع الذي تعكسه الروايات التوراتية. أما الدراسات التوراتية فقد وظفت علم الآثار التوراتي في ملاءمة الواقع مع النص الوارد في تلك الروايات.

و بتباين المناهج تنوّعت أساليب كتابة تاريخ هذا العصر، و تناقضت النتائج.

و أصحاب المنهج التوراتي، و من يجاريهم في منظوره، ينطلقون من أن إسرائيل القديمة استوعبت التاريخ على أنه حكم الله على الجنس البشري، بما يقود حتما إلى «الخلاص العالمي»، عبر توجيه الله لما صار يعرف ب «شعب الله المختار». و من هنا انفردت إسرائيل القديمة بين الشعوب الأخرى المعاصرة بامتلاك «الوعي التاريخي».

و بناء عليه، فالروايات التوراتية، كسجل للأحداث في حياة هذا الشعب، و بالتالي، علاقته بيهوى، من جهة، و بالأرض التي وعده بها (أرض - الميعاد)، من جهة أخرى، تصبح كتابات تاريخية حقيقية. و مثل هذا المنهج في كتابة التاريخ، و بالتالي الإصرار على اعتبار الروايات التوراتية مادة تاريخية، لا يعكس فكرا علميا، و لا أمانة فكرية مبدئية، و إنما مفهوما مغلقا لفلسفة التاريخ و حر كته.

و يستخلص من الرواية التوراتية أنه بعد الخروج من مصر، و التيه في الصحراء أربعين عاما، دخل بنو إسرائيل أرض - كنعان، من منطقة أريحا، و احتلوها بعملية واحدة مستمرة طالت سبع سنوات. و كان ذلك بناء على خطة مسبقة، قسمت فيها الأرض بين الأسباط الاثني عشر، بقيادة موسى بداية، ثم من بعده يهوشوع. و هذه

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٨٨

الرواية تثير الشكوك في صدقيتها، ليس فقط لأنها غير واقعية، و لغياب أى دليل على مضمونها، و انعدام أية إشارة لهذا الحدث فى المصادر المصرية أو العراقية، و إنما أيضا لتناقضها مع روايات أخرى فى التوراة ذاتها. و علاوة على ذلك، فرواية «سفر يهوشوع» غير متماسكة، و تحمل طابعا أسطوريا خياليا. و هناك خلط بالمواقع و الأسماء، و هذا يدل على أن هذه الرواية هى نوع من الصيغة الرسمية، التى جمعت بعد فترة زمنية طويلة، و من مصادر متعددة و متنوعة، على يد كتبة لا يعرفون تاريخ الفترة السابقة و لا جغرافيتها السكانية. كما أن الهدف من كل هذه العملية لدى هؤلاء الكتبة كان دينيا، و ليس تاريخيا بالأصل.

و الفكرة المركزية فى قصة الخروج من مصر، بقيادة موسى، تتمحور حول التخلص من العبودية لحكم الفرعون، و ليس هدفها تحقيق «الوعد الإلهي» لإبراهيم بميراث أرض - كنعان، بحسب الدعوى التوراتية. و التيه فى الصحراء مدة أربعين عاما، بين مصر و فلسطين، إنما هو دليل على غياب هدف محدد مسبق لهذا الخروج، و أن السبب المباشر له، و العامل الضاغط عليه، هو الإفلات من قبضة الفرعون. و بناء عليه، تكون فكرة دخول أرض - كنعان و الاستقرار بها تبلورت فى مسار التيه فى الصحراء، و عبر الاحتكاك بالقبائل الأخرى المتعددة، التى كانت فى مرحلة انتقالية من البداوة إلى الاستقرار بجنوب فلسطين و شرقى الأردن. و لذلك جاء الغزو الإسرائيلى لأرض - كنعان من الشرق، متجها نحو المنطقة الجبلية الوسطى، و مترافقا مع حركة قبائل أخرى فى هذا الاتجاه.

و يستدل من المصادر المصرية، و خصوصا رسائل تل العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد)، أن منطقة الجبال الوسطى فى فلسطين كانت قليلة السكان، لم تولها السلطة المركزية المصرية اهتماما فى أيام السلالتين ١٨ و ١٩. و المصريون الذين لم يرغبوا فى القيام بدور الشرطى فى هذه المنطقة، و بالتالى لم يشحنوها بالحاميات العسكرية، و عوا الخطر الكامن فى تركها مناطق تجمع للقبائل المتمردة، فأولوا حفظ الأمن فيها إلى الحكام المحليين، الذين برز بينهم حاكما أورشليم و شيكم. و تركز دور هؤلاء الحكام على كبح العناصر البدوية من تهديد طرق التجارة الرئيسية، و إبقائها بعيدا عن المناطق الحيوية للأمن المصرى على ساحل فلسطين و فى جنوبها. و منذ بداية القرن الخامس عشر قبل الميلاد، بدأت أخبار القلاقل و الاضطرابات تتوارد على البلاط الفرعونى من فلسطين و سورية، ليس بسبب تمرد الحكام، كما فى بداية الألف الثانى قبل الميلاد، و إنما نتيجة نشاط عناصر بدوية غير خاضعة لسلطة أحد. و فى البداية، أفادت هذه العناصر من الصراع المثلث الجوانب، بين القوى

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٨٩

الحاكمة فى كل من العراق و أناضوليا و مصر. أما بعد عقد معاهدة السلام بين الحثيين و المصريين، فقد استغلت تلك العناصر ضعف الطرفين نتيجة الحروب التى استنزفت قواهما. و كانت المنطقة الجبلية فى وسط فلسطين نقطة الضعف فى ولاية كنعان المصرية، و لا غرو أن الاستيطان الإسرائيلى بدأ هناك.

لقد تميز المصريون القدماء عموما بنظرة من الاحتقار إلى الجماعات غير المستقرة، و التى لا يمكن السيطرة عليها و تنظيمها. و أطلقوا عليها أسماء تعبر عن شىء من الدونية مثل العاييرو و الشاسو. و هذه الكنى موجودة فى الوثائق المصرية من أيام السلالة ١٨، و خصوصا رسائل تل العمارنة، التى تعود إلى النصف الأول من القرن الرابع عشر قبل الميلاد. و بينما تشير هذه المصادر إلى أن أمكنة تجمع هذه الأقوام كانت فى شرقى الأردن خلال القرن الخامس عشر قبل الميلاد، فإننا نجدها غربى النهر فى القرن الذى يليه. و الظاهر أن الحكام المحليين، فى صراعاتهم المستمرة، و كذلك الحاميات المصرية المعزولة، استعملوا هذه الجماعات كمرتزقة.

و باختلال حبل الأمن، و وهن يد السلطة المركزية خلال القرن الرابع عشر قبل الميلاد، راحت هذه الجماعات تفرض وجودها بالقوة. و خلال فترة طويلة، كما تفيد المصادر المصرية، ظل الشاسو يشكلون عنصر إزعاج على أطراف حدود ولاية كنعان المصرية، و بالتالى مصدر قلق للسلطات المصرية و حكام المدن الكنعانية، للخطر الذى شكلوه على طرق التجارة. و فى نهاية السلالة ١٨، اندفعوا غربا عبر النقب الشمالى إلى سيناء و قطعوا طريق البحر. و مع أن سبتى الأول (١٣٠٩ - ١٢٩٠ ق. م.) طردهم، و تقدم لفك الحصار الذى فرضته جماعات أخرى منهم على الحامية المصرية فى بيسان، فمن الواضح أنه لم يخضعهم و لم يردعهم عن العودة إلى نهجهم

بالتغلغل في أرض - كنعان بعد انسحابه منها.

وأكيد أن الشاسو أفادوا من انشغال الفرعون بقتال شعوب البحر، ووسعوا من تمددهم في المناطق الريفية و الجبلية و الصحراوية، مستغلين عجز الحكام المحليين عن ضبطهم.

و رسائل تل العمارنة (أرشيف أخناتون) هي في الأغلب مخاطبات متبادلة بين بلاط الفرعون و حكام المدن الكنعانية الخاضعة له، و هي تعالج الوضع الأمني و الفوضى المستشرية نتيجة نشاط العاييرو (الشاسو)، و فيها اتهامات متبادلة بين هؤلاء الحكام بدعوى التعاون مع العاييرو، الذين يريدون الاستيلاء على «بلاد السيد الملك». و عدا ذلك، تعالج الرسائل قضايا إدارية-اقتصادية، مثل أداء الضرائب و التطويح لأعمال الملك، و أمن القوافل التجارية و إصلاح الطرق. و مع أن ملوك

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٠

السلالة ١٩ الأوائل أعادوا تأكيد سيطرتهم في بداية القرن الثالث عشر قبل الميلاد، إلا إن هذه السيطرة سرعان ما راحت تتضعض ثانية. و في هذه الفترة تفاقم تغلغل العاييرو في النصف الثاني من حكم رعمسيس الثاني الطويل (١٢٩٠-١٢٢٤ ق.م. تقريبا).

و رسائل تل العمارنة تكشف أن بعض حكام المدن شكلوا حولهم وحدات سياسية كبيرة نسيبا، كما هو الحال في عسقلان و جيزر و أورشليم و شيكم و مجدو و عكا و حاصور. و يستفاد أن حاكم شيكم، لبعايو، أقام علاقة قوية مع العاييرو، و لم ينفذ السياسة المصرية، الأمر الذي استلزم إزاحته. لكن العاييرو بقوا. و في أورشليم، عين الفرعون ابنا صغيرا للحاكم بدلا منه، هو عبدى هبة، الذى يظهر استعداده لمقاتلة العاييرو، و يطلب مساعدة الفرعون لهذا الغرض، و بسرعة قبل فوات الأوان. و هذا يدل على أنه خلافا للمنطقة الساحلية، حيث النفوذ المصرى كان قويا، و خصوصا في المناطق التي تمر بها طرق القوافل، فإن السلطة في الداخل كانت هشة، و خصوصا في منطقة الجبال الوسطى.

أما حول فلسطين، فإلى الشرق كانت تتشكل وحدات سياسية في: أدوم و مؤاب و عمون و الجلعاد. و في جنوب سورية، تبرز دمشق كمرکز سياسى يسعى لتوسيع سيطرته شمالا و جنوبا، و يعمل على تشكيل ائتلاف يضم عددا من الممالك الصغيرة مثل عشتروت، التي كانت في صراع مستمر مع مملكة حاصور في الجليل الأعلى.

و في لبنان، تبرز دولة عمورو كمملكة فاصلة بين المصريين و الحثيين، و تعمل على تدعيم استقلالها و بسط نفوذها على الساحل الفينيقي، و بالتالى السيطرة على التجارة مع العراق و مصر. و في الجزيرة السورية يبرز الأراميون كقوة جديدة و فاعلة على الجبهتين - الحثية و الأشورية. و هكذا يتضح أنه عشية الغزو الإسرائيلي لفلسطين، كانت قد تشكلت في محيطها وحدات سياسية ناشئة و قوية حالت دون استقرار قبائل جديدة في مناطقها.

لقد تبلورت الوحدات السياسية، القائمة على الانتماء الإثنى، في شرقي الأردن قبل استقرار القبائل الإسرائيلية و ائتلافها غربى النهر. و الدلائل تشير إلى أن ذلك جرى في نهاية حكم السلالة ١٨. أما في فلسطين، فإن نفوذ السلطة المصرية في الساحل، و وجود مدن الممالك الكنعانية في الداخل، أعاقا توحيد القبائل، و بالتالى تشكل جماعات كبيرة قادرة على إقامة مراكز قوى فاعلة. فانتشرت القبائل على أطراف المدن، و في المناطق الجبلية، و اشتغلت بالرعى أصلا، و ببعض أنواع الزراعة و التجارة. و ائتلاف هذه القبائل خضع لعاملين مرتبطين جدليا: الأول، مسار تدهور سلطة حكام المدن، كل بمفرده؛ و الثانى، ازدياد قوة القبائل و عدد أفرادها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩١

وفق أوضاع كل منها الخاصة.

إن كل محاولات التجسير بين الروايات التوراتية المتعددة بشأن ما يسمى «الاحتلال الإسرائيلي لأرض - كنعان»، لم تفلح في إزالة التناقضات بينها. و تميل أغلبية المؤرخين اليوم إلى اعتبار هذا الاحتلال نتيجة مسار طويل، اتخذ صوراً متعددة، غاب عنها التنسيق و التخطيط المسبق. و في هذا المسار، احتلت قبائل معينة، أو مجموعة منها، و بصورة عشوائية حين سنحت الأوضاع، مناطق قليلة السكان،

بينما المدن الكنعانية القوية حافظت على وجودها وأراضيها. و من هنا، فإن رواية سفر يهوشوع عن عملية احتلال مبرمجة، تحت قيادة موحدة، لا أصل لها، وإنما حيكت من نسج الخيال لدى كتبة التوراة في عصور متأخرة، و من منطلق إثبات وحدة «الشعب المختار»، في مقابل واقع التفتت الذي تعيشه القبائل المسماة «أبناء إسرائيل».

و علاوة على ذلك، فإن المسوحات الأثرية لا تدعم الرواية الواردة في سفر يهوشوع. و على سبيل المثال لا الحصر: العى التي يرد ذكرها أنها سقطت في أيدي الإسرائيليين، لم تكن قائمة في حينه، بل كانت مهجورة خربة، و شيكمت التي يقال إنهم احتلوها ظلت مدينة كنعانية لفترة طويلة بعد ذلك؛ و أريحا في تلك الفترة كانت قرية صغيرة غير مسورة، و بالتالى فقصه «الأسوار التي انهارت على صوت البوق» هي أسطورة خيالية. و من التوراة ذاتها يستنتج أن عددا من القبائل المحسوبة على بني إسرائيل ظلت تحت حكم مدن كنعانية لفترة طويلة في مرج ابن عامر و الجليلين - الأعلى و الأسفل. و على العموم، فالدلائل الأثرية تؤكد أن الإسرائيليين لم يفلحوا في احتلال أرض - كنعان كما يرد في الرواية التوراتية، و أن مثل هذا الاحتلال وقع في مراحل لاحقة، و بعد أن نقضوا العهد مع يهوى، و بناء عليه فقد وقع من دون «تدبير إلهي».

إن الجمع بين المعلومات المتوفرة من المصادر المتعددة، يعطى الدلالة على أن التمدد الإسرائيلى في أرض - كنعان كان يتناسب اطرادا مع انكماش السلطة المصرية فيها، و بالتالى انحصارها في المنطقة الساحلية و النقاط الاستراتيجية على طرق التجارة الدولية. و هذا التراجع المصرى ترك المدن الكنعانية في الجبال الوسطى، على عكس تلك الواقعة في السهول و على الساحل، و حدها في مواجهة القبائل الإسرائيلىة، فراحت تسقط بالتدريج، بحسب قدرتها الذاتية على الصمود.

و خلال عصر القضاة (١٢٥٠ - ١٠٥٠ ق. م. تقريبا)، كانت هناك ثلاثة جيوب إسرائيلية: الجليل و الوسط و الجنوب، تعزلها عن بعضها البعض مدن و قلاع كنعانية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٢

و ينفرد بعزلته في هذه الفترة سبط يهودا، الذى تبوأ موقع القيادة في مملكة داود و سليمان، و من اسمه اشتقت كلمة اليهودية، حيث كان يتجول بعيدا في النقب الشمالى - الشرقى.

و بعد موت الفرعون مرنفتاح (١٢٢٤ - ١٢١٦ ق. م. تقريبا)، تدهورت أوضاع السلطة المصرية في أرض - كنعان. و بعد فترة (بداية القرن الثانى عشر قبل الميلاد)، استعاد رعمسيس الثالث بعض النفوذ المصرى الضائع فيها. و تفيد سيرته الذاتية أنه تغلب على الفلسطينيين، و ألزمهم الاستيطان فى السهل الساحلى الجنوبى، و ربطهم بخدمته الخاصة. و من هنا، أصبح الفلسطينيون يعتبرون أنفسهم البديل للحكام الكنعانيين، و لاحقا، و بعد تضعف السلطة الفرعونية، نصّبوا أنفسهم الخلفاء الشرعيين للحكم المصرى فى أرض - كنعان. و راح هؤلاء يثبتون سلطتهم، و يتوسعون فى الاتجاهات المتعددة، فاندلع صراع مثلث الجوانب - فلسطى و كنعانى و إسرائيلى - كان الكنعانيون أول الخاسرين فيه. فبفضل تفوقهم بالسلاح، و روحهم القتالية العالية، استطاع الفلسطينيون التغلب فى الساحل الجنوبى على الكنعانيين، الذين كانوا خاضعين للسيادة المصرية منذ قرون.

أما فى الداخل، فقد اندلع الصراع بين القبائل الإسرائيلىة و المدن الكنعانية من جهة، و بين تلك القبائل و الوحدات السياسية التى قامت شرقى الأردن، من جهة أخرى. فهذه الوحدات أيضا سعت للإفادة من تهاوى السلطة المصرية، و التمدد فى المناطق الخصبة غربى النهر. و إزاء الخطر الإسرائيلى، تشكل ائتلاف بين المدن الكنعانية، بقيادة ملك حاصور - يابن. و لذلك، اضطرت القبائل الإسرائيلىة فى الشمال و الوسط إلى التحالف بين بعضها البعض، و حققت نصرا على الكنعانيين فى معركتين حاسمتين: الأولى فى تعنك، فى مرج ابن عامر، و الثانية فى الحولة، بالقرب من حاصور، الأمر الذى وضع حدّا لهذه المملكة الكنعانية القوية، فى نهاية القرن الثانى عشر قبل الميلاد.

إن انهيار الائتلاف الكنعانى، و بالتالى بروز القبائل الإسرائيلىة كقوة رئيسية فى المنطقة الجبلية من فلسطين، وضعها تلك القبائل بين

فكى كماشة. فمن الغرب، راح الفلسطينيون يزيدون في ضغطهم بهدف التوسع من الساحل الجنوبي في اتجاه الشمال والشرق. وفي الشرق، ارتفعت حدة الصراع مع الوحدات السياسية التي كانت في مرحلة الانتقال من البداوة إلى الاستقرار، والبحث عن مجال حيوى من الأراضي الخصبة غربى النهر. وقد اضطر ذلك القبائل الإسرائيلية إلى توثيق التحالف بينها، والتوجه نحو تنصيب قيادة موحدة عليها، ولكن من دون الوحدة الاندماجية. وبناء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٣

عليه، برز عدد من القادة العسكريين، أدوا دورا مركزيا في إدارة الصراع، مثل جدعون و أيميلخ، لكنهم لم يتوصلوا إلى الملكية. ولم يفلح كل الضغط الخارجى على الإسرائيليين فى حينه، فى حملهم على التنازل عن قبليتهم. لقد تساندت القبائل للقتال ضد العدو المشترك من سكان المدن الكنعانية المتحضرة. لكن الروابط الذاتية بينها لم تكن من القوة بحيث تشكل أساسا لوحدة سياسية اندماجية.

وبعد منتصف القرن الحادى عشر قبل الميلاد، عندما تفاقم الضغط على القبائل الإسرائيلية فى الجبال الوسطى- الفلسطينيون من الغرب والعمونيون من الشرق- نضجت فى وقت الشدة الأوضاع لقيام الملكية على تلك القبائل. فى هذه الفترة توغل الفلسطينيون فى المنطقة الجبلية، ووصلوا إلى شيلو، المركز الدينى للقبائل الإسرائيلية، واحتلوها و خربوها و أخضعوا المنطقة لحكمهم. فى المقابل، قام ناحاش، ملك العمونيين، بإخضاع القبائل فى منطقة الجلعاد، التى كانت تربطها علاقات قريى بسبط بنيامين، الذى منه خرج شأؤول، أول ملك لإسرائيل. وقد نصّبته فى هذا الموقع صموئيل (شموئيل)، النبى الذى حمل لواء المقاومة ضد الفلسطينيين، فى الجبال الوسطى، حيث أقامت قبيلتا بنيامين و إفرائيم.

و استطاع شأؤول (١٠٢٠-١٠٠٤ ق. م.)، بالاعتماد على أبناء قبيلته بديئه، و من خلال تكتيكات عسكرية سريعة و مفاجئة، أن يهزم العمونيين و يصددهم عن الجلعاد. ثم توجه نحو الحاميات الفلسطية الصغيرة فى المنطقة الجبلية، فطردها إلى الساحل. و راح بعد ذلك يوسع حدود نفوذه فى الاتجاهات جميعها: الجبعونيون فى الغرب و العمالقة فى الجنوب و أبناء لوط و قديم فى الشرق. و أخيرا، دحر الفلسطينين بالقرب من بيت جبرين، فى المعركة التى بحسب الرواية التوراتية انتصر فيها داود على جليات بالمقلاع. و الواضح أن شأؤول لم ينجح فى إقامة الوحدة بين القبائل الإسرائيلية، كما أن حدود ملكه غير واضحة تماما. و مقدار التزام القبائل بملكه يتضح من خلال الحقيقة التاريخية أن هذه القبائل لم تعد إلى استقلاليتها بعد زوال الخطر الخارجى فحسب، بل إلى الصراع بين بعضها البعض بشأن الأرض التى وقعت فى أيديها.

و بغض النظر عن الجانب الأسطورى فى القصة، فالواضح أن داود قد برز كقائد عسكرى فى هذه المعركة، و أخذت شعبيته تتسع، الأمر الذى أثار حقد شأؤول عليه، و خصوصا بعد أن فشل هذا الأخير فى ضمان ولاء القبائل له و لذريته كملك. و تفاقم الوضع بين الاثنين، على خلفية قبلية، إذ كان داود ينتمى إلى سبط يهودا، البعيد فى الجنوب على حدود الفلسطينيين، و الذى رفض الانصياع لرغبة شأؤول فى تنصيب نفسه

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٤

ملكا على إسرائيل، مستفيدا فى تحديه هذا من وجود «مملكة أورشليم اليوسية» كحاجز يفصل بينه و بين سبط بنيامين، الذى ينتمى إليه شأؤول، و يدعمه سبط إفرائيم.

و اضطر داود إلى الهروب من وجه شأؤول، و العمل لدى الفلسطينيين فى حامية حدودية بالنقب. و من هناك، راح يوطد علاقاته مع سبطه- يهودا- منطلقا من قاعدة العمل فى خدمة الفلسطينيين، و يبنى قوته العسكرية الخاصة، من قبيلته و غيرها.

و باندفاعه لتكريس نفسه ملكا، اصطدم شأؤول بالزعمة القبلية القوية لدى الإسرائيليين، و بممارساته التعسفية جلب على نفسه غضب النبى صموئيل، فأفاد داود من ذلك كله، و راح يجمع حوله العناصر المتدمرة من تصرف شأؤول، و يسترضى القبائل الجنوبية، و

خصوصاً يهودا، الرفضة لزعامه شاول، ابن السبط الصغير - بنيامين - و كل ذلك من منطلق قاعدة العمل في خدمة الفلسطينيين، و بالتالي الاطمئنان إلى رضاهم عنه. و بتدهور الأوضاع الذاتية لملك شاول، انتهز الفلسطينيون الفرصة، و هاجموا، هذه المرة من الشمال، من مرج ابن عامر، فهزموه، و شتتوا جنده، و أسروه مع ثلاثة من أبنائه، و قتلوه، و أعادوا سيطرتهم على المناطق التي احتلها منهم، و لكن من دون إقامة سلطة مباشرة فيها. لقد اكتفوا باقتلاع عنصر الخطر، و عادوا إلى مناطقهم.

أمّا داود (١٠٠٤ - ٩٦٥ ق. م.)، فبعد هروبه من وجه شاول الذي عزم على قتله، لجأ إلى ملك جات الفلستى، أخيش، و عمل في خدمته حارساً لحدوده من هجمات القبائل المتنقلة في الصحراء، و اتخذ مقرّاً له في مدينة تسجلاج (صقلج) في الطرف الجنوبي الشرقي من أرض الفلسطينيين. و من هذه المنطقة واصل صراعه مع أشبعل، ابن شاول و وارثه، الذي بدعم من قائد الجيش، أبنر، نقل مركزه إلى شرقي الأردن. و الفلسطينيون، الذين استغلوا هذا الصراع لمصلحتهم، سكتوا عن داود عندما نقل مقرّه إلى حبرون (الخليل)، و ساندوه في صراعه بشأن ميراث ملك شاول، و لم يستفيقوا على الخطر الناجم عن ازدياد قوته إلّا بعد أن وضع يده على أورشليم، و أنهى حكم اليوسيين الكنعاني فيها.

و يبدو أن داود، بعد احتلال أورشليم، انتهز الفرصة لقطع علاقة التبعية التي ربطته بالفلسطينيين، فبادر هؤلاء بتجريد حملة ضده، لكنه دحرم، و تابع مطاردتهم، و احتل مدينتي: جيزر و عقرون من أيديهم، و جعلهما خط دفاعه الأول في مواجهته لهم. و بعد أن بسط سلطته على جبال القدس، و جعل أورشليم عاصمته له، و نقل إليها «تابوت العهد»، ليركز فيها السلطتين - الدينية و السياسية، تحوّل داود إلى توسيع مملكته. و خلال بضع سنوات ضمّ إليها كل ولاية كنعان المصرية سابقاً، ما عدا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٥

السهل الساحلي، الذي بقى في أيدي الفلسطينيين. و بعد ذلك توجه نحو شرقي الأردن، و اشتبك مع العمونيين و المؤابيين الذين كانوا يعملون لترسيخ سلطتهم هناك.

و بسبب نشاطه العسكري في الجلعاد، اصطدم داود مع العمونيين و المؤابيين في شرقي الأردن، و مع الأراميين في سورية. و بغض النظر عن المبالغة التوراتية في حدود مملكة داود، الأمر الذي لا نجد له صدى في المصادر الأخرى المعروفة، فإن في الإمكان الافتراض أنه برز كقوة في هذه المرحلة، بفضل أوضاع سياسية خاصة، أدت إلى تدهور أوضاع الإمبراطوريات الكبيرة كلها المعروفة في الشرق الأدنى آنذاك، و أفسحت المجال أمام قيام مملكة داود. فدولة الحثيين انهارت بفعل حركة شعوب البحر، و الإمبراطورية المصرية تراجعت بتضافر عوامل خارجية و داخلية. و كذلك حدث في آشور و بابل، بعد أيام تغلات بلّيسر الأول (نحو ١١٠٠ ق. م.)، الأمر الذي دفع الأراميين إلى التمدد و العمل على إقامة ممالك مستقلة في سورية: دمشق و صوبا و جشور و غيرها.

و يظهر أن داود أقام علاقات تجارية و دبلوماسية مع ملك حماة، توعى، في مواجهة الأراميين الآخرين، و مع حيرام، ملك صور الفينيقي، لأغراض تجارية.

و كذلك فعل مع العمونيين، إذ لضرورات سياسية و اعتبارات داخلية، تزوّج ابنه سليمان من نعامه، ابنة الملك العموني. و هو نفسه تزوّج من ابنة ملك جشور الأرامي. أمّا في الداخل، فلم يحقق الكثير في حياته، إذ شغل بالحروب، فأدّى ذلك إلى تدمير القبائل، و حتى إلى ثورة ابنه أبشالوم عليه، بدعم من قبيلته - يهودا - الأمر الذي اضطره إلى الهروب و اللجوء إلى حماية العمونيين. و في آخر أيامه، أمر بإجراء إحصاء للسكان، لضرورات جباية الضرائب، و التجنيد للجيش و أعمال الملك (السخرة)، فأثار بذلك نقمة القبائل و تمرداً عليه.

و في سعيه لتوحيد القبائل الإسرائيلية حول ملكه و عاصمته، اصطدم داود بالنزعة الانفصالية القوية لدى تلك القبائل. لقد نقل تابوت العهد - رمز وحدة بني إسرائيل من أيام موسى - إلى أورشليم، و أخذ يعد لبناء قصر لنفسه و هيكل ليهوى. فجمع مواد البناء، و كذلك الذهب و الفضة لهذا الغرض، الأمر الذي أدّى إلى تدمير الناس من عبء الضرائب. كما ثار بعض القبائل ضد المحاباة التي خصّ بها

قبيلته - يهودا - بإعفائها من الأتاوات، و منحها الامتيازات عبر المواقع الرفيعة في الجيش و الإدارة المدنية. و في النتيجة، لم ينجح داود في التغلب على النزعة الانفصالية لدى القبائل الإسرائيلية، و كان لا بدّ من اللجوء إلى أعمال القمع لفرض سلطانه، و تأمين حاجات جهاز الدولة المركزي من النفقات و التموين و أعمال العمارة.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٦

لقد ثارت المشكلات في وجه داود و هو في ذروة قوته، إلّا إنها تفاقمت في آخر أيامه، و خصوصا بشأن الوراثة. فبعد مقتل ابنه الأكبر، أمنون، احتل مكانه أبشالوم (ابن معخا، ابنه تلمي ملكك جشور). إلّا إن أبشالوم ثار على والده، و اضطره إلى الهروب و الاحتماء عند العمونيين. و بعد فشل التمرد و مقتل أبشالوم، دار الصراع في البلاط، بين أنصار سليمان، بقيادة والدته، بات شيع (اليوسية)، و أنصار الابن الأكبر سنًا، أدونيا هو، (ابن حجيت). و تغلب سليمان، و أوصى داود له بالملك.

و عندما تولى العرش، قتل أخاه و أنصاره المقربين، ليضمن استتباب الملك له (٩٦٥-٩٢٨ ق.م.).

بالكثير من التبرير تقدم الرواية التوراتية سليمان كملك فوق العادة، يتميّز بالحكمة، و يتصف بحب العدل و السلام، و يعمل على توطيد أركان مملكته و ترتيب أوضاعها، و يسعى لدمج القبائل الإسرائيلية في وحدة سياسية، و يحاول نسج علاقات خارجية حميمة مع جيرانه. غير أن الواقع، كما يظهر من خلال التطورات التاريخية، يشير إلى غير ذلك. فما لبث أن مات، حتى انقسمت مملكته إلى شطرين: شمالي، و هو الأكبر، و يضم أغلبية القبائل، و يدعى «إسرائيل»؛ و جنوبي، يدعى «يهودا»، و يضم بالأصل سبطي يهودا و بنيامين. و هذا يدل على أن سليمان فشل في توحيد القبائل الإسرائيلية حول ملكه في أورشليم، سياسيا و دينيا.

و ورث سليمان عن داود مملكة واسعة نسبيا، تأسست على الحرب، و ضمت مناطق جغرافية متعددة، و عناصر إثنية كثيرة، و بالتالي فقد انطوت على أزمه مستمرة، داخليا و خارجيا. في حينه، استفاد داود من عاملين أساسيين، تضافرا ليتها له فرصة السيطرة على أراض واسعة: الأول ذاتي، و هو بناء قوة عسكرية مقاتلة؛ و الثاني موضوعي، و هو الفراغ السياسي الذي عمل فيه، نتيجة انكماش نفوذ الإمبراطوريات الكبيرة في الشرق الأدنى القديم، و عزوفها عن التدخل في فلسطين لاهتمامها بمشكلاتها الداخلية. و الإيجابيات التي قدمها هذان العاملان، سرعان ما انقلبت إلى سلبيات. فاستمرار الحرب رفع حدة التوتر الداخلي و التذمر القبلي، و إخضاع الشعوب المجاورة صعد من مقاومتها لهذا التسلط. و كان على سليمان أن يواجه النتائج.

و في الواقع، ليست هناك مصادر خارجية تدعم الرواية التوراتية عن إنجازات سليمان، فالمعلومات الأثرية تعطي انطباعا أنها كانت أكثر تواضعا من الذي تضمنه عليها الصيغة التوراتية. و يلفت الانتباه خلوّ المصادر المعروفة من مصر و العراق و سورية من أي ذكر لملكي إسرائيل، داود و سليمان. و مع ذلك فمن المنطقي الأخذ

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٧

بالدعوى أن سليمان ووجه نشاطه لاستكمال مشروع والده، و ربما بوسائل أخرى:

دبلوماسية و سياسية و تجارية و غيرها. و تنتقد التوراة علاقات سليمان الخارجية، و خصوصا مسألة زواجه الدبلوماسي واسع النطاق. و تعتبر أنه أدخل العبادات الأجنبية إلى مملكة إسرائيل، و التي تنافس ديانة يهوى على قلوب الإسرائيليين. كما تتخذ التوراة موقفا متعاطفا مع عامة الشعب المتذمر من أعباء الضرائب و أعمال السخرة التي فرضها على الناس لإنجاز أعماله المعمارية الكثيرة.

و بحسب التوراة، حلّت العلاقات التجارية المتشعبة التي أقامها سليمان محل الحروب التي خاضها داود، فأصبحت السمّة البارزة لعصره. و نتيجة ذلك، ازدهرت مملكته و تعاظم دخلها، من مواردها الذاتية، و من تجارة الترانزيت التي مرت بالأراضي التي يحكمها، مستفيدا من موقعها الاستراتيجي المهم، فضلا عن نشاط بلاطه التجاري لحسابه الخاص. و بناء على ذلك، فقد أولى طرق التجارة أهمية قصوى، فبنى الحصون و القلاع لحمايتها: حاصور و مجدو و جيزر و عتسيون جيب (العقبة - أيلة) و غيرها. و أقام جيشا محمولا

على مركبات عسكرية لحفظ الأمن على تلك الطرق. و يتضح أنه اهتم بتوسيع عاصمته و تزيينها، فبنى قصرا لنفسه، و هيكلا ليهوى، أرادته مركزيا للمملكة، و بديلا من جميع مراكز العبادة المحلية الأخرى.

و كان لا بدّ من أن يترافق ذلك مع تطوير جهاز الدولة الإداري، بما يتواءم و التحولات الجارية فيها. فقسّم المملكة إلى اثني عشر لواء، لعله الأساس في تقسيم بني إسرائيل إلى اثني عشر سبطا، كعملية مصطنعة، هدفها المركزي توزيع أعباء مستلزمات البلاط الملكي و الهيكل خلال أشهر السنة، بحيث يتكفل كل منها ذلك شهرا في العام. كما زاد سليمان في مركزية السلطة في البلاط و الجيش، و عمم أعمال بيت الملك (السخرة) على جميع الإسرائيليين بحسب الحاجة، خلافا لسياسة والده الذي حصرها بغيرهم. و يذكر أنه استغل مناجم النحاس في العربة (تمنع)، كما اشتغل بتجارة الخيول و عربات الحرب و بالمعادن الثمينة و الأحجار الكريمة، و حتى الطيور و الحيوانات النادرة.

و على الرغم من الثراء الأسطوري الذي جمعه سليمان، فإن نشاطه العمراني الواسع، و إدارة بلاطه الفاخر، و مستلزمات حكومته و جيشه، قد استنزفت موارده.

و بناء عليه، اضطر إلى زيادة أعمال السخرة، و مضاعفة الضرائب، الأمر الذي أدى إلى إفقار سكان الريف، و بالتالي تفاقم التملل بين القبائل، و خصوصا في منطقة سبط إفرام بمحيط شيكم، الذي ساءه جدا التمييز الذي تمتع به سبط يهودا- قبيلة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٨

الملك. و لتسديد ديونه لملك صور، حيرام، الذي زوّده بمواد البناء و الحرفيين المهرة، عمد سليمان إلى بيعه عشرين مدينة في الجليل (قضاءى كابول و معلوت).

و يظهر أن الأراميين، في دمشق و صوبا و حماة، نقضوا ما كان بينهم و بينه من اتفاقات تجارية، الأمر الذي زاد في أوضاعه الاقتصادية سوءا.

و يتضح أن سليمان، في أواخر عهده، فشل في ضبط الأوضاع الداخلية و الحفاظ على العلاقات الخارجية لمملكته، إذ راحت الحالة العامة تتردى. و الازدهار الذي شهدته المملكة، و الذي حفزه على القيام بنشاطات عمرانية واسعة، و بالتالي على اتخاذ إجراءات إدارية صارمة، تمخض عن نتائج سلبية. لكن العامل الأهم في تضيق الخناق على سليمان، كان التطورات السياسية الإقليمية. فبينما عادت مصر إلى إثبات وجودها في غرب آسيا، و أولا في فلسطين، برزت مملكة الأراميين في دمشق كمنافس قوى لمملكة سليمان، عسكريا و اقتصاديا. و علاوة على ذلك اندلع تمرد في إفرام، بقيادة يربعام بن نباط، و آخر في أدوم، و يبدو أنهما كانا بدعم من مصر، أيام السلالة ٢٢. ثم ما لبثت آشور أن عادت إلى التحرك، و بناء الإمبراطورية مجددا.

و بموت سليمان انفجر الوضع بعنف، و انقسمت المملكة المتحدة. فأسباط الشمال، التي لم تسلم قط بالملك لبيت داود، من سبط يهودا، في حين تدعى هي أنها من أبناء يوسف، انتهزت الفرصة لإعلان انفصالها عن عاصمة داود، سياسيا و دينيا. و يربعام بن نباط، الذي كان لجأ إلى مصر بعد تمرده الفاشل على سليمان، عاد إلى قبيلته- إفرام- و أعلن الانفصال. و رجعام، ابن سليمان و وارثه، وقف عاجزا عن التصدي لهذه الحركة الانشقاقية و قمعها. و قد آذن ذلك بداية حرب طويلة بين المملكتين، شهدت مراحل من المدّ و الجزر، و الصدام و الهدنة الموقته، إلى أن قضى الآشوريون على مملكة إسرائيل الشمالية، و تبعهم الكلدانيون بإنهاء مملكة يهودا الجنوبية و الصغيرة.

و عدا انقسام المملكة، و دخول شطريها في حرب ضروس بينهما، كان الحدث الأهم الذي عقب موت سليمان بخمس سنوات، هو حملة الفرعون الليبي الأصل، شيشاك (شيشنق)، على فلسطين (نحو ٩٢٥ ق. م). و يرد ذكر هذه الحملة في نصب تذكاري أقامه الفرعون، و اكتشف في مجدو. و كانت الحملة أقرب إلى الغزو بهدف النهب، منها إلى عملية في إطار خطة لإعادة السيادة المصرية على فلسطين. و نجت يهودا من الحصار و الدمار بدفع جزية كبيرة، بينما لحقت بمدن إسرائيل أضرار جسيمة. و بعد عودة شيشاك

إلى مصر، انتهز أيام بن رحبعام، ملك يهودا الجديد،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٩٩

الفرصة ووسع حدوده الشمالية على حساب يربعام بن نباط، ملك إسرائيل. وفي حربه هذه، عقد أيام تحالفا مع بن هداد (حدد)، ملك دمشق الأرامي. ومنذ ذلك دخلت أرام دمشق عنصرا دائما في الصراع الدائر بين يهودا وإسرائيل.

وخلال فترة طويلة، ظل ملوك يهودا ينظرون إلى أنفسهم على أنهم بيت الملك الشرعي، و إلى ملوك إسرائيل على أنهم منشقون، يجب انتهاز الفرصة لإخضاعهم وضم أراضيهم إلى المملكة الموحدة- يهودا. و بناء عليه، فلم يعنوا بتحسين حدودهم الشمالية، بانتظار الفرصة التي لم تأت. في المقابل، و منذ البداية، كان هم يربعام في إسرائيل تكريس الانفصال، و إعطاء التعبيرات السياسية و الدينية، التي لا تمت بصله إلى أورشليم- بلاطا أو هيكلًا. فأعاد الاعتبار إلى أمكنة العبادة القديمة، و أقام فيها العجول المذهبة، الأمر الذي اعتبره كتبة التوراة عودة إلى عبادة الأصنام. و جعل عاصمته أولا في شيكم، ثم نقلها لاحقا إلى السامرة.

إن العوامل التي أدت إلى انقسام مملكة داود بعد موت سليمان، عادت لتفعل فعلها في مملكة إسرائيل بعد استقلالها. فوقعها بين مطرقة الأراميين، القوة الصاعدة في دمشق، و سندان يهودا التي تحالفت معهم، أدخل إسرائيل في مأزق خارجي، بينما بنيتها الداخلية كانت قائمة على ائتلاف قبلي هش. و الهزائم المتتالية التي لحقت بربعام، خلخلت أركان حكمه، فانتهز بعشا بن أحيا (٩٠٦-٨٨٣ ق.م.)- من سبط يسيخار- الفرصة، و قضى على سلالة يربعام، و بالتالي على زعامة قبيلة إفرام في مملكة إسرائيل. و بذلك دخلت إسرائيل في صراع داخلي بشأن السلطة، بينما ظلت يهودا أكثر تماسكا بسبب ارتكازها أصلا على قبيلة واحدة، هي يهودا، التي خرجت منها سلالة داود المالكة.

و في غياب تهديد جدى لبلاد الشام، أكان ذلك من مصر أو العراق، و حياد المدن الفينيقية على الساحل، اندلع صراع مثلث الجوانب بين ممالك الداخل- دمشق و السامرة و أورشليم- لم تستطع أى منها حسمه لمصلحتها تماما. و بداية عمده بعشا إلى التحالف مع دمشق ضد يهودا، و استطاع بذلك أن يستعيد الأراضي التي خسرتها إسرائيل أيام أيام. لكن ملك يهودا، آسا (٩٠٨-٨٦٧ ق.م.) الذي راح يحس بالخطر، سواء من الشمال (تحالف دمشق- السامرة)، أو من الجنوب (حركة زيرح الكوشى) بتحريض من مصر، سارع إلى التحالف مع دمشق، و التعاون معها ضد السامرة. لكن آسا، الذي تمتع بشعبية في بداية حكمه، نظرا إلى انحيازه ضد العبادات الأجنبية في يهودا، راح يواجه مشكلات داخلية لتحالفه مع الأراميين، ربما بتحريض من مصر، الأمر الذي حمله على اللجوء إلى القمع لإخماد المعارضة الشعبية ضده.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٠

من موقع القوة، استطاع بن هداد الأول، ملك دمشق الأرامي، انتزاع مناطق واسعة من مملكتي إسرائيل و يهودا، و خصوصا في شرقي الأردن و شمال فلسطين.

و مرة أخرى وقع انقلاب في بلاط بعشا بعد موته، و انتقل الملك إلى قائد جيشه عمرى (٨٨١-٨٧٣ ق.م.)، الذي أسس سلالة جديدة هي الثالثة في إسرائيل، بينما سلالة داود استمرت في الحكم في يهودا. و استطاع عمرى أن يثبت أركان حكمه، فبنى عاصمته جديدة له- هي السامرة. و إزاء ضغط الأراميين المتعاظم، عمد عمرى إلى عقد اتفاقات اقتصادية و سياسية و دبلوماسية مع إتبعل، ملك صيدا (الفينيقى)، الأمر الذي عاد عليه بفوائد جديّة. و كذلك، توجه نحو تحسين علاقاته مع مملكة يهودا. و بذلك أدخل عمرى مملكته في مرحلة من الازدهار، جعلتها قوة مهمة في بلاد الشام، كما يبرز ذلك لاحقا، في تحالف هذه الممالك جميعا ضد آشور.

و الوثائق الآشورية تشير إلى ملوك إسرائيل باسم «بيت حمري»، و حتى لأولئك الذين لم يكونوا من سلالته. و كما قطف سليمان ثمار جهد داود، هكذا فعل آحاب (٨٧٤-٨٥٣ ق.م.) بعد عمرى، على الرغم من تباين الأوضاع، إذ كانت آشور في هذه الفترة تعاود

نشاطها التوسعي بوتيرة عالية. ووطد آحاب علاقته مع الفينيقيين، و تزوج إيزابيل، ابنة إتبعل، ملك صيدا. و إذ قوى ذلك موقعه السياسي الإقليمي، فإنه خلق له مشكلات داخلية، تمثلت بالمعارضة الشعبية للعادات و التقاليد التي جلبتها إيزابيل معها، و نشرتها في البلاط، كما في أوساط الارستقراطية المدنية و العسكرية.

و كما فعل سليمان في أورشليم، هكذا نشط آحاب في توسيع عاصمته السامرة، و تزيينها و تحصينها.

و المشاريع العمرانية في عاصمة آحاب، و التحصينات الضخمة على حدود مملكته، تشير إلى الازدهار الاقتصادي في إسرائيل في أيامه. و كان ذلك نتيجة العلاقات التجارية مع المدن الفينيقية من جهة، و مع يهودا، من جهة أخرى، إذ بعد موت آسا تحسنت علاقات آحاب مع ابنه و وارثه يهوشافاط. و لتكريس التعاون بينهما، زوج آحاب ابنته عتاليا (ابنة إيزابيل)، إلى يهورام ابن يهوشافاط، فحملت معها العادات و التقاليد و العبادات الفينيقية إلى أورشليم، الأمر الذي أثار ردات فعل سلبية فيها. و لكن الأهم هو توتر العلاقة مع أرام دمشق، أيام بن هداد الثاني، جزاء التقارب بين يهودا و إسرائيل. و سارع بن هداد إلى مهاجمة آحاب، و وصل إلى عاصمته، و حاصرها، لكنه لم يحتلها. و خلال فترة قصيرة، دخل هؤلاء جميعا في تحالف لمواجهة آشور. و يبدو أن بن هداد عاد إلى دمشق ليواجه خطر الآشوريين الآتي من الشرق.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠١

و في سنة ٨٥٣ ق.م. و بحسب لوحة السيرة الذاتية لملك آشور، شلمنصر الثالث، اصطدمت جيوشه المتقدمة غربا بتحالف قوى بلاد الشام، المؤلف من ١٢ ملكا، في قرقر (بالقرب من حماة)، و بقيادة بن هداد، ملك دمشق. و يدعى ملك آشور أنه كسب المعركة، لكن الواضح أنها لم تكن حاسمة، و انسحب شلمنصر من دون أن يستغل النصر الذي يدعيه. و في اللوحة، يرد اسم آحاب في التحالف، و هو يقود جيشا من ١٠،٠٠٠ رجل و ٢٠٠٠ مركبة. و لأول مرة يظهر في هذه اللوحة اسم جنديبو العربي، على رأس كتية فيها ١٠،٠٠٠ جمل. و بزوال الخطر الآشوري بعد انسحاب شلمنصر، عاد الوضع في بلاد الشام إلى سابق عهده من الصراع، بينما مصير جميع القوى المنخرطة فيه يتوقف على التطورات في آشور.

و بعد معركة قرقر بفترة قصيرة، عادت الحرب و اندلعت بين دمشق و إسرائيل، بينما الأخيرة في تحالف مع يهودا. و هزم بن هداد آحاب في المعركة، إذ جرح و مات متأثرا بجروحه، الأمر الذي فتح الباب لانقلاب قام به يهو، أوصله إلى الحكم. و تدهورت أوضاع إسرائيل و حليفها الصغرى يهودا، بينما وسع الأراميون نفوذهم في شرقي الأردن. و برزت مملكة مؤاب، حليفة الأراميين، بقيادة ميشع الذي ترك لوحة كبيرة تقص أخبار أعماله في تحرير بلاده من نفوذ آحاب و ورثته. و كل محاولات إسرائيل، و يهودا اللاحقة لاستعادة نفوذهما شرقي النهر بادت بالفشل، كما فشلت محاولات تحالف الأدوميين و المؤابيين و العمونيين و غيرهم للتوسع غربى النهر. كما أن الفلسطينيين، على ما يبدو، عادوا إلى إثبات وجودهم في هذه الفترة على حساب يهودا و إسرائيل.

و ركب يهو (٨٤٢-٨١٤ ق.م.) موجة النعمة الشعبية التي قادها النبي إياهو (مار الياس - الخضر)، على التأثيرات الفينيقية في بلاط الملك و المقربين منه، بفعل إيزابيل، و تعامل مع مؤيديها بمنتهى القسوة، ففضى عليهم جميعا. و بذلك ضرب العلاقة مع صيدا و يهودا في آن معا، إذ كانت عتاليا، ابنة إيزابيل في يهودا، تؤدى دور أمها في إسرائيل. و كان من آثار ذلك تردى الأوضاع الاقتصادية في مملكة يهو، إضافة إلى عزلتها السياسية. و انتهز حزئيل، ملك أرام دمشق، الذي وصل إلى الحكم بانقلاب أيضا ضد بن هداد، الفرصة، و فتح المعركة مع يهو، و دخل أرضه، و وصل إلى مشارف عاصمته. و في حالة ضعفه، توجه يهو إلى طلب المساعدة من شلمنصر الثالث، ملك آشور، و إعلان التبعية له. إلا إن شلمنصر فشل في احتلال دمشق، و عاد إلى آشور، تاركا لحزئيل حرية العمل ضد يهو.

و لما فشل شلمنصر في إخضاع دمشق، سنة ٨٤١ ق.م.، عاد حزئيل و هاجم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٢

إسرائيل، و تقدم في أراضيها إلى حدود يهودا، فسارع ملكها يوأش إلى دفع الجزية إلى حزئيل، و ذلك لثنيه عن دخول مملكته. و أخذت الأموال من خزينة الهيكل، الأمر الذي أثار الكهنة عليه، بعد أن كانوا أوصلوه إلى الملك عقب مقتل عتالبا. و اغتيل الملك، و بدأ عصر من عدم الاستقرار، تبعه آخر من الانحطاط. و في هذه الأثناء نجت إسرائيل و يهودا من الوقوع في أيدي ملوك دمشق، بفضل التدخل الأشوري لمصلحتهما. ففي سنة ٨٠٦ ق.م، قام الملك أداد نيرارى الثالث (٨١٠-٧٨٣ ق.م) بحملة على بلاد الشام، اصطدم فيها بداية بجيوش الأراميين، فهزمها و أضعف دمشق كثيرا. و قد رأى فيه ملكا يهودا و إسرائيل مخلصا، و عادت المملكتان إلى الانتعاش الموقت، و حتى إلى الصراع بينهما.

و بصعود تغلات بليسر (٧٤٥-٧٢٧ ق.م) إلى عرش آشور، بدأت مرحلة جديدة من تنظيم الإمبراطورية، يقوم على أساس تقسيمها إلى ولايات آشورية، و بذلك تنتفى الحاجة إلى الحملات السنوية لإخضاع شعوبها. أما الشعوب المتمردة فقد عمد إلى إجلائها الجماعي عن بلادها. و انتهز تغلات بليسر فرصة طلب المساعدة من ملك يهودا، أحاز، في مواجهة تحالف ملك دمشق، رازين، و ملك إسرائيل، بيكح، ضده لامتناعه من الانضمام إليهما في مقاومة الأشوريين. فقام تغلات بليسر بحملتين على بلاد الشام (٧٣٣ و ٧٣٢ ق.م) أخضع فيهما هذه البلاد و قسمها إلى ولايات و أقام عليها حكاما في دور و مجدو و جلعاد و قرنايم و حورون و دمشق. و ترك يهودا مملكة تابعة، و كذلك إسرائيل. و بعد موت تغلات بليسر، ثارت إسرائيل على حكم آشور، فحاصر عاصمتها شلمنصير الرابع، و سقطت في يد خلفه سرجون الثاني، سنة ٧٢١ ق.م، و أصبحت مملكة إسرائيل السابقة ولاية السامرة الآشورية.

و بينما خربت إسرائيل، و أجلى جزء كبير من سكانها، و حل محلهم قوم آخرون، بقيت يهودا مملكة مقزمة لمدة ١٣٤ عاما. و عندما حاولت استغلال التناقض بين مصر و آشور قام سنحاريب بحملة تاديبية سنة ٧٠١ ق.م، و احتل يافا و يازور و بيت دجون و عسقلان، و هزم الجيش المصري الذي وصل لتقديم المساعدة.

و استكمل سرجون حملته باحتلال عقرون و لاختيش، و فرض الحصار على أورشليم، لكنها لم تسقط في يده. و بقيت يهودا مملكة صغيرة، تابعة لآشور، أسوة ببقية الولايات في بلاد الشام، إلى أن سقطت في يد نبوخذ نصر سنة ٥٨٧ ق.م. و في النصف الأول من القرن السابع قبل الميلاد، بلغت آشور ذروة قوتها، و احتل أسرحدون مصر، و أخضعها لحكمه سنة ٦٧١ ق.م. أما في النصف الثاني من ذلك القرن، فقد راحت قوتها تتراجع. بينما بدأ اهتمام المصريين بغرب آسيا يتزايد.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٣

و أخيرا قضى البابليون الجدد (الكلدانيون) على مملكة آشور، و خربوا عاصمتها نينوى سنة ٦١٢ ق.م. و انتهزت يهودا الفرصة، و سعت للتوسع جنوبا و شمالا. و كذلك فعل الفرعون نيخو من السلالة ٢٦. و اصطدم ملك يهودا، يوشيا، بالفرعون في مرج ابن عامر، و قتل سنة ٦٠٩ ق.م. و تقدم نيخو لملاقاة البابليين، لكن من دون نجاح يذكر. و عندما تمرد صدقيا (تسدقيا)، ملك يهودا، على بابل، سارع نبوخذ نصر إلى الانقضاض على أورشليم، فخرّبها، و هدم الهيكل، و سبى سكانها، منها بذلك ما تبقى من مملكة داود و سليمان.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٤

المراجع

باللغة العربية

- شعث، شوقي (محرر). «دراسات في تاريخ و آثار فلسطين (وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية)». ٣ مجلدات. حلب، ١٩٨٧.

- محيسن، سلطان. «آثار الوطن العربي القديم (الآثار الشرقية)». دمشق، ١٩٨٨-١٩٨٩.

– «الموسوعة الفلسطينية»، القسم العام، ٤ مجلدات. دمشق، ١٩٨٤.

–، القسم الثاني (الدراسات الخاصة). ٦ مجلدات. بيروت، ١٩٩٠.

باللغات الأجنبية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٥

الفصل الثالث عصور التاريخ القديم

أولا: العصر الفارسي

كان سقوط آشور في نهاية القرن السابع قبل الميلاد، حدثا مهما و منعظا حادا في تاريخ الشرق الأدنى القديم، إذ كان حصيلة تضافر جهود شعوب متفرقة. و بناء عليه، عندما فتح باب التنافس بين هذه الشعوب، لم يكن أى واحد منها مؤهلا لملء الفراغ الذى حدث. فمصر التى كانت مرشحة للقيام بهذا الدور، على قاعدة «لعبه الأمم» السابقة فى المنطقة، لم تكن فى وضع ذاتى يؤهلها لذلك. و فراعنة السلالة ٢٦، على الرغم من أنهم أعادوا إلى مصر الاستقرار و الازدهار داخليا، لم يكن فى قدرتهم انتهاج السياسة اللازمة لفرض سلطتهم على الأراضى التى كانت تحكمها آشور. و لذا، تقسمت هذه الأراضى بين عدد من القوى المتنافسة، و اندلع الصراع بينها.

و على شواطئ آسيا الصغرى الغربية، برزت مملكة ليديا بعد انهيار الإمبراطورية الحثية، و لكن بعد سقوط آشور انتهزت الفرصة لتوسيع سلطانها على أناضوليا كلها.

و بسبب موقعها الاستراتيجى بين الشرق الأدنى و بلاد اليونان، كان لصعود ليديا السريع أثر مهم فى تاريخ المنطقة لاحقا. و معلوم أن اليونان أدوا دورا مهما فى هذا التاريخ، و خصوصا بعد حملة الإسكندر المقدونى الشهيرة، فى نهاية القرن الرابع قبل الميلاد.

و فى ليديا كان اليونان عنصرا رئيسيا من السكان. و قد راودت ملكها كرويسوس (٥٦٠-٥٤٦ ق.م.) طموحات توسعية كبيرة، لكنها انهارت أمام الزحف الفارسي غربا.

ففى معركة على نهر هاليس (كيزيلرماك) سقط كرويسوس صريعا، و أصبحت آسيا الصغرى ولاية حدود فارسية، على تماس مع بلاد اليونان، و بالتالى فى صراع مستمر معها.

و إلى الشرق من جبال زاغروس، كان الميديون عنصر تمرد مستمر على حكم آشور، و بالتالى عاملا مهما فى سقوطها. فعندما وهنت قبضة آشور الحديدية، بفعل الصراعات الداخلية، أدى الميديون دورا رئيسيا فى تدميرها. و لما سقطت نينوى و انتهت آشور، استولى الميديون على جزء كبير من الأراضى الشمالية للإمبراطورية،

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٦

و وسعوا سلطانهم على إيران كلها. و بذلك أقاموا دولة مترامية الأطراف، لكنها سيئة التنظيم و الإدارة. و خلال فترة قصيرة، برزت قبيلة مغمورة- فارس- بقيادة أميرها كورش، الذى عمل فى خدمة الميديين ثم انتزع السلطة منهم (٥٥٠-٥٢٩ ق.م.)، و واصل التوسع غربا. و عندما تغلب على ليديا، و أعلن نفسه وارثا لملكها، و جعلها ولاية فارسية حدودية، فقد وضع مقدمات الصراع مع اليونان، ذلك الصراع الذى كان من شأنه أن ينهى بعد ٢٠٠ عام إمبراطورية فارس (الأخمينية).

لكن المستفيد الأول، و لو مؤقتا، من سقوط آشور، كان الكلدانيون. و هم شعب سامى، أقام فى جنوب العراق تحت حكم آشور. و لما ضعفت هذه اعتبروا أنفسهم ورثة الحضارات القديمة فى بلاد الرافدين، بديلا طبيعيا من آشور. و إزاء الصراعات الداخلية فيها، قاد

الكلدانيون الثورة عليها، و أسقطوا السلالة الحاكمة فيها، و نقلوا العاصمة إلى بابل القديمة، كتعبير عن ارتباطهم بماضى العراق. و سارع نبوخذ نصير الثاني (٦٠٥-٥٦٢ ق.م.) و كرس سلطته على بلاد الشام، مشكلا بذلك إمبراطورية موحدة سياسيا و حضاريا و عرقيا. و على العكس من ملوك آشور، الذين اكتفوا من ملوك يهودا بالجزية، فإن نبوخذ نصير قضى عليها، و خرب عاصمتها، و هدم هيكلها، و سبى أعدادا كبيرة من الطبقة الحاكمة فيها إلى بابل، قاطعا الطريق على أية أحلام قد تراود سكانها بإعادة بناء مملكة داود. و مع أن إمبراطورية نبوخذ نصير لم تعمّر طويلا، فإنها كانت فترة انبعث حضارى لامعة في تاريخ العراق. و الملك العظيم لم ير نفسه فاتحا كبيرا فحسب، بل مجددا دينيا و حضاريا أيضا. و يبرز ذلك من خلال إعادة بناء بابل كعاصمة له، بما ضمته من أسوار ضخمة و قصور و معابد جميلة و حدائق أسطورية معلقة و نحوت و رسوم فاتنة، جعلتها إحدى أكثر مدن العالم القديم فخامة. لكن هذه الإمبراطورية و هنت بعد موته، و دبّ فيها الصراع الداخلي، و خصوصا بين خلفائه الضعفاء و طبقة الكهنة التي لم تنظر بعين الرضى إلى سياستهم الاجتماعية-الدينية. و انتهز كورش حالة التملل الداخلي، و بمساعدة الجالية اليهودية في بابل، احتل المدينة من دون صعوبة تذكر، سنة ٥٣٩ ق.م. معلنا نفسه وارثا لملكها، كما فعل في ليديا من قبلها.

و بعد توحيد فارس و ميديا، و التغلب على ليديا و بابل، و ميراث أراضيها، أصبحت الإمبراطورية الفارسية الوارثة الحقيقية لأشور، و عمّرت في الفترة (٥٥٠-٣٣٠ ق.م.)، و بفعل ملوكها الأوائل- كورش (٥٥٠-٥٢٩ ق.م.) و قمبيز (٥٢٩-٥٢٢ ق.م.) و داريوس (٥٢١-٤٨٦ ق.م.)- امتدت الإمبراطورية من بحر إيجه في الغرب إلى حدود الهند في الشرق، و من جنوب مصر إلى البحر الأسود و جبال القفقاز

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٧

و البرز في الشمال. فبعد إخضاع ليديا و بابل، توجه كورش شرقا إلى الهند. و ابنه قمبيز احتل مصر، سنة ٥٢٥ ق.م. و داريوس حاول دخول أوروبا، لكنه صدّ على أيدي تحالف اليونان بقيادة أثينا. و بعد معركة سلاميس (٤٨٠ ق.م.)، و لمدة ١٥٠ عاما، ظلّ الفرس في موقع الدفاع إزاء اليونان، إلى أن قضى الإسكندر على إمبراطوريتهم و ورثها، سنة ٣٣٠ ق.م.

لقد كرس كورش جل اهتمامه للاحتلال، و لم يلتفت كثيرا لتنظيم الإمبراطورية و إدارتها. و بموته اندلعت سلسلة من الثورات، قمعها ابنه قمبيز، و غزا مصر. و في غيابها، نشبت ثورات في المشرق، فعاد ليخمدوها، لكنه مات في الطريق. و عقب ذلك فترة من الاضطرابات لم تهدأ حتى تسلم داريوس السلطة. و هو يعتبر بحق باني الإمبراطورية، و مؤسس السلالة الأخمينية. فبعد أن كرس نفسه حاكما مطلقا بإراد إلهية، كونه ممثلا للإله الفارسي الأعظم، أهورامازدا، عمد إلى تنظيم الإمبراطورية، فقسمها إلى ٢٠ ولاية (سترابا)، و أدخل تجديدات في الإدارة. و وحد الضرائب و المقاييس و الأوزان و النقد، كما نظم أمور الجيش و البلاط. و كما يليق ب «ملك الملوك» (شاهنشاه)، كما لقب نفسه، بنى داريوش بلاطا فخما في كل من إقبطانا و سوسة و بيرسيبولس، حيث الآثار الفخمة فيها تشهد على عظمتها.

مات داريوس و الحرب مع اليونان مشتتة. فبدخوله إلى بلادهم اضطروهم إلى التوحد تحت راية أثينا. و بسعيه للسيطرة على تجارة بحر إيجه استثار شعوب جزره.

و لكن خلفاءه لم يستطيعوا حسم الصراع لمصلحتهم. بل على العكس، بدأوا يتراجعون، و في سنة ٤٧٩ ق.م.، و بعد معركة سلاميس البحرية، طرد الفرس من بلاد اليونان كلها. و راح هؤلاء يزيدون في ضغطهم على حدود الإمبراطورية الغربية في آسيا الصغرى. و خلال ١٥٠ عاما، بقي الصراع محتدما، إلى أن حسمه الإسكندر الكبير، و ورث هو بدوره أراضي إمبراطورية كورش. و بذلك دخلت المنطقة عصرا جديدا هو العصر الهليني.

لقد رهن داريوس كبرياء إمبراطوريته بالتغلب على اليونان و إخضاعهم لسلطانه. و لعله رأى الخطر الكامن هناك مبكرا، فسعى لتداركه قبل فوات الأوان. و من أجل ذلك بنى آلة عسكرية ضخمة، و نظمها جيدا، و

أعطى قادتها ورجالها امتيازات كبيرة، وربطها بشخصه، فأصبحت بولائها المطلق له ركيزة قوته الأساسية. و جنباً إلى جنب مع تنظيم أمور الدولة الإدارية، تابع داريوس سياسة كورش المعتدلة إزاء الشعوب المغلوبة والخاضعة، بإعطائها حرية ممارسة عباداتها وطقوسها الدينية، و تطوير تراثها الحضاري الخاص. و لعل ذلك يعود إلى التراث الزرادشتي، المعروف بسماحته

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٨

الدينية. و لكن من المؤكد أنه كانت لذلك أسباب عملية أخرى. فلكي يستطيع التفرغ لمحاربة اليونان، كان لا بد من أن يحافظ على الاستقرار في الولايات الخاضعة له، و الاستفادة من مواردها المادية، و حتى من طاقتها البشرية.

لكن الفشل في إخضاع اليونان، و استمرار الحرب تراوح مكانها بعد موته، ترك آثاراً سلبية على إمبراطورية داريوس، التي وضعت هذا الهدف في على سلم أولوياتها. فتركيز السلطة في البلاط جعله مركزاً للتآمر، و بالتالي التنافس الشديد على التقرب من ملك الملوك (الشاهنشاه). و استمرار الحرب استنزف الموارد و زاد في الأعباء، من الأموال و الرجال، ليس على الفرس فحسب، بل على الشعوب الخاضعة لحكمهم أيضاً. و استشرى الفساد في الدولة، و سادت فيها الانتهازية، في البلاد كما في الولايات. و إزاء هذه الحالة من التراجع، لم تنفع ملوك الفرس السياسة المعتدلة تجاه ديانات الشعوب المتدمرة من أعباء الضرائب. و عندما ثارت تلك الشعوب عمد الفرس إلى قمعها، فدخلت الإمبراطورية في حركة لولبية هابطة، انتهت بسقوطها.

في تنظيمه الإداري للإمبراطورية، قسمها داريوس إلى ٢٠ ولاية (سترابا)، و على كل منها وال (ستراب). و فلسطين كانت جزءاً من الولاية الخامسة، التي عرفت باسمها الأرامي «عبر نهر»، أي «ما وراء النهر»، و المقصود نهر الفرات. و هي تضم، بحسب هيرودوتس، بلاد الشام كلها - سورية و فينيقيا و قبرص و يهود. و يذكر هيرودوتس أن «العرب معفون من الضرائب»، أي أن البدو الرحل في الصحراء - جنوب أدوم و سيناء - كانوا خارج سلطة الوالي، الذي مقره في دمشق و علاقتهم بالإمبراطورية هشة. و السهل الساحلي الفلسطيني كان مقاطعة فينيقية، تابعة لمدينتي صور و صيدا إدارياً، ما عدا عكا و أكزيب (الزيب) و غزة، فقد كانت مدناً مستقلة. و قد أعطى الملك الفارسي الساحل الفلسطيني للمدن الفينيقية الرئيسية، لتكون مورداً للمواد الزراعية اللازمة لها كمراكز تجارية، و موانئ مهمة. و قد أولى داريوس المدن الفينيقية معاملة خاصة لمساعدتها إياه عبر أساطيلها في نشاطه الحربي. و كان للفينيقيين (التجار) مصلحة مشتركة مع الفرس في ضرب المدن اليونانية، التي كانت المنافس التجاري الرئيسي لها في البحر الأبيض المتوسط. فعلى العكس من الأشوريين الذين لم يهتموا بالبحر الأبيض المتوسط و طرقة و تجارته، و بالتالي بمدنه و قواه السياسية، فلم يتعرضوا لها، وضع الفرس هذه المهمة على رأس جدول أعمالهم، و تعاون الفينيقيون معهم.

و كان الداخل الفلسطيني مقسماً إلى وحدات أصغر (مقاطعات). و من المصادر اليونانية - هيرودوتس و غيره - يستفاد أنه في نهاية العصر الفارسي، كانت فلسطين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٠٩

(غربي الأردن)، مقسمة إلى مقاطعات كالتالي: (١) الجليل و عاصمته حاصور؛ (٢) سماريا و عاصمته مدينة سماريا؛ (٣) يهود و عاصمته أورشليم؛ (٤) أدوميا و عاصمته لاخيش؛ (٥) فينيقيا، و هي مقسمة بين صور و صيدا؛ كما فيها مدن تتمتع بحكم ذاتي، أكزيب (الزيب) و عكا و غزة. أمّا إلى الشرق من نهر الأردن، فيرد ذكر العمونيين و الجلعاد و عشتروت قرنايم (الباشان) و الحوران. و أمّا جنوب الأردن، و كذلك جنوب فلسطين، فقد كانا خارجين كما يبدو عن السلطة الفارسية، على الرغم من إدعاء الملك وراثتهما من الكلدانيين، الذين أقاموا فيهما حكماً قوياً. و كان على رأس كل مقاطعة حاكم (باشا)، مسؤول أمام الوالي (ستراب).

و في إطار سياسة الاعتدال و التسامح الديني التي سلكها كورش إزاء كل الشعوب غير الفارسية في إمبراطوريته الواسعة، و التي ضمت شعوباً كثيرة، و منها من كانت له حضارة قديمة احترمتها الفرس، أصدر الشاهنشاه مرسوماً يسمح لليهود بابل بالعودة إلى «أورشليم في يهود». و مرة أخرى اعتبرت الرواية التوراتية أن «يد الله» كانت وراء الحدث، فشبهته بالخروج من مصر، و اكتسب فيها طابعاً عجائبياً. و

في هذا السياق، اعتبر كورش مخلصاً، بعثه الله لينقذ بني إسرائيل بعد أن ثاب عليهم، و يعيدهم إلى «الأرض المقدسة» التي كان أبعدهم عنها عقاباً لهم على مخالفة إرادته. و بناء عليه، كان كورش بمثابة «المسيح المنتظر». و في صيغتها القائمة في التوراة، لا يمكن اعتبار الرواية تاريخية، و إنما صيغة طوباوية، ذات رسالة دينية، لحدث تاريخي من صنع الإنسان في سياق الزمان و المكان.

و حتى من الرواية التوراتية بشأن «عودة صهيون»، يتضح أن الذين انتهزوا الفرصة، و أفادوا من المرسوم الملكي، لا يتجاوزون نصف يهود بابل عدداً. أما النصف الثاني، فقد آثر لأسباب متعددة البقاء فيها. و في الواقع، فإن المرسوم لم يتحدث عن عودة «اليهود» (نسبة إلى يهودا) كلهم إلى فلسطين كلها (أى أرض - إسرائيل كما تسميها التوراة)، و إنما إلى أورشليم فقط، (أى العودة إلى «صهيون»).

و يطال الإذن بالعودة فقط أولئك الذين أجلاهم نبوخذ نصر و ذريتهم، من دون سواهم.

و قد عين كورش حاكماً فارسياً على المدينة، و لم يخول أيًا من العائدين اليهود إليها، بمن فيهم حفيد آخر ملوكها من ذرية داود، سلطة سياسية، بل اقتصر الأمر على حرية العبادة و ممارسة الشعائر الدينية.

و لم تحقق الموجة الأولى من العائدين إنجازات تذكر، بل على العكس، إذ تسهب الرواية التوراتية في وصف الأوضاع السيئة التي وصلوا إليها، و صراعهم مع الجوار الذين لم يستقبلوهم بالرضى، و خصوصاً سكان السامرة. و عندما راحت الموجة في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٠

أوضاع الإمبراطورية تتردى، و قامت ثورات في مصر ضد الحكم الفارسي، أولى ملوك فارس أهمية كبيرة لجنوب فلسطين، كخط دفاع، بما في ذلك مقاطعة يهود.

و أوفد أرتخشستا (٤٠٤ - ٣٥٩ ق. م.) إلى أورشليم، موظفين يهوديين من بلاطه، هما: عزرا الكاتب، الذي جمع التوراة بعد وصوله من مصادر متفرقة، و نحemia، وزير الشراب في بلاط الملك، الذي تولى القيادة العسكرية. و الواضح أن هذه المبادرة من قبل الشاهنشاه كانت ترمى إلى تأمين الحدود مع مصر. و لكن الإنجازات كانت ضئيلة، في ضوء تراجع الإمبراطورية و هامشية فلسطين في الاعتبارات الفارسية، حيث لم يستوطن الفرس، و لم يبنوا مدناً خاصة بهم، كما لم يهتموا كثيراً بتطوير البلد و تعميمه. و مهما يكن الأمر، فإنه لم تمض فترة طويلة بعد «عودة صهيون» حتى قام الإسكندر المقدوني بحملته الشهيرة إلى الشرق، و احتل فلسطين سنة ٣٣٢ ق. م.، و أنهى الحكم الفارسي فيها، كما في غيرها. و لكن ذلك لم يكن إلماً مؤقتاً، إذ عادت فارس إلى النهوض مرة أخرى، و ظلت لقرون طويلة المنافس السياسي و الحضارى للعالم اليونانى - الرومانى.

و على العموم، تبقى معلوماتنا عن فلسطين في هذا العصر قليلة و مبثثة.

و الواضح أن الفرس لم يولوا هذه المقاطعة، بل الولاية كلها (عبر نهرا)، أهمية كبيرة، و كان همهم فيها الحفاظ على النظام و الولاء للملك. و عدا ذلك، لم يتدخلوا في شؤون الناس السياسية و الدينية. و لكنهم سعوا للإفادة من الإمكانيات و الموارد. فبنوا أسطولا بحرياً بمساعدة الفينيقيين، لأغراض الصراع مع اليونان، و لذلك أقاموا علاقات متميزة مع المدن الساحلية، و خصوصاً مع صور و صيدا. كما بنوا شبكة من الطرق البرية لتمكين الجيوش الفارسية من الوصول إلى مصر و السيطرة عليها.

و الحفريات الأثرية في مواقع متعددة كشفت مخلفات من هذا العصر، و هى تشير إلى تراجع الحياة الاقتصادية و النشاط العمرانى، فافتقرت المدن إلى التخطيط و التنظيم المعهودين من العصور السابقة. كما أن المباني العامة و التحصينات قليلة للغاية.

و يغلب على المواقع الفلسطينية في هذه المرحلة طابع المجتمعات الزراعية.

و قد ظهرت المخلفات المعمارية من العصر الفارسي في عدد من المواقع، عثر عليها في أثناء عمليات التنقيب التي استهدفت الكشف عن مخلفات عصور أخرى، و بالتالى لم يولها المنقبون اهتماماً خاصاً. و إذ لم يشيد الفرس كثيراً في فلسطين، فإنهم لم يدمروا أيضاً، لأنهم احتلوا البلاد من دون مقاومة تقريباً، بعد سقوط بابل في أيديهم. و من بين المواقع التي عثر فيها على مخلفات تعود إلى العصر

الفارسي: تل الدوير (لاخيش) و تل جمّة (النقب الغربى) و مجدو و تل أبو حوام (قرب حيفا) و تل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١١

القصيعة (شمال يافا) و يافا و أسدود و عسقلان و تل الصافي و تل الفارعة الجنوبي (شاروحين) و تل بلاطة (شيكم) و أورشليم و أريحا و عين جدى و جيزر (أبو شوشة) و بئر السبع و عراد و سبسطية (السامرة) و غيرها. و تشير اللقى الأثرية إلى علاقات تجارية واسعة مع بلاد اليونان، التي استورد منها الفخار المتميز بصناعته و ألوانه (الأحمر و الأسود)، و بزخارفه النباتية و الحيوانية و الآدمية. و أغلبية الأدوات الكمالية التي عثر عليها كانت مستوردة من بلاد متعددة. و تكثر بينها الدمى الفخارية التي تظهر جنبا إلى جنب مع التماثيل الحجرية، و تمثل في الأغلب أشكالاً آدمية- ذكورا و إناثا. و بدأت في هذه الفترة تظهر أقدم النقود المعروفة في فلسطين، كتلك التي اكتشفت في القدس و نابلس، من القرن السادس قبل الميلاد. و في مجدو و عتليت و سبسطية و الخليل، من القرن الخامس قبل الميلاد. و هذه النقود مستوردة من اليونان، و من أثينا بصورة خاصة. و تعود أقدم النقود الشامية إلى القرن الرابع قبل الميلاد، و التي ضربت بأمر من ملوك فارس في جبيل و صيدا و صور و أرواد، و كلها مدن تجارية فينيقية. و قد عثر على هذه النقود في مواقع فلسطينية- حاصور و مجدو و لاخيش و غيرها.

ثانياً: العصر الهليني

إشارة

لم تكن حملة الإسكندر المقدوني (٣٣٣ ق. م.) فاتحة عهد جديد في العلاقة بين الشرق الأدنى القديم و بلاد اليونان، و بالتالي، محطة افتراق مع الماضي و بداية مرحلة في العلاقات، تنطلق من نقطة الصفر. فمثل هذه العلاقة، و بالأشكال المتعددة المعروفة قديماً- حضارية و اقتصادية و عسكرية و حتى دبلوماسية- كانت قائمة منذ آلاف السنين. و على العكس من ذلك، هناك من يعتقد أن تلك الحملة جاءت تتويجا لمسار طويل من التفاعل، سلبي و إيجابا، و كانت النتيجة المنطقية للتداخل بين اليونان و الشرق القديم. و هذا المسار راح يتعمق في أواخر الإمبراطورية الفارسية حيث تفاقمت الصراعات الداخلية، و معها تزايدت أعداد الجنود المرتزقة اليونان في الجيش الفارسي. و تفيد المصادر أن القتال الأشد شراسة الذي خاضه جنود الإسكندر كان مع الكتائب اليونانية، و قادتها المتمرسين، في الجيش الفارسي.

و على العكس من الفرس تماما، غزا الإسكندر الشرق و هو يحمل لواء الحضارة الهلينية (اليونانية)، بمفاهيمها العلمانية في الأساس. و قد تبلورت هذه المفاهيم عبر مئات السنين في أثينا، المدينة التجارية المنفتحة على عالم البحر الأبيض المتوسط، و التي ركزت في تراثها الفكري على الإنسان، و منهج تفكيره و سلوكه. و الإسكندر ولد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٢

في مقدونيا، الأ-كثر تخلفا و انغلاقا في اليونان، لكنه تلمذ على أيدي الفيلسوف الكبير، أرسطو، فشب مولعا بالحضارة اليونانية و تقاليدھا و أعرافها. و كان مقتنعا بأن النمط الإغريقي (اليوناني) هو قمة التفوق البشري، و رأى رسالته العالمية في نشر هذا النمط الفكري- الاجتماعي، من خلال إمبراطورية كونيّة- أي الهلينية.

و كان الإسكندر في العشرين من العمر عندما اغتيل والده، فيليب، سنة ٣٣٦ ق. م. و كان فيليب قد خطط مستقبل ابنه و وارثه قبل موته، كما كان قد قطع شوطا كبيرا في الإعداد للمعركة الحاسمة مع العدو القديم- فارس. و بعد فترة قصيرة من توضيب أوضاعه الداخلية، و ضمان أمن حدوده الشمالية، بادر الإسكندر إلى حملته الأسطورية على الشرق القديم. و كانت فارس إمبراطورية مترامية الأطراف، غنية الموارد، و تمتلك جيشا كبيرا، كما في حيازتها أسطول بحري عظيم، بنى و أدير بالتعاون مع الفينيقيين. و تضافت

للإسكندر عوامل ذاتية و موضوعية، جعلت منه أسطورة في التاريخ. فهناك الميزات و المواهب الشخصية، و الجيش المنظم ذو الروح القتالية العالية، و وضوح الهدف و الثقة بالنفس، في مقابل حالة معاكسة تماما في الجانب الآخر. و خلال أربع سنوات (٣٣٤-٣٣٠ ق.م)، قضى الإسكندر على إمبراطورية الفرس، و صنع الأسطورة.

فبعد معركة غرانيكوس (٣٣٤ ق.م)، سيطر الإسكندر على مدن آسيا الصغرى الساحلية. و في النصر الذي حققه في معركة إيسوس (٣٣٣ ق.م) فتحت أمامه بلاد الشام، فأوكل احتلال دمشق إلى قائد جيشه، بارمينون. و باحتلاله الساحل الفينيقي، فصل الأسطول الفارسي عن قواعده، فعمله. و قاومت صور، فحاصرها و أخضعها و دمرها. و كذلك فعلت الحامية الفارسية في غزة، فكان مصيرها مصير صور. و في سنة ٣٣١ ق.م، سحق الجيش الفارسي، بقيادة داريوس الثالث، في أربيل (شمال العراق)، و راح يطارد فلول الشاهنشاه. و بينما هو يضيق الخناق على داريوس، اغتال هذا الأخير أتباعه، و ورث الإسكندر ملكه و أرضه، ثم أوغل شرقا إلى نهر السند، حيث بدأ جنوده يتدمرون، فعاد عن طريق جنوب فارس إلى العراق، حيث سقط مريضا و مات (٣٢٣ ق.م).

و منذ بداية حملته، أعطى الإسكندر المدن اليونانية في آسيا الصغرى حكما ذاتيا. و في مسار الحملة تصرف و كأنه على رأس دولة مقدونية- يونانية متنقلة، بكل طقوسها و تقاليدها. و أقام الكثير من المدن اليونانية، بسكانها و مؤسساتها، كما جعل بعضها حاميات حدودية، و خصوصا في الجزء الشرقي من الأراضي التي فتحها.

و تبرز بين هذه المدن الإسكندرية بازدهارها و عظمتها. لكن الإسكندر بعد مقتل

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٣

داريوس، و إعلانه نفسه وارثا للعرش الفارسي، توجه لربط الفرس و اليونان في حضارة عالمية واحدة. و قد عبر عن ذلك بزواجه من أميرة فارسية، و بترتيبه زفافا جماعيا ل ١٠,٠٠٠ من جنوده لزوجات فارسيات، في مدينة سوسة، بعد رجوعه من الهند. لكن الإسكندر مات قبل أن يرى أحلامه الكبيرة تتحقق، أو تنهار، أمام ناظرية.

ففي الثالثة و الثلاثين من عمره، و بعد أقل من ١٢ عاما على غزوه فارس، خَرَّ صريع المرض، و ليس بسيف الأعداء، إذ على هذا الصعيد لم يكن لديه ما يخشاه. و بموته ذهبت مشاريعه الضخمة و خططه الفخمة أدراج الرياح. و القادة الذين تخاصموا على التركة من بعده، لم يكونوا في موقع يؤهلهم لاستكمال تلك المشاريع، و إنما للصراع و الاقتتال بشأن اقتسام المغنم. و في غياب الروح الحية التي نفحت المقدونيين و اليونان بالتطلعات الكبيرة، انقلب القادة أسرى جشع جنودهم للمال و العطايا، فراحوا يسترضونهم بالهبات و الامتيازات، لكسب و لائهم في الصراعات الدموية التي استشرت بينهم بشأن الميراث.

و في الصراع بين أدياء ميراث الإسكندر، وقعت فلسطين في البؤرة، فكانت مسرحا للمعارك و الحملات و الأخرى المضادة، الأمر الذي ألحق بها و بسكانها ضررا كبيرا. و عندما هدأت الأمور نسبيا، نحو سنة ٢٨٠ ق.م، كانت إمبراطورية الإسكندر مقسمة بين ثلاث دول كبرى: (١) السلوقيون في غرب آسيا؛ (٢) البطالسة (البطالمة) في مصر؛ (٣) الأنطونيون في مقدونيا و بلاد اليونان الأوروبية. و إذ تخندق كل طرف في عاصمته، و ثبت ملكه فيها، إلّا إن أحدا منهم لم يقَرّ للآخر بالأراضي التي وقعت في يده. و لذلك استمر الصراع بشأن الحدود طويلا. و فلسطين كمنطقة حدودية انتقلت مرات متعددة من يد إلى أخرى، كما انتهزت قوى صغيرة محلية فرصة صراع العمالقة لتحسين أوضاعها، فجلبت على نفسها العقاب، عاجلا أم آجلا.

و بعد مدّ و جزر، استقرت فلسطين أخيرا (٣٠١ ق.م) في يد بطليموس الأول، ملك مصر. لكن حليفه سابقا، سلوقس، لم يسلم له بذلك، و ظل يصارع لانتزاعها كجزء من سورية، التي كانت تحت حكمه. غير أن البطالسة، الذين لم يؤدّوا دورا كبيرا في الصراع ضد أنطيوخونوس، و تحمّل وزره الأساسي سلوقس، استطاعوا الحفاظ على فلسطين حتى سنة ١٩٨ ق.م. و كان انتقالها إلى أيدي السلوقيين في إثر معركة على منابع الأردن (بانياس)، هزم فيها أنطيوخوس الثالث (٢٢٣-١٨٧ ق.م). جيش البطالسة. و ظلت فلسطين عموما في منطقة نفوذ السلوقيين إلى حين الاحتلال الروماني سنة ٦٣ ق.م. و مع ذلك، استمرت ترتيباتهم الإدارية فترة طويلة في أثناء

حكم الرومان.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٤

خلال حكم البطالسة (القرن الثالث قبل الميلاد)، كانت فلسطين جزءا من الولاية المعروفة رسميا باسم «سورية و فينيقيا». و كانت حدود هذه الولاية عرضة للتغيير، بحسب ميزان القوى بين السلوقيين و البطالسة. و على العموم، فقد ضمت دمشق و نصف الساحل الفينيقي و شرقي الأردن. و إلى حد كبير، حافظ البطالسة على التقسيم الإداري الذي كان قائما في فلسطين أيام الفرس، مع استبدال لفظ «سترابا» ب «هبارخيا» للدلالة على الولاية. كما أدخلوا بعض التعديلات الإدارية، فنقلوا عاصمة أدوميا من لاختيش (تل الدوير) إلى ماريسا (تل صندحتة)، و عاصمة الجليل من حاصور إلى قلعة جبل طابور (إيتابيريون). و أعطوا مدن الساحل حكما ذاتيا مستقلا عن الفينيقيين. كما أقاموا إقطاعات يونانية، مثل قادش (كاداسا)، و هي قدس في الجليل الأعلى، و كذلك بيت عنات (البعنة) في الجليل الأسفل، و غيرها.

و على العكس من الفرس، و نظرا إلى طبيعة بلادهم قليلة الموارد، قام اليونان بالاستيطان في الأراضي التي احتلوها على نطاق واسع، و نالت فلسطين قسطها منه.

و قد أدى ذلك طبيعة الحال إلى تغيير في التركيب السكاني، و بالتالي في التنظيم الإداري للمدن التي اتخذت طابعا يونانيا. فقد أقيمت مدن جديدة، كما أعيد بناء مدن قديمة بنمط سياسي-اجتماعي يوناني. و فصلت هذه المدن التي استوطنها اليونان عن محيطها، بإعطائها حكما ذاتيا متميزا. إلا إن مسار الهلينة باليونان، سرعان ما طال السكان المحليين فتنبوا العادات و التقاليد، و خصوصا في المدن المختلطة مثل: غزة و عسقلان و عكا. و تميزت ماريسا بتبني الهلينة في أدوميا. فضلا عن إقامة مستوطنات يونانية صرفه، مثل: سكيثوبولس (بيسان) و بطوليميس (عكا). أمّا السامرة (سماريا)، فقد استوطنها جنود مقدونيون متقاعدون.

و لما انتزع السلوقيون فلسطين من أيدي البطالسة (بداية القرن الثاني قبل الميلاد)، أدخلوا بعض التعديلات الإدارية على هذه «الهبارخيا» (الولاية)، فقسموها إلى مقاطعات أكبر، و هي: (١) باراليا، و تضم كل السهل الساحلي؛ (٢) ساماريا، و تضم الجليل، يوديا، يوبا (يافا) و أراضي طوبيا العموني (شرقي الأردن)؛ (٣) أدوميا، التي ضمت يمينيا (ينبي) و أزوتس (أسدود). و في أيام السلوقيين أقيم عدد من المدن اليونانية، كما تحوّل عدد آخر من المدن القديمة إلى مستوطنات يونانية. و كان السلوقيون أشد اهتماما بالهلينة من البطالسة. و ذلك لأنهم ادعوا خلافة الإسكندر و ورائه رسالته في نشر الحضارة اليونانية، سواء بالاستيطان، أم بنشر مبادئها بين السكان المحليين.

لقد خاض البطالسة و السلوقيون خمسة حروب من أجل السيطرة على فلسطين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٥

و جنوب بلاد الشام، عرفت باسم الحروب السورية، خلال القرن الثالث قبل الميلاد.

و ليس ذلك إلا للأهمية التي أولوها لهذه الولاية، استراتيجيا و اقتصاديا. فالبطالسة رأوا فيها خط الدفاع الأول عن مملكتهم في مصر، فأدروها مباشرة من عاصمتهم-الإسكندرية- و عبر المندوبين. و كذلك، فالبطالسة الذين اعتمدوا كثيرا على التجارة الدولية في تمويل دولتهم و مشاريعهم، أرادوا السيطرة على موانئ الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط، و كذلك على طرق التجارة البرية التي تمر بها. هذا إضافة إلى الموارد الطبيعية و الزراعية و الصناعية، التي كانت تنقص مصر: الأخشاب و زيت الزيتون و النبيذ و القار و البلسم و غيرها.

في المقابل، كان السلوقيون يريدون جنوب بلاد الشام للأسباب ذاتها-استراتيجيا و اقتصاديا. و علاوة على ذلك، فقد رأوا جزءا لا يتجزأ من الأراضي التي وقعت في أيديهم في غرب آسيا، و بناء عليه، فهي من حقهم. و الأطماع المادية السلوقية رفدت بتبريرات معنوية، إذ رأى هؤلاء في أنفسهم وراثه حلم الإسكندر في نشر الهلينة، على عكس البطالسة. و كان اليونان قد عرفوا هذه البلاد و

عرفتهم منذ زمن طويل، فكانت منفتحة على حضارتهم و تجارتهم. فشواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية شهدت استيطاناً يونانياً، بصورة أو بأخرى، منذ قرون. ولذلك ظل السلوقيون يصارعون حتى انتزعوا فلسطين من البطالسة، و لما فعلوا ذلك لم ينعموا بها طويلاً، إذ ما لبثوا أن اشتبكوا مع روما، فهزموا و دفعوا جزية لم يعرفها التاريخ القديم. و في الوقت نفسه شبت في وجههم ثورة الحشمونيين.

و يستفاد من وثيقة زينون، المكتوبة على ورق البردي، و التي اكتشفت في مصر سنة ١٩١٥ م، أن بطليموس الثاني (فيلادلفيوس)، الذي حكم بين (٢٨٢-٢٤٦ ق.م)، أدار تجارة واسعة في سورية و فلسطين. و زنون كان عاملاً لدى أبولونيوس، وزير مالية الملك، و قد سجل نشاطاته في تلك الوثيقة. و يذكر زنون أن وكلاء الوزير كانوا يجوبون المدن و يشترون البضائع و يهتمون بأمور التجارة. و من بين الأمور التي اشتغلوا بها كانت تجارة العبيد الرائجة، فضلاً عن المنتجات الزراعية: القمح السوري الممتاز و النيذ و زيت الزيتون. كما احتكروا تجارة العطور بين مصر و الجزيرة العربية، و من أجل ذلك عين وزير المالية موظفاً خاصاً، أقام في مدينة غزة. و من هذه الوثيقة و غيرها، يستفاد أن السممة البارزة للعصر الهليني في الشرق هي التطور الاقتصادي. فقد شهد غرب آسيا ازدهاراً اقتصادياً، طال نواحي الإنتاج المعروفة كافة- الزراعة و الصناعة و التجارة. و كانت الدولة- الملك و المقربون منه- مالكة الأرض الرئيسية، و صاحبة رأس المال الأكبر، كما تولت المبادرات الصناعية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٦

و التجارية. فخلفاء الإسكندر بادروا منذ البداية إلى مصادرة الإقطاعات الكبيرة من أصحابها، و ضمها إلى أملاك الملك، الذي احتفظ لنفسه بمساحات واسعة منها، و أقطع المقربين إليه أجزاء منها. و هذه الأراضي تم تأجيرها للفلاحين لقاء أجر سنوي، نقداً أو عينا. و حظر عليهم تركها قبل انتهاء الموسم، كما منعوا من تسويق محاصيلهم قبل أن تتاح الفرصة لعمال الملك لطرح حصته في السوق. و بسبب فقرهم، تحوّل قطاع واسع من الفلاحين إلى عبيد، فارتبطوا بالأرض، و كذلك أبنائهم مدى الحياة. و احتكرت الدولة الصناعة و التجارة إلى حد كبير. فما لم يكن في يدها مباشرة، أو مداورة، فرضت عليه ضرائب عالية، و ضبطت الأسواق و حركة البيع و الأسعار.

و إضافة إلى أن أراضي الإمبراطورية الشاسعة شكلت سوقاً تجارية هائلة، فقد اهتم الملوك اليونان بتحسين الطرق و الموانئ، و بنوا القنوات للنقل النهري، كما بحثوا عن أسواق بعيدة، و اكتشفوا طرقاً جديدة، و بذلوا جهداً في تأمين الطرق و حراسة السواحل. و علاوة على ذلك، و حيدوا النقد الذهبي و الفضي، و أقاموا المصارف لتسهيل التعامل. و إلى ميناء الإسكندرية على سبيل المثال، جاءت التوابل من الجزيرة العربية و الهند و النحاس من قبرص و الذهب من إثيوبيا و الهند و التنك من بريطانيا و الفيلة و العاج من نوبيا و الفضة من شمال بحر إيجه و إسبانيا و السجاد من آسيا الصغرى، و حتى الحرير من الصين. و كانت أرباح الدولة تصل إلى حدود ٣٠٪ من سعر البضائع.

و من النتائج البارزة لهذا النمط الاجتماعي-الاقتصادي نمو المدن الكبرى المتعددة. ففضلاً عن الاستيطان اليوناني الكثيف، كانت هناك حركة سكانية من الريف إلى المدن التي أصبحت مراكز صناعية و تجارية، إضافة إلى كونها مراكز إدارية. و من عناصر الجذب إلى المدن كان نمط الحياة الإغريقي في المدن الهلينية (بولس)، و ما يوفره من أجواء ثقافية و حضارية. و برزت أنطاكية، عاصمة السلوقيين، التي تضاعف عدد سكانها أربع مرات خلال قرن واحد. و قبلها نمت سلوقية (على نهر دجلة) إلى مدينة كبرى من نقطة الصفر. و لكن المدينة الأكبر و الأكثر شهرة كانت الإسكندرية، التي يقدر بعضهم سكانها بنحو المليون نسمة. و قد شاع صيت مكتبتها التي يذكر أنها احتوت ٥٠٠، ٧٥٠ مجلد. و كما الحال في سورية و الأردن، كذلك في فلسطين، إذ أقيمت مدن يونانية، منها: عكا و جبج و دورا و يافا و يبنى و أسدود و عسقلان و غزة و رفح و السامرة و صفورية و بيسان و غيرها.

لكن الازدهار الهليني كان من نصيب القلة فقط- الأمراء و الموظفين و ملاكي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٧

الأراضي و التجار الكبار و الكهنة. و كان كلما أوغل اليونان في هذا النمط من الإنتاج، ازدادت الهوة بين طبقات المجتمع عمقا و اتساعا. و كان لا بدّ من أن ينعكس ذلك صراعا اجتماعيا. و علاوة على ذلك، لم يكن هذا الازدهار موزعا بصورة متكافئة جغرافيا. فالولايات في آسيا الغربية تقدمت على حساب بلاد اليونان الأصلية، التي كانت في واقع الحال فقيرة بمواردها الطبيعية، و زادها فقرا نزوح الأعداد الكبيرة من سكانها إلى المدن الهلينية في الشرق. و في الشرق أيضا، تصرف اليونان كطبقة حاكمة مستغلة، بعد أن تخلوا عن الرسالة التي انتشروا تحت لوائها الذي حملته الإسكندر. و قد تضافرت هذه العوامل مع الصراعات الداخلية على السلطة، لتؤدي إلى انهيار النظام السياسي الذي أقامه اليونان، مع استمرار أثره الحضاري و الثقافي في العصور اللاحقة.

(أ) ثورة الحشمونيين

يروى التلمود أن الإسكندر في طريقه إلى مصر، استقبل في أنتيباترس (رأس العين)، وفدا من شيوخ اليهود في أورشليم، و أعطاهم امتيازات على حساب السمرة. و كان هؤلاء بعد أن استسلموا للقائد الذي أرسله الإسكندر، أندروماكوس، اغتالوه، فعاقبهم و أقام حاميه مقدونية في السامرة. و الظاهر أن بارمينون قائد جيش الإسكندر الرئيسي و الذي أرسل لاحتلال سورية، مرّ عبر دمشق، و تابع مسيرته جنوبا بموازاة نهر الأردن شرقا. و من أريحا أرسل كتيبة صغيرة لاحتلال أورشليم. و تفيد معلومات من مصادر يهودية، أن يهودا كثيرين انضموا إلى جيش الإسكندر، إذ رأوا فيه مرة أخرى، مخلصا. في العصر الهليني، كانت مقاطعة يهود (يوديا) وحدة إدارية صغيرة، كما كانت في آخر أيام الفرس، ذات خاصية إثنية (إثنوس). و كان على رأسها الكاهن الأكبر، الذي جمع بين سلطتين - دينية و زمنية. و إذ أشرف على إدارة شؤون طائفته دينيا و قضائيا، فقد اعتبر رئيسا لها إزاء السلطات. و بذلك كان المرجعية الدينية و المدنية لليهود، كما كان مسؤولا عن جباية الضرائب منهم لخزينة الملك. و علاوة على ذلك، كان عليه أن يدفع مبلغا سنويا للملك لقاء تعيينه في منصبه. و إلى جانب الكاهن الأكبر كان هناك مجلس من الأعيان (جيروشيا)، يترأسه الكاهن الأكبر، و يتولى الرقابة العليا على الهيكل و أمن المدينة و تزويدها بالماء. و يستفاد من المصادر أن هذه المقاطعة نعمت بالاستقرار و الازدهار في بداية حكم البطالسة، و لم تتأثر كثيرا بالصراع الدائر بينهم و بين السلوقيين، نظرا إلى بعدها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١١٨

عن ساحته. و لكن هناك معلومات عن توتر وقع بين الكاهن الأكبر، حونيو، و ملك البطالسة، بطليموس الثالث (٢٤٦ - ٢٢٢ ق. م). و رفض حونيو دفع الضريبة المستحقة عليه للملك، و كما يبدو بتحريض من السلوقيين، الذين وعدوه بتقديم المساعدة له إذا عاقبه البطالسة. و تحرك هؤلاء لمحاصرة حونيو، و نصّبوا أحد أفراد عائلة طوبيا العموني الموالية لهم رئيسا للجيروشيا، بعد أن تعهد بزيادة دخل الملك من الضرائب. و لذلك عينه الملك جابيا عاما في ولاية سورية. و كانت عائلة طوبيا، المعروفة من أيام عزرا و نحemia، و التي أصولها في شرقي الأردن، حامله لواء الهلينية في مقاطعة يوديا (يهود).

و بروز يوسف بن طوبيا في أورشليم يدل على تشكّل طبقة من التجار الأثرياء، على علاقة وثيقة ببلاط البطالسة في الإسكندرية. و بازدياد ثراء هذه الطبقة عبر العلاقة مع السلطة، و تبنيتها عادات و تقاليد و ثقافة اليونان (الهلينية)، تشكلت وحدة مصالح سياسية بينهما في مواجهة الطبقات الأخرى، من الفلاحين و الحرفيين و التجار الصغار، الذين راحوا يرزحون تحت عبء متزايد من الضرائب. و كان الملك هو صاحب الأرض، و الفلاحون يعملون فيها «مراعين»، كما كان الملك يسيطر على التجارة الدولية، و يحتكر شراء

المنتجات- الزراعية و الصناعية- الأمر الذي زاد في حدة التوتر بين الطبقات الدنيا و الأخرى المتعاونة مع السلطة. و كان البطالسة أول من أدخل نظام «المقاطعة»- أى تضمين جباية الضرائب للمقربين من بلاطهم، لقاء مبلغ سنوى مقطوع.

و بينما راح الشرخ الاقتصادى يتعمق بين هاتين الطبقتين، راح الاغتراب الاجتماعى و الثقافى و السياسى بينهما يتسع نطاقه، و بالتالى يزداد التوتر حدة بينهما. فأبناء الطبقات العليا، من علمانيين و رجال دين، بمن فيهم الكاهن الأكبر أحيانا، كانوا فى طليعه حاملى لواء الهلينة. و كدلالة خارجية على ذلك اتخذهم أسماء يونانية لأنفسهم، الأمر الذى انتشر على نطاق واسع. و الأكيد أنهم اختلطوا اجتماعيا بسكان المدن اليونانية، و اقتبسوا نمط حياتهم. و إذ كانت ثورة الحشمونيين بالأساس تمردا على ممارسات السلطة و الظلم الواقع على العامة، فقد اتخذت شعار العداة للهلينة وسيلة لحشد الطبقات المسحوقة حولهم. لكن الحشمونيين أنفسهم سرعان ما عادوا لتبنى الممارسات التى قادوا الناس ضدها، خلال فترة قصيرة من تثبيت أنفسهم فى الحكم.

و بانخراطهم فى خدمة السلطة، و اقترابهم من دوائرها و تياراتها السياسية، راح أبناء الطبقات الثرية المتهلينة يستغلون التناقضات بين البطالسة و السلوقيين. و قد عبر

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١١٩

أبناء طوبيا فى سلوكهم المتقلب بين القطبين، عن نزعة هذه الطبقة لاستغلال الصراع بين البطالسة و السلوقيين لزيادة ثرائها و سلطانها. و تميّز بهذا السلوك أحد أبناء يوسف بن طوبيا الجابى، هوركانوس، الذى ذهب و أقام فى الإسكندرية، و اقترب من بلاط الملك، و أخيرا حصل منه على مرسوم بتعيينه جابيا، و رئيسا للجيروشيا، بدلا من والده، و على حساب إخوته الآخرين، الأمر الذى دفع هؤلاء للانحياز إلى السلوقيين. و شهدت الفترة الأخيرة من حكم البطالسة فى فلسطين تقلبات متواترة من هذا النمط.

و عندما اعتلى أنطيوخوس الرابع (أبيفانس) عرش السلوقيين (١٧٥-١٦٤ ق. م.)، أدخل تعديلات كبيرة على الحكم. فقد عرف أبيفانس بحماسة الشديدة لنشر الحضارة اليونانية و تكريسها. فاستغل الخلافات فى أورشليم لتحويلها إلى مدينة يونانية (بولس). و بعد حملته الثانية على مصر (١٦٨-١٦٧ ق. م.)، التى اضطر إلى الانسحاب منها بأمر من روما، عزج على أورشليم فى طريق عودته. و كانت هذه قد تمردت على سلطانه فى إثر انتشار إشاعة عن موته. فاحتل المدينة بهجوم صاعق، و نكل بالتمردين، و نهب كنوز الهيكل. و لاحقا، أصدر مرسوما يقضى بمنع اليهود من ممارسة شعائرهم و طقوسهم و عباداتهم، على اعتبار أورشليم مدينة يونانية فقط، و معاقبة المخالف بالموت.

و إضافة إلى تعيين كاهن أكبر ذى ميول هلينية قوية، منيلاوس، و لضمان سيطرته على أورشليم، فقد أقام فيها مستوطنة يونانية- الحكرا- و انضم إليها يهود من أصحاب النزعة الهلينية. و بنى فى المدينة «جمناسيوم»، سريعا ما تجاوز الهيكل كبؤرة اهتمام فى الحياة الاجتماعية. ثم حوّل الهيكل ذاته إلى معبد للإله الأولمبى زيوس (١٦٧ ق. م.)، و أصدر أمرا بمنع عطلة السبت، و إبطال فريضة الختان، و أعلن عقوبة الموت على كل يهودى يخالف هذه الأوامر. و عدا زيادة الضرائب، و اللجوء إلى الأساليب التعسفية فى جمعها، طالب اليهود بتقديم الأضاحى غير الحلال- الخنازير- قربانا لسلامة الملك.

و إزاء سياسة أبيفانس، نشبت حركة تمرد فى صفوف الفلاحين و أبناء الطبقات الفقيرة المعادية لليونان و أوليائهم من اليهود. و فى قرية موديعين- بالقرب من اللد- قام متياهو الحشمونى و قتل كاهنا يهوديا لثى الدعوة بتقديم ضحية باسم الملك، كما قتل مبعوث السلطة، و كسر المذبح، و أعلن التمرد. و تحوّلت حركته هذه إلى ثورة واسعة النطاق، حشدت قوة مقاتلة من المتطوعين الريفين، فخرج بهم إلى الصحراء تحاشيا للصدام مع قوة الجيش اليونانى المتفوقة. و أدار من المغاور التى أقام فيها مع

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١٢٠

رجاله حرب عصابات ضد السلطة و أعوانها. و استطاع خلال فترة قصيرة أن يفرض سيطرته على الريف و يعزل أورشليم. فاستدعى بذلك تدخل السلطة المركزية فى أنطاكيا.

و بعد موت متياهو، تولى أبناؤه الخمسة إدارة الصراع مع السلوقيين. و تميّز بينهم يهودا، المعروف بلقب مكابي، بقدراته العسكرية، فتولى قيادة الجيش الذي راح يتخذ شكلا نظاميا. و استطاع يهودا المكابي، بغارات سريعة و خاطفة، أن يهزم القوات اليونانية المحلية. و أخيرا دخل أورشليم (١٦٤ ق. م.)، و حاصر الحكرا، و استعاد الهيكل، و أقام احتفالا لمناسبة تطهيره من عبادة الأوثان، مدشنا بذلك العيد اليهودي - «حنوكا». و عندها تحرك أنطاكيا، فأرسلت جيشا كبيرا بقيادة لسياس، الوصى على ولي العهد الشاب، أنطيوخوس الخامس، حيث كان الملك أيفانس يقاتل المتمردين في الأراضي الشرقية لملكه. و انتهت الحملة إلى تسوية - هدنة، ألغى أيفانس بموجبها المراسيم التي أصدرها. و بذلك اعترف السلوقيون بحرية العبادة لليهود، و لكن ليس بالسيادة السياسية للحشمونيين.

و بعد موت أيفانس، اندلع الصراع في العاصمة السلوقية، و انتهز ديمتريوس الأول الفرصة، و هرب من روما حيث كان يقيم رهينة، و وصل إلى سورية و انتزع الملك (١٦٢ ق. م.). و سارع معارضو الحشمونيين، و على رأسهم الكاهن الأكبر، ألكيموس إلى طلب مساعدته ضدهم، فلبى ديمتريوس طلبهم، و أرسل إليهم جيشا بقيادة نيكانور. لكن يهودا المكابي هزمه، و استمر الصراع. و إزاء إصرار ديمتريوس على إخضاع اليهود لإرادته، سعوا للتحالف مع روما، فأرسلوا إليها وفدا، استقبله «السينات» الروماني، و تمّ الاتفاق. لكن ذلك لم يردع ديمتريوس، الذي أرسل حملة أخرى كبيرة بقيادة بكخيدس. و بعد صدامات غير حاسمة، استطاع بكخيدس أخيرا أن يهزم يهودا المكابي و يقتله في المعركة (١٦٠ ق. م.). و هرب أخواه الباقين، يوناتان و شمعون، إلى شرقي الأردن.

و في سنة ١٥٣ ق. م.، نصّب أعداء ديمتريوس، ألكسندر بالاس، ملكا على عرش السلوقيين. و في الصراع بشأن الملك، تسابق المتنافسان على تقديم الوعود السخية إلى يوناتان الحشموني فعاد هذا إلى أورشليم، بناء على تفويض من ديمتريوس، فسارع بالاس إلى تعيينه كاهنا أكبر و حاكما لمقاطعة يوديا، و خلع عليه عباءة أرجوانية، رمزا للكهانة الكبرى، و تاجا ذهبيا دلالة على الحكم. و بذلك أصبح يوناتان، بعد سبع سنوات من اللجوء في شرقي الأردن، كاهنا أكبر في الهيكل، و حاكما في مقاطعة يوديا، معترفا به من قبل السلوقيين، و يتمتع بتأييد روما. و من هذا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢١

الموقع، استطاع يوناتان أن يستغل الأوضاع لمصلحته، و يوسع سلطاته و الأراضي الواقعة تحت حكمه. و ظل الحشمونيون يمسون بالكهانة الكبرى مدة ١١٥ عاما.

و بعد أن استتب الحكم ليوناتان في أورشليم، استغل الصراعات الداخلية في دولة السلوقيين لتوسيع سلطانه و أراضيه. و بذلك دخل طرفا في المؤامرات بين المتنافسين على العرش، و لقي حتفه غيلة على يد حليفه، ترايفون، و خلفه في الحكم أخوه شمعون آخر أبناء متياهو الحشموني الخمسة. و اقتفى هذا أثر سلفه في سياسته، الداخلية و الخارجية. و تحالف مع ديمتريوس الثاني، الذي وافق على إعفائه من الضرائب المترتبة على مقاطعته. و بانغماس السلوقيين في صراعاتهم، وسّع شمعون حكمه نحو الساحل، فاحتل جيزر، و من ثم يافا، و جعلها ميناء على البحر. ثم احتل الحكرا في أورشليم. و بعد صدام محدود مع أنطيوخوس السابع (سيدتس)، انتصر فيه شمعون، كفّ السلوقيون عن التدخل في شؤونهم، و لو مرحليا فقط.

و سعى شمعون لتكريس موقعه حاكما لمقاطعة يوديا (إثنارك)، و كاهنا أكبر، و قائدا للجيش، بإجماع ممثلي السكان (الجيروشيا)، و بالتالي تثبيت الحكم في سلالته بالوراثة. و قد حصل على ذلك سنة ١٤٠ ق. م.، فعين ابنه، يوحنا هوركانوس حاكما على جيزر، و سعى للتصالح مع معارضيه، و منهم تلميذ بن حبوب (بطليموس)، الذي كان معارضا للحشمونيين، و حليفا للملك أنطيوخوس سيدتس، فزوجه أخته، و عينه حاكما على أريحا. و لعل الأهم من ذلك، أنه أرسل وفدا إلى روما، يعقد معها تحالفا جديدا (١٣٩ ق. م.). فزوّده السينات الروماني برسالة إلى ملوك مصر و سورية و كبادوكيا و بريجيا و غيرها، يحثهم فيها على عدم التعرض لشمعون، أو إلحاق الأذى بيوديا. و بدا أن الأمر استتب لشمعون، لكن الواقع كان عكس ذلك.

و إذ واجه شمعون مزيدا من المشكلات مع البلاط السلوقي و تقلب الأمور فيه، و استطاع التغلب عليها، بصورة أو بأخرى، فإن الشر

كان ينتظره في موقع آخر. فقد تأمر صهره تلمي بن حبوب مع الملك أنطيوخوس سيدتس على اغتيال شمعون و تولى حكمه. و فعلا استطاع هذا اغتيال شمعون، و هو في ضيافته، و معه اثنان من أبنائه، يهودا و متياهو سنة ١٣٤ ق. م. و أخذ زوجته رهينة. و أرسل سرا قتله لاغتيال يوحنا هوركانوس، الذي أخذ علما كما يبدو بالمؤامرة، فاستبقها، و قتل المبعوثين، و أسرع إلى أورشليم لتولى الحكم فيها، خلفا لوالده. و فشلت المؤامرة، و استتب الحكم لهوركانوس، و اندلع الصراع مع تلمي، الذي اضطر لاحقا إلى الهرب إلى شرقي الأردن.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٢

و انتهب سيدتس هذه الفرصة، و غزا يوديا، و حاصر أورشليم. و لم يجد هوركانوس مناصا من الخضوع الجزئي لطلبات سيدتس، بإعادة المدن التي احتلها والده في الساحل، و تقليص استقلاله السياسي. و مع ذلك، و ربما بضغط من روما، توصل الطرفان إلى تفاهم، و بالتالي إلى تحالف، تعهد بموجبه هوركانوس أن يساند سيدتس في حربه ضد الفرثيين (١٢٩ ق. م.). لكن هذه الحملة هزت أركان المملكة السلوقية، الأمر الذي أتاح الفرصة لهوركانوس لاستعادة استقلاله السياسي، و التفرغ بنشاط لتوسيع الأراضي الواقعة تحت حكمه. و ما عدا المدن الهلينية، فقد استعاد معظم المناطق التي تشكلت منها مملكة داود و سليمان في حينه.

و غزا هوركانوس شرقي الأردن، و احتل بلاد مؤاب، بما فيها العاصمة مادبا. ثم توجه شمالا فغزا السامرة، و احتل شيكم، و وصل جرزيم و هدم هيكل السمرة. ثم توجه جنوبا، فاحتل أراضي الأدوميين، و فرض عليهم اعتناق الديانة اليهودية. و في ذروة نشاطه التوسعي في آخر أيامه، و في أيام ابنه و وارثه، أرسطوبولوس (١٠٤-١٠٣ ق. م.)، احتل مدنا هلينية مثل سماريا و سكيوبولوس (بيسان)، و من ثم الجليل، الذي كان يسكنه الأيطوريون (عرب). و تابع هذه السياسة التوسعية، و بصورة مغامرة، ألكسندر يناي (١٠٣-٧٦ ق. م.)، الذي ذهب بعيدا بمهاجمة المدن الهلينية، و حتى الكبيرة منها- الديكابولس (المدن العشر الكبار). و كانت هذه طفرة الحشمونيين الأخيرة.

لقد كبح الحشمونيون السيطرة السلوقية السياسية في فلسطين، لكنهم لم يقتنعوا التأثير الهليني الحضاري، و لا الوجود الاستيطاني اليوناني الواسع. و عندما بادروا إلى فرض اعتناق اليهودية على شعوب البلاد الأخرى، فقد أعطوها طابعا يهوديا في الأغلب. و لعل المثال الصارخ على ذلك هو تبنى الأدوميين الجماعي اليهودية ديانة، مع تمسكهم بالهلينية حضارة و ثقافة. و إذ قامت الحركة الحشمونية على أساس مناوئ للهلينية، إنما إنهم سرعان ما تصالحوا مع أتباعها (الفريسيين)، و راحوا هم أنفسهم يتبنون العادات اليونانية، و حتى الأسماء الشخصية. و عندما أخذوا يحتكرون السلطتين- الدينية و المدنية- برزت معارضة من الفريسيين، الذين مثلوا العائلات الغنية، من معارضي الحشمونيين في البداية، ثم تصالحوا معهم. و اشتد هذا الصراع على الخصوص في أيام ألكسندر يناي (٧٦-١٠٣ ق. م.).

و كان حكم يناي فترة عاصفة من الصراعات، داخليا و خارجيا. و قبل موته، عين زوجته، شلومتسيون، وصية على الملك، و أوصاها بالتصالح مع الفريسيين، ففعلت.

و استطاعت في بداية حكمها (٧٦-٦٧ ق. م.) أن ترضيهم و تستميلهم. أما في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٣

النهاية، فقد اندلع الصراع بين ابنيها، هوركانوس الثاني و أرسطوبولوس الثاني و دخل الفريسيون على خط هذا النزاع، فاجتاحت مملكة الحشمونيين حرب أهلية. و تحالف أنتيباتر الأدومي مع هوركانوس، و سعى للتحالف مع أريتاس (الحارث الثالث) ملك الأنباط و بمساعدته غزوا يوديا، و احتلوا أورشليم، و حاصروا أرسطوبولوس في جزء منها. و لكن في هذه الأثناء وصل بومبي، القائد الروماني إلى سورية، و سارع الجميع إلى استرضائه و خطب وده، طمعا في الولاية بمرسوم منه.

شهدت فلسطين، أسوأ بغيرها من بلاد الشرق الأدنى القديم، بعد حملة الإسكندر، حركة استيطانية يونانية واسعة، تركت آثارا واضحة في التركيب الديموغرافي لسكانها، حيث تعزز العنصر اليوناني أو «المتهلين» (المعتنق للثقافة اليونانية من أبناء البلد الأصليين). فقد عقب العملية العسكرية الناجحة، موجة من المستوطنين اليونان- مزارعين و حرفيين و إداريين و جنود و تجار و مثقفين و فنيين ... إلخ. و قد حمل هؤلاء معهم الحضارة الهلينية، التي أرادوا نشرها و ترسيخها. و بعد موت الإسكندر، و انقسام إمبراطوريته بين قاداته، وقعت فلسطين تحت حكم البطالسة، في مصر. و قد تصرف هؤلاء بحذر، و كان همهم مصر، أما في فلسطين فقد أرادوا الحفاظ على الوضع القائم، و لم يغالوا بالاستيطان فيها، بل سعوا للإفادة من موقعها الاستراتيجي لحماية حدود مملكتهم، و استغلال مواردها الاقتصادية، و خصوصا طرق التجارة فيها. في المقابل، كان السلوقيون يعتبرون أنفسهم ورثة الإسكندر الشرعيين، و بالتالي حملة لواء الهلينية، التي أرادوا توحيد مملكتهم تحت رايتها. و تطلع السلوقيون إلى المستوطنين اليونان و المقدونيين لمساعدتهم في تحقيق هذه الغاية، من جهة، و إلى اعتناق الشعوب المحلية لمبادئ الحضارة اليونانية (الهلينية)، من جهة أخرى. و قد اصطدمت هذه النزعة بمقاومة محلية، كما أصابت نجاحا غير قليل، فتركت بصماتها على المنطقة بمجملها، ديموغرافيا و حضاريا و ثقافيا، الأمر الذي يميز هذا العصر من غيره من العصور السابقة.

و بناء عليه، توجه الملوك السلوقيون إلى تشجيع الاستيطان اليوناني، بعناصره المتعددة، و إلى نشر الثقافة اليونانية و أسلوب الحياة الإغريقي بين الشعوب الواقعة تحت حكمهم. و كانت المدن الهلنستية (بولس) هي وسيلتهم لتحقيق تلك الغاية، فنشطوا في بنائها، و شحنها بالسكان- اليونان و المتهلين- الذين اجتذبوا إليها عبر الامتيازات التي منحت لتلك المدن، من خلال الحكم الذاتي، و رعاية المؤسسات

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٤

الاجتماعية و الثقافية ذات الطابع اليوناني فيها. و لم يتوقف نشاط هؤلاء الملوك عند بناء المدن الجديدة، بل أعادوا تنظيم مدن قديمة بتخطيط جديد، أو إقامة أحياء يونانية فيها. و قد نسقت هذه المدن بنظام تقاطعي، و شقتها شوارع عريضة و فيها ساحات عامة، و أبنية و هياكل فخمة. و من معالمها البارزة «الجمناسيوم»، رمز الهلينية، إلى جانب الهيكل اليوناني، و كذلك قاعات الرياضة و المسارح و حلبات السباق، و غيرها من المؤسسات التي تخدم السكان، جسديا و فكريا و ترفيهيا. و كانت لهذه المدن إدارات و مجالس محلية منتخبة، تعنى برعاية شؤون المدينة، من حيث العمارة و المؤسسات المدنية و الثقافية. و كان يتبع كل مدينة ريف زراعي، يوفر لها حاجاتها الغذائية.

و من أهم المدن الهلنستية في فلسطين:

(١) عكا (بطوليميس). و هي مدينة قديمة، و كانت لها علاقات تجارية واسعة مع أثينا، أسوة بالمدن الفينيقية الأخرى (صيدا و صور)، تحت الحكم الفارسي. و قد اهتم بها البطالسة، و أطلقوا عليها الاسم بطوليميس (٢٦١ ق. م.)، و عمرها المستوطنون اليونان، الذين كان يشار إليهم أنهم «الأنطاكيون في بطوليميس»، نظرا إلى تبنيهم الهلينية. و أولاها السلوقيون عناية خاصة، و اعتبروها في البداية عاصمة الولاية، و مركزا لنشر الحضارة اليونانية. و كانت عكا ميناء تجاريا مهما إذ كانت المنفذ لصادرات الجليل و مرج ابن عامر، و خصوصا الزيت و الزيتون و النبيذ و الحبوب.

(٢) جبع، و تقع على منحدر جبل الكرمل في مدخل مرج ابن عامر. و قد كانت مدينة قديمة، لكنها صغيرة في العصر الفارسي، ثم ازدهرت أيام السلوقيين، إذ أصبحت محطة رئيسية على الطريق بين عكا و السامرة، و بالتالي، ذات أهمية استراتيجية موازية لمدينة بيسان في الشرق.

(٣) دورا (الطنطورة)، و هي مدينة فينيقية على الساحل، جنوب جبل الكرمل.

و قد عمّرها السلوقيون لأهمية موقعها الاستراتيجي، و جعلوها «قلعة ملكية».

(٤) حصن ستراتون، و أنشأه الفينيقيون أيام الحكم الفارسي، و اتخذوه حصنا للدفاع عن الساحل. و في موقعه بنى هيرودوس (٣٧-٤ ق. م.) مدينة قيساريا (قيصرية) الكبيرة.

(٥) أرسوف (أبولونيا)، إلى الشمال من يافا، و هي قديمة لكن اليونان عمّروها.

و قد تكون اتخذت اسمها من «أبولو»، الإله اليوناني، الذي أقيم له معبد فيها.

(٦) يافا (يوبى)، و هي قديمة أيضا، و قد وهبها الفرس للصياديين. و احتلها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٥

الحشمونيون و أسكنوا فيها يهودا، و جعلوها ميناء مملكتهم الرئيسي، إلى أن جاء الرومان، فأعادوها إلى سابق عهدها، مدينة هلنستية كبيرة و مزدهرة.

(٧) يبنى (يمنيا)، و هي قديمة أيضا، و تقع جنوب يافا. و في أيام السلوقيين أصبحت يبنى مدينة كبيرة قبل أن يدمرها الحشمونيون و يحرقوا أسطولها، لكنهم لم يفلحوا في احتلالها. و بعد الاحتلال الروماني (٦٣ ق. م.)، عادت و ازدهرت كمدينة هلنستية.

(٨) أسدود (أزوتس)، و قد بناها الفلطيون، و عمّرها اليونان، كما تهلين سكانها ذوو الجذور اليونانية القديمة.

(٩) عسقلان، و كانت تابعة لمدينة صور أيام الفرس، و أولاها البطالسة عناية خاصة. و كانت في القرن الثالث قبل الميلاد من أهم مراكز التجارة مع بلاد اليونان.

و صمدت عسقلان في وجه الحشمونيين و اعترف الرومان باستقلالها كمدينة هلنستية بعد حملة بومبي (٦٣ ق. م.).

(١٠) غزة، و هي مدينة قديمة، اكتسبت أهمية أيام الفلسطينيين، و كانت لها تجارة واسعة مع بلاد اليونان في العصر الفارسي، و يقول عنها هيرودوتس إنها أكبر من سارديس - عاصمة ليديا في آسيا الصغرى. و قاومت غزة الإسكندر بضعة أشهر قبل احتلالها، فدمرها، و أمر بإقامة مدينة يونانية مكانها، بعيدا عن الشاطئ. و قد لحق بها الدمار عدة مرات في أثناء الحروب السورية، بين البطالسة و السلوقيين، و خصوصا سنة ٣١٢ ق. م. و لكن بسبب أهمية موقعها كان يعاد بناؤها مجددا. و كانت غزة منفذا لتجارة الجزيرة العربية، الآتية إليها عن طريق البتراء، عاصمة الأنباط. و لأهمية تجارة الطيوب، عين البطالسة موظفا خاصا (مراقب العطور) للإشراف عليها في غزة.

(١١) أنتيدون، و هي هلنستية أصلا، و تقع على مقربة من غزة، و تعتبر تابعة لها.

(١٢) رفح، و هي قديمة أيضا، إلّا إن البطالسة أولوها العناية، فوسعوها، و أصبحت مدينة مهمة و جميلة، و فيها أقام بطليموس الخامس حفل زواجه من كليوباترا، ابنة أنطيوخوس الكبير (١٩٣ ق. م.). و قد دمرها الحشمونيون، و أعاد الرومان بناءها.

(١٣) السامرة (سماريا)، و هي قديمة، استسلم سكانها للإسكندر ثم ثاروا على الحاكم اليوناني و قتلوه، فهدمها بردكاس، و أقام مكانها أول مستعمرة مقدونية في فلسطين، و أسكن فيها الجنود المتقاعدين. و كان الحشمونيون قد دمروها، و هدموا هيكل السمرة فيها، على جبل جرزيم، قبل أن يعيد هيرودوس (٣٧-٤ ق. م.) بناءها، و يسميها بسبسية، و كانت أجمل ما بناه من مدن.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٦

(١٤) صفورية (سبوس)، و كانت مركزا إداريا للجليل، احتلها الحشمونيون، و هودوا سكانها (الأيطوريين)، إلى أن تم تحريرها على أيدي الرومان، فأعيد بناؤها كمدينة هلنستية.

(١٥) بيسان (سكيتوبولس)، و كانت أكبر المدن الهلنستية في فلسطين، و هي مدينة قديمة، أولاها البطالسة و السلوقيون اهتماما لموقعها الاستراتيجي على طرق التجارة الدولية، فبنوا فيها مدينة هلنستية، و أقطعوا سكانها أراضي واسعة. و قد احتلها الحشمونيون و أحرقوها، إلّا إنه أعيد بناؤها بعد الاحتلال الروماني (٦٣ ق. م.).

و تجدر الإشارة إلى أن البطالسة و السلوقيين شيّدوا الكثير من المدن في سورية و شرق الأردن، كما بنوا أحياء خاصة في عدد منها، مثلما فعلوا في أورشليم (الحكرا)، إلا إن الكثير منها أقيم على مواقع قديمة. و من هذه المدن فيلادلفيا (عمان) و جراز (جرش) و قنات (قنات) و ديون (أيدون) و هبوس (قلعة الحصن - الأردن) و جدرا (أم قيس - الأردن) و بيلا (طبقة فحل - الأردن)، و غيرها. و قد دعت هذه المدن، التي استمرت في العصر الروماني بطابعها الهلنستي، و حكمها الذاتي، باسم ديكابولس (المدن العشر)، التي تحالفت بين بعضها البعض. و كانت بيسان عضوا دائما في الحلف، و انضمت إليه أحيانا دمشق و بصرى و درعا و بيت راس. و قد أوكلت إلى هذه المدن في العصر الروماني مهمة دفاعية. و المرجح أن عمان (فيلادلفيا) هي الوحيدة التي يعود بناؤها إلى البطالسة. و استمر بناء المدن على الطراز الهلنستي في العصر الروماني، و كانت لبعضها امتيازات خاصة، و منها على سبيل المثال لا الحصر: قيساريا (قيصرية) التي كانت تضاهي الإسكندرية و روما، و فاقت في ضخامتها أنطاكيا و سبسطية، مدينة هيرودوس الجميلة، و كذلك أنتيباترس (رأس العين)، على اسم والده أنتيباتر الأدمي. أما أورشليم، فقد تحولت إلى مدينة هلنستية، باسم إيليا كايبتولينا، في أيام الإمبراطور هديران الروماني (١١٨ - ١٣٨ م).

ثالثا: العصر الروماني

إشارة

لقد فشل اليونان، و معهم مدنهم الهلنسية، في إقامة نظام سياسي في شرق البحر الأبيض المتوسط لمدة طويلة، مع أنهم تركوا في هذه المنطقة أثرهم الحضاري و الثقافي، و على شعوب متعددة. و الفراغ السياسي الذي تركه هبوط الممالك اليونانية التي ورثت إمبراطورية الإسكندر، فتح باب التدخل، و بالتالي التحرك لمثلته، أمام قوة جديدة و حيوية - روما. و كانت هذه لدى بروزها على مسرح الأحداث (القرن الثالث

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٧

قبل الميلاد) متأثرة إلى حد كبير بالحضارة اليونانية. و في اندفاعها لبناء إمبراطوريتها، جمعت روما بين العبقرية السياسية و العسكرية، و نمط الحياة اليوناني، حضاريا و فكريا. و بذلك استطاعت أن تصوغ في حوض البحر الأبيض المتوسط عالما تسوده الحضارة اليونانية - الرومانية، استمر قرونا متعددة.

و فضلا عن أنهم كانوا هم أنفسهم مشبعين بالثقافة اليونانية، فإن الرومان عندما راحوا يبنون إمبراطوريتهم وجدوا أنهم يسيطرون على بلاد و شعوب تغلغت فيها الحضارة الهلنسية، بتعبيراتها الفكرية و المؤسساتية. و على العكس من اليونان، لم يبادر الرومان إلى الهجرة الواسعة من بلادهم و الاستيطان الكثيف في الأراضي المحتلة، و إنما حكموا تلك البلاد و شعوبها بالقوة العسكرية، التي تميّزوا بها، و كانت عنصرا أساسيا في تراثهم القديم. و بانتصارها على قرطاجنة في الحرب البونية (٢٦٤ - ٢٠١ ق. م)، و من ثم على السلوقيين في معركة مغنيزيا (١٩٠ ق. م)، أصبحت روما عاملا رئيسيا في الصراع الدائر في شرق البحر الأبيض المتوسط. و بعد أن ضمت الممالك اليونانية في أوروبا، زاد تدخلها في شؤون المملكتين السلوقية و البطلسية. و أخيرا تحرك بومبي (٦٥ ق. م.) إلى الشرق لإنهاء المملكة السلوقية.

ففي سنة (٦٥ ق. م.)، أرسل بومبي طليعة من جيشه بقيادة سكاوروس إلى دمشق، ثم تبعه في العام التالي، و في سنة ٦٣ ق. م. احتل أورشليم، بعد أن عدل عن مهاجمة الأنباط. و الاحتلال الروماني أوجد وضعاً سياسياً جديداً، و كان لا بد من أن يفرض حالة من الاستقرار. و واجه سكاوروس، و من بعده بومبي نفسه، مشكلة السلطة في يوديا، إذ تنافس عليها اثنان من بقايا الحشمونيين. و بينما سعى، كل من هوركانوس و أرسطوبولوس (ابني ألكسندر يناي)، للحصول على تعيين من بومبي للولاية في يهودا، برز تيار ثالث -

الفريسيون- يطالب بإنهاء حكم الحشمونيين، وإلغاء الملكية، والاكْتفاء بتعيين كاهن أكبر لرعاية شؤون اليهود الدينية والمدنية، من دون السياسية، بدعوى أن ملك الحشمونيين قد جلب الكوارث عليهم.

وعندما حزم بومبي أمره، ألغى حكم الحشمونيين، وعين هوركانوس كاهنا أكبر، كمرتبة دينية، وليس كمهمة سياسية. وهدم أسوار أورشليم، وانتزع الأراضي جميعها التي احتلها الحشمونيون في شرق الأردن والجليل والساحل، وفصلها عن يهودا. وأعاد للمدن الهلينية التي سيطروا عليها أيام ألكسندر يناى حكمها الذاتي، وألزم مقاطعة يهودا المقلصة دفع الضريبة للخزينة الرومانية. وعين بومبي سكاوروس حاكما على ولاية سورية الرومانية، التي امتدت من الفرات إلى مصر. وبعد مغادرة بومبي سورية، لم يدخل سكاوروس أية تعديلات على الترتيبات التي وضعها القائد،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٨

كما لم يتدخل في الصراع الدائر بين التيارات المتخاصمة في يهودا، بين الكاهن الأكبر هوركانوس وحليفه الأدومي المتهود، أنتيباتر، من جهة، و حزب أرسطوبولوس، بقيادة ابنه ألكسندر من جهة أخرى.

وفي سنة ٥٧ ق.م. عين غابنيوس واليا جديدا على سورية. وبادر هذا إلى ترميم المدن الهلنستية التي خربت، وتوطين سكان جدد فيها، وإلى تقسيم يهودا إلى خمسة ألوية منفصلة، وتجريد الكاهن الأكبر من صلاحيات كانت في يده، وخصوصا على صعيد السلطة المدنية. وفي هذه الأثناء، اندلع الصراع في روما بين قادة الجيوش الكبار، بومبي و يوليوس قيصر وأنطونيوس. فانتهز ألكسندر، ابن أرسطوبولوس الفرصة، وتمرد على غابنيوس، لكنه هزم واستسلم. فهدم غابنيوس الحصون التي لجأ إليها ألكسندر، وقسم المقاطعة إلى خمسة ألوية، أعطيت تسمية دينية- سنهدريا- للدلالة على تجريدتها من السلطة السياسية، وهي: (١) أورشليم؛ (٢) أريحا؛ (٣) جيزر؛ (٤) حماتا؛ (٥) صفورية، وذلك لتفتيت المقاطعة وتسهيل السيطرة عليها.

وبعد انتصار يوليوس قيصر على بومبي سنة ٤٨ ق.م. رفع يهودا إلى مقاطعة ذات حكم ذاتي (أثارخيا)، وضم إليها ميناء يافا على البحر، وسمح بإعادة بناء أسوار أورشليم، لأن هوركانوس، و بناء على نصيحة أنتيباتر الأدومي، وقف إلى جانبه في الصراع مع بومبي، ودعا يهود مصر إلى مساندة. وعندما استتب الأمر، برز أنتيباتر و ابنه، فصائل و هيرودوس، فأصبح الأول حاكما على أورشليم و الثاني حاكما على الجليل. وبعد اغتيال يوليوس قيصر (٤٤ ق.م.)، واندلاع الصراع مجددا، وصل كاسيوس إلى سورية، فمال إليه أنتيباتر و ابنه، ونشطوا في جمع المال له. وتميز هيرودوس بالتقرب من كاسيوس. لكن هذا الأخير سرعان ما غادر سورية إلى مقدونيا، واضطرت الأوضاع مرة أخرى. وعندما وصل أنطونيوس إلى سورية، سارع هيرودوس و فصائل إلى إعلان الولاء له، فدعما ضد خصومهما، الذين كانوا قتلوا والدهما، أنتيباتر، عبر دس السم له في الشراب.

وفي سنة ٤٠ ق.م.، تقدم الفرثيون في سورية، و وصلوا إلى فلسطين، فانضم إليهم أنطيوخونوس، الأخ الأصغر لأرسطوبولوس، و بمساعدتهم عزل هوركانوس عن الكهانة الكبرى، و أسر فصائل، الذي انتحر. أما هيرودوس فقد هرب إلى روما، و استقبل هناك على أنه الحليف المخلص لروما في يهودا، و منحه أكتافوس و أنطونيوس- اللذان كانا انتصرا على مدبري مؤامرة اغتيال يوليوس قيصر- لقب ملك، و حليف صديق لروما، بينما أعلن أنطيوخونوس عدوا لها. و كان على هيرودوس

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٢٩

أن ينتزع الأرض التي عين حاكما عليها، بقرار من السينات الروماني. ففعل ذلك بمساعدة الفيالق الرومانية. و بعد هزيمة الفرثيين حسم مصير أنطيوخونوس، فألقى القبض عليه، و أعدم سنة ٣٧ ق.م. و بذلك استتب الأمر لهيرودوس ملكا على يهودا.

(أ) حكم هيرودوس (٣٧-٤ ق.م.)

هيرودوس و حكمه في فلسطين كانا من صناعة السياسة الرومانية في الشرق. فقد رأت فيه روما تابعا مخلصا، و رجلا مناسبا لتجسيد

سياستها، التي لم يتردد لحظة في العمل على تنفيذها، و بكفاءة عالية، سياسيا وعسكريا. و من خلال ملاءمة نشاطه، شكلا و مضمونا، مع الاستراتيجية الرومانية في الشرق، بنى هيروودوس ذاته و بلاطه و سلطانه. فجهد على الدوام في الحفاظ على علاقة متميزة مع مركز السلطة في روما. و من أجل صيانه هذه العلاقة، عمل بوسائل متعددة إلى قطع الطريق على أية منافسة محلية له على هذا الصعيد. فقضى على خصومه في الوقت الملائم، لكن الأهم كان تفانيه في خدمة مصالح الإمبراطورية، و دأبه أن تبقى حركته متطابقة مع الاستراتيجية العامة للمركز. في المقابل، أطلقت روما يده في إدارة شؤونه الداخلية.

و لعل أحد أهم العوامل في استتباب الحكم لهيروودوس كان الاستقرار الذي تحقق في روما بعد أن تغلب أكتافيوس على خصومه، و كرس نفسه إمبراطورا بلا منازع. ففي أثناء هيمنة أنطونيوس على الشرق، ساند هيروودوس بقوة، الذي سعى بدوره لاسترضاء الأول بكل السبل. و بناء على إرادة أنطونيوس، قاتل هيروودوس النبطيين، و لخطب وده تنازل عن مزارع البلسم و التمور في أريحا لمصلحة كليوباترا، عشيقه أنطونيوس. و بعد انتصار أكتافيوس على أنطونيوس في معركة أكتيوم (٣١ ق.م.)، سارع هيروودوس إلى تقديم الطاعة للسيد الجديد. فقبلها هذا منه، و أبقاه ملكا على يهودا. و بذلك استقرت علاقة هيروودوس مع روما، إذ أثبت جدارته في نظرها، و تغلب على خصومه المحليين.

و في الواقع، فإن هيروودوس بدهائه و حزمه، أثبت جدارته فائقة في التعامل مع روما، بالصورة التي تفي بأغراضها السياسية. و إذ أقام صلات و وثيقة و متميزة مع المركز، فإنه سعى على الدوام للحفاظ على علاقات جيدة مع والي سورية. و بينما تحاشى مناصبة أكتافيوس العدا، فإنه بذل جهده لإرضاء أنطونيوس. و بينما كانت المعركة على أشدها بين القطبين - حليفى الماضى - شغل نفسه بمحاربة الأنباط، بناء على طلب أنطونيوس، و تحريض كليوباترا التي أرادت أن تصيب عصفورين بحجر.

فقد طمعت بالسيطرة على تجارة الأنباط، من جهة، و توخت إضعاف هيروودوس

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٠

و استنزافه من جهة أخرى. و قبل هيروودوس المهمة، و دفع ثمنا غالبا، لكنه أثبت قدرته في النهاية، كما ظل بعيدا عن الانخراط المباشر في الصراع بين أكتافيوس و أنطونيوس.

و في الحرب مع الأنباط، هزم هيروودوس في معركة قنات (الخوران). و تواكبت الهزيمة مع هزة أرضية ضربت فلسطين و أحدثت خرابا كبيرا. فاضطر هيروودوس إلى طلب الصلح من مالكوس (مالك)، ملك الأنباط الذي رفض فاستمرت الحرب، و كسبها هيروودوس في النهاية. و عندما رأى هيروودوس أن الكفة تميل لمصلحة أكتافيوس، سارع إلى تقديم المساعدة إلى ديدايوس، والي سورية من قبل أكتافيوس في قتاله مع عصابات المجالدين التابعين لأنطونيوس. و بعد حسم الصراع، توجه هيروودوس إلى ملاقاته أكتافيوس في رودس، و وضع نفسه في خدمته. و رضى عنه الإمبراطور، و ثبته في ملكه، بل زاده أرضا و نفوذا. لكن هيروودوس، الذي كان يشك في نوايا أكتافيوس إزاءه، عمد قبل سفره لمقابلة الإمبراطور إلى قتل هوركانوس العجوز، الكاهن الأكبر و حليف أنتيباتر سابقا.

و مع أنه وصل إلى مقر أكتافيوس و هو يحمل أوراقا قوية: النصر على الأنباط و تقديم المساعدة إلى ديدايوس و النجاح في ضبط أوضاع يهودا في أثناء الصراع بين أكتافيوس و أنطونيوس، فقد ظل يخشى بقايا الحشمونيين الذين يتمتعون بتأييد شعبي.

و على الرغم من أن أكتافيوس اعتمده ملكا، و أعاد له الأراضي التي سلخها بومبي عن يهودا، و أضاف عليها أراضي واسعة في شرق الأردن، فقد استمر هيروودوس في مطاردة الحشمونيين و تصفيتهم. فأعدم زوجته مريم الحشمونية، و أمها ألكسندرا، التي كانت على اتصال مع كليوباترا، و لاحقا أعدم ابنين له من مريم. و قضى على عائلة بابا القريية من الحشمونيين، و على غيرها من الأدوميين المعارضين. و ظل هيروودوس حتى آخر أيام حياته لا يتهاون في أمر أية معارضة لسلطته المطلقة، و لا يتساهل في تكريس نفسه حاكما وحيدا في يهودا، و حليفا لا منافس له في العلاقة مع روما.

و بالاستناد إلى نفوذه الكبير في روما، الذي قام على شبكة علاقات شخصية واسعة، فضلا عن «الصك» الرسمي بتعيينه ملكا من قبل السينات (مجلس الشيوخ)، جمع هيرودوس في يديه صلاحيات واسعة جدا في يهودا الموسعة. فقد كان قائد الجيش و رئيس الإدارة المدنية، و المرجعية القانونية و القضائية، و في يده مقاليد المال و الضرائب. و بالتدرج ألغى هيرودوس المؤسسات المشاركة في السلطة من أيام الحشمونيين، و تحديدا «السنهدريا»، التي حلت محل «الجيروشيا» (مجلس الأعيان).

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣١

و لأنه من أصل أدومي، و لم يكن مؤهلا لتولي الكهانة الكبرى، فقد جرد المنصب من الصلاحيات جميعها المدنية و السياسية، و حصرها في المسائل الدينية، و استبعد منها العائلات التي كانت لها صلات بالحشمونيين، و استبدلها بأخرى مغمورة و موالية له، و أوقف نهج تعيين الكاهن الأكبر مدى الحياة.

و قد بنى هيرودوس جيشا نظاميا كبيرا على النسق اليوناني، عماده المرتزقة، الذين ارتبطوا به شخصيا، و شكلوا ثقلا موازيا للعنصر اليهودي فيه، لأن هيرودوس الأدومي لم يأمن جانب اليهود في الجيش. و بعد تسريح هؤلاء المرتزقة، و طنهم في المدن الهلنستية، و استعملهم في مهمات مدنية. كما قسم البلاد إلى ألوية (طوبارخيات)، لكل منها مركز إداري، على رأسه مسؤول هو الطوبارخوس، و هي في يهودا: أورشليم و جفنا و عقربا و تمنا و اللد و عمواس و بيت نطوفا و أدوم و عين جدي و هيروديون و أريحا. و في الجليل خمسة ألوية، هي: أربيل و مجدل و صفورية و عرب و الجليل الأعلى. و في شرق الأردن ثلاثة ألوية، هي: بيت هرمتا و آبل و جادير (جدرا). و على كل من هذه المقاطعات حاكم (استراتيجوس)، تميز بينهم حاكم أورشليم. و ترك المدن الهلنستية في مناطق حكمه تتمتع بالإدارة الذاتية، و كانت له فيها مصالح اقتصادية واسعة.

و وردت على خزينة هيرودوس مداخيل كبيرة، سواء من أملاكه و مرافقه الخاصة، أو من الضرائب و موارد الدولة. و إذ ظلت الزراعة الركيزة الاقتصادية الرئيسية في مملكته، فقد ازدهرت فيها التجارة و الصناعة. و ملك هيرودوس عقارات واسعة، و رثها من عائلته في أدوم، و ضم إليها المصادرات الكثيرة من الخصوم السياسيين الذين صفاهم، و على رأسهم الحشمونيون و أنصارهم. و جبي هيرودوس ضرائب دائمة على «الرأس»، و على الأرض، و أخرى موسمية مثل «ضريبة التاج».

كما فرض المكوس على السلع التجارية، و ضريبة على استعمال الطرق و الجسور و الموانئ، و على البيع و الشراء، كما على البيوت. و على العموم، فإن هيرودوس سار على النهج اليوناني، و لم يتورع عن أية وسيلة تزيد في مداخيله الضخمة، فكان العبء المالي على رعاياه كبيرا، و كثيرا ما سبب حالة من التذمر، لكن هيرودوس استطاع معالجتها بوسائل متعددة- الترهيب طورا و الترغيب حيناً.

و بهذا الثراء أتاح هيرودوس لنفسه الإقلاع في حركة بناء ناشطة. فأقام بلاطا فخما في أورشليم، و عددا من الحصون إضافة إلى القلعة (أنطونيا)، على اسم ماركوس أنطونيوس و مسرحا و مدرجا. و أعاد بناء الهيكل بصورة فخمة، لم يسبق لها مثيل. و فضلا عن عدد من الحصون و المنتجعات- الهيروديون و فصائل و أنتياترس

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٢

و مسادا و المكور و غيرها، فقد بنى مدينتين كبيرتين، هما: قيساريا (قيصرية) على موقع حصن ستراتون، و سبسطية على موقع السامرة. و بلغت قيساريا على الساحل شأنا عظيما في ضخامتها و أهميتها الاقتصادية، إذ أصبحت الميناء الرئيسي لمملكة هيرودوس. و سبسطية، التي أحب الملك موقعها، بناها على النمط الهليني، بإذن من الإمبراطور، و دعاها على اسمه، فحسنها و زينها، و وطن فيها أعدادا من جنوده المسرحين و أقطعهم الأراضي. كما أقام لنفسه فيها قصرا فخما، و بنى منتجعا في أريحا، و ملاذا في مسادا، على البحر الميت.

و اهتمامات هيرودوس العمرانية لم تتوقف على المباني الفخمة و القصور الجميلة فحسب، بل تجاوزتها إلى القلاع و الحصون في المواقع الاستراتيجية، و منها: المكور (شرقي البحر الميت، حيث سجن و أعدم يوحنا المعمدان) و حشبون و ألكسندرون و مسادا و هوركانيا (السجن الرهيب الذي أعدم فيه الكثيرون من خصوم هيرودوس). و عدا البناء، اهتم بتطوير الزراعة و استصلاح الأراضي، و

بناء قنوات الري، وخصوصا في غور الأردن و منطقة أريحا. و كذلك أولى عناية خاصة لتحسين الطرق و بناء الجسور و الموانئ، و ضبط الأمن على خطوط التجارة. فقد اهتم بطرق التجارة الشرقية (طريق الملك)، التي كانت تمر عليها التوابل و العطور العربية إلى دمشق و غزة، و بالقرب من غزة جدد ميناء أنتيدون.

لقد أمن هيرودوس نفسه على صعيد العلاقة مع روما. و كذلك، و بوسائل متعددة- قمع و قبضة حديدية و إرهاب و شرطة سرية و دسائس و جهاز رقابة ضخمة ...

إلخ- حال دون تبلور معارضة محلية فاعلة. و إذ أخذ احتياطات واسعة لحماية نفسه- حصون و ملاذات و حرس شخصي غير يهودي و بطانة مخلصه .. إلخ- فقد جاءته المفاجأة من داخل بيته. ففي السنوات الثماني الأخيرة من حكمه، دب الصراع بين أبنائه، من زوجات متعدّدات بشأن الميراث. و كان الأخطر عليه ابنا مريم الحشمونية، ألكسندر و أرسطوبولوس، فأعدمهما، أسوة بوالدتهما و جدتهما من قبل، لتأمرهما عليه بهدف إعادة الحشمونيين إلى الملك. و سرعان ما برز ابنه البكر، أنتيبتر فأعدمه أيضا. ثم عين ابنا صغيرا، أنتيباس وليا للعهد. لكنه على فراش الموت تراجع، و كتب وصية فتحت باب الصراع بين الباقيين من أبنائه بشأن الميراث.

و قبل أيام من موته، و بعد أن أعدم أنتيبتر، عين أرخيلاوس ملكا مكانه، و أنتيباس واليا على الجليل و فيلبس على الجولان و تراخونيا و الباشان و بانياس، لكن الوصية كانت معتمدة على موافقة القيصر الروماني. و أمام أكتافيوس في روما طرحت دعاوى متعددة. و بينما سعى كل واحد من أبناء هيرودوس للحصول على تعيين من

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٣

القيصر، جاءت وفود تطالب بخلع هذه العائلة من الملك، و وضع يهودا مباشرة تحت الحكم الروماني. و تلكا أكتافيوس (أغسطس) عن إصدار القرار، و انفجرت الاضطرابات في جميع أنحاء مملكة هيرودوس. فقمعه والي سورية الروماني، فاروس، بمساعدة الأنباط. و أخيرا أقرّ القيصر وصية هيرودوس بصورة عامة، و لكن مع تعديلات ذات دلالة، أبرزها تقسيم المملكة الموحدة إلى ثلاث ولايات منفصلة، و سلخ مناطق مهمة عنها، و خصوصا على الساحل، و ضمها مباشرة إلى مسؤولية والي الروماني في سورية.

و خلال الأربعين عاما اللاحقة لموت هيرودوس، تهاوت الولايات الثلاث، الواحدة تلو الأخرى. و كان أولها ولاية أرخيلاوس في أورشليم، الذي عرف بقساوة والده من دون كفاءته. فاحتج الناس على ظلمه، و طلبوا إبعاده، فقبل القيصر، و نفاه إلى غاليا (في فرنسا)، و عين مكانه حاكما رومانيا سنة ٦ م. و بقيت ولاية فيلبس إلى سنة ٣٤ م، و بعد موته ألحقت بسورية. أما ولاية أنتيباس، فبقيت في يده حتى سنة ٣٩ م، عندما أجلى هو الآخر إلى غاليا، و ألحقت ولايته بسورية أيضا. و في أيام أنتيباس وقعت اضطرابات كثيرة، في خضمها ظهرت المسيحية، و في سياقها أعدم يوحنا المعمدان، و لاحقا صلب المسيح بحسب الرواية المسيحية. و بذلك انتقلت مملكة هيرودوس كلها إلى الحكم الروماني المباشر.

(ب) ظهور المسيحية

شهدت فلسطين بعد موت هيرودوس حدثا تاريخيا مهما، كان من شأنه أن يؤدّي دورا مركزيا في الحضارة العالمية لاحقا، و هو ظهور الديانة المسيحية، بشخص مؤسسها يسوع المسيح. و من بداية متواضعة في مطلع القرن الأول الميلادي، جعل أتباع المسيح عقيدتهم الديانة الرسمية للإمبراطورية البيزنطية في بداية القرن الرابع الميلادي. و من جماعة مطاردة، متهمه بالخروج على الديانتين - اليهودية و الرومانية- صار في عداد المسيحيين الإمبراطور البيزنطي نفسه، قسطنطين الأول، (٣٠٦-٣٣٧ م). و على الرغم من الاضطهاد الذي لقيه أتباع المسيح، فقد ثابروا على نشر رسالته، جيلا بعد جيل، و توسعت دائرة تأثيرهم في النواحي جميعها، إلى أن حققوا النصر بعد ثلاثة قرون. و كان من نتائج ذلك اعتبار فلسطين «الأرض المقدسة»، و هي الكنية التي لا تزال تعرف بها حتى يومنا هذا.

و لقد تواكب ظهور يسوع المسيح مع فترة من التناقض الحاد بين يهود فلسطين و روما، بعد فترة من الوثام، قام فيها هيرودوس بالدور

الرئيسي. ففي روما، حكم

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٤

السياسي البارز أكتافيوس (أغسطس)، وعمل على نقل الدولة الرومانية إلى إمبراطورية كونيئة راسخة، الأمر الذي نجم عنه اتخاذ إجراءات متعددة، تمكن من توحيد أراضي الإمبراطورية وشعوبها حول المركز في روما. وانقسم اليهود بشأن هذه الإجراءات، بين معارضين ومؤيدين ومحايدين. ودب الخلاف بين هذه التيارات المتعارضة في ظل حكم روماني مباشر، فتحول إلى صراع مع روما. وبغياب هيرودوس ووسائله المتعددة، اعتمد الولاة الرومان القوة العسكرية وسيلة لقمع التمرد. وراح الوضع يتفاقم، والأحوال العامة تسوء. وفي هذه الأجواء المحترقة بالتوتر، ظهر المبشر بالديانة الجديدة، «المسيح المخلص».

وفي خضم الأزمة، وحالة الاختلال في أوجه النشاط بغياب قيادة موحدة، برزت أربعة تيارات بين اليهود: تيار سعى للمساومة مع الرومان، وعمل للسلام والحرية الدينية، وكان قوامه أبناء الطبقات العليا، الذين اكتفوا بالحفاظ على اليهود كجماعة دينية في إطار الإمبراطورية؛ وتيار آخر، أكثر اتساعاً، عارض التأثيرات الخارجية، ودعا إلى تفسير تعاليم التوراة وتطويرها بحيث تواكب روح العصر. في المقابل، كانت هناك جماعتان أخريان، على طرفي نقيض؛ الأولى، متطرفة في مقاومتها للإجراءات الرومانية، وسياسياً وديناً، ودعت إلى التصدي لها بحمل السلاح، وكان قوامها سكان الريف؛ والثانية، زاهدة، صوفية، انزالية، رأت الخلاص الذاتي في التطهر الروحي. وقد خرجت إلى أطراف الصحراء لتقيم تجمعاتها الخاصة، ويبدو أن يوحنا المعمدان لم يكن بعيداً عن هذه الجماعة الأخيرة. وقد بشر بالخلاص القريب، عبر المسيح المخلص.

في هذه الأجواء المشحونة، ولد يسوع الناصري في بيت لحم. ولعل ذلك كان سنة ٤ ق.م، أي عام مات هيرودوس، الأمر الذي اعتبر أنه جاء مواكباً ل«قدوم الساعة»، وبالتالي وقع بحسابات وإرادة إلهية. وبشر به يوحنا المعمدان الزاهد على أنه المخلص. ومنذ أن شرع في التبشير برسالته، أعلن يسوع المسيح أن ملكوت الله الموعود أصبح قريباً، وبناء عليه، دعا الناس إلى المباشرة حالاً بإعداد أنفسهم للتوبة وإحياء الروح، عبر رفض متاع الدنيا، والتوجه إلى حب الله والناس. وإذ لم يطالب الناس في البداية بترك ديانتهم، فإنه دعاهم إلى تجاوز الطقوس الشكلية، وفتح قلوبهم إلى الله. ولم يدع المسيح إلى الصدام مع روما، بل أكد على ضرورة إعطاء «ما لقيصر لقيصر، وما لله لله».

وعندما راح يسوع الناصري، وهو يناهز الثلاثين من العمر، يجوب البلاد ويبشر بتعاليمه، أثار اهتماماً بين الناس من مواقع متعددة. فهناك من رأى فيه مجدداً لملك

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٥

اليهود، ومن رأى فيه ثائراً على حكم روما، أو مصلحاً دينياً- اجتماعياً... إلخ.

ولكن عندما أوضح المسيح أن رسالته ليست موجهة لإقامة مملكة على الأرض، أو لحمل السيف ضد روما، وراح يدين ممارسات الطبقة العليا المادية، وينتقد التزمت الديني، والتشبث بحرفية النصوص، ويمتنع من التحريض على حكم الولاة الرومان، انقلبت عليه أغلبية اليهود في فلسطين. ونظراً إلى الخطورة التي شكّلها عليهم بتعاليمه، فقد تضافرت التيارات الرئيسية بينهم تطالب بإعدامه صلباً. ووافق الحاكم الروماني، بيلاطس بونطوس، على الطلب، فجرى تنفيذه في أورشليم، على جبل الجلجلة، بحسب الرواية المسيحية.

ولكن المسيح بموته منح الحياة لرسالته. فأتباعه أكدوا أنه قام من بين الأموات، وصعد إلى السماء. وبذلك أعطى البرهان على أنه «ابن الله»، الذي ولد في الأرض- إنساناً، وضحي بنفسه من أجل خلاص البشر. وبناء عليه، فقد ولدت ديانة جديدة متميزة عن اليهودية، وراحت تنتشر في الخارج، بفعل الرسل الذين كرسوا حياتهم للدعوة إلى اعتناق المسيحية. وقد لاقت هذه الدعوة قبولاً أوسع خارج فلسطين، لأنها طرحت نفسها ديانة عالمية، وليس عقيدة خاصة باليهود، أو بغيرهم فقط. وبرز في العمل على نشر المسيحية المتميزة عن اليهودية بالعقيدة والشعائر الرسولية، بطرس وبولس. وهذا الأخير، الذي كان معادياً للمسيحية في البداية، ثم

اعتنقها، اجتهد في نشرها على أساس الخلاص البشري على يد «ابن الله»، و الحاجة إلى الانبعاث الأخلاقي عبر الإيمان و محبة الله و الإنسان، و الخلاص كمكافأة على الإيمان بالمسيح، و الطهارة الأخلاقية و المسلكية.

و قد حققت التعاليم المسيحية ذات التوجه العالمي، كما صنّفها بولس الرسول، تقدما ثابتا، لكنه كان بطيئا، و ثقلا-بالآلام و الاضطهاد. و مع ذلك، ثابر الرسل و أتباعهم، و نشروا رسالتهم في المدن، و خصوصا بين الطبقات الفقيرة. و بولس نفسه اعتنق المسيحية بصورة عجابية في طريقه إلى دمشق. و من هناك رحل إلى آسيا الصغرى، فبلاد اليونان، و منها إلى روما، حيث «استشهد» دفاعا عن المسيحية (نحو سنة ٦٧ م). و اشتدت أعمال القمع ضد المسيحيين خلال القرن الثاني، و بلغت الذروة في القرن الثالث، و خصوصا أيام الإمبراطور ديوقليان. و يعود السبب في هذا الاضطهاد إلى رفض المسيحيين عبادة الآلهة الرومانية، و إقامة الطقوس التي تفرضاها الدولة. ثم ما لبثت المسيحية أن حققت انتصارها الكبير في أيام قسطنطين الأول.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٦

ج) حكم الولاة الرومان

بعد عزل أركيلاوس ابن هيرودوس (٦ م)، أصبحت فلسطين مقاطعة رومانية، جزءا من ولاية سورية، التي لم تكن ولاية عادية. فحاكمها كان المسؤول الأول في الشرق، نظرا إلى أهميتها الاقتصادية و السياسية و الاستراتيجية. و زاد في أهميته حاكمها أنه قاد المواجهة المستمرة مع الفرثيين. و حاكم المقاطعة (فلسطين)، الذي كان يعينه الإمبراطور، و يحمل لقب «بروكوراتور»، كان يدير شؤون البلاد الأمنية و القضائية و المالية، و يستند إلى حاكم سورية في الدعم العسكري عند الحاجة. أما الشؤون الدينية لليهود فقد أودعت في يد الكاهن الأكبر، و معه مجلس من الحاخامات-سهدرين. و في المدن الأخرى ما عدا أورشليم، لم تكن هناك مشكلة، إذ كانت تتمتع بحكم ذاتي يتولى المسائل المدنية، و خصوصا أن أغلبية سكانها كانت من غير اليهود، أو من اليهود ذوى النزعة للاندماج في الثقافة اليونانية-الرومانية.

و يبدو أن الحكام الأولين في فلسطين رأوا دورهم الرئيسي إداريا-اقتصاديا، و لم يحتفظوا بقوات عسكرية رومانية نظامية (لجيون)، و اكتفوا بتشكيل نوع من «الميليشيا» (أو كسليا). و تفيد المصادر أنهم لم يتدخلوا في شؤون اليهود الدينية، و لم يحاولوا إجبارهم على إقامة الطقوس الرومانية السارية في جميع أنحاء الإمبراطورية. و في أيام جايوس كاليغولا (٣٧-٤١ م)، الذي آمن بألوهيته، طلب من رعاياه جميعهم تكريما إلهيا. و عندما أقام سكان يبنى مذبحا للقيصر، هدمه اليهود من سكان المدينة، فأمر القيصر بإقامة تمثال له في هيكل أورشليم.

و توتر الوضع، و تدخل من حاكم سورية، بترونيوس، تم تلافى سفك الدماء. و بعد موت القيصر، تم إلغاء الأمر، و خلفه كلوديوس عين أغريبا، حفيد هيرودوس، ملكا على يهودا حتى سنة ٤٤ م. و عندما مات الملك، أعيدت يهودا مقاطعة تابعة لولاية سورية.

و بعد موت أغريبا، أخذت العلاقات بين اليهود و الحكام الرومان تسوء، و كذلك علاقاتهم بالسكان غير اليهود، كما حدث في قيساريا، إذ طلب اليهود امتيازات خاصة، لأن هيرودوس، ملكهم، هو الذي بنى المدينة. فأصدر الإمبراطور أمرا يخرج اليهود من عداد السكان ذوى الحقوق المدنية فيها. و شهدت هذه الفترة (٥٢-٦٠ م) توترا متزايدا مع الحاكم الروماني، فيلكس الذي رفض تعيين الكاهن الأكبر، يوناتان بن عنان حاكما. و في أيام فلوريوس (٦٤-٦٦ م) تفاقم الوضع و عمّت الفوضى. ففضلا عن بروز ظاهرة أدعياء النبوة، و أصحاب الرؤى، فقد ساء الوضع الأمني. فلا السلطات الرومانية، و لا المؤسسات اليهودية صاحبة الحكم الذاتي،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٧

استطاعت السيطرة على الفوضى و الإمساك بزمام الأمور.

و قد أدى التذمر الديني و التملل الاجتماعي الاقتصادي إلى الانفجار سنة ٦٦ م.

و كان السبب المباشر للصدامات مع الجيش الروماني، هو نهب خزينة الهيكل على يد فلوريوس. وقاد أعمال الشغب المتطرفون، ليس ضد السلطة الرومانية فحسب، بل ضد الطبقات اليهودية العليا أيضا، لأنها كانت تتعاون مع الحاكم الروماني. وعندما انفجر الصراع، دارت اشتباكات بين التيارات اليهودية المتناحرة، كما بين اليهود وغيرهم من سكان المدن المختلطة، مثل قيساريا وبيسان. وعندما عجزت القوات الرومانية المحلية عن التصدي للمتمردين، جاءت قوات من سورية لأداء المهمة، ولكنها فشلت هي الأخرى في قمع الاضطرابات التي راح نطاقها يتسع. و إزاء هذه التطورات، أرسل الإمبراطور، نيرون، جيشا كبيرا إلى الشرق، بقيادة فسبسيان سنة ٦٧ م لسحق التمرد.

و وصل قائد الجيش المجرب، فسبسيان و معه ابنه، تيطس، في ربيع سنة ٦٧ م، إلى عكا، و توجه إلى الجليل الأسفل، الذي أوكلت مهمة الدفاع عنه إلى يوسف بن متياهو (يوسيفوس فلافيوس - المؤرخ). و هرب الجيش اليهودي أمام فيالق روما المدربة، و لجأ إلى قلعة يودفات (خربة جيفات - الجليل الأسفل)، و تحصن فيها. فحاصرها فسبسيان و دخلها. و هرب المدافعون، و لجأت قيادتهم، و منها يوسف بن متياهو إلى مغارة. و عندما ضاق عليها الخناق، قرر أفرادها الانتحار، غير أن يوسف عمد إلى الحيلة، و سلم نفسه إلى الرومان، بعد أن خدع رفاقه. (و قد ارتد يوسف بن متياهو عن اليهودية، و منح المواطنة الرومانية لدوره في تسليم الجليل، و غير اسمه إلى يوسيفوس فلافيوس، و تفرغ لكتابة تاريخ اليهود).

و عندما انتهى فسبسيان من قمع التمرد في الجليل، بدأ يعد نفسه لاحتلال أورشليم. و بعد سقوط الجليل و شرق الأردن الشمالي، دب الصراع بين الفئات المتناحرة في أورشليم، و تغلب المتطرفون بمساعدة الأدوميين، من دون حسم الأمور تماما.

و صبر فسبسيان على مهاجمة المدينة، فاتحا المجال أمام القوى المتصارعة لاستنزاف بعضها بعضا، و استكمل احتلال بقية أجزاء فلسطين و شرق الأردن الجنوبي. و في ربيع سنة ٦٨ م، خرج لاحتلال أورشليم، و تقدم إلى عمواس (نيكوبولس)، و راح يحتل أطراف يهودا ليعزل المدينة عن محيطها، و يقطع عنها المدد، و يزيد في تفاقم الأوضاع فيها. و عندها جاءه خبر موت الإمبراطور نيرون، فعاد إلى قيساريا لمراقبة التطورات في روما. ثم أعلن نفسه إمبراطورا، و عاد إلى روما، تاركا ابنه تيطس لاستكمال المهمة.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٨

و في ربيع سنة ٧٠ م، فرض تيطس الحصار على أورشليم، و كانت الأوضاع فيها قد تدهورت إلى حد أن الحصار لم يردع المتصارعين عن الاستمرار في القتال بين بعضهم البعض. و بعد حصار استمر خمسة أشهر، شاركت فيه أربعة فيالق رومانية، سقطت المدينة. فهدمت أسوارها، و حرق هيكلها، و استبيحت. فقتل الكثيرون من المتمردين، و بيع غيرهم عبيدا، كما حمل تيطس عددا منهم إلى روما، ليساق في موكب النصر الكبير الذي أقيم له لدى عودته. و كان تيطس قد ترك استكمال مهمة إخضاع قلعة مسادا الحصينة على البحر الميت إلى القائد باسوس، الذي دخلها سنة ٧٣ م، بعد حصار طويل و مرير، عمد في نهايته المدافعون إلى الانتحار الجماعي. (و إشارة إلى هذه الحادثة، صيغ مصطلح «عقدة مسادا»).

بعد سحق التمرد و تدمير أورشليم، بقيت فلسطين عموما تحت سيطرة الفيالق العاشر الروماني، و بالتالي فقائد الفيالق كان الحاكم، و أقام في قيساريا، بعد خراب أورشليم الكامل. و اعتبرت الأراضي كلها ملكا للإمبراطور، تجب عليها الضريبة، إضافة إلى «ضريبة الرأس». و في هذه الفترة، أقيم عدد من المدن الرومانية، على النمط الهلنستي، و منح حكما ذاتيا خاصا في مواقع جديدة، أو على أنقاض مدن قديمة في فلسطين، مثل: عمواس (نيكوبولس) و نابلس (نيابولس) و إيليا كايبتولينا (على أنقاض أورشليم) و صفورية (ديوسيزارية) و بيني (يمنيا) و أسدود (أزوتس) و رأس العين (أنتيباترس) و أرسوف (أبولونيا) و جبج (جباتا) و يافا (فلافيا يوبي) و طبرية.

عندما استتب الحكم لأكتافيوس (أغسطس)، بدأت مرحلة في تاريخ الإمبراطورية عرفت باسم «السلم الروماني» (باكس رومانا)؛ و فيها

فترة من الاستقرار (٩٦-١٨٠ م)، هي فترة «الأباطرة الخمسة الصالحين»، وهم: نرفا (٩٦-٩٨ م) و تراجان (٩٨-١١٧ م) و هدریان (١١٧-١٣٨ م) و أنطونيوس بيوس (١٣٨-١٦١ م) و ماركوس أوريليوس (١٦١-١٨٠ م). في هذه الفترة، استغل الأباطرة الهدوء على حدود الإمبراطورية لتكريس الاستقرار الداخلي، و رأوا أن ضمّ المناطق الحدودية مباشرة يخدم ذلك. فعمد تراجان إلى إخضاع البتراء، عاصمة الأنباط، و ضمها. و استمر الأنباط يؤدون دورا مهما في تجارة الشرق، مستفيدين من «الطريق الجديد» (فيانوقا) الذي بناه تراجان شرقي الأردن. و جعل هذه المنطقة «الولاية العربية»، التي رابط فيها «الفيلق الثالث» الروماني.

أمّا الإمبراطور هدریان، فقد أقام سلاما مع الفرثيين، و خطط لبناء مدينة فخمة على خرائب أورشليم، التي كانت منذ أيام تيطس عبارة عن معسكر و مستودعات للجيش. فأثار ذلك تمردا بين اليهود، استمر ثلاث سنوات (١٣٢-١٣٥ م)، و قاده الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٣٩

شمعون بار كوخبا (باركوزبا). و بعد قمع التمرد و اجتياح آخر معاقله- بيتار (بتير)- بالقرب من أورشليم، أمر هدریان بمنع اليهود من ممارسة شعائرهم الدينية، و حظر عليهم دخول المدينة، و أجلاهم من جوارها، و هدم الكثير من القرى في محيطها، و باع أعدادا منهم عبيدا، كما هرب كثيرون إلى البلاد المجاورة. و منذئذ، صار الرومان يسمون المدينة الجديدة «إيليا كابتولينا»، و البلد «فلسطين السورية». و نشر هدریان فيلقا رومانيا آخر (الفيلق السادس) في مرج ابن عامر (مجدو)، التي أصبح اسمها ليحيو (اللجون).

و بعد موت آخر الأباطرة الخمسة الصالحين، ماركوس أوريليوس (١٨٠ م)، بدأت مرحلة من التدهور السريع في أوضاع الإمبراطورية الرومانية، تضافرت على صنعها مشكلات داخلية و خارجية. أمّا داخليا، فقد راحت روما تعاني المشكلات التي تصيب الإمبراطوريات الكبيرة في زمن الشيخوخة- علاقات متردية بين السلطة و الناس و مراكز قوى داخل السلطة ذاتها و فساد جهاز الدولة و علاقات متوترة بين المركز و الأطراف و تراجع اقتصادي و عسكرية الدولة .. إلخ. و خارجيا، انقلبت حالة الهدوء على الحدود إلى حالة حرب مع الجرمان، من جهة، و مع الفرس، من جهة أخرى. فبعد سقوط الفرثيين، و تولى الساسانيين مكانهم (٢٢٦-٦٤١ م)، سارع حكام إيران الجدد إلى تسخين الجبهة مع روما، نقضا للاتفاق الذي عقده هدریان مع الفرثيين.

و كان طبيعيا أن تترافق مرحلة التراجع الروماني مع حالة من اختلال الأمن و العلاقات الداخلية في أنحاء الإمبراطورية جميعها، و على أكثر من صعيد. فالأباطرة الذين تولوا على العرش، دانوا بسلطانهم للجنود الذين رفعوهم إلى هذا المنصب.

فكان عليهم أن يعوضوا الجيش عن خدماته بالامتيازات التي منحوه إياها. و التناحر بين فئات الجيش ترافق بالعنف و القمع و تردى الأوضاع الاقتصادية و الاجتماعية و الأخلاقية، فانهار السلم الروماني، و اندلعت الحروب الأهلية و عمّ التمرد و الفوضى. و قد لقي المسيحيون مزيدا من الاضطهاد و المطاردة. و مع ذلك، انتشرت المسيحية و تغلغت في طبقات متعددة من المجتمع. و كأنما التطورات السلبية في الإمبراطورية كانت تستدعي بروز ديانة جديدة، فتقدمت المسيحية لتقدم المطلوب.

إن هبوط المستوى الأخلاقي لجهاز الدولة، من القمة إلى القاعدة، أضعف الديانة المدنية الرومانية في نظر الناس. و الفوضى التي عمت أنحاء الإمبراطورية، دفعت الكثيرين إلى البحث عن الخلاص عبر ديانة تشكل قاسما مشتركا بين الشعوب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٠

المتعددة في الإمبراطورية. و المسيحية اقتربت أكثر فأكثر لتشكّل ذلك القاسم المشترك، أكان على صعيد الفرد أو الجماعة. و على الرغم من العقبات التي واجهها التنظيم الكنسي، خلال قرنين، و خصوصا على صعيد التباينات-العقائدية و التنظيمية- بين الجماعة المسيحية، فقد استطاع أن يشكل إطارا قادرا على استيعاب الجماهير الواسعة، و توجيه حياتها الروحية. و قد أفادت الكنيسة في بناء تنظيمها الشامل من وحدة أراضي الإمبراطورية الواسعة، التي كانت مفتوحة أمامها من دون قيود على حرية تنقل رجالها.

و باقتراب نهاية القرن الثالث الميلادي، كانت روما، و ما بنته كله، على وشك انهيار سريع؛ فوضى سياسية و هجمات من الخارج و هبوط اقتصادي و اضطراب اجتماعي و البحث عن ديانات غير رومانية، تضافرت كلها لتضيق الخناق على البنية الإمبريالية إلى أقصى

الحدود. و في سنة ٢٨٦ م، برز قائد باسم ديوقلتيان، حاول أن يضع حدا لهذا المسار، فاستطاع إلى حد معين أن يوقف التدهور، لكن المسار العام ظل مستمرا. و في سنة ٣٠٦ م مات ديوقلتيان، و حل محله قسطنطين، و بذلك بدأت مرحلة جديدة، أدت إلى انقسام الإمبراطورية إلى شطرين: شرقي، و عاصمته القسطنطينية (بيزنطة)؛ و غربي، يتقلص و يتهاوى بفعل النشاط الجرماني، و عاصمته روما. و راحت عصور التاريخ القديم تفسح المجال أمام العصور الوسطى، فبرزت الإمبراطورية البيزنطية، و معها المسيحية، بمنظور كوني جديد، تحتل فيه «فلسطين السورية» (الأرض المقدسة) موقعا خاصا.

رابعاً: العصر البيزنطي

إشارة

يعتبر تدشين القسطنطينية (٣٣٠ م) عادة، بداية التاريخ البيزنطي. و كما أرسى أغسطس (أكتافيوس)، قبل ثلاثة قرون و نصف تقريبا، أسس الإمبراطورية الرومانية بعد أن أخرجها من الفوضى التي اجتاحتها لجيل من الزمن، هكذا فعل قسطنطين (٣٠٦-٣٣٧ م) بالنسبة إلى ما صار يعرف لاحقا باسم الإمبراطورية البيزنطية، التي أرسى قواعدها على الديانة المسيحية. و مع أن الإمبراطورية الرومانية لم تنقسم إلى شطرين - شرقي و غربي - في أيامه، لكن المسار نحو الانفصال كان واضح المعالم. فالولايات الشرقية من الإمبراطورية كانت متقدمة على الغربية، اقتصاديا و حضاريا و ثقافيا، بينما أخذت الغربية تتراجع تحت وطأة التأثير الجرماني على جميع الصعد. و أدرك قسطنطين ذلك، فنقل عاصمته إلى الشرق، إلى بيزنطة، حيث بنى عاصمته، و دعاها على اسمه - القسطنطينية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤١

لقد كانت الولايات الشرقية مهد الحضارات القديمة، و تراثها ازداد غنى عبر العصور و كذلك كان اقتصادها أكثر ازدهارا بفروعه جميعها - الزراعة و الصناعة و التجارة. و على الرغم من فترات الهبوط التي شهدتها، أمينا و إداريا، فإن المؤسسات التي نشأت فيها و تطورت، ظلت قادرة على إدارة الحياة المدنية. و حتى روحيا، كانت هذه الولايات مجال تفاعل تيارات فكرية و دينية، و بالتالي كانت حياة الناس فيها أوسع أفقا و أرقى مستوى. و القسطنطينية التي أصبحت العاصمة و المركز، جسدت بين أسوارها المنيع، التعبير الأرقى لهذه المجالات جميعا - الإدارة المركزية المنظمة و الموقع الاستراتيجي المنيع و القوة العسكرية و الاقتصادية و التقدم الحضاري و الثقافي. و على الصعيد الثقافي جمعت القسطنطينية تراث أكاديمية أثينا و مدرسة حقوق بيروت و مكتبة الإسكندرية الشهيرة.

و الحضارة التي أُنعت في بيزنطة كانت في الأساس شرق أوسطية. و احتلت بلاد الشام و مصر موقعا متميزا فيها، إضافة إلى آسيا الصغرى و بلاد اليونان. و سادت فيها اللغة اليونانية، إضافة إلى اللاتينية و الآرامية و القبطية، كما غلبت عليها الثقافة اليونانية. و جاءت المسيحية لتستوعب هذه العناصر، و تطرح نفسها ديانة للدولة المتعددة الشعوب و الأجناس و اللغات، متجاوزة الحدود الجغرافية، و الفوارق القومية و الثقافية و الحضارية. و على أراضي الإمبراطورية عاش خليط من الشعوب، لكل منها ثقافته الخاصة، لكن الجميع، و خصوصا الطبقات العليا من المجتمع، تعلموا اليونانية - اللغة الرسمية للدولة - و ثقافتها و آدابها. و هذا الخليط من السكان ضم اليونان و السوريين و المصريين و الفرس و الفينيقيين و العرب و الأرمن و اليهود و السلاف و الجرمان و المغول.

و طوال تاريخ الإمبراطورية البيزنطية، قامت العاصمة - القسطنطينية - بدور حاسم في تقرير مصيرها، كما شكّلت ركنا أساسيا في ازدهارها المادي و الروحي.

فالمدينة بموقعها الاستراتيجي، كانت تتمتع بميزات اقتصادية ضخمة، لأنها تقع على ملتقى طرق التجارة. و نظرا إلى ضخامتها و أسواقها و موانئها و مسافنها، فقد كانت مركزا اقتصاديا و صناعيا كبيرا جدا. و لأنها العاصمة كان من الطبيعي أن تصبح بؤرة جذب ثقافي قوية. و كل ذلك إضافة إلى أنها مركز الإدارة الحكومية و الدينية، أعطاه هذا الدور الحاسم. و المدينة، بتحسيناتها الطبيعية و

الاصطناعية، الفريدة في نوعها في العالم القديم، أثبتت طوال قرون كثيرة أنها عصية على الاجتياح. وقد أعطى ذلك سكانها الطمأنينة إلى خلودها، و الاقتناع بقدرتها على النهوض، على الرغم من كل النكسات، فقد اعتقد أهلها أنها «محروسة من لدن الله»، و أنها أقيمت بناء على «إرادة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٢

الله لتحقيق الهدف الأسمى المقدس.»

و الأكيد أن القسطنطينية تطورت بمسار طويل، استمر قرونا، لتصبح «عاصمة عالمية»، بآلتها الإدارية و العسكرية و المالية و بقانونها الروماني و حضارتها اليونانية و بتجارها المسيطر عليها تماما و نشاطها الفكرى الثقافى. لكن قسطنطين الكبير هو صاحب الفضل الأول فى وضع حجر الأساس لهذه الظاهرة الفريدة. فهو الذى اختار الموقع، بناء على تقدير حصيف للواقع الذى وصلت إليه الإمبراطورية الرومانية، بأطرافها المترامية. لقد راهن على الشطر الشرقى منها، و كسب. كما رأى أن المستقبل للمسيحية فى مواجهة الوثنية الرومانية، و ذلك بقراءة ثاقبة للتطورات على هذا الصعيد بين قطاعات السكان، و كان مصيبا. و باعترافه الرسمى بها بعد اعتناقه لها شخصيا، تقدمت المسيحية، بفعل ذاتى نشط و دؤوب، لتصبح عمليا الديانة السائدة فى الإمبراطورية، و تجعل من بيزنطة إمبراطورية مسيحية «أورثوذكسية».

و شكّل الاعتراف بالمسيحية قطعاً مع الماضى فى الإمبراطورية الرومانية، على الأقل فى جزئها الشرقى. و المسيحية التى عانت من الاضطهاد لفترة طويلة، انتقلت إلى الموقع المتميز، الأمر الذى لم يكن ممكناً إلا بتضافر العوامل المتعددة التى أدت إليه، فى ظروف الزمان و المكان. لقد دخلت الإمبراطورية فى مرحلة جديدة، سمتها العامة التناقض مع الماضى، حتى الذاتى. فالماضى، على الأقل من الناحية الدينية، لم يعد يسد الحاجات القومية، إذ برزت حاجات و رغبات جديدة، كانت المسيحية فقط قادرة على تليتها فى حينها. و الإمبراطور، الذى أصبح حامى «العقيدة الأورثوذكسية»، طلب من رعاياه الولاء، سياسيا و دينيا، بينما المسيحية هى أساس الوحدة، التى تتخطى الحدود الجغرافية و الخلافات القومية و العرقية. أما قسطنطين، فقد طرح نفسه الشخص الذى اختارته العناية الإلهية ليجمع الشعوب كلها تحت حكم المسيح، فى إطار كنيسته الأورثوذكسية.

ولد قسطنطين فى مدينة نيسوس (نيس) فى مقدونيا. و هو ابن قائد عسكري، و أمه هيلينا (القديسة)، كانت مسيحية، و قامت بالحج إلى فلسطين، و بحسب الرواية عثرت على «صليب المسيح» الحقيقى. و كان قسطنطين فى جيش والده، فى بريطانيا، عندما مات، فنصبه جنود أبيه قائدا لهم. إلما إنه كان عليه أن يخوض معارك مع منافسيه ليثبت موقعه. و فى هذه المعارك، كما تورد الروايات، قاتل تحت راية الصليب، بناء على رؤيا ظهرت له فى نومه، فاعتنق المسيحية (٣١٢ م) بعد النصر.

و الحدثان المهمان فى حكم قسطنطين، و خصوصا بالنسبة إلى التاريخ اللاحق، هما:

بناء القسطنطينية و جعلها عاصمة الإمبراطورية الرومانية بدلا من روما؛ و تبنى المسيحية

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٣

و جعلها ديانة رسمية. و بغض النظر عن الجانب الإيمانى فى موقف قسطنطين من المسيحية، فإنه بالتأكيد رأى فيها عامل توحيد لشعوب الإمبراطورية. لقد أراد تصليب وحدة الإمبراطورية عبر وحدة الكنيسة.

و أولى قسطنطين فلسطين عناية خاصة، أكان ذلك لأسباب سياسية-اقتصادية متعلقة بموقعها، أو لأسباب ذاتية دينية، كونه اعتنق المسيحية، أو بتأثير أمه، هيلينا التى أمضت وقتا طويلا فيها. و فى أيامه، و جزئيا بإشراف والدته، بنيت عدة كنائس كبيرة فى فلسطين، فى مواقع لها علاقة بحياة المسيح. و منها «كنيسة القيامة» و «كنيسة الصعود» فى أورشليم، و كذلك «كنيسة المهد» فى بيت لحم و «كنيسة البشارة» فى الناصرة و غيرها. و بفضل الحركة العمرانية الكبيرة، و هجرة عدد من أغنياء المسيحيين إليها، و كذلك انتعاش حركة الحجاج إليها، شهدت البلاد ازدهارا اقتصاديا. فتوسع الاستيطان فيها، كما أعيد بناء عدد من المدن، و انتشرت القرى الزراعية،

حتى في المناطق الواقعة على أطراف الصحراء. لقد طغت المسيحية على اليهودية في فلسطين، ووسمتها بسمتها الجديدة الخاصة. وبعناقه المسيحية، وإعلانها ديانة رسمية. معترفا بها، أحدث قسطنطين نقله نوعية في شؤون الإمبراطورية. لكن التجسيد العملي لهذه السياسة تم في أيام خلفائه.

فابنه و وارثه، كونستانتين الثاني (٣٣٧-٣٦١ م)، طالب رعاياه باعتراف ديانة الإمبراطور، وأصدر عددا من المراسيم بهذا الخصوص. وجاء ثيودوسيوس الأول (٣٧٩-٣٩٥ م)، ومن بعده ابنه أركاديوس (٣٩٥-٤٠٨ م)، ليضعا هذا التوجه موضع التطبيق العملي. ففي ٢٧ / ٢ م صدر «مرسوم ثيسالونيكا» الذي كرس الكنيسة الكاثوليكية ديانة للإمبراطورية. وهذا المرسوم وطّد موقع المسيحية في الإمبراطورية، من جهة، وفتح باب الخلافات العقائدية داخل الكنيسة، من جهة أخرى. و مراسيم ثيودوسيوس، الذي يرتبط اسمه بانتصار المسيحية، لم تترك مجالا للاعتدال مع الديانات السابقة- الوثنية واليهودية- وحتى مع التيارات المسيحية الأخرى. لقد كان ثيودوسيوس جادا في توحيد الإمبراطورية، على أساس وحدة الدين والكنيسة. ولتنفيذ هذه السياسة، استكملت الكنيسة تنظيمها الإداري، إذ أصبحت مؤسساتها وفروعها موازية في تقسيماتها الإدارية لتقسيمات الدولة، بينما في قمة الهرم، الديني والمدني، الإمبراطور نفسه.

إن الترتيبات اللاحقة لإعلان المسيحية ديانة الإمبراطورية، أدت إلى وضع صار فيه رأس الدولة هو رئيس الكنيسة أيضا. وكان طبيعيا أنه في مقابل سعي الإمبراطور لتوحيد الناس خلفه، سياسيا ودينا، صار عليه أن يدفع الثمن السياسي عندما يضطره

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٤

موقعه الديني إلى التدخل في الخلافات العقائدية بين التيارات المتعددة. و الواقع أن هذه التيارات، التي اتخذت سمة لاهوتية، لم تكن معزولة قط عن الانتماءات القومية للشعوب داخل الإمبراطورية. وقد تشكلت فعلا كنائس ذات طابع قومي، و خصوصا في الولايات الشرقية- مصر و سورية و العراق و الجزيرة .. إلخ. و كان للمركزية المطلقة في إدارة الدولة انعكاسات سلبية، سياسية و دينية، في مراحل هبوط مستوى الإدارة، و تغشى الفساد في صفوفها. إذ أخذت الخلافات طابعا مزدوجا- دينيا و قوميا، في آن معا.

و الخلافات العقائدية و اللاهوتية بشأن طبيعة المسيح (وحده طبيعته البشرية و الإلهية، أو انفصالهما)، أدت خلال القرنين- الرابع و الخامس- إلى انقسامات حادة داخل الكنيسة. و في المجمع المسكوني الرابع (مجمع خلقيدون)، الذي انعقد بقرار من الإمبراطور (٤٥١ م)، كان الانقسام واضحا بين الشرق و الغرب. و عندما أقر هذا المجمع ثنائية طبيعة المسيح، و تبنت الدولة هذا القرار على أنه المذهب الرسمي للكنيسة الأورثوذكسية و بالتالي للدولة، فقد أخرجت الطوائف الأخرى من إطارها.

و عندما عمدت إلى فرض الموقف الرسمي قسرا، انفجرت اضطرابات في الولايات الشرقية- سورية و مصر- حيث كانت أغلبية السكان تتمسك بالعقيدة القائلة بالطبيعة الواحدة للمسيح (المونوفيزيتية). و قمعت تلك الاضطرابات بعنف شديد، نجم عنه الكثير من إراقة الدماء على أيدي السلطة.

لكن قمع هذه الثورات لم يحل المشكلة بين بيزنطة و الولايات الشرقية، إذ وراء الخلافات العقائدية، كانت تكمن تناقضات قومية و سياسية، و خصوصا في سورية و مصر. و أخذت هذه التناقضات تحتدم عبر الصراع و نتيجة القمع، و بالتالي يتسع نطاقها و تبرز بكل وضوح. و سكان هذه الولايات، و خصوصا سورية، أصبحوا بفعل موقعهم يقتنعون بأفضلية الانفصال عن الإمبراطورية البيزنطية، و الانضمام إلى الفارسية. و الأمر الذي شجعهم على ذلك هو الحفاوة التي استقبل بها «الناصرة» في شمال العراق و بلاد الرها، عندما هربوا من أراضي بيزنطة إلى فارس، إذ سمح لهم بإقامة مراكز دينية، مارسوا فيها تعاليمهم بحرية كاملة، و لم تتدخل الدولة في نشاطهم التبشيري، على طول «طريق الحرير» إلى الصين. و فعلا، فإن هذا الصراع السياسي- الديني سهّل على الفرس احتلال بلاد الشام، و من بعدهم على العرب فتحها، في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

و تعتبر فترة حكم جوستينيان (٥٢٧-٥٦٥ م) فترة ازدهار للحكم البيزنطي القوي في بلاد الشام. فالنشاط العسكري الذي مارسه على

جهات متعددة، و بنجاح ملحوظ

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٥

جعل البحر الأبيض المتوسط بحيرة بيزنطية مرة أخرى. و كان جوستينيان يرى نفسه وارثا للإمبراطورية الرومانية، و تصرف على هذا الأساس، تحت شعار «دولة واحدة، قانون واحد، كنيسة واحدة». و لهذا الغرض جمع في يده السلطة السياسية و الدينية و الإدارية، و تعامل مع النزعات الانفصالية و الطوائف الدينية غير الأورثوذكسية بحزم و صرامة. و كان محبًا للبناء و الإعمار، إذ بنى كنائس فخمة متعددة، و أقام مشاريع كثيرة، و أولى إدارة الدولة اهتماما كبيرا. لكنه بنشاطه العسكري أفقر خزينة الدولة، و بانصرافه للعمل العسكري في الغرب، فتح الباب أمام ملك فارس، كسرى أنوشروان لمهاجمته من الشرق، الأمر الذي اضطره إلى البحث عن السلام مع كسرى بشروط قاسية و مذلة، و لقاء جزيء سنوية ضخمة (٥٣٢ م).

لكن السلام مع الفرس، الذي اشتراه جوستينيان بأثاوة كبيرة لم يكن ليستم.

ففي سنة ٥٧٢ م، فتح الصراع مرة أخرى، و استمر طويلا- حتى حسم سنة ٦٢٩ م، على أيدي هيراكليوس (٦١٠-٦٤١ م). و كان هيراكليوس (هرقل)، الإمبراطور النشط و القدير، قد تولى السلطة في بيزنطة بعد فترة من الفوضى و الهزائم على أيدي الفرس، في أيام سلفه فوكاس. و بادر الفرس مرة أخرى (٦١١ م) إلى غزو سورية و احتلال عاصمتها أنطاكية المدينة الرئيسية في الولايات الشرقية، ثم تابعوا زحفهم إلى دمشق، فاحتلوها (٦١٣ م)، و منها إلى فلسطين (٦١٤ م)، فاحتلوها بمساعدة اليهود الذين انضموا إلى الجيش الفارسي. و انتقم الفرس، و معهم اليهود من المدينة المسيحية إيليا كاييتولينا، فهدموا كنائسها و أديرتها و معالمها المسيحية، و نهبوا، و ذبحوا الكثيرين من سكانها، و حملوا معهم «الصليب المقدس»، و البطريك زاكارايوس إلى بلادهم.

و هذا الاجتياح الفارسي لم يتوقف عند بلاد الشام، بل تعداها إلى مصر و آسيا الصغرى. و سقطت الإسكندرية (٦١٨ م)، في حين تقدم الجيش الفارسي إلى «كابادوكيا»، و عسكر في مقابل القسطنطينية. و بعد تردد، قرر هيراكليوس البدء بالحرب ضد الفرس. و كانت حملته في ربيع سنة ٦٢٢ م بمثابة حملة صليبية لاستعادة إيليا كاييتولينا و «الصليب المقدس». و تضامنت الكنيسة مع الإمبراطور بكل ثقلها، المادى و المعنوى. و إضافة إلى النشاط التحريضي، و شحذ الهمم للانضمام إلى الحملة، قدمت الكنيسة مدخراتها و كنوزها لدعم الجيش و الإمبراطور، الذى وجد خزينة الدولة فارغة عندما تسلم الحكم من فوكاس. و فى سلسلة من الحملات الناجحة فى آسيا الصغرى و غيرها، و خصوصا فى أرمينيا- المستودع البشرى لجيشه- استطاع هيراكليوس أن يحطم القوة العسكرية الفارسية. و أخيرا، عقد الطرفان صلحا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٦

بينهما (٦٢٩ م)، و استعاد هيراكليوس الولايات الشرقية، بما فيها إيليا كاييتولينا، و كذلك «الصليب المقدس» الذى أعيد إليها بموكب فخم.

إن السهولة التى احتل بها الفرس الولايات الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، لا يمكن تفسيرها من دون الأخذ فى الاعتبار الصراعات الدينية داخل الكنيسة المسيحية، و ما رافقها من قمع و إراقة دماء. فهذه الولايات كانت فى شقاق مع بيزنطة، لأسباب سياسية و قومية، عبرت عنه فى تشبثها بالعقيدة المونوفيزيتية، المناهضة للكنيسة الرسمية. و زاد فى ميل سكان هذه الولايات إلى الفرس، المعاملة الحسنة التى كان يتمتع بها النسطوريون تحت حكمهم. أمّا فى فلسطين، فعلى الرغم من أن البطريك كان مواليا للمركز، فقد كانت أغلبية الناس فى المعارضة. و مع ذلك، انتقم الفرس من مسيحيى البلاد و كنائسهم، و خصوصا فى أورشليم، و سمحوا لليهود باستباحة معابد المسيحيين و منازلهم. و انتهز هؤلاء الفرصة ظنا منهم أن الحكم الفارسي سيعيد إليهم السلطة فى البلاد، كما فعل كورش فى حينه. لكن هذه الأحلام تبددت بالنصر الذى أحرزه هيراكليوس على الفرس.

و النصر الباهر الذى حققه هيراكليوس وضعه فى مصاف الأباطرة العظام، و هناك من شبهه بالإسكندر المقدونى. لكن «الفتح العربى»

الذي جاء سريعا في إثره غطى عليه. ومع ذلك، فإن هذه الحرب مع الفرس، و ما آلت إليه من نتائج، مهدت الطريق أمام الفتح العربي، و بالتالي إزالة الدولة الساسانية من الوجود، في حين صمدت بيزنطة ثمانية قرون أخرى. و بعد توقيع الصلح مع الفرس، عرج هيراكليوس على إيليا كايبتولينا في طريق عودته إلى بيزنطة، و دخلها باحتفال كبير، و أعاد «الصليب المقدس» إلى موضعه، و أمر بترميم الكنائس التي خربت، و منع اليهود من دخول «المدينة المقدسة»، و حاكم المسؤولين عن ارتكاب المجازر ضد المسيحيين، و لاحقا أصدر مرسوما يحظر عليهم ممارسة شعائرهم الدينية.

العمران

لقد حققت الولايات الشرقية من الإمبراطورية الرومانية نهضة عمرانية و فنية و فكرية، في العصر البيزنطي، و خصوصا بعد بروز الديانة المسيحية. إضافة إلى هندسة المدن، التي أقيم الكثير منها، بنيت كنائس فخمة و أديرة و أبنية عامة، تجلى فيها الفن البيزنطي الرائع. و في صوغ هذا الفن المتميز تصافرت ثلاثة عناصر أساسية، هي: المسيحية و الهلينية و التراث الشرقي. و كانت مدينة أنطاكيا، عاصمة الولاية السورية، هي الرائدة على هذا الصعيد. كما قامت في بلاد الشام مراكز أدبية و ثقافية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٧

تجاوز أثرها حدود الولاية بكثير. و إذ كانت الإسكندرية هي الرائدة في هذا المجال، فقد اشتهرت بيروت بمدرسة الحقوق، و قيساريا و غزة بمدارس البلاغة و الشعر. و من قيساريا جاء «أبو تاريخ الكنيسة» (يوسيبوس القيصرى)، الذي يعتبر المصدر الرئيسى عن حياة قسطنطين و بداية المسيحية.

و شهد العصر البيزنطي تغيرا ملحوظا بالتركيب السكاني في فلسطين. ففي مقابل تقلص أعداد اليهود فيها، ازدادت نسبة العرب، إذ إضافة إلى العناصر التي كانت تعيش فيها، و على أطرافها، منذ القدم - أنباط و أدوميين و أيطوريين، و غيرهم - دخلت قبائل جديدة من الغسانيين و حلفائهم، و عاشت إلى جانب السكان الأصليين الذين تمركزوا في المدن أصلا - سوريين (أراميين) و يونان و رومان و أرمن و يهود و غيرهم.

و كان الغسانيون قد انتشروا خلال القرنين - الخامس و السادس الميلاديين - في سورية و شرق الأردن و فلسطين، و تحالفوا مع البيزنطيين و أقاموا دولة حدودية قوية، حلت محل خط الحدود الدفاعى الرومانى (ليمس). و قد تنصر الغسانيون، و كانوا يتبعون العقيدة المونوفيزيتية. و بسبب موقعهم و دورهم، كان بنو غسان بؤرة جذب لقبائل متعددة، دخلت في تحالف معهم، و استقرت في المنطقة.

و ضمن الترتيبات الإدارية - الدفاعية التي أدخلها الإمبراطور ديوقلتيان (٢٨٤ - ٣٠٥ م)، تمت إقامة خط حصون دفاعى على حدود الصحراء في جنوب فلسطين و شرق الأردن. و كانت مهمة القوات العسكرية في هذا الخط، الذي عرف باسم (ليمس)، ضبط حركة القبائل العربية الرحالة في هذه المناطق. كما عمد ديوقلتيان إلى تقسيم الولايات إلى وحدات أصغر حجما - ألوية. و قسمت فلسطين (يوديا سابقا) في عهده إلى لواءين، و بعده إلى ثلاثة. و نحو سنة ٤٠٠ م، كانت فلسطين مكونة من ثلاثة ألوية، هي: (١) «فلسطين الأولى»، و تضم الأجزاء الوسطى من البلد - الجبل و الساحل - و مركزها الإدارى قيساريا، و المركز الروحى في إيليا كايبتولينا؛ (٢) «فلسطين الثانية»، و تضم الجليل، و بعض أجزاء شرق الأردن الشمالى (الجلعاد)، و مركزها بيسان؛ (٣) «فلسطين الثالثة»، و تضم جنوب فلسطين و شرق الأردن (مناطق الأدوميين و الأنباط سابقا) و مركزها البتراء.

و لضبط الإدارة، مدنيا و كنسيا، قسمت الألوية إلى أقضية، في مركز كل منها مدينة. و يتضح من المصادر المتوفرة أن عدد المدن ازداد في فلسطين منذ القرن الثالث الميلادى، إذ أصبحت البلاد كلها مقسمة إلى وحدات مدنية تتمتع بحكم ذاتى. و جنبا إلى جنب مع الإدارة الحكومية كانت تقوم إدارة كنسية، و بتراتبية متوازية مع أهمية المدينة كمركز، لتطابق الإدارتين منذ أيام قسطنطين و

خلفائه. و بطيركية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٨

إيليا كابيتولينا تميزت بموقعها، فكانت أعلى من قيساريا، مع أن الأخيرة ظلت أعلى إداريا، إذ كانت هي العاصمة الفعلية، و مقر الحاكم البيزنطي. و ليس ذلك إلما للأهمية التي صارت تولى لإيليا كابيتولينا بعد بروز الديانة المسيحية، لأنها أهم مراكز التراث المسيحي. و بسبب هذا الموقع المتميز، صارت فلسطين تسمى بالتدريج «الأرض المقدسة». و بتغييرات طفيفة، ظل هذا الترتيب قائما لفترة طويلة، و لم يتغير بصورة جذرية إلّا عند الاحتلال الفارسي (الساساني)، في بداية القرن السابع الميلادي. و على الرغم من الاضطرابات المتكررة، و ما تجرّه من خراب، فقد بنيت مدن كثيرة في فلسطين خلال هذه الفترة. و إضافة إلى المدن التي أنشأها هيرودوس:

قيساريا و سبسطية و أنتيباترس (رأس العين) و فصائيل (شمال أريحا) و غيرها، عمد الأباطرة الرومان إلى إقامة عدد منها. ففي أيام الإمبراطور فسبسيان (٦٩-٧٩ م)، بدء العمل ببناء مدينة عمواس (نيكوبولس)، حيث عسكر هناك قبل التقدم لاحتلال أورشليم. و عندما استكمل بناؤها، منحت لقب بولس، أيام ألكسندر سفيروس (٢٢٢-٢٣٥ م). و كذلك نشط في أيامه العمل في بناء نابلس (نيابولس)، التي نمت لتصبح من كبريات مدن فلسطين، حيث كانت تقام الاحتفالات الكبرى و الألعاب الرياضية.

و في بداية حكم الولاة الرومان في فلسطين، جرى توسيع أراضي المدن، و كذلك تطوير الإدارة الذاتية فيها، إذ أصبح البلد كله تقريبا عبارة عن «اتحاد مدن». و منذ أيام فسبسيان منحت مدن كثيرة جديدة حكما ذاتيا و منها: يبنى و أسدود و أنتيباترس و أرسوف و جبع و يافا و طبرية (التي بناها أنتيباس، ابن هيرودوس و جعلها عاصمته نحو سنة ٢٦ م) و صفورية (التي كانت عاصمة أنتيباس قبل الانتقال إلى طبرية، فمنحت لقب بولس أيضا). و بعد ذلك أقيمت اللد (ديوسبولس) و بيت جبرين (إليوتوروبولس) في القرن الثاني الميلادي.

و بعد القضاء على تمرد باركوخبا (١٣٢-١٣٥ م)، بدأ الإمبراطور هديران (١١٧-١٣٨ م)، الذي كان مولعا بالشرق، و محبا للعمارة و البناء، بإقامة إيليا كابيتولينا، بعد أن ظلت معسكرا للجيش الروماني منذ أيام تيطس، و خراب الهيكل الثاني. و أرادها الإمبراطور أن تكون مستعمرة رومانية، تضم كل المؤسسات المعروفة في المدن الهلنستية- هيكل روماني و جمناسيوم و غيرها من المؤسسات العمرانية و الثقافية الجميلة. و أخرج هديران اليهود من إيليا كابيتولينا، و حظر عليهم الدخول إليها و الإقامة فيها. فانتقل المركز اليهودي إلى يبنى، حيث راح يتبلور سنهدرين جديد، و أصبحت المدينة مركزا للدراسات التوراتية، و فيها تم جمع عناصر الشريعة اليهودية، و تصنيفها في كتاب «المشنا». و كان تراجان (٩٨-١١٧ م) احتل البتراء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٤٩

(١٠٦ م)، و قضى على دولة الأنباط. و ضم أراضيهم إلى الولاية الرومانية- سورية.

و لكن المدينة احتفظت بأهميتها التجارية، و ازدهرت في هذا المجال، و خصوصا بعد أن بنى تراجان «الطريق الجديد» (فيانوقا)، الذي يصل العقبة (أيلة) بمدينة بصرى الشام. ثم جعل أراضي الأنباط و شرق الأردن الولاية العربية التي عاصمتها بصرى، و يعسكر فيها الفيلق الثالث الروماني.

و بصورة عامة، يمكن تصنيف بناء المدن و تطورها في فلسطين في أثناء العصر الروماني، سواء الجديدة منها، أو التي أعيد ترميمها و توسيعها على أنقاض مدن قديمة، ثم حصلت على الحكم الذاتي، و انتشرت لتغطي مع ريفها جميع أنحاء البلد، بحسب الترتيب الزمني التالي:

١) فترة الاحتلال الروماني (أيام بومبي و غايينوس): عكا (بطوليميس) و دورا (الطنطورة) و عسقلان و غزة البحرية (ميوماس) و رفح (رفيا) و بيسان (سكيتوبولس) و أرسوف (أبولونيا) و يافا (يوبي).

(٢) عصر هيرودوس (٣٧-٤ ق. م.): قيساريا (قيصرية) و سبسطية (السامرة) و اللجون (ليجو)، و أنتياترس (رأس العين) و جبع.

(٣) أيام أنتيياس- ابن هيرودوس: طبرية (على اسم الإمبراطور طياريوس ١٤-٣٧ م).

(٤) أيام فسبسيان إلى تراجان (٦٩-١١٧ م): نابلس (نيابولس) و صفورية (ديوسيزارية).

(٥) أيام هديران (١١٧-١٣٨ م): إيليا كايبتولينا (القدس).

(٦) أيام سبتيموس سيفيروس (١٩٣-٢١١ م): اللد (ديوسبولس) و بيت جبرين (إليوتيروبولس).

(٧) أيام ألكسندر سيفيروس (٢٢٢-٢٣٥ م): عمواس (نيكوبولس).

وقد عرف الرومان ببناء الطرق الجيدة و الجسور القوية، التي ربطت الولايات بالعاصمة روما، إذ شاعت مقولة «كل الطرق تؤدي إلى روما». و أفادت فلسطين، بسبب موقعها الاستراتيجي من الاهتمام الروماني ببناء الطرق و صيانتها و حمايتها.

و الطريق الرئيسي في فلسطين منذ أقدم العصور المعروفة، هو طريق البحر الساحلي

(Via Maris)

، الذي كانت تتفرع منه شبكة تصل إلى المدن الداخلية، من أهمها طريق وادي عارة، الذي يؤدي إلى مرج ابن عامر (مجدو)، و منها إلى بيسان و شرقا إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥٠

دمشق، حيث يبدأ طريق الملك، الذي يتجه جنوبا عبر الهضبة في شرقي الأردن، إلى الجزيرة العربية. و الطريق الروماني الأقدم في فلسطين هو الذي يمر على طول الساحل السوري، من أنطاكيا إلى عكا و جنوبا إلى قيساريا- اللد- أسدود- عسقلان- غزة- رفح، و يستمر في شمال سيناء إلى مصر. و الجزء الأكبر منه (أنطاكيا- عكا) استكمل في أيام نيرون (٥٤-٦٨ م). أما الأجزاء الجنوبية فقد تم إنشاؤها لاحقا.

و من الطرق الداخلية المهمة تلك التي تتفرع من طريق التوابل- الجزيرة العربية- العقبة- البتراء- غزة، و هي تمر بمدينة الخلصة (ألوسا)، و يتفرع منها طريق آخر يتجه نحو الخليل (حبرون) إلى أورشليم.

و في أوائل القرن الثاني، بنى تراجان (٩٨-١١٧ م) أطول طريق روماني في بلاد الشام و ذلك بعد احتلال البتراء (١٠٦ م)، و ضم الولاية العربية إلى الإمبراطورية مباشرة. و هذا الطريق، الذي سمي «طريق تراجان الجديد» (Via Nova Trajana)، امتد من العقبة إلى بصرى مروراً بالقويرة و أذرح و الكرك و عمان و أم الجمال. و قد بنى لاحقا فرع من هذا الطريق يصل إلى البتراء. و كانت واحة الأزرق محطة مهمة على هذا الطريق، حيث يبدأ وادي السرحان، مروراً بدومة الجندل (الجوف)، إلى قلب الجزيرة العربية. و اكتسب هذا الطريق أهمية خاصة بعد إنهاء الاستقلال السياسي للبتراء، و كذلك بعد تراجع أهمية المدن العشر (ديكابولس) عسكرياً، و بالتالي دفاعياً عن أحد حدود الإمبراطورية. فعمد تراجان إلى نشر الفيلق الثالث على حدود الصحراء، و تمركز في بصرى، كما انتشرت وحدات منه في مواقع أخرى، وصولاً إلى العقبة. و الهدف الرئيسي من هذا العمل هو سيطرة الدولة على تجارة الجزيرة العربية، بكل ما تدره من مردود اقتصادي مباشرة على خزينة الدولة، و بالتالي إخضاع القبائل العربية في المنطقة لهذا الإجراء.

و كان هديران (١١٧-١٣٨ م) من أكثر الأباطرة اهتماماً ببناء الطرق في فلسطين و غيرها. و من أهمها في فلسطين: (١) طريق عكا- اللجون- سبسطية- نابلس- إيليا كايبتولينا؛ (٢) حسان (حشون في شرق الأردن)- أريحا- إيليا كايبتولينا- بيت جبرين- الساحل؛ (٣) بيسان- اللجون؛ (٤) عكا- صفورية- طبرية؛ (٥) إيليا كايبتولينا- الخليل- بيت جبرين. و بعد هديران بنى خلفاؤه طريقاً بين صور و دمشق، مروراً بمدينة بانياس (قيصرية فيلبس)، و أخرى بين بصرى و طبرية، و ثالثة بين طبرية و أريحا. و من أهم الطرق التي بنيت في ذلك العصر، تلك التي وصلت ميناء العقبة، أو البتراء، بمدينة غزة، الميناء المهم في جنوب فلسطين، و منفذ البضائع الآتية من الجزيرة العربية، و خصوصاً العطور و التوابل. و كان هذا الطريق يمر بخمس مدن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥١

تجارية في النقب، كان الأنباط يستعملونها، وهي: عبدة و سبيطة و نيتسانا و كرنب و ألو سا (الخلصة). و قد كشف في هذه المدن عن آثار تدل على ازدهارها في العصر الروماني - البيزنطي: بوابات ضخمة و أسواق و معابد و كنائس و مسارح و سدود مياه و قنوات .. إلخ.

و قد ظلت الزراعة عماد الاقتصاد في البلد، و لكن صناعات متعددة ازدهرت بالمدن، و كذلك التجارة ببضائع متنوعة. و تميّزت غزة كميناء، إذ كانت منفذ التجارة مع الجزيرة العربية عبر النقب، الذي حرصت السلطات على أمن القوافل التي تنقل البضائع، عبر طرقه. و لم تقتصر تجارة فلسطين و موانئها على المنتجات الزراعية:

كزيت الزيتون و النيذ و البلسم (من منطقة عين جدى) و الحبوب (من مرج ابن عامر) و الخيول، و لا- على ما تحمله القوافل من الجزيرة العربية و الشرق الأقصى - التوابل و العطور - بل اشتملت أيضا بمنتجات و بضائع متنوعة، منها: الأخشاب و النحاس من آسيا الصغرى و الحرير و الأيقونات من القسطنطينية و الزجاج من سورية و الجلود و الفراء من أوروبا. و لذلك ازدهرت الموانئ - غزة و يافا و قيساريا و عكا و غيرها. و في أراضي الإمبراطورية المترامية الأطراف، حيث تمتع السكان بحرية التنقل و بالأمن في فترات الاستقرار، تشكلت سوق تجارية ضخمة، قامت القسطنطينية ذاتها بدور مركزي فيها، لأنها مدينة صناعية و تجارية، فضلا عن أنها عاصمة الإدارة المدنية و الكنسية، و مركز الثقافة و الفكر.

و كانت ولاية سورية، و من ضمنها فلسطين، ولاية غنية، تمتعت بازدهار اقتصادي لفترات طويلة من الاستقرار، و لذلك شهدت نهضة عمرانية و فنية و فكرية.

فضلا عن بناء المدن و الموانئ و الحصون و الطرق، أقيم عدد كبير من الهياكل، و لاحقا الكنائس المسيحية منذ القرن الرابع الميلادي. و فيها يتجلى فن العمارة الراقى، الذي مزج بين العناصر الشرقية و اليونانية و الرومانية، فجاء متميزا برونقه و جماله و زخرفه. و تبرز فيه الفسيفساء بجمال صورها - أوراق الأشجار و الزهور و عناقيد العنب و الثمار و الحيوانات و الطيور البرية و الأليفة. كما تجذب الأنظار الأعمدة اليونانية و الطراز «الباسيليكي»، في بناء الكنائس الكثيرة، و الأديرة للرهبانيات التي انتشرت في جميع أنحاء البلد، و حتى في الصحراء. و من أهمها في فلسطين «دير مار سابا» (بالقرب من القدس) و «دير جبل الطور» (بالقرب من الناصرة)، و كذلك في مدن الناصرة و بيت لحم و جبل الزيتون في القدس. أما الكنائس، فأقدمها كنيسة «المهد» و «القيامة»، من أيام قسطنطين، و كذلك كنيسة «البشارة» في الناصرة، و كنيسة غزة، التي بنيت سنة ٤٠٢ م على يد الإمبراطورة الوردية يودوكية. و وجدت آثار كنائس

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥٢

جميلة في مدن النقب - عبدة و سبيطة و كرنب.

و في العصر البيزنطي، و بعد سيادة الديانة المسيحية، وصلت الحياة الفكرية و الروحية الذروة في فلسطين. فأنشئت فيها المدارس الدينية، التي كان لأساتذتها و خريجها دور كبير في تطوير الفكر المسيحي. و قد استندت هذه النهضة إلى تراث هيليني، تبلور في المدارس الست: أثينا و القسطنطينية و أنطاكية و بيروت و غزة و الإسكندرية. و كانت أثينا تعنى بالأدب الكلاسيكي و الفلسفة، لكن الإمبراطور جوستينيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) أغلقها بسبب تشبث أساتذتها بالوثنية. و تخصصت مدرسة بيروت بالقانون، فقصدها طلاب الحقوق من جميع أنحاء الإمبراطورية.

و كانت مدرسة الإسكندرية تعنى بالعلوم الطبيعية و الرياضيات. و تعتبر مدرسة غزة بنت الإسكندرية علميا، و قد أصبحت مركزا فكريا ذا شهرة واسعة. و اهتمت مدرسة قيساريا بالبلاغة و الأدب و تدريب موظفي الحكومة. و كان فيها معهد ديني مسيحي قوي، و منه تخرج يوسيبوس القيصري (٢٦٤ - ٣٤٠ م)، مؤرخ الكنيسة و الإمبراطور قسطنطين. و من الأسماء الفلسطينية اللامعة ستاتيوس، الشاعر النابلسي، توفي سنة ٩٦ م و بروكويوس، المؤرخ القيسري، توفي سنة ٥٦٥ م.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥٣

المراجع

باللغة العربية

- «الموسوعة الفلسطينية»، القسم العام. ٤ مجلدات. دمشق، ١٩٨٤.
 --، القسم الثاني (الدراسات الخاصة). ٦ مجلدات، بيروت، ١٩٩٠.

باللغات الأجنبية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥٥

الفصل الرابع العصور الوسطى

أولا: الفتح العربي

تبعاً لبعض المفاهيم المتداولة للدلالة على المصطلحات و التسميات في العصر الحديث، يمكن القول إن علاقة العرب بفلسطين قديمة قدم التاريخ. فقد ورد ذكرهم في نقوش بابلية من أيام نارام سين الأكادي، الذي يذكر أنه غزا فلسطين، و حارب قبائل عربية في جنوبها، نحو سنة ٢٢٥٠ ق.م. لكن إطلاق الكنية «عرب» على جماعات بدوية من قبل أهل الحضرة شىء، و وعى هذه الجماعات لذاتها كجزء من «أمة» شىء آخر. و إسقاطات الحاضر على الماضي لا تساعد على التوضيح بقدر ما تدخل الأمور في متاهات لا طائل فيها. و الأكيد أن الوعي العربي للذات تشكّل عبر قرون طويلة، تحت حكم الإمبراطوريات الكبرى التي قامت في الشرق الأدنى القديم.

و لكن هذا الوعي الذاتي بالانتماء تبلور مع ظهور الإسلام و انتشاره، إذ تميّز العرب، كحمله لواء الإسلام و الدعوة إليه، عن غيرهم من الشعوب التي دخلت فيه عبر الفتوحات.

و كان الفتح العربي، بمعنى من المعاني، تتويجا لمسار طويل من الهجرات العربية التي انطلقت من الجزيرة، جنوبها أو شمالها، و استقرت في بلاد الشام. لكنها لم تكن تحمل رسالة دينية. و حتى لو استثنينا الهجرات القديمة جدا، و التي صارت تعرف باسم «الهجرات السامية» – الشرقية أو الغربية، و كذلك العبرانيين (الأدوميين و المؤابيين و العمونيين، و الإسرائيليين و غيرهم)، فالوثائق التاريخية تشير إلى أن الممالك العربية الثلاث القوية – البتراء و تدمر و الجابية (عاصمة بنى غسان في الجولان) – كانت لها علاقة قوية بفلسطين. و كذلك فالوثائق المصرية و العراقية، كما التوراة، تشير إلى قيام وحدات سياسية عربية، كانت على علاقة بفلسطين، بصورة أو بأخرى، منذ الألف الأول قبل الميلاد. هذا إضافة طبعا إلى العدد الكبير من القبائل العربية التي حطت عصا ترحالها في فلسطين و جوارها خلال العصور.

ففي البتراء قامت و ازدهرت مملكة الأنباط، التي وصلت ذروة قوتها العسكرية و الاقتصادية، في القرن الأول الميلادي. و كانت حليفة للرومان، و قامت بدور دفاعي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥٦

مهم على حدود الإمبراطورية، سواء تجاه الفريثيين، أو القبائل العربية المتنقلة. و قد سيطر الأنباط على جنوب فلسطين، و خصوصا على طريق التجارة المؤدى إلى غزة عبر النقب، في أراضي الأدوميين، إذ إن البتراء كانت حلقة مركزية في التجارة الدولية بين البحرين –

المتوسط والعربي - وكذلك بين الجزيرة العربية وبلاد الشام. وامتد سلطانها في ذروة قوتها ليضم شرقى الأردن كله إلى تخوم دمشق، كما وصل جنوبا إلى شمال الجزيرة العربية. وفي مراحل معينة وسعت البتراء نفوذها في فلسطين، وصولا إلى محاصرة أورشليم عشية حملة بومبي الرومانى عليها. وطمعا في السيطرة على تجارتها، حاربها البطالسء والرومان، إلى أن قضى عليها تراجان (١٠٦ م)، وضمها إلى أراضى الإمبراطورية، باسم «الولاية العربية».

وبعد هبوط البتراء برزت تدمر (بالميرا) كمركز للتجارة الدولية بين الشرق والغرب، وازدهرت نتيجة التطورات الجديدة، التى أدت إلى تحوّل فى طرق التجارة، وخصوصا بعد احتلال الفرثيين لبلاد ما بين النهرين. واستفادت من ذلك تدمر، الواقعة وسط الصحراء السورية، على واحة تتوفّر فيها المياه - العذبة والكبرى. وتدمر مدينة قديمة، يرد ذكرها من أيام تغلات بليسر الأول نحو سنة ١١٠٠ ق. م. وقد حاول أنطونيوس نحو سنة ٤٢ ق. م. احتلالها والاستيلاء على ثرواتها، لكنه فشل. غير أنها، ولأسباب موضوعية، دخلت فى منطقة النفوذ الرومانى فى عصر الإمبراطورية، ووصلت ذروة ازدهارها فى الفترة (١٣٠ - ٢٧٠ م)، إذ أصبحت فعلا وارثة البتراء. وكمملكه حدودية، حاولت تدمر توسيع نفوذها، مستفيدة من الصراع بين الرومان والفرس. واذ نجحت لفترة، ضمن تضايف أوضاع مواتية، فإنها فى نهاية الأمر ذهبت ضحية الانخراط فى لعبة القوى الكبرى، إذ لم تتوفر لها الشروط، الذاتية والموضوعية، للقيام بدور كهذا.

لم تكن تدمر معروفة بنشاطها العسكرى، ولكنها اشتهرت بتجارتها، وذلك بفضل موقعها. ولما تولى الملك فيها أذينة (النصف الثانى من القرن الثالث الميلادى)، كانت تدمر تمتلك قوة عسكرية، من خلال تحالفاتها مع القبائل العربية الواقعة فى منطقة نفوذها بعد أن دخلت حلبة الصراع بين روما و فارس كدولة حدودية. واستطاع أذينة سنة ٢٦٠ م أن يهزم شابور الأول، الشاه الإيرانى الذى احتل سورية، وأسر الإمبراطور الرومانى فاليريان. وبذلك فرض نفسه قوة لا يمكن تجاهلها فى الشرق، فعينه روما نائبا للإمبراطور فى الشرق، لكنها سرعان ما عملت على التخلص منه غيلة سنة ٢٦٦ م. فخلفته زوجته الزباء (زنوبيا) الشهيرة، وتحدثت روما وحقت انتصارات باهرة، لكنها فى نهاية الأمر هزمت على يد الإمبراطور

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١٥٧

فاليريان نفسه سنة ٢٧٢ م، ووقعت أسيرة فى يده، ودخل تدمر، وخرّبها بعد أن نهبها، وتشهد خرابتها القائمة حتى يومنا هذا على عظمتها.

وبصورة ما، ورثت مملكة آل جفنة (الغسانيين) موقع تدمر، السياسى والتجارى، وأقامت دولة حدودية قوية، ولكن من دون عاصمه فخمة كتدمر. واذ تميّز التدمريون بنشاطهم التجارى أولا، ومن ثم العسكرى، فقد كان الغسانيون على العكس، إذ كرسوا نشاطهم للصراع العسكرى أولا، واستفادوا من التحوّلات التى طرأت على طرق التجارة الدولية، فصارت تمر عبر مناطقهم. وبينما توجه التدمريون، كشعب تجارى، إلى بناء مدينة فخمة فى قلب الصحراء، تضم مؤسسات تخدم الوظيفة المركزية لها، فإن الغسانيين ظلوا أقرب إلى البداوة، وبقيت عاصمتهم عبارة عن معسكر متنقل على أطراف البادية، إلّا فى فترات قصيرة حيث استقرت فى الجابية (الجولان) و جلق (دمشق). ومن نواح متعددة، شكّل ملك الغساسنة فى بلاد الشام، وخصوصهم الألداء، المناذرة (اللخمين)، فى الحيرة على أطراف العراق، مرحلة متقدمة فى التمهد للفتح العربى بعد ظهور الإسلام.

وبنو غسان قبيلة عربية يمنية، هاجرت من موطنها فى نهاية القرن الثالث الميلادى، ونزلت البلقاء والحواران. وهم يلقبون آل جفنة، نسبة إلى جفنة بن عمرو مزقياء بن عامر ماء السماء، مؤسس السلالة فى بلاد الشام، وهناك من ينسب إلى هذه السلالة أكثر من ثلاثين ملكا. وقد تنصّر الغسانيون، واتبعوا العقيدة المونوفيزيتية، وطرح ملوكهم أنفسهم حماة الكنيسة البرادعية (نسبة إلى يعقوب البرادعى - المبشر النشط بهذه العقيدة فى منطقة نفوذ الغسانيين)، الأمر الذى أدى إلى صدامات عنيفة بينهم وبين البيزنطيين الذين تبوّأ الكنيسة الأورثوذكسية الرسمية فى الإمبراطورية. وفى العقود الأخيرة من القرن الخامس الميلادى، توثقت علاقات الغسانيين،

كحكام دولة حدودية، مع البيزنطيين. أما فترة ازدهار هذه المملكة فكانت في القرن السادس الميلادي (أيام جوستينيان)، و ذلك في زمن الحارث الثاني (الأعرج)، الذي حكم في الفترة (٥٢٩-٥٦٩ م)، و من بعده في زمن ابنه المنذر و حفيده النعمان. و انتهى ملك آل جفنة بالفتوح العربية، في النصف الأول من القرن السابع الميلادي.

إن أثر الغساسنة في بلاد الشام يتجاوز المأثور عنهم في التراث العربي بشأن صراعهم الدموي الطويل، كدولة حدودية متحالفة مع بيزنطة، مع أبناء عموماتهم للخميين في الحيرة، حلفاء الفرس. فأثارهم المنتشرة في سورية و الأردن و فلسطين تشهد على فترة من الازدهار الحضاري المادي الكبير. و كذلك، فالأدب العربي ينضح بمآثرهم و حبهم للشعر و إكرامهم للشعراء. و خلال حكمهم الطويل (نحو أربعة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥٨

قرون)، نزلت مناطق نفوذهم قبائل عربية كثيرة، استوطنت بلاد الشام، و شكّلت لاحقا مرتكزا مهما للفتوحات العربية بعد ظهور الإسلام. كما أدّى الغساسنة دورا في نشر المسيحية بين العرب. و الأكيد، أنهم في هذه المرحلة من الصراعات القومية داخل الإمبراطورية البيزنطية، و التي اتخذت صيغة الخلافات العقائدية الدينية، قد ساهموا كثيرا في بلورة الوعي الذاتي العربي، و بذلك مهدوا الطريق أمام تكريس هذا الوعي بعد الإسلام.

باقتراب القرن السادس الميلادي من نهايته و بداية السابع، أخذت الأوضاع الذاتية و الموضوعية لدخول العرب مسرح التاريخ كقطب رئيسي تتشكل بوتيرة متسارعة، و ذلك بعد أن ظلوا لفترة طويلة هامشي الأثر في الأحداث الجارية.

و بدخولهم هذا، أسسوا قيام حضارة عالمية و مادية و روحية، كان الإسلام مرتكزا و حافظها. ففي الصراع بين الشرق الفارسي، و الغرب الهليني (الروماني-البيزنطي)، أدّى العرب دورا مهما، و كذلك في النزاعات داخل هاتين الإمبراطوريتين، الأمر الذي ساعد على تبلور شخصيتهم المتميزة. و مع ذلك، ظلوا تابعين لهذه القوة العظمى أو تلك، و لم يكن زمام أمرهم بأيديهم. و خلال الربع الأخير من القرن السادس، و الأول من القرن السابع، أنهكت الإمبراطوريتان بعضهما بعضا، و فتحتا الباب على مصراعيه أمام الفتوحات العربية التي انطلقت من الحجاز- مهد الإسلام- و اجتاحت خلال فترة قصيرة نسيبا، أراضي الإمبراطورية الفارسية كلها، و كذلك الجزء الأكبر من أراضي الإمبراطورية البيزنطية.

لقد استنزفت الحرب الطويلة و المستمرة طاقة الإمبراطوريتين- الفارسية و البيزنطية- عسكريا و ماديا و معنويا. و عندما توصلتا إلى ضرورة وقف القتال بينهما، نظرا إلى عبثية استمراره من دون القدرة على حسمه، و اتفقتا على الشروط للتعاش، كان جيشاهما في حالة متدنية من جهة التنظيم و الطاقة البشرية و الروح القتالية. و في مسيرة الحرب الطاحنة، و نتيجة الخسائر الكبيرة في الأرواح و العتاد و الأموال، اضطر الطرفان إلى تجنيد المرتزقة بأعداد كبيرة، و اللجوء إلى رفع الضرائب على السكان و التجارة الدولية، و ذلك لتوفير المال اللازم لتحمل أعباء الحرب المكلفة. و هكذا، و عندما حانت ساعة المواجهة مع الجيوش العربية، التي زحفت تحت قيادات مجربة، ذات قدرات تنظيمية فائقة، كما تمتعت بروح معنوية عالية، تحفزها أهداف ذاتية و جماعية مجزية، ماديا و روحيا، لم تستطع جيوش الإمبراطوريتين الصمود، و انهارت بسرعة غير متوقعة.

و على العكس من سلوكهما السابق في دعم حليفهما الحدوديين- الغساسنة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٥٩

على الجانب البيزنطي، و للخميين على الفارسي- عمد الطرفان، و تحت وطأة الحرب الدائرة بينهما عشية انطلاق الفتوحات العربية، إلى تهميش دور هذين الحليفين، و وقف الدعم عنهما، و أيضا إغراء مقاتليهما من القبائل بالانضمام إلى جيشي الإمبراطوريتين. و قد ترك هذا السلوك حدود الإمبراطوريتين مفتوحة أمام الجيوش العربية، و مغرية للاختراق، و ذلك بالتعاون مع القبائل العربية التي انقلبت على حليفها السابقين، و انحازت إلى الجانب العربي. أما الترتيبات الأمنية الحدودية، التي رعاها الفرس و الروم خلال قرون

طويلة، و بصور متعددة، فقد انهارت أمام حركة الفتوح العربية، و من دون مقاومة تذكر. و هيراكليوس، الذي أطاح بترتيبات جوستينيان مع الغساسنة، دفع ثمنا غاليا، غطى على النصر الذي أحرزه في حملاته اللامعة ضد الفرس.

و كان من نتائج الحرب المدمرة بين الإمبراطوريتين، و ما فرضته عليهما من أعباء، و ما استلزمته من تجنيد للإمكانات و حشد للطاقات، و بالتالي ما ألحقته جراء ذلك من أضرار بالسكان المحليين، أن راح هؤلاء يضمرون العداء للسلطة، و يتمنون الخلاص منها. و قد رأوا في العرب الفاتحين فرصة لإزاحة الظلم عن كاهلهم، و خصوصا بعد أن اكتشفوا الفارق بين تعامل العرب معهم، بالنسبة إلى سلوك السلطة سابقا، و على الجانبين. و حتى المسيحيين العرب، و نظرا إلى اعتناقهم العقيدة المونوفيزيتية المناهضة للأورثوذكسية الرسمية البيزنطية، و تحملهم جراء ذلك الكثير من الاضطهاد على يد السلطة، رأوا في الفتح العربي، حتى و هو يحمل لواء الدعوة إلى الإسلام، طريقا إلى الخلاص من القمع الديني، الذي كان يغلف تناقضات قومية بين الشعوب المحكومة و السلطة المركزية.

و النتيجة المهمة للحرب بين الفرس و الروم، و الخارجة بطبيعة الحال عن إرادة الطرفين المتحاربين، لكنها ناجمة عن سلوكهما، هي انتقال التجارة الدولية إلى خطوط أخرى، تتحاشى المرور في مناطق الصراع، تفاديا للأخطار و الضرائب و المكوس، في زمن الحرب و اختلال الأمن. فازدهرت نتيجة ذلك مراكز جديدة تقع على الطرق البديلة في شبه الجزيرة العربية، و لعل أهمها مكة المكرمة، التي تقع على مفترق طرق تؤدي إلى الجهات جميعها. فأضافت مكة بذلك إلى أهميتها الدينية، التجارة و المال و العلاقات الدولية، و بالتالي الموقع المتميز في نظر القبائل في الجزيرة العربية. و معروف أن مكة كانت، و منذ أقدم العصور، «قبله الحج»، به يؤم الناس «بيت الله الحرام» (الكعبة)، فأصبحت بعد ازدهارها الاقتصادي، و اتساع علاقاتها التجارية و الدبلوماسية، مركزا سياسيا مرموقا أيضا.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٠

و في مكة، التي جمعت المتناقضات و هي تشهد تحولات حادة في مجتمعها و علاقاتها، ولد النبي محمد (ص)، في بطن من قريش (بنى هاشم)، و في عائلة كانت تتولى «سدانة الكعبة»، و ذلك «عام الفيل» (٥٧٠ م) بحسب الرواية. و قد نشأ و ترعرع و هو يشهد هذه التحولات و ما يواكبها من متغيرات في السلوك و العلاقات و القيم.

فالمدينة التي كانت مركزا دينيا قديما، صارت فضلا عن «الحرم»، تضم سوقا تجارية و مالية ضخمة. و أهلها، الذين ظلت الروح القبلية تسود مجتمعهم، أصبحت لهم شبكة علاقات واسعة، في الجزيرة و خارجها، تتناسب و حجم تجارتهم الدولية الكبير. و مكة التي صارت تستحوذ على هذه التجارة الدولية، كانت بالضرورة على اطلاع بما يجري بين القوتين العظميين في تلك الفترة التاريخية. و بالتأكيد، فإن هذه الصورة لم تكن غائبة عن ذهن «رسول الله» (ص)، و هو يباشر دعوته إلى الإسلام.

و مكة هذه، التي حجب تشبث أهلها بنمط حياتهم الآفاق الرحبة التي يفتحها الإسلام أمامهم، أكان على الصعيد الروحي أو المادي، رفضت دعوة الرسول (ص) إلى اعتناق الدين الجديد. و لما ثابر محمد (ص) على دعوته من دون هواده، رأى فيها أهل مكة، بل فيه شخصيا، خطرا يتهدد مرتكزات علاقاتهم و قيمهم - المادية و الروحية. و بقدر ما ازداد احتدام التناقض معه، رفع أولو الأمر في مكة حدة صراعهم ضده، فاضطروه إلى مغادرة مسقط رأسه، و الهجرة إلى يثرب (المدينة المنورة). و في المدينة وجد الرسول (ص) مرتكزا مرحليا لنشاطه الديني و السياسي، يدير منه صراعه مع مكة لحملها على قبول الدعوة إلى الإسلام، إذ ظل ذلك بالنسبة إليه هدفا مركزيا يوليه الأولوية. و مع أنه أعلن بيت المقدس (القدس) «القبلة الأولى»، يتوجه إليها المسلمون في صلاتهم، فإن مكة لم تغب قط عن باله، و ذلك لمركزيتها في الدين الجديد - الإسلام - الذي يدعو إليه، كما في التشكيل السياسي الذي يعمل من أجله.

لأسباب دينية - إعلان بيت المقدس أولى القبليتين - و سياسية - نشر الدعوة الإسلامية بين عرب الشام و العراق - و كذلك لضرورات الصراع مع أهل مكة، كان اهتمام الرسول (ص) ببلاد الشام لا يفوقه إلا الهدف المباشر - فتح مكة (البيت الحرام)، و استمالة قريش (اللفاح) إلى جانبه. و لتحقيق أهدافه في مكة، اتبع محمد (ص) سياسة الترغيب و التهيب. فبينما عمد في «مغازيه» الأولى إلى تهديد عصب حياتها الاقتصادية - التجارة - لم يتوقف عن السعي، سياسيا و دبلوماسيا، لجذب أعيان قريش إلى الإسلام. و ما أن حقق توازنا

نسيا للقوى مع مكة، جرى التعبير عنه في صلح الحديبية سنة ٦هـ، حتى وجه اهتمامه شمالا في اتجاه بلاد الشام، و أولا وقبل كل شيء، إلى الواحات الواقعة على طريق التجارة المؤدية إليها. وهكذا جرى فتح

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦١

خبير سنة ٧هـ، و بعدها مباشرة فدك، ثم وادي القرى و تيماء، و كلها قرى يهودية، استسلمت للرسول (ص)، فعقد معها صلحا بشروط محددة، تسمح لأهلها الحفاظ على ديانتهم و شعائرهم لقاء جزيء يدفعونها سنويا، في مقابل الحماية التي يتمتعون بها في ظل «دولة الإسلام».

و مع أن اهتمام الرسول (ص) ببلاد الشام لم تكن له ترجمة عملية تذكر في حياته، فقد ورثه عنه خلفاؤه، و سارعوا بعد وفاته إلى تنفيذ وصيته. و في حياته أنفذ الرسول (ص) ابنه (بالتبني)، زيد بن حارثة إلى الشام، فوصل مؤتة، و اصطدم سنة ٨هـ بمقاومة عنيفة من تجمع القبائل العربية هناك، و دارت معركة خسرها المسلمون، و استشهد فيها زيد، و كذلك جعفر (ذو الجناحين) ابن عم الرسول (ص). و بعد مؤتة، بعث الرسول (ص) عمرو بن العاص إلى ذات السلاسل، إلى قبائل بلي و عذرة و بلقين، يدعوها إلى الإسلام. و كانت أم عمرو بلوية، و قصد الرسول الإفادة من صلة رحم البلويين لعمرو. ثم قاد النبي (ص) نفسه أكبر غزوة جهزها في حياته إلى تبوك سنة ٩هـ و قد لقي صعوبات جملة في تجهيز الحملة، فسامها لذلك «جيش العسرة».

و جاء في تبوك حاكم أيلة (العقبة) من قبل البيزنطيين، يوحنا بن روبة، ثم جاءت وفود جربا و مقنا و أذرح، و سكانها من نصارى العرب، فكتب لهم الرسول (ص) كتابا، و صالحهم على دفع الجزية، و أعطاهم الأمان و اعتبرهم «ذمة الله و رسوله».

و بعد وفاة الرسول (ص) (١١هـ / ٦٣٢م)، و القضاء على حركة الردة في خلافة أبي بكر الصديق، بدأت عملية الفتوحات، التي انطلقت بسرعة البرق الخاطف، فقضت على إمبراطورية الفرس، و حجت بزنطة إلى الحدود الدنيا. فغداة قمع الردة، دانت الجزيرة العربية لسلطة الخليفة في المدينة، و أصبحت قاعدة آمنة للإسلام، انطلق منها - بال طاقة البشرية التي وفرتها، تحت لواء الإسلام، و قيادة قريش و الصحابة الأولين - لتحقيق فتوحات واسعة النطاق. و قد استهدفت العمليات العسكرية الأولى القبائل العربية في بلاد الشام و تخوم العراق، لضمها تحت لواء الإسلام، و تجنيدها في عملية الفتوحات التي راحت تتطور و تتقدم من نصر إلى نصر.

و إذ تحرك الجيش العربي الأول من الجزيرة بقيادة خالد بن الوليد إلى تخوم العراق (غرب الفرات)، فإن المعارك الحاسمة الأولى وقعت في بلاد الشام مع البيزنطيين، و بداية في فلسطين، و من ثم انتقلت إلى مصر و العراق (شرق الفرات).

و تجدر هنا الإشارة إلى أن معلوماتنا عن مسار حركة الفتوحات في بلاد الشام عامه، تستند بالأساس إلى مصادر أولية عربية، كتبت بعد نحو ٢٠٠ عام من تاريخ الأحداث، و قد تم تناقلها شفويا و كتابة خلال هذه المدة الطويلة. و لا ضير في ذلك

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٢

لولا التناقض في الروايات بين المصادر المتعددة، و خصوصا حول التفاصيل.

و كثيرا ما يعكس التناقض في الروايات و جهات نظر لتيارات سياسية، تشكلت لاحقا، و حاولت إثبات مواقفها من قضايا حالية استنادا إلى أحداث سالفة. و لكن الأساس يبقى واحدا، و هو أن العرب، تحت لواء الإسلام، حققوا نصرا على القوتين العظميين في ذلك العصر. أما المصادر الفارسية فهي معدومة تقريبا، و البيزنطية قليلة جدا و مبهمه. فكأنما أراد البيزنطيون تجاهل هذا الحدث الكبير تحاشيا للإحراج من الهزيمة النكراء التي حلت بهم، و التي لم يرغبوا في تصديقها و الإقرار بها، بعد أن كانوا، و لفترة طويلة، مقتنعين بسرمدية إمبراطوريتهم، و تحديدا عاصمتهم - القسطنطينية. و هناك مصادر سريانية مهمة عن الفتوحات العربية.

و يستفاد من المصادر التاريخية العربية عن سير الفتوحات أن خالد بن الوليد، بعد أن أحمده حركة الردة في شرق الجزيرة العربية، تابع مسيرته بأمر من الخليفة أبي بكر، إلى العراق، نحو الحيرة و الأنبار و عين التمر، أي نحو المناطق الآهلة بالقبائل العربية المنتصرة. أما الخليفة نفسه، و من معسكره في ذي القصة، فقد استنفر قبائل العرب التي انضوت تحت لواء الإسلام، و جهز منها ثلاثة جيوش،

بحسب الرواية، و أنفذها إلى بلاد الشام. و بغض النظر عن التباين بالتفصيلات فقد كانت كالتالي: (١) جيش بقيادة عمرو بن العاص، و وجهته المقاطعتان البيزنطيتان- فلسطين الأولى و الثالثة، أي وسط البلاد و جنوبها؛ (٢) جيش بقيادة شرحبيل بن حسنة، و وجهته فلسطين الثانية، أي الغور الشمالي و الجليل و مرج ابن عامر و الجلعاد (شرقي الأردن)؛ (٣) و الجيش الثالث بقيادة يزيد بن أبي سفيان، و وجهته دمشق و أطرافها.

و يظهر أن الخليفة اختار هؤلاء القادة بناء على علاقات سابقة لهم بالمناطق التي توجهوا إليها. و على كل حال، فإن أي ترتيب مسبق قد يكون اتخذ في البداية، لم يصمد على أرض الواقع بعد أن احتدمت الاشتباكات العنيفة. و يبدو أن كلا من الطرفين أخطأ التقدير بالنسبة إلى نوايا الآخر و سلوكه. فالبيزنطيون استخفوا في البداية بحجم الخطر الكامن في هذه الحركة العربية، و اعتبروها غزوة طارئة، مثلها مثل سابقاتها من العمليات الحدودية بقصد النهب و المغنم، و لم يسارعوا إلى اتخاذ الإجراءات و الإعداد لمواجهة الخطر بما يستوجب حجمه. أميا العرب، فقد أرادوا بداية حصر نشاطهم بالقبائل العربية، و تحاشى الاشتباك بالجيش البيزنطي النظامي، بالابتعاد عن مهاجمة المدن و محاصرتها. غير أن حركة البيزنطيين العسكرية، و حشد قوات كبيرة ضد عمرو بن العاص في فلسطين، اضطر القادة العرب إلى التجمع و حشد القوات،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٣

خوفا من أن يستفرد البيزنطيون بكل منهم على حدة. و بذلك تغيرت الخطط الأولية، إن وجدت، و فرض سير المعارك المسارات اللاحقة.

و لعل المتغيرات التي طرأت على الأرض في مسار القتال، و ما تطلبه ذلك من تجاوز الترتيبات التي قد تكون اتخذت، و التوجهات التي تذكر المصادر أنها صدرت في المدينة قبل الانطلاق، شكلت جزءا من عملية الإرباك لدى الرواة و المؤرخين التابعين. و كذلك، فإن تشابك الأحداث و تسارعها، في غياب الوثائق المعاصرة، قد أدى إلى تضارب الروايات، الأمر الذي فتح الباب أمام الرواة و المؤرخين التابعين للتعبير عن أهوائهم السياسية، من خلال الأخذ الانتقائي عن السلف. و يكاد لا يمر حدث في هذه العملية من فتح بلاد الشام، و التي دامت نحو خمس سنوات، من دون أن نجد تباينا بالروايات بشأنه أكان ذلك من ناحية تاريخه، أو دور الأشخاص فيه، أو تفصيلاته، كعدد المشاركين في المعركة مثلا... إلخ. و لكن بغض النظر عن هذه الفروق الجزئية، فهناك إجماع على أن الصدامات الأولى بين العرب و البيزنطيين وقعت في جنوب فلسطين، ثم انتقلت إلى شمالها، و منها إلى سورية- جنوبها فشمالها. و كان هذا هو مسار عملية الفتوحات بصورة عامة، ما عدا بعض المدن التي قاومت و طال حصارها قبل أن تستسلم، مثل قيساريا و غيرها.

و منذ البداية، حقق العرب انتصارات مهمة في المعارك التي وقعت في فلسطين (منطقة عمليات عمرو بن العاص)، لكنها لم تحسم الصراع مع البيزنطيين، كما لم تؤد إلى سقوط البلد بأكمله في أيدي العرب. فالصراع بشأن بلاد الشام حسم في معركة اليرموك (عند الواقوصة، أو الياقوصة على نهر الرقاد في الجولان)، و ذلك في آب/ أغسطس ٦٣٦ م، إذ انهارت الجيوش البيزنطية، و انسحبت تاركة شمال سورية مفتوحا أمام الجيوش العربية الظافرة. أما في فلسطين، فبعد الصدامات الأولى بالقرب من غزة (دائن)، حشد الطرفان قواتهما في أجنادين (بالقرب من بيت جبرين)، و دارت معركة حقق فيها العرب نصرا كبيرا (٦٣٣-٦٣٤ م) و بعد ذلك انسحب البيزنطيون إلى بيسان (منطقة عمليات شرحبيل بن حسنة)، تاركين وسط فلسطين و جنوبها مفتوحا أمام الجيش العربي. و مع سقوط الريف الفلسطيني عامة في أيدي العرب بعد أجنادين، إلّا إن المدن الكبيرة المهمة- بيت المقدس و قيساريا و عسقلان و عكا و غيرها- بقيت في أيدي البيزنطيين إلى ما بعد معركة اليرموك.

و بعد أجنادين، عمدت القوات العربية إلى تثبيت سيطرتها على الريف في فلسطين و شرق الأردن، ثم ما لبثت، بعد ستة أشهر، أن هاجمت بيسان، التي أخلتها الحامية البيزنطية، بعد أن فتحت سدود المياه لإغراق الأرض و إعاقه تقدم العرب،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٤

و انسحبت إلى فحل، شرقي النهر. فوقت هناك معركة في كانون الثاني/يناير ٦٣٥ م، شاركت فيها إمدادات جديدة أرسلها الخليفة من المدينة، و انتصر فيها العرب، و طاردوا فولو البيزنطيين إلى دمشق. و إزاء هذه التطورات، اقتنع الطرفان كما يبدو بمصيريه الصراع، فحشد كل منهما ما لديه من قوات. أما الخليفة، فإضافة إلى الإمدادات التي أرسلها، بعث إلى خالد بن الوليد في العراق، يأمره بالتوجه إلى بلاد الشام. فجاز خالد الصحراء، و وصل إلى أطراف دمشق، و استسلمت له بصرى (٦٣٥ م). أما هيراكليوس (هرقل)، فجمع جيشا كبيرا و أرسله لمقابلة العرب في موقعة اليرموك، حيث هزم، و اضطر الإمبراطور إلى الإسراع بمغادرة سورية متوجها إلى عاصمته. بعد اليرموك، تتباين الروايات بشأن سقوط المدن الرئيسية في فلسطين، و خصوصا بيت المقدس (إيلياء) و قيساريا. ففي سنة ٦٣٧ أو ٦٣٨ م، و بعد حصار طويل، هرب القائد البيزنطي من إيلياء، فبقيت تحت سلطة البطريك سوفرونيوس، الذي اشترط تسليم المدينة المقدسة إلى الخليفة عمر بن الخطاب نفسه، الذي كان قد وصل إلى الجابية للقاء القادة هناك، و تنظيم الأراضي التي وفت في أيديهم، و دراسة خطط المستقبل. و جاء عمر إلى القدس، و عقد مع البطريك صلحا، سلمت بموجبه المدينة للخليفة. و كتب عمر عهدا للمسيحيين من سكانها، آمنهم به على أرواحهم و أموالهم و كنائسهم، لقاء الجزية و الولاء لدولة الإسلام. و تؤكد المصادر أن عمر حظر على اليهود الإقامة في القدس بين المسيحيين تحت طائلة العقاب الجسدي و المادي.

و تتباين الروايات كذلك بشأن سقوط قيساريا، المدينة الكبرى في فلسطين البيزنطية. و من الواضح أنها صمدت فترة طويلة أمام الحصار البري، بفضل الأسطول البيزنطي الذي ظل يسيطر على البحر. و إذا صح أنها صمدت سبع سنوات، فإنها تكون سقطت سنة ١٩ / ٥٦٤٠ م. و يورد بعض المصادر أن العرب دخلوها عبر قنوات المياه المؤدية إليها، بعد أن دلهم أحد سكانها اليهود على نفق سرى. و تبلغ المصادر في عدد سكانها و الجنود الذين تمركزوا فيها (٧٠٠، ٠٠٠ بيزنطي و ٢٠٠، ٠٠٠ يهودي و ٣٠، ٠٠٠ سامري). و بعد قيساريا سقطت عسقلان و غيرها. و في الأغلب أن هذه المدينة، سقطت في يد معاوية بن أبي سفيان، الذي احتل موقع أخيه يزيد بعد موته، ثم عينه عمر بن الخطاب واليا على كل بلاد الشام.

و سواء عن تخطيط مسبق، مصادفة أو الحتمية التاريخية، كان فتح بلاد الشام عامة و فلسطين خاصة، على أيدي العرب المسلمين حدثا مهما في التاريخ العالمي.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٥

فهذه الرقعة من غرب آسيا، ذات التراث الحضاري الممتد عبر التاريخ البشري، لم تفقد أهميتها بعد الفتح العربي، بل على العكس. فالفتح ترك آثاره على الفاتحين، كما على سكان البلاد الأصليين. و لا غرو، فإن مركز الدولة الإسلامية سريعا ما انتقل إلى دمشق، في قلب بلاد الشام. و نظرا إلى علاقة العرب التاريخية بهذه البلاد، كما للآثار التي تركها انتزاعها عنوة من أيدي البيزنطيين على مسار الأحداث اللاحقة، و خصوصا لناحية استمرار الصراع بين بيزنطة لقرون كثيرة، فقد أصبح الهمم الأول للدولة العربية- الإسلامية الناشئة حسم هذا الصراع، و بالتالي وراثته موقع بيزنطة العالمي- حضاريا و سياسيا. و كان لهذا التحدي أثر فعال على دور العرب في التاريخ العالمي، كما في حضارة الجنس البشري.

و بالنسبة إلى فلسطين تحديدا، فقد أضاف الإسلام، و بالتالي الفتح العربي، بعدا جديدا لأهميتها الدينية. فعلاوة على موقع القدس الديني في التراثين- المسيحي و اليهودي- أضفى عليها الإسلام أيضا هالة من القدسية، باعتبارها أولى القبلتين و ثالث الحرمين الشريفين، و منطلق «المعراج»، الأمر الذي نجم عنه لاحقا إقامة معالم دينية مهمة فيها: قبة الصخرة و المسجد الأقصى و غيرها. و كذلك، ففي فلسطين مقامات عدد كبير من الأولياء، و أضرحة الصحابة الأولين، و بعض قادة الفتح. و قد تعزز هذا الموقع في العصور اللاحقة، الأمر الذي أدى إلى شيوع اسم بيت المقدس بالنسبة إلى إيلياء أو أورشليم سابقا، و القدس لاحقا، و إطلاق كنية «الأرض المقدسة» على فلسطين كلها. و هذا الموقع الديني ظل عنصرا رئيسيا في الصراع بشأن فلسطين عبر العصور.

و على العموم، فإن سكان بلاد الشام، الذين شكّل العنصر العربي الأصلي نسبة عالية بينهم، وكذلك غيرهم من المحليين، لم يروا في الفتح العربي تسلطاً أجنبياً بالمفهوم السائد. فمنذ زمن طويل قامت بينهم وبين سكان الجزيرة شبكة واسعة من العلاقات القومية و القبليّة و الدينيّة و الاقتصادية .. إلخ. و زاد في تخفيف الوطأة عليهم السلوك المتسامح، دينياً و اجتماعياً و سياسياً، الذي سلكه الفاتحون العرب المسلمون إزاءهم، الأمر الذي جعلهم يرحبون بهؤلاء الفاتحين. و الفاتحون بدورهم منحوا السكان المحليين حرية العبادة، كما خففوا عنهم عبء الضرائب، و أعطوهم الأمان على أرواحهم و ممتلكاتهم و معابدهم، ما داموا يدفعون الجزية و يعلنون الولاء لدولة الإسلام، أى أن الفاتحين جعلوا هؤلاء السكان على ذمتهم. و من هنا- و على عكس العصور السابقة- فقد ساد الوئام بين الطرفين، و دخل الكثيرون في الإسلام. لقد كان الفتح إلى حد كبير بمثابة تحرير و اعتناق للسكان المحليين، قومياً و اجتماعياً. و لا الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٦

غرو، إن أصبحت بلاد الشام سريعا جزءا عضويا من الوطن العربي و «دار الإسلام»- شكلا و مضمونا.

و تفيد المصادر أن فلسطين تمتعت بعد الفتح بفترة من الازدهار لم تعدها منذ زمن طويل. و في التقسيم الإداري، الذي يبدو أن عمر بن الخطاب وضعه و هو في الجابية، عند قدومه لترتيب أوضاع الأراضي التي وقعت في أيدي المسلمين، بقى التقسيم البيزنطي السابق على حاله إلى حد كبير. و قسمت فلسطين إلى جنتين: (١) جند فلسطين- و هو يضم فلسطين الأولى و الثالثة من عهد البيزنطيين، و عاصمته اللد، ثم انتقلت إلى الرملة. و فيه الكور التالية: إيلياء (القدس) و عمواس و اللد و بينى و يافا و قيساريا و نابلس و سبسطية و عسقلان و غزة و بيت جبرين و السبع و أريحا و عمان؛ (٢) جند الأردن- و هو فلسطين الثانية سابقا، و نقلت عاصمته من بيسان (التي قاومت و فتحت عنوة) إلى طبرية التي صالحت و استسلمت، و فيه الكور التالية: فحل و جرش و بيت راس و جدرا و أبيل (شرقي الأردن) و صور (لبنان)، و طبرية و بيسان و صفورية و قدس و عكا.

و امتدت الحدود بين الجنتين من الغرب إلى الشرق، و ظلت ثابتة كما يبدو خلال العصر الإسلامي حتى دخول الصليبيين إلى الشرق. و كانت تمر في جبال الكرمل شرقا إلى مجدو، التي كانت محطة حدود و بريد، و منها توجهت شرقا إلى جبال جلبوع، ثم تنحرف جنوبا فتضم بيسان و أراضيها إلى نهر الأردن. و كانت فلسطين بجنديها جزءا من ولاية الشام، التي مركزها في دمشق- دار الخلافة الأموية لاحقا.

ثانيا: العصر الأموي

إشارة

في الواقع، بدأ حكم بنى أمية في بلاد الشام منذ أن تم فتحها، لكن علاقاتهم بها كانت قبل ذلك بكثير، نظرا إلى هيمنتهم على تجارة قريش معها. و في التنظيم الإداري الذي وضعه عمر بن الخطاب، قسّم هذه البلاد إلى أربعة أجناد (جمع «جند»، و هو المقاطعة)، و هي: فلسطين و الأردن و دمشق و حمص (قنسرين). و بعد توجه الجيوش التي فرغت من فتوح بلاد الشام، شرقا إلى العراق، و غربا إلى مصر، و بعد موت عدد من القادة البارزين في طاعون عمواس سنة ٦٣٩ م، و منهم أبو عبيدة بن الجراح، و يزيد بن أبي سفيان، وصل معاوية بن أبي سفيان، بتعيين من الخليفة الثاني، عمر بن الخطاب إلى ولاية بلاد الشام كلها. و من موقعه هذا، راح الوالي القدير، معاوية، يثبت أركان حكمه في هذه الولاية المهمة، داخليا، عبر إحكام قبضته

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٧

على زمام الأمور فيها؛ و خارجيا، عبر متابعة الصراع مع البيزنطيين بنشاط كبير.

و معاوية، الأموي النسب، استند إلى قاعدة حكمه في بلاد الشام، عندما دخل في صراع مع الخليفة علي بن أبي طالب على الخلافة، و

كسب المعركة.

و بعد أن قتل الخليفة القوي، عمر بن الخطاب، غيلة سنة ٦٤٤ م، على يد أبي لؤلؤة (المجوسى)، مولى المغيرة بن شعبه (الثقفى)، انتقلت الخلافة من دون مشكلات تذكر إلى عثمان بن عفان (الأموى). وقد تم ذلك عبر «مجلس شورى»، سُمى أعضاؤه عمر بن الخطاب قبل موته، لانتخاب خليفه له. و فاز عثمان بن عفان على بن أبى طالب بالتركية، لكن مجلس الشورى اشترط على عثمان «ألا يحمل بنى أمية على رقاب الناس.» و قد أقرّ عثمان معاوية على بلاد الشام، و أضاف إليه جند الجزيرة. و بعد مقتل عثمان فى الفتنة الأولى (٦٥٦ م)، تخندق معاوية فى ولايته الشامية، و تزعم الحركة المطالبة بدم عثمان، كونه أبرز بنى أمية، و امتنع من بيعه على، حتى يقتص من قتله عثمان. و بذلك اندلع الصراع بين على و معاوية، و انتهى بمقتل على، و استئثار معاوية بالحكم، و بالتالى تأسيس سلالة أموية للخلافة، سماها بعض المحدّثين المناهضين للأمويين «الملك العضوض»، كما ورد فى الحديث النبوى الشريف.

و ما من شك فى أن ولاية معاوية الطويلة فى بلاد الشام (عشرون عاما فى عهد ثلاثة خلفاء) كانت رصيذا قويا له فى صراعه بشأن الخلافة ضد الإمام على. و قد مكنته هذه القاعدة الشامية، فضلا عن ما عرف عنه من شيمتى الحلم و الدهاء، من مناجزة على و التغلب عليه. و فى صفين، و قفت أجناد بلاد الشام بحزم مع معاوية.

و من جند فلسطين نفرت لمساندته قبائل الأزد و كنانة و لخم و خثعم؛ و من جند الأردن: قضاة و مذحج و همدان و غسان. و بعد المواجهة العسكرية فى صفين، ثم السياسية فى «تحكيم أذرح» (جنوب فلسطين)، مالت الكفة إلى جانب معاوية. و جاء اغتيال على (على يد ابن ملجم الخارجى) ليحسم الصراع لمصلحة مؤسس ملك بنى أمية، معاوية بن أبى سفيان. و اختار معاوية أن يأخذ بيعه الناس له بالخلافة فى بيت المقدس سنة ٦٦٠ م، نظرا إلى موقع المدينة الدينى، و لأن أرض الحجاز كانت لا تزال هاشمية الولاء، و تفضل «آل البيت» على بنى أمية.

و بسبب ميزاته الشخصية، و كذلك موقع ولايته فى بلاد الشام، كان معاوية من أبرز الولاة فى عصر الفتوح الأول، و حتى فى أيام الخليفة عمر بن الخطاب. و كان معاوية قد التحق بجيش أخيه يزيد، و ما أن تم فتح بلاد الشام، و استقرت الأمور فيها، حتى أصبح واليا عليها. فقد مات أبو عبيدة بن الجراح، و من بعده يزيد بن أبى

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١٦٨

سفيان. و عبر عمرو بن العاص إلى مصر، و غيره من المنافسين المحتملين، مثل سعد بن أبى وقاص، إلى العراق، فبقيت ولاية الشام لمعاوية حتى نهاية الخلافة الراشدية. و قد أطلق الخليفان، عمر و عثمان، يد معاوية فى بلاد الشام و متابعه الصراع مع البيزنطيين. و فى أيامه، نزل الكثير من القبائل التى جاءت غازية بلاد الشام و فلسطين، إضافة إلى من كان بهما من اليمانية قبل الإسلام. و لأن الصراع مع البيزنطيين استمر برا و بحرا، إذ سيطر الأسطول البيزنطى على الشواطىء، و كان يغير على المدن الساحلية، ينهب و يخرّب، فقد استلزم ذلك من معاوية تحصين الساحل السورى، و شحنه بالمقاتلين، ريثما يبنى الأسطول العربى.

و فى أيام ولايته قاد معاوية حربا مع البيزنطيين على جبهتين: الأولى بريّة فى الشمال، على طول جبال طوروس، و وجهتها آسيا الصغرى، بدأت دفاعية ثم تحولت إلى هجومية؛ و الثانية بحرية على طول الساحل السورى، و هى الأخرى بدأت دفاعية ثم انقلبت إلى هجومية. و لتحصين خطى الجبهة، أقام الحصون فى الشمال (العواصم و الثغور)، و على الساحل رمم دفاعات المدن التى تتعرض لغارات الأسطول البيزنطى. و شحن معاوية هذه الحصون و القلاع و المدن المسورة بالمقاتلين، و أنزل عائلاتهم بالقرب منهم. و بنى فى عكا دارا لصناعة السفن، و استخدم فيها أصحاب المهن من السكان الأصليين، و كذلك البحارة و المقاتلين من العرب و سواهم. و فى أيام عثمان استكمل معاوية بناء الأسطول العربى، بعد أن أقام دارا أخرى لصناعة السفن فى مدينة صور.

و منذ عصر الفتوح الأول، راحت تتضافر عوامل موضوعية و ذاتية تهتّى ولاية الشام لاحتضان الخلافة الإسلامية بدلا من المدينة. فالفتوحات الواسعة تركت المدينة عمليا بعيدة عن مسرح الأحداث، التى انتقلت بثقلها و مضمونها السياسى و الإدارى، كما بماداتها

البشرية، إلى الأراضي التي فتحت حديثا. و ولاية الشام، شكلا و مضمونا، كانت مؤهلة أكثر من سواها لانتقال الخلافة إليها. ففيها غلب العنصر العربي بين السكان، سواء بمن كانوا فيها قبل الإسلام، أو بمن وصلوا إليها واستقروا في نواحيها بعده. و كذلك، و بينما انهارت الإمبراطورية الفارسية، و راحت الفتوحات العربية في أراضيها تتخذ نمط التوسع المستمر و ترتيب الأوضاع الذاتية، بما يواكب ذلك من صراعات داخلية، فإن ولاية الشام، و بفضل سياسة معاوية، إلى حد كبير، استقرت أوضاعها الداخلية، و توجه نشاطها الرئيسي إلى الصراع المصري مع البيزنطيين، الأمر الذي أعطاها موقعا متميزا. و إلى فترة طويلة، لم يسلم البيزنطيون بفقدان بلاد الشام، و ظلوا ينتهزون كل الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٦٩

فرصة مواتية لاستعادتها. و حتى عندما أصبحوا في موقع الدفاع على الجبهة البرية، و أوغلت غارات المسلمين في آسيا الصغرى وصولا إلى مشارف القسطنطينية، ظل البيزنطيون سادة البحر، يهددون بأسطولهم الضخم مدن الساحل السوري و المصري. و إزاء تصميم أباطرة بيزنطة هذا، لم تعد السياسة الدفاعية التي اتبعها معاوية، ببناء التحصينات و إقامة الحراسات و الدفاعات، تنفع في وجه الغارات البيزنطية. فعمد معاوية إلى تبني سياسة هجومية، و راح يبنى أسطولا بالتعاون مع والي مصر، ثم أخذ يهاجم قواعد الأسطول البيزنطي في شرقى البحر الأبيض المتوسط (قبرص)، و في جزر بحر إيجه (كريت)، وصولا إلى معركة ذات الصواري البحرية سنة ٦٥٥ م، التي دمر فيها أسطول معاوية البحرية البيزنطية. و يلفت النظر أنه بينما كان معاوية منخرطا في الصراع المصري مع البيزنطيين، من موقعه في ولاية الشام، كانت الفتنة تطل برأسها في الولايات الأخرى جميعها.

و في عام ذات الصواري (٦٥٥ م)، و معاوية يبنى جيوش الشام، بقيادة نخبة لامعة من الأمراء، في البر و البحر، خرجت جماعات من الأمصار، فيها عدد من أبناء الصحابة الأولين، إلى المدينة لخلع الخليفة عثمان بن عفان، فرفض الخليفة و قتل. و كان معاوية، استنادا إلى قاعدته الصلبة في الشام، و إلى تطلعاته الذاتية لخلافة عثمان، قد دعا الخليفة الشيخ إلى مغادرة الحجاز و القدوم إلى دمشق. و بعد مقتل عثمان، انقسم الناس بين مؤيد للخليفة الجديد، على بن أبي طالب، و معارض له، و ذلك في الولايات جميعها، حتى في الحجاز، ما عدا بلاد الشام. فقد وقفت قبائل الشام إلى جانب معاوية، و نفرت معه لمقاتلة المتهمين بدم عثمان. و بذلك عزز معاوية موقع ولايته كمرکز للدولة الإسلامية بدلا من المدينة المنورة، التي اضطر على أيضا إلى مغادرتها بسبب الفتنة، و بالتالي إلى الاقتتال بين المسلمين أنفسهم.

و بصورة ما، تحوّل النزاع بين على و معاوية إلى صراع بين الشام و العراق، إذ في مساره اتخذ على من العراق مرتكزا له، بينما تخندق معاوية في الشام. و إذ كانت قاعدة معاوية آمنة إلى حد كبير، بالاستناد إلى القبائل اليمانية، و على رأسها قبيلة كلب، فلم يكن الأمر كذلك بالنسبة إلى على في العراق. و لضرورات المواجهة الداخلية بشأن الخلافة، اضطر معاوية إلى موادة الروم (البيزنطيين)، الذين قبلوا عرضه عليهم المهادنة، و لم يحسنوا انتهاز الفرصة لاستعادة ما خسروه من الأراضي، بسبب صراعات البلاط في القسطنطينية، و لوهن الذي أصابهم بعد الهزائم التي ألحقتها بهم جيوش معاوية الشامية. و مع ذلك، ثارت أرمينيا على الولاة المسلمين، و حققت استقلالها ثم وقعت في أيدي بيزنطة، إلى أن فرغ معاوية من الصراع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧٠

الداخلي، و ضمن الخلافة لنفسه، و عاود الصراع مع الروم، و استعاد أرمينيا.

و بعد أن استتب أمر الخلافة لمعاوية، استقرت أوضاع بلاد الشام و ازدهرت، بما فيها فلسطين التي لا يرد ذكر اضطراب فيها. و حتى بعد موت معاوية، و انتقال الخلافة إلى ابنه يزيد، ظلت الشام على ولائها لبني أمية. و مات يزيد، و لحق به بعد فترة قصيرة ابنه معاوية. و برزت الفتنة الثانية، و اختلت الأمور، و انحازت بلاد الشام إلى عبد الله بن الزبير، ما عدا جندي فلسطين و الأردن. ثم انحاز جند

فلسطين إلى ابن الزبير أيضا بقيادة ناتل بن قيس (الجدامي - نسبة إلى قبيلة جذام) الذي وثب على روح بن زنباع (الجدامي أيضا) الذي كان عامل الأمويين في الجند، وطرده، بعد أن غادر حسان بن مالك (الكلبي) الجندين - فلسطين والأردن - متوجها إلى الجابية، حيث احتشد أنصار بني أمية. و كان حسان رأس قبيلة كلب الكبيرة و تربطه بالأمويين علاقات نسب و ولاء سياسي. و بعد مؤتمر الجابية، و ما تلاه، أي معركة مرج راهط (٦٨٤ م)، و هزيمة الضحاك بن قيس، نصير عبد الله بن الزبير، استعاد الأمويون زمام الأمور، بقيادة مروان بن الحكم، كبير بني أمية في حينه، لكنه ليس من سلالة أبي سفيان.

و بنشاط كبير، سيطر مروان بن الحكم على الأوضاع في الشام و مصر، مضيقا الخناق على ابن الزبير في الحجاز. ثم ولى ابنه عبد العزيز مصر، و عبد الملك جندي فلسطين و الأردن، و عين روح بن زنباع نائبا لعبد الملك. و هرب ناتل بن قيس إلى الحجاز، و حشد هناك جيشا عاد به إلى فلسطين، فلقبه عبد الملك بن مروان، و هزمه و قتله في أجنادين، الأمر الذي ردع مصعب بن الزبير عن مواصلة مسيرته إلى فلسطين على رأس جيش آخر، و تحوّل إلى العراق، حيث هزمه عبد الملك و قتله أيضا.

و تفرغ عبد الملك للحجاز، فأرسل إليها الحجاج بن يوسف (الثقفى)، فهزم ابن الزبير و قتله، و استتب الأمر لعبد الملك كخليفة في الدولة الإسلامية الموحّدة بعد الفتنة الثانية. و في بداية خلافة عبد الملك، أغار الروم على مدن عسقلان و قيساريا و عكا، فنهبوا و خربوها، ثم عاد هذا الخليفة القوى و بناها و حصنها، و شحنها بالرجال، و أنزل فيها المرابطة.

و إذا كان معاوية مؤسس ملك الأمويين، فعبد الملك بن مروان هو الذي وطّد أركانه. و هو يكنى «أبا الملوك»، لأنه ورث الملك لأربعة من أبنائه من بعده، و هم:

الوليد و سليمان و يزيد و هشام. و قد عرف عبد الملك بشدة شكيمته و شخصيته الجبارة، فاستطاع سحق الفتن في أيامه و تنظيم أمور الدولة و تعريب الديوان و صكّ الدنانير العربية. و من أجل التفرغ للشؤون الداخلية، هادن الروم، و ذهب إلى حد دفع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧١

أتاؤه كبيرة للإمبراطور جوستينيان الثاني. و استمر ملكه أكثر من عشرين عاما (٦٨٥ - ٧٠٥ م)، قضاه في قمع الفتن و إخضاع الأقاليم المتمردة على حكمه. و بعد أن استعاد أرمينيا، باشر في فتوح جديدة، في الشرق و الغرب. و لدى موته (٧٠٥ م)، ورث ابنه الوليد بن عبد الملك ملكا و طيد الدعائم، أتاح له التوجه إلى الإصلاح و العمارة، بصورة لم يسبق لها مثيل في دولة الإسلام.

و بعد خلافة هشام بن عبد الملك (٧٢٤ - ٧٤٣ م)، آخر خلفاء بني أمية الأكفاء، راحت أوضاع الدولة الأموية تتدهور بوتيرة متسارعة. و بينما اندلع الصراع بين المتنافسين من أبناء الخلفاء على الحكم، تفاقمت دعوة العباسيين ضدهم و اشتعلت الفتن في جميع أنحاء البلاد. و كان مركز «الدعوة الهاشمية» (نسبة إلى بني هاشم) في جنوب فلسطين (الحميمية - جنوب البحر الميت). و في خضم الصراع المتعدد الأطراف - بين الأمويين أنفسهم، كما بينهم و بين أعدائهم - ضربت وحدة قبائل بلاد الشام، التي رعاها الخلفاء الأولون من بني أمية، فكانت ركيزة حكمهم.

و ثارت العصية القبلية، و لحق البلاد خراب كثير، كما قتل الكثيرون من وجوه القبائل النافذة، الأمر الذي مهّد السبيل أمام سقوط الأمويين (٧٥٠ م)، و بالتالي صعود العباسيين، و نقل مركز الخلافة إلى العراق، و بناء عليه، تهميش بلاد الشام، و من ضمنها فلسطين.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي ؛ ص ١٧١

السكان و العمران

إن معلوماتنا عن الوضع السكاني في فلسطين بعد الفتح العربي ضئيلة، و مصادرها في الأغلب عراقية متأخرة، و هي متحاملة على الأمويين بصورة عامة، إذ كتبت تحت حكم خصومهم - العباسيين. و المعروف أن الفاتحين الجدد لم يقيموا في بلاد الشام أمصارا (مدنا عسكريّة)، كما فعلوا في العراق و غيره (البصرة و الكوفة و عسكر مكرم و القيروان مثلا). و إذ تجمعت الجيوش بداية في

الجابية، و من ثمّ في الرملة (اللد)، فإنهما لم تصلا إلى ما وصلت إليه الأمصار الأخرى المعروفة من أيام الخلفاء الراشدين. و المقاتلون الذين نزلوا بلاد الشام استقروا بالمدن القائمة، و هي كثيرة من العصر البيزنطي، دمشق و حمص و حلب و طبرية و بيسان و القدس و غيرها على الساحل. و تفيد المصادر أن الكثيرين من سكان المدن رحلوا عنها مع الجيش البيزنطي، بينما الريف ظل عامرا بسكانه المحليين (السوريين)، و كذلك بالقبائل العربية الكثيرة التي استقرت بالمنطقة قبل الإسلام. و قد انتقلت أملاك النازحين و بيوتهم إلى الفاتحين، الذين أدخلوا في معاهدات الصلح التي عقدها مع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧٢

سكان المدن بنودا تنصّ على إخلاء بعض المواقع و المنازل لإقامة القادة و جنودهم، أو لإقامة المساجد. و قد طبّق الفاتحون نصوص تلك المعاهدات، فنزل القادة في المدن و معهم الجنود الذين قاتلوا تحت إمرتهم، و عائلاتهم و أتباعهم. و في فلسطين، نزلوا في بيسان و طبرية و القدس و الرملة (اللد) و المدن الساحلية. و يذكر أن عمر بن الخطاب أسكن الجنود في القدس، بعد أن عقد الصلح مع أهلها. و كان الخليفة قد قدم إلى الجابية ليقسم الأرض بين الفاتحين، فأولى أمور فلسطين إلى قائدين، لكل منهما الإمرة على نصفها. فجعل علقمة بن حكيم في الرملة (اللد)، و علقمة بن مجرّر في القدس، و مع كل منهما جنوده. و منذ البداية، أقطع عمر، و من بعده عثمان، المقاتلين أراضي في فلسطين. و تفيد المصادر أن الأراضي التي جلا عنها أصحابها أقطعت للمسلمين على اعتبار أنها ملك دولة الإسلام، لأنها فتحت عنوة. و بينما دفع أصحاب الأراضي من غير المسلمين الذين بقوا عليها الخراج، فإن الملاك المسلمين الجدد دفعوا العشر فقط.

و من القبائل العربية التي يرد ذكرها في فلسطين بعد الفتح، و معظمها من كهلان و قضاة، ما يلي:

(١) غسان: و هي من أهم القبائل التي نزلت فلسطين قبل الفتح، ثم انتشرت و توسعت فيها بعده. و كانت غسان قد ظهرت كقوة فاعلة في المنطقة خلال العصر البيزنطي، و انتشرت في ذروة قوتها من حدود الحجاز حتى الفرات، و من فلسطين حتى البادية في الشرق. و كانت منازلها في معان و البلقاء و اليرموك و الجولان. و قد وقفت مع معاوية في معركة صفين، و على رأسها زيد بن الحرث.

(٢) جذام: و كانت منازلها تمتد من شمال الحجاز إلى أيلة فالبلقاء و جنوب فلسطين و سيناء. و منهم بنو الضبيب الذين اعتدوا على دحية بن خليفة الكلبي، مبعوث الرسول (ص) إلى قيصر الروم. و بعد ظهور الإسلام، قبل فروة بن عمرو الجذامي دعوة الرسول (ص) إلى الإسلام، و كان عاملا للروم على قبيلته، فقتلوه و صلبوه. و في معركة مؤتة قاتلت جذام مع الروم، و كذلك فعل بعضها في معركة اليرموك. و بعد الفتح، انتشرت بطون جذام ما بين طبرية و اللجون، و ما بين اليامون و عكا، و كذلك ما بين القدس و الرملة، و ما بين بيت جبرين و عسان (بالقرب من غزة).

(٣) لخم: و كانت قد تنصّرت في عهد البيزنطيين ثم اعتنقت الإسلام بعد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧٣

ظهوره. و انتشرت بطونها في مواقع متعددة من فلسطين و جوارها- من تبوك و شرق البحر الميت إلى الشراة و البلقاء و إلى جنوب القدس و الخليل و المغار إلى رفح.

و يذكر أن الرسول (ص) أقطعهم الخليل و ما حولها من قرى و بساتين. و قد وقف بعضهم مع الروم في مؤتة و اليرموك، ثم انحازوا إلى المسلمين، و انتشروا بعد الفتح بين نابلس و الرملة.

(٤) عاملة: و كانت في جنوب شرق البحر الميت عند ظهور الإسلام، و أسوة بغيرها و قفت بداية مع الروم، ثم انحازت إلى المسلمين. و انتقلت بعد الفتح إلى جبال الجليل الأعلى الشمالية، فعرفت باسمها جبال عاملة (عامل). و كانت من أنصار بني أمية، و رئيسها ثعلبة بن سلامة العاملي، ولى جند الأردن أيام مروان بن محمد، آخر خلفاء الأمويين، و قتله العباسيون معه.

(٥) كندة: و كانت منازلها (أيام ملكها) في دومة الجندل (الجوف) و تبوك، ثم انتشرت في البلقاء و شرق الأردن. و من كندة الشاعر

امرؤ القيس، و أكيدر بن عبد الملك، صاحب دومة الجندل الذي صالح الرسول (ص) في غزوة تبوك، و الحصين بن نمير السكوني، الذي حاصر مكة أيام الصراع بين يزيد بن معاوية و عبد الله بن الزبير، و رجاء بن حيوة فقيه الشام، و وكيل عبد الملك في بناء قبة الصخرة في القدس، و كان له دور في تأمين البيعة للخليفة الوري عمر بن عبد العزيز (٧١٧-٧٢٠ م)، و ذلك بعد موت سليمان بن عبد الملك و تصاعد التملل بين الناس على حكم بني أمية.

(٦) كلب: و كانت حليفة للغساسنة، و انتشرت من تبوك إلى دومة الجندل و بادية السماوة و أطراف الشام. و برز منها في الإسلام زيد بن حارثة، مولى الرسول (ص)، و ابنه أسامة بن زيد، و كذلك دحية بن خليفة، مبعوث الرسول (ص) إلى قيصر الروم.

و قد علا شأن كلب أيام الأمويين، فكانت لها الغلبة في جنوب الشام و جند الأردن.

فتزوج معاوية ميسون بنت بحدل الكلبيّة، و هي أم ابنه يزيد، و كانت شاعرة. و من أبرز قادتها حسان بن مالك بن بحدل الذي ولى جند فلسطين أيام معاوية و يزيد، و إليه يعود الفضل في البيعة لمروان بن الحكم و لأولاده من بعده. و ينسب إلى كلب بنو عامر الذين نزلوا المرج عرف باسمهم، مرج بن عامر.

و من القبائل الأخرى التي دخلت فلسطين و استقرت بها جزئياً أو كلياً: بهراء و بلى و القين و جرم و عذرة و الأزدي و خثعم و همدان و مذحج و الأشعريون و السكاسك و كنانة و ثقيف و هذيل و غيرها.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧٤

و تذكر المصادر عددا كبيرا من الصحابة- مهاجرين و أنصار- ممن وفد إلى فلسطين بصورة فردية، و استقر بها مع مواليه. فنزل بعض بني هاشم في أذرح؛ و بنى عبد الله بن عباس في الحميمة، كما أقام عدد من بني أمية في أيلة و معان و البلقاء و وادي الأردن و الساحل و بئر السبع. و كذلك نزلت جماعة من بني مخزوم في منطقة غزة. و إلى جانب كل قبيلة عربية كان هناك الموالى المنتسبون إليها، بسبب إسلامهم، و هم من غير العرب، أي من السكان الأصليين الذين استقروا بالبلاد قبل الفتح، و معظمهم من الأراميين و السريان، الذين أسلموا، و دخلوا في حلف مع القبائل العربية لتثبيت موقع لهم في التركيب الاجتماعي- السياسي الجديد، فأصبحوا ينتسبون إلى تلك القبائل بالولاء. و كان منهم التجار و الكتّاب و الفلاحون و الحرفيون و العمال .. إلخ. و قد برز بعضهم و تولى مناصب مهمة في الدولة و الجيش. و منهم من تفرغ للعلم، و بلغ مرتبة رفيعة فيه، و حتى في العلوم الإسلامية و العربية، فضلا عن العلوم الأخرى.

أمّا من لم يعتنق الإسلام فقد ظل في عداد أهل الذمة، و كان عليه أن يدفع الجزية لقاء الحماية التي تؤمنها له دولة الإسلام. و يصعب تقدير عدد هؤلاء، إلّا إن الإشارات إليهم متوفرة. و إضافة إلى حرية العبادة التي ضمنتها لهم الخلافة، فقد تمتعوا بحق العمل- الزراعي و الصناعي و التجاري- و حتى في دواوين الدولة، و خصوصا في المرحلة الأولى، قبل أن يعرّب عبد الملك بن مروان الديوان (الخارج بصورة خاصة). و هذا يعني أنه إلى ذلك الحين، ظلت سجلات الدولة (و خصوصا الشؤون الضريبية) باللغة السريانية، و ظل موظفو مثل هذه الإدارات من أهل البلد الأصليين. و قد استعمل بنو أمية عمالا- من النصارى، وصلوا إلى أعلى المراتب، و منهم سرجون بن منصور، رئيس الديوان أيام معاوية و ابنه يوحنا بن سرجون (يوحنا الدمشقي) و كانا في خدمة معاوية و ابنه يزيد. و كانت قبائل العرب النصرانية تتمتع بموقع متميز عن أهل الذمة، و منها من تشبث بديانته لفترة طويلة، كقبيلة تغلب مثلا، مع أن رجالها شاركوا في الفتوحات.

و نعمت فلسطين في عهد الأمويين، و خصوصا في أيام عبد الملك، بالرخاء و الازدهار، كما أقيمت فيها العمارات الجميلة و الفخمة. ففي أيام صراعه مع ابن الزبير، بنى عبد الملك قبة الصخرة المشرفة في القدس سنة ٦٩١ م. و يقال إنه أراد بها صرف الحج عن مكة و المدينة إليها. ثم تبعه ابنه الوليد، فأقام المسجد الأقصى، بجوار قبة الصخرة. كما أقام المسجد الأموي مكان كنيسة القديس يوحنا في دمشق، و أعاد بناء الكعبة و المسجد الحرام، و كذلك مسجد النبي (ص) في المدينة المنورة.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧٥

ففى أيام الوليد بن عبد الملك، أقوى خلفاء بنى أمية، أقيمت أجمل العمارات و أفخمها، و فى النواحي جميعها من الديار الإسلامية. و هذه الديار بلغت فى أيامه ذروة اتساعها، إذ وصلت بفعل نشاط الحجاج بن يوسف الثقفى إلى حدود الصين فى الشرق، و إلى الأندلس فى الغرب، بفعل نشاط موسى بن نصير (الذى يعود نسبه إلى آل نصير، و هم من سبى الخليل، أعتقهم الأمويون، فصاروا من مواليهم).

و فى أيام الوليد، ولى فلسطين أخوه و ولى عهده، سليمان بن عبد الملك.

فاختط فيها مدينة الرملة، بالقرب من اللد- عاصمة الجند، و نقل عاصمته إليها، و بنى فيها قصرًا و مسجدًا و حفر آبارًا و بنى قنوات تجر إليها المياه، فانتقل إليها الناس من بعده، فعمرت الرملة على حساب اللد. و بقى سليمان فيها، حتى عندما أصبح خليفه، إذ لا هو أحب الشام، و لا أهلها أحبه. و فى نواحي فلسطين المتعددة، أقام الأمويون، أسوة بالغساسنة، القصور و المشاتى فى أطراف البوادي و غور الأردن، للاستراحة و الاستجمام و الصيد و اللهو. فبالقرب من بحريه طبريه، أقام معاوية المشتى الجميل، و نزله ابنه يزيد. و أقام الوليد قصر عمره الفاخر بالقرب من البحر الميت، كما بنى هشام قصرًا له فى أريحا، و غير ذلك كثير فى سورية و الأردن و الجزيرة. و تميّزت هذه القصور بفنها المعماري الجميل، الذى مزج بين التراث البيزنطى و الشرقى العربى.

ثالثا: العصر العباسى

بسقوط الدولة الأموية، و قيام الدولة العباسية على أنقاضها، فقدت بلاد الشام، و معها فلسطين، مجدها. لقد انتقل مركز الخلافة إلى الشرق- العراق- و تحوّل المركز السابق إلى ولاية مغمورة، هم السلطة الجديدة اقتلاع كل مظاهر سؤدها الماضى، و قمع كل محاولة لاستعادة شىء منه. و لأن بلاد الشام كانت عضد الأمويين، و حتى فى ساعة محنتهم، فقد قسا عليها العباسيون، و عملوا على تحطيمها، و ضرب القاعدة المادية و البشرية التى استند إليها الأمويون. فحتى آخر أيامهم، و لأسباب ذاتية و موضوعية، ظل الأمويون متمسكين بمشروعهم فى ميراث الدولة البيزنطية، و جعلوا بلاد الشام قاعدة انطلاقهم لتجسيد هدفهم المركزى، بينما رأوا فى بقية الولايات، بما فيها القطبين التقليديين فى الشرق- مصر و العراق- موارد مداخل تسخر فى خدمة الهدف الذى تقوده بلاد الشام. و بسقوط بنى أمية سقط مشروعهم، و بالتالى فقد تدهورت أوضاع قاعدة ذلك المشروع- بلاد الشام.

و بقيام دولة العباسيين تغيّر المشروع، شكلا و مضمونا، فتبدلت القاعدة و تغيّرت

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧٦

الأدوات، و فى الحاليتين على حساب بلاد الشام، أرضا و شعبا. و قد استفقت هذه البلاد على الانقلاب بعد فوات الأوان، و باءت المحاولات اليائسة لاستعادة الموقع المرموق، و لو جزئيا، بالفشل، و لم تجدها الطفرات العفوية المتكررة فى هذا السبيل فتبلا. و فى الشرق، كما فى الغرب، قدمت طروحات متعددة لأسباب هذا الانقلاب و مغزاه. فكان من رأى فيه انتصارا للفرس على العرب، أو حولا- للإسلام محل العروبة كأساس للعلاقات بين الناس، كما بينهم و بين الدولة، أو ثارا للعراق من سورية على ما لحقه منها أيام الأمويين ... إلخ. و مهما يكن الأمر، فالواضح أن قيام الدولة العباسية لم يكن مجرد تبدل فى السلالة الحاكمة فحسب، و لا انتقالا لعاصمة الخلافة، بل تجاوز ذلك بكثير.

فوصول بنى العباس إلى الخلافة لم يكن نتيجة انقلاب فى القمة، أو صراع محصور فى الطبقة الحاكمة، بل جاء تنويجا لعمل طويل من الدعوة فى جميع أرجاء أرض الخلافة، و خصوصا فى الأطراف الشرقية، مع أن الرأس المدبر كان فى فلسطين- الحميمة. و قد استغل الدعاة الثغرات فى الحكم الأموى و الأزمت التى انتابته، داخليا و خارجيا. و عندما رفع أبو مسلم الخراسانى- داعية العباسيين فى خراسان، فى الطرف الشرقى من أرض الخلافة- العلم العباسى الأسود، اندلعت معارك دموية، و اكبت مسيرة الثورة من خراسان

إلى مصر، و كانت فلسطين إحدى محطاتها الدرامية. ولدى اقتراب ساعة الحسم، اتخذت المعارك طابع الإبادة. و غالى العباسيون فى مطاردة فلول بنى أمية و أعوانهم و تصفيتهم. وصولاً إلى أعالى مصر لقتل آخر خلفاء بنى أمية، الأمير المقاتل، مروان بن محمد، الملقب «الحمار» لصره على الشدائد، سنة ٧٥٠ م.

و من مركز الدعوة الهاشمية فى الحميمة من أرض فلسطين، التى كان عبد الملك بن مروان أقطعها إلى على بن عبد الله بن عباس، و بينما حبل الأمن فى بلاد الشام يضطرب كنتيجة مباشرة للصراع بين أدياء الخلافة من بنى أمية، و حالة من التمرد تجتاح الكثير من الولايات، بفضل الخوارج أصلاً، نشط محمد بن على العباسى فى الدعوة ضد الأمويين. و بعد وفاته تابع ابنه إبراهيم عمله، لكن الخليفة مروان بن محمد قبض عليه و أعدمه، بعد أن وقع فى يده كتاب من إبراهيم إلى داعيته أبى مسلم الخراسانى، يحثه فيه على الثورة. و كان إبراهيم قد أوصى بخلافته إلى أخيه أبى العباس (السفاح). و عندما وصلت جحافل خراسان، بقيادة أبى مسلم، إلى الكوفة سنة ٧٤٩ م، بويع أبو العباس خليفة فيها. و بدأت مرحلة الحسم العسكرى، إذ أصبح هناك خليفتان - أحدهما فى الكوفة، و الآخر فى دمشق. و كانت معركة الزاب

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١٧٧

(٧٥٠ م)، و هزم مروان بن محمد، و أتجه إلى الأردن، ففلسطين، فمصر، حيث قتل فى صعيدها.

فبعد معركة الزاب، انسحب مروان، المعروف بجده على تحمل مكاره القتال إلى حران، و منها إلى دمشق فالأردن، حيث واثبه هاشم بن عمر العنسى، و معه بنو مذحج، بينما انضم إليه ثعلبة بن سلامة العاملى. ثم قدم فلسطين، فثار عليه ضبعان بن روح بن زنباع الجذامى، و انتصر له يزيد بن روح بن زنباع الجذامى، و نزل مروان بجيشه فى أبى فطرس (أنتيبترس - رأس العين)، و منها هرب إلى مصر حيث قتل. و سار عبد الله بن على العباسى فى إثره، فاستسلم له جند الأردن، ثم تبعه جند فلسطين، من دون قتال يذكر. و مع ذلك، أعمل عبد الله السيف فى رقاب فلول بنى أمية و أنصارهم. و يروى أنه ذبح ثمانين (و فى رواية اثنين و سبعين) من وجوه بنى أمية فى رأس العين، بعد أن دعاهم إلى مقابلته، و طمأنهم على أرواحهم و أملاكهم، لكنه غدر بهم، و فرش بساطا على جثثهم، و جلس عليه مع صحبه يتناول طعامه و شرابه.

و يتضح من المصادر المتوفرة، و هى كلها بالطبع عربية عراقية المنشأ، و فيها تباين فى الروايات، أن عرب الشام لم يقفوا كلهم بحزم إلى جانب الأمويين فى ساعة محتتهم، و لعل جملة من الأسباب تكمن وراء ذلك. فالمشروع الأموى للقضاء على بيزنطة لم يتحقق، و إنما راوح مكانه بعد النجاحات الأولى. و الهزيمة التى ألحقها الروم بجيش مسلمة بن عبد الملك، فى أيام أخيه سليمان (٧١٥-٧١٧ م)، على أسوار القسطنطينية كانت عالية الكلفة بالمال و الرجال. و كان من نتيجتها ازدياد حدة التملل بين الناس، و بالتالى مبيعة عمر بن عبد العزيز خليفة، لامتصاص النعمة.

و لكن أبناء عبد الملك عادوا إلى الحكم، و بعد موت هشام، استشرى الفساد فى جهاز الدولة، و دبت الفوضى فى البلاط الأموى، و انفض الناس من حولهم. و هناك أيضاً سبب موضوعى، و هو انتقال ثقل الدولة الإسلامية إلى الشرق، ذى التراث الفارسى، بعد زوال الإمبراطورية الساسانية، و اعتناق شعوبها الإسلام، فأصبحوا الأغلبية الساحقة من السكان. و الدولة العباسية، شكلا و مضمونا، هى تعبير عن هذه التحوّلات.

و التحوّلات التى و اكبت قيام الدولة العباسية، جعلت من بلاد الشام ولاية يجب تطويعها، بعد أن كانت قاعدة لسلطة تسعى لتطورها. و إضافة إلى سياسة البطش و العسف التى سلكها العباسيون فى بداية حكمهم لاقتلاع أثر الأمويين و إخضاع بلاد الشام، فقد عمدوا إلى استغلال التناقض بين القبائل فيها، و إذكاء النزعات بين اليمانية و القيسية. و فى البداية قربوا اليمانية، كونهم الأقوى، ثم ما لبثوا أن انقلبوا عليهم لإضعافهم، فاستمالوا القيسية. و الولاية التى فقدت امتيازاتها السابقة، عانت كثيرا من

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١٧٨

التضييق السياسي والاقتصادي، الأمر الذي أدى إلى التملل، و تحيّن الفرص للتمرد والثورة. وقد شهدت بلاد الشام، بما فيها فلسطين، عددا من الثورات منذ بداية العصر العباسي، كان طابعها العام محاولات القبائل العربية استعادة موقعها في الدولة، الذي فقدته بزوال الأمويين.

لقد استطاع عبد الله بن علي إخضاع بلاد الشام بيد من حديد، و بالتالي تثبيت حكم العباسيين فيها، و إكراه الناس على بيعه أبي العباس السفاح (٧٥٠-٧٥٤ م).

و لكن ما أن توفي الخليفة حتى قام في فلسطين أحد أحفاد روح بن زبياع الجذامي، يدعو بالخلافة إلى أمير أموي، هشام بن يزيد، فقمعها صالح بن علي، عامل أبي جعفر المنصور (٧٥٤-٧٧٥ م) على مصر. ثم نشبت ثورة أخرى أيام هارون الرشيد (٧٨٦-٨٠٨ م)، قادها في جنوب فلسطين أبو النداء (٨٠٥ م)، فقمعت أيضا. و في خلافة الأمين (٨٠٨-٨١٣ م)، نشبت ثورة السفيناني في دمشق، و امتدت إلى فلسطين. و في خلافة المأمون (٨١٣-٨٣٣ م) اندلعت ثورة نصر بن شيبث العقيلي (٨١٣ م)، و دامت ١٣ عاما، قبل أن تسحق (٨٢٥ م). و في أيام المعتصم (٨٣٣-٨٤١ م)، الذي أسقط عرب الشام من ديوان العطاء، قامت ثورة المبرقع اليماني الفلاحية، لأسباب سياسية واقتصادية.

و هذه الثورات وغيرها في فلسطين و بلاد الشام عامة، خلال القرن الأول من حكم العباسيين، تشير إلى حالة التملل التي سادت هذه الولاية بعد سقوط الأمويين. و قد ألصق الكثير من هذه الثورات باسم أحد أفراد البيت الأموي، حقيقة أو زيفا، لما كان يتمتع به هؤلاء من ولاء بين عرب الشام. لقد عاد عرب الشام، بعد أن استفاقوا على تدهور أوضاعهم نتيجة الحكم العباسي، محاولين استعادة موقعهم الذي فقدوه، و لكن من دون جدوى. فدخلت الولاية في مسار من تردى الأوضاع السياسية و الأمنية و الاقتصادية، و ساءت الحالة على تلك الصعيد جميعا. و تواكب ذلك مع تراجع هيبة الخلافة في بغداد، بعد بروز العنصر التركي العسكري، الذي استقدمه المعتصم، و استند إليه في حكمه. كما تزامن مع بروز نزعة الاستقلالية في الولايات البعيدة، في الشرق كما في الغرب. و بالنسبة إلى فلسطين، تكتسب التطورات في مصر أهمية قصوى، أيام الطولونيين و الإخشيديين و لاحقا في أيام الفاطميين.

فمنذ البداية، فقد العباسيون الأندلس، إذ فرّ إليها صقر قريش، الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية، الملقب الداخل، و أسس الخلافة الأموية المزدهرة هناك. ثم ما لبث الإدريسيون أن أسسوا دولتهم في المغرب (٧٨٨-٩٧٤ م)، و استقلوا عن الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٧٩

بغداد. و تبعهم الأغالبه (٨٠٠-٩٠٩ م) في تونس، إلى أن قامت الدولة الفاطمية هناك. و في الشرق قامت عدة إمارات و سلطنات، منها من فرض هيمنته على دار الخلافة نفسها. أما في مصر، فقامت دولة الطولونيين (٨٦٨-٩٠٥ م)، و مدت سلطانه على فلسطين و بلاد الشام. ثم تلا سقوطها قيام سلالة أخرى، هي الإخشيدية (٩٣٩-٩٦٩ م)، و سيطرت على فلسطين، إلى أن قضى عليها الفاطميون. و كان أحمد بن طولون تركي الأصل، و لاه الخليفة العباسي مصر، ثم ما لبث في أيام المعتمد (٨٧٠-٨٩٢ م) أن أعلن استقلاله برفضه إرسال خراج مصر إلى بغداد. و بعد أن استتب له الأمر هناك، عمل على توسيع سلطانه في بلاد الشام.

و انتهز فرصة اندلاع الفوضى في فلسطين، إذ نشب قتال بين قبيلتي لخم و جذام، و خرج واليها (ابن الشيخ) على إرادة الخليفة، فاحتل ولاية الشام إلى حدود الجزيرة.

و بعد موته (٨٨٤ م)، خلفه ابنه خمارويه، فثار عليه بعض أعوان أبيه، و اندلع القتال بتحريض من الخليفة العباسي عليه. لكن خمارويه، بعد هزيمة لحقت به في دمشق، استطاع أن يصمد في فلسطين (الرملة)، و أن يصد أعداءه، و يستعيد سلطته على ولاية الشام، فأقره الخليفة الموفق عليها سنة ٨٨٦ م.

و اشتهر خمارويه بالبذخ، فزوج ابنته قطر الندى للخليفة المعتضد. و بعد مقتله في دمشق سنة ٨٩٥ م دبّ الخلاف في أسرته، و عمت الفوضى بلاد الشام و مصر، و انتهزت القبائل الفرصة و تمردت على السلطة. كما استغل القرامطة حالة الفوضى، و نشطوا في نشر

دعوتهم في بلاد الشام، واستقر بعض دعواتهم بقصبة فلسطين - الرملة. و خلال أربعين عاما تقريبا، ظلت فلسطين ساحة قتال، تارة بين الولاة الأتراك، و أخرى بين القبائل العربية؛ و تارة بين السلطة و القرامطة، و أخرى بين السلطة و الخارجين عليها من ولايتها. و جزاء الفوضى لحق بالبلاد الخراب و اختلال الأمن، إلى أن استطاع الإخشيديون (٩٣٥-٩٦٩ م) السيطرة على الوضع، و استلام السلطة في مصر و بلاد الشام، بعهد من الخليفة.

و الإخشيديون من الأتراك الذين استقدمهم المعتصم. ثم دخلوا في خدمة الطولونيين أيام خمارويه. و برز منهم محمد بن طنجج المعروف بالإخشيد، و كان قد ولي طبرية، فهزم جمعا من لخم و جذام تعرض لقافلة حجاج شامية، فعلا شأنه. و ولاة الخليفة الراضى مصر و الشام سنة ٩٣٥ م، فاستطاع فرض سلطته عليهما بعد فترة من الفوضى عمتهما. ثم ما لبث أن اصطدم بمحمد بن رائق، أمير الأمراء السابق في بغداد الذي وصل إلى دمشق و أعلن سلطانه عليها. ثم تصالحا على أن تكون الشام لابن رائق، و مصر للإخشيد. و بعد مقتل ابن رائق في معركة مع الحمدانيين سنة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨٠

٩٤٢ م سار الإخشيد إلى دمشق و فتحها. و وقعت بينه و بين الحمدانيين معارك، انتهت إلى الصلح. و تزوج سيف الدولة الحمداني ابنه أخى الإخشيد، و اتفقا على أن تكون حلب و أنطاكية و حمص لسيف الدولة، و بقية بلاد الشام للإخشيد، الذي مات سنة ٩٤٦ م، و دفن في القدس، بوصية منه.

و ولي على الشام و مصر بعد الإخشيد ابنه أبو القاسم أنوجور (٩٤٦-٩٦٠ م).

و في أيامه وقعت معارك بينه و بين سيف الدولة الحمداني، دارت في فلسطين، أولا بالقرب من الرملة، ثم في اللجون، و هزم سيف الدولة، و دعا إلى الصلح، فتم على الشروط التي كانت قائمة أيام الإخشيد. و مات أنوجور، و حمل إلى القدس و دفن هناك. و تولى الحكم بعده كافور الإخشيدى (أستاده)، بداية كوصى على ابنه، و لاحقا كوال. و مات كافور سنة ٩٦٨ م، و دفن في القدس أيضا. و بعد موته بفترة قصيرة، دخل الفاطميون مصر، بقيادة جوهر الصقلي، أمير جيوش الخليفة الفاطمي المعز لدين الله و قضاوا على حكم الإخشيديين هناك (٩٦٩ م).

و من الواضح أن بلاد الشام عامة شهدت حالة من التراجع الكبير بعد قيام الدولة العباسية. غير أن عرب الشام لم يسلّموا بهذا المصير، و حاولوا الحفاظ على مكتسباتهم من أيام الأمويين، و لكن بعد أن فقدوا الشروط الموضوعية و الذاتية لذلك.

و بناء عليه، فقد بذلوا جهودا مضيئة من دون مردود يذكر، الأمر الذي عمق أزمة الولاية. و عندما كان العباسيون في ذروة قوتهم، قمعوا تحركات أهل الشام بعنف، فضعف هؤلاء، و لم يكن عرب الشام في وضع يسمح لهم بتشكيل البديل، و إنما انصرفوا إلى الصراعات الداخلية التي قامت بين ولاة الأجناد أو القبائل و غير ذلك.

و منذ أن بدأت نزعة الاستقلال تبرز في مصر، وقعت بلاد الشام، و خصوصا الجزء الجنوبي منها - فلسطين - بين مطرقة مصر و سندان العراق مرة أخرى، و ساءت أحوالها أكثر.

و مبكرا في حكمهم الطويل، تخلى العباسيون عن فكرة استكمال المشروع الأموي باحتلال القسطنطينية. و في الواقع، فإنه بعد حملة مسلمة الشهيرة، و حصار القسطنطينية في أيام الإمبراطور ليو الثالث، السورى الأصل، و فشل العرب في احتلالها و اضطرابهم إلى الانسحاب (٧١٨ م)، لم تجر محاولات جادة لإسقاط المدينة «التي يحرسها الله»، كما يقول البيزنطيون. و على العكس، فقد انتهز هؤلاء فرصة الانقلاب العباسي، و راحوا يعملون على توسيع حدودهم في الشرق، الأمر الذي اضطر العباسيين إلى الرد. ففي أيام المهدي (٧٧٥-٧٨٥ م)، قام ابنه هارون الرشيد سنة ٧٨٢ م بغزوة كبيرة، و أوغل في بلاد الروم، و حاصر القسطنطينية، و أجبر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨١

الإمبراطورة آيرين على مصالحته لقاء جزية كبيرة تدفعها سنويا. و بعد الرشيد قام المأمون بعدد من الغزوات الوقائية، كانت تحمل

طابع الردع. و بعد موت المعتصم، و تزايد تدخل الجيش التركي في شؤون الخلافة، انتهز البيزنطيون الفرصة و انتقلوا إلى الهجوم. و تخلى العباسيين عن المشروع الأموي في وراثته بيزنطة، أدّى إلى أن تصبح بلاد الشام في نظرهم ولاية حدودية هامشية. و عندما دبّ الضعف في مركز الخلافة، ازداد إهمال هذه الولاية، فسادت فيها الفوضى، الأمر الذي أغرى البيزنطيين باستعادتها. و يروى أن المتوكل (٨٤٧-٨٦١ م) عزم على الانتقال من سامراء إلى دمشق، هربا من هيمنة العسكر الترك على شؤون الحكم، لكنه عدل عن ذلك تحت ضغطهم. و في الربع الأخير من القرن التاسع، و بعد فترة من الصراع الداخلي، تولت السلطة في بيزنطة سلالة جديدة من الأباطرة- المقدونية- (٨٦٧-١٠٨١ م).

و بادر هؤلاء إلى فتح الصراع مجددا مع الخلافة العباسية. و بعد نجاحات أولية حققها الإمبراطور بازل الأول، عادت الحرب لتتخذ طابع المرواحنة و الغزوات المتبادلة، و ذلك لأن هذا الإمبراطور، الذي جعل الصراع مع الخلافة الإسلامية في أعلى سلم أولوياته، لم يفلح في استنفاد الفرص المواتية التي توفرت له.

و استمر الصراع الحدودي بين بيزنطة (دار الحرب) و دار الإسلام خلال القرن العاشر الميلادي. و برزت فيه منذ نحو منتصف هذا القرن إمارة الحمدانيين في شمال سورية. و هذه السلالة العربية التغلبية، أقامت عاصمتها سنة ٩٢٩ م في الموصل، ثم توسعت غربا، و ضمت جندا حلب و حمص إليها. و اشتهر من أمرائها سيف الدولة (٩٤٤-٩٦٧ م)، الذي قضى حياته في الصراع الحدودي مع بيزنطة. و إذ حقق نجاحا في البداية، و احتل مرعش مسقط رأس الأباطرة السوريين، الذين أداروا الصراع مع العباسيين في القرن الثامن الميلادي، إلّا إن الكفة مالت لاحقا لمصلحة البيزنطيين.

ففي سنة ٩٦١ م، احتلّ نيسفوروس فوكاس مدينة حلب من دون القلعة، ثم انسحب. و عندما أصبح إمبراطورا (٩٦٣-٩٦٩ م) احتل قبرص، ثم كيليكيا، ثم أنطاكيا، التي ظلت في أيديهم حتى سنة ١٠٨٤ م. و في سنة حكمه الأخيرة، احتلت حلب ثانية، و أجبر أميرها سعد الدولة (٩٦٧-٩٩١ م) على الرضوخ لشروط صلح مذل. و بعد فوكاس، تابع خليفته تسيمسكس (٩٦٩-٩٧٦ م) سياسته في توسيع المناطق التي احتلها في سورية. و أعد نفسه للقيام بحملة صليبية، هدفها انتزاع القدس من أيدي الفاطميين. و توغل في سورية مستغلا حالة الفوضى التي تسودها فدخل دمشق، و تقدم منها إلى بيسان (٩٧٥ م). و تقول المصادر اليونانية إن الناصرة و قيساريا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨٢

استسلمتا طوعا له، و حتى القدس فاوضته على الصلح. أما الإمبراطور بازل الثاني (٩٧٦-١٠٢٥ م) فقد عقد صلحا مع الحاكم بأمر الله الفاطمي. و في سنة ١٠٠٩ م، أمر الحاكم بهدم كنيسة القيامة و الصعود في القدس. و قد أعيد بناؤهما بعد موته، كما ألغيت المراسيم التي أصدرها ضد المسيحيين، كما يذكر بطريك القدس، نيسفوروس سنة ١٠٢٣ م.

و خلال القرن الحادي عشر الميلادي، عادت الإمبراطورية البيزنطية لتشهد مرحلة من الهبوط. و مرة أخرى، تضافت الصراعات الداخلية مع هجوم من الخارج (السلاجقة) لتضييق الخناق على الإمبراطورية. و في ساعة الشدة، توجه الإمبراطور البيزنطي إلى طلب المساعدة من أوروبا الغربية. و بدأت الحملات الصليبية في نهاية ذلك القرن. و الإمبراطورية التي صمدت عبر القرون أمام الهجمات من الشرق و الغرب، راحت بعد الحملات الصليبية، و بسببها، تفقد عناصر صمودها- ماديا و معنويا. و في المقابل، أصبحت الخلافة الإسلامية حالة اسمية فقط، و أرضها مقسمة بين عدد من الإمارات و السلطنات في الشرق كما في الغرب. و كانت بلاد الشام عشية تلك الحملات تشهد حالة من التدهور، و على جميع الصعد، شكّلت عاملا أساسيا في تسهيل احتلالها على يد الفرنجة.

رابعاً: العصر الفاطمي

منذ بداية القرن العاشر الميلادي (٩٠٩ م)، كان الفاطميون قد أسسوا حكمهم في القيروان (تونس). و كان سعيد بن الحسين، مؤسس

السلالة الفاطمية، قد طرد آخر الأغالبه من القيروان، و أعلن نفسه الإمام عبيد الله المهدي، و بالتالي البديل للخليفة العباسي في الشرق، و الأموى في الغرب. و خلال فترة قصيرة، بسط سلطانه على الساحل الإفريقي الشمالى، من حدود الإدريسيين في المغرب، و حتى حدود الإخشيديين في مصر. و فى سنة ٩١٤م، احتل الإسكندرية. و خلال أكثر من خمسين عاما، ظل مجال النشاط الفاطمى محصورا فى الجزء الغربى من البحر الأبيض المتوسط، بشاطئيه- الشمالى و الجنوبى. و قد استند الفاطميون، فى نشاطهم هذا، إلى أسطول بحرى قوى.

و فى أيام المعز لدين الله (أبو تميم معد)، الذى تولى الخلافة (٩٥٢-٩٧٥م)، غزا أسطول الفاطميين سواحل إسبانيا (٩٥٥م)، فى أيام الخليفة الأموى الناصر (عبد الرحمن الثالث)، الذى حكم فى الفترة (٩١٢-٩٦١م). فرد الناصر القوى بغزوة مضادة على أجزاء من شمال إفريقيا. و بعد صدامات غير حاسمة بين الفاطميين

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١٨٣

فى تونس، و الأمويين فى الأندلس، توجه الفاطميون شرقا. و بقيادة جوهر الصقلى (الرومى)، دخل جيش المعز الفسطاط، و بادر مباشرة إلى تخطيط مدينة جديدة فى جوارها هى قاهرة المعز (٩٦٩م) التى أصبحت عاصمة الفاطميين (٩٧٣م). و بانتقال المعز إلى مصر، أصبح الفاطميون جزءا من الصراع فى الشرق، و بالتالى أصبح الاستيلاء على بلاد الشام، و بداية على فلسطين، ركنا من استراتيجية عملهم لانتزاع الخلافة من أيدي العباسيين، و تحقيق هدفهم المعلن بحقهم المطلق بالخلافة، كونهم من نسل فاطمة، ابنة الرسول (ص).

و فى الواقع، فإن الفاطميين لم يتأخروا كثيرا فى غزو فلسطين بعد انتزاعهم مصر من أيدي الإخشيديين، كخطوة أولى فى الطريق إلى بغداد- مقر الخلافة العباسية المنافسة، و لو اسما. و لم يجد جعفر بن فلاح، قائد الحملة الفاطمية على بلاد الشام، أيام المعز لدين الله، صعوبة كبيرة فى إلحاق الهزيمة بعامل الإخشيديين على فلسطين، فى معركة قرب الرملة (٩٦٩م). و توجه بعد ذلك إلى طبرية- عاصمة جند الأردن- فدخلها صلحا. و من هناك، تابع مسيرته إلى دمشق، التى كان وجهاتها قد جاؤوا جعفر فى طبرية لعقد الصلح معه، فأساء معاملتهم، الأمر الذى دعاهم إلى المقاومة، و لكن من دون جدوى. و وقعت دمشق فى يده، و أقيمت الخطبة فيها للمعز فى العام نفسه. و تجدر الإشارة إلى أن العوامل التى سهلت على الفاطميين فتح بلاد الشام، هى نفسها التى حالت دون استقرار حكمهم فيها.

فحالة التفتت التى سادت بلاد الشام عشية الحملة الفاطمية، و الصراعات بين القوى المحلية- الحمدانيين و الإخشيديين و القرامطة و القبائل العربية المحلية الأخرى- فى غياب قوة مركزية واحدة، سهلت على الفاطميين احتلال البلاد عسكريا، و لكنها فى الوقت نفسه أثقلت عليهم ضبط الأوضاع فيها و إحكام السيطرة عليها. لقد كان القضاء على الإخشيديين سهلا. و الحمدانيون الذين حشروا بين الفاطميين و البيزنطيين، كانوا فى وضع صعب نتيجة النشاط العسكرى البيزنطى، مع أن ميولهم كانت فاطمية، إذ كانوا من الشيعة أيضا. أما العامل الأخطر، فكان تحالف القبائل العربية المحلية مع القرامطة، الذين عادوا إلى التمرد و مقاتلة الفاطميين، المرة تلو الأخرى، الأمر الذى فتح الباب على مصراعيه أمام الإمبراطور البيزنطى، تسيمسكس للتوغل عميقا فى بلاد الشام، وصولا إلى بيسان بعد دمشق (٩٧٥م).

ففى السنوات الأولى من حكم الفاطميين (٩٧١م)، استطاع القرامطة، بقيادة الحسن الأعصم، إلحاق الهزيمة بجيش الفاطميين، و قتل قائده، جعفر بن فلاح.

و كان ذلك بالقرب من دمشق، فسقطت فى أيديهم. و طارد الأعصم جيش الفاطميين،

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ١٨٤

و دخل الرملة، فعقد حلفا مع بنى الجراح (الطائيين)، و تابع مسيرته إلى يافا، و من هناك إلى مصر، حيث هزمه جوهر الصقلى بالقرب

من القاهرة. و تراجع الأعمش إلى فلسطين، و سار جوهر في إثره، و دارت بين الطرفين معارك كثر و فز، كانت فلسطين ساحتها الرئيسية، و انتقلت عاصمتها الرملة- من يد إلى أخرى. و ظل الأمر كذلك مدة ثلاث سنوات تقريبا، استطاع في نهايتها أبو محمود (ابن جعفر بن فلاح) إلحاق الهزيمة بالقرامطة و استعادة فلسطين و دمشق منهم، و لكن لفترة قصيرة فقط.

فبعد أن استعاد الفاطميون السيطرة على دمشق، عاث جنودهم (المغاربة) فسادا فيها. فثار الناس عليهم، و استدعوا قائدا تركيا متمردا، ألبتكين، ليخلصهم من حكم الفاطميين و يلي الأمر في المدينة، ففعل. و في هذه الأثناء وصل تسيمسكس إلى أطراف دمشق، فصالحه ألبتكين على أتاوة يدفعها، و عدل الإمبراطور عن دخول دمشق، و تقدم في اتجاه بيسان (٩٧٥ م). و لكن البيزنطيين انسحبوا في إثر اتفاق مع الفاطميين، الذين تقدموا إلى دمشق للقضاء على ألبتكين، و حاصروا المدينة، و ضيقوا عليها الخناق، فاستعانت بالقرامطة، و عاد الأعمش من الأحساء إلى الشام. و استطاع الحليفان دحر جيش الفاطميين، بقيادة جوهر الصقلي، و مطاردته إلى عسقلان، حيث حاصراه، و فرضا عليه صلحا، أقر بموجبه الحكم لألبتكين على بلاد الشام.

لكن الخليفة الفاطمي الجديد، العزيز بالله (٩٧٥-٩٩٦ م) رفض الاتفاق بين قائد جيشه، جوهر، و ألبتكين، و قرر أن يسير بنفسه إلى فلسطين للقضاء على تحالف القرامطة مع القبائل العربية و العسكر الترك. و مرة أخرى، التقى الطرفان قرب الرملة (٩٧٧ م)، و بعد قتال ضار حقق العزيز نصرا على التحالف، لكنه لم يكن حاسما.

و قدّر العزيز، الذي عرف بحكمته الصعوبة التي ينطوي عليها تطويع هذه القوى بالحرب، و خصوصا نتيجة التهديد البيزنطي. فاستمال بنى الجراح الذين انتشروا في جوار الرملة، و عفا عن ألبتكين، و جعل له دارا للإقامة في القاهرة. أما الأعمش، الذي انكفأ مرة أخرى في الأحساء، فقد تعهد العزيز بدفع جعالة سنوية له، لصفه عن إثارة القلاقل ضد الفاطميين، أسوة بما كان يفعله معه عمال الإخشيديين من قبل.

و بنو الجراح بطن من قبيلة «طبيء»، و هي بدورها فرع من كهلان القحطانية، التي خرجت من اليمن و انتشرت في بلاد الشام و العراق، قبل الإسلام و بعده. و قد حاربت طبيء مع المثنى بن حارثة الشيباني أيام الفتح العربي للعراق. و في العصر العباسي، أصاب من نزل فلسطين من بطونها ما أصاب العرب جميعا في بلاد الشام، و لم تكن راضية عن ذلك. و في أيام الطولونيين (٨٩٨ م)، قام صالح بن مدرك (الطائي) بعصيان على السلطة، و هاجم قوافل الحج و استولى على أموالها. و في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨٥

القرنين العاشر و الحادي عشر، برز فيهم بنو الجراح في محيط الرملة بفلسطين، الذين حاولوا- أسوة بغيرهم من قبائل الشام في مرحلة تراجع الخلافة العباسية- استغلال الفرصة، و الإفادة- ماديا و سياسيا- من حالة الفوضى السائدة، شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية الأخرى، فلم ينظروا بعين الرضا إلى الحكم الفاطمي الذي يهدد مصالحهم، و ظلوا يناوئونه.

و قد برز بنو الجراح في جنوب بلاد الشام غداة أفول نجم الحمدانيين في شمالها، بعد موت سيف الدولة (٩٦٧ م). و كان العباسيون قد أهملوا بلاد الشام و عربها، و اعتمدوا بداية على الفرس، ثم على الترك. أما الفاطميون، فقد رأوا فيها جسرا للوصول إلى بغداد في البداية، و عندما تخلوا عن فكرة دخولها عنوة، صارت بلاد الشام خط الدفاع عن مصر، الأمر الذي لم يرق لسكانها. و في غياب سلطة مركزية موحدة في بلاد الشام، تناحرت القبائل، متعللة بذرائع متعددة على اقتسام الأراضي و الموارد. و أدت القوى المجاورة- الخلافة العباسية في بغداد و الفاطمية في مصر و الإمبراطورية البيزنطية- دورا في إذكاء الصراع بين القوى الصغيرة المحلية. ثم ما لبث القرامطة أن دخلوا بقوة على خط التكتلات المحلية و الصراعات الإقليمية.

فكانت النتيجة تدهور حالة البلاد الاقتصادية و الاجتماعية.

و علاقات بنى الجراح بالفاطميين تقلبت بين التحالف معهم و التمرد عليهم.

و كان الحمدانيون قد سبقوهم إلى إقامة إمارة مستقلة شمالي سورية و العراق. أما بنو الجراح، فلأسباب ذاتية- التركيبة القبلية- و

أخرى موضوعية- الانتشار في فلسطين- لم يستطيعوا بلوغ شأن الحمدانيين، على الرغم من أن الفاطميين اعترفوا بزعامتهم المحلية. و يبدو أن بنى الجراح أدوا دورا محليا في أيام الطولونيين و الإخشيديين، كأفهم عليه ولاية مصر. و عندما ضعفت هاتان السلالتان، عزز بنو الجراح موقعهم و نفوذهم في فلسطين. أما الفاطميون، فقد سعوا لتحجيم هذا الدور بالقوة. و بناء عليه، انتهز بنو الجراح كل فرصة مواتية للتمرد، و استعادة دورهم، كلما حجب عنهم الفاطميون الولاية، و حرمهم من منافعها، و لكنهم دخلوا في خدمتهم و تحالفوا معهم عندما أغدق الفاطميون العطاء عليهم.

و في الفترة ما بين سنة ٩٧٠ م إلى سنة ١٠٤٢ م، أدى بنو الجراح دورا مركزيا في تاريخ بلاد الشام. و بداية انضمام مفرج بن دغفل بن الجراح إلى الحسن الأعصم القرمطي (٩٧٠ م) لقتال جيش الفاطميين و إلحاق الهزيمة به. و تولى مفرج بعد ذلك إمارة الرملة. و مرة أخرى يرد ذكر حسان بن الجراح في تحالف مع الأعصم سنة ٩٧٤ م، في زحفه على مصر للمرة الثانية. و لكن المعز أغرى حسان بالمال، فتخلي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨٦

عن الأعصم، فهزم. و تعاون بعدها بنو الجراح مع الفاطميين في قتال القرامطة و دحرمهم من بلاد الشام، و بذلك تعاضمت قوتهم، و امتد سلطانهم داخل البلاد، بينما تمركز الفاطميون، كقوة عسكرية، في المدن الكبرى، و خصوصا الساحلية، و أصبحت عسقلان ركيزة حكمهم، لقرية من مصر، و لأن ميناءها قاعدة أسطولهم، الحربي و التجاري، الكبير.

و في سنة ٩٨٨ م تمرد المفرج على حكم الفاطميين، بالتحالف مع سعد الدولة الحمداني. و عندما تولى الحاكم بأمر الله الخلافة الفاطمية (٩٩٦-١٠٢١ م)، و مات المفرج (١٠١٣ م)، انتهز الخليفة الفرصة للقضاء على سلطة بنى الجراح. فأوفد جيشا من مصر، و أمر آخر بالتحرك من الشام، و التقى الاثنان في الرملة، و أوقعا بحسان بن المفرج، لكنه هرب و نجا. و بعد موت الحاكم بأمر الله، عاد حسان و احتل الرملة سنة ١٠٢٤ م، و ذلك بالتحالف مع صالح بن مرداس، على أساس أن للمرداسيين أراضي الحمدانيين سابقا، و لبنى الجراح فلسطين- ما يلي الرملة إلى حدود مصر. لكن الفاطميين عادوا و هزموه في طبرية سنة ١٠٢٩ م، فقام بنو الجراح بمحاولة أخيرة سنة ١٠٤٢ م، و كان حكم الفاطميين قد اهتز، و طلائع السلاجقة دخلت بلاد الشام. فرحل بنو الجراح عن فلسطين، و نزلوا منطقة البحيرة من أرض مصر.

و في الأربعينات من القرن الحادي عشر، بدأ السلاجقة يتسللون بأعداد محدودة إلى شمالي العراق و سورية. و كان هؤلاء الأتراك الغز- الذين دعوا سلاجقة على اسم زعيمهم سلجوق- قد دخلوا بلاد الإسلام تحت قيادته من منطقة القيروان في تركستان (٩٥٦ م). و اعتنق هؤلاء الإسلام (السنن)، و راحوا يتوغلون في أراضي الإمارات و السلطنات الشرقية، إلى أن دخلوا بغداد سنة ١٠٥٥ م، بقيادة السلطان طغرل بيك و بطلب من الخليفة العباسي القائم (١٠٣١-١٠٧٥ م)، فهرب من وجههم القائد العسكري التركي في بغداد، البساسيري في آخر حكم البويهيين. لكن جماعات صغيرة من هؤلاء الأتراك كانت قد وصلت إلى سورية، و حتى إلى فلسطين، قبل ذلك، و دخلت طرفا في الصراعات بين القوى المحلية، كما حدث مع المرداسيين في حلب (١٠٦٠ م).

و في السبعينات من القرن الحادي عشر، كانت تسود بلاد الشام حالة من الفوضى و تدهور في الأوضاع الاقتصادية و السياسية. فالصراع بين الولاة الفاطميين، و بينهم و بين زعماء القبائل العربية، تفاقم بدخول الجماعات الغزية (الخوارزمية) و انخراطها في الصراع كمرتزقة. و قد استعان بإحدى هذه الجماعات (الناوكية) بدر الجمالي، والى الشام الفاطمي الذي يحمل لقب أمير الجيوش، لإخضاع القبائل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨٧

العربية. و لكنه سرعان ما اختلف معهم على الأتاوة، فانقلب إلى التحالف مع القبائل عليهم، فهزم الخوارزمية القبائل بقيادة أظسيز (أتسيز) عند طبرية (١٠٧١ م). و بعد صراع مع الجمالي، حاصروه في طبرية، و استولوا على الداخل، بما فيه دمشق و القدس، في حين

ظلت مدن الساحل مع الفاطميين. و انتقل الخوارزمية بعد ذلك إلى حصار عكا و فتحها (١٠٧٤ م). و توجهوا إلى مصر، لكنهم هزموا هناك. و في هذه الأثناء، ثارت فلسطين ضدهم، فقمعوا الثورة بعنف، و احتلوا القدس ثانية (١٠٧٥ م)، و خربوا فيها كثيرا. و لم تكن بلاد الشام عامه، و فلسطين خاصة، في أعلى سلم أولويات السلاجقة. في المقابل تشبث الفاطميون بالساحل، لأهميته الاقتصادية، و خصوصا من ناحية التجارة مع بيزنطة. و لما استفحل أمر أطيسيز في داخلها، أرسل السلطان ملكشاه (١٠٧٢-١٠٩٢ م) أخاه تتش لإخضاعه. و في سنة ١٠٧٨ م احتل تتش حلب و حمص، و بعدهما دمشق (١٠٧٩ م)، حيث استلم أطيسيز، فقتله تتش. و هذا الأخير لم يبد حماسه لقتال الفاطميين، و تلكا حتى سنة ١٠٨٢ م ليحتل القدس. و كانت عين تتش على السلطنة بعد أخيه ملكشاه. و لما مات هذا الأخير، قام تتش على ابن أخيه بريقاروق، فحاربه و قتل (١٠٩٤ م). و انتهز الفاطميون الفرصة، و وسعوا سلطانهم في فلسطين انطلاقا من قاعدتهم في عسقلان. و في سنة ١٠٩٦ م، احتلوا القدس، و بقيت في أيديهم ثلاث سنوات، إلى أن دخلها الفرنجة سنة ١٠٩٩ م.

خامسا: مملكة أورشليم اللاتينية

إشارة

شغلت الحملات الأوروبية المسيحية على الشرق الإسلامي، خلال القرنين، الثاني و الثالث عشر و التي حملت اسم الصليبية، المؤرخين في أزمنة متعددة، و ذلك لاستجلاء طبيعتها و أسبابها و القوى التي اندفعت إليها، و بالتالي آثارها و نتائجها، المباشرة و غير المباشرة، ماديا و روحيا. و بغض النظر عن الأطروحات المتعددة على هذه الصعد، فهناك شبه إجماع على أهميتها في التاريخ العالمي. و خلال قرون طويلة ظل المنظور العام لهذا الصراع، الذي راحت عناصره تتجمع في الربع الأخير من القرن الحادي عشر الميلادي، يركز على الجانب الديني - أي على اعتباره صراعا بين المسيحية و الإسلام. و في القرن التاسع عشر، بدأت الدراسات النقدية تظهر في أوروبا، في فرنسا أولا، و معها راحت تتكشف العوامل المتعددة التي تضافرت لتجعل مثل هذه الظاهرة (الحملات الصليبية) أمرا ممكنا. و كان كلما تقدمت هذه الدراسات و تعمقت، برزت الأسباب الدنيوية على

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨٨

حساب الدنيوية، من دون إلغائها تماما. فالدين، و طوال قرون في العصور الوسطى، و ذلك على الجانبين، كان يؤدي دورا رئيسيا في حياة الناس، كقاسم مشترك للشعوب المنضوية تحت لواء القوتين العظميين المتناحرتين - الخلافة الإسلامية و الإمبراطورية البيزنطية. و لتحريك الناس على الجانبين، قبل اندلاع الصراع و بعده، لجأ القائمون على إدارته إلى استثارة العواطف الدينية لحشد القوى و زجها في المعركة. و هذا يبرز من خلال الوثائق على الجانبين أيضا. و الأطروحات التبريرية، من هذا الجانب أو ذاك، لا تضيف كثيرا لتوضيح القضايا، بقدر ما تلقى عليها ظللا من الغموض.

و البحث الموضوعي يشير إلى أنه حتى في الحملة الأولى اقترنت الأهداف الدينية بالدنيوية، و إزاء الحزب الديني كان هناك آخر سياسي. و بالتأكيد فإنه بمرور الزمن و تعاقب الحملات، نما الطابع السياسي على حساب الديني لهذه الحروب.

إن الحكم على ظاهرة كالحملات الصليبية، شكلا و مضمونا، لا يستقيم من دون ربطها بالظواهر الأخرى التي و اكتبها زمانا و مكانا، لاستجلاء دوافعها و مسار تطورها و تبلور نتائجها. و في هذه الحالة، كثيرة هي الدراسات من منظور أحادي الجانب، و بعضها ينطلق محكوما بموقف أيديولوجي مسبق، يخرجها عن الجدية، و يضعها في مصاف الأطروحات التبريرية. و إذا كان التاريخ ليس الحقيقة، أو على الأقل ليس كلها، فإنه بالتأكيد لا يستوى بتجاهلها، و إنما على العكس، يكتسب صدقية أكثر كلما توخاها و بحث عنها. و في قضية خلافة كالحروب الصليبية، و إذ تصعب معالجتها بتجرد، فإن النزعة التبريرية، أو التعبوية المنطلقة من اعتبارات آنية، لا تصيب

الهدف. لقد نشبت هذه الحروب بحركة تاريخية جدلية و ذلك في ظروف الزمان و المكان، و على المؤرخ الكشف عن عناصر هذه الحركة، قدر المستطاع، و التقليل قدر الإمكان، من الإسقاطات الراهنة، أو المواعظ الأخلاقية و التفسيرات التبريرية. و يلفت النظر أنه في الكثير من الكتابات عن الحملات الصليبية يغيب دور بيزنطة فيها، على الأقل في تبلور الفكرة، و لاحقاً في تجسيدها. و لأن الأطراف الفاعلة في الصراع كانت أوروبية غربية، من جهة، و شرقية إسلامية، من جهة أخرى، فقد جرى إغفال دور القوة الواقعة في الوسط - بيزنطة. كما تغيب عن الصورة العامة في معالجة هذه الحملات المقدمات التي مهدت السبيل أمامها. فطوال قرون كان هذا الصراع، بصورة أو بأخرى، مستعراً من إسبانيا في الغرب، مروراً بالبحر الأبيض المتوسط و جزره المهمة، وصولاً إلى الشرق - بين بيزنطة و الخلافة الإسلامية. و بناء على هذه الخلفية، لم تكن الحملات الصليبية ظاهرة جديدة إلّا من حيث الإطار الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٨٩

العام. أمّا في الأساس، فهي، و بصورة عامة، استمرار لصراع دام عدة قرون، من دون أن يحسم لمصلحة أي من الطرفين. و الحقيقة التاريخية تفيد أنه منذ بروز العرب على مسرح التاريخ في الشرق الأدنى، كقوة سياسية ذات وعى ذاتي بعروبته، كان ذلك على علاقة بالإمبراطورية الرومانية و وراثتها البيزنطية. فالأنباط و التدمريون و الغساسنة، و حتى اللخميون بمنظور معين، خبروا علاقات صداقة و عداة مع هذه الإمبراطورية. و بظهور الإسلام، و ما تلا ذلك من حركة الفتوح، تقدم العرب خطوة كبيرة نحو وراثتها بيزنطة كدولة ذات منظور كوني. و قد أترجت هذه الفكرة في أفقها بين مدّ و جزر خلال العصور، و بالتالي تقلب ردة الفعل البيزنطية على هذا التحدي. و كان الطابع الهجومي هو في الأغلب على الجانب الإسلامي، بينما غلب على الجانب البيزنطي طابع الدفاع، بعد النصر الذي حققه المسلمون في عصر الفتوح، و لاحقاً في أيام الأمويين. و في فترات معينة من أيام العباسيين، انتهز أباطرة بيزنطة الفرص المواتية للانتقال إلى حالة الهجوم بهدف استرداد ما فقدوه من أراض في الشرق. إلّا إن الحدود استقرت بصورة عامة بين دار الإسلام و دار الحرب.

و تعدد الكتابات المعاصرة أسباباً كثيرة للحملات الصليبية - دينية و اقتصادية و سياسية، و اجتماعية .. إلخ. لكن أغلبية الكتابات تكتفي بذكر الأسباب، من دون تقديم بعضها على بعض، أي ترتيبها بحسب الأهمية و الأولوية، و بالتالي أثرها المباشر في اندلاع الصراع. و على العموم، فإن هؤلاء الكتابات يتوجهون إلى دراسة التطورات الاجتماعية و الاقتصادية و السياسية في أوروبا، من جهة، و أوضاع المسيحيين في الشرق عامة، و الحالة في القدس خاصة، من جهة أخرى. و لا بدّ من الإشارة إلى أن الأسباب التي يرد ذكرها كانت في أغلبتها قائمة منذ زمن طويل، من دون أن تؤدي إلى حروب صليبية. و حروب الحدود، و تعديلها في هذا الاتجاه أو ذاك، ظلت مستمرة لفترة طويلة من دون أن تدفع إلى المواجهة العامة.

و أوضاع المسيحيين في الشرق، و كذلك الحالة في القدس، لم يطرأ عليها تغيير جذري يستوجب مثل هذه الحرب الضروس. و كذلك الأمر بالنسبة إلى الصراع الاقتصادي و التطورات الاجتماعية في كل من أوروبا و الشرق. و يبقى الحدث المهم الذي طرأ عشية تلك الحروب هو التهديد السلجوقي للقسطنطينية.

لقد سحق السلاجقة الجيش البيزنطي في معركة مانجكركت (ملازجرت)، سنة ١٠٧١ م. و أقاموا سلطنتهم روم في قونيا (أيكونيوم - إزنك)، في مقابل القسطنطينية (١٠٧٧ م). و في السنة نفسها ١٠٧١ م، دخل أطرز القدس. أمّا إمبراطور بيزنطة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٠

ألكسيوس كومنينوس (١٠٨١ - ١١١٨ م) الذي شعر بالخطر على عاصمته، و اقتنع بعجزه عن درئه، فقد توجه إلى طلب المساعدة من البابا و الغرب الكاثوليكي، متذرعاً بالقدس، و إنقاذ الأمكنة المسيحية المقدسة فيها. و يلفت النظر أن ما تعرضت له القدس سابقاً، و حتى عندما أمر الحاكم بأمر الله بهدم كنيسة القيامة و الصعود، لم يحرك أباطرة بيزنطة لتحرير قبر السيد المسيح. و كذلك الأمر بالنسبة إلى الصعوبات التي كان يلقاها الحجاج المسيحيون، فقد ردّ عليها الأباطرة بأساليب أخرى تماماً:

مفاوضات و تهديد و ضغوط و هدايا و معاهدات .. إلخ. أما هذه المرة، فقد أوقع الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس - الضليع في مؤامرات البلاط البيزنطي - نفسه في الشرك الذي نصبه لغيره، عندما حاول أن يحل مشكلاته على حساب البابا و حكام أوروبا الغربية، فانقلب الأمر عليه.

كانت الكنيسة قد انقسمت رسميا سنة ١٠٥٤ م، بعد فترة طويلة من الانقسام الفعلي إلى كنيسة شرقية (أورثوذكسية)، و غربية (كاثوليكية)، و بينهما عدااء مستحکم.

و عندما توجه ألكسيوس كومنينوس إلى طلب المساعدة من البابا أربان الثاني، انتهز الأخير الفرصة، التي رأى فيها مناسبة لاستعادة وحدة الكنيسة تحت الكرسي الرسولي (الفاتيكان - روما). أما ألكسيوس، فلم يكن يفكر بأكثر من دعم بالمقاتلين للصمود في وجه السلاجقة. و لذلك فوجيء عندما بلغه نبأ الدعوة إلى حملة صليبية، و البدء بإعدادها. و الفكرة التي دعا إليها البابا انطوت على حركة جماعية من شعوب غرب أوروبا، تحت قيادة حكامهم و نخبة قادتهم العسكريين، و لم تتوقف عند حدود الدفاع عن القسطنطينية، بل تعدت ذلك إلى انتزاع القدس من أيدي المسلمين، تحت شعار «هذه إرادة الله»، و خلف راية «الصليب المقدس».

و كانت استجابة البابا لطلب النجدة من إمبراطور بيزنطة مزيجا من الواجب الديني و الطموح السلطوي. فإلى جانب الشعور الديني تجاه مسيحي الشرق و ضرورة مساندهم، و كذلك إزاء استعادة السيطرة على الأمكنة المقدسة في الشرق - مهد المسيحية - كانت هناك رغبة جامحة لدى البابوات في تكريس سلطتهم على الكنيسة الموحدة. و كان الكرسي الرسولي، أيام البابا غريغوريوس السابع، قد عزز موقعه إزاء حكام أوروبا خلال القرن الحادي عشر. و جاء بعده البابا أربان الثاني النشيط، فعمل على تكريس الدور القيادي الذي تؤديه الكنيسة في أوروبا. و في طلب المساعدة الذي تقدم به إمبراطور بيزنطة، لاحت فرصة مواتية لتحقيق هذا الهدف. و رأى البابا أن اضطلاع الكنيسة الكاثوليكية الغربية بالدور المركزي في الحملات الصليبية، سيمكنها من احتلال الموقع القيادي المرغوب، دينا و سياسيا، في الشرق كما في الغرب،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩١

فانطلق للعمل بما أوتي من نشاط.

و تحت غطاء الدعوة من قبل إمبراطور بيزنطة - رئيس الكنيسة الشرقية الرسمي - و بناء على المباركة، بل التحريض، من قبل البابا - رئيس الكنيسة الغربية، الرسمي و الفعلي - وجدت الفئات و القوى المتعددة في أوروبا التبرير الذاتي لانخراطها في الحملات الصليبية، و كل منها بمنظوره الخاص، فلم تكن هناك وحدة فكرية و تنظيمية بين تلك القوى، إنما في أحسن الأحوال إطار عام. و لا بد من الإشارة إلى أن عملية الانتقال من الفكرة المجردة للقيام بحملات صليبية إلى التطبيق الفعلي، كان يستلزم ظروفًا موضوعية و ذاتية في أوروبا. كما أن نجاح هذه العملية كان يستوجب الأوضاع ذاتها في الشرق، و إلا لما خرجت العملية إلى حيز التنفيذ. إن انتقال المواجهة بين الشرق الإسلامي و الغرب المسيحي من حالة الحرب الباردة إلى الحرب الساخنة، كان بالضرورة نتيجة احتدام التناقض بين الطرفين، الأمر الذي أدى إلى اندلاع الصراع بهذه الدرجة من الحدة، بعد أن ظل فترة طويلة لا يتعدى المناوشات على الأطراف. و بداية يجب التشديد على أهمية الدين في حياة الناس خلال القرون الوسطى.

و كما سعى الإمبراطور البيزنطي لجعل المسيحية دين الدولة و القاسم المشترك بين شعوبها، كذلك فعل العباسيون بالتشديد على أن الإسلام، و ليس العروبة، هو الأساس لوحدة شعوب الخلافة. و عشية الحروب الصليبية، كانت الأجواء العامة، سواء في الشرق أو في الغرب، مشحونة بالشعور الديني. فدخل السلاجقة إلى أرض الخلافة في القرن الحادي عشر، عزز موقع السنة إزاء الشيعة، خلافا لما كان عليه الحال في القرن العاشر. في المقابل، شهد القرن الحادي عشر في أوروبا حركة إحياء ديني واسعة النطاق، و خصوصا بين الطبقات الشعبية، شكّلت التربة الخصبة التي تنامت فيها الأفكار الصليبية. و عندما جاءت الدعوة إلى القيام بحملات عسكرية تحت راية الصليب، كانت الاستجابة الشعبية واسعة أيضا.

وفي الجانب الديني، التقت المشاعر الشعبية العفوية مع خطة البابوات المبرمجة لاستعادة الكنيسة الشرقية إلى أحضان الكرسي الرسولي في روما. وقد أدى رهبان دير كليني (فرنسا) دورا مهما في حركة الإحياء الديني، إذ عمق هؤلاء الشعور الذاتي بالذنب لدى الناس، في واقع اجتماعي صعب، ساد فيه الإحباط قطاعات شعبية واسعة. و للتكفير عن خطاياهم، دعا الرهبان الناس إلى الزهد والعزلة والأعمال الروحية والحج. وحتى اللاهوت والفلسفة في تلك الفترة اكتسبا طابعا صوفيا، و ازدهرت الرهبنة. أما البابوات، فقد شعروا بقوتهم في القرن الحادي عشر، و خصوصا أيام غريغوريوس السابع. و جاء بعده أربان الثاني ليدفع مسيرة تعزيز موقع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٢

الكنيسة إلى الأمام. و لذلك رأى في الحملات الصليبية سبيلا إلى ذلك، فكانت استجابته لطلب المساعدة من إمبراطور بيزنطة أقوى من توقعات هذا الأخير أو رغباته.

وفي الجانب الديني-السياسي والاقتصادي والاجتماعي- تقاطعت مصالح شرائح طبقية متعددة للنظر بإيجابية عالية إلى فكرة الحملات الصليبية. و مع أن هذه الشرائح كانت شريكة بالعاطفة الدينية، إلا إن الحوافز الأخرى كانت قوية أيضا، و أحيانا طاغية. فبالنسبة إلى الطبقات العليا-الملوك و البارونات و النبلاء و الفرسان- كانت الحملات الصليبية فرصة مواتية لتلبية النزعات القتالية و ميول المغامرة و حب الثروة و الغنائم و الطمع في تأسيس إقطاعات جديدة، إضافة إلى الاسم و الجاه و السمعة... إلخ. أما في الطبقات الدنيا، التي اجتاحتها الغرائز الدينية، فقد ساد الاعتقاد أن الحملات الصليبية هي مناسبة لتغيير أوضاعها الاجتماعية: التخلص من القنانة و تأجيل دفع الديون أو الإعفاء منها و الحصول على ملكية جديدة و التحرر من الظلم الإقطاعي.. إلخ. و بالنسبة إلى هؤلاء لم يكن هناك ما يخسرونه في المغامرة و الانضمام إلى حملة صليبية تحملهم إلى الشرق الذي تصوره مصدرا للثراء، و اعتقدوا أن أرضه الخصبة «تدر اللبن و العسل».

خلاصة القول إن أوروبا القرن الحادي عشر كانت مهية-ماديا و معنويا- لقبول فكرة الحروب الصليبية و الانطلاق لتجسيدها. فالأوضاع الاجتماعية الصعبة-الفقر و ضيق رقعة الأراضي الزراعية و ازدياد عدد السكان و تواتر الكوارث الطبيعية و الأوبئة- و النزعات التوسعية و الطمع في ثروات الشرق و طموح الأمراء و النبلاء الصغار في تأسيس إقطاعات خاصة بهم و روح المغامرة لدى الفرسان، كانت كلها عوامل فاعلة في تشكّل ظاهرة الحملات الصليبية، فكرا و ممارسه. و أعطت حركة الإحياء الديني حلا للمشكلات يتمثل بالتوبة و الزهد و التصوف، و المهم التكفير عن الخطايا بالعمل في سبيل الدين، و استعادة السيطرة على الأمكنة المقدسة- كنيسة المهد و القيامة و الصعود- المتعلقة بحياء «المسيح المخلص». و من هنا التجاوب الواسع مع حرب دامية تحت شعار «هذه إرادة الله» و خلف لواء «الصليب المقدس» و بقيادة «الكرسي الرسولي». و جاء تهديد السلاجقة إلى القسطنطينية ليفجر هذه النزعات الكامنة، و يحولها إلى حملات عسكرية تغزو الشرق الإسلامي.

في المقابل، و خلال ما يزيد عن أربعة قرون، ظل المسيحيون في أراضى الخلافة يمارسون حياتهم و شعائرهم الدينية بحرية، ما عدا فترات قصيرة، كانت بمثابة الشاذ و ليس القاعدة. و قد احتفظ هؤلاء بأمكنةهم المقدسة، و لم تتدخل السلطة كثيرا في شؤونها و إدارتها. و الأمر بهدم كنيسة القيامة (١٠٠٩ م) من قبل الحاكم بأمر الله،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٣

جرى التخلي عنه سريعا و إصلاح نتائجه. و كذلك، فالحجاج المسيحيون إلى القدس و غيرها، ظلوا يقدمون من دون عقبات تذكر. و يلفت النظر أن قوافل الحجاج في القرن الحادي عشر، راحت تتخذ صيغه مغامرات دينية و تجارية و عسكرية في آن معا.

و تفيد المصادر أن السلاجقة زادوا في مضايقة هؤلاء الحجاج في طريقهم إلى فلسطين عبر القسطنطينية. و في الإمكان تشبيه هذه القوافل برحلات قريش التجارية قبل الإسلام. و كما أفاد المسلمون من الخبرات التي تراكت لديهم في حركة الفتوح، هكذا أفاد قادة الحملات الصليبية من الخبرات التي اكتسبت عبر قوافل الحجاج.

ومنذ القدم كانت تجارة البحر الأبيض المتوسط موضوع علاقات بين الشعوب الواقعة على سواحلها، أو حروب بينها. والقسطنطينية كانت قبل الفتح العربي تهيمن على هذه التجارة، فانتزعتها العرب منها، لكن العلاقات التجارية ظلت مستمرة. والاعتبار التجاري بين إسبانيا والهند عبر مصر، كان من الأسباب التي دفعت الفاطميين إلى نقل عاصمتهم إلى القاهرة، كما جعلتهم يتشبثون بالمدن الساحلية على الشاطئ الشرقي للبحر الأبيض المتوسط. في المقابل، تشبث البيزنطيون بأنطاكية كمحطة أخيرة لتجارة الشرق الأقصى عبر طريق الحرير. وفي القرن الحادي عشر، نشطت المدن الإيطالية- فينيسيا و جنوة و بيزا- التي قامت على التجارة البحرية بالاعتماد على أساطيلها، فكانت بينها وبين الفاطميين صدامات في شمال إفريقيا و جزر البحر الأبيض المتوسط. و انخرط النورمان في هذا الصراع، فاحتلوا صقلية. و في سنة ١٠٨٢ م عقد الإمبراطور ألكسيوس كومنينوس اتفاقا مع فينيسيا (جمهورية سان مارك)، فتح أمامها المراكز البيزنطية للتجارة، فأصبحت مصالحتها حافزا قويا لها على الانخراط في الحملات الصليبية، و خصوصا عبر أسطولها، الذي أدى دورا في نقل المحاربين الصليبيين إلى الشرق.

(أ) الحملة الأولى

لقد طلب إمبراطور بيزنطة مساعدة عسكرية هي جيش من المرتزقة للدفاع عن عاصمته. و لم يفكر في مسيحي الشرق، و لا- في الأماكن المقدسة في فلسطين، إذ غابت هذه المسألة عن أذهان أباطرة بيزنطة منذ زمن طويل. و جاء الرد الأوروبي غير متوقع، حملة صليبية، الأمر الذي أربك الإمبراطور، طالب المساعدة، و وضعه في موقف حرج إزاء ما يجب عمله. ففي كليرمونت (وسط فرنسا) عقد المجمع الشهير في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٠٩٥ م، حيث ألقى البابا البليغ أربان الثاني، خطابا حماسيا ألهب المشاعر الدينية لجماهير غفيرة تجتاحها العواطف الدينية. و انتهى إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٤

الدعوة إلى حمل السلاح «لحماية المسيحيين في الشرق من الاضطهاد، و تحرير كنيسة القيامة و المسيحية الشرقية عامة.» و تعالت الصرخات العفوية «هذه إرادة الله»، و اندفع الناس نحو البابا مؤيدين دعوته. و وعد هؤلاء بمحو الخطايا و الإعفاء من الديون و حماية الممتلكات و رعاية الأسرى في أثناء الغياب. لم يكن هناك إلزام، لكن التراجع غير مقبول- المرتدون سيحرمون من الكنيسة. و من فرنسا انتشرت الحماسة إلى بقية أجزاء أوروبا. لقد كانت فرنسا السباقة، فأعطت الحملات اسمها- حملات الفرنجة.

و فكرة الحملة الصليبية كانت غريبة على بيزنطة، قمة و قاعدة شعبية على حد سواء. فقد كان الهم الوحيد لديها مواجهة الخطر السلجوقي. و بيزنطة نظرت إلى الصليبيين بارتياح و ازدراء، و رأت فيهم برابرة، شأنهم في ذلك شأن السلاجقة الذين يهددون الإمبراطورية من الشرق أو قبائل السلاف من الشمال الشرقي. و زاد في اقتناعهم بهذا المنظور طلائع الحملة الصليبية الأولى، التي قادها الراهب بيتر (من أميين). فقد بادر هذا بعد مجمع كليرمونت بحماسة شديدة إلى حشد المقاتلين من الفلاحين الفقراء و الطبقات الرثة من المدن و اللصوص و المتسولين و صغار الفرسان المغامرين. و تحركت هذه الجموع من دون تدريب أو تموين أو قيادة حقيقية، أو حتى سلاح. و في طريقها من فرنسا إلى ألمانيا- هنغاريا- بلغاريا- القسطنطينية، عاثت فسادا، جعل السكان على طول الطريق يهاجمونها. و عندما اقتربت من القسطنطينية، و كانت سمعتها السيئة قد سبقتها، سارع الإمبراطور المعروف بدهائه إلى نقلها عبر المضيق إلى شاطئ آسيا الصغرى، حيث تركها طعمة لسيوف السلاجقة في سلطنة روم، لأنها لم تتجاوز حدودها.

و تركت حملة بيتر آثارا سلبية على الجانبين. فسلوكها الفوضوي على طول الطريق إلى القسطنطينية أثار ردات فعل عنيفة ضدها من قبل سكان المناطق التي مرت بها، و وقعت بين الطرفين اشتباكات دموية. و في القسطنطينية، سارع الإمبراطور إلى نقل أفرادها إلى آسيا الصغرى من دون إعداد، فوقعوا فريسة سهلة في أيدي السلاجقة. و في الجانب الآخر، أدت السهولة التي تم فيها القضاء على هذه

الحملة إلى اقتناع السلاجقة بالقدرة على سحق الحملات الصليبية اللاحقة، ما دام هذا هو طرازها، فلم يتخذوا الاستعدادات اللازمة لمواجهة الخطر الداهم. وعندما جرت المواجهة الحقيقية، كان النصر حليف الصليبيين، كونهم أخذوا كل إمارة سلجوقية على حدة. و في الواقع، فإن نجاح الصليبيين بصورة عامة كان نتيجة مباشرة لحالة التدهور السياسي التي عاشها الشرق الإسلامي في حينه.

و في صيف سنة ١٠٩٦ م، أي بعد مرور عام على مجمع كليرمونت، و بعد فناء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٥

حملة بيتر الراهب، بدأت قوات الحملة الصليبية النظامية الأولى تتجمع في غرب أوروبا. لم يشارك فيها ملوك أوروبا، وإنما الكونتات و الدوقات و الأمراء فقط. و يبرز بين هؤلاء: غودفري دو بويون (دوق لورين)، و أخوه بولدوين، اللذان أصبحا لاحقا ملكين في مملكة أورشليم اللاتينية، و روبرت (دوق نورماندى)، أخو ملك بريطانيا و هيو (كونت فيرماندوا)، أخو ملك فرنسا و روبرت الثانى (كونت فلندرز) المعروف ب «الفظ» و ريموند (كونت طولوز) و بوهيمند (النورمانى) و قريبه تانكرد، من جنوب إيطاليا. و كان هذان الأخيران الأقل حماساً دينياً، و الأ-كثر طمعا ماديا، و كانت لهما عداوة مع إمبراطور بيزنطة، و قد راودتهما أحلام احتلال القسطنطينية. و كان جيشهما هو الأكبر في هذه الحملة متعددة القادة. و إلى جانب القادة العسكريين، انضم إلى الحملة بطرس الناسك و الأسقف أديمار، ممثلين الكنيسة.

و كان على هذه الجيوش أن تتجمع في القسطنطينية قبل الدخول إلى أراضى السلطنة السلجوقية، فأخذ بعضها طريق البر، و الآخر طريق البحر. و لم تكن لتلك الجيوش المتعددة قيادة موحدة، أو خطة شاملة. و كانت فرنسا تشكل الثقل الرئيسى فى الحملة. و تركت هذه الجيوش أيضا أثرا سلبيا فى سكان المناطق التى عبرتها، لكنها كانت أكثر إزعاجا للإمبراطور ألكسيوس. لقد أراد هذا اعتبارهم مرتزقة، و طالبهم أن يقسموا يمين الولاء له، بصفته الحاكم الأعلى، لكن ذلك لم يحدث، و حتى الاتفاقات التى تمّ التوصل إليها، بإعادة أملاك الإمبراطور التى أخذها منه السلاجقة عند انتزاعها منهم، لم يجر الوفاء بها. و على الرغم من الاتهامات و الشكوك المتبادلة بين الأطراف جميعها المنخرطة فى العملية، فقد تمّ نقل القوات إلى آسيا الصغرى، بمساعدة أسطول بيزنطة، و بدأت الحرب، بمشاركة اسمية من جيش الإمبراطور، مع السلاجقة فى سلطنة روم، التى لم يأت أحد لنصرتها من الإمارات الأخرى.

و بداية فى حزيران/ يونيو ١٠٩٧ م، و بعد حصار قصير، استسلمت نيقيا، فأعيدت إلى بيزنطة بحسب الاتفاق مع الإمبراطور. و بعدها فى تموز/ يوليو ١٠٩٧ م سقطت دوريليوم، و بالتالى سقط غرب آسيا الصغرى و أعيد إلى البيزنطيين، و انسحب السلاجقة إلى الداخل. ثم توجه جزء من الصليبيين، بقيادة بولدوين، فى اتجاه إديسا (الرها) و فتحها (١٠٩٨ م) و أقام فيها أول إمارة لاتينية فى الشرق، فأصبحت بواقع الجغرافيا خط الدفاع الأول عن الإمارات الصليبية الأخرى فى مواجهة السلاجقة. أما الجزء الآخر، و هو الأكبر، فقد تقدم لحصار أنطاكيا فى تشرين الأول/ أكتوبر ١٠٩٧ م، و طال الحصار تسعة أشهر، حاول فى أثنائها الفاطميون

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٦

التوصل إلى معاهدة مع الصليبيين، يقتسم بموجبها الطرفان الساحل السورى. لكن المفاوضات التى أفادت الصليبيين، و مكنتهم من احتلال أنطاكيا فى حزيران/ يونيو ١٠٩٨ م لم تؤدّ إلى اتفاق. و فى أنطاكيا، و على الرغم من معارضة قادة الجيوش الأخرى، أقام بوهيمند النورمانى إمارة ثانية، أثارت غضب الإمبراطور ألكسيوس، الذى رأى فيها خطرا يهدد بيزنطة نفسها.

و بعد تلكؤ دام عدة أشهر، بسبب الخلافات الداخلية، و التى انتهزها سلطان الموصل، برقياروق، لمحاصرة الصليبيين فى أنطاكيا، إذ ضيق الخناق عليهم من دون القدرة على دحرهم، واصلوا تقدمهم جنوبا فى اتجاه فلسطين. فأخذوا معزة النعمان، و قاموا بمذبحة كبيرة فيها، و منها انتقلوا إلى شيزر، فوادعهم صاحبها، ثم إلى عرقه، فحاصروها، و كانت وجهتهم الطريق الساحلى. و جاءهم وفد فاطمى للتفاوض مرة أخرى، و لكن من دون جدوى، فسارع هؤلاء إلى تعزيز مواقعهم الدفاعية فى صور و عكا و القدس (١٠٩٨ م). و أخذ الصليبيون طرابلس، و أقاموا فيها لاحقا إمارة ثالثة، على رأسها ريموند دو طولوز. و تابعوا تقدمهم جنوبا مرورا ببيروت من دون

احتلالها، وكذلك صيدا و صور، لأن هذه المدن لم تبد مقاومة، بل قدمت لهم المؤن و التسهيلات. و اختار القادة الصليبيون التقدم نحو القدس، تحت ضغط جموع المقاتلين لاستكمال الحج إلى الأماكن المقدسة.

و تخلف عدد من المقاتلين في الإمارات التي تأسست حديثاً- إديسا و أنطاكية و طرابلس- و لم يبق كثير من منهم للزحف على القدس. و استجاب ريموند دو طولوز لنداء غودفري دو بويون و تابعا طريقهما إلى القدس. و في أيار/ مايو ١٠٩٩ م، ظهر هذا الجيش على الطريق الساحلي المؤدى إلى فلسطين من لبنان. و أفرغ ظهوره حكام المدن الساحلية، فوافقوا على تقديم المؤن و المال للصليبيين في مقابل تخطي هؤلاء مدنهم من دون حصار. و سار الجيش الصليبي أمام عكا و حيفا و أرسوف، و وصل إلى قيساريا. و من هناك انعطف إلى الرملة، عاصمة فلسطين، فهجرها أهلها، و احتلها الصليبيون، و تابعوا مسيرتهم إلى القدس. و امتنعت عليهم المدينة، فحاصروها من ٧ حزيران/ يونيو إلى ١٥ تموز/ يوليو ١٠٩٩ م. و سقطت في أيديهم، و قاموا بمذبحة رهيبه بالسكان المحليين، الذين يقدر عددهم ما بين ٢٠ إلى ٣٠ ألف نسمة.

و استنكف ريموند، لأسباب دينية، عن تولى الملك في القدس، و قبل به غودفري، و حمل لقب «بارون- حامى كنيسة القيامة المقدسة». أما ريموند فعاد لإقامة إمارته في طرابلس، بلقب كونت.

و بعد تأسيس مملكة أورشليم اللاتينية، توجه قادتها إلى استكمال احتلال ساحل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٧

البلاد و داخلها. و في الواقع، فإنهم حتى قبل دخول القدس كانوا قد قطعوا شوطا على هذا الصعيد. و كانت بيت لحم قد استسلمت، و كذلك فعلت أريحا و نابلس، عندما استولى تانكرد، قريب بوهمند، على طبرية و بيسان، و جعل طبرية عاصمة لإمارة الجليل، التي لم تعمّر طويلا. و بعد أن سيطروا على الداخل، وجد الصليبيون أنفسهم في موقف حرج، ذلك لأن الساحل لم يكن بأيديهم، الأمر الذي عزلهم عن أوروبا- مصدر تزويدهم بالعتاد و المؤن و الرجال و الخيل و المال. و صحا الفاطميون على هذه الحقيقة، و لو متأخرا، و حاولوا استغلال هذا الواقع، لكنهم لم يفلحوا كثيرا، في غياب النية الجادة، بل القدرة العملية، على اقتلاع الصليبيين من الشرق. لقد كانت أولوية الفاطميين تتمحور حول الصراع الداخلي و التنافس مع السلاجقة، فسعوا للتفاهم مع الصليبيين. و بذلك فوتوا على أنفسهم فرصة جيدة لاجتثاث الخطر الصليبي في المهد، و هو يعاني حالة الضعف و العزلة.

و عندما حاول الفاطميون مواجهة الصليبيين، هزموا في معركة بريه بالقرب من عسقلان في آب/ أغسطس ١٠٩٩ م، انتقل بعدها الصليبيون لاستكمال احتلال مدن الساحل: فسقطت يافا، بعد أن هجرها سكانها، و تحولت إلى الميناء الرئيسي الذي عبره جرى تزويد المملكة الجديدة بوسائل الحياة من أوروبا. و في هذه الأثناء مات غودفري، و احتل مكانه أخوه بولدوين، الذي انتقل من إديسا إلى القدس. و باعتلائه عرش المملكة، تحرك بنشاط كبير. و خلال عشر سنوات أصبحت أغلبية مدن الساحل في يده، الأمر الذي مكّن أساطيل المدن الإيطالية التجارية من التصدي للأسطول الفاطمي القوي، و الحؤول دون تمكنه من إقامة رأس جسر على الساحل لمقاتلة المملكة اللاتينية. و في المقابل، تعهدت تلك الأساطيل بنقل أنواع الدعم اللازم جميعها لهذه المملكة، التي لا تزال في طور التكوين، من أوروبا، لقاء امتيازات تجارية تمنح للمدن الإيطالية في مدن الساحل السوري التي تقع في أيدي المملكة.

و بمساعدة أساطيل المدن الإيطالية، جرى احتلال مدن الساحل، و بالتالي إقامة الصلة مع الإمارات الأخرى في الشرق- أنطاكية و طرابلس. ففي آب/ أغسطس ١١٠٠ م سقطت حيفا، و كان ميناؤها يضم دارا لصناعة السفن، أقامه الفاطميون.

و بعدها أرسوف في نيسان/ أبريل ١١٠١ م، ثم قيساريا في السنة نفسها. أما عكا فصمدت بفضل أسوارها القوية إلى أيار/ مايو ١١٠٤ م. و بقيت بيروت حتى سنة ١١١٠ م، و كذلك صيدا. أما صور فقد قاومت حتى سنة ١١٢٤ م، الأمر الذي اضطر الصليبيين إلى إقامة قلعتين للدفاع عن الطريق المؤدى منها إلى الداخل: الأولى في تبين (١١٠٧ م)، و الثانية إسكندرون (١١١٦ م). أما عسقلان، فقد ظلت

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٨

فاطمية، تشكل خطراً على المملكة الصليبية حتى سنة ١١٥٣ م، و عندما سقطت أصبح الساحل بأكمله تحت سيطرة الصليبيين. و خلال أكثر من خمسين عاماً، ظلت المناوشات مستمرة بين الفاطميين و مملكة أورشليم اللاتينية.

لكن الصراع بشأن السلطة في القاهرة، من جهة، و العداء بين الفاطميين الشيعة في مصر، و السلاجقة السنة في دمشق، من جهة أخرى، قد حالاً دون تعاون الطرفين على القضاء على المملكة الصليبية، الأمر الذي يبدو أنه كان ممكناً في حينه، أخذاً في الاعتبار موازين القوى. و مع ذلك، استمر الفاطميون، من قاعدتهم في عسقلان، في مهاجمة أراضي المملكة الصليبية. و بدأ أحياناً أن الفاطميين كانوا قريبين جداً من تحقيق نصر حاسم، و خصوصاً أن قوات المملكة كانت صغيرة، إذ يقدر عددها ب ٣٠٠ فارس و ١٢٠٠ جندي مشاة. لقد هاجم الفاطميون مدينة الخليل سنة ١١٠٧ م و القدس في سنتي ١١١٠ و ١١١٣ م. و قاموا بغارات و إنزالات بحرية على يافا في السنوات ١١٠٣ و ١١٠٦ و ١١١٥ و ١١٢٣ م. و كذلك فعلوا في صيدا و بيروت في السنوات ١١٠٨ و ١١٢٦ و ١١٥٠ و ١١٥٩ م. و في إحدى الحملات على القدس دمروا حصن بيت نوبا الاستراتيجي على الطريق من الرملة إليها، و في مرة أخرى دمروا البيرة (١١٢٤ م) على الطريق بين القدس و نابلس.

و طالما ظلت عسقلان في أيدي الفاطميين، ظل خطرها على مملكة أورشليم اللاتينية ماثلاً. و لذلك حاول الصليبيون مراراً احتلالها، و اجتثات هذا الخطر، و لكن من دون جدوى. و مع أنهم دخلوها لمدة عام (١١١٠-١١١١ م)، إذ سلمها لهم قائد الحامية الفاطمية، إلّا إن السكان ثاروا عليهم و طردوهم، و أعادوا تحصين المدينة.

و على الرغم من تراجع التهديد الفاطمي بعد معركة يبنى في أيار/ مايو ١١٢٣ م، فإن المناوشات ظلت مستمرة. و لجأ الصليبيون إلى إقامة عدد من الحصون الدفاعية لصد الهجمات الفاطمية. فأعادوا ترميم قلعة بيت نوبا (أرنول)، بين اللطرون و القدس (١١٣٢ م) و بنوا قلعة بيت جبرين (جبلين)، على الطريق إلى الخليل (١١٣٧ م)، و قلعة يبنى (يبلن) على الطريق إلى يافا و الرملة (١١٤٤ م). كما بنوا قلعة تل الصافي (بلانشغارد) على الطريق إلى القدس (١١٤٤ م). و في سنة ١١٥٠ م أقاموا قلعة في غزة، و أخرى في دير البلح (دارون)، فقطعوا طريق عسقلان البري إلى مصر، و ضيقوا الخناق على القاعدة الفاطمية، إلى أن سقطت سنة ١١٥٣ م.

و بعد تأسيس مملكتهم في القدس، راح الصليبيون يوسعون أراضيها في الاتجاهات جميعها، سواء لأسباب دفاعية أو عدوانية. فاتجهوا إلى الجولان و الحوران، حيث اصطدموا مع حكام دمشق، و توصلوا معهم إلى اتفاق على

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ١٩٩

اقتسام خراج الأرض، فكان للصليبيين الثلث. و أقاموا في هذه الناحية عدة حصون، منها البردويل (على اسم بولدوين) و حبيس جلدك و بانياس (١١٢٩ م). و كانت بانياس ذات أهمية لموقعها الذي يهيمن على الطريق بين دمشق و مينائها الطبيعي - صور. فلذلك استردها حكام دمشق سنة ١١٣٢ م، و عاد الصليبيون فانتزعوها منهم سنة ١١٤٠ م. و في الجنوب، توسعوا في أدوم و مؤاب، و احتلوا أيلة (العقبة) سنة ١١١٣ م. و في شرقي الأردن، سيطروا على وادي موسى (١١٠٧ م)، و بعده أخذوا الشوبك (١١١٣ م) و بنوا فيها حصن مونتريال. و أخيراً استولوا على الكرك (١١٤٢ م)، و حصنوها، و بذلك سيطروا على تقاطع الطرق الاستراتيجي بين سورية و كل من مصر و الجزيرة العربية (طريق الحج).

و الحملة الصليبية الأولى، التي انتهت بتأسيس مملكة أورشليم اللاتينية، و عدة إمارات أخرى، أهمها ثلاث - أنطاكيا و إديسا و طرابلس - أوجدت مشكلة معقدة الجوانب و متعددة الأطراف في الشرق. فإضافة إلى الخلافات بين هذه الكيانات، على التراتبية الإقطاعية و الموارد و التجارة و الأراضي .. إلخ، فقد تفاقمت علاقاتها مع بيزنطة، من جهة، و مع الفاطميين و السلاجقة، من جهة أخرى، بسبب نزعتها التوسعية العدوانية. و بدايةً أدارت هذه الكيانات ظهرها إلى بيزنطة، و لم تعترف بسيادة الإمبراطور عليها، كما أنها اعترفت بقيادة اسمية فقط لمملك أورشليم. و في خضم هذا الصراع، تبدلت التحالفات بين عشية و ضحاها، فأصبح حلفاء الأمس

أعداء اليوم، أو العكس. و كان الأخطر على بيزنطة إمارة أنطاكيا، التي شكّل حكامها النورمان عنصر توتير مستمر، سواء مع بيزنطة، أو مع السلاجقة، عبر مغامراتهم التوسعية. و انحازت إمارة طرابلس إلى بيزنطة، و هذه الأخيرة تحالفت أحيانا مع بعض السلاجقة ضد أنطاكيا، التي بدورها تحالفت مع البعض الآخر من السلاجقة ضد بيزنطة و حلفائها. و التطورات التي عقبته هذه الحملة نفت عنها كل سمات بدايتها كحملة صليبية هدفها المعلن تخليص الأماكن المسيحية المقدسة من أيدي المسلمين.

(ب) الحملة الثانية (١١٤٦-١١٤٩ م)

إن الصراعات بين الكيانات الصليبية ذاتها، و بينها و بين الإمبراطورية البيزنطية، جعلت الفرصة مهيأة أمام السلاجقة لاستعادة الأراضي التي خسروها. و في مغامراته العسكرية، وقع بوهيمند أسيرا في يد القائد أمير مالك غازي، من سلالة دانشمند التركية. و لاحت أمام الإمبراطور (ألكسيوس) فرصة لانتزاع أنطاكيا منه. و جرى الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٠

التفاوض على افتداء بوهيمند، و بعد أن تمّ ذلك، رفض تسليم أنطاكيا للإمبراطور. ثم ألحق به السلاجقة هزيمة منكرة في حرّان سنة ١١٠٤ م، إذ خسر معظم الأراضي التي احتلها في سورية. و في إثر الهزيمة تحقق بوهيمند من عبثه محاولاته إقامة مملكة نورمانية قوية في الشرق، و هو بين مطرقة السلاجقة و سندان بيزنطة. فعاد إلى إيطاليا ليجمع جيشا يحتل به القسطنطينية، و قوبل بحماسة في إيطاليا، لكن الحملة فشلت، و هزم بوهيمند، و أجبر على قسم الولاء للإمبراطور. لكنه عاد و نقض القسم، ثم مات، كما مات الإمبراطور ألكسيوس، و انفتح الصراع بين الطامعين بالميراث.

في المقابل كانت مملكة أورشليم اللاتينية تتوسع في محيطها، و في الاتجاهات جميعها. و قد حرك ذلك ردات فعل، و ولدت حالة من النهوض في الموصل، شجع عليها عدد من الانتصارات التي حققها حكام المقاطعات ضد إمارات الشمال الفرنجية، و كذلك الصراع بين هذه الإمارات و بيزنطة. ففي الموصل بدأت حركة (١١١٣ م) لتوحيد الإمارات الإسلامية في العراق و سورية، من أجل عمل مشترك ضد الفرنجة. و وصلت هذه الحركة ذروتها أيام عماد الدين زنكي (أتابك عساكر الموصل)، الذي برز (١١٢٧-١١٤٦ م) و استطاع فرض سلطته على حكام المقاطعات في العراق و سورية، ما عدا دمشق، التي تشبث حاكمها باستقلاله، فظل موضوعيا في الخندق المعادي لعماد الدين، و بالتالي إلى جانب الصليبيين. و بعمله هذا فتح عماد الدين زنكي مرحلة جديدة من الاشتباك مع الفرنجة، امتدت إلى أيام ابنه نور الدين زنكي، و من بعده صلاح الدين الأيوبي وصولا إلى المماليك، الذين على أيديهم تمت تصفية مملكة أورشليم اللاتينية في مدينة عكا (سان جان داكر).

و كانت النتيجة الأولى و المباشرة لتوحيد المقاطعات السلجوقية بقيادة عماد الدين زنكي تصفية إمارة إديسا الصليبية (١١٤٤ م). و بذلك انكشفت الحدود الشمالية-الشرقية للإمارتين الأخريين- أنطاكيا و طرابلس- بينما ظلت دمشق تقف حاجزا بين زنكي في الموصل، و مملكة أورشليم اللاتينية. و حتى في ظل هذه الأوضاع دأب الفرنجة على التحرش بحاكم دمشق، و العمل على انتزاع بعض الأراضي منه، و إقامة إمارات جديدة في بصرى و صلخد (١١٤٧ م). ثم ارتكبوا الخطأ القاتل في الحملة الثانية، إذ هاجموا دمشق، فدفعوها إلى أحضان نور الدين زنكي، الذي دخلها سنة ١١٥٤ م. فأصبح على تماس مع مملكة أورشليم، بينما هو يستند إلى دولة قوية موحدة في سورية و العراق، ما عدا الشريط الساحلي و فلسطين. و بذلك دخل الصراع مرحلة جديدة، قادها نور الدين زنكي بنشاط، و راح يعد لتصفية الوجود الصليبي في الشرق.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠١

لقد ترك سقوط إديسا انطبعا عميقا في أوروبا، و قلقا شديدا بشأن مصير الفرنجة في الشرق. و بينما كانت أوضاع الكرسي الرسولي في روما متأزمة، و كانت طبقة النبلاء في فرنسا غير متحمسة لحملة صليبية جديدة، بعد ما خبرته من نتائج الحملة الأولى، تحرك ملكا

فرنسا و ألمانيا. و كان ملك فرنسا، لويس السابع، المحرك الحقيقي لهذه الحملة. و عبر الراهب بيرنارد دو كليرفو، أثار حماسة الناس، و أقنع كونراد الثالث، ملك ألمانيا بالمشاركة فيها. إلا إن أبناء الحملة أزعجت إمبراطور بيزنطة، مانويل الذي راح يحصن أسوار القسطنطينية، حذرا من قائد الحملة، اللذين لم يكن يطمئن إلى نواياهما إزاءه. و قدّر مانويل أن الحملة الجديدة ستفسد عليه خطته تجاه الكيانات الصليبية في الشرق. فهي ستعزز رفض حكامها الاعتراف بسيادته عليهم، و الأهم أن حملة كهذه، يشارك فيها ملك فرنسا، حليف روجر النورماني، ستقوى إمارة أنطاكية في صراعها مع الإمبراطور. و كان النورمان في صقلية قد احتلوا بعض الأراضي التابعة لإمبراطور بيزنطة في إيطاليا و اليونان.

و كانت تلك الحملة فاشلة من النواحي جميعها. و إذ لم تستطع استعادة إديسا، فإنها بهجومها الطائش على دمشق دفعتها إلى الوحدة مع نور الدين زنكي. و بداية أراد مانويل أن يسمى قائدا للحملة، أملا في قيادة العالم المسيحي، و عندما لم تتحقق رغبته، اتخذ موقفا سلبيا من الحملة. و المصادر الغربية تتهمه بالتآمر مع الأتراك ضد الجيش الألماني، من أجل إفشال الحملة. و بغض النظر عن الاتهامات، فالحملة الخائبة زادت في ابتعاد الحملات الصليبية عن هدفها المعلن، و نقلت الصراع إلى المعسكر الأوروبي، و بالتالي استنكاف الناس عنها. ففي الطريق إلى القسطنطينية، سلكت الجيشان - الألماني و الفرنسي - البر، و على طول الطريق أثارا السكان المحليين ضدهما. و عندما وصلا، و عسكرا خارج أسوار القسطنطينية، أوجدا حالة من التوتر معها، شارفت على الاشتباك العسكري، الأمر الذي اضطر الإمبراطور إلى اللجوء إلى الحيلة للتخلص من وجود الجيشين خارج أسوار عاصمته.

و بداية سارع الإمبراطور إلى نقل الجيش الألماني شرقا، إلى آسيا الصغرى، بعد أن أقنع قريبه كونراد بذلك. و منذ وصوله إلى البر الآسيوي، كان الجيش الألماني يعاني قلة المؤن، و الفوضى في التنظيم. فوقع فريسة في يد السلاجقة، و قلة منه فقط استطاعت العودة إلى نيقيا. و كان الجيش الفرنسي قد وصل في إثر رحيل الجيش الألماني، و عسكر خارج أسوار القسطنطينية. و في هذه الأثناء، وصلت إلى الفرنسيين أنباء الغزو الناجح الذي قام به روجر (النورماني) على اليونان، كما أطلقت إشاعات بشأن تواطؤ الإمبراطور مع الأتراك في هزيمة الألمان، و ثار القادة العسكريون

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٢

الفرنسيون يطالبون باحتلال القسطنطينية. و عندها نشرت إشاعات كاذبة عن الانتصارات التي يحققها الألمان في آسيا الصغرى، فوافق لويس على العبور إليها، و على قسم الولاء للإمبراطور أيضا. و بذلك تخلص مانويل منهما، و تفرغ لمقارعة النورمان الذين غزوا أراضيها، و احتلوا جزءا منها.

و بعد الصعوبات التي لقيها قائدا الحملة في آسيا الصغرى، عادا إلى القسطنطينية، و توجهوا بحرا - كونراد إلى عكا فالقدس، و لويس إلى أنطاكية فالقدس. و في مؤتمر عكا (١١٤٨ م)، الذي ضمّ كلا من ملك فرنسا و ألمانيا و أورشليم اللاتينية، تمّ الاتفاق على غزو دمشق. فزحفوا إليها و حاصروها، لكنهم فشلوا في دخولها، و انسحبوا و هم على خلاف، يتهم بعضهم بعضا بالتآمر. و أسرع كونراد في العودة إلى بلاده، مارا بالقسطنطينية، حيث عقد تحالفا مع مانويل للعمل سوية ضد روجر النورماني. أما لويس، فقد تأخر بضعة أشهر، ثم عاد إلى فرنسا، مارا بإيطاليا، حيث التقى روجر، و اتفقا على التعاون. و بذلك انتهت الحملة التي عقدت عليها آمال كبيرة بفشل ذريع. و ليس ذلك فحسب، بل تسببت في توسيع شقة الخلاف بين أطرافها، من جهة، و بينهم و بين مسيحي الشرق، من جهة أخرى.

و المستفيد الوحيد في الجانب المسيحي كان إمبراطور بيزنطة، مانويل الذي فرض سيادته على الكيانات الصليبية في الشرق.

في المقابل، شجع فشل الحملة نور الدين زنكي (١١٤٦-١١٧٤ م)، الذي نقل عاصمته إلى حلب، على متابعة سياسة والده في حرب الفرنجة. و كان نور الدين قد استكمل تطهير ما تبقى من إمارة إديسا (١١٥١ م)، و أخذ أميرها جوسلين الثاني أسيرا. و بعد أن وقعت دمشق في يده، و أصبح على تماس مباشر مع مملكة أورشليم، بدأ قتاله معها، كما انتزع أجزاء من إمارتي أنطاكية و طرابلس، و أخذ أميريهما، بوهيمند الثالث و ريموند الثالث، أسيرين (١١٦٤ م). و دخل نور الدين في تنافس قوى مع بولسوين الثالث بشأن مصر. و

كان ملك أورشليم هذا، بعد احتلال عسقلان، يعمل على الحؤول دون وحدة مصر الفاطمية و سورية الزنكية. وقد قام بعدة حملات على مصر، بالتنسيق مع الوزير شاور. وكانت مصر تدفع أتاوة سنوية للصليبيين. وعندما ساءت الأحوال الداخلية في مصر، حاول أمرك، ملك أورشليم الجديد احتلالها، فانحاز شاور إلى نور الدين. واستطاع هذا الأخير طرد الصليبيين من مصر عبر مندوبه شيركوه، و من ثم إنهاء الخلافة الفاطمية (١١٦٩ م) عبر صلاح الدين الأيوبي.

أما في بيزنطة، فإن مانويل، بعد فشل الحملة الثانية، استطاع فرض نفسه سيدا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٣

على الإمارات الصليبية في الشرق. وكانت له علاقات تحالفية مع كلج أرسلان، أمير قونيا السلجوقي الذي كان زاره في القسطنطينية (١١٦١ م)، و أمضى في ضيافته ٨٠ يوما. لكن مانويل، بعد أن شعر بقوته، خرج لقتال كلج أرسلان، و قاد الحملة بنفسه، بهدف احتلال قونيا (١١٧٦ م). غير أن كلج ألحق به هزيمة نكراء في معركة ميريوسيفالو، إذ بالكاد استطاع الإمبراطور أن ينجو بنفسه. و مع ذلك، عقد الطرفان صلحا مشرفا لمانويل الضعيف. و زاد في أزمة الإمبراطور عقد معاهدة فينيسيا (١١٧٧ م)، التي وضعت حدا للخلافات بين ملوك أوروبا، فحرمت مانويل من المناورة. و بذلك تدهور موقع بيزنطة، في الشرق كما في الغرب، و انتهزت الإمارات الصليبية الفرصة لتحرر من سيادة الإمبراطور عليها.

في هذه المرحلة- السبعينات من القرن الثاني عشر- كانت مملكة أورشليم اللاتينية في ذروة اتساعها. ففي الشمال كانت حدودها على نهر المعاملتين، بين جبيل التابعة لإمارة طرابلس، و بيروت التابعة للمملكة. و من هناك على طول الساحل حتى دير البلح (دارون). و من بيروت شرقا إلى منابع الأردن و سفوح جبل الشيخ.

و من هناك جنوبا، إذ ضمت أجزاء من الجولان و الجلعاد، و كل منطقة مؤاب حتى أيلة. و في الجنوب الغربي، كان خط الحدود يمتد بين أيلة و دير البلح، عبر صحراء النقب. و هذه الدولة الواسعة و القوية، راحت تواجه دولة أخرى تتعاضم قوة في الشمال الشرقي، بينما تسعى لضم مصر إليها، مستندة في عملها هذا إلى الدعوة إلى الجهاد ضد الفرنجة في الشرق. و بعد موت نور الدين زنكي (١١٧٤ م)، و تولى صلاح الدين الأيوبي مكانه، موخدا بذلك مصر و سورية، و من ثم سقوط حلب في يده (١١٨٣ م)، وضع صلاح الدين مملكة أورشليم اللاتينية بين فكي كماشة- مصر و سورية- بقيادة موحدة، تمتلك خطة مركزية لمواجهة الفرنجة.

بعد الحملة الثانية، كان واضحا أن الكفة تميل لغير مصلحة الفرنجة في الشرق. و بينما كان المسار العام في الإمارات الصليبية هو الصراع من أجل الانفصال و التفتت، كان العكس صحيحا في الجانب الإسلامي، حيث الصراع محتدم من أجل التوحيد، و يقوده صلاح الدين الأيوبي، بعد موت نور الدين زنكي. و كان صلاح الدين يقوم بهجمات محدودة على أطراف مملكة أورشليم منذ أيام نور الدين- غزة (١١٧٠ م) و الشوبك و أيلة (١١٧١ م) و الكرك (١١٧٣ م). و لكن منذ سنة ١١٧٧ م، أصبح قتال الفرنجة يتخذ لدى صلاح الدين صيغة خطة مبرمجة، ترمى إلى تصفية مملكتهم في الشرق. ففي ذلك العام، هاجم دير البلح و غزة، و احتل الرملة، و فرض حصارا على اللد، و وصل إلى أرسوف، لكنه هزم في معركة جيزر، على يد بولدوين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٤

الرابع (المجدوم)، فرجع إلى القاهرة لبدأ من جديد.

و عاد صلاح الدين (١١٧٩-١١٨٢ م) إلى قتال الصليبيين، محاولا- مهاجمتهم برا و بحرا. و بينما حاول أسطوله فرض حصار على الساحل، قام جيشه بهجمات سريعة على الشوبك و الجليل و بيسان و بيروت. لكن الصليبيين تمكنوا من إلحاق الهزيمة به في معركة الطيبة (١١٨٢ م). و مع ذلك، ثابر صلاح الدين في حربه معهم من دون هوادة. و انتهت فرصة الهجوم على قافلة من الحجاج، كانت أخته فيها، قام بها أمير الكرك رينالد دو شاتيون، الذي أتبع ذلك بمحاولة مغامرة لاحتلال أيلة، و ركوب البحر الأحمر إلى مكة و المدينة، و دخل صلاح الدين أراضي مملكة أورشليم مرة أخرى. فاحتل بيسان، ثم زرعين، و فرض حصارا على الكرك، و احتل

نابلس و السامرة و مرج ابن عامر، ثم فرض حصارا على طبرية. و تجمع الصليبيون في صفورية لفك الحصار عن طبرية، فالتقوا جيوش صلاح الدين في حطين (١١٨٧ م)، حيث ألحق بهم هزيمة ساحقة، و أخذ الكثيرين من أمرائهم، بمن فيهم ملك أورشليم، أسرى. و بذلك سقطت المدن و الحصون و القلاع في يديه من دون مقاومة، بما فيها القدس. و لم تبق في أيدي الصليبيين إلا مدينة صور، التي أنقذها كونراد دو مونتفرا، فأصبحت مركز حشد للفرنجية. و طوال الأعوام التسعين اللاحقة تقريبا، ارتبط تاريخ الأيوبيين بالصليبيين و قتالهم، فكانت فلسطين في قلب ذلك التاريخ، و شهدت صعود صلاح الدين و التحرير، كما واكبت هبوط وراثته من بعده، و ما رافق ذلك من صراعات دامية.

ج) الأوضاع الاقتصادية – الاجتماعية

بعد الحملة الصليبية الأولى، و تأسيس مملكة أورشليم اللاتينية، انتعشت البلاد اقتصاديا، بعد الخراب الذي لحقها جراء الفوضى السياسية أيام السلاجقة و الفاطميين.

و انسجاما مع الأهداف الاقتصادية للحملات الصليبية، تحوّلت فلسطين، بسبب موقعها الجغرافي، من جهة، و نشاط المدن الإيطالية، من جهة أخرى، إلى مركز للتجارة الدولية بين الشرق و الغرب – من الصين إلى أوروبا. و قد أدت «الكومونات» الإيطالية، ذات الخبرة الواسعة بشؤون التجارة و التي تملك رأس المال و الأساطيل، دورا مركزيا في هذا التطور. و في أيام صلاح الدين، و كذلك في أيام العادل و الكامل من بعده، ازدهرت التجارة، و تطورت الزراعة و الصناعة. و لكن الأهم هو أن مدن الساحل أصبحت تستحوذ على قسط كبير من التجارة الدولية، و حلّت محل المراكز الكبرى السابقة – الإسكندرية و القسطنطينية – فأصبحت ملتقى التجارة من الشرق الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٥

و الغرب، تؤدي دورا وسيطا مهما بينهما، و تتمتع بامتيازات كبيرة، منحها الفرنجة للكومونات و التجار عموما، لقاء خدمات أساطيلهم و ما يقدمونه من مردود اقتصادي.

و مملكة أورشليم اللاتينية قامت على أساس إقطاعي، أخذ نموذجه عن النمط الفرنسي في القرن الحادي عشر. و بينما اكتفى الرأس الأول للمملكة بلقب حامى القبر المقدس، فإن وراثته توجهوا أنفسهم ملوكا. و كان للملوك حق توريث صلاحياتهم، و لكن بموافقة مجلس النبلاء. و كانت المؤسسة المركزية في المملكة هي المحكمة العليا، المكونة من حلقة أرستقراطية من المرتبة الأولى بين أتباع الملك. و برزت في هذه الحلقة عائلة إبلين، المقربة من العائلات المالكة في أورشليم و قبرص و بيزنطة. و لم تكن صلاحيات هذه المحكمة محددة بدقة، و لذلك توسعت أو تقلصت تبعا لهيئة الملك و سطوته، أو تخاذله و ضعفه. و على العموم، كانت بمثابة بلاط الملك، و جمع أعضاؤها في أيديهم الصلاحيات كلها تقريبا. فهي التي تسنّ القوانين و تشرف على الإدارة و الأموال، و تحسم الصراعات السياسية الداخلية، و تعقد المعاهدات و تعلن الحرب، و قد حال وجودها دون قيام إدارة ملكية خاصة.

و كانت المملكة مقسمة إلى إقطاعيات، يقوم عليها بارونات من أتباع الملك.

و حتى الإمارات المستقلة بكل معنى الكلمة – إديسا و أنطاكية و طرابلس – كانت تتبع رسميا للمملكة. و بصورة عامة، و في ذروة اتساعها، كانت مملكة أورشليم تضم أربع بارونيات: (١) بارونية يافا – عسقلان، و تضم أيضا الرملة و مجدل يابا؛ (٢) بارونية الجليل، و عاصمتها طبرية؛ (٣) إمارة صيدا و قيساريا و بيسان؛ (٤) إمارة الكرك و الشوبك و الخليل. و قد تداخلت أراضي هذه البارونيات بسبب الميراث و المهور و التبادلات و غيرها. و كانت العائلات الأرستقراطية تملك إقطاعيات كبيرة، مثل عائلة جوسلين دو كورتني، القريبة من العائلة المالكة، و التي كانت تملك أراضي واسعة في الجليل الغربي. و كان هناك عدد من الإقطاعيات الأصغر – بيروت و إسكندرون (جنوب لبنان) و حيفا و أرسوف و يبنى (إبلين) و غيرها. و تميّزت بموقع خاص أملاك التاج – القدس و نابلس و عكا و صور و دير البلح. و كان لكنيسة سان جورج امتيازات خاصة في اللد و الناصرة.

و كانت الإقطاعيات (البارونيات) صورة مصغرة عن المملكة، و كثيرا ما انتقلت، كليا أو جزئيا، من يد إلى أخرى، عبر الميراث أو الزواج. و قد حلت بها، و خصوصا في القرن الثالث عشر، تغييرات كان لها أثر بعيد. فعدا تقلص حجم المملكة و فقدانها الكثير من الأراضي التي احتلتها في البداية، راحت المنظمات العسكرية تستملك

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٦

مساحات من الأراضي، و خصوصا في المناطق الحدودية. فمن ناحية، هجرها الكثيرون من أصحابها بسبب الأوضاع الأمنية، و من الناحية الأخرى، توجه إليها فرسان المنظمات العسكرية للدفاع عن تلك الحدود. و في الإقطاعيات شكّلت محاكم عليا أيضا، من أتباع البارون الذين يمنحون إقطاعات أصغر، في مقابل الخدمات العسكرية و غيرها. و كانت مهمات هذه المحاكم في الإدارة و القضاء. و بالأساس، استند التقسيم الإقطاعي إلى التنظيم العسكري، و ضمان تقديم الخدمات العسكرية و القوات المقاتلة للدولة. فكان على كل سيد، بحسب مساحة إقطاعيته، أن يجند عددا من الفرسان و المشاة، و يجهزهم ليتحرك على رأسهم عند الحاجة، فكانوا بمثابة جيش من المرتزقة.

و على عكس الوضع العام في أوروبا الغربية، و انسجاما أكثر مع الحالة في إيطاليا و بيزنطة، احتلت المدن موقعا مرموقا في مملكة أورشليم اللاتينية و الإمارات الصليبية الأخرى في الشرق. و مع أن هذه المدن لم تصل إلى حد الاستقلال الذاتي (البولس اليوناني أو الروماني)، فإنها تمتعت بدرجة عالية من الحكم الذاتي. و كانت في كل مدينة محكمة بورجوازية، لها صلاحيات قضائية و إدارية و شرطية. و يتأسس المحكمة في العادة نبيل يسميه صاحب المدينة، و يعين معه عددا من المحلفين، من ذوي النفوذ. و صلاحيات هذه المحكمة تنحصر بالفرنجية، و لكن من العامة و التجار من دون النبلاء، و لها قوانينها الخاصة، غير الإقطاعية، و المرتكزة على القانون الروماني. و عدا القضايا الجنائية، عملت هذه المحكمة بالأمر المدنية و المالية و العقارية. أما الأمور العسكرية فكانت بيد قائد الحصن. و في المدن أيضا محاكم الميناء، التي تعنى بقضايا الصفقات التجارية البحرية، و شؤون القباطنة، و يتولى عضويتها خبراء بأمور البحارة.

و في المدن، و خصوصا الساحلية، أقام تجار المدن الأوروبية-الإيطالية و الفرنسية و الإسبانية-أحياء خاصة بهم، كانت على العموم مسورة، دعيت كومونة.

و في مقابل الخدمات التي قدمتها تلك المدن للحملات الصليبية، و خصوصا على صعيد نقل الجيوش و المعدات و المؤن بأساطيلها الكبيرة، حصلت على امتيازات تجارية عامة، و في بعض الحالات إدارية. و في الأغلب، تمتعت الكومونات باستقلال ذاتي، منحه لها الملك، و تميّزت بينها كومونات عكا و صور بعددها و ضخامتها. و كان يقوم على رأس الكومونة قنصل، تعينه المدينة الأم. و للكومونة استقلال قضائي، و خصوصا في الأمور التجارية، و لها شرطة تحافظ على الأمن فيها. و حرصت الكومونات على صيانة حكمها الذاتي، و استغلت حاجة المملكة إليها لانتزاع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٧

الامتيازات و الحفاظ عليها، و كل محاولات إلغاء هذه الامتيازات باءت بالفشل.

و على العكس، ففي مراحل ضعف المملكة زادت الكومونات في قوتها، فاضطدمت بعضها ببعض، و دارت بينها اشتباكات مسلحة أحيانا. لقد أدت التجارة دورا مركزيا في الحملات الصليبية، و عبرت عنه الكومونات بموقع متميز في مملكة أورشليم اللاتينية.

و طوال فترة قيامها في الشرق، ظلت الكيانات الصليبية تعاني نقصا في الطاقة البشرية، و بقي الفرنجية أقلية بالنسبة إلى السكان المحليين. و لأنها ظلت في حالة حرب مستمرة، فقد استنزف الجيش طاقة تلك الكيانات البشرية. و من هنا، بقيت تعتمد أصلا على المدد من أوروبا للدفاع عن نفسها إزاء المقاومة الإسلامية، و ظلت الحملات الآتية من الغرب تتحمل عبء المواجهة الواسعة. أما في حالات الهدوء النسبي، فقد اعتمد الفرنجية على السكان المحليين في توفير مستلزمات حياتهم، إضافة إلى ما يستوردونه من أوروبا، و تحمله

أساطيل المدن التجارية. و كان الجيش الصليبي يعتمد الأسلوب الإقطاعي الأوروبي في تشكيله. و مملكة أورشليم اللاتينية، في ذروة قوتها، امتلكت جيشا مؤلفا من ٦٠٠ فارس، و ٥٠٠٠ من جنود المشاة، بينما يقدر عدد سكانها آنئذ بنحو ١٢٠،٠٠٠ نسمة. و إذا أضيفت إليها قوات الإمارات الأخرى، و التنظيمات العسكرية، و ما التزمت به الأديرة و الكنائس، فالتقدير أن جيش الشرق وصل إلى ٢٠٠٠ فارس و ١٨،٠٠٠ من المشاة، و هو عدد كبير نسبيا بالنسبة إلى عدد السكان من الفرنجة في الإمارات.

و كان الفرسان عماد هذا الجيش، و هم القوة المدرعة، التي يساندها المشاة، بنسبة ١٠:١ تقريبا. و مع تطور الدرع في أوروبا، صار يغطي الفارس و حصانه.

و للفارس بوجه عام ٣ أحصنة و معاونان يحملان عتاده و متاعه. و هو يزود بخوذة حديدية و درع و ترس و حريتين (قصيرة و طويلة)، و رمح. و في هجوم منسق و مباشر، كانت هذه القوة ساحقة. و في الواقع، لم تصمد أمامها الجيوش الإسلامية في البداية.

ثم ما لبث المسلمون أن اكتشفوا نقطة الضعف فيها، و هي ثقل حركتها. فطوروا سلاح فرسانهم سريع الحركة، الذي تدعمه التباة (رماة السهام). و ابتدعوا تكتيكات ميدانية مضادة، تعتمد فتح الصفوف، و استدراج الفرسان المسربلين بالحديد، بعيدا عن المشاة، و من ثم الانقضاض عليهم من كمائن جانبية. و بناء عليه، اضطر الفرنجة إلى رقد سلاح فرسانهم الثقيل بآخر خفيف، يشبه قوات المسلمين. و قد جندوا أفرادهم من بين السكان المحليين، و عرف بلغتهم باسم أبناء الترك. و كانت خيولهم سريعة و ملائمة لعمليات الاستطلاع و الأشغال و الالتفاف و سلاحهم الرئيسي القوس الصغير.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٨

و استعمل الصليبيون المشاة كنبالة و قاذفي منجنيق و رماة رماح. و كان هؤلاء يتقدمون الفرسان و يحجبونهم، و بعد امتصاص صدمة اندفاع العدو الأولى، يفتحون تشكيلاتهم لانطلاق الفرسان عندما يستدير العدو. ثم يعود المشاة و يغلقون على الفرسان المدرعين. و يعتقد أن الصليبيين هم الذين طوروا هذا التكتيك. و عدد من الهزائم التي لحقت بالصليبيين كان سببها عزل الفرسان عن المشاة (كما حدث في حطين). و لم يكن للفرجة في الشرق أسطول خاص، إذ اعتمدوا كلية على أساطيل المدن التجارية، و خصوصا الإيطالية، و من خلال اتفاقات تجرى بين الطرفين. و قد تقلصت أهمية الأسطول و البحرية بالنسبة إلى مملكة أورشليم بعد أن أهمل الأيوبيون، و من بعدهم المماليك، البحرية، و عندها سيطرت أساطيل إيطاليا على البحر الأبيض المتوسط. و أقام الفرنجة دورا للصناعة (مسافن) في عكا و صور. و في القرن الثالث عشر، صارت مملكة أورشليم تعتمد أساسا على كتائب الفرسان التي يجيء بها ملوك أوروبا إلى الشرق، و يتركونها بعد عودتهم لفترة معينة في خدمة المملكة، أو التنظيمات العسكرية، أو حتى الأديرة و الكنائس.

و إزاء حالة الحرب المستمرة، و للتعويض عن النقص في الطاقة البشرية، عمد الصليبيون إلى إقامة شبكة من التحصينات، لم تشهد مثالا فلسطين، لا من قبل و لا من بعد. و قد أقيمت هذه التحصينات في النقاط الاستراتيجية، على الحدود، كما على مفارق الطرق و معابر الأنهار، و في محيط المدن الرئيسية، في الداخل، كما على الساحل. و بحسب ظروف الزمان و المكان، أقيمت تحصينات من ثلاثة أنماط: (١) حصون صغيرة، جدارها الخارجي هو سورها، و في زواياها أبراج مطلّة، و هي على العموم شبيهة بالحصون البيزنطية؛ (٢) قلاع كبيرة، قد تصل إلى حد استيعاب حامية عسكرية كاملة، و هي مجهزة للصمود في الحصار، و لها بالعادة سوران، يسيطر الداخلي منهما على الخارجي، و على الأسوار شبكة من الأبراج تسيطر على محيط القلعة، و تمكن من الدفاع عنها بصورة جيدة؛ (٣) مدن قديمة، أعيد ترميم أسوارها، و أقيمت فيها قلاع مسورة بصورة منفصلة، بحيث تكون قادرة على الصمود كوحدة دفاعية مستقلة، حتى بعد سقوط المدينة، و في المدن الساحلية جرت العادة على تحصين الميناء.

و كان الخط الخارجي للتحصينات موجهها إلى الشرق، لصد هجمات المسلمين، و الحؤول دون انتظامهم للقتال على حدود المملكة، أو داخلها.

و هذا الخط يبدأ في بانياس (الصبيبة)، على سفوح جبل الشيخ، و هي تسيطر على الطريق إلى دمشق، و ينتهي في جزيرة فرعون بخليج

العقبة. و هو يمر بقصر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٠٩

البردويل (بولدوين)، و منه إلى حيس جلدك (على الضفة الجنوبية لنهر اليرموك).

و في شرق الأردن، يضم عمان و الكرك و الشوبك و وادي موسى و العوير (سلع) و أيلة.

و يوازيه إلى الغرب من النهر خط آخر، يبدأ ببانياس أيضا، و يمر بقصر العطاره (الذي يحمي جسر بنات يعقوب)، ثم كوكب الهوى

(التي تحمي جسر المجامع)، ثم بيسان، فمجموعه من الحصون الصغيرة تحمي منطقته أريحا، (كانت في أيدي تنظيم الهيكلين). و

كان حصنا كرمل و السمّوع يحميان الطريق من النقب إلى الخليل.

و قلعتا غزة و دير البلح تحميان الطريق إلى مصر.

و في داخل البلاد بنيت تحصينات لحماية طرق المواصلات الرئيسية. و مع تقلص مساحة المملكة كثرت فيها القلاع، كما جرى

تحصين المدن الساحلية و الداخلية. فالطريق من دمشق إلى صور، سيطرت عليه قلعة باناس، ثم حصن هونين و قلعة تبين، و مدينة

صور نفسها كانت محصنة بشبكة مثلثة من الأسوار. و على الطريق بين صور و عكا حصنان: إسكندرون و الزيب. أما عكا، عاصمة

المملكة في القرن الثالث عشر، فكانت نفسها محصنة بسور مزدوج. و تحمي الطرق المؤدية إليها شبكة مستديرة من التحصينات و

القلاع- الزيب و المنوات و قلعة القرن (القرين) و معليا و جدّين و شفاعمرو و حيفا. و قلعة صفا الضخمة، التي أقام بها الهيكلين،

كانت تحمي الطريق بين عكا و جسر بنات يعقوب. و أما مرج ابن عامر الخصب و الاستراتيجي، فتدافع عنه من الشرق بيسان و كوكب

الهوى، و في المركز جنين و عفرلا و الفولة و جبل طابور و دبورية.

و أقيمت تحصينات قوية على الساحل إلى الجنوب من عكا و حتى دير البلح، و أهمها: عتليت و قيساريا و أرسوف و يافا و عسقلان و

غزة. و أسوار قيساريا جرى ترميمها أيام لويس التاسع. و على الطريق منها شرقا أقيمت تحصينات في وادي عارة (عرعرة) و اللجون و

جبل طابور و الناصرة. و على الطريق من يافا شمالا كانت المدينة المحصنة الرمله و كنيسة سان جورج المحصنة في اللد و مجدل يابا

و قلنسوة و برج الأحمر و قاقون. و بين يافا و القدس طريقان: الأول، يمر باللد و الرمله إلى البرج و بيت نوبا و قبيبة و النبي صموئيل و

القدس؛ و الثاني، من الرمله إلى اللطرون المحصنة، أبو غوش و القدس. و إلى الجنوب الغربي من القدس: بينى و تل الصافي و بيت

جبرين. و إلى الجنوب من القدس، بيت لحم و الخليل و غيرها.

و كانت عسقلان مدينة محصنة و فيها ميناء كبير. و لذلك، و بسبب موقعها الاستراتيجي ظلت موضوع خلاف بين الفرنجة و

المصريين في كل المفاوضات لعقد معاهدات.

و في مملكة أورشليم اللاتينية، كما في أوروبا و جزر البحر الأبيض المتوسط،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٠

أدت التنظيمات العسكرية الصليبية دورا مهما. ففيها تمثلت الروح الصليبية الأصولية، و بأفرادها تجسد التكامل بين الصليبي المقاتل و

الراهب. و كانت بدايات تلك المنظمات العناية بالحجاج، و لذلك عرفت باسم «الإستباريه» (تنظيم المشفى).

و قد تأسست قبل قيام المملكة، أما بعده، فزاد نشاطها، و حصلت على براءة من البابا، و أقامت فروعها في أوروبا. و كان أعضاء

التنظيم يؤدون قسم الرهبان المثلث- الاعتزال و الفقر و الطاعة. ثم أضافوا إلى عملهم في رعاية الحجاج ركنا أساسيا هو الدفاع عن

مملكة أورشليم اللاتينية، فاكثروا طابعا عسكريا. و قام التنظيم على الصدقات، و جمع أموالا كثيرة، فاشترى أراضي و استغلها. و كان

مركزه بداية في القدس، ثم بعد سقوطها، انتقل إلى حصن الأكراد في سورية. و بسبب قوته الاقتصادية، أصبح هذا التنظيم قوة

عسكرية كبيرة في المملكة. و كان أعضاؤه يلبسون العباءة السوداء، و عليها صليب مالطا، الأبيض اللون ذو الزوايا الثمان، على الجانب

الأيسر من الصدر. و قد استمر هذا التنظيم في أوروبا و جزر البحر الأبيض المتوسط حتى بعد نهاية دولة الفرنجة في فلسطين.

و بعد الإستباريين بعدة سنوات، قام تنظيم آخر- الهيكليون (تمبلرز). و كانت مهمتهم المركزية مرافقة قوافل الحجاج و حمايتها. و بناء عليه، فقد اتخذ هذا التنظيم طابعا عسكريا منذ البداية، و تمركز في القدس (الحرم الشريف). و كان لباسهم عباءة بيضاء، عليها صليب أحمر. و انتشروا في أوروبا أيضا، و استحوذوا على أملاك واسعة، كما قاموا بعمليات مالية و مصرفية كبيرة، الأمر الذي أساء إلى سمعتهم، و بالتالي أدى إلى تصفيتهم. و عندما تضععت أحوال المملكة، كان الهيكليون، بالتعاون مع الإستباريين و الثيوتون (التنظيم الثالث الألماني)، يشكلون العمود الفقري لقوة المملكة العسكرية، التي تحملت العبء الأكبر في الدفاع عن حدودها. و لذلك انتشر أعضاء هذه المنظمات في الحصون الحدودية. و كان مركز المنظمة الثيوتونية في قلعة القرين (مونتفورت) في الجليل الغربي.

و حاول الصليبيون الاستيطان الزراعي في بعض المناطق- محيط الرملة و بيت جبرين و جبل الطابور و الزيب و حيفا. و أحيانا تحولت القرى الزراعية إلى بلدات مسورة- غزة و الشوبك- لكن النتائج على العموم ظلت ضئيلة. و كانت القرى الزراعية تقام في محيط المدن، أو بالقرب من القلاع و الحصون، لتكون ملاذا للفلاحين الفرنجة في وقت الحرب. و مع أن الدولة، أو المؤسسات الكنسية، و حتى العائلات الإقطاعية، منحت هؤلاء المستوطنين امتيازات كثيرة، فأعطتهم نحو ٧٠٠ دونم للعائلة، و خفضت عليهم الضرائب و شكلت لهم محاكم خاصة و أشركتهم في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١١

المنهوبات من السكان المحليين، إلا إنهم آثروا المدن على الريف، و اشتغلوا بالتجارة و الإدارة و الخدمات. و في القرن الثالث عشر، عندما تقلصت مساحة المملكة اللاتينية، تضاعف هذا الاستيطان إلى حد التلاشي.

و بذلك، و طوال قرنين من الوجود الفرنجي في الشرق، ظل الريف أهلا بالسكان المحليين بصورة عامة، و بقيت الزراعة حكرا عليهم تقريبا. و بعد الموجة الأولى من الاحتلال و المجازر و التهجير و الاستيلاء على الأراضي، استقرت الأحوال بصورة عامة، و لكن ما لبثت الحروب أن اندلعت و راحت و تيرتها تتصاعد، و الريف يتحمل النكبات. و مع ذلك، كانت البلاد تنتج حاجتها من المحاصيل الزراعية، و توفر حتى فائضا محدودا للتصدير. غير أن الوضع تغير في القرن الثالث عشر، و صار اعتماد الفرنجة على أوروبا أساسا. و إذ كان السكان المحليون في المدن مواطنين من الدرجة الثانية، فإنهم في الريف كانوا أقرب إلى الأتقان، لكن ليس بصورة رسمية، كما في أوروبا. لقد اكتشف الصليبيون أهمية سكان الريف، فتركوا لهم فلاحه الأرض، و جبووا منهم الضرائب التي وصلت إلى ثلث المنتج. و تركوا للطوائف محاكم الأحوال الشخصية. أما في المدن، فإن المحاكم المختلطة التي سيطر عليها أصحاب الكومونات، ابتلعت المؤسسات القضائية الأخرى للسكان المحليين.

سادسا: العصر الأيوبي

إشارة

ولد صلاح الدين يوسف بن أيوب (الملك الناصر- السلطان) في مدينة تكريت (العراق)، لعائلة كردية سنة ١١٣٨ م. ثم انتقل مع والده إلى بعلبك (لبنان)، حيث عين قائدا عسكريا فيها أيام عماد الدين زنكي. و برز صلاح الدين على المسرح عندما رافق عمه أسد الدين شيركوه إلى مصر (١١٦٤ م). و في سنة ١١٦٩ م، تولى الوزارة في القاهرة بعد موت عمه. و في سنة ١١٧١ م، ألغى الخلافة الفاطمية الشيعية، و أعلن البيعة للخليفة العباسي السنّي المستضيء. و منذئذ برز توتر بينه و بين نور الدين زنكي، حسم بوفاء الأخير، و اقتسام وراثته ملكه. و بناء عليه، كان على صلاح الدين أن يقاثلهم من أجل توحيد مصر و سورية تحت قيادته، و ذلك في سبيل تحقيق حلمه و مشروع حياته- تصفية الكيانات الصليبية في الشرق. و في معركة حطين (١١٨٧ م) حقق صلاح الدين إنجازا ضخما على هذا الصعيد، لكنه مات سنة ١١٩٣ م، قبل أن يستكمل مشروعه و بقي الوجود الفرنجي في الشرق قرابة قرن من الزمن بعد وفاته.

و كانت معركة حطين منعطفًا تاريخيًا بالنسبة إلى العلاقات بين الشرق والغرب، انقلبت فيه موازين القوى، و تبدلت المواقع. فبالنصر الساحق، عسكريا و سياسيا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٢

و معنويا، الذي حققه صلاح الدين، وضع الوجود الفرنجي في الشرق في موقع الدفاع عن النفس بصورة عامة، و بالتالي أطاح بالجهود كلها التي بذلتها أوروبا في إقامة كياناتها في الشرق، و جعل نتائجها هباء. و بامتلاكه القوة لفعل ذلك، فقد جعل الحملات الصليبية التالية، التي لم تتوقف، لا تتعدى كونها غارات عقيمة. لقد حسم مصير الصراع بين الشرق الإسلامي و الغرب المسيحي، فالشرق لا يزال قادرا على القيام بما يلزم لدرء عدوان الغرب و أطماعه. و كانت الحملة الثالثة بعد سقوط القدس (١١٨٩-١١٩٢ م) تعبيرًا عن موازين القوى بين صلاح الدين و أوروبا. و قد اتخذت فعلا هذا الطابع، إذ من جهة، كانت حرب دار الإسلام ضد دار الحرب، و من جهة أخرى، حرب أوروبا المسيحية ضد الشرق المسلم. و بهذا المعنى، كانت حملة ملوك أوروبا الكبار متواضعة النتائج جدا. و انتهت بصلح، بقيت فيه مملكة الفرنجة على شريط من الساحل، تصارع بشأن البقاء؛ بينما انتقل الداخل كله إلى يد صلاح الدين.

و بعد حطين أخذ صلاح الدين طبرية، ثم تقدم إلى عكا، فاستسلمت بعد مقاومة طفيفة، و أذعنّت مدن الجليل و حصونه، ثم أخذ نابلس و يافا، و كذلك بيروت و صيدا، و ظلت صور. و انتقل إلى فلسطين، تاركا أنطاكية و طرابلس، فأخذ الرملة و يبنى و دير البلح و غزة و بيت جبرين و عسقلان. و كان بعض قادته يتحركون في طول البلاد و عرضها، فأخذوا الناصرة و قيساريا و صفا و صفورية و الشقيف و جبل الطور و معليا و غيرها. و أخيرا جاء دور القدس، فحاصرها، ثم ما لبثت أن أذعنّت، و خرج الصليبيون منها بموجب اتفاق، و دخلها صلاح الدين، و صلى الجمعة في ٢٧ رجب ٥٨٣ هـ / ٢ تشرين الأول / أكتوبر ١١٨٧ م في المسجد الأقصى، بعد أن أزيلت عنه و عن الصخرة المشرفة المعالم النصرانية جميعها. و تجمع الصليبيون في ثلاث مدن ساحلية - أنطاكية و طرابلس و صور. أما المواقع الصليبية الحصينة في شرق الأردن - الكرك و الشوبك و غيرها، فقد سقطت خلال العام التالي.

و إذ يسجل المؤرخون لصلاح الدين هذا الإنجاز الكبير، و ما واكبه من تضحيات، و ما رافقه من بطولات و فروسية و مكارم الأخلاق .. إلخ، فإن البعض يأخذ عليه عدم انتهاء الفرصة و استكمال المهمة بإسقاط أنطاكية و طرابلس و صور. ففي صور بالذات، بدأت الحملة الصليبية الثالثة، إذ وصلها كونراد دو مونتفات، و تولى الدفاع عنها، فجمع حوله خليط من المقاتلين، جاؤوا من المدن التي سقطت في يد صلاح الدين، و من جميع أنحاء أوروبا، جماعات جماعات. فصمد فيها حتى وصلت الحملة الصليبية الثالثة، بقيادة ملوك أوروبا الأقوياء. و في أوروبا، بعد سقوط القدس، تحرك البابا و استطاع استنهاض ثلاثة ملوك أقوياء: فيليب الثاني (أغسطس)،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٣

ملك فرنسا؛ و ريتشارد الأول (قلب الأسد)، ملك بريطانيا؛ و فريدريك الأول (بربروسا)، ملك ألمانيا. و إذ استطاعت أوروبا أن تحشد قواها، على الرغم من الخلافات بين ملوكها، فإن صلاح الدين ظل وحيدا في الشرق، بل زادت عداوة جيرانه له، بينما استنزفت الحرب قواه البشرية و موارده المادية.

و قد سبق الحملة العسكرية نشاط دعاوى تحريضية، و سياسى دبلوماسى، على الجانبين، الأمر الذي جعل هذه الحملة، بفعل التعبئة المعنوية، عملية منازلة بين المسيحية و الإسلام، فكان لكل طرف شعاراته و مقولاته، و كذلك أبطاله و رموزه.

و بفعل التحريض التحق بالملوك عدد كبير من النبلاء، من جميع أنحاء أوروبا، كما أن ملك صقلية النورمانى، ساهم في نقل الجنود و العتاد في سفنه إلى الشرق. و بدأت الحملة بنجاح، على الرغم من غياب الخطة الموحدة و الفكرة الموجهة. و جرت اتصالات مع حكام البلاد التي ستمر بها الجيوش لتأمين الانتقال السلمى إلى الشرق.

أمّا فيليب و ريتشارد، فقد اختارا طريق صقلية، و لذلك توصلا إلى تفاهم مع ملكها النورمانى. و فريدريك أخذ طريق البر عبر

هنغاريا، بعد أن طمان إمبراطور بيزنطة، و وادع سلطان نيقيا السلجوقي، ليعبر آسيا الصغرى، فقبل هذا بسبب عدائه لصالح الدين. وكان صيت هذه الحملة أكبر من نتائجها. ففريدريك بربروسا، الذي لم يأل جهدا في تأمين طريقه إلى جبهة القتال، سقط و غرق في النهر في أرمينيا الصغرى، على مشارف أنطاكيا، وقبل أن يشتبك مع العدو. و تفتت جيشه، فممنه من عاد إلى بلاده، و منه من تابع طريقه إلى صور. و ريتشارد (قلب الأسد) تملكاً في قبرص لاحتلالها، قبل أن يصل إلى فلسطين. و فقط فيليب (أغسطس) وصل بجيشه. و في هذه الأثناء كان غي دو لوزينيان، ملك أورشليم السابق، و معه فلول صليبي الشرق، و ما جاءه من مدد أوروبي خليط، قد توجه إلى عكا، فحاصرها، ثم انضم إليه كونراد دو مونتفرات. فما كان من صلاح الدين إلّا أن طوق وحدات الصليبيين التي تحاصر عكا، ثم ما لبث الفرنسيون، و في إثرهم الإنكليز، أن وصلوا، و دارت معركة مواقع، بين قوتين متكافئتين، كانت الحامية الإسلامية داخل عكا في الوضع الأصعب.

و استمر هذا الحصار المتبادل من آب/ أغسطس ١١٨٩ إلى حزيران/ يونيو ١١٩١ م، سقطت في إثره عكا، الأمر الذي فتح شهية الصليبيين إلى مزيد من القتال و الاحتلال.

بعد سقوط عكا، و دخول الصليبيين إليها، دب الخلاف بين ريتشارد و فيليب، فغادر هذا الأخير عائدا إلى بلاده. و ساورت ريتشارد أفكار استعادة أراضي مملكة أورشليم اللاتينية. فتقدم إلى حيفا، و منها إلى قيساريا فأرسوف. و هناك اشتبك

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٤

الطرفان في معركة شرسة في ٧ أيلول/ سبتمبر ١١٩١ م، كان النصر فيها للصليبيين.

فاحتلوا أرسوف، ثم يافا، التي أعاد ريتشارد بناء مينائها ليكون الثالث بعد عكا و صور في أرض ما تبقى من مملكة أورشليم، إضافة إلى أنطاكيا و طرابلس. و بعد أرسوف توجه صلاح الدين إلى القدس لتحسينها، بعد أن دمر وراءه اللد و الرملة و اللطرون.

و تبعه ريتشارد، إلّا إنه غير رأيه عند مشارف القدس لاقتناعه بعجزه عن أخذها عنوة.

و في ٢ أيلول/ سبتمبر ١١٩٢ م، توصل الطرفان، بعد مفاوضات طويلة، إلى اتفاق، أقيمت بموجبه مملكة صليبية، مركزها عكا (سان جان داكر)، و حدودها في الشمال صور، و في الجنوب يافا، و تضم الشريط الساحلي في السهل من دون الجبل، و منطقة الرملة مقسمة بين الطرفين، و للمسيحيين الحق بزيارة الأماكن المقدسة في القدس و الناصرة.

في هذا الصلح بين صلاح الدين و ريتشارد قلب الأسد، دخلت عوامل متعددة.

فعدا العلاقات الشخصية التي نسجت بين الاثنين على ساحة المعركة، كانت هناك عوامل موضوعية. فبالنسبة إلى صلاح الدين، كانت الحرب التي خاضها طوال ما يقارب العقدين قد أنهكت جيشه، و أفرغت خزائنه، و خصوصا أن بقاء الحكام المسلمين لم يقدموا له أية مساعدة تذكر، بل على العكس. و أمّا ريتشارد، فقد جرح في معركة أرسوف، ثم مرض، و بلغه خبر الانقلاب الذي قام به أخوه عليه في إنكلترا، فاستعجل العودة. و قبل أن يغادر حسم مسألة الملك في عكا لمصلحة مونتفرات، الذي ما لبث أن اغتالته الإسماعيلية، فعين ريتشارد مكانه ابن أخته هنري دو شامبين. أمّا ملك أورشليم السابق، غي دو لوزينيان، فقد اشترى جزيرة قبرص من ريتشارد، و أقام فيها ملكا صليبيا، دام ثلاثة قرون تقريبا (١١٩٢-١٤٧٢ م)، و ظل نشطا في العمل ضد الشرق حتى سقط بأيدي العثمانيين.

و بعد الصلح الذي يبدو أنه كان مرغوبا فيه من الجانبين، عاد صلاح الدين إلى دمشق، ليأخذ استراحة المقاتل بعد عشرين عاما من الجهاد غير المنقطع. فوفاته المنية في ٣ آذار/ مارس ١١٩٣ م. و ظل صلاح الدين رمزا لفروسية القرون الوسطى، يشهد له بذلك أولياؤه و أعداؤه، في الشرق كما في الغرب. ففضلا عن قدراته العسكرية و القتالية، و تشبته بالهدف و جلده على تحمل الأعباء في الصراع الطويل، عرف صلاح الدين بالزهد في حياته، و بمكارم الأخلاق و المروءة و حسن المعشر.

و كان يميل إلى العلم و الأدب، و يرعى الحرمات و يخاف الله. و من هنا، ظل شخصية تاريخية مرموقة طوال القرون. و قد ذاع صيته في حياته، كما أصبح أسطورة بعد مماته، ليس في المشرق فحسب، بل في المغرب أيضا. و كتب عنه الأوروبيون

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٥

و أنصفوه كما لم يفعلوا مع غيره في الشرق. لقد أعجبوا بصفاته، فاستحوذ على خيال الشعراء و الكتاب، كرمز للفروسية و المروءة و النبيل.

و مثل الكثيرين من الرجال العظام في التاريخ، مات صلاح الدين و ترك وراءه فراغا، لم يكن بين ورثته من يملؤه، و تصارع الإخوة و الأبناء بشأن اقتسام التركة المادية الكبيرة، من دون اكتراث بالإرث المعنوي. و صار الجهاد بالنسبة إليهم مسألة سياسية دنيوية، كما هي الحال بالنسبة إلى الفرنجة في الحملات المتعددة اللاحقة.

فالحملة الرابعة كانت موجهة لاحتلال القسطنطينية، و الخامسة و السابعة ضد مصر.

و فقط السادسة كانت لها علاقة ما بفلسطين، و انتهت إلى تغيير بعض بنود المعاهدة التي أمضاها صلاح الدين مع ريتشارد قلب الأسد. و كانت هناك حملات عبثية- حملة الأطفال الذين بيعوا عبيدا في سوق النخاسة، و حملة الرعاة الذين قتلوا في أوروبا ... إلخ. كما قام البابا بحملات ضد ملك إنكلترا و صقلية. و هكذا ظلت الحروب الصليبية مستعرة، و لكن خارج فلسطين و من دونها.

و تقاسم أبناء صلاح الدين و إخوته تركته، و اختلفوا عليها و اقتتلوا من أجلها، و انتقلت الولايات من يد إلى أخرى. فوعدت فلسطين بداية في يد الابن البكر، الأفضل الذي احتفظ بدمشق و بعلبك و الساحل و فلسطين، ما عدا الشريط الصليبي بين صور و يافا. ثم ما لبثت أن انتقلت إلى يد العزيز، الابن الذي احتفظ بداية بمصر.

و خلال عام انتقلت إلى العادل، أخى صلاح الدين الذي أخذ الأراضي التابعة للأفضل، ثم بعد موت العزيز، أخذ مصر كذلك، و دمشق، بعد قتال مع أبناء أخيه.

و بذلك أصبح العادل رجل بنى أيوب، بعد صلاح الدين. و بهذه الصفة تولى إدارة الصراع مع الصليبيين، الذين لم يتوقف تدفقهم على الشرق، بصورة أو بأخرى. و في أيام العادل برز الصليبيون الألمان (التوتوني)، يحملون مشروع الإمبراطور هنري السادس (١١٩٠-١١٩٧ م)، في حين اعتبروا أنفسهم غير ملزمين بالمعاهدات المعقودة سابقا.

و هذا التنظيم الألماني (التوتوني)، الذي تشكل أيام حصار عكا (١١٨٩-١١٩١ م)، خرق الهدنة بين الأيوبيين و ملك عكا (أورشليم اسما)، فقاتلهم العادل و هزمهم بالقرب منها. ثم اصطدم مع ملك عكا، آموري الذي كان يعد لاحتلال بيروت، فهزمه في معركة تل العجول (قرب غزة)، سنة ١١٩٧ م. و ردّا على الهزيمة، احتل آموري، بمساعدة الألمان، بيروت (١١٩٧ م). فأوجد بذلك تواصلا مع طرابلس و أنطاكيا. ثم حاول التوتون التوسع شرقا، فحاصروا تبين (جنوب لبنان)، ثم انسحبوا عندما وصلهم خبر وفاة هنري السادس. و بعدها توقف الطرفان عن القتال، بعد أن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٦

توصلا إلى هدنة. و عاد العادل إلى تنظيم أمور ملكه، و ترتيب البيت الأيوبي، الأمر الذي أثار آمالا كبيرة بين الناس. لكنه ما لبث أن عقد معاهدة مع آموري (١٢٠٤ م) لمدة ست سنوات، تنظم العلاقات السياسية و التجارية بين الطرفين، و تعيد يافا إلى ملك عكا، و كذلك بعض الأراضي في منطقة صيدا، مع ممر إلى الناصرة.

و هذه المعاهدة (١٢٠٤ م) تشير بوضوح إلى تخلي الجانبين عن الفكرة الأساسية للحروب الصليبية. فهي تركز على العلاقات التجارية، و على المصالح السياسية و الاقتصادية المشتركة. و هي تنطلق من واقع التنافس بين القوى، سواء في الشرق أو الغرب. و أوروبا التي دب الخلاف بين أقطابها، لم تستطع استغلال تفتت الدولة الأيوبية بعد موت صلاح الدين. و الألمان الذين تصدروا عمليات التوتير و التحرش في الشرق، على أرضية مشروع هنري السادس، انكفأوا بعد موته. و ملك عكا، آموري قطع كل أمل في إمكان استعادة الأراضي التي فقدتها مملكة أورشليم اللاتينية، أيام صلاح الدين، و خصوصا بعد أن غيرت الحملة الصليبية الرابعة و جهتها إلى القسطنطينية بدلا من فلسطين. و منذ هذه الحملة، راح يبرز دور المدن الإيطالية، و خصوصا فينيسيا (جمهورية سان مارك)، في تقرير

أهداف النشاط الأوروبي في الشرق، و تخضعه لخدمة مصالحها و اعتباراتها التجارية.

و كان من نتائج الحملة الرابعة، و إقامة مملكة لاتينية في القسطنطينية، أن أصبحت هذه المدينة بؤرة استقطاب للفرنجة الذين كانت عيونهم على الشرق.

كذلك، و بعد احتلالها، حازت أسواقها اهتمام المدن الإيطالية الرئيسية، كونها ركزت أولوياتها على تطوير علاقاتها التجارية مع الشرق، و بالتالي وراثته أسواق القسطنطينية.

فعملت تلك المدن، و في مقدمتها فينيسيا (البندقية) على عقد معاهدات مع الأيوبيين في كل من مصر و سورية. و لكن، بعد موت آموري (١٢٠٥ م)، خلفه جون دو براين، الذي كانت لا تزال تساوره أحلام استعادة القدس، فتوجه إلى طلب المساندة من البابا إنوسنت، فجاءه المدد من ملك هنغاريا، الذي توجه على رأس جيش إلى عكا (١٢١٧ م)، بالتعاون مع ملك قبرص. لكن هذه المغامرة ذهبت سدى، لأنها عمدت إلى الغارات العشوائية للتخريب و النهب في الجليل و بيسان و الطابور و الجولان و بانياس و تبين و الشقيف و غيرها. و في أثناء الحملة، أعيد تحصين قيساريا، و بنيت قلعة عتليت (شاتو بيليرين). و فجأة غادر الملك الهنغاري فلسطين عائداً إلى بلاده، من دون تحقيق أية نتائج ذات طابع دائم.

و انضمت بقايا هذه الحملة إلى المغامرة التي قام بها جون دو براين إلى مصر (الحملة الخامسة)، فقد حشد هذا ما استطاع من جنود و سفن، و ما جاءه من مدد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٧

أوروبي، و قصد دمياط (١٢١٨ م)، فحاصرها في بداية سنة ١٢١٩ م، و سقطت في يده بعد تسعة أشهر. و في هذه الأثناء مات العادل (١٢١٨ م)، و تولى الملك من بعده ابنه الكامل (١٢١٨-١٢٣٨ م)، الذي كان يلي مصر في حياة والده. فعرض الكامل على جون دو براين الصلح في مقابل إعادة أراضي مملكة أورشليم اللاتينية جميعها ما عدا الكرك و الشوبك، للحفاظ على طريق المواصلات مع سورية. لكن مبعوث البابا، الكاردينال بلاجيوس، الذي ادعى تفويض البابا له بقيادة الحملة، رفض العرض. و بما توفر لديه من جند، و بعد أن انتظر المدد من أوروبا طويلاً من دون جدوى، تقدم إلى القاهرة، فهزم عند المنصورة (١٢٢١ م)، و انسحب من مصر، بعد أن عقد الطرفان معاهدة لمدة ثمانى سنوات. و خلال حصار دمياط قام المعظم، ملك دمشق، و الأشرف، ملك الجزيرة، و هما أخوا الكامل، بهجمات على فلسطين، أدت إلى إخلاء قيساريا، لكن عتليت صمدت أمامها.

و بعد هذه الحملة الفاشلة، توقع الصليبيون في الشرق حملة جديدة، بقيادة فريديريك الثاني هوهنشتاوفن. و كان فريديريك، قيصر ألمانيا و ملك صقلية الذي يجيد العربية و يتذوق آدابها، يجري اتصالات مع العادل في القاهرة، و بعده مع الكامل، منذ سنة ١٢٠٦ م. و كان على خلاف مع البابا لموقفه من الكنيسة، و لأنه وعد بالقيام بحملة صليبية إلى الشرق، و لم ينفذ ذلك. و مع أن القيصر، الذي نشأ في صقلية، و درس علوم العرب، أرسل بعض المدد إلى الشرق (١٢٢٧ م)، لكنه تلكأ عن الخروج حتى سنة ١٢٢٨ م، متوجهاً إلى عكا، في حملة المفارقات. فهو يقود حملة صليبية، بينما يطارده «الحرمان الكنسى» الذي فرضه عليه البابا. و اتخذت الحملة طابعا عسكريا، بينما لم تقع فيها معركة واحدة، بل اعتمدت الدبلوماسية و السياسة. و وصل فريديريك إلى عكا بصفته وراثا لملك القدس، بعد أن تزوج ابنة جون دو براين.

و توصل إلى معاهدة بالمفاوضات مع صديقه الكامل، حصل بموجبها على ما لم يستطعه ريتشارد قلب الأسد بالقتال مع صلاح الدين قبل أربعين عاما.

و قبل وصول فريديريك إلى عكا، كانت طلائع الحملة بالتعاون مع ملك عكا قد وسعت حدود المملكة في مقاطعة صيدا و جوارها، و أعادت بناء أسوار قيساريا، و كذلك يافا و بيروت. و حصنت قلعة القرين (مونتفورت). و بفضل العلاقات الجيدة بين القيصر و الكامل، من جهة، و الخلافات الحادة بين الكامل و أخيه المعظم، الذي أراد الاستيلاء على أراضي الأخ الثالث، الأشرف، من جهة

أخرى، استطاع فريدريك أن يحصل من الكامل على معاهدة يافا في شباط / فبراير ١٢٢٩ م. و كان المعظم قد استعان بالسلطان جلال الدين الخوارزمي، سيد إيران ضد أخيه الأشرف، ثم خلع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٨

الكامل، و دعا في خطبة الجمعة إلى جلال الدين. و هبّ الكامل لنصرة الأشرف، و كاتب فريدريك يعده بتسليم أراضي المملكة اللاتينية له، و كلها من أملاك المعظم، طمعا في كسب تأييد القيصر له، و رغبة في الحؤول دون وقوع الأراضي الأيوبية في بلاد الشام بين فكي كماشه- الصليبيون من الغرب، و الخوارزميون، و من ورائهم المغول، من الشرق.

و بموجب معاهدة يافا، أخذت مملكة عكا (أورشليم) مقاطعة صيدا (من دون قلعة بوفور- الشقيف)، و كذلك صفورية و الناصرة و اللد و الرملة و بيت لحم، فضلا عن الحق باستعمال طريقين يؤديان إلى الجيبين- الناصرة و القدس. و في القدس، استعاد الفرنجة المدينة، و لكن من دون الحرم (المسجد الأقصى و قبة الصخرة)، الذي بقي في أيدي المسلمين. و توج فريدريك نفسه ملكا على أورشليم، ثم سلمها لممثلين عنه، و غادر إلى صقلية. و إجراءات فريدريك هذه جرّت وراءها مشكلات في أوروبا، كما في الشرق. و تصدر الصراع ضده في الشرق، النبلاء من بيت إبلين (ينبي)، الذين أقاموا في قبرص، و ادّعوا الحق في ملك أورشليم. و استمرت الحرب من سنة ١٢٣١ م إلى سنة ١٢٤٣ م، فأضعفت قوة الصليبيين. و بينما الأيوبيون يتصارعون، كذلك كان الحال بين الفرنجة فالجاليات الإيطالية (الكومونات) انتزعت لنفسها حكما ذاتيا، و أدارت سياسة خاصة بها، كما اندلع الصراع بين المنظمات الصليبية (الهيكلين و الإستانيين و التوتون).

و بموازة الصراع بين الصليبيين، دخل الأيوبيون في اقتتال بينهم. و كان الكامل قد نزل فلسطين (١٢٢٨ م)، و انتزع القدس و نابلس من ابن أخيه، الناصر داود بن المعظم، صاحب دمشق. ثم سلم القدس إلى فريدريك في المعاهدة. و بعد أن اطمأن إلى نوايا القيصر، تحرك برفقة الأشرف، فحاصرا دمشق و أخذها، فأعطيت للأشرف، إضافة إلى طبرية. و أمّا الناصر داود، فبعد خضوعه، أعطى شرق الأردن- الكرك و البلقاء و السلط و الأغوار. و أخذ الكامل الشوبك، ليقى الطريق بين مصر و سورية تحت سيطرته. و هكذا أصبحت فلسطين مقسمة بين حكام أربعة: (١) الصليبيون في عكا، و لهم الساحل و القدس و الناصرة؛ (٢) الكامل في مصر، و له الجنوب إلى اللد و الرملة و الشوبك؛ (٣) الأشرف في دمشق، و له طبرية و الجليل و نابلس؛ (٤) الناصر في شرقي الأردن، و له الأغوار و ما وراء القدس في وسط البلاد.

و كان الخوارزميون، الذين تحركوا غربا تحت ضغط المغول، قد أصبحوا قوة في إيران، تهدد الخلافة العباسية و أرمينيا و الجزيرة. و في سنة ١٢٣٠ م، احتل جلال الدين منكوبرتي، سلطان الخوارزمية، خلاط من أرض الجزيرة التابعة للأشرف.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢١٩

فتحالف الأيوبيون مع سلاجقة روم، و هزموا جيش جلال الدين. و في السنة التالية (١٢٣١ م)، قتل جلال الدين و هو هارب من وجه المغول. فتفرق أتباعه، يعيشون فسادا في أرض الخلافة، و التحق الكثيرون منهم كمرتزقة في جيوش الأيوبيين. و استمر الأيوبيون في التناحر، على الرغم من الخطر المغولي الداهم من الشرق. و انفصل الأشرف عن الكامل، فانتزعت السلاجقة الفرصة، و أخذوا آمد و خربت و حران و الرها (١٢٣٥ م). و مات الأشرف (١٢٣٧ م) و خلفه ابنه، عماد الدين إسماعيل فتابع صراعه مع عمه الكامل، و نزل هذا الأخير على دمشق، و أخذها، و نقل إسماعيل إلى بعلبك، و له البقاع و بصرى و السواد (الجولان). ثم ما لبث الكامل أن توفي (١٢٣٨ م)، فدخل ملك بني أيوب مرحلة التدهور السريع.

و بينما الأيوبيون في صراعاتهم، و تناوبهم على ولاية هذه المدينة أو تلك بعد قتال، وصلت إلى عكا حملة صليبية جديدة، بقيادة ثيبو الرابع (كونت شامبين و ملك نافاريا)، و ذلك في سنة ١٢٣٩ م، أي في تمام معاهدة يافا (١٢٢٩ م). و تعرقت الحملة بسبب الانقسام داخل صفوف قادتها بشأن مسألة التحالف التكتيكي مع الأيوبيين- أيكون مع مصر ضد دمشق، أو العكس؟ ثم استقر رأيهم على

تحصين عسقلان، لتكون خطا دفاعيا في وجه المصريين. لكنهم هزموا في معركة بالقرب من غزة (١٢٣٩ م)، وانسحبوا إلى عكا. و انتهز الناصر داود، صاحب الكرك، الفرصة، متذرعاً بخرق الصليبيين المعاهدة، وأخذ منهم القدس، و خرب أسوارها و حصونها، و طردهم منها. و إزاء ذلك، تحالف إسماعيل، صاحب دمشق، مع الصليبيين، ضد تحالف الناصر و الصالح أيوب، صاحب مصر. و لكن هذا التحالف لم يثمر كثيرا، لأن جنود إسماعيل رفضوا القتال ضد أيوب، إلى جانب الفرنجة.

بعد فشله في تحقيق نصر على الصالح أيوب في مصر، و ذلك بالتحالف مع إسماعيل في دمشق، عقد ثيو هدنة مع أيوب، و غادر إلى فرنسا. و بموجب الاتفاق، اعترف أيوب للفرنجة بملكية قلعة الشقيف و صفد و تبين و هونين و طبرية و الطور (الطابور) و كوكب الهوى، فضلا عن القدس و بيت لحم و مجدل يابا و عسقلان. و لكن ما لبث ثيو أن غادر عكا، حتى وصلها ريتشارد كورنول (أخو ملك إنكلترا). و كان هذا يميل إلى التحالف مع الصالح أيوب في مصر، بدلا من إسماعيل في دمشق.

و توصل كورنول إلى تعديل المعاهدة مع أيوب، فأعيدت بموجبها للفرنجة الأراضي جميعها التي تضمنها الاتفاق بين الكامل و فريدريك. و عاد كورنول إلى بلاده، بعد أن وصل وفد من قبل فريدريك إلى القاهرة، استقبل بتظاهرة تعبر عن الصداقة بين الطرفين. و لكن هذا الترتيب لم يدم طويلا.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٠

ففي محاولاتهم استغلال التناقض بين دمشق و القاهرة، نقل الفرنجة الصراع إلى داخلهم أيضا. و بينما مال الهيكلون إلى التحالف مع دمشق، فضل الإيستاريون التحالف مع مصر، و وقف معهم التوتون الألمان. و عندما اندلع الصراع مع فريدريك الثاني في أوروبا، و امتد إلى قبرص و فلسطين انحاز إلى الهيكلين مناهضو القيصر، و سعوا لعقد حلف مع دمشق ضد مصر - الحليفة التقليدية لفريدريك. و قاموا بغارات على الخليل و نابلس. و تصدى لهم أيوب، من دون أن يكسر المعاهدة. و لكن عندما اندلع الصراع بين أيوب و كل من إسماعيل و الناصر داود و المنصور إبراهيم، صاحب حمص، انضم الفرنجة إلى أعداء أيوب، الذين وعدوهم بنصيب من ملك أيوب في مصر. و كان إبراهيم قد زار عكا، حيث استقبل بحفاوة، و أبرم الاتفاق. و إزاء هذا التحالف القوي، توجه أيوب إلى عصابات الخوارزمية، و دعاها إلى الدخول في خدمته، و قتال تحالف دمشق - الفرنجة.

و التقط الخوارزميون هذه الفرصة السانحة، إذ كانت كتائبهم تهيم على وجهها في المشرق، تسطو و تهب و تخرب، و هي هاربة أمام زحف المغول. و في طريقهم إلى مصر، أغاروا على المدن و القلاع و الحصون. و لما قاومت دمشق و صمدت في الحصار، تجاوزوها و تقدموا إلى الجليل، فأخذوا طبرية، و منها تقدموا إلى نابلس فالقدس. و لم يسارع أحد من التحالف إلى نجدة القدس، فسقطت في تموز/ يوليو ١٢٤٤ م في أيدي الخوارزميين، فنهبوا و خربوها، و أحرقوا كنيسة القيامة، و طردوا الفرنجة منها، ضمن اتفاق مع الناصر داود، لم يلبثوا أن نقضوه و انقضوا على قافلة المطرودين و قتلوا الكثيرين من أفرادها، و استكمل البدو في المنطقة المهمة. و بذلك خرجت القدس نهائيا من أيدي الفرنجة، فلم يعودوا إليها بعد ذلك. و عندما التحق الخوارزميون بأيوب، خرج هذا لمقاتلة أعدائه في قرية هربيا (قرب غزة)، و دارت معركة طاحنة في تشرين الأول/ أكتوبر ١٢٤٤ م، كسبها أيوب، و أنزل بأعدائه هزيمة ساحقة. و هناك من يعتبر معركة هربيا حطين ثانية، و يرى في أيوب أحد الثلاثة العظام من بني أيوب - صلاح الدين و الكامل و أيوب. و استبشر الناس خيرا، لكن الأمر لم يدم طويلا.

و تفرغ الملك الصالح نجم الدين أيوب لتصفية الحساب مع باقي أفراد بني أيوب الذين تحالفوا مع الفرنجة ضده. فأخذ أملاك الناصر داود جميعها في فلسطين (الخليل و بيت جبرين و القدس و الأغوار). و نزل دمشق فحاصرها، و استسلم له عمه إسماعيل و المنصور إبراهيم، الذي انضم إليه في دمشق. و بوساطة تجار دمشق و علمائها، أعطى أيوب بعلبك و بصرى لإسماعيل، و حمص و تدمر لإبراهيم، و بقي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢١

الناصر في الكرك. لكن إسماعيل عاد وثار على أيوب، متحالفا هذه المرة مع الخوارزمية، الذين أنزلهم أيوب بلاد الشام، فاحتلوا أرض الفرنجة المتروكة. فقاتلهم أيوب وهزمهم، وهرب من أفلت من الخوارزمية والتحق بالمغول، ثم تحوّل أيوب إلى قتال الفرنجة، فأخذ طبرية وجبل الطور وقلعة شقيف. وبعدها حاصر عسقلان، ففتحها ودمر أسوارها. وبذلك انحسرت مملكة عكا (سان جان داكر) إلى حدود يافا مرة أخرى. ثم دخل القدس، فأعاد بناء أسوارها. وانتقل إلى دمشق في ربيع سنة ١٢٤٩ م، و توفد عليه الأمراء لتقديم الولاء. وبدأ أن الدولة الأيوبية تنهض ثانية.

وعندها وافاه فريدريك الثاني بأبناء الحملة الصليبية السابعة، حملة لويس التاسع، ملك فرنسا، (١٢٤٨-١٢٥٤ م). وكان لويس التاسع يعد لحملة منذ سنة ١٢٤٧ م لئذ أخذ على نفسه. وخرج سنة ١٢٤٨ م، وأمضى فصل الشتاء في قبرص، وفي ربيع سنة ١٢٤٩ م، توجه إلى مصر. وكانت حملته تحمل طابعا فرنسيا صرفا، لم تشارك فيها أية قوة أوروبية أخرى، كما أن الكنيسة كانت بعيدة عنها، نظرا إلى ضعفها بصورة عامة إزاء الملوك في هذه المرحلة. وكان أيوب قد بلغه الخبر في دمشق، وقد ألمّ به المرض، فسارع إلى القاهرة. وإذ كان اتصال أيوب بفريدريك، من دون جدوى، فإن لويس أجرى اتصالا مع المغول، لم يتمخض عن نتائج تذكر. وعلاوة على ذلك، كانت التنظيمات الصليبية المتعددة- فرسان الهيكل والإسبانية والتوتون- تتصارع بين بعضها البعض.

وكذلك مدن إيطاليا- فينيسيا وبيزا وجنوة- تندلع بينها حرب تجارية، وصلت حد الاشتباك المسلح، وخصوصا بين بيزا وجنوة. وكانت المدينة الأقوى- فينيسيا- لا تنظر بعين الرضى إلى حملة لويس على مصر، نظرا إلى علاقاتها التجارية القوية معها. في المقابل كان بلاط أيوب يشهد ذروة التآمر بين حاشيته وأعدائه وأمراء جيشه، إذ أدت زوجته شجرة الدر دورا مركزيا.

وكان احتلال دمياط سهلا على لويس، فدخلها من دون خسائر كبيرة في ٥ حزيران/ يونيو ١٢٤٩ م، واتخذها مقرا له. في المقابل، خرج أيوب إلى المنصورة وعسكر فيها. فسار إليه لويس بعد انحسار مياه النيل. وما لبث أيوب أن مات، وقتل قائد جيشه، فخر الدين (ابن شيخ الشيوخ) في المعركة، وتولى مكانه المملوك بيبرس (البندقداري). وراحت كفة القتال تميل لمصلحة المماليك، فطلب لويس الصلح، ومبادلته القدس بدمياط. ورفض طورانشاه، ابن أيوب العرض. وانسحب لويس إلى دمياط، فكمن له المماليك وأوقعوا به، وأخذوه مع جيشه أسيرا في ٥ نيسان/ أبريل ١٢٥٠ م. ثم قتل المماليك طورانشاه، ونصبوا أبرزهم، أيبك سلطانا، وزوجوه شجرة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٢

الدر، أرملة أيوب وأم ولده الطفل، خليل الذي أرادت أن تحفظ حقه في ملك أبيه، بينما هي وصية عليه. ثم قتلها المماليك، لأنها قتلت أيبك. وعندما أطلق المماليك سراح لويس التاسع، لقاء فدية كبيرة، ظل هذا يسعى عبثا للهدف الذي انطلق من أجله. وشكلت سنة ١٢٥٠ م منعطفا حاسما، سواء بالنسبة إلى الأيوبيين، إذ به انتهى ملكهم عمليا، أو بالنسبة إلى مملكة أورشليم اللاتينية في عكا (سان جان داكر)، حيث بدأ العد التنازلي لنهايتها أيضا.

وكان طبيعيا ألا يرضى بنو أيوب بما فعله مماليك الصالح (نجم الدين أيوب) في مصر، وأن يقاتلوا للاحتفاظ بملكهم. وكان كلما أسرعوا إلى تحقيق ذلك، قربوا نهايتهم، وهكذا جرى. ومرة أخرى، عاد لويس التاسع (الطلق) يستغل التناقضات بين مصر ودمشق، ولكن من دون جدوى. ولاح في الأفق بصيص أمل للصليبيين من الشرق- المغول. ولكن هذا الأمل سرعان ما خاب. فبعد موت الخان الأكبر، منكوخان، قرر هولوكو الانسحاب والعودة إلى قره قرم. وكان هذا السفاح قد دخل بغداد (١٢٥٨ م)، وخربها، وقتل الخليفة. ثم ما لبث أن توجه إلى بلاد الشام، فاحتل الجزيرة و حلب و دمشق وغيرها، وخربها، وأرسل تهديداته إلى مصر. وبعد عودته إلى بلاده، ترك جزءا من الجيش مع كتبغا، بينما الأغلبية عادت معه. واستطاع المماليك، بقيادة قطز، إلحاق الهزيمة بالمغول، أولا في غزة، ثم في عين جالود، في وسط مرج ابن عامر. ولم يستطع الصليبيون، بسبب خلافاتهم الداخلية، والصراع بين المنظمات

العسكرية و المدن الإيطالية التجارية، الإفادة من الغزو المغولي. و دخلت البلاد عصرا جديدا هو العصر المملوكي (١٢٦٠ م).

السكان و العمران

لقد جمعت فلسطين في القرنين - الثاني و الثالث عشر- الضدين (الأيوبيين و الفرنجة) في وحدة صراعية، و كل حركة من أحد هذين الطرفين استوجبت حركة مضادة من الآخر. و إلقاء نظرة سريعة إلى تاريخ فلسطين في هذه الفترة، تظهر أن البلد كان ساحة نزال بين الجانيين. و العصر الأيوبي تزامن مع وجود مملكة أورشليم اللاتينية، في ذروة اتساعها بداية، ثم بحجمها المقلص. و ما عدا فترات قصيرة من المهاندنة، كان الصراع، بهذه الدرجة من الحدة أو تلك، هو السمة البارزة للعلاقة بين الأيوبيين، أو بعضهم، و الفرنجة. و عندما كان هذا الصراع يهدأ، لا يلبث أن ينفجر النزاع بين أقطاب العائلة الأيوبية. فهذه العائلة الكبيرة، بعد موت مؤسسها، صلاح الدين، اعتبرت الأراضي التي كان يحكمها، و هي واسعة جدا، إرثا إقطاعيا جماعيا لها.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٣

و إذ لم يسد الوئام بين أطراف البيت الأيوبي، و كثيرا ما تخاصموا و اقتتلوا، و حتى تحالف بعضهم مع الفرنجة ضد بعض، فقد ظلت «رابطة الدم» بينهم هي الأقوى على العموم. و لذلك نجدهم يتخاصمون و يتقاتلون، ثم لا يلبثون أن يتصالحوا وفق ترتيب جديد، من إعادة تقسيم التركة. و على العموم، ظلت فلسطين في قلب صراعات بني أيوب - خارجيا و داخليا.

و بعد النصر في حطين، استرد صلاح الدين فلسطين معظمها، و رحل عنها الفرنجة، و تجمعوا في الساحل. و عمد صلاح الدين إلى إعمار المناطق التي وقعت في يده، فأحيها. و فضلا عن الفلاحين الذين عادوا ليزرعوا الأرض في الريف، جاء العمال و الحرفيون و التجار و الأئمة و الأساتذة. و بدلا من الإقطاع الفرنجي نصّب صلاح الدين بعض قادة جنده أولياء للأمور، و نزل معهم عسكريهم و عيالهم. و جاءت قبائل عربية موالية له و استقرت في الريف، و تحولت إلى الزراعة. و برز ذلك في منطقة القدس، التي أولاها صلاح الدين اهتمامه. و كان يعلم أن الفرنجة لم يتخلوا عن فكرة استعادتها. و في أثناء وجودهم فيها، أقاموا علاقات مع القبائل في محيطها. فاستبدلهم صلاح الدين بقبائل أخرى، و أسكنها القدس و محيطها. و من هذه القبائل التي قاتلت معه و نزلت القدس - بنو الحارث و بنو مرّة و بنو سعد و بنو زيد و الجرمانه.

و شهدت فلسطين في أيام الأيوبيين التابعين ازدهارا عاما، في الزراعة كما في التجارة و الصناعة. فالمعاهدات التي عقدت بين الطرفين أتاحت قيام علاقات تجارية واسعة النطاق. و مع أن جزءا من تجارة فلسطين أيام الفرنجة قد تحوّل إلى مصر، فإن نشاط موانئ الساحل السوري لم يتوقف. و كانت أساطيل المدن التجارية الأوروبية تنتقل بحرية بين الساحلين - السوري و المصري - من جهة، و السواحل الأوروبية، من جهة أخرى. و حتى في زمن الحرب لم تتوقف تلك الحركة لاهتمام الجانيين بهذه التجارة المربحة بين الشرق الأقصى و الغرب، و التي أدّى البحر الأبيض المتوسط دورا مركزيا فيها، و كانت الموانئ على ساحله الشرقي مراكز أساسية للتبادل فيها.

و كذلك، فقد اهتم الأيوبيون، أو بعضهم على الأقل (العادل و الكامل مثلا) بالعمارة و بناء الطرق و الجسور و قنوات المياه و غيرها، الأمر الذي شجع على تطوير الزراعة و الصناعة و التجارة و العمالة. كما أولى الأيوبيون الأمن على الطريق عنايتهم الخاصة، و كبجوا قبائل البدو عن تهديدها، كما و طنوا عددا كبيرا منها، فاشتغل أفرادها بالزراعة و التجارة.

و أولى الأيوبيون عناية خاصة لإعادة الطابع الإسلامي إلى القدس، بعد التغييرات التي طرأت عليها أيام الفرنجة. فصلاح الدين بداية، و حالما دخلها،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٤

أزال كل المعالم التي أدخلها الصليبيون إلى منطقة الحرم. ثم أعاد بناء محراب المسجد الأقصى، كما أحضر المنبر الخشبي المرصع

بالعاج، و المصنوع بدقة فنية رائعة، و الذي كان أمر بصنعه نور الدين زنكى، فنصبه فى المسجد الأقصى. ثم جدد بناء الصخرة المشرفة و زين داخلها. و أسس الخانقاه الصلاحية للصوفية و المدرسة الصلاحية لفقهاء الشافعية و الزاوية الخثنية، كما أنشأ البيمارستان الصلاحى، و غيرها.

و جلب العادل ماء نبع العروب إلى القدس، و بنى الأفضل الجامع العمري. و قد أكثر من جاء بعدهم من العمارة فى القدس. كما بنى الأيوبيون الكثير من القلاع داخل البلاد، و رممو الحصون، و أسوار المدن التى دمرت فى الحرب.

سابعاً: العصر المملوكى

إشارة

لقد عرفت الخلافة «نظام المماليك» العسكرى منذ أيام العباسيين، و تميّز بينهم المعتصم (٨٣٣-٨٤٢ م)، الذى أكثر من اقتناء المماليك الأتراك. و عبر العصور، و فى العواصم المتعددة، تشكّلت كتائب عسكرية من قوميات متنوعة، أصبحت عماد الجيش فيها. و من صفوف هذا الجيش، برز قادة أسسوا سلالات حاكمة فعلا، و تابعه للخليفة العباسى اسما. و لكن بعد زوال ملك الأيوبيين، اتخذ هذا النظام وضعاً متميزاً، له قواعده و أصوله، و نظامه و تراتيبه، وفقاً لأحدث ما توصل إليه الفن الحربى فى ذلك العصر. و الملك الصالح نجم الدين أيوب، و بعد تجربته السلبية مع الخوارزمية، اقتنى أعداداً كبيرة من المماليك الأتراك «الكبتشاك» ليتصدى لخصومه الأيوبيين، من جهة، و لأعدائه الصليبيين و المغول، من جهة أخرى. فكانت نهاية ملك بنى أيوب على أيديهم، و أسسوا ملكاً فى مصر و بلاد الشام، دام أكثر من قرنين و نصف.

و فى العصر الأيوبي، و سواء لقتال الفرنجة، أو للصراعات الداخلية، تطور الجيش، كما و نوعاً. فحجمه أصبح كبيراً، و مادته البشرية الأساسية كانت من الرقيق الأبيض التركى. و كذلك تطورت الفنون العسكرية و أدوات القتال، الأمر الذى استلزم الكثير من التدريب، و بذلك شاع احترام العمل العسكرى. و المماليك نموذج متقدم لهذا الاحتراف فى عصرهم. و فى حالته المتقدمة، كان الإعداد لهذا الاحتراف يبدأ بالطفولة، و يتدرج إلى الفروسية و الالتحاق بالجيش. و داخل الجيش سادت تراتيبه دقيقة، يجرى الترقى فيها وفقاً لقوانين صارمة. و الجيش المملوكى، لم يعتمد على الكم بقدر ما ركز على النوع. و إذ كان الأساس فى تربية المماليك تهيئتهم للقتال، فسرعان ما تطلع بعض البارزين فيهم إلى السلطة، فظلت الحلقة المركزية من القادة

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٢٥

بؤرة للتأمر من أجل الوصول إلى الموقع الأول.

لقد تمكن المماليك من إنفاذ مصر فى اللحظة الحرجة. فالحملة الصليبية السابعة أفلحت فى احتلال دمياط و التقدم نحو القاهرة، بينما الصالح أيوب على فراش الموت، و الصراعات بين الأيوبيين محتدمة، و التناحر بين قادة القطاعات المملوكية مستشرية. و فى ساعة الشدة، مات أيوب. و إزاء الخطر الداهم، حزم المماليك أمرهم، و استشرسوا فى قتال الفرنجة، فهزموهم. و برز فى هذا القتال بيبرس (البندقدارى)، المؤسس الحقيقى لدولة المماليك. و منذ أيام أيوب كان المماليك قد تغلغلوا فى مواقع السلطة، و أصبح الأمر فى أيديهم. و بعد موته، فقدوا الشرعية للحكم، فنصّبوا طورانشاه ابنه سلطاناً اسماً. و عندما عمد هذا إلى كبحهم و فرض هيئته عليهم، قتلوه، و نصّبوا شجرة الدر سلطانة، لمدة ثمانين يوماً. و بعدها انتقلت السلطنة إلى المملوك عز الدين أيبك (أتابك العساكر)، الذى تزوجها، و استحوز على السلطنة منها (١٢٥٠-١٢٥٧ م). و تأمرت شجرة الدر عليه و قتلته، فرد المماليك على فعلتها بقتلها.

و فى خضم الفوضى بالقاهرة بعد موت الصالح أيوب، و تولى المماليك السلطة، و اندلاع الصراع بينهم و بين أيوبى الشام، حاول لويس التاسع استغلال الفرصة لمصلحته، بعد أن أطلق سراجه لقاء فدية، و استقر فى عكا، تشبثاً منه بتحقيق حلمه الذى حفزه إلى

القيام بحملته على مصر. و عندما سعى الملك الناصر يوسف، صاحب حلب، و حفيد صلاح الدين، للتحالف مع لويس ضد المماليك، وجدها فرصة، لكنه عدل عنها بعد أن هدده أيبك بقتل الأسرى الفرنجة لديه، و عددهم ١٢,٠٠٠. و تقدم الناصر يوسف بمفرده إلى مصر، فهزمه أيبك و اضطره إلى التراجع.

فانقلب لويس إلى جانب المماليك، و عقد معهم معاهدة ضد الناصر يوسف. لكن تدخل الخليفة العباسي بين الأيوبيين و المماليك حال دون القتال بينهما، و قوت على لويس الفرصة. و اعترف الأيوبيون بحكم المماليك في مصر، و اكتفوا بما لديهم في بلاد الشام (١٢٥٣ م). و إزاء هذه التطورات من جهة، و خيبة أمله من التحالف مع المغول، من جهة أخرى، قرر لويس مغادرة عكا و العودة إلى بلاده (١٢٥٤ م).

لكن الإمارات الأيوبية في بلاد الشام لم تعمّر طويلا. ففي هذه الأثناء كان المغول، بقيادة هولاكو، يتقدمون من الشرق في اتجاه بغداد. فحاصروها و دخلوها (١٢٥٨ م)، و خربوها و قضاوا على الخلافة العباسية فيها. و كان دخولهم إليها ضربة قوية للحضارة العربية بصورة عامة، إذ ارتكبوا الفظائع، و دمروا المؤسسات و أحرقوا المكتبات ... إلخ. و بعد بغداد، تقدم المغول إلى بلاد الشام، فاحتلوا حلب،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٦

و ألحقوها ببغداد (١٢٦٠ م). و منها ساروا إلى دمشق التي لقيت المصير نفسه. و هرب الناصر يوسف إلى غزة، و هناك تخلى عنه معظم جيشه، فعاد و استسلم للمغول، الذين وعدوه بإعادة ملكه إليه. و بينما هذا السفاح، هولاكو يعد للزحف على مصر، و قد أرسل يهدد السلطان قطز الذي تولى الحكم في القاهرة (١٢٥٩-١٢٦٠ م)، إذ به يقرر الانسحاب شرقا في اتجاه عاصمته المغول - قره قزم - و معه أغلبية جيشه. إلّا إنه ترك خلفه أحد قادته، كتبغا نوين، و معه جزء من الجيش، و الأمر باستئناف غزو مصر. و إزاء هذا الخطر، عمل قطز على لّم شمل قوات المسلمين، فانضم إليه بيبرس، عائدا من بلاد الشام، و كذلك فلول عساكر الناصر يوسف الأيوبية.

و تقدم قطز على رأس جيشه لملاقاة المغول، و في مقدمته بيبرس. فاصطدم هذا الأخير بطلائع المغول عند غزة، و قاتلهم و هزمهم. و تابع المماليك المسيرة بعد أن تجمعت قواتهم في عين جالود (وسط مرج ابن عامر). و هناك التقى الجيشان في معركة شرسة في ٦ أيلول/ سبتمبر ١٢٦٠ م، انتصر فيها المماليك، و أنزلوا بالمغول هزيمة لم يعرفوها من قبل. و دحر المغول، و وقع قائدهم كتبغا أسيرا و قتل. أما فلول جيشهم فقد فرت، بينما المماليك تطاردها. و هذه المعركة الحاسمة غيرت وجه التاريخ في غرب آسيا. فبينما كبحت تقدم المغول، نقلت مركز الثقل السياسي في الشرق الإسلامي إلى القاهرة، و على رأس الحكم فيها المماليك. و هؤلاء، بعد أن زجهم الغزو المغولي في شؤون بلاد الشام، و اكتشفوا أهميتها الاستراتيجية لمصر، عقدوا العزم على تصفية الوجود الفرنجي فيها. و كان السلطان الكبير، بيبرس هو الذي وضع أسس هذا المشروع، و قاده بنفسه، بعد أن اغتال قطز، و تولى الحكم، بلقب الملك الظاهر (١٢٦٠-١٢٧٧ م).

و إضافة إلى القوة العسكرية التي استحوذ عليها عبر القتال، و التي حسمت الأمر لمصلحته في الصراع بشأن السلطة بين المماليك، توخى بيبرس أن يضفي على حكمه شرعية رسمية و شعبية. فاستدعى أحد العباسيين الناجين من مجازر المغول، المستنصر بالله و بايعه خليفه في القاهرة، تحت مراقبته. أما الشرعية الشعبية، فقد جاءته عبر قتال الفرنجة. و على هذا الصعيد، اكتسب بيبرس شهرة لا تقل عن شهرة صلاح الدين، و في القصص الشعبي كانت سمعة بيبرس أكبر. و لكي يتفرغ لقتال الفرنجة، كان عليه أن يضمن الجناح الشرقي - المغول - و أن يؤمن قاعدة نشاطه، بتصفيه جيوب الأيوبيين. و كان المغول قد قضاوا على الإمارات الأيوبية القوية في سورية. فهادن بيبرس الفرنجة من دون أن يطمئنهم. و اتجه نحو إمارة الكرك، بعد أن تأكد من انكفاء المغول عن غزو غربي آسيا. فأخذ الشوبك (١٢٦١ م)، و بعدها الكرك

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٧

الحصينة (١٢٦٣ م). و عندما استتب له الأمر، و فرغ من ترتيب أمور ملكه الداخلي، تفرغ بيبرس لمقارعة الفرنجة. و مثله مثل صلاح

الدين، قضى بيبرس و هو يقاتل بقايا الفرنجة في الشرق.

بعد الكرك، توجه بيبرس إلى عكا، و حاول أخذها، فلم ينجح (١٢٦٤ م).

و في السنة التالية (١٢٦٥ م)، تحرك من مصر، فأخذ قيساريا و حيفا و أرسوف و القاقون. و في سنة ١٢٦٦ م أخذ قلعة صفد الحصينة من أيدي الفرسان الهيكليين. و في سنة ١٢٦٧ م عاد و حاصر عكا و لم يفلح في دخولها، و اقتنع بضرورة وضع خطة ذات أثر بعيد، تعزل عكا و تقطع أوصالها قبل أخذها. و في سنة ١٢٦٨ م توجه شمالا، فأخذ قلعة الشقيف و هونين و تبينين، و أخيرا أسقط أنطاكيا-الإمارة الصليبية الثانية. و كانت يافا قد استسلمت له، فأمر بتدمير حصون الساحل و أسوار مدنه، و في المقابل، ترميم قلاع الداخل، و ذلك للحؤول دون عودة الفرنجة إلى الساحل و التحصن فيه، بينما يتمركز جيش المماليك في قلاع الداخل. فرمم قلعة القاقون، لموقعها الاستراتيجي، و من ثم أعاد بناء قلعة صفد. و جعلها مركزا للنيابة، يتبع لها معظم فلسطين. و آخر فتوح بيبرس في فلسطين كان قلعة القرين (مونتفورت) الحصينة، و كانت مقر الفرسان التيوتون، و موقعا مهما في شبكة الدفاع عن عكا (١٢٧١ م).

و بعد سقوط قلعة القرين، عقد بيبرس هدنة لمدة عشر سنوات، بداية مع صور، و لاحقا مع عكا ذاتها. و يبدو أنه اقتنع بأن عكا، في الأوضاع الحالية، يستعصى عليه أخذها، ما دامت أبوابها مفتوحة لأساطيل الفرنجة، من قبرص و أوروبا، و هو لا يملك أسطولا لإحكام الحصار عليها. و توفي بيبرس في دمشق (١٢٧٧ م)، و هو في ذروة نشاطه، و لعله سقى السم، و دفن بالقرب من قبر صلاح الدين، حيث أقيمت لاحقا المكتبة الظاهرية. و اكتسب بيبرس شهرة واسعة، و تحولت أخباره إلى ملا-حم شعبية، يتداولها القصاص و الحكواتية في الندوات الخاصة و العامة. و كان قبل موته أوصى بالسلطنة إلى ابنه الملك السعيد بركة، الذي ما لبث أن تخلى عنها لأخيه الطفل سلامش. فخلعه قلاوون (الألفي)، و تولى السلطنة بلقب الملك المنصور سيف الدين قلاوون (١٢٨٠-١٢٩٠ م)، و الذي أسس السلالة الأطول حكما في دولة المماليك.

و في أيام قلاوون، كان الحدث الأبرز في بلاد الشام هو إسقاط إمارة طرابلس.

فبعد توليه السلطة، توجه قلاوون إلى فلسطين، و فيها استقبل وفدا من عكا، جاء ليفاوض على تمديد الهدنة المعقودة مع بيبرس لعشرة أعوام آخر. فتم ذلك بين الطرفين، و عقد بعدها بفترة قصيرة هدنة مماثلة مع إمارة طرابلس. و أهم بنود الهدنة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٨

التي عقدت مع مملكة عكا (١٢٨٣ م) كانت ما يلي: (١) مدة الهدنة عشرة أعوام و عشرة أشهر و عشرة أيام؛ (٢) منح التجار من رعايا السلطان الأمن و حرية العمل التجاري في عكا و البلاد الساحلية؛ (٣) توقف الفرنجة عن الاعتداء على أراضي دولة السلطان؛ (٤) لا يجدد الفرنجة في عكا و عتليت و صيدا حصنا و لا سورا؛ (٥) تبادل الرعايا الفارين ضمن شروط محددة؛ (٦) حرية الملاحة و تقديم العون إلى السفن الجانحة، و المحافظة على محتويات السفن لتسليمها إلى أصحابها أو من يلوذ بهم؛ (٧) يتولى فرنجة عكا إنذار السلطان و إعلامه بأي تحرك أوروبي مضاد له، و كذلك بالنسبة إلى تحركات المغول؛ (٨) يضمن السلطان حماية عكا و عتليت من أعمال القرصنة؛ (٩) السماح للحجاج الأوروبيين بالوصول إلى الأماكن المقدسة، و ضمان أمنهم و سلامتهم و حرية تعبدتهم.

و يبدو أن أوضاع قلاوون الداخلية، و تكريس نفسه سلطانا بعد بيبرس، و ما نجم عن ذلك من خلافات و منازعات، من جهة، و ازدياد النشاط المغولي مجددا، و ما قد تتمخض عنه الاتصالات بين المغول و الفرنجة من تحالف، من جهة أخرى، دفعت قلاوون إلى إبرام الاتفاق مع عكا و طرابلس. و قد حانت له الفرصة للتخلي عن الاتفاق مع طرابلس، عندما أقدم حاكمها على نهب بضائع مجموعة من التجار المسلمين و أسر بعضهم. فانتهاز قلاوون الحادث، و كانت جيوشه على استعداد، بعد أن تغلب على التمرد الخطير الذي قام به سنقر (الأشقر) في دمشق، و تحرك نحو طرابلس، و فرض عليها الحصار. و بعد قتال عنيف، دخلها عنوة (١٢٨٩ م). و بذلك قضى قلاوون على الإمارة الصليبية الثالثة، و لم يبق منها إلا عكا (سان جان داكر)- مدينة معزولة، تنتظر نضوج الأوضاع لاقتحامها و تصفية الوجود الفرنجي في الشرق.

و بعد سقوط طرابلس، وصلت مجموعات إيطالية إلى عكا، حيث اشتدت الصراعات داخلها بين الكومونات و التنظيمات المتعددة. و في خضم الفوضى، جرى الاعتداء على التجار المسلمين في المدينة، فوجد قلاوون بذلك الفرصة الملائمة للتخلي عن المعاهدة مع عكا، و مهاجمتها. و تهيأ السلطان للخروج على رأس جيشه، لكن المرض اشتد به و مات سنة ١٢٩٠ م. و كان ابنه و ولي عهده، على قد سبقه. و قد تردد قلاوون في تعيين الأشرف خليل وليا للعهد، لأنه لم يتمتع بشعبية بين المماليك، و لكن الأشرف خليل استطاع السيطرة على الوضع و تثبيت أقدامه في السلطة. و لامتصاص النعمة في أوساط المماليك، و لاكتساب الشرعية الشعبية، سارع الأشرف إلى الزحف على عكا، و حاصرها، و اشتد القتال، و دخلها أخيرا، بعد أن جمع كل ما لديه من قوات و عتاد في ١٨ أيار/ مايو ١٢٩١ م. و بعدها استولى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٢٩

المماليك على صيدا و بيروت و صور و عتليت و طرطوس، و بذلك أنهوا آخر قلاع الفرنجة في الشرق، و تفردوا بحكم فلسطين (١٢٩٢ م).

الإدارة المملوكية

بعد النصر في عين جالود، تقدم قطز إلى دمشق. فأخذها و جعلها نيابة، مغتبرا بذلك التنظيم الإداري الذي كان قائما زمن الأيوبيين. و النائب- القائم على أمور الإقليم- هو ممثل السلطان فيه. و النيابة تضم عددا من الأفضية، على كل منها وال. و إلى نيابة دمشق ضم قطز الأراضي كلها التي أخذها في بلاد الشام، بما فيها القدس.

و بعد أن فتح بيبرس صفد، جعلها نيابة قائمة بذاتها، تتبع لها أجزاء من شمال فلسطين و جنوب لبنان. و قد أوليت صفد أهمية، نظرا إلى موقعها الاستراتيجي، و لأنها ظلت لفترة طويلة مركز العمل المملوكي في مواجهة ما تبقى للفرنجية من مواقع على الساحل، و خصوصا عكا. و لذلك جرى ترميم قلعة صفد الكبيرة و توسيعها. و في أيام الناصر محمد بن قلاوون، الذي اعتلى الحكم ثلاث مرات متفرقة، أصبحت غزة نيابة مستقلة (١٣١١ م). ثم جعل السلطان الظاهر برقوق القدس نيابة ثالثة في فلسطين سنة ١٣٩٣ م. و بينما انتقل مركز الثقل السياسي و العسكري و الإداري إلى صفد، ظلت القدس المركز الديني و الثقافي.

و كانت نيابة صفد تضم عددا من الولايات، منها: أرنون (الشقيف) و تبين و صور و عكا و عتليت و الناصرة و طبرية و الشاغور (الجليل الأسفل) و جنين، و أحيانا بيسان. أما نيابة غزة، فقد كانت تضم عموما: ولاية الداروم (دير البلح) و ولاية البر (النقب) و بيت جبرين و الرملة و اللد و القاقون. و نيابة القدس تتبعها ولايتا الخليل و نابلس، و أحيانا الرملة. و في قمة هرم النيابة نائب السلطنة، و هو ممثل السلطان، و يكون في العادة بمرتبة «مقدم ألف». و يليه، و لكن بصورة منفصلة عنه، نائب القلعة، و مهمته شؤون القلعة، عدة و عتادا و رجالا و إدارة، و يعينه السلطان. و على كل مدينة وال، هو بالأساس صاحب الشرطة فيها، و مسؤوليته الحفاظ على الأمن. و في كل نيابة ناظر لبيت المال، و عدد من الموظفين الكبار في الشؤون المدنية- حجاب و كتاب (دوادار) ... إلخ. و في الشؤون الدينية- نظارة الحرم و الخطابة و الوقف و القضاء و مشيخة المدارس ... إلخ.

و على العكس من الأيوبيين الذين قسموا الولايات بين أفراد العائلة، عين سلاطين المماليك كبار قادة الجيش نوابا في الولايات، و أقطعوهم، بحسب مراتبهم، أرضا تكون لهم «خيزا»- أي مصدر دخل. و هذا «الإقطاع العسكري» يتباين عن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣٠

سابقه، إذ لا- يجوز توارثه، على الأقل بصورة نظرية. و لا غرو في ذلك، فالمماليك شكّلوا من أنفسهم طبقة عسكرية حاكمه، لم تكتسب فيها الوراثة شرعية تتمتع بإجماع. و لذلك كثرت في الدولة الانقلابات، و خصوصا في القمة. و لضمان أرضهم و مداخيلهم، عمد الكثيرون من المماليك إلى «وقف» أملا- كههم، سواء على المؤسسات العامة- المساجد و المزارات و المدارس و المشافي و

غيرها- أو على أبنائهم (الوقف الذرى) من بعدهم. وقد انتشرت هذه الظاهرة في العصر المملوكى، فى جميع أنحاء الدولة، بصورة لم يسبق لها مثيل. وكذلك، أقطع المماليك مشايخ القبائل والعشائر أرضا، ظلت ملكا مشاعا للقبائل. والإقطاع، فى أشكاله جميعها، لم يبلغ الملكية الخاصة، و انحصر بأملاك الدولة، التى كانت على العموم الأوسع والأجود.

و إذ ظلت الزراعة عماد الاقتصاد فى الدولة المملوكية، فإن التجارة- الداخلىة و الخارجية- ازدهرت فى أيامهم الأولى كثيرا، و كذلك الأمر بالنسبة إلى الصناعة.

و على العموم، نشط التبادل التجارى بين الأقاليم، و كذلك مع الخارج. و نظرا إلى ما كانت تدره من أرباح، عبر الضرائب و المكوس، على البضائع و الأسواق و الجسور و المحطات الحدودية، فقد أولى المماليك التجارة عناية كبيرة. فاجتهدوا فى الحفاظ على الأمن، أكان ذلك على الطرق، أو فى الأسواق و الموانىء، و بنوا الجسور و وسعوا الطرق، و أقاموا الخانات و الفنادق و الأسواق. و تطورت الخدمات التجارية، أكان ذلك من ناحية النظام المالى، أو إقامة المؤسسات المصرفية و الوكالات التجارية. و لم تنقطع فى العصر المملوكى التجارة مع المدن الأوروبية، و خصوصا الإيطالية، التى عقدت اتفاقات مع الدولة، و ظلت أساطيلها تجوب البحر، و تؤم الموانىء، التى أقام تجار أوروبا فيها «قيسريات» و خانات و وكالات تجارية خاصة بهم. كما أن سيل الحجاج إلى الأماكن المقدسة لم ينقطع.

و يلفت النظر اهتمام سلاطين المماليك و أمرائهم ببناء الأماكن الدينية و المعاهد التعليمية و المؤسسات الاجتماعية. و يتضح من المصادر أن هؤلاء نظروا إلى رجال الدين و الفقهاء و المشايخ و رجال العلم نظرة إجلال. و لعل كونهم طبقة عسكرية حاكمة، تملك الكثير من المال و القليل من المعرفة فى هذه الحقول، جعلها تعوّض عن هذا النقص فى البذل السخى لإقامة هذه المنشآت. و لقد أكثر المماليك من هذه المباني، و أغدقوا عليها الأوقاف، و بذلوا الأموال الوفيرة على تجميل عمارتها، و تزيين داخلها و ظاهرها. و انتشر ذلك فى جميع أنحاء ملكهم، و نالت القدس قسطا وافرا منها. فازدهرت فيها الدراسات القرآنية و الفقهية و اللغوية و الرياضية و الطبية.

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣١

و بعد دخول التتر إلى بغداد، رحل الكثيرون من رجال العلم فى بغداد إلى القدس، و أقاموا فيها، فاستوعبتهم المؤسسات، و تبعهم طلاب العلم. و إضافة إلى هذه المؤسسات، اعتنى المماليك بتزيين المدينة- مداخلها و مساجدها و قبابها و عماراتها و سبل الماء فيها و أسواقها ... إلخ.

و معظم أروقة الحرم القدسى الشريف بنيت فى أيام المماليك. كذلك، و إضافة إلى المدرستين المعروفتين- الصلاحية و المعظمية (اللتين بناهما صلاح الدين و المعظم الأيوبيان)، أقام المماليك عددا كبيرا من المدارس، منها: الدوادارية و الوجيهية و السلامية و الكريمة و التنكزية و الأمينية و الملكية و الفارسية و الخاثونية و الباسطية و الحسينية و العثمانية و الجهرية و الأشرفية و الجاولية. و من الزوايا الصوفية، بنى المماليك الخانقاه الفخرية و زاوية المغاربة و الزاوية البسطامية و الرباط المنصورى و رباط علاء الدين البصير. و يذكر أن المماليك اهتموا بالمشايخ الصوفية، و عرف منهم الشيخان- المجنون و الياص- منذ أيام بيبرس، و برز بعدهما كثيرون. و خان السلطان و سبيل قايتباى، من المعالم الجميلة. و فى القدس عدد من الحمامات، يعود بناؤه إلى أيام المماليك، و كذلك البيمارستانات و الأسواق و الفنادق ... إلخ.

لقد وصل المماليك إلى السلطة كطبقة عسكرية، و بصعوبة اكتسبوا شرعية الحكم من خلال التصدى للفرنجة، من جهة، و للمغول، من جهة أخرى، و حققوا نجاحات كبيرة على الصعيدين. و عندما انحسر الغزو المغولى، و تراجع الخطر الفرنجى، ظل المماليك فى السلطة، و أوغلوا فى تنظيمهم العسكرى، و لكن من دون مشروع قتالى يبرر ذلك. و إذ استطاعوا بصورة عامة أن يقيموا كل تحرك شعبى ضدهم، فإنه فى غياب المعايير العسكرية، و بالتالى الأحقية فى الوصول إلى الموقع الأول، دب الخلاف فى صفوفهم، و

استشرت الصراعات بين الطامعين بالسلطة من قاداتهم. فبعد السلاطين الكبار الأوائل، الذين تميّزوا بقدراتهم العسكرية والتنظيمية-قطر وبيبرس و قلاوون و الأشرف خليل بن قلاوون و الناصر محمد بن قلاوون- توالى سلسلة طويلة من سلالة قلاوون على السلطنة، لم يميّز أفرادها بكفاءات ملحوظة، و بدأت دولتهم فى الهبوط.

ففى أيام الملك الناصر محمد بن قلاوون، الذى اعتلى العرش ثلاث مرات، إذ خلعه الأمراء مرتين، و حكم فترة أطول من أى مملوك آخر (١٢٩٣-١٢٩٤ و ١٢٩٨-١٣٠٨ و ١٣٠٩-١٣٤٠ م)، ألحق المغول (الإيلخانيون) هزيمة بالجيش المملوكى فى ٢٣ كانون الأول/ديسمبر ١٢٩٩ م، إلى الشرق من حمص. و كان ذلك

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٣٢

أيام غازان خان محمود، الذى فى أيامه اعتنق المغول الإسلام. و كانت تلك الغزوة الأخيرة الخطيرة التى قام بها المغول ضد المماليك. و بعدها راحت مسألة تحالفهم مع الفرنجة تتراجع، و إن لم تنقطع تماما. و فى المقابل، راحت العلاقات بين المماليك و بيزنطة تتوثق، بعد أن كان قلاوون قد أقامها، فى إثر انتصاره على المغول (١٢٨٠ م). و فى تلك الغزوة، ضرب المغول شمال سورية، و دخلوا دمشق، ثم رحلوا عنها. و بعد ثلاث سنوات (١٣٠٢ م)، هزم المغول للمرة الأخيرة فى مرج الصّيفر بالقرب من دمشق. و لم يجرؤ بعدها أحد من ورثة غازان على مهاجمة دولة المماليك.

و الناصر محمد، السلطان الأعرج، قصر القامة، عرف بحبه للحياة السعيدة و التبذير. و فى أيامه، وصل حكم المماليك إلى الذروة فى أعمال الفن و العمارة.

فأسرف فى إقامة الأبنية المتعددة: قصور و مساجد و مدارس و رباطات و قنوات ماء، و غيرها. و قد أدى ذلك إلى إفراغ خزينة الدولة، فعمد الناصر إلى زيادة الضرائب و إعادة توزيع الأراضى و تشجيع التجارة، للحصول على الأموال. لكن هذه الإجراءات كانت ذات أثر موقت فقط. و بعد موته، انفجرت الاضطرابات الداخلية، بين المماليك و الناس، من جهة، و بين هؤلاء أنفسهم، من جهة أخرى. و زاد الأمور سوءا القحط الذى أصاب البلاد، ثم تبعه الطاعون. و هذا الوباء الذى أصاب أوروبا و خربها (١٣٤٨-١٣٤٩ م). لم يوفر الشرق. و فى مصر استمر نحو سبعة أعوام، حصد خلالها أرواح مئات الآلاف، بل الملايين، كما يؤكد مؤرخو العصر. و ما عدا فترات قصيرة بعد الناصر، حيث صادف قيام سلطان نشط، كانت المرحلة اللاحقة لموته فى تدهور مستمر، و ظلت دولة المماليك تنتظر قيام دولة قوية تنهى وجودها المقيت.

و انتقال الحكم من المماليك البحرية- الأتراك- إلى المماليك البرجية- الشراكس (١٣٨٢ م)- على يد السلطان الظاهر سيف الدين برقوق، لم يعدل الأوضاع، بل زادها سوءا. و اعتراض البرجية على وراثته السلطنة لم يوصل إليها الأفضل دائما، و إنما فى الأغلب الأقدر على حبك المؤامرات و الاغتيال و شراء الأتباع، و شتى صور التحايل. و فى عهدهم تواترت الانقلابات، و عمت الفوضى، فاضطرب الأمن و ساءت أحوال الناس. و من ضمن ثلاثة و عشرين سلطانا برجيا، حكموا لمدة ١٣٤ عاما، حكم تسعة منهم ١٢٤ عاما و هم: برقوق و فرج و المؤيد شيخ و بارسباى و جقمق و إينال و خوشقدم و قايتباى و قانصوه الغورى. و بذلك يكون معدل حكم الآخرين أقل من عام واحد. و فى سعيهم لقطع الطريق على وراثته السلطنة

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٣٣

و الاستئثار بالحكم، طور المماليك البرجية «الخشداشية» (رفقة التربية فى الطباقي)، و التى تدهورت لاحقا لتجعل من أعضائها عصابة، تدعم هذا الأمير أو ذاك، و تتناحر على السلطة و الجاه و المال.

و تميّزت فترة حكم المماليك البرجية بالفساد، و من قمة هرم السلطة إلى قاعدتها. و عرف الكثيرون من السلاطين بالجهل و العسف، فكان منهم من لم يحسن الكلام بالعربية، و من لا يفقه من علوم الدين شيئا. و أما نشاطهم العمرانى، و كذلك صراعاتهم و شراء الدم، فقد اضطرتهم إلى البحث عن مصادر المال بالوسائل كلها.

فzادوا الضرائب و احتكروا الأسواق (الطرح) و صادروا المحاصيل و ظلموا الناس و استبدوا بهم، ففرت أعداد منهم إلى الريف و الجبال. و كما نالت فلسطين قسطها من محاسن الحكم الملوكي، كذلك طالها نصيبها من مساوئهم. و منذ بداية القرن الخامس عشر، راحت أحوالها تسوء بصورة عامة. و لكنها شهدت فترة من الهدوء و الانتعاش النسبي في أثناء سلطنة بارسباي (١٤٢٢-١٤٣٨ م)، و خلفه جقمق (١٤٣٨-١٤٥٣ م). و في النصف الثاني من القرن الخامس عشر، تردى الوضع كثيرا في بلاد الشام، و زاد ظلم المماليك في الناس بذريعة الحرب مع «العثمانيين». و كان الناس ينتظرون خلاصهم من ظلم المماليك على أيدي الأتراك من بني عثمان. بعد التراجع الكبير الذي أصابها في أثناء الاحتلال الفرنجي، عادت الكثافة السكانية العربية في فلسطين و تعززت في العصر الأيوبي، لكنها بلغت حدودا أكبر أيام المماليك الأولى. ففلسطين، أسوة ببلاد الشام كلها و مصر، استقبلت أعدادا كبيرة من المهاجرين، العرب و سواهم، و من الطبقات و الفئات الاجتماعية المتعددة، الذين اضطرتهم الغزو المغولي البربري إلى البحث عن ملجأ آمن من التنكيل، فشكّلت الأراضي الواقعة تحت حكم المماليك بؤرة جذب إلى هؤلاء. كما أن إعادة بناء مدن الداخل الفلسطيني، و توزيع أراضي الفرنجة على مالكيين جدد، و الازدهار الذي نعمت به البلاد، و خصوصا القدس و صفد، جلبت إلى البلاد أعدادا كبيرة من السكان. غير أنه منذ منتصف القرن الرابع عشر، عادت هذه الكثافة السكانية إلى التراجع، و ذلك لتضايف عوامل سلبية، ذاتية و موضوعية. فتدهور أوضاع الحكم المملوكي عامة، ترافق مع سلسلة من الكوارث الطبيعية-الوباء و القحط- ليكبح النمو السكاني، و ليفرض عليه انحسارا كبيرا، تقلص بسببه عدد السكان في البلد كثيرا.

و الطاعون الذي ضرب العالم كله في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي، أصاب الشرق و اقتصّ ضريبة عالية جدا بالأرواح. و تذكر المصادر العربية تفشى هذا المرض في القرن الخامس عشر مرات عدة في السنوات ١٤٣٨ و ١٤٦٩ و ١٤٧٦

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣٤

و ١٤٩٢ م. و تتحدث تلك المصادر عن اجتياح الجراد للمنطقة (١٤٨٤ م)، و عن هزتين أرضيتين مدمرتين (١٤٥٨ و ١٤٩٧ م). كما تورد المصادر ذكر سنوات القحط و الجفاف الشديدين. و كل هذا، إضافة إلى الحروب الداخلية بين المماليك أنفسهم، و الخارجية مع التتر، تيمورلنك سنة ١٤٠٠ م و مع العثمانيين في آسيا الصغرى، ترك البلد بحالة متردية جدا عشية سقوطها في أيدي الأتراك العثمانيين في بداية القرن السادس عشر. لقد شهدت فلسطين ازدهارا عرييا أيام الأيوبيين و المماليك، و هم يتصدون للوجود الفرنجي. و عندما تمت تصفية هذا الوجود، راح البلد يتراجع.

و بتحواله من ساحة حشد ضد عدو خارجي، إلى ساحة صراع داخلي، أصاب البلد الكثير من الخراب و تدهور الأوضاع عامة. لقد كانت الفترة الأخيرة من الحكم المملوكي من أسوأ فترات التاريخ المعروفة في فلسطين.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣٥

المراجع

باللغة العربية

- توفيق، عمر كمال. «مقدمات العدوان الصليبي على الشرق العربي». الإسكندرية، ١٩٦٧.
- دجاني- شكيل، هادية و برهان الدجاني (تحرير). «الصراع الإسلامي-الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى». بيروت، ١٩٩٤.
- العدوي، إبراهيم أحمد. «الأمويون و البيزنطيون». الطبعة الثانية. القاهرة، ١٩٦٣.
- عراف، شكري. «جندا فلسطين و الأردن في الأدب الجغرافي الإسلامي». القدس، ١٩٩٢.
- غوانمة، يوسف. «تاريخ نيابة بيت المقدس في العصر المملوكي». عمان، ١٩٨٢.

- ماجد، عبد المنعم. «التاريخ السياسي للدولة العربية». الطبعة الثالثة. القاهرة، ١٩٦٥.

- «الموسوعة الفلسطينية»، القسم العام. ٤ مجلدات. دمشق، ١٩٨٤.

--، القسم الثاني (الدراسات الخاصة). ٦ مجلدات. بيروت، ١٩٩٠.

باللغات الأجنبية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣٧

الفصل الخامس العصر العثماني

أولا: الاحتلال العثماني

منذ تأسيس سلطنة روم السلجوقية في القرن الحادي عشر الميلادي، ظلت جماعات و قبائل تركية ترد إلى آسيا الصغرى، تتوغل في أراضيها و تستقر حيث تستطيع، و تعمل على العموم في خدمة السلطان. و كانت المناطق الحدودية تشكل بالنسبة إلى هذه القبائل و الجماعات بؤرة جذب، إذ كانت تمارس منها «الجهاد» ضد البيزنطيين، و توسع أراضيها و بنى قواها، فاكسب مقاتلوها لقب «غازي». و قد تكثف هذا السيل التركي خلال القرن الثالث عشر، تحت ضغط الزحف المغولي، الأمر الذي دفع قبائل تركية إلى التحرك غربا، هربا من التنكيل المغولي البربري. و من هذه الجماعات كان الأتراك العثمانيون، على اسم مؤسس السلالة عثمان بن أرطغرل، الملقب غازي عثمان (١٢٩٩ - ١٣٢٦ م)، و الذي أقام في بداية القرن الرابع عشر الميلادي دولة حدودية، شغلها «الغزو» في أقصى الشمال الغربي من آسيا الصغرى، على حدود أراضي الإمبراطورية البيزنطية.

في تلك الزاوية من آسيا الصغرى، و من مركزه في أسكيشهر (دوريليوم)، شنَّ عثمان هجماته على القلاع البيزنطية الحدودية، و حقق نصرا على حكامها في معركة قويون حصار (١٣٠١ م). و عندما سقطت نيشهر (ميلانجيا) في يده و جعلها مقر نشاطه، فقد قطع طريق الاتصال البري بين المدينتين الكبيرتين: نيقيا (إزنك) و بروسا (بورصة).

و في سنة ١٣٢٦ م، استطاع أورخان، ابن عثمان و وارثه (١٣٢٦ - ١٣٥٩ م)، احتلال بروسا، فنقل مركزه إليها بعد موت والده. و في سنة ١٣٣١ م احتل نيقيا، و من بعدها نيكوميديا (إزمت) في سنة ١٣٣٧ م، و بذلك أصبح شاطئ البوسفور الشرقي كله تحت سيطرته. و بيروزه هذا، استطاع أورخان أن يضم إليه عددا من الولايات التركية المجاورة، رأى حكامها في مصلحتهم التعاون معه، لما يحققه لهم ذلك من طموحات تساورهم. و يعتبر أورخان مؤسس الدولة العثمانية الحقيقية. و عند موته (١٣٥٩ م)، خلف أورخان وراءه دولة واسعة، تملك جيشا قويا و منظما، و لها إدارة متقدمة عن غيرها من الولايات التركية الأخرى، و الأهم أن لديها مشروعا توسعيا طموحا.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣٨

كما خلف أورخان وراءه سلسلة من السلاطين الأكفاء و النشطاء. فانقل ابنه مراد الأول (١٣٥٩ - ١٣٨٩ م) بالحكم العثماني من مرحلة الدولة إلى الإمبراطورية. و وسع مراد، و بوسائل متعددة: الحرب و السياسة و الدبلوماسية، أراضي دولته في الشرق - آسيا الصغرى - كما في الغرب - البلقان. ففي أوروبا توغل لالا شاهين، قائد قوات مراد، و طوق القسطنطينية و قطع صلتها البرية بأوروبا. و في الشرق، وسع أراضيه و نفوذه، بالحرب و التحالف و الزواج الدبلوماسي. فاحتل أنقرة (أنكورا)، و اشترى أنطاليا من بني حميد، و بذلك أطل على البحر الأبيض المتوسط. و عقد تحالفات مع إمارتي الجرميان و القرمان التركيتين عبر الزواج. ثم التفت إلى أموره الداخلية، فأعاد تقسيم الأراضي التي احتلها إلى إقطاعات كبيرة (زعامة)، أعطاها لكبار القادة العسكريين، و أخرى صغيرة (تيمار)، كانت من نصيب

الضباط الصغار. و طور الإدارة، و أدخل نظاما جديدا في الجيش (ينى تشرى)، جند بموجه خمس أسرى الحرب في قواته العسكرية، و هو النظام الذى صار يعرف لاحقا باسم الإنكشارية، و هو نظام متطور عن المملوكية، و قتل مراد غيلة في صربيا، بعد أن هزم قيصرها في معركة كوسوفا (١٣٨٩ م).

و بعد مقتل مراد الأول، تولى ابنه النشيط بايزيد السلطنة (١٣٨٩-١٤٠١ م).

فعمد بداية إلى قتل أخيه يعقوب، ليحصر الوراثة في بيته، و ينهى التقليد التركى القديم، الذى يفتحها لجميع أفراد الأسرة، فأصبح سلوكه نهجا لدى بنى عثمان من بعده. و كان بايزيد يفترق عن أسلافه في سلوكه، سواء إزاء الداخل أو الخارج. ففي الداخل، كرس مركزية السلطنة الفردية، و اتخذ رسميا لقب السلطان. و فى الخارج، شن حروبا من دون هواده، فى الشرق كما فى الغرب. ففضى على الإمارات التركية فى آسيا الصغرى، و صار على تماس مع إيران، التى كانت تحت حكم تيمورلنك.

و فى الغرب حقق انتصارات ساحقة على البلغار و الصرب و المجر و الجرمان، و اكتسب بسبب سرعة حركته العسكرية كنية «يلدرم» (البرق). و فرض الحصار على القسطنطينية نفسها مرتين، و لكنه عجز عن إسقاطها. و فى أوج عظمتها، اصطدم بايزيد مع الجزائر تيمورلنك (١٤٠٢ م)، بالقرب من أنقرة، فهزم و وقع أسيرا فى يد تيمورلنك، و مات، ربما منتحرا (١٤٠٣ م). و بدا و كأن حكم العثمانيين قد انهار، على الأقل فى آسيا الصغرى.

و بعد عودته من هذه الحملة إلى عاصمته - سمرقند - مات تيمورلنك (١٤٠٥ م). و كان قد أعاد الحكام المغول و الأتراك الذين أخضعهم بايزيد إلى كراسيهم. و من أدريانوبل، فى روميليا (الجزء الأوروبى من السلطنة العثمانية)، حيث

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٣٩

تولى الحكم سليمان، الابن الأكبر لبازيد عاد العثمانيون إلى بناء إمبراطوريتهم و فرض وجودهم. و بعد فترة من الصراع بين الأخوة، سليمان و موسى و عيسى و محمد، نجح هذا الأخير بالسيطرة على الوضع. و قد أمضى محمد سنين حكمه فى الصراع بشأن استعادة السلطنة على أراضى والده. فمن الفترة (١٤٠٣ - ١٤١٣ م)، أدار صراعا مع إخوته، و عندما استفرد بالحكم، توجه إلى الإمارات المجاورة (١٤١٣ - ١٤٢١ م). و بعد موته تولى ابنه مراد الثانى السلطنة (١٤٢١ - ١٤٥١ م)، فواصل حملاته فى أوروبا لضرب تحركها ضد التوسع العثمانى. و مرة أخرى فى كوسوفا (١٤٤٨ م)، أنزل مراد الثانى هزيمة ساحقة بتحالف حكام أوروبا الشرقية، و مات مراد (١٤٥١ م) مخلفا وراءه أحد أكثر سلاطين بنى عثمان نشاطا، محمد الثانى (شلبى) الذى حكم من الفترة (١٤٥١ - ١٤٨١ م).

و منذ أن تولى السلطنة، جعل محمد الثانى همه احتلال القسطنطينية و إنهاء الإمبراطورية البيزنطية، التى طال احتضارها. و بعد أن أتم استعداداته لهذا العمل الضخم، ليس بسبب قوة المدينة، و لكن بفضل حصانها، فرض على «المدينة الخالدة» الحصار، بزا و بحرا، فى بداية نيسان / أبريل ١٤٥٣ م. و فى ٢٩ أيار / مايو ١٤٥٣ م، دخل الجيش العثمانى القسطنطينية، و قتل إمبراطورها و هو يقاتل فى شوارعها دفاعا عنها، و لكن من دون جدوى. لقد سقطت المدينة، و أباحها محمد الثانى - الذى منح نفسه لقب «فاتح» - للنهب مدة ثلاثة أيام، كما العادة. و بانقضائها، دخل محمد الفاتح المدينة، و أقام صلاة الجمعة فى كنيسة القديسة صوفيا، ثم غادرها عائدا إلى أدريانوبل. و هناك، أعدم الوزير خليل باشا، الذى كان مقربا من والده - مراد - لأنه نصح بعدم مهاجمة القسطنطينية، خوفا من ردة فعل أوروبا. ثم ما لبث أن حوّل المدينة إلى عاصمته سلطانه، و أضفى على معالمها طابعا إسلاميا.

و بعد موت محمد الفاتح، تولى ابنه، بايزيد الثانى الحكم (١٤٨١ - ١٥١٢ م).

و فى أيامه بدأت تبرز ملامح الصراع القادم بين العثمانيين، من جهة، و الصفويين و المماليك، من جهة أخرى. و حتى هذا التاريخ، تركز اهتمام العثمانيين و نشاطهم فى أراضى بيزنطة. أما و قد استتب لهم الأمر فى القسطنطينية (إستنبول - إسلامبول)، و امتد سلطانهم على آسيا الصغرى كلها و أوروبا الشرقية، فراحوا يتوجهون شرقا، حيث اصطدموا بالدولة الصفوية الصاعدة فى إيران، و بدولة المماليك الهابطة فى مصر و بلاد الشام. و قد عاصر بايزيد الثانى السلطان قايتباى المملوكى، و إسماعيل شاه الصفوى. و إذ توترت

العلاقات بين هذه القوى الثلاث، إلا إن الصراع لم ينفجر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٠

بأبعاده كلها، حتى اعتلى سليم الأول (يافوز- العباس) عرش السلطنة (١٥١٢- ١٥٢٠ م)، و الذي يعتبره المؤرخون، و بحق، رجل الجبهة الشرقية، و الذي يتميز عن والده بروحه القتالية العالية.

و خلال حكمه القصير، ركز سليم الأول نشاطه في الشرق، و استطاع في حملتين متتاليتين أن يضاعف مساحة أراضي السلطنة في آسيا و إفريقيا. فامتدت الإمبراطورية العثمانية في ثلاث قارات، و أصبح البحر الأبيض المتوسط عمليا بحيرة عثمانية. ففي سنة ١٥١٤ م، خرج سليم قاصدا شاه إسماعيل في عاصمته تبريز، و استطاع جيش سليم «الإنكشاري» أن يهزم جيش إسماعيل «السباهي» (جيش الفرسان)، بالاعتماد الكثيف على المدفعية و الأسلحة النارية. لكن هزيمة إسماعيل لم تكن حاسمة. و عاد سليم و تظاهر بنية الخروج إلى قتال إسماعيل ثانية (١٥١٦ م)، موجها تهمة إلى السلطان المملوكي، قانصوه الغوري، بالتحالف مع إسماعيل الشيعي، في حين هو سني، مثله مثل العثمانيين. و استدرج سليم السلطان المملوكي العجوز إلى مرج دابق (شمال حلب)، و أنزل بجيشه هزيمة ساحقة في آب/ أغسطس ١٥١٦ م، و ذلك أيضا بفضل تفوق جيشه الإنكشاري، عدة و تدريبا، و بعد الغوري عن عاصمته، و بالتالي طول خطوط إمداده و تموينه، و كذلك عداء سكان بلاد الشام للمماليك.

على العكس من الصفويين، لم يجد العثمانيون صعوبة كبيرة في القضاء على دولة المماليك. فالعسكرتارية المملوكية في هذه الفترة كانت قد فقدت روحها القتالية. و أصبحت منذ زمن أداة قمع داخلي للسكان، و صراع في القمة بشأن السلطة. و هذه المؤسسة التي كانت لا تزال تمارس الحكم، أضحت بلا مضمون حقيقي يتلاءم مع صورتها العسكرية. و بناء عليه، تضافت عدة عوامل، ذاتية و موضوعية، جعلت هزيمة المماليك على أيدي العثمانيين مسألة سهلة. فبغيب التحدي الخارجي بعد إنهاء الوجود الفرنجي في الشرق، و انحسار المد المغولي، تراجعت القدرات القتالية للمماليك، أكان من ناحية العدد، أو العدة، و تكلست المؤسسة المملوكية على تقاليد البالية، من دون محاولة الإفادة من التطورات المستحدثة في العلم العسكري. و فضلا عن نضوب الموارد البشرية، فقد تقلصت الموارد المالية، و خصوصا بعد فقدان تجارة الهند لمصلحة أوروبا، عندما اكتشف رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨ م). و علاوة على ذلك، ظل المماليك يحبون حياة البذخ و التبذير، و يظلمون الناس، فأصبحوا فئة محصورة و معزولة، سهل على العثمانيين تدميرها.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤١

في المقابل، كان العثمانيون في ذروة قوتهم، ماديا و معنويا. فقد حافظوا على روحهم القتالية المستمدة من تراث «الغازي»، إلى حد كبير، عبر حروبهم المستمرة مع أوروبا و آسيا الصغرى. كما ظلت مواردهم المالية تتراد عبر الفتوحات التي توجهها دخولهم القسطنطينية. و استعان العثمانيون بخبرات متنوعة في تطوير إدارة الدولة، تمثلت بعدد كبير من الوزراء و الموظفين الأكفاء، الذين توافدوا على الدولة الفتية.

و عندما أحس بنو عثمان أن نظامهم العسكري القديم القائم على مبدأ الغازي، لم يعد يلبي حاجاتهم، عمدوا إلى تحديثه، أولا عبر «النظام الجديد» (يني تشري)، و لاحقا عبر «التجنيد العام» (الدفشرمي). هذا فضلا عن بناء أسطول ضخم، و إدخال المدفعية و الأسلحة النارية بكثرة، و تطوير المعرفة بالعلوم العسكرية. و في قمة الهرم، و على الرغم من بشاعة التقليد العثماني بقتل السلطان إخوته لدى اعتلائه العرش، أو حبسهم في «القفس»، فقد وفر للدولة العثمانية سلسلة من السلاطين الأكفاء و الطموحين، جعلت دولتهم القوة الأولى في عالم ذلك الزمان، خلال فترة قصيرة نسبيا.

لم يكن في قدرة المماليك الصمود أمام العثمانيين، و لم يهب السكان المحليون لنصرة حكم المماليك الفاسد في حربه المصرية. و كان الموقف الشعبي العام في بلاد الشام و مصر محايدا، و ذلك لكره الناس للمماليك و خوفهم من العثمانيين، فلم يجد سليم الأول مقاومة تذكر في بلاد الشام بعد انتصاره على قانصوه الغوري و قتله في مرج دابق. و دخل السلطان قلعة حلب، و استولى فيها على

خزينة الغورى، كما قبض على الخليفة العباسى، المتوكل الذى كان الغورى حمله معه إلى المعركة. و من حلب إلى دمشق، فدخلها سليم من دون مقاومة، و جاءته هناك الوفود لتقديم الولاء من جميع أنحاء بلاد الشام. و من تخلف، أو تردد، جرى تطويعه. و فى السنة التالية (١٥١٧ م)، تقدم سليم، و فى الطليعة وزيره سنان باشا إلى مصر، فاصطدم بكتيبة من المماليك فى خان يونس، و قضى عليها، و تابع مسيرته إلى القاهرة. و هناك، قاتل السلطان الجديد، طومان بى لكن من دون جدوى، فهزم، و هرب، و ألقى القبض عليه، و شق على إحدى بوابات القاهرة، و أجهز سليم على المماليك، و أنهى دولتهم.

و فى طريق عودته من مصر إلى إستنبول خريف سنة ١٥١٧ م، عرج سليم الأول على القدس. و كان يحمل معه الخليفة العباسى، المتوكل. و لى عودته اتهم سليم الخليفة باختلاس الأموال و أودعه السجن. و فى رواية عثمانية، هناك شك فى صدقيتها، أن المتوكل تخلى عن الخلافة لمصلحة سليم. لكن العثمانيين لم يستعملوا اللقب بصورة رسمية حتى معاهدة كوتشوك كاينرجى (١٧٧٤ م)، التى أنهت

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٤٢

حربا مع روسيا. و بموت سليم، تولى السلطنة من بعده ابنه سليمان (١٥٢٠-١٥٦٦ م)، الملقب «قانونى»، نظرا إلى القوانين التى أصدرها فى شؤون تنظيم الدولة، و التى عمل على صوغها و تصنيفها إبراهيم الحلبي. و فى أيام سليمان، بلغت الإمبراطورية العثمانية ذروة اتساعها و ازدهارها. فقد امتدت على ثلاث قارات، و ورثت الخلافة العباسية و الإمبراطورية البيزنطية على حد سواء، و أصبحت «إسطنبول»، بعد دمشق و بغداد و القاهرة، مركز العالم الإسلامى. و لكن فى هذه الفترة بالذات، و مع اكتشاف أميركا و رأس الرجال الصالح، و بداية النهضة الأوروبية، راح مركز القوة الكونى يتحول إلى الغرب، و راح الشرق يتراجع إلى الوراء.

و على العموم، لم تلق القوات العثمانية مقاومة تذكر فى زحفها على مصر، عبر بلاد الشام و فلسطين. فنيابة صفا استسلمت للسلطان سليم و هو لا يزال فى دمشق، و لحقت بها نيابتا القدس و غزة. و التحركات التى قام بها بعض مشايخ البدو و الزعماء المحليين، بهدف تحسين أوضاعهم، سحقت بسهولة، كما حدث فى نابلس، حيث ثار أحد أمرائها على السلطان سليم عندما عزله. و بداية تبعت فلسطين ولاية الشام (شام شريف). و كان العثمانيون قد قسموا بلاد الشام إلى ثلاث ولايات: الشام و حلب و طرابلس. و جعلوا فلسطين أربعة ألوية- «سناجق» (جمع سنجق)- و هى: صفا و نابلس و القدس و غزة. و فى كل لواء (سنجق) عدد من الأفضية- «نواح» (جمع ناحية). فضم لواء صفا النواحي: صفا و الشقيف و تبين و صور و عكا و طبرية. و لواء نابلس ضم: جبل شامى (عيبال) و جبل قبلى (جرزيم) و القاقون و بنى صعب و أحيانا اللجون. و لواء القدس ضم القدس و الخليل. و لواء غزة ضم غزة و الرملة و اللد. و على العموم ترك العثمانيون على رأس هذه التقسيمات الإدارية أمراء و حكاما محليين، الذين أقسموا الولاء للسلطان العثمانى، و تعهدوا بحفظ الأمن و جباية الضرائب و تسليمها لممثلى الدولة.

لكن خضوع سكان بلاد الشام للسلطان العثمانى لم يكن يعنى الاستكانة التامة للحكم الجديد. فهذا الحكم لم يغير الأوضاع كثيرا، و خصوصا الاقتصادية. كما أن الحكام و الزعماء المحليين، الذين تعودوا على سلطة المماليك «المنفلشة» فى أيامها الأخيرة، لم تعجبهم قبضة العثمانيين القوية. فانتهزوا فرصة موت سليم الأول، و صدور التنظيمات الإدارية الصارمة التى أصدرها سليمان القانونى، و تمردوا على الباب العالى (دار السلطنة). و قام بأول تمرد والى دمشق، الغزالى و هو من المماليك الذين قاتلوا سليم الأول، ثم التحقوا به، فكافأه السلطان بولاية بلاد الشام. و رأى هذا الفرصة ملائمة لرفع نير العثمانيين عن كاهله، مستفيدا من حالة التذمر العامة بين

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٤٣

الناس لسوء أحوالهم الاقتصادية، و انضم إليه حاكما صفا و القدس. و بعد قمع التمرد، و قتل الغزالى، أحكم العثمانيون قبضتهم على الولايات و حكامها، و راحوا يستبدلون الزعماء المحليين بآخرين عثمانيين، و بالتالى رفدهم بحاميات عسكرية (سباهى)، لحفظ الأمن و جباية الضرائب.

و بعد قمع هذا التمرد، ساد الهدوء في البلاد، و تمّ ضبط الأمن على الطرقات، و خصوصا «طريق الحج». و جرى تنظيم الإدارة العسكرية و المدنية بالصيغة التي وضعها سليمان القانوني. و قسمت الأراضي إلى إقطاعات عسكرية. و أصحاب هذه الإقطاعات، بحسب حجمها و دخلها، كانوا ملزمين بتجنيد عدد معين من الفرسان (السباهي)، للأمن و جباية الضرائب في الأحوال العادية، و للالتحاق بجيش السلطان عند الحرب. و للسباهية في كل إقليم «علم» (لواء- سنجق) يجمعهم. و هم يخرجون إلى الحرب بقيادة «السنجقدار» (حامل اللواء)، أو «أمير اللواء»، الذي يعين بقرار من السلطان. و العلامة المميزة له «الصولجان»، الذي على رأسه كرة ذهبية، و تحتها ذيل حصان. و خلال العقد الأول بعد احتلال البلاد، استكمل العثمانيون، في أيام سليمان القانوني، التنظيم الإداري- العسكري للمناطق المحتلة. و قد أقرّ دستور ولاية الشام، و من ضمنها فلسطين، في «القانونامة»، الذي أصدره سليمان (١٥٤٨ م). و انعكست التنظيمات الإدارية و العسكرية و الأمنية التي وضعها سليمان القانوني، إيجابا على بلاد الشام، بعد الفوضى التي سادت فيها خلال المرحلة الأخيرة من حكم المماليك، و امتدت إلى السنوات الأولى من الاحتلال العثماني. و تفيد الإحصاءات المتوفرة من العقد الأول للحكم العثماني، أن عدد سكان فلسطين تضاعف، و وصل نحو ٣٠٠،٠٠٠ نسمة. و قد توزع ريع هؤلاء تقريبا على ست مدن، هي: القدس و الخليل و غزة و الرملة و نابلس و صفد. أمّا بقية السكان فتوزعت على الريف، سواء في القرى الزراعية، أو مضارب البدو. و نتيجة الاستقرار، و انتظام الإدارة و ثبوت الأنظمة، تحسن الإنتاج الزراعي، النباتي و الحيواني، و تطورت بعض الصناعات الزراعية و الحرفية. و كذلك، نتيجة استتباب الأمن على الطرق، تحركت التجارة، و نشطت حركة الحج إلى الأماكن المقدسة. و لكن هذا كله لم يعمر طويلا.

فعلى الرغم من الدستور (القانونامة) الذي أصدره سليمان، و الذي تناول تنظيم مجمل نواحي الحياة و الحكم و التقسيمات الإدارية و المالية في الإمبراطورية المترامية الأطراف، فإنه بعد موته، راحت الأمور تتخذ منحى التراجع. لقد أصاب السلطنة العثمانية ما أصاب سابقاتها من الإمبراطوريات العسكرية، المتعددة الأعراق و الواسعة الأرجاء، حيث عوامل الفرقة كانت أكبر من عناصر الوحدة. و لأسباب ذاتية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٤

و موضوعية، استمرت فترة الهبوط في السلطنة أكثر من ثلاثة قرون، الأمر الذي يضعها في مصاف سابقتها، الإمبراطورية البيزنطية، و في مدينة القسطنطينية أيضا. و قد بدأ الفساد في القمة، و راح يتغلغل في جسم الدولة إلى القاعدة. و بينما عوّض بعض الوزراء الأخطاء في البداية عن عجز السلاطين، و غطوا بنشاطهم عورات بني عثمان، فإنه في المرحلة الثانية، كان بقاء السلطنة رهنا بالتوازنات الدولية، و خصوصا الأوروبية. فاكتملت السلطنة، و بجدارة، لقب «رجل أوروبا المريض»، و لم تنفع معها محاولات الإصلاح عبر «التنظيمات» المتعددة.

لقد مرت أيام سليم الثاني، ابن سليمان (١٥٦٦-١٥٧٤ م) بسلام نسبي، ليس بسبب قدراته الشخصية، و إنما بفضل كفاءة وزيره محمد صقلّي. و في أيام مراد الثالث (١٥٧٤-١٥٩٥ م)، و من بعده ابنه محمد الثالث (١٥٩٥-١٦٠٣ م)، برز الاختلال في مركز السلطنة. فضعف السلطان شجع الإنكشارية على التمادي في طلب زيادة رواتبهم و مكافآتهم، و بالتالي تواتر تمرداتهم. و هذا الاختلال في المركز أغرى الحكام المحليين و الأمراء الإقطاعيين في الأطراف، بانتهاز الفرصة و محاولة الاستقلال، أو على الأقل تحسين شروط العلاقة مع الباب العالي. و قد برز بين هؤلاء الأمير فخر الدين المعنى الثاني (١٥٩٠-١٦٣٥ م)، الذي انتهز الفرصة لتوسيع نفوذه، و خصوصا في وقت كان الجيش العثماني مشغولا بالحرب مع الصفويين. و اتجه فخر الدين إلى فلسطين، فاحتل لواء صفد، و أصبح على تماس مع الأمراء الحارثيين في اللجون- آل طراباي- من جهة، و مع والي دمشق، الذي ظل مواليا للباب العالي، من جهة أخرى. و كان المعنيون، و هم قبيلة عربية درزية، قد أقاموا سلطتهم الإقطاعية في جبل لبنان أيام المماليك. و في المعركة بين سليم الأول و الغوري، وقف أميرهم، فخر الدين الأول على الحياد حتى انجلى الموقف، فسارع إلى الانحياز إلى المنتصر.

و في مقابل قسم الولاء، ثبت السلطان العثماني الأمير المعنى في إقطاعيته. أما فخر الدين الثاني، الذي تميّز بقصر قامته و عظم طموحه، فقد تطلع إلى إقامة دولة مستقلة في بلاد الشام. و بالدبلوماسية أخذ من الباب العالي سنجق بيروت و صيدا، ميناءين على البحر، و منفذين لتجارته و علاقاته مع أوروبا. ثم انتهز الفرصة لضم طرابلس و بعلبك و البقاع. و ما لبث أن توجه نحو فلسطين، فأخذ صفد و طبرية و الناصرة. و راح يتدخل في شؤون الحوران و شرقي الأردن. و عقد تحالفا مع حاكم غزة ضد حكام القدس و نابلس و اللجون. و دارت بين الطرفين معارك غير حاسمة، لم تكن في مصلحة فخر الدين، لكنها لم تردعه.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٥

و كاد فخر الدين الثاني أن يحقق الأهداف الثلاثة التي وضعها نصب عينيه: إقامة دولة في لبنان الكبير و الاستقلال عن السلطنة العثمانية و تطوير دولته و إعمارها. و قد لقي في سعيه للتوسع مقاومة شرسة من حكام فلسطين: أحمد بن طراباي (الحارثي)، أمير اللجون، و محمد بن فروخ، أمير نابلس، و حسن باشا، حاكم غزة. و التقى الطرفان في معركة بالقرب من يافا، هزم فيها فخر الدين، لكنه سرعان ما راح يستعد لقتال جديد. و لما تفاقم أمره، استصدر والي دمشق، أحمد باشا الحافظ فرمانا سلطانيا بالتحرك ضده و إخضاعه. و عندما شعر أن لا قبل له بمواجهة هذا التحالف، سلم فخر الدين زمام الأمور لأخيه، و هرب إلى إيطاليا، و أقام عند حليفه، فرديناند مديتشي، دوق تسكانيا الأكبر- لمدة خمس سنوات (١٦١٣-١٦١٨ م). و خلال هذه الفترة كان فخر الدين يعد التحالفات مع بعض القوى الأوروبية، لإقامة دولة مستقلة على الساحل السوري، تكون لها علاقات تجارية و ثقافية مع أوروبا. و في غيابه أخذت من أخيه الأراضي جميعها التي احتلها، و جعلت ولاية مركزها صيدا، و تضم صور و بيروت و صفد.

لم تكن أوروبا في حينه مهتأة لعمل عسكري في الشرق. و زيارة فخر الدين لفرسان مالطا (الصلبيين)، لم تتمخض عن نتائج عملية لإعادة بناء دولة الفرنجة في فلسطين. لكن فخر الدين عقد معاهدات تجارية، و خصوصا مع دوق تسكانيا، الذي وعد بدوره بتقديم المساعدة لفخر الدين في سعيه للاستقلال عن الدولة العثمانية.

و عاد فخر الدين إلى لبنان (١٦١٨ م)، بوساطة حلفائه لدى الباب العالي. لكن هذا الأمير الطموح لم يلبث أن انتهز فرصة حرب السلطان مع الصفويين، الذين احتلوا بغداد (١٦٢٣ م)، و راح يوسع ممتلكاته، فأخذ سناجق صفد و نابلس و غزة و عجلون. و مرة أخرى اصطدم بالمقاومة العنيدة التي أبداها أحمد بن طراباي. و زادت أهمية فخر الدين و هيئته بعد أن هزم حملة جردها ضده و والي دمشق، مصطفى باشا (١٦٢٣ م)، و ذلك في معركة عنجر (البقاع اللبناني).

إزاء تعاضم قوة فخر الدين، من جهة، و تفاقم الحرب مع الصفويين، من جهة أخرى، و في غياب قدرة الحكام المحليين في بلاد الشام على التصدي له، اعترف به مراد الرابع (١٦٢٣-١٦٤٠ م) و واليا على عربستان، من حلب إلى حدود العريش، لقاء دفع الضرائب و حفظ الأمن (١٦٢٤ م). أما فخر الدين، فقد عمد من جانب واحد و أطلق على نفسه لقب سلطان البر، و بدأ يعارض المصالح العثمانية. و لم يقف عند هذا الحد، بل عاد إلى فتح المفاوضات مع أوروبا، إذ طرحت مسألة إقامة دولة مسيحية في الشرق، مع ممثلي ملك إسبانيا. و لما استفحل أمر فخر الدين على الباب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٦

العالي، استصدر والي دمشق، أحمد كوتشوك، فرمانا من السلطان مراد الرابع بتجريد حملة ضد فخر الدين و سحقه. و بينما توجهت القوات بزا، فرض الأسطول العثماني، بقيادة القابودان باشا (قائد الأسطول) جعفر، حصارا على سواحل لبنان لقطع أية مساعدات أوروبية عن الأمير المتمرد.

و عندما أصبح وضع فخر الدين مهددا، حاول المراوغة مع الباب العالي، فعرض تسليم صيدا و بيروت، بينما أرسل مطرانا مارونيا إلى أوروبا لتجنيد الدعم له.

و عندما يئس، هرب و اختبأ في مغارة (١٦٣٣ م). و في السنة التالية، ألقى القبض عليه مع ولديه، و حملوا إلى إسطنبول، حيث أعدموا

(١٦٣٥ م). و لكن طموح خلفائه من المعنيين بالتوسع في فلسطين لم يتوقف. و عاد أخوه (١٦٥٣ م) و احتل سنجق صفد. و مع تقلص إمارة المعنيين، عين الباب العالي حكاما عثمانيين من الإنكشارية في السناجق التي انتزعت منهم. و في فلسطين، ظل أبناء طراباي يحكمون اللجون، و أبناء فروخ نابلس. و على العموم، شهدت البلاد اشتداد قبضة السلطة المركزية، عبر الإنكشارية و الحاميات التركية التي أرسلت إليها، أيام مراد الرابع و الوزراء من آل كوبرلي. لكن الفساد كان قد تغلغل داخل الإنكشارية أنفسهم، الأمر الذي أدى إلى تغييرهم خلال فترات قصيرة من الحكم، و بالتالي تفاقم حالة عدم الاستقرار في السناجق المتعددة. و إزاء تدنى قوة الإنكشارية و طغيان فسادهم، راح الحكام المحليون يجندون جيوشا من المرتزقة، من أجناس متعددة يستعملونها مداورة لفرض سلطتهم على الناس و لجباية الضرائب و حماية قافلة الحج. أما بالنسبة إلى السلطنة بصورة عامة، فإن صد الإنكشارية على أبواب فيينا (١٦٨٣ م)، في أيام محمد الرابع (١٦٤٨-١٦٨٧ م)، كان مؤشرا واضحا على تراجع قوة العثمانيين إزاء أوروبا. و كان عقد معاهدة كارلوفيتس في ٢٦ كانون الثاني / يناير ١٦٩٩ م منعطفا خطيرا في موازين القوى بين أوروبا و العثمانيين، تحت حكم مصطفى الثاني (١٦٩٥-١٧٠٣ م). ففي تلك المعاهدة، اضطر السلطان إلى التنازل عن أراض واسعة في البلقان. لكن الأهم هو تحوّل الامتيازات التي منحها ملك فرنسا على يد سليمان القانوني (١٥٣٥ م)، فمن موقع القوة، أصبحت الآن لزاما على السلطان، و حقا للدول الأوروبية المتعاضمة القوة. و في تلك المعاهدة، طالبت روسيا بإدخال الأماكن المسيحية المقدسة تحت حمايتها، و كذلك المسيحيين الأورثوذكس كلهم، كما طالبت بأن يعفى هؤلاء من الضرائب، و بأن لا يسرى عليهم القضاء الشرعي الإسلامي.

و منذ بداية القرن الثامن عشر، راحت أوضاع السلطنة العثمانية تتدهور بوتيرة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٧

عالية، و لم تنفع معها محاولات الإصلاح (التنظيمات و الفرمانات السلطانية)، سواء في الجيش، أو في إدارة الدولة. و تضافرت عوامل خارجية و داخلية لوضع السلطنة في موقع الدفاع عن النفس إزاء الخارج، و «انفلاش» السلطة في الداخل. فراحت تتراجع أمام أوروبا الناهضة، في الغرب، و كذلك في صراعها مع روسيا المحدث في أيام القيصر بطرس الأكبر، في الشمال الشرقي، و تدافع عن أراضيها ضد الأفغان الذين تحركوا من إيران في اتجاه العراق. أما في بلاد الشام، فقد برزت عائلة العظم (الشامية) في دمشق، و تسلمت الولاية فيها، برضى السلطان المشوب بالحذر. و في فلسطين، برز الزيادنة (ظاهر العمر)، و بسطت هذه القبيلة البدوية سلطتها على فلسطين و أجزاء من لبنان. و في مصر استعاد المماليك سلطتهم، بشخص على بك الكبير (١٧٦٠-١٧٧٣ م). و علاوة على ذلك كله، فتحت معاهدة كارلوفيتس الباب على مصراعيه أمام الدول الأوروبية لاستغلال التناقضات الداخلية عبر «نظام الامتيازات»، التي اتسع نطاقها على جميع الصعد.

ثانيا: ظاهر العمر الزيداني

يمثل ظاهر العمر الزيداني ذروة حكم الأمراء المحليين في فلسطين، و استقلالهم في إدارة شؤونهم الذاتية على رقعة واسعة من البلد، و ذلك تحديا للسلطنة العثمانية، و بالتعاون مع قوى أوروبية، و عبر سلسلة من التحالفات و الصراعات، مع الأمراء المجاورين أو ضدهم. لقد كثر ظاهر العمر في القرن الثامن عشر، ما فعله فخر الدين المعني في القرن السابع عشر. و في الواقع، لقي الاثنان في النهاية المصير نفسه، إذ لم تكن السلطنة العثمانية ناضجة للتفتت بعد.

و كان الزيادنة، و هم قبيلة بدوية، جاءت من الحجاز و استقرت في الجليل الأسفل، قد برزوا عبر «الالتزام»، أي ضمان جباية الضرائب من السكان في بعض المناطق، لقاء مبلغ مقطوع للدولة. و من هنا عرف الزعماء المحليون الذين عملوا به باسم «مقاطعية». و هذا النظام الذي شاع في القرنين السابع و الثامن عشر بديلا من الإقطاع العسكري بعد تدنى فاعلية الإنكشارية و فسادهم، أتاح لهؤلاء «الملتزمين» بناء جيوش خاصة مهمتها الحفاظ على أمنهم و جباية الضرائب و استخدامها في الصراع بين بعضهم البعض بشأن السلطة و

النفوذ، و لكن من دون أية فائدة للسلطنة في حروبها الخارجية.

و استحوذت ظاهرة الزيادة - بروزهم و توسعهم و صراعاتهم مع الجوار و السلطنة و سقوطهم - على تاريخ فلسطين في القرن الثامن عشر. و كان ظاهر العمر الشخصية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٨

المركزية في هذه الفترة، التي ظلت على مسرح الأحداث أكثر من نصف قرن.

و خلال هذه الفترة الطويلة نسبيا لظاهرة من هذا النمط، تضافرت عوامل خارجية و داخلية على السلطنة، استطاع ظاهر العمر أن يستغلها و يقوى سلطته و يوسع نفوذه.

و كان طبيعيا أنه بقدر ما كرس ظاهر العمر حكمه، نتيجة الأوضاع القائمة آنذاك، بقدر ما احتدم التناقض بينه و بين السلطنة، التي لم تكن بعد ناضجة للانحلال الداخلي.

و لذلك حسم الصراع بقتل ظاهر العمر و إنهاء الظاهرة (١٧٧٥ م). و في ذروة قوته، و بالتالي تناقضه مع الباب العالي، تحالف ظاهر العمر مع صنو له في مصر، هو على بك الكبير، المملوك الذي راودته تطورات شبيهة بتلك التي بيّتها ظاهر العمر.

و استطاع الحليفان احتلال دمشق (١٧٧١ م)، بدعم من روسيا، التي قصفت أسطولها بيروت، في استعراض للقوة إزاء الجيش العثماني.

ولد ظاهر العمر في العقد الأخير من القرن السابع عشر. و كان والده عمر بن صالح الزيداني، ملتزما (مقاطعجي) صغيرا في أعمال

سنجق صفد، في منطقة نفوذ الشهابيين، الذين ورثوا إمارة المعنيين في لبنان. و بعد موت والده (١٧٠٣ م)، تولى ظاهر جزءا من التزام

والده - قريتي عرابه و الدامون - في الجليل الأسفل. ثم راح يوسع هذا الالتزام، عبر التحالف مع بعض القبائل البدوية، في منطقة اللجون

الواقعة على الحدود بين سنجق صفد و نابلس، و منهم: بنو صخر و بنو صقر و عرب السردية، الذين انتشروا في الجزء الشرقي من

مرج ابن عامر. و دخل ظاهر العمر في تحالفات قبلية، و بالتالي في صراعات حدودية، بين حاكم صفد، الموالى لأمير جبل لبنان

الشهابي، و بين حاكم نابلس و زعماء العشائر فيها، الموالين لأمير دمشق، من آل العظم. و انحاز ظاهر العمر إلى أمير مشايخ البدو في

سنجق صفد، رشيد جبر، فدخل في صراع مع آل ماضي في منطقة نابلس و آل جزار في منطقة جنين. و في هذه الفترة، و عبر

المصاهرة، اتخذ ظاهر له مقرا في الناصرة - البلدة الأكبر في الجليل الأسفل.

و لإثبات جدارته أمام والي صيدا، تعهد ظاهر العمر بكبح حلفاء الأمس - مشايخ بني صقر - و ردعهم عن الإخلال بالأمن. و لما نجح

في ذلك، استثار والي دمشق، سليمان باشا العظم الذي هبّ لمساندتهم. و إزاء تفاقم خطر ظاهر العمر، عزم الباشا الدمشقي على

سحبه، فجرد ضده حملة قادها بنفسه (١٧٣٧ م)، و فشل في القضاء عليه، لكنه لم ينكفيء عن متابعة هدفه. في المقابل، عمد ظاهر

العمر إلى احتلال طبرية و تحصينها. و عندما عاود الباشا الكرة (١٧٤٢ م)، و حاصر طبرية، فشل ثانية في أخذها و القضاء على الأمير

البدوي الصلب، و انسحب إلى دمشق مرة أخرى.

و عندها توجه ظاهر العمر إلى القنصل الفرنسي، الذي كانت لدولته مصالح تجارية في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٩

الجليل، و طلب منه التوسط لدى الباب العالي، لكبح سليمان باشا عن محاربتة.

لكن القنصل تردد لاعتبارات تجارية و سياسية. و عاد سليمان باشا على رأس حملة ثالثة (١٧٤٣ م)، و هذه المرة قصد دير حنا، في

الجليل الأسفل، لتطويق ظاهر العمر في طبرية، لكنه مات في قرية لويبة بين طبرية و دير حنا، و يقال إن ظاهر العمر دس له السم، و

فشلت الحملة.

و بعد موت سليمان باشا العظم، خلا الجو لظاهر العمر، فوطد علاقاته مع محاور السلطة في إستنبول، عبر الوكلاء و السماسرة، و نشاط

الفرنسيين لمصلحته.

و طور الزراعة في منطقته، و خصوصا القطن في مرج ابن عامر، فزاد في حجم تجارته مع الأوروبيين، و مع الفرنسيين بصورة خاصة. و قوى جيشه و وسع أراضيه و حصّن قلاععه. ثم أخذ من والى صيدا التزام عكا، فحصنها و بناها و جعلها مقراً له. و بفضل تجارة عكا، زاد حجم التبادل بينه و بين دول أوروبا، التي كانت لها وكالات في عكا، يرهاها القناصل، و تحسنت أوضاع ظاهر العمر كثيرا. و في هذه الفترة، ظل حريصا على دفع الضرائب المستحقة عليه إلى إستنبول بانتظام. في المقابل، لم يول الباشا الجديد في دمشق، أسعد باشا العظم، الصراع مع ظاهر العمر اهتماما، إذ وجه نشاطه ضد أمراء لبنان الدرّوز. كما أن أسعد باشا شعر بأن إستنبول المشغولة بمشكلاتها الكثيرة، بينما بلاط السلطان منقسم في موقفه تجاه ظاهر العمر، ليست جادة في القضاء عليه، فتحاشى الدخول في حرب مكلفة معه.

و في غياب قوة رادعة، مركزية أو محلية، استفحل أمر ظاهر العمر في فلسطين. فالحكومة في إستنبول كانت مشغولة بحرب مع روسيا، لم تكن تحقق فيها انتصارات، بل على العكس. و بانكفاء والى دمشق عن الاشتباك معه، لم يعد بين جيران ظاهر العمر من يهدده من الخارج بصورة مباشرة. و راح جميع أعدائه يستغلون الصراع الذي نشب بينه و بين أبنائه، من جهة، و بين بعضهم البعض بشأن اقتسام السلطة، من جهة أخرى. و في هذه الأثناء (ولاية أسعد باشا في دمشق، ١٤ عاما)، بلغ ظاهر العمر ذروة قوته، و لاحقا أخذ حيفا و يافا و اللد و الرملة، و فرض هيئته على منطقة نابلس. و عقدت فرنسا معه اتفاقا تجاريا (١٧٥٤ م). و بعد اغتيال أسعد باشا (١٧٥٧ م)، و إزاء محاولات خلفه، عثمان الكرجي، التصدي لظاهر العمر، همد الخلاف داخل العائلة، بسبب التهديد الخارجي. و عندما تفاقم هذا التهديد، تحالف ظاهر العمر مع على بك الكبير، حاكم مصر، و معا احتلا دمشق (١٧٧١ م) بتأييد روسيا و دعمها.

في ذروة قوته، تصدى لظاهر العمر الوالى الجديد في دمشق، عثمان باشا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٠

الكرجي (١٧٦٠ - ١٧٧١ م) الذى احتل موقع سيده أسعد باشا العظم، مكافأة له من الباب العالى على الغدر بولى نعمته، و حاول الكرجي إقناع إستنبول بضرورة القضاء على الشيخ الزيداني. لكن إستنبول لم تكن في موقع تقديم المساعدة اللازمة لذلك، نظرا إلى كونها مشغولة بالحرب مع روسيا. و اتبع الباب العالى سياسة زرع الشقاق بين أفراد عائلة الزيداني، و حرّضت، عبر الكرجي، أبناء ظاهر العمر على أبيهم، كما فعلت في لبنان، بين «الجنابلاطية» (الجنبلاطية) و «الأزبكية» (الأرسلانية)، و كذلك بين الشيعة في جبل عامل - ناصيف النصار و الشيخ قبلان. و تداخلت هذه الزعامات المحلية في الصراعات، و شغلت بها. و لكن على الرغم من المشكلات الداخلية (تمرد أبنائه عليه)، و الصراعات مع الجوار، بما في ذلك مع والى صيدا، الذى راح يخشى تزايد قوة ظاهر العمر، استطاع هذا الأخير، عبر التحالف مع حاكم مصر، على بك الكبير، و استغلال التناقضات بين الجيران، و احتواء الصراع بين أبنائه و معهم، عبر تخويفهم من الخطر الداهم عليهم جميعا، أن يحمى نفسه و يحافظ على موقعه.

و كثافة تدخل والى دمشق في شؤون ظاهر العمر، من دون القدرة على حسم الصراع معه بغياب دعم جدى من إستنبول، دفعت ظاهر العمر إلى التحالف مع على بك الكبير في مصر. و كان هذا المملوك قد تمرد على السلطان، و في سنة ١٧٧٠ م، أرسل صهره و قائد جيشه، محمد بك أبو الذهب، فاحتل غربى الجزيرة العربية. و في السنة التالية (١٧٧١ م)، أرسل حملة إلى سورية، و بالتعاون مع ظاهر العمر، استطاع فيها احتلال دمشق بسهولة نسبية، لما كانت تشهده بلاد الشام من تفتت و صراعات بين مراكز القوى، و ما يسود سكانها من حالة تدمر لسوء تصرف عثمان الكرجي. لكن الأهم هو استغلال على بك الكبير فرصة انهماك السلطنة في الحرب مع روسيا، فعزم على التوسع في سورية، مستفيدا من الأوضاع فيها، و من التحالف مع روسيا، الذى جرى التعبير عنه في اتفاق عقد مع الكونت أورلوف، قائد الأسطول الروسى في البحر الأبيض المتوسط. و قد قدّم هذا الأسطول الدعم لعلى بك في أثناء الحملة، فقصف بيروت، و أنزل فيها بعض القوات (١٧٧١ م).

و منذ تولى دمشق (١٧٦١ م)، لم ينفك عثمان الكرجي عن محاولة انتزاع الأراضى و المدن التى أخذها ظاهر العمر بالقوة من يده. و

جرى الصدام الأول بعد شهرين من تعيينه، إذ احتل الطنطورة، و تقدم نحو حيفا، لكنه فشل في احتلالها. و في السنة نفسها، قام بحملة أخرى على عكا، و احتل قلعتها لمدة عام. لكن ظاهر العمر لم يلبث أن استعادهما، و عمد إلى تحصينهما، و خصوصا عكا. و خلال

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥١

الستينات، ظلت الحرب سجالات بين الاثنين. و بينما اشتد ضغط عثمان الكرجي على ظاهر العمر، في نهاية الستينات، لاحت في الأفق حركة على بك الكبير في مصر، فسارع إلى التحالف معه، على الرغم من علمه بنوايا حاكم مصر المملوكي بسط سلطته على بلاد الشام. و استفاد ظاهر العمر و حليفه على بك من حالة التملل في بلاد الشام، سواء أكان ذلك على صعيد الحكام المحليين، أو على صعيد السكان عامة، من سلوك عثمان الكرجي و عسفه. و على الصعيد الشعبي، فقد ذاق الناس الأثرين من الحرب المستمرة، من جهة، و من الكوارث الطبيعية التي تواترت من جهة أخرى.

و عندما طلع جيش على بك الكبير على فلسطين (١٧٧١ م)، استسلمت له غزة و الرملة من دون قتال. و تراجعت قوات الكرجي إلى يافا، و تحصنت فيها. و من هناك، قامت بهجوم مفاجيء على الجيش المصري و هزيمته. لكن جيش الكرجي لم يلبث أن انسحب من يافا، إزاء الحشد العسكري الكبير ضده، من قوات ظاهر العمر و حلفائه المحليين، و خصوصا مشايخ الشيعة في جبل عامل، و القوات المصرية، بقيادة إسماعيل بك، مملوك على بك الكبير. ثم وصلت تعزيزات كبيرة من مصر، بقيادة المملوك محمد بك أبو الذهب، فهيمن هذا على الوضع بشخصيته و سمعته و كبر جيشه، الأمر الذي أدخل الشكوك في نفس ظاهر العمر. و لم يخرج هذا الأخير لملاقاة محمد أبو الذهب، و لا رافقه في حملته على دمشق، و إنما توجه إلى عكا، و عمل على تحصينها تحسباً لكل طارئ. و يبدو أن ظاهر العمر أعاد حساباته في التحالفات التي وضعته في تناقض محتدم مع إستنبول لم يكن يرغب في إيصاله إلى هذه الحدود. و لكن سبق السيف العذل.

و تقدم أبو الذهب إلى دمشق و احتلها (١٧٧١ م)، لكنه ما لبث أن انقلب على سيده على بك. و انحاز إلى إستنبول، و عاد بجيشه إلى مصر، و طرد منها على بك، الذي لجأ إلى ظاهر العمر، و تولى أبو الذهب ولاية مصر مكانه (١٧٧٢ م). و بانقلاب أبي الذهب هذا، انقلبت موازين القوى، و اختلت التحالفات، و فتح الصراع بين الزعماء المحليين، و سارع كل منهم إلى وضع يده على منطقة معينة لدى شعوره بالفراغ السياسي الذي حدث، فعمت الفوضى. و حاول على بك العودة إلى مصر و استعادة حكمه فيها، لكنه هزم و مات (١٧٧٣ م). و بعد ذلك، تقدم أبو الذهب إلى فلسطين، فأخذ غزة و الرملة و يافا، و هرب ظاهر العمر من عكا. فأخذها أبو الذهب، لكنه ما لبث أن مات، و دبت الفوضى في جيشه، فعاد ظاهر العمر إلى عكا و حصنها (١٧٧٥ م). و في هذه الأثناء دب الصراع ثانية في عائلة الزيدانية، و هذه المرة بين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٢

الشيخ و ابنه، أحمد و على اللذين تحصن كل منهما في قلعة، و رفض الانصياع لوالده. و بدا واضحاً أن نهاية الزيدانية أصبحت قريبة. في الوقت الذي كانت السلطنة مشغولة بالحرب مع روسيا (١٧٦٨-١٧٧٤ م) استشرى التناحر في بلاد الشام، و خصوصا بين والي دمشق و حاكم الجليل، ظاهر العمر، و استقطب القوى المحلية على تعدد أنواعها، إلى هذا الجانب أو ذاك. و تفاقم الوضع بدخول المماليك المصريين طرفاً في هذا الصراع. و لكن الحرب انتهت و خسرتها السلطنة. و وقعت معاهدة «كوتشوك (كجك) كاينرجي» (١٧٧٤ م)، التي بموجبها تنازلت السلطنة عن جزيرة القرم لروسيا. و بعدها تفرغ الباب العالي لبلاد الشام و مصر، و على رأس جدول أعماله ضبط الأوضاع فيهما، و بداية إخضاع ظاهر العمر، الذي كانت قوته قد ضعفت. و حاصره الأسطول العثماني، بقيادة القبطان حسن باشا من البحر، بينما زحف ضده جيش كبير من البر، فأنزلا بظاهر العمر ضربة قاصمة. و قتل الشيخ خارج عكا، هاربا مع بطانته، بعد أن رفضت عساكره من المرتزقة الصمود في الحصار. و بمقتل ظاهر العمر، انتهى عملياً حكم الزيدانية، لأن أبناءه لم يكونوا

مؤهلين، لا ذاتيا ولا موضوعيا، لتشكيل ظاهرة سلطوية قابلة للحياة، فأجهز عليهم أحمد الجزار (آغا).

ثالثا: أحمد باشا الجزار

إن الفترة الصاخبة التي مرت بها بلاد الشام، وخصوصا فلسطين، خلال الفترة (١٧٦٠-١٧٧٥ م)، تمخضت عن بروز مملوك (بوسنى الأصل) مغامر على مسرح الأحداث في عكا، الآغا أحمد، الملقب «الجزار». فقد أدى انصراف الباب العالي إلى فرض هيئته في بلاد الشام بعد معاهدة كوتشوك كاينرجي، إلى تصفية كل من على بك الكبير ومملوكه المتآمر عليه، محمد أبي الذهب، وظاهر العمر الزيداني. وكانت الصراعات قد أرهقت القوى المحلية جميعها، الأمر الذي نشأ عنه فراغ سياسي، عمد الباب العالي إلى ملئه بمماليك من نمط الجزار. وكان هذا، قبل تعيينه حاكما على عكا لقاء دوره في القضاء على ظاهر العمر، قد تنقل كمملوك في أقاليم متعددة، ومواقع كثيرة، وتقلب في نشاطه العسكري بين الأطراف المحلية المتصارعة، بما تمليه عليه مصالحه الذاتية، وطموحه الشديد إلى السلطة، وجشعه للمال. ومن قاعدته في عكا، راح يوسع نفوذه ليصبح واليا على دمشق، متمردا على الباب العالي.

وأسوة بغيره من المماليك، بدأ أحمد الجزار نشاطه في إستنبول، ومنها انتقل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٣

إلى مصر في خدمة على بك الكبير، ثم إلى بلاد الشام، حيث تحوّل إلى خدمة واليها. وعهد إليه، مع مماليكه، حماية بيروت (١٧٧٢ م)، بإمرة يوسف الشهابي، أمير جبل لبنان. لكنه ما لبث أن تفرد بحكمها، من دون أن يبالي بضغط الباب العالي عليه للانضباط. ثم هرب من بيروت عندما هاجمها الأسطول الروسي، ولجأ إلى ظاهر العمر موقتا، وسريعا انتقل إلى دمشق. وكان في عداد القوة العثمانية التي قضت على حكم الزيدانية. ومكافأة له على قتل ظاهر العمر، عين حاكما على عكا. واكتسب الجزار شهرته بصموده داخل أسوار عكا المنيعه أمام حملة نابليون على بلاد الشام، وبالتالي دوره في إفشال تلك الحملة. ونتيجة ذلك، زاد في تحديه للباب العالي، وعمل على توسيع نفوذه في بلاد الشام، فأصبح واليا على دمشق، في فترات متقطعة، بفضل قوته العسكرية وجبروته، وبالتالي نجاحه في فرض هيئته على الحكام المحليين في بلاد الشام.

ويعبر بروز الجزار واتساع نفوذه عن هبوط قوة الحكام والزعماء المحليين في بلاد الشام، وحلول المماليك محلهم، أسوة بما جرى في مصر والعراق. وتفرد هؤلاء المماليك بالسلطة في مناطق ولايتهم، هو تعبير عن ضعف الدولة المركزية، التي في صفوف جيشها نشأوا، وعبره وصلوا إلى مواقع متقدمة. وقد اضطرت السلطة المركزية إلى الاعتراف بهم، لأنهم كانوا أقدر منها على التصدي للقوى المحلية النازعة إلى الاستقلال والانفصال عن السلطنة. وتميز حكم هؤلاء المماليك بالعسف والبطش. وكطبقة عسكرية حاكمه، أعادوا البلاد إلى الحالة التي كانت ترزح تحتها في نهاية حكم المماليك البرجية في القرن الخامس عشر. ولأنهم أقاموا جيوشا خاصة من المرتزقة، فقد احتاجوا إلى أموال طائلة لتسديد نفقاتهم واسترضاء عساكرهم، فأسرفوا في فرض الضرائب واستعمال القوة لجبايتها، الأمر الذي أرهق كاهل الناس وأفقرهم.

والإيجابية الوحيدة لحكمهم كانت التصدي للغزو الخارجي، ومن موقع المصلحة الذاتية، كما فعلوا في مصر وفلسطين في أثناء حملة نابليون، وكما فعل أقرانهم الففقازيون في العراق تجاه حكام إيران.

وما لبث الجزار أن استقر بعكا (١٧٧٥ م)، حتى راح يوسع نفوذه. ففي سنة ١٧٧٦ م أخذ ولاية صيدا، وتوجه فورا إلى تصفية بقايا الزيدانية، فأخذ قلاعهم، الواحدة تلو الأخرى - شفاعمرو و صغد و دير حنا .. إلخ. وكان أشد أبناء ظاهر العمر صلابه في مقاومة الجزار، على، الذي تحصن في قلعة دير حنا، إلى أن هزم. ثم تحرك الجزار ضد مشايخ الشيعة في جبل عامل، فقتل الشيخ ناصيف نصار، وأخذ منه مدينة صور، ثم أخذ بيروت من أمير جبل لبنان، يوسف الشهابي، وعزله، ونصب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٤

مكانه الأمير بشير الشهابي الثاني، فأدخل البيت الشهابي في الصراعات الداخلية لإخضاعه لنفوذه وإضعافه. وفي ذروة قوته، انتزع ولاية طرابلس، وأخيرا حقق حلمه في ولاية دمشق أربع مرات (١٧٨٥ و ١٧٩١ و ١٧٩٨ و ١٨٠٣ م). ولم تجد معه محاولات الباب العالي كلها لعزله، فقد أصبح له أعوان في إستنبول، كما أن السلطنة كانت مشغولة بالصراع مع حاكم إيران الأفغاني، كريم خان زند الذي حاول التوسع غربا في العراق.

و اتخذ الجزائر من مدينة عكا، التابعة لولاية صيدا، مقرا له. و بانتزاعه مدن الساحل كلها من جيرانه، و ضمها إلى ولايته، انتقل مركز الثقل في بلاد الشام إلى الساحل، فتراجع الداخل، بما فيه دمشق ذاتها. و قد تزامن حكم الجزائر في بلاد الشام مع تفاقم «المسألة الشرقية»، و بالتالي الصراع الأوروبي - أولا، بشأن الامتيازات و النفوذ في أراضي السلطنة العثمانية المتهاوية، و لاحقا على اقتسامها. و في أيامه، وقع الحدث الأهم في العلاقة بين الشرق الأدنى و أوروبا، منذ الحملات الصليبية قبل سبعة قرون تقريبا، و هو حملة نابليون بونابرت على مصر، و منها على بلاد الشام. و نظرا إلى تمركزه على الساحل، عقدت الجزائر علاقات تجارية، و بالتالي سياسية مع أوروبا. و إزاء حملة نابليون، توصلت الجزائر إلى اتفاق مع بريطانيا. فكان للأسطول البريطاني دور في صموده بعكا، و إحباط الحصار الذي فرضه نابليون عليها. و عدا السمعة السيئة، و ما عرف عنه من عسف و بطش، فقد تركت الجزائر آثارا باقية في عكا حتى اليوم - الأسوار الضخمة و القلعة و المسجد و الحمام و الأسواق، و غيرها.

في إطار المسألة الشرقية، و بالتالي العلاقات بين الشرق الأوسط و أوروبا، و التنافس بين دول أوروبا بشأن مناطق النفوذ و موارد المواد الخام و الأسواق، و ذلك بعد الثورة الفرنسية، تعتبر حملة نابليون بونابرت على مصر و بلاد الشام (١٧٩٨ - ١٨٠١ م) منعطفًا حادا. فمعها انتقل التنافس بشأن تقسيم السلطنة من الإطار التأمري، السياسي و الدبلوماسي، و عقد الصفقات السرية، و تفعيل الضغوط الاقتصادية و غيرها، و استغلال المشكلات الداخلية و التناحر بين الكيانات المتجاورة، إلى الاحتلال المباشر. و في هذه الفترة، و بعد بسط نفوذها على الهند، و تعاضم قوتها العالمية، أصبحت بريطانيا القوة النافذة في أوروبا، فاحتمت التناقض بينها و بين فرنسا، التي بعد الثورة (١٧٨٩ م)، راحت تطمح إلى القيام بدور مميّز في أوروبا و العالم. و بعد فشلها في التصدي لبريطانيا في أوروبا، و عدولها عن مشروع غزو بريطانيا، الذي أوكل أمر تنفيذه لنابليون نفسه، تبلورت في فرنسا فكرة الحملة على مصر و بلاد الشام. و قد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٥

تضافرت عوامل داخلية فرنسية، و خارجية أوروبية، و شرق أوسطية، لقيام هذه الحملة، بهدف معلن هو فصل بريطانيا عن مستعمراتها، عبر قطع طرق المواصلات البحرية بينهما.

و كانت أوروبا بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح (١٤٩٨ م) قد حوّلت تجارتها مع الشرق الأقصى إلى هذا الطريق البحري الذي يدور حول إفريقيا، الأمر الذي ألحق ضررا كبيرا بطرق البحر الأبيض المتوسط، و بالتالي بالدول المحيطة به، و منها فرنسا. و في إطار التنافس بشأن تجارة الشرق الأقصى، عاد الفرنسيون و فكروا بإحياء الطرق القديمة، فأصبحت مصر بؤرة اهتمام القوى المتنافسة، و خصوصا أن الطريق عبرها أقصر بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح. و حتى في فترة الاحتلال القصيرة، أجرى الفرنسيون دراسة، عبر البعثة العلمية الكبيرة التي حملها نابليون معه، حول حفر قناة تصل البحر الأبيض المتوسط بالبحر الأحمر، تلك الفكرة التي تطورت لاحقا و انتهت بحفر قناة السويس. و إذ فتحت حملة نابليون عيون أوروبا على البحر الأبيض المتوسط و الشرق الأوسط، و خصوصا على مصر، فإنها في حينها لم تحقق الأهداف المعلنة لها.

لقد فشلت الحملة، لكنها تركت أثرا عميقا في المنطقة. و في الواقع، فإنها دشنت دخول المنطقة العصر الحديث. فبعد حملة نابليون، بدأت في الشرق الأوسط مرحلة جديدة في العلاقة مع الغرب الاستعماري، لا تزال مستمرة حتى الآن (١٩٩٦ م).

و كان نابليون قد أعد حملته على مصر بسرية تامة، و لعل الإشاعات عن عزمه غزو بريطانيا كانت تمويهها على خطته الحقيقية. فأبحر من طولون في أيار/ مايو ١٧٩٨ م، و همّه التملص من مواجهة بحرية مع الأسطول البريطاني، الذي كان يتعقبه.

و في الطريق، قام بهجوم مفاجيء على قلعة مالطا، التي أخذها من دون صعوبة تذكر.

و من هناك، سارع إلى أبي قير، على الساحل المصري في حزيران/ يونيو ١٧٩٨ م، الميناء الذي كان الأسطول البريطاني قد زاره قبل بضعة أيام، و قتل راجعا يبحث عن نابليون في عرض البحر لتدمير سفنه. و فاجأ نابليون المماليك في الإسكندرية، و أخذها من دون مقاومة. و منها تحرك إلى القاهرة، و في معركة بالقرب من الأهرامات، هزم جيش المماليك من الفرسان، بفضل تفوق قواته، عددا و عدة و عتادا و تدريبا و تكتيكا ميدانيا. و دخل القاهرة، و أعلن أنه جاء مجددا للإسلام و تراثه.

لكنه سرعان ما فقد أسطوله في أبي قير، الذي دمره الأميرال البريطاني هوراشيو نلسون، في هجوم كاسح. فأصبح نابليون محصورا في مصر، و معزولا عن فرنسا.

فعدل عن خطة التقدم إلى الهند، أسوة بالإسكندر المقدوني، و اكتفى بحملة على بلاد الشام، توقفت عند عكا.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٦

و بعد نجاحه الأولى في حملته، و خصوصا التملص من كارثة مؤكدة في حال المواجهة البحرية مع الأسطول البريطاني، و من ثم دخول القاهرة بسهولة نسبية، راحت الكوارث تنهال على نابليون في مصر. فهناك وجد نفسه محاصرا- الإنكليز في البحر و المماليك في مصر العليا و الشعب المصري في القاهرة و العثمانيون في بلاد الشام. و حاول نابليون عقد صفقة مع الجزائر، و لكنه فشل. فقرر التحرك إلى فلسطين، استباقا لقدم الجيش العثماني منها. و دامت حملته في فلسطين ثلاثة أشهر من ٧ شباط/ فبراير إلى ٢٠ أيار/ مايو ١٧٩٩ م، و انتهت عند أسوار عكا المنيعه، و صلابه الجزائر في الدفاع عنها، بمساعدة من البحرية البريطانية، بقيادة سدني سميث. و كان نابليون بعد تسيير مشاته، أرسل عدة الحصار- المدفعية و غيرها من العتاد و المؤن- بحرا إلى الساحل الفلسطيني لتصله بعد احتلال الموانئ. لكن البحرية البريطانية اعترضت السفن المحملة و استولت عليها، و أخذت العتاد الذي عليها، و قدمته دعما للجزائر، الذي خيب آمال نابليون بصموده و رفضه الاستسلام و استعداده للقتال.

و تقدمت فرق نابليون إلى فلسطين تباعا، و تجمعت عند العريش و حاصرتها، و بعد قتال ضار احتلتها. و من بعدها سقطت خان يونس و غزة من دون قتال يذكر، لأن المماليك فيهما انسحبوا إلى يافا. و رفضت يافا الاستسلام، لكنها احتلت في قتال شرس بعد اختراق أسوارها، و قتل فيها أكثر من ٢٠٠٠ أسير، (و في رواية أخرى أكثر من ثلاثة آلاف)، بأمر من نابليون نفسه، الأمر الذي أثار تمللا في صفوف جنوده، تحسبا لردات فعل السكان، سواء في فلسطين أو مصر. و أصاب الطاعون جيوش نابليون و هي في منطقة يافا و الرمله، لكنه، مع ذلك، تقدم نحو عكا، بينما كانت تناوشه في الطريق جماعات مسلحة من المماليك و القوى المحلية. و بعد احتلال حيفا، حاصر عكا من البر، لكن البحر ظل مفتوحا يؤمن الاتصال مع الأسطول البريطاني. و صمدت عكا، و الجزائر فيها، و أغارت عساكره على الفرنسيين و أوقعت فيهم الخسائر. و باءت محاولات نابليون اختراق أسوار عكا بالفشل، و بدأ التدمير يتفشى في صفوف جيشه، لعدم كفاية وسائله لفتح الثغرات في الأسوار و دخول المدينة.

و بينما قواته تحاصر عكا، بعث نابليون فرقة من جيشه إلى صور، فاحتلتها، و نصب فيها حاكما محليا مواليا له، و معه حامية صغيرة. و كذلك أرسل نابليون فرقة احتلت صفد، و أخرى إلى الناصرة فاحتلتها، و ذلك لتأمين الطريق بين عكا و دمشق، و استباقا لدخول جيش عثمانى من الشام في اتجاه عكا. و عندما بلغه عبور هذا الجيش

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٧

نهر الأردن، بإمرة والى دمشق، عبد الله باشا، و أنه انقسم إلى رتلين، أحدهما تقدم في اتجاه صفد، و الآخر احتل طبرية، و هو يتقدم في اتجاه الناصرة، سارع نابليون إلى مواجهة هذا الجيش بعيدا عن عكا. و في الصدامات الأولى، قبل أن يحشد نابليون قواته، حقق العثمانيون انتصارات تكتيكية، كما حدث في لوبية و غيرها. و سحب نابليون جزءا كبيرا من قواته التي تحاصر عكا، و توجه هو بنفسه إلى نجدة حاميتي الناصرة و صفد، اللتين أحدق بهما خطر الهزيمة أمام الجيش العثماني الكبير. و التقى الجيشان في معركة حاسمة

في مرج ابن عامر، بين جبل طابور و الفولة، و انتصر نابليون بفضل مدفعيته الثقيلة، و تراجع العثمانيون و استعاد الفرنسيون صغد، و احتلوا طبرية، و نهبوا و أحرقوا عددا من البلدان- الفولة و نورس و جنين و غيرها.

و عاد نابليون لتضييق الحصار على عكا، و حاول اختراق أسوارها المرة تلو الأخرى (سبع مرات)، و لكن من دون جدوى. و في الهجمات الفرنسية و الأخرى المضادة من عساكر الجزائر، وقعت إصابات كثيرة في الطرفين، و لكن عكا لم تكن على وشك السقوط. و عاد الطاعون للانتشار في جيش نابليون، فقرر الانسحاب و العودة إلى مصر. و في طريقه قافلا إليها، تعرض جيشه لهجمات متتالية من جماعات محلية مسلحة، و ردّ عليها الفرنسيون بتخريب القرى و المدن و أعمال النهب و فرض الغرامات. و ترك نابليون وراءه بضع مئات من الجرحى و المرضى برعاية زعماء محليين، محتفظا لديه برهائن من أقارب هؤلاء. و يقدر عدد الإصابات في جيش نابليون في أثناء الحملة على فلسطين بنحو النصف، من مجموع ١٢،٠٠٠ جندي، بين قتيل و جريح و مريض. و ما عدا أعمال التخريب و النهب و القتل، و درء الهجوم العثماني على مصر، فإن الحملة كانت فاشلة بكل المعايير، حتى التكتيكية منها- إنقاذ ما يمكن إنقاذه من الحملة العامة على مصر، في إطار الصراع مع بريطانيا، و العمل على قطع طرق مواصلاتها مع الهند و الشرق الأقصى.

و بعد عودته إلى مصر، أيقن نابليون بعدم جدوى بقائه هناك. فالأحلام التي راودته في بداية الحملة تبخرت، سواء ما يتعلق بفرنسا أو به شخصيا. و الأنباء التي راحت تتوارد عليه عن التطورات في باريس لا تبشر بالخير له، فقرر العودة إلى فرنسا، و انسلّ نابليون سرّا إلى فرنسا، تاركا جيشه في مصر بقيادة الجنرال كليبر (١٧٩٩ م). و ظل هذا الجيش في مصر إلى أن هزمه الإنكليز (١٨٠١ م)، و أعادوا مصر إلى السلطان العثماني. و بذلك انتهت مغامرة نابليون هذه، من دون نتائج مباشرة لفرنسا، أو لنابليون نفسه، لكنها فتحت عهدا جديدا من النشاط الأوروبي في الشرق الأوسط، كان انعكاسا مباشرا للتطورات السياسية في أوروبا، و للتحالفات التي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٨

تشكلت على خلفية حملة نابليون إلى الشرق، بأهدافها و منطلقاتها. و إذ كانت بداية موجة جديدة من التوسع الأوروبي الإمبريالي في الشرق الأوسط، فقد شكّلت بطبيعتها الحال، بداية ردة فعل «نهضوية» في المنطقة إزاء أوروبا و أطماعها فيها. و تعتبر فترة حكم محمد علي باشا في مصر محطة رئيسية في هذا المسار.

رابعا: حملة محمد علي

إشارة

شهدت فلسطين خلال القرن التاسع عشر تطورات مهمة أدت دورا أساسيا في تقرير مصيرها في القرن العشرين. فبعد انسحاب نابليون مباشرة، عادت البلاد إلى حكم الجزائر و خلفائه في عكا. لكن سرعان ما بدأ محمد علي (١٨٠٥-١٨٤٩ م)، باشا مصر، بعد انسحاب الجيش الفرنسي منها، يتدخل في شؤونها، فعادت مرة أخرى لتصبح بؤرة اهتمام في المسألة الشرقية. و بعد مؤتمر لندن (١٨٤٠ م)، الذي فرض على محمد علي الانسحاب من بلاد الشام، و إعادتها إلى السلطان العثماني، زاد تدخل الدول الكبرى في شؤون البلاد، عبر ممارسات قنصلها على أساس الامتيازات التي حصلت عليها من الباب العالي. و بعد حفر قناة السويس، و عودة شرق البحر الأبيض المتوسط لاحتلال موقع مركزي في طريق المواصلات الدولية، ازدادت أهمية فلسطين الاستراتيجية. و في هذا الوقت بالذات، و مع تنامي الحركة القومية العربية، شهدت فلسطين بداية الاستيطان اليهودي الصهيوني (١٨٨٢ م).

فبعد انسحاب نابليون، عاد الجزائر و فرض سلطته على البلاد. و زاد في عسفه و بطشه، فأرهب كاهل السكان بالضرائب لتعويض خسائره في الحرب، و فرض عليهم أعمال السخرة لإعادة بناء ما تهدم من تحصيناته، الأمر الذي ألحق بهم أشد الضرر.

لكنه ما لبث أن مات (١٨٠٤ م)، و خلفه مملوكه سليمان باشا (١٨٠٤-١٨١٩ م)، الذي لقب «العادل»، بالنسبة إلى الجزائر، إذ كفّ عن

الجور الذي مارسه سلفه.

و تزامن حكم سليمان في ولاية صيدا، التي كانت عكا قصبته، مع حكم مصلحين كبيرين: محمد علي، في مصر؛ و محمود الثاني (١٨٠٨-١٨٣٩ م)، في إستنبول.

فحاول سليمان محاكاتهما في ولايته، و نعمت البلاد بفترة من الهدوء النسبي و الازدهار و الإعمار. في المقابل، زاد في هذه الفترة تهديد «الوهابيين» لبلاد الشام، من مركزهم في الجزيرة العربية (نجد)، الأمر الذي دفع والي صيدا و دمشق إلى تجاوز خلافتهما إزاء الخطر الداهم عليهما معا. و بانهما كهما في صدّ هذا الخطر، أفسح المجال أمام عدد من الملتزمين، من أبناء العائلات و العشائر الفلسطينية، للتمرد على الوالين، فنشبت في أنحاء فلسطين انتفاضات متعددة.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٥٩

اعتمادا على دعم محمد علي له، ثار محمد أبو مرق (باشا)، متمسلا (ملتزم) سنجق غزة، على الجزائر، و من بعده على سليمان باشا. فبطش به هذا الأخير (١٨٠٧ م)، و استولى على «متصرفيته» في غزة و يافا. كما قمع سليمان تمردا في القدس. و بنشاطه و قدرته على لجم الحكام المحليين، غطى على والي دمشق، يوسف كنج آغا الكردي، و خصوصا بعدما برز في تصديه للوهابيين، الذين وصلوا (١٨٠٩ م) إلى المزيريب (في جوار درعا/ سورية). فولاه السلطان على دمشق و طرابلس، إضافة إلى صيدا. و استعان سليمان بالزعماء و المشايخ المحليين في صراعه مع الوهابيين. و هبّ لنجدته الأمير بشير الشهابي الثاني من جبل لبنان و الشيخ فارس ناصيف من جبل عامل و الشيخ سعد القعدان من بني صخر و التركمان و مشايخ منطقة صفد و رؤساء العشائر في منطقة نابلس. و في سنة ١٨١٣ م، قمع تمردا قام به شيخ ناحية بني صعب، أبو عودة الجيوسي، و نصب مكانه ملتزما آخر من آل طوقان، الذين كان زعيمهم، موسى بك طوقان، يتولى التزام ناحية نابلس.

و عندما كان السلطان محمود الثاني مشغولا بتنظيم شؤون الولايات التركية الأكثر أهمية في بلاد روميلي (الجزء الأوروبي من أراضي السلطنة)، و في آسيا الصغرى، حيث واجه صعوبات جمّة، زاد تدخل محمد علي (والي مصر) في شؤون بلاد الشام. و باندلاع التنافس بين والي دمشق و صيدا، بعد صد الخطر الوهابي، انتهز الزعماء المحليون في فلسطين - جبل نابلس و جنين و القدس و الخليل - الفرصة للفكاك من سلطة والي دمشق، الذي كانت هذه المناطق تتبع له. و اندلع الصراع بين هؤلاء الزعماء، من جهة، و مع والي في دمشق، من جهة أخرى. و انخرط في الصراع آل طوقان (الموالين لباشا دمشق)، يؤيدهم آل البرقاوي، ضد آل عثمان و الجماعيني، و سرعان ما استقطب هذا الصراع آل جرار و عبد الهادي و الجيوسي.

و تدخل سليمان باشا لفض الصراع (١٨١٥ م)، الأمر الذي عزّز مكانته إزاء والي دمشق، و رفع من شأنه في إستنبول. و في أيامه، رمّم سليمان باشا أسوار عكا، و أقام سيلا عند بوابتها، و كذلك قام بترميم قبة الصخرة و المسجد الأقصى في القدس، و أقام جامعا في الناصرة، و عين عليه الشيخ عبد الله الفاهوم، قاضي البلدة.

و بعد موت سليمان باشا، خلفه مملوكه، عبد الله باشا (١٨١٩-١٨٣١ م)، فعاد هذا إلى سياسة الجزائر، الأمر الذي أثار الزعماء المحليين عليه، ثمّ ما لبث أن تمرد على أمر السلطان بعزله عن ولاية صيدا، معتمدا في رفضه قرار محمود الثاني على دعم محمد علي. و كان هذا الأخير قد دخل مرحلة الصراع المفتوح مع السلطان، الذي وعده ببلاد الشام الجنوبية، لقاء دوره في معركة نافرينو البحرية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦٠

و تراجع عن وعده. و استغل الزعماء المحليون التناقضات بين الباب العالي و محمد علي، و بين والي صيدا و دمشق، لزيادة دورهم السياسي، فقاموا بعدد من التمردات، بسبب الضرائب الإضافية التي فرضها والي دمشق، بذريعة تمويل قافلة الحج. و بينما السلطان محمود الثاني مشغول بتصفية الإنكشارية، و من ورائهم «الطريقة البكتاشية» الصوفية، التي كان شيوخها بمثابة المرشدين الروحيين للإنكشارية، كان محمد علي يعد لحملة على بلاد الشام.

فبعد معركة الإسكندرية (١٨٠١ م)، و هزيمة بقايا الجيش الفرنسي الذي خلفه نابليون في مصر، و ذلك على يد تحالف إنكليزي-عثماني-مملوكي، رابطة في مصر قوات من هذا التحالف. و علاوة على التوتر الذي أحدثه وجود أفراد هذه الجيوش و سلوكها مع السكان، فقد اندلع الخلاف بين حلفاء الأوس. و كانت السلطنة العثمانية، أيام سليم الثالث (١٧٨٩-١٨٠٧ م)، تريد استعادة مصر و القضاء على حكم المماليك فيها. في المقابل، أراد الإنكليز الاحتفاظ بها، و بالتعاون المرحلي مع المماليك. و عندما أوقع الجيش العثماني بالمماليك، تدخل الإنكليز، و فرضوا على الباشا التركي إطلاق الأوس، و إعادة ممتلكات المماليك إليهم، و كذلك سحب الأوسول العثماني من مصر، و أذعن الباشا للمطالب البريطانية. لكن الإنكليز اضطروا إلى الانسحاب بموجب معاهدة آمين (١٨٠٢ م)، و تركوا حلفاءهم المماليك تحت رحمة الجيش العثماني، الأكبر عددا و الأفضل عدة. لكن الفرقة بين قادة الجيش العثماني، سمحت للمماليك بالصمود لفترة، غير أنهم اضطروا لاحقا إلى الانسحاب إلى مصر العليا، على حدود النوبة.

و كان في صفوف الكتيبة الألبانية، من الجيش العثماني الذي أرسله الباب العالي إلى مصر، ضابط من أصل ألباني، (ولد سنة ١٧٦٩ م، في قوله، من مقاطعة مقدونيا)، هو محمد علي الذي أظهر في المعارك كفاءة و مواهب، فأصبح قائد كتيبة. و عندما انخرط في الصراع في مصر، تطّلع إلى السلطة. فانحاز بداية إلى المماليك، و بالتعاون معهم هزم الباشوات الأتراك (١٨٠٤ م). و في انتفاضة القاهرة الشعبية ضد المماليك، انحاز محمد علي إلى الثوار، عندما أدرك قوة الحركة الشعبية. ثم وقف في الانتفاضة الثانية (١٨٠٥ م)، ضد خورشيد باشا التركي، فأصبح سيد مصر الأول.

ثم ما لبث أن انقلب على المماليك (١٨٠٨ م) و هزمهم. و في سنة ١٨١١ م، قضى عليهم في مذبحة القلعة، و صادر أملاكهم و أوقفهم لمصلحته، كراس دولة. و بذلك أنهى محمد علي حكم المماليك الذي دام أكثر من خمسة قرون. و تبعه بعد فترة محمود الثاني (١٨٢٦ م) بالقضاء على الإنكشارية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦١

و بعد قضائه على المماليك، و تثبيت أقدامه في مصر، و بناء قوته الذاتية، توجه محمد علي إلى محاربة الوهابيين في الجزيرة العربية، بطلب من السلطان. و استطاع في حملة دامت سبعة أعوام (١٨١١-١٨١٨ م) أن يهزمهم و يدمر عاصمتهم الدرعية، و لكن بتكلفة عالية، بالمال و الرجال. و إذ لم يكن في موقع الصدام مع الباب العالي على بلاد الشام لتعويض خسائره، فقد توجه نحو السودان (١٨١٩ م)، حيث ذهب النوبة و تجارة العبيد و منتوجات إفريقيا. و في فترة ١٨٢٤-١٨٢٨ م، شارك محمد علي في إخماد ثورة اليونان إلى جانب السلطان، و أرسل المدربين لبناء الجيش العثماني الجديد بعد القضاء على الإنكشارية. إلّا إنه في سنة ١٨٢٧ م، فقد أسطوله في معركة نفارينو على يد الأساطيل المشتركة لروسيا و بريطانيا و فرنسا. و بعدها لم يشارك في حرب السلطان مع روسيا (١٨٢٨-١٨٢٩ م) بل على العكس، قرر الانفصال عن السلطنة، و عزم على انتهاز فرصة ضعفها لاحتلال بلاد الشام.

و في ٢٩ تشرين الأول/أكتوبر ١٨٣١ م، سار محمد علي جيشه إلى فلسطين، بقيادة ابنه و ذراعه الأيمن، إبراهيم باشا الذي اكتسب شهرة عسكرية في حرب اليونان. و في شتاء تلك السنة، احتل غزة و يافا و القدس و حيفا و الجليل، من دون مقاومة. و قدم له الزعماء المحليون ولاءهم بإشارة من أمير جبل لبنان، بشير الشهابي حليف محمد علي. و أبقى إبراهيم باشا الشيخ حسين عبد الهادي حاكما على منطقة نابلس، و عين أبناء الشيخ قاسم الأحمد حكاما على القدس و نابلس و يافا. و بعد حصار ستة أشهر، سقطت عكا في يده في ٢٨ أيار/مايو ١٨٣٢ م. و منها توجه إلى دمشق، فدخلها في ١٤ حزيران/يونيو ١٨٣٢ م. و في المعركة عند بحيرة قطينة (بالقرب من حمص)، هزم الجيش العثماني في ٨ تموز/يوليو ١٨٣٢ م، فاستسلمت حماة و حلب و أنطاكية. و بعد موقعة بيلان في ٣٠ تموز/يوليو ١٨٣٢ م، توغل في آسيا الصغرى، و هزم العثمانيين مجددا عند مدينة قونيا في ٢١ كانون الأول/ديسمبر ١٨٣٢ م، و أسر «الصدر الأعظم» (رئيس الوزراء).

لقد حقق جيش محمد علي الحديث انتصارا ساحقا على الجيش العثماني، الذي كان لا يزال في طور البناء، و يلاقي السلطان صعوبات

جمه في تشكيله و تزويده، بعد أن ألغى نظام الإنكشارية. و استفاد إبراهيم من حالة التذمر التي سادت بلاد الشام، جراء تردى الأوضاع الاقتصادية، و استفحال الاحتكارات الأجنبية، و إغراق السوق المحلية بالبضائع المستوردة، التي أدت إلى كساد الصناعات المحلية و انهيار الحرف اليدوية، و كذلك من ردة فعل الناس على زيادة الضرائب لتمويل نفقات الجيش الجديد، و على التجنيد الإلزامي الذي فرض لتوفير الطاقة البشرية لذلك

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٢

الجيش. و إزاء هذا النصر الباهر، تحركت الدول الأوروبية، و توسطت للصلح في معاهدة كوتاهية في أيار/ مايو ١٨٣٣ م، التي بموجبها اعترف السلطان محمود الثاني بحكم محمد على الوراثي في مصر، و في بلاد الشام و أضنه. و أعاد إبراهيم تنظيم البلاد، فقسّمها إلى مديريات كالتالي: حلب و طرابلس و أضنه و معها طرسوس و صيدا و معها عكا و القدس و نابلس و يافا و غزة. و نصّب على كل منها مديرا بامرأة شريف باشا، صهر محمد على، و بإشرافه هو كونه قائد الجيش، و ولى العهد.

و غداة الاحتلال، وعد إبراهيم باشا سكان بلاد الشام بالأمن و العدل، و سعى للوفاء بوعده. فعمد إلى تنظيم البلاد و تطويرها. و نقل إليها التنظيمات الإدارية و الاقتصادية التي أدخلها والده إلى مصر. لم يصادر الأراضي، و لكنه احتكر تسويق القطن و الحرير، و ركز في أيدي السلطة الإنتاج الزراعي و الحرفي، و كذلك السيطرة على التجارة. و في البداية تمخضت إجراءاته عن تشجيع الاقتصاد و ضبط الأمن و استقرار الضرائب، الأمر الذي أدى إلى ازدهار لم تشهده البلاد منذ زمن. و ترك إبراهيم باشا السلطة في جبل لبنان بأيدي الأمراء الشهابيين، و تعامل معهم بخصوصية، إذ تطلع إلى استخراج الفحم و الحديد من جبل لبنان، كما أراد استغلال غابات الأرز لإعادة بناء الأسطول المصري، الذي دمر بالكامل تقريبا في معركة نافرينو. لكن «شهر العسل» بين إبراهيم و سكان بلاد الشام لم يطل، و سرعان ما تواترت الثورات ضده، و خصوصا في المنطقة الوسطى من فلسطين، كما تألّبت دول أوروبا عليه.

فمشروع محمد على في مصر، كما في بلاد الشام و الجزيرة العربية، و كذلك العراق الذي خطط لضمه، كان يتناقض قطبيا مع مشاريع دول أوروبا الاستعمارية، و خصوصا بريطانيا. و عندما راح محمد على يوطد علاقاته مع فرنسا، و يستعين بخبرائها على تطوير الأراضي الواقعة تحت حكمه، و تحديث الإدارة و الجيش في دولته، زاد قلق بريطانيا منه، و ناصبته العدا. فبريطانيا رأت في قيام دولة قوية في مصر، ترث السلطنة العثمانية المتهاوية، و تسيطر على شرق البحر الأبيض المتوسط، و البحر الأحمر و الجزيرة العربية، و تتطلع إلى الهيمنة على الخليج العربي، تهديدا لمصالحها، و خصوصا لمواقعها الاستراتيجية على شريان المواصلات الحيوى بالنسبة إليها- الطريق إلى الهند و الشرق الأقصى. و لما رفض محمد على القبول بالمعاهدة التجارية المبرمة بين بريطانيا و السلطنة العثمانية (١٨٣٨ م)، و التي منحت بريطانيا الحق في بيع بضائعها المصنعة بأعلى الأثمان في أراضي السلطنة، بينما تشتري هي المواد الخام منها بأبخس الأسعار، عمدت بريطانيا إلى استغلال الفرص، و إثارة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٣

القلق ضد حكم محمد على في بلاد الشام، و خصوصا في فلسطين، و إلى تحريض السلطان على محاربتة في بلاد الشام و طرده منها.

و في الواقع، فإن بريطانيا شجعت الزعماء المحليين في بلاد الشام- الساحل السوري و الحوران و نابلس و الخليل- على التمرد ضد حكم إبراهيم باشا. و قد استغلت زيادة الضرائب و التجنيد الإلزامي و أعمال السخرة و نزع السلاح من أيدي الناس، كوسائل للتحريض على الحكم المصري. و منذ سنة ١٨٣٤ م، بدأت الاضطرابات كردة فعل على الترتيبات الجديدة، حيث فرضت «ضريبة الرأس» (الفردة) على الذكور جميعهم من سن ١٤ فما فوق. و كذلك، و أسوء بما فعل محمد على في مصر- تجنيد أبناء البلد في الجيش بدلا من المماليك- عمل إبراهيم باشا إلى إصدار الأمر بالتجنيد الإلزامي، بنسبة ١٠٪ من عدد دافعي ضريبة «الفردة»، و شرع بتطبيقه. كما استثار إبراهيم الزعماء المحليين بمنعهم من جباية الأتاوات- الضريبة التي كان يفرضها أبو غوش على المسافرين بين يافا و القدس،

مثلا. و علاوة على ذلك أمر بجمع السلاح من أيدي السكان لحرمانهم من القدرة على مقاومة إجراءات السلطة بالقوة، الأمر الذي تسبب برده فعل عنيفة.

و اندلعت الثورة أولا في منطقة القدس في أيار/ مايو ١٨٣٤ م، و منها امتدت إلى نابلس و الخليل، و لاحقا إلى صفد. و حاصر الثوار الحامية المصرية في القدس داخل القلعة، أما في الخليل فقتلوا أفرادها. و كان ذلك في إثر مغادرة إبراهيم باشا منطقة القدس إلى يافا، فعاد و معه قوات عسكرية معززة، و اشتبك مع الثوار في عدد من المعارك التكتيكية، و هزمهم، فخرجوا إلى الجبال و أداروا معه حرب عصابات، هددته بقطع طرق مواصلاته و محاصرته. و بوساطة رؤساء الأديرة، تصالح إبراهيم باشا مع الثوار، بعد أن ألغى القرارات التي أدت إلى التمرد عليه. و غادر إبراهيم باشا القدس متوجها إلى يافا، و في الطريق هاجمه الشيخ مصطفى أبو غوش، و ألحق بجيشه الخسائر. و في هذه الأثناء، وصل إلى يافا، جيش مصري كبير، على رأسه محمد علي بن نفسه. فعاد به إبراهيم إلى منطقة القدس و نابلس، و هزم الثوار، و أحرق عددا من القرى، و طارد زعماء الثورة و قتلهم. و من فلسطين توجه إبراهيم إلى سورية لإخماد ثورات مثيلة في الحوران و جبل الدروز (العرب) و جبال العلويين (النصيرية) في الشمال الغربي.

و عملت بريطانيا على إشعال الحرب مرة ثانية بين السلطنة و محمد علي. و كان السلطان محمود الثاني، بمساعدة خبراء غربيين، منهم هلموت فون مولتكه، الذي اشتهر لاحقا في الحرب الألمانية- الفرنسية (١٨٧٠ م)، قد أعاد بناء الجيش العثماني

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦٤

و تنظيمه. فاشتبك الجيشان، في إثر خلاف مفتعل على الحدود، في معركة نصيبين (١٨٣٩ م)، و هزم الجيش العثماني، و توغل إبراهيم باشا في آسيا الصغرى، إذ أصبح الطريق أمامه مفتوحا إلى إستنبول. و زيادة على ذلك، قام أحمد باشا، قائد الأسطول الذي أرسل لقصف الإسكندرية بتسليم نفسه و سفنه إلى محمد علي. و بدت السلطنة على وشك الانهيار، فتحررت بريطانيا، و عقدت مؤتمر لندن (١٨٤٠ م) بمشاركة روسيا و النمسا و بروسيا، و بغياب فرنسا التي أيدت محمد علي في البداية ثم انكفأت. و وجه المؤتمر إنذارا إلى محمد علي بضرورة الانسحاب من بلاد الشام و العودة إلى حدود مصر، مع التهديد باستعمال القوة لإجباره على ذلك إن رفض.

و في الواقع، رفض محمد علي الرضوخ للتهديد. و في هذه الأثناء نفضت حكومة فرنسا يدها من الموضوع، و سحبت أسطولها من البحر الأبيض المتوسط، و بقي محمد علي وحده في مواجهة تحالف مؤتمر لندن و السلطنة العثمانية. و في أيلول/ سبتمبر ١٨٤٠ م هاجمت أساطيل بريطانيا و النمسا مدن الساحل السوري، و أنزلت فيها قوات، احتلت بيروت و صور و صيدا، و أجلى الأمير بشير الشهابي إلى مالطا. ثم احتلت هذه الأساطيل يافا، و حاصرت عكا و احتلتها في تشرين الثاني/ نوفمبر ١٨٤٠ م، و منها توجهت إلى الإسكندرية، فقصفتها و حاصرتها. في المقابل، كان الجيش العثماني يتقدم في إثر جيش إبراهيم باشا المنسحب، في أوضاع صعبة، بسبب مهاجمة الزعماء المحليين لمؤخرته، و إنزال الخسائر الكبيرة به. و احتل العثمانيون الجليل و صفد و الناصرة و طبرية، و أخيرا القدس. و اضطر محمد علي إلى الرضوخ، فانهى الحكم المصري في بلاد الشام، التي دخلت حقبة جديدة.

تنظيمات إبراهيم باشا

كانت فترة الحكم المصري قصيرة (تسعة أعوام)، إذ لم يفلح محمد علي في ترسيخ الإصلاحات التي سعى لنقلها من مصر إلى بلاد الشام. فبعد اعتراف السلطان العثماني به واليا (باشا) مستقلا في مصر، و صاحب حق في توريث حكمه لسلالته من بعده، عمل محمد علي بنشاط كبير على تحديث دولته و عصرنتها. أما ابنه إبراهيم فقد طوّر الفكرة إلى جعل هذه الدولة عربية، تضم الأراضي جميعها التي ينطق سكانها باللغة العربية. و في الواقع، فإن محمد علي، و ابنه إبراهيم تحديدا، رفعا شأن اللغة العربية في جهاز الدولة. و إبراهيم بالذات رأى فيها عنصر توحيد للمناطق التي أراد فصلها عن السلطنة العثمانية، و إقامة الدولة العربية فيها. لكن بريطانيا، التي أقلقتها

حملة نابليون و أزعتها نوايا محمد علي، تصدرت دول أوروبا في العمل على

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦٥

التصدى لمشروعه، و قطع الطريق على تجسيده، كونها لم تكن ترغب في قيام دولة شرق- أوسطية فتية على أنقاض السلطنة العثمانية المتهالكة.

لقد أظهر الجيش المصري قدرات عسكرية كبيرة في مواجهة الجيش العثماني، و كذلك في التصدي للثورات المحلية، و استطاع أن يفرض الأمن و النظام، و يكبح تجاوزات الزعماء المحليين و مشايخ القبائل. فمنع الزعيم أبو غوش من جباية الضريبة على الطريق بين يافا و القدس، و ألزم السكان دفع الضرائب المستحقة و الالتحاق بالجيش عبر التجنيد الإلزامي، و تسليم أسلحتهم، كما نجح إلى حد معين في تفعيل جهاز الدولة و منع الرشوة في المحاكم. و رفع إبراهيم التمييز عن الأقليات الدينية، و حاول تطوير المرافق و إقامة عدد من المشاريع الصناعية، كاستخراج الفحم و الحديد من جبال لبنان. و لبناء الأسطول المصري قطع إبراهيم باشا الأشجار في مساحات واسعة من بلاد الشام، و خصوصا، في غابات جبل لبنان. لقد وضع بدايات لم تتح له فرصة تطويرها، لكنها تركت آثارها في المرحلة اللاحقة في ميادين متعددة.

و على نقيض سابقه من الباشوات، سمح إبراهيم للبعثات التبشيرية المسيحية بممارسة نشاطها بحرية كبيرة، و منحها الإذن بإقامة مؤسسات تعليمية و ثقافية. و في سنة ١٨٣٨ م سمح لبريطانيا بفتح قنصلية دائمة في القدس، الأمر الذي شكل سابقة في العرف القائم، إذ كانت القنصليات تقام في المدن الساحلية، و تعنى بالشؤون التجارية. و في الواقع، و منذ زمن طويل، كانت القنصليات قد تراجعت في عددها و أهميتها مع تراجع الأهمية التجارية لمدينة الساحل السوري، و راح رجال محليون يتولون المهمة. أما في أيام إبراهيم باشا، و خصوصا بعد انسحابه من البلاد، فقد راحت القنصليات تؤدي في الأساس دورا سياسيا. و لم تمض فترة قصيرة حتى فتحت دول أوروبية متعددة قنصليات لها في القدس، بما فيها الولايات المتحدة. و راح قناصل هذه الدول يتدخلون في كل شاردة و واردة من شؤون الحكم في البلاد.

و على الرغم من قصر فترة الحكم المصري في فلسطين (١٨٣١- ١٨٤٠ م)، فقد فتحت مرحلة جديدة في تاريخها، إذ وضعت حدا لحالة الفوضى التي سادت البلاد خلال فترة طويلة، كما أسست لعدد من الإصلاحات في الفترة اللاحقة- فترة «التنظيمات» في السلطنة العثمانية. فعلى رأس الحكم وقف إبراهيم باشا، الطامح لإقامة دولة عربية حديثة، و تحت إمرته جيش قوى، كان العمود الفقري للحكم، و أدوات لتنفيذ الإصلاحات. و إلى جانب إبراهيم باشا، تولى شريف باشا، صهر محمد علي، الجانب الإداري في الحكم، و له ممثلين (متسلمين) في الأقضية جميعها هم حكامها الإداريون، بصفة موظفين مدنيين، جندوا على العموم من أوساط السكان

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦٦

العرب المحليين. و من خلال المركزية الصارمة، المستندة إلى دعم الجيش الحديث و الكبير، استطاع الجهاز الإداري إدخال إصلاحات كبيرة في نظام الحكم، و لكن ليس من دون عقبات. فالقوى المحلية، التي هيمنت على مناطقها في الفترة السابقة، وجدت نفسها تفقد سلطتها، فقاومت عملية الإصلاح الإداري، غير أن يد إبراهيم القوية أجبرتها على الرضوخ. و إذ لم ينجح تماما في كبح القبائل البدوية عن تجاوزاتها، فإنه قلص كثيرا من قدرتها على تحدى السلطة المركزية، و حدّ من اعتداءاتها على قرى الفلاحين و قوافل الحج و طرق التجارة.

و الإصلاحات الإدارية التي أدخلها إبراهيم باشا في نظام الحكم، ضربت المرتكزات التي استند إليها الزعماء المحليون في فرض هيمنتهم على مناطقهم. فقد حلّ موظفو الدولة، التابعون للحاكم الإداري في دمشق، محل أبناء العائلات الكبيرة و القوية في ممارسة السلطة بالمناطق. و جاء التجنيد الإلزامي و سحب السلاح من أيدي الناس، ليزيد من إضعاف هؤلاء الزعماء، و حرمانهم من القدرة على مقاومة إجراءات السلطة المركزية. فتنقلص إلى حد كبير تأثير العائلات الإقطاعية في إدارة شؤون البلاد، و بالتالي انحسرت حدة

الصراع بينها بشأن الزعامة، و ما نجم عنها من اقتتال على الامتيازات الاقتصادية. و عبر العلمنة، و حصر صلاحية المحاكم الشرعية في الأحوال الشخصية فقط، تراجع موقع العلماء في المجتمع، و فقدت العائلات الإقطاعية ركيزة أخرى من ركائز قوتها. و لا غرو، إزاء هذه الإجراءات التي عمد إليها إبراهيم باشا، و نفذها بحزم، أن ينتهز زعماء تلك العائلات كل فرصة تلوح للتمرد عليها، في محاولة لإعادة الوضع إلى سابق عهده. فاستغل هؤلاء كل حالة تملل في أوساط قطاعات السكان- فلاحين و تجار و حرفيين- و حتى الحركات الوطنية، للانضمام إليها في تحركاتها ضد السلطة.

و يلفت النظر أن إصلاحات إبراهيم باشا، التي كان من شأنها أن تحسن أوضاع عامة الناس، و بالتالي تتمتع بتأييدهم، قد أثارت ردات فعلهم السلبية عليها. فبعد فترة قصيرة من الركون إلى الحكم المصري، كبديل أفضل من الأوضاع السيئة التي كانت قائمة قبله، أخذت العلاقة بين هذا الحكم و الناس تتردى، على الصعد و المستويات كافة. فالإصلاحات الإدارية التي أدخلها إبراهيم باشا، ضمنت الأمن العام، و درجة أعلى من المساواة أمام القانون، و نظام ضرائب أكثر استقرارا و عدالة في مقابل الوضع السابق. و مع ذلك، انتشر التذمر و التملل بين قطاعات واسعة من الشعب، و لم يتوقفا عند الدوائر المتضررة من مركزية السلطة. و يعود ذلك في الأساس إلى ضريبة الرأس (الفردة)، التي فرضها الحكم المصري على الذكور من سن ١٤ فما فوق،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٤٧

و إلى التجنيد الإلزامي الذي طال عشر الملمزمين بضريبة الفردة، و أعمال السخرة في مشاريع الحكومة، و سحب الأسلحة من أيدي الناس، و احتكار الحكومة للمنتوجات الزراعية الأساسية و الحرفية. و أحد الأسباب المهمة لردة فعل السكان ضد الحكم المصري، كان منح الأقليات الدينية المساواة أمام القانون، تحت تأثير الدول الأوروبية و نشاط قناصلها و تدخلهم في إدارة شؤون البلاد. و نتيجة ذلك، فالحكم المصري في بلاد الشام، الذي قوبل بالترحاب في البداية، لم يلبث أن استجّر عداة قطاعات واسعة من السكان. و بعد فرض الانسحاب عليه، اجتاحت البلاد موجة من ردات الفعل ضد الإجراءات التي اتخذها، و حاول الزعماء المحليون استعادة سلطتهم الضائعة عندما عادت البلاد إلى حكم العثمانيين.

و مع ذلك، فهذه الفترة القصيرة من الإصلاحات التي لم تترسخ، مهدت الطريق أمام التنظيمات التي عمدت السلطة العثمانية إلى إدخالها في نظام الحكم. و كذلك، فقد حصلت الدول الأوروبية خلال الحكم المصري على امتيازات كثيرة، تكرست بعد عودة الحكم العثماني بمساعدة الدول صاحبة تلك الامتيازات. و نتيجة الحكم العثماني المتجدد، الذي اتخذ قرارا بإصلاح نظام الحكم و إدارة الدولة، عبر التنظيمات التي صدرت تحت ضغط الدول الأوروبية، لم تفلح الزعامات المحلية- العشائرية- في بلاد الشام باستعادة المواقع التي فقدتها، و أخلت مكانها لشريحة جديدة من الزعامة السياسية.

خامسا: فترة التنظيمات العثمانية

إشارة

أعطى بنو عثمان في بداية بناء إمبراطوريتهم، أصحاب تراث «الغازي»، الجزء الأوروبي منها (روميلي) الأولوية على بقية الولايات، و عندما احتلوا بلاد الشام في القرن السادس عشر، لم يولوها أهمية كبيرة. و كان همهم الأساسي فيها هو الحفاظ على السيادة و جمع الضرائب و تأمين قافلة الحج السنوية و ضبط الوضع القائم. ففي بلاد الشام، كما في مصر، أبقوا الوضع كما كان في أيام المماليك، و عينوا بعض من تعاون معهم من أمراء المماليك و لاء في الأراضي التي احتلواها. و في الواقع، ترك العثمانيون لهؤلاء الولاة مسؤولية القضايا الاجتماعية و الاقتصادية، و سمحوا لهم بالاحتفاظ بجيوش محلية خاصة، في إطار نظام إقطاعي، يتعهد بموجبه كل وال بتجنيد قوات عسكرية (سباهي)، بحسب حجم الإقطاع الذي منح له. و استغلت السلطة المركزية التناقضات بين الباشوات لضمان ولائهم، و

عمدت إلى ضرب أحدهم بالآخر، لإبقائهم تحت السيطرة بصورة عامة. و في حال فشلها، كانت السلطة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦٨

المركزية تقبل بالواقع مرحليا، حتى تحين الفرصة للانقضاض على الخارجين عليها.

و قد ظل هؤلاء الباشوات خاضعين للسيادة العثمانية، ما دامت هيبه السلطنة تفرض ذلك. و عندما بدأت تلك الهيبه تتراجع، راح الباشوات يعززون مواقعهم، و يفرضون استقلالهم الذاتي في ولاياتهم. و تفاقمت هذه الظاهرة في القرن الثامن عشر، حيث برز آل العظم في سورية، و ظاهر العمر، و من بعده الجزار، ثم سليمان و عبد الله، في فلسطين (ولاية صيدا)، و كذلك كان حال الأمراء المعنيين، و من بعدهم الشهابيون في لبنان. و قد استطاع هؤلاء أن يفرضوا سيطرتهم على مناطقهم، و يحافظوا على درجة من الاستقرار فيها، و حتى تنمية مواردها و تحقيق ازدهارها الاقتصادي. أما في الريف، و على أطراف الصحراء، فقد برزت قبائل بدوية قوية، و كذلك عائلات إقطاعية كثيرة، بسطت هيمنتها على السكان في غياب السلطة المركزية. و بعض القبائل البدوية فرض حمايته على القرى و الطرق، و جبي الأتاوات لقاء ذلك، و حتى من السلطة نفسها، و خصوصا لقاء حماية أو تأمين مرور قافلة الحج. و قد تميزت منطقة الجبال الوسطى في فلسطين بشيوع هذه الظاهرة التي اصطدم بها إبراهيم باشا، و استطاع إضعافها بعد عدد من المعارك الضارية.

و كان إهمال السلطة العثمانية لولايات بلاد الشام، و الحروب المتكررة بين الباشوات فيها، و كذلك الصراعات الدامية بين العائلات المتنفذة، إضافة إلى أعمال النهب و التخريب التي مارستها القبائل البدوية القوية، قد أفقرت البلاد، و قلصت عدد سكانها. و في فلسطين، كان للصراعات بين الزعماء المحليين، و خصوصا في منطقة الجبال الوسطى، آثار سلبية كبيرة على حالة الأمن و الاستقرار و الأوضاع الاجتماعية عامة. و فترة الحكم المصري القصيرة، بما جلبته من استقرار، و ما أدخلته من إصلاحات، لم تستطع كبح هذا المسار التدميري. و الثورات التي قام بها هؤلاء الزعماء المحليون ضد إبراهيم باشا، و هزيمتهم في معارك عنيفة، جلبت المزيد من الخراب و الإفقار على السكان. في المقابل، أعاد الحكم المصري بلاد الشام إلى بؤرة الاهتمام الأوروبي في إطار المسألة الشرقية. و بعد حفر قناة السويس (١٨٦٩ م)، زاد التنافس بشأنها، و بالتالي بشأن فلسطين لقرتها منها، و ذلك بين الدول الأوروبية الرأسمالية. و قد قادت بريطانيا عملية تصعيد التنافس، بعد أن اشترت أسهم مصر في قناة السويس (١٨٧٥ م)، و من ثم احتلت ذلك البلد (١٨٨٢ م) فأصبحت فلسطين ذات أهمية استراتيجية بالنسبة إليها. و ليس مصادفة أن تتوأكب بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين مع احتلال بريطانيا لمصر.

بعد فترة قصيرة من موت السلطان المصلح محمود الثاني (١٨٣٩ م)، و تولى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٦٩

ابنه عبد المجيد مكانه، صدر «فرمان التنظيمات» الشهير باسم «خط شريف جولخانه». و كان ذلك بعد هزيمة الجيش العثماني على يد إبراهيم باشا، و تدخل الدول الأوروبية لفرض الانسحاب على الجيش المصري. و كان هذا الفرمان يهدف إلى انتشار السلطنة من أوضاعها المتردية و الحفاظ على تماسكها، من جهة، و اكتساب عطف الدول الأوروبية، عبر نشر المساواة بين شعوب السلطنة، من جهة أخرى. و قد تضمن الفرمان إصلاحات في ثلاث نواح أساسية: (١) إدارة الدولة و تحديث جهاز الحكومة؛ (٢) تحسين أحوال رعايا السلطان؛ (٣) تسوية أوضاع المواطنين غير المسلمين في أراضي السلطنة. و إذ أعلن الفرمان عزم الحكومة على صيانة أمن المواطنين، و حماية أرواحهم و ممتلكاتهم و كرامتهم، و توخي العدالة في فرض الضرائب و التجنيد، فقد تطرق إلى الإجراءات الإدارية الجديدة و تطوير جهاز الدولة. لكن التركيز كان على مساواة المواطنين جميعهم أمام القانون، الأمر الذي يعنى التخلي عن الشريعة الإسلامية كأساس للتشريع و للقضاء. و توالى بعد هذا الفرمان صدور قوانين متعددة: الجنائي و التجاري و ملكية الأرض ... إلخ.

لكن هذه الإصلاحات قوبلت بمعارضة شديدة من قبل الأوساط التقليدية و المحافظه في السلطنة، و خصوصا في العاصمة. و كان تطبيق هذه الإصلاحات ينطوي على صراعات في إستنبول، و لذلك تعرقل تنفيذها. و مرة أخرى كانت الأولوية للولايات الأوروبية و آسيا الصغرى، فتأخرت في بلاد الشام. و زاد في تعقيد الأمور توالي الأزمات الاقتصادية و المالية التي انتابت السلطنة، و بالتالي تزايد تدخل دول أوروبا في شؤونها الداخلية، الأمر الذي زاد في حدة ردات فعل الأوساط المحافظه ضد التنظيمات، ذات الطابع الغربي. و في الواقع، جرّت تلك التنظيمات أعمال عنف ضد الأقليات الدينية (دمشق و لبنان ١٨٦٠ م)، كما حفزت محاولات على اغتيال السلطان عبد المجيد نفسه. و اضطرب جبل الأمن في العاصمة، عبر مؤامرات شارك فيها ضباط كبار في الجيش بالتحالف مع العلماء. و ما كادت السلطنة تخرج من موجة الاضطراب حتى مات السلطان عبد المجيد (١٨٦١ م)، و تولى مكانه أخوه عبد العزيز، الذي عرف بعناده و مزاجه المتقلب و عدائه للإصلاحات. فتوقفت التنظيمات، و تردت الأوضاع في السلطنة عامه، و خصوصا نتيجة ردات فعل دول أوروبا الدائبة على إبطالها.

فبعد الانسحاب المصري، عادت بلاد الشام إلى الحكم العثماني بفضل تدخل الدول الأوروبية، و في مقدمتها بريطانيا. و بقدر تأثيرها في فرض الانسحاب على محمد علي، و إلزامه بالانسحاب إلى مصر، و بالتالي إعادة الوضع في بلاد الشام إلى الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٠

سابق عهده، أي إلى ما قبل الحملة المصرية عليها، زادت الدول الأوروبية نفوذها، ليس في هذه البلاد فحسب، بل في أراضي السلطنة العثمانية بصورة عامة. و بينما لم تترسخ إجراءات إبراهيم باشا، لم تفلح السلطة العثمانية في إحكام قبضتها على نواحي البلاد جميعها. و عادت منطقة الجبال الوسطى إلى النزاعات العشائرية، و إلى الصراعات القبلية، بين القيسية و اليمينية، و إلى تصفية الحسابات القديمة، الأمر الذي أدى إلى اضطراب حالة الأمن. و عاد الشيخ أبو غوش، الذي تزعم العصية اليمينية إلى فرض سلطته على طريق يافا- القدس، و جباية الضرائب من المسافرين عليها.

و اضطرت العثمانيون إلى الاعتراف ببعض زعماء العشائر حكاما في مناطقهم، الأمر الذي استثار آخرين، و بالتالي إلى نشوب الصراعات بينهم بصورة متواترة. و قد استغلت السلطة هذه الصراعات لإضعاف الجميع، تعويضا عن تقصيرها في فرض هيبتها عليهم و إحكام قبضتها على مناطقهم.

ولدى استعادته بلاد الشام، لم يعد الباب العالي إلى نظام حكم الباشوات السابق فيها، و إنما نزع عنها الصفة شبه المستقلة التي كانت لها في الماضي، و ألحقها بالمركز مباشرة. و منذ البداية أقيمت الإدارة الجديدة على أساس المركزية الشديدة و التتريك، فاستبدل الموظفون المحليون بآخرين أتراك، و في جميع المناصب ذات الأهمية. و اعتمد الباب العالي أسلوب نقل الموظفين سنه بعد أخرى، و من مهمة إلى غيرها. و سحب من الموظفين الحق في إصدار عقوبة الإعدام، و أخضعهم للرقابة و المحاسبة على سوء استعمال السلطة. و إذ استقرت الأوضاع نسبيا في الساحل و الشمال، فقد ظلت منطقة الجبال الوسطى مضطربة، و عمد العثمانيون (١٨٥٤ م) إلى جعل القدس ولاية مستقلة، تابعة لإستنبول مباشرة، في محاولة للسيطرة على الوضع الأمني فيها، من جهة، و لمراقبة نشاط القنصليات الأجنبية، من جهة أخرى. و ألحق بهذه الولاية سنجقا نابلس و غزة. و استطاع الوالي مصطفى ثريا أن يوطد الأمن، و يحول دون اندلاع الاقتتال الطائفي في القدس و محيطها، أسوة بما جرى في لبنان و دمشق (١٨٦٠ م).

و في إطار التنظيمات الإدارية التي أدخلتها السلطنة في هذه الفترة، صدر قانون تشكيل الولايات (١٨٦٤ م)، الذي وضع إطارا موحدًا للإدارة في الولايات كلها.

و بموجبه قسمت بلاد الشام إلى ولايتين: سورية و حلب. و كل ولاية قسمت إلى متصرفيات (سناجق)؛ و المتصرفيات إلى قائمقاميات (أفضية)؛ و الأفضية إلى مديريات (نواح). و عين على كل وحدة إدارية موظف تركي، يتبع الأعلى منه بحسب التسلسل و الاختصاص: مدير- قائمقام- متصرف- والي. و أصبح الوالي يتبع وزارة الداخلية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧١

في إستنبول، التي أنشئت سنة ١٨٦٠ م. واستعان الموظفون الأتراك، في جميع المراتب الإدارية المسؤولة بمجلس يمثل طبقات الشعب كلها وفئاته و طوائفه.

و إذ لم يضع هذا الترتيب حدًا نهائيًا للفساد و سوء استعمال السلطة، فإنه قلص إلى حد كبير الاستئثار الفردي بها، و منح فئات الشعب قسطًا من إدارة شؤون مجتمعهم. و بينما بقيت سلطة الزعماء العشائريين قائمة، إلا إن تجاوزاتهم تقلصت، و تراجعت الصراعات بينهم، و بذلك قلت أهميتهم، و بالتالي تفككت التركيبات العشائرية.

و في التنظيم الجديد، تبعت متصرفية فلسطين ولاية سورية، و ظل يحكمها متصرف مقره القدس. و كان يتبعها تسعة أفضية، هي: القدس و الخليل و غزة و اللد و نابلس و السامرة و بلاد الشقيف و بلاد حوران و الغور الشرقي. ثم فصلت متصرفية القدس عن ولاية سورية (١٨٧٣ م)، و اتبعت مباشرة لإستنبول. و كان من أسباب ذلك كثرة مشكلات هذه المتصرفية، التي تسبب في قسط كبير منها قنصل الدول الأوروبية الذين زاد عددهم، و اشتد التنافس بينهم، و بالتالي تدخلهم في إدارة شؤون البلاد.

و لأن الوالي لم يستطع التعامل مع هذه المشكلات لحساسيتها بالنسبة إلى الباب العالي، فقد أحيلت إلى هذا الأخير مباشرة. و في سنة (١٨٨٧ م)، شكلت ولاية بيروت، نظرا إلى أهميتها تجاريا و سياسيا. و تبع هذه الولاية سنجق عكا، الذي ضمّ أفضية حيفا و طبرية و صفا و الناصرة، كما تبعها سنجق البلقاء - نابلس، الذي ضم قضاء جنين و طولكرم (بني صعب).

و يتضح من الإجراءات الإدارية التي اتخذها الباب العالي في بلاد الشام بعد الانسحاب المصري، أنه كان يرمى إلى فرض حكم إستنبول المباشر على هذه البلاد التي ظلت منذ الاحتلال العثماني تتمتع بنوع من الحكم الذاتي المحلي، في الإطار العام للسلطنة. و ذلك، ليس فقط في الريف و أطراف الصحراء، حيث القبائل القوية و الزعماء المحليون فرضوا هيمنتهم، و إنما أيضا في المدن، حيث عائلات غنية أقامت لنفسها جيوشا خاصة بها. لكن الإجراءات العثمانية المتخذة لتحقيق هدف المركزية ظلت تعتورها الثغرات، و بالتالي تنقصها النجاعة في الأداء. و إذ تقلصت سلطة الولاة، و تبعًا لذلك قدرتهم على التفرد و التمرد على المركز، فقد برز عجزهم في إدارة شؤون البلاد بعد الاستقرار السياسي. و بينما أخضع الموظفون الكبار إلى المراقبة و المحاسبة و النقل الدوري، فإن الفساد الذي تفشى في الأجهزة و المراتب الدنيا ظل على ما كان عليه، بل استشرى. و كذلك الحال بالنسبة إلى ضباط و أفراد الجيش المحلي، غير النظامي. و على العموم، فإن أوضاع البلاد الاقتصادية راحت

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٢

تراجع، و مع فتح أسواقها أمام البضائع الأجنبية، انحسرت سوق الصناعات المحلية، و أصابها الكساد. و مداخيل بلاد الشام من الضرائب لم تكن كافية لتسديد نفقات الجهاز الإداري المنتفخ، الذي وظفه الباب العالي في إدارة شؤون البلاد.

لكن فرض السلطة المركزية في بلاد الشام كان يفترض اتخاذ الإجراءات اللازمة لزعة متركزات قوة الزعماء المحليين - الجيوش الخاصة و السلاح و التزام جباية الضرائب. و في المقابل، كان على الحكومة المركزية توفير أدوات السلطة الجديدة - موظفين و جيوش نظامية و قوانين تضبط الإدارة و العلاقة بين السلطة و الناس. و في هذا السياق، كانت التنظيمات الجديدة التي عمد إليها الباب العالي تعاني ثغرات على الصعيد الذاتي، و تواجه عقبات على الصعيد الموضوعي. فبعد الانسحاب المصري، كانت ردة فعل الزعماء المحليين، و معهم قطاعات واسعة من السكان، عنيفا على الإجراءات التي اتخذها إبراهيم باشا و سعى لتجسيدها بيد من حديد. و في سعيها لزرحة الحكم المصري من بلاد الشام، عمدت السلطنة إلى تقوية النزعات الاستقلالية لدى الزعماء المحليين، و قدمت لهم الوعود السخية لتحريضهم على الحكم المصري، كما زودتهم بالسلاح و المال لمقاتلة جنوده و تدمير جيشه، حتى و هو ينسحب. و بذلك، كان الباب العالي يؤسس لإفشال التنظيمات التي حاول إدخالها لاحقا. هذا، و لأسباب أخرى تتعلق بالحكومة في إستنبول ظلت الإصلاحات في بلاد الشام تسير ببطء شديد.

و إزاء الأوضاع الجديدة التي تشكلت في بلاد الشام بعد الانسحاب المصري، إذ سارع الزعماء المحليون إلى استعادة مواقعهم السابقة، برز عجز الحكومة العثمانية المركزية عن التصدي لهذه الظاهرة، إذ افتقدت القوة العسكرية اللازمة لفرض إرادتها، والجهاز الإداري المؤهل لتولى المسؤولية بدلا من الإدارة المصرية المتقدمة. و بعد فترة من المرواحنة و التردد، دامت نحو خمسة أعوام حزمت الحكومة العثمانية أمرها، و عينت قائدا جديدا للجيش في بلاد الشام، نامق باشا الذي هدد الزعماء المحليين باستعمال القوة ضدهم إذا لم يخضعوا له. و إذ استطاع نامق باشا أن يفرض هيئته عليهم، و يدخل عددا من الإصلاحات في الإدارة و التجنيد و جباية الضرائب، غير أن النجاح في هذا المضمار ظل محدودا. فسياسة الباب العالي المترددة، و عدم استقرار الموظفين الكبار في مواقعهم لفترات طويلة، إذ كانوا ينقلون سنويا، و الصراعات في إستنبول بشأن الإصلاحات، عرقلت تجسيد التنظيمات التي نصت عليها المراسيم السلطانية. و في المقابل، لم تفعل التهديدات باستعمال القوة فعلها في ردع الزعماء المحليين و كبح جماحهم. و كما توصل الطرفان- السلطة المركزية و الزعماء- إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٣

حلول وسط في أغلب الأحيان، كذلك توقفت عمليات الإصلاح عند خط الوسط أيضا.

و على الرغم من كل محاولات السلطة تنظيم جباية الضرائب مباشرة من السكان، عبر موظفي الدولة، فقد ظل الالتزام قائما في بلاد الشام، و بقي أساسا لاستمرار زعماء محليين تولى مهمة الجباية، و بالتالي الحفاظ على نفوذهم في مناطقهم. و بالنتيجة، ظل هؤلاء الزعماء عقبه في طريق السياسة العثمانية الرامية إلى مركزه السلطة في أيدي جهاز الدولة الخاضع إلى إشرافها المباشر. و قد شكّل هؤلاء الزعماء شريحة اجتماعية وسيطة بين السلطة و السكان. و كذلك، لم تحقق محاولات تنظيم التجنيد الإلزامي نجاحا كبيرا في بلاد الشام كلها. فالزعماء المحليون، و كذلك السكان عامة، قاوموا هذا الإجراء، كل لأسبابه الخاصة. و عندما حاولت السلطة إجراء إحصاء للسكان، كمقدمة لتنظيم عملية التجنيد، قوبل الإجراء بمقاومة عنيفة.

و إذ كانت يد السلطة هي العليا في المواجهة، عمد المطلوبون للتجنيد إلى الفرار، تحاشيا للوقوع في أيدي القوات العسكرية التي كانت تجوب المناطق، و تسوق المجندين. و بعد محاولات عدة، استطاعت السلطة المركزية فرض التجنيد في المدن، و لكن ليس في الريف، أو بين القبائل البدوية، و خصوصا في المناطق الجبلية. و لذلك، و بينما اهتز موقع الزعماء المحليين في المدن، لوجود السلطة فيها، و لتجريد زعمائها من عناصر قوتهم التقليدية، فإن زعماء الريف لم يتأثروا كثيرا بإجراءات الحكومة، و خصوصا في المناطق الجبلية، أو بين القبائل البدوية.

ففي المدن، حيث تمرکز الجهاز الإداري و تموضعت القوات العسكرية النظامية، حققت التنظيمات نجاحا أكبر. و بعد أن حسم الصراع مع الزعامات المحلية لمصلحة السلطة المركزية، أمكن وضع عدد من الأنظمة المرسومة في القرارات موضع التنفيذ. و لم يحدث ذلك من دون مقاومة أو عقبات. فالمدن في بلاد الشام كانت لفترات طويلة تتمتع بحكم محلي، و لم تكن تخضع لسلطة الحكم التركي. و كثيرا ما حشد الزعماء المحليون قواهم، على الرغم من خلافاتهم الداخلية، لطردهم هذا الحاكم، أو تهميش دوره. و قد أنزل الحكم المصري ضربة قوية بهؤلاء الزعماء و الأعيان و مرتكزات قوتهم- المادية و المعنوية. لكنهم عادوا و انتعشوا مع عودة الحكم العثماني، و ما قدمه لهم للتمرد على الحكم المصري. و قد تمت تسوية العلاقة بين هؤلاء الزعماء و الحكم التركي، و توصل الطرفان إلى حلول وسط. فالتنظيمات قلصت صلاحيات الوالي و أعوانه من الموظفين الأتراك، و بذلك فتحت الباب أمام الزعماء المحليين لإثبات وجودهم السلطوي. في المقابل، فإن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٤

الوجود العسكري التركي النظامي في المدن كبح هؤلاء الزعماء عن اللجوء إلى الصدام مع ممثلي الحكومة المركزية، و اتخذت المواجهة بين الطرفين منحى آخر، جرى التعبير عنه في «المجالس»، التي أنشأتها السلطة في المدن، إلى جانب الحاكم التركي.

و إذ لم تكن هذه المجالس جديدة على المدن السورية، فإن العثمانيين في فترة التنظيمات منحوها سلطات واسعة نسبياً. و مثل هذه المجالس كانت قائمة في المدن السورية الرئيسية قبل الحكم المصري (١٨٣١ م). و كانت تسمى «دواوين» (جمع ديوان). و تضم إلى جانب الحاكم، المتسلم و الدفتردار و كبار ضباط الجيش، و بعض العلماء البارزين (القاضي و المفتي) و نقيب الأشراف، و بعض الأعيان. و في إطار أوسع، كانت المجالس تضم ممثلي التجار و الحرفيين و مشايخ الطرق الصوفية. لكن صلاحياتها كانت على العموم محصورة في تقديم المشورة للحاكم. أما إبراهيم باشا، فقد جعل هذه المجالس ذات صلاحيات أوسع، كما حرص أن يكون تركيبها أكثر تمثيلاً لقطاعات السكان المتعددة من دون استثناء، فأصبحت بمثابة هيئات مساعدة للحاكم في تصريف الأمور. و كانت تشكل من الحاكم (المصري)، و موظفي الحكومة الكبار (المصريين أيضاً)، و بعض الأعيان المحليين و كبار التجار و ممثلين عن قطاعات السكان- المسلمين و سواهم. و فضلاً عن دورها في مناقشة الشؤون الإدارية و الاقتصادية و المالية و التجارية الداخلية، منحت المجالس صلاحيات قضائية في الأحوال الشخصية. أمّا القضايا التجارية و الخلافات المالية، فكانت من صلاحيات محاكم خاصة، تشكلت من تجار كبار، و من الطوائف الدينية جميعها.

و عندما عاد العثمانيون إلى حكم بلاد الشام، أبقوا على المجالس فيها، و لعلمهم نقلوا عنها في الولايات الأخرى. و كانت الحكومة تعين أعضاء المجالس من موظفي الدولة الكبار و رؤساء الطوائف الدينية، فضلاً عن ممثلين منتخبين عن تلك الطوائف. و بناء عليه، كانت المجالس العثمانية حكراً على طبقات المجتمع العليا، و بالتالي أقل تمثيلاً- ديمقراطياً من المجالس التي أقامها إبراهيم باشا. و بحسب صفتها، عالجت المجالس القضايا الإدارية و القضائية في الولاية أو السنجق أو الناحية. و تمتعت بصلاحيات واسعة، إذ إن الأمور جميعها المتعلقة بالإدارة و المال كانت تمر عبر المجالس، و تنفذ بعد موافقتها، على الرغم من أنها استشارية في الأساس. و كانت للمجالس صلاحيات قضائية، باستثناء الأحوال الشخصية، التي كانت من صلاحية المحاكم الشرعية. و تدرجت صلاحيات المجالس بحسب التراتبية الإدارية، من

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٥

مجلس الناحية إلى السنجق إلى الولاية. و وفق هذه التراتبية أحيلت القضايا بحسب أهميتها من الأدنى إلى الأعلى. و باتساع مهمات المجالس، تفرعت إلى هيئتين: الأولى إدارية، و الثانية قضائية، و لكن في إطار المجلس الواحد.

و على العموم، ظلت السلطة العثمانية ضعيفة في الريف، و غائبة في المناطق النائية- الجبلية و الصحراوية. و في هذه المناطق، قام بالمهمات الإدارية القليلة شيخ القرية، الذي كان يتبع «ناظر الناحية» و الذي بدوره يتبع «مدير القضاء». و كان زعماء الريف بصورة عامة أشخاصاً محليين، اضطرت السلطة إلى التعامل معهم لافتقارها إلى القوة العسكرية اللازمة لضبط الأوضاع في هذه المناطق المعزولة. و كثيراً ما تمرد الزعماء المحليون على السلطة، و امتنعوا من دفع الضرائب المستحقة و تصدوا لقوات الحكومة بالسلاح عندما هاجمت مراكزهم. و قد حدث ذلك في الساحل السوري (جبل العلويين) و منطقة بعلبك و جبل لبنان و جبل الدروز (العرب) و الجبال الوسطى من فلسطين- نابلس و القدس و الخليل. و في هذه المناطق جميعاً، حاولت السلطة استغلال التناقضات بين العائلات المتنفذة، أو بين فروع العائلة الواحدة، للحفاظ على ولاء الحاكم للسلطة المركزية. و لكن عندما حاولت تلك السلطة إرسال جيش تركي لفرض هيبتها على الجبلين، حشدوا قواهم، و تصدوا لهذا الجيش. و لذلك سادت حالة من عدم الاستقرار في تلك المناطق، على نقيض المدن، حيث راحت تشكل زعامة جديدة، عبر المشاركة في تسيير أمور الحكم و التمرس بأساليبه.

و في فلسطين، تميّزت منطقة جبال نابلس بمقاومتها للحكم المركزي، كما عرفت بالصراع الدائم بين زعمائها المحليين. و لهذه المنطقة تاريخ طويل في التمرد على السلطة. فحتى ظاهر العمر و الجزائر و نابليون و إبراهيم باشا، لم يستطيعوا ضبط الأوضاع فيها. و بمساعدة الأمير بشير الشهابي، استطاع عبد الله باشا احتلال قلعة سانور الحصينة (١٨٢٩- ١٨٣٠ م)، لكنه فشل في الاحتفاظ بها تحت

سيطرته. ولقى إبراهيم باشا صعوبة كبيرة في إخضاعها، وكانت أول من تمرد عليه (١٨٣٤ م)، وهاجمت جيوشه المنسحبة إلى مصر (١٨٣٩ م). وبرز فيها عدد من العائلات الإقطاعية القيسية (طوقان وجرار وريان)، وأخرى يمنية (النمر و قاسم و عبد الهادي)، ظلت تتناحر على الدوام. ولكن هذه العائلات كانت على العموم تتوحد ضد تمرکز قوات عسكرية نظامية في مناطقها، وبالتالي فرض السلطة المركزية عليها. وإزاء عجز الحكومة عن إخضاع هذه العشائر بالقوة، فقد عمدت إلى استغلال التناقض بينها، وبالتالي تسعير التناحر بين التكتلات العشائرية، التي كثيرا ما جرّت إليها بعض القبائل البدوية أيضا، وذلك بشأن تولى الالتزام في المنطقة وما يدرّه ذلك من مكاسب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٦

اقتصادية ومعنوية، تنافس بشأنها أساسا آل طوقان و آل عبد الهادي.

وعلى خط هذا الصراع العشائري، دخل قناصل الدول الأوروبية التي فتحت لها قنصليات في القدس أيام الحكم المصري. فانحاز القنصل البريطاني إلى آل طوقان الذين مالوا على العموم إلى العثمانيين، ضد المصريين، فكانوا على رأس المناوئين لحكم إبراهيم باشا، ورحبوا بعودة العثمانيين إلى حكم البلاد. في المقابل انحاز القنصل الفرنسي إلى آل عبد الهادي الذين كانوا يميلون إلى الحكم المصري، ولم يكونوا سعداء بعودة الحكم العثماني. وفي مناوراتها بين الطرفين، كانت الحكومة العثمانية تفضل آل طوقان، لولائهم لها، ولصداقتهم مع الإنكليز. ولكنها إزاء مقاومة آل عبد الهادي العنيفة، وأخذها في الاعتبار قوتهم المالية والشعبية، فقد عهدت الحكومة إليهم زعامة المنطقة أحيانا. و فقط بعد انتهاء «حرب القرم» (١٨٥٤-١٨٥٥ م)، استطاعت السلطة العثمانية أن تتحكم في زمام الأمور في جبل نابلس، وذلك من خلال عمل عسكري واسع النطاق، جاء في إثر اضطرابات عنيفة في تلك المنطقة، كانت موجهة ضد العثمانيين والدول الأوروبية. وقد تحركت السلطة العثمانية تحت ضغط قناصل الدول الأجنبية، وعينت حاكما تركيا على المنطقة، ضياء بك، ورفدته بقوة عسكرية كبيرة. وإلى جانب الحاكم، أقيم مجلس يضم أعيان المنطقة، ومن خلاله تابع هؤلاء صراعاتهم.

و إلى الشمال الغربي من القدس، في قرية العنب، تمركزت عائلة أبو غوش (اليمنية)، وسيطرت لفترة طويلة على الطريق المهمة بين يافا و القدس، عند مداخل عاصمة السنجق، وفرضت على المسافرين الضرائب، وعلى التجار الأتاوات. وكانت تغير على القوافل التي لم تدفع ما يطلب منها وتنهبها، كما دخلت في صراعات محلية مع العشائر المجاورة. وقد استسلمت عائلة أبو غوش لإبراهيم باشا من دون قتال. وعندما عادت المنطقة إلى حكم العثمانيين، أعيد مصطفى أبو غوش ملتمزا عليها، ومسؤولا عن الأمن على الطريق إلى القدس. ولكنه تمرد على السلطة، وراح يعمل لحسابه الخاص، وفتح صراعا مع آل سمحان (القيسين)، الذين نافسوه بتحريض من العثمانيين. وفي سنة ١٨٤٦ م جرّد محمد قبرصلي باشا، حاكم القدس العثماني، حملة ضدهم وأخضعهم، وقتل عددا من رؤسائهم، وعندما استدعى قبرصلي (١٨٤٧ م) إلى إستانبول، عادت عائلة أبو غوش للهيمنة على منطقتها، وبالتالي التمرد على السلطة، وممارسة أعمال النهب والاحتراب بين القيسية واليمنية. الموجز في تاريخ فلسطين السياسي؛ ص ٢٧٦

نظرا إلى أهمية القدس، والطريق المؤدى إليها من يافا، وبعد تدخل قناصل الدول الأوروبية، رفعت الحكومة العثمانية سنجق القدس إلى مرتبة «إيالة»، وعينت عليها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٧

حاكما قديرا، يعقوب باشا الذي استطاع إخضاع المنطقة للحكومة المركزية في القدس.

و كان سكان جبل الخليل أيضا بؤرة تمرد على السلطة المركزية، وساحة احتراب بين العشائر المحلية. وقد برز فيها عبد الرحمن عمرو، في قرية دورا. وعلى عكس مصطفى أبو غوش، قاوم عبد الرحمن عمرو إبراهيم باشا، وكان من أول المتمردين على حكمه (١٨٣٤ م). وقبل الانسحاب المصري من بلاد الشام، وبتحريض من الإنكليز ودعمهم، عاد عبد الرحمن وأعلن الثورة على الحكم

المصري، وقتل حاكم الخليل المصري وحاشيته. ولدى عودة العثمانيين، عين «محضلاً» (جابي ضرائب) في المنطقة، لكنه سرعان ما تمرد عليهم، وأعلن استقلاله عنهم، ورفض دفع الضرائب المستحقة عليه. فوجه قبرصلى، حاكم القدس، جيشاً تركيا ضده، وحاصره في الخليل، وقبض عليه، مع أخيه و منافسه في الزعامة محمد عمرو وأبعده عن المنطقة، لكنه عاد إليها بعد استدعاء قبرصلى إلى إستنبول، وأعلن العصيان مرة أخرى. وقد تكرر ذلك عدة مرات، وحتى عندما حوصر في إذنا (قضاء الخليل)، واستسلم من معه، فإنه هرب، وعاد مرة أخرى، وعين (١٨٥٨ م) «ناظراً» لقضاء الخليل، وأخيراً قبض عليه (١٨٥٩ م) وسجن، ووضعت منطقته تحت الحكم العسكري العثماني.

ومن المشكلات الكبيرة التي واجهت الحكم العثماني في بلاد الشام، كانت القبائل البدوية وسلوكها المعادي للحكم المركزي، أو لحياء الاستقرار والزراعة، و سطوها على طرق التجارة، واقتالها الدائم بين بعضها البعض. وهذه المسألة بالنسبة إلى فلسطين قديمة قدم التاريخ، إذ هي تحاذي ثلاث صحارى كبيرة، ظلت طوال التاريخ مجال ترحال قبائل بدوية- سينا و الجزيرة العربية و البادية السورية. و من هذه الصحارى جميعاً، ظلت موجات القبائل البدوية تضغط على حدود الأرض المعمورة فيها، وتحاول التغلغل داخلها، أو فرض السيادة على سكانها، أو غزوها ونهبها، واستباحة حقولها كمراعى لقطعانها من الجمال والمواشى، وبالنتيجة تخريبها. و منذ الاحتلال العثماني لبلاد الشام (١٥١٧ م)، لم تستطع السلطة فرض هيبتها على القبائل البدوية، سواء لأن بلاد الشام لم تتمتع بأهمية كبيرة في نظر العثمانيين، أو لأنها لم تملك القوة العسكرية الكافية في بلاد الشام لمحاربة تلك القبائل القوية وإخضاعها. وعلى العكس، عمدت السلطة العثمانية، التي أولت أهمية خاصة لقافلة الحج السنوية، إلى دفع الرشاوى لمشايخ القبائل الضاربة على تلك الطريق، لحماية القافلة، أو على الأقل لعدم الاعتداء عليها.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٨

وقد شهدت بلاد الشام موجة كبيرة من الهجرة البدوية إليها، جاءت من الجزيرة العربية، وكانت أبرز قبائلها عنزة، القادمة من نجد، و التي انتشرت في البادية السورية. و في شرقي الأردن، تقدمت قبيلة بني صخر الكبيرة شمالاً، ودفعت قبيلة العدوان إلى جبال البلقاء. و هاتان القبيلتان قامتا بغزوات متكررة على فلسطين- غربي نهر الأردن. و قبيلة أصغر- النعامرة- كانت تتجول بين بيت لحم و البحر الميت.

و في النقب و منطقة غزة و بئر السبع، انتشرت عدة قبائل- التياهة و الترابين و العزازمة و غيرها. و إضافة إلى هذه القبائل الكبيرة استقر في فلسطين عدد من القبائل الأخرى، تأرجح بين الرعى و الزراعة، و عمل أحياناً كقوة شرطة حدود لدى الحكومة في مواجهة تجاوزات القبائل البدوية الأخرى، و منها الهنادى في شمال فلسطين. و إذ استطاع إبراهيم باشا فرض هيته على القبائل لفترة قصيرة، فإنها بعد انسحابه انتهزت الفرصة لاقتناص جزء من التركة، الأمر الذي تسبب بمشكلات كبيرة للحكومة العثمانية في بلاد الشام عامة. و بعد الانسحاب المصري، استغلت القبائل الفراغ الذي تركه ذلك الانسحاب السريع، من جهة، و عجز الحكومة العثمانية الجديدة عن فرض سيطرتها على الريف و أطراف الصحراء، من جهة أخرى، و تقدمت لملء الفراغ، بطريقتها الخاصة. و كانت القرى الزراعية في الريف الضحية الأولى لحركة القبائل تلك. فوُقت مناطق واسعة تحت رحمة مشايخ القبائل، الذين فرضوا على سكانها «الخوات»، لقاء الحماية الاسمية، التي لم تتوفر فعلاً في الأغلب. و شاع بين الفلاحين قول «حاميها حراميها».

و لم تنج المدن من تجاوزات القبائل المحيطة بها، و التي لم تتورع عن محاصرتها و فرض الأتاوات عليها. و حتى مدن كبيرة مثل حلب و حمص و حماة، لم تفلت من أيدي تلك القبائل، أو تسلم من تدخل المشايخ في شؤونها الداخلية. و في فلسطين، تعرضت مدن مثل بيت لحم و أريحا و غزة، لممارسات شبيهة، كما دخلت القبائل على خط الصراعات بين الزعماء المحليين، فعززت بذلك وجودها في محيط القرى و المدن، و كذلك مواقعها في توازن القوى. و من الأهداف الرئيسية لمشايخ القبائل كانت طرق التجارة، سواء لفرض الخوات، أو للنهب و السلب. و إزاء هذه الحالة من الفوضى التي جرّها سلوك القبائل المغالى في عدم الانضباط، وقفت

السلطة العثمانية عاجزة تماما.

و على العكس من الحكم المصري في بلاد الشام، الذي كانت لديه سياسة واضحة و حازمة لفرض السيطرة و الأمن على البلاد كافة، لم يكن للحكومة العثمانية مثل هذه السياسة. و أسلوب الترغيب و التهيب الذي اتبعته هذه الحكومة مع القبائل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٧٩

البدوية، بدفع الرشاوى لها، من جهة، و تهديدها بالقوة، من جهة أخرى، لم يجد نفعا بسبب ميوعته في الاتجاهين، و لعله شجع بعض القبائل القوية على الابتزاز.

فالأعمال العسكرية التي قامت بها، لم تكن قط حاسمة، و لم تتوفر لها القوة اللازمة لإخضاع القبائل الشرسة. و كذلك فشلت الحكومة في تحقيق أغراضها عبر تحريض القبائل بعضها على بعض، إذ سرعان ما انقلب المنتصر على الحكومة و عاد إلى الممارسة الاعتيادية. و قد استعملت الحكومة بعض القبائل كشرطة حدودية، مثل قبيلة الهنادي، التي جاءت من مصر، و اشتهر زعيمها عقيل في هذه الفترة في شمال فلسطين. و في النتيجة، فشلت الأساليب جميعها التي لجأت إليها الحكومة العثمانية في ضبط سلوك القبائل البدوية، بما في ذلك محاولة توطينهم و استقرارهم. و ظلت هذه القبائل عامل اضطراب أمني و مصدر إزعاج للحكومة.

امتيازات و قناصل

نظرا إلى الدور الكبير الذي أدته الدول الأوروبية، و خصوصا بريطانيا، في فرض الانسحاب من بلاد الشام على محمد علي، و إعادتها إلى الحكم العثماني، فقد زاد تبعا لذلك تدخلها في شؤون السلطنة عامة، و في بلاد الشام خاصة. و الأمر الذي ساعدها على ذلك كان الضعف العام الذي اعترى السلطنة، و على جميع الصعد. و في الواقع، فإن الباب العالي أصدر فرمانات التنظيمات تحت ضغط دول أوروبا. و بينما كانت المصالح الاقتصادية و الاستراتيجية تملئ على دول أوروبا سياستها في الشرق، فإنها وجدت في الأقليات الدينية و حقوقها المدنية الذريعة للتدخل في شؤون الحكم العثماني، في العاصمة كما في الولايات. و إزاء ضعف السلطنة، راحت تلك الدول توسع من امتيازاتها التجارية التي حصلت عليها سابقا، و منها ما أعطى في أوج قوة السلطنة (أيام سليمان القانوني ١٥٣٥ م). و مع عودة الحكم العثماني إلى بلاد الشام و العقبات، الذاتية و الموضوعية، التي واجهها، زاد قناصل الدول الأوروبية، الذين كثر عددهم و اتسع نفوذهم في البلاد أيام الحكم المصري، في تدخلهم في شؤون البلد، إذ طال نواحي النشاط الحكومي جميعها- الإدارة و الاقتصاد و المحاكم و شؤون الرعايا. و برز بينهم القنصل البريطاني و ودز، الذي تصرف كحاكم فعلي للبلاد، تحت غطاء تنفيذ التنظيمات.

و كان اتفاق دول أوروبا على صيانة وحدة السلطنة الرسمية نابعا من تباينها بشأن اقتسام مناطق النفوذ في أراضيها. و لذلك، فتلك الدول لم تكن معنية بترسيخ الحكم العثماني في الولايات، و تثبيت مركزاته، بل على العكس، كثيرا ما عمدت إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٠

تحريض فئات اجتماعية و طوائف دينية و قومية على الحكومة المركزية، و إثارة القلاقل ضدها في مناطق متعددة. و كان المثال الأبرز في لبنان، إذ عملت فرنسا على تقوية نفوذها هناك عبر العلاقات السياسية و الثقافية مع الموارنة، فردت بريطانيا بإقامة علاقات مع الدرروز، الأمر الذي انتهى إلى القتال الطائفي في جبل لبنان. و في فلسطين، دخلت بريطانيا و فرنسا، عبر قنصليهما في القدس، على خط الصراع بين الزعماء المحليين في جبال نابلس، عبد الهادي و طوقان، و كذلك في جبال القدس، أبو غوش و اللحام. و تبنى قناصل الدول الأجنبية قضايا الأقليات المسيحية بصورة حركة ردة فعل من المسلمين ضدهم. و كذلك بسط هؤلاء القناصل حمايتهم على الجماعات اليهودية في القدس و غيرها، و كفلوا الإقامة في البلاد للمهاجرين اليهود الأوائل إليها.

و نتيجة تفاقم التنافس بين دول أوروبا الرأسمالية، و خصوصا بين فرنسا و بريطانيا، و تواتر الأزمات التي انتابت السلطنة العثمانية،

فأقعدتها عن ضبط الأوضاع في الولايات، انتشر عملاء تلك الدول في بلاد الشام، يثيرون القلاقل، و يدعمون المتمردين بالمال و السلاح. و كان حكام الولايات الأتراك يعون هذا النشاط التخريبي، لكنهم لم يستطيعوا مواجهته، لأسباب تتعلق بتأثير قنصل الدول في عواصم الولايات، كما في إستنبول نفسها. و قد ازداد هذا النشاط بعد حرب القرم.

و على صعيد العمل بين الطوائف المسيحية، احتدم التنافس بين فرنسا، التي تبني الموارنة و الكاثوليك، و روسيا، التي كانت تحمي الأورثوذكس، باعتراف السلطان منذ معاهدة كوتشوك كاييرجي (١٧٧٤ م). و لموازنة هذا الامتياز الذي تمتعت به فرنسا و روسيا، عمدت بريطانيا و بروسيا إلى تبني طوائف بروتستانتية صغيرة، حصلت على الاعتراف بها «ملة» (١٨٥٠ م). كما تذرعت بريطانيا و بروسيا و روسيا و النمسا و فرنسا، بحماية مهاجرين يهود، يحملون جنسية تلك الدول ممن وصل إلى فلسطين و عزم على الاستقرار بها.

و بعد خروج المصريين من فلسطين، ازدادت فيها البعثات التبشيرية بسرعة كبيرة، و تركزت أساسا في القدس. و في نهاية القرن التاسع عشر، كانت نسبة المبشرين إلى السكان في القدس أكبر من نسبتهم في أية مدينة أخرى بالعالم. و إذ عملت هذه البعثات بالتبشير أصلا، فإن بعضها أقام مؤسسات تعليمية أو طبية أو خيرية. و في حقل الخدمات الإنسانية، حققت هذه البعثات نجاحا أكبر بكثير من نجاحها في المجال الديني، إذ إن عدد الذين غيروا ديانتهم بفعل هذه البعثات كان قليلا جدا، و انحصر في الطوائف المسيحية الشرقية فقط. لكن هذه المؤسسات،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨١

و إضافة إلى ما قدمته من خدمات، فإنها حفزت نشاطا مماثلا لدى الأتراك و السكان المحليين، فازداد عدد المؤسسات المثيلة في نهاية القرن التاسع عشر. غير أن تلك البعثات كانت تتبع دولا- متعددة، و باحتدام التنافس بينها بشأن النفوذ في أراضي السلطنة، انخرطت بعثاتها في النشاط السياسي المباشر، فضلا عن التأثير المداور في نشر الأفكار و العادات و التقاليد.

و في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، احتدم التنافس بين الدول الأوروبية بشأن الحصول على مناطق نفوذ عبر الامتيازات. و لما بدا واضحا مآل الإمبراطورية العثمانية إلى الزوال، أصبح كل طرف يسعى لتأمين موطئ قدم له فيها، يناور عبره للسيطرة على جزء من أراضيها عند تقسيمها. و استغلت هذه الدول البعثات التبشيرية للتمهيد لذلك، و دعمت أعمال المبشرين بالمال. و منذ معاهدة كوتشوك كاييرجي، بسطت روسيا حمايتها على الروم الأورثوذكس في أراضي السلطنة، و وضعت البطيركية الأورثوذكسية في القدس تحت تلك الحماية. كما استعانت حكومة روسيا القيصرية ب «الشركة الروسية- الأورثوذكسية» لتحقيق أهدافها السياسية.

و بعثة الكنيسة الروسية في فلسطين ساعدت بأموالها على إقامة المدارس و الكنائس و النزل و غيرها في البلاد. في المقابل طلبت فرنسا لنفسها حقا مماثلا بالنسبة إلى الروم الكاثوليك، و لاحقا بالنسبة إلى الموارنة في لبنان، الأمر الذي تكرر رسميا في معاهدة برلين (١٨٧٨ م). و تبعها دول كاثوليكية أخرى تطالب بحقوق شبيهة.

و كان عمل البعثات التبشيرية البروتستانتية أكثر تعقيدا، إذ لم تكن هناك طوائف كهذه تتذرع بها، فكان عليها أن توجد مثل هذه الطوائف، و على حساب الكنائس الشرقية، أو أن تقيم مستوطنات لها في البلاد. و قد اشتركت بريطانيا و بروسيا في إنشاء مطرانية بروتستانتية في القدس (١٨١٤ م). ثم توقف الألمان عن دعمها (١٨٨١ م)، فبقيت لبريطانيا وحدها. و في أثناء التدخل الأوروبي في الحرب المصرية- العثمانية (١٨٣٩-١٨٤١ م)، تذرعت بريطانيا بحماية اليهود و الدروز، بينما بسطت فرنسا حمايتها على الموارنة. و عمدت حركة الهيكلين الألمان إلى إقامة مستوطنات (١٨٦٨ م) في يافا و سارونة و حيفا و القدس، استعملها الإمبراطور و يلهم الثاني سلاحا متعدد الجوانب للاختراق السياسي. في المقابل أقامت مجموعات «ألفية» أميركية مستوطنات في أرتاس (قرب بيت لحم) (١٨٥٢ م)، ثم في يافا (١٨٦٦-١٨٦٧ م)، ثم في القدس (١٨٨١ م). و هذه الأخيرة ظلت قائمة، و تحمل اسم المستوطنة الأميركية إلى ما بعد سنة ١٨٦٩ م، عندما كانت أغلبية سكانها من السويديين.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٢

كما نشطت في هذه الفترة الجمعيات الأثرية التي عنيت بالدراسات التوراتية، وخصوصا بما سمي «علم الآثار التوراتي». و إذ كان علم الآثار هو السممة العلنية لهذه الجمعيات و المؤسسات التي أنشأتها، فقد انطوت على أغراض سياسية-عسكرية.

و أول هذه المؤسسات كان صندوق استكشاف فلسطين، الذي تأسس سنة ١٨٦٥ م، على يد الإنكليز و هدفه المعلن «البحث في الآثار و الجغرافيا و الجيولوجيا و التاريخ الطبيعي لفلسطين». و عندما أصدر هذا الصندوق العدد الأول من مجلته (١٨٦٩ م) كتب على غلافه «جمعية من أجل البحث الدقيق و المنظم في الآثار و الطبوغرافيا و الجيولوجيا و الجغرافيا الطبيعية و التاريخ الطبيعي و عادات و تقاليد الأرض المقدسة لغاية التوضيح التوراتي». و قد وضع هذا الصندوق أول خريطة (كيتشنر) لفلسطين (غربي الأردن)، قائمة على أعمال المساحة، و ذلك قبل أن يبدأ بالحفر في القدس و المواقع الأثرية الأخرى.

و في سنة ١٨٧٠ م تأسست جمعية استكشاف فلسطين الأميركية، التي وجهت عند قيامها نداء «إلى الضمير الديني، مسيحيا كان أم يهوديا، من أجل البرهنة على صحة الكتاب المقدس». لكن هذه الجمعية لم تعمّر طويلا، إذ توقفت سنة (١٨٨١ م)، و حلت محلها (١٩٠٠ م) المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في القدس. و كان الأسطول الأميركي قد أرسل بعثة برئاسة الضابط في البحرية، و ليام ف. لينش، لدراسة البحر الميت و شرقي الأردن. و تجدر الإشارة إلى أن جمعية استكشاف فلسطين الأميركية ركزت نشاطها في شرقي الأردن، قبل أن تتوقف عنه تماما. و في سنة ١٨٧٠ م، أنشئت جمعية بريطانية أخرى هي جمعية الآثار التوراتية. و أقام الفرنسيون (الرهبان الدومينيكان) المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية (١٨٩٠ م). كما أنشأ الألمان جمعيتين: الجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية (١٨٧٧ م)، و الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية (١٨٩٧ م).

و في الثلاثينات من القرن التاسع عشر، عندما بدأ استعمال السفن البخارية، تأسست للمرة الأولى خدمات نقل بحري ثابتة بين فلسطين و أوروبا. و في سنة ١٨٣٧ م، حصلت النمسا و فرنسا على تصاريح لإقامة خدمات بريدية في المدن الرئيسية في بلاد الشام. و في سنة ١٨٦٥ م أقيمت خدمات تلغرافية بين المدن الفلسطينية و إستنبول و أوروبا. و في سنة ١٨٦٨ م عبد الطريق بين يافا و القدس، و في سنة ١٨٨١ م بين القدس و كل من الخليل و نابلس. و ساعدت وسائل الاتصال و المواصلات على إنعاش حركة السياح و الحجاج و الرحالة إلى البلاد. و وصل عدد سكان فلسطين في بداية الثمانينات من القرن التاسع عشر نحو ٤٥٠،٠٠٠ نسمة، بعد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٣

أن كان في مطلع هذا القرن يقدر بنحو ٣٠٠،٠٠٠ نسمة فقط.

إن جملة التنظيمات الإدارية التي اتخذتها الحكومة العثمانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، مكنتها من إحكام قبضتها على فلسطين و بلاد الشام، إداريا و ماليا و أمنيا. و قد تضافرت لذلك عوامل عدة، منها إشراك السكان المحليين في إدارة شؤون مناطقهم إلى جانب الحاكم التركي. و كذلك، فإنه بفعل هذه التنظيمات استقرت إلى حد معين الإدارة في الولايات، إذ جرى تحديثها و تطوير أسلوب عملها.

و استوعبت الإدارة الزعماء المحليين في جهازها كموظفين خاضعين لقانون الدولة، و ليس كمتعاقدين معها. و قد تم ذلك بعد إضعاف هؤلاء الزعماء و خلخله موقعهم الاجتماعي، و لكن من دون إنهاءهم، فتعاونوا مع السلطة للحفاظ على ما تبقى لهم من تأثير. و تظهر أسماء هؤلاء في الوظائف الحكومية و المجالس الشعبية في الألوية و الأفضية و المدن. كما تظهر في لوائح جهاز الدولة أسماء أبناء الطوائف الدينية-المسيحية و اليهودية. و تجدر الإشارة إلى أن هذه التنظيمات، و خصوصا المتعلقة بحقوق الأفراد، أدخلت تحت ضغط الدول الأوروبية التي تغلغت في تدخلها في شؤون السلطنة إلى حد بعيد في هذه الفترة بالذات.

إشارة

خلال القرن التاسع عشر، ظهر في بلاد الشام، و من ضمنها فلسطين، الوعي القومي، بمفهومه الحديث، الذي تبلورت مرتكزاته في أوروبا بالتواكب مع مراحل تطور الرأسمالية هناك. و يتلخص هذا المفهوم بأن كتلة بشرية محددة، تقيم على رقعة جغرافية معينة، و تتكلم لغة واحدة، و لها تراث مشترك، و بالتالي مصير مشترك أيضا، من حقها أن تتوحد سياسيا في دولة قومية، تمشيا مع روح العصر. و إذ لم تكن الأرضية مهيأة لمثل هذه الفكرة و تجسيدها عبر حركة قومية عربية، أو مجموعة حركات وطنية، في بداية القرن، فإنها خلالها، و إزاء نهايته، و عبر التطورات التي شهدتها البلاد، و انعكاساتها على السكان، و ما تمخضت عنه من نتائج، سواء على الصعيد الذاتي أو الموضوعي، تبلورت إلى ظاهرة سياسية فاعلة، ذات أهداف محددة بخطوطها العامة. و استنادا إلى تلك الخطوط التي شكلت مضمون «الحركة القومية»، برزت في أجزاء متعددة من الوطن العربي صيغ تنظيمية متأثرة بطبيعة الحال بالواقع المحيط. و لقد تضافرت عوامل عدة لإنتاج ظاهرة القومية العربية في صيغتها الجديدة.

و كان بعضها ذاتيا، الوعي الذاتي لخصوصية الأمة العربية بين شعوب العالم،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٤

و الانتماء الوجداني إليها، و هما قديمان قدم التاريخ العربي. أما البعض الآخر، فكان موضوعيا، يتعلق بتفاعل العوامل التي أوجدت الواقع المحفز على بروز حالة من الوعي للذات، تتطلب إيجاد صيغ تنظيمية لتجسيدها في ذلك الواقع، سواء للانسجام معه، أو لتغييره. و في جدل العلاقة بين الذاتي و الموضوعي في بروز ظاهرة الحركة القومية العربية، و في إطارها الحركات الوطنية في الأقطار المتعددة أيضا، أخذنا في الاعتبار الواقع القائم في بلاد الشام في القرن التاسع عشر، يتضح أن العامل القائد في بعث الوعي القومي من حالة الكمون الوجداني إلى الفعل السياسي العملي، كان خارجيا. فلم يكن التبلور الذاتي لأوضاع الأمة هو الذي أنتج الوعي القومي، و ما ينجم عن تجسيده من نشاط، كضرورة موضوعية لمواكبة مرحلة تاريخية في مسار الأمة، و إنما الواقع الموضوعي المتناقض في حركته مع أهداف الوعي السائد للذات، هو الذي حفز ردة الفعل على تجليات تفاعل عناصر الواقع، و انعكاس تلك التجليات على الذات العربية، و بالتالي، البحث عن حلول للإشكالات الناجمة عن الجمع بين الأضداد في وحدة صراعية.

إن عهدا من الحكم الأجنبي (السلاجقة و الصليبيون و المماليك و الأتراك العثمانيون)، و تفتت الوطن العربي، قد أضعفت عوامل الوحدة العربية التي تنامت في عهد الخلافة الأولى. غير أن الشعور بالانتماء إلى العروبة، و استعمال اللغة العربية في الحديث و التعبير، استمر من دون انقطاع. فالوطن العربي ظل يعرف باسم «بلاد العرب»، و اللغة العربية ظلت أداة التعبير الأدبي و العلمي الرئيسية، و المفتاح لمعرفة علوم الدين الإسلامي، حتى في العصر العثماني. لكن الأوضاع الاجتماعية و الاقتصادية لتبلور وعي قومي، بالمفهوم الحديث، و بالتالي بروز حركة قومية تدعو إلى استقلال العرب و وحدتهم، لم تنضج حتى النصف الثاني من القرن التاسع عشر. و في النصف الأول منه، تشكلت الممهدات الذاتية و الموضوعية لبروز الظاهرة على أرضية حملة نابليون، و ما تمخضت عنه من تطورات، و خصوصا في مجال العلاقات مع أوروبا، و ما نجم عنها من تفاعل سياسي و اقتصادي و فكري و علمي، معها. ففي إطار التصادم مع أوروبا الحديثة، و ما استتبعه ذلك من تحولات في المفاهيم و العلاقات، تبلور الوعي القومي العربي في مصر و بلاد الشام، التي كانت جزءا من السلطنة العثمانية، آخر الإمبراطوريات الإسلامية من القرون الوسطى.

لقد أعطت حملة نابليون دفعة قوية لحركة العلاقات بين الوطن العربي و أوروبا، بعد فترة طويلة من الركود. فنتيجة هذه الحملة، عاد الشرق ليحتل موقعا مركزيا في اهتمام دول أوروبا الرأسمالية، الأمر الذي حكم مسار الأحداث في المنطقة حتى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٥

يومنا هذا. و في مصر، و بعد الانسحاب الفرنسي، استطاع محمد علي أن يثبت أقدامه في السلطة، و يتجه نحو إقامة دولة عصرية، بل و يتحدى السلطنة العثمانية. و هذا بدوره حرك مسار «التنظيمات» في تلك السلطنة، بهدف تعزيز وحدتها في مواجهة عوامل تفتتها

القوية. و التحولات في مصر، كما في السلطنة، و ما نجم عنها من تفاعلات داخلية، كانت تجرى نتيجة تدخل أوروبي متصاعد الوتيرة. فمن موقع الدفاع عن الذات إزاء الهجمة الأوروبية على السلطنة العثمانية، بما فيها الوطن العربي، تحركت القوى و التيارات. و من خلال الاشتباك كضرورة موضوعية، تبلورت أدوات الصراع- المادية و الفكرية. و محمد علي (الألباني الأصل)، عمد إلى استعمال العروبة كوسيلة لحشد القاعدة الشعبية في المناطق التي أراد إقامة حكمه الوراثي عليها. فقد اعتمد اللغة العربية في إدارة شؤون دولته، ما عدا الجيش. و ابنه إبراهيم أعلن في دمشق عزمه على توحيد البلاد الناطقة بالضاد في دولة مستقلة.

و في خضم المواجهة الشاملة مع أوروبا، و على أرضية التحولات الجارية في السلطنة في فترة التنظيمات و ردادات الفعل المتعددة عليها، تبلورت ثلاثة اتجاهات فكرية في الوطن العربي، تنطلق كلها في الأساس من موقع الدفاع عن الذات إزاء التغلغل الأوروبي، من جهة، و سياسة «الترريك» العثمانية، من جهة أخرى، و النتائج الناجمة عن ذلك اقتصاديا و اجتماعيا و فكريا. و رأى الاتجاه المحافظ أن تحصين الذات إزاء المؤثرات الخارجية يتم بالتشبث بالقيم التقليدية، و إخضاع السلوك إزاء أوروبا لمقتضيات تلك القيم. في المقابل راح يتبلور، عبر الثقافة الغربية المكتسبة من مؤسساتها، سواء في الغرب أو الشرق، تيار علماني، رأى مواجهة أوروبا بسلاحها- العلم و المعرفة و الانفتاح و الديمقراطية ... إلخ. و بينهما تيار ثالث- الإصلاحى- القائل بتطوير التراث، الدينى و الفكرى و الاجتماعى، كى يتلاءم مع متطلبات العصر، من دون التخلي عن مركزاته.

و مع أن هذه التيارات- المحافظ و الإصلاحى و العلمانى- كانت على العموم محصورة في النخب المثقفة، و لم تكن ملك قطاعات الشعب الواسعة، فإن الأقرب إلى الجماهير كان التيار المحافظ، على الأقل خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر. أما في النصف الثانى، فقد تضافرت عدة عوامل أخلت بميزان القوى بين هذه التيارات. و كان تأثير التيار المحافظ قويا في ردة الفعل التي أظهرتها القطاعات الشعبية على الإصلاحات التي أدخلها إبراهيم باشا في بلاد الشام، و خصوصا ما يتعلق منها بحقوق الأقليات الدينية. فقد رأى قادة هذا التيار في منح حقوق مدنية لغير المسلمين أنه نقض للأساس الذى يقوم عليه المجتمع و الدولة، تحت تأثير الدول الأوروبية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٦

و من هنا كانت الأحداث الدامية في نابلس (١٨٥٦ م)، و التي كانت موجهة ضد الحاكم العثمانى و قناصل الدول الأجنبية و البعثات التبشيرية و المسيحيين المحليين. و كذلك كان الحال في جبل لبنان، و من بعده دمشق (١٨٦٠ م). و استمر عداء هذا التيار للإصلاحات التي سعى كل من السلطان عبد المجيد، و من بعده عبد العزيز، لإدخالها.

فالتوجهات التي تبناها محمد على في مصر، و معاصره محمود الثانى في إستنبول، و الرامية إلى عصرنة الدولة، حفزت تيار الإصلاح في الدولتين. و جاء عهد التنظيمات (١٨٤٠-١٨٧٦ م) في السلطنة العثمانية ليقوى هذا التيار، و يدفع المعبرين عنه إلى قمة السلطة. و لكن هذا التطور، و بمقدار تصاعد و تيرته بدعم من المركز، فقد وُجد ردة فعل محافظة، راحت هي الأخرى تتصاعد بالوتيرة نفسها. و باعتلاء عبد الحميد الثانى العرش في إستنبول (١٨٧٦-١٩٠٩ م)، وقعت الردة، و انقلب السلطان على التنظيمات، و على أدواتها و رجالها. فألغى الدستور، و حل البرلمان، و أبطل الإصلاحات التي أدخلها أسلافه. و قد استفاد عبد الحميد من فشل الإصلاحات في تحسين أوضاع السلطنة الاقتصادية، أو في كبح التدخل الأوروبى الذى أدى إلى إفلاس الدولة. و استبدل الحكم البرلمانى بآخر استبدادى- فردى و مطلق. و جعل بطانته من أشد رجال الدين محافظه، و أدوات سلطته من أكثر رجال الحكم رجعية.

و بذلك دفع الإصلاحيين، و جلهم من الأتراك، إلى تشكيل الجمعيات السرية و العمل على قلب نظام الحكم، أما رموز العلمانية، و هم في الأساس من المثقفين، و أغلبيتهم من المسيحيين، فقد اضطروا الكثيرون منهم إلى الهجرة و الاستقرار بالخارج- مصر و باريس و جنيف و لندن- لمتابعة نشاطهم الأدبى و الفكرى و السياسى.

و كانت ردة فعل التيار المحافظ سلبية تجاه المؤثرات الفكرية و الاجتماعية الأوروبية، و بالتالى تجاه التنظيمات و الإجراءات الناجمة عنها في نظام الحكم، و خصوصا على صعيد التشريعات. و إذ رأى رموز هذا التيار خطر التدخل الأوروبى، ماديا و روحيا، فقد ذهبوا

إلى أن إحياء قواعد الإسلام في الدولة والمجتمع كفيل باستنهاض السلطنة و صمودها في وجه أوروبا. و على العموم، نظر هؤلاء إلى الماضي، و منه استنبطوا علاج أمراض الحاضر، مؤكدين إمكان استعادة الماضي الزاهر بالعودة إلى مركزاته الفكرية و الأخلاقية و المسلكية... إلخ. فبالنسبة إليهم كان المخرج من المأزق الحالي يكمن في العودة إلى المنطلقات التي أدت إلى امتلاك عوامل القوة في الماضي، و ليس بالتطلع إلى المستقبل و استنباط الوسائل التي تساعد على درء أخطاره. و الحاضر بالنسبة إليهم غير مقبول، لكن لا يجوز رفضه بالكامل،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٧

لأنه الحلقة التي تربط الواقع الملموس بالماضي، و بالتالي القادر على وصله بالمستقبل. و من هنا، و باستعمال أداة قياس من الماضي، يجب تطهير الحاضر من الشوائب، ليكون المستقبل مزدهرا كما في الماضي. و بناء عليه، ضرورة العودة إلى التراث، و استخلاص العبر منه، ليتمكن النهوض بالحاضر لمواجهة الخطر الأوروبي.

و شأنهم شأن المحافظين، كان الإصلاحيون يعارضون المؤثرات الأوروبية الخارجية، و يهدفون من نشاطهم إلى حماية الإسلام و دولته و مؤسساته، و يرفضون الواقع الذي آلت إليه شؤون «الأمة» الإسلامية. و لكنهم على عكس المحافظين، رأوا أن العلاج يتطلب الخروج من النهج التقليدي في رؤية القضايا و التعامل معها، و بالتالي فتح باب الاجتهاد لما يجب عمله، بينما أداة القياس هي «مصلحة الأمة». و تمحورت نقاشات رموز هذا التيار في الدين و السياسة، و الهدف المركزي لنشاطهم، الفكرى و العملى، هو إحياء الإسلام و دولته. و ينجم عن ذلك مواجهة الغرب، بما تنطوى عليه من ضرورة تقوية الأواصر بين الشعوب الإسلامية، و وصولا إلى وحدة «الأمة». و في الواقع، و بسبب عقلانيته، أصاب هذا التيار نجاحا أكبر من المحافظين. و برز فيه جمال الدين الأفغانى (١٨٣٩-١٨٩٧ م)، و تلميذه محمد عبده (١٨٤٩-١٩٠٥ م) في مصر. أما في سورية فقد برز الشيخ طاهر الجزائري (١٨٥١-١٩٢٠ م). و تتلمذ على أيدي هؤلاء و غيرهم عدد كبير من علماء الدين الإصلاحيين، كما كان لهم أتباع من أوساط واسعة خارج إطار المؤسسات الدينية. و في مقابل هذين التيارين- المحافظ و الإصلاحي- راح يتبلور تيار أكثر جذرية، من مثقفين علمانيين، يحملون نظرة مستقبلية، معزولة تقريبا عن الماضي.

و رفض هؤلاء الواقع القائم، أسوأ بالآخرين، لكنهم افرقوا عنهم بمنظورهم القائل إن علاج الأوضاع المتردية في الشرق، يكمن في تبني الأفكار و مناهج العمل الأوروبية.

و في هذا التيار العام، ظهرت مدارس متعددة بهذه النسبة أو تلك. و كان أبرزها اثنتان بصورة عامة: الأولى، و أعضاؤها في الأغلب من أبناء الطوائف المسيحية، اندفعت أكثر نحو التماهي مع الحضارة الأوروبية، بأفكارها و أنماط عملها، و الثانية، و أعضاؤها على العموم من المسلمين الذين تثقفوا بالغرب، أرادت الاقتباس من هذا الغرب قدر الإمكان، و لكن مع الحفاظ على الهوية الذاتية و التمايز عنه. و إذ راحت الفجوة تتسع بين هاتين المدرستين في نهاية القرن التاسع عشر، فإنها عادت و تقلصت عشية الحرب العالمية الأولى، عندما شارك أفراد هاتين المدرستين في الجمعيات السياسية السرية، التي تشكلت حول شعارات وطنية، تنادى بالاستقلال

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٨

العربي عن السلطنة العثمانية، و تعمل من أجله.

و منذ منتصف القرن التاسع عشر، بدأت تظهر في بلاد الشام و مصر صحف دورية و يومية، التفت حولها مجموعات من المثقفين، فأصبحت مراكز سياسية- ثقافية، يؤمها الكثيرون من الوطنيين. ففي سنة ١٨٥٨ م، صدرت الصحيفة الأولى في بلاد الشام- «حديقة الأخبار»- التي كان محررها خليل الخورى. و في سنة ١٨٦٠ م صدرت صحف أخرى في إستنبول و تونس و باريس، كما في دمشق (١٨٦٥ م)، و حلب (١٨٦٦ م). و في سنة ١٨٧٠ م أسس بطرس البستاني صحيفة «الجنان» في بيروت، و التي كان شعارها «حب الوطن من الإيمان». و في سنة ١٨٧٦ م أنشأ فارس النمر و يعقوب صزوف مجلة «المقتطف»، و اضطرأ، بسبب مطاردة نظام عبد الحميد لهما،

إلى الانتقال بها إلى القاهرة (١٨٨٣ م). وفي مصر كانت تصدر «الوقائع المصرية» منذ سنة ١٨٢٨ م كصحيفة رسمية. وفي سنة ١٨٦٧ م صدرت صحيفة «وادي النيل». وفي سنة ١٨٧٥ م تأسست في القاهرة صحيفة «الأهرام»، على يد الأخوين سليم وبشير تقلا. وفي سنة ١٨٨٩ م أصدر صاحبها «المقطف» جريدة «المقطم». وفي سنة ١٨٩٢ م صدرت في مصر مجلة «الهلال» الشهرية، التي أسسها جورجى زيدان.

إن النهضة الثقافية العربية في القرن التاسع عشر، لم تتوقف عند الصحافة كتعبير عن التحولات الجارية في المجتمع والدولة، وإنما تجاوزت ذلك إلى إحياء التراث، الديني والأدبي، عبر طباعة المخطوطات القديمة ونشر الكتب الجديدة، مستفيدة من انتشار المطابع في الشرق. وقد ساعدت هذه المنشورات على زيادة التفاعل والتواصل بين المثقفين والمفكرين، وحتى بين الحركات السياسية. والسياسة في الأساس كانت وطنية، تتمحور حول الاستقلال الوطني، وبدأت في مصر، معبرة عن ردة فعل القوى المحلية على التدخل الأجنبي، وخصوصا البريطاني، في شؤون البلاد. وقد عبر عنها مصطفى كامل (١٨٧٤ - ١٩٠٨ م) فكريا وممارسة. ولضغوطات المواجهة، كان لا بد للحركة الوطنية من إعداد أدواتها وحشد قواها، الأمر الذي قادها إلى صوغ حالة من الوعي الوطني ونشرها، وكذلك إلى الاهتمام بشؤون الناس، الذين هم مادة المشروع الوطني المناهض للاستعمار. وعبر المنشورات ووسائل الاتصال والنقل، انتقلت الأخبار والأفكار، وحتى الجماعات السياسية. وتبرز التفاعل بين مصر وبلاد الشام. وفي عهد السلطان عبد الحميد الاستبدادي، كانت مصر موئل الهاربين من بلاد الشام، بسبب ظلم الحكم وقمعه.

وفي بلاد الشام، وبينما التدخل الأجنبي على قدم وساق، تمحورت الحركة الوطنية على العلاقة مع الدولة العثمانية، وبالتالي المطالبة بالاستقلال عنها، حتى لو

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٨٩

كان ذلك عبر التعاون مع الدول الأوروبية. ورأى المعبرون، فكريا وسياسيا، عن الحركة الوطنية في بلاد الشام، أن استمرار الحكم العثماني يكبح تطور الأقطار العربية، اقتصاديا وحضاريا وثقافيا. وتبرز الشعور المعادي للحكم العثماني مع طغيان الاستبداد في عهد عبد الحميد، من جهة، وتنامي النزعات «الطورانية» (القومية التركية) في أوساط الإصلاحيين الأتراك، ودعوتهم إلى توحيد شعوب السلطنة على أساسها، الأمر الذي يعني إلغاء الخصوصية العربية، من جهة أخرى. وفي المقابل، وتحت تأثير الأفكار الأوروبية عن حرية الفرد والديمقراطية، ازداد التذمر والتملل بين العرب تحت نير الحكم العثماني المستبد. وساعد على تنامي الشعور بالغبن والظلم تردى الأوضاع الاقتصادية، وسوء تصرف الجهاز الحكومي، وإلغاء الدستور، وتعليق البرلمان، وطرده أعضاء العرب من إستنبول، ومطاردتهم. ولكن الوطنيين في بلاد الشام تعاطفوا مع «ثورة عرابي باشا» في مصر، ومع «حركة المهدي» في السودان.

ونتيجة الاستبداد الحميدي والردة على الإصلاحات وكتب الحريات، الخاصة والعامه، والإرهاب على أصحاب الفكر ونشطاء العمل السياسي، تشكلت جمعيات سياسية سرية، من مثقفين ورجال حكومة وضباط في الجيش ودبلوماسيين، تعارفوا في النوادي الأدبية التي أقيمت في تلك الفترة. وفي هذه الجمعيات تركز النقاش حول السياسة والوطنية والحكم، ومن خلال النشاط فيها تحول المثقفون إلى ثوريين، يعنون بالجانب العملي من السياسة، وليس النظرى فقط. وبينما تبلور حزب سياسي في مصر بزعامة مصطفى كامل (الحزب الوطني)، فإن هذه الجمعيات في بلاد الشام لم تتحول إلى أحزاب، لكنها مهدت الطريق أمام تشكل أحزاب متعددة لاحقا. وقد عبرت المنشورات التي وزعتها جمعية سرية صغيرة (١٨٧٨ - ١٨٨٠ م)، تأسست من حلقة حول بطرس البستاني (١٨٧٥ م)، عن أهداف الحركة الوطنية في بلاد الشام.

ودعت المنشورات إلى وحدة «سورية الكبرى»، وإلى حصولها على الحكم الذاتي، والاعتراف باللغة العربية لغة رسمية، ورفع القيود عن حرية التعبير والمعرفة، واقتصار النشاط العسكري للمجندين السوريين على حدود بلادهم، من دون إرسالهم إلى جبهات القتال البعيدة، وخصوصا مع روسيا، إذ نشب القتال بينها وبين السلطنة في نهاية السبعينات.

واضطر الإرهاب الحميدى رموز هذه الجمعيات من الكتاب و المفكرين إلى الهجرة إلى مصر، مثل الدكتور فارس و جورجى زيدان و إبراهيم اليازجى و الأخوين تقلا و غيرهم. و ازدادت الرقابة على المنشورات و النشاطات

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٩٠

و الاجتماعات. و إذ استطاع القمع أن يكبح تطور الحركة الوطنية و الثقافية، فإنه لم يجهز عليها بالكامل. فقد استمرت هذه الحركة فى إنتاج الكتاب و المفكرين. و يبرز بين هؤلاء الكاتب و المفكر السورى (الحلبى) عبد الرحمن الكواكبي (١٨٤٩-١٩٠٣ م). و كان الكواكبي من مناهضى ظلم عبد الحميد، و المعارضين لمعاصره، و ابن بلده، أبو الهدى من بطانة عبد الحميد، و الذى كان «نقيب الأشراف». و دعا الكواكبي إلى إحياء الحضارة العربية و تعزيزها. و ميز الحركة الوطنية من الدين، و قاوم التعصب الطائفى، و دعا إلى محاربة الأمية. و فى سنة ١٨٩٨ م، طاله القمع الحميدى، فرحل إلى مصر و أمضى بقية حياته هناك. و للكواكبي كتابان: «طبائع الاستبداد» و «أم القرى». و قد ضمن الأول منظوره الاجتماعى، بينما عبر الثانى عن وجهة نظره السياسية. و رأى إحياء الخلافة، و إيداعها فى يد خليفه عربى قرشى، تنتخبه «الأمة الإسلامية»، و تعين إلى جانبه مجلسا استشاريا. و يتمتع الخليفة بحكم الحجاز، يعينه فى ذلك مجلس منتخب. و أكد الكواكبي على خصوصية العرب فى إطار السلطنة العثمانية.

فى المقابل، كان الظلم الحميدى، الذى طال معارضيه من العرب و العثمانيين على حد سواء، حافظا للوطنيين العرب على التعاون مع «الثوريين» العثمانيين، من جمعية الاتحاد و الترقى (تركيا الفتاة)، من أجل إسقاط حكم عبد الحميد. و قد تشكلت هذه الجمعية (١٨٩٤ م) بعد أن فشلت سابقتها حركة العثمانيين الجدد، بقيادة مدحت باشا، فى تحقيق نظام حكم دستورى فى السلطنة. و العثمانيون الجدد، الذين أوصلوا عبد الحميد إلى السلطنة، كانوا أول ضحايا قمعه. و مدحت باشا، الذى أصبح الوزير الأول (الصدر الأعظم)، أبعده إلى الحجاز، و اغتيل هناك. و إزاء تدهور أوضاع السلطنة، و بالتالى إعلان إفلاسها الاقتصادى، بسبب ضخامة ديونها، راحت تتشكل تيارات ليبرالية فى تركيا، فى مواجهة الاستبداد الحميدى. و اعتقد الوطنيون العرب أنهم بالتعاون مع جمعية تركيا الفتاة، يستطيعون تحقيق الحكم الذاتى للأقطار العربية (بلاد الشام)، فى إطار السلطنة العثمانية، أو بالاستقلال عنها، و لو بمساعدة دول أوروبا. و كان أعضاء تركيا الفتاة من الضباط و المثقفين الأتراك، الذين أرادوا تحويل السلطنة إلى دولة دستورية. و قد تميّز عملهم، بسبب مواقعهم فى السلطنة، من جهة، و القمع الحميدى من جهة أخرى، بالتآمر و السرية، و العمل على تحقيق أهدافهم عبر انقلاب فى المركز. لكن أجهزة عبد الحميد اخترقت صفوفهم، و نكلت بهم، و اضطر الكثيرون منهم إلى الهرب إلى الخارج، و خصوصا إلى باريس.

و فى باريس التقى الكاتب السياسى الفلسطينى النشيط، نجيب عازورى، مع

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٩١

أعضاء تركيا الفتاة. و كان هو نفسه موظفا عثمانيا سابقا فى القدس، ثم رحل إلى باريس. و فى سنة ١٩٠٤ م أسس رابطة الوطن العربى، و نشط فى عمله السياسى و الدعاوى. و فى سنة ١٩٠٥ م، طبع كتابه «يقظة الأمة العربية» بالفرنسية. و فى سنة ١٩٠٧ م أصدر مجلة «استقلال العرب» بالفرنسية أيضا. و كان شعاره «بلاد العرب للعرب». و فى ندواته دعا إلى الثورة، و إلى إقامة دولة عربية من الولايات الواقعة تحت الحكم العثمانى (بلاد الشام). و لم تدخل مصر و شمال إفريقيا فى حسابه.

و تركز نشاط عازورى ضد العثمانيين، و ليس ضد دول أوروبا. و على العكس، فقد توقع مساعدة أوروبا فى النضال ضد العثمانيين، و التزم باحترام مصالحها فى الشرق العربى. و لكن عازورى التقط مبكرا أخطار المشروع الصهيونى، و انعكاساته على العلاقة مع أوروبا. و نشط فى دحض المزاعم الصهيونية، و فى الدعوة إلى منع الهجرة اليهودية إلى فلسطين. و بسبب وجوده فى الخارج، ظل أثره محصورا، لكن أفكاره شكلت معلما مهما فى تطور الحركة الوطنية العربية عامة، و الفلسطينية خاصة.

و كتابات عازورى تتضح بوعى وطنى عميق، و انتماء للعروبة لا لبس فيه.

و فى سنة ١٩٠٦ م، نقلت تركيا الفتاة مقرها إلى سالونيك (مقدونيا)، و شرعت فى تأليف شبكة واسعة من المنظمات الثورية. و فى سنة

١٩٠٧ م، عقدت مؤتمرا في باريس، حضره القوميون العرب، و عدد من المنظمات الثورية الأخرى. و اعترفت جمعية تركيا الفتاة بحق تقرير المصير السياسي و الثقافي للعرب. و سرّعت الأحداث اندلاع الثورة، فانطلقت من مقدونيا إلى إستنبول (١٩٠٨ م). و خضع السلطان إلى مطالب الثوار، فأعاد الدستور، و حدد موعدا للانتخابات، و ألغى القيود على حرية الكلام و المطبوعات و الاجتماعات، و أزيلت الرقابة على الصحف، و أعلن العفو العام عن السجناء. و قوبل انتصار الثورة بالابتهاج في بلاد الشام، و اعتبر القوميون العرب نجاح الثورة انتصارا لهم، و تطلع الناس إلى عهد من الحرية و المساواة و الأخوة بين شعوب السلطنة. و انتقل مركز الحركة القومية العربية إلى إستنبول، حيث تجمعت أكثرية العناصر النشطة، من ضباط و طلاب و موظفين. و قد علق هذه العناصر آمالا كبيرة على الثورة في تحقيق الأهداف القومية، عبر التعاون مع تركيا الفتاة، فسعت لتوطيد العلاقة معها.

و في السنة نفسها (١٩٠٨ م)، عقد المتحمسون العرب في إستنبول اجتماعا موسعا، و أسسوا فيه منظمة عربية جماهيرية هي جمعية الإخاء العربي - العثماني.

و فتحت لها فروعا في الولايات العربية، و أصدرت صحيفة خاصة بها. و كان رئيس الجمعية، صادق باشا العظم، ضابطا سوريا كبيرا في أركان الجيش العثماني، و أحد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩٢

المشاركين البارزين في تركيا الفتاة. و بفعله سار الإخاء العربي - العثماني في ركاب تركيا الفتاة. و دعا إلى توحيد السلطنة على قاعدة «الجامعة العثمانية»، التي تقول بوجود «أمة عثمانية»، تضم عددا من «الملل» و «الأمة العربية» واحدة منها. و جرى التخلي عن المطالبة بالاستقلال العربي، أو بالحكم الذاتي على الأقل. و اعتبر الإخاء العربي - العثماني مهمته الرئيسية مساعدة تركيا الفتاة على تسيير أمور الدولة. و تقصت مطالبه إلى المساواة بين القوميات و نشر الثقافة و اللغة العربية و المحافظة على العادات و التقاليد. و بارتباطه بتركيا الفتاة، فقد الإخاء العربي - العثماني قاعدته الشعبية، و خصوصا بعد انكفاء قادة الثورة عن مواقفهم السابقة بشأن حقوق القوميات في السلطنة لدى تسلمهم زمام السلطة.

و خاب أمل القوميون العرب من تركيا الفتاة في الانتخابات البرلمانية التي جرت تحت إشرافها (١٩٠٨ م)، إذ إنها في برنامجها، كما في سلوكها، تجاهلت التعهدات التي قطعتها على نفسها إزاء حركات التحرر قبل تسلمها السلطة في إستنبول. فإضافة إلى أن تمثيل العرب في البرلمان لم يكن متوازيا مع نسبتهم سكانيا داخل السلطنة، لم يكن المرشحون معبرين حقيقيين عن تطلعات قطاعات الشعب العربي الواسعة.

و النواب المنتخبون كانوا أكثر حرصا على مسaire تركيا الفتاة من طرح قضايا الناس الذين يفترض أنهم يمثلونهم. و انحاز الكثيرون من الإقطاعيين العرب، و كذلك بعض القوميين الذين خابت آمالهم من تركيا الفتاة إلى حزب الأحرار، الذي يمثل ملاكي الأراضي و أصحاب رؤوس الأموال. و تعاون هذا الحزب مع السلطان عبد الحميد للقيام بانقلاب مضاد على حكومة تركيا الفتاة، و اندلع القتال في الشوارع، و قتل فيه محمد أرسلان، أحد أقطاب الإخاء العربي - العثماني. لكن ضباط تركيا الفتاة، محمود شوكت و مصطفى كمال و غيرهما، استطاعوا إنقاذ الموقف بعمل عسكري سريع و حازم، و خلعوا السلطان عبد الحميد، و عينوا مكانه محمد الخامس رشاد سلطانا اسميا فقط.

و بعد سحق الانقلاب المضاد، استأثر قادة تركيا الفتاة بالسلطة، و شكلوا حكومة بأنفسهم، و تخلوا عن تحالفاتهم السابقة، و اتجهوا إلى التصالح مع المحافظين، من جهة، و إلى تبني الطروحات الشوفينية بشأن القومية التركية من جهة أخرى. و فتحوا المعركة مع الحركات الثورية التي تحالفوا معها سابقا، كما تراجعوا عن مواقفهم السابقة بشأن ملكية الأراضي، فتركوها بأيدي الإقطاعيين، و امتنعوا من إصلاح النظام الضريبي لمصلحة الفلاحين، و سنوا «قانون الإضراب» ضد العمال (١٩١٠ م). و في السياسة الخارجية، دخلوا في «لعبة الدول الأوروبية»، و شجعوا العلاقات مع ألمانيا،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩٣

التي كان نسجها عبد الحميد و بطانته. و أسوء سياسة عبد الحميد، واصلوا التنكيل بالأرمن و الأقليات العرقية. و حظروا نشاط المنظمات الوطنية-العربية و الألبانية و غيرها. و في سنة ١٩٠٩ م حرموا نشاط الإخاء العربي-العثماني. و تسليح قادة تركيا الفتاة بسلاح الجامعة العثمانية، بمفهومه التركي، و انتهجوا سياسة التريك القسري، و أغلقوا المدارس القومية، و أدخلوا اللغة التركية كلغة رسمية و حيدة في السلطنة.

(أ) المنظمات العربية السرية

إزاء ارتداد تركيا الفتاة عن الشعارات التي رفعتها قبل تسلمها السلطنة، كان طبيعياً أن يتحوّل القوميون العرب، من حلفائها السابقين، إلى المعارضة، فانتهى بذلك الإخاء العربي-العثماني، و حلت محله المقاومة السافرة. و عندما لجأ حكام تركيا الجدد إلى تحريم النشاط السياسي العلني، عمدت المنظمات العربية إلى تكتيكات جديدة، تجمع بين النشاط العلني و العمل السري، كما انتقل جزء منهم إلى الخارج لمتابعة نشاطه من هناك. و في صيف سنة ١٩٠٩ م أسسوا المنتدى الأدبي في القسطنطينية، بديلاً من جمعية الإخاء العربي-العثماني. و اتخذ هذا المنتدى في الظاهر صفة ثقافية، و اتسعت عضويته، و فتح له فروعاً في المدن السورية و العراقية فأصبح مركزاً لتجمع المثقفين العرب الوطنيين. و سريعا أقام هؤلاء اتصالات مع أقرانهم في مصر و الولايات المتحدة، و أدخلوا المطبوعات الممنوعة إلى المنتدى.

و لم يلبث المنتدى، انسجاماً مع أساس كينونته أن تحوّل إلى ستار للنشاط السياسي السري. و خلال الحرب العالمية الأولى، شنق حكام تركيا الجدد أربعة من أعضاء لجنته الستة، بتهمة النشاط المعادي لتركيا.

و في نهاية سنة ١٩٠٩ م أسس عبد الكريم الخليل، رئيس المنتدى الأدبي، جمعية سرية هي القحطانية لتعمل بالسياسة، بموازاة النشاط الثقافي للمنتدى. و كان أعضاء القحطانية من الضباط العرب في الجيش العثماني، و على رأسهم عزيز علي المصري، الذي أدى دوراً في انقلاب تركيا الفتاة، ثم تخلى عنها، و عمل على تنظيم الضباط العرب في مواجهتها. و كان المصري يتمتع باحترام كبير بين أقرانه، و منهم:

سليم الجزائري و أمين و عادل أرسلان و علي النشاشيبي و شكري العسلي. و كانت أهداف القحطانية لا تفرق كثيراً عن أهداف الإخاء العربي-العثماني. فقد اعتبرت العرب أمة واحدة قائمة بذاتها. و بناء عليه، تجب إعادة صوغ السلطنة العثمانية لتعبر عن دولة ثنائية القومية-عربية و تركية- و يكون السلطان التركي هو ملك العرب، الذين يتمتعون بدورهم بحكم ذاتي في بلادهم، و لكن في إطار السلطنة. و يكون لهم برلمان

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩٤

خاص، و حكومة محلية، و لغة رسمية، هي العربية. و كان مركز القحطانية في إستنبول، و لها فروع في مدن عربية أخرى. لكن نشاط هذه الجمعية السرية انكشف للسلطات. فسارعت قيادتها إلى حلها، تداركاً للتنكيل التركي بأعضائها.

و نظراً إلى سياسة القمع التركية، فقد أسس بعض أعضاء المنتدى الأدبي، الذين سافروا إلى فرنسا لطلب العلم، جمعية العربية الفتاة في باريس (١٩١١ م)، التي أدت دوراً كبيراً في تبلور الحركة القومية العربية. و استشهد الكثيرون من أعضائها خلال الحرب العالمية الأولى، بينما تولى الناجون من سيف الجلادين الأتراك مناصب سياسية مهمة في الوطن العربي لاحقاً، مثل جميل مردم و عوني عبد الهادي. و في فرنسا، بعيداً عن الاعتبارات المحلية و اليومية، تبلور موقف القوميين العرب، و استقرّ على ضرورة الاستقلال عن الحكم التركي، أو الأجنبي الأوروبي. و كانت العربية الفتاة منظمة سرية للغاية، تضم ثلاث مراتب تنظيمية: القيادة و الأعضاء العاملون و المرشحون. و منذ سنة ١٩١٣ م، ازداد نشاط الجمعية، و بادرت بالدعوة إلى توحيد نشاط كافة الأحزاب و المنظمات العربية الوطنية. و

بتضافر جهودها مع حزب اللامركزية عقد المؤتمر العربي الأول، في باريس في ٤ نيسان/ أبريل ١٩١٣ م. وقد رعت حكومة فرنسا المؤتمر، فوفرت له المكان، وكذلك نشر المقررات. و من أعضاء الجمعية البارزين: جميل مردم و محمد المحمصاني و عونى عبد الهادى و رستم حيدر و توفيق الناطور و رفيق التميمى و عبد الغنى العريسي. و كان هؤلاء جميعا من الطلاب الدارسين فى فرنسا، و المؤسسين للجمعية.

و القمع الذى مارسته حكومة تركيا الفتاة لم يوفر لها النجاح، لافى الداخل و لافى الخارج. و قد أدت سياستها إلى المزيد من تقويض دعائم السلطنة العثمانية، إذ فشلت فى الحرب مع إيطاليا (١٩١١-١٩١٢ م)، و كذلك فى البلقان (١٩١٢-١٩١٣ م). و داخلها، وقعت بين مطرقة اليسار- الحركات الثورية- و سندان اليمين- حزب اللامركزية (الائتلاف و الحرية). و كان هذا الحزب يعكس مصالح الأوساط الإقطاعية و الكومبرادورية. و على العكس من حكومة تركيا الفتاة، التى مالت نحو ألمانيا، اتجه هذا الحزب نحو «الحلفاء» (فرنسا و بريطانيا) و دعا إلى اللامركزية كحل للقضية القومية، و رفع شعار الاستقلال الذاتى للشعوب على أراضيها، ضمن إطار الإمبراطورية العثمانية. و استطاع الائتلافون الإطاحة بحكومة تركيا الفتاة بانقلاب (١٩١٢ م)، و تولوا الحكم. لكنهم فشلوا فى حل مشكلات تركيا المستعصية، فعادت تركيا الفتاة إلى السلطة بانقلاب مضاد (١٩١٣ م)، و بقيادة ثلاثى الباشوات المنحاز كليا لألمانيا- أنور و طلعت و جمال. و هذا الثلاثى هو الذى أدخل تركيا الحرب

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٢٩٥

العالمية الأولى إلى جانب ألمانيا.

و شهدت فترة ١٩١٢-١٩١٤ م حالة من النهوض القومى العربى، أفاد من الأزمة العميقة التى راحت تلف الحكم فى إستنبول، و تشير إلى حالة من الانهيار العام تحقيق بالسلطنة. فالفشل العسكرى فى ليبيا (مع إيطاليا)، و فى البلقان، و بالتالى استقلال الشعوب البلقانية، و الانقلاب، و الآخر المضاد فى إستنبول و حالة التملل العامة، كانت عوامل ساعدت على ذلك النهوض. و علاوة على ذلك، فإن انحياز الثلاثى- أنور و طلعت و جمال- إلى ألمانيا، دفع فرنسا و بريطانيا إلى تعزيز دعمهما للقوى المناوئة لحكمهم. و تشكلت أحزاب و جمعيات جديدة، و كذلك منظمات ثورية. ففى غضون الحرب البلقانية، شكّل القوميون العرب فى القاهرة حزب اللامركزية الإدارية العثمانى. و كان على اتصال وثيق بالحزب التركى- الائتلاف و الحرية. و قد ترأس الكاتب السياسى، و العالم الاجتماعى السورى، رفيق العظم، هذا الحزب. و كان من المشاركين فى حلقة الكواكبي فى القاهرة. كما كان نائب الرئيس، الشيخ الزهاوى، من تلاميذ الكواكبي، و من الكتّاب المرموقين، و قد مثل حماة فى البرلمان العثمانى. و انتشر الحزب فى البلاد العربية، و حتى فى العراق.

و بلغ أعضاؤه قرابة ١٠،٠٠٠، موزعين على فروع فى مدن بلاد الشام و العراق. و من البارزين بين أعضائه: فؤاد الخطيب، و رشيد رضا و سليم عبد الهادى و حافظ السعيد.

و عندما تسلم حزب الائتلاف و الحرية الحكم فى إستنبول، كثف حزب اللامركزية الإدارية العثمانى نشاطه فى الولايات العربية. فدعا إلى زيادة المشاركة العربية فى الحكومة و المجلس و مؤسسات الدولة، و الاعتراف باللغة العربية لغة رسمية فى الدولة العثمانية، و طرح فصل الأقاليم العربية و إعطاءها الاستقلال الذاتى، و إقامة حكومات محلية و إقليمية فيها. و أكد الحزب على التعاون مع الدول الأوروبية، فطالب بإعطاء الأقاليم حق استقدام المستشارين الأجانب بصورة مستقلة، و كذلك عقد القروض الخارجية، و منح الامتيازات للدول الأجنبية. و على العموم، كان هذا الحزب يعلق آمالا كبيرة على دعم أوروبا لمطالبه، و وافق على أن تتولى فرنسا الإشراف على سورية و لبنان، بينما تتولى بريطانيا الإشراف على العراق و فلسطين.

و بالتعاون مع المنتدى الأدبى، و المنظمات الوطنية الأخرى، و خصوصا مع الجمعيات الإصلاحية السورية و العراقية، ساهم الحزب فى عقد المؤتمر العربى الأول (١٩١٣ م) فى باريس. و عندما عادت تركيا الفتاة إلى الحكم، واجه نشطاء الحزب موجة من القمع و

التنكيل، فاندلعت الاضطرابات في جميع أنحاء السلطنة، و خصوصاً في الولايات العربية، واضطرت حكومة تركيا الفتاة إلى التراجع التكتيكي، الذي لم يؤدِّ

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩٦ إلى تهدئة الأوضاع.

و على الرغم من محاولات حكومة تركيا الفتاة (١٩١٣ م) امتصاص النقمة العربية على سياستها في العودة إلى مركزية الدولة، بإصدار «قانون الولايات» الجديد، الذي وسع من حقوقها السابقة، إلا إن حركة مناهضة الحكم التركي لم تتوقف. وفي ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٣ م، عاد عزيز على المصري، و أسس جمعية العهد، من ضباط عرب، و لكن على قواعد و أسس أكثر سريّة و انضباطاً من القحطانية. و وصل أعضاء الجمعية إلى نحو ٤٠٠٠ ضابط، و كان لها فروع في بغداد و الموصل و حلب و دمشق، و من أعضائها نوري السعيد و جميل المدفعي. و كانت الجمعية على اتصال ببريطانيا، بعد أن قطعت الأمل في إصلاح النظام العثماني، فتحولت إلى العمل على إسقاط السلطنة التركية بالقوة، و جعلت من العراق قاعدة لها. و في سنة ١٩١٤ م، ألقى القبض على عزيز على المصري، و اتهم بالخيانة، و حكم عليه بالإعدام، لكن الحكم لم ينفذ بسبب تدخل السفارة البريطانية لمصلحته، فأطلق سراحه، و أبعده إلى مسقط رأسه - مصر. و بعد تشتت جمعية العهد في إستنبول، تشكلت جمعيات متعددة في الولايات العربية، واصلت النضال ضد الحكم العثماني.

و عشية اندلاع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ م)، كانت أغلبية الجمعيات و المنظمات العربية قد تخلت عن فكرة التوفيق بين أهدافها و الحكم التركي، و اقتنعت بضرورة اللجوء إلى الثورة للفكاك من ذلك الحكم المستبد. فالسياسة الشوفينية لحكومة تركيا الفتاة، لم تترك مجالاً للاتفاق. و دخل الطرفان في مسلسل من التصعيد، زاد في تنامي التوجهات الانفصالية العربية. ففي كانون الثاني/ يناير ١٩١٤ م قررت الحكومة التركية إغلاق المنظمات العربية السياسية جميعها، و عمدت إلى تشتيت الضباط العرب في الوحدات العسكرية لمنع تكتلهم. و كان لذلك أثر عكسي، إذ قويت المعارضة، و انتقلت إلى طور الانتفاضة المسلحة. و أجرى قادة الحركة العربية اتصالات بمندوبين بريطانيين و فرنسيين. و اتصل شفيق المؤيد بالسفير الفرنسي في إستنبول، و طلب تقديم الدعم للثورة العربية. و أجرى عبد الله الهاشمي اتصالات بالمندوب السامي البريطاني في مصر، كيتشنر، و طلب تزويد الثوار العرب بالأسلحة، و مساندة الثورة العربية المقرر تفجيرها في الحجاز. و قد قبلت هذه الاتصالات بمعارضة أوساط غير قليلة من القوميين العرب الذين رأوا أن التعامل مع الدول الأوروبية لا يقل خطورة عن التعامل مع الحكم التركي. و فضل هؤلاء الوقوف إلى جانب تركيا، لأنهم رأوا، أن الثورة عليها بمساعدة دول أوروبا، ستؤدي إلى احتلال تلك الدول للبلاد العربية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩٧

(ب) مقاومة الاستيطان الصهيوني

و كان طبيعياً نتيجة تبلور الوعي القومي، من خلال اليقظة الفكرية و الثقافية في الوطن العربي، و بالتالي تشكل الحركة القومية العربية، التي تناضل من أجل الحرية و الاستقلال و الوحدة و التطور الاجتماعي، أن تصدى القوى السياسية و الشعبية للصهيونية، فكراً و ممارسةً. و في الواقع، و بحدود القدرة الذاتية على القيام بما يلزم لذلك، و اكبت المقاومة العربية الاستيطان الصهيوني منذ بدايته. لكن تلك المقاومة، و لظروف ذاتية و موضوعية، لم تستطع الحؤول دون تجسيد المشروع الصهيوني في فلسطين. فعلى الصعيد الموضوعي، كانت المقاومة العربية تنطلق من قاعدة إمبراطورية متهاوية - السلطنة العثمانية - بينما الصهيونية تنطلق من قاعدة إمبريالية صاعدة. و إذ كانت الحركة العربية مستنزفة في الصراع داخل معسكرها، سواء بين التيارات المتعددة فيها، أو مع النظام العثماني الحاكم، كانت الحركة الصهيونية ترتب أوضاعها لتكون على أعلى درجات الانسجام مع الإمبريالية الأوروبية. و بينما تمحور صراع

الحركة القومية العربية حول التخلص من نير الحكم التركي، كان النشاط الصهيوني يتركز على دعم الدول الأوروبية للإجهاز على السلطنة العثمانية، و تقسيم أراضيها، و تخصيص فلسطين قاعدة للمشروع الصهيوني، في مواجهة الحركة القومية العربية. و من سخرية القدر أن تجد الحركة القومية العربية نفسها متحالفة، من أجل تحقيق أهدافها، مع الدول الإمبريالية الأوروبية، التي تشكل «البلد الأم» للصهيونية.

و على الصعيد الذاتي، فإن الموقف السياسي النظري، المعادي للصهيونية في الجانب العربي، لم يترجم نفسه في حركة سياسية منظمة و فاعلة. و ذلك على العكس من الحركة الصهيونية، التي راحت بعد مؤتمر بازل (١٨٩٧ م) تصوغ منظمتها بالشكل الذي يحقق أهدافها. و منذ البداية، و في مقابل تمرکز النشاط الصهيوني، و تحديد أهدافه العملية، و بالتالي حشد مقوماته لإنجاز تلك الأهداف، ظلت المقاومة العربية مبعثرة، و تعاني الانقسام بين النظرية و التطبيق. فحالة الوعي التي كانت في طور التشكل، و التي تمحورت حول القضية الضاغطة-العلاقة مع الحكم العثماني- مع أنها لم تكن غافلة عن الخطر الصهيوني، و كذلك الوضع الاجتماعي-السياسي للشعب العربي عند انطلاق الصهيونية كحركة سياسية، تمتلك مشروعا استيطانيا، لم يكن من شأنهما تأهيل الحركة القومية العربية لبناء التنظيم السياسي، و بالشكل المطلوب، القادر على مواجهة الحركة الصهيونية و دحرها. و كان واضحا أن الحركة القومية العربية لم تكن تمتلك برنامجا-فكريا أو سياسيا أو عمليا- موّخدا في مواجهة

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩٨

الصهيونية، فظلت النشاطات التي قامت بها تتسم بطابع العفوية و الارتجال و ردّات الفعل.

و تجدر الإشارة إلى أن الوعي المناهض للمشروع الصهيوني، بصيغته جميعها:

فكريا و سياسيا أو صراعا عنيفا، لم تطبقه الحركة القومية العربية على اليهود، لأنهم يهود، و إنما انطلق من قاعدة سياسية، ليست اجتماعية و لا- دينية، كما كان الحال في أوروبا. و كذلك كان موقف السلطنة العثمانية، التي لم تقف مكتوفة الأيدي إزاء النشاط الصهيوني الذي يستهدف قطعة أرض معينة من أراضي السلطنة. فمذ البداية، أصدر الباب العالي التعليمات إلى قناصله في الدول المتعددة، بإبلاغ اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين، بأنه لن يسمح لهم بالاستيطان في فلسطين كأجانب، و بأن عليهم اكتساب الجنسية العثمانية، و الالتزام بالقوانين السارية في الولايات التي يرغبون الإقامة الدائمة فيها. و من ناحية مبدئية، لم تكن السلطات العثمانية تعارض إقامة اليهود في أراضيها، فقد كانت أعداد منهم منتشرة فيها، و اعتبرتهم إحدى «الملل» المعترف بها في السلطنة، و لكنها كانت تعارض هجرتهم إليها من الدول الأخرى، و التوجه إلى فلسطين تحديدا، في إطار الامتيازات الممنوحة للدول الأجنبية، أو على أساس «براءة» خاصة تقدم للمنظمة الصهيونية من قبل السلطان.

كما تجدر الإشارة أيضا إلى أن الأوساط المحافظة (الرجعية) العثمانية و العربية، كانت أكثر تشبها بمبدأ عدم السماح لليهود بالهجرة إلى فلسطين، و تصلبا في مواجهة محاولات الصهيونية اختراق هذا الحاجز، عبر الأوساط الإصلاحية (التقدمية). و بذلك كان المحافظون أكثر انسجاما مع المزاج الشعبي من الإصلاحيين النخبويين. و لعل التعبير الأبرز عن ذلك يتمثل بموقف السلطان عبد الحميد الثاني المستبد، الذي لم يترشح عن معارضته للأهداف الصهيونية في فلسطين، و ذلك على الرغم من الإغراءات كلها التي قدمت له من الصهيونية و أعوانها، في مقابل الموقف المانع لحزبي تركيا الفتاة و الحرية و الائتلاف. و على العموم، ظل الموقف الرسمي العثماني، حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، مناهضا للمشروع الصهيوني، و ثابتا في وجه المحاولات الصهيونية كلها لتغييره، أو التخلي عنه. كما أقدمت السلطات العثمانية على اتخاذ إجراءات لمنع المهاجرين اليهود من الدخول إلى فلسطين بالوسائل الملتوية. فأصدرت تعليمات إلى متصرف القدس ببذل كل الجهود للحؤول دون وصول المهاجرين من روسيا و رومانيا و بلغاريا إليها. و جرى اتخاذ إجراءات مماثلة في بيروت و اللاذقية و حيفا. و لكن الموظفين العثمانيين لم يتقيدوا دائما بالتعليمات، كما استغل عملاء الصهيونية فسادهم و جشعهم للمال، فقدموا لهم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٢٩٩

الرشاوى للتغاضي عن الهجرة اليهودية غير الشرعية.

لكن الموقف العثماني الرسمي لم يحل دون وصول المهاجرين اليهود إلى فلسطين والاستيطان فيها. فقد أفاد هؤلاء من الثغرات في القوانين والإجراءات، واستغلوا فساد الموظفين بالرشاوى، واستندوا إلى دعم قناصل الدول الأوروبية، للدخول إلى البلاد والإقامة فيها. وفي الواقع، فإن قناصل الدول الأجنبية كثيرا ما احتجوا على القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فلسطين، واعتبروها خرقة للامتيازات التي تتمتع بها دولهم. و عبر تدخل هؤلاء القناصل، كثيرا ما رضخ الموظفون العثمانيون إلى الضغوط، أو أغروا بالرشاوى، فتغاضوا عن التجاوزات الصهيونية بالهجرة والاستيطان. وكذلك، وعلى الرغم من القوانين الصادرة بمنع بيع الأراضي للمهاجرين الجدد، فقد استطاع هؤلاء، و عبر السماسرة، أو عن طريق العقود الوهمية، من ابتياع مساحات من الأراضي لإقامة المستعمرات. و بنسبة عالية جدا، كانت تلك الأراضي تخص ملاكين غائبين، ممن استولى عليها عبر الالتزام، أو سجلها باسمه لقاء دفع الضريبة المستحقة عليها، نيابة عن الفلاحين الذين لم تتوفر لديهم الأموال اللازمة لذلك، و خصوصا بعد صدور القوانين الضريبية على الأراضي، في إثر مسحها و تسجيلها في عهد التنظيمات، فتركزت في أياديهم أملاك واسعة.

و إزاء فشل الإجراءات العثمانية في إيقاف الهجرة اليهودية، و بالتالي ازدياد النشاط الصهيوني الاستيطاني، برزت المقاومة المحلية لهذه الظاهرة. و إذ لم تكن أعمال المقاومة منسقة و منظمة، فإنها تفجرت بصورة عفوية، و بالتواكب مع عمليات شراء الأراضي من الملاكين الغائبين و طرد الفلاحين أو المرابعين عنها، و إقامة المستعمرات عليها. و كان كلما توسعت عملية الاستيطان و انتشرت في الريف، عمت المقاومة و اتسع نطاقها. فشراء الأراضي عبر السماسرة، و في صفقات مشبوهة و سرية، جعل المواجهة حتمية بين الفلاحين المقيمين عليها، و المستوطنين الذين عمدوا إلى طردهم منها، و بالتالي قطع أسباب معيشتهم فجأة، و من دون سابق إنذار. فكان طبيعيا أن يقاوم الفلاحون هذه الظاهرة، و يعمدوا إلى العنف في مواجهة لجوء المستوطنين، تدعمهم السلطة، إلى إخلائهم بالقوة. و كانت يد السلطة ثقيلة على الفلاحين في تنفيذ العقود المشبوهة و خفيفة على المستوطنين في تنفيذ تعليمات الدولة و أوامرها. و كما اصطدم المستوطنون مع الفلاحين، كذلك كان الحال مع القبائل البدوية التي حرمت من مراعى قطعانها. و قام الطرفان - الفلاحون و البدو - و من دون تنسيق، بعمل متكامل في مهاجمة المستعمرات و حرق المزارع، و تخريب المرافق. و تنضح يوميات المستوطنين الأوائل بأخبار هذه المقاومة، التي يسمونها أعمال نهب و تخريب.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٠

و في الواقع، و بغض النظر عن الدعاية الصهيونية التي تروج غياب الوعي الوطني لدى العرب الفلسطينيين، و تركز على انتمائهم الطائفي، و تبرز خلو الأرض من السكان، و وصولا إلى مقولة الزعيم الصهيوني، إسرائيل زانغويل، «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، فإنه ما من مستعمرة صهيونية قامت في فلسطين، و منذ البداية، من دون صراع مع جوارها - من الفلاحين أو البدو. و الدعاية الصهيونية الموجهة، الرامية إلى تغييب سكان فلسطين الأصليين، لتبرير منح الحركة الصهيونية «البراءة الدولية»، تفضحها محاضر جلسات لجان المستعمرات، و مذكرات المستوطنين الأوائل، التي أبرزت شكواهم من المقاومة العربية. و هذه الدعاية المضللة و الكاذبة تفضحها بصورة صارخة الذرائع و التبريرات التي ساقها المستوطنون لإنشاء وحدات مسلحة لحماية المستعمرات. كما يدحضها الجدل بين المستوطنين الأوائل و رجال الهجرة الثانية، بشأن ضرورة استبدال الحراس العرب بمهاجرين يهود للقيام بالدفاع عن المستعمرات أمام هجمات المقاومين العرب. كما تكشف مراسلات القناصل الأجانب زيف هذه الدعاية، إذ دأب هؤلاء على الطلب من السلطة العثمانية إبعاد الفلاحين العرب عن الأرض بالقوة، و تثبيت المستوطنين الجدد عليها، و حمايتهم.

و لعل تدخل قناصل الدول الأوروبية، و خصوصا البريطاني، كان من أهم عوامل إحباط المقاومة العربية، إضافة إلى فساد جهاز الحكومة التركي. ففي مقابل الضغط الروسي على السلطنة لمنع هجرة يهودها إلى فلسطين، خوفا من الإخلال بالوضع القائم حول

الأماكن المقدسة، و بالتالي بالامتياز الذي تتمتع به بحسب معاهدة كوتشوك كايترجي لحماية المسيحيين الأورثوذكس، تحرك قناصل الدول الأخرى لدعم الهجرة اليهودية. و القيود التي فرضتها السلطنة على هجرة يهود روسيا منذ بداية الثمانينات، حركت ردة فعل قناصل الدول الأوروبية (١٨٨٤ م). و اضطرت السلطنة إلى تخفيف تلك القيود، استجابة لادعاء تلك الدول بأنها تخالف مبادئ الامتيازات التي يتمتع بها مواطنوها. و كان المهاجرون اليهود يحتفظون بجنسيتهم الأصلية، أو يدخلون لدى وصولهم تحت حماية إحدى الدول، الأمر الذي يعطى الذريعة الشكلية لقتلها للتدخل لدى السلطات العثمانية و تأمين إقامتهم في البلد. كما كان القناصل يستغلون فساد الموظفين الأتراك، و يجعلونهم بالرشاوى يلتفون على أوامر الدولة، و يختلقون الذرائع لمعاقبة المقاومين العرب، و إخلاء سبيل المستوطنين المعتدين، أو المخالفين للأنظمة و القوانين.

و مع ذلك، تشير الدلائل كلها، إلى أن حركة الاستيطان الصهيوني، المدعومة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠١

من قناصل الدول الأوروبية، و تواطؤ بعض الموظفين العثمانيين، قد سرعت في تنامي الشعور الوطني و تبلور الوعي القومي، لدى قطاعات واسعة من سكان فلسطين. و قد عمّ هذا الشعور سكان الريف و المدن على حد سواء، و لم تخرج عنه سوى فئة صغيرة من الملاكين، الذين بأغليتهم كانوا غائبين عن الأرض، و قد أغرتهم الأثمان العالية التي دفعها لهم السماسرة للتنازل عن ملكية الأرض. أمّا التجار و الحرفيون و المثقفون، فقد انحازوا إلى الموقف الوطني بدافع الشعور القومي، و من منطلق الحفاظ على المصالح الاقتصادية، التي تتهددها الهجرة اليهودية الواسعة. و تحت ضغط الرأي الشعبي العام، تقدم أعيان القدس بالتماس إلى الباب العالي في ٢٤ حزيران/ يونيو ١٨٩١ م، يطالبون فيه بوضع حد للهجرة اليهودية إلى فلسطين.

و استجابت إستنبول للالتماس، و أصدرت مرسوما يمنع بيع أراضي الدولة (الميري) لليهود، من دون استثناء (١٨٩٢ م). و لم تجد نفعاً احتجاجات اليهود العثمانيين، الذين شكلوا غطاء للصهيونية للالتفاف على القوانين، و لا- اعتراضات قناصل الدول الأوروبية، في زحمة الباب العالي عن موقفه، الذي دعمه السلطان عبد الحميد بحزم.

و أدت الصحف العربية الناشئة حديثاً دوراً مهماً في التعريف بالصهيونية و أهدافها، و التحريض على مقاومتها. فقد كتبت «المقتطف» (١٨٩٨ م) مقالا مناهضاً للصهيونية و أهدافها، كما جرى التعبير عنها في مؤتمر بازل، و أكدت تقديرها فشل المشروع الصهيوني، و معارضة الدولة العثمانية له، و دعت إلى حل «المسألة اليهودية» في روسيا و رومانيا و بلغاريا محلياً. و في السنة نفسها، تناول الشيخ محمد رشيد رضا الموضوع في «المنار»، و نبه إلى مخاطر الصهيونية على العرب و مستقبلهم. و يتضح من كتاباته اللاحقة أنه أدرك أبعاد المشروع الصهيوني، و أن المسألة لا تتوقف عند إيجاد ملجأ لليهود المضطهدين في بعض دول أوروبا، و إنما تتعدى ذلك إلى استملاك فلسطين و إقامة كيان سياسي يهودي فيها. و ناشد محمد رشيد رضا العرب النهوض و التصدي للنشاط الصهيوني قبل فوات الأوان. و في سنة ١٩٠٥ م أوضح نجيب عازوري، في مقدمته كتابه «يقظة الأمة العربية»، أخطار الصهيونية على الوطن العربي، مشيراً إلى الصراع الدموي الذي سيتولد عن محاولات تجسيد المشروع الصهيوني في فلسطين.

و بعد انقلاب تركيا الفتاة (١٩٠٨ م)، و بروز تعاطف قياداتها مع الصهيونية، و انكفائها عن المواقف السابقة، ازدادت حدة المقاومة العربية لها. و إضافة إلى الحملة في الصحف، ظهرت كتابات، أدبية و تاريخية، تحرض العرب على مناهضة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٢

الصهيونية. فكتب إسعاف النشاشيبي (١٩١١ م) كتاب «الساحر و اليهودي»، و معروف الأرنؤوط كتاب «فتاة صهيون». و وضع محمد روي الخالدي (١٩١١ م) مخطوطة كتاب «تاريخ الصهيونية»، أوضح فيه أن الهدف الصهيوني هو إقامة دولة يهودية في فلسطين. و ميز الخالدي الصهيونية من اليهودية، و نبه إلى مخاطر نشاط المستوطنين في فلسطين. و شنت الصحف التي تأسست في فلسطين في تلك الفترة حملة على النشاط الصهيوني، فكشفت مخططاته، و دعت الناس إلى الوقوف في وجهه. و بذلك عمقت الوعي العربي

بهذه المؤامرة الدولية، و بأبعادها الخطرة على حاضر الأمة العربية و مستقبلها. و طالبت الصحف الحكومة العثمانية بمنع هجرة اليهود إلى فلسطين، و تشديد الرقابة على بيع الأراضي. و قد تعرضت تلك الصحف مرارا للإغلاق بأوامر السلطنة العثمانية، عقابا لها على نشر مقالات معادية للصهيونية و تنتقد سياسة الحكومة إزاء مخططاتها و نشاطاتها.

و بعد ثورة تركيا الفتاة، تأسست في فلسطين أربع صحف، جعلت التصدي للمشروع الصهيوني محور اهتمامها. و بذلك ساهمت هذه الصحف في تعزيز خصوصية الحركة الوطنية الفلسطينية، ضمن إطارها القومي، إذ راح البعد الصهيوني يحتل موقعا رئيسيا في مضمونها السياسي و النضالي. ففي سنة ١٩٠٨ م أسس حنا عبد الله العيسى صحيفة «الأصمعي»، و نجيب نصار صحيفة «الكرمل». و في سنة ١٩١٢ أسس سعيد جار الله صحيفة «المنادي»، و عيسى العيسى صحيفة «فلسطين»، التي تولى تحريرها يوسف العيسى. و قد تميزت صحيفة «الكرمل»، التي صدرت في حيفا، بحمل لواء المقاومة العربية للصهيونية. و قدم مؤسسها نجيب نصار، اللباني الأصل (١٨٦٥-١٩٤٨ م) مساهمة نوعية في نشر الوعي عن الصهيونية، و التعريف بنشاطاتها. فأكد عنصريتها، و كشف الزيغ في طروحاتها، و ركز على التعريف بمؤسساتها، و أساليب عملها، بالاستناد إلى «الموسوعة اليهودية». و كرس صحيفته للتصدي للمشروع الصهيوني بأبعاده كلها- الفكرية و السياسية و العملية. و طالب الحكومة بوقف الهجرة إلى فلسطين و منع بيع الأراضي للصهيونية. و بنشاطه مع الصحف الأخرى، أجبر الحكومة على التراجع عن بيع أراضي «الجفتلك» (الأميرية) في غور بيسان و أريحا (١٩١٣ م). و قد تعرض للمطاردة و الاعتقال من قبل السلطات العثمانية، و البريطانية لاحقا.

و كذلك، قامت جريدة «فلسطين» بدور كبير في مقاومة الصهيونية و الاحتجاج على نشاطها في فلسطين، راح يتصاعد مع تصاعد وتيرة الهجرة اليهودية الثانية إليها، قبل الحرب العالمية الأولى. و نظرا إلى تأثير تلك الصحف في الرأي العام،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٣

الفلسطيني و العربي، فقد نشطت الأوساط الصهيونية في العمل على توقيفها. فأغلقت الحكومة صحيفة «الكرمل» (١٩٠٩ م) بعد أشهر قليلة على تأسيسها. و كذلك كان الأمر بالنسبة إلى جريدة «فلسطين» (١٩١٣ م)، من دون محاكمة، في إثر جولته قام بها السفير الأميركي في إستانبول، مورغنتاو، و اطلع على النشاط الذي تقوم به الصحيفة.

و في الواقع، فإنه نتيجة نشاط صحيفتي «الكرمل» و «فلسطين» تشكل رأى عام مناهض للصهيونية، و انتقل تأثيرهما إلى الخارج. ففي دمشق هب محمد كرد علي، و فتح صفحات جريدته «المقتبس» للكتابة عن الصهيونية و التعريف بأخطارها على الأمة العربية. و شارك معه في الكتابة عبد الله مخلص و عمر صالح البرغوثي و نجيب نصار، و شكري العسلي. و كذلك فعلت صحيفتا «المقطم» و «الأهرام» في مصر، و الصحف المهجرية مثل «مرآة الغرب» في نيويورك.

و قبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى، زار جورجى زيدان فلسطين، و كتب عن مشاهداته هناك في مجلة «الهلال» في نيسان/ أبريل ١٩١٤ م. و كذلك كتب إبراهيم سليم النجار في «الأهرام» في ٩ و ١٠ نيسان/ أبريل ١٩١٤ م، تحت عنوان «الإسرائيليون في فلسطين». كما قام محمد الشنطي، صاحب صحيفة «الإقدام» القاهرية، بجولة في فلسطين، أجرى خلالها مقابلات مع المرشحين للبرلمان العثماني، من أجل التعريف بمواقفهم من الصهيونية. و في المقابلة مع المربي خليل السكاكيني، في ٢٩ آذار/ مارس ١٩١٤ م، قال: «إن الصهيونيين يريدون أن يمتلكوا فلسطين قلب الأقطار العربية و الحلقة الوسطى التي تربط شبه الجزيرة العربية بإفريقيا. و هكذا يبدو أنهم يريدون كسر الحلقة، و تقسيم الأمة العربية إلى جزئين للحيلولة دون توحيدها. فعلى الشعب أن يكون واعيا، إذ إنه يمتلك أرضا و لسانا.

و إذا شئت أن تقتل شعبا ما، فاقطع لسانه و احتل أرضه. و هذا بالضبط ما يعترزم الصهيونيون أن يفعلوه». في المقابل، فتحت صحيفة «المقطم» الباب أمام بعض الكتاب الصهيونيين للتعبير عن وجهة نظر حركتهم.

و نقل الزعماء السياسيون الفلسطينيون معارضة الشعب إلى البرلمان العثماني و الأوساط السياسية الدولية. فمبكرا، و منذ بداية

الاستيطان الصهيوني، عرض يوسف ضياء الخالدي، ممثل القدس في البرلمان العثماني (مجلس المبعوثان) الذي شكّل سنة ١٨٧٦ م، خطر الهجرة الصهيونية إلى فلسطين، و طالب المجلس اتخاذ قرار بإيقافها. و عاد وجهاء القدس (١٨٩١ م)، و قدموا عريضة إلى الصدر الأعظم يطالبون فيها بمنع هجرة يهود روسيا إلى فلسطين و امتلاك الأراضي فيها. و في سنة ١٨٩٧ م ترأس محمد طاهر الحسيني (مفتي القدس)، هيئة محلية للتدقيق في نقل ملكيات

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٤

الأراضي، لمنع الصفقات المزورة التي يعقدها المستوطنون، و الحؤول دون امتلاكهم أراضي زراعية جديدة. و في سنة ١٨٩٩، كتب يوسف ضياء الخالدي كتابا مطولا- إلى الحاخام الأكبر في فرنسا صادق كاهان، حثه فيه على إقناع صديقه هيرتسل، بالعدول عن المشروع الصهيوني، و ترك فلسطين و شأنها. و في البرلمان العثماني الجديد (١٩٠٨ م)، برز موقف المندوبين العرب الموحد من الصهيونية. و نشرت «المقتبس» كتابا مفتوحا لهم من عبد الله مخلص، محذرا من أخطار الصهيونية على الوطن العربي، و يحثهم فيه على طرح القضية في البرلمان، و اتخاذ قرارات حازمة ضد هجرة اليهود إلى فلسطين.

و عاد النواب العرب في مجلس المبعوثان (١٩١١ م) إلى طرح مسألة الصهيونية و موقف تركيا الفتاة المتعاطف معها. و أنكرت الحكومة تعاطفها، لكن المعارضة هاجمتها بشدة، و دعتها إلى اتخاذ مواقف أكثر حزما من نشاط المستوطنين في فلسطين. و قد شجع ذلك النواب العرب على إثارة الموضوع بقوة. و برز في مهاجمة المشروع الصهيوني نائب دمشق، شكري العسلي الذي شغل في السابق منصب قائم مقام الناصرة. و في أثناء خدمته في فلسطين، عرف العسلي بموقفه الحازم ضد بيع الأراضي للمستوطنين، و تصدى بقوة للصفقة التي عقدتها عائلة سرسق البيروتية مع ممثلي الحركة الصهيونية لبيع مساحات واسعة في وسط مرج ابن عامر، حيث أقيمت مستعمرة مرحافيا. و لكن وساطة سرسق لدى والي بيروت، أدت إلى نقل العسلي من موقعه، و تمرير الصفقة. و قد عمد العسلي إلى استخدام شتى الوسائل، القانونية و الإجرائية، لعرقلة بناء المستعمرة، بما في ذلك اعتبار تلك الأراضي «سلطانية»، لأنها تقع في جوار خط سكة الحديد الذي يمر هناك. و لكن محاولات العسلي جميعها باءت بالفشل إزاء فساد جهاز الدولة العثماني، و تدخل قناصل الدول الأجنبية، و جشع الملاكين الغائبين.

و كذلك كان موقف نائبى القدس، محمد روى الخالدي و سعيد الحسيني اللذين أكدا خطورة المشروع الصهيوني، ليس على فلسطين فحسب، بل على الدولة العثمانية بأكملها، كونه يهدد كيانها. و انتقد النائبان في مداخلاتهما سياسة الحكومة المتهاونة إزاء النشاط الصهيوني، و دعوا إلى تشديد القيود عليه. و أصبح الموقف من الصهيونية مسألة أساسية في البرامج الانتخابية للمرشحين إلى البرلمان، تجاوزا مع الرأى العام للسكان، من جهة، و تحت تأثير الصحافة، من جهة أخرى. و في انتخابات سنة ١٩١٤ م، تعهد سعيد الحسيني بمواصلة محاربة الصهيونية، و انتقد سياسة الحكومة المتغاضية عن النشاط الاستيطاني في فلسطين. و كذلك فعل راغب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٥

النشاشيبي، الذي دعا إلى وضع تشريع خاص، يرمى إلى منع بيع الأراضي للمستوطنين. كما هاجم الامتيازات الممنوحة للدول الأجنبية، و التي تغطي التفاف الحركة الصهيونية على القوانين السائدة في البلاد.

إلا إنه على الرغم من مقاومة الفلاحين و البدو العنيفة، و حملات الصحف التحريضية، و نشاط القوى السياسية، فقد استمر الاستيطان الصهيوني، بل تعزز عبر «الهجرة الثانية» (١٩٠٤-١٩١٤ م). و لم تحل القيود على الهجرة، و قوانين منع بيع الأراضي للمستوطنين، دون استمرار تلك الهجرة و شراء الأراضي. و قد تضافرت عدة عوامل لجعل ذلك ممكنا: فساد جهاز الدولة العثماني و تواطؤ العثمانيين الجدد مع الأهداف الصهيونية و نشاط قناصل الدول الأجنبية لمصلحتها و غيرها. و يبقى من أهم عوامل استمرار الاستيطان تمكّن الحركة الصهيونية من شراء الأراضي. و قد أدت طبيعة ملكية الأرض في البلاد دورا رئيسيا في ذلك. و بينما كانت الدولة تملك الجزء الأ-كبر من «الأرض الميرى»، فقد تركزت مساحات واسعة منها في أيدي ملاكين غائبين، وضعوا يدهم عليها عبر الالتزام، أو

الشراء بالمزاد العلني من الدولة التي صادرتها لعجز الفلاحين عن دفع الضرائب المستحقة عليها. و تفيد المصادر أن ما باعه الفلاحون في الفترة ١٩٠١-١٩١٤ م لا يتجاوز ٣،٤٪ من مجموع ما اشترته الحركة الصهيونية، و الباقي تم شراؤه من الدولة، أو من الملاكين الغائبين.

و كذلك، بغض النظر عن الحملات الصحافية، و النشاط السياسي المناهض لبيع الأراضي، و الدعوات المتكررة للملاكين إلى الكف عن عقد الصفقات العقارية مع الحركة الصهيونية، مباشرة أو مداورة، فقد استمر هذا البيع. و وجهت صحيفتا «الكرمل» و «فلسطين» انتقادات عنيفة إلى الملاكين الكبار، الذين يتظاهرون بالحرص على المصلحة الوطنية، و يتواطؤون مع السلطة العثمانية على بيع الأراضي، و جنى الأرباح الطائلة منه. و كان بعض العائلات، من سكان المدن، يملك مساحات واسعة من الأراضي في الريف، تم وضع اليد عليها بوسائل شتى. كما ساعدت قوانين الإصلاحات العثمانية المتعلقة بملكية الأراضي في تمركز مساحات كبيرة إضافية في أيدي تلك العائلات، إذ عمد الكثيرون من الفلاحين إلى تسجيل أراضيهم باسم تلك العائلات، تهربا من الضرائب و الجندية. و بسبب ديونهم، باع الفلاحون تلك الأراضي، أو صادرتها الدولة و باعها بالمزاد العلني، فاشترها التجار و الإقطاعيون و سمسرة العقارات، أو المؤسسات الأجنبية.

و قد رضخ بعض العائلات، ممن كانت الأرض بالنسبة إليها عبارة عن سلعة، و خصوصا أنها لم تكن تقيم عليها، لإغراءات العروض السخية التي قدمها إليها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٦

السمسرة العاملين لمصلحة الحركة الصهيونية. و يورد محمد روجي الخالدي في مخطوطة كتبه عن الصهيونية (١٩١١ م) أن البائعين كانوا من الملاكين الغائبين، و بعضهم من أسر لبنانية، أو فلسطينية من طبقة «الأفندية»، أو الحكومة العثمانية التي كانت تباع أراضي الفلاحين العاجزين عن دفع الضرائب بالمزاد العلني. و في الواقع، فإن ارتفاع أسعار الأراضي بصورة غير طبيعية، و بالتالي ازدهار السمسرة بالعقارات، شكلا حافزا للحكومة العثمانية على تشديد القيود على عمليات البيع، و تشكيل اللجان للتدقيق في نقل الملكيات، و الأخرى العاملة في أوساط الرأي العام للتحريض ضد تلك العمليات. و قد بلغت مساحة الأراضي التي اشترها الصندوق القومي اليهودي، عشية الحرب العالمية الأولى نحو ٧٠٠،٤٢٠ دونم، أقيم عليها ٤٧ مستعمرة في مناطق متعددة من فلسطين. و على الرغم من بروز «المسألة الصهيونية»، و بالتالي «القضية الفلسطينية» في «الحركة القومية العربية»، و خصوصا «الوطنية الفلسطينية»، قبل الحرب العالمية الأولى، فإن الأولوية في النشاط السياسي العربي كانت للعلاقة مع الدولة العثمانية، من جهة، و مع الدول الأوروبية و دورها في دعم الاستقلال العربي، من جهة أخرى.

في المقابل، ففي الفترة إياها، حسم الأمر داخل «الحركة الصهيونية» على اعتماد فلسطين قاعدة للمشروع الصهيوني، و رفض الأمكنة الأخرى البديلة. و بناء عليه، شكلت هذه المرحلة، و على هذا الأساس، بداية تمايز مضمون «الحركة الوطنية الفلسطينية» من «الحركة الأم» (القومية العربية)، لما تميز به ذلك المضمون من تركيز على الصهيونية. و قد وجهت صحيفتا «الكرمل» و «فلسطين» نقدا شديدا إلى المؤتمر العربي الأول (١٩١٣ م) في باريس، لأنه ركز مداولاته على مسألة الاستقلال الذاتي، و لم يول اهتماما كافيا للمسألة الصهيونية. هذا على الرغم من وحدة موقف القوى السياسية الفلسطينية من الصهيونية، و تعاطف القوى القومية العربية مع هذا الموقف، لكن القضية الملحة في المؤتمر كانت تتمحور حول مصير العلاقة بين الأمة العربية و الدولة العثمانية، الأمر الذي حسمته الحرب العالمية الأولى.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٧

باللغة العربية

– «الموسوعة الفلسطينية»، القسم العام. ٤ مجلدات. دمشق، ١٩٨٤.
 --، القسم الثاني (الدراسات الخاصة). ٦ مجلدات. بيروت، ١٩٩٠.

باللغات الأجنبية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٠٩

الفصل السادس الصراع بشأن فلسطين

أولاً: بداية الاستيطان الصهيوني

إشارة

«الصهيونية» اسم لحركة سياسية انتشرت بين يهود أوروبا في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي، و تبلورت من فكرة مجردة إلى مشروع عمل استيطاني في فلسطين، يرمي إلى إقامة كيان سياسي لليهود فيها. و اللفظ مشتق من كلمة «تسيون» العبرية، و هي اسم لجبل يقع جنوبي غربي القدس (جبل صهيون)، يحج إليه اليهود لاعتقادهم أن الملك داود دفن هناك. و في التراث الديني اليهودي أن «يهوى» يسكن هناك (مزامير ٩/ ١١)، إذ يرد القول «رثموا للرب الساكن في صهيون». و بمرور الزمن صار الاسم يستعمل مجازاً للدلالة على القدس، و اتسع ليشمل «الأرض المقدسة» (فلسطين) كلها، بل اليهود عامة. و في العصر الحديث، طرحه كمصطلح ذي مضمون سياسي الصحافي اليهودي النمساوي الأصل، ناثان بيرنباوم (١٨٦٣ – ١٩٣٧ م)، ليصف به الحركة السياسية الداعية إلى تهجير يهود العالم إلى فلسطين، و توطينهم هناك، بناء على الدعوى بالحق التاريخي لهم فيها، و بالتالي الحق في إقامة كيان سياسي يهودي عليها. و في المنظور اليهودي للتاريخ، و بالتالي لعلاقة الله بالكون و شعوبه، تبرز فكرة «شعب الله المختار» (اليهود)، الذي اصطفاه الله من بين شعوب الأرض الأخرى، ليحمل رسالته متميزة، و سمات خاصة (عنصرية)، تفضله عنها. و هذا «الاختيار الإلهي» يفضي على اليهود نعمة من القدسية ليست لغيرهم، و بناء عليه، فهم بهذا التخصيص «نور الشعوب»، يفوقونها كما يتميزون عنها. و ورد في التوراة (سفر التثنية ١٤/ ٢): «لأنك شعب مقدس للرب إلهك. و قد اختارك الرب لكي تكون له شعباً خاصاً فوق جميع الشعوب الذين على وجه الأرض». و في المنظور الطوباوي إياه، يرتبط اختيار «الشعب» باختيار «الأرض»، إذ إن للشعب المختار أرضه المختارة، و بالتالي المقدسة. و لأن الجمع بين هذا الشعب و الأرض هو إرادة إلهية، فقد أصبحت «أرض إسرائيل» (فلسطين) هي «أرض الميعاد»، التي وعد إله إسرائيل إبراهيم بها، و عاهده أن تكون لنسله من بعده، كما أنها «أرض الميعاد» التي سيعود

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٠

إليها «أبناء إسرائيل» تحت راية «المسيح» في «آخر الأيام». و بناء عليه، و على اعتبار أن التاريخ من صنع البشر، فإن هذه المقولات الطوباوية لا تمت إليه بصلة.

و في القرن التاسع عشر، تضافرت عوامل ذاتية في التجمعات اليهودية الأوروبية، على قاعدة «المسألة اليهودية»، و عوامل أوروبية عامة، في إطار «المسألة الشرقية» لتحرك «الفكرة الصهيونية»، و تنتقل بها من المجرى إلى الملموس في «المشروع الصهيوني» العملي. و قد تبلورت الفكرة الصهيونية في حاضنة «الأفكار الاسترجاعية»، التي انتشرت في المناخ الحضاري الأوروبي منذ القرن السادس عشر الميلادي، و ترعرعت في الأجواء السياسية التي سادت أوروبا خلال القرن التاسع عشر – أجواء الإمبريالية – و خصوصاً بعد سنة ١٨٧٠

م. و الصهيونية صاغت منطلقاتها الفكرية، و كذلك سبل و وسائل تجسيد مشروعها العملي، مستغلة الأزمات الناجمة عن المسألتين- اليهودية و الإمبريالية. ففي الشق اليهودي، وظفت الفكر الاسترجاعي، بطابعه اليهودي الغيبي، لتطرح نفسها الوسيلة لإخراج اليهود من أزمته المتفاقمة داخل المجتمعات الأوروبية. أما في الشق الإمبريالي، فقد طرحت نفسها سيلا إلى تذليل العقبات الناجمة عن الهدف الإمبريالي في تطويع شعوب المنطقة العربية لإملاءاته، عبر إقامة مشروع استيطاني، يشكل مركزا إقليميا مناهضا لحركة شعوب المنطقة في مواجهة الغزو الإمبريالي.

ففي الجوهر، الصهيونية حركة أوروبية الجذور، فكرا و ممارسه، إذ نشأت و ترعرعت في أجواء القوميات الأوروبية في القرن التاسع عشر. و في الظاهر، غطت مقولاتها بخطاب ديني يهودي استرجاعي. و لأنها حركة مفتعلة و مفبركة، كان لا بد من التمويه على الجوهر فيها، بمزاعم و مقولات زائفة، سواء لناحية المضمون في الفكرة السياسية- «الدولة القومية تحل المسألة القومية»- أو لناحية تجسيدها في الواقع عبر الاستعمار الاستيطاني، الذي سبقها إليه الدول الأوروبية في بقاع متعددة من العالم.

و قد تقدمت الصهيونية بمشروعها على قاعدة الاسترجاع، من منطلق أسطورة «شعب الله المختار»، و «أرض الميعاد»، و «عودة الشعب المختار إلى وطنه». أما في الممارسة العملية، فكان لا بد لحركة من هذا النمط أن تعتمد أسلوب «التأمر» السياسي و الدبلوماسي، و استغلال التناقض بين القوى، لتمرير مشروعها، ذي الطبيعة المزدوجة- اليهودية و الإمبريالية.

و في تقليدها للحركات القومية الأوروبية، برزت الصهيونية كظاهرة مصطنعة، إذ لم تتوفر لديها الشروط المسبقة، أو المقومات الكيانية، للدعاء بأنها «حركة قومية»، تسعى لإقامة «دولة قومية»، و تحقيق السيادة السياسية فيها، أسوة بالقوميات الأخرى.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١١

و الدعوى الصهيونية بوجود «قومية يهودية» هي ضرب من البدعة، لأنها بانطلاقها كانت تنقصها أهم مقومات الحركة القومية- الشعب الموحد و الأرض المحددة. فاليهود المنتشرون في جميع أنحاء العالم، لم تكن بينهم من روابط إلا العقيدة الدينية، مع وجود «مذاهب» متعددة بينهم. و في مسار معاكس تماما لنشوء الدول القومية، تحركت الصهيونية من «إعلان السيادة»، و راحت تبحث عن «شعب» تسبغ عليه صفة «الأمة»، و من ثم عن رقعة أرض، تجمع فيها بين الشعب و السيادة. و بهذا تكون الفكرة قد تبلورت خارج الشعب و الأرض، و لم تكن تعبيرا عن تطلعات ذلك «الشعب»، و لا تجسيدا لإرادته القائمة على وعيه لذاته كوحدة ذات خصوصية، و على أرض محددة، يريد السيادة عليها أسوة بغيره من الشعوب.

و كان طبيعيا أن تعمد حركة من هذا النمط المفتعل، تدعى الرابطة القومية بين تجمعات دينية مبعثرة في بقاع العالم كلها، و الحق التاريخي على أرض آهلة بسكانها الأصليين، إلى اختلاق المزاعم، و تشويه التاريخ و الجغرافيا التاريخية في خطابها السياسي. أما على صعيد التخطيط و التنفيذ، فكان لا بد من أن تعتمد التأمر و الدسائس، و بالتالي العنف الفاشي لتحقيق أهدافها. فالتجمعات اليهودية التي انتشرت في أنحاء العالم كلها، لم يكن يجمعها ناظم اجتماعي، أو اقتصادي، أو لغوي، أو تاريخي. و المسألة اليهودية، التي تذرعت بها الصهيونية، هي قضية اجتماعية أوروبية، و بالتالي فحلها الصحيح هو في ذلك الإطار. و الدعوى بعدم إمكان اندماج اليهود في مجتمعاتهم الأصلية، و بغض النظر عن دواعي هذه الظاهرة، و عن مقدار صحة تحليل أسبابها بالمنظور الصهيوني، فهي تقود إلى البحث في الأوضاع التي أدت إليها، و معالجتها في الواقع الذي أفرزها كظاهرة نائية في علاقة التجمعات اليهودية بمحيطها.

و لأن الصهيونية لم تتبلور في صفوف كتلة موحدة من اليهود، مجتمعة في رقعة جغرافية محددة و تسودها أوضاع اجتماعية-اقتصادية متشابهة، أو متكاملة، فقد أدت النخب اليهودية المندمجة فعليا في النظام الرأسمالي الإمبريالي، دور «المبشر» بهذه الحركة، و أولا و قبل كل شيء في أوساط اليهود أنفسهم، الذين كانوا الأشد معارضة للأفكار الصهيونية، و لمشاريع الاستيطان التي تنطوي عليها. و لم تكن تلك الأفكار، و لا النخب التي تصوغها و تروجها، تعبر بصورة حقيقية عن الاتجاهات السائدة في أوساط التجمعات اليهودية، التي كانت لكل منها أوضاعها و مشكلاتها و تطلعاتها و نشاطاتها. و طرحت تلك النخب نفسها وسيطا بين الفئات السائدة في المراكز

الإمبريالية، و بين التجمعات اليهودية فيها، التي كانت تعاني أزمة داخلية، على صعيد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٢

العلاقات بين التيارات المتعددة فيها، و خارجية، على صعيد العلاقات مع الفئات الرأسمالية السائدة. و انتهزت تلك النخب الأوضاع المتوترة بين اليهود و محيطهم، لتطرح نفسها وسيطا، يعمل على حل المشكلات المتفاقمة بين الجانبين، عبر تجنيد اليهود و تهجيرهم و توطينهم في مواقع تخدم مصالح الفئات الرأسمالية السائدة.

و بالتالي تخفف من حدة التوتر القائم بين الطرفين، من جهة، و تبرر وجودها هي، من جهة أخرى.

و مهما يكن الأمر، فإن جملة المزاعم الصهيونية بشأن القومية اليهودية و الحق التاريخي في فلسطين، و الدعوى الاسترجاعية في الأجواء الثقافية الأوروبية، و المسألة اليهودية و مجمل عناصرها وردات الفعل عليها، ما كان لها أن تشكل ظاهرة قابلة للحياة خارج إيقاعات المسألة الشرقية، و الصراع الإمبريالي بشأن المنطقة.

و الإنجازات العملية التي حققتها الصهيونية، لا يمكن أن تعزى إلى الفعل اليهودي الذاتي، انطلاقا من الطروحات المزيفة للتاريخ، و لا إلى المزاعم الصهيونية و الدعوى الاسترجاعية، و لا إلى التنظيم الداخلي، فحسب، بل إلى الديناميات الحقيقية لتاريخ أوروبا في القرن التاسع عشر، أولا و قبل كل شيء. و من هنا تبرز أهمية دراسة عناصر الفكرة الصهيونية، و كيف تمت بلورتها، و من هي القوى صاحبة المصلحة في ترويجها و العمل على تجسيدها، من أجل فهم شمولي للظاهرة الصهيونية. و على هذا الصعيد، تبرز المراكز الإمبريالية و مخططاتها و التنافس بينها بشأن اقتسام أراضي السلطنة العثمانية، و كذلك دور النخب اليهودية المندمجة في نسيج الفئات السائدة في تلك المراكز.

و إذا كانت منطلقات الفكرة الصهيونية- إقامة كيان سياسي يهودي عبر الهجرة و الاستيطان- لا يستقيم فهمها بمعزل عن محيطها الأوروبي، فإن التجسيد العملي للمشروع الصهيوني لا تتضح معالمه من دون الربط الجدلي بين بنائه و نشاط مؤسساته، و كذلك بين بروزه و الظواهر السياسية التي واكبت ذلك، زمانا و مكانا. و بناء عليه، فلا بدّ من الربط الجدلي بين الظواهر الرئيسية التي حكمت تاريخ الشرق الأدنى خلال القرن الأخير لفهم شمولي للمشروع الصهيوني. و عبر هذا الربط يمكن استنباط العلاقة الجدلية بين تلك الظواهر، و بالتالي تحديد دور الإمبريالية الأوروبية، و البريطانية منها تحديدا، في صوغ المشروع الصهيوني، فكريا و ممارسًا. و بناء عليه، يمكن فهم الدور المنوط بالمشروع الصهيوني في المنطقة، على أرضية التطورات الجارية فيها. و إذ لا شك في أن العامل اليهودي كان ذا أهمية في تشكل الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية في فلسطين، فإن العامل الإمبريالي يبقى هو الحاسم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٣

في تقرير مجرى الأحداث، أي العامل القائد في جدل العلاقة بين أطراف الصراع الذي نشب في فلسطين جزاء المشروع الصهيوني. و بإلقاء النظر إلى مسار الأحداث في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، و بصورة خاصة في نهايته، تبرز أربع ظواهر متفاعلة و متشابكة. و تفاعل هذه الظواهر في عملية صراعية، أنتج الوضع القائم في المنطقة عبر تجليات سيرورة الصراع.

فعلى الصعيد الاستراتيجي الأعلى، احتدم التناقض بين ظاهرتين تشكلتا عبر فترة زمنية طويلة، و راحتا تقتربان من حسم هذا التناقض بصورة جذرية، و هما: (١) انحلال السلطنة العثمانية- آخر الإمبراطوريات الإسلامية من القرون الوسطى- و أثر ذلك في الأراضي الواقعة تحت حكمها، فعلا أو ظاهرا، و على مصير الشعوب المنضوية في إطارها، رغبة أو قسرا؛ (٢) تكالب الاستعمار الأوروبي على تقسيم أراضي السلطنة، بعد أن ظلت قواه لفترة طويلة تعمل على تكريس نفوذها في تلك الأراضي، عبر الامتيازات أولا، و من خلال التدخل المباشر و الفظّ لاحقا. ففي نهاية القرن التاسع عشر تفاقمت أزمة الرأسمالية الأوروبية، و معها راحت تتصاعد محاولات المراكز الإمبريالية لتصدير أزمتهما إلى الخارج، فاصطدمت هذه المحاولات على أرضية تناقض المصالح، و أدت إلى الحرب العالمية الأولى و انحلال السلطنة العثمانية.

و على أرضية الظاهرتين السابقتين، و ليس بمعزل عنهما، بل بالتراط و التواكب مع تجليات مسار حسم التناقض بينهما، برزت ظاهرتان أخريان، دخلتا بطبيعة الحال في تناقض تناحري بينهما، لتنفى إحداهما الأخرى، و هما: (١) ظهور الحركة القومية العربية، على خلفية انحلال السلطنة العثمانية، من جهة، و تبلور الوعي الذاتي العربي لخصوصية الأمة العربية، و بالتالي ضرورة التعبير عن هذه الخصوصية في دولة قومية موحدة، من جهة أخرى؛ (٢) بروز الحركة الصهيونية السياسية، ساعية لإقامة دولة يهودية في قلب الوطن العربي، و بالتعاون مع الدول الاستعمارية، و بالتالي من خلال المشروع الإمبريالي العام إزاء المنطقة. و في هذا الإطار يبرز الدور الصهيوني الذي أوكلت إليه من خلال مشروعه، و لاحقاً عبر كيانه السياسي، مهمة المساهمة في التصدي للحركة القومية العربية، و العمل على ضربها و إحباط نضالها من أجل الاستقلال و الوحدة، و ذلك عن طريق بناء الكيان الصهيوني الاستيطاني كقاعدة عدوانية، همها سواء بالتدخل المباشر أو المداور، الحؤول دون تحقيق الحركة القومية العربية لأهدافها، و بناء عليه، ترسيخ واقع التفتت و التبعية في العالم العربي.

إن الربط بين هذه الظواهر الأربع، أخذاً في الاعتبار مجمل المتغيرات في تلك المرحلة على ساحة الوطن العربي، سواء نتيجة التطورات الداخلية فيه، أو المؤثرات

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٤

الخارجية عليه، يؤدي إلى الاستنتاج أن الفكرة القائمة وراء إنشاء الكيان الصهيوني في قلب الوطن العربي، هي أن يشكل مركزاً إقليمياً مضاداً للحركة القومية العربية، يتخذ شكل «الثكنة» الاستيطانية، و يكون قاعدة متقدمة لخدمة المصالح الإمبريالية في مواجهة حركة شعوب المنطقة. و بذلك تكون «القاعدة» الاستيطانية الصهيونية مكتملة في دورها الوظيفي للمهمات التي أنيطت بالقواعد العسكرية، متعددة الأنواع و الصيغ، التي أقيمت على امتداد الوطن العربي، و على طول الطرق المؤدية إليه. و هذا الدور الوظيفي للمشروع الصهيوني هو مبرر وجوده، على الأقل من وجهة نظر المراكز الإمبريالية التي رعته، و جعلت تجسيده واقعا على الأرض ممكناً، و بالتالي فهو الأساس في صوغ هذا المشروع و كينونته.

و إذا كان هذا هو الجوهر في المشروع الصهيوني، فمن الطبيعي أن يكون مجال نشاطه في أدائه لدوره الوظيفي خارج حدود استيطانه. فالثكنة، التي هي امتداد للمركز، ترمى إلى إقامة قاعدة آمنة لآلة عسكرية، يكون دورها العدواني في محيطها.

و الحركة القومية العربية، النقيض الأساسي للمشروع الإمبريالي في المنطقة، و بناء عليه، المستهدفة للضرب و التطويق، لم يكن مركزها في فلسطين، و إنما في العواصم العربية الكبيرة. و من هنا، فالتصدي لها لا يتم داخل الرقعة الاستيطانية، و لا عند حدودها فحسب، بل يتعدى ذلك إلى تلك العواصم ذاتها، حيث يجري التعبير عن حركة الجماهير المكافحة من أجل أهدافها القومية. و بناء عليه، يكون دور «الثكنة» (المركز الإقليمي المضاد)، و بصور متعددة: أيديولوجية و اقتصادية و سياسية و عسكرية، المساهمة في عملية التحكم في المسارات السياسية في تلك العواصم. و من هنا، يبرز المبرر الأساسي لإقامة المشروع الصهيوني، و جعل فلسطين قاعدة آمنة له بالاستيطان، و بالتالي تهويد فلسطين - الأرض و الشعب و السوق - هو قيام هذا المشروع بدور في التصدي للحركة القومية العربية و إحباط نضالها ضد الاستعمار و مصالحه في المنطقة.

و في إطار المسألة الشرقية، كانت المراكز الإمبريالية تعي أن مشاريعها تصطدم بالمصالح الحيوية للأمة العربية. و بناء عليه، كان لا بد من أن تبرمج عملها، و تضع خططها، و تبنى أدواتها اللازمة، لإحباط نضال الحركة القومية العربية، المعبرة عن مصالح جماهير الأمة في الاستقلال و الوحدة و التقدم الاجتماعي. و من هنا، رعت تلك المراكز، و كل منها في حينه، المشروع الصهيوني بعناية، ليشكل القاعدة المتقدمة في عملية التصدي لنضال الحركة القومية العربية، و إحباطه. و لو لا هذه الرعاية، لما قام المشروع الصهيوني، بل لعله ما كان تبلور كفكرة أصلاً، إذ لا يمكن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٥

قط تصور إمكان نجاح هذا المشروع بالاعتماد على القوة اليهودية الذاتية. و من هنا، الصلة التاريخية بين المشروعين - الصهيوني و الإمبريالي - في المنطقه. في المقابل، و بغض النظر عن رغبات المراكز الإمبريالية، و كذلك دور النخب اليهودية المنخرطة في مؤسساتها في بلورة الفكرة الصهيونية و ترويجها، و المشروع الاستيطاني الناجم عنها، فإنه لو لا أن تهيأت أوضاع التجمعات اليهودية في أوروبا لتقبل الفكرة، و للانخراط في المشروع عبر الهجرة و الاستيطان على أساس القاعدة المطروحة، لما نهض المشروع الصهيوني بالطريقة التي حدثت.

و هكذا، و منذ البداية، كان للعمل الصهيوني في أساسه شقّان. الأول يهودي، يقوم على قاعدة المسألة اليهودية كما استوعبتها النخب اليهودية، و صاغت مقولاتها، و راحت تبشر بها، و تجند اليهود للانضواء تحت لوائها، بقيادة تلك النخب ذاتها. و بذلك، شكلت تلك النخب الوسيط بين التجمعات اليهودية، التي تعيش حالة من التوتر و الحراك الاجتماعي و الجدل الفكري - الثقافي، و بين المراكز الإمبريالية، التي تعاني أزمة التناقضات الرأسمالية. و بدور الوسيط، طرحت النخب اليهودية المتصهينة حلولاً للأوضاع المتوترة التي تعيشها التجمعات اليهودية، انطلاقاً من مقولات الفكر الأوروبي السائد في القرن التاسع عشر، و قدمتها لتلك التجمعات بلبوس يهودي، يحمل طابعا دينيا أسطوريا، و تهيمن عليه نزعة استرجاعية فريدة في نوعها. و على هذا الصعيد، جرى تفسير المسألة اليهودية بمصطلحات قومية، و طرح الحل لها من منطلقات قومية أيضاً، يذهب إلى إقامة دولة يهودية، يتم بناؤها بالاستيطان. فالوعي الصهيوني الزائف للمسألة اليهودية، أدى بالضرورة إلى طرح الحل المزيف لها، قياساً مع مقولة أن «الدولة القومية تحل المسألة القومية» و لكن اليهودية ليست قومية، و بناء عليه، فالمسألة اليهودية ليست مسألة قومية، و بالتالي فالحركة الصهيونية ليست حركة تحرر وطني كما تدعى لنفسها.

أمّا الشق الثاني للعمل الصهيوني فهو الإمبريالي، المنطلق من قاعدة الأطماع الإمبريالية في ثروات الوطن العربي و أسواقه التجارية و مرافقه الاستراتيجية. و هذا الشق هو الذي يمد الآخر - اليهودي - بوسائل الحياة. و في الواقع، فإن الدعوات المبكرة إلى إقامة المشروع الصهيوني في فلسطين، التي أطلقها ساسة أوروبيون، سبقت تبلور الفكرة الصهيونية عند اليهود أنفسهم. و تفيد المصادر و الوثائق أن استجابة اليهود لهذه الدعوات كانت فاترة جداً في النصف الأول من القرن التاسع عشر. أمّا في النصف الثاني منه، عندما راحت المسألة اليهودية تتفاقم في شرق أوروبا، و راح الفكر الإمبريالي ينتشر، بدأ بعض المفكرين اليهود يتقبلون الفكرة بإيجابية أعلى. و تبع الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٦

هؤلاء المفكرين رجال السياسة اليهود، ممن كانوا منخرطين في مؤسسات الدولة و العمل في مرافقها، و ممن رأوا في هذه الأفكار حلاً للمسألة اليهودية، و بالتالي إخراجاً لهم من الإحراج الاجتماعي، بسبب أصولهم اليهودية، و فرصة يقدمون فيها خدماتهم «اليهودية» للمؤسسة الحاكمة في بلادهم، تبريراً لمواقعهم فيها إزاء أترابهم من غير اليهود، و خصوصاً أنهم، بسبب يهوديتهم، لم يتمتعوا في نظر هؤلاء الأتراب باحترام كبير.

و بصمات الاستعمار واضحة في المشروع الصهيوني، و عبر مراحل المتعددة، سواء لناحية الفكر أو الممارسة. و النخب اليهودية الصهيونية في تقديمها هذا المشروع إلى التجمعات اليهودية أسبغت عليه حلة يهودية، ليصبح مستساغاً لسكانها. و نظراً إلى افتقار هذا المشروع إلى قاعدة شعبية في تلك التجمعات، فقد استندت النخب الصهيونية في نشاطها إلى دعم بؤر محددة في المراكز الإمبريالية، و تنقلت بين تلك المراكز، تعرض عليها الخدمات، عبر توطين اليهود المهجرين من مواطنهم الأصلية في المواقع التي تخدم مصالح المركز المعنى. و عندما نالت تلك النخب الموافقة الرسمية على خططها، توجهت إلى الجماعات اليهودية لتجنيدتها في خدمة المشروع الصهيوني، بحيث تكون عملياً مادته. و بذلك طال تأمر تلك النخب الجماعات اليهودية قبل أن يصل إلى غيرها. و حتى بعد أن تولت قيادة العمل الصهيوني، ظلت مشكلتها الرئيسية مع اليهود أنفسهم لفترة طويلة، و لذلك لم تتورع تلك النخب عن اللجوء إلى الأساليب الملتوية لإكراههم على الهجرة إلى فلسطين تحديداً، و الاستيطان فيها وفق البرنامج الصهيوني - الإمبريالي.

وبعد أخذ ورد، التقى الشريكان- الصهيونية العالمية والاستعمار- و كل منهما لأسبابه الخاصة و من زاوية نظره إلى المشروع المشترك، على اختيار فلسطين قاعدة للاستيطان الاستعماري. فبالنسبة إلى الشريك الأصغر- الحركة الصهيونية- كان للتراث اليهودي وعلاقته بفلسطين الأثر الحاسم في تحديد الرقعة الجغرافية التي سيقوم عليها الاستيطان (الثكنة)، بينما أدى موقع فلسطين الاستراتيجي، و خصوصا بعد العبر المستخلصة من حملتي نابليون و محمد علي، و حفر قناة السويس، دورا حاسما في ذلك الاختيار. و بينما أرادها الشريك الأصغر و الأضعف لبناء دولته اليهودية، بحيث تكون باليهود و منهم و إليهم، أرادها الشريك الأكبر و الأقوى قاعدة للعدوان على الأمة العربية. و لكي تكون قاعدة ملائمة للمشروع الصهيوني، كان لا بد من إجلاء سكانها الأصليين و تهويدها- أرضا و شعبا و سوقا. و بذلك يتباين الاستيطان الصهيوني عن أترابه في روديسيا و جنوب إفريقيا، كونه إجلائيا، لا يرمى إلى استغلال الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٧

رقعة الأرض التي يقوم عليها اقتصاديا، بما في ذلك سكانها الأصليين، و إنما إلى انتزاع رقعة الأرض تلك من يد أصحابها الشرعيين و اقتلاعهم منها، لاستخدامها للأغراض التي من أجلها وجد المشروع الصهيوني.

و للمشروع الصهيوني كما جرى تصوره منذ انطلاقه أبعاد ثلاثة- فلسطيني و عربي و دولي. أما البعد الفلسطيني فهو المتعلق ببناء «القاعدة الآمنة» للمشروع، سواء للاستيطان أو لآلة العدوان، في فلسطين، قلب الوطن العربي، و الواقعة على تقاطع طرق المواصلات العالمية، و لما لها من علاقة بالتراث اليهودي القديم. و بناء عليه، فإذا كان لهذه القاعدة أن تقوم و تؤدي مهمتها، فلا بد من تهويد فلسطين- الأرض و الشعب و السوق. و هذا يعنى اقتلاع شعب فلسطين من وطنه، و قطع صلته التاريخية بأرضه. أما البعد الثاني فهو العربي، المتعلق بصلب المشروع الإمبريالي العام إزاء المنطقة و الهيمنة على شعوبها و السيطرة على مواردها، و دور «الثكنة الاستيطانية» في ذلك. و البعد الدولي هو المتعلق بالصلة التاريخية بين الصهيونية العالمية و الاستعمار الدولي، إذ نشأت الأولى في حاضنة الثاني، و ظلت مرتبطة عضويا به، و لا فكاك لها منه، و بالتالي تسخيرها في خدمته على الصعيدين- الشرق الأوسطي و الكوني.

و تؤكد المصادر التاريخية أن منظري الإمبريالية و قادة مشاريعها، السياسيين و العسكريين، قد سبقوا النخب اليهودية في طرح المشروع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. و لعل أول الصهيونيين في العصر الحديث هو نابليون بونابرت، الذي قام بحملته على مصر و فلسطين في إطار الصراع بين فرنسا و بريطانيا بشأن التوسع الإمبريالي. و في ٢٠ نيسان/ أبريل ١٧٩٩ م، وجه نابليون نداء إلى يهود آسيا و إفريقيا كلهم، يحثهم فيه على السير وراء القيادة الفرنسية، «حتى تتسنى استعادة العظمة الأصلية لبيت المقدس». و وعد بأنه سيعيد اليهود إلى «الأرض المقدسة»، إذا ساعدوا قواته على إنجاز مهمتها. و في سنة ١٨٦٠ م، و التدخل الاستعماري الغربي في بلاد الشام على أشده، طرح إرنست لاهاران، سكرتير نابليون الثالث، ملك فرنسا، ضرورة «إعادة الدولة اليهودية إلى الحياة»، لفتح طرق عامة، و أخرى فرعية، أمام الحضارة الأوروبية، و أسواق جديدة أمام منتوجاتها الصناعية.

و كانت بريطانيا هي الأخرى مرتعا للأفكار الاسترجاعية، و بالتالي ل طرح الدعوات الرامية إلى توطين يهود أوروبا في فلسطين، لما يوفره ذلك من حماية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٨

لخطوط المواصلات الحيوية بين أجزاء إمبراطوريتها. فمبكرا طرح الكولونيل جورج غاولر (١٧٩٦- ١٨٦٩ م) توطين اليهود في فلسطين، التي بحسب أقواله تقع على الطريق بين بريطانيا و أهم المناطق الاستعمارية و التجارية الخارجية لها. و قبل ظهور الصهيونية بين اليهود بفترة طويلة، طرح وزير خارجية بريطانيا، اللورد بالمرستون (١٧٨٤- ١٨٦٥ م)، استخدام اليهود مخب قط لقمع العرب. ففي رسالة بعث بها إلى سفير بلاده في إستنبول (١١ آب/ أغسطس ١٨٤٠ م)، يقول إنه إذا عاد أفراد الشعب اليهودي إلى فلسطين، تحت حماية السلطان العثماني، و بناء على دعوة منه، فإنهم سيقومون بكبح جماح أية مخططات شريرة قد يدبرها محمد علي، أو من سيخلفه بالمستقبل. و بذلك، كان بالمرستون يعبر عن الدور الوظيفي الذي تريده بريطانيا للاستيطان الصهيوني في فلسطين. و قد عبر عن هذا

التوجه كثيرون عدا بالمرستون، و خصوصا من موظفي وزارة المستعمرات و الساسة الكبار في وزارة الخارجية.

الهجرة الصهيونية الأولى

في هذه الأجيال الاستعمارية، الفكرية و السياسية، و بعد فترة من الدعوات إلى توطين اليهود في فلسطين، جاءت على العموم من خارج صفوفهم، و توخت توظيفهم في خدمة المصالح الإمبريالية، بدأت تبرز دعوات يهودية فردية إلى اعتناق الصهيونية، عقيدة و ممارسة. و قد تزعم هذه الدعوات بعض المفكرين اليهود العلمانيين و الحاخامين الإصلاحيين، انطلاقا من البحث عن حل للمسألة اليهودية، التي راحت تتفاقم في المناخات الأوروبية السائدة، و ما تنطوى عليه من تناقضات في مرحلة الانتقال من الرأسمالية إلى الإمبريالية. و قد سبقت هذه الدعوات الصهيونية اليهودية حركة الاستيطان العملي، حتى في مراحلها الأولى، إذ لم تكن قد تبلورت كحركة سياسية واضحة المعالم. ففي هذه الفترة بدأ الحاخام يهودا ألقلي (١٧٩٨-١٨٧٨ م)، المولود في سارايفو، يدعو إلى إقامة مستعمرات يهودية في فلسطين «من دون انتظار مجيء المسيح.» و وضع ما سَمَّاه «برنامج الخلاص الذاتي»، الذي ينطلق من فكرة قيام اليهود أنفسهم بتحقيق العودة الجماعية إلى فلسطين. لكن دعوات ألقلي لم تحقق نتائج ملموسة و مباشرة.

كما أصدر الحاخام البولوني تسفى هيرش كاليشر (١٧٩٥-١٨٧٤ م) كتابه «مطلب صهيون» (دريشات تسيون)، و هو أول كتاب باللغة العبرية في العصر الحديث (١٨٦٢ م). و دعا فيه المحسنين و الممولين اليهود إلى تقديم المساعدات المادية الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣١٩

لإنشاء المستعمرات الزراعية في فلسطين. و بادر كاليشر إلى النشاط العملي في تجسيد أفكاره. فخاطب عميد الأثرياء اليهود في العالم آنذاك، روتشيلد، في برلين، ليشرح له نظريته الجديدة عن خلاص اليهود من دون انتظار مجيء المسيح. و قام برحلات متعددة في أوروبا، يحث فيها اليهود على شراء الأراضي في فلسطين و الاستيطان هناك. و قد نجح في إقناع بعضهم، ممن اشترى مساحات صغيرة في ضواحي مدينة يافا (١٨٦٦ م). كما دفع جمعية الأليانس الإسرائيلية العالمية، التي تأسست في فرنسا (١٨٦٠ م)، إلى إقامة المدرسة الزراعية- مكفى إسرائيل (١٨٧٠ م)- بالقرب من يافا، و هي أول معهد زراعي يهودي في فلسطين. و قد تأثر بكتاباته المستوطنون من الهجرة الجماعية الأولى إلى فلسطين- «أحباء صهيون» (حوفى تسيون).

و تبنى المفكر اليهودي الألماني، موزس هس (١٨١٢-١٨٧٥ م)، أفكار الحاخام كاليشر و طورها إلى «نظرية قومية يهودية، تقوم على الدين و العرق، أى على الجنس اليهودي»، و ذلك في كتابه «روما و القدس»، الذي نشر سنة ١٨٦٢ م. و ربط هس بين منظوره لهذه القومية المبتدعة، و بين الأفكار الراجحة في المراكز الأوروبية الإمبريالية، و خصوصا في فرنسا. و طعم خطابه بالألفاظ الاشتراكية العمالية، التي اكتسبها من صداقته مع كارل ماركس. و لكن هس انقلب على الأفكار الإصلاحية اليهودية، و هاجم أصحابها بوصفه إياهم ضحية الأوهام العقلانية و الخيرية التي اعتمدها في البحث و التفكير. و لذلك يرى أنهم أخفقوا في إدراك المغزى القومى للديانة اليهودية، و خصوصا لأنهم أرادوا الفصل بين عنصرها- السياسي و الدينى- فحاولوا في رأيه تحقيق المحال. و رأى هس أن الوضع العالمى يشجع الانصراف إلى بناء المستعمرات اليهودية، عند قناة السويس، و على ضفتى الأردن، إذ تأتي هذه المستعمرات كخطوة أولى على طريق استرجاع الدولة اليهودية. و أفكار هس هذه أثرت في تيودور هيرتسل (١٨٦٠-١٩٠٤ م)، مؤسس الصهيونية السياسية، و الذى صاغ مضمونها، و وضع أسس هيكلتها، و بالتالى تجسيدها.

و في بداية الثمانينات من القرن التاسع عشر، حدث الانعطاف الحاسم في العمل الصهيونى، إذ بدأت هجرة المستوطنين اليهود الجماعية إلى فلسطين، و راحت أعدادها تتزايد، و موجاتها تتوالى، قبل قيام إسرائيل (١٩٤٨ م) و بعده. و عرفت الموجة الأولى (١٨٨٢ - ١٩٠٣ م) باسم «أحباء صهيون»، و انطلقت بين يهود روسيا، و من ثم انتشرت في دول أوروبا الشرقية. و يعتبر مؤرخو الصهيونية سنة ١٨٨٢ م نقطة تحوّل في تاريخ الصهيونية، إذ تضافرت عوامل عدة لحفز هذه الحركة، أهمها موجة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٠

الاضطرابات التي حركها اغتيال القيصر الليبرالي، ألكسندر الثاني، على يد نفر من القوميين الروس في آذار/ مارس ١٨٨١ م، الأمر الذي نجم عنه اندلاع أعمال العنف و الاضطهاد ضد اليهود في المدن الروسية، لاتهامهم بالمشاركة في عملية اغتيال القيصر، و استمرت حتى سنة ١٨٨٣ م. و قد لبث النزعات المعادية لليهود في روسيا، لأسباب اجتماعية-اقتصادية كانت تعاني منها روسيا في تلك المرحلة، أعمال التنكيل بهم، وصولاً إلى حصر أماكن إقامتهم و فرض القيود عليها. و موجة الاضطهاد هذه حفزت النزعات الصهيونية لدى يهود روسيا، و دفعتهم إلى الهجرة و الاستيطان في فلسطين، من جهة، و إلى الولايات المتحدة من جهة أخرى.

فإزاء إجراءات القمع الروسية ضد اليهود، وجد بعض المثقفين منهم الفرصة المواتية للخروج ضد طروحات الاندماج التي ينادى بها مثقفون يهود آخرون مثل المؤرخ دوفنوف، و يتبناها يهود نشيطون في الحقل السياسي. و أصدر الكاتب الصهيوني موشيه ليب ليلينبلوم (١٨٤٣-١٩١٠ م) كراساً بعنوان «بعث الشعب اليهودي في أرض أجداده المقدسة» (١٨٨٣ م)، دعا فيه إلى اعتناق الصهيونية، و رفض الاندماج كحل دائم للمسألة اليهودية. و تبعه الحاخام شموايل موهيلفر (١٨٢٤-١٨٩٨ م)، فقام بتأسيس أول جمعية لأحباء صهيون (١٨٨٢ م). ثم ما لبثت هذه الجمعيات أن انتشرت في رومانيا و ألمانيا و بريطانيا و النمسا، و حتى في الولايات المتحدة الأميركية. و تلخص أهداف هذه الجمعيات بالتالي: (١) تحقيق استعمار فلسطين على يد اليهود؛ (٢) نشر الفكرة القومية بين اليهود و تعزيزها؛ (٣) رفع شأن اللغة العبرية باعتبارها لغة قومية؛ (٤) رفع مستوى الجماهير اليهودية من جميع النواحي.

و كان الطبيب اليهودي و الكاتب الصهيوني ليو بنسكر (١٨٢١-١٨٩١ م) الأكثر تعبيراً عن النزعة الصهيونية الاستيطانية كحل للمسألة اليهودية في روسيا. و في مواجهة طروحات الاندماج المتعددة، التي راجت في تلك الفترة، أصدر بنسكر كراساً بعنوان «التحرر الذاتي» (١٨٨٢ م)، أصبح دليل عمل للمستوطنين من أحباء صهيون.

و كان بنسكر جازماً في طرحه بعدم إمكان اندماج اليهود في مجتمعاتهم، و علل ذلك بأسباب موضوعية متعلقة بتلك المجتمعات التي ترفض التعامل مع اليهود على قدم المساواة، و بأخرى ذاتية تتعلق بعدم أهلية اليهود أنفسهم للاندماج. فاليهود في نظره عنصر مميز، لا يمكن دمجهم في غيره من الأمم، كما يعسر على أية أمة هضمه و استيعابه، و بانعدام الوعي القومي لديهم، يستحيل على اليهود تحقيق الوجود القومي. و من هنا ضرورة خلق هذا الوعي، كما يطرح بنسكر، كخطوة أولى نحو

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢١

الوجود القومي، الذي هو السبيل لإخراجهم من حالة الاغتراب التي يعيشونها بين ظهرائي تلك الشعوب المحيطة بهم. و في ربيع سنة ١٨٨٢ م تشكلت في روسيا أول حركة استيطانية صهيونية، هي حركة «بيلو»، التي اشتق اسمها من الأحرف الأولى للكلمات العبرية «بيت يعقوف لخوا فلنلخا» (سفر أشعيا ٥/٢)، و التي تعني «هيا يا بيت يعقوب لنمضي معا»، و الترجمة الرسمية لها في التوراة (العبرية) «يا بيت يعقوب هلمّ فنسلك في نور الرب». و كان أعضاء الحركة من طلاب جامعة خاركوف الروسية. و وصل فريق طلابي منهم إلى يافا في صيف سنة ١٨٨٢، ثم تبعته جماعات أخرى. في المقابل، انتشر عدد من أعضاء الحركة في أرجاء روسيا لتأسيس فروع أخرى لها. و أسست الحركة مكتباً رئيسياً في خاركوف، كما أجرت اتصالاً مع السير موزس مونتفيوري و لورنس أوليفانت في بريطانيا، للحصول على دعمها المادي و المعنوي و السياسي لمبادرة الاستيطان في فلسطين. ثم أقامت مكتبين آخرين في أوديسا و إستنبول، الأول لتنظيم الهجرة، و الثاني للعمل في العاصمة العثمانية، و عبر قناصل الدول الأجنبية، و خصوصاً بريطانيا، على نيل الموافقة العثمانية على شراء الأراضي في فلسطين و توطين المهاجرين الصهيونيين عليها.

بذلك بدأت الهجرة الصهيونية الأولى، التي انطلقت تحت اسم بيلو، ثم غيرته إلى أحباء صهيون (١٨٨٧ م)، في روسيا و رومانيا و بولونيا. و في سنة ١٨٨٢ م أسس المهاجرون ثلاث مستعمرات، هي: ريشون لتسيون (الأولى في صهيون)، بالقرب من عيون قارة في السهل الساحلي إلى الجنوب من يافا و زخرون يعقوف (زمارين)، في سفوح جبال الكرمل الجنوبية الشرقية و روش بينا (رأس

الزاوية)، بالقرب من الجاعونة، بين طبرية و صفد، و التي بناها مستوطنون من رومانيا. و في السنة التالية، أقاموا يسود همعلا على شاطئ بحيرة الحولة و نيس تسيونا في الساحل الجنوبي، و كذلك جددوا الاستيطان في بيتح تكفا (ملبس). و في سنة ١٨٨٤ م أقاموا مستعمرة غديرا (قطرة) في السهل الساحلي الجنوبي. و بعد توقف دام ستة أعوام، عادت حركة الاستيطان، و تجددت لفترة قصيرة (١٨٩٠-١٨٩١ م)، إذ أسست مستعمرة رحوفوت (ديران)، إلى الجنوب من يافا، و موتسا بالقرب من القدس، و حديرا (الخضيرة) بين يافا و حيفا (١٨٩٤ م). و لاحقا (١٨٩٤ م)، أقيمت مستعمرة بئير طوفيا (قسطينة) في الجنوب و متولا (المطلة) في أقصى الشمال. و حركة أحياء صهيون، التي كان العامل الخارجي - الاضطهاد الروسي - الأكثر فعلا في نشوئها، تطلعت إلى إنشاء مركز قومي يهودي في فلسطين، عبر الاستيطان.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٢

و بإقدامها على الخطوة الأولى بالهجرة و الاستيطان، دشنت مرحلة جديدة في الصهيونية - انتقالها من حيز الفكرة إلى صعيد التطبيق العملي. و تالت بعدها الهجرات في الفترات التالية: الثانية (١٩٠٤-١٩١٤ م) و الثالثة (١٩١٩-١٩٢٣ م) و الرابعة (١٩٢٤-١٩٣١ م) و الخامسة (١٩٣٢-١٩٣٩ م) و السادسة (خلال الحرب العالمية الثانية و بعدها إلى ١٩٤٨ م) و السابعة (بعد ذلك). و كل هجرة منها تحدت إنجازاتها بحسب أهدافها و الأوضاع التي واكبتها و قدرة مؤسساتها على تجسيد المشروع الصهيوني؛ أيديولوجيا بتجنيد اليهود للهجرة، و سياسيا بالحصول على دعم القوى الكبرى، و عمليا بتعزيز الاستيطان اليهودي في فلسطين. أمّا الهجرة الأولى، فقد اصطدمت بعقبات كبيرة ذاتية و موضوعية، وضعتها على حافة الانهيار، الأمر الذي أحبط آمال المستوطنين، و لكنه شجع النشاط السياسي في المراكز الإمبريالية، عبر استغلال التطورات و الأحداث الكبيرة على المسرح العالمي.

لقد بنت حركة بيلو آمالا كبيرة على نجاحها، الذي لو تحقق لشكلت قدوة لليهود العالم، كما اعتقدت، و بالتالي يقوم «المركز القومي اليهودي». و لكنها ما لبثت أن انطلقت حتى تعرقلت، سواء لأسباب ذاتية - قلة المهاجرين و ندرة الموارد المالية و غياب الخبرة في العمل الجديد - أو لأسباب موضوعية - المعارضة العثمانية و المقاومة العربية. فانتقال المستوطنين إلى حياة جديدة متباينة جذريا، و في أرض غريبة عنهم، أصابهم بخيبة أمل مريرة. و كان عليهم أن يبدؤا من الصفر، في عمل تنقصهم فيه الخبرة، و حتى الأهلية الجسدية و النفسية، و لم يكونوا مهيين، لا- جسديا و لا- نفسيا أو معرفيا، للصمود أمام متطلبات الواقع الجديد. لقد جاؤوا من المدن، و من أوساط البورجوازية الصغيرة، ليعملوا في الزراعة في أوضاع مناخية و إقليمية لم يعتادوا عليها. و دبت فيهم الأمراض التي تنقصهم المناعة الذاتية ضدها - الملاريا.

و في المقابل، فرضت السلطات العثمانية قيودا صعبة على تحركهم، خوفا من ازدياد نفوذ الدول الأوروبية في أراضي السلطنة. فحظرت عليهم شراء الأراضي و بناء البيوت، و كان عليهم الالتفاف على القوانين بأساليب ملتوية. و كذلك كان على المستوطنين أن يحموا أنفسهم و ممتلكاتهم إزاء المقاومة العربية، إذ رأى السكان المحليون فيهم عنصرا غريبا، يسعى لإزاحتهم من أراضيهم و الحلول مكانهم.

و بينما هذه المستعمرات على حافة الانهيار، انبرى البارون إدموند دو روتشيلد لإنقاذها، و بالتالي وضع اليد عليها. فاعتمد الموظفون الذين أرسلهم أسلوب عمل الفرنسيين في شمال إفريقيا «الكولون». و في سنة ١٨٨٣ م أقام البارون مستعمرة عقرون، و أرسل مرشدين لتدريب المستوطنين في فروع الزراعة. و قد تطور هذا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٣

الإرشاد و الدعم المادي إلى تولى موظفي البارون المسؤولية عن عملية الإنتاج، و تحويل المستوطنين إلى عمال مأجورين خاسرين، يدفع لهم البارون مخصصات بحسب عدد أفراد العائلة، و ليس بحسب إنتاجها، و بالتالي اتخذ هذا الاستغلال طابع العمل الخيري، الذي لم يلبث أن كثر عن أنيابه، بفعل فساد موظفي البارون.

وانهارت المثل التي حملها المستوطنون من أحباء صهيون، و خضع البعض إلى إرادة الموظفين، و سلك سبيل التديس لهم و الانتهازية، بينما تمرد البعض الآخر، فقمع بقسوة. و قد حدث ذلك بعد زيارة البارون لهذه المستعمرات (١٨٨٧ م)، و توجيهه النقد الشديد للمستوطنين على تدنى مستوى عملهم و إنتاجهم.

و في المؤتمر الرابع لحركة أحباء صهيون (١٨٩٠ م) في أوديسا، أخذ المؤتمر علماء بأمرين مهمين: (١) تخفيف السلطة العثمانية القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فلسطين و الاستيطان فيها؛ (٢) موافقة الحكومتين، الروسية و الرومانية على الترخيص القانوني لحركة أحباء صهيون، و على دستورها و نشاطاتها.

و قد تم ذلك عبر تدخل الولايات المتحدة النشط لدى الباب العالي و حكومتى روسيا و رومانيا، دعماً للحركة الصهيونية في توطين اليهود بفلسطين، و درءاً لتوجه أعداد كبيرة منهم إلى الولايات المتحدة. فانتعشت حركة أحباء صهيون مجدداً، و شكلت لجنة مركزية بقيادة بنسكرو، و فتحت لها مكتبا لشراء الأراضي في يافا، و عادت الهجرة اليهودية تتدفق على فلسطين (١٨٩٠-١٨٩١ م)، الأمر الذي دعا السلطات العثمانية إلى إعادة النظر في قرارها تخفيف القيود على تلك الهجرة. و قد أدى احتجاج السكان المحليين و ممثلهم في البرلمان التركي، دوراً بالتأثير على الباب العالي لاتخاذ قرار العدول عن السماح بهجرة يهود روسيا إلى فلسطين.

و إزاء رفض الحكومة العثمانية السماح للمهاجرين اليهود بالاستيطان في فلسطين بحرية، و إصدارها التعليمات إلى متصرف القدس بالعمل على منع وصولهم إليها و الإقامة فيها، سارعت قيادة العمل الصهيوني إلى الاتصال بالوزراء العثمانيين، عبر قناصل الدول الأجنبية في إستنبول و منهم السفير الأميركي، لرفع القيود عن هجرة اليهود إلى فلسطين. و بوسائل شتى، منها الرشاوى، جرى الالتفاف على هذا الحظر العثماني، و صار المهاجرون يصلون إلى فلسطين بصفتهم حجاجاً. و هناك، عبر تدخل القناصل الأجانب، و منهم الأميركي، و باستغلالهم فساد الموظفين العثمانيين، و قابليتهم للرشوة، استطاع عدد كبير من هؤلاء «الحجاج» و سواهم ممن دخل البلاد خلسة، البقاء فيها. و مع أن الموقف الرسمي العثماني بقى من سنة ١٨٨١ م إلى سنة ١٩١٧ م يعارض الهجرة اليهودية تحت لواء الصهيونية إلى فلسطين بصورة عامة،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٤

إلا إن التدابير العملية التي اتخذتها الإدارات المحلية، و أحياناً بإيحاء من المركز، لم تثبت فعاليتها في إيقاف تلك الهجرة.

و فضلاً عن عامل التدخل الأجنبي في إستنبول و موسكو و بوخارست، في تنشيط الهجرة اليهودية مجدداً إلى فلسطين (١٨٩٠-١٨٩١ م)، تضافرت عوامل أخرى لدفع هذه الظاهرة. فبفضل الإجراءات التي اتخذتها إدارة البارون روتشيلد في تحويل بعض المستعمرات إلى زراعة كروم العنب و تأسيس معصرتين للنبيد- واحدة في ريشون لتسيون، و الثانية في زخرون يعقوف- و تحقيق إنتاج أفضل و أسعار أعلى، انتعش قطاع من المستوطنين، و أصبح عامل جذب للمزيد منهم. و قد تواكب ذلك مع تصعيد الحكومة الروسية لإجراءات القمع ضد اليهود، و وصولاً إلى طردهم من موسكو، من جهة، و السماح لهم بالهجرة، من جهة أخرى. و قام مكتبا أوديسا و يافا بدور كبير في تسريع الهجرة و تسهيل إجراءاتها. و نشط مكتب يافا، بقيادة زئيف طيومكن، في إعداد المشاريع الإنتاجية- شراء الأراضي و زراعة الأشجار المثمرة و إنتاج النبيذ... إلخ- فازدهر الاستيطان، و بالتالي الهجرة. و لكن ذلك لم يدم طويلاً، إذ عادت السلطات العثمانية لوضع القيود على النشاط الصهيوني، لكن الموظفين المحليين الفاسدين لم يكونوا حازمين في تنفيذ الأوامر و القوانين، فبقيت الهجرة مستمرة بأساليب ملتوية و غير شرعية.

و نتيجة فساد الموظفين العثمانيين، و تعاون حفنة من الزعماء المحليين- رؤساء عائلات و شيوخ قبائل و متمولين- ازدهرت السمسرة بالأراضي، و بيعت مساحات منها للحركة الصهيونية. فعقدت صفقات سرية كبيرة لشراء أراضٍ في مرج ابن عامر و سهل عكا، لكنها عطلت قبل إنجازها، و ذهبت هدراً المبالغ الي دفعت رشوة. و مع ذلك، حققت هذه النشاطات نجاحات معينة، كما حدث مع السمسار الصهيوني يهوشوع خانكين، الذي اشترى أراضى رحوفوت و الخضيرة، بأساليب ملتوية. غير أن الفشل ظل السمة العامة لكل

المشروع الصهيوني. و لما بأت بالفشل جميع محاولات إدارة البارون روتشيلد لتحويل المستعمرات الصهيونية الزراعية إلى ظاهرة قابلة للحياة بقواها الذاتية، عهد بإدارتها إلى الشركة الكولونيلية «بيكا». و كان البارون اليهودي الألماني هيرش، قد أسس هذه الشركة (١٨٩١ م) لتعمل أصلا في الأرجنتين، لكنها أسست لها فرعا في فلسطين أيضا. و كانت هذه الشركة استثمارية صرفه، تحاكي في نمط عملها الشركات الأوروبية الأخرى.

و بإدارة شركة بيكا، تحول المستوطنون إلى أصحاب مزارع، يعتمدون في تشغيلها على العمال العرب الأجورين، و يكسبون من استغلال طاقة عمل السكان

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٥

المحليين، أسوة بالمستوطنين الأوروبيين في إفريقيا. و قد حاولت هذه الشركة، عبر حاييم مرغليت كالفارسكي، شراء أراض في سهل عكا، لكن الصفقة فشلت، و ضاعت الأموال التي صرفت عليها. و مع ذلك، أقامت بيكا مزرعة للتدريب في الشجرة (١٨٩٩ م)، و عددا من المستعمرات، و خصوصا في الجليل الأسفل، في الفترة (١٩٠١-١٩٠٩ م)، مثل كفار طابور و الشجرة و منحمة و يبتيل و متسيه و كثيرت، عملت بزراعة الحبوب. و لكن على الرغم من النجاحات المحدودة ظلت هذه المستعمرات تعاني أزمة بنيوية، تتلخص في عدم أهلية المستوطنين اليهود للعمل الزراعي، و بالتالي اعتمادهم الكلي على العمل الأجور. فأصبح هؤلاء الصهونيون، الذين قدموا لإنشاء «دولة قومية»، عبارة عن مقاولين لدى شركة بيكا الاستثمارية، يقومون بالرقابة على العمال العرب و بيع المحاصيل، تاركين العمل الجسدي الصعب لأبناء البلد. أما أبناء هؤلاء المستوطنين، فلم يجدوا في الزراعة ما يليب طموحهم، و غادروا المستعمرات إلى المدن، أو هاجروا من البلد إلى الخارج، بنسبة كبيرة.

ثانيا: الصهيونية السياسية

إشارة

لما كانت الحركة الصهيونية أوروبية الجذور، سواء لناحية أسباب نشوء الفكرة، أو تبلورها، أو تطبيقها، فإن مشروعها الاستيطاني ارتبط عضويا بالنشاط الإمبريالي في المنطقة و مراحل تجلياته. و كان طبيعيا لذلك أن يواكب العمل الصهيوني، شكلا و مضمونا، سيورة التغلغل الإمبريالي في المنطقة، و أنماط تجسيده. و بينما تمحور نشاط الدول الأوروبية في النصف الأول من القرن التاسع عشر على توسيع نفوذها في أراضي السلطنة العثمانية عبر الامتيازات، التي تغطت، بين تعبيرات أخرى، بحماية الأقليات الدينية و الطائفية، فقد بادرت تلك الدول، بداية فرنسا، ثم بريطانيا بصورة أكثر إصرارا، إلى دعوة اليهود إلى الهجرة و الاستيطان في فلسطين تحت حمايتها. لكن ردة فعل اليهود العامة كانت متحفظة، بل معارضة، لهذه الدعوات. أما في النصف الثاني من ذلك القرن، فقد احتدم التنافس بين دول أوروبا، و معه تصاعدت وتيرة العمل الصهيوني، و صولا- إلى نهاية القرن، إذ راحت المخططات الإمبريالية تتخذ طابعا عمليا، استعدادا لاقتسام أراضي السلطنة العثمانية، و تحول معها المشروع الصهيوني إلى برنامج عمل مخطط، على الصعيدين، الخارجي الدولي، و الداخلي اليهودي.

و بإلقاء نظرة عامة، يتضح أن دعوة نابليون إلى توطين اليهود في فلسطين، لم تحرك لديهم ردة فعل إيجابية، بقدر ما حركت طروحات مثيلة في أوساط سياسية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٦

بريطانية، التقطت الفكرة، و حاولت توظيفها لمصلحة بريطانيا في مواجهة فرنسا.

و عادت هذه الفكرة إلى البروز مرة أخرى بعد مؤتمر لندن (١٨٤٠ م)، و فرض الانسحاب من بلاد الشام على محمد علي. و كان

ذلك بالتأكيد كردة فعل على التهديد الذي انطوت عليه الحملة المصرية للمصالح البريطانية. و مع ذلك، ظلت استجابة يهود أوروبا- الشرقية والغربية- فاترة جدًا للدعوة التي أطلقها بالمرستون. و منذ الستينات من القرن التاسع عشر، ازداد التدخل الأوروبي في شؤون السلطنة، نتيجة ضعفها المتزايد. و قد جرى التعبير عن ذلك باتساع مجال الامتيازات التي طالبت بها، و حصلت عليها، دول أوروبا، و خصوصا بعد حرب القرم (١٨٥٤-١٨٥٥ م)، من جهة، و باضطراب السلطان العثماني إلى إصدار فرمانات (التنظيمات) الإدارية و السياسية و الاجتماعية، من جهة أخرى.

في المقابل، و على الصعيد اليهودي، ازدادت حدة المسألة اليهودية في أوروبا و خصوصا أوروبا الشرقية. و في الوقت نفسه برزت الحركات القومية بين شعوب أوروبا الشرقية (الصرب و اليونان و غيرهم)، و راح تأثيرها يتغلغل بين اليهود، الذين اعتقدوا أن لقضيتهم قوة إقناع أعلى من دعوى الشعوب الأخرى المطالبة بالانعتاق القومي. و في خضم التحولات السياسية و الاجتماعية الجارية في أوروبا، و انعكاسها على التجمعات اليهودية هناك، راحت الأفكار القومية تتنامى على حساب تراجع طروحات الاندماج كحل لمشكلات تلك التجمعات الاجتماعية. و ليس مصادفة أن رواد «الحل القومي اليهودي» في أوروبا الغربية، جاؤوا من الأوساط التي كانت تقف فكريا على حدود الاندماج، مثل موزس هس. أما في أوروبا الشرقية، فقد جاء دعاة الصهيونية من أوساط المثقفين اليهود التقليديين، الذين تأثروا بالنزعات القومية السلافية، مثل كاليشر و ألقلي. و في روسيا، أخذت هذه الأفكار دفعة قوية من ممارسات الحكومة الروسية القيصرية تجاه اليهود في الثمانينات، بعد اغتيال القيصر، و توجيه التهمة إلى اليهود بالمشاركة الفعالة في الحركات المناهضة للحكم هناك.

و مع ذلك، و حتى نهاية القرن، و على الرغم من حالة التدهور التي أصابت السلطنة العثمانية، و احتدام التنافس بين دول أوروبا، إذ راحت كل منها تسعى لتأمين موطئ قدم لها في أراضي السلطنة، فقد ظلت الصهيونية حركة معزولة و محصورة في جيوب مبعثرة، تعارضها الأغلبية من اليهود، في غرب أوروبا و شرقها. و النشاط الاستيطاني الذي قامت به في فلسطين لم يكن يبشر بالنجاح. و بناء عليه، ظل تيار الهجرة اليهودية الرئيسي يتجه من شرق أوروبا إلى غربها، و منه إلى الولايات المتحدة. و بينما يقدر عدد يهود أوروبا الذين هاجروا إلى الولايات المتحدة و أوروبا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٧

الغربية، في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر، و حتى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤-١٩١٨ م) بنحو ٥، ٢ مليون، فإن الذين وصلوا منهم إلى فلسطين لا يزيد عن ٥٠، ٠٠٠ فقط، أي ٢٪ من مجموعهم. و ارتفع هذا العدد عشية الحرب العالمية الأولى إلى ٨٥، ٠٠٠ ثم تراجع إلى ٥٦، ٠٠٠ سنة ١٩١٨ م.

و المنعطف الكبير في العمل الصهيوني- الصهيونية السياسية- في مطلع القرن العشرين، جاء تنويعا لمسار متدرج، امتد على طول القرن التاسع عشر، و أخذ يتصاعد بالتوازي مع ازدياد اهتمام الدول الأوروبية بالشرق الأوسط، و بالتالي تصاعد نبرة الدعوة إلى إقامة كيان يهودي في فلسطين، عبر الهجرة إليها و الاستيطان فيها، بحماية هذه الدولة الكبرى أو تلك. فبعد حملة نابليون، ازداد اهتمام بريطانيا بحماية طرق مواصلاتها مع الهند، و رأت في إقامة استيطان يهودي في فلسطين، تحت رعايتها، عنصرا في توفير تلك الحماية. و بعد حملة محمد علي، كثفت الدول الأوروبية نشاطها للحصول على الامتيازات من السلطنة العثمانية المتهاوية، و كانت الأقليات الدينية ذريعة لذلك. و برزت الدعوة إلى توطين اليهود في فلسطين مرة أخرى. و مع تفاقم المسألة الشرقية، و الإعداد لاقتسام أراضي السلطنة، نشطت الحركة الصهيونية عمليا. و بعد افتتاح قناة السويس (١٨٦٩ م)، و شراء بريطانيا أسهم مصر فيها (١٨٧٥ م)، و من ثم احتلال مصر (١٨٨٢ م)، برزت حيوية فلسطين الاستراتيجية للمصالح البريطانية، و معها أهمية الاستيطان الصهيوني كحلقة في شبكة القواعد لحماية الطريق إلى الهند.

و كان الصحافي اليهودي النمساوي تيودور هيرتسل (١٨٦٠-١٩٠٤ م)، المعبر الأبرز عن هذا المنعطف في أوضاع اليهود و الصهيونية،

على أرضية التطورات السياسية والاقتصادية والاجتماعية في أوروبا، وبالتالي علاقتها بالشرق الأوسط. و بناء عليه، فهو يعتبر مؤسس الحركة الصهيونية السياسية، كونه نقلها نقلة نوعية، سواء على صعيد البرنامج النظري، أو التطبيق العملي له. لقد التقط هيرتسل الخيوط المتعددة لنشوء الصهيونية، وجمعها في منظمة عالمية، قابلة للحياة في المناخات السائدة آنذاك في أوروبا، و على المستويين- اليهودي الخاص و الإمبريالي العام.

و إذ أفاد هيرتسل من أفكار سابقه من دعاة الصهيونية، فإنه تفوق عليهم ببرنامج التنظيم و العملي، الأكثر ملاءمة للواقع السياسي المحيط بالنشاط الصهيوني، سواء في بلد المنشأ- أوروبا- أو في موقع المآل- فلسطين. و إذ لم يكن هيرتسل مفكرا بمستوى هس، أو ضالعا بالتراث اليهودي مثل كاليشر أو ألقلي، أو رومانسيا مثل بنسكر، فإنه بالتأكيد تفوق عليهم جميعا في براغماتيته، و بالتالي إدراكه ألا مجال

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٨

لتجسيد المشروع الصهيوني من دون ربطه عضويا و مصيريا بالمشروع الإمبريالي العام إزاء منطقة الشرق الأوسط.

ولد هيرتسل في المجر، و كان والده تاجرا ميسورا، قطع في نمط حياته شوطا على طريق الاندماج بمحيطه، فنشأ ابنه على الثقافة الألمانية. و عندما انتقلت العائلة إلى فيينا، درس هيرتسل القانون، و ظلت ثقافته اليهودية ضئيلة. و عمل بالمحاماة، و من ثم بالصحافة. و في سنة ١٨٩١ م، سافر إلى باريس كمراسل لصحيفة «نيوفراي برس»، ليغطي أحداث محاكمة درايفوس، الضابط اليهودي في الجيش الفرنسي، الذي اتهمه أقرانه بالخيانة. و تأثر هيرتسل بمجريات المحاكمة وردات الفعل المتناقضة عليها، فاستعاد وعيه اليهودي، و شغل بإيجاد الحل للمسألة اليهودية. و بداية رأى الحل في الاندماج، و طرح على اليهود اعتناق المسيحية بصورة جماعية، أو الالتحاق بالتيارات الاشتراكية. و لكنه سرعان ما عدل عن هذه الأفكار و تحول إلى الصهيونية، مقتنعا باستحالة اندماج اليهود في مجتمعاتهم، أو استيعابهم جميعا في أميركا. و بذلك خلص إلى نتيجة مفادها ضرورة إقامة «دولة يهودية» لهم، ليس بالضرورة في فلسطين، و لكن بالتأكيد من خلال التعاون مع الدول الكبرى، و في ظل حمايتها و دعمها، لقاء الخدمات التي ستقدمها تلك الدولة اليهودية لمصالح الدولة الراعية.

و أسوة بسلفه من دعاة العمل الصهيوني، توجه هيرتسل أولا إلى إثراء اليهود لتمويل مشروعه الاستيطاني. و اتصل بالبارون هيرش، و كذلك بالبارون إدموند دو روتشيلد، لإقناعهما باستثمار أموالهما في توطين اليهود في دولة مستقلة، فلسطين أو الأرجنتين، أو أي مكان آخر يتوفر حاليا، و يتم ذلك عبر «شراء وطن» لهم. و كانت فكرة شراء فلسطين مسألة مطروحة بصورة جدية بين الصهيونيين. و لكن أفكار هيرتسل قوبلت بالاستخفاف من قبل الرأسماليين اليهود في أوروبا الغربية، الذين اندمجوا تماما في الفئات السائدة ببلادهم، و انخرطوا في مشاريعها الاستعمارية. و في سنة ١٨٩٦ م، جمع هيرتسل أفكاره و اقتراحاته في كتاب بعنوان «دولة اليهود». و انطلق في أطروحته من أن معاداة السامية خصيصة حتمية لكل المجتمعات المعاصرة على تعدد نظمها. و لذلك انتهى إلى الاستنتاج بضرورة إقامة دولة لليهود. و حدد أدوات مشروعه: «جمعية يهودية» للإعداد السياسي و العلمي؛ و «وكالة يهودية» للتنفيذ العملي؛ و «براءة» من الدول الكبرى، أو من إحداها على الأقل.

و كتاب هيرتسل «دولة اليهود» خليط عجيب من الأفكار القومية الغيبية، و النظريات الاستعمارية الاستراتيجية، و المشاريع الاستثمارية الاستغلالية، مع ما يرافقها من طروحات عنصرية. فهو يجمع بين النزعة العرقية العنصرية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٢٩

و الارتباط العضوي بالإمبريالية العالمية. و تبرز عنصريته في تجاهل كون فلسطين آهلة بالسكان، و نظرتة الدونية إليهم، على الرغم من زيارته لها و وقوفه على الواقع الحضاري و العمراني فيها. و مع ذلك، كرس جل اهتمامه للتخلص من هؤلاء العرب الفلسطينيين، تمهيدا لتهويد البلد عبر تغيب سكانها الأصليين، و قطع صلتهم التاريخية بوطنهم. بل يذهب هيرتسل في عنصريته إلى أبعد من ذلك،

إذ يطرح توظيف هؤلاء السكان في التمهيد للاستيطان الصهيوني على أرضهم، قبل نقلهم إلى أماكن أخرى، فيقول: «إذا ما انتقلنا إلى منطقة توجد فيها حيوانات متوحشة لم يعتد عليها اليهود - أفاع كبيرة و غير ذلك - فسوف أستخدم سكان البلاد، قبل ترحيلهم إلى الدول التي سينقلون إليها، من أجل القضاء على هذه الحيوانات.»

و لأن هيرتسل كان يعي أن العقبة الرئيسية أمام مشروعه تكمن في إقناع التجمعات اليهودية الأوروبية - مادة المشروع - بقبوله، فقد توجه إليهم بعدد من المقولات التبريرية و الذرائعية. فادّعى أن المسألة اليهودية ليست قضية اجتماعية أو دينية، إنما هي قومية. و على هذا الأساس يجب حلها، عبر جعلها قضية سياسية عالمية. و دعا اليهود إلى اعتبار أنفسهم وحدة، بغض النظر عن شتاتهم. و لتحريكهم للاستجابة لمشروعه، دعا إلى استغلال حالة البؤس و العزلة التي يعيشونها، و لم يتورع هيرتسل عن توظيف «اللاسامية»، و ردة فعل المحيط السلبية إزاء اليهود، في هذا السيل، فيقول: «العداء للسامية، الذي يؤلف قوة كبيرة و دعاية بين الجماهير، لن يلحق الأذى باليهود، و أنا أعتبره حركة نافعة للوجود اليهودي.» و يؤكد هيرتسل:

«لا- يوجد إنسان يملك من الثروة و السلطان ما يكفي لاقتلاع أمة و نقلها من بيئته الطبيعية إلى أخرى. الفكرة وحدها تستطيع إنجاز ذلك، و فكرة الدولة هذه تملك القوة اللازمة.» و يؤكد للتجمعات اليهودية أن هجرة أفرادها إلى فلسطين و إقامة دولته هناك، سترفعان من مستواهم الاجتماعي و الاقتصادي، إلى جانب الروحي و المعنوي.

و لإقناع الدوائر الإمبريالية بتبنى مشروعه، فقد أسسه هيرتسل على نظرية «رسالة الرجل الأبيض التحضيرية»، تقليدا للاستعمار الغربي. أمّا الدولة اليهودية فقد صوّرها على أنها «سوف تشكل هناك جزءا من متراس أوروبا في آسيا، يكون مخفرا أماميا للحضارة ضد البربرية، و يتوجب علينا، كدولة محايدة، أن نبقي على صلة بكل أوروبا التي سيكون عليها أن تضمن وجودنا.» و عندما أطلق هيرتسل ساقيه للرياح باحثا عن دولة كبرى تتبنى مشروعه، و تأخذ على عاتقها أن تشكل «البلد الأم» بالنسبة إليه، راح يعرض على كل رئيس دولة أو حكومة الخدمات التي افترض أنه يرغب فيها. فعلى السلطان العثماني عرض المال و الخبرة اليهودية لسداد ديونه، و على

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٠

إمبراطور ألمانيا أن تشكل «دولة اليهود» محمية ألمانية، مرتبطة بما سماه «المجال الحيوي الشرقي» لألمانيا. و في لندن عرض على تشمبرلين، وزير المستعمرات آنذاك، أن تقوم الدولة الصهيونية بحماية قناة السويس. و في روسيا تعهد لوزير داخليتها، بليفيه، المعروف ببطشه باليهود، أن يخلص روسيا من العناصر اليهودية المنخرطة في الحركات الاشتراكية و الثورية، و التي صارت تهدد حكومة القيصر.

و بعد عام من نشر كتابه، نجح هيرتسل في عقد المؤتمر الصهيوني الأول برئاسته، في مدينة بازل (بال) السويسرية (١٨٩٧ م)، و بحضور ١٩٧ مندوبا عن الهيئات و المنظمات و الجمعيات الصهيونية المتعددة في العالم. و كان المؤتمر منعظا في العمل الصهيوني، إذ تأسست به «المنظمة الصهيونية العالمية» و أقر نظامها الداخلي و هيكلها التنظيمي و شروط العضوية فيها، التي فتحت الباب أمام كل يهودي يتبنى «برنامج بازل»، و يدفع رسم الاشتراك (الشيكل). و بعد المؤتمر، انصرفت المنظمة الصهيونية، عبر هيئاتها المنتخبة، إلى العمل على جبهتين: يهودية، ترمي إلى استقطاب اليهود للمشروع الصهيوني؛ و دولية، تسعى لكسب التأييد الدولي له، على قاعدة برنامج بازل. و كان القرار الأساسي الذي اتخذته المؤتمر ينص «أن غاية الصهيونية هي إيجاد وطن للشعب اليهودي في فلسطين، يضمنه القانون العام.» و حدّد المؤتمر محاور العمل الصهيوني، كما يلي: (١) العمل على استعمار فلسطين بالعمال اليهود، الزراعيين و الصناعيين، و غيرهم؛ (٢) تنظيم يهود العالم في منظمات محلية و دولية تتلاءم مع القوانين المتبعة في كل بلد؛ (٣) تقوية المشاعر اليهودية و الوعي القومي اليهودي؛ (٤) اتخاذ الخطوات التمهيدية للحصول على الموافقة الضرورية (البراءة) لتحقيق أهداف الصهيونية. و في الواقع، فإنه بعد انعقاد المؤتمر الصهيوني الأول، تزايدت وتيرة النشاط الصهيوني في المجالات الأربعة التي حددها برنامج بازل. فعلى صعيد الاستيطان، انطلقت «الهجرة الثانية» (١٩٠٤ م)، و أساسا من أوروبا الشرقية. و كان المهاجرون في الأغلب من أبناء الطبقة

الوسطى، الذين تأثروا بالأفكار الاشتراكية التي راجت في روسيا آنذاك، و بالتحديد بصيغتها «اليهودية-الصهيونية» (البوند). و قد أدت الاضطرابات التي اندلعت في كيشينيف (١٩٠٣-١٩٠٥ م)، بما واكبها من اضطهاد لليهود، دورا في تحريك هذه الموجهة من الهجرة الصهيونية. كما استعمل هؤلاء الشعارات الاشتراكية التي تعلموها في روسيا كغطاء للتهويد الاستيطاني، عبر طرح شعار «العمل العبري»، الذي كان في الأساس يرمى إلى مقاطعة العمل العبري، أي استبدال العمال العرب في المستعمرات اليهودية بمهاجرين الموجه في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣١

يهود. و غلّف هؤلاء هذه النزعة العنصرية بمقولات فضفاضة عن الريادة و العمل الجسدي و احتلال سوق العمل ... إلخ. و لكنهم اصطدموا بعقبات كبيرة، و خصوصا مع المستوطنين القدامى. و ما كان لهم كسب المعركة من دون تدخل المنظمة الصهيونية العالمية، التي راحت تقيم لها مؤسسات في فلسطين.

و في الفترة بين مؤتمر بازل و الحرب العالمية الأولى، عقدت المنظمة الصهيونية عشرة مؤتمرات، تم خلالها تشكيل عدد من الهيئات التنظيمية و المالية لتنفيذ برنامج بازل. ففي سنة ١٨٩٩ م أنشئ صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار، لتمويل الهجرة إلى فلسطين و الاستيطان فيها. و في سنة ١٩٠٣ م، أقام له فرعا في يافا- الشركة الإنكليزية الفلسطينية- لشراء الأراضي و تمويل الاستيطان. و في المؤتمر الخامس (١٩٠١ م)، الذي عقد في لندن، أنشئ الصندوق القومي اليهودي (هكيرن هكيمات)، على أسس استيطانية عنصرية. و في سنة ١٩٠٨ م اتخذت المنظمة الصهيونية العالمية خطوة حاسمة لتطوير نشاطها الاستيطاني، عبر إقامة «مكتب فلسطين» في يافا، كممثل للمنظمة الصهيونية، و ذراع تخطيطي و تنفيذي لنشاطاتها في فلسطين. و شمل نشاط المكتب شراء الأراضي و بناء المستعمرات و مساعدة المهاجرين و توطينهم و رعايتهم. و لأداء مهماته، أنشأ عدة شركات تحمل أسماء متعددة للتمويه على عملياته غير الشرعية. و كان المدير الأول لهذا المكتب عالم الاقتصاد و الاجتماع، آرثر روبين (١٨٧٦-١٩٤٣ م) الذي نجح في إقامة علاقات تعاون و ثقة بين المنظمة الصهيونية و المستوطنين القدامى و المهاجرين الجدد، على أساس مبادئ العمل العبري، كما أراد أعضاء الهجرة الثانية، فاصطدموا لذلك مع المزارعين في المستعمرات، و احتدم الصراع عندما أراد هؤلاء تولى حراسة تلك المستعمرات إزاء المقاومة العربية.

و قد أرسى روبين قواعد جديدة للاستيطان، كما أدخل إلى المستعمرات عددا من فروع الزراعة الجديدة، و ساهم في إقامة مستعمرات جديدة على أسس تعاونية متعددة.

و كان الصندوق القومي اليهودي (هكيرن هكيمات) قد نفذ بأساليب ملتوية مشترياته الأولى من الأراضي في الفترة ١٩٠٥-١٩٠٧ م، إذ اشترى أراضي بن شيمون و خولدة بين الرملة و القدس، و أراضي حطين في الجليل الأسفل. و بعد تأسيس مكتب فلسطين، بادر إلى إقامة نمط جديد من الاستيطان، يتمشى و نزعات أفراد الهجرة الثانية (١٩٠٤-١٩١٤ م)، يتمثل بالقرى التعاونية (الكيبوتس)، في الفترة (١٩٠٨-١٩١٣ م)، فبنيت دغانيا و كنيرت على الطرف الجنوبي لبحيرة طبرية و بن شيمون

الموجه في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٢

و خولدة بين الرملة و القدس، و مرحافيا في مرج ابن عامر، و غان شموييل في السهل الساحلي. و كانت كل مستعمرة تمثل نمطا تجريبيا جديدا. ففي دغانيا (١٩٠٩ م) كانت بداية الحركة الكيبوتسية، إذ أعطيت الأرض لعمال زراعيين بمسؤولية جماعية. و في بن شيمون جرى التخطيط المسبق لإقامة مستعمرة تعتمد فروعاً زراعية متنوعة و متكاملة، لضمان الاستمرار في حال فشل أحد تلك الفروع. و في مرحافيا كانت تجربة الدمج بين الاستيطان الفردي و الجماعي، و فشلت التجربة، لكن نقطة الاستيطان الأولى في مرج ابن عامر (١٩١١ م) بقيت.

و في فترة ١٨٨٢-١٩١٣ م ازداد عدد المستوطنين اليهود في فلسطين من ٢٤،٠٠٠ إلى ٨٥،٠٠٠ نسمة، و ذلك من مجموع ٧٠٠،٠٠٠ من سكان البلد. و قد أقام معظم هؤلاء المهاجرين في المدن، و فقط ١٢،٠٠٠ منهم استقر في المستعمرات الزراعية و ملحقاتها، و التي

بلغ عددها ٤٤. وقد ارتفع عدد اليهود في القدس إلى ٤٥,٠٠٠ في سنة ١٩١٤ م. وفي طبرية وصلوا إلى ٥٠٠٠ نسمة، و في صفد إلى ٧٠٠٠ و حيفا ٣٠٠٠ و يافا ٥٠٠، ١٠ بمن فيهم سكان تل أبيب، التي أقيمت (١٩٠٩ م) كضاحية من مدينة يافا. ثم انخفض هذا العدد إلى ٥٥,٠٠٠ في نهاية الحرب العالمية الأولى، بسبب نزوح المستوطنين إلى الخارج. و فضلا عن مكتب فلسطين (ذراع المنظمة الصهيونية العالمية)، و الصندوق القومي اليهودي، أقيم البنك الأنكلو- فلسطيني (١٩٠٣ م) في يافا، كفرع لصندوق الائتمان اليهودي للاستعمار، الذي أسسه هيرتسل في لندن (١٨٩٩ م).

(أ) البراءة الدولية

لقد أدرك هيرتسل منذ البداية أن مشروعه الصهيوني لن يكتب له النجاح بالاستناد إلى القوة الذاتية اليهودية، و خصوصا أن نسبة اليهود المتعاطفين مع الصهيونية كانت ضئيلة، الأمر الذي شكّل همًا مقلقا لقادة العمل الصهيوني. و بناء عليه، توجه هيرتسل للحصول على دعم القوى الإمبريالية، أو إحداها على الأقل، و بصورة علنية عبر إصدار «البراءة الدولية»، أي وضع الاستيطان تحت الحماية، سواء من هذه الدولة أو تلك. و لكي لا- يستثير تلك الدول، أو يتسبب برده فعل سلبي من قبل السلطات العثمانية، التي كانت تعارض هجرة اليهود إلى فلسطين على أي حال، أصرّ على رفض فكرة التسلل إلى البلاد بصورة غير شرعية. و علل ذلك، و كان مصيبا، بعدم جدوى مثل هكذا استيطان يجرى خلسة، و لن يلبى الطموحات الصهيونية المغرقة في التفاؤل بنجاح مشروعها، و إقامة الدولة اليهودية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٣

بالسرعة القصوى، و خصوصا في مقابل الضرر الذي قد يجلبه على الحركة الصهيونية، جراء ردّات الفعل السلبية على ذلك التسلل غير الشرعي، من قبل المراكز السياسية التي هي الركائز الأساسية التي يبنى عليها هيرتسل آماله في تجسيد مشروعه- أي على الشراكة بين الصهيونية و تلك المراكز الإمبريالية.

و خلال الأعوام الستة الأولى لقيامها، أصرت الحركة الصهيونية، بقيادة هيرتسل، على التثبث بأولوية الحصول على البراءة الدولية، قبل فتح باب الهجرة الواسعة إلى فلسطين، و خصوصا نتيجة قرار الحظر العثماني عليها. و في غياب دعم يهودي واسع للمشروع الصهيوني، و انعدام الثقل السياسي للمنظمة الصهيونية في تلك المرحلة، كان هيرتسل مقتنعا بأن مشروعه سيقى حبرا على ورق، إذا لم يستطع تسويقه في مركز إمبريالي، أو أكثر. و هكذا انطلق هيرتسل في حملة دبلوماسية واسعة النطاق، قادت إلى عدد من العواصم الأوروبية و إستنبول، حيث عرض خدمات الحركة الصهيونية على كل منها، بالصورة التي اعتقدها تلبى حاجاتها و مصالحها في الشرق الأوسط، على الرغم من تضارب العروض. و في الأساس، كان يطرح على رؤساء تلك الدول، أو على بؤر سياسية فاعلة فيها، تعاوننا على أساس المصالح المشتركة، مؤكدا لكل منها أن الكيان الصهيوني المزمع إقامته سيكون حارسا آمينا لمصالحها. و بداية أراد توظيف وساطة ساسة تلك الدول لدى السلطان العثماني لرفع الحظر عن هجرة اليهود إلى فلسطين و الاستيطان فيها.

و نتيجة الصداقة المترعرة بين ألمانيا و السلطنة العثمانية في نهاية القرن التاسع عشر، و التي تكتفت إلى حد التحالف في الحرب العالمية الأولى، رأى هيرتسل أن وساطة قيصر ألمانيا لدى الباب العالي، سترفع الحظر العثماني عن هجرة اليهود إلى فلسطين. في المقابل، خطط هيرتسل لاستغلال الأطماع الألمانية في فلسطين، من جهة، و رغبة القيصر و يلهم الثاني (١٨٨٨-١٩١٩ م) الدفينة في التخلص من الأعداد الكبيرة من اليهود في بلاده، أو على الأقل، إبعاد العناصر المشاركة منهم في الحركات اليسارية و الثورية المناوئة له، من جهة أخرى. و انتهز هيرتسل فرصة زيارة القيصر للقدس (١٨٩٨ م)، و سافر للقاءه هناك. و اقترح هيرتسل على القيصر أن تتبنى ألمانيا الحركة الصهيونية، و بالتالي تتوسط لدى السلطان لمنحها «الأرض الواقعة بين الفرات و النيل للاستيطان». و لكن القيصر لم يتحمس للفكرة، و كان رده فاترا، إذ لم يشأ أن يتسبب في توتر العلاقة بين بلاده و السلطنة العثمانية، بل على العكس، كان يسعى

لتطوير الصداقة بينهما، في إطار المسألة الشرقية و «اندفاع الألمان إلى الشرق».

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٤

ولما تبخرت الآمال التي عقدها هيرتسل على وساطة قيصر ألمانيا لدى السلطان العثماني، و بالتالي استجابة القيصر لتبني المشروع الصهيوني، اهتز موقع المنظمة الصهيونية، و تعالت داخلها الأصوات التي تساءلت عن صوابية السياسة التي ينتهجها هيرتسل في التركيز على استصدار البراءة الدولية من القوى الكبرى، و حتى بشأن صحة الموقف المعارض للهجرة إلى فلسطين قبل الحصول على تصريح من السلطان العثماني. و لإنقاذ مشروعه و تبرير سياسته، توجه هيرتسل إلى إستنبول لإجراء اتصال مباشر مع الباب العالي، و عرض خدمات الحركة الصهيونية على السلطنة، و خصوصا على صعيد سداد ديونها للدول الأوروبية. و لكنه فشل في إقناع السلطان عبد الحميد الثاني (١٨٧٦-١٩٠٩ م) بالاستجابة لطلبه. و في إستنبول سعى هيرتسل لاستغلال فساد جهاز الدولة العثمانية، و بمساعدة أنصار الصهيونية في العاصمة، عرض الرشاوى على كبار الموظفين، للالتفاف على موقف السلطان، الذي كان حازما في هذه المسألة.

و بعد فشل مساعيه في إستنبول، توجه هيرتسل إلى بريطانيا، إذ كانت الحركة الصهيونية قد عقدت مؤتمرها الرابع (١٩٠٠ م) في لندن، بقصد التأثير في الرأي العام البريطاني، و تعريفه بالصهيونية و أهدافها. و التقى هيرتسل (١٩٠٢ م) وزير المستعمرات البريطاني، جوزف تشمبرلين، الذي أبدى تعاطفا مع المشروع الصهيوني كما طرحه هيرتسل، مبينا الفوائد التي ستجنيها بريطانيا من توطين اليهود في فلسطين. لكن تشمبرلين اقترح توطينهم في سيناء و العريش، لقربهما من قناة السويس. و قبل هيرتسل الاقتراح، لكن الدراسات أثبتت نقص المياه اللازمة للاستيطان محليا، في حين رفضت الحكومة المصرية جز مياه النيل إلى تلك المنطقة. و عاد تشمبرلين (١٩٠٣ م) و طرح على هيرتسل الاستيطان في أوغندا (كينيا)، و قبل هيرتسل، لكن المؤتمر الصهيوني السادس (١٩٠٣ م) انقسم بشأن الموضوع، و تأجل تنفيذ المشروع. و دافع هيرتسل عن قبوله المشروع على أساس أنه محطة انتقالية، تقرب اليهود من فلسطين، و تنقلهم لاحقا إليها. و في المؤتمر السابع (١٩٠٥ م)، بعد موت هيرتسل، رفض ذلك المشروع جملة و تفصيلا، و انحصر التركيز على فلسطين كقاعدة للاستيطان الصهيوني.

و على الرغم من قبوله المبدئي بالعرض البريطاني إقامه المشروع الصهيوني في سيناء أولا، و من ثمّ في أوغندا، لم يهجر هيرتسل فكرة البراءة الدولية على فلسطين.

و من أجل ذلك، سافر إلى روسيا، و قابل هناك وزير الداخلية، بليغيه، المسؤول عن حملات مطاردة اليهود في حكومة القيصر. و تمّ التفاهم على صفقة بين الطرفين بسرعة: و ساطة روسية لدى الباب العالي لتسهيل هجرة اليهود إلى فلسطين، في مقابل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٥

تشجيع صهيوني ليهود روسيا على النزوح منها، و بالتالي إراحة حكومة القيصر من العناصر اليهودية المشتركة في الحركات اليسارية و الثورية. و في سنة ١٩٠٤ م، توجه هيرتسل إلى إيطاليا لمقابلة البابا بيوس العاشر، و ملك إيطاليا عمانوئيل الثالث، للغرض نفسه، و كان استقباله هناك فاترا. و بينما أخبره البابا أن الكنيسة لا تستطيع دعم عودة «اليهود الكفرة» إلى الأرض المقدسة، أجابه الملك الإيطالي ببرودة شديدة هذا يعني «البناء في منزل شخص آخر». و في تلك السنة (١٩٠٤ م) مات هيرتسل من دون أن يحقق حلمه في الحصول على البراءة الدولية، و تاركاً وراءه مؤتمرا صهيونيا منقسما على نفسه بشأن المشاريع الاستيطانية المطروحة، و قضايا أيديولوجية متعارضة.

و هلّل الصهيونيون لانقلاب سنة ١٩٠٨ م في تركيا، الذي قام به حزب تركيا الفتاة (جمعية الاتحاد و الترقى). و سارت تظاهرات في يافا، ترفع العلم الصهيوني الذي أقرّ في مؤتمر بازل، و هو «ترس داود» الأزرق على خلفية بيضاء. و في الواقع، فإن حكام تركيا الجدد كانوا أكثر تعاطفا مع الأهداف الصهيونية، و قد خففوا القيود المفروضة على الهجرة اليهودية إلى فلسطين. و حاولت القيادة الصهيونية استغلال التناقضات التي احتدمت في إستنبول بعد الانقلاب، بين الإصلاحيين و التقليديين، من أجل انتزاع الامتيازات. كما حاولوا

استغلال التناقضات العريية- التركية، التي تصاعدت على أرضية التصادم بين النزعات القومية العريية و التركية الطورانية و سياسة التريك التي انتهجها ساسة إستنبول الجدد. لكن ذلك لم يدم طويلا، فلا القيادة الصهيونية كانت راضية عن التسهيلات التي قدمها الحكام الأتراك الجدد، و لا هؤلاء استطاعوا تقديم المزيد لاعتبارات تركية، سواء في السياسة الخارجية- تنافس دول أوروبا بشأن مناطق النفوذ في أراضي السلطنة- أو لاعتبارات داخلية- تنامي المعارضة العريية للسياسة التركية، و خصوصا تساهلها مع المشروع الصهيوني، و كذلك معارضة الأوساط التقليدية في الإمبراطورية العثمانية من منطلقات دينية.

لقد مات هيرتسل (١٩٠٤ م) من دون أن يحقق حلمه بالحصول على البراءة الدولية، و كان على المنظمة الصهيونية أن تنتظر نتائج الحرب العالمية الأولى، و بالتالي صدور وعد بلفور (١٩١٧ م). و كذلك، فالنجاحات التي حققها المشروع الصهيوني الاستيطاني كانت محدودة، سواء بسبب العقبات الموضوعية في فلسطين، أو الانقسامات الداخلية بشأن مسألة الهجرة قبل الحصول على الترخيص الدولي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٦

بذلك. و كان الإنجاز الأكبر الذي حققه هيرتسل هو تأسيس المنظمة الصهيونية العالمية، بهيئاتها و أطرها التنظيمية و الإدارية و المالية. و من خلال المؤتمرات، عينت المنظمة الصهيونية العالمية نفسها حكومة لليهود أينما وجدوا، و من دون التعبير عن موافقتهم على ذلك. و انطلقت تلك الحكومة تعمل على إقامة «دولة»، لا يزال ينقصها الشعب، كما أنها لا تملك الأرض. فقد ظلت أغلبية يهود العالم تعارض الصهيونية، و ظلت الأرض- فلسطين- بعيدة المنال نتيجة الأوضاع القائمة، محليا و دوليا. و على هذه الأرضية وقعت خلافات حادة داخل المؤتمر الصهيوني، أدت إلى انقسامات أيديولوجية و عملية. و على العموم، ظلت الإنجازات الصهيونية على صعيد «نشر الوعي القومي»، كما طرح في برنامج بازل، متواضعة جدا.

(ب) الصراعات الداخلية

في المؤتمر الصهيوني الثاني (بازل ١٨٩٨ م)، أثرت مسألة ردة الفعل السلبية للجماعات اليهودية على المشروع الصهيوني، و استمرار المهاجرين منها في تفضيل التوجه إلى الولايات المتحدة على فلسطين. و طرح هيرتسل شعار «كسب الجماعات اليهودية» في العالم إلى جانب الصهيونية و الاستحواذ على ولائها لمشروعه. و إزاء استنكاف تلك الجماعات عن الصهيونية، كان على قادة العمل الصهيوني تركيز اهتمامهم على القوى الإمبريالية، و غيرها «الهجوم على تلك الجماعات من أعلى»، و استغلال أزماتها لاختراق صفوفها إلى القاعدة. و في المؤتمر الثالث (بازل ١٨٩٩ م)، نوقش موضوع تأسيس «جمعية التخاطب بالعبرية، و نشر الثقافة اليهودية بين يهود العالم». و في المؤتمر الرابع (لندن ١٩٠٠ م)، احتدم الخلاف بشأن المسألة الثقافية بين المتدينين و العلمانيين، الأمر الذي حدا هيرتسل على مناشدة الجميع طرح الخلافات جانبا، و التركيز على الأهداف المشتركة. و ظلت مسألة استنكاف اليهود عن العمل الصهيوني قضية مؤرقة لنشطاء المنظمة الصهيونية، و خصوصا في بريطانيا، إذ تمتع المشروع الصهيوني بتعاطف مراكز قوى في الحكومة، و بوجه خاص في أوساط موظفي وزارة المستعمرات، الذين أقام هيرتسل معهم صلات و وثيقة- فكريا و عمليا. و بقي غياب التأييد الشعبي اليهودي للصهيونية مسألة محرجة لقادة العمل الصهيوني الذين نصبوا أنفسهم معبرين عن تطلعات التجمعات اليهودية.

و تميّز المؤتمر الخامس (بازل ١٩٠١ م) باحتدام الخلاف بشأن مسائل متعددة و منها المسألة الثقافية، إذ طرح مشروع إنشاء جامعة عبرية. و برز «تيار ديمقراطي» في الوسط بين العلمانيين و المتدينين، تزعمه هاييم و ايزمن و مارتن بوبر. و جرت المطالبة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٧

بالإفادة من رؤوس الأموال اليهودية غير الصهيونية، في تمويل الصندوق القومي اليهودي لشراء الأراضي في فلسطين. و انشق المتدينون، بزعامه الحاخام يتسحاق راينس، احتجاجا على اشتداد النزعات الراديكالية و العمالية في المؤتمر الصهيوني، و أقاموا

«حركة همزراحي» (المركز الروحي)، و لكن في إطار المنظمة الصهيونية العالمية. و في المؤتمر السادس (بازل ١٩٠٣ م)، احتدم الخلاف بشأن «مشروع أوغندا». و في المؤتمر السابع (بازل ١٩٠٥ م)، كان هيرتسل قد مات، و انتخب دافيد و لفسون بديلا منه. و غياب هيرتسل، الشخصية القادرة على لملمة الأوضاع في المنظمة، استعر الجدل بين أنصار مشروع أوغندا و المتشبهين بفلسطين. و هزم الأوغنديون، و انشقوا بزعامه يسرائيل زانغويل، و أسسوا «المنظمة الإقليمية اليهودية» التي حلت نفسها سنة ١٩٢٥، بعد فشل مخططاتها.

و لعل أبرز أحداث المؤتمر الصهيوني السابع هو ظهور «التيار الصهيوني العملي» كقوة فاعلة، و خصوصا في أوساط ممثلي روسيا، الذين دعوا إلى التخلي عن المبدأ الذي وضعه هيرتسل - الحصول على البراءة الدولية قبل الشروع في الاستيطان. و اشتد الصراع بين هذا التيار و أصحاب المنظور السياسي من أتباع هيرتسل، و منهم رئيس المنظمة الجديد، و لفسون. و راح هذا التيار يقوى حتى استطاع إزاحة و لفسون، و استبدله بالبروفسور أوتو و ابرغ (١٩١١ م). و تحت تأثير هذا التيار اتخذ المؤتمر الثامن (لاهاي ١٩٠٧ م) قرارا بمباشرة النشاط الاستيطاني على نطاق واسع في فلسطين. و بداية أنشئ مكتب فلسطين (١٩٠٨ م)، بإشراف و إدارة آرثر روبين. و في هذا المؤتمر، طرح ماكس نوردو، أحد أبرز قادة العمل الصهيوني، منظوره لهذا العمل بقوله: «الذهاب إلى فلسطين بمثابة الحملة المعتمدين للمدنية و التحضير و رسالتنا تقوم على توسيع الحدود الأخلاقية (الأديبة) لأوروبا حتى تصل إلى الفرات». و هدا نوردو روع اليهود الأوروبيين المتخوفين من تحوّل المهاجرين منهم في الشرق إلى آسيويين.

و منذ سنة ١٩٠٨ م بدأ الصهيونيون العمليون النشاط الاستيطاني بوتيرة عالية، تحت الشعار الذي أطلقه أوتو و ابرغ - «سياسة التغلغل الاقتصادي». و دعاة هذه السياسة تطلعوا إلى انسجام أعلى مع المناخات الأوروبية السائدة من حولهم. و رأوا في مشروعهم الاستيطاني امتدادا لسياسة أوروبا العامة في الخارج. و قد اقتنع هؤلاء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٨

بأن «الحق التاريخي» الذي تدعيه الصهيونية لليهود في فلسطين، لا يكفي لحمل الدول الأوروبية على تبني مشروعهم. و لذلك، لا بد من أن يكتسب صيغةً عصريةً تقربه من السياسة الأوروبية. و هذه الصيغة في نظرهم تقوم على إخضاع فلسطين للنفوذ الاقتصادي الصهيوني، و إثبات أن كل تقدم حدث في فلسطين إنما يعود إلى المبادرة الصهيونية. و قد قوى هذا التيار بعد انقلاب تركيا الفتاة، و ما يحمله في ثناياه من إمكانات تعديل السياسة العثمانية إزاء المشروع الصهيوني. و في المؤتمر العاشر (بازل ١٩١١)، اضطر و لفسون إلى الاستقالة تحت ضغط العمليين، و انتخب مكانه المعبر الحقيقي عن التيار العملي، أوتو و ابرغ، و بانتخابه تسلم العمليون زمام الأمور في المنظمة الصهيونية العالمية.

و في المؤتمر الحادي عشر (فيينا ١٩١٣ م)، آخر المؤتمرات الصهيونية قبل اندلاع الحرب العالمية الأولى، و بالتالي توقفها عن الانعقاد، كانت هيمنة العمليين واضحة. و زاد في تلك الهيمنة تحالفهم مع «التوفيقين» - تيار حايم و ايزمن. و في التقرير السياسي المقدم للمؤتمر يبرز الاهتمام بالتطورات السياسية التي من شأنها التأثير في مستقبل الشرق الأوسط. و قد ورد فيه التأكيد على أن نجاح المشروع الصهيوني لا يتوقف على البراءة الدولية. و بناء عليه، تتوجه المنظمة الصهيونية إلى تحقيق هدفها في فلسطين عن طريق النشاط العملي. و اندلعت الحرب العالمية الأولى و المنظمة الصهيونية تعمل على جبهتين: سياسية، تسعى للحصول على الاعتراف الدولي بالصهيونية و أهدافها؛ و عملية، تنشط في حقل الاستيطان و تهويد فلسطين - الأرض و الشعب و السوق - بكل ما ينطوي عليه ذلك من تغييب لأهل البلد الأصليين - ماديا و معنويا - و نفى لحقهم التاريخي في وطنهم.

و كما أثار نشاط العمليين ردات فعل داخل المنظمة الصهيونية، و أدى إلى حالة من الاستقطاب فيها، بما انطوى عليه ذلك من انعكاسات على صعيد العلاقات السياسية مع القوى الأوروبية، كذلك فعل في فلسطين و استنبول. فالنشاط الصهيوني المكثف في استنبول لاستغلال التعاطف الحذر الذي أبداه حكام تركيا الجدد مع المشروع الصهيوني، و دفع الأمور إلى أبعد الحدود، و بالسرعة

القصوى، نحو حسم القرار التركي بمنح المنظمة الصهيونية الامتياز المطلوب للاستيطان في فلسطين، أدى إلى نتائج عكسية. فهؤلاء الحكام الجدد وضعوا على رأس جدول أعمالهم صيانة وحدة الأراضي العثمانية، و توحيد شعوبها على قاعدة التتريك، و أدخلوا نظام حكم دستوري، يستند إلى برلمان يتمتع بدرجة من التعددية السياسية و حرية التعبير و المناقشة. و تحولت القضية الصهيونية إلى موضوع نقاش حاد في البرلمان،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٣٩

و خصوصا من جانب النواب العرب و الأوساط التقليدية العثمانية. في المقابل، سرعان ما اكتشف الحكام الجدد أن الأهداف الصهيونية المطروحة تتناقض مع توجهاتهم السياسية بالحفاظ على وحدة الأراضي العثمانية، كونها تشكل عامل تفتت إضافي، سواء على صعيد الأرض، أو السكان، أو وحدة الموقف من التدخل الأجنبي، و بالتالي تفتح مدخلا جديدا لتوسيع النفوذ الأوروبي في أراضي السلطنة.

و في فلسطين، حرّك النشاط الاستيطاني الصهيوني المكثف مقاومة السكان، من القطاعات الاجتماعية المتعددة، و بدرجات متفاوتة من الحدة. فعلى خلفية الوعي القومي العربي الذي كان يتبلور منذ منتصف القرن التاسع عشر، و يعبر عن نفسه بصور متعددة، جاء النشاط الصهيوني ليحرك مقاومة السكان العرب الفلسطينيين لهجرة اليهود إلى بلدهم و شراء الأراضي فيها، و خصوصا من الملاكين الغائبين، و بناء المستعمرات عليها، بعد طرد الفلاحين منها. و كذلك، فسياسة التغلغل الاقتصادي الصهيونية، و بالتالي تهويد اقتصاد البلد، حرّك قطاعات اقتصادية - اجتماعية أخرى.

و بتسارع و تيرة الاستيطان تفاقمت الأزمة، و احتدم التناقض، فانفجر الصراع، بأشكال عنيفة أحيانا. و طالت أعمال العنف المستوطنين و ممتلكاتهم، و تذرع المستوطنون بتقصير السلطة في حمايتهم لانتزاع موافقة بعض الموظفين الأتراك الفاسدين على إقامة منظمات شبه عسكرية للدفاع عن المستعمرات و ممتلكاتها. و قد ألزم أعضاء الهجرة الثانية المستوطنين القدامى بتوظيفهم كحراس، و بالتالي توليهم أمن المستعمرات، عبر منظمة «الحارس» (هشومير) المسلحة بصورة شبه علنية.

لقد حمل أعضاء الهجرة الثانية معهم من روسيا فكرة العنف المسلح لفرض وجودهم القسري على السكان العرب الفلسطينيين. و كان هؤلاء قد مارسوا مثل هذا النشاط في أوديسا و هومل و غيرهما، في أثناء الاضطرابات في روسيا. و كان نشاط العمل المسلح بين طلائع المهاجرين، و منهم: يحزقيل خانكين و يتسحاق بن - تسفى و يسرائيل شوحط و إسكندر زايد و غيرهم. و منذ وطئت أقدامهم أرض فلسطين، و نزلوا المستعمرات القائمة كعمال، راحوا يتآمرون لفرض حمايتهم على المستوطنين القدامى. و انتهزوا فرصة فشل ترتيبات الحراسة التي وضعها هؤلاء المستوطنون في زخرون يعقوف و رحوفوت و بيتح تكفا و ريشون لتسيون، ل طرح أنفسهم حراسا على أرواح المستوطنين و ممتلكاتهم. و كان هؤلاء قد وضعوا بعض الترتيبات للحراسة، قام بها «نواطير» خيالة. و لما فشل هؤلاء النواطير في صيانة أمن المستعمرات، استبدلوا بنواطير محليين. و انتهز المهاجرون الجدد هذا الوضع للتآمر و التحريض، من منطلق شعار العمل العبري، الذي حملوه معهم من

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٠

مواطنهم الأصلية. و على الرغم من معارضة المستوطنين القدامى، استطاع هؤلاء المهاجرون الجدد فرض إرادتهم، و تسلموا مهمة الحراسة في المستعمرات.

و بذلك وضع أعضاء الهجرة الثانية حجر الأساس للمنظمات الإرهابية الصهيونية المسلحة في فلسطين. فالحراس كانوا أحد أذرعة حزب بوغالي تسيون (عمال صهيون) لتنفيذ خطته الاستيطانية وفقا للنهج العملي الذي تبناه و شرع بتطبيقه.

و بداية، سعى هؤلاء لاحتلال العمل، بما في ذلك الحراسة، في المستعمرات اليهودية، و طرد العمال العرب منها، بمن فيهم النواطير، و بالقوة إذا لزم الأمر.

و كانت كل واحدة من تلك المستعمرات قد عهدت بشؤون حراستها إلى إحدى القبائل البدوية المحيطة، أو القرى الشركسية القريبة. و بعد محاولات مبعثرة و عفوية، و إزاء ازدياد معارضة المستوطنين القدامى، عقد (١٩٠٩ م) المؤتمر التأسيسي لمنظمة هشومير (الحارس)، في مستعمرة مسحة (الجليل الأسفل). و تقرر في المؤتمر إنشاء منظمة تتولى حراسة المستعمرات و إعداد الحراس و تدريبهم على ركوب الخيل و استعمال السلاح. لكن أعمال المنظمة تعثرت في البداية، نظرا إلى قلة عددها، و عدم خبرة أفرادها، و سلوكهم الاستعلائي، سواء إزاء المستوطنين، أو الفلاحين العرب في الجوار. و قد أدى ذلك إلى نتائج عكسية للهدف الذي أقيمت المنظمة من أجله - حماية المستعمرات - فعاد سكانها إلى استخدام نواطير من القبائل و القرى المجاورة.

و لعل النجاح الأكبر الذي حققته منظمة هشومير، كان على صعيد طرد الفلاحين المرابين من أراضي الملاكين الغائبين، الذين باعوا تلك الأراضي إلى الصندوق القومي اليهودي. فقد ساهم مسلحو تلك المنظمة (١٩٠٩ م) في السيطرة على أراضي مستعمرة دغانيا (جنوب بحيرة طبرية)، و تثبيت المستوطنين فيها، على الرغم من مقاومة الفلاحين العرب. و كذلك فعلوا في الخضيرة مع سكان القرى المجاورة، إذ نشبت معركة بشأن أرض يقيم عليها فلاحون عرب. و نجح المستوطنون، بدعمهم مسلحون من منظمة هشومير، في طردهم منها، بعد وقوع عدد من الإصابات في الجانبين. و في النهاية استولى مستوطنو الخضيرة على الأرض. و كان الحادث الأبرز في مرج ابن عامر، إذ باعت عائلة لبنانية من الملاكين الغائبين، سرسق، الأراضي التي أقيمت عليها مستعمرة مرحافيا (١٩١١ م)، بالقرب من الفولة. و قاوم الفلاحون انتزاع الأرض من أيديهم بشدة، لكن مسلحي منظمة هشومير تغلبوا في النهاية، و فرضوا سيطرتهم على الأرض. و كان حاكم طبرية التركي يدعم المستوطنين في مسألة هذه الأرض، التي دار بشأنها صراع طويل، قاده حاكم الناصرة، شكري

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤١

العسلي. لكن يوسف سرسق، مالك الأرض، استطاع بالرشاوى إبعاد العسلي من فلسطين، و نقله من موقعه، ليتسنى له تنفيذ الصفقة الكبيرة. و هكذا فعل آخرون من الملاكين الغائبين، الذي وضعوا أيديهم على الأرض في فترة التنظيمات بأساليب متعددة من الاحتيال على الفلاحين، و التآمر مع الموظفين الأتراك الفاسدين.

ثالثا: وعد بلفور

إشارة

لم يجد المؤرخ الكبير أرنولد توينبي مناصا من إدانته بلاده على تقديم «وعد بلفور» للحركة الصهيونية، معلنا أنه كان كليزي يشعر بالخجل و الندم الشديدين على ازدواجية المعايير الأخلاقية التي حكمت سلوك حكومة بلاده في الإقدام على هذه الفعلة المنكرة. فقد قام وزير خارجية إنكلترا في أثناء الحرب العالمية الأولى اللورد آرثر جيمس بلفور، بتقديم الوعد الذي حمل اسمه، نيابة عن حكومته، و الذي تعهد به العمل على إقامة «وطن قومي» لليهود في فلسطين. و ذلك في رسالة وجهها إلى اللورد اليهودي الصهيوني ليونيل روتشيلد، في ٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧ م، طالبا منه إبلاغ مضمونها إلى قيادة الحركة الصهيونية. و قد جاء هذا الوعد البريطاني تويجا لمرحلة طويلة من العمل الصهيوني للحصول على البراءة الدولية للاستيطان في فلسطين، كما كان فاتحة عهد جديد من الصراع بشأنها، بين دعاة هذا الاستيطان و أعوانه، و بين الشعب الفلسطيني و الأمة العربية و أصدقائهما، لا يزال مستمرا، في صيغة أو في أخرى حتى يومنا هذا (١٩٩٦ م).

لكن وعد بلفور لم يكن الخديعة المزدوجة الوحيدة التي قامت بها بريطانيا بالنسبة إلى فلسطين و الأمة العربية، قبل الحرب العالمية الأولى، و في أثنائها و بعدها.

فقد عمدت حكومتها إلى الخداع في محادثات مكماهون- الشريف حسين، و كذلك في اتفاق سايكس- بيكو، و إلى المناورة في مؤتمرات السلام التي انعقدت بعد الحرب. و مهما كانت الحجج و الذرائع التي ساقتها بريطانيا، فالحقيقة الساطعة تبقى أن الاستيطان الصهيوني ثبت أقدامه في فلسطين تحت انتدابها، و في حماية جيوشها.

و على أية حال، فقد سبق بلفور بالدعوة إلى توطين اليهود في فلسطين وزيران بريطانيان آخران، شافنبري و بالمرستون، منذ أيام حملة محمد علي. و في الفترة نفسها، قام رئيس بلدية لندن، اللورد اليهودي مونتفيوري، بزيارة لفلسطين، عرج خلالها على مصر، و طرح على محمد علي «استئجار الجليل»، لإقامة استيطان الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٢

يهودي فيه، فرفض الوالي الطلب. لكن مونتفيوري قام خلال الأربعينات و الخمسينات من القرن التاسع عشر بزيارات متكررة لفلسطين و إستنبول للغرض نفسه. و قد نجح في بناء حي مونتفيوري في القدس، أسكن فيه عددا من العائلات اليهودية التي كانت تقيم داخل أسوار ميثا شعاريم.

و قد صدر هذا الوعد الذي شكّل محطة رئيسية في تاريخ الاستيطان الصهيوني، و بالتالي القضية الفلسطينية، في سياق الحرب العالمية الأولى، بأسبابها و أهدافها، و عندما بانت نتائجها، و بالانسجام مع المخططات البريطانية إزاء المنطقه. و كان نصّ الرسالة كما يلي:

وزارة الخارجية

٢ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٧ م

عزيزي اللورد روتشيلد

يسرني جدا أن أبلغكم بالنيابة عن حكومة جلالة الملك التصريح التالي الذي ينطوي على العطف على أمانى اليهود الصهيونية، و قد عرض على الوزارة و أقرته.

«إن حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين، و ستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية، على أن يفهم جليا أنه لن يؤتى بعمل من شأنه الإخلال بالحقوق المدنية و الدينية التي تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة في فلسطين، و لا بالحقوق أو الوضع السياسي الذي يتمتع به اليهود في البلاد الأخرى.»

و سأكون شاكرا لو تكرمتم بإحاطة الاتحاد الصهيوني علما بهذا التصريح.

المخلص

آرثر جيمس بلفور

و فلسطين، بسبب موقعها الجغرافي الاستراتيجي، راحت خلال القرن التاسع عشر تكتسب أهمية متزايدة، بعد فترة طويلة من التهميش. فالعوامل التي تسببت باحتدام المسألة الشرقية، أدت بطبيعة الحال إلى تركيز اهتمام الأطراف المنخرطة في هذا الصراع على فلسطين. و قد أشعلت حملة نابليون على مصر الضوء الأحمر لدى دول أوروبا، و خصوصا بريطانيا، التي كانت طرق مواصلاتها إلى الهند شريان الحياة بالنسبة إليها. و جاءت حملة محمد علي لتركز الأضواء على فلسطين، و بعد انسحابه، لتحرك موجة من تهافت دول أوروبا على فتح قنصليات لها في القدس، و البحث عن طوائف دينية تضعها تحت حمايتها، كذريعة للحصول على موطن على قدم سياسي لها في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٣

البلد. لكن النصف الثاني من القرن التاسع عشر، أبرز أهمية فلسطين الاستراتيجية، و خصوصا بعد حفر قناة السويس، و من ثم شراء بريطانيا أسهم مصر فيها، و بالتالي احتلالها البلد بأكمله (١٨٨٢ م). و منذئذ، تعززت أطماع بريطانيا في فلسطين، و راحت حكومتها، و خصوصا وزارة المستعمرات فيها، و تحت إلهام موظفيها في القاهرة، تنظر إلى فلسطين كخط دفاع عن مصر و قناة السويس.

و عبر العصور، تبدلت الأسباب التي أعطت لفلسطين أهميتها في حسابات القوى المتصارعة للهيمنة على الشرق الأوسط. و في النصف الثاني من القرن التاسع عشر، عادت المواصلات الدولية لتبرز أهمية فلسطين الاستراتيجية. و قد دفع تنامي الرأسمالية الأوروبية، في

مرحلته- التجارية و الصناعية- إلى تطور وسائل النقل و طرق المواصلات. و حتى بعد اكتشاف رأس الرجاء الصالح، لم تتلاش أهمية البحر الأبيض المتوسط، و شرقه تحديداً، في المواصلات الدولية. فقد ظلت السفن الصغيرة تفضل الإبحار في المتوسط الهادىء نسبياً، على المغامرة في مياه الأطلسى المائجة. و لكن المنعطف الكبير وقع بعد حفر قناة السويس، في فترة كانت فرنسا تتمتع بالأفضلية في مصر، فتعزز موقعها هناك أكثر، الأمر الذى أثار بطبيعة الحال قلق بريطانيا، وصولاً إلى الإقدام على احتلال مصر. و نظراً إلى ما جرّه ذلك من انعكاسات في إستنبول، فقد تغيرت سياسة بريطانيا تجاه سلامة و وحدة أراضي السلطنة. و بعد فترة طويلة من استقرار السياسة البريطانية على مبدأ الحؤول دون تفتيت السلطنة العثمانية، بدأت لندن تبدل وجهة نظرها، و تضاعف جهودها لتوسيع مناطق نفوذها، انطلاقاً من اقتناعها بأن هذه المناطق ستصبح مستعمرات في المستقبل القريب.

و بعد أن احتلت بريطانيا مصر، تبنت سياسة فرنسا أيام محمد على بالنسبة إلى بلاد الشام، أى السيطرة عليها، أو على الأقل جنوبها، كخط دفاع عن مصر.

و اصطدمت سياسة بريطانيا هذه بالوجود الفرنسى، الذى ضرب جذوراً عميقة في لبنان، و منه سعى للتمدد في الاتجاهات جميعها و بالتالى العمل على حصر النفوذ البريطانى في مصر، و بذلك اكتسبت فلسطين مزيداً من الأهمية. و بريطانيا، التى أرادت في أيام بالمرستون إقامة كيان سياسى يهودى في فلسطين لمحاصرة التمدد الفرنسى عبر محمد على، صارت الآن تريد إقامة هذا الكيان للدفاع عن قناة السويس، أو لمحاصرة النفوذ الفرنسى في لبنان. و باقتراب نهاية القرن التاسع عشر، اتخذت المنافسة بين بريطانيا و فرنسا طابعاً مالياً اقتصادياً. و راحت الدولتان توظفان مبالغ كبيرة في المشاريع الاستثمارية داخل أراضي السلطنة. إضافة إلى القروض للخرينة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٤

العثمانية المفلسة. و كان أهم هذه المشاريع بناء خطوط السكك الحديدية. و احتدم هذا التنافس مع دخول ألمانيا على هذا الخط، عبر علاقاتها مع الأتراك الجدد، و العمل على بناء «خط الشرق السريع»، بين إستنبول و بغداد، مروراً بالإسكندرون. و أثار ترسيخ أقدام فرنسا في لبنان و سورية، و ألمانيا في إستنبول نفسها، مخاوف بريطانيا، و خصوصاً ممثليها في القاهرة، إذ إن المندوب السامى اللورد كيتشنر، اعتقد أن تركيا قد تقوم بهجوم لاسترداد مصر، بمساعدة دولة حديثة، مثل ألمانيا أو فرنسا. و حتى بعد «معاهدة الصداقة» (١٩٠٣ م) بين فرنسا و بريطانيا، التى بموجبها اعترف كل طرف بمصالح الآخر، ظلت العلاقة بين الطرفين تتميز بالتنافس.

و لذلك، رأى كيتشنر ضرورة إقامة كيان سياسى يهودى في فلسطين، بين عكا و العقبة.

و قد زاد في مخاوفه بناء «سكة حديد الحجاز» (١٩٠٦ م) بين دمشق و مكة، و خصوصاً بعد أن طلب الأتراك من ألمانيا استكمال فرع درعا- حيفا، ليصل إلى رفح، و من ثمّ بناء فرع بين معان و العقبة. و من مقره في القاهرة، أدار كيتشنر دعائية مضادة لفرنسا في سورية، الأمر الذى أدى إلى توتير العلاقة بين الدولتين. و إزاء هذه السياسة البريطانية جرى تقارب بين فرنسا و ألمانيا، و اشترك الطرفان بإقامة خطوط سكك حديدية.

فدخل الأطراف الثلاثة في تنافس محموم بشأن وضع مشاريع لبناء سكك الحديد.

إن الشرارة التى أشعلت نار الحرب العالمية الأولى، حدثت في سارايفو- البوسنة. و لكنها، على خلفية التنافس بين الدول الرأسمالية بشأن بسط نفوذها على المستعمرات و الموارد و الأسواق، و على أرضية التحالفات القائمة على المصالح و موازين القوى، سرعان ما انتشرت إلى جميع بقاع الأرض، فاستحقت بذلك عن جدارة اسم «الحرب العالمية الأولى». و مع اندلاع الحرب، جرّ كل من المعسكرين إليها الأقطار العربية الواقعة تحت حكمه. و على العموم، كان كل قطر عربى يقف ضد القوة التى تحكمه، الأمر الذى يشير إلى نزعة الاستقلال القوية لدى شعوب الأمة، التى أملت أن تناله في نهاية الحرب. و لعل التناقض الصارخ على هذا الصعيد كان في بلاد الشام، إذ تمحورت الحركة القومية حول التخلص من الحكم العثمانى.

وعندما دخلت تركيا الحرب إلى جانب دول المحور، وجدت نفسها في بلاد الشام تقاتل على أرض معادية، كما وجد الشعب العربي هناك نفسه تحت حكم عسكري معاد. وكانت سنوات الحرب عسيرة على الناس، ودمرة للبلاد التي كانت مسرح عمليات الجيش الرابع العثماني، بقيادة أحمد جمال باشا. ولم يدخر هذا وسيلة للتكامل بالقوى والشخصيات الوطنية، أو الاعتداء على السكان ونهب ممتلكاتهم وأرزاقهم وتسخيرهم في الأعمال الإجبارية. ولستين طويلة ظلت ذكريات أيام الحرب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٥

السوداء محور أحاديث الناس، وأصبح «السفر برلك» (التجنيد) مرادفا للظلم والجوع والمرض والمطاردة والنهب والخراب. وبانقسام الوطن العربي إلى منطقتي نفوذ للحلفين المتحاربين، وبالتالي إلى مسرحين للعمليات العسكرية، فقد سعى كل منهما لاستغلال حالة التدمير لدى السكان ضد القوة الحاكمة في الجانب الآخر، وتوظيف كراهيتهم لاستعمارها في عمل عسكري ضدها. فاستغل الألمان والأتراك النضال ضد المستعمرين الإنكليز والفرنسيين والإيطاليين في شمال إفريقيا والسودان، وقدموا له الدعم. وبلغ هذا النضال ذروته في المغرب، الذي أطلقت عليه فرنسا اسم «الجهة الثانية». وكذلك الأمر في ليبيا، إذ لم يبق بيد الإيطاليين في بداية سنة ١٩١٥ م سوى شريط ضيق في الساحل. وقام رجال القبائل الليبية بغزوات ضد الإنكليز في مصر. في المقابل، استغلت إنكلترا وفرنسا الحركة القومية العربية في المشرق والجزيرة، ودعمتها وحرصتها على القيام بانتفاضة ضد الحكم التركي. وقد حققتا نجاحا كبيرا على هذا الصعيد، إذ عبر الشريف حسين أقامتا اتصالات مع القوى القومية العربية، التي شكّلت جيشا انضم إلى الحلفاء ضد تركيا.

وبحسب الخطأ، تولى الجيش التركي القتال على جبهتين - القفقاس وقناة السويس. وكان الجيش الرابع، بقيادة أحمد جمال باشا، يخطط لعبور قناة السويس إلى مصر، ونقل ساحة العمليات إلى إفريقيا، وذلك بالاستناد إلى دعم السكان المفترض، استجابة لدعوة «الجهاد» التي أطلقها السلطان في تشرين الأول/أكتوبر ١٩١٤ م. وكانت القيادة الحقيقية لهذا الجيش بيد الكولونيل كريس فون كريسشتاين، الملحق العسكري الألماني في دمشق. وقد عسكر هذا الجيش في بلاد الشام، التي لم تكن مهية لذلك اقتصاديا، فقاسى سكانها الأمرين من نزول هذا الجيش بين ظهرانيهم. ولتموينه، صادرت السلطات المواد الغذائية والمواشي والمحاصيل.

وللوقود اللازم له، قطعت الأشجار، حتى المثمرة. ولأعمال السخرة سحب الفلاحون من قراهم إلى خطوط الجبهة لحفر الخنادق وغيره من الأعمال. فساءت أوضاع البلاد الاقتصادية، واختفت البضائع من الأسواق، واستشرت أعمال السوق السوداء، وصولا إلى المجاعة والأوبئة. وخلال أعوام الحرب الأربعة. هلك مئات الآلاف من الناس جوعا ومرضاً في بلاد الشام والعراق.

وجاء دخول تركيا الحرب، وبالتالي نقل مسرح عملياتها إلى الشرق، وسلوك الجيش التركي المتسيب، وسياسة القمع التي تبناها جمال باشا، لتفاقم نعمة السكان العرب على الحكم العثماني. وكانت الحكومة التركية قد قلدت جمال باشا صلاحيات

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٦

مطلقة في بلاد الشام. فأعلن الأحكام العرفية، وألغى مجالس الولايات والمحاكم المدنية، وأبطل الاستقلال الذاتي لجبل لبنان، والامتيازات التي أعطيت للطوائف الدينية المتعددة بحسب الاتفاقات مع الدول الأوروبية. وانتهاز حالة التملل العامة لقمع الحركة الوطنية والتكامل بقياداتها، وعمل على مكافحة النشاط السياسي والثقافي العربي، وسعى لفرض التريك بالقوة. واشتدت أعمال القمع بالتوازي مع تصاعد التدمير بين قطاعات السكان الواسعة، وخصوصا بعد تجاهلهم دعوة السلطان إلى الجهاد، بل مقاومة التجنيد، والفرار من الخدمة وأعمال السخرة. وراحت ردادات الفعل العنيفة تندلع بصورة عفوية على سياسة جمال باشا، وسلوك جيشه، وما يقوم به من أعمال السلب والاعتداء على السكان وحرمانهم، ومصادرة محاصيلهم وأموالهم ودمارهم، وقطع أشجار بساتينهم وكرومهم.

وعلى أرضية النزعات الاستقلالية لدى سكان الولايات العربية في السلطنة العثمانية، والتناقضات التي برزت بين الحركتين القوميتين -

العربية و التركية- جاءت الحرب لتزيد في تفاقم العداء العربي للحكم العثماني. و إزاء ردات الفعل العفوية العنيفة ضد سلوك الجيش التركي، شدّد جمال باشا من إجراءاته القمعية على السكان، فدخلت العلاقة بينهما في لولب متصاعد من احتدام التناقض و ارتفاع حدة المواجهة.

و اضطر جمال باشا إلى فرز نصف جيشه لقمع المقاومة المحلية. لكن جزءا كبيرا من وحدات ذلك الجيش كانت من أبناء الولايات العربية- أكراد و عراقيين و سوريين- لم يلبثوا أن انحازوا إلى مواطنيهم. فبرزت الاتجاهات المعارضة للحرب داخل الجيش، و بالتالي اتساع نطاق ظاهرة الفرار منه، و التقاعس عن القيام بالمهمات، و صولا- إلى التمرد. ففي سنة ١٩١٥ م وقعت تظاهرات في المدن السورية و العراقية (النجف و كربلاء). و في سنة ١٩١٦ م انتفضت حامية الموصل، التي كان أفرادها من العرب، كما نشطت مفاوز مسلحة بالعمل ضد الجيش التركي في جبل العرب (الدروز)، و شمالي لبنان و دمشق. و راح هذا الوضع يتطور نحو «الثورة العربية الكبرى».

(أ) المشاركة العربية في الحرب

في بداية الحرب، انقسمت الحركة القومية العربية بين معاد للدول الأوروبية، و بالتالي منحاز إلى السلطنة العثمانية، على أمل الحصول منها على الاستقلال بعد الحرب، و بين معاد للسلطنة، منحاز إلى الدول الأوروبية، على أمل تحقيق الاستقلال بمساعدتها بعد الحرب أيضا. لكن هذا الانقسام تلاشى خلال الأعوام الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٧

الأولى للحرب. فالقوى التي رأت دعم تركيا، بغض النظر عن صوابية موقفها أو عدمها، فقدت التأييد الجماهيري لها، بعد الهزائم التي منى بها العثمانيون، و نتيجة ردات فعل الناس على سلوك الجيش التركي في الولايات العربية. و برز بين الداعين إلى مناصرة تركيا، في إطار «الجامعة الإسلامية»، و تحت شعار «الجهاد المقدس»، كل من عبد الرحمن الشهبندر و محمد كرد علي. و تقرب جمال باشا منهما، و وعد بإعطاء الولايات العربية استقلالها بعد الحرب، و صدرت الصحف الناطقة بلسانها تناصر هذا الخط، و تشكلت جبهة عربية- عثمانية معادية للدول الأوروبية. لكن هذه الجبهة تصدعت سريعا، بعد اكتشاف مدى تغلغل ألمانيا في الحكومة العثمانية، و ردات الفعل الشعبية في الولايات العربية على هزيمة الجيش التركي، و سوء تصرفه في الحرب التي خاضها، و إدارته لها.

و كان واضحا منذ البداية أن أغلبية القوميين العرب كانت مع الاستقلال، و بالتالي مناهضة الحكم العثماني. و جاءت الحرب، بطرق إدارتها و نتائجها، لتزيد في النقمة العربية على هذا الحكم. و قد أدت سياسة جمال باشا القمعية إزاء الوطنيين العرب، من جهة، و النشاط الذي قام به الحلفاء لاستمالتهم، من جهة أخرى، دورا في تلبية روح الثورة على العثمانيين في الولايات العربية الواقعة تحت حكمهم. و إزاء الاستجابة الواسعة للدعاية المضادة للعثمانيين، و التي كانت تصدر من القاهرة، برعاية بريطانية، تصاعدت وتيرة قمع جمال باشا للوطنيين العرب و التنكيل بقياداتهم. و راح يتجسس على نشاط المثقفين و الضباط الوطنيين، و وقعت في يده معلومات عن اتصالات يجريها بعضهم مع قناصل فرنسا، توحى بالإعداد لثورة عربية ضد العثمانيين. فشنّ جمال باشا حملة عنيفة على الحركة الوطنية العربية، برموزها و صحفها و مقراتها. و قدم للمحاكمة بتهمة الخيانة العظمى الكثيرين من رجالها، و أعدم بعضهم، و أودع السجن آخرين.

و قبل دخول تركيا الحرب إلى جانب ألمانيا، كانت بريطانيا قد أجرت اتصالات أولية مع الشريف الحسين بن علي، أمير الحجاز. و بعض هذه الاتصالات تمّ عبر أحد أبنائه، عبد الله بن الحسين، (ملك الأردن لاحقا)، الذي كان عضوا في البرلمان العثماني، و استغل سفره بين إستنبول و الحجاز لإجراء اتصالات مع الإدارة البريطانية في القاهرة. و عندما نشبت الحرب، و أصبح الشرق الأوسط أحد مسارحها، عاد البريطانيون إلى إحياء تلك الاتصالات، و بصورة أكثر إلحاحا، و طرحوا على الشريف الثورة ضد العثمانيين. و بينما

رأى الشريف في ذلك فرصة لتحقيق أحلامه في الخلافة، رأى فيه الإنكليز المرشح الأفضل لقيادة الحركة الوطنية العربية، لما كانوا الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٨ يعرفونه من موقف رموزها في بلاد الشام. وامتنع الشريف من إعلان الجهاد، وسانده في ذلك الشريف إدريس في اليمن، وابن سعود في نجد، وابن رشيد في الكويت.

و إذ راح الحسين بن علي يحرق جسوره مع العثمانيين، فإن محادثات ابنه عبد الله مع الإدارة البريطانية في القاهرة، لم تسفر عن اتفاق يلبي طموحاته، و خصوصا بعد الاتصالات التي أجراها ابنه الآخر، فيصل، مع قادة الحركة الوطنية في دمشق.

و بينما استمر عبد الله بن الحسين في اتصالاته مع المندوب السامي البريطاني في القاهرة، السير هنري مكماهون، الذي حل محل اللورد كيتشنر، و الذي بدوره أصبح وزير الحرب البريطاني، أجرى الشريف اتصالات مع القبائل في الجزيرة العربية، و مع الحركة الوطنية في بلاد الشام. و في ربيع سنة ١٩١٥ م، أرسل ابنه فيصل إلى إستنبول، في الظاهر لاستجلاء موقف العثمانيين من الشريف بعد الحرب، و في الباطن لإجراء اتصالات مع القوميين العرب في دمشق. و كان فيصل قريبا من هذه الأوساط، إذ انتمى إلى جمعية العهد السرية، و كانت له صلات مع جمعية العربية الفتاة. و في اجتماعاته السرية مع قادة العمل القومي في دمشق، نصحه هؤلاء بالتعاون مع الإنكليز، إذا قبلوا بشروط «بروتوكول دمشق»، الذي كانت النقطة المركزية فيه اعتراف الإنكليز باستقلال «الدولة العربية» في حدودها الطبيعية بعد الحرب. و إذا تمسك الشريف حسين بهذه الشروط، قبلت به الحركة القومية قائدا لها.

و يقضى بروتوكول دمشق بأن تكون حدود الدولة العربية المحيط الهندي في الجنوب، و خط العرض ٣٧ في الشمال، و بذلك تضم بلاد الشام و العراق و الجزيرة العربية، ما عدا عدن. كما اشترط البروتوكول إنهاء نظام الامتيازات لقاء عقد حلف دفاعي مع بريطانيا، و منحها أفضلية اقتصادية لمدة خمسة عشر عاما. و شكّل هذا البروتوكول نقطة انعطاف في عمل الحركة القومية العربية، إذ حسمت سياستها تجاه العثمانيين، من جهة، و البريطانيين من جهة أخرى. و على الصعيد العربي، شكّل البروتوكول إعلانا بالتحالف بين قوى المثقفين و الضباط و البورجوازية العربية الناشئة، و بين الإقطاع الديني - السياسي، الذي مثله الشريف حسين، بل أكثر من ذلك، قبول تلك القوى العمل تحت قيادة الشريف. و إذ شكّل ذلك ركيزة قوة عربية للشريف، الذي قبل بشروط البروتوكول، فإن تمسكه بها عَقَد المحادثات مع مكماهون، الذي رأت حكومته أن موقف الشريف هذا غير مقبول، على خلفية المخططات التي رسمتها للمنطقة بعد الحرب، و خصوصا ما يتعلق منها بفلسطين، و مطالب الحركة الصهيونية العالمية فيها.

و بعد عودته فيصل من دمشق، استأنف الشريف حسين المفاوضات مع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٩

مكماهون، و اقترح في رسالته بتاريخ ١٤ تموز/ يوليو ١٩١٥ م التعاون بين العرب و إنكلترا على أساس بروتوكول دمشق. و بعد رفض أولى لشروط الشريف، عاد مكماهون و بعث إليه برسالة في ٢٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٥ م، صارت تعرف ب «اتفاقية مكماهون-الحسين». و قد اضطرت الحكومة البريطانية إلى الاستجابة، و لو الجزئية، لمطالب الشريف تحت ضغط الأوضاع على جبهات القتال. و تعهد المندوب السامي البريطاني في القاهرة، باسم حكومته، بالاعتراف باستقلال الدولة العربية، تحت «العرش الهاشمي». إلا إن هذا التعهد تضمن تعديلات أساسية على الحدود الواردة في بروتوكول دمشق. فضلا عن المحميات البريطانية في جنوب الجزيرة العربية، استثنيت الأراضي الواقعة غرب أقصية حلب و حماة و حمص و دمشق، (الأراضي التي ادّعت عليها فرنسا). و بينما تكون ولايتا البصرة و بغداد ضمن الدولة العربية، إلا إنهما تبقيان تحت الإدارة الإنكليزية، و طلبت بريطانيا حقا استثنائيا بإرسال مستشارين إلى الدولة العربية، و كذلك «حمايتها» من هجوم خارجي.

و مع أن رسالته مكماهون لم ترض الشريف حسين، لكنه إزاء تطور الأحداث اضطر إلى التنازل عن بعض مطالبه. و إذ كانت بريطانيا تواجه صعوبات على ساحة القتال، و بالتالي بحاجة إلى التوصل إلى تفاهم مع العرب و كسبهم إلى جانبها، فإن وضع الشريف حسين

راح يتأزم. فقد رفض العثمانيون الاعتراف به حاكما مستقلا وراثيا في الحجاز، كما رفضوا طلبه العفو العام عن القوميين العرب. و على العكس، اتخذت المحكمة العسكرية التركية سلسلة متوالية من الحكم بالإعدام على شخصيات وطنية في نيسان/ أبريل ١٩١٦ م. و بدأ من الإجراءات أن دور الشريف نفسه قد جاء، إذ أعدت الحكومة إمدادات لإرسالها إلى الحجاز، يرافقها شريف آخر غير الحسين.

فاضطر هذا الأخير إلى إعلان الثورة، للحصول على المال و السلاح من بريطانيا (٥ حزيران/ يونيو ١٩١٦ م). و عين الحسين أبناءه الأربعة قادة للفصائل العربية من المقاتلين، و هم: علي و عبد الله و فيصل و زيد. و استطاع، خلال فترة قصيرة، مباغته الحاميات التركية في مدن الحجاز و نجد، و عزل الحاميات الموجودة في اليمن. لكن الأتراك استعادوا زمام المبادرة، و صدّوا المقاتلين البدو، فلجأ هؤلاء إلى حرب العصابات، الأمر الذي اضطر الأتراك إلى الانسحاب من الجزيرة العربية.

و بعد إعلان الثورة، سارع الشريف حسين إلى إعلان استقلال العرب في ٢٧ حزيران/ يونيو ١٩١٦. و في ٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩١٦ م، دعا بعض الزعماء العرب إلى اجتماع، حيث بويع ملكا على العرب، و أقام حكومة ضمت ابنه، علي، رئيسا للحكومة، و عبد الله، و زيرا للخارجية. و سارعت بريطانيا و فرنسا إلى إعلان

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٠

رفضهما الاعتراف بالشريف حسين ملكا على العرب. و بعد مساومة، اعترفتا به ملكا على الحجاز. و في هذه الأثناء، تقدم الجيش الإنكليزي عبر سيناء. و في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٦ م وصل العريش. في المقابل، تحصن الجيش العثماني، بمن معه من قوات ألمانية و نمساوية، في خط دفاعي بين غزة و بئر السبع. و استطاع هذا الجيش صدّ هجومين بريطانيين في شهرين (آذار/ مارس، و نيسان/ أبريل ١٩١٧ م).

فقوّرت القيادة البريطانية نقل قوات عربية من الجزيرة، بقيادة فيصل بن الحسين، و معه ضابط الاستخبارات البريطاني، لورنس، للقيام بحرب عصابات على طول خط سكة حديد الحجاز. و في حزيران/ يونيو ١٩١٧ م، احتل لورنس العقبة، و طهر شواطئ البحر الأحمر من الأتراك، و أمّن الجناح الأيمن للقوات البريطانية التي كانت تستعد لهجوم على فلسطين.

بعد احتلال العقبة، طالب زعماء الحركة الوطنية العربية الأمير فيصل بالتقدم نحو دمشق، من خلال التقدير أن ذلك سيحرك ثورة شاملة في بلاد الشام، و بالتالي يحرر العرب أنفسهم، و يتولوا زمام أمورهم بأيديهم. و لكن لورنس رفض ذلك، تمشيا مع الخطة الإنكليزية. و كانت تلك الخطة ترمي إلى حصر الدور العربي في تشكيل جناح أيمن للقوات البريطانية، يعمل في الصحراء، شرقي نهر الأردن. أما فلسطين، و بقية أجزاء سوريته، فيجب أن تحتلها القوات البريطانية لتضمن تنفيذ الاتفاقات السرية المعقودة مع كل من فرنسا و روسيا. فبينما كانت بريطانيا تتفاوض مع الشريف حسين، كانت تعد اتفاقات سرية مع فرنسا و روسيا، بشأن تقسيم أراضي السلطنة العثمانية. و قد تبلورت هذه الاتفاقات، عبر مسار طويل من المفاوضات و رسم الخرائط، في اتفاقية سايكس-بيكو، على اسم الممثلين- البريطاني و الفرنسي- اللذين توصلا إليها، و من ثم عرضها على روسيا، و تمت الموافقة عليها في مذكرات سرية بين الأطراف الثلاثة في أيار/ مايو ١٩١٦ م، و هي اتفاقية تتناقض جذريا مع الوعود المقدمة للشريف حسين.

و بموجب الاتفاق، قسمت الولايات العربية إلى مناطق، لوّنت على خريطة بألوان متعددة: (١) منطقة زرقاء، تضم غربي سورية و لبنان و كيليكيا و الجزء الجنوبي الشرقي من أناضوليا، و هي من نصيب فرنسا؛ (٢) منطقة حمراء، تضم جنوب و وسط العراق، و مينائي حيفا و عكا في فلسطين، و هي من نصيب بريطانيا؛ (٣) منطقة بنية، تضم الجزء الباقي من فلسطين، حيث ستقوم إدارة دوليه؛ (٤) منطقة صفراء، في شرق آسيا الصغرى، و هي من نصيب روسيا، إضافة إلى حقها في القسطنطينية، و المناطق الأرمنية في آسيا الصغرى، و الحماية على الروم الأورثوذكس في المنطقة عامة؛ (٥)

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥١

منطقة خضراء، ضمت الجزء الجنوبي الغربي من أناضوليا، وهي لإيطاليا. وفضلا عن ذلك، كانت هناك مناطق نفوذ: منطقة «أ»، شرقى سورية و ولاية الموصل، تحت النفوذ الفرنسى؛ منطقة «ب»، شرقى الأردن و شمال ولاية بغداد، تحت النفوذ البريطانى؛ منطقة «ج»، فى غرب و أواسط أناضوليا، تحت النفوذ الإيطالى. و فى مناطق النفوذ حصلت هذه الدول على الأفضلية فى التجارة و مد السكك الحديدية و استيراد الأسلحة و تعيين المستشارين الأجانب، و غير ذلك من الامتيازات.

و مهما كانت شروط الاتفاقات على الورق، فالواضح أن الدول التى عقدتها لم تكن جادة فى تنفيذها، و تميزت بريطانيا فى خداعها للأطراف الأخرى جميعا. فقد احتلت العراق (١٩١٧ م)، و أقامت فيه إدارة عسكرية، بقيادة بيرسى كوكس، ثم خلفه آرنولد و لسن. فأثار ذلك قلق فرنسا، و سعت لضمان المناطق المخصصة لها، عبر الاتصال بالمهاجرين السوريين و اللبنانيين فى الخارج، و طرح الحماية على البلدين معهم، الأمر الذى أثار قلق القوميين العرب. كما طالب مندوب فرنسا فى القاهرة، بيكو، حكومته بإرسال قوات عسكرية إلى الشرق، قبل أن تبتلعه بريطانيا. و مع ذلك، ظلت الدولتان - فرنسا و بريطانيا - تقدمان الوعود الكاذبة للعرب. ففى أيار/ مايو ١٩١٧ م، عندما بدأ الإعداد للهجوم على فلسطين، وصل سايكس و بيكو معا إلى الحجاز، و أجريا مفاوضات مع الشريف حسين. و مرة أخرى عاد الاثنان، اللذان وضعوا بنود الاتفاق السرى، إلى تقديم وعود كاذبة إلى الشريف، و عاد هذا الأخير و وافق على الاستمرار فى القتال إلى جانب الحلفاء.

و منذ منتصف سنة ١٩١٧ م بدأت القوات البريطانية على جبهة قناة السويس تعد للهجوم على فلسطين، بعد أن استكملت احتلال سيناء إلى العريش، و تأمين خطوط إمدادها من مصر. و تولى الجنرال ألبنى قيادة الجبهة، بما فى ذلك الجيش العربى، بقيادة فيصل - لورنس. و وضعت الخطة بحيث يقوم الجيش البريطانى، تسانده سفن و طائرات بريطانية و فرنسية، باحتلال الجزء الواقع غربى نهر الأردن. أما الجيش العربى، فيقوم بعمل مواز شرقى النهر، و يتقدم فى اتجاه دمشق، حاشدا فى طريقه كتائب الأنصار العربية، و الجنود الفارين من الجيش العثمانى. و سارع ألبنى إلى الهجوم قبل وصول تعزيزات تركية و ألمانية حسنة التدريب و عالية المعنوية، جيش المغاوير (يلدرم) من قوات الصاعقة التركية، و الفيلىق الألمانى الآسيوى. و فى ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١ٹ١٧ م اخترق ألبنى خطوط الجبهة العثمانية بين غزة و بئر السبع. و فى ١٦ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩١٧ م احتل يافا، و فى ١١ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٧ م دخل القدس.

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٣٥٢

فى هذا الوقت بالذات، أصدرت حكومة بريطانيا وعد بلفور، الذى يتناقض مع تعهدها للشريف حسين بأن تكون فلسطين جزءا من الدولة العربية المزمع إقامتها، كما يتعارض مع ما قطعته على نفسها إزاء فرنسا و روسيا فى اتفاق سايكس - بيكو، بوضع فلسطين تحت إدارة دولية. و حتى قبل استكمال احتلال البلد أقام الإنكليز فيها إدارة عسكرية. و قد أثار نشر وعد بلفور سخط القوميين العرب، و طفح الكيل عندما نشرت حكومة الثورة الروسية، برئاسة لينين، نصّ اتفاقية سايكس - بيكو. و ارتفعت الأصوات تنادى بقطع التعاون مع الإنكليز، و البحث عن سبل التفاهم مع العثمانيين.

و بينما بدأت الاتصالات مع جمال باشا، الذى بسبب صلفه لم تؤدّ إلى نتائج، فقد قامت حكومة بريطانيا بحملة من الأكاذيب و الخداع. فأرسلت الخبر بالشؤون العربية، البروفسور هوغارت، لتهدئة خواطر الشريف حسين و القيادات العربية. و نفى وزير خارجيتها، بلفور، وجود مثل هذه الاتفاقية، مؤكدا أن ما نشر هو تلفيق من الحكومة الشيوعية الروسية. و على أية حال، فإن ردة الفعل فى أواسط المثقفين و السياسيين العرب، و كذلك فى صفوف الجيش العربى، لم تكن الحسنة، و ابنه فيصل، عن استكمال المسيرة مع بريطانيا حتى نهاية الحرب.

و على الرغم من اكتشافها الخداع الذى تمارسه حكومة بريطانيا، و احتجاجها على المراوغة التى تنتهجها تلك الحكومة فى حسم الموقف من مطالبها، فقد ظلت الحركة القومية العربية، بوجه عام، تقف إلى جانب الحلفاء. و فى المرحلة الأخيرة من الحرب، أدت

القوات العربية دورا مهما في هزيمة الجيش العثماني الرابع الذي كان في وضع يدعو إلى اليأس في بداية سنة ١٩١٨ م. و كان جمال باشا قد عزل من قيادته، و وضع تحت القيادة الألمانية مباشرة، و لكن من دون فائدة كبيرة. و بغض النظر عن افتضاح أمر الخداع البريطاني، ظلت رغبة العرب القوية في التخلص من الحكم العثماني تحفزهم على القيام بانتفاضة ضد الجيش الرابع، مستفيدين من أوضاعه المتدهورة. و نشطت أعمال الثوار في الحوران و غوطة دمشق و جبال بعلبك.

ثم انتقلت إلى حوض الفرات الأعلى و الأوسط، مهددة خطوط المواصلات لذلك الجيش. و هجرت الوحدات العربية و الكردية مواقعها، و انضمت إلى الجيش العربي.

و بانقطاع المؤن و العتاد عن هذا الجيش، و انتشار أعمال المقاومة ضده في جميع أنحاء بلاد الشام، عمت الفوضى صفوفه، و هبطت معنويات أفرادها، و أصبح على شفا الانهيار.

و منذ منتصف سنة ١٩١٨ م، بدأ الإعداد لاستكمال احتلال بلاد الشام. فتقدم الجيش العربي و أخذ معان، و راح يعد للتقدم شمالا، و إشعال الثورة في سورية. لكن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٣

اللبناني اعترض بشدة، و طلب تأجيل ذلك إلى أن يتقدم الجيش البريطاني، فتواكب الانتفاضة دخوله هو إلى سورية، ذلك لأن اللبني لم يكن يريد أن يحرر العرب أنفسهم. و جرى الإعداد للانتفاضة في جبل العرب (الدروز) على يد سلطان باشا الأطرش، و في غوطة دمشق على يد محمد البكري، مندوبا عن الأمير فيصل. و في ١٩ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨ م، بدأ الهجوم البريطاني من القدس في اتجاه نابلس فالناصره. في المقابل تقدم الجيش العربي إلى درعا، و قطع طريق الانسحاب على الجيش العثماني المتراجع بصورة فوضوية. و وقع في أسر اللبني ٧٢ جندي تركي و ٤٠٠٠ ألماني. و دخل الجيش العربي دمشق في ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨ م، قبل الجيش البريطاني بيوم واحد. و في ٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨ م، احتل الإنكليز بيروت، و بعدها طرابلس في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨ م، و من ثم حلب، كبرى مدن شمال سورية في ٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨ م.

في ٣٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩١٨ م استسلمت تركيا، و وقع ممثلوها صك الاستسلام على ظهر السفينة الحربية البريطانية «أغامنون»، التي رست في مودروس (ميناء جزيرة ليمنوس في بحر إيجه). و بموجب هذا الصك، استسلمت القوات العثمانية جميعها في الولايات العربية للحلفاء، و أنهت الإدارة العثمانية فيها. و بذلك وصل الحكم العثماني في الوطن العربي إلى نهايته، بعد أربعة قرون، و بدأت مرحلة جديدة، سمتها الحقيقية الاحتلال، تحت يافطة «الانتداب». ففي ٣٠ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨ م، يوم دخل الجيش العربي دمشق، وقعت بريطانيا و فرنسا في لندن اتفاقية تحدد نظام احتلال البلاد. فكانت القيادة العليا بيد الجنرال اللبني. أما الإدارة المدنية، فقد قسمت بين الحلفاء. و تولت فرنسا شؤون لبنان و غرب سورية بصورة مباشرة، و داخل سورية بصورة مداورة. و احتفظت بريطانيا بإدارة فلسطين مباشرة، و شرق الأردن مداورة. و عهد إلى فيصل، بصورة غامضة، إدارة الداخل في بلاد الشام، بينما ظل والده، الشريف حسين، أميرا على الحجاز. و لكن هذا الوضع ما لبث أن تغير أيضا، ليصبح أكثر انسجاما مع مخططات فرنسا و بريطانيا الاستعمارية.

و هكذا، و بينما كان العرب يحاربون إلى جانب الحلفاء، و يقومون بدور فعال في تصفية الحكم العثماني بالوطن العربي، كان ساسة دول أوروبا، و خصوصا بريطانيا و فرنسا، يتآمرون عليهم لحرمانهم من الاستقلال الذي تطلعوا إليه عبر هذا التحالف. و قد عبرت اتفاقية سايكس- بيكو، و من بعدها وعد بلفور، عن عملية الخداع الكبرى التي مارستها هاتان الدولتان الإمبريالتان. فموازاة المفاوضات التي كانت تجريها مع الشريف حسين، و تقدم له من خلالها العهود، كانت بريطانيا تتقدم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٤

في تجسيد فكرتها القديمة الرامية إلى إنشاء كيان يهودي في فلسطين تحت حمايتها.

وجاء وعد بلفور بمثابة البراءة الدولية التي سعى لها هيرتسل، وعمل من أجلها، لكنه لم يحصل عليها في حياته، وإنما تحقق ذلك أيام خلفه حاييم وايزمن. فقد رأى هذا الأخير في الحرب العالمية الأولى الفرصة لتحقيق الهدف الصهيوني، عبر العمل على محورين- بريطاني وأميركي. ومن أجل العمل على الساحة الأميركية، جند وايزمن قاضي محكمة العدل العليا في الولايات المتحدة، اليهودي الصهيوني لويس براندايس، الصديق الحميم للرئيس الأميركي آنذاك و درو و لسون.

(ب) الدور الأميركي في استصدار وعد بلفور

إزاء فشل الحركة القومية العربية في تحقيق الأهداف التي توختها من دخول الحرب إلى جانب الحلفاء، تضافرت عوامل عدة لنجاح الحركة الصهيونية في استصدار وعد بلفور، الذي شكّل حجر الزاوية للمشروع الصهيوني في فلسطين. وكان هذا المشروع يترنح و يقترب من الانهيار في أثناء الحرب، فجاء وعد بلفور لينفخ فيه الحياة من جديد، و يزرع الأمل في نفوس قادة العمل الصهيوني بإمكان تحقيق مشروعهم. و فضلا عن النشاط الصهيوني المتاح لتحقيق برنامج بازل، كان هناك عمل كبير لمصلحة الحلفاء- سياسيا و عسكريا و ماليا. و قد تم ذلك على أرضية الرغبة البريطانية الدفينة في إقامة كيان يهودي في فلسطين. و جاء الدعم الأميركي للمشروع الصهيوني، و تأييد الدول الحليفة الأخرى له، ليحسما الأمر بالنسبة إلى إصدار وعد بلفور. و لعل الدور الذي أدته الصهيونية في جرّ الولايات المتحدة إلى الحرب، كان العامل المباشر الأكثر أهمية في استصدار هذا الوعد، مكافأة لها على جهودها في هذا المجال، بما قلب موازين القوى في الحرب، و أدى إلى حسم نتائجها لمصلحة الحلفاء.

عندما نشبت الحرب العالمية الأولى، كان مركز العمل الصهيوني في برلين، و له محطة مهمة في لندن، و مكاتب فرعية في عدد من الدول الأخرى، و ذلك للوزن الكبير الذي كان ليهود ألمانيا في العمل الصهيوني، من جهة، و حجم هؤلاء المادى و المعنوى بين يهود العالم، من جهة أخرى. و كان طبيعيا أن ينحاز عدد من زعماء الصهيونية إلى جانب ألمانيا بالحرب في البداية، سواء بسبب عدائهم لروسيا القيصرية، أو طمعا في نيل تأييد ألمانيا للمشروع الصهيوني، و ما ينجم عن ذلك من تأثير على الحكومة العثمانية في إستنبول. و الأكيد أن هؤلاء كانوا مقتنعين بأن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٥

النصر في الحرب سيكون من نصيب ألمانيا، التي عبر تحالفها مع السلطنة العثمانية ستحقق للصهيونية أهدافها في فلسطين. و بينما وقف يهود ألمانيا إلى جانب بلدهم في الحرب، برز في بريطانيا حاييم وايزمن، الروسي الأصل، كزعيم الأمر الواقع في الحركة الصهيونية، متحالفا مع لويس براندايس في الولايات المتحدة. و استطاع هذان أن يجندا دعما كافيا في بريطانيا و الولايات المتحدة لاستصدار وعد بلفور، عندما بانت نتائج الحرب العالمية الأولى، و من ثم ضمان أن توضع فلسطين تحت «الانتداب» البريطاني في مؤتمر السلام الذي سوّى المسائل الناجمة عن تلك النتائج.

و كان انحياز زعماء الحركة الصهيونية في ألمانيا إلى بلدهم في الحرب قد أزعج زعماء آخرين في بلدان أخرى، و خصوصا أولئك الذين أرادوا التروى قبل إعلان موقف محدد، قد ينعكس سلبا على العمل الصهيوني، و رأوا من الأفضل الانتظار و قراءة موازين القوى بدقة، و من ثم تحديد الموقف في ضوء المعطيات المتوفرة.

و كان على رأس هؤلاء حاييم وايزمن، الذي سارع إلى اقتراح نقل المركز الصهيوني موقتا إلى الولايات المتحدة، متذرعا بحيادها في الحرب خلال الأعوام الأولى، كما طرح تشكيل لجنة طوارئ تنفيذية، تكلف بإدارة العمل الصهيوني إلى أن تنتهى الحرب، و خصوصا نتيجة انعدام إمكان عقد المؤتمر الصهيوني في مواعيده. و مع أن اقتراح وايزمن لم يقبل، إلا أنه أقيمت لجنة برئاسة لويس براندايس في الولايات المتحدة (١٩١٤ م)، و ذلك بعد أربعة أعوام على استقطابه للحركة الصهيونية. و نشط براندايس، بمساعدة أثرياء يهود أميركا، في الترويج للأهداف الصهيونية على الساحة، و الحصول على دعم الحكومة الأميركية في إقناع الدول الكبرى

بمبارضة قطاعات أحست بخطر الصهيونية عليها في أميركا. أما النجاح الأكبر الذي حققه براندايس فكان على الصعيد السياسي، و المساهمة في إقناع الرئيس و درو و لسون بدخول الحرب.

ولدى اندلاع الحرب، أولى المعسكران المشتبكان أهمية كبرى لكسب يهود العالم، كل إلى جانبه، مستفيدا من وعود يقدمها للحركة الصهيونية. و كان يهود الولايات المتحدة محطّ أنظار الجانيين، إذ طمع كل منهما في انحيازهم إليه.

و تنافست بريطانيا و فرنسا و ألمانيا بشأن خطب و دّ اليهود، و خصوصا على صداقة بيوت المال التي يسيطرون عليها، نظرا إلى حاجة حكوماتها للأموال و القروض.

و كانت المؤسسات المالية اليهودية- لازار و ماير و سليغمان و سباير و واربرغ و روتشيلد- تدير عمليات كبيرة في الولايات المتحدة و أوروبا. كما أراد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٦

المعسكران استغلال تأثير اليهود في السياسة الداخلية الأمريكية، و بالتالي حسم موقف أميركا من مسألة الدخول في الحرب، أو عدمه. و كان طبعيا أن تستغل الصهيونية هذا التنافس بين الأطراف المتحاربة لمصلحة مشروعها الاستيطاني في فلسطين.

و استطاعت قيادة العمل الصهيوني في برلين حمل الحكومة الألمانية على ممارسة نفوذها في إستنبول لمصلحة المشروع الصهيوني و حماية المستعمرات في فلسطين، كما عملت على الساحة الأمريكية بتوظيف المنظمات الصهيونية في إبعاد أميركا عن دخول الحرب إلى جانب الحلفاء. في المقابل، سعت كل من فرنسا و بريطانيا لكسب الموقف الصهيوني إلى جانب الحلفاء، و توظيفه في تشجيع أميركا على دخول الحرب في معسكرهم. لكن نقطة الضعف في تحركهما كان تحالفهما مع روسيا، التي كان جمهور يهود الولايات المتحدة يكن لها العدا، الأمر الذي دعاها إلى تقديم العروض المغرية للصهيونية تعويضا عن ذلك.

و إزاء المعسكر الصهيوني المنحاز إلى ألمانيا، عمل تحالف وايزمن- براندايس على تجنيد كل الطاقات الصهيونية و الصديقة لها، و زجها في المعركة إلى جانب الحلفاء لكسب الحرب، على أساس وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني بعد انتهائها، و فتح أبوابها لهجرة يهودية واسعة، و تسليمها للمستوطنين الصهيونيين عندما تصبح الأوضاع ملائمة لذلك. و لعل أهم ما قام به براندايس في الولايات المتحدة هو المساهمة الفعالة في حمل الإدارة الأمريكية على دخول الحرب إلى جانب الحلفاء. و كان صدور وعد بلفور ثمرة للنشاط الصهيوني في أثناء الحرب، و لما أخذته الصهيونية على عاتقها من تسخير مشروعها الاستيطاني في خدمة المصالح الإمبريالية في المنطقة. و بينما أدت بريطانيا الدور الأساسي في نقل الفكرة الصهيونية إلى حيز التطبيق، فإن الولايات المتحدة، في تلك المرحلة المبكرة من العمل الصهيوني، ساهمت مساهمة كبيرة على هذا الصعيد. و تفيد المصادر البريطانية نفسها (تقرير اللجنة الملكية لفلسطين)، نقلا عن رئيس حكومة جلاله الملك، لويد جورج، قوله إن زعماء الصهيونية حصلوا على وعد بلفور لأنهم برّوا بوعدهم في عمل ما بوسعهم لإيقاظ عاطفة اليهود في أنحاء العالم كافة و تأليبهم لمعاوضة قضية الحلفاء.

و على أرضية الحسابات السياسية لحكومة بريطانيا في حينه، قام النشاط السياسي و الدبلوماسي الصهيوني، بقيادة هاييم وايزمن، خلال الحرب. و قبل نهايتها، نجح في استصدار وعد بلفور. و كان البيان قد عرض على الرئيس الأميركي، و درو

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٧

و لسون، قبل صدوره، فبال موافقته السريّة، التي لم يلبث أن أتبعها بأخرى علنية بعد الصدور، مع التأكيد على دعم حكومته لما ورد فيه. و كذلك فعل وزير خارجية فرنسا (١٤ شباط/ فبراير ١٩١٨ م) و سفير إيطاليا في لندن (٩ أيار/ مايو ١٩١٨ م)، نيابة عن حكومتهما. و قبل سقوطها، أخبرت الحكومة الموقته في روسيا زعماء الصهيونية هناك، أنها تؤيد وعد بلفور، كما أعلنت بموقفها هذا حكومة بريطانيا. و كذلك فعلت الصين و اليابان و اليونان و سيام. في المقابل، قامت حكومتا ألمانيا و تركيا بإجراء اتصالات مع

مبعوثين عن الحركة الصهيونية، و أجرتا مفاوضات معهم بشأن مستقبل فلسطين. لكن حاييم وايزمن، و بمساندة براندايس، قد حسم الموقف لمصلحة الحلفاء.

و في الواقع، فإن وايزمن و براندايس كانا يعملان في أجواء ملائمة. فسنة ١٩١٦ م حملت الكوارث على الحلفاء في الحرب، إذ إنه إضافة إلى الهزائم التي لحقت بجيوشهم، نضبت مواردهم المالية، بعد الخسائر الكبيرة التي تكبدوها نتيجة نشاط الغواصات الألمانية، و بالتالي إغراق عدد من السفن المحملة بالبضائع المستوردة من الولايات المتحدة و غيرها، عن طريق الشركة المالية- مورغان- التابعة لمجموعة روتشيلد. و في هذا الجو المليد بغيوم الهزيمة على الحلفاء، أصبح الأمل بالخروج من المأزق معلقا على دخول الولايات المتحدة الحرب، و بالتالي قلب موازين القوى. و لكن الأمل بذلك كان ضئيلا، و خصوصا أن الرئيس الأميركي و لسون، كان لتوه قد كسب معركة الرئاسة الانتخابية على أساس إبقاء الولايات المتحدة خارج الحرب. و كانت محاولات المعسكرين المتحاربين لجر أميركا، كل إلى الموقف الذي يرغبه، قد باءت بالفشل، و ظلت على الحياد. و من هنا تبرز أهمية الدور الصهيوني، الذي كان قد حسم موقفه إلى جانب الحلفاء بعد إخفاق ألمانيا في إقناع تركيا بالاستجابة للمطالب الصهيونية، بترجيح الكفة في واشنطن لمصلحة قرار دخول الحرب إلى جانب الحلفاء. و قد أدى لويس براندايس دورا أساسيا في إقناع الرئيس و لسون بذلك، مستندا إلى مجموعات الضغط السياسي و الاقتصادي، الخاضعة للتأثير الصهيوني. و بذلك أصبح الطريق مفتوحا أمام استصدار وعد بلفور من قبل حكومة بريطانيا، و بتأييد قوى من الإدارة الأميركية.

و بعد تهيئة الأرضية لدخول أميركا الحرب، جاءت الذريعة في آذار/ مارس ١٩١٧ م، حين أغرقت الغواصات الألمانية عددا من السفن التجارية الأميركية، التي كانت تحمل البضائع إلى الحلفاء. و في ٦ نيسان/ أبريل ١٩١٧ م، أعلنت الولايات المتحدة الحرب على ألمانيا، من دون تركيا. فما لبثت بريطانيا أن أصدرت بيانا بشأن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٨

أهداف الحرب في الشرق الأوسط، عبر مندوبها إلى لقاء مع بعض الزعماء الصهيونيين، سايكس الذي صاغ اتفاق سايكس- بيكو. و كان البيان موجها إلى يهود الولايات المتحدة لنيل دعمهم، من جهة، و للوفاء بالتعهدات التي قطعتها الحكومة البريطانية للقيادة الصهيونية إذا أفلحت في جزّ الولايات المتحدة إلى الحرب، من جهة أخرى. و على الرغم من التعهدات التي قطعتها حكومة بريطانيا للشريف حسين في مراسلاته مع مكماهون، فقد ورد في «بيان سايكس» اعتبار فلسطين «وطنا قوميا يهوديا»، و منح المستوطنين اليهود فيها الحقوق القومية و السياسية و الاجتماعية، و السماح للمهاجرين إليها بالاستيطان فيها، بغض النظر عن موطنهم الأصلي، و إعطائهم هناك حكما إداريا ذاتيا.

و بالتواصل و التنسيق بين قيادتي العمل الصهيوني- البريطانية بزعامه وايزمن، و الأميركية بزعامه براندايس- بدأ إعداد مسودة الإعلان الذي عرف باسم وعد بلفور.

ولدى الاتفاق على الصيغة، بعد أخذ ورد، تم التغلب على العقبات، سواء داخل الحكومة البريطانية، أو التي شكلها موقف بعض الشخصيات اليهودية المعارضة للصهيونية، مثل: لويسين و ولف و كلود مونتفيوري و ماثيو ناثان و إدوين مونتغوم.

و أرسل بلفور نصّ الإعلان إلى البارون اليهودي الصهيوني روتشيلد و ذلك بعد أن تمت الموافقة عليه من قبل الرئيس الأميركي و لسون على الرغم من أن أميركا لم تكن قد أعلنت الحرب على السلطنة العثمانية، التي كانت لا تزال تحكم فلسطين. و يعود الفضل في ذلك إلى نشاط براندايس إلى حد كبير، و إلى تعاونه الوثيق مع مستشار الرئيس الأميركي هاوس. و قد صدر وعد بلفور في اليوم نفسه الذي بدأ فيه الهجوم البريطاني على فلسطين. و اعتبره قادة العمل الصهيوني بمثابة البراءة الدولية التي سعوا للحصول عليها منذ أيام هيرتسل.

و صدر وعد بلفور قبل نهاية الحرب، بعد أن كشفت قيادة الثورة البلشفية في روسيا أمر اتفاقية سايكس- بيكو، و تسبب ذلك في

إحراج الإدارة الأميركية التي لم تكن أعلنت الحرب على تركيا، بل سعت فعلا للتوسط و إيجاد حل سلمي معها. و في حزيران/ يونيو ١٩١٧ م، أوفد ولسون الصهيونيين - مورغنتاو (السفير السابق للولايات المتحدة في إستنبول)، و فيليكس فرانكفورت (صهر براندايس و ذراعه الأيمن) - لإجراء مباحثات في إستنبول بشأن إنهاء الحرب. لكن وايزمن قطع عليهما الطريق في جبل طارق، و أقنعهما بالعودة إلى واشنطن، ذلك لأن الصهيونيين أرادوا احتلال فلسطين على يد الحلفاء، الأمر الذي من دونه يبقى وعد بلفور حبرا على ورق. و من هنا كان اعتراض قادة العمل الصهيوني على اتفاقية سايكس - بيكو، كونها لم تحدد وضع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٥٩

فلسطين تحت الانتداب البريطاني المباشر، لتسليمها للحركة الصهيونية في الوقت الملائم، بل وضعتها تحت إدارة دولية. و كان وايزمن يستشعر حرج الإدارة الأميركية في تبني موقف حكومة بريطانيا بشأن فلسطين، من دون أن تكون واشنطن في حالة حرب مع تركيا، و من دون أن تكون شريكه في الاتفاقات السرية التي تمّ التوصل إليها بين فرنسا و بريطانيا (اتفاقية سايكس - بيكو). و زاد في حرج الرئيس الأميركي، ولسون، دعمه لمضمون وعد بلفور، في حين انتشرت أصدااء إعلانه مبادئه بشأن «تقرير المصير» للشعوب الواقعة تحت الاحتلال الأجنبي. و بعد احتلال الجزء الجنوبي من فلسطين، قرر وايزمن القيام بزيارة لها، تمهيدا لإقامة هيئة صهيونية فيها، تؤمن تجسيد وعد بلفور، لكن الإدارة العسكرية البريطانية لم تستجب لطلبه. و حثّ وايزمن براندايس على العمل على توفير الدعم الأميركي لوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، فرد براندايس مؤكدا أن الأوضاع الدولية الحالية لا تسمح بذلك. و لتمرير عملية الخداع الكبرى، التقى وايزمن بفيصل بن الحسين في العقبة في أيار/ مايو ١٩١٨ م لتطمينه من أن الأهداف الصهيونية في فلسطين لا تشكل خطرا على الدولة العربية المزعم إقامتها. و في الواقع، و بعد الحرب، و من خلال المفاوضات على الترتيبات اللاحقة، استطاع قادة العمل الصهيوني تحقيق أغراضهم، سواء في انقلاب الحلفاء على الوعود التي قطعوها للقوى العربية التي ناصرتهم، أو في تجنيد الدعم الأميركي لمساعدتهم في تمهيد الطريق أمام تجسيد وعد بلفور، عبر وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني.

ج) النشاط الصهيوني العسكري في الحرب

إن النشاط الصهيوني خلال الحرب لم يتوقف عند حدود العمل السياسي و الدبلوماسي، بل تعداه إلى العسكري و التجسّسي. فمع اندلاع الحرب، و انقسام أوروبا إلى معسكرين، توقف انعقاد المؤتمر الصهيوني، و بالتالي فقدت القيادة الصهيونية وحدة القرار و العمل. و تحرك منظر «الصهيونية التنقيحية» اليمينية، زئيف جابوتنسكي، لتجنيد ما سماه «الكتائب العبرية»، لاقتناعه بأن المشروع الصهيوني في فلسطين لن يرى النور إلّا بتفكيك السلطنة العثمانية، و انتصار الحلفاء في الحرب.

و في سنة ١٩١٤ م، سافر إلى مصر، و بدأ تنظيم بعض المستوطنين الذين هربوا من فلسطين إليها. و استعان بالضابط اليهودي الفارّ من الجيش الروسي القيصرى، جوزف ترومبلدور الذى قدم بدوره إلى مصر ليعرض خدماته على الجيش البريطاني في جبهة قناة السويس. و لما قوبل العرض ببرودة شديدة، عمد ترومبلدور و جابوتنسكي إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٦٠

تشكيل «كتيبة البغالة»، التي أرسلت إلى غاليلوى، و مهمتها نقل المؤن و الذخائر إلى الجبهة، في إطار الخطة العسكرية الرامية إلى إنزال قوات عسكرية على شواطئ البحر الأبيض المتوسط الشرقية. لكن هذه الخطة فشلت، و استبدلت بأخرى - الهجوم على فلسطين من سيناء. و حلّت هذه الوحدة في أيار/ مايو ١٩١٦ م، و انتقل ١٢٠ من أفرادها إلى لندن.

لكن جابوتنسكي لم يتراجع عن فكرته، حتى إزاء المعارضة الصهيونية الشديدة لتشكيل مثل هذه الكتائب. فمن جهة، خشيت القيادة الصهيونية ردة فعل السلطات التركية على المستوطنين في فلسطين بسبب ذلك، و من جهة أخرى، رأى الكثيرون من يهود أوروبا - و خصوصا في ألمانيا - في تشكيل كتائب يهودية، و زجها في الحرب إلى جانب الحلفاء، انتحارا للحركة الصهيونية، نظرا إلى اقتناعهم

بأن ألمانيا ستكسب الحرب. لكن جابوتنسكى أصّر على موقفه، وهدّد بالانسحاب من المنظمة الصهيونية، و سافر إلى إيطاليا ليعرض فكرته على قادتها العسكريين. و هناك التقى بنحاس روتنبرغ، الذى شاطره الفكرة. و لما فشلا بمهمتهما فى إيطاليا، توجها إلى بريطانيا، و ثابرا على جهودهما هناك. و قد استفادا من وجود بقايا كتيبة البغالة فى لندن، و عملا على إعادة تشكيلها، لكنهما اصطدما بمعارضة شديدة، و من أوساط متعددة، بما فيها المنظمة الصهيونية نفسها. و انبرى لتأييدهما وزير الداخلية فى الحكومة البريطانية، اليهودى الصهيونى هربرت سامويل (الذى أصبح لاحقا أول مندوب سام على فلسطين بعد الانتداب البريطانى). و بفضل جهود سامويل، تشكلت «كتيبة القناصة الملكية»، بقيادة الكولونيل باترسون (آب/ أغسطس ١٩١٧ م)، و انتقلت إلى فلسطين عبر فرنسا و مصر، و شاركت فى الحرب فى حملة اللنبى.

و فى الولايات المتحدة، و بعد إعلانها الحرب على ألمانيا، تشكلت كتيبة أخرى، ضمت نحو ٥٠٠٠ نفر (كانون الثانى/ يناير ١٩١٨ م). و قام بتشكيلها دافيد بن- غوريون (الذى أصبح لاحقا أول رئيس حكومة لإسرائيل) و يتسحاق بن- تسفى (الذى أصبح بدوره ثانى رئيس دولة فى إسرائيل). و كان الاثنان قد طردا من فلسطين، و وصلا إلى الولايات المتحدة للعمل على دفعها إلى دخول الحرب. و انضم إلى هذه الكتيبة متطوعون من كندا و الأرجنتين، و وصل قسم منهم إلى فلسطين، و شارك فى القتال مع جيش اللنبى، و القسم الآخر وصلها بعد الحرب. كما تشكلت كتيبة ثالثة فى فلسطين بعد احتلال الجزء الجنوبى منها (١٩١٧ م)، إذ قام قائد الفرقة الإسكتلندية، الجنرال هيل، بعرض الفكرة على بعض قادة المستوطنين، فقبلوها. و كان بين هؤلاء راحيل ينيث (زوجة بن- تسفى لاحقا) و إياهو غولومب (من مؤسسى الهاغاناه الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٣٤١

لاحقا). و تشكلت هذه الكتيبة و نقلت إلى مصر، و لم تعد إلى فلسطين إلّا بعد انتهاء الحرب. و غداة احتلال بلاد الشام، كان فى قوات الحلفاء نحو ٥٠٠٠ جندي يهودى، تجمعوا فى فلسطين، على أن يمهّدوا الطريق أمام إقامة الدولة اليهودية فيها. و لكن ذلك لم يتحقق، و تفككت هذه الكتائب و تبعثرت.

و على صعيد أعمال التجسس، و فضلا عن نشاط المنظمة الصهيونية على الساحة الدولية، فقد تشكلت فى فلسطين منظمة سرية من غلاة التطرف الصهيونى. و كان مؤسسها أهرون أهرونسون، يعمل مديرا لمحطة التجارب الزراعية فى عتليت. و بسبب خبرته الزراعية تقرب من جمال باشا، الذى عينه رئيسا لهيئة مكافحة الجراد فى سورية. و من موقعه هذا، تنقل أهرونسون فى طول البلاد و عرضها، و جمع المعلومات عن انتشار القوات التركية و تحصيناتها، و نقلها إلى القيادة البريطانية.

و حملت الشبكة اسم «نيلى»، و كانت على اتصال، عبر سارة، أخت أهرونسون، مع السفير الأمريكى فى إستنبول. إلّا إن الأتراك اعتقلوها أخيرا، و انتحرت فى السجن.

و قد سافر أهرونسون عدة مرات إلى مصر و إنكلترا، و حتى إلى الولايات المتحدة، إذ شجعتة الدوائر الاستخبارية على مواصلة العمل مع الاستخبارات البريطانية. و كان من أهداف «نيلى» التمهيد لإنزال بحرى على شواطئ فلسطين. لكن الشبكة اكتشفت، و اعتقل بعض أفرادها، و هرب آخرون، كما أعدم عدد منهم. و على الرغم من تنصل الحركة الصهيونية من أعمال «نيلى» و استنكارها لفترة طويلة، فقد أعادت حكومة إسرائيل لها اعتبارها (١٩٦٧ م)، عندما قلد رئيسها و سام الاستحقاق لأخت سارة، نيابة عنها. أمّا أهرون فقد مات فى أوضاع غامضة، و هو فى رحلة جوية بين باريس و لندن، إذ تحطمت طائرته و سقطت فى البحر.

و لكن، بغض النظر عن النشاط الصهيونى فى الحرب، بأشكاله المتعددة، و كذلك عن الدوافع الأمريكية لدعم المشروع الصهيونى، فإن وعد بلفور يبرز تلاقى المصالح الإمبريالية البريطانية مع الأهداف الصهيونية. و قد عبر عن هذا التلاقى الوزير فى حكومة لندن، هربرت سامويل، فى مذكرة قدمها لحكومته، و لبعض أعضاء البرلمان (١٩١٥ م)، شرح فيها الفوائد التى ستجنيها بريطانيا من تأسيس دولة يهودية فى فلسطين، تحت إشرافها و حمايتها، بعيدا عن فكرة تدويلها. فمثل هذه الدولة، فى هذه النقطة الاستراتيجية- قلب

الوطن العربي- و عند ملتقى طرق المواصلات بين القارات الثلاث- آسيا و أوروبا و إفريقيا- تحقق لبريطانيا مصالح حيوية متعددة. فهي تشكل مرتكزا لحماية قناة السويس- أهم ممر مائي في العالم- وقاعدة للسيطرة على شواطئ البحرين، المتوسط و الأحمر، و خط دفاع أول عن الاحتلال البريطاني

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٦٢

لمصر، كما أنها تقطع الطريق على التنافس بين الدول الكبرى بشأن النفوذ فيها بذريعة الأمكنة المقدسة. و لعل الاعتبار الأهم أنها تشطر الوطن العربي إلى شطرين، و تحول دون توحيدهما، كما تشكل مركزا إقليميا مناهضا للحركة القومية العربية، التي تناضل من أجل الاستقلال، و بالتالي ضد الاستعمار.

إن وعد بلفور، الذي اعتبرته الصهيونية العالمية بمثابة البراءة الدولية للاستيلاء على فلسطين و تحويلها إلى «وطن قومي» لليهود العالم، لم يسهم في إيجاد حل لمشكلة الصهيونية في المنطقة، بقدر ما أسس لصراع طويل و عنيف بشأنها، لم يصل بعد إلى نهايته (١٩٩٦ م). و لعل هذا بالذات ما أرادتته حكومة بريطانيا في حينه. و لا غرو، فهذا الوعد، في سياق صدوره و مضمونه، و ما نجم عنه ظل موضع رفض و احتجاج من قبل العرب، و محط نقد قانوني من أوساط متعددة في العالم، و خصوصا أنه ضمن في وثائق و معاهدات دولية، أصبحت مرتكزات لسياسة منظمات دولية رئيسية إزاء المنطقة. و الوعد بتسليم فلسطين للحركة الصهيونية هو عطاء من لا يملك لمن لا يستحق، و بالتالي فهو باطل، ليس أخلاقيا فحسب، بل قانونيا أيضا. و هو اقتطاع جزء من الوطن العربي، و فرزه ليكون قاعدة للعدوان على الأمة العربية، و تجزئتها و استنزاف طاقتها، و ليس الاندماج فيها.

و هو تغييب للشعب الفلسطيني- مادي و حضاريا و سياسيا- و قطع لصلته بوطنه، و نفي لحقه التاريخي فيه. و هو كذلك تجاهل للأمة العربية و أهدافها المشروعة بالاستقلال و الوحدة و التقدم، و تنكر للعهود التي قطعت لها في الحرب، بل هو تأمر على استقلالها و وحدتها و مستقبلها. و يندرج هذا الوعد في سلسلة الجرائم البشعة التي اقترفتها الدول الإمبريالية في بلدان العالم التي وقعت تحت سيطرتها، و لعله من أبشعها على العموم.

رابعاً: الانتداب البريطاني

إشارة

إن إصدار وعد بلفور كان يحتم على حكومة بريطانيا أن تتولى رعاية تجسيده، و لن يتم ذلك إلا ببسط سلطتها على فلسطين، و لعله صدر لهذا الغرض بالذات، أي التمهيد لوضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، و إخراجها من حلبة المنافسة الدولية. فلدى إصدار هذا الوعد، لم تكن الحركة الصهيونية في وضع يؤهلها لتحمل تبعاته، إذ خلال الحرب توقفت المؤتمرات الصهيونية عن الانعقاد، و تعرقلت أعمال اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية، و انقطعت الهجرة اليهودية إلى فلسطين، بل اجتاحت المستعمرات موجة من النزوح إلى الخارج. و كانت أغلبية يهود العالم لا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٦٣

تزال خارج الدعوة الصهيونية، و تيارات قوية بينهم تعارضها بشدة، و لأسباب متعددة- فكرية و دينية و سياسية و اجتماعية. و أغلبية يهود أوروبا الشرقية، حيث الشعور بوطأة المسألة اليهودية، كانت تفضل الهجرة إلى الولايات المتحدة، و ليس إلى فلسطين.

في المقابل كانت المقاومة العربية للمشروع الصهيوني في تصاعد، و الاستيطان اليهودي في تراجع، و هو ليس في موقع يتيح له التصدي لهذه المقاومة. و لمجمل هذه الأسباب، أرادت انقياد القيادة الصهيونية من حكومة بريطانيا وضع فلسطين تحت انتدابها، لتشكل بذلك حاضنة للمشروع الصهيوني، و لترعى بناءه و تهيته للتحويل إلى دولة يهودية عندما تنهت الظروف الذاتية و الموضوعية لذلك.

و في مؤتمر السلام، الذي انعقد في باريس في ١ كانون الثاني/يناير ١٩١٩ م لتسوية القضايا الناجمة عن نهاية الحرب، و بناء على نتائجها، و الذي حضره الأمير فيصل بن الحسين، نيابة عن والده، كان الوفد العربي في موقع الدفاع بشأن مصير «الدولة العربية» الموعودة، بينما كانت الحركة الصهيونية في موقع الهجوم بشأن فلسطين. و مرة أخرى تكرر المشهد- الهم العربي الاستقلال، و الصهيوني فلسطين.

و بينما كان الوفد العربي، برئاسة فيصل، و احتضان بريطانيا، يصارع للمشاركة في المؤتمر، على أرضية عهود مكماهون للشريف حسين، و بالتالي دخول العرب الحرب إلى جانب الحلفاء، الأمر الذي عارضته فرنسا في البداية، ثم تراجعت، كانت الوفود الصهيونية المتعددة تسعى لتكريس وعد بلفور في وثائق المؤتمر، و ضمان تنفيذ عبر الانتداب البريطاني على فلسطين. أما في فلسطين، فقد قامت إدارة عسكرية بريطانية بقيادة الجنرال كلايتون وسعت منذ البداية لتهدئة ردة الفعل العربية على وعد بلفور خاصة، و على تراجع الحلفاء عن تعهداتهم للعرب بالاستقلال عامة. في المقابل، سارع قادة العمل الصهيوني إلى إيجاد أمر واقع في فلسطين، يضمن تجسيد وعد بلفور، فاصطدم النشاط الصهيوني المحموم للإسراع في إعلان فلسطين وطنًا قوميًا يهوديًا، بالسياسة المتروية التي انتهجتها الإدارة العسكرية.

لقد ظل اتفاق سايكس- بيكو طي الكتمان إلى أن كشفت النقاب عنه حكومة روسيا السوفياتية (تشرين الثاني/نوفمبر ١٩١٧ م)، و مع ذلك، نفت الدولتان- بريطانيا و فرنسا- وجود مثل هذا الاتفاق للحؤول دون انقلاب العرب عليهما، و الانحياز إلى التحالف مع تركيا و ألمانيا في الحرب. و ذهب مهندسو الاتفاق، سايكس الإنكليزي، و بيكو الفرنسي، إلى الحجاز لطمأنة الشريف حسين، و كذبا عليه بنفيهما وجود مثل هذا الاتفاق. و لكن الأحداث اللاحقة كشفت أن بريطانيا رأت في الاتفاق مناوره مرحلية تتطلبها أوضاع الحرب، و لم تكن قط تقصد تنفيذه بصيغته. و جاء صدور وعد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٦٤

بلفور في سياق نفس هذا الاتفاق، الذي يقضى بوضع فلسطين تحت إدارة دولية.

و كان واضحاً أنه كى يتحقق هذه الوعد، لا بدّ من أن تكون فلسطين تحت حكم بريطانيا، لترعى إنشاء «الوطن القومي اليهودي» فيها. و عندما انتهت الحرب، كشفت بريطانيا عن نواياها من الاتفاق، و كتب رئيس حكومتها، لويد جورج، (كانون الأول/ديسمبر ١٩١٨ م)، إلى رئيس حكومة فرنسا، كليمنصو، يقول إنه بحسب رأيه فقد اتفاق سايكس- بيكو صلاحيته. و تذرع لويد جورج بخروج روسيا من الحرب، بعد أن كانت طرفاً في الاتفاق. و في البداية رفض كليمنصو هذا الطرح، لكنه عاد و قبل به لاحقاً.

و في مؤتمر باريس للسلام (١٩١٩ م)، كان موقف الوفد العربي، برئاسة فيصل، حرجاً جداً، و بالتالي في موضع الابتزاز، فاستغلت بريطانيا ذلك إلى أقصى الحدود.

و بداية رفضت فرنسا إدراج الوفد العربي في قائمة الوفود المشاركة في المؤتمر، انطلاقاً من أن إمارة الحجاز لم تكن رسمياً طرفاً في الحرب، بحسب ادعاء فرنسا.

و كذلك كانت وزارة الخارجية الأميركية قد أسقطتها من لائحة الدول المشاركة في المؤتمر. و لقاء دعم بريطانيا لمشاركة الوفد العربي في المفاوضات، انتزعت من فيصل تنازلات لمصلحة المطالب الصهيونية في فلسطين، على أمل أن يحقق الاستقلال للأجزاء الأخرى من الولايات العربية التي كانت تحت الحكم العثماني.

لكن هذه الولايات كانت تحت الحكم العسكري البريطاني، إذ إن الجيش البريطاني هو الذي احتلها، بينما فرنسا مشغولة على الجبهة الغربية للحرب. و استعملت بريطانيا فيصل ورقة في صراعها مع فرنسا بشأن تغيير بنود اتفاقية سايكس- بيكو، من جهة، و الحصول على دعم أميركا لذلك، عبر تلبية المطالب الصهيونية، و اعتراف فيصل بذلك، من جهة أخرى. و هكذا، و نتيجة الأوضاع التي تشكلت بعد الحرب، كان الوفد العربي في مؤتمر السلام تحت رحمة بريطانيا، و لا يملك القدرة على الخروج على إرادتها، و ذلك بغض

النظر عن الرغبات الذاتية.

و في مواجهة هذا الوفد العربي الصغير، الذي تخندق في معسكر العدو، فكان «كالايتام على مأدبة اللثام»، تجمعت في المؤتمر وفود صهيونية من معظم أقطار العالم، لكن الأكبر والأكثر أهمية بينها كان الوفد الأميركي. و إذ كان معظم هذه الوفود يحضر المؤتمر بصفة مراقب، غير أنه كانت لها قوات مفتوحة على الوفود الرسمية، بصور متعددة، و بالتالي امتلكت قدرة هائلة على ممارسة النشاط كمجموعات ضغط متعدد الجوانب والأهداف. و بصورة مفتعلة، أثارت هذه الوفود مسألة «اللاسامية»، و خصوصا في دول أوروبا الشرقية، و الأخطار التي تتهدد اليهود في روسيا الشيوعية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٦٥

و في باريس، و تحت تأثير براندايس، و زميله، الحاخام وايز، برز انحياز الرئيس الأميركي و لسون إلى الصهيونية. و كان تأثيره في أعمال المؤتمر كبيرا، و خصوصا ما يتعلق منها بدعم المطالب الصهيونية في فلسطين، التي تولى معالجتها وزير الخارجية الأميركي، لانسنغ، الصديق المجرب للصهيونية، و معه مستشار الرئيس، هاوس، حلقة الاتصال مع الوفد الصهيوني الأميركي. و الواقع أن طروحات الرئيس الأميركي بشأن مستقبل فلسطين، كانت تتمتع بمواقفة كبيرة في أوساط المشاركين في المؤتمر، على عكس منظوره للنظام العالمي الجديد، الذي تضمنته المبادئ الأربع عشرة التي تقدم بها بشأن تقرير المصير للشعوب الواقعة تحت حكم أجنبي. و في المؤتمر، تميّز الموقف الأميركي بازدواجية المعايير، و التآرجح بين القيم الإنسانية و المثل العليا التي يطلقها الرئيس و لسون، و بين الانحياز الصارخ إلى المزاعم الصهيونية، و بالتالي النشاط المحموم الذي يمارسه أعضاء الوفد الأميركي لدعم مطالبها، بتنسيق تام بين المستشار هاوس و وفد المنظمة الصهيونية الأميركية.

و هذا إن دل على شيء، فعلى أن واشنطن كانت تعمل لخدمته مصالحها الإمبريالية، القائمة على «سياسة الباب المفتوح»، من خلال تجسيد الأهداف الصهيونية في فلسطين. و ليس أدق في التعبير عن ذلك من سلوك لويس براندايس في المؤتمر، إذ وصل حداً من الجراءة حين خاطب أعضاءه من رؤساء الدول المشاركة، في برقية تؤكد على المطالب الصهيونية. و قد دعا ذلك المندوب الفرنسي إلى الردّ على البرقية قائلا: «إن القاضي براندايس يتمتع بنظرة مبالغ بها لأهميته.» و الأكيد أنه ما كانت لبراندايس هذه الثقة بالنفس، و هو قاض في المحكمة العليا الأميركية، و ليس عضواً في الوفد الأميركي إلى المؤتمر، لو لا الدعم الذي كان يتلقاه من الإدارة الأميركية، و من المؤسسات المالية الصهيونية، التي كان لها مساهمة كبرى في النصر الذي حققه الحلفاء في الحرب. و بناء عليه، رأى المؤتمر إرسال رد إلى براندايس، يشرحون فيه مواقفهم من برقيته، و ليس ذلك إلا لأنهم كانوا يعرفون جيدا أن الرد إلى براندايس هو رسالة إلى الإدارة الأميركية.

و إزاء الدعم الكبير الذي كانت تتمتع به الصهيونية في المؤتمر (بريطانيا و الولايات المتحدة و فرنسا و إيطاليا و اليابان)، كانت بريطانيا تمارس الضغط و الابتزاز على الأمير فيصل، و تخوفه من الأطماع الفرنسية في سورية، و تحته على المرونة إزاء المشروع الصهيوني. و تدعى الأوساط الصهيونية أن حاييم و ايزمن، بوساطة بريطانية، توصل إلى اتفاق مع فيصل. و بحسب الاتفاق، قبل فيصل من حيث المبدأ و عد بلفور، شرط تحقيق المطالب التي ضمّنها في مذكرة إلى الحكومة البريطانية في ٤

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٦٦

كانون الثاني / يناير ١٩١٩ م، و المتعلقة باستقلال البلاد العربية في حدود معينة. و أورد فيصل في نص الاتفاق، الذي وقعه مع وايزمن، أن أيّ انحراف عن تلك الشروط يجعله في حل منه. و قد نشرت الأوساط الصهيونية نصّ الاتفاق سنة ١٩٣٦ م، أي بعد موت فيصل. أمّا المصادر العربية فتنفى وجود مثل هذا الاتفاق. و تؤكد شخصيتان كانتا مع فيصل في حينه (عوني عبد الهادي و فايز الغصين، و كلاهما فلسطيني) أن فيصل لم يوقع قط مثل هذا الاتفاق، و أن لا علم لهما بذلك أبدا.

و قدم الوفد العربي مذكرة إلى المجلس الأعلى لمؤتمر السلام في باريس، حدّد فيها أهداف العرب بالاستقلال و الوحدة، و ذلك في

المنطقة الواقعة بين لواء الإسكندرون و المحيط الهندي. و أكدت المذكورة على عناصر الوحدة العربية- اللغة و الدين و التراث- و على تطلعهم إلى الحرية، و إمكان تحقيق ذلك، ذاتيا و موضوعيا، على أرضية الوعي القومي الذي يمتلكه العرب، و الطاقات المتوفرة لديهم، و الوسائل الحديثة الموجودة في بلادهم. و تضمنت المذكورة فقرة صيغت بلهجة تصالحية حذرة مع المشروع الصهيوني، فلم ترفضه تماما، لكنها أكدت على حقوق العرب في فلسطين. و أشارت إلى ضرورة إقامة إدارة في هذا البلد، بإشراف دولة كبرى، تضمن ازدهاره، و تحافظ على التوازن بين الأجناس و الأديان فيه. و دعت في النهاية الدول الكبرى إلى تسهيل استقلال العرب و وحدتهم، و التخلي عن التنافس بينها، و البحث عن المكاسب في الوطن العربي. و واضح أن أيدي موظفي الخارجية البريطانية كانت وراء هذه الصيغ، التي تلمح و لا تصرح، لكنها لا تخفى مراميها.

في المقابل قدم الوفد الصهيوني، الذي كان يرئسه حاييم وايزمن و ناحوم سو كولوف، مذكرة طالبت الدول ب «الاعتراف بالحقوق التاريخية للشعب اليهودي في فلسطين، و بحق اليهود في إعادة بناء وطنهم القومي فيها.» و في ملحق المذكورة، ورد تفصيل حدود الرقعة الجغرافية التي تطالب بها المنظمة الصهيونية، كالتالي:

إن حدود فلسطين يجب أن تسير وفقا للخطوط العامة المبينة أدناه. تبدأ في الشمال عند نقطة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بجوار مدينة صيدا و تتبع مفارق المياه عند تلال سلسلة جبال لبنان حتى تصل إلى جسر القرعون.

فتتجه منه إلى البيرة متبعة الخط الفاصل بين حوضي وادي القرعون و وادي التيم، ثم تسير في خط جنوبي متبعة الخط الفارق بين المنحدرات الشرقية و الغربية لجبل الشيخ (حرمون) حتى جوار بيت جن، و تتجه منها شرقا بمحاذاة مفارق المياه الشمالية لنهر مغنية حتى تقترب من سكة حديد الحجاز إلى الغرب منها.

و يحدها شرقا خط يسير بمحاذاة سكة حديد الحجاز و إلى الغرب منها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٧

حتى ينتهي في خليج العقبة.

و جنوبا حدود يجري الاتفاق عليها مع الحكومة المصرية.

و غربا البحر الأبيض المتوسط.

و اندلع الخلاف بين فرنسا و بريطانيا، الأولى تتشبث باتفاقية سايكس- بيكو، و الثانية تريد أن تتصلب منها. أما الولايات المتحدة، فلم تكن المسألة تهمها كثيرا ما دامت تضمن المصلحة الصهيونية في وعد بلفور، و الانتداب على فلسطين، الذي يجسده. و دعا ولسون إلى إرسال لجنة تقصي حقائق إلى المنطقة، و خصوصا إلى سورية، الأمر الذي طرحه بقوة رئيس الجامعة الأميركية في بيروت، الدكتور هوارد بلس. و وافقت عليه بريطانيا و فرنسا، إلاّ إنهما تملصتا من المشاركة في اللجنة، إذ من الواضح أنهما لا تنويان أخذ توصياتها في الاعتبار. و جاءت توصيات لجنة كنج- كرين متعارضة جذريا مع أهداف فرنسا، و جزئيا مع أهداف بريطانيا و المنظمة الصهيونية. و لعل هذا ما دعا الرئيس ولسون إلى صرف النظر عن اللجنة و توصياتها. و على كل حال، فقبل أن تنهى اللجنة عملها و تعود، كان المؤتمرون قد أقرّوا معاهدة فرساي (٢٨ حزيران/ يونيو ١٩١٩ م)، و ميثاق عصبة الأمم، الذي تضمن في بنده الثاني و العشرين مبدأ وضع مناطق و شعوب تحت انتداب الدول الكبرى، بذريعة إعدادها للاستقلال. و وقع فيصل على المعاهدة، لكن الشريف حسين رفضها، لأنها لم تتضمن التزاما بمنح العرب استقلالهم.

و في سان ريمو، و بعد مفاوضات طويلة، حصلت بريطانيا على ما تريد.

و تراجعت فرنسا عن المطالبة بتنفيذ اتفاقية سايكس- بيكو، و لكن لمصلحة اتفاقية أخرى، أكثر سوءا بالنسبة إلى الوطن العربي. فقد تنازلت فرنسا عن منطقة الموصل في العراق لبريطانيا، و وافقت على انتداب بريطاني على فلسطين و شرق الأردن و العراق، و على أن يتضمن صك الانتداب على فلسطين وعد بلفور. و في مقابل ذلك، وافقت بريطانيا على منح فرنسا الانتداب على سورية و لبنان. و أقرّ

مؤتمر سان ريمو في ٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٢٠م انتداب بريطانيا على العراق و فلسطين (على أساس وعد بلفور)، و انتداب فرنسا على سورية و لبنان. و بذلك اختفت مناطق النفوذ في اتفاقية سايكس- بيكو (أوب)، و حل محلها انتداب مباشر. و ترك المؤتمر لفرنسا و بريطانيا تحديد الحدود بين انتدائيهما. و تضمنت معاهدة سيفر (١٠ آب/ أغسطس ١٩٢٠م) بنودا تؤكد الانتداب، و كذلك معاهدة لوزان في ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٣م،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٨

التي في إثرها أصبح الانتداب ساري المفعول بصورة رسمية، مع أنه جرى تنفيذه بصورة عملية منذ سنة ١٩٢٠م. و في عصبه الأمم، تمت الموافقة على الانتداب فقط في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٢م.

لم تشارك الولايات المتحدة في مؤتمر سان ريمو، و لا حتى في معاهدة سيفر أو لوزان، لكنها وافقت رسميا على وعد بلفور، عبر قرار مشترك لمجلس الشيوخ و النواب في ٣٠ حزيران/ يونيو ١٩٢٢م، و وقعه الرئيس هاردينغ (٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٢م). غير أن الانتداب، على الرغم من إقراره في عصبه الأمم، فإنه لم يدخل حيز التنفيذ الرسمي، نظرا إلى أن تركيا رفضت معاهدة سيفر. و بعد ثورة مصطفى كمال، و ضمان سلامة الأراضي التركية، وقعت حكومة كمال الثورية معاهدة لوزان، و تنازلت بذلك عن الولايات العربية التي كانت تابعة للسلطنة العثمانية، و التي فصلت عنها عمليا منذ سنة ١٩١٨م. و دخل الانتداب البريطاني على فلسطين في الاتفاق الأنكلو- أميركي في ٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٤م، إذ ضمنت الولايات المتحدة امتيازات لشركات أميركية، أهمها امتياز للتنقيب عن النفط في النقب، لشركة ستاندارد أوليل. و فقط بعد حصول هذه الشركة على الامتياز المذكور، تعهدت واشنطن بالموافقة على نص ميثاق الانتداب البريطاني على فلسطين في عصبه الأمم، و الذي يتضمن في متنه وعد بلفور. و كانت مجموعة روتشيلد البريطانية، بمشاركة مالية أميركية، تمول مؤسسات استيطانية صهيونية، مثل: شركة كهرباء روتنبرغ، و شركة بورتلاند للأسمت (نيشر)، و شركة بوتاس البحر الميت، و مياه السامرة.

(أ) لجنة المندوبين الصهيونية

بينما التحالف البريطاني- الصهيوني يخوض المعركة السياسية- الدبلوماسية في المؤتمرات الدولية التي عقبته نهاية الحرب، راح يسعى لإيجاد واقع على الأرض، يمهّد السبيل أمام تحقيق أهدافه، حتى قبل استكمال احتلال فلسطين و بلاد الشام.

و ساعده على ذلك وقوع المنطقة تحت الاحتلال البريطاني، و بالتالي إدارته العسكرية.

و في الواقع، فإنه قبل أن تقر الوثائق في المعاهدات بين الأطراف المعنية، و بناء عليه، في عصبه الأمم، كانت بريطانيا تضع الأسس للترتيبات التي ينطوي عليها وعد بلفور، و على رأسها الانتداب البريطاني على فلسطين، الذين يضمن تجسيده. و بناء على تعهداتها للحركة الصهيونية، و لكي تضمن دعم الولايات المتحدة لمشاريعها، سارعت الحكومة البريطانية إلى إرسال لجنة صهيونية إلى فلسطين، في ربيع سنة ١٩١٨م، بينما نصفها الشمالي لم يحتل بعد، للتنسيق مع الإدارة العسكرية في تهيئة الأوضاع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٤٩

لإنشاء «الوطن القومي اليهودي» فيها، من جهة، و لتوجيه نشاط المؤسسات الصهيونية نحو هذه الغاية، و بالسرعة القصوى، من جهة أخرى. لكن هذا النشاط المشترك، بين حكومة بريطانيا و المنظمة الصهيونية، اصطدم بالمقاومة العربية التي راحت تتصاعد ضده.

و كانت لجنة المندوبين الصهيونية برئاسة حاييم وايزمن. و اعتذر براندايس عن المشاركة فيها، تحاشيا للإحراج، لأن الولايات المتحدة لم تعلن الحرب على تركيا.

و عينت حكومة لندن أورمسبي- غور، ضابط ارتباط بين اللجنة و الإدارة العسكرية في فلسطين، كونه ضابطا في الجيش البريطاني معروفا بميوله الصهيونية. و في الطريق عرجت اللجنة على القاهرة، حيث التقت عددا من قيادات العمل القومي العربي، و حاولت تهدئة

مخاوفهم من الأهداف الصهيونية. و من مصر توجهت إلى فلسطين، و راحت تتصرف، بناء على التفويض من حكومة لندن، كحلقة اتصال بين الإدارة العسكرية و المستوطنين الصهيوينيين، و كمرشد لتلك الإدارة بشأن ما يتوجب عمله للتسريع في تجسيد وعد بلفور. و بموازة الإدارة العسكرية، شكلت اللجنة دوائر متعددة لشؤون السياسة و الدعاية و الزراعة و الاستيطان و الهجرة و الإحصاء و التجارة و العمل و المال. و بذلك أصبحت في الواقع سلطة موازية للإدارة العسكرية، بل و متناقضة معها. و كان على رأسها في البداية حاييم وايزمن، ثم خلفه الدكتور إيدار، و من بعده مناحم أوسشكين.

و بادر وايزمن، يرافقه غور، إلى زيارة فيصل في العقبة، و معه لورنس في أيار/ مايو ١٩١٨ م، لطمأنته من المشروع الصهيوني في فلسطين. و تدعى المصادر الصهيونية أن فيصل لم يعترض على ذلك، شريطة صيانة حقوق شعبها و الحفاظ على عروبتها. و بعد ذلك، و استنادا إلى التفويض الذي تحمله من حكومة بريطانيا، راحت لجنة المندوبين الصهيونية تتصرف كأنها «حكومة في طور التكوين». و في ١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٨ م، عقدت مؤتمر يافا للمستوطنين، بعد أن وضعت يدها على مكتب فلسطين، الذي أسس سنة ١٩٠٨ م. و في المؤتمر، جرى تشكيل جمعية تأسيسية. و حمل وايزمن معه مطالب المستوطنين، كما عبرت عنها هذه الجمعية إلى مؤتمر باريس للسلام، و منها:

أ- الاعتراف بفلسطين و طنا قوميًا يهوديًا.

ب- منح الشعب اليهودي بأسره صوتًا حاسمًا و فعالًا في تقرير شؤون البلد.

ج- الإصرار على وصاية بريطانيا و حمايتها.

د- ضرورة إنشاء جمعية للاستعمار اليهودي تحظى باعتراف عصبة الأمم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٠

و تتمتع بسلطات واسعة في حقل تنظيم الهجرة اليهودية إلى فلسطين.

ه- الاستيلاء على أملاك الدولة و أراضيها بحجة تطويرها و استصلاحها.

و- الحصول على امتيازات حكومية لمد الخطوط الحديدية و توسيع الموانئ و تنفيذ مشاريع الري في البلد.

ز- أن يعهد إلى جمعية الاستعمار بإدارة المصرف الزراعي التابع للحكومة العثمانية.

ح- أن تمنح الجمعية بالذات حقوقًا استثنائية لاستغلال الموارد الطبيعية و استخراجها من باطن الأرض.

لم يمر وقت طويل على هذه اللجنة، التي كانت على عجل من أمرها لتحويل فلسطين إلى «أرض - إسرائيل» (الأرض و الشعب و السوق)، من دون أن تمتلك المؤهلات الذاتية لذلك، و من دون أن تتوفر الشروط الموضوعية في البلد، حتى تسببت في توتر العلاقة مع الإدارة العسكرية البريطانية. و يبدو أن حكومة لندن لم تضع القادة العسكريين في فلسطين بصورة الوضع الذي وصلت إليه مع الحركة الصهيونية، أو أن هؤلاء لم يكونوا مقتنعين بسياسة تلك الحكومة، و لذلك لم يتجاوبوا تمامًا مع المطالب الصهيونية، و نصحوا بضرورة التأنى في اتخاذ الإجراءات. و حاولت الإدارة العسكرية في البداية التعيم على وعد بلفور، و استغلال التناقضات بين الأهداف الصهيونية و التطلعات العربية، و تخفيف حدة التوتر الناتج عن سلوك اللجنة الصهيونية. لكن أعضاء هذه اللجنة كانوا على عكس ذلك تمامًا. لقد وعوا مبكرًا أن مشروعهم في فلسطين لن يمرّ برضى سكانها الأصليين، فطرحوا أفكارًا متعددة لإخضاعهم لإملاءات المشروع الصهيوني - ترحيلهم و إكراههم على قبوله و تغييبهم السياسي و تجاهلهم ... إلخ. لقد كان مهمهم «تهويد فلسطين»، و بالسرعة القصوى، و إذا لم يكن ذلك ممكنًا باليهود، لقله عددهم في البلد، فالخيار الأفضل الثاني هو تغييب سكانها الأصليين عنها، و بالتالي قطع الصلة بين الشعب الفلسطيني و أرضه الوطنية - فلسطين.

و في الوقت نفسه، طالبت هذه اللجنة بنشر وعد بلفور، و توضيح موقف حكومة بريطانيا منه علنًا، و إلزام الفلسطينيين بقبوله، و لو قسرا. و طرحت لجنة المندوبين مطالب كثيرة، بدت غير معقولة في الأوضاع القائمة، و ناشدت الإدارة العسكرية الزعماء الصهيونيين التروى

لتهيئة الأوضاع، الأمر الذي اعتبره هؤلاء مناورة للتملص من التعهدات التي قطعها حكومة بريطانيا لهم. وكان الفرع الصهيوني الأميركي،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧١

بزعامه براندايس، أكثر تصلبا في المطالبة بتنفيذ تلك التعهدات، حتى لو أدى ذلك إلى إحراج الحكومة البريطانية، التي، كما يبدو، لم يكن كل أعضائها متحمسين لوعده بلفور بالدرجة نفسها. وطالبت اللجنة الصهيونية إعلان العبرية لغة رسمية في البلاد، والعلم الصهيوني علم البلاد، وتغيير اسم فلسطين إلى «أرض - إسرائيل»، وتشكيل إدارة للأراضي والتوطين وقوة عسكرية وشرطة مدنية، وإلزام الإدارة العسكرية بالتشاور مع اللجنة الصهيونية في كل الشؤون السياسية المتعلقة بالبلد، وفي المحصلة خلق نواة «الدولة اليهودية». وإزاء هذا التصرف الأرعن، توترت العلاقة بين هذه اللجنة والإدارة العسكرية، فاشتكت اللجنة لحكومة بريطانيا سلوك رجال هذه الإدارة، فأصدرت لهم الأوامر بالتنسيق التام مع قادة اللجنة، واستدعت بعضهم إلى لندن، ونقلت آخرين من مواقعهم، وأخيرا استبدلت الإدارة العسكرية كلها بأخرى مدنية (١٩٢٠ م).

وعلى أرضية الاحتكاك بين لجنة المندوبين الصهيونية والإدارة العسكرية البريطانية، التي كانت تابعة لقيادة الجنرال ألنبي العامة، تقلب عدد من الجنرالات على الحكم العسكري في فلسطين. فبدأه تولى الجنرال كلايتون منصب المدير العسكري، وكان يشغل سابقا منصب «الضابط السياسي العام» في «المكتب العربي» في القاهرة. فعين الكولونيل ستورز حاكما للقدس (كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٧ م). ثم جرى استبدال كلايتون بالجنرال موني (٥ نيسان/ أبريل ١٩١٨ م)، الذي نحى عن منصبه تحت ضغط المنظمة الصهيونية، بعد أن وجه إلى سلوكها نقدا شديدا لضيق ذرعه بفجاجة تصرف أعضاء لجنة المندوبين. وفي آب/ أغسطس ١٩١٩ م، عين الجنرال واطسون خلفا لموني، لكنه لم يكن أوفر حظا، فاستبدل في كانون الأول/ ديسمبر ١٩١٩ م بالجنرال بولز، الذي لم يعجب لجنة المندوبين أيضا. وبسحبه من منصبه، وتعيين هربرت سامويل (تموز/ يوليو ١٩٢٠ م) مندوبا ساميا في فلسطين، انتهى عمل الإدارة العسكرية، وبدأت الإدارة المدنية، وبالتالي تجسيد سياسة الانتداب في فلسطين، قبل أن يقر ذلك في عصبة الأمم، أو يتم الاتفاق النهائي عليه بين فرنسا وإنكلترا رسميا، وقبل أن يتم التوصل إلى معاهدة نهائية مع تركيا.

لقد وقعت الإدارة العسكرية البريطانية في فلسطين بين مطرقة اللجنة الصهيونية وسندان المقاومة العربية. ولم تكن تلك الإدارة ترفض وعد بلفور من منظور استراتيجي، بقدر ما وجدت أن التكتيكات الصهيونية تؤدي إلى نتائج عكسية، وذلك نظرا إلى المقاومة العربية المتصاعدة، من جهة، ولأن أوضاع البلد الاقتصادية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٢

والاجتماعية لم تكن مهيأة للتجاوب مع المطالب الصهيونية المتسارعة من جهة أخرى.

فقيادة اللجنة الصهيونية، متسلحين برسالة من حكومة بريطانيا إلى الإدارة العسكرية، وعلى أرضية وعد بلفور، والتفاهم مع بعض أعضاء حكومة لندن، من دون البعض الآخر، كما خطط سايكس و بلفور، وبالاستناد إلى الموقف المتطرف للفرع الأميركي من المنظمة الصهيونية، كما عبر عنه براندايس، كانوا يضغظون على الإدارة العسكرية لتحويل فلسطين إلى «وطن قومي يهودي» بأسرع ما يمكن. و اشتكى قادة الإدارة العسكرية من سلوك اللجنة الصهيونية إلى حكومتهم، لكنها كانت منجازه إلى الصهيونية، ولديها حسابات اقتصادية وتمويلية تستوجب منها استرضاء الولايات المتحدة. لقد أرادت اللجنة الصهيونية توظيف الإدارة العسكرية، بإمكاناتها السياسية والقومية، في خدمة البرنامج الصهيوني، الأمر الذي اعتبرته الإدارة العسكرية عملا طائشا، قد يكلف بريطانيا ثمنا باهظا. فعمدت إلى التباطؤ، الأمر الذي أدى إلى توتر علاقتها مع اللجنة الصهيونية، وبالتالي حدوث حالة من عدم الثقة بين حكومة لندن والمنظمة الصهيونية. وأخيرا، استبدلت الحكومة البريطانية الإدارة العسكرية بأخرى مدنية، على رأسها هربرت سامويل، أحد أهم أقطاب الصهيونية في بريطانيا.

لقد كان على رأس هموم القيادة العسكرية البريطانية في الشرق الأوسط تأمين قناة السويس، و في هذا السياق رأت أهمية فلسطين الاستراتيجية. و إزاء المقاومة العربية لوعده بلفور، راح أركان تلك القيادة يشككون في سلامة قرار حكومتهم جعل فلسطين «وطنا قوميا يهوديا». و لم يتعاطف كلايتون مع المشروع الصهيوني، فنقل إلى القاهرة ليتولى إدارة المكتب السياسي هناك. و عندما عبر عن شكوكه بشأن المشروع الصهيوني أعيد إلى لندن. و كذلك فعل خلفه الجنرال موني، فاضطر إلى الاستقالة.

أمّا الجنرال بولز، فعندما طلب صراحة من وزارة الخارجية سحب اللجنة الصهيونية، تسبب باستبدال الإدارة العسكرية ليحل محلها «المندوب السامي»، بإدارته المدنية، و ليبدأ إعداد فلسطين كى تصبح «أرض - إسرائيل»، عبر تهويدها. و كان من أهم نقاط الخلاف بين اللجنة الصهيونية و الإدارة العسكرية، إصرار الأولى على تشكيل كتائب عسكرية، تدعم مشروعها الاستيطاني بالقوة المسلحة، و رفض الثانية لذلك، على اعتبار أنه يجعل وجودها لزوم ما لا يلزم. و لكن الإدارة العسكرية خسرت معركتها السياسية، فأبعدت عن تولى شؤون فلسطين، لتفسح في المجال أمام اللجنة الصهيونية التقدم نحو أهدافها عبر إدارة الانتداب.

و كان الفشل كذلك من نصيب لجنة كنج - كرين الأمريكية، التي تشكلت في أثناء انعقاد مؤتمر باريس، بمبادرة من الرئيس ولسون، و بالاستناد إلى اقتراح تقدم به

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٣

الدكتور هوارد بلس (رئيس الجامعة الأمريكية في بيروت). و غادرت اللجنة إلى الشرق الأوسط، و عادت بعد أن انفض المؤتمر، و لم يكثر أحد لتقريرها أو لتوصياتها، فظلت نسيا منسيا. و لعل أهم عوامل تجاهل توصيات هذه اللجنة كونها تتعارض مع الأهداف الصهيونية، و كذلك مع المخططات البريطانية و الفرنسية، و تدعو إلى تعزيز الدور الأميركي في ترتيبات ما بعد الحرب في الشرق الأوسط. و بينما أكدت اللجنة رغبة العرب القوية في الاستقلال في بلادهم الموحدة، و رفضهم الانتداب البريطاني و الفرنسي، و كذلك معارضتهم الشديدة للمشروع الصهيوني، فقد أشارت إلى إمكان قبولهم بانتداب أميركي. و مع أن أعمال هذه اللجنة لم تحقق فائدة عملية، فإن تقريرها يبقى مهما لأنه يعبر عن الموقف العربي العام.

ب) ترسيم الحدود

بينما كانت لجنة كنج - كرين تستطلع آراء السكان في بلاد الشام بشأن المستقبل الذي يتطلعون إليه، كانت فرنسا و بريطانيا تتصارعان بشأن تقسيم المشرق العربي بينهما، بعد أن وضعتا اليد على المغرب و شمال إفريقيا. و لم يكن أيّ منهما يرغب في الالتزام باتفاقية سايكس - بيكو. فبريطانيا أرادت أن تنتزع منطقة الموصل من فرنسا، كما أرادت إخراج فلسطين من إطار الإدارة الدولية لتضعها تحت انتدابها، و بالتالي تجسد فيها وعد بلفور، و كذلك ضمّ شرقى الأردن إلى هذا الانتداب ليكون هناك تواصل برى بين الأراضي الواقعة تحت حكمها. أمّا فرنسا فأرادت كل سورية، و ليس لبنان فقط. و في أيلول / سبتمبر ١٩١٩ م، تقدم لويد جورج بمقترحات تعترف فيها بريطانيا بانتداب فرنسا على سورية، في مقابل اعتراف فرنسا بانتداب بريطانيا على فلسطين و الأردن و العراق. و تضمنت مقترحات لويد جورج سحب القوات البريطانية من سورية، لتحل محلها قوات فرنسية على الساحل، و عربية في الداخل، بحسب الحدود التي تنص عليها اتفاقية سايكس - بيكو. و طرح الاتفاق على المجلس الأعلى لمؤتمر باريس، بعد أن قبلت به فرنسا، فووفق عليه في ١٥ أيلول / سبتمبر ١٩١٩ م، من دون الالتفات إلى لجنة كنج - كرين و توصياتها، و ترك للدولتين - فرنسا و بريطانيا - رسم الحدود بين مناطق انتدابينهما.

و أخذ ترتيب الحدود بين الانتدابين - البريطاني و الفرنسي - في بلاد الشام فترة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٤

طويلة، و دخلت في ترسيمها اعتبارات متعددة، أعطت الأولوية لمصالح الدولتين الاستعماريين، و كذلك لمتطلبات المشروع

الصهيوني. أمّا السكان المحليون فقد أهملت مصالحهم وعلاقاتهم وتطلعاتهم السياسية. وبالنسبة إلى بريطانيا، كان الاعتبار الأول حماية قناة السويس، الأمر الذي يجعل فلسطين على نفس الدرجة من الأهمية مثل مصر، كما كان الخبراء العسكريون يطرحون. وكذلك أرادت بريطانيا أن تضمن للمشروع الصهيوني مستلزمات التحول إلى ظاهرة قابلة للحياة، من الأراضي الخصبة والمياه والمرافق والموارد الطبيعية. وبالنسبة إلى فرنسا، كما إلى بريطانيا، أدت المطامع الاقتصادية دوراً مهماً - موانئ وشبكات مواصلات وموارد طبيعية و ثروات معدنية ... إلخ. وبعد مفاوضات طويلة، تمّ الاتفاق في ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠ م على رسم الحدود، ثم جرى عليها تعديل لتستجيب أكثر للمطالب الصهيونية، وخصوصاً في الشمال الشرقي، حيث منابع نهر الأردن. ولكن هذه الحدود لم تثبت على الأرض حتى سنة ١٩٢٦ م. وعلى العموم نجحت بريطانيا في قضم مناطق حدودية من سورية، وضمها إلى فلسطين، لتصبح لاحقاً من نصيب الكيان الصهيوني الذي يجري العمل على تأسيسه.

لم ترض الصهيونية بالحدود التي رسمتها اتفاقية ٢٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠ م، و شجعتها بريطانيا على المطالبة بتوسيعها، وخصوصاً في الزاوية الشمالية-الشرقية، إذ لم تكن هذه الاتفاقية تضم كل بحيرة طبرية و سهل الحولة و منابع الأردن. وبعد أخذ ورد، تمت اتفاقية ٣ شباط/ فبراير ١٩٢٢ م بين بريطانيا وفرنسا، وفيها تعديل على الحدود السابقة، فأصبحت الحدود السياسية لفلسطين تحت الانتداب.

وفي التعديل دخلت كل بحيرة طبرية في فلسطين، كذلك قرية الحمة الواقعة على نهر اليرموك، إلى الجنوب الشرقي من البحيرة. كما جرى توسيع حدود سهل الحولة شرقاً، بحجة حفر قنوات مياه، ودخلت بحيرة الحولة كلها في فلسطين، وكذلك تمددت الحدود في الشمال لتضم منابع الأردن كلها تقريباً، وخصوصاً نهر دان (تل القاضي)، بالقرب من بانياس، وبعيداً داخل لبنان في مجرى الحاصباني. و يبرز هذا التعديل على صورة تنوء شمال فلسطين (إصبع الجليل)، طوله نحو ٢٢ كلم، و عرضه ١٤ كلم، و تبلغ مساحته ٣٢٥ كلم (٢). و واضح أن هذا التعديل يستهدف منابع نهر الأردن، إضافة إلى المسطحين المائين العذيين - طبرية و الحولة - مع ما يلحق بذلك من الأراضي الخصبة.

وهكذا تمّ ترسيم حدود فلسطين وإقرارها في الوثائق الدولية، على أساس المصالح الاستعمارية والصهيونية، من دون الالتفات إلى رغبات السكان المحليين،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٥

أو مراعاة مصالحهم و ممتلكاتهم على جانبي الخطوط التي وضعت. و الحدود مع الأردن، وضعتها بريطانيا، بما أملت عليها التزاماتها في وعد بلفور، و ما نجم عنها لاحقاً من مقاومة و صراع، و بالتالي تسويات مشوهة. و قد أوجد ترسيم الحدود الكثير من المشكلات الاجتماعية و الاقتصادية، أدت إلى نشوب أعمال عنف، الأمر الذي استدعى عقد اتفاقية «حسن جوار» (١٩٢٤ م)، بين فلسطين و سورية للتخفيف من النتائج السلبية لتلك الخطوط، و تهدئة الأوضاع الأمنية، في منطقة لم تفرض السلطة المركزية سيطرتها الكاملة عليها إلّا بعد مرور فترة طويلة على إعلان الانتداب.

(ج) مقاومة الانتداب

في سلوكها إزاء العرب، كانت حكومة لويد جورج تخادع و تحاول التمويه على ازدواجية مواقفها و إخفاء أسرارها. لكن الأخبار راحت تتسرب عن هذا الخداع، و من مصادر متعددة. فنار العرب، و عمدت هي من جانبها إلى النفاق في تبديد مخاوفهم.

و بعد الكشف عن وعد بلفور، سارعت حكومة بريطانيا إلى إبلاغ الشريف حسين تصميمها على ألا يخضع شعب لآخر في فلسطين، و أنها لن تفعل ما من شأنه الإجحاف بحق سكانها العرب. و بناء عليه، طمأن الشريف القادة العرب إلى حسن نوايا بريطانيا، و دعا المتطوعين العرب إلى الاستمرار في القتال إلى جانبها. و كان هؤلاء المتطوعون قد بدأت تساورهم الشكوك في جدوى التحالف مع

دولة تخطط سرًا لتقسيم بلادهم، و السيطرة عليها بعد الحرب، و اقتطاع جزء منها ليكون «وطنا قوميا يهوديا». و راحت التصريحات تتوالى لإزالة الشكوك العربية، و خصوصا أن الإعداد للهجوم الأخير على الجيش العثماني في بلاد الشام كان على قدم و ساق. و في ٧ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩١٨ م، أصدرت فرنسا و بريطانيا تصريحًا، جرى توزيعه في البلاد العربية، يعلن أن السبب الذي من أجله حاربت فرنسا و إنكلترا في الشرق ... إنما هو لتحرير الشعوب التي رزحت أجيالا طويلا تحت مظالم الترك تحريرا نهائيا تاما و إقامة حكومات و إدارات وطنية تستمد سلطتها من اختيار الأهالي الوطنيين لها اختيارا حرا. و منذ أن تسربت المعلومات عن وعد بلفور، بدأ الفلسطينيون يعبرون عن رفضهم له و مخاوفهم من نتائجه بصور متعددة. و تشكلت في البلاد لجان إسلامية-

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٦

مسيحية، انطلاقا من الوعي الذي ساد أن المشروع الصهيوني ينطلق من أرضية يهودية. و من هنا، رأى رجال هذه اللجان في بريطانيا طرفا ثالثا، تجرى مناشدته التخلي عن دعم هذا المشروع، من أجل الحفاظ على الصداقة مع العرب. و كانت هذه اللجان خطوة أولى نحو التنظيم السياسي، من جهة، و تعميق الوعي بطبيعة المشروع الصهيوني، من جهة أخرى، الأمر الذي أدى إلى وقوع صدامات عنيفة مع المستوطنين، على الرغم من وجود الحكم العسكري البريطاني. و قد تشكلت تلك اللجان من الوجهاء و الأعيان و الملاكين و رجال الدين و المثقفين و رجال الأعمال.

و إذ ظلت ترفع شعار الاستقلال و الوحدة العربية، فإنها لم تدع إلى مقاومة الاحتلال البريطاني، و إنما شددت على مناشدته الوقوف في وجه الأهداف الصهيونية، و على دعوة حكومة بريطانيا إلى الوفاء بتعهداتها للعرب، عشية اندلاع الحرب و في أثنائها. و في ظل الاحتلال، و بينما راحت الحركة القومية العربية، في دمشق، تركز اهتمامها على الاحتلال الجديد، بهدف تحقيق الاستقلال، راحت الحركة الوطنية الفلسطينية مع الوقت تركز على درء الأخطار الصهيونية، التي تهدد مستقبل البلد و سكانه.

و ردًا على مؤتمر يافا الصهيوني، الذي دعت إليه لجنة المندوبين (كانون الأول / ديسمبر ١٩١٨ م)، و خرج بقرارات بعيدة الأثر بالنسبة إلى «تهويد فلسطين» الفوري، عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الأول في القدس في ٢٧ كانون الثاني / يناير إلى ١٠ شباط / فبراير ١٩١٩ م. و قد تنادى المؤتمر للنظر في المطالب الفلسطينية من مؤتمر باريس للسلام، على قاعدة تقرير المصير، و تحديد الموقف من المشروع الصهيوني، و ذلك بعد أن راحت عناصر ذلك المشروع و غياته تتكشف بوتيرة متسارعة، نتيجة النشاط الذي تمارسه لجنة المندوبين برئاسة وايزمن. و كان هذا الأخير قد التقى عددا من الوجهاء العرب في يافا (٨ أيار / مايو ١٩١٨ م)، بعد وصوله إلى فلسطين بفترة وجيزة، و بناء على اقتراح من الإدارة العسكرية البريطانية. و حاول وايزمن تهدئة مخاوف السكان العرب من الصهيونية. لكن تسارع البيانات و التصريحات، و استعجال مطالب لجنة المندوبين، و سلوك المؤسسات الاستيطانية الصهيونية، كشفت زيف كلام وايزمن مع الشخصيات الفلسطينية.

في هذه الفترة، كانت بلاد الشام كلها تحت الحكم العسكري البريطاني. و كانت قد تشكلت في دمشق حكومة عربية بقيادة الأمير فيصل (٣٠ أيلول / سبتمبر ١٩١٩ م)، و كانت الحركة الوطنية الفلسطينية على صلة وثيقة مع الحركة القومية العربية في دمشق. إلا إنه إزاء النشاط الصهيوني المتزايد في فلسطين، و انكشاف وعد بلفور، و ما نجم عنه، راح الهم الفلسطيني يتركز حول المشروع الصهيوني. في المقابل،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٧

و مع تكشف عملية الخداع التي مارسها الحلفاء على الحركة القومية العربية، و افتضح مؤامراتهم على تقسيم الوطن العربي إلى مناطق نفوذ لهم، تمحور الهم العربي (دمشق) على الاستقلال. و مع أن لا- تعارض نظريا بين الهمين - العربي و الفلسطيني - إذ لم يبرز هذا التعارض في المرحلة المبكرة، إلا إنه مع اشتداد الهجمة الإمبريالية - الصهيونية، و تقسيم البلاد العربية، أصبحت الحركة العربية

بمجمليها في موقع الدفاع عن النفس، و تركزت أولوية كل جانب فيها على مشكلاته المباشرة. و راحت الاتصالات بين الأجزاء تضعف، و بالتالي يأخذ النشاط طابعا إقليميا، شكلا و مضمونا. و تظهر مؤشرات ذلك في قرارات المؤتمر العربي الفلسطيني الأول، إذ رفعت شعارات الوحدة و الاستقلال، لكن الأساس تمحور حول الخطر الصهيوني المتفاقم، و في المقابل، صار الهمم في دمشق الحفاظ على الاستقلال في مواجهة الخطر الفرنسي الداهم.

و في الواقع، فإنه إزاء الوضع الذي تشكل بعد الحرب، و على أرضية المشاريع المطروحة بالنسبة إلى الوطن العربي، لم يعد الاستقلال على رأس هموم الحركة الوطنية في فلسطين، بقدر ما أصبح همها إنقاذ البلد من براثن الصهيونية. و لا غرو أن هذه الحركة كانت معنية بتوثيق الارتباط بالحركة القومية الأم، لكن الواقع فرض نفسه بقوة. لقد أصبحت فلسطين تحت الاحتلال البريطاني، و تسيطر عليها إدارة عسكرية، بينما المنظمة الصهيونية تحاول الانقضاض عليها لتهدبها. في المقابل، كانت الحركة القومية في دمشق، و إزاء مشاريع الانتداب، و بعد أن أعلنت حكومتها، تصارع على البقاء في مواجهة فرنسا الطامعة باحتلال سورية، و ذلك من دون الاستناد إلى دعم أكيد من بريطانيا، التي راحت تعد للانسحاب منها. و بناء عليه، أعربت قرارات المؤتمر الذي عقد في القدس عن الرغبة في اعتبار فلسطين جزءا لا يتجزأ من سورية، بعد منحها الاستقلال الناجز، كما عبرت عن الرفض القاطع لتهديد فلسطين على قاعدة وعد بلفور. و مع ذلك، طلب المؤتمر من بريطانيا «الصديقة» العون على تطوير البلد و تحسين أوضاع سكانه، و وعد بالحفاظ على علاقات طيبة مع الحلفاء.

و أبلغ المؤتمر مضمون قراراته إلى مؤتمر باريس للسلام، لتعزيز موقف الوفد العربي هناك برئاسة الأمير فيصل. كما أرسل وفدا إلى دمشق لإبلاغ الوطنيين العرب هناك مضمون القرار الذي يدعو إلى تسمية فلسطين «سورية الجنوبية»، و توحيدها مع «سورية الشمالية». و اعتمدت قرارات المؤتمر أساسا لكل الشهادات المقدمة إلى لجنة كنغ- كرين الأميركية، التي بدأت عملها في فلسطين في ١٠ حزيران/ يونيو ١٩١٩ م. و توالى بعد المؤتمر المذكرات و عرائض الاحتجاج ضد وعد بلفور و سلخ

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٨

فلسطين عن سورية. و نشطت الجمعيات و الهيئات و الشخصيات و الصحافة في تنفيذ المزاعم الصهيونية بشأن «الحق التاريخي» لليهود في فلسطين. و على سبيل المثال، رفعت الجمعية الإسلامية- المسيحية الفلسطينية عريضة إلى مؤتمر السلم العام، أعربت فيها عن تمسك عرب فلسطين ببلدهم و رفضهم الشديد لفكرة الوطن القومي اليهودي و الهجرة الصهيونية. و ناشدت المؤتمر ألا يتجاهل الحق العربي المطلق و الأكثرية العربية، فيسمح للأقلية اليهودية بالمطالبة بإنشاء وطن قومي يهودي في فلسطين، «بينما تبين جميع الحقائق الدامغة (أن اليهود ليس لهم من الأملاك أو الحقوق التاريخية أو عدد السكان في فلسطين ما يخولهم حق المطالبة و الادعاء)».

لكن النشاطات العربية- الفلسطينية الموجهة إلى مؤتمر باريس للسلام كانت في واد، و المؤتمرين في واد آخر. و بينما العرب ينادون بالوحدة و الاستقلال، و يطالبون الحلفاء الوفاء بتعهداتهم، كان هؤلاء يتخاصمون على تقسيم الوطن العربي بينهم.

و عندما اتضحت للعرب نوايا فرنسا و بريطانيا، ظلوا يعلقون الأمل على الموقف الأميركي المنادي بحق تقرير المصير للشعوب. و بناء عليه، و عندما علم العرب بقدم لجنة كنغ- كرين، سارعوا إلى عقد المؤتمر السوري العام، الذي ضم مندوبين عن سورية و لبنان و فلسطين، و ذلك للاتفاق على صيغة الموقف الذي سيرفع إلى «الوفد الأميركي المحترم في اللجنة الدولية». و عقد المؤتمر في دمشق (٣ تموز/ يوليو ١٩١٩ م)، بحضور فلسطيني كبير نسبيا (١٥ من مجموع ٦٩ عضوا). و اعتبرته الحركة الوطنية في فلسطين مؤتمرها الأول، و تبنت قراراته قاعدة للسياسة التي سارت عليها في مواجهة المشروع الصهيوني و الاحتلال البريطاني. و لا غرو، فالحركة الوطنية في فلسطين، إزاء المشاريع الإمبريالية المطروحة، تأكدت أن الأفق مسدود أمام أي مشروع قطري بالنسبة إليها، و إذا كان هناك من أمل في تحقيق أهدافها، كليا أو جزئيا، فذلك سيكون من خلال المشروع القومي، و التمسك بالشعارات التي رفعتها الحركة القومية العربية بالاستقلال و الوحدة، و بالتالي التنسيق مع قيادتها في دمشق.

و على الرغم من اتفاق بريطانيا و فرنسا على تقسيم بلاد الشام بينهما (١٩١٩ م)، و من ثم ترسيم الحدود بين انتدابينهما (١٩٢٠ م)، فقد ظلت الحركة الوطنية الفلسطينية وثيقة الصلة بالحركة القومية العربية. ففي ٢٧ شباط / فبراير ١٩٢٠ م، عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثاني في دمشق، تكريسا للعلاقة القومية، و رمزا لوحدة النضال ضد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٧٩

الاحتلال الأجنبي و الاستيطان الصهيوني، و بالتالي لوحدة مصير الأمة العربية. و اتخذ المؤتمر القرارات التالية:

- ١- إن أهالي سورية الشمالية و الساحلية يعتبرون سورية الجنوبية «فلسطين» قطعة متممة لسورية.
- ٢- رفض الهجرة الصهيونية لخطرها على كيان البلاد السياسي و رفض جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود.
- ٣- عدم الاعتراف بأي حكومة وطنية في فلسطين قبل أن تعترف الحكومة المحلية بالمطالبيين اللذين قدمهما الفلسطينيون إلى لجنة التحقيق الأميركية و هما: عدم فصل فلسطين عن سورية و منع الهجرة الصهيونية.
- ٤- إن الحركة الوطنية القائمة في البلاد للمطالبة باستقلال سورية بحدودها الطبيعية تهدف إلى أمرين:
 - إخراج المحتلين من الساحل.
 - و إخراج المحتلين من فلسطين.

و إزاء التطورات المتسارعة، اجتمع في النادي العربي بدمشق حشد من الشخصيات الفلسطينية، و قرّر تشكيل الجمعية العربية الفلسطينية (٣١ أيار / مايو ١٩٢٠ م). و انتخبت للجمعية لجنة إدارية من: الحاج أمين الحسيني و عارف العارف و رفيق التميمي و عزة دروزة و معين الماضي و إبراهيم عبد الهادي، و سليم عبد الرحمن. و دعت اللجنة إلى توحيد الجمعيات الفلسطينية في إطار للعمل المشترك، و احتجت بشدة على قرار مؤتمر سان ريمو، القاضي بانتداب بريطانيا على فلسطين، و على تعيين هربرت سامويل اليهودي مندوبا ساميا على فلسطين. كما قامت الجمعية بإذاعة بيان عام إلى مسلمي الهند و العالم أجمع، لفتت فيه أنظارهم إلى الخطر الصهيوني. و رفعت إلى قداسة البابا احتجاجا شديد اللهجة بصدد قضية فلسطين. و شهدت سنة ١٩٢٠ انعطافا في الحركة القومية العربية بصورة عامة، و الحركة الوطنية الفلسطينية بصورة خاصة، كان العامل الخارجي هو الأكثر تأثيرا في فرض المسارات اللاحقة.

فبعد إقرار ميثاق عصبة الأمم (٢٨ نيسان / أبريل ١٩١٩ م) الذي تضمن نظام الانتداب، و توقيع معاهدة فرساي (٢٨ حزيران / يونيو ١٩١٩ م)، حملت سنة ١٩٢٠ م سلسلة من الأحداث كان لها أثر مباشر على التطورات في فلسطين. فقد بادر المؤتمر السوري العام (٨ آذار / مارس ١٩٢٠ م)، و بعد افتضاح مخططات بريطانيا و فرنسا إزاء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨٠

المنطقة، إلى إعلان استقلال سورية بحدودها الطبيعية، لتشمل فلسطين، و بالتالي رفض المشروع الصهيوني، و نودي بفصل ملكا عليها. و سارت تظاهرات في فلسطين تأييدا للإعلان. و لذلك، سارعت الدول الأوروبية إلى توقيع معاهدة سيفر (٢٠ نيسان / أبريل ١٩٢٠ م)، و بعدها سان ريمو (٢٥ نيسان / أبريل ١٩٢٠ م)، اللتين فرضتا الانتداب على بلاد الشام. و تحركت فرنسا لاحتلال سورية، و بعد معركة ميسلون (٢٤ تموز / يوليو ١٩٢٠ م)، التي قتل فيها وزير الدفاع، يوسف العظمة، سقطت الحكومة العربية في دمشق، و غادرها فيصل. في المقابل، أوفدت بريطانيا هربرت سامويل مندوبا ساميا على فلسطين، ليحل محل الإدارة العسكرية هناك (تموز / يوليو ١٩٢٠ م).

نتيجة هذه المستجدات- انهيار الحكومة العربية في دمشق، و ترسيم الحدود بين الانتدابين (البريطاني و الفرنسي) في بلاد الشام- عزلت الحركة الوطنية الفلسطينية عمليا عن الحركة القومية الأم في سورية. فبدأت مرحلة جديدة من العمل الوطني الفلسطيني، سمتها العامة قطرية، حيث تمحور حول الانتداب البريطاني و المشروع الصهيوني. و إذ أدركت قيادات هذا العمل عدم قدرتها على التصدي للانتداب و الحؤول دون تجسيده على أرض الواقع، فقد تحولت إلى استنكار الإجراءات التي تتم في ظلّه و برعايته دعما للمشروع

الصهيوني، و النضال لتغييرها أو لعرقلتها. و عقد المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث (١٣-١٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠ م) في حيفا، برئاسة موسى كاظم الحسيني، ليضع أسس العمل الفلسطيني في المرحلة الجديدة.

و كان هذا المؤتمر الأول في سلسلة مؤتمرات دورية، بلغ عددها سبعة، و توقفت سنة ١٩٢٨ م. و كان ينبثق من كل مؤتمر لجنة تنفيذية، تكون الناطقة باسم عرب فلسطين، و تتولى الإشراف على تنفيذ القرارات المتخذة في المؤتمرات، و تقود الحركة الوطنية و توجيهها.

و في ديباجة قراراته، عمد المؤتمر الثالث إلى تذكير الحكومة البريطانية بالعهد الذي قطعه للشريف حسين، كما أشار إلى مجمل التصريحات التي رافقت مؤتمر السلام بشأن تقرير المصير للشعوب. و نوه بمآخذ الشعب الفلسطيني على إجراءات الإدارة البريطانية الجديدة، خلافا لرغبات السكان العرب. و استنكر الإجراءات و الترتيبات التالية:

أ- اتخاذها صلاحية سن القوانين لنفسها أي بدون مجلس تشريعي نيابي منتخب و قبل صدور قرار جمعية الأمم النهائي.

ب- اعترافها بالجمعية الصهيونية كهيئة رسمية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨١

ج- شروعها بتنفيذ المآرب الصهيونية بإدخالها المهاجرين الصهيونيين و استعمالها العبرانية لغه رسمية و سكوتها على وجود راية صهيونية.

د- تأليفها مجلسا استشاريا عينته تعيينا لتوهم أن في فلسطين مجلسا تشريعا يمثل الأهالي.

ه- وجود زعماء صهيونيين في أعلى مراكزها مع أن فلسطين هذه هي البلاد المقدسة للعالمين النصراني و الإسلامي و لا يجوز وصول أمرها إلى أيدي غير إسلامية و نصرانية.

و مع أن المؤتمر الثالث أكد على استنكار وعد بلفور، و شجب سياسة الانتداب في فتح أبواب فلسطين أمام الهجرة اليهودية المكثفة، فإن مطلبه الرئيسي كان إقامة حكومة تمثيلية، وطنية و مستقلة، مسؤولة أمام مجلس نيابي، يكون أعضاؤه منتخبين من قبل الشعب المتكلم باللغة العربية، القاطن في فلسطين حتى أول الحرب. و في هذا المؤتمر، سواء لناحية الشكل أو المضمون، يتضح أثر سقوط الحكم العربي في دمشق على الحركة الوطنية الفلسطينية، و هو إذ حشد ممثلين عن الجمعيات و النوادي و الشخصيات و المثقفين، و كان معبرا عن قطاعات الشعب الفلسطيني بصورة عامة، فإنه اتخذ طابعا قطريا صرفا. و إزاء إجراءات حكومة الانتداب، و خصوصا تشكيل المجلس الاستشاري الذي بادر إليه المندوب السامي الأول، هربرت سامويل، فقد شغلت الحركة الوطنية الفلسطينية بقضايا قطرية، و من موقع ردة الفعل على المستجدات المتسارعة. و بذلك، حققت الصهيونية، و منذ البداية، أحد أهم أهداف مشروعها- تفتيت حركة التحرر العربية، و تحديد مساراتها السياسية.

و في أجواء من الاحتقان الشعبي، تحول موكب الاحتفال بموسم النبي موسى في القدس، و الذي تواكب مع عيد الفصح لدى المسيحيين و اليهود (٤ نيسان/ أبريل ١٩٢٠ م)، إلى تظاهرة وطنية للإعراب عن السخط و الاحتجاج ضد الصهيونية و الإدارة البريطانية. و خطب في الحشد الكبير موسى كاظم الحسيني، رئيس البلدية، و كذلك الحاج أمين الحسيني و عارف العارف، محرضين على السياسة البريطانية الرامية إلى تهويد فلسطين. و توترت الأوضاع بعد تحرش العصابات الصهيونية التي نظمها زئيف جابوتنسكي بالمظاهرين، و اندلع الاشتباك بعد أن أطلق أفراد تلك العصابات النار عليهم. و تدخلت القوات البريطانية لقمع الاشتباكات، فاصطدمت بمقاومة عنيفة، استمرت في شكل متفرق عدة أيام، و أسفرت عن مقتل ٥ يهود و ٤ عرب و جرح ٢١١ يهوديا و ٢٣ عربيا و ٧ جنود بريطانيين. و تشكلت لجنة تحقيق (لجنة بالين)،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨٢

فأكدت في تقريرها أن الاضطرابات كانت نتيجة حالة التوتر التي تسود الجماهير العربية، جزاء سياسة تهويد فلسطين التي تتبعها

سلطات الاحتلال البريطاني.

و بعد انسحاب القوات البريطانية من سورية الشمالية، و قبل انتشار القوات الفرنسية في جميع أنحاءها (١٩١٩ م)، قامت مجموعات عربية مسلحة بمهاجمة المستعمرات اليهودية في منطقتي طبرية و الجليل الأعلى. و قد تصاعدت هذه الهجمات على المستعمرات الأربع التي أقيمت في الطرف الشمالي من سهل الحولة (إصبع الجليل)، و هي: المطلة و كفار غلعادي و تل - حاي و حَمارة (المحمرة). و تولى قيادة الدفاع عنها جوزف ترومبلدور. و لكن هذا الدفاع لم يصمد أمام الهجمات العربية المتوالية، ف راحت المستعمرات تسقط، الواحدة تلو الأخرى. و بدايةً أُخليت حمارة (١ كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ م)، و أُحرقت. ثم تبعتها المطلة (منتصف كانون الثاني / يناير ١٩٢٠)، فعاد إليها أصحابها السابقون من السكان المحليين. و وقعت معركة تل - حاي الحاسمة في آذار / مارس ١٩٢٠ م، إذ قتل ترومبلدور، و هرب بقية المدافعين عن كفار غلعادي (٣ آذار / مارس ١٩٢٠). و قد لجأ هؤلاء إلى الطيبة (جنوب لبنان)، حيث جمعهم كامل بك الأسعد، و نقلهم إلى صيدا، و منها إلى حيفا. و بذلك، و لفترة و جيزة جرت تصفية الاستيطان الصهيوني في شمالي سهل الحولة، لأنه وقع خارج منطقة الحماية البريطانية الفعلية.

لكن هذه المقاومة العربية لم تزحزح بريطانيا عن موقفها من وعد بلفور.

و عندما حذرت الإدارة العسكرية في فلسطين من مغبة الإيغال في دعم المشروع الصهيوني، لما قد يجزه ذلك من عنف دموي، عمدت حكومة لندن إلى استبدالها بأخرى مدنية، برئاسة هيرت سامويل، كمندوب سام، و هو المعروف بصهيونيته، حتى عندما كان عضواً في الحكومة سنة ١٩١٦ م. و في كتاب التعيين جعلت تلك الحكومة تجسيد وعد بلفور عنصراً أساسياً في مهمات الإدارة الجديدة. و صدرت أحكام بحق موسى كاظم الحسيني، فنحى عن رئاسة البلدية، و حل محله راغب النشاشيبي، الذي فتح بذلك ثغرة في الصف الفلسطيني. و كذلك حكم بالسجن على كل من الحاج أمين الحسيني و عارف العارف، ففرّا إلى شرق الأردن، إذ كان مشايخ القبائل يدعمون النضال الفلسطيني. و حكم بالسجن كذلك على زئيف جابوتنسكي.

و على الرغم من أصوات الاعتراض البريطانية أيضاً، و حتى اليهودية، في بريطانيا و الولايات المتحدة، ضد تعيين سامويل مندوبا ساميا، فقد أصرت حكومة لندن على ذلك. و كان هذا التعيين بدايةً مرحلة جديدة في الصراع العربي - الصهيوني تحت الانتداب البريطاني.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨٣

خامساً: الانتداب يرضى الاستيطان

إشارة

كان تعيين هيرت سامويل مندوبا ساميا على فلسطين، بمثابة رسالة صريحة من حكومة لندن إلى الأطراف المعنية جميعها، تؤكد التزامها بوعد بلفور، و إصرارها على تنفيذه. و إزاء المقاومة العربية لهذه السياسة، من جهة، و تردد الإدارة العسكرية في تجسيدها، اقتناعاً بعدم جدواها، من جهة أخرى، عمدت الحكومة البريطانية إلى تجاهل حقوق الفلسطينيين. فبادرت إلى اتخاذ إجراءات من شأنها تعزيز الاستيطان الصهيوني، و تغييب سكان البلد الأصليين، عبر الانتداب الذي لم يكن قد أقر بعد في عصبة الأمم. و في مذكرة بعث بها بلفور إلى اللورد كيرزون (وزير الخارجية) في ١١ آب / أغسطس ١٩١٩ م، في أثناء مناقشة التعهدات البريطانية المتضاربة خلال الحرب، و بروز اعتراضات قوية عليها داخل الحكومة و البرلمان، قال: «إن التناقض بين نصوص العهد و سياسة الحلفاء صارخ بدرجة أكبر في حالة (أمة فلسطين المستقلة)، عنه في حالة (أمة سورية المستقلة)، فنحن لا ننوي في حالة فلسطين حتى أن نقوم بشكليات استقصاء رغبات سكان البلد الحاليين، و إن كانت اللجنة الأميركية تقوم بشكليات الاستفسار عن هذه الرغبات.»

و مضى بلفور يقول في مذكرته: «إن الدول الكبرى الأربع ملتزمة بالصهيونية».

و الصهيونية، سواء أكانت صائبة أو خاطئة، حسنة أم سيئة، تضرب بجذورها في عادات قديمة قدم الدهر، و في الحاجات الحالية، و في الآمال المقبلة، و هي أكبر أهمية بكثير من رغبات و تحاملات السبعمة ألف عربي الذين يقطنون الآن تلك الأرض القديمة ... و أيا كان مستقبل فلسطين، فهي ليست الآن (أمة مستقلة)، و ليست في سبيلها لأن تصبح كذلك. و مهما كان ينبغي مراعاة رأى الذين يعيشون هناك، فإن الدول الكبرى لا تنوى، على حد فهمى للأمر، أن تستشيرهم لدى قيامها باختيار الدولة المنتدبة. و خلاصة القول إن الدول الكبرى لم تصدر فيما يتعلق بفلسطين أى بيان وقائعى ليس خاطئا باعترافها، و لا بيان سياسى إلّا و هي تعترم دائما على الأقل بالمعنى الحرفى، أن تنتهكه».

و فى الواقع، فإن الدول الكبرى لم تحترم العهود التي قطعتها على نفسها فى أثناء الحرب، ما عدا التزامها تجاه الصهيونية، الذى جرى تعزيزه و إعطاؤه الأولوية.

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٣٨٤

ففى معاهدة فرساي (٢٨ حزيران/ يونيو ١٩١٩ م)، بين الحلفاء المنتصرين و ألمانيا المهزومة، تقرر إنشاء عصبة الأمم، و دخل القرار حيز التنفيذ فى ١٠ كانون الثانى/ يناير ١٩٢٠. و فى ميثاق عصبة الأمم المادة ٢٢، أقر «نظام الانتداب»، كشكل جديد من الاستعمار، و فى مؤتمر سان ريمو (٢٤ نيسان/ أبريل ١٩٢٠ م)، جرى الاتفاق بين فرنسا و بريطانيا على تحديد انتدابينها على بلاد الشام و العراق بصورة عامة. فأخذت فرنسا سورية و لبنان، و بريطانيا فلسطين و شرق الأردن و العراق. و حددت هذه الانتدابات على أنها من الفئة (أ)، التى تضم الأقاليم التى اعترف موقتا باستقلالها فى عهد عصبة الأمم. و قد قامت فرنسا و بريطانيا بصوغ صكوك الانتداب على الأقطار العربية المذكورة، على أن توافق عليها عصبة الأمم بعد ذلك. و أدرجت فلسطين مع الأردن فى صك انتداب واحد، لكنهما عوملا بوصفهما إقليمين منفصلين.

و فى معاهدة سيفر (١٠ آب/ أغسطس ١٩٢٠)، التى أكره العثمانيون على توقيعها، لكن مصطفى كمال رفضها، أدخل الحلفاء مطلبين صهيونيين: (١) أن يعهد بإدارة فلسطين، عملا بأحكام المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم إلى دولة منتدبة؛ (٢) أن تكون الدولة المنتدبة مسؤولة عن تنفيذ وعد بلفور، الذى أصدرته الحكومة البريطانية (٢ تشرين الثانى/ نوفمبر ١٩١٧ م)، و أقرته دول الحلفاء الأخرى بعد ذلك. و عاد الحلفاء إلى تأكيد ذلك فى معاهدة لوزان (٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٣ م)، عندما توصلوا إلى اتفاق مع الحكومة الثورية فى تركيا، بقيادة مصطفى كمال «أتاتورك». و بعد ذلك، أصبح الانتداب سارى المفعول رسميا، مع أنه مضى أكثر من ثلاثة أعوام على تنفيذه عمليا. و على الرغم من الاعتراضات على شرعية الانتداب فى عصبة الأمم، إلّا إن هذه الهيئة التى هيمنت عليها الدول الكبرى، أقرت صك الانتداب (٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٢ م).

و عندما أقرت عصبة الأمم الانتداب البريطانى على فلسطين، فقد انتهكت بذلك ميثاقها الذى وضعته بنفسها. ذلك أن صك الانتداب الذى تضمن وعد بلفور، يتناقض و المبدأ الذى اعتمده العصبه فى المادة ٢٢ من ميثاقها. فهذا الصك ينتهك حق الشعب الفلسطينى فى تقرير المصير و الاستقلال. و هو ينطلق أساسا من هدف مغاير لما أعلن من أن الانتداب يرمى إلى تحقيق رفاهية الشعب الواقع تحته، إذ أعلن الصك صراحة أن مهمة الانتداب فى فلسطين هى تهيئة أوضاعها لإقامة «وطن قومى يهودى» فيها. و فى الواقع، فإن الأمين العام لعصبة الأمم، استنكر عمل المجلس الأعلى للحلفاء، فى مذكرة قدمها لمجلس العصبه فى ٣٠ تموز/ يوليو ١٩٢٠ م،

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى ؛ ص ٣٨٥

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٣٨٥

و قال: «إن توزيع الدول الكبرى للانتدابات ليس قانونيا، و لا- يمكن الاعتراف به.» و أيد مندوب بلجيكا (هيماش) ذلك معلنا أن المجلس الأعلى للحلفاء خالف ميثاق عصبة الأمم و أحكام القانون عندما وزع الانتدابات بين بعض أعضائه. و أكد رجل القانون

الدولى، فوشيل، «أن اختيار الدول المتحالفة الكبرى بريطانيا العظمى للانتداب على فلسطين قد جرى خلافاً لأحكام و نص المادة ٢٢ من ميثاق العصبة. فهو إذن باطل من الوجهة القانونية و لا يقام له وزن.»
و صك الانتداب الذى صاغته حكومة بريطانيا، يتضمن فى ديباجته وعد بلفور.
و قد واجهت صيغته معارضة قوية داخل الحكومة، فكان من أشد المعترضين عليه وزير الخارجية اللورد كيرزون. و تعليقا على مهمة الانتداب فى تهيئة فلسطين، سياسيا و إداريا و اقتصاديا، لإنشاء «وطن قومى يهودى»، قال كيرزون: «إن الصهاينة يعملون على إقامة دولة يهودية يكون العرب فيها حطابين و سقائين و كذلك الكثيرون من المتعاطفين البريطانيين مع الصهاينة.» و أكد وزير الخارجية البريطانى: «إن أحدا لم يستشرنى أبدا فيما يتعلق بصك الانتداب هذا فى مرحلة سابقة، و لا أدرى من أى مفاوضات ينبع أو على أى تعهدات يستند .. إننى أعتقد أن المفهوم بأكمله خاطىء.» و أضاف كيرزون بلهجة ساخرة: «هنا بلد به ٥٨٠,٠٠٠ عربى و ٣٠,٠٠٠ يهودى ...»

و انطلاقا من مبادئ تقرير المصير النبيلة و انتهاء بنء رائج موجه إلى عصبه الأمم، نشرع الآن فى وضع وثيقة تمثل ... دستورا معلنا لدولة يهودية. و لا يسمح حتى للعرب المساكين إلّا بأن ينظروا من ثقب المفتاح بوصفهم طائفة غير يهودية.»
ولدى مناقشة صك الانتداب فى مجلس اللوردات، كانت الأغلبية ضد تضمينه وعد بلفور. و ردّا على مداخلة اللورد بلفور، التى دافع فيها عن سياسته الموالية للصهيونية و الداعمة لمطالبها، قال اللورد سيدنهام: «إن الضرر الناجم عن إلقاء شعب أجنبى على عربى - و العرب فى كل مكان بالمنطقة الخلفية - قد لا يعالج أبدا ...»

فما فعلناه بتنازلاتنا لا للشعب اليهودى و إنما لقطاع متطرف صهيونى، هو أننا بدأنا قرحا نازفا فى المشرق، و لا أحد يدرى إلى أى مدى سيمتد هذا القرح.» و قد صوت مجلس اللوردات بإلغاء وعد بلفور من صك الانتداب، لكن مجلس العموم ثبته فى ديباجة ذلك الصك، فقبلته الحكومة، و أصبح الأساس لسياستها الرسمية. و بناء

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٣٨٦

عليه، تبنته فى عصبه الأمم، و أقر فيها على الرغم من تناقضه مع ميثاقها، و أصبح سارى المفعول رسميا بعد معاهدة لوزان، إذ جرى الصلح مع تركيا، مع أنه كان قد طبق فعليا على الأرض منذ تموز/ يوليو ١٩٢٠ م.

لقد استند الانتداب، و بالتالى إدارته فى فلسطين برئاسة المندوب السامى إلى الاحتلال العسكرى و موازين القوى الدولية، و ليس إلى الشرعية القانونية، أو المعايير الأخلاقية أو الأعراف السياسية. و لم يكن فى وسع الحركة الوطنية الفلسطينية أن تمنعه، لكنها لم تستسلم لإرادته أيضا. و بالتناسب مع الحماسة لتهويد فلسطين، الذى بادرت إليه إدارة سامويل، كانت ردة فعل الحركة الوطنية الفلسطينية، أخذا فى الاعتبار قدرتها الذاتية على التصدى للانتداب و إجراءاته. و لما كانت مهمة الانتداب المركزية هى تهويد فلسطين، فقد عمدت إدارة سامويل إلى سنّ التشريعات و إصدار المراسيم التى تمهد الطريق لذلك. و تهويد فلسطين يعنى نقل ملكية الأرض فيها من أيدي سكانها الأصليين إلى المستوطنين، و تغيير الواقع الديموغرافى بفتح أبوابها للهجرة اليهودية المكثفة، و تمكين المستوطنين من السيطرة على اقتصاد البلد، عبر مؤسسات الحكم و الإدارة. و قد بادرت إدارة سامويل إلى ذلك، حتى و إن كانت المنظمة الصهيونية لا تزال غير مؤهلة لتولى هكذا مسؤولية. و فى غياب الآلية الصهيونية لتهويد فلسطين باليهود، بقى لها الخيار الأفضل الثانى، و هو تغييب سكانها العرب عنها، و بالوسائل المتعددة.

و بالاستناد إلى تخويله سنّ القوانين و إصدار التشريعات، عمد المندوب السامى، مباشرة بعد تسلمه مهماته، إلى اتخاذ سلسلة من الإجراءات الهادفة إلى تعزيز الاستيطان الصهيونى فى البلد. فقد أصدر «قانون الهجرة» (١٩٢١ م)، الذى يسمح بدخول ٥٠٠, ١٦ مهاجر يهودى إلى فلسطين سنويا. ثم جرى تعديل هذا القانون فى السنوات ١٩٢١ و ١٩٢٥ و ١٩٣٣ م لزيادة عدد المهاجرين المسموح لهم بدخول البلد. و كان التعديل الأخير سنة ١٩٣٣ م و يسمح بدخول أكبر عدد ممكن من يهود أوروبا، بعد وصول الحزب النازى،

بزعامه أدولف هتلر، إلى الحكم في ألمانيا. و كذلك، أصدر سامويل قانون نقل ملكية الأراضي (١٩٢٠ م)، بغية تسهيل استملاك الأرض من قبل المؤسسات الاستيطانية الصهيونية. كما أصدر القوانين التي تضيق الخناق على الفلاحين العرب، مثل «قانون أراضي المحلول»، الذي يمنع الفلاحين من توسيع أراضيهم الزراعية، كما كانت العادة في أيام الأتراك. و كذلك «قانون الأرض الموات»، الذي يحظر على الفلاحين ضم «الموات» إلى ملكيتهم، كما كان الحال أيام العثمانيين. و واضح أن جملة هذه القوانين تخدم الأهداف الصهيونية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨٧

في تهويد فلسطين، و تغييب سكانها العرب الأصليين.

و لتسهيل سيطرة الاستيطان الصهيوني على نواحي الحياة في فلسطين، اعترفت إدارة الانتداب بالمؤسسات الصهيونية التي أقيمت لذلك الهدف. و من بين هذه المؤسسات: الوكالة اليهودية، التي مهمتها تهويد السكان عبر الهجرة و الاستيطان؛ و الصندوق القومي اليهودي (هكيرن هكيمات) لتهويد الأرض عبر الاستملاك بشتى الوسائل؛ و نقابة العمال اليهود (الهستدروت) لتهويد العمل و الاقتصاد. و علاوة على ذلك منحت إدارة الانتداب امتيازات على أراض واسعة و موارد طبيعية لشركات استيطانية صهيونية، لتقام عليها مشاريع الري و الكهرباء و استخراج المعادن و الأملاح و صناعة الأسمنت و غيرها. و بفضل الامتياز الذي أعطى لمشروع روتنبرغ، و لمدة سبعين عاما، تم احتكار توليد الكهرباء في فلسطين كلها تقريبا. و قد حصل صاحب المشروع (روتنبرغ) على الامتياز من إدارة سامويل (أيلول/ سبتمبر ١٩٢١ م). و بسبب خلافات بين الشركاء، تأخر الامتياز الذي منح لشركة بوتاس البحر الميت حتى سنة ١٩٢٧ م، و كان لمدة ٧٥ عاما. في المقابل لم يمنح امتياز واحد للعرب الفلسطينيين، بل على العكس، جرى التضيق على أصحاب بعض المشاريع الصغيرة لإكراههم على بيعها، كما حدث مع شركة كهرباء القدس و مشروع رى الحولة (عين الملاحه) و الحمه (المياه الكبريتية).

و في الواقع، فإن حكومة الانتداب، التي رأت مهمتها المركزية تجسيد وعد بلفور، كان لا بد من أن تتخذ الإجراءات اللازمة لذلك، و تغطيها بتشريعات تضىف عليها السمة القانونية. فقد صفت البنك الزراعي الذي أقيم تحت الحكم العثماني لمساعدة الفلاحين، و فرضت على هؤلاء ضرائب باهظة أغرقتهم بالديون. و سنت قوانين تخدم تجنيس المهاجرين اليهود، بعد أن فتحت أمامهم أبواب البلاد على مصراعيها. كما أجزت مسحا للأراضي، و فرزت أملاك الدولة، ليسهل بيعها أو نقل ملكيتها. و منحت المؤسسات المالية الصهيونية، العامة و الخاصة، امتيازات اقتصادية.

و سمحت للمؤسسات الاستيطانية التصرف بحرية لتهويد الأرض و السكان و الاقتصاد و العمل. و لكن الأهم هو السلوك، بناء على صك الانتداب، إزاء الهيئات الصهيونية على أنها سلطة موازية لحكومة الانتداب، تشارك في صنع القرار بالنسبة إلى جميع نواحي الحياة بالبلد. بل أكثر من ذلك و بسبب علاقتها مع حكومة لندن، صارت الهيئات الصهيونية بمثابة رقابة على حكومة الانتداب، و بالتالي موجهة لأعمالها.

لقد كان من شأن الأوضاع التي تشكلت في فلسطين تحت الانتداب أن تولد صراعا مثلث الجوانب، يزداد حدة، أو يتراجع، وفقا لاحتدام التناقض الناجم عن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨٨

حركة الأطراف. و هذه الحركة كانت بطبيعتها الحال محكومة بالأهداف التي يرمى إليها كل طرف منخرط في الصراع، من جهة، و باعتبارات الواقع المتشكل من الجمع بين تلك الأطراف في وحدة صراعية متحركة، من جهة أخرى. و سيرورة هذا الصراع محكومة بقدره كل واحد من أطرافه على تجسيد أهدافه في الواقع المتطور. فحكومة الانتداب، و إذ كان تجسيد وعد بلفور أحد أهم مرتكزات حركتها السياسية، فقد كانت لها اعتبارات خاصة، إقليمية و دولية، وضعت بعض الضوابط على اندفاعها في دعم المشروع الصهيوني

من دون النظر إلى حساب الكلفة و المردود. و الحركة الصهيونية، و إن راحت تبلور أهدافها، و تصوغ مؤسساتها، و تسارع إلى إيجاد واقع يمهد السبيل أمامها، فقد اصطدمت بعقبات ذاتية و موضوعية، حالت دون تمكينها من تحقيق أغراضها بالسرعة المرغوبة. و الحركة الوطنية الفلسطينية، التي كانت في موقع الدفاع، لم تستطع توليد فعل كاف لصدّ الهجمة الصهيونية-الإمبريالية عليها، لكنها ردتّ بأشكال متعددة من النضال، قطعت على الطرفين الآخرين طريق الوصول إلى أهدافهما بالسرعة التي خططا لها، و بالشكل الذي بادرا إلى تنفيذه.

و إذ لم يستطع أحد من هذه الأطراف حسم التناقض لمصلحته، و بالصيغة التي أراد، فقد استمر الصراع، بين مدّ و جزر، متخذاً مستوى من الحدة، يتناسب، بهذه الدرجة أو تلك، مع مستوى احتدام التناقض المتولد في عملية الصراع الجارية، و الناتج عن تجليات مفاعيلها. و بينما كانت حكومة الانتداب منحازة استراتيجياً إلى المشروع الصهيوني، فإنها على الصعيد التكتيكي لم تتطابق تماماً مع نشاط المنظمة الصهيونية العاملة على تجسيده كما ترغب، و بالتالي توظيف حكومة الانتداب في هذا السبيل. و بصورة عامة، حاولت تلك الحكومة استيعاب الحركة الوطنية الفلسطينية و ترويضها بأشكال متعددة. لكن القيادة الصهيونية أرادت قمع المقاومة الفلسطينية، بكل الوسائل. و إذ لم يمتلك الاستيطان الصهيوني القدرة، أو الأدوات، لتطويع الحركة الوطنية الفلسطينية، فقد طالبت قيادته حكومة الانتداب القيام بذلك، من دون أن تقيم وزناً للاعتبارات البريطانية أحياناً. و سواء لأسباب ذاتية، أو نتيجة قراءة معينة لموازين القوى، فقد سلمت الحركة الوطنية الفلسطينية بالانتداب، لكنها اعترضت على سياسة حكومته. و إذ خفضت من حدة مطالبها بالاستقلال، فقد ركزت جهودها على التصدي للمشروع الصهيوني، و نجحت في حالات معينة، مستفيدة من التعارضات التكتيكية بين سياستي حكومة الانتداب و الحركة الصهيونية.

ففي إطار سياستها المرتكزة على وعد بلفور، وضعت بريطانيا فلسطين تحت انتدابها، ليكون في قدرتها تجسيد ذلك الوعد. ثم صارت لوضع حدود «فلسطين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٨٩

الانتداب» بحيث تلبى المطالب الصهيونية إلى حد كبير. ثم استبدلت الإدارة العسكرية، خارج الأعراف الدولية، بأخرى مدنية أكثر استجابة لإملاءات المشروع الصهيوني. و عينت على رأسها أحد مهندسي ذلك المشروع في بريطانيا، و دعمته بعدد من الموظفين الموالين للصهيونية ليتسلموا المواقع المفصلية في إدارته. ثم حولت المسؤولية عن فلسطين من وزارة الخارجية، حيث تصاعد النقد لوعد بلفور و سياسته، إلى وزارة المستعمرات، التي كان على رأسها أحد الأقطاب الداعمين للصهيونية، و نستون تشرشل (كانون الثاني / يناير ١٩٢٠ م). ثم فصلت فلسطين عن شرقى الأردن (آذار / مارس ١٩٢١ م). و منذ البداية، حتى في ظل الحكم العسكري، اعترفت بريطانيا بالمنظمة الصهيونية شريكاً في الحكم في فلسطين، عبر لجنة المندوبين، كما خصّصت الاستيطان الصهيوني بمعاملة متميزة في ظل الانتداب، تتيح له التطور السريع ليشكّل الركيزة التي يقوم عليها «الوطن القومي اليهودي»، و اتخذت من الإجراءات الإدارية و التشريعية ما يمهد السبيل أمام ذلك.

و منذ أن تولى منصبه كمندوب سام، شرع سامويل في تنفيذ المهمة التي جاء من أجلها، وضع البلاد في «حالة سياسية و اقتصادية و إدارية»، تؤدي إلى قيام «الوطن القومي اليهودي»، كما ينص عليه صك الانتداب، الذي جهد سامويل نفسه في صوغه و تمريره في المؤسسات الحاكمة في بريطانيا. و إضافة إلى الهيئات الصهيونية العاملة على تهويد فلسطين، عبر أشكال متعددة من المؤسسات الاستيطانية، أقام سامويل إدارة حكومية، كان جلّ كبار المسؤولين فيها من الملتزمين بالصهيونية و مشروعها، سواء كانوا يهوداً أو بريطانيين. و لإضفاء طابع من الشرعية على السلطة التنفيذية التي يترأسها، عين سامويل «مجلساً استشارياً» مؤلفاً من ٢١ عضواً، ١٠ منهم موظفون يتولون المناصب الإدارية العليا، و ١٠ آخرون تمّ اختيارهم على أساس طائفي: ٤ مسلمون و ٣ مسيحيون و ٣ يهود، و يرأس المندوب السامي هذا المجلس أيضاً. و عقد المجلس أول جلساته في ٦ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٢٠ م. و في شباط / فبراير ١٩٢٢ م، و

بالتشاور مع لجنة المندوبين، أصدر سامويل «القانون الأساسي»، الذي استبدل بـ «دستور فلسطين» (١٠ آب/ أغسطس ١٩٢٢ م)، بعد إقرار صك الانتداب في عصبة الأمم. و المندوب السامي كان مسؤولاً أمام وزير المستعمرات في لندن، و هو الحاكم الأعلى، و كذلك المشرع الأول في فلسطين.

و قد تضافرت جهود سامويل و إدارته مع نشاط المؤسسات و الهيئات الصهيونية، في فلسطين و خارجها، لدفع الأمور نحو المزيد من التوتير، و بالتالي انفجار العنف في البلد. و لم تغلح مناورات سامويل في استيعاب الحركة الوطنية الفلسطينية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٠

و خصوصا أن التطمينات اللفظية، و الإيماءات الشكلية، التي كانت تقدمها إدارة سامويل إلى الشعب الفلسطيني و حركته الوطنية، كانت تنفيذها الإجراءات و التشريعات التي تتخذها هي، من جهة، و النشاطات السياسية و الاستيطانية التي تقوم بها الحركة الصهيونية، بتنسيق مع حكومتى الانتداب و لندن، من جهة أخرى. فهذه الحركة رأت في الحرب العالمية الأولى فرصتها لتحقيق غاياتها في إقامة دولة يهودية، تكون «باليهود و منهم و إليهم»، و بالتنسيق مع بريطانيا، و بالاستناد إلى دعم الولايات المتحدة، فراحت بعد الحرب تغذ الخطة نحو ذلك الهدف. و إلى جانب النشاط الكبير على الصعيد الدولي، داخل مؤتمر السلام و خارجه، فقد سارعت إلى لملمة أوضاعها التنظيمية، و تشكيل المؤسسات و الهيئات التي من خلالها يمكن تهيئة الوضع الصهيوني الذاتي لأداء المهمات المطلوبة منه. و إذ تبلورت الحركة الصهيونية، شكلا و مضمونا، في أعوام الانتداب الأولى، إلّا إنه كان عليها أن تنتظر حربا عالمية ثانية لتصل إلى إقامة دولتها اليهودية-إسرائيل.

تشكيل المؤسسات الاستيطانية

منذ مؤتمر فيينا (١٩١٣ م) لم تعقد المنظمة الصهيونية العالمية مؤتمرها الدوري بسبب الحرب. و في هذه الأعوام، فرضت قيادة الأمر الواقع نفسها على العمل الصهيوني، فبرز حاييم وايزمن في بريطانيا، و لويس براندايس في الولايات المتحدة، و ناحوم سو كولوفا في فرنسا. و إزاء المهمات الجديدة في مرحلة ما بعد الحرب، من جهة، و الطعن في شرعية قيادة العمل الصهيوني، و بروز أصوات يهودية و بريطانية تعارض وعد بلفور و الانتداب، بينما المشروع الصهيوني مطروح في مؤتمر السلام، من جهة أخرى، رأت تلك القيادة ضرورة إضفاء الشرعية على موقعها و عملها. و بعد مؤتمر سان ريمو، أصدرت دعوة إلى عقد مؤتمر استثنائي موسع، و اختارت لندن مكانا له، تقديرا للحكومة البريطانية على دعمها للمشروع الصهيوني، و جهودها في تأمين الانتداب على فلسطين. كما أرادت المنظمة الصهيونية أن يكون انعقاد المؤتمر مناسبة لحملة إعلامية في أوساط الرأي العام البريطاني، تقوى موقف المؤيدين للصهيونية ضد معارضيتها، في المؤسسة البريطانية الحاكمة و خارجها.

و انعقد مؤتمر لندن في مطلع تموز/ يوليو ١٩٢٠ م، و كان من أهم المؤتمرات الصهيونية على الإطلاق. و حضرته وفود كثيرة، بينها وفد كبير من الولايات المتحدة، على رأسه لويس براندايس، يرافقه صهره، فيلكس فرانكفورتر، و الحاخام وايز و غيرهما. و ترأس براندايس جلسة الافتتاح، و ألقى خطابا أجمل فيه منجزات النشاط

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩١

الصهيوني حتى نهاية الحرب الأولى، و قال: «لقد تم إنجاز العمل العظيم الذي بدأه هيرتسل في سان ريمو، و تكلفت الجهود الرامية إلى الحصول على اعتراف بالوطن اليهودي في فلسطين ... بالنجاح.» و تلاه ناحوم سو كولوفا، الذي أعلن وسط حماسة الحاضرين، «أن صفحة السياسة قد انطوت عمليا و بدأت صفحة جديدة الآن هي صفحة تحقيق أمانينا. فالصفحة الأولى لم نكتبها نحن بل أولئك الذين كان بيدهم زمام الأمر لفتح أبواب البلد أما الصفحة التالية فلن يكتبها أحد سوانا.» و كان هذا المؤتمر معلما بارزا في العمل الصهيوني، سواء لناحية تبلور فكرة المشروع، أو المضمون السياسي له، أو الصيغ التنظيمية التي يتجسد من خلالها، في فلسطين و

الخارج.

و طرحت في المؤتمر فكرة تنصيب براندايس رئيسا للمنظمة الصهيونية العالمية، لكنه اعتذر، مشددا أنه يستطيع خدمة المشروع الصهيوني من موقعه في المؤسسة الأميركية أكثر. و لذلك استبدلت الفكرة بانتخابه رئيسا فخريا، و قبل المنصب، إلا إنه عاد و تراجع بعد يومين من المداوالات الساخنة بين قادة العمل الصهيوني. و أكد براندايس علنا أنه لا يستطيع بعد أن يتحمل مسؤولية في المنظمة الصهيونية العالمية، بسبب الأساليب المتلوية التي يعتمدها وايزمن. و الواضح أن خلافا اندلع بين الاثنين بشأن طبيعة الاستيطان الصهيوني في فلسطين، و الصيغة التي يجب أن يأخذها، و شكل ارتباطه باليهود في العالم، و تحديدا دور رأس المال اليهودي الأميركي، الذي لم يعتقد أصحابه الصهيونية عقيدة، لاعتبارات موقعهم في المؤسسة الاقتصادية الأميركية. و قد تمحور الخلاف بين براندايس و مؤيديه، من جهة، و بين وايزمن و أنصاره، من جهة أخرى، بشأن طبيعة الصندوق التأسيسي (كيرن هيسود)، الذي تقررت إقامته في هذا المؤتمر، ليكون الذراع المالية للمنظمة الصهيونية العالمية.

و كان الخلاف بين براندايس و وايزمن يعبر عن وجهتي نظر متباينتين بشأن طبيعة العلاقة بين الاستيطان الصهيوني في فلسطين و يهود العالم، من جهة، و بينه و بين المراكز الإمبريالية، من جهة أخرى. و من هنا، دار جدل بشأن طبيعة الصندوق التأسيسي، و مقدار تركيز نشاطاته في فلسطين، و العلاقة التي يجب أن تقوم بين الصندوق و المنظمة الصهيونية. و أصرت مجموعة وايزمن على الطابع «القومي» للصندوق، و بالتالي وضعه تحت سلطة المنظمة الصهيونية العالمية. في المقابل،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٢

رأت جماعة براندايس أن يقوم الصندوق بتمويل مشاريع الاستيطان بصورة محددة، و على أساس علاقة رأسمالية، و يخضع لسلطة المنظمة الصهيونية الأميركية، الممول الرئيسي للصندوق. و قد نجح وايزمن في تثبيت رأيه، على الرغم من أن معظم الأموال الواردة إليه جاءت من الولايات المتحدة. و اعترل براندايس مهماته في المنظمة الصهيونية، و انتخب وايزمن رئيسا لها، و ناحوم سو كولوف رئيسا للجنة التنفيذية. و بذلك هيمنت سياسة وايزمن على عمل المنظمة الصهيونية العالمية.

ولدى عودته إلى الولايات المتحدة بعد المؤتمر، كتب براندايس مذكرة إلى المنظمة الصهيونية الأميركية، جاء فيها ما يلي: «لقد وصلنا إلى مفترق طرق ... فلم نعد حركة دعاوية إلا بالدعاية المنبثقة من فهم الواقع و إنجاز مشاريع ملموسة. و إضافة إلى ذلك، فعلينا ألما نغفل حقيقة أن مخططاتنا يجب أن تكون بالصورة التي تستدعي التعاون الكامل من اليهود كلهم، أولئك الذين لا يريدون بناء المنظمة الصهيونية، و لكنهم يريدون المشاركة معها في إعمار فلسطين ... إن المسؤولية في فلسطين بالمستقبل القريب يجب أن تترك للدكتور وايزمن و يهود بريطانيا بصورة رئيسية، و لا يجوز لأي اعتبار أن يسمح بأخذ تلك المسؤولية عن عاتقهم.» و فعلا، فإنه بعد مؤتمر لندن، الذي لم يكن مؤتمرا عاديا، تولت المنظمة الصهيونية البريطانية قيادة العمل الصهيوني اليومي، بما في ذلك الإشراف على الاستيطان و إدارة مؤسساته في فلسطين، تحت الانتداب البريطاني. و تراجع في الظاهر دور المنظمة الصهيونية في الولايات المتحدة، الأمر الذي عبر عن تراجع دور الاحتكارات الأميركية في الشرق الأوسط لمصلحة الاحتكارات الأوروبية.

في هذه المرحلة، تبلورت ملامح المراكز الاستراتيجية للمشروع الصهيوني بشقيه - الإمبريالي و اليهودي. فقد تبنت بريطانيا هذا المشروع لأغراضها الاستعمارية، و أصبحت البلد الأم بالنسبة إليه. و بعد تكريس وعد بلفور في ميثاق عصبة الأمم، و صك الانتداب و معاهدة لوزان، و وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، و اتباعها لوزارة المستعمرات، قامت بريطانيا بكل ما هو مطلوب منها في تلك المرحلة. و قد أقر بذلك ناحوم سو كولوف في مؤتمر لندن، حين أكد أن الإنجازات التي تحققت للصهيونية كانت بفعل القوة التي تملك زمام الأمور. و تصدرت بريطانيا تبني المشروع الصهيوني، و تراجعت الولايات المتحدة مرحليا، لكنها لم تستسلم للأمر الواقع.

و يعبر نجاح وايزمن في تولى رئاسة المنظمة الصهيونية العالمية، و ليس براندايس، عن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٣

هذه الحقيقة. وبناء عليه، تقرر أن يكون مركز المنظمة في لندن، وله فروع في فلسطين والولايات المتحدة و دول أخرى. و إذ توفرت للحركة الصهيونية الظروف الموضوعية المواتية جدا على الصعيد الدولي، فإنها ذاتيا لم تكن مهتأة لنقل مشروعها من الإطار النظري إلى الصعيد العملي. و قد شكلت هذه الثغرة خطرا على المشروع الصهيوني، تحركت المنظمة لتلافيه بسد هذه الثغرة- يهوديا و تنظيميا.

و لعل الإجماع الذي تمتع به المشروع الصهيوني في المراكز الإمبريالية بعد الحرب العالمية الأولى، لا يوازيه إلا استنكاف اليهود عنه، و رفضهم الانجرار وراء دعائه، الأمر الذي راح يثير الشكوك حول جدوى المشروع و صدقية القائمين عليه، حتى داخل الحكومة البريطانية. و بعد مضي عشرة أعوام على وعد بلفور، اعترف وايزمن (١٩٢٧ م) أن هذا الوعد «كان مبنيا على الهواء.» و مضى يقول إنه كان يرتعد خشية أن تسأله الحكومة البريطانية عن مقدار تأييد اليهود للحركة الصهيونية. فهي كانت تعلم «أن اليهود ضدنا ... و كنا وحدنا نقف على جزيرة صغيرة، مجموعة قليلة من اليهود ذوى ماضٍ أجنبي.» و فى مذكرة سرية، رفعها إلى حكومته، يقول سير إدوين مونتاجو، الوزير اليهودي الوحيد فى الوزارة البريطانية التى أصدرت وعد بلفور، و هو أيضا الوزير الوحيد الذى عارضه، أن اليهود من أصل أجنبي، قد أدوا دورا ملحوظا فى الحركة الصهيونية فى إنكلترا. و من هؤلاء عدّد مونتاجو الدكتور غاستر (من رومانيا) و الدكتور هيرتز (من النمسا) و الدكتور وايزمن (من روسيا).

إن الفارق الكبير بين تأييد الدول الكبرى للمشروع الصهيوني و حماسة الجماعات اليهودية له، إن دل على شىء فعلى الطبيعة الإمبريالية لهذا المشروع، و على عدم التكافؤ فيه بين شقيه، الإمبريالى و اليهودى، و أن الأول هو الغالب عليه. و كان وايزمن و نظرائه يرون أن حل هذه المسألة يجب أن يأتى «من أعلى»، من ناحية الدول الإمبريالية، و عبر دورها فى تسخير اليهود لخدمة مصالحها، عن طريق وساطة المنظمة الصهيونية. و كانت الاستراتيجية التى وضعها نشطاء العمل الصهيوني تأمريه فى أساسها على الجماعات اليهودية لتهجيرها إلى فلسطين. و هذا ما فعلته الحركة الصهيونية لاحقا. و يذكر وايزمن أنه عندما أعرب له أحد المسؤولين البريطانيين عن دهشته للموقف المناهض للصهيونية، الذى يتخذه قادة يهود بريطانيا، أكد له وايزمن أن لديه خطة لشن الهجوم عليهم «من أعلى». و تكهن وايزمن أنه بمجرد الاعتراف بفلسطين «وطنا قوميا يهوديا»، فإن هؤلاء سيوافقون على الحل الصهيوني،

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٤

و سينخرطون هم أنفسهم فى صفوف الحركة الصهيونية فى الوقت الملائم. لكن تكهنات وايزمن لم تتحقق كما كان يتوقع، و تبنى بريطانيا للمشروع الصهيوني لم يحرك بين يهودها موجة من الهجرة إلى فلسطين. إلما إنه بعد وضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى، و إقرار ذلك فى عصبة الأمم، و بالتالى تصاعد وتيرة النشاط الصهيوني فى فلسطين، تغلبت المنظمة الصهيونية العالمية على المعارضة اليهودية لها، و أصبحت تنطق باسم اليهود أينما كانوا، بغض النظر عن رأيهم فى الموضوع. و راحت هذه المنظمة تقدم نفسها على الصعيد الدولى ممثلة لليهود العالم، و جرى الاعتراف بها على هذا الأساس على نطاق دولى واسع و مؤثر. و برزت المنظمة الصهيونية البريطانية بزعامه وايزمن، متحالفة مع التيار الصهيوني العملي، الذى راح يتولى قيادة الاستيطان الفعلى فى فلسطين. و بنى وايزمن استراتيجية عمله على محور لندن- واشنطن، إذ استغل موقعه على رأس المنظمة الصهيونية فى لندن، لتوسيع نطاق تأثيره و شبكة علاقاته على الساحة الأميركية، مجتريا هذه العلاقات لتطوير موقعه و تقويته فى لندن، و توظيف ذلك كله فى خدمة توطيد أركان الاستيطان فى فلسطين. و مع ذلك، فإن النجاح السياسى الذى حققه وايزمن، و حتى على الساحة الأميركية، متجاوزا براندايس، ظلت تنقصه الترجمة العملية على الأرض، بما يعطى الصدقية للمشروع الصهيوني، و يبزر الدعم الإمبريالى له.

و في إطار «الهجوم من أعلى»، تقدمت المنظمة الصهيونية، بعد تأمين الشق الإمبريالي من مشروعها، إلى بناء الشق اليهودي-الاستيطاني. فعمدت إلى تشكيل الهيئات و المؤسسات الضرورية لتهود فلسطين، و تحويلها إلى «وطن قومي يهودي»، و ذلك على الصعد الثلاثة- السلطة و الشعب و الأرض. و لأن الحركة الصهيونية كانت مفبركة و مصطنعة، فقد انطلقت من تشكيل السلطة، خلافا لتبلور الكيانات السياسية في عصر القوميات. و قد بدأ ذلك في المؤتمر الصهيوني الأول (بازل ١٨٩٧ م)، إلا إن الأوضاع بعد الحرب أصبحت تتطلب تطويرا للهيئات الصهيونية السلطوية. و كان من أولويات هذه السلطة تكوين قاعدة شعبية لها، إذ إنها لم تنشأ في أوساط التجمعات اليهودية، بل هبطت عليها من أعلى. و كذلك، كان على تلك السلطة أن تغتصب رقعة الأرض التي تنوى إقامة كيانها السياسي عليها، إذ إنها تبلورت في كواليس المراكز الإمبريالية، و ليس في فلسطين. و هذه الخصائص الأساسية للحركة الصهيونية، هي التي تسم مشروعها الاستيطاني بالإمبريالية و العنصرية، و خصوصا أنه يقوم على تغييب أهل البلد الأصليين و إجلائهم عن وطنهم، و قطع صلتهم التاريخية به.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٥

لقد ضمن صك الانتداب الاعتراف بالمنظمة الصهيونية كوكالة يهودية ملائمة للتعاون مع حكومة الانتداب في إعداد فلسطين لتصبح «وطنا قوميا يهوديا». و بناء عليه، كان لا بد من تطوير المؤسسات الصهيونية التي كانت قائمة قبل الحرب، لتتلاءم مع الأهداف المتوخاة من الوضع الذي تشكل بعد الحرب. لكن الوكالة اليهودية المعروفة بهذا الاسم (هسوخوت يهوديت)، لم تتشكل إلا سنة ١٩٢٩ م، لأسباب تتعلق بالخلاف داخل الحركة الصهيونية، بشأن العلاقة مع اليهود غير الصهيونيين، و بالتالي مشاركتهم في هذه الهيئة العامة. و منذ الاحتلال البريطاني (١٩١٨ م)، كانت هناك «لجنة مؤقتة» (فاعد زمانى)، تتولى تنسيق شؤون المستوطنين اليهود مع الإدارة العسكرية. و مع انعقاد مؤتمر السلام، بدأ المستوطنون يعدون لانتخاب «مؤتمر ممثلين» (أسيفات هنفحاريم)، و تم ذلك في نيسان/ أبريل ١٩٢٠ م.

و انبثقت من هذا المجلس «لجنة وطنية» (فاعد لثومي)، أصبحت تمثل المستوطنين في فلسطين إزاء حكومة الانتداب. و علاوة على ذلك، تشكلت سلطات محلية، استحوذت على صلاحيات واسعة في شؤون التعليم و الخدمات و استيعاب المهاجرين و تنظيم المستعمرات، و حتى المسؤولية عن الأمن فيها و الدفاع عنها، و بالتالي تشكيل منظمات مسلحة، تطورت لاحقا لتشكيل «الهاغاناه» (منظمة الدفاع)، و غيرها من العصابات الصهيونية الإرهابية.

و الوكالة اليهودية هي الذراع التنفيذية للحركة الصهيونية، و اسمها الكامل «المنظمة الصهيونية العالمية/ الوكالة اليهودية». و معلوم أن المنظمة الصهيونية، التي كانت تعمل على صعيد عالمي، عمدت إلى تشكيل هيئات لها في دول متعددة، و أطلقت عليها تسميات متميزة في الظاهر للتمويه على نشاطاتها، و للتحايل على القوانين السارية في تلك الدول. و لكن رئيس المنظمة الصهيونية هو رئيس الوكالة اليهودية، و المؤتمر الصهيوني العالمي هو الذي يجمع بين كل هذه الهيئات.

و قد اعترف صك الانتداب بالمنظمة الصهيونية على أنها الوكالة اليهودية المشار إليها في متنه، و التي منحت صلاحية التعاون مع حكومة الانتداب بهدف إنشاء «الوطن القومي اليهودي». و بناء عليه، فقد مارست المنظمة الصهيونية العالمية مباشرة دور الوكالة اليهودية المشار إليها في صك الانتداب، بكل ما يتعلق بشؤون المستوطنين اليهود في فلسطين و سلطات الانتداب. و استمر الوضع كذلك في فترة ١٩٢٢-١٩٢٩ م، و خلالها تطورت الوكالة اليهودية في فلسطين لتصبح «حكومة داخل الحكومة»، بكل معنى الكلمة. و في مؤتمر لندن (١٩٢٠ م)، انقسمت اللجنة التنفيذية للمنظمة الصهيونية إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٦

فرعين: (أ) لجنة لندن، و حقل اختصاصها العمل السياسي؛ (ب) لجنة فلسطين، لمتابعة النشاط الاستيطاني. و تحت الانتداب، راحت أهمية لجنة فلسطين تتعاظم بسبب المهمات الملقاة على عاتقها، إذ سرعان ما أصبحت تمثل المستوطنين سياسيا، سواء إزاء حكومة

الانتداب، أو المنظمة الصهيونية العالمية، أو الخارج بصورة عامة.

واللجنة التنفيذية، بفرعها، هي الوكالة اليهودية التي اعترف بها صك الانتداب كهيئة استشارية لحكومة الانتداب. ومع أن سلطات الانتداب لم تنظر إلى الوكالة اليهودية كشريك في الحكم، إلا إن هذه الوكالة سرعان ما فرضت نفسها ممثلاً للمستوطنين إزاء تلك السلطات، وناطقاً باسمهم لدى حكومة بريطانيا وعصبة الأمم وغيرها من الهيئات الدولية، كما راحت تقيم علاقات ثنائية مع بعض الدول، وخصوصاً مع الولايات المتحدة الأمريكية. وبذلك تحولت الوكالة اليهودية، في ظل الانتداب البريطاني، إلى هيئة عالمية كبيرة، هي التي أدت نشاطها إلى قيام الكيان الصهيوني في فلسطين سنة ١٩٤٨ م، وعندها تحول مجلسها التنفيذي إلى «حكومة إسرائيل الموقته»، وجهازها الإداري إلى جهاز «دولة إسرائيل»، التي أعلن رئيس الوكالة اليهودية، دافيد بن-غوريون، قيامها (١٩٤٨ م).

و كانت الوكالة اليهودية عبر مكاتبها المنتشرة في جميع أنحاء العالم تقوم بجباية الأموال وتجنيد الدعم السياسي والاقتصادي لرفد النشاط الصهيوني في فلسطين. وفي مؤتمر لندن، دعا براندايس إلى إشراك اليهود غير الصهيين في الوكالة، فبرزت معارضة قوية للدعوة، وتأجل البت فيها. إلا إن حاييم وايزمن، رئيس المنظمة، نشط بين أصحاب رؤوس الأموال اليهود، وخصوصاً على الساحة الأميركية، ومهد الطريق أمام توسيع الوكالة، وإشراك غير الصهيين فيها (١٩٢٩ م)، فأصبحت تدعى «الوكالة اليهودية الموسعة لفلسطين». ونتيجة ذلك انشق الجناح الصهيوني التنقيحي، بزعامه زئيف جابوتنسكي، عن المنظمة الصهيونية العالمية، وشكل «المنظمة الصهيونية الجديدة».

وفي البداية، ضمت الوكالة الموسعة عدداً من اليهود غير الصهيين، إلا إنه بحلول سنة ١٩٤٧ م، أصبح جميع أعضائها صهيين، وأصبحت الوكالة والمنظمة شيئاً واحداً، رغم التسميات المتعددة. كما تقرر أن يكون رئيس المنظمة هو رئيس الوكالة، والمؤتمر الصهيوني هو مجلسها، واللجنة التنفيذية للوكالة هي اللجنة التنفيذية للمنظمة العالمية. ولدى قيام الكيان الصهيوني (١٩٤٨ م) أصبح رئيس المنظمة، حاييم وايزمن، الرئيس الأول لإسرائيل، ورئيس اللجنة التنفيذية، دافيد بن-غوريون، رئيس حكومة إسرائيل الأول، وسكرتير المكتب السياسي للمنظمة، موشيه شاريت (شروتوك) أصبح وزير خارجية إسرائيل الأول، وهكذا في المناصب الأخرى.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٧

لدى تشكيل الوكالة اليهودية في المؤتمر الصهيوني السادس عشر الذي عقد في زوريخ في ١٤ آب/أغسطس ١٩٢٩ م، حدد الدستور مهماتها كالتالي: (١) تشجيع الهجرة اليهودية وتعزيزها؛ (٢) تلبية الحاجات الدينية اليهودية؛ (٣) تطوير اللغة العبرية وتنمية الثقافة اليهودية؛ (٤) امتلاك الأراضي لتوسيع رقعة الاستيطان اليهودي؛ (٥) رفع مستوى الاستيطان الزراعي. وإضافة إلى ذلك، اهتمت الوكالة بتشكيل عصابات مسلحة، بذريعة الدفاع عن المستوطنين وممتلكاتهم. ويتضح من ذلك أن المهمة المركزية للوكالة اليهودية هي تهويد فلسطين، عبر تهجير اليهود إليها وتوطينهم فيها.

ولهذا الغرض عمدت إلى بناء المؤسسات التي تقوم بذلك عملياً. وفي دستور الوكالة يرد صراحة أن الأرض التي يتم وضع اليد عليها، تصبح خاصة «الشعب اليهودي»، وملكيتها تسجل باسم الصندوق القومي اليهودي، بهدف جعلها ملكاً غير قابل للتصرف لذلك الشعب. وفي الدستور أيضاً، أن الوكالة اليهودية ستنشئ الاستيطان الزراعي القائم على العمل العبري. وفي كل الأعمال التي تقوم بها الوكالة، يعتبر توظيف اليهود مسألة مبدئية. ومن أهم أدوات الوكالة على هذا الصعيد كان الصندوق القومي اليهودي (هكيرن هكيمات) لتهويد الأرض، ونقابة العمال اليهود (الهستدروت) لتهويد الاقتصاد والعمل.

ومنذ أن تأسست سنة ١٩٢٠ م، وإلى أن تحولت إلى «دولة إسرائيل» (١٩٤٨ م) ظلت الوكالة اليهودية في فلسطين تطور مؤسساتها وتوسع نشاطها، لتغطي بأجهزتها جميع المهمات المطلوبة منها، وتصبح حكومة كاملة فعلاً. ومع نهاية الانتداب، أعلنت السيادة على

الأراضي التي وقعت في أيديها، سواء تلك التي سلمتها لها حكومة الانتداب، أو التي احتلتها الهاغاناه بالقوة. و في فلسطين، كانت للوكالة الدوائر التالية: المالية و السياسية و الأمانة العامة و الاقتصادية و الهجرة و الاستيطان و العمل و الدائرة الفنية و الإسكان و البحر و صيد الأسماك و التجارة و الصناعة و الحرفيين و التجار الصغار و الأبناء و الصحافه و الإحصاء و الأرشيف و التموين و النقل و المواصلات. و لها أقسام متخصصة، مثل استيعاب المهاجرين و البحث عن الأقارب و هجرة الشباب و توطين الطبقة الوسطى و المحطة الزراعية للتجارب و معهد البحوث الاقتصادية و توطين اليهود الألمان و توطين الجنود المسرحين، و غيرها. هذا طبعاً إلى جانب المؤسسات الكبيرة التي أقرّ إنشاؤها في المؤتمرات الصهيونية، و التي كانت الوكالة اليهودية الموسعة تشرف على أعمالها. و في مؤتمر لندن تقرر أيضاً إنشاء الصندوق التأسيسي لفلسطين (كيرن هيسود)، ليكون الذراع المالية للمنظمة الصهيونية في مشروعها الاستيطاني بعد صدور وعد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٨

بلغور، و دخول العمل الصهيوني مرحلة جديدة. و قد تضمن قرار إنشاء الصندوق ضرورة فرض «الضريبة الذاتية الصهيونية»، التي تلزم كل يهودي، بغض النظر عن موقفه من الصهيونية، أن يدفع «عشر» ما يملكه أو يكسبه إلى صندوق الأمة، الذي يقوم بتوظيف التبرعات و المساهمات المالية المتعددة، و استثمارها في مشروعات إنتاجية، لا تستهدف الربح في المقام الأول. و قد جاء في بيان الصندوق التأسيسي الموجه إلى يهود العالم، ما يلي:

إن الانتداب على فلسطين، و هو تعهد و تحد للشعب اليهودي في آن واحد،

أوشك أن يصبح جزءاً من قانون الأمم (يعنى ميثاق عصبة الأمم). و ها قد حانت لحظة تركيز الجهد اليهودي على بناء صرح الوطن القومي اليهودي ...

إن غرض كيرن هيسود هو توطين اليهود في فلسطين وفقاً لخطة رائعة التنظيم،

و بأعداد تتزايد باستمرار، و تمكين عمليات الهجرة من البدء دون تأخير ..

إذ لم تعد أبواب فلسطين مغلقة من الداخل، و المفتاح بيد الشعب اليهودي.

و قد سجل الصندوق التأسيسي سنة ١٩٢١ م كشركة بريطانية في لندن، و في سنة ١٩٢٦ م نقل مقره إلى القدس. و تعاون بصورة وثيقة مع الصندوق القومي اليهودي، و أصبح بعد قيام الوكالة اليهودية الموسعة (١٩٢٩ م) الإدارة المالية الرئيسية لها، و المصدر الأكبر لتمويلها. و في قرار إنشائه، خصّص ٢٠٪ من واردات الصندوق التأسيسي إلى الصندوق القومي اليهودي، كما تقرر صرف ثلث ما تبقى من أمواله على أعمال الهجرة و التعليم و الخدمات الاجتماعية، بينما يخصص الثلثان المتبقيان لإنشاء المؤسسات العامة و المشاريع الاقتصادية. و الواضح أن هذا الصندوق جاء ليدعم الصهيونية العملية، التي انتهجت سياسة التغلغل الاقتصادي و الاستيلاء على فلسطين، عبر بسط السيطرة اليهودية على مقدراتها و مرافقها الاقتصادية. و في الواقع، فقد قام بتمويل جميع نشاطات الوكالة اليهودية في فلسطين، في حقول الاستيطان و الهجرة و الاستيعاب و التعليم و الأمن و شراء الأسلحة و الهجرة غير الشرعية.

و فضلاً عن الأموال التي حوّلتها إلى الصندوق القومي اليهودي، أي ٢٠٪ من

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٣٩٩

إيراداته، و التي ذهبت لشراء الأراضي و استصلاحها، فقد قام الصندوق التأسيسي بتمويل الكثير من النشاطات و الهيئات و الشركات الصهيونية. و منها على سبيل المثال لا الحصر: مكاتب الوكالة اليهودية في لندن و منظمة هداسا الطيبه و شركة كهرباء فلسطين و شركة البوتاس الفلسطينية و مشاريع مياه، أهمها شركة المياه القطرية (مكوروت)، و مشاريع ملاحه، مثل ميناء تل أبيب و شركة تسيب للنقل البحري، و شركة ال عال للنقل الجوي. و أنشأ الصندوق «بنك الرهونات العام» (١٩٢٢ م)، كفرع لمصرف أنكلو- فلسطين، لتوفير القروض للمستوطنين لبناء المساكن في المدن. و قد رفدت مؤسسات صهيونية تمويلية أخرى أعمال هذا الصندوق، و منها:

المجلس الاقتصادي و المالي، الذي عمل في فترة ١٩٢١-١٩٢٧ م، ثم توقف، و مؤسسة فلسطين الاقتصادية، التي أسسها القاضي براندايس لتعمل على أسس تجارية في حقل تنمية الصناعات الرئيسية في فلسطين، و المؤسسة الصناعية و المالية لفلسطين، التي أنشأها رأسماليون يهود أميركيون (١٩٣٤ م)، لتعمل على تطوير القطاع المصرفي الصناعي- اليهودي، و غير ذلك من المشاريع الصناعية.

و كان المؤتمر الصهيوني الثالث (١٨٩٩ م) اتخذ قرار إنشاء صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار، و تم تسجيله في لندن على أنه المصرف الصهيوني للاستعمار، بصفة شركة مساهمة محدودة. و يشير التعميم الذي أصدرته لجنة العمل الصهيوني آنذاك، أن الغرض من إنشاء المصرف أن يكون الجسر المالي الذي يقرب الحركة الصهيونية من الوصول إلى أهدافها. و رأى فيه هيرتسل وسيلة للتفاوض مع السلطان العثماني لنيل البراءة الدولية على فلسطين. و إذ لم تتحقق أهداف هيرتسل منه، فإن هذا المصرف تحوّل إلى البنك المركزي للمنظمة الصهيونية، و لإسرائيل لاحقاً، باسم بنك لثومي لاسرائيل. و حددت الفقرة الأولى من قانونه الأساسي مهماته كالتالي: أ) إيجاد مؤسسات صناعية و شركات للتأمين و الملاححة في الشرق بالاعتماد على اليد العاملة اليهودية؛ ب) تدعيم المستعمرات اليهودية عن طريق تسليف القروض المالية أو الرهونات و الكفالات، أو تغيير المستعمرين بعد شراء الأرض و فرزها إلى قطع؛ ج) مساندة المشاريع التجارية المتعددة في كل من فلسطين و سورية؛ د) بناء الخطوط الحديدية و غيرها من المنشآت (في الشرق)؛ ه) إنشاء البنوك و الفروع المصرفية للغايات الواردة ذكرها من دون التقييد بمكان معين.

و للتغطية على نشاط صندوق الائتمان في فلسطين، قبل الحصول على البراءة الدولية، و هو ما كان يعارضه هيرتسل، فقد أنشئ له فرع في يافا (١٩٠٣ م)، باسم البنك الأنكلو- فلسطيني. و ما لبث أن أصبح أكبر مصرف في البلد، و أنشأ له عدة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٠

فروع في مدن: القدس و الخليل و حيفا و صفد و طبرية. و تلفت النظر مبادرة المصرف إلى فتح فرع له في بيروت. و كانت الاعتبارات تنطلق من كون بيروت مركز الولاية العثمانية التي يتبع لها جزء كبير من فلسطين، و من محاولة لإبعاد الشبهات عن علاقة البنك بفلسطين تحديداً، و كذلك لإجراء الصفقات مع بعض الملاكين اللبنانيين الغائبين عن الأراضي التي تخصهم في فلسطين. و خلال نصف قرن، أدّى هذا المصرف دوراً كبيراً في تنفيذ العمليات المالية للمنظمة الصهيونية في فلسطين، و في إدارة تمويل مشاريعها الاستيطانية، إلى أن تحول (١٩٥١ م) إلى بنك إسرائيلي المركزي- بنك لثومي لاسرائيل- و هو المؤسسة الأم لبنك العمال (بنك هبوعاليم).

كما كان المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١ م) قد اتخذ قرار إنشاء الصندوق القومي اليهودي، علماً أن فكرة تأسيسه تعود إلى بداية الاستيطان الصهيوني في فلسطين (١٨٨٤ م). و قد نصّ قرار تأسيسه على أن تستخدم الأموال التي يحصل عليها من التبرعات اليهودية لشراء الأراضي و استصلاحها و الاستيطان عليها. و بعد تأسيسه أدخلت تعديلات على دستوره و أهدافه و نمط عمله، يمكن تلخيصها كالتالي: ١) الصندوق القومي اليهودي يجمع الأموال من كل اليهود لشراء «أرض يهودية» تعود ملكيتها إلى «الشعب اليهودي»؛ ٢) يتم شراء الأراضي في فلسطين و البلدان المجاورة فقط؛ ٣) تشتري الأرض الزراعية و الحدائق و الغابات و جميع أنواع الأراضي الأخرى؛ ٤) المساحات التي يتم امتلاكها تصبح غير قابلة للتصرف، و لا يجوز بيعها حتى للأفراد اليهود؛ ٥) هذه المساحات يمكن للصندوق تطويرها و تأجيرها فقط لليهود، و لفترة لا تزيد عن ٤٩ عاماً، و لا يجوز تأجيرها لغيرهم. و قد حقق الصندوق أول صفقة له سنة ١٩٠٥ م بشراء ثلاث قطع من الأرض، تبلغ مساحتها ٥٦٠٠ دونم، و أقام القرية التعاونية الأولى (كيبوتس دغانيا)، على الأرض التي اشتراها بالقرب من بحيرة طبرية (١٩٠٩ م).

و في سنة ١٩٠٧ م، جرى تسجيل الصندوق كشركة بريطانية في لندن، تعمل لامتلاك الأرض بالشراء و الاستئجار أو التبادل، و ذلك من أجل توطين اليهود فيها.

و حتى سنة ١٩١٩ م، كانت إنجازات الصندوق متواضعة، إذ بلغت ٣٦٦، ١٦ دونماً فقط. و في سنة ١٩٢٢ م، و بناء على قرار مؤتمر

لندن، نقل مقرّ الصندوق إلى القدس، إذ توسعت نشاطاته بعد تأسيس الوكالة اليهودية، والدعم الذي تلقاه من الصندوق التأسيسي. و في المؤتمر جرت مناقشة موسعة لسياسة الصندوق العقارية، وأعلن «أن المبادئ الموجهة للسياسة الصهيونية بالنسبة إلى الأرض، هي نقل تلك المناطق التي يقام عليها الاستيطان الصهيوني إلى ملكية الشعب اليهودي العامة.»

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠١

و بينما لم تحظر الملكية الخاصة على الأرض، فإنه لم يجر تشجيعها عبر موارد المنظمة الصهيونية العالمية. كما أقرّ إمكان تجديد عقد إيجار الأرض لمدة ٤٩ سنة أخرى، وهو قابل للتوارث، شرط عدم تقسيم الأرض بين الورثة، و شرط الإقامة على الأرض، و فلاحتها بالطاقة البشرية الذاتية، من دون عمل مأجور. كما تقرر أن يدفع المستأجر ضريبة ٢٪ من قيمة الأرض سنويا، إذا كانت زراعية، و ٤٪ إذا كانت في المناطق السكنية (المدن).

و في الواقع، فإن انعقاد مؤتمر لندن في تموز/ يوليو ١٩٢٠ م تواكب مع استبدال الإدارة العسكرية في فلسطين بأخرى مدنية. و في أيلول/ سبتمبر من تلك السنة، صدر «قانون نقل ملكية الأراضي»، و في تشرين الأول/ أكتوبر اللاحق، فتحت دائرة تسجيل الأراضي التي كانت مغلقة منذ الاحتلال البريطاني (١٩١٧ م). كما اعترفت حكومة الانتداب بالصندوق القومي اليهودي على أنه «مؤسسة ذات أهداف تخدم المصلحة العامة»، و تم تسجيله كشركة مخولة للعمل على شراء و تطوير الأراضي في فلسطين.

و هكذا راحت ممتلكات الصندوق تتوسع من ٣٦٣، ٢٢ دونما في نهاية سنة ١٩٢٠ م، إلى ٦٢٧، ٢٧٨ دونما في سنة ١٩٣٠ م إلى ٩٥٠، ٥١٥ دونما في سنة ١٩٤٠ م، و إلى ٩٣٦، ٠٠٠ دونم في أيار/ مايو ١٩٤٨. و بذلك كان الصندوق يملك لدى قيام إسرائيل ٥٥، ٣٪ من مجموع مساحة فلسطين البالغة ٢٣، ٣٢٣، ٢٦ دونما، و ٥٤٪ من مجموع الأراضي التي يملكها اليهود، و البالغة مساحتها ٠٠٠، ٧٣٤، ١ دونم، و التي تعادل ٥٩، ٦٪ من مجموع أراضي فلسطين.

و من أهم المؤسسات الاستيطانية التي شكلت بعد مؤتمر لندن كانت النقابة العامة للعمال اليهود في أرض- إسرائيل (هستدروت هكلاليت شل هعوفديم هعفريم بايرتس- إسرائيل). و قد جاء تأسيس الهستدروت (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠ م) ليحدث نقلة نوعية في تطوير النقابات العمالية و المهنية التي سبقت ذلك، و التي بدأت في أثناء الهجرة الثانية (١٩٠٤- ١٩١٨ م). و قرار تشكيل الهستدروت توخى أن تكون هذه المؤسسة إحدى ركائز المشروع الصهيوني في فلسطين، بأهدافه الرامية إلى تهويدها، و بما ينسجم مع المرحلة الجديدة من العمل الصهيوني. فالهستدروت بالذات كانت ترمي إلى استكمال عمل المؤسسات الاستيطانية الأخرى. و إذا كانت الوكالة اليهودية تعمل على تهويد السكان في فلسطين، عبر تهجير اليهود إليها، و تولى إدارة شؤون حياتهم فيها، و الصندوق القومي يعمل على تهويد الأرض، فالهستدروت هي ركيزة تهويد العمل و السوق، و بالتالي الاقتصاد، تحت شعار «العمل العبري»، الذي رفعه المستوطنون، و الذي يعنى في الواقع مقاطعة العمل العربي، و السيطرة على

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٢

اقتصاد البلد، و إخراج السكان المحليين من دورته.

و في مقدمة قرار تأسيس الهستدروت، الذي اتخذ في مؤتمر عقد في حيفا من ٤ إلى ٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠ م، ورد ما يلي: «إن هدف النقابة الموحدة لجميع العمال و الفلاحين الذين يعيشون بعرق جبينهم، دون استغلال جهود الآخرين، أن تسيّر قدما في عملية استيطان الأرض، و أن تتدخل في كل المسائل الاقتصادية و الثقافية التي تمس العمل في فلسطين، و أن تبني مجتمع عمال يهوديا هناك.» و قد عبر رئيس حكومة إسرائيل الأول، بن- غوريون، عن طبيعة الهستدروت بقوله:

«ليست الهستدروت نقابة عمالية و لا حزب سياسي، و لا هي تعاونية أو جمعية لتبادل المنفعة، إنها أكثر من ذلك. فالهستدروت هي اتحاد شعب يقوم ببناء موطن جديد و دولة جديدة و شعب جديد، و مشاريع و مستعمرات جديدة، و حضارة جديدة. إنها اتحاد للمصلحين الاجتماعيين، لا تمتد جذوره إلى بطاقة عضويته الخاصة، بل إلى المصير المشترك و المهمات المشتركة لجميع أعضائه

في الحياة و الموت.» و بذلك لا تكون الهستدروت نقابة عمالية، بقدر ما هي ركيزة استيطانية أساسية.

و الهستدروت، إضافة إلى كونها نقابة العمال الكبرى في المشروع الصهيوني، و في فترات محددة، النقابة العمالية الوحيدة، كانت من أرباب العمل، و أحيانا ربّ العمل الأكبر في ذلك المشروع. فقد نمت بسرعة كبيرة لتصبح الجسم الاقتصادي الرئيسي للمستوطنين، متخذة صيغة «قطاع عام». و بذلك لم تكن هيئة ممثلة للعمال في مواجهة أرباب العمل فحسب، بل كانت مستخدما لقطاع واسع منهم أيضا. و لا غرو، إذ انطلقت من فكرة «غزو سوق العمل»، و من المبدأ الصهيوني الاستيطاني القائل بتهويد الاقتصاد- الإنتاج و التسويق و الخدمات. و بصفتها هذه أدّت دورا سياسيا مهما في نشر الفكر الصهيوني و الترويج له على الصعيد الدولي، عبر العلاقات التي أقامتها مع نقابات العمال العالمية. كما أدّت دورا بارزا في ترسيخ الثقافة الصهيونية بين المستوطنين، و ساهمت في تمكينهم من نقل هذه الثقافة إلى حيز التطبيق العملي، عبر الكثير من المؤسسات و المنظمات و الشركات و المرافق و المستعمرات الزراعية و الأحياء السكنية في المدن. هذا إضافة إلى الخدمات الطبية و الضمانات الاجتماعية و التسهيلات المالية.

و تتضح أهمية الهستدروت في المشروع الصهيوني من اتساع مجال نشاطها،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٣

و من حجم دورها في الحياة الاقتصادية و الاجتماعية و السياسية و الثقافية، داخل التجمع الاستيطاني اليهودي في فلسطين و خارجه. فبمرور الزمن أصبحت تملك، منفردة، أو بالاشتراك مع رأس مال حكومي، خاص، أو أجنبي، عشرات الشركات الكبيرة، في حقول الإنتاج الصناعي و الزراعي، و كذلك التسويق و التصدير و الاستيراد و النقل البري و البحري و الجوي، و البناء و الاستثمارات الخارجية و الصناعات التحويلية و الاستهلاكية. هذا فضلا عن دورها الكبير في بناء و تطوير الاستيطان الزراعي التعاوني. فالهستدروت تملك على سبيل المثال شركة «تنوفا» للتسويق الزراعي، و «هامشير» للتسويق الصناعي و الاستهلاكي، و «سوليل بونيه» للبناء و «كور» للصناعة الثقيلة، و غيرها. كما أن للهستدروت مؤسسات مالية: بنكا و صندوق تسليف و شركة إسكان و شركة تأمين و صندوقا للمرضى و صندوق ضمان اجتماعي، كما تملك صحفا و مجلات و نوادي ثقافية و مسارح و غيرها.

و من خلال نشاطها تبرز الهستدروت ليس كمنظم للعمال و رعاية مصالحهم في المشروع الصهيوني، و إنما كصانع للطبقة العاملة ذاتها، و كأداة للحركة الصهيونية في تهويد اقتصاد فلسطين. فمنذ البداية، تبنت شعار «العمل العبري»، الذي كان يعني في الحقيقة مقاطعة العمل العربي، و كذلك شعار «السوق اليهودية»، أي مقاطعة المنتجات العربية. و قد نمت عضويتها بسرعة، فقفزت من ٤٤٣٣ لدى تأسيسها سنة ١٩٢٠ م إلى ٢٧٥، ١٥ سنة ١٩٢٦ م، إلى ٣٧٨، ٢٥ سنة ١٩٣٠ م، إلى ٨١٨، ٨٥ سنة ١٩٣٦، و إلى نحو ٢٠٠، ٠٠٠ في نهاية عهد الانتداب (١٩٤٨ م). و توسع نشاطها لتصبح العمود الفقري لاقتصاد الاستيطان الصهيوني قبل قيام إسرائيل، و حتى بعده، إذ ظلت الهستدروت المستخدم الأكبر بعد الحكومة. و كذلك فقد قامت الهستدروت بإنشاء البنية التحتية للكيان الصهيوني قبل الإعلان عن استقلاله.

و لعل أكثر ما يكشف طبيعة الهستدروت الاستيطانية احتضانها منظمة «الهأغاناه» الإرهابية. فالنشاط الذي مارسته الهستدروت لتهويد فلسطين، كان لا بدّ من أن يصطدم بمقاومة الفلسطينيين، ذلك بأنه يرمى إلى نفي علاقتهم بوطنهم و تغييبهم عنه، و هذا لا يمكن أن يتم بالوسائل السلمية. و في الواقع، فقد وعى قادة العمل الصهيوني مبكرا، أن مشروعهم لا يمكن أن يتجسد إلّا من خلال استعمال العنف الفاشي المسلح ضد أهل البلد الأصليين. و حاول هؤلاء بناء قوة عسكرية خلال الحرب العالمية الأولى، و بعد الحرب، عملوا على نقلها إلى فلسطين لتشكل نواة «الوطن القومي اليهودي» فيها. غير أن هذا المسعى اصطدم بمعارضة الإدارة العسكرية البريطانية، من جهة، و بعقبات تنظيمية صهيونية ذاتية، من جهة أخرى. و في إطار

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٤

الترتيبات الجديدة، و وضع فلسطين تحت الانتداب لتهيئتها كي تصبح «وطنا قوميا يهوديا»، و بالسرعة القصوى، فقد أصبح الأمر أكثر

إلحاحاً. ومع اندلاع المقاومة العربية العنيفة للمشروع الصهيوني، توفرت الذريعة لدى قادة العمل الصهيوني لتشكيل منظمات مسلحة بحجة الدفاع عن المستوطنين، و سكتت إدارة الانتداب عن ذلك، بل شجعتة و رعتة أحياناً.

غير أن ضعف الاستيطان الصهيوني أثار جدلاً داخله بشأن جدوى تشكيل منظمات مسلحة، أخذاً في الاعتبار انعكاسات ذلك على مسار الصراع، و قدرة المستوطنين على الصمود في الاختبار. فكان هناك من أيد الفكرة بحماسة، و لكن في المقابل، كان هناك من تحفظ عليها، و دعا إلى ترك مسألة أمن المستوطنين في أيدي سلطات الانتداب. لكن دعاء تشكيل المنظمات المسلحة كسبوا المعركة، متذرعين بأعمال المقاومة العربية للنشاط الاستيطاني، سواء إزاء التيار الصهيوني المعارض لتولي مسؤولية الأمن، أو تجاه سلطات الانتداب، التي لم تكن ترحب بالفكرة بوجه عام. و بعد تصفية المستعمرات في شمالي «إصبع الجليل» (١٩٢٠ م)، قدم حاكم الجليل العسكري، كوكس، أسلحة للمستوطنين لمواجهة المقاومة العربية المتصاعدة، و جند الكثيرين منهم في «الشرطة الخاصة»، كما سمح لمجموعات «هشومير» بالتجول بسلاحها، تحت حجة حماية المستعمرات. و كذلك، أدت الصدمات العنيفة في القدس (١٩٢٠ م) إلى تعزيز موقف المتطرفين من قادة العمل الصهيوني، مثل زئيف جابوتنسكي و بنحاس روتنبرغ، للمطالبة بتشكيل مجموعات مسلحة علنية، بموافقة سلطات الانتداب، التي لم تستجب لذلك في البداية.

و مع أن السلطات البريطانية في فلسطين لم توافق رسمياً على تشكيل تلك المجموعات المسلحة، إلّا إنها تشكلت، بصورة أو بأخرى، في مناطق متعددة:

القدس و تل أبيب و الجليل. و لأسباب ذاتية- ضعف الاستيطان و التباين في وجهات النظر بين قياداته- و أخرى موضوعية- معارضة السلطات البريطانية و المقاومة العربية- فقد ظلت هذه المجموعات تعمل على انفراد، و من دون قيادة موحدة. غير أن حزب أحدوت هعفودا، الذي تأسس سنة ١٩١٩ م، كحزب عمالي، و سيطر على الهستدروت بعد تأسيسه، تبنى في مؤتمره (١٣-١٥ حزيران/ يونيو ١٩٢٠ م) قراراً بتشكيل منظمة قطرية للدفاع- هاغاناه. فحلت محل منظمة هشومير، في إطار الهستدروت، و أخذت على عاتقها تشكيل منظمة عسكرية سرّية، تعمل على تأمين منجزات المشروع الصهيوني عن طريق تحويل فلسطين إلى «وطن قومي يهودي».

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٥

و بمرور الزمن، تحوّلت هذه المنظمة الإرهابية إلى جيش صهيوني، تولى سنة ١٩٤٨ م فرض الأمر الواقع على فلسطين بقوة السلاح، و أرغم أهلها على النزوح و الجلاء عن وطنهم. و قامت الهاغاناه، أكثر من أية مؤسسة استيطانية صهيونية أخرى، من حاضنتها في الهستدروت بحسم الصراع بشأن فلسطين سنة ١٩٤٨ م، بالعنف المسلح، و ليس بامتلاك الأرض، أو تهويد السكان و السوق. و انطلاقاً من وعيهم لطبيعة مشروعهم الاستيطاني، فقد توصل قادة العمل الصهيوني إلى ضرورة استعمال العنف المسلح ضد الشعب الفلسطيني لإخضاعه لإملاءات ذلك المشروع. و بعد الحرب العالمية الأولى، بذل هؤلاء جهوداً كبيرة لحمل سلطات الاحتلال البريطاني على السماح للوكالة اليهودية بتوسيع الفرقة اليهودية ليصل عدد أفرادها إلى ٢٥،٠٠٠ رجل، فتكون الأداة التنفيذية لتحقيق وعد بلفور.

و كانت هذه الفرقة، التي بلغ عدد أفرادها ٥٠٠٠ رجل، قد انتقلت في نهاية الحرب إلى فلسطين، لتكون في استقبال البعثة الصهيونية برئاسة وايزمن، و لتشارك، و لو اسمياً، في استكمال احتلال فلسطين، بما يدعم الدعوى الصهيونية عليها. لكن الإدارة البريطانية لم تتحمس للفكرة. و إزاء الأوضاع التي تشكلت في فلسطين، انقسم المعسكر الصهيوني بين دعاء تشكيل جيش علني بموافقة بريطانيا، يعمل على احتلال فلسطين بالقوة، و بين دعاء الانصراف إلى تسليح جماعات الهاغاناه، كمنظمة عسكرية سرّية، تحت ستار الدفاع عن النفس، و ترك المسؤولية الأمنية العامة في يد سلطات الاحتلال البريطاني.

و بينما تزعم زئيف جابوتنسكي التيار الداعي إلى تشكيل جيش علني، و نظم مجموعات مسلحة من دون ترخيص، فقد وقف الجناح الموالي لحاييم وايزمن مع الهاغاناه السريّة. و بسبب الخلافات بين الفريقين بشأن هذه المسألة من جهة، و عدم حماسة المستوطنين

للدفاع الذاتي، وخصوصاً في المستعمرات الكبيرة الأولى، لنقص الطاقة البشرية و الموارد المالية، و عدم الثقة بقيادة الهاغاناه، من جهة أخرى، فقد تعثر تشكيل منظمة عسكرية واحدة بقيادة موحدة. و انصرفت الهستدروت، بزعامه دافيد بن- غوريون، سكرتيرها الأول، إلى تنظيم الهاغاناه العمالية السريه، بإشراف موشيه شاريت (شرتوك) و دافيد هكوهين و إياهو غولومب. و توجه هؤلاء إلى العمل على أسس مغايرة لتلك التي دعا إليها جابوتنسكى، و عمدوا إلى تشكيل وحدات مسلحة من العمال، و توزيعها في مناطق متعددة. و ظل التباين في وجهات النظر قائماً، و أدى لاحقاً إلى انقسامات و تشكيل منظمات مستقلة عن الهاغاناه، تابعة للجناح التنقيحي.

لكن الهاغاناه نفسها لم تحقق إنجازات كبيرة، لأسباب ذاتية و موضوعية، و خصوصاً

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٦

أن جناح وايزمن السائد في المنظمة الصهيونية، لم يكن يرغب في الصدام مع سلطات الانتداب، و أغلبية المستوطنين أرادت ترك مسألة الأمن في يد سلطات الانتداب، لعدم ثقتها بمنظمة الهاغاناه.

لكن سرية الهاغاناه كانت شكلية فقط، إذ كانت السلطات البريطانية تعلم بوجودها، و تغض النظر عن نشاطها، بل اعتمدت عليها أحياناً في حفظ الأمن و زودتها بالأسلحة و المدربين. و بعد قرار مؤتمر حزب أحدوت هعفودا (١٩٢٠ م)، بتشكيل وحدات دفاعية محلية، جاءت أحداث يافا في أيار/ مايو ١٩٢١ م لتدفع الهستدروت إلى توسيع إطار الهاغاناه، و تعيين لجنة إقليمية على رأسها باسم «مركز الدفاع».

و كانت الشخصيتان المركزيتان في قيادة الهاغاناه هما: راحيل ينيث (بن- تسفى لاحقاً)، و إياهو غولومب. كما ضمت القيادة ممثلين عن الأوساط المدنية في المستعمرات، إذ أصبحت تمثل الأحزاب الصهيونية و الحركات الاستيطانية المتعددة.

و عملت الهاغاناه على الحصول على السلاح بصور متعددة، بما فيها تهريبه و في التدريب على استعماله و تمويل فعاليتها. و حتى سنة ١٩٢٩ م، ظل تنظيم الهاغاناه يقوم أصلاً على أساس وحدات محلية، يقف على رأسها قادة محليون، و أعضاؤها على العموم ليسوا متفرغين للعمل العسكري، و ينتمون إليها بصورة تطوعية، إلّا في فترات احتدام الصراع و اندلاع العنف.

و في سنة ١٩٣٧ م تشكلت «الجنة الهجرة غير الشرعية» (هموساد لعلياه بيت)، في اجتماع عقده قادة الهستدروت و الهاغاناه في تل أبيب، و عرفت بالاسم المختصر (هموساد)، لتتولى أمر تنظيم عمليات الهجرة غير المشروعة. و كان التبرير لإقامة الموساد هو السياسة النازية إزاء اليهود في أوروبا، و الضغط الاقتصادي و السياسي الذي يتعرض له هؤلاء في بولونيا و رومانيا، و القيود الشديدة التي فرضتها حكومة الولايات المتحدة على هجرة اليهود إليها، و ذلك بالتنسيق السرى مع المنظمة الصهيونية لتوجيههم نحو فلسطين. و قد اتخذ الموساد مقره في باريس، نظراً إلى ملاءمة العاصمة الفرنسية كمرکز لعملياته في أوروبا. و انتشر عملاؤه في العواصم الأوروبية، و أداروا منها نشاطاً سرياً محكماً، بالتعاون أحياناً مع أجهزة الاستخبارات فيها، بمن في ذلك جهاز الاستخبارات النازي «الغستابو». و لم يتورع الموساد عن استعمال شتى الوسائل لتهجير يهود أوروبا إلى فلسطين. و عشية الحرب العالمية الثانية، و في أثنائها و بعدها، نشط الموساد في عمله، الذي طال الأقطار العربية لتهجير يهودها إلى فلسطين. و الموساد في النتيجة منظمة لخرق قانون الهجرة الفلسطيني، و إدخال المهاجرين اليهود إلى البلد عنوة، أو خلسة، و بالتالي فقد أقام شبكة واسعة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٧

من المؤسسات و الهيئات و العلاقات السرية، و لجأ إلى أشكال متعددة من النشاطات الاستخبارية و الإرهابية و التخريبية التي تخدم أهدافه، بما في ذلك ضد الجاليات اليهودية ذاتها.

وعدا ما تقدم من مؤسسات استيطانية رئيسية، فقد تأسست في لندن (١٩٢٠ م) منظمة النساء الصهيونية العالمية (و يتسو)، لتخدم أغراض الصهيونية على الصعيد النسائي. و وجهت المنظمة اهتمامها لشؤون العناية بالمرأة و الطفل و التدريب المهني و الزراعي، و إقامة النوادي و مراكز الترفيه للشباب. و تبرز كذلك هداسا، منظمة النساء الصهيونيات في الولايات المتحدة. و كانت قد تأسست سنة

١٩١٢ م، وقدمت خدمات طيبة، و مراكز إرشاد للأمهات و غير ذلك. و في الولايات المتحدة أيضا، تأسس (١٩٢٧ م) النداء اليهودي الموحد، الذي اندمج (١٩٣٩ م) مع لجنة التوزيع المشتركة اليهودية الأميركية، و عملا على جمع التبرعات و جباية الأموال لمصلحة المشروع الصهيوني على الساحة الأميركية. و في سنة ١٩٣٩ م، جرى تشكيل المؤتمر اليهودي العالمي في جنيف، و حل محل لجنة الوفود اليهودية، التي تشكلت (١٩١٩ م) لتمثيل اليهود في مؤتمر السلام بباريس. و هذا المؤتمر يطرح نفسه ممثلا لليهود في جميع أنحاء العالم. و قد ترأسه الحاخام الصهيوني الأميركي ستيفن وايز، و خلفه بعد موته (١٩٤٩ م) ناحوم غولدمان، الذي جمع بين رئاسة المؤتمر اليهودي العالمي و المنظمة الصهيونية العالمية بعد قيام إسرائيل.

و يبرز نشاط المنظمة الصهيونية بعد الحرب العالمية الأولى و عى قادتها لطبيعة المشروع الاستيطاني الذي أزمعوا على إقامته في فلسطين. و انطلاقا من كونه مشروعا مشتركا مع إحدى القوى الإمبريالية أو أكثر، تحركوا بعد الحرب لتأمين هذا الشق من المشروع. و قد حققوا ذلك عبر تكريس وعد بلفور على الصعيد الدولي، و من ثم وضع فلسطين تحت الانتداب البريطاني، ليشكل حاضنة للمشروع الاستيطاني، بدعم أميركي قوى، و تأييد دولي واسع النطاق. و بذلك توفرت الشروط اللازمة للشق الإمبريالي من المشروع المشترك، و بنيت الركيزة الأساسية في أمنه الاستراتيجي - العلاقة مع المركز الإمبريالي البريطاني. إلا إن المنظمة الصهيونية لم تحقق في المقابل نجاحا موازيا على صعيد الشق اليهودي .. فإنيشاء «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين، كان يتطلب تهويدها، و هذا غير ممكن من دون اليهود، الذين لم يهرعوا بأعداد كبيرة للهجرة إلى فلسطين و الاستيطان فيها، بحجم يجعل المشروع الصهيوني ظاهرة قابلة للحياة بقواها الذاتية. فعلى هذا الصعيد - تهويد فلسطين، كما تصورته الصهيونية - كان طموحها أكبر بكثير من قدرتها على الأداء.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٨

و انسجما مع سياسة «الهجوم من أعلى» التي انتهجتها المنظمة الصهيونية، فقد سارعت إلى تشكيل المؤسسات التي اعتقدت أنه من خلالها يمكن تجسيد مشروعها الاستيطاني. فبدأت بتنظيم جهاز السلطة - الوكالة اليهودية بأطرها التنفيذية و التشريعية. و من ثم أقامت مؤسسات تهويد فلسطين و تمويله، و كذلك و بالتعاون مع سلطات الانتداب، شكلت إدارة ذاتية لشؤون المستوطنين، كانت بمثابة حكومة خاصة داخل الحكومة العامة. كما بدأت بتشكيل منظمات إرهابية مسلحة، لتدعيم سياستها الاستيطانية بالقوة العسكرية. و مع ذلك، فقد ظلت إنجازاتها في فلسطين متواضعة خلال العشرينات. و يعود ذلك أصلا إلى أنها لم تكن مهتأة للسيطرة على البلد، حتى بمساعدة الانتداب. فقد كانت تعاني نقضا بالطاقة البشرية، و عجزا بالموارد المالية، الأمر الذي وضع أحيانا علامة استفهام على صدقيتها و فاعليتها، حتى في نظر القريبين منها.

أما العامل المهم الآخر الذي اصطدمت به الصهيونية في سعيها لتجسيد مشروعها، و بسرعته، فهو المقاومة العربية العنيفة، التي لم تكن تتوقعها، و لم تعد لها العدة. و حاولت أن توظف سلطات الانتداب في قمعها و إخضاعها، و بصورة فظة، أملت عليها تطلعاتها المفرطة في غلوائها، من جهة، و عدم أهليتها الذاتية لتجسيد تلك التطلعات من جهة أخرى. و إذ لم يكن في قدرتها تهويد فلسطين باليهود، فقد ارتأت تحقيق ذلك الغرض بتغيب شعبها عنها. فمارست الأوساط الصهيونية ضغوطا على حكومة الانتداب للتضييق على العرب الفلسطينيين لتهجيرهم. و قامت وسائل الإعلام الصهيونية بحملة واسعة لتغيبهم حضاريا و ثقافيا، و حتى لنفي وجودهم المادي الجسدي، و تشويه وجههم الحضاري بتحميلهم وزر ما لحق بالبلد من خراب، و أنها أصبحت صحراء قاحلة تستصرخ المستوطنين لإعمارها، كما ادعت أبقاق الإعلام الصهيوني. و كان كلما زاد تواطؤ سلطات الانتداب مع الأهداف الصهيونية، و تحرك الطرفان لتجسيد وعد بلفور، و لد ذلك ردة فعل مضادة من جانب العرب الفلسطينيين، و زاد في احتدام التناقض بين الطرفين في حركة لولبية متصاعدة، الأمر الذي رفع حدة المواجهة بينهما، وصولا إلى الثورة.

إشارة

لقد تضافرت جهود حكومة الانتداب البريطاني في فلسطين، مع النشاط الصهيوني الاستيطاني المحموم لتهويدها- الأرض و الشعب و السوق- على جعل ثورة السكان العرب المحليين مسألة حتمية. و الشروط الموضوعية لمثل هذه الثورة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٠٩

توفرت منذ البداية، إذ راح الانتداب و الاستيطان يحثان الخطى نحو تغييب العرب الفلسطينيين عن وطنهم، كضرورة لتحقيق الهدف المعلن لهما- تحويل فلسطين إلى «وطن قومي يهودي». و كان طبيعيا أن يرفض الفلسطينيون ذلك، و أن يقاوموه بما لديهم من طاقة على الفعل. و على هذا الصعيد، لم تتوفر لهذا الجزء من الأمة العربية، الذي عزل عن عمقه الاستراتيجي بالتقسيمات الاستعمارية للوطن العربي بعد الحرب، المقومات الذاتية لإشعال الثورة. و إذ كانت حالة الوعي لأخطار المشروع الصهيوني متقدمة، فإن أوضاع الشعب الفلسطيني السياسي و الاجتماعية بعد الحرب، لم تكن مهتأة لإدارة صراع مع الاستيطان و الانتداب، بالمستوى نفسه من الحدة، الذي يتوازي مع درجة احتدام التناقض المتولد من الجمع بين هذه الأضداد في وحدة صراعية.

و لأن حكومة الانتداب لم تتطابق في أسلوب عملها تماما مع الوكالة اليهودية، و ذلك لحسابات بريطانيا الإقليمية و الدولية، بينما الوكالة تستعجل وضع يدها على فلسطين من دون أن تكون مهتأة لذلك، فقد اتخذ الصراع المثلث الجوانب آليه معينة، راحت تتكرر بحركة لولبية متصاعدة نحو الاحتدام و انفجار الثورة العربية (١٩٣٦ م). فإزاء المقاومة العربية للهدف المشترك بين الانتداب و الاستيطان، سلكت حكومة الانتداب سبيل التطوع السياسي المتأني، في مقابل النهج الذي اعتمده الوكالة اليهودية، و الذي يطالب حكومة الانتداب بفرض المشروع الصهيوني قسرا على الفلسطينيين. و عندما لم تستجب هذه الحكومة لمطالب الوكالة، كانت العلاقة تتوتر بينهما مرحليا، فتهدا المقاومة العربية مرحليا أيضا، ثم لا تلبث أن تتصاعد عند ما يعاود الحليفان نشاطهما لتحقيق خطوة جديدة على طريق التهويد. و عندها، تراجع حكومة الانتداب تكتيكيا، فتندفع الوكالة اليهودية قلقه على مصير مشروعها، و تتحرك على الصعيد الدولي، و خصوصا على محور لندن- واشنطن، بينما تتوصل القيادة الفلسطينية، إلى تفاهم ما مع حكومة الانتداب، و تهدا الأوضاع مرحليا، و هكذا دواليك.

و لكن مع بداية الثلاثينات، راح الوضع يتفاقم نتيجة صعود النازية في ألمانيا، و بالتالي ازدياد حركة الهجرة اليهودية إلى فلسطين بالوضعين، الشرعي و غير الشرعي.

فعمّ التملل جميع أنحاء فلسطين، و أعلن الإضراب العام الذي دام ستة أشهر، و بالتالي اندلعت الثورة المسلحة (١٩٣٦ م)، التي استمرت حتى إعلان الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ م). و في الأعوام العشرين الفاصلة بين الحربين العالميتين، تبلورت الملامح الرئيسية للمشروع الصهيوني. فقد شكلت أجهزة الحكم الذاتي اليهودي، إضافة إلى هيئات الوكالة اليهودية في لندن و فلسطين. و كذلك أنشئت المؤسسات الاستيطانية التي تغطي جميع نواحي العمل اللازم لتهويد فلسطين. لكن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٠

الاستيطان الصهيوني ظل بعيدا عن الأهلية لوضع اليد على البلد. و في هذه الأثناء جرى تراجع في السياسة البريطانية تجاه المشروع الصهيوني، على قاعدة وعد بلفور، وصولا إلى طرح مشاريع لتقسيم فلسطين، بعد فصلها عن شرق الأردن، الأمر الذي لم يرق للحركة الصهيونية، و لم يرض عنه الفلسطينيون. فتصاعدت المقاومة العربية، و اتجهت الصهيونية أكثر فأكثر نحو الولايات المتحدة لصوغ علاقات جديدة، تكون على حساب الصلة التاريخية للمشروع الصهيوني ببريطانيا.

في كانون الثاني / يناير ١٩٢١ م، نقلت الحكومة البريطانية إدارة فلسطين من وزارة الخارجية إلى وزارة المستعمرات، التي تولاهها آنذاك و نستون تشرشل. و كان المندوب السامي، سامويل، مسؤولا أمامه و بحاجة إلى موافقته على إجراءات حكومة الانتداب و ميزانيتها. و إلى جانب المندوب السامي هيئة تنفيذية تعينها الحكومة البريطانية. و لدى وصوله إلى فلسطين، كان سامويل متحمسا

لتجسيد وعد بلفور.

فبادر إلى اتخاذ عدد من الإجراءات لتعزيز الاستيطان الصهيوني. وأصدر «قانون الهجرة» (١٩٢٠ م)، الذي أعطاه سلطة السماح لمن أراد، بالدخول إلى البلد، وإخراج من أراد هو منها. و حدد عدد المهاجرين اليهود إليها ب ٥٠٠، ١٦ سنويا. و كذلك سنّ قانون «نقل ملكية الأراضي» الذي سهل عمليات البيع، و قانون «الأراضي المحلولة» و «الأراضي الموات»، اللذين يخدمان الأهداف الصهيونية، و يضيقان الخناق على الفلاحين العرب، و يزيدان عبء الضرائب عليهم.

و قد أدت المنظمة الصهيونية دورا كبيرا في تشكيل حكومة الانتداب، عبر علاقاتها بأركان الحكومة البريطانية، بما في ذلك تعيين سامويل نفسه مندوبا ساميا.

و ضمت حكومة الانتداب الأولى عددا من اليهود البريطانيين الموالين للصهيونية، تولوا المناصب المهمة فيها، و منهم: نورمان بنتوتش، النائب العام، و ألبرت هايمسون، مسؤول دائرة الهجرة، و ماكس نوروك، مساعد سكرتير الحكومة الأول. و كان التعاون بين هؤلاء الأربعة كفيلا- بتمرير كل قانون يروونه ملائما في خدمة الصهيونية. و كذلك، عينت الوكالة اليهودية الكولونيل اليهودي الصهيوني كيش ضابط ارتباط لها مع حكومة الانتداب، لاستغلال علاقاته. و لم تتدخل حكومة الانتداب في تشكيل هيئات الحكم الذاتي اليهودي، التي جرى انتخابها من قبل المستوطنين فقط. و بدرجة عالية من التطابق، تحركت إدارة سامويل بالتنسيق مع الوكالة اليهودية لتحقيق هدف الانتداب- تهويد فلسطين- متجاهلتين وجود شعبها عليها، فهب هذا، بما توفر لديه، للدفاع عن وجوده.

لكن ما كان لدى الشعب الفلسطيني لخوض هذا الصراع ضد تحالف الانتداب

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١١

و الاستيطان قليل. فقد توفر لديه الوعي لخطر المشروع الصهيوني، و الإرادة للتصدي له، لكنه ظل ينقصه التنظيم السياسي و الاجتماعي اللازم لإدارة الصراع و كسبه.

فالشعب الفلسطيني، بعد الحرب و ما تحمل جرائها، و تقسيم بلاد الشام، و ضرب مشروع الدولة العربية، و طرد فيصل من دمشق، و محاصرة الحركة القومية فيها، لم يكن مهتيا للوقوف وحده في وجه التحالف الإمبريالي- الصهيوني. و مع أن روحه الكفاحية كانت عالية، و استعداداته للتضحية كبيرا، غير أن نضاله تميز بالعموية و الارتجال، و بالتالي تبعث أوجه النشاط. و إذ برزت في داخله تنظيمات سياسية و أحزاب متعددة، لكنها لم تكن مؤهلة للقيام بعمل اللازم لدحر المشروع الصهيوني.

و قد أدى غياب القيادة الكفوءة دورا رئيسيا في تقصير هذا النضال عن تحقيق غاياته في درء الخطر الصهيوني عن فلسطين. لكن نضال الشعب الفلسطيني، على عفويته، قد أخرج قيام الكيان الصهيوني إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٨ م)، أي إنه صمد على الرغم من كل التضحيات في وجه التحالف الصهيوني- البريطاني، المدعوم أميركيا، مدة ثلاثين عاما.

و لدى وصوله إلى القدس، دعا سامويل وجهاء المنطقة إلى الاجتماع به يوم ٧ تموز/ يوليو ١٩٢٠ م، و وجهاء منطقة حيفا في اليوم التالي، و وعدهم بضمان الحرية و المساواة لجميع الأديان، و بالعمل على تطوير البلاد إداريا و اقتصاديا. و أعلن العفو عن الموقوفين و المطلوبين في «انتفاضة القدس» (١٩٢٠ م)، بمن فيهم الحاج أمين الحسيني. كما سمح بعقد المؤتمر الفلسطيني الثالث في حيفا بتاريخ ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٠ م، الذي كانت مهمته وضع استراتيجية جديدة للعمل الوطني الفلسطيني في المرحلة الجديدة، بعد تقسيم بلاد الشام، و إنهاء حكومة فيصل (تموز/ يوليو ١٩٢٠ م). و ترأس المؤتمر موسى كاظم الحسيني، و أكد البيان الصادر عنه «أن الحكومة غير شرعية، لأنها تمارس سلطة التشريع دون مجلس تمثيلي، و قبل أن يصدر القرار النهائي لعصبة الأمم.» و اعترض البيان على اعتراف حكومة الانتداب بالمنظمة الصهيونية، و اعتبار العبرية لغة رسمية، و فتح باب الهجرة إلى فلسطين.

و وجه نقدا شديدا إلى المجلس الاستشاري الذي عينه المندوب السامي، و ختم البيان بإعلان «ميثاق وطني»، ضم ثلاثة مبادئ: (١) استنكار السياسة الصهيونية بإقامة الوطن القومي على أساس تصريح بلفور؛ (٢) رفض مبدأ الهجرة اليهودية؛ (٣) إقامة حكومة تمثيلية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٢

و كان المؤتمر الفلسطيني الثالث، شكلا و مضمونا، يمثل تراجعا لدى الحركة الوطنية الفلسطينية على الصعيد القومي، و اندفاعا نحو التركيز على البعد الوطني، و ذلك بفعل الواقع الذي تشكل بعد الحرب، كما أنه تعبير عن طبيعة الزعامة المحلية التي قادت العمل الوطني الفلسطيني في تلك المرحلة. لقد غاب عن بيان المؤتمر أي ذكر للاستقلال و الوحدة مع سورية، و جرى التأكيد على مناهضة المشروع الصهيوني، كقاسم وطني مشترك، و المطالبة بالمشاركة في حكم البلاد عبر حكومة تمثيلية، كتعبير عن المصالح الذاتية و الوطنية. و إذ لم تكن قرارات المؤتمر ترضى جيل الشباب الوطني المتحمس، الذي وجه إليها نقدا شديدا، فإن المندوب السامي كان يخشاها. و بناء عليه، دعا موسى كاظم الحسيني و خمسة من زملائه السياسيين، إلى لقاء معه بصفة شخصية، و بحث القضايا التي تشغل بالهم، كونه لا يعترف بالمؤتمر، و بالتالي باللجنة التنفيذية المنبثقة منه. و في اللقاء، أكد سامويل أن مهمته تنحصر في تنفيذ سياسة حكومته، و ليس صوغها. و هو مستعد للتفاهم معهم بشأن طريقة تجسيد وعد بلفور، و لكن ليس على مبدأ الالتزام به. و أعرب عن الاستعداد للاعتراف بهيئة عربية موازية ل «المجلس الوطني اليهودي» في فلسطين.

و عندما تولى و نستون تشرشل وزارة المستعمرات (شباط / فبراير ١٩٢١ م) حدد هدفه بوضع سياسة شاملة و متماسكة للشرق الأوسط، تسمح بسحب الجيوش البريطانية الكبيرة المتمركزة هناك. و لذلك عقد مؤتمر القاهرة (آذار / مارس ١٩٢١ م)، حيث تم التأكيد على التزام حكومة بريطانيا بوعد بلفور في فلسطين، مع فصل شرق الأردن عنها، و وضعه تحت إشراف المندوب السامي فيها، لكن من دون أن تسرى عليه شروط الانتداب فيها، و تعيين عبد الله بن الحسين أميرا عليه.

و في مقابل معونة مالية يتلقاها سنويا بمبلغ ٠،٠٠، ١٨٠ جنيه استرليني، تعهد الأمير باحترام التزامات بريطانيا الدولية تجاه فرنسا في سورية و الحركة الصهيونية في فلسطين. و بعد مؤتمر القاهرة، توجه تشرشل إلى فلسطين، و التقى هناك وفدين: الأول عربي، و الثاني صهيوني. و لم يكن أي من الطرفين راضيا عن اللقاء. لقد تعامل تشرشل مع الوفد العربي باستخفاف، أثار حنقه، و مع الوفد الصهيوني بابتزاز، أثار قلقه، و خصوصا بعد فصل شرق الأردن عن فلسطين، الأمر الذي لم يرق للصهيونيين. و زيارة تشرشل إلى القاهرة و فلسطين، و ما اتخذته في أثنائها من إجراءات، و ما صدر عنه فيها من تصريحات، لم تساعد على تهدئة الأوضاع في فلسطين، بل على العكس، زادت التوتر حدة. ففي ١ أيار / مايو ١٩٢١ م و في أثناء الاحتفال بعيد العمال

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٣

العالمي في تل أبيب- التي أقيمت سنة ١٩٠٩ م، شمال يافا، و ظلت ضاحية منها إلى ١٩٢١ م- اشتبكت مجموعتان صهيونيتان- اشتراكية و شيوعية- بشأن الشعارات المرفوعة، و اتسع الاشتباك ليصل حتى المنشية العربي في يافا، و منه إلى المنطقة بأكملها. و بغض النظر عن الشرارة التي أشعلت ثورة يافا، و التي تتباين الروايات بشأنها، فإن التحقيقات الرسمية البريطانية في أسبابها (لجنة هايكرافت، قاضى القضاة في حكومة الانتداب) أكدت أنها تعود إلى استياء العرب من وعد بلفور، و من الهجرة اليهودية، و مزاحمة اليهود لهم في وطنهم، و محاباة الإنكليز للمستوطنين في المصالح و المرافق المتعددة. و بناء عليه، فالعرب قلقون على مصيرهم و مستقبلهم في وطنهم، و هم يرون في حكومة الانتداب عضدا للسياسة الصهيونية. و أوصت لجنة هايكرافت بإدخال تعديلات على سياسة الانتداب، لكن أحدا لم يأخذ بها.

و تفيد التقارير أن المستوطنين هم الذين بدأوا بإطلاق النار، بينما هاجم العرب منزلا مخصصا للمهاجرين الجدد، إذ وقع معظم الإصابات بين اليهود، ٤٧ قتلا و ١٤٦ جريحا، بينما في الجانب العربي سقط ٤٨ شهيدا و نحو ٧٥ جريحا، معظمهم برصاص القوات البريطانية. و خلال أسبوعين من الاشتباكات العنيفة، برز انحياز القوات الحكومية إلى جانب المستوطنين، الأمر الذي زاد في نفمة العرب. فتواصلت الاضطرابات، و رفعت شعارات تطالب بالأسلحة للدفاع عن النفس في مواجهة المستوطنين المسلحين، و باستبدال القوات البريطانية التي شاركت في القتال بأخرى هندية. و انتقلت الاشتباكات إلى المناطق المجاورة ليافا. و في ٥ أيار / مايو ١٩٢١ م،

وقع اشتباك كبير بالقرب من مستعمرة بيتح تكفا (ملبس)، إذ تصدت القوات البريطانية للهجوم العربي، واستعملت ضده كل أنواع الأسلحة بحيازتها، فسقط عدد كبير من القتلى والجرحى، و أنقذت المستعمرة من التدمير. كما وصلت إلى ميناء يافا بارجتان بريطانيتان لإرهاب السكان.

و هزت ثورة يافا المندوب السامي، كما فعلت بوزير المستعمرات، اللذين شعرا بخطورة الوضع أكثر ما كان يقدران. و في اليوم السادس من الاضطرابات، أصدر سامويل أمرا بوقف الهجرة اليهودية إلى فلسطين، في إيماءة لاسترضاء العرب و تهدئة الأوضاع، و في إشارة واضحة إلى أن الهجرة هي السبب في حالة التوتر القائمة.

و عندما احتج الصهيونيون على ذلك، اتهمهم سامويل بإدخال مهاجرين شيوعيين من أوروبا الشرقية إلى فلسطين و كتب بذلك إلى تشرشل. و وقف تشرشل وراء سامويل في ضبط الهجرة اليهودية، و تشديد الرقابة على هوية المهاجرين، و تحديد عددهم بما الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٤

يتلاءم مع قدرة البلد على الاستيعاب. و ليس ذلك إلا لأن سامويل أحسّ بالخطر يهدد المشروع الصهيوني بمجمله، إذا لم يتم تدارك الوضع بخطوات تهدئ قلق الفلسطينيين. فطلب من تشرشل التسريع في تشكيل هيئات تمثيلية في فلسطين، و الاعتراف بهيئة عربية قرينة لليهودية المنصوص عليها في صك الانتداب. لكن تشرشل لم يستجب، بل أشار على سامويل بالتسوية، و استغلال فرصة عيد ميلاد الملك، ليضمن خطابه في المناسبة (٣ حزيران/ يونيو ١٩٢١ م) ما من شأنه تهدئة مخاوف العرب من سياسة بريطانيا القائمة على وعد بلفور. فأكد سامويل في الخطاب أن بريطانيا لا تفرض على الفلسطينيين سياسية مناقضة لمصالحهم الدينية و السياسية و الاقتصادية.

لكن خطاب سامويل لم يغير كثيرا، لأنه لم يعالج أسباب التوتر بصورة جدية. و كانت لجنة هايكرافت أوردت في تقريرها، الذي قدمته في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢١ م أن الاضطرابات تعود إلى الأسباب التالية: (١) معارضة الفلسطينيين للصهيونية و لسياسة الانتداب الرامية إلى تهويد فلسطين، و ليس لمنفعة جميع سكانها؛ (٢) الامتيازات التي تتمتع بها الوكالة اليهودية بما يجعلها حكومة داخل حكومة، (٣) تدفق المهاجرين اليهود على البلاد، ضمن خطة سياسية للاستيلاء عليها؛ (٤) قلق العرب الفلسطينيين على مصيرهم، و سخطهم لحرمانهم من الاستقلال. و قال التقرير «إذا كان قد ظهر في البلاد شيء من شعور العرب ضد البريطانيين، فإنه يرجع إلى أن الحكومة مقرونة في أذهان العرب بتعصيد السياسة الصهيونية.» و بين التقرير وحدة الموقف الفلسطيني من الصهيونية لدى أبناء جميع الطوائف، و أشار إلى الوعي السياسي العميق لأخطار الصهيونية بين فئات الشعب الفلسطيني، و أوصت اللجنة بضرورة حماية حقوق هذا الشعب في وطنه إزاء النوايا الصهيونية، التي يجري التصريح عنها من قبل المسؤولين في الوكالة اليهودية، بأنه «ليس من الممكن أن يكون في فلسطين سوى وطن قومي واحد، هو اليهودي.» و قدر سامويل أن التسرع في تنفيذ سياسة «الوطن القومي اليهودي»، كما تطالب المنظمة الصهيونية، و تضغط على حكومتى لندن و فلسطين لفرضها قسرا على أهل البلد الأصليين، قد تؤدي إلى نتائج عكسية، تهدد مصير المشروع الصهيوني. و بناء عليه، و لامتنع ردا الفعل في فلسطين و لتخفيف حدة المعارضة المتزايدة في لندن للانتداب و أهدافه، عزم سامويل على اتباع سياسة مرحلية، تتسم بالمرونة،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٥

و الاستجابة لبعض المطالب العربية، الأمر الذي أثار سخط الأغلبية في المنظمة الصهيونية. و نتيجة تقرير لجنة هايكرافت الذي كشف عن الاستياء الشعبي عميق الجذور و واسع النطاق لدى الشعب الفلسطيني من السياسة البريطانية، فقد مال سامويل إلى قبول بعض توصياتها، و ذلك باتخاذ إجراءات تخفف من حالة التوتر التي تسود البلد عامة. و في تقريره إلى تشرشل، عزا سامويل الاضطرابات إلى عوامل سياسية و اقتصادية، زادت بها الهجرة الصهيونية سوءا. و اقترح إقامة مؤسسات تمثيلية فلسطينية، و الإسراع في المصادقة على

الانتداب في لندن و عصبة الأمم، كما أوصى باستقبال وفد من أعضاء المؤتمر الفلسطيني الرابع.

(أ) الكتاب الأبيض الأول

في إطار سياسة المناورة و المرحلية، توجه سامويل إلى زعماء الحركة الوطنية الفلسطينية (من أعضاء المؤتمر الفلسطيني الثالث)، و طلب منهم العمل على تهدئة الأوضاع، فاستجابوا، و قاموا بدور فاعل على هذا الصعيد. و قدّر لهم سامويل ذلك، و أوصى باستقبال وفد منهم في لندن باحترام. و كان له ضلع في تثبيت الحاج أمين الحسيني خلفاً لشقيقه كامل أفندي الحسيني، بمنصب مفتي القدس، و بالتالي رئيس العلماء و المجلس الإسلامي الأعلى، على الرغم من دوره في أحداث العنف التي وقعت في القدس سنة ١٩٢٠ م. و من موقعه هذا، برز الحاج أمين في قيادة العمل الوطني الفلسطيني، و طالب سامويل الحركة الصهيونية باستبعاد العناصر الشيوعية من بين المهاجرين إلى فلسطين، و فرض الرقابة الشديدة على الهجرة اليهودية إليها. كما أوصى بالإسراع في إقامة مؤسسات تمثيلية، و اقترح على تشرشل بذل الجهود للتوفيق بين الوفد الفلسطيني و المنظمة الصهيونية، في أثناء زيارة الوفد إلى لندن. و ما يلفت الانتباه أن سامويل أوصى وزير المستعمرات بضرورة الحدّ من صلاحيات الوكالة اليهودية كما ترد في صك الانتداب، أو إضافة مادة مماثلة تؤمن اعترافاً مقابلاً بهيئة عربية.

بعد هذه الخطوات التي اتخذها سامويل لتهدئة الأوضاع، تحرك حاييم وايزمن في لندن لقطع الطريق على توجهات المندوب السامي. و بضغط منه على الحكومة، جرت مناقشة مسألة الانتداب على فلسطين، بهدف صوغ سياسة تعتمد وزارة المستعمرات، و تكون على مسؤولية الحكومة كلها، التي لم تكن موحدة في رأيها بالنسبة إلى الموضوع. و في نهاية المطاف، التزمت الحكومة بالانتداب على أساس وعد بلفور. و على الرغم من معارضته الأولية، عاد اللورد كيرزون، وزير الخارجية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٦

و قبل بالمشروع، معللاً ذلك بقوله: «إننا لا نستطيع التراجع الآن. و إذا فعلنا ذلك فإن الفرنسيين سيحلون محلنا، و عندها يصبحون على أعتاب مصر، و على أطراف القناة.»

و عدا ذلك، فلسطين تحتاج إلى الموانئ و الكهرباء، و يهود أميركا أغنياء، و يمكنهم دعم هذا التطوير. علينا أن نكون منصفين للعرب و حازمين معهم، من دون إظهار انحياز إلى الصهيونية يثير الشكوك بسوء النية لدينا.» و لدى مناقشة الموضوع في مجلس اللوردات، رفض بأغلبية ٦٠ صوتاً في مقابل ٢٩ صوتاً، لكن قرار اللوردات هزم في مجلس العموم، إذ طرحه تشرشل و تولى الدفاع عنه، معتبراً أن التصويت عليه هو تصويت على الثقة بالحكومة، فحصل على الأغلبية. و أصبح قرار الحكومة سياسية رسمية معتمدة.

و في النقاش مع الحكومة البريطانية بشأن تشكيل هيئات تمثيلية، وافق وايزمن على التقدم البطيء في هذا المجال، في مقابل الإجراءات التالية: (١) فصل فلسطين عن «قيادة الشرق الأوسط» في القاهرة؛ (٢) إبعاد جميع الموظفين غير المتعاطفين مع الصهيونية من حكومة الانتداب؛ (٣) منح امتياز توليد الكهرباء إلى بنحاس روتنبرغ فوراً؛ (٤) معاقبة القرى التي هاجمت المستعمرات اليهودية بصورة تأديبية رادعة؛ (٥) منح المنظمة الصهيونية حق الإشراف على تأشيرات الهجرة اليهودية. و في أثناء مناقشة مسألة الانتداب في الحكومة، تكلم تشرشل، من دون إظهار ميول شخصية، و ورد في كلامه ما يلي: «إن الحالة في فلسطين تسبب لي الارتباك و القلق، فالبلاد بكاملها في حالة من الغليان، و لا تلقى السياسة الصهيونية قبولا لدى أحد غير الصهيونيين أنفسهم. إن كلا من الجانبين - العربي و اليهودي - مسلح و ماض في التسليح، و مستعد للانقضاض على الجانب الآخر ... و لقد رفضنا حتى الآن، لمصلحة السياسة الصهيونية، منح العرب أية مؤسسة انتخابية. و من الطبيعي أن يقارنوا معاملتهم هذه بتلك التي يلقاها إخوانهم في العراق. هذا بينما الدكتور وايزمن و الصهيونيون غير راضين أبداً عن التقدم الذي حدث ... و عما يدعونه من ضعف السير هيرت سامويل ... و يبدو لي أنه لا بدّ من أن يقوم مجلس الوزراء بمراجعة الحالة برمتها ... إنني أبذل قصارى جهدي لتنفيذ وعد بلفور ... و أنا مستعد للاستمرار في هذا

الخط، إذا كان هذا هو قرار الوزارة الثابت.»

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٧

و أوضحت التحقيقات في أسباب ثورة يافا أن قمعها بالقوة، و حتى استماله بعض الرموز القيادية في الحركة الوطنية الفلسطينية، عبر تقديم بعض الإغراءات لها، لن تحقق الاستقرار في البلد. فحالته التوترت ظلت تسود الأوضاع العامة فيها، بينما تصاعدت موجة الانتقادات لسياسة الحكومة في بريطانيا. و إذ راح سامويل يعزز اتصالاته مع زعماء الحركة الوطنية، و يستغل التناقضات بينهم، عمد تشرشل إلى طرح «الكتاب الأبيض»، الذي يحدد مرتكزات السياسة البريطانية في فلسطين. في المقابل، و بعد أحداث يافا و جوارها، التي أدت الزعامة الفلسطينية دورا في تهديتها، فقدت كثيرا من رصيدها الشعبي، و خصوصا أنها لم تؤيد مقاطعة البضائع اليهودية كما طالبت قيادات شعبية شابة، دعت تلك الزعامة إلى عقد المؤتمر الفلسطيني الرابع. و انعقد المؤتمر (حزيران/ يونيو ١٩٢١ م) في القدس، و أكد المطالب الوطنية و الإصرار على مقاومة الصهيونية، و أعلن تمسكه بالوحدة السورية. لكن الخطوة الإجرائية التي اتخذها كانت انتخاب وفد للسفر إلى بريطانيا للمطالبة بالحقوق الفلسطينية.

و جاء المؤتمر الفلسطيني الرابع ليزيد في تركيز قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية على قضاياها القطرية، و على رأسها مسألة الحكم في ظل الانتداب. و كان طبعيا أن توجه إلى الاتصال بالحكومة البريطانية، و بالأوساط السياسية في لندن، و ربما بتشجيع من سامويل، الذي راح يبني آماله على التقريب بين تلك القيادة و المنظمة الصهيونية. فشجع إرسال وفد فلسطيني إلى لندن، و أوصى وزير المستعمرات بحسن استقباله و معاملته، و محاولة عقد لقاء بين الوفد و قادة العمل الصهيوني. في المقابل، طلب سامويل، و استجاب زعماء الحركة الوطنية لطلبه، إصدار بيان يدعو إلى التهئة خلال المدة التي يمضيها الوفد في لندن. و في الواقع، مالت الأوضاع إلى الهدوء بعد المؤتمر الرابع، و سفر الوفد إلى أوروبا، و خطاب سامويل لمناسبة ميلاد الملك، الذي صيغ بلهجة تصالحية، تهدف إلى تهدئة خواطر العرب، و تطيف مخاوفهم من المشروع الصهيوني، و إشاعة الاستقرار في البلاد، عبر زرع الأوهام بشأن سياسة بريطانيا، و نتائج سفر الوفد إلى لندن، و الإجراءات الموقته بوضع قيود على الهجرة اليهودية.

لكن الوفد، الذي سافر مجردا من جميع عناصر القوة، ما عدا عدالة قضيته و مراهنة المندوب السامي على دوره في تهدئة المزاج الشعبي، لم يحقق إنجازا كبيرا في لندن مع حكومة لويد جورج، التي مارست جميع أنواع الخداع على العرب في الحرب، كما في مؤتمر السلام بعدها. و نظرا إلى دورها في أحداث يافا، فقد خسرت الزعامة التقليدية الفلسطينية كثيرا من رصيدها الشعبي، و هي على أية حال

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٨

لم تكن منتخبة ديمقراطيا، و بالتالي لم تكن معبرة عن جماهير الشعب الفلسطيني، سياسيا و تنظيميا، كما أنها لم تكن موحدة في موقفها من الانتداب، و قد انزلت عن عمقها الاستراتيجي العربي. و في الطريق إلى لندن، عرج الوفد على روما، حيث التقى البابا، الذي أبدى تعاطفه المعنوي مع الشعب الفلسطيني. أما في لندن، فقد كان مركز صنع القرار ليس في مصلحته، و خصوصا أن وزير المستعمرات، تشرشل، الذي لم يكن يولي مسألة فلسطين أهمية كبيرة، لم يكن أيضا بصدد تبني موقف الوفد في مواجهة مراكز القوى البريطانية و الأميركية المتعاطفة مع الصهيونية، و ذلك على الرغم من التساؤلات التي أثرت بشأن وعد بلفور و الانتداب على فلسطين في مجلس اللوردات، و في أوساط الرأي العام و الصحافة البريطانيين.

و تشرشل، الذي كان في موقع الدفاع عن النفس داخل حكومته إزاء الاتهامات التي وجهها إليه قادة العمل الصهيوني و أنصارهم في المؤسسة البريطانية الحاكمة، تعامل مع الوفد الفلسطيني بجفاء فظ. و قبل أن يلتقى الوفد، تسلم بقرار الحكومة، الذي يلتزم بسياسة الانتداب القائمة على وعد بلفور. و ما عدا بعض العلاقات العامة، و قرار مجلس اللوردات بعدم قبول صيغة الانتداب لأنها تخالف العهود التي قطعها بريطانيا للعرب، و الذي لا يلزم الحكومة بشيء، عاد الوفد الفلسطيني من سفرته الطويلة خالي الوفاض، إذ رفضت

حكومة لويد جورج مطالبه. و نظرا إلى فشل الوفد في تحقيق شيء من الآمال التي علقت عليه، فقد اندلعت الاضطرابات في القدس لمناسبة ذكرى وعد بلفور (١٩٢١ م)، و تبادل العرب و العصابات الصهيونية إطلاق النار، فقتل ٥ من اليهود و ٣ من العرب، و جرح ٢٦ آخرون، و قمعت الاضطرابات على يد السلطة. و قد وضع ذلك الزعامة الفلسطينية التقليدية، التي راحت تميل إلى التعاطي مع الانتداب، و حتى مع المشروع الصهيوني، بمرونة معينة، في موقف حرج، و أصبح موقعها السياسي رهنا بقدرتها على انتزاع بعض المكاسب من الحكومة البريطانية.

لقد ذهب الوفد الفلسطيني إلى لندن برئاسة موسى كاظم الحسيني، و بقي فيها تسعة أشهر، قام في أثنائها بالسفر إلى جنيف لحضور اجتماع عصبة الأمم. و لكن كما في لندن، كذلك في جنيف، كانت حصيلة الجهد لا تذكر. و في المقابلة الأولى له مع الوفد، لم يتردد تشرشل في تذكير أعضائه بأنه يستقبلهم كوفد غير رسمي، و بأنهم ما داموا يصرون على إلغاء وعد بلفور، فليس لديه ما يمكن بحثه معهم، مؤكدا أنه على العرب القبول به كحقيقة، و من ثم العمل على ألا يلحق تنفيذ الضرر بمصالحهم، و دعاهم إلى البحث في الترتيبات لتسيير الأمور بسلام في الأعوام

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤١٩

القادمة. و في أثناء البحث في الوسائل التي تكفل حقوق العرب، أكد تشرشل بجلاء أن أية هيئة، أو مجلس تمثيلي، لن تكون لهما صلاحية الإشراف على الهجرة اليهودية، أو البت في أي أمر أساسي يتعلق بتنفيذ سياسة «الوطن القومي اليهودي». و في ٢٢ شباط/ فبراير ١٩٢٢ م، طرح تشرشل على الوفد مسودة دستور فلسطين، فرفض الوفد التعامل معه لأنه غير مخول بذلك. كما طرح على الوفد اللقاء مع قيادة العمل الصهيوني، فرفض ذلك أيضا، لأنه لا يعترف بالمنظمة الصهيونية، مؤكدا أنه جاء إلى لندن للتفاوض مع الحكومة البريطانية فقط.

و في أثناء إقامته الطويلة في لندن، و نظرا إلى المعاملة السيئة التي لقيها الوفد هناك من قبل الحكومة البريطانية، احتدم الجدل بينه و بين تشرشل، الذي تميّز بالفظاظة في مخاطبة الوفد، و راحت المراسلات بينهما تتخذ لهجة قاسية. و قد بلغت ذروتها في رد تشرشل على رسالة للوفد، جاء فيه: (١) أن دستور فلسطين يجب أن يبحث مع وفد رسمي منتخب، و أنتم لستم بهذه الصفة؛ (٢) أن وزير المستعمرات لا يمكنه بحث دستور فلسطين، و حتى مع وفد رسمي منتخب، إلا على أساس وعد بلفور؛ (٣) أن وزير المستعمرات لا يستطيع أن يبحث، حتى مع وفد منتخب في المادة ٢٢ من ميثاق عصبة الأمم، لأن وعد بلفور أعطى قبل ذلك الميثاق. و ردّ الوفد بقساوة أيضا، إذ ذكر وزير المستعمرات بأن بريطانيا هي التي تحكم من دون دستور، و هي التي يجب أن تطرد من عصبة الأمم لمخالفتها المادتين ٢٠ و ٢٢ من ميثاقها.

و في ٥ أيار/ مايو ١٩٢٢، عاد الوفد بخفي حنين، و قد خابت آماله في التأثير على سياسة الحكومة البريطانية، على الرغم من التعاطف الذي لقيه من بعض الصحف، و بحث الموضوع في البرلمان، و رفض مجلس اللوردات وعد بلفور، بينما أقره مجلس العموم، فأصبح ملزما للحكومة، و على هذا الأساس طرحته في عصبة الأمم، التي تبنته في ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٢ م.

في إثر إقرار الانتداب في عصبة الأمم، أعلنت حكومة بريطانيا أنها سوف تضع نصوص صك الانتداب موضع التنفيذ في ضوء «البيان السياسي» (الكتاب الأبيض)، الذي صدر عنها في ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٢٢ م، و نسب وضعه إلى وزير المستعمرات، تشرشل، فعرف باسمه. و نشر في ١ تموز/ يوليو ١٩٢٢ م، على أن يصبح نافذ المفعول من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية في أيلول/ سبتمبر ١٩٢٢ م. و جاء الكتاب الأبيض في سياق محاولة بريطانية لتهدئة الأوضاع في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٠

فلسطين، عبر حلقة أخرى من المناورات و التنظيمات المخادعة، و لسحب البساط من تحت أقدام المعارضة المتصاعدة في البرلمان البريطاني للانتداب القائم على وعد بلفور. و إذ حاول البيان، عبر صيغ لفظية تحتل التأويل، إضفاء طابع من الاعتدال على السياسة

البريطانية في فلسطين، إلّا إنه أكد على المواقف الأساسية في وعد بلفور. وبذلك لم يحقق أهدافه المتوخاة لدى الفلسطينيين، إذ جاء مخيباً لآمالهم، و بالتالي حافظاً لهم على متابعة النضال ضده. و قبلت به المنظمة الصهيونية تكتيكياً، فأصبح الأرضية للصراع الدائر بشأن فلسطين، بين الحركة الوطنية الفلسطينية، من جهة، و حكومة الانتداب و الوكالة اليهودية، من جهة أخرى.

و مع أن تقريرى لجنتى بالين و هايكرافت حملاً-النشاط الصهيونى مسؤوليه أعمال العنف التى انفجرت فى فلسطين، فإن الكتاب الأبيض أرجع أسباب التوتر إلى تفسيرات مبالغ فيها لمعنى «الوطن القومى اليهودى»، من قبل العرب و اليهود على حد سواء. و من أهم النقاط التى أكد عليها الكتاب الأبيض ما يلى: (١) أن وعد بلفور لا يعنى تحويل فلسطين بأكملها إلى «وطن قومى يهودى»، وإنما يعنى «أن وطنا كهذا سيؤسس فى فلسطين»؛ (٢) التزام بريطانيا بوعد بلفور الذى أصبح «غير قابل للتعديل» بعد المصادقة عليه من قبل الدول الكبرى فى مؤتمر سان ريمو و معاهدة سيفر؛ (٣) أن «الوطن القومى اليهودى» لا يعنى دولة يهودية، و هو سيقوم بالتدريج؛ (٤) الوجود اليهودى فى فلسطين «حقّ و ليس منة»، و «الوطن القومى اليهودى يستند إلى صلة تاريخية قديمة»؛ (٥) ضرورة استمرار الهجرة اليهودية إلى فلسطين، مع مراعاة قدرة البلاد الاقتصادية على استيعابها؛ (٦) أن «اللجنة الصهيونية» (الوكالة اليهودية) لا تملك أى قسط فى إدارة البلاد العامة، و المركز الخاص الذى تشغله بموجب المادة الرابعة من صك الانتداب لا يخولها صلاحية تولى هذه المهمة؛ (٧) تشكيل مجلس تشريعى، كخطوة على طريق الحكم الذاتى، الذى يتم بالتدريج، و لا- يتعارض مع سياسة الانتداب؛ (٨) استثناء فلسطين من التعهدات التى التزمت بها بريطانيا فى مراسلات مكماهون-الحسين، بسبب التزامها بوعد بلفور.

(ب) صك الانتداب

بعد أن حسمت حكومة لندن مسألة الانتداب داخليا، و صار الكتاب الأبيض هو الأساس لسياستها المعتمدة فى فلسطين، توجهت إلى عصبة الأمم لإقرار صك

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٢١

الانتداب دوليا. و قد تمّ ذلك فى ٢٤ تموز/ يوليو ١٩٢٢ م، إذ صادق عليه مجلس العصبة، ليصبح نافذ المفعول رسميا فى ٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٣ م، بعد توقيع تركيا على معاهدة لوزان، و تنازلها الرسمى عن الولايات العربية التى كانت تحت حكمها.

و مع أن بريطانيا بادرت إلى ممارسة الانتداب على فلسطين عمليا منذ سنة ١٩٢٠ م، فقد تأخر إقرار صك الانتداب لإتاحة الفرصة أمام الدول الكبرى لتسوية المسائل العالقة بينها فى إطار اقتسام غنائم الحرب. و فى هذه الأثناء تمت تسوية الحدود بين الانتدابين-البريطانى و الفرنسى- و فصل الأردن ليكون إمارة هاشمية. و كذلك سويت الخلافات بين لندن و واشنطن بشأن الانتداب على فلسطين. و كانت واشنطن تلوح بمعارضة الانتداب البريطانى، على الرغم من دعمها للمنظمة الصهيونية. و بعد أن حصلت على اعتراف بمصالحها الاقتصادية و الثقافية فى المنطقة، تمت الموافقة على وعد بلفور، بقرار مشترك من مجلسى الشيوخ و النواب، و وقّعه الرئيس هاردنغ (حزيران/ يونيو ١٩٢٢ م). و وافقت واشنطن على الانتداب عندما تبلورت نتائج المفاوضات مع بريطانيا، التى أدت إلى «الاتفاق الأنكلو-أميركى» (١٩٢٤ م)، إذ ضمنت الولايات المتحدة امتيازات لشركات أميركية، أهمها امتياز التنقيب عن النفط فى صحراء النقب لشركة ستاندارد أويل.

و صك الانتداب وثيقة مهمة فى تاريخ فلسطين الحديث، إذ أعطى للمؤامرة الصهيونية-البريطانية، المتمثلة فى وعد بلفور، شرعية دولية فى قرار عصبة الأمم.

و بذلك وضع النضال الفلسطينى، لصيانة وجود الشعب و لحماية حقه التاريخى فى وطنه، ليس ضد الاستيطان الصهيونى، و من ورائه الانتداب البريطانى، فحسب، بل فى مواجهة عصبة الأمم، و ما تمثله على الصعيد الدولى، أيضا. فقد اعترفت العصبة، من خلال الصك، بالمنظمة الصهيونية كهيئة سياسية، ذات شخصية اعتبارية قانونية، تمثل يهود العالم، و باليهود كأمة على طريق إقامة وطن

قومي لهم في ظل الانتداب، بعد أن أقرت بدعواهم الحق التاريخي في فلسطين، في وثيقة دولية ملزمة. و في صك الانتداب مقدمة و ٢٨ مادة. و تضمنت المقدمة نصّ وعد بلفور، و مصادقة عصبة الأمم على الانتداب البريطاني، الذي مبرره المعلن تهيئة فلسطين لتصبح «وطنا قوميا يهوديا». و ذلك، بحسب الصك، بالاستناد إلى «الصلة التاريخية التي تربط الشعب اليهودي بفلسطين، و الأسباب التي تدعو إلى إعادة إنشاء وطنهم القومي في تلك البلاد.»

و صك الانتداب شكل الغطاء لسياسة بريطانيا الصهيونية في تهويد فلسطين.

و فضلا عن المقدمة التي وضعت الصك في إطاره السياسي، أعطت المادة ٢ الدولة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٢

المنتدبة السلطة التامة في التشريع و الإدارة، و اعتبرتها مسؤولة «عن وضع البلاد في أحوال سياسية و إدارية و اقتصادية تضمن إنشاء الوطن القومي اليهودي.» و نصت المادة ٤ على إنشاء «وكالة يهودية» معترف بها لإسداء المشورة إلى إدارة فلسطين، و التعاون معها في الشؤون الاقتصادية و الاجتماعية و غيرها من الأمور التي قد تؤثر في إنشاء «الوطن القومي اليهودي». و ورد في المادة ٦ أن «على إدارة فلسطين، مع ضمان عدم إلحاق الضرر بحقوق و وضع الفئات الأخرى من السكان أن تسهل هجرة اليهود إليها ... و أن تشجع حشدهم في الأراضي الأميرية و الموات.» و نصت المادة ٧ على ضرورة أن يضمن قانون الجنسية «نصوصا تسهل اكتساب اليهود للجنسية الفلسطينية.» و أعطت المادة ١١ الحق للإدارة البريطانية في تكليف الوكالة اليهودية «بإنشاء أو تسيير الأشغال و المنافع العمومية و تطوير مرافق البلاد الطبيعية.» و نصت المادة ٢٢ على «أن تكون الإنكليزية و العربية و العبرية اللغات الرسمية في فلسطين.» و حددت المواد ١٣ و ١٤ و ١٥ و ١٦ مسؤولية الدولة المنتدبة عن المحافظة على الأماكن المقدسة، و ضمان الوصول إليها، و كيفية الفصل في الحقوق الدينية، و كفالة الحرية الدينية للجميع. و المواد ١ و ٣ و ١٢ و ١٧ أعطت بريطانيا السلطة التامة في التشريع و الإدارة، و تشجيع الحكم المحلي بقدر ما تراه ملائما، و الإشراف على العلاقات الخارجية لفلسطين، و تنظيم القوات اللازمة للمحافظة على السلام و الدفاع عن البلاد، و استخدام طرق فلسطين و سككها الحديدية و مرافئها لتحركات القوات المسلحة. و المادة ٢٥ أعطت الدولة المنتدبة الحق بموافقة عصبة الأمم، في أن ترجىء، أو توقف، تطبيق ما تراه غير قابل للتطبيق من هذه المواد على المنطقة الواقعة شرقي نهر الأردن. و قد وافق مجلس عصبة الأمم لاحقا على استثناء شرق الأردن من تطبيق مواد صك الانتداب المتعلقة بإنشاء «الوطن القومي اليهودي»، كما وافق على تخويل بريطانيا المسؤولية الكاملة عن الانتداب على شرق الأردن. و يتضح أن السياسة البريطانية كانت ترمي إلى أن يستوعب شرق الأردن النتائج الناجمة عن تهويد فلسطين، و تغييب سكانها عنها، و من هنا كان فصلهما ظاهرا، و ربطهما فعلا، و وضعهما تحت حكومة انتداب واحدة.

ج) المقاومة الفلسطينية للانتداب

بعد إقرار صك الانتداب أصدرت الحكومة البريطانية في ١٠ آب / أغسطس

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٣

١٩٢٢ م «دستور فلسطين»، الذي تضمن وعد بلفور في مقدمته أيضا. و قد أعطى هذا الدستور المندوب السامي صلاحيات واسعة في الإشراف على الأراضي العمومية و التصرف بها، و تعيين الموظفين و عزلهم، و إعلان العفو العام، و إبعاد المحكومين السياسيين، و الموافقة على القوانين لتصبح سارية المفعول بتوقيعه. و هو يترأس المجلس التنفيذي، الذي يتولى أعضاؤه المناصب العليا كلها في الحكومة، و يكون بمثابة هيئة استشارية للمندوب السامي، و هم يعينون بمرسوم من ملك بريطانيا، و بناء على التماس من المندوب السامي. كما تضمن الدستور تشكيل «مجلس تشريعي»، حسبما ورد في الكتاب الأبيض. و من أجل انتخابه، أصدر سامويل مرسوما بإجراء إحصاء عام للسكان (١٤ آب / أغسطس ١٩٢٢ م). و هو يتألف من المندوب السامي رئيسا، و ١٠ موظفين بالتعيين (هم

المجلس التنفيذي)، و ١٢ عضواً منتخباً بحسب الطوائف - ٨ من المسلمين و ٢ من المسيحيين و ٢ من اليهود. و يحظر على المجلس التشريعي أن ينظر في أية نقطة تخالف صك الانتداب، كما أن قوانينه لا تصبح نافذة إلا إذا وافق عليها المندوب السامي، الذي يتمتع بحق تعطيل هذا المجلس في أي وقت يشاء.

و كانت مسودة هذا الدستور قد عرضت على الوفد الفلسطيني في لندن فرفضه.

و كان طبيعياً أن يرفض الشعب الفلسطيني الانتداب البريطاني، و يقاوم سياسته الرامية إلى تجسيد وعد بلفور، بالصورة التي تؤهله لها أوضاعه الاجتماعية و تنظيمه السياسي، و بالتالي قدرته على القيام بعمل اللازم للتصدي للمشاريع المضادة و إحباطها، من موقع الدفاع. فصك الانتداب هو في الأساس برنامج لتغييب الشعب الفلسطيني عن وطنه - مادياً و حضارياً و سياسياً - بدءاً بنفي حقه التاريخي فيه، عبر الاعتراف لليهود بذلك الحق. و هو مخطط لقطع صلة الفلسطينيين بوطنهم، عبر تهويده، فجاء منذ البداية متجاهلاً لوجودهم على أرضه، متكرراً لحقهم الطبيعي فيه، و مستثنياً إياهم من عائلة الشعوب، حتى العريضة الشقيقة. و قد فرض الانتداب عليهم قسراً، و لم يؤخذ رأيهم به، لا شكلاً و لا مضموناً، و إنما تم ذلك بالتنسيق بين حكومة بريطانيا و المنظمة الصهيونية، و بدعم الدول الإمبريالية، إلى حد أنه جاء متناقضاً حتى مع ميثاق عصبة الأمم ذاتها. و ملامح المشروع الصهيوني كانت واضحة منذ البداية، فهو استيطاني إجلائي، لا - مكان فيه لأهل البلد الأصليين، و بناء عليه، فلا يمكن تجسيده من دون تغييبهم بشتى الوسائل. و كما وعى قادة العمل الصهيوني هذه الحقيقة، و برمجوا و خططوا لتجسيدها، هكذا وعاهها الشعب الفلسطيني، فتصدي لمسارات تجسيدها بالأساليب التي أتاحتها أوضاعه الاجتماعية، و حالة حركته الوطنية التنظيمية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٤

و إذ لم يكن الشعب الفلسطيني مؤهلاً، لا ذاتياً و لا موضوعياً، للقيام بعمل اللازم لدحر المشروع الصهيوني، فإن هذا الأخير لم يكن أيضاً قادراً على فرض نفسه واقعا على الأرض في أعوام الانتداب الأولى، كما رغبت المنظمة الصهيونية.

و لذلك، اتخذ الصراع بشأن فلسطين نمطا من الاشتباك المستمر، تشتد حدته أحيانا كردة فعل عريضة على احتدام التناقض الناجم عن الفعل الصهيوني - البريطاني؛ ثم لا - تلبث أن تخبو عندما يتراجع الطرف الآخر تكتيكياً. و نظرا إلى طبيعة هذا المشروع الاستيطاني الإجلالي، لم يكن هناك مجال للتوصل معه إلى حلول وسط. فهو كما طرح، لا يدع مكاناً لأهل البلد الأصليين فيه، بل يرمى إلى اقتلاعهم، و إحلال مستوطنين يهود مكانهم. و هو يفترق عن أنماط الاستعمار الاستيطاني الأخرى، بأنه لا يستهدف استغلال الأرض بمن عليها من سكان أصليين، و إنما يخطط لاغتصاب الأرض، و التخلص من أصحابها. و مع ذلك، و في غياب قدرة أي من الأطراف المنخرطة في الصراع على حسمه لمصلحته، فقد برزت داخلها تيارات و اتجاهات، تتفاوت تطرفاً أو مرونة بالتكتيك، غير أن الأساس التناحري ظل يحكم سلوك القوى المركزية في هذا الصراع على الجانبين.

إن التناقض الذي تشكل في فلسطين نتيجة الترتيبات التي اتخذت بشأنها بعد الحرب العالمية الأولى، بعيداً عن مصالح سكانها، كان جذرياً يستهدف أساس وجود الشعب الفلسطيني في وطنه، و بالتالي كان يستوجب حلاً على هذا المستوى. لكن موازين القوى لم تكن تسمح بمثل هكذا حل. و إذ كانت حالة الوعي لأخطار المشروع الصهيوني متقدمة لدى جماهير الشعب الفلسطيني الواسعة، كما لدى قياداته السياسية، فإن أوضاعه الاجتماعية لم تكن مهياًة لإيجاد الحركة النضالية القادرة على ترجمة هذا الوعي إلى ممارسة عملية، ذات أداء عال، يفرض الانكفاء على الطرف الآخر. و مع ذلك، فأشكال النضال التي مارسها الشعب الفلسطيني، و إن لم تكن بالنجاح في دحر المشروع الصهيوني، فإنها عرقلت تجسيده لأهدافه، و أخرته إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية. و قد راوحت تلك الأشكال النضالية بين العمل السياسي و الدبلوماسية، مروراً بالمقاومة السليبية، و وصولاً إلى الانتفاضات الثورية العنيفة، كما تأرجحت بين مدّ و جزر، تبعاً لحركة الطرف الآخر، الذي كان زمام المبادرة في يده، و بلغت مستويات من الحدة، تتأثر بدرجة احتدام التناقض المتولد عن تلك الحركة، من جهة، و بحالة الشعب الفلسطيني الاجتماعية و السياسية، من جهة أخرى.

و لأن الحركة الصهيونية لم تستطع تهويد فلسطين باليهود، كما طرح ماكس نوردو، فقد عمدت، بالتواطؤ مع الانتداب، إلى الحؤول دون تكريس الواقع القائم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٥

من عروبتها. و كان نوردو، بعد إعلان مجلس الحلفاء قرار انتداب بريطانيا على فلسطين سنة ١٩٢٠ م، دعا إلى تكفير كل سياسى صهيونى يرضى بما هو أقل من دولة يهودية، انطلاقاً من الاقتناع بضرورة انتهاز الفرصة المواتية لإقامتها بأسرع ما يمكن.

و طرح نوردو مشروعاً بتهجير نصف مليون يهودى إلى فلسطين فوراً، «بغية تحقيق الاستيلاء السلمى على البلد»، معتبراً ذلك الحد الأدنى اللازم لخلق أكثرية يهودية فيها، تفى بالعهد الذى «قطعناه على أنفسنا فى العقد المبرم مع بريطانيا و تضمن للاستعمار اليهودى القدرة على مجابهة الخطر العربى الذى يهددنا». و إذ لم يلتفت نوردو إلى العوائق الذاتية و الموضوعية أمام مشروع، فقد هاجم قيادة المنظمة الصهيونية على تقاعسها فى شراء الأراضى، و تهيئة الأوضاع لاستيعاب المهاجرين اليهود فيها؛ و بالتالى عجزها عن الاستجابة للتحديات التى يفرضها الاعتراف الدولى بالمشروع الصهيونى. لكن مشروع نوردو لم يتحقق، و أساساً بسبب عدم استجابة اليهود لدعوة الصهيونية إلى الهجرة و الاستيطان فى فلسطين.

و لما كانت هجرة اليهود إلى فلسطين هى مفتاح نجاح المشروع الصهيونى، فقد أصبحت بؤرة نشاط الوكالة اليهودية، من جهة، و عنوان المقاومة العربية، من جهة أخرى. و لأن الوكالة اليهودية لم تحقق نجاحاً كبيراً فى تهجير يهود العالم و تمويل توطينهم فى فلسطين، بصورة تغير الواقع الديموغرافى فيها جذرياً، فقد عمدت، و بالتعاون مع سلطات الانتداب، إلى قطع الطريق على قيام مؤسسات حكم تمثيلية فى البلد، تعبر عن ذلك الواقع، الذى تسود فيه أغلبية عربية ساحقة. هذا فضلاً عن أن صك الانتداب كان يحول دون ممارسة الشعب الفلسطينى حقه فى تقرير المصير، إذ إن ذلك ينفى مبرر ذلك الانتداب - تجسيد وعد بلفور. و بناء عليه، و لما جاء دستور فلسطين منسجماً مع سياسة الانتداب، فقد رفضه الشعب الفلسطينى، ممثلاً بالمؤتمر الخامس، الذى عقد فى نابلس فى الفترة ٢٢-٢٥ آب / أغسطس ١٩٢٢ م، بعد عودة الوفد من لندن. كما اتخذ المؤتمر قراراً بمقاطعة الانتخابات للمجلس التشريعى الذى ينص عليه الدستور، و التى حدد المندوب السامى موعدها فى شباط / فبراير ١٩٢٣ م.

و فى المؤتمر قدم «وفد لندن الأول» تقريراً عن زيارته الطويلة، و كان رئيسه، موسى كاظم الحسينى، أكد فى خطاب له فى حيفا لدى وصوله «أن أبواب إنكلترا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٦

لا تزال مفتوحة للمفاوضات و أن هنالك أنصاراً كثيرين للقضية العربية فى إنكلترا و فرنسا على استعداد للدفاع عن القضية العربية فى أى وقت». و كان ذلك مؤشراً إلى الخط السياسى الذى مالت قيادة العمل الوطنى الفلسطينى إلى سلوكه - المفاوضات مع بريطانيا لثنيها عن الانحياز إلى المشروع الصهيونى. و مع أن الوفد لم يحقق شيئاً ملموساً فى لندن، فإنه امتنع من التحريض ضد بريطانيا، و لم يدع إلى العنف فى المؤتمر، حيث تعالى الهتاف بحياة فلسطين العربية، و سقوط الانتداب و الصهيونية و وعد بلفور. و فى المقابل، و على أرضية تجربته فى لندن، و إزاء المزاج العام فى المؤتمر و البلاد عامة، أوصى الوفد بإقامة تعاون أوثق بين فلسطين و البلاد العربية، من خلال تطوير العلاقات الاقتصادية و الثقافية. كما اقترح إرسال وفود إلى بعض الشخصيات و الحكام العرب، لإبلاغهم عن الأوضاع فى فلسطين، و طلب دعمهم فى مواجهة الظلم الذى يتعرض له شعبها. ففى لندن، تحقق الوفد، كما يبدو، من حجم المؤامرة التى تتعرض لها فلسطين، و مقدار التزام الحكومة البريطانية بالمشروع الصهيونى، و بالتالى التعقيدات التى تواجه العمل الوطنى الفلسطينى.

و تبنى المؤتمر ١٨ قراراً، منها: إقامة مكتب فى لندن، إرسال وفود إلى الشرق و أميركا، تشكيل جمعيات إسلامية - مسيحية فى جميع أنحاء البلاد، تأليف لجان تحكيم للفصل فى الخلافات بين القوى الوطنية، وضع كتاب فى تاريخ الحركة الوطنية الفلسطينية، إصدار

طواع وطنية، تطبيق «مشروع القرشين»، تبنى النظام المالي الذي أقرته اللجنة التنفيذية للمؤتمر الرابع. كما قرر المؤتمر مقاطعة اليهود في البيع والشراء، وعدم الاشتراك في مشروع روتنبرغ للكهرباء. إلّا إن أهم القرارات العملية كان رفض الدستور الذي أعلنه المندوب السامي، وبالتالي مقاطعة الانتخابات للمجلس التشريعي الذي ينص عليه ذلك الدستور. وفي جلسته الأخيرة، تبنى المؤتمر، تحت القسم، «الميثاق الوطني الفلسطيني»، ونصه:

نحن نواب الشعب العربي الفلسطيني في المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس المنعقد في نابلس نعاهد الله والتاريخ والأمة على أن نواصل السعي في سبيل استقلال بلدنا وتحقيق الوحدة العربية بالذرائع المشروعة القانونية، وإنا لا نرضى بالوطن القومي اليهودي والهجرة الصهيونية.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٧

ثم أقسم رئيس المؤتمر وأعضاؤه على مقاطعة المجلس التشريعي الذي قررت الحكومة إنشائه.

ومع أن اللجنة التنفيذية للحركة الوطنية الفلسطينية شجعت على إجراء إحصاء للسكان تمهيدا لانتخابات المجلس التشريعي، بناء على قرار المندوب السامي (١٤ آب / أغسطس ١٩٢٢ م)، إلّا إنها أصرت على رفض المشاركة في الانتخابات بعد المؤتمر، وصدت في وجه الضغوط التي مورست عليها. وعندما تيقن المندوب السامي من فشل جهوده، أعلن عن تعيين مجلس استشاري (أيار / مايو ١٩٢٣ م)، بالنمط نفسه الذي شكّل فيه المجلس التشريعي، ما لبث سبعة من أعضائه العرب أن استقالوا (حزيران / يونيو ١٩٢٣ م)، وقبل أن يعقد جلسته الأولى، وبذلك انهار المشروع. وتمسكت اللجنة التنفيذية بسياسة عدم التعاون مع حكومة الانتداب، ورفضت عرضا تلقته في تشرين الأول / أكتوبر ١٩٢٣ م لتشكيل وكالة عربية كالوكالة اليهودية، على ألا تكون هيئة تشريعية، بل محض استشارية، يعينها المندوب السامي.

وجاء هذا الرفض على قاعدة الالتزام بعدم التعامل مع حكومة الانتداب على أرضية وعد بلفور، المتضمن في الدستور، كما في صك الانتداب. وبناء عليه، اتخذ المندوب السامي قرارا بتعطيل مواد الدستور المتعلقة بالمجلس التشريعي.

لقد توصلت الحركة الوطنية الفلسطينية إلى الاقتناع بأن سعيها للفصل بين الانتداب البريطاني والمشروع الصهيوني، لن يكتب له النجاح. ونتيجة موازين القوى القائمة، كانت ردة الفعل على التصلب البريطاني متفاوتة، وراوحت بين اعتبار «بريطانيا أصل الداء»، و أساس كل بلاء»، وبين النظر إلى الصهيونية على أنها الخطر الأساسي، وبالتالي ضرورة التعامل مع بريطانيا بأساليب سلمية، لحملها على العدول عن سياستها. واستغلت حكومة الانتداب هذا التباين في وجهات النظر داخل الحركة الوطنية الفلسطينية لتصديعها، عبر التهيب والترغيب والمناورة في استقبال الوفود وإقامة لجان التحقيق واتخاذ الإجراءات التكتيكية التي من شأنها تهدئة مخاوف السكان العرب من أخطار الصهيونية، بما في ذلك تشديد القيود على الهجرة اليهودية. وقد نجحت هذه السياسة في استمالة اللجنة التنفيذية إلى فكرة إقامة حكومة تمثيلية، الأمر الذي ضرب الإجماع الفلسطيني، ولم يحقق النتائج المرجوة منه، بسبب معارضة الوكالة اليهودية له، ونجاحها في الحؤول دون تنفيذه، انطلاقا من أن تشكيل هكذا حكومة، نتيجة الأغلبية العربية الساحقة، يفرغ الانتداب من مضمونه.

وفي تشرين الأول / أكتوبر ١٩٢٢ م، سقطت حكومة لويد جورج، وفقد تشرشل موقعه في الحكومة والبرلمان، وحلّ محله في وزارة المستعمرات دوق ديفونشاير.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٢٨

ورأت اللجنة التنفيذية في ذلك فرصة لإرسال وفد آخر إلى لندن، علّه ينجح حيث فشل الأول. وعقد المؤتمر الفلسطيني السادس في يافا في الفترة ١٦ - ٢٠ حزيران / يونيو ١٩٢٣ م وقرر إرسال الوفد الثاني. إلّا إن حكومة لندن الجديدة قررت الالتزام بتعهدات سابقتها للحركة الصهيونية، وبالانتداب. فعاد الوفد من دون تحقيق نتائج تذكر، لكن اللجنة التنفيذية ظلت ملتزمة بأسلوب عملها

السلمى. و بناء عليه، أرسلت وفدا آخر إلى مؤتمر لوزان (١٩٢٣ م)، التقى هناك بالفود العربية، وقام بنشاط سياسى - إعلامى لدعم القضية، ودعا إلى حلها «على وجه عادل يتفق مع العهود المقطوعة للعرب». وقد شجع على إرسال هذا الوفد الاعتقاد أن النصر الذى حققه مصطفى كمال، و الذى استقبل بالترحاب فى فلسطين، سيغير الترتيبات الاستعمارية فى المنطقة، لكن هذه الآمال تبخرت، عندما تنازلت تركيا عن الولايات العربية.

و فى الواقع، فإن سياسة سامويل نجحت فى تصديع الحركة الوطنية الفلسطينية، التى كان الوجيهاء و أبناء العائلات الكبيرة و الغنية يشكلون عماد قيادتها. و هذه القيادة، التى عملت على التهدئة بعد ثورة يافا، و وقفت ضد ممارسة العنف، لم تنجح فى تحقيق نتائج تذكر بالوسائل السلمية و السياسية. و منذ سنة ١٩٢٤ م، بدأت فترة من الركود السياسى و الشلل النضالى، امتدت حتى سنة ١٩٢٨ م، و شهدت المزيد من الشروخ فى صفوف الحركة الوطنية، و استشرى الصراعات الداخلية، سواء على أرضية سياسية - الموقف من الانتداب - أو بسبب التنافس بشأن المناصب. و بينما راحت اللجنة التنفيذية تفقد رصيدها الوطنى و الشعبى، على الرغم من تشبثها بموقفها من المشروع الصهيونى، فقد أخذ الحاج أمين الحسينى، مفتى القدس و رئيس المجلس الإسلامى الأعلى، يبرز كزعيم للحركة الوطنية الفلسطينية. فى المقابل، راحت المعارضة له، من قبل وجهاء مثل عارف الدجاني و سليمان التاجى الفاروقى و راغب النشاشيبي و غيرهم، تشتد، إلى أن شكّل هؤلاء الحزب الوطنى فى تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٢٣ م، الذى كانت سياسته المعلنة التعاون مع حكومة الانتداب، مع رفضه للمشروع الصهيونى.

فى المقابل، لم تكن المنظمة الصهيونية راضية تماما عن السياسة التى اتبعتها سامويل، و اتهمته بالضعف، و عملت على سحبه من فلسطين فى الوقت الملائم.

فمبكرا توصل سامويل إلى الاقتناع بأن الأوضاع فى فلسطين لا - تسمح بإنشاء «الوطن القومى اليهودى»، بالسرعة التى تطالب بها المنظمة الصهيونية. فلا هى تمتلك الشروط الذاتية لذلك، و لا السكان المحليون يسلمون به. و كان واضحا له أن اليهود لن يستجيبوا للدعوة الصهيونية بأعداد كافية لتغيير الواقع الديموغرافى فى فلسطين،

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٢٩

و لا المنظمة تمتلك الموارد الكافية لتمويل مشاريعها الاستيطانية. و كانت المقاومة العربية أشدّ عنفا من توقعات المندوب السامى و الكثيرين من قادة العمل الصهيونى.

و سرعان ما تبين زيف الدعاية الصهيونية التى بنت إعلامها على تغييب الشعب الفلسطينى عن وطنه. و فى الواقع، كان سامويل يشارك تشرشل فى اقتناعه الذى عبّر عنه فى أحد لقاءاته مع الوجيهاء العرب فى القدس، «بأن أولاد أولادنا سيكونون قد رحلوا عن الدنيا قبل تحقيق الحكم الذاتى». و لذلك، و إنقاذا للمشروع الصهيونى من المنظمة ذاتها، ارتأى سامويل التعامل بمرونة مع الوضع الفلسطينى، و العمل على تصليب الاستيطان، حتى يتهيأ لتسلم زمام الأمور فى البلد. و كذلك كان على سامويل أن يأخذ فى الاعتبار التوازنات السياسية فى لندن، و موقف القوى من الانتداب.

و على العموم، احتجت المنظمة على تصريحات سامويل من أن «الوطن القومى اليهودى» لن يقوم على حساب العرب، كما رأت فى الكتاب الأبيض، و فصل شرق الأردن عن فلسطين، تراجعاً بريطانيا عن وعد بلفور. و لم يعجب المنظمة سلوك سامويل تجاه المقاومة العربية، إذ أرادت منه قمعها بشدة، كما أخذت عليه دعمه للحاج أمين الحسينى فى تولى منصب الإفتاء و رئاسة المجلس الإسلامى الأعلى.

و احتجت على تحديد سقف للهجرة و تشديد القيود عليها بعد الاضطرابات.

و اعترضت المنظمة على كل محاولة لإقامة حكومة تمثيلية فى ظل استمرار الأغلبية العربية بين السكان. و على أية حال، فإن سلوك السلطات البريطانية إزاء التطلعات الصهيونية المغالية فى استعجالها تهويد فلسطين، قد وضع الوكالة اليهودية أمام أسئلة جذرية و ملحة

حول «ما العمل؟».

و مهما يكن الأمر، فإن النصف الثاني من ولاية سامويل (١٩٢٠-١٩٢٥ م)، تميّز بهدوء نسبي، إذ أفلح، لاعتبارات صهيونية و بريطانية، في وضع طرفي الصراع بشأن فلسطين أمام مشكلاتهما الحالية، و بالتالي إيصالهما، على الأقل على صعيد القيادة، إلى الاقتناع بعدم إمكان حسم هذا الصراع بالطريقة التي يطالب بها كل منهما، و على أية حال، فليس في الحاضر، أو المستقبل المنظور. و بينما أدى ذلك إلى نقل الصراع إلى داخل الحركة الوطنية الفلسطينية، و تأزيم أوضاعها الذاتية، فإنه على العكس من ذلك، خفض حدة التوتر السياسي الداخلي في المنظمة الصهيونية، و دفعها بقيادة تيار الوسط إلى التركيز على تحقيق إنجازات عملية استيطانية. و مع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٠

ذلك، و قبيل نهاية ولاية سامويل، و لدى الاحتفال بافتتاح الجامعة العبرية في القدس (آذار/ مارس ١٩٢٥ م)، بحضور بلفور، قامت تظاهرات صاحبة ضده في جميع أنحاء البلاد، الأمر الذي استعجل سفره إلى دمشق، بناء على دعوة من صديقه المندوب السامي الفرنسي هناك، حيث قوبل بتظاهرات ضخمة و عنيفة، الأمر الذي حمل السلطات الفرنسية على الإسراع في نقله إلى بيروت، تحت حراسة مشددة، ليركب باخرة العودة إلى بلاده.

و على الرغم من العقبات التي ثارت في وجه المشروع الصهيوني، سواء في فلسطين أو لندن، أو حتى داخل المنظمة ذاتها، فقد حقق الاستيطان، بفضل السياسة التي انتهجها سامويل، تقدماً ملحوظاً في ولايته. فزاد عدد المستوطنين من ٥٥،٠٠٠ سنة ١٩١٩ م إلى ١٠٨،٠٠٠ سنة ١٩٢٥ م. و ارتفع عدد المستعمرات من ٤٤ سنة ١٩١٨ م إلى أكثر من ١٠٠ سنة ١٩٢٥ م كما حصل المستوطنون على الاعتراف بمؤسسات الحكم الذاتي الخاصة: المؤتمر الوطني و المجلس الوطني و مجالس الحكم المحلي. و سنت قوانين متعددة تتعلق بالأراضي و الهجرة، تخدم المشروع الصهيوني. و عشية نهاية ولايته (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٥ م) أصدر سامويل «قانون الجنسية الفلسطينية» (آب/ أغسطس ١٩٢٥ م)، الذي يمنح المهاجرين اليهود تلك الجنسية. و كذلك، وضع مشروع النقد الفلسطيني (نيسان/ أبريل ١٩٢٤ م)، الذي تم إقراره في ٢ آب/ أغسطس ١٩٢٤ م من قبل وزير المستعمرات آنذاك، ليوبولد إيملر، و تعيين مجلس النقد الفلسطيني و تحديد صلاحياته. و في ٢١ شباط/ فبراير ١٩٢٧ م أعلن أن النقد الفلسطيني سيحل محل النقد المصري المتداول، اعتباراً من ١ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٧ م.

و كانت فترة ولاية المندوب السامي الثاني، فيلد- مارشال لورد تشارلز بلومر (١٩٢٥-١٩٢٨ م)، هي الأكثر هدوءاً في فلسطين تحت الانتداب. و قد تضافرت لذلك عوامل عدة، على رأسها بلومر نفسه، الذي كان عسكرياً محترفاً، لم يقبل بأى إخلال بالأمن، من أية جهة كانت. و قد أجاب أعضاء وفد فلسطيني، قابلوه و حذروه من أنهم لن يتحملوا مسؤولية النتائج الناجمة عن تظاهرات يقوم بها اليهود في القدس قائلاً: «لا ضرورة لكم أنتم بتحمل المسؤولية عن النظام العام، فأنا المسؤول عنه.» في المقابل توأمت ولاية بلومر في فلسطين مع الأزمة الاقتصادية العالمية في نهاية العشرينات، التي انعكست سلباً على المشروع الصهيوني، بنضوب الموارد المالية للوكالة اليهودية، و بالتالي تقلص الهجرة اليهودية و ركود النشاط الاستيطاني. و من جهة أخرى، حدث تراجع في الحركة الوطنية الفلسطينية، بسبب الصراعات الداخلية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣١

و خصوصاً بين الحاج أمين الحسيني و راغب النشاشيبي، الذي أصبح رئيس بلدية القدس. و شغلت القوى السياسية بهذا الصراع نتيجة انحسار النشاط الصهيوني، و تساؤل الهجرة، بل تزايد النزوح إلى الخارج، الذي بلغ ذروته سنة ١٩٢٧ م إذ زاد عدد النازحين عن القادمين.

و لعل من أهم الدلائل على تراجع الحركة الوطنية الفلسطينية، توقفها عن عقد مؤتمراتها الدورية، ليس لغياب القضايا الملحة، و إنما بسبب الشقاق الداخلي. و قد جرت عدة محاولات لإزالة الخلافات بين التكتلين - الأول بقيادة الحاج أمين، و الثاني حول راغب

النشاشيبي - لكنها باءت جميعا بالفشل. و في أجواء المشاحنات الداخلية، غابت القضية المركزية، وسعت الأطراف المتخاصمة للتقرب من السلطة حماية لمواقعها. في المقابل، كانت المؤتمرات الصهيونية تنعقد بانتظام، و رئيس المنظمة يعمل على توسيع الوكالة اليهودية، و ضم غير الصهيونيين إليها، بهدف توفير الموارد المالية اللازمة للاستيطان. أما حكومة الانتداب، و إزاء انحسار الضغط العربي عليها، فلم تبادر إلى طرح مسألة إقامة حكومة تمثيلية، حتى عندما أبدت فئات عربية استعدادها للتعاون مع السلطة، بينما تركت للوكالة اليهودية حرية العمل لتطوير مؤسسات الحكم الذاتي. و في غياب القيادة السياسية القادرة على إدارة الصراع، و معاودة المنظمة الصهيونية نشاطها بدعم الانتداب، وقعت حادثة استفزازية كانت كافية لتفجير العنف الشعبي، الذي كان خارج قدرة الأطراف السيطرة عليه.

(د) ثورة البراق

عندما عقد المؤتمر الفلسطيني السابع في القدس في الفترة ٢٠ - ٢١ حزيران/ يونيو ١٩٢٨ م، بعد محاولات متعددة فاشلة، جاء ضعيفا، و لا غرو أنه كان آخر المؤتمرات. ففي الأعوام الخمسة التي انقضت منذ المؤتمر السادس، أصاب الحركة الوطنية الفلسطينية الوهن، و بالتالي الشلل السياسي. و تنامي عدد الزعماء الذين جنحوا نحو الاعتدال بالتعامل مع الانتداب، تجاوزا لقرارات المؤتمرات السابقة عامة.

و وصل التراجع حدّ تشكيل وفد من اللجنة التنفيذية و الحزب الوطني و جمعية تعاون القرى (تموز/ يوليو ١٩٢٦ م)، للاجتماع مع ممثل للحكومة، و تقديم اقتراح بالاستعداد للمشاركة في حكومة دستورية. و مع ذلك، فالمندوب السامي لم يتعامل مع الاقتراح بجديّة، بل على العكس، رأى في ذلك فرصة لاستغلال التناقضات بين الأجنحة المتصارعة داخل الحركة الوطنية. و انهمكت هذه الحركة ما بين تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٦ م، و أيار/ مايو ١٩٢٧ م بالانتخابات البلدية، التي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٢

خاضتها الكتل و الأحزاب و الأسر و الزعامات، و أسفرت عن فوز راغب النشاشيبي و كتلته في معظم مدن فلسطين. و على أرضية نتائج هذه الانتخابات، لم يكن ممكنا عقد المؤتمر السابع، و لم تنجح المحاولات المتعددة لرأب الصدع و حمل الأطراف على تجاوز الحزازات بينها.

و جاءت قرارات المؤتمر السابع هزيلة، لا ترقى إلى مستوى التطورات في البلاد، و لا تعبر عن المزاج الشعبي العام إزاءها. و إذ أيد المؤتمر المواقف السابقة، فإنه وضع على رأس مطالبه تشكيل حكومة برلمانية، الأمر الذي كان مرفوضا من قبل. كما احتج على كثرة الموظفين البريطانيين في الدوائر الرسمية، و على منح شركة يهودية امتياز استخراج البوتاس من البحر الميت، و تفضيل اليهود على العرب في الأشغال الحكومية. و انتخب المؤتمر لجنة تنفيذية موسعة من ٤٨ عضوا، ليس لتغطية المهمات المطلوبة، و إنما لإرضاء الكتل و الأسر و الأشخاص ... إلخ، فأصبحت غير فاعلة. و انتخب موسى كاظم الحسيني رئيسا لها، و ظل يمارس ذلك حتى يوم وفاته (١٩٣٤ م)، فانحلت اللجنة بعد ذلك بفترة قصيرة. و في هذه الأثناء، كان الحاج أمين قد برز كقائد للحركة الوطنية، على حساب اللجنة التنفيذية.

كما تجاوزت القيادات المحلية تلك اللجنة لعدم فاعليتها، و استشرى الصراعات الشخصية و العائلية و الحزبية داخلها. و لكن، على الرغم من الشقاق في صفوف الزعامات السياسية، فقد ظلت جماهير الشعب الفلسطيني متشبثة بقضيتها الوطنية، و ظلت روحها الكفاحية عالية، و استعدادها للتضحية كبيرا على الرغم من النكسات.

لقد انعقد المؤتمر السابع على أرضية تأزم أوضاع العمل الوطني الفلسطيني، ذاتيا و موضوعيا، لكنه لم يحقق الآمال المعقودة عليه، و لم يحلحل تلك الأزمة، لما تميزت به تركيبته من تنافر، و قراراته من هزال، و اللجنة التنفيذية المنبثقة منه من شلل. كما تواكب ذلك

مع تردّي الأوضاع الاقتصادية للشعب الفلسطيني، من جهة، و بداية حالة من النهوض للمشروع الصهيوني، بعكس ما كان متوقعا في منتصف العشرينات، من جهة أخرى. فبعد توسيع الوكالة اليهودية زادت مواردها المالية، فنشطت الهجرة، و تكثف الاستيطان، و بالتالي شراء الأراضي، و طرد الفلاحين عنها.

كما زادت الوكالة في ضغطها على حكومة الانتداب للإسراع في وضع برنامج للتطوير الاقتصادي يخدم الاستيطان، عبر قرض بقيمة مليوني جنيه استرليني، يجمع تحت رعاية عصبه الأمم، و بضمانة الحكومة البريطانية، و ذلك لشراء المزيد من أراضي الدولة، و تخصيصها للشركات اليهودية و المستعمرات الزراعية. و كانت الحكومة منحت عشرات آلاف الدونمات من الأراضي الأميرية للمؤسسات الصهيونية:

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٣

٨٢،٠٠٠ دونم للاستيطان و ٧٥،٠٠٠ دونم لشركة البوتاس و ١٨،٠٠٠ دونم لشركة الكهرباء، كما حولت لها امتياز تجفيف سهل الحولة.

و زاد في الضيق الاقتصادي على السكان العرب سياسة الاستيطان الصهيوني بمقاطعة العمل العربي و المنتجات العربية، تحت شعار العمل العبري و السوق اليهودية، الذي رفعته الهستدروت و عملت على تطبيقه. و حتى في أعمال الحكومة، كان المقاولون اليهود ينحازون ضد العمال العرب، و ظهر ذلك جليا في ميناء حيفا، الذي بدأت الحكومة توسيعه في سنة ١٩٢٩ م. و جاء الإحباط السياسي ليفاقم الأزمة، إذ في ٦ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٢٨، وصل المندوب السامي الثالث، سير جون تشانسلر، و هو من موظفي وزارة المستعمرات المؤيدين للصهيونية، و لم يكن متحمسا لتشكيل حكومة تمثيلية، فتابع سياسة سلفه في المماطلة و التسويف. و في ٣٠ أيار/ مايو ١٩٢٩ م، نجح حزب العمال البريطاني في الانتخابات، و تولى رامزي مكدونالد رئاسة الحكومة، و عهد إلى الاشتراكي، سدنبي وب (الذي أصبح لاحقا اللورد باسفيلد)، بوزارة المستعمرات. و علقت القيادة الفلسطينية الآمال عليه بتغيير السياسة البريطانية، لكنه سارع إلى إعلان الترام حكومته بوعده بلفور. و في المقابل، حرك التغيير الوزاري المنظمة الصهيونية لاستباق أى تراجع عن سياسة الانتداب. فعقد المؤتمر الصهيوني السادس عشر (زوريخ آب/ أغسطس ١٩٢٩ م)، و وسّعت الوكالة اليهودية، و ارتفعت الدعوات إلى الإسراع في إعلان «الدولة اليهودية»، و خصوصا من قبل التيار التنقيحي، بقيادة جابوتنسكي، الذي اعتمد سياسة الاستفزاز للعرب و حكومة الانتداب على حد سواء.

و جاءت الشرارة التي أشعلت أعمال عنف واسعة النطاق، المعروفة باسم «ثورة البراق»، من القدس، في إثر صدام بين اليهود و العرب، عند الحائط الغربي للحرم القدسي الشريف، الذي يعتبره المسلمون «حائط البراق»، حيث ربط الرسول (ص) دابته- البراق- ليلة الإسراء و المعراج، بينما يعتقد اليهود أنه جدار هيكل سليمان (حائط المبكى). و كان قد وقع الصدام الأول في ٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٨ م، في يوم عيد «التاسع من آب» (عبري)، الذي يقع في ذكرى خراب الهيكل الثاني، إذ غير اليهود الوضع الذي كان قائما سابقا. فوقع صدام مع المصلين المسلمين، الذين اعتقدوا أن اليهود يخططون للاستيلاء على الحرم الشريف و قبة الصخرة. و في إثر الصدام، انعقد المؤتمر الإسلامي، الذي دعا إليه الحاج أمين الحسيني، في القدس (٢ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٢٨ م)، و حضره مندوبون من سورية و لبنان و شرق الأردن. و قرر المؤتمر تشكيل جمعية حراسة الأماكن الإسلامية المقدسة، و آلو

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٤

على أنفسهم الدفاع عن البراق و الأقصى. كما طالبوا الحكومة، وفقا لصك الانتداب، المادة ١٢، بمنع اليهود من تغيير الوضع القائم، فاستجابت للطلب، مؤكدة بقاء الوضع على ما هو عليه. و في المؤتمر برز الحاج أمين زعيما للحركة الوطنية الفلسطينية، بديلا من اللجنة التنفيذية.

و في السنة التالية، في التاريخ العبري نفسه، الذي وافق ١٥ آب/ أغسطس ١٩٢٩ م، قام أتباع جابوتنسكي بتظاهرة استفزازية قرب

الحرم، بعد أن قاموا بأخرى في اليوم السابق في تل أبيب، و هتفوا «الحائط حائطنا»، و لم يلتفتوا إلى تحذيرات الشرطة بعدم الذهاب إلى القدس، بل على العكس، تعمدوا ذلك. و في اليوم التالي الجمعة ١٦ آب/ أغسطس قام المصلون المسلمون بتظاهرة مماثلة أمام البراق، و وقعت اشتباكات محدودة. لكنها تجددت في اليوم التالي، و قتل يهودي، و جرح ١١ شخصا من الجانبين. و في يوم الجمعة اللاحق (٢٣ آب/ أغسطس)، و بعد أن تناقلت الأخبار أحداث الحرم، تجمعت حشود مسلمة في المسجد الأقصى للصلاة، لمناسبة المولد النبوي الشريف. و بعد الصلاة خرجت الجموع، مسلحة بالعصى و الهراوات و السكاكين و حتى السيوف، و اشتبكت بجمهرة من جماعة جابوتنسكي، و وصلت إلى المكان تحديا، و اتسعت الاشتباكات، و وصلت إلى الحي اليهودي و المستعمرات المحيطة بالقدس. كما وصلت تعزيزات كبيرة من قوات الحكومة بالمصفحات، و حلقت طائرات فوق المدينة، و تمت السيطرة على الموقف، و هدأت الحالة في القدس، بينما انتقلت الصدامات إلى مدن فلسطين الأخرى و قراها.

و عمت ردات الفعل العنيفة جميع أنحاء البلاد. ففي الخليل، هاجم السكان الحي اليهودي، حيث قتل نحو ٦٠ شخصا، و جرح ٥٠ آخرون، و انتهى الاستيطان اليهودي في المدينة. و في نابلس، اشتبكت الأهالي مع الشرطة لدى محاولتهم الاستيلاء على الأسلحة في أحد مراكزها. و في بيسان، كما في يافا، هاجم السكان المستوطنين. و استمرت أعمال العنف يومي ٢٥ و ٢٦ آب/ أغسطس في مناطق متعددة:

حيفا و يافا و القدس و صفد و غيرها. و شهدت مدينة صفد، و القرى المحيطة حالة من الغليان، في إثر إشاعة خبر أن اليهود اعتدوا على الحرم الشريف، و هدموه و أحرقوه، فهاجم الجمهور الحي اليهودي و سيطر عليه، و نقلت الشرطة سكانه إلى السراي، حيث مكثوا ثلاثة أيام. و وصلت إلى المدينة تعزيزات عسكرية بريطانية، اشتبكت مع الأهالي، فسقط عدد من الشهداء. و بعد أن سيطرت قوات الحكومة على المدينة، لجأ عدد من المطلوبين إلى الجبال، و ظلوا مطاردين فترة طويلة. و قد شكّل هؤلاء، بقيادة أحمد طافش، أول تنظيم عربي مسلح في فلسطين ضد الانتداب و الصهيونية، أطلقوا عليه اسم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٥

«الكف الأخضر»، و استمر في القيام بغارات خاطفة مدة عام تقريبا.

و استمرت الاضطرابات حتى نهاية شهر آب/ أغسطس ١٩٢٩ م، ثم بدأت تجنح نحو الهدوء بصورة عامة، و تمخضت عن مقتل ١٣٣ يهوديا و جرح ٣٣٩، و استشهاد ١١٦ عربيا و جرح ٢٣٢، معظمهم برصاص القوات البريطانية. و دمرت السلطات بعض القرى العربية مثل لفته و دير ياسين. و قدمت للمحاكمة أكثر من ١٠٠٠ شخص، بينهم ٩٠٠ عربي، و أصدرت أحكاما بالإعدام على ٢٦ شخصا، كلهم من العرب ما عدا واحد- شرطي يهودي قتل بسلاحه الحكومي أسره عربي من ٧ أنفار. و أصرت الحكومة على تنفيذ حكم الإعدام بثلاثة مناضلين، هم: عطا الزير و محمد جمجوم و فؤاد حجازي، و تم ذلك في سجن عكا، يوم الثلاثاء في ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٣٠ م، اليوم الذي خلدهم فيه الشاعر إبراهيم طوقان بقصيدة «الثلاثاء الحمراء»، لرباطة جأشهم في مواجهة جبل المشنقة. كما فرضت عقوبات صارمة على القرى التي شاركت في الهجوم على مستعمرتي موتسا و هرطوف، و كذلك على مدينة الخليل.

سارع المندوب السامي في العودة من إجازة كان يمضيها في لندن لدى اندلاع ثورة البراق. و أصدر بيانا عينا، حمل فيه العرب مسؤولية الأحداث، و اتهمهم بارتكاب المجازر، و وصفهم بالمتعطشين للدماء. فأثار حملة من الاستنكار، اضطرت به إلى التراجع. و في الواقع، فإنه قبل اندلاع أعمال العنف، جرى لقاء في بيت القائم بأعمال الحكومة، هاري لوك، حضره ثلاثة من الزعماء العرب، و مثلهم من قيادة العمل الصهيوني، و قرروا العمل على تهدئة الأوضاع. لكن زمام الأمور أفلت من أيديهم جميعا، و خصوصا أن القيادة الصهيونية الأولى كانت لا تزال في زوريخ، بعد المؤتمر السادس عشر، و القيادات العربية فقدت السيطرة على الشارع.

و كان من نتائج ثورة البراق تنشيط النضال الفلسطيني، بعد فترة من الركود. فعقد اجتماع موسع (٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٩ م) في يافا، عقبه اجتماع للجنة التنفيذية، التي تبنت قرارات يافا بمقاطعة الشركات و المنتجات اليهودية، بما فيها شركة الكهرباء- روتنبرغ- و

رعاية الجرحى و أسر الشهداء و الاهتمام بالموقوفين و الدفاع عنهم. كما عقد المؤتمر النسائي الفلسطيني الأول (٢٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٩ م)، و حضره نحو ٣٠٠ سيدة، و قررن تأييد المطالب الوطنية، و تنشيط دور المرأة في النضال و تعزيز العلاقات الاقتصادية مع الأقطار العربية المجاورة. و على صعيد الوعي، تعمق الفهم لطبيعة العلاقة العضوية بين الانتداب و المشروع الصهيوني، كما كشفت الأحداث عمق النهج الذي تتبعه القيادة السياسية الفلسطينية لتحقيق الأهداف الوطنية. و في الواقع، تجاوزت الجماهير ذلك النهج، و لم تتصرف وفقا لإرادة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٦

القيادة التي عارضت أعمال العنف، و خصوصا ضد الحكومة. و نتيجة شراسة القمع البريطاني، و جور الأحكام التي أصدرتها السلطات، ارتفعت نبرة الدعوة إلى اللجوء إلى الكفاح المسلح، و راحت تتشكل مجموعات مقاتلة، مثل عصابة الكف الأخضر و غيرها.

في المقابل، تسببت أحداث سنة ١٩٢٩ بتغييرات ملحوظة في العمل الصهيوني، فبرزت فيه ثلاثة أجنحة، راحت تصارع على مواقفها، داخليا و خارجيا، بشأن السياسة التي يجب أن يتخذها هذا العمل، بما في ذلك إزاء الانتداب. ففي الوسط، وقف حزبا هبوعيل هتسعير (العامل الفتى) و أحادوت هعفودا (وحدة العمل)، اللذان توحدتا (١٩٣٠ م)، في «مفليغت بوغالي إيرتس إسرائيل - مباي» (حزب عمال أرض إسرائيل). و حصل الحزبان في انتخابات مجلس النواب (أسيفات هنفحاريم) الثالث على ٣١ مندوبا من مجموع ٧١. و منذئذ، احتل هذا الحزب المقام الأول في إدارة أمور الاستيطان، كما في الحركة الصهيونية، و برزت فيه زعامة دافيد بن-غوريون. و تشكلت المعارضة الرئيسية من التيار التنقيحي بزعامة جابوتنسكي، التي انتقدت بشدة السياسة البريطانية، و أساليب عمل المنظمة الصهيونية المتوافقة معها. و في برنامجها: معارضة التنازل عن شرق الأردن و المطالبة بإعلان أكثرية يهودية في فلسطين، و تحويلها إلى دولة يهودية كأهداف نهائية للعمل الصهيوني. و قد حصل هذا التيار في الانتخابات على ١٦ مندوبا.

و على يسار حزب مباي، تشكلت مجموعة صغيرة من المثقفين الليبراليين، ذوى الماضى الصهيوني و النفوذ السياسي، مثل يهودا ماغنس، الرئيس الأول للجامعة العبرية، و حاييم كالفارسكي، من قدامى قيادة العمل الصهيوني، و آرثر روبين، مسؤول مكتب يافا، و غيرهم. و كانت النقطة المركزية في برنامج هذه المجموعة السياسي، هي التنازل عن مشروع تحويل فلسطين إلى «دولة عبرية»، تقوم على أكثرية سكانية يهودية. و شكّل هؤلاء حركة بريت شالوم (عصبة السلام)، و بعدها حركة إيحود (الوحدة)، بالاستناد إلى أفكار الفيلسوف أحاد هعام (آشر غينزبرغ)، التي أكدت على أولوية «المركز الروحي اليهودي»، و ليس على الاستيطان الجماعي و الاستقلال السياسي. و رفعوا شعار «الدولة ثنائية القومية»، القائل بموقع متكافئ لكل من «القوميتين» - الفلسطينية و الإسرائيلية - بغض النظر عن النسبة العددية لكل منهما بين السكان. و وافقوا لاحقا على ألا يزيد عدد اليهود عن ٥٠٪ من مجموع السكان في البلاد. و لم تتمتع طروحات هذه الجماعة باستجابة كبيرة، لا بين اليهود و لا العرب.

و قد تبني حزب هشومير هتسعير (الحارس الفتى) موقفهم من «الدولة ثنائية القومية»،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٧

لكن من دون وضع سقف للاستيطان اليهودي عدديا. و كانت هناك مجموعات صغيرة أخرى، مثل الصهيونيين العموميين و المزراحي، التي دعمت بصورة عامة سياسة وايزمن و تيار الوسط.

و خلال الأحداث، أدت الهاغاناه دورا هامشيا إلى جانب القوات البريطانية.

و برز ذلك في القدس و تل أبيب و حيفا، أما في المناطق الأخرى فكان دورها ضئيلا أو معدوما. و نتيجة هذا الوضع، و اتهام القيادة الصهيونية حكومة الانتداب بالتقصير في حماية المستوطنين، و التقاعس في قمع الانتفاضة الجماهيرية العربية، فقد ارتفعت أصوات تنادى بضرورة تطوير الهاغاناه، لتصبح أداة للعمل العسكري الصهيوني الذاتي. و كان التوجه الأول نحو تشكيل قيادة قطرية، تنسق

العمل العسكري في البلاد كلها. و اشترك في هذه القيادة ممثلون مدنيون محليون، لكن هذه الشراكة لم تدم طويلا. فاعتراضا على هيمنة الهستدروت، و بالتالي حزب مباى، على الهاغاناه، انقسمت المنظمة، و شكّل التنقيحيون منظمة موازية هي «التنظيم ب». كما انقسمت اللجنة القيادية، و مالت الأحزاب غير العمالية إلى جانب التنقيحيين و منظمتهم. و مع أنه كان هناك تنسيق بين المنظمين، توصل إليه بن - غوريون مع جابوتنسكى، لكن الانقسام ظل قائما حتى سنة ١٩٣٧ م. و مع ذلك، فقد راحت كل منظمة تطور ذاتها، و تسلح نفسها، و تحسن من تدريب أعضائها و كوادرها القيادية.

ه) الكتاب الأبيض الثاني

شكلت أحداث سنة ١٩٢٩ حافزا على تحوّل نسبي في سياسة حكومة لندن العمالية تجاه المشروع الصهيوني، اعتبرته الوكالة اليهودية ارتدادا عن وعد بلفور، فهبت لمقاومته. و الواقع أن اللورد باسفيلد (سدنى وب)، وزير المستعمرات (١٩٢٩ - ١٩٣١ م)، أدخل خطأ جديدا تجاه مسألة فلسطين في وزارته، و جعله سياسة رسمية للحكومة، برئاسة رامزى مكدونالد. و في هذه الفترة، برز اتجاهان مناوئان للمشروع الصهيوني: الأول عمالي، يرى فيه مشروعا استعماريًا، يقوده أغنياء اليهود في إنكلترا و الولايات المتحدة، لاستغلال فلسطين و سكانها اقتصاديا؛ و الثانى محافظ، يساوره القلق من النزعات الشيوعية لدى المهاجرين اليهود من روسيا. و كلاهما دعا إلى وضع قيود على الهجرة اليهودية إلى فلسطين. و إزاء هذه التوجهات لحكومة العمال في لندن، تحركت المنظمة الصهيونية، في بريطانيا و الولايات المتحدة، لممارسة أنواع الضغوط جميعها على حكومة مكدونالد، و إجبارها على التراجع عن خطها السياسى، و نجحت بذلك. و في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٩ م، اقترح مجلس عصبة الأمم على

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٣٨

الحكومة البريطانية جمع المعلومات اللازمة عن أحداث فلسطين، حتى آذار/ مارس ١٩٣٠ م، بهدف عقد جلسة استثنائية للجنة الانتداب التابعة لها، تدرس أسباب الاضطرابات، و الإجراءات الواجب اتخاذها لمنع تكرارها. و إزاء الضجة التى أثارها الوكالة اليهودية على أحداث سنة ١٩٢٩، و سلوك حكومة الانتداب فيها، عينت الحكومة البريطانية لجنة للتحقيق فى أسبابها و وقائعها.

و ترأس اللجنة القاضى، سير و الترشو، فعرفت باسمه، و اشترك معه ثلاثة أعضاء من مجلس العموم البريطانى، يمثلون الأحزاب الثلاثة فيه (١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٢٩ م).

و كان المندوب السامى، تشانسلى، اعترف فى تقاريره إلى وزارة المستعمرات (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٩ م)، بأن الحالة لم تهدأ، و بأن السكان العرب يقتربون من حافة اليأس بسبب تجاهل الحكومة مطالبهم، و حالة التملل تعم جميع طبقات الشعب.

و عزا تشانسلى ذلك إلى الأوضاع الاقتصادية الصعبة التى يعانىها العرب، و خصوصا مع تفاقم المشكله الناجمة عن انتقال المزيد من الأراضي إلى مؤسسات استيطانية صهيونية. و معلوم أن هذه الأراضي كانت من أملاك الدولة، أو تخص ملاكين غائبين، منهم من يقيم خارج فلسطين، و عند بيعها يطرد الفلاحون منها، فيصبحون من دون مورد رزق، و بالتالى عامل تفجير للاضطرابات.

و زاد فى قلق حكومة الانتداب انتقال حالة الهيجان الشعبى إلى الأقطار العربية المجاورة، و تهريب الأسلحة إلى فلسطين، و استعداد المتطوعين للانضمام إلى أية ثورة محتملة هناك. و تنفيذ التقارير الأمنية للحكومة عن تشكيل عصابات مسلحة فى المدن و الريف، هدفها مهاجمة الموظفين - اليهود و البريطانيين - فى نواحي عكا و حيفا و نابلس، فضلا عن المطاردين فى منطقة صفد. و مع استمرار التوتر، ظلت إدارة تشانسلى متشبثة بسياستها القمعية و فرض العقوبات الجماعية لتشمل البلاد كلها.

و دعت اللجنة التنفيذية إلى الاجتماع العربى العام (تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٩ م)، و حضره فضلا عن زعماء محليين، شيوخ البدو من جميع أنحاء فلسطين، و مندوبون من سورية و شرق الأردن و لبنان. و أرسل المؤتمر بريقة إلى وزير المستعمرات، أعلن فيها «عدم ثقة

الأمة» بالمندوب السامي، بسبب سياسته المنحازة إلى اليهود، وأقسم الأعضاء على منع بيع الأراضي للاستيطان، و مقاطعة المصنوعات والمتاجر اليهودية، و تنشيط الصناعة و التجارة العربية، كما قرروا إعلان الإضراب العام لمناسبة وعد بلفور. و باشرت لجنة شو عملها في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢٩ م، فعقدت ٤٧ جلسة علنية، و ١١ أخرى سرية، و استمعت إلى ١١٠ شهود- موظفين حكوميين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٣٩

و عرب و يهود- و وضعت تقريرها و قدمته إلى وزارة المستعمرات (٣٠ آذار/ مارس ١٩٣٠ م). و برأت اللجنة حكومة الانتداب من المسؤولية عن الاضطرابات، كما ادعت الوكالة اليهودية. و على العموم، كان تقرير اللجنة متناقضا مع الادعاءات الصهيونية، إذ إنه أرجع أسباب الاضطرابات إلى سياسة «الوطن القومي اليهودي»، و التي تشترك فيها الحكومة البريطانية مع المنظمة الصهيونية. و رأت اللجنة أن الأسباب المباشرة في اندلاع العنف تكمن في سلوك اليهود إزاء الأماكن المقدسة. و ورد في التقرير أن شعور العرب بالعداء تجاه اليهود يعود إلى خيبة أمانهم السياسية و الوطنية و خوفهم على مستقبلهم الاقتصادي، و خشيتهم من أن يسيطر اليهود عليهم سياسيا، بسبب الهجرة و انتقال الأراضي إليهم، و لاعتقاد العرب أن حكومة الانتداب منحازة إلى مصلحة اليهود. و أوضح التقرير بجلاء الآثار السلبية للاستيطان الصهيوني على أهل البلد الأصليين، و على الصعد كافة، و خصوصا ما يتعلق باستملاك الأراضي، و طرد الفلاحين منها، و بالتالي، نشوء طبقة ناقمة لا- أرض لها، هي مادة لتفجير الاضطرابات. كما أكد أن أوضاع البلد الاقتصادية لا تحتمل المزيد من الهجرة اليهودية إليها.

و لم تكن للجنة صلاحية التطرق إلى صك الانتداب، لكنه طلب منها تقديم توصيات، فجاء فيها: (١) ضرورة أن تصدر الحكومة البريطانية بيانا صريحا و واضحا عن سياستها في فلسطين، يفسر و يبرز ما ورد في صك الانتداب عن صيانة حقوق الطوائف غير اليهودية؛ (٢) أن تعيد الحكومة النظر في أنظمة الهجرة و الرقابة عليها، بغية وقف الهجرة الزائدة، أخذا في الاعتبار مصالح السكان المحليين؛ (٣) إجراء تحقيق علمي حول إمكانات البلد الزراعية و الإسكانية لتحديد قدرتها على استيعاب المهاجرين من دون إلحاق الضرر بسكانها؛ (٤) إيجاد السبل لحماية المزارعين العرب، و الحيلولة دون إجلائهم عن الأرض، و وضع القيود على انتقالها إلى اليهود؛ (٥) ضرورة توضيح أن المركز الخاص للجمعية الصهيونية بموجب صك الانتداب لا يخولها المشاركة في حكم فلسطين؛ (٦) ضرورة الأخذ في الاعتبار شعور العرب بالاستياء، الناجم عن حرمانهم من الحكم الذاتي؛ (٧) تعيين لجنة دولية من قبل عصبة الأمم للفصل في حقوق الطرفين في البراق.

و فعلا، و بعد صدور تقرير لجنة شو، أوفدت عصبة الأمم لجنة ثلاثية لدراسة أوضاع البراق، و تقديم توصية بشأنه (حزيران/ يونيو ١٩٣٠). و بعد الاطلاع على

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٠

الوثائق و الأدلة، قررت اللجنة أن حائط البراق ملك للوقف الإسلامي، و يجب أن يبقى كذلك، مع المحافظة على الوضع الذي كان قائما في السابق، من إقامة الطقوس الدينية اليهودية عنده. و صدر في إثر ذلك قانون عن مجلس الملك الخاص، يقضى بوضع توصيات لجنة البراق موضع التنفيذ، ففعلت الحكومة ذلك. و يذكر أن لدى قدوم اللجنة إلى فلسطين، توافد عليها رجال من مصر و سورية و لبنان و العراق و جاوة و الهند و إيران و تركيا، لتقديم شهاداتهم و تدعيم موقف الفلسطينيين في مسألة البراق، الذي كان جزءا من «وقف حى المغاربة»، أوقفه الملك الأفضل، ابن صلاح الدين الأيوبي، على مدرسة «الأفضلية»، التي أنشأها في ذلك الحى.

و مع أن أحداث سنة ١٩٢٩ عززت موقع القوى و الشخصيات التي دعت إلى نبذ التفاوض غير المجدى مع بريطانيا، و اللجوء إلى استعمال العنف ضدها لصلوعها في المشروع الصهيوني، فإن نشر تقرير لجنة شو شجع اللجنة التنفيذية على إرسال وفد إلى لندن، لملاحقة القضية هناك عن كثب. و وصل الوفد في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٣٠ م، و قدّم إلى حكومة رامزي مكدونالد مذكرة بوقف

الهجرة اليهودية، و منع انتقال الأراضي من أيدي العرب، كما طالبت بتأليف حكومة وطنية نيابية. لكن رئيس الحكومة ردّ على الوفد في بيان أمام مجلس العموم، أكد فيه التزام حكومته نحو «الشعب اليهودي و نحو الجماعات غير اليهودية»، و قال «إن حكومة جلالتها لن تتأثر بالضغط و التهديد، و لن تحيد عن الطريق المرسوم في صك الانتداب». و بلغت الحكومة الوفد أنها سترسل خبيراً إلى فلسطين لدراسة مسألتى الهجرة و الأراضي.

و قطع الوفد المفاوضات، و أذاع بياناً أكد فيه اقتناعه باستمرار الحكومة في هضم حقوق العرب، إكراماً للسياسة الصهيونية، «مما يؤدي إلى إبادةنا كأمة و إجلائنا عن ديارنا. و بما أن أهل البلاد العربية و الإسلامية شركاء في فلسطين بات واجبا علينا أن نخطرهم بالحالة الخطيرة التي تهدد كيان بلادهم المقدسة و إخوانهم الساكنين فيها».

و بناء على توصية لجنة شو، أوفدت الحكومة الخبير العالمي بمسائل الهجرة و الإسكان، سير جون هوب-سمبسون، إلى فلسطين للتحقيق في أوضاعها على هذين الصعيدين (أيار/مايو ١٩٣٠ م). و أمضى سمبسون شهرين يطوف في القرى العربية و المستعمرات اليهودية، و قدم تقريره إلى الحكومة (آب/أغسطس ١٩٣٠ م)،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤١

و نشر مع الكتاب الأبيض الثاني، الذي أصدره وزير المستعمرات، اللورد باسفيلد، (٢٠ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٣٠ م). و تقرير سمبسون هو وثيقة مهمة جداً، لأنها تصف الأوضاع الاجتماعية و السياسية للفلسطينيين، التي على أرضيتها نشبت ثورة البراق، و من بعدها الثورة العربية الكبرى (١٩٣٥-١٩٣٩ م). و كان سمبسون قد وصل إلى البلاد في فترة عصيبة، إذ لم تكن العقوبات الجماعية توقفت، و حالة البطالة و الضيق الاقتصادي متفاقمة، و الأحكام العرفية مستمرة. و قد ترك إعدام الشهداء الثلاثة: عطا الزير و محمد جمجوم و فؤاد حجازي، جوّاً حزيناً على البلاد كلها، يوم «الثلاثاء الحمر» (١٧ حزيران/يونيو ١٩٣٠ م)، الذي تعالت فيه أصوات المؤذنين من الجوامع، و دوّت أجراس الكنائس، و عمت التظاهرات جميع أنحاء البلاد لدى إعلان الحكومة إصرارها على تنفيذ حكم الإعدام بهم.

و جاء في تقرير سمبسون ما يلي: «باستثناء منطقة بئر السبع، فإن مساحة الأراضي الصالحة للزراعة تبلغ ٥٤٤،٠٠٠، ٦ دونم، يملك منها اليهود مليون دونم، أي أكثر من ١٤٪... و قد غدا أكثر من ٥٤، ٢٩٪ من العائلات العربية القروية دون أرض، كما أن الأراضي الصالحة للزراعة لدى العرب لا تكفي لضمان معيشة السكان و المحافظة على مستواها. و نتيجة سياسة الحكومة في موضوع الأراضي، اضطر قسم كبير من الفلاحين إلى أن يفقدوا عملهم و أرغموا على مغادرة أراضيهم». و عرض التقرير سياسة التهويد التي تتبعها المؤسسات الصهيونية الاستيطانية، القائمة على مقاطعة العمل العربي، الأمر الذي يتنافى مع صك الانتداب، و يشكل خطراً دائماً و متزايداً على البلاد. و أوصى سمبسون بإلغاء هذه الشروط و القيود في عقود مؤسسات الاستيطان الصهيوني.

و أشار سمبسون إلى حرمان المزارع العربي من الامتيازات المتاحة لليهودي، من رؤوس أموال و خبرات علمية، و إلى أنه لم تقدم له المساعدة لتحسين زراعته و مستوى معيشته، أسوأ بالمزارع اليهودي. فهو يتزايد عدداً و بسرعة، في حين تتناقص الأراضي التي يعيش منها، و هو يزرع تحت عبء الديون، مثقلاً بالضرائب، و يتعذر عليه سدادها إلاّ بمزيد من الاستدانة، بفوائد لا تصدق. و نتيجة ذلك، تدفق الفلاحون على المدن، حيث تدنت الأجور، و زادت البطالة لتشكل خطراً على حياة البلاد الاقتصادية. و قال: «إن واجب الإدارة الانتدابية أن تتأكد ألاّ يلحق ضرر بالعرب من جزاء الهجرة اليهودية، و عليها أن تشجع اليهود على التجمع في الأراضي شريطة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٢

الخضوع للشرط الأول [الامتناع من مقاطعة العمل العربي، و لا يمكن التوفيق بين الواجبين المتناقضين إلاّ بسلوك جدي و فعال، و ذلك لايجاد نهضة زراعية تهدف إلى استقرار العرب في الأراضي و توسيع زراعتهم، أما في الوقت الحاضر فالبلاد لا تتسع لإنسان جديد».

إن الضجة التي أثارها ثورة البراق، وما عقبها من توصيات لجنة شو و تقرير سمبسون، وكذلك التقارير الدورية التي كان يرسلها المندوب السامي عن الأوضاع غير المستقرة في البلاد، وما تنشره الصحف في فلسطين و إنكلترا، حملت حكومة مكدونالد على إصدار الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٠، ليشرح سياستها في فلسطين. وقد انطلق الكتاب من مبدأ الالتزام بصك الانتداب، كونه يستوجب من الحكومة البريطانية الالتزام بتعهداتها إزاء الفريقين من سكان فلسطين - العرب و اليهود. و ادعت الحكومة إمكان التوفيق بين وعد بلفور، و صيانة حقوق العرب في فلسطين، بالاستناد إلى التوصيات الواردة في تقرير شو و سمبسون. إلّا إنه سرعان ما ثبت أن حكومة مكدونالد كانت مفرطة في تفاؤلها، و قدرتها على تنفيذ سياستها، فاضطرت إلى التراجع المخزي عن بيانها، و إدخال تقارير اللجان التي عينتها عالم النسيان.

و كون الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٠ جاء على خلفية الاضطرابات، فقد بدأ بتناول قضية الأمن، مشدداً أن الحكومة ستعاقب بشدة كل من يخل بالأمن، أو يحرز على أعمال العنف. و بناء عليه، فهي ستعزز قوات الأمن، و تدافع عن المستوطنين اليهود. في المقابل، و وعد البيان بمنح الفلسطينيين قسماً من الحكم الذاتي، بما يتلاءم مع صك الانتداب، ابتداءً بإحياء مشروع المجلس التشريعي لسنة ١٩٢٢ م. كما تعرض لموضوع الأراضي، فوعد بالعمل على تحسين أساليب الزراعة و الري، و حماية الفلاحين، و ضمان عدم طردهم من الأراضي التي يعملون فيها، و إقامة جمعيات تعاونية زراعية. و تناول البيان موضوع الهجرة، فرأى أنه يجب التأكد من عدد العمال العاطلين في البلاد قبل تحديد سقف الهجرة إليها. و في مجمل الأحوال، يجب النظر إلى قدرة فلسطين الاقتصادية عند الحكم على عدد المهاجرين إليها، و قال: «و كانت مهاجرة اليهود تسبب حرمان السكان العرب الحصول على الأشغال، و إذا كان انتشار البطالة بين اليهود انتشاراً يؤثر في مركز العمال على العموم تحتم على الدولة المنتدبة خفض المهاجرة أو وقفها ريثما يتسنى للعاطلين إيجاد عمل».

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٣

و على الرغم من الإحباط و خيبة الأمل اللذين ألما بالقيادة السياسية للحركة الوطنية الفلسطينية جزاء تعاملها مع الحكومة البريطانية، فقد استقبلت الكتاب الأبيض الثاني بارتياح مشوب بالحذر. فمع تشبته بتعهدات بريطانيا إزاء الحركة الصهيونية، و وعد بإنصاف العرب و حماية حقوقهم المدنية. لكن مصير البيان لم يقرره الزعماء الفلسطينيون، و لا حتى حكومة مكدونالد، كما ثبت ذلك في الواقع، و إنما الحركة الصهيونية و أنصارها في بريطانيا و الولايات المتحدة. فغداة نشر البيان، أثارت الحركة الصهيونية ضده موجة من الاحتجاج و التنديد في الأوساط الصحافية و السياسية، في بريطانيا و أميركا. و انبرى فرسان الاستعمار البريطاني، من حزبي المحافظين و الأحرار - بلديون و تشرشل و تشمبرلين و لويد جورج و سمتس - لمهاجمة الحكومة و دعوتها إلى العدول عن بيانها. و كذلك، و بتظاهرة استعراضية، قدم وايزمن، المعروف في الحركة الصهيونية بعلاقاته البريطانية، استقالته من رئاسة المنظمة و إدارة الوكالة اليهودية، و تبعه فيلكس و ابرغ و اللورد ملتست، الأمر الذي أثار ضجة كبيرة.

و تحركت القوى الصهيونية في الولايات المتحدة، فأعلنت اللجنة اليهودية الأميركية أن حكومة بريطانيا قد ارتدت عن وعد بلفور، و جندت كل قواها السياسية و المالية و الإعلامية لتفعيل الضغط على حكومة مكدونالد. و كان الأشد تأثيراً عليها الضغط الاقتصادي في فترة الركود العالمي، إذ دعت المنظمات الصهيونية و أنصارها إلى تشديد الضغط الاقتصادي على بريطانيا، بما في ذلك مقاطعة بضائعها، و التضيق عليها في تسديد فوائدها ديونها لبيوت المال الأميركية. و إزاء الضغط الاقتصادي و السياسي و الإعلامي، من الداخل و الخارج، تراجعت حكومة مكدونالد عن الكتاب الأبيض، و أرسلت إلى المنظمة الصهيونية رسالة (١٣ شباط / فبراير ١٩٣١ م)، تؤكد فيها تمسكها بالموقف البريطاني التقليدي. و قد سماها العرب «الكتاب الأسود»، إذ رضخت الحكومة البريطانية إلى الضغوط الصهيونية و الأميركية. و اعتبرت المنظمة الصهيونية تلك الرسالة تراجعاً عن الكتاب الأبيض، و إلغاء له. و لخص وايزمن في مذكراته أهمية تلك الرسالة، بما يلي: «إن رسالة مكدونالد قد غيرت سياسة الحكومة و إدارة فلسطين، الأمر الذي مكنتنا من تحقيق مكاسب

ضحمة في الأعوام اللاحقة.

و بسبب هذه الرسالة سمح للهجرة اليهودية بالوصول إلى ٤٠,٠٠٠ سنة ١٩٣٤ م و ٦٢,٠٠٠ سنة ١٩٣٥ م، و هي أرقام لم تكن نحلم بها سنة ١٩٣٠.»

لقد حققت استقالة وايزمن الاستعراضية أغراضها، و تراجعت حكومة مكدونالد،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٤

بل انقلبت على بيانها، و سلكت سبيلا مغايرا تماما. و مع ذلك، لم تحز على رضی المنظمة الصهيونية، التي رأت تيارات فيها الفرصة ملائمة لمزيد من الابتزاز. و في المؤتمر الصهيوني السابع عشر (حزيران/ يونيو ١٩٣١ م)، طرحت مسألة العلاقة بين الحركة الصهيونية و بريطانيا، بعد أن شعرت الأولى بقوتها إزاء الثانية. و رأى وايزمن أنه بعد رسالة مكدونالد، التي نسخت الكتاب الأبيض، يمكن العمل على تطوير العمل الصهيوني في إطار السياسة البريطانية، و من خلال التعاون مع حكومة الانتداب. لكن عددا كبيرا من أعضاء المؤتمر، و على رأسهم التنقيحيون، اتهم وايزمن بالمرونة، و ادعى أن سياسته هذه هي التي شجعت حكومة لندن على إصدار الكتاب الأبيض. و أصر وايزمن على استقالته، و انتخب ناحوم سو كولو ف خلفا له، و حاييم أركوزوروف رئيسا للدائرة السياسية في فلسطين، اللذان استمرا في سياسة وايزمن. أما التنقيحيون فانسحبوا من المؤتمر، و أسسوا لاحقا المنظمة الصهيونية الجديدة، الأمر الذي أدى إلى توتر العلاقة داخل المنظمة و الاستيطان، بينهم و بين الأحزاب العمالية.

و فتح انكفاء حكومة مكدونالد الباب على مصراعيه أمام الابتزاز الصهيوني، بالاستناد إلى الدعم الأميركي، و بذريعة قطع الطريق على التطرف الذي يدعو إليه التنقيحيون. و بداية استبدال المندوب السامي تشانسلر، الذي راح تحت ضغط المطالبة العربية يطرح مسألة المجلس التشريعي، و حل محله بتوجيه من وايزمن سير آرثر واكهوب (١٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣١ م). و عنه يقول وايزمن، «ربما كان أفضل مندوب سام عرفته فلسطين، و إنه كان مصداقا لظن مكدونالد، و برهانا على حسن اعتقاده به في تعطيل الضرر الناجم عن الكتاب الأبيض.» و خلال الأعوام السبعة التي أمضاها واكهوب في فلسطين، تطور الاستيطان الصهيوني كثيرا. فأزيلت القيود عن الهجرة، و كذلك عن انتقال الأراضي، و لم يحدث أي تقدم في تشكيل الحكم الذاتي التمثيلي، الذي أصبح مطلب القيادة الفلسطينية الرئيسي، و ذلك بسبب معارضة الوكالة اليهودية له. و على الرغم من التراجع الذي شهده النضال الفلسطيني، فقد راحت المنظمات الصهيونية الإرهابية تتسلح بمعرفة السلطة، بل بتعاونها، إذ وزعت كميات من السلاح على المستوطنين، بحجة الدفاع، كما ساهمت في تدريبهم على استعماله.

و في ولاية واكهوب، التي استمرت سبعة أعوام، تصاعدت الهجرة اليهودية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٥

و بلغت أرقاما لم تعرفها من قبل، إذ ارتفع عدد المهاجرين من ٧٥٠,١٠٤ حتى سنة ١٩٣٠ م، إلى ٦٤٥,٢٨٤ حتى سنة ١٩٣٦ م، أي بزيادة ١٦٤٪، و هذا بحسب الإحصاءات الرسمية، التي لا تتضمن الهجرة غير الشرعية، التي تقدر بالآلاف. و لم تحاول الحكومة وضع أية قيود على هذه الهجرة الكثيفة، التي بالتأكيد لا تتناسب مع «قدرة البلاد على الاستيعاب»، كما كانت تؤكد دائما. في المقابل، و ما عدا العودة إلى طرح موضوع المجلس التشريعي لتهدئة الخواطر العربية كلما لاحت في الأفق بوادر التملل، لم تقم حكومة الانتداب بأية بادرة تجاه الفلسطينيين، من شأنها تطمينهم إلى صيانة حقوقهم و ضمان أسباب معيشتهم في وطنهم، إزاء ازدياد عدد المستوطنين، و ارتفاع نبرة الدعوة إلى إعلان فلسطين دولة يهودية، و لو بالقوة، التي راحت تستند أكثر فأكثر إلى منظمات إرهابية مسلحة، و إلى مؤسسات استيطانية فاعلة. و في كل مرة أثير موضوع المجلس التشريعي و الحكم الذاتي، استطاعت الوكالة اليهودية إحباطه، و فرضت على حكومة الانتداب التراجع عن التعامل معه بجديّة.

غير أن الأرقام التي وصلتتها الهجرة اليهودية في الثلاثينات، لم تكن نتيجة إلغاء الكتاب الأبيض لسنة ١٩٣٠، و تراجع حكومة مكدونالد

عن موقفها من الاستنتاجات التي توصلت إليها لجان التحقيق البريطانية فحسب، بل بسبب تصاعد النازية في ألمانيا، و أثر ذلك في جهود أوروبا الوسطى أيضا. ففي سنة ١٩٣٣ م، و بينما تولى أدولف هتلر السلطة الفعلية في ألمانيا، تسلم الرئاسة في الولايات المتحدة فرانكلن روزفلت، و بيده سلطات استثنائية للخروج من الأزمة الاقتصادية، تحت شعارين:

«النظام الجديد» داخليا، و «الصفقة الجديدة» خارجيا. و اعتمد روزفلت على مجموعة من المستشارين، ضمت أبرز رموز العمل الصهيوني في الولايات المتحدة، مثل:

فيلكس فرانكفورت و القاضي سامويل رونمان و الأستاذ الفخري بيرنارد باروخ و ناثن مريغولد و غيرهم. و هكذا تشكل وضع ملائم جدا للحركة الصهيونية لزيادة معدلات الهجرة، مستغلة الإجراءات النازية إزاء اليهود في ألمانيا، و أثرها في المحيط، و خصوصا في بولونيا، و مستفيدة من التأييد الذي توليها إياه إدارة روزفلت بتوجهاتها الجديدة، و كل ذلك في وقت تراجعت به الحركة الوطنية الفلسطينية، و قصرت في أداء دور فاعل لدرء الخطر الداهم على البلد، عبر السياسة التي انتهجتها حتى الآن.

لكن الأوضاع المواتية للعمل الصهيوني أوجدت توترا داخله، بين تيار الوسط الذي رأى ضرورة انتهاء الفرصة و تصليب القاعدة الاستيطانية بالتعاون مع حكومة الانتداب، و بين التيار اليميني المتطرف، الذي طرح ضرورة انتهاء تلك الفرصة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٦

لإعلان الدولة اليهودية. و عندما اغتال المتطرفون رئيس الدائرة السياسية للوكالة اليهودية في فلسطين، الدكتور حاييم أرلوزوروف (١٦ تموز/ يوليو ١٩٣٣ م)، و وصلت الأمور بين الجناحين إلى حد الاقتتال. و في المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (١٩٣٣ م)، احتل هذا الخلاف الموضوع الرئيسي في مداوات المؤتمر. و في سنة ١٩٣٤ م، توصل بن-غوريون إلى صيغة عمل مع جابوتسكي، تقوم على هدنة سياسية، و تنظيم علاقات عمل بين الهستدروت و نقابة العمال القومية. إلا إن هذه الاتفاقية رفضت في الاستفتاء الذي أجرته الهستدروت سنة ١٩٣٥ م، و بقي الشقاق بين التيارين قائما، و شكل التنقيحون منظمهم الخاصة. و في المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (١٩٣٥ م) الذي عقد بغياب التنقيحين، أعيد انتخاب وايزمن رئيسا للمنظمة الصهيونية، كما انتخب موشيه شاريت (شروتوك) رئيسا للدائرة السياسية في الوكالة اليهودية، و كان يشغل ذلك المنصب منذ اغتيال أرلوزوروف، فاستمر فيه.

و تصاعدت الحملات المتبادلة بين ألمانيا النازية و المنظمة الصهيونية، و تحركت الأخيرة بالدعوة إلى مقاطعة البضائع الألمانية، و خصوصا في السوق الأميركية، و عبر المؤسسات المالية و التجارية اليهودية. و في حملتها هذه، سعت المنظمة للحصول على دعم الولايات المتحدة و بريطانيا و عصبة الأمم لإزالة القيود المفروضة على هجرة اليهود إلى فلسطين. و في نهاية سنة ١٩٣٣ م، أعلنت الوكالة اليهودية أنها جمعت خمسة و عشرين مليون دولار لدعم الهجرة و الاستيطان في فلسطين، و خصوصا من بولونيا و ألمانيا، في حين عقد بعض أطراف المنظمة الصهيونية صفقة مع الحكومة الألمانية، تقضى بالسماح للراغبين من اليهود بالهجرة، على أن تعوضهم الحكومة عن أملاكهم ببضائع ألمانية الصنع. في المقابل، و تحت ضغط هذه الحملة الإعلامية و الاقتصادية، و بذريعة الخطر الداهم على يهود أوروبا الوسطى، رفعت الحكومة البريطانية سقف تصاريح الهجرة السنوية ثلاثة أضعاف، و ظلت تزيد حتى وصلت سنة ١٩٣٥ م إلى ستين ألفا. و كان طبيعيا أن يثير كل هذا ردّة فعل في أوساط الشعب الفلسطيني، فتطورت النشاطات المناهضة للهجرة اليهودية و إغراق البلد بالمستوطنين و السيطرة على اقتصادها و الإمساك بزمام السلطة فيها، الأمر الذي أدى في نهاية المطاف إلى اندلاع «الثورة العربية الكبرى».

سابعاً: الثورة العربية الكبرى

إشارة

دشن ارتداد حكومة العمال البريطانية (شباط / فبراير ١٩٣١ م) مرحلة جديدة في الصراع بشأن فلسطين. ففي لندن هزم أنصار الكتاب الأبيض أمام التحالف المؤيد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٧

للصهيونية، بدعم أميركي قوى. و كأنما للتكفير عن ذنب اقترفته، راحت حكومة مكدونالد تغالى في استرضاء الصهيونية، و تغدق عليها بالتسهيلات للوصول إلى «الوطن القومي اليهودي». أما على صعيد العمل الصهيوني، فقد تغلب تيار الوسط، الذى انتهج سياسة «خذ و طالب» على التيار المتطرف الذى دعا إلى «استثمار الفوز» بالإسراع فى إعلان الدولة اليهودية، خلافا للإرادة البريطانية. فى المقابل، فشلت سياسة القيادات الفلسطينية التقليدية، ففقدت الكثير من رصيدها الشعبى، من دون قيام البديل القادر على إدارة الصراع بصورة أكثر نجاعة. و بينما استطاعت المؤسسة الصهيونية تجاوز الشقاق داخلها، و متابعة عملها بنشاط، فإن قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية فى المقابل، بتركيها و نمط عملها، اللذين يخلوان من أية علاقات ديمقراطية، أصيبت بالشلل، و بالتالى تم تجاوزها تحت ضغط التطورات على الساحة.

ففى ولاية واكهوب، التى تواكبت مع صعود النازية فى ألمانيا، تصاعدت معدلات الهجرة اليهودية بوتيرة متسارعة. فمن سنة ١٩٣١ م إلى ٩٥٥٣ سنة ١٩٣٢ م إلى ٣٧،٠٠٠ سنة ١٩٣٣ م إلى ٤٣،٠٠٠ سنة ١٩٣٤ م و إلى ٦٢،٠٠٠ سنة ١٩٣٥ م، عدا الهجرة غير الشرعية. و كذلك، انتقل أكثر من ٣٣٤،٠٠٠ دونم من الأراضى إلى المؤسسات الاستيطانية، و أرغم الفلاحون على الجلاء عنها بالقوة، كما حدث مع عرب وادى الحوارث (الزبيدات) فى السهل الساحلى، و أهالى العفولة فى مرج ابن عامر، و غيرهم. فى المقابل، و نتيجة الإحباط الذى أصاب قيادة الحركة الوطنية الفلسطينية، جراء تجاهل السلطة لمطالبها، و ذلك على الرغم من التراجع الذى جرى فيها، فقد راحت فكرة العدول عن سياسة الاحتجاج على إجراءات حكومة الانتداب و التفاوض معها تتعزز، و تتعالى الدعوة إلى توجيه النضال ضد بريطانيا، كما ضد الصهيونية، كونهما تشكلاان جبهة واحدة. و من خلال تجربة ثلاثة عشر عاما، تعمق الوعى لدى جماهير الشعب الفلسطينى أن «الوطن القومى اليهودى» هو وليد السياسة البريطانية، و أداة من أدوات الاستعمارية، كما تركز الاقتناع باستحالة استتباب الأمن فى البلاد، ما دام فيها شعبان متنافران، أحدهما يدافع عن بلده، و الآخر يريد اغتصابها.

و كان طبيعيا، على أرضية الواقع الفلسطينى، أن يحدث هذا التحول فرزا داخل الحركة الوطنية متأثرا بالبنية الاجتماعية للشعب الفلسطينى، و بالتالى بمقدار استعداد الفئات المتعددة داخله لتحمل تبعات النضال المتوجب على احتدام التناقض المتولد عن الجمع بين الانتداب و الاستيطان و أهالى البلد الأصليين. و إذ كانت القوى

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٨

السياسية الفلسطينية متفقهة إلى حد كبير بشأن الموقف من الصهيونية، فإنها لم تكن كذلك بالنسبة إلى بريطانيا. و لعل فى الرأين اللاحقين ما يعبر عن هذا الافتراق فى وجهات النظر. فقد كتب صبحى الخضرا- من حزب الاستقلال العربى، الذى راح يحرض ضد الانتداب (جريدة «الجامعة العربية» ٣ آب / أغسطس ١٩٣٠ م)- مقالا بعنوان «بريطانيا أصل الداء و أساس كل بلاء»، جاء فيه: «بريطانيا وحدها المسؤولة عن جميع ما أصابنا من النكبات. و ما الصهيونية إلا واحدة منها، بل إن شرّ المصائب و داهية النوائب هى هذه الحكومة الإنكليزية نفسها. إنها اعتداء صارخ على أقدس حقوقنا، إنها ليست انتدابا و لا حماية، بل هى حكم إنكليزى استعمارى مباشر فوق العرب و المسلمين فى هذه البلاد العربية المقدسة.»

و اندفاع الاستقلاليين من القوميين العرب، و المتحمسين من جيل الشباب فى الحركة الوطنية، المتأثرين بالمزاج الشعبى الساخط، و بالتالى الداعين إلى مقاومة الانتداب باعتباره احتلالا عسكريا مباشرا، و مدخلا لإقامة الدولة اليهودية، سبب إحراجا للجنة التنفيذية التى لم تكن متحمسة لفتح الصراع مع بريطانيا. و قد عبّر جمال الحسينى، المقرب من الحاج أمين و موسى كاظم الحسينى، عن موقف تلك اللجنة (٢ آذار / مارس ١٩٣١ م) بقوله: «إن القضية الفلسطينية ذات صبغة تختلف عن بقية القضايا الوطنية العربية. إذ لدينا فى

فلسطين خصمان: الأول الخصم الصهيوني، وهو الذي يسعى سعياً حثيثاً لاستيطان فلسطين وإخراج العرب منها، وهذا خطر مفاجيء لا يمكن الصبر عليه، وهو خاص بفلسطين.. أمّا الخطر الاستعماري وهو الثاني فإن المستعمرين يقولون بموجب صك الانتداب المعمول به والذي رفضته الأمة، إنهم في هذه البلاد وقت محدود، فلذلك اتجهت الأمة للخطر المفاجيء، وهو الخطر الأكبر، وأجلت السعي لدفع الخطر الآخر بصورة جديّة... إن جهود الأمة بعد القضاء على الصهيونية ستصرف إلى إنهاء الانتداب وضم فلسطين في حلف عربي وافقت عليه جميع الأمم العربية.»

فاللجنة التنفيذية المنبثقة من المؤتمر السابع سنة ١٩٢٨ م، ظلت على العموم متمسكة بقراراته، وبناء عليه، تابعت عملها في محاولة إقناع حكومة الانتداب بالعدول عن سياستها المؤيدة للمشروع الصهيوني، والمبادرة إلى إقامة حكومة وطنية برلمانية، تنفيذاً للحكم الذاتي الوارد في صك الانتداب. وناشدة اللجنة حكومة الانتداب (٣ كانون الثاني / يناير ١٩٢٩ م) «اتباع سياسة رشيدة تخول العرب حقهم في إدارة بلادهم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٤٩

على يد حكومة نيابية تكون في صالح جميع العناصر في فلسطين.» كما اقترحت على المندوب السامي «أن تبدأ المفاوضات معه مباشرة... لوضع الأسس التي تقوم عليها تلك الحكومة التمثيلية قياماً بما عهد إلى الدولة المنتدبة من الواجبات.» وعادت اللجنة التنفيذية، بعد ثورة البراق، في كانون الأول / ديسمبر ١٩٣٠، وكررت هذا الطلب في بيانها السياسي، حيث ورد «إن صك الانتداب يحتم على الحكومة الإنكليزية تأسيس حكومة وطنية في فلسطين حالاً.» وبهذا لم تغير اللجنة التنفيذية نهجها نتيجة ثورة البراق، بل رأت فيها حافزاً على دفع مطالبها بالحكم الذاتي، استناداً إلى حالة الغليان الشعبي، وما قد يحدثه ذلك من أثر على السياسة البريطانية. و تابعت اللجنة التنفيذية عملها، محاولةً توظيف أحداث سنة ١٩٢٩ لتدعيم مطالبها بالحقوق العربية والإسلامية في فلسطين، و انتهجت سياسة «اللاتعاون» مع حكومة الانتداب، ولكن من دون الدعوة إلى فتح الصراع معها. في المقابل، وسعت اتصالاتها العربية والإسلامية، لحشد الدعم للقضية الفلسطينية، بعد أن فقدت الثقة ببريطانيا. وفضلاً عن الدعوة إلى مقاطعة المنتوجات اليهودية، و تشجيع الصناعات العربية، فقد عقد في ١٨ أيلول / سبتمبر ١٩٣١ م مؤتمران لتنشيط العمل الفلسطيني.

الأول في يافا، و ضم الكثيرين من الصحافيين الذين استنكروا تعطيل الصحف العربية، بتهمة التحريض على الإضراب احتجاجاً على تسليح الحكومة للمستعمرات اليهودية. والثاني في نابلس، و حضره مناضلون من جميع أنحاء فلسطين، للاحتجاج على تسليح المستوطنين، و على قمع التظاهرات العربية، التي انطلقت في نابلس (آب / أغسطس ١٩٣١ م) احتجاجاً على ذلك التسليح، إذ وقع صدام مع الشرطة، و أصيب عدد من المتظاهرين و ضابط بوليس، بجروح. و في المؤتمر جرى توجيه النقد إلى النهج الذي تتبعه القيادة الوطنية، و تقرر التركيز في العمل على «الاستقلال ضمن الوحدة العربية»، و توسيع الدعاية في العالمين، العربي والإسلامي، و الدعوة إلى عقد مؤتمر للشباب الفلسطيني، ليقوم بدوره دعماً للنضال الوطني.

و في ٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩٣١ م عقد المؤتمر الإسلامي الذي حضره ممثلون عن ٢٢ بلداً، و ترأسه الحاج أمين الحسيني، الذي راح يتبوأ الموقع الأول في الحركة الوطنية الفلسطينية، و نجم عن ذلك اعتراض الزعماء التقليديين و تنافسهم.

و اتخذ المؤتمر قرارات متعددة بشأن الأماكن المقدسة و فلسطين و الانتداب و المشروع الصهيوني.. إلخ، إلّا إنه لم يتمخض عن نتائج ملموسة. و على هامش المؤتمر الإسلامي، عقد بعض من حضره من قدامى القوميين العرب في جمعيتي العربية الفتاة و العهد، اجتماعاً في منزل عوني عبد الهادي، و بحثوا قضايا متعددة، و صاغوا ميثاقاً

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٠

للحركة القومية العربية، بعد انقطاع دام عشرة أعوام. و قد جاء في البيان الصادر عن الاجتماع بتاريخ ١٣ كانون الأول / ديسمبر ١٩٣١ م التأكيد على وحدة البلاد العربية و رفض التجزئة و العمل من أجل الاستقلال و رفض الاستعمار بجميع صورته. و قرر المجتمعون عقد

مؤتمر موسع في بغداد، برعاية الملك فيصل، إلا إن ذلك لم يتحقق بسبب اعتراض السفير البريطاني هناك. و في ٤ كانون الثاني / يناير ١٩٣٢ م، عقد مؤتمر الشباب العربي برئاسة راسم الخالدي، تحت شعار توحيد صفوف الشباب لمكافحة الصهيونية والانتداب. و تبنى المؤتمر شعارات القوميين العرب في «ميثاق الشباب الوطني» الذي وضعه، مشددا على التصدي لبيع الأراضي للمستوطنين. و في البداية ظل مؤتمر الشباب العربي تنظيما رديفا للجنة التنفيذية، لكنه تحول إلى حزب برئاسة يعقوب الغصين، بعد موت موسى كاظم الحسيني، و تلاشى اللجنة التنفيذية (١٩٣٤ م).

و أدى مؤتمر الشباب دورا نشيطا في التظاهرات العنيفة التي وقعت سنة ١٩٣٣ م. فبعد صلاة الجمعة في ١٣ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٣ م، سارت من الحرم الشريف تظاهرة ضخمة، على رأسها موسى كاظم الحسيني و أعضاء اللجنة التنفيذية، من دون استئذان السلطة، فاصطدمت بقوى الأمن، و جرح عدد من الطرفين. و في ٢٧ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٣ م قامت تظاهرة مثيلة في يافا، بعد صلاة الجمعة، شاركت فيها وفود من شرق الأردن و سورية. و وقعت خلالها صدامات عنيفة مع قوات الأمن البريطانية، و سقط أكثر من ٣٠ شهيدا و ٢٠٠ جريح، بمن فيهم موسى كاظم، و اعتقل الكثيرون من رجال الحركة الوطنية، فامتدت الاضطرابات إلى سائر أنحاء البلاد، و استمرت أسبوعا. و عادت اللجنة التنفيذية و قررت القيام بتظاهرة أخرى بعد شهرين، في يوم عيد الفطر.

و نتيجة احتدام التناقض المتولد عن حركة المشروع الصهيوني، بتضافر جهود الاستيطان و الانتداب في بداية الثلاثينات، من جهة، و تراجع فاعلية اللجنة التنفيذية العربية، بحيث لم تعد قادرة على مواكبة عملية الصراع المتطورة، و بالتالي تقصيرها في التعبير الحقيقي عن الروح الكفاحية العالية للشعب الفلسطيني، من جهة أخرى، كان طبيعيا أن تبرز تشكيلات سياسية-نضالية جديدة من إفرازات الواقع المتشاكل.

لقد هبط شكل من النضال، قاده شريحه معينه من الزعامة الفلسطينية التقليدية، و استنفدت طاقتها، و أخذ أداؤها يخبو، بينما أسباب الصراع لا تزال قائمة، بل تتفاقم، مولده درجة أعلى من احتدام التناقض، الأمر الذي يستلزم مستوى أعلى من حدة الصراع. و في الواقع القائم، تميز الوضع الفلسطيني بحالة من الانفصام بين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥١

الذاتي و الموضوعي. فالتطورات الجارية تستلزم فعلا نضاليا مضادا من جانب الشعب الفلسطيني الذي لم تكن أوضاعه العامة تؤهله للقيام بذلك، ليس لغياب الطاقة، و إنما لتبديدها في غير سبيلها الصحيح، و عدم القدرة على حشد الجهد المبذول، نظرا إلى الصراعات الداخلية. و في غياب قدرة العدو على الحسم السريع، فقد استمر الصراع، و لمواكبته، الأمر الذي يعتمد إلى حد بعيد على الوضع الذاتي، افرقت سبل النضال الفلسطيني بين التشدد العفوي و الاعتدال الطوباوي.

و على هذه الأرضية من تفاهم الأوضاع في فلسطين، و حالة الانفصام على صعيد العمل الوطني بين الذاتي و الموضوعي، تشكلت عدة أحزاب في بداية الثلاثينات.

و على العموم، كثيرا ما كان التباين البرنامجي لهذه التشكيلات الحزبية، غطاء للصراع القائم بين مؤسسيها بشأن النفوذ و الزعامة. و باستثناء مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني و حزب الاستقلال، اللذين تميزا في الطرح السياسي ذي البعد القومي، فقد غلبت على الأحزاب الأخرى المسحة التقليدية، و ما تنطوي عليه من انحيازات عائلية و عشائرية و مناطقيه .. إلخ. فلم تكن الخلافات البرنامجية في الواقع المتفجر تبرر تشكيل أحزاب سياسية منفصلة، لو لا-الخلافات الشخصية، و التنافس بين الزعماء بشأن النفوذ و مراكز القوة. و لأنها كانت كذلك، فكثيرا ما أدت إلى استياء في أوساط الجماهير و الرأي العام، و لم تنجح في استقطاب قاعدة شعبية واسعة، كما لم تتمتع على العموم بتأييد واسع. و قد أدت المعارضة لشخصية الحاج أمين الحسيني و زعامته التي راحت تتعزز بعد المؤتمر الإسلامي، دورا في حفز المنافسين له على تشكيل أحزاب معارضة لهيئته على الحركة الوطنية. و من جانبه، عمد الحاج أمين إلى تشكيل حزب خاص به، بينما تفرق معارضوه في أحزاب متعددة، الأمر الذي أضعف فاعليتهم في التصدي له. و لأن المعارضة لم

تكن ديمقراطية، فقد غابت هذه عن العلاقات الداخلية في العمل الوطني الفلسطيني بمجمله.

و تشكل أولا (٤ آب/ أغسطس ١٩٣٢ م) حزب الاستقلال على أيدي مجموعة من القوميين العرب، الذين نشطوا في الجمعيات المناهضة للحكم العثماني، و نادوا بالاستقلال، الذي منه اشتق اسم الحزب. و تألفت الهيئة المركزية من عوني عبد الهادي (سكرتيرا عاما) و محمد عزة دروزة و معين الماضي و صبحي الخضرا و رشيد الحاج إبراهيم و الدكتور سليم سلامة و عجاج نويهض و أكرم زعيتر و فهمي العبوشي، و انضم إليهم لاحقا حمدي الحسيني و حربي الأيوبي. و كان الحزب نخويا، و مؤسسوه من أبناء العائلات الوجيهة، و من قدامى القوميين العرب، و استمد دعمه من جيل الشباب المثقف من أبناء تلك العائلات، و من المتعلمين الذين حققوا نجاحا مهنيا عبر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٢

تحصيلهم العلمي في البلاد و الخارج، بينما جذورهم في الطبقات الوسطى من المجتمع الفلسطيني. كما جذبت عقيدة الحزب العلمانية الوطنيين المسيحيين.

و لكونه كذلك، أولى الحزب اهتماما بالقضايا الفكرية و السياسية، بغض النظر عن شعبية مواقفه، و اتساع قواعده الحزبية، و بالتالي فاعليته السياسية، و واقعية طروحاته جزاء التطورات على الساحة العربية.

و بمعزل عن تأثير حزب الاستقلال في العمل الوطني الفلسطيني، فإن وثائقه المهمة تقدم توصيفا عميقا لأزمة هذا العمل في النضال ضد المشروع الصهيوني و الانتداب. فبيان تأسيسه يبرر تشكيله بحالة الترهل في الحركة الوطنية الفلسطينية، و الصراعات داخلها، بعيدا عن جوهر القضايا المطروحة عليها. و لذلك فهو يرمى إلى بناء حزب سياسي، يناضل ضد الاستعمار بلا مداورة، و يعمل على نيل حقوق الأمة بإخلاص و نزاهة. و كذلك، بصرف النظر عن الشرح بين الذاتي و الموضوعي في الواقع المحيط بتشكيل الحزب، و عن حالة الانفصام بين مضمونه السياسي النظري و شكله التنظيمي، الذي يفترض به أن يتحمل وزر برنامج النضالي، فقد طرح الحزب قضايا مهمة جدا، و ذلك على الصعيدين: القومي العربي و القطري الفلسطيني. فعبيرا طرح استقلال الأمة و وحدتها، مؤكدا على عروبة فلسطين و انتماؤها القومي.

و فلسطينيا، دعا إلى التضامن مع الأمة، و العمل من أجل الاستقلال و إنهاء الانتداب و رفض وعد بلفور و مقاومة الصهيونية، و إنهاء البلاد سياسيا و اقتصاديا و اجتماعيا. و يتضح من سيرة الحزب القصيرة، أن مبادئه لم تترجم في الواقع إلى برامج عمل يومية، و لم تستند إلى تنظيم قادر على نقلها من حيز النظرية إلى التطبيق العملي، و ذلك لأسباب ذاتية و موضوعية، إذ أصبحت الحركة الفلسطينية مستغرقة بالعمل القطري، و كذلك الحال في الأقطار العربية الأخرى، التي أصبحت مقسمة تحت الحكم الاستعماري. و بناء عليه، وجد الحزب نفسه في نهاية سنة ١٩٣٣ م غير قادر على الاستمرار، فاضمحل بالتدريج، مع أن الأفكار التي طرحها لم تذهب أدراج الرياح تماما.

و في ٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٤ م، شكّل راجب النشاشيبي حزب الدفاع الوطني، من الكتلة التي التفت حوله منذ بداية الانتداب، عندما عينه المندوب السامي رئيسا لبلدية القدس، بديلا من موسى كاظم الحسيني، الذي أقيّل من منصبه لنشاطه السياسي. و كان قصد سامويل من تعيين النشاشيبي، أن يشكّل نداء منافسا للحاج أمين الحسيني، الذي عين بدوره مفتيا للقدس، و رئيسا للمجلس الإسلامي الأعلى. و بعد وفاة موسى كاظم (٢٦ آذار/ مارس ١٩٣٤ م) متأثرا بالجروح التي أصيب بها في أثناء

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٣

تظاهرة يافا (١٩٣٣ م) و بالتالي انفرط عقد اللجنة التنفيذية، سارع النشاشيبي إلى تشكيل حزبه المعارض للحسينيين، و خصوصا أنه خسر انتخابات رئاسة بلدية القدس لمصلحه حسين فخري الخالدي، مرشح القائمة الوطنية. و يبرز حزب الدفاع نقيضا لحزب الاستقلال على الصعيد الفكري، و منافسا للحزب العربي بزعامه الحاج أمين.

و انتسب إليه المعارضون للحسينيين، و جلهم من رؤساء البلديات، الذين بحكم مواقعهم كانت لهم صلات مع السلطة. و كانت له فروع في أكثر مدن فلسطين، قوية بأشخاصها و ليس بأعدادها. و في برنامجه المعلن، لم يخرج الحزب عن الإجماع الوطني، لكنه في مسار الصراع، اتخذ مواقف مخالفة لذلك الإجماع، وصلت أحيانا إلى حد المجابهة العدائية للحركة الوطنية بزعامة الحاج أمين، و إلى التعاون مع الأمير عبد الله في شرق الأردن. و دعا الحزب إلى الاستقلال بسيادة عربية، و عدم الاعتراف بوعد بلفور، و العمل في جميع المجالات لتحقيق ذلك، و تأليف حكومة وطنية، و السعي لتطوير البلاد اقتصاديا و علميا و اجتماعيا و زراعيا. و تألفت هيئته المركزية من:

راغب النشاشيبي و يعقوب فراج و الحاج نمر النابلسي و مغنم مغنم و حسن صدقي الدجاني و عبد الرحمن التاجي و سليمان طوقان و عادل الشؤا و عيسى داود العيسى.

لكن أكبر الأحزاب التي تشكلت في حينه و أهمها، كان الحزب العربي الفلسطيني، الذي شكله أنصار الحاج أمين الحسيني (٢٥ آذار/ مارس ١٩٣٥ م).

و بنى الحزب دستوره على الميثاق الوطني الفلسطيني. و كان الحزب، بصورة أو بأخرى، استمرارا للجنة التنفيذية، و إحياء لعملها، بزعامة جديدة. فطالب باستقلال فلسطين و رفع الانتداب، كما دعا إلى صيانة عروبة فلسطين، و مقاومة «الوطن القومي اليهودي»، و شدد على ارتباط فلسطين بالأقطار العربية المجاورة.

و بينما كانت قيادة الحزب الحقيقية في يد الحاج أمين، فقد انتخب في مؤتمره الأول جمال الحسيني، اليد اليمنى للحاج أمين، رئيسا و ألفرد روك نائبا للرئيس و إميل الغوري (أمينا عاما). و من أعضاء مكتب الحزب: خالد الفرخ و كامل الدجاني و وجيه البشتاوي و فريد العنتاوي و إبراهيم درويش و الشيخ محمد علي الجعبري و يوسف ضياء الدجاني. كما تمّ انتخاب لجنة تنفيذية موسعة تمثل جميع أفضية فلسطين و عشائرها. و في الواقع، تولى هذا الحزب قيادة العمل الوطني، و صار الحاج أمين القائد الأول لهذا العمل. و برز ذلك في تشكيل اللجنة العربية العليا لفلسطين (٢٥ نيسان/ أبريل ١٩٣٦ م)، التي تولى المفتي رئاستها، و ضمت جمال الحسيني و ألفرد روك. و أنشأ الحزب فروعاً له في أنحاء البلاد، و أقام دوائر متعددة لتغطية مهماته في قيادة الحركة الوطنية. و أسس «منظمة الفتوة» للشباب، التي أصبحت نواة جيش

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٤

الجهاد المقدس، بقيادة عبد القادر الحسيني، ابن موسى كاظم. و عندما حلت الحكومة المجلس الإسلامي الأعلى، و أقالت المفتي، كما حلت اللجنة العربية العليا، و غيرها من اللجان، و حاولت إلقاء القبض على القيادات الوطنية (١٩٣٧ م)، واصلت اللجنة قيادة الحركة الوطنية من بيروت، ثم من بغداد، و لاحقا من أوروبا التي تمكن المفتي و بعض زملائه من الفرار إليها، و أخيرا من القاهرة. كما تشكل في الفترة نفسها حزبان آخران: (١) حزب الإصلاح (١٨ حزيران/ يونيو ١٩٣٥ م)، أسسه الدكتور حسين فخري الخالدي و إسحاق البديري و محمود أبو خضرا و شبلي الجمل و فهمي الحسيني و الدكتور سعد الله قسيس و الحاج نمر حماد و المحامي جورج صلاح و حسني خليفة و عيسى البندك و سعد الدين الخليلي. و قد وصفه البعض أنه حزب الأعيان، و سيطرت عليه المنافسة مع راغب النشاشيبي، و بالتالي القرب من الحزب العربي. و أسوء بالآخرين، دعا إلى استقلال فلسطين، و اعتبار قضيتها جزءا من القضية العربية الكبرى، و مقاومة الاستيطان الصهيوني، و تنمية العلاقات مع الأقطار العربية. و عندما تشكلت اللجنة العربية العليا، كان الخالدي عضوا فيها، من موقعه كرئيس حزب الإصلاح؛ (٢) حزب الكتلة الوطنية (٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٥ م)، أسسه المحامي عبد اللطيف صلاح (نابلس). و ضم مكتبه عبد الله مخلص و عبد الله متری و حمدي النابلسي و شفيق عسل. و لم يتمتع الحزب بقاعدة واسعة، كما لم يتميز بطرحه السياسي، أو نشاطه النضالي. و مع أنه وافق على مشروع المجلس التشريعي، خلافا للإجماع الوطني، فإنه عاد و انضم إلى اللجنة العربية العليا، ممثلا برئيسه.

لكن انتظام القيادات السياسية في أحزاب، لم يحسن أداءها النضالي كثيرا، إذ ظلت الانقسامات مستشرية بينها، الأمر الذي انعكس في التباين في الموقف من الانتداب. وبينما ظل الحزب العربي أكثر تصلبا إزاء التعاون مع السلطة، فإن مواقف المعارضة، بقيادة راغب النشاشيبي، تميزت بالمرونة في هذه المسألة. واستغلت السلطة الصراعات بين الأشخاص والأحزاب. وبينما الأعيان في تناحر بينهم بشأن النفوذ والسلطة، كانت البلاد تغلغى نعمة على الأوضاع السياسية والاقتصادية الصعبة، التي تفاقمت في منتصف الثلاثينات. فنتيجة تدفق الهجرة اليهودية، وتطور المؤسسات الصهيونية، بما فيها العسكرية، وبالتالي هيمنتها على اقتصاد البلد، بما ينطوي عليه من حصار للاقتصاد العربي، ومقاطعة المنتجات واليد العاملة العربية، وطردهم الفلاحين من الأراضي التي تملكها الحركة الصهيونية، فقد زاد الضيق الاقتصادي على جماهير الشعب الفلسطيني، وبالتالي التملل السياسي والاجتماعي.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٥

في المقابل، فهذه التطورات زادت في الفوارق الطبقيّة بين السكان العرب، إذ أصبح الأثرياء أكثر ثراء، والفقراء فقرا. وفي هذه الأوضاع نما وعى شعبي نضالي، يتسم بدرجة عالية من العفوية والتلقائية، جرى التعبير عنه باستعداد قطاعات واسعة من جماهير الشعب الفلسطيني، ومعها شريحة من المثقفين، للعمل خارج حسابات القيادات التقليدية، بل ضد إرادتها.

(أ) ثورة القسام

في هذه الأجواء المشحونة بتفاقم التناقض بين الاستيطان والانتداب، من جهة، والحركة الوطنية الفلسطينية، من جهة أخرى، وتعمق أزمة العمل السياسي الفلسطيني واختلال أوجه نشاطه، نشبت ثورة الشيخ عز الدين القسام، مدشنة مرحلة جديدة من النضال الوطني الفلسطيني. فعلى خلفيته الإحباط الذي أصاب الحركة الوطنية، من نهج قياداتها التقليدية - المفاوضات والتمرد السلبي والتظاهر والاحتجاج.. إلخ - أسس الشيخ القسام حركته على الكفاح المسلح، سبيلا لمقاومة الاستعمار والصهيونية. واتباعه أسلوب الهجوم المسلح التكتيكي، من موقع الدفاع الاستراتيجي، دشّن القسام الكفاح المسلح في الحركة الوطنية الفلسطينية، مجسدا بذلك عروبة النضال ضد الصهيونية والاستعمار، كونه من أبناء شمال سورية. وكان طبيعيا في الأوضاع القائمة آنذاك، أن يعتمد القسام أسلوب التنظيم السري الخلوي، وأن يحيط عمله بستار كثيف من الكتمان، ويختار الأعضاء بدرجة عالية من الحذر. ومع ذلك، وفي غياب الشروط اللازمة لنجاح الكفاح المسلح، ذاتيا وموضوعيا، وتحت ضغط التطورات، عمد الشيخ إلى البدء بعمله المسلح، كوسيلة لاستنهاض الجماهير، فأصبحت حركته بنكسة في مستهل نشاطه، واستشهد هو نفسه، وتبعثت مجموعاته، لتعود وتظهر في «الثورة العربية الكبرى» (١٩٣٦ م).

ولد القسام سنة ١٨٧١ م في مدينة جبله السورية، ودرس في الأزهر، حيث تلقى العلم عن الإمام الشيخ محمد عبده، واشتغل بعد تخرجه بالتدريس في بلده.

وبعد الانتداب الفرنسي على سورية، انضم إلى عصبة عمر البيطار للجهاد ضد المستعمرين. ثم شارك في ثورة الشيخ صالح العلي (١٩٢٠ - ١٩٢١ م) ضد الفرنسيين. وبعد انتهاء الثورة، لجأ إلى حيفا (٥ شباط / فبراير ١٩٢٢ م)، هربا من السلطات الفرنسية التي أصدرت حكم الإعدام بحقه. وفي حيفا، اشتغل بالتدريس في جامع النصر والمدرسة الإسلامية، التي كانت معقلا للحركة الوطنية الفلسطينية. ثم عينه المجلس الإسلامي الأعلى خطيبا لجامع الاستقلال في حيفا، وأذونا شرعيا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٦

فيها. ومن خلال عمله هذا، أتاحت للقسام فرصة كبيرة للاتصال بقطاعات واسعة من السكان، في مدينة كانت تتطور بسرعة، وتجذب أعدادا كبيرة من الريف، وخصوصا من الفلاحين الذين أجلوا عن أراضيهم، وذهبوا إلى المدينة بحثا عن العمل المأجور. وكانت حيفا في تلك الفترة قد أصبحت ميناء فلسطين الأول، بما يفتح ذلك من مجالات أمام الأيدي العاملة الرخيصة.

و حركة القسام، شكلا و مضمونا، لا تنسجم مع نمط عمل الأحزاب السياسية التي تشكلت على الساحة الفلسطينية في تلك الفترة. و إذ لم يسارع القسام إلى فتح الصراع مع تلك الأحزاب، فإنه بالتأكيد لم ينسق عمله معها. فالاعداد للكفاح المسلح، عبر تنظيم خلايا سرية، و في قاعدة شعبية يسودها التملل، كالتى نشط القسام في أوساطها، لا يترك مجالاً للتعاون مع الهيئات الحزبية القائمة، بما يسود العلاقات بينها من تناحر، و ما يعترى تركيبها من هشاشة. و من ناحية ثانية، و بغض النظر عن الإجراءات التنظيمية الصارمة التى اتخذها القسام فى بناء حركته، فإن حيفا، فى الأوضاع القائمة آنذاك، لم تكن قاعدة آمنة لإدارة مثل هذا النمط النضالى، الذى يرفع حدة الصراع إلى أعلى مستوياتها. و سرعان ما استخلص القسام هذه النتيجة، بعد العمليات الأولى التى قامت بها مجموعاته، و التى كانت بمثابة «إعلام مسلح»، هدفه استنهاض الحالة الجماهيرية. و اضطر القسام إلى الانتقال إلى الريف، إذ وجد نفسه فى مجابهة مفتوحة مع قوات السلطة، قبل استعداده لمثلها، فانتكست الحركة.

و يبدو أن القسام اضطر إلى البدء بالعمليات العسكرية تحت ضغط التطورات على الساحة الفلسطينية، و على جانبى الصراع، و من أجل استنهاض الحالة الجماهيرية للثورة. و كذلك، فإن انتقاله إلى الريف، كان تحت ضغط مطاردة قوات السلطة لتنظيمه، و اعتقال عدد من قادة المجموعات و محاكمتهم. فقد قبض على صالح أحمد طه و مصطفى على أحمد و خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير) و أحمد الغلايينى و أحمد التوبه. و حكم على مصطفى الأحمد بالإعدام، و على الغلايينى بالسجن ٢٥ عاما. و برىء الآخرون لعدم وجود أدلة ضدهم.

و استشهد القسام فى معركة غير متكافئة، لا عددا و لا عدة، مع القوات البريطانية فى أحراج يعبد (قرب جنين) بتاريخ ٢٠ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٣٥ م. فبعد سلسلة من العمليات العصابية، خرج الشيخ بنفسه لقيادة النضال الميدانى، فحاصرت القوات البريطانية مع أصحابه، الذين استبسوا فى القتال، و استشهد القسام مع عدد من رجاله، منهم: الشيخ يوسف عبد الله و أحمد الشيخ سعيد و سعيد عطية أحمد و أحمد مصلح الحسين كما جرح عدد آخر. و نقل جثمان الشيخ إلى حيفا، و شيع إلى مثواه

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٥٧

الأخير فى مقبرة «بلد الشيخ»، فى موكب مهيب و ضخم، حضره الكثيرون من زعماء البلاد و جماهير غفيرة. و بعد استشهاد القسام، تولى خليل محمد عيسى قيادة الحركة، و بعد فترة من إعادة التنظيم، عاودت نشاطها فى جبال شمال فلسطين، و قامت بهجمات متعددة على المستعمرات اليهودية و مراكز الشرطة و الجيش. و ظل رجالها معتصمين فى الجبال مدة ستة أشهر، إلى أن نشبت «الثورة الكبرى» (أيار / مايو ١٩٣٦ م)، فانضم القساميون إليها، و أبلوا فيها بلاء حسنا. و من أبرزهم: خليل محمد عيسى (أبو إبراهيم الكبير) و محمد صالح الحمد و الشيخ عطية أحمد عوض و يوسف سعيد أبو درة و الشيخ فرحان السعدى و توفيق إبراهيم (أبو إبراهيم الصغير) و غيرهم.

و أهمية حركة القسام ليست فى إنجازاتها المباشرة، و إنما فى دلالاتها و آثارها على مسار النضال الفلسطينى اللاحق. ففى عملية المواجهة الشاملة، التى احتدم التناقض فيها، بين المشروع الصهيونى، المدعوم من حكومة الانتداب، و بين الحركة الوطنية الفلسطينية، كانت الأخيرة تفتقد إلى عنصر أساسى يمتلكه الأول، و هو القوة العسكرية. ففضلا عن التشويه الفكرى الذى نشره بشأن طبيعته و التزييف الإعلامى بشأن أهدافه و التطويق السياسى الذى مارسه لإخضاع الحركة الوطنية الفلسطينية لإملاءاته، كان المشروع الصهيونى يستند إلى أداة عسكرية، يهودية و بريطانية، مهتأة عند الحاجة لاستعمال القوة لسحق تلك الحركة. و الأكيد أنه فى الصراع التناحرى، عندما يعمد أحد الطرفين إلى استخدام القوة، فإنه لا يترك مجالاً للآخر غير اللجوء إليها أيضا، و إلا حسم الصراع لمصلحة من يمتلكها. و من هنا أهمية حركة القسام فى دلالتها، مع أنها، فى الأوضاع الفلسطينية القائمة، لم يأت نشاطها مكملا لعمل الحركة الوطنية بفصائلها الأخرى، و لم يكن جزءا عضويا من العمل الوطنى الفلسطينى العام، بل لعل بعض أطرافه اعتبر حركة القسام بديلا منه. و فى هذا تكمن نقطة الضعف الرئيسية لحركة القسام، التى لم تعمر طويلا. و مع صحة منطلقاتها النظرية، إلا إنه اعتورها الشرخ

بين النظرية و التطبيق. فإدارة الكفاح المسلح على الساحة الفلسطينية آنذاك، كانت تستلزم أكثر من النية الصادقة للشيخ عز الدين القسام و أعضاء حركته الثورية.

لكن دم الشهيد القسام و رفاقه لم يذهب هدرا، إذ شكّل عمله، بل موته، عاملا إضافيا لتفجير الثورة الكبرى (١٥ نيسان/ أبريل ١٩٣٦ م). فالأسباب التي حفزت القسام على إعلان الكفاح المسلح لم تختف، بل على العكس تفاقمت، و زاد فيها استشهاد الشيخ، و ما حركه من مشاعر النقمة بين الجماهير. كما أن المجموعات التي نظمها استمرت في حرب العصابات على السلطة، و استقطبت إليها مناضلين آخرين،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٨

انضموا إلى صفوفها لاستكمال مسيرة الشيخ الشهيد البطولية. و حالة التوتر التي سادت البلاد بعد استشهاد القسام و رفاقه، شكّلت كابحا قويا للأحزاب السياسية عن التعامل مع السلطة، التي كانت أيديها ملطخة بدمائهم. و ظهرت سريعا تشكيلات جديدة في أنحاء متعددة من البلاد، تدعو إلى تصعيد النضال ضد الانتداب و الصهيونية، و برز فيها أعضاء حزب الاستقلال: أكرم زعتر و حمدي الحسيني و ميشيل متری و سليم عبد الرحمن و عارف نور الله. كما ساندتهم عزة دروزة و عجاج نويهض، من زعماء هذا الحزب. و في مقابلة مع واکهوب، بعد ستة أيام على استشهاد القسام، تقدم ممثلو الأحزاب الخمسة، بغياب حزب الاستقلال الذي امتنع من المشاركة، بمذكرة جاء فيها: «إنهم إذا لم يتلقوا عن مذكرتهم جوابا يمكن اعتباره بصورة عامة مرضيا، فإنهم سيفقدون كل ما يملكونه من نفوذ على أتباعهم. و عندئذ تسود الآراء المتطرفة غير المسؤولة، و تندهور الحالة سريعا.»

و في الواقع، فقد صدق حدس لجنة الأحزاب، إذ راحت الأوضاع تتأزم، و تنذر بالانفجار العفوي الوشيك. فعلى أرضية الأزمه العامه، التي تراكت عناصرها منذ بداية الاستيطان الصهيوني، و تعمقت أسبابها تحت الانتداب البريطاني، و تفاقمت في الثلاثينات مع تدفق الهجرة اليهودية إلى فلسطين، نشبت أزمة دورية حادة في العلاقات بين الحركة الفلسطينية و حكومة الانتداب، أدت إلى وجود حالة ثورية عامة. و إذ لم تستطع قيادة الحركة الوطنية الإمساك بزمام الأمور، و نقل هذه الحالة إلى ثورة، مبرمجة و مخططة، فقد انفجرت بصورة تلقائية تحت الشعارات الوطنية العامة، و لكن من دون برنامج عمل محدد، أو إطار تنظيمي، يتسق شكله مع المضمون الذي انطوت عليه الثورة، فغلب عليها الارتجال و العفوية. و ما كان لها أن تستعر، لو لا الروح الكفاحية العالية لدى جماهير الشعب الفلسطيني، المنبثقة من حدة الأزمه التي تعيشها البلاد، و بالتالي استعداد الجماهير للتضحية في سبيل الشعارات التي رفعتها الثورة. و في النتيجة، فإن الميزات الذاتية للثورة- الروح الكفاحية و الوفرة العددية و الانتشار الجغرافي و القدرة على تحمل الأعباء .. إلخ- لم تغن عن التنظيم و البرمجة و التخطيط، و بالتالي إدارة الصراع بالأسلوب الذي يقارب بين الذاتي و الموضوعي، و يدفع نحو حل التناقض لمصلحة الثورة.

فعلى صعيد الأزمه العامه، كانت جميع عناصرها تتفاقم، و بالتالي تزيد في حدتها. فالمشروع الصهيوني يتطور بخطوات سريعة و الانتداب البريطاني يسانده من دون موارد، بينما الحركة الوطنية ينتابها الإحباط لفشلها في تحقيق الحد الأدنى من أهدافها المعلنة. لقد توطدت مرتكزات المشروع الصهيوني على الصعيدين، الداخلي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٥٩

و الخارجي. فالمؤسسات الاستيطانية قد تصلب عودها، و هي تتقدم بثبات نحو تحقيق أهدافها، و الهجرة على قدم و ساق، بصورها المتعددة، و الاستيعاب يتعاظم بتوفر الإمكانيات المادية بعد توسيع الوكالة اليهودية. و مؤسسات الحكم الذاتي اليهودي تمارس نشاطها من دون هوادة، كما أنها أصبحت تمتلك ذراعا عسكرية (الهاغاناه)، تتسلح و تتدرب تحت سمع الحكومة و بصرها، بل بالتعاون و التنسيق معها. و المهم أن الركيزة الأساسية للمشروع الصهيوني- العلاقة مع المركز الإمبريالي (بريطانيا)- قد تكرست بدعم أميركي قوى. و كان طبيعيا أن ينعكس كل ذلك سلبا على الحركة الوطنية الفلسطينية، إذ إنه من البديهي أن كل نجاح يحققه المشروع

الصهيوني لن يكون إلا على حساب الشعب الفلسطيني.

في المقابل، فالحركة الوطنية الفلسطينية، وبسبب تركيبها، و بالتالي نمط عملها، أصيبت بالشلل السياسي و التفتت التنظيمي، تحت وطأة احتدام التناقض مع جبهة أعدائها، من جهة، و عجزها عن الارتقاء بإدارة الصراع إلى المستوى الذي يستتجبه الاستمرار في النضال، من جهة أخرى. فالهجرة اليهودية تقلص بصورة مستمرة الأغلبية السكانية العربية، و تهويد الأرض المتزايد ينزع الملكية العربية عنها بصورة نهائية، و تهويد السوق يفاقم الأوضاع الاقتصادية لقطاعات واسعة من الشعب الفلسطيني، و احتضان الانتداب للاستيطان يعرقل تقدم أهل البلد نحو الحكم الذاتي، و بناء القوة العسكرية الصهيونية يهدد القدرة العربية على المقاومة، و ينذر بإخضاعها قسرا. و علاوة على ذلك، و على العكس من الوكالة اليهودية، كانت الحركة الفلسطينية تفتقر إلى أي دعم خارجي فعلى بعد تقسيم البلاد العربية، و إلى آلية عمل تنظيمية تؤهلها لتجاوز الصراعات الداخلية. و في ظل هذا الواقع، الذي رفضت جماهير الشعب الفلسطيني الاستسلام لإملاءاته، كان طبيعيا أن تنفجر الثورة تلقائيا، و بعفوية تؤدي الروح الكفاحية الشعبية دورا أكبر فيها من قرار القيادة و توجيهها.

و لامتناس حالة التوتر التي عقب استشهد القسام، تقدمت حكومة الانتداب بطرح مشروع المجلس التشريعي مجددا. و استجابت لجنة الأحزاب العربية، بينما رفضته الصهيونية، كما عارضه البرلمان البريطاني، فجمد. و إمعانا في المناورة، دعا وزير المستعمرات، جيمس هنري توماس، الزعماء العرب إلى إرسال وفد عنهم إلى لندن، يعرض وجهة نظرهم. و قبل هؤلاء الدعوة، لكن انفجار الأوضاع سبق موعد سفرهم، فرفع الموضوع من جدول الأعمال. و بينما لجنة الأحزاب تعمل على التهدئة و تسعى لإعادة الاتصال مع لندن، كانت اللجان القومية، التي تشكلت في جميع أنحاء البلاد، تعمل على تفجير الثورة، و قطع الطريق على الزعامة التقليدية للعودة إلى خطها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٠

السابق في العمل. و قد تشجعت هذه اللجان من النتائج التي حققتها الحركة الوطنية في كل من مصر و سورية، عبر التصعيد في النضال ضد الاستعمار. كما قدرت أن حالة التوتر الدولي، التي عقب احتلال إيطاليا للحبشة، قد تنتهي إلى حرب، تفتح المجال أمام العرب لتحقيق الاستقلال الذي فاتهم في الحرب الأولى. و قد عمل تضافر الأحداث على خدمة أهداف اللجان القومية، فتفجرت الثورة، و اضطرت القيادات التقليدية إلى السير في ركابها.

(ب) الإضراب العام

في هذه الأجواء المشحونة بالتوتر، حدثت الشرارة التي أشعلت الثورة. فقد قتلت مجموعة مسلحة بالقرب من عنتابا، بين طولكرم و نابلس، يهوديين، و جرحت ثالثا، كانوا في طريقهم إلى تل أبيب (١٥ نيسان/ أبريل ١٩٣٦ م)، و كان قد قتل يهودي آخر بالقرب من قلقيلية قبل خمسة أسابيع. و في اليوم التالي (١٦ نيسان/ أبريل) قتل عريان على أيدي عصابة الهاغاناه، في بياره بالقرب من يافا. و اشتد التوتر في منطقة يافا- تل أبيب، التي كانت تسودها حالة من الاحتقان، ف وقعت صدامات عنيفة بين العرب و اليهود، و خصوصا في الأحياء المختلطة على الحدود بين المدينتين. و أحرقت عشرات البيوت و الحوانيت، و قتل ١٦ يهوديا، و جرح نحو ٥٠، كما قتلت قوات الأمن الحكومية ٤ من العرب، و أصابت نحو ٥٠ بجروح.

و بعد ثلاثة أيام من الصدامات، سيطرت قوات الأمن على الوضع، و فرضت منع التجول على المدينتين و جوارهما، و أعلنت حالة الطوارئ في جميع أنحاء البلاد.

و في ١٩ نيسان/ أبريل ١٩٣٦ م، تشكلت في نابلس لجنة قومية، من عبد اللطيف صلاح و فريد العنتاوي و أحمد الشكعة و واصف كمال و حكمت المصري و أكرم زعير (سكرتير اللجنة). و دعت اللجنة إلى الإضراب العام في جميع مدن فلسطين، و إلى تشكيل

لجان قومية تتولى إدارة الحركة الوطنية في مناطقها وتأمين استمرار الإضراب.

وسرعان ما تشكلت لجان قومية في مدن فلسطين الأخرى، وعم الإضراب البلاد. وبدأ أن اللجان همشت دور الأحزاب. وخشية إفلات زمام الأمور، اجتمع المندوب السامي بعدد من الزعماء (٢١ نيسان / أبريل ١٩٣٦ م) وطلب منهم استخدام نفوذهم «لمنع الفوضى وإعادة النظام»، كما دعاهم إلى الإسراع في تشكيل وفد لهم للسفر إلى لندن لمقابلة وزير المستعمرات في بداية أيار / مايو، فطالبوه من جانبهم بإيقاف الهجرة اليهودية فوراً، تمهيدا لبدء المفاوضات. وإزاء هذا الإجماع الشعبي، التقى زعماء الأحزاب، وتخلوا عن صراعاتهم، وأيدوا الإضراب، بل تبناه، وقرروا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦١

تأجيل إرسال وفد لهم إلى لندن، ليذهب من موقع القوة بعد نجاح الإضراب في تحقيق أهدافه. وفي اجتماع لهم في نابلس (٢٥ نيسان / أبريل ١٩٣٦ م)، توصلوا إلى تشكيل لجنة عربية عليا، من عشرة أعضاء، يمثلون القوى والأحزاب كافة لقيادة النضال الوطني وإدارة الإضراب العام. وانتخب الحاج أمين الحسيني رئيساً لها، وعوني عبد الهادي أميناً للسرا، وضمت في عضويتها جمال الحسيني وألفرد روك وراغب النشاشيبي ويعقوب فراج وحسين فخرى الخالدي وعبد اللطيف صلاح ويعقوب الغصين وأحمد حلمي عبد الباقي (مستقل). وتعهد الزعماء بإيقاف النشاط الحزبي، وقررت اللجنة العليا «الاستمرار في الإضراب العام إلى أن تبدل الحكومة سياستها المتبعة في فلسطين تبديلاً أساسياً تظهر بوادره في وقف الهجرة اليهودية». وفي حال عدم استجابة الحكومة للمطالب العربية حتى ١٥ أيار / مايو ١٩٣٦ م، فستعلن عصياناً مدنياً، وبدء عمليات مقاومة عنيفة ضد الحكومة والاستيطان الصهيوني.

وبينما عززت الوحدة الوطنية موقع القيادة السياسية، فإنها صلبت القاعدة الجماهيرية أيضاً. فاجتاحت البلاد موجة من الحماسة والتفاؤل بالنصر، كما عمها الإضراب العام والاستعداد للتضحية، وتنامى الروح الكفاحية، وتحدى أوامر السلطة وعقوباتها الجماعية القاسية. ومنذ صباح الاثنين بتاريخ ٢٠ نيسان / أبريل ١٩٣٦ م، وبعد انتشار أخبار الصدمات الدموية في منطقة يافا- تل أبيب، عم الإضراب جميع نواحي فلسطين بصورة تلقائية. واتخذ الإضراب طابع الشمول، فطال جميع مرافق الحياة وأصابها بالشلل، كما ترافق مع تظاهرات ضخمة وعنف، شاركت فيها جميع قطاعات الشعب. وتشكلت لجان متعددة في كل مدينة لضمان حسن تنفيذ الإضراب، وتوفير مستلزمات صمود الناس فيه. وكان أكثر المرافق الحكومية تضرراً من الإضراب ميناء يافا، الذي توقف العمل فيه طوال فترة الإضراب التي دامت ستة أشهر. لكن الحكومة لم تستجب للمطالب العربية، فعمدت اللجنة العليا إلى التصعيد، وفي اجتماعها بتاريخ ٨ أيار / مايو ١٩٣٦ م، دعت السكان إلى الامتناع من دفع الضرائب فاستجاب هؤلاء للدعوة. وفي المقابل، فرضت الحكومة قانون الطوارئ، بما ينطوي عليه من أحكام تعسفية بالإعدام والسجن الطويل والعقوبات الجماعية ونسف البيوت وإتلاف الممتلكات والمزروعات.. إلخ. وفي هذه الأثناء، كانت مجموعات مسلحة قد بدأت تمارس نشاطها بعمليات إغارة على المستعمرات اليهودية ومرافق الحكومة وغيرها.

و كانت العمليات الأولى لتلك المجموعات المسلحة موجهة ضد المستعمرات،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٢

التي تولت قوات الأمن الحكومية الدفاع عنها، وبالتالي تصدت للاشتباك مع العصابات الفلسطينية. وسريعا تحول الثوار إلى مهاجمة قوافل السيارات على الطرق، فعمدت قوات الأمن لمواكبتها، فاحتمت الاشتباكات بين تلك القوات والثوار. كما بدأت عمليات في المدن، استهدفت المتاجر والمرافق والأشخاص، فاستنفرت قوات السلطة في المدن، وأصبحت في اشتباك دائم مع الخلايا المقاتلة. ومن القدس انتشرت هذه العمليات إلى طبرية ويافا وصفد وحيفا وغيرها. وبلغت الاشتباكات ذروتها في شهر آب / أغسطس ١٩٣٦ م، الذي قتل فيه ٣٠ يهودياً، من مجموع ٨٠ قتلوا طوال فترة الإضراب، كما جرح خلالها ٣٩٦. و وقع ١٩٩٦ هجوماً على الأشخاص، و ٨٩٥ على الممتلكات، و أتلقت ٢٠٠،٠٠٠ شجرة، و أحرق ١٧،٠٠٠ دونم من المحاصيل، و وقع ٣٨٠ هجوماً على

الحافلات و القطارات، و ٧٩٥ على الشرطة و الجيش و رجال الحكومة، كما أُلقيت خلال هذه الفترة ١٣٦٩ متفجرة. و بقرار الحكومة سحق الثورة بالقوة، أصبحت المعركة عمليا معها، و رفضت التراجع و الاستجابة للمطالب العربية، بل على العكس، أوغل المندوب السامى فى تعنته، فمُنح الوكالة اليهودية ٤٥٠٠ تصريح هجرة إضافيا بتاريخ ١٨ أيار/ مايو ١٩٣٦ م. و فى اليوم التالى، افتتح ميناء تل أبيب، بديلا من ميناء يافا المعطل بفعل الإضراب العام. فتعالت الدعوات التحريضية إلى الانتقال إلى حمل السلاح ضد الحكم البريطانى، و ردّت السلطة باعتقال عدد من المحرضين: أكرم زعيمتر و سليم عبد الرحمن و فخرى النشاشيبى و حسن صدقى الدجاني، و نفتهم إلى أماكن متفرقة، فحملوا الثورة معهم، و استعرت أكثر فأكثر. و كانت يافا القديمة معقلا للثوار، لا تجرؤ قوات الحكومة على دخوله، و مصدر تهديد لأ-كبر مدينة يهودية- تل أبيب، فاتخذت الحكومة قرارا بتهديمها، تحت ذريعة «تجميل المدينة». فنسفت فيها ٢٢٠ منزلا، الأمر الذى أدّى إلى تشريد نحو ٤٥٠ عائلة و زاد فى نعمة الجماهير العربية على الانتداب، فهبت ضد السلطة و مرافقها و موظفيها فى كل مكان.

بعد يافا، ركزت السلطة نشاطها على نابلس و القدس، حيث كانت الخلايا الثورية نشيطة، و حشدت لذلك قوات كبيرة- ثلاثة ألوية مشاة (تموز/ يوليو ١٩٣٦ م).

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٦٣

و حل الجنود محل الشرطة، التى امتنع ضباطها و أفرادها العرب من تنفيذ الأوامر، و خصوصا بعد تهديم يافا القديمة، إذ راح الكثيرون منهم يتعاونون مع الثوار. و بعد تعزيز القوات العسكرية فى المدن، تحول الثوار إلى الريف، إذ انضموا إلى العصابات الكثيرة التى كانت تعمل هناك. و لم تكن العصابات موحدة، فمنها تنظيم القسام، مثل الشيخ فرحان السعدى الذى عمل فى منطقة جنين، و قبض عليه فى قرية نورس، و حوكم عسكريا و أعدم عن عمر يناهز ٧٥ عاما (١٩٣٧ م). و كانت مجموعة أخرى تشكل بقيادة المناضل الثورى السورى، سعيد العاص و نائبه عبد القادر الحسينى، و عشرات العصابات المحلية، التى تشكلت حول قيادات محلية ريفية، أو بتوجيه من اللجان القومية، التى عملت على تشكيل مجموعة مسلحة فى كل قرية و مدينة.

و استهدفت العصابات العاملة فى الريف حركة النقل العامة، و المواصلات السلوكية، فسدّت الطرق بالحواجز الحجرية، و نسفت الجسور و خطوط السكك الحديدية، و كذلك خط أنابيب النفط الواصل بين العراق و حيفا. فتحرك الجيش لمواكبة القوافل، و خصوصا سيارات شركة بوتاس البحر الميت، و أمعنت السلطة فى مطاردة الثوار، ف وقعت بين الجانبين معارك عنيفة، حقق فيها الثوار انتصارات مهمة.

و كانت معركة نور شمس (قرب طولكرم)، حيث هاجم الثوار (٢١ حزيران/ يونيو ١٩٣٦ م) قافلة متوجهة إلى حيفا، توأكبها حراسة عسكرية، و استمر الاشتباك سبع ساعات متواصلة، من أهم المعارك التى ألهمت حماسه الجماهير. و أصبحت هذه الهجمات ظاهرة مألوفة فى «مثلث الرعب»، كما سماه الجنود البريطانيون، و هو المنطقة الواقعة بين نابلس و جنين و طولكرم. كما وقعت معارك كبيرة فى مرج ابن عامر (عين حارود) و وادى عزون (قرب طولكرم) و باب الواد (قرب القدس)، سقط فيها العشرات من الثوار العرب و الجنود البريطانيين. و أثبتت العصابات المسلحة قدرتها على القتال، و إرباك أعداد كبيرة من الجيش البريطانى، و أنها عصية على السحق العسكرى كما اعتقد قادة الجيش البريطانى فى البداية.

و انتشر الثوار فى كل مكان، و كانت أعمال القمع و العقوبات الجماعية التى تمارسها السلطة تعزز روح المقاومة، و تدفع بأعداد كبيرة من سكان الريف إلى الالتحاق بالعصابات. و قد سيطر الثوار فى آب/ أغسطس ١٩٣٦ م على المناطق الجبلية الوسطى فى البلاد و الجليل، كما تفيد تقارير حكومة الانتداب. فى المقابل، لجأت الحكومة إلى التدابير العسكرية لقمع الثورة، ففرضت منع التجول لساعات طويلة كل يوم، كما شكّلت محاكم عرفية فى ظل قوانين الطوارئ، و فرضت الغرامات المادية الثقيلة و العقوبات الجماعية، و اعتقلت الكثيرين، و قامت بأعمال

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٤

التفتيش الاستفزازية بما يواكبها من تخريب للممتلكات و نسف للبيوت .. إلخ. و مع ذلك لم تستطع القوة العسكرية أن تخضع الثورة الشعبية.

و في ٢٥ آب/ أغسطس ١٩٣٦ م، وصل القائد المناضل فوزى القاوقجي إلى فلسطين، قادما من العراق، على رأس مجموعة من المتطوعين من عصبه الدفاع عن فلسطين، التي تشكلت في بغداد. و كان قد سبقه سليم عبد الرحمن، الذي فرّ من المعتقل إلى العراق، و ساهم في تشكيل العصبه هناك. و انضم إلى القاوقجي متطوعون سوريون، بقيادة الشيخ محمد الأشمر، و هو من قادة الثورة السورية (١٩٢٦ م). كما انضمت إليه مجموعة أخرى من جبل العرب، بقيادة حمد صعب.

و كان سعيد العاص (حماة) قد وصل قبلهم إلى القدس، و أسس مع عبد القادر الحسيني جيش الجهاد المقدس. و قد جاء القاوقجي بناء على دعوة من اللجنة العربية العليا لقيادة الثورة، و اعترف به القادة المحليون، و أعلن في ٢٨ آب/ أغسطس ١٩٣٦ م عن بدء نشاطه العسكري. و كان بين مساعديه عز الدين الشوا، قائمقام جنين سابقا و طاهر الخطيب الذي كان مسؤول الخدمات الطبية في قضاء جنين، و الصحافي السوري منير الريس.

و خلال فترة قصيرة من تولى القاوقجي قيادة الثورة، دخلت المواجهه مع قوات السلطه مرحله جديدة. و في ٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦ م وقعت معركة بلعا (شرق طولكرم)، إذ نصب كمين لقافلة متجهه إلى حيفا، و استمرت طوال النهار، استخدم الجيش البريطاني فيها الدبابات و الطائرات، و اعتبرت نصرا للثوار. و بعدها بفترة (٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦ م) وقعت معركة تان في يوم واحد- معركة ترشيحا (قضاء عكا) و الجاعونة (قضاء صفد)، حيث كانت الخسائر كبيرة على الجانبين. و إزاء هذه النقلة النوعية في أعمال الثورة، التي أضرت بهيبة الجيش البريطاني، قررت حكومة لندن إخماد الثورة بالقوة. فأرسلت تعزيزات عسكرية إلى فلسطين، بقيادة الجنرال جون غرير ديل، فوصلها في ١٣ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦ م. و اعترض الثوار الدفعة الأولى من التعزيزات في طريقها من ميناء حيفا إلى القدس، في جبع (٢٤ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦ م)، و وقعت معركة استمرت يوما كاملا شارك فيها مقاتلون من جميع القرى المجاورة، و لم يستطع الجيش تطويق الثوار. لكن القتال لم يتوقف، و تجمع الثوار في بيت إمرين، و قررت القيادة العسكرية البريطانية محاصرتهم، و تمكنت من إحكام الطوق عليهم (٢٩ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٦ م)، غير أن النجيدات التي وصلت من القرى أنقذت الموقف، بخسائر كبيرة، و فرضت على الجيش الانسحاب في اتجاه نابلس.

و في ٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦ م، تحركت قوات بريطانية كبيرة إلى منطقة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٥

بيت لحم، لتطويق الثوار في جبال الخضر و حوسان، بقيادة سعيد العاص و عبد القادر الحسيني. و وقعت المعركة صباح ٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٦ م، و كانت الخسائر كبيرة، إذ سقط العاص شهيدا، و الحسيني جريحا و أسيرا. إلا إنه على الرغم من التفوق الذي أحرزه الجيش، بفضل العدد و العدة، فقد استمر الثوار في نشاطهم، الأمر الذي دعا الحكومة البريطانية إلى سلوك طريق المناورة السياسية كدليف للعمل العسكري. و في الواقع، فإنه منذ بداية الإضراب، جرت محاولات بريطانية، اشترك فيها وزير المستعمرات المعروف بميوله الصهيونية القوية، أورمسي- غور، و المندوب السامي و اكهوب، لثنى القيادة الفلسطينية عن الاستمرار فيه، و ذلك بمواكبة حملات القمع الشرسة التي قامت بها القوات العسكرية المعززة.

و كان أورمسي- غور قد ألقى بيانا في مجلس العموم البريطاني (١٩ حزيران/ يونيو ١٩٣٦ م)، أعلن فيه عزم الحكومة البريطانية إيفاد لجنة ملكية خاصة رفيعة المستوى، برئاسة اللورد إيرل بيل، إلى فلسطين، للتحقيق في أسباب الاضطراب، مؤكدا عدم التعرض لصك الانتداب، و اشترط أن تكون الخطوة الأولى «توطيد النظام و القانون». و اتصل الأمير عبد الله بن الحسين باللجنة العربية العليا، و طلب إيقاف أعمال العنف، لتسهيل عمل اللجنة الملكية، و التمهيد لمفاوضات مع حكومة بريطانيا. و اشترطت اللجنة العليا تعهدا بنيل

مطالبها للبدء في المفاوضات، فلم تسفر وساطة عبد الله عن نتائج في تلك المرحلة. كما شارك في الوساطة الملك عبد العزيز بن سعود والإمام يحيى من اليمن والملك غازي بن فيصل من العراق.

و أوفد هذا الأخير وزير خارجيته، نوري السعيد إلى فلسطين، فالتقى أعضاء اللجنة العربية العليا، الذين قبلوا وساطته بصفته يمثل ملوك العرب و أمراءهم.

و في ٣١ آب / أغسطس ١٩٣٦ م أصدرت اللجنة العربية العليا بياناً تقبل به وقف الإضراب و البدء بمفاوضات مع الحكومة البريطانية بشروط: وقف الهجرة و وقف العمل بقوانين الطوارئ و إلغاء الغرامات و إطلاق سراح المعتقلين. لكن مساعي نوري السعيد، التي حققت أهدافها لدى اللجنة العربية العليا، اصطدمت بالرفض الصهيوني لوقف الهجرة و لو مؤقتاً. و انطلاقاً من معرفة موازين القوى الراجحة لجانبها في المؤسسة البريطانية الحاكمة، و بالاستناد إلى دعم أميركي قوي، خاضت المنظمة الصهيونية معركة سياسية ضد التوصل إلى تفاهم مع اللجنة العربية العليا، على أساس الشروط التي اتفق عليها مع نوري السعيد. و استفادت الوكالة اليهودية في صراعها من موقف وزارة الحرب البريطانية، التي برزت في تلك الفترة كحليف سياسي للصهيونية، إذ أصرت على إخماد الثورة بالقوة. و تدرعت في دعم موقفها

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٦

بضرورة رد الاعتبار لهيئة الجيش البريطاني، في مرحلة تشتد فيها الحرب الباردة بين إنكلترا و كل من إيطاليا و ألمانيا. كما قدمت القيادة العسكرية البريطانية تبريرات لتعزيز قواتها في فلسطين بضرورة حماية قناة السويس، و خصوصاً في إثر الاتفاقية البريطانية-المصرية (١٩٣٦ م)، و القيود التي فرضتها على حجم الحامية الإنكليزية هناك.

و تضافرت هذه العوامل جميعاً لتدفع حكومة لندن في اتجاه إظهار قبضة بريطانيا القوية، و خصوصاً بعد التلميحات التي أطلقها بن-غوريون في لقاء مع أورمسي-غور، أن استرضاء العرب سيدفع الحركة الصهيونية إلى تغيير تحالفاتها، و المساعدة على إقصاء بريطانيا من المنطقة. و اعتمدت حكومة لندن سياسة القضاء على الثورة أولاً، و من ثم يأتي العمل السياسي على أرضية جديدة و متباينة. و اتخذ مجلس الوزراء (٢ أيلول / سبتمبر ١٩٣٦ م) قراراً بهذا المعنى، ينطوي على إنهاء مهمة نوري السعيد بالوساطة، و إرسال تعزيزات إلى فلسطين، و تعيين الجنرال ديل قائداً لها، و نقل السلطة من يد المندوب السامي إلى قائد الجيش إذا لزم الأمر. و أبلغت وزارة المستعمرات بإيقاف تدخل الدول العربية في شؤون فلسطين، على أن تبقى أبوابها مفتوحة للهجرة اليهودية، و ذلك حتى ينتهي الإضراب، و تتوقف الاضطرابات، فيصبح بالإمكان مناقشة المسألة. و بعد هذا القرار، بدأت حملة عسكرية محمولة في فلسطين، بقيادة الجنرال ديل، لكن الثورة صمدت، على الرغم من الخسائر الكبيرة التي لحقت بها. و مع ذلك، فقد دخلت المواجهة مرحلة جديدة و صعبة، و أصبحت تستلزم قرارات حاسمة.

و إلى جانب التهيب بالسحق العسكري، الذي تجمعت أدواته في فلسطين، بقرار حازم من حكومة لندن، مهدت له بالتلويح بإعلان الحكم العسكري، عمدت إلى سياسة الترغيب عبر تفعيل الوساطة العربية مجدداً. و تحت ضغط الواقع الذي تشكل -الصعوبات الاقتصادية نتيجة الإضراب الطويل و المخاطر العسكرية الماثلة للعيان، من جهة، و الوساطة العربية، من جهة أخرى- رضخت اللجنة العربية العليا إلى مطالب الحكومة البريطانية بإيقاف الإضراب و تجميد الثورة، من دون أن تقدم هذه الأخيرة أية تنازلات ملموسة. و بررت اللجنة العليا قرارها بأنه مؤقت، يوفر فترة من الراحة و الاستعداد، و يمكن التراجع عنه إذا جاءت قرارات لجنة بيل على غير ما ترغب. و برزت معارضة لهذا القرار، لكن السياسة البريطانية حققت نجاحاً في تليين موقف اللجنة العربية العليا، على أرضية الواقع الصعب الذي تشكل.

و بمعرفة المندوب السامي و تشجيعه، توجه بعض أعضاء اللجنة العربية العليا إلى الرياض و عمان في أواخر أيلول / سبتمبر ١٩٣٦ م. و في ١٠ تشرين الأول / أكتوبر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٧

١٩٣٦ م، صدر بيان مشترك عن الملك ابن سعود و الملك غازى بن فيصل، و الأمير عبد الله بن الحسين، موجه إلى رئيس اللجنة العربية العليا، و عبره «إلى أبنائنا عرب فلسطين»، هذا نصه: «لقد تألمنا كثيرا للحالة السائدة في فلسطين، فنحن بالاتفاق مع إخواننا ملوك العرب و الأمير عبد الله، ندعوكم للإخلاق إلى السكينة حقنا للدماء، معتمدين على حسن نوايا صديقتنا الحكومة البريطانية و رغبتها المعلنة لتحقيق العدل، و ثقوا بأننا سنواصل السعى في سبيل مساعدتكم.» و في اليوم التالي، أصدرت اللجنة العربية العليا بياناً، هذا نصه: «قررت اللجنة العربية بالإجماع، و بعد استشارة مندوبي اللجان القومية، و الحصول على موافقتهم باتفاق الآراء أن تلبى نداء أصحاب الجلالة ملوك العرب و سمو الأمير بالبيان المنشور أعلاه، و أن تدعو الأمة العربية الكريمة في فلسطين للإخلاق إلى السكينة، و إنهاء الإضراب و الاضطراب ابتداء من صباح الاثنين المبارك الواقع في ٢٦ رجب ١٣٥٥ هـ / ١٢ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٦ م، و أن يبكر أفراد الأمة الكريمة في صباح ذلك اليوم إلى معابدهم لإقامة الصلاة على أرواح الشهداء، و رفع الشكر لله تعالى على ما ألهمهم من صبر و جلد، ثم يخرجون من المعابد لفتح مخازنهم و حوانيتهم و مزاوله أعمالهم المعتادة، و الله ولي التوفيق.»

و استجاب الفلسطينيون لنداء اللجنة العربية العليا، بالرضا و الأمل المشوب بالحذر. و بذلك انتهى أطول إضراب شهدته فلسطين (١٧٦ يوماً). و كذلك، أعلنت قيادة الثورة وقف العمليات العسكرية، و ابتدأت هدنة، بحسب الاتفاق بين اللجنة و الحكومة. و عاد المقاتلون المحليون إلى بيوتهم، محتفظين بسلاحهم، بينما ظل المتطوعون العرب مع قيادتهم في منطقة نابلس. و لم يرق الأمر للقيادة العسكرية البريطانية، التي لم تكن راضية عن الاتفاق، و راحت تستعد لاستئناف القتال مع المتطوعين العرب. فهبت اللجان القومية، و معها المسلحون من أبناء البلد، معلنين العودة إلى الثورة، فسارعت الحكومة إلى وقف العمليات العسكرية، على أن يغادر القاطن و رجاله، فعبر نهر الأردن شرقاً في ٢٥ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٣٦ م.

ج) مشروع التقسيم الأول

بعد وقف الإضراب، و تجميد العمليات العسكرية، و دخول الهدنة حيز التنفيذ، وصلت اللجنة الملكية للتحقيق (لجنة بيل) في ١١ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦ م.

و قاطعت اللجنة العربية استقبالها، و رفضت التعامل معها، بسبب ما ورد في خطاب أورمسي - غور في مجلس العموم (٥ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦ م)، الذي بدا أنه استباق لنتائج عمل اللجنة، و تأكيد على التزام حكومة لندن بالمشروع الصهيوني،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٨

و رفض لوقف الهجرة اليهودية. و اتبع وزير المستعمرات خطابه بمنح الوكالة اليهودية ١٨٠٠ تصريح هجرة لنصف السنة التالية. و إذ قاطعت اللجنة العربية أعمال لجنة بيل، على الرغم من التباين في وجهات النظر داخلها، إذ رأى البعض (النشاشيبي) ضرورة التعاطي الإيجابي مع اللجنة الملكية، فإن هذه الأخيرة باشرت عملها (١٦ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٣٦ م) بالاستماع إلى شهادات موظفي الحكومة أولاً، و من ثم قيادة الوكالة اليهودية.

و كان قرار مقاطعة لجنة بيل سبباً في الشقاق داخل اللجنة العربية العليا. و عبر أنصار راغب النشاشيبي صراحة عن معارضتهم القرار، كما أعلن الأمير عبد الله أنه ينوي المثل أمام لجنة بيل، و كذلك فعل حسن صدقي الدجاني، و بذلك ضعف الموقف العربي، و فتح الباب أمام الوساطة العربية، و سافر وفد لمقابلة ملكي السعودية و العراق، و عاد يحمل كتاباً منهما، جاء فيه: «... و بالنظر لما لنا من الثقة بحسن نية الحكومة البريطانية في إنصاف العرب، فقد رأينا أن المصلحة تقضي بالاتصال باللجنة الملكية.» و عقدت اللجنة العربية (٦ كانون الثاني / يناير ١٩٣٧ م) اجتماعاً، قررت فيه التجاوب مع كتاب الملكين، فاجتمعت باللجنة الملكية خلال الأيام الخمسة الأخيرة من إقامتها في البلد.

و عرض رئيس اللجنة العربية العليا، الحاج أمين الحسيني، أمام لجنة بيل، أسباب الاضطرابات التي يمكن تلخيصها بالتالي: (١) حرمان العرب في فلسطين من التمتع بحقوقهم الطبيعية والسياسية؛ (٢) إصرار الحكومة البريطانية على اتباع سياسة ترمي إلى إنشاء وطن قومي يهودي في هذه البلاد العربية. و حدد المطالب العربية بما يلي: (١) العدول عن تجربة الوطن القومي اليهودي الفاشلة، التي نشأت عن وعد بلفور، و إعادة النظر في جميع النتائج التي نجمت عنها، و التي ألحقت الأضرار و الأخطار بكيان العرب و حقوقهم؛ (٢) إيقاف الهجرة اليهودية إيقافا تاما و فوريا؛ (٣) منع انتقال الأراضي العربية إلى اليهود منعا باتا و فوريا؛ (٤) حل قضية فلسطين على الأسس التي حلت بها قضايا العراق و سورية و لبنان، بإنهاء عهد الانتداب، و عقد معاهدة بين بريطانيا و فلسطين، تقوم بموجبها حكومة مستقلة وطنية، ذات حكم دستوري، تتمثل فيه جميع العناصر الوطنية، و يضمن للجميع العدل و التقدم و الرفاه.

كما أدلى آخرون بشهاداتهم، و منهم عوني عبد الهادي، الذي قبل بالمستوطنين لاعتبارات إنسانية. و برز بين موظفي حكومة الانتداب في ولائه للمشروع الصهيوني ضابط التطوير، لويس أندروز، الذي نفى أن يكون للاستيطان أثر سلبي على الفلاحين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٦٩

العرب. أما شهادات أركان العمل الصهيوني، فقد تميّزت بنبرة التهديد، الاستعداد للقتال من أجل تكريس «الوطن القومي اليهودي»، و التلميح إلى إمكان أن تغير الصهيونية تحالفاتها الدولية (إشارة إلى نقل مركز ثقلها إلى الولايات المتحدة). و استغل و ايزمن ضائقة اليهود في ألمانيا النازية لتبرير مواقف المنظمة الصهيونية، كما أكد على ما سمّاه «الرباط التاريخي» بين اليهود و فلسطين. و شكك و ايزمن في سلامة الموقف البريطاني إذا كان يسعى لاسترضاء العرب على حساب الصهيونية، مهددا بأن اليهود سيقاتلون للحفاظ على مكتسباتهم. و أدلى كل من دافيد بن-غوريون و موشيه شاريت (شروتوك) و زئيف جابوتنسكي بشهاداتهم أمام لجنة بيل. و تميّز بن-غوريون، الذي أصبح من أبرز قيادات العمل الصهيوني، بصلفه و عنف خطابه، و قال: «إن الوطن القومي هدف بحد ذاته، و نحن نجىء إلى البلد لأن هذا من حقنا، سواء أكان ذلك مفيدا لغيرنا أم غير مفيد». كما أثارت شهادة شاريت جدلا بشأن الهجرة غير الشرعية. و طالب جابوتنسكي بضم شرقي الأردن إلى «الوطن القومي اليهودي»، و السماح للمستوطنين بتشكيل «جيش يهودي» في فلسطين.

و غادرت لجنة بيل فلسطين في ١٣ كانون الثاني / يناير ١٩٣٧ م، بعد أن أمضت شهرين في البلاد، استمعت خلالهما إلى ٧١ شاهدا، منهم ١٤ عربيا، و ٢٠ إنكليزيا، و ٣٧ يهوديا. و كانت قد تسربت خلال هذه الفترة من مصادر يهودية، معلومات حول توجه لجنة بيل إلى التوصية بتقسيم فلسطين بين اليهود و العرب، و من ثم ضم القسم العربي إلى شرق الأردن، بإمارة عبد الله بن الحسين. و كان كلما ازدادت هذه الشائعات رواجاً، زاد الحاج أمين في معارضته للسياسة البريطانية، و استعدادة لاستئناف الثورة. في المقابل، أعلن حزب الدفاع (٣ تموز / يوليو ١٩٣٧ م) انسحابه من اللجنة العربية العليا، و استقال من عضويتها راغب الناشيبي و يعقوب فراج. فاحتدم الصراع داخل الصف الفلسطيني، كما وقعت عدة عمليات مسلحة ضد السلطة و المستعمرات اليهودية، و كذلك ضد المتعاونين مع حكومة الانتداب، و المؤيدين للتقسيم، و المناهضين لزعامه الحاج أمين. و في صيف سنة ١٩٣٧ م، كان واضحا أن البلاد تسير نحو استئناف الثورة، إذ عاد الثوار إلى الظهور بسلاحهم، و تزايدت الصدامات بينهم و بين الجيش و الشرطة.

و في ٧ تموز / يوليو ١٩٣٧ م، أصدرت لجنة بيل تقريرها، الذي تضمن توصية بتقسيم فلسطين، كانت مفاجئة للقيادة الصهيونية، ليس من حيث الفكرة، التي كانت

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٠

لها إطلالة عليها، و إنما من حيث التفاصيل، التي لم تعجبها. و قد توصلت اللجنة إلى هذه التوصية على أرضية الاقتناع بعدم إمكان التعايش بين العرب و المستوطنين في فلسطين، و بالتالي استعصاء تجسيد سياسة الانتداب، فرأت في التقسيم الحل الذي تزيد مزاياه

على عيوبه. وادّعت اللجنة أن التقسيم الذي لا يعطى أى طرف كل ما يرغب فيه، فإنه يعطيه أشد ما يصبو إليه- الحرية والأمن. وفي الواقع، فإن التقسيم، بحسب توصية لجنة بيل، يطالب العرب بالتنازل عن شيء يملكونه لمصلحة قيام كيان سياسى يهودى لا يرغبون فيه، بينما يطالب اليهود بالتخلي عن شيء لا يملكونه، لكنهم يرغبون فى الحصول عليه، بينما تحتفظ بريطانيا بمصالحها فى فلسطين. و كانت الخطوط العريضة لمشروع لجنة بيل للتقسيم كالتالى: (١) إنشاء دولة يهودية تضم القسم الشمالى والغربى من فلسطين، و تمتد على الساحل من حدود لبنان إلى جنوبى يافا، و تشمل عكا و حيفا و صفد و طبرية و الناصرة و تل أبيب، و ترتبط بمعاهدة صداقة و تحالف مع بريطانيا؛ (٢) تقع الأماكن المقدسة فى منطقة القدس و بيت لحم، و يمر يصلها بمدينة يافا، يضم اللد و الرملة، تحت الانتداب البريطانى الدائم، المكلف أيضا حماية الأماكن المقدسة فى الناصرة و طبرية. كما تبقى العقبة على البحر الأحمر فى يد بريطانيا؛ (٣) تضم الأراضى الفلسطينية الأخرى، و منها مدينة يافا، إلى شرق الأردن، و ترتبط بمعاهدة صداقة و تحالف مع بريطانيا؛ (٤) يجرى «تبادل» للسكان بين الدولتين- العربية و اليهودية، فينقل العرب من الأراضى المخصصة للدولة اليهودية، و عددهم نحو ٥٠٠، ٣٢٥، بشكل تدريجى إلى الدولة العربية، و يتم ذلك قسرا إذا لزم الأمر، و تهيا لهم أراض فى منطقة بئر السبع، بعد تحقيق مشاريع الري؛ (٥) تدفع الدولة اليهودية مساعدة مالية للدولة العربية، و تمنح بريطانيا مليونى جنيه للدولة العربية؛ (٦) تعقد معاهدة جمركية بين الدولتين لتوحيد الضرائب فيهما.

و فى الواقع، فإن لجنة بيل، التى استخلصت أن الانتداب بأهدافه القائمة غير قابل للتنفيذ، قدمت بدورها مشروعا للتقسيم أقل قابلية للتنفيذ. فلا العرب، و لا اليهود، كانوا راضين عنه، كما أكدت هى بنفسها، لكنها لم تلحظ على عاتق من تقع مسؤولية التطبيق العملى للمشروع. و إذ ألمحت إلى استعمال القوة، فإنها لم تحدد الجهة التى ستولى استخدامها. و على الأقل فى الجانب العربى، الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٧١

إذ ينطوى المشروع على مصادرة ملايين الدونمات المزروعة، و إجلاء مئات الآلاف من السكان، لم يكن هناك من يقبل به، أو يقدر على فرضه بالقوة. و اللجوء إلى استخدام القوة لتطبيقه، لا يهين الاضطرابات بقدر ما يزيدها استعارا. و مهما يكن، فقد تسبب المشروع بإحداث انقسامات داخل كل من الحركة الوطنية الفلسطينية و المنظمة الصهيونية. و بينما قادة هذه الأخيرة تظاهروا بالقبول الشكلى، فقد ناوروا للإلقاء وزر الرفض على الجانب العربى، و هكذا جرى. و رفض الفلسطينيون التقسيم، ما عدا قلة معزولة، يتزعمها راغب النشاشيبي، راحت توطد علاقاتها مع الأمير عبد الله، الأمر الذى استثار الحاج أمين و أنصاره، و زاد فى معارضتهم لبريطانيا و سياستها لأنها لا تريد تقسيم فلسطين فحسب، بل تهدف إلى ضم القسم العربى إلى شرق الأردن، و تنصيب عبد الله حاكما وراثيا عليهما. و مع صدور تقرير لجنة بيل، أعلنت الحكومة البريطانية موافقتها عليه، من منطلق أنه الحل الأفضل المتاح نتيجة الواقع، و أنها ستوفد قريبا لجنة لرسم الحدود بين الوحدات السياسية، كما تعهدت بتنفيذ المشروع. و أعلنت اللجنة العربية العليا رفضها القاطع للتقسيم، و ناشدت الحكام العرب و المسلمين التضامن مع الشعب الفلسطينى، و أبلغت عصبة الأمم بموقفها هذا. و طالبت بإلغاء الانتداب، لتحل محله دولة فلسطينية مستقلة، ترتبط مع بريطانيا بمعاهدة تضمن مصالحها المعقولة، كما تضمن مصالح الأقلية اليهودية. و كان وقع المشروع هائلا- على الفلسطينين، و خصوصا فى المناطق المخصصة للدولة اليهودية، فرفضوه بصورة تلقائية، و أعلنوا استعدادهم لمقاومته.

فى المقابل، استقبلت الأوساط الصهيونية المشروع بمشاعر مختلطة. فبين الإغراء بإقامة دولة يهودية، و لو على جزء من الذى تعتبره «الوطن القومى اليهودى»، و بين الخشية من أن يكون ذلك هو نهاية المطاف بالنسبة إلى المشروع الصهيونى، انقسمت الآراء داخل الوكالة اليهودية، و فى التجمعات اليهودية عامة، و دار نقاش حاد بشأن هذا الاقتراح الجذرى بين الاتجاهات المتعددة. و يلفت النظر أن هربرت سامويل رفضه لاعتقاده أنه غير قابل للتطبيق، و لا يمكن نقل ٥٠٠، ٢٨٥ عربى من الأراضى المخصصة للدولة اليهودية، و التى لا تضم أكثر من ٥٠٠، ٢٢٥ يهودى. كما أكد استحالة الدفاع عن الحدود التى يقترحها المشروع. و لقى المشروع قبولا واسعا بين

يهود الولايات المتحدة، كونه يطرح إقامة دولة يهودية مستقلة، و تتبناه بصورة رسمية الحكومة البريطانية.

و في أطر الوكالة اليهودية، كما في الاستيطان، كانت الآراء منقسمة. فالأغلبية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٢

بقيادة وايزمن ظاهرا، و بن - غوريون فعلا، كانت مع استغلال الفرصة المتاحة لإقامة دولة يهودية، و لو على جزء من فلسطين، باعتبارها إنجازا سياسيا، تفوق مزاياه عيوبه. و برّر هذان موقفهما بكون البديل أسوأ، و جادلا أنه مع تطور الحركة الوطنية العربية، لم يعد العمل الصهيوني ممكنا من دون دولة يهودية ذات سيادة. لكنهما أكدا أن هذا القبول ليس شريعا للأجيال، بمعنى قبوله المرحلي فقط. و ادّعى أن الوضع السياسي لملايين اليهود في «المنفى»، يتطلب إقامة دولة يهودية فورا. أمّا المعارضون، مناحم أوشكين و بيرل كاتسنلسون و يتسحاق طبنكين، فقد رأوا في هكذا دولة في حدود مقلصة، أن المشروع الصهيوني قد تقزم ليصبح «غيتو» يهوديا جديدا، و نفوا أهمية قيام دولة يهودية في الحدود المقترحة، و بالشروط المطروحة.

و من داخل المنظمة، عارضت حركة هشومير هتسعير مشروع التقسيم، و طالبت بفتح فلسطين كلها أمام الاستيطان، من منطلق أن العرب سيقبلون به في إطار «دولة ثنائية القومية». و اتفقت مع هذا الطرح حركة برت شالوم، و أوساط قريبة منهما في الخارج. و لم يتحمس نشطاء الوكالة اليهودية الموسعة في الولايات المتحدة للمشروع، كونه ليس بديلا أفضل من الانتداب. و من خارج المنظمة، عارضه التفتيحيون، و رأوا فيه مزيدا من التقليل للوطن القومي، بعد سلخ الأردن عنه.

و أخيرا، جرى العمل على إزالة هذه الخلافات في المؤتمر العشرين (١٩٣٧ م)، باتخاذ قرار مبهم بشأنه، يتيح للقيادة الصهيونية المناورة بما تملية التطورات. و شجب المؤتمر تقرير لجنة بيل القائل إن سياسة الانتداب غير قابلة للتطبيق، و حمّل مسؤولية تعثرها للحكومة البريطانية. و رفض مشروع التقسيم كما طرح، على أساس أنه يقلص حقوق اليهود في الفترة الانتقالية. و مع ذلك، كلف المؤتمر الوكالة اليهودية باستكمال التفاوض مع الحكومة البريطانية، بهدف توسيع حدود الدولة اليهودية المقترحة.

و تظاهرت القيادة الصهيونية بقبول المشروع مبدئيا، و الاعتراض على تفصيلاته، لتحميل العرب مسؤولية إفشاله، و هكذا حدث.

(د) استئناف الثورة

لم تجد الحركة الوطنية الفلسطينية في مشروع التقسيم ما يلبي مطالبها المعلنة - وقف الهجرة و منع بيع الأراضي، و إقامة حكومة تمثيلية. بل على العكس، ينطوي المشروع على تقسيم البلد، و إقامة دولة يهودية على شاطئ البحر، مفتوحة أمام الهجرة الواسعة، و توجه واضح إلى إلحاق الجزء العربي منها بشرق الأردن، و تنصيب الأمير عبد الله حاكما عليهما. و كانت ردة الفعل برفضه تلقائية، ما عدا حزب الدفاع،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٣

الذي لم يجرؤ على إعلان موقفه، تحاشيا لمواجهة النقمة الشعبية الواسعة. و كان الاتجاه العام نحو استئناف الثورة، من دون الإضراب، لما تسبب به هذا من مصاعب اقتصادية و حياتية على الناس، و خصوصا في المدن. لكن الانقسام أصاب الحركة، و استغلته السلطة لضرب حالة النهوض التي ولدها مشروع التقسيم. و احتدم في هذه المرحلة الصراع بين الحاج أمين و الأمير عبد الله، بدعم الأول أغلبية الشعب الفلسطيني الساحقة و الثاني أقلية من الوجهاء التقليديين و حكومة بريطانيا.

و كانت المجموعات المسلحة تتأهب لاستئناف الثورة، حتى قبل إعلان لجنة بيل تقريرها، و راحت تنتشر في جبال الجليل و السامرة و القدس و الخليل. و بعد بيان حكومة لندن، كثفت اللجنة العربية العليا نشاطها، فأرسلت الوفود إلى الحكومات العربية، تحثها على إعلان رفضها لمشروع التقسيم و إخطار بريطانيا بعواقب السياسة التي تتبعها، و خصوصا أنها كانت تسعى لإقناع الحكام العرب بمشروع التقسيم. أما النشاط الأخطر فكان العودة إلى تشكيل اللجان الشعبية لاستئناف الثورة، التي أصبحت الدعوة إليها، و التحريض

عليها، يجريان في العلن. و كان الحاج أمين الحسيني يقود هذه الحملة، فعمدت السلطات إلى اعتقاله في ١٧ تموز/ يوليو ١٩٣٧ م، لكنه اعتصم بالحرم القدسي الشريف، فجزد من جميع مناصبه و صلاحياته.

و تولت الحكومة مباشرة إدارة المحاكم الشرعية و أموال الأوقاف الإسلامية لتجميد نشاط المفتي و حرمانه من الإمكانيات المادية لتمويله. و بدأت العمليات العسكرية في مناطق متعددة، خلافا لتعليمات أعوان المفتي الذين طالبوا الثوار بالترث و الإعداد من أجل «القيام بهجوم عام في يوم محدد قادم».

و لتدعيم الموقف الفلسطيني بمساندة عربية، و كذلك لتطويق حركة الحكومة البريطانية في الأقطار العربية للحصول على تأييدها لمشروع التقسيم، طلبت اللجنة العربية إذنا في عقد مؤتمر عربي عام في القدس، فرفضت حكومة الانتداب، بذريعة أنه يزيد في حدة التوتر في البلاد. فوجهت لجنة الدفاع عن فلسطين في سورية الدعوة إلى عقد الاجتماع، فعقد في بلودان (٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٧ م)، بحضور الكثيرين من الشخصيات العربية. و ترأسه ناجي السويدي (العراق)، و كان الأمير شكيب أرسلان و المطران حريكة نائبين للرئيس، و عزة دروزة سكرتيرا للمؤتمر. و اتخذ المؤتمر قرارات مؤيدة للحركة الوطنية الفلسطينية، تدعو إلى وحدة فلسطين مع البلاد العربية، و إنهاء الانتداب، و رفض المشروع الصهيوني، و إقامة حكومة تمثيلية فيها، تعقد معاهدة مع بريطانيا على قاعدة السيادة و الاستقلال، و تضمن حقوق الأقليات فيها، و تحمي الأماكن المقدسة.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٤

و بعد مؤتمر بلودان، نشطت لجان الدفاع عن فلسطين - في سورية برئاسة نبيه العظمة، و العراق برئاسة سعيد ثابت، و لبنان برئاسة رياض الصلح، و غيرها - فتغيرت الأجواء في فلسطين، و تصاعدت الدعوة إلى استئناف الثورة، و تشكلت اللجان لجمع الأموال و لتهرب السلاح و تجنيد المتطوعين. و إذ تكثفت العمليات العسكرية، شددت حكومة الانتداب إجراءاتها التعسفية و القمعية، و استبدلت الجنرال ديل بآخر، و يفيل (١٢ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٧ م)، و جمدت مشروع التقسيم، و أعلنت إيفاد لجنة جديدة للنظر في تفصيلاته. و في ٢٦ أيلول/ سبتمبر ١٩٣٧ م) اغتيل حاكم لواء الشمال، لويس أندروز في الناصرة، على يد الثوار، الذين اعتبروا تعيينه، و بالتالي عمله، تهيئة للتقسيم، خصوصا لما عرف عنه من حماسة للمشروع الصهيوني.

و تذرعت السلطة بمقتل أندروز لضرب التنظيم السياسي للثورة، فأصدرت أمرا بحل اللجان القومية (١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٧ م)، كما حلت المجلس الإسلامي الأعلى، و وضعت يدها على الأوقاف التابعة له. و شددت الرقابة على الصحف، و أخيرا اعتقلت المئات من نشطاء الحركة الوطنية، و نفت بعض قادتها - أحمد حلمي عبد الباقي و الدكتور حسين الخالدي و فؤاد سابا و يعقوب الغصين و رشيد الحاج إبراهيم - إلى جزر سيشل، في المحيط الهندي. كما أصدر المندوب السامي، مكمايكل، أمرا بمنع عودة آخرين - عزة دروزة و عوني عبد الهادي و ألفرد روك و عبد اللطيف صلاح. و استطاع جمال الحسيني الفرار إلى دمشق. و اختبأ المفتي بجوار الحرم، ثم تسلل في ١٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٧ إلى لبنان، حيث منحه السلطات الفرنسية حق اللجوء السياسي، و لكن من دون ممارسة نشاط عملي. و بذلك أصبحت أغلبية قيادة العمل الوطني الفلسطيني من الصف الأول خارج البلاد. و مع ذلك، نشبت الثورة مجددا.

و في ليلة ١٤ - ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٧ م، ليله مغادرة المفتي، التي حددت ساعة الصفر للهجوم العام، صدرت الإشارة إلى العصابات لاستئناف نشاطها بكل قوة، و كان عملها منسقا و موجها. و تحركت مجموعات كثيرة مسلحة في جميع أنحاء فلسطين، و قامت بهجمات على دوريات الشرطة و الجيش، في منطقة القدس و الخليل، و هوجم قطار ينقل قوات بريطانية جنوب غرب القدس. و أخرج أحد قطارات الركاب عن الخط، و دمرت خطوط السكك الحديدية في عدة أماكن، و خربت شبكات الهاتف على نطاق واسع، و نسف خط أنابيب بترول العراق قرب نهر الأردن، و اشتعلت النار بالنفط المتدفق. و جرت في ضواحي القدس عدة هجمات على سيارات الركاب اليهودية، و تعرضت مستعمرات كثيرة إلى إطلاق النار. و في اليوم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٥

التالي، هاجم عدد كبير من الثوار مطار اللد، فاحتلوه و أحرقوا منشآته. لقد انتهت الهدنة، و انطلقت الجولة الثانية من الثورة التي كانت موجهة في الأساس ضد حكومة الانتداب و القوات البريطانية. و كان تجدد الثورة لطمه قوية لسياسة بريطانيا و مشروع التقسيم، كما للقلعة العربية التي راودتها فكرة القبول به، و تكريسا لزعامه المفتي على الرغم من غيابه، فقررت حكومة لندن (٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٧ م) مبدئيا أن تنفيذ مشروع التقسيم ليس عمليا.

و اشتعلت الثورة في جميع أنحاء البلاد، و لم تتوقف حتى نشبت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ م). و في البداية، عمدت السلطة إلى أساليب القمع و التدابير التعسفية و المحاكم العسكرية، التي خوّلت صلاحيات الحكم بالإعدام على كل من يحمل السلاح (قوانين الطوارئ). و كان الشيخ فرحان السعدى، من رفاق القسام، أول من طالته هذه المحاكم، فأعدم بتاريخ ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٧ م، في سجن عكا، عن عمر يناهز ٧٥ عاما، و هو صائم في شهر رمضان. و زاد إعدامه في اشتعال الثورة، لما كان يتمتع به من سمعة ثورية و صفات جليلة. لكن أحكام الطوارئ لم تكن عزيمة الثوار، بل نفحت فيهم روح التحدى. و في خريف سنة ١٩٣٧ م، عاد عبد القادر الحسيني إلى القدس، قادما من سورية برفقة مجموعة من الثوار، و اتخذ من جبال القدس و الخليل مسرحا لعملياته. ثم قام بعدة هجمات على قوافل الجيش و المستعمرات اليهودية، و اضطر الحكومة إلى إيقاف سير القطارات على خط القدس - اللد. و من أكبر المعارك التي خاضها معركة عرطوف. و بلغ مجموع العمليات العسكرية التي قام بها الثوار سنة ١٩٣٧ م في فلسطين ٥١١ عملية، قتل فيها ٢٧٦ بين بريطاني و يهودي، و استشهد الكثيرون من الثوار.

و شهدت سنة ١٩٣٨ م تعاظما ملحوظا للثورة، وصل ذروته في صيف تلك السنة، إذ سيطرت على مناطق واسعة في الريف، كما على بعض المدن. و شكلت الثورة أجهزة موازية لأجهزة الحكومة في مناطق نفوذها، راحت تمارس سلطتها على الناس. و بعد سيطرتها على الريف، بدأت تشن الهجمات على دوائر الحكومة و قواتها في معظم مدن فلسطين، و احتلت عددا منها لفترات متفاوتة، الأمر الذي اضطر الحكومة إلى إخلاء بعضها، و الاكتفاء بيسط سلطتها على أجزاء محدودة من تلك المدن، و الاعتصام بعمارات البوليس التي عرفت باسم «عمارات تيغارت» على اسم الضابط الذي طرح فكرتها. و احتل الثوار مدينة الخليل في شباط/ فبراير ١٩٣٨ م، و مرة ثانية في أيار/ مايو ١٩٣٨ م، و جنين في آذار/ مارس و بيسان في نيسان/ أبريل و بئر السبع في أيلول/ سبتمبر و القدس القديمة من ١٣ إلى ٢٠ أيلول/ سبتمبر و طبرية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٦

في تشرين الأول/ أكتوبر. و كانت نابلس تحت سيطرة الثوار، يتجولون فيها بأسلحتهم، كما وقعت معارك شوارع في حيفا و يافا و غيرها.

و بعد مغادرة المفتي إلى لبنان، و غياب معظم قادة العمل الوطني، في المنفى أو المعتقلات، واجهت الثورة مشكلة حقيقية في وحدتها التنظيمية و مركزية قيادتها.

إلا إنها، نتيجة موجة الحماسة الشعبية، تغلبت على تلك المشكلة مرحليا، باعتماد مبدأ المركزية السياسية، أى وحدة الموقف السياسي الذي عبر عنه المفتي، و اللامركزية التنظيمية - الميدانية، إذ توزعت القيادة على هيئات متعددة.

فالمفتي، الذي أصبح القائد السياسي الأول للحركة الوطنية من دون منازع، كان بحكم لجوئه في لبنان، تحت نوع من الإقامة الجبرية، التي فرضتها عليه سلطات الانتداب الفرنسي. لكنه ظل يتمتع بحرية الاجتماع بالأفراد في مقره. و بذلك أدار العمل السياسي عبر معاونين، منهم: حسن أبو السعود و منيف الحسيني و إسحاق درويش. و ظل على اتصال دائم باللجنة في دمشق التي تولى رئاستها الفعلية عزة دروزة، و معه أكرم زعيتر و معين الماضى. و عرفت هذه الهيئة بفرعيها - البيروتى و الدمشقى - باسم اللجنة المركزية للجهاد الوطنى في فلسطين. و تولت توجيه الثورة و إمدادها بالمال و السلاح، و تجنيد المتطوعين، و التنسيق بين تشكيلات الثورة

المتعددة، و الاتصال بالقوى المساندة لها في الخارج.

أما القيادة الميدانية فقد برزت بصورة تلقائية من مجموعة القادة المحليين، الذين فرضوا وجودهم في مناطقهم عبر نشاطهم في الثورة، و كانوا كلهم من أبناء فلسطين، و جلهم من الطبقات الشعبية الريفية. و بالتدرج، قامت اللجنة المركزية للجهاد بتنظيم العلاقات بينهم، و تقسيم مناطق نفوذهم. و مع تصاعد النضال، تبلورت قيادة المناطق على أساس اللامركزية، مع شكل من الارتباط مع القيادة في الخارج.

و قسمت البلاد إلى مناطق، لكل منها قيادتها، كالتالي: (١) المنطقة الشمالية، و تضم أقضية طبرية و صفد و عكا و الناصرة، و فيها عدد كبير من القادة المحليين، برز بينهم خليل عيسى (أبو إبراهيم الكبير)، و توفيق إبراهيم (أبو إبراهيم الصغير)؛ (٢) المنطقة الوسطى، و فيها أربع قيادات رئيسية: (أ) جنين الغربية، و فيها الشيخ عطية و يوسف أبو درة، (ب) جنين الشرقية، و فيها محمد صالح العبد، (ج) طولكرم، و يقودها عبد الرحيم الحاج محمد (الذي عين لاحقا قائدا لعموم الثورة)، (د) المنطقة الساحلية، و فيها عارف عبد الرازق؛ (٣) المنطقة الجنوبية، و فيها ثلاث مناطق:

(أ) اللد، و فيها حسن سلامة، (ب) الخليل، و فيها عيسى البطاط، ثم خلفه عبد الحليم الجولاني، (ج) القدس، و فيها عبد القادر الحسيني. و لم تشكل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٧

قيادة لمنطقتي غزة و بئر السبع، بل نشطت هناك مجموعات محلية متعددة.

و مع استئناف الثورة، كانت البلاد تحت الأحكام العسكرية، و قائد الجيش البريطاني في فلسطين، الجنرال و يفيل هو الحاكم الفعلي، و الإدارة المدنية مهمشة.

و استقدم و يفيل سير تشارلز تيغارت، الخبير بحرب العصابات في الهند، فأعاد تنظيم الشرطة السرية، و اقترح إقامة سياج من الأسلاك الشائكة على الحدود مع لبنان و سورية و الأردن، تتخلله استحكامات حصينة، لعزل الثوار عن عمقهم الاستراتيجي العربي.

و بعد استدعاء قوات إضافية، بدأ الجيش عمليات واسعة النطاق (حرب صغيرة)، في نهاية سنة ١٩٣٧ م، و قابله الثوار بمعارك مواجهة- عرابة البطوف و وادي العمود و أم الفحم و اليامون- ألحق فيها الجيش خسائر كبيرة بالثوار، و استشهد عدد من قادتهم- الإصباح و الشيخ عطية. فتحول الثوار إلى حرب العصابات، الأمر الذي استعصى على الجيش التعامل معه بنجاح. و يصف الكابتن أورد و ينغيت الوضع بقوله: «بحلول الليل يصبح زمام الأمور في يد رجال العصابات. إنهم أحرار في زيارة القرى ليلا من دون أية مخاطرة، و يستطيعون التحرك بلا و جل خارج الطرق الرئيسية، و يستخدمونها أيضا عندما يجدون الأمر مريحا لهم. و بصورة عامة، لا تتحرك الشرطة و الجيش في أثناء الليل، و عندما يفعلان ذلك فإنهما ينتقلان كالعادة في سيارات على الطرقات الرئيسية. و عندما يقعان بكمين، كما هو متوقع، كانا يردان بإطلاق النار، الذي لا- فائدة منه في الليل. و بعد تبادل إطلاق النار، كانت العصابة تتمكن من الإفلات من دون مطاردتها. و كانت المفاجأة تأتي دائما من طرف العصابات لا من طرف الجيش.» و شاعت في البلاد في حينه مقولة «إن البريطانيين يسيطرون على الطرق، و العصابات تسيطر على الجبال ... مشروع تقسيم جديد، النهار فيه للحكومة و الليل للعرب.»

و لم تنفع مع الثوار الإجراءات المضادة التي عمد إليها الجيش. فالمطاردة بالجبال ثبت أن كلفتها أكبر من مردودها، و توظيف الوحدات الليلية الخاصة من الهاغاناه، التي أشرف الكابتن البريطاني أورد و ينغيت، المهووس بتأييد الصهيونية، على تنظيمها و تدريبها، لم تجد فتىلا، و تسخير «حرس الحدود الأردنية» في تعقب الثوار لم يحقق نتائج تذكر، و احتلال القرى (٢٥ منها في الجليل فقط) و تثبيت مفارز عسكرية فيها لمنع الثوار من دخولها، لم يحقق نجاحا كبيرا. لقد انتشرت الثورة في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٨

جميع أرجاء البلاد، و كانت اللامركزية في هذه المرحلة تؤدي دورا إيجابيا في الصراع المحتدم. و في آب/ أغسطس ١٩٣٨ م، بلغت

الثورة ذروتها، بعد الأعداد الكبيرة التي التحقت بها من أبناء القرى، و سيطرت على طرق البلد و ريفه و أحياء من مدنه. و قد تواكب ذلك مع توتر الوضع السياسي في أوروبا، في إثر «أزمة تشيكوسلوفاكيا» (أيلول/ سبتمبر ١٩٣٨ م)، و لم تعد بريطانيا قادرة على حشد مزيد من قواتها في فلسطين، بل على العكس، أخذت تسحب منها إلى مصر و بريطانيا و أوروبا. و كانت مشاركة الهاغاناه في القتال إلى جانب الجيش، و الأعمال الإرهابية العشوائية التي قامت بها المنظمة العسكرية القومية (إرغون تسفاني لثومي) في حيفا و يافا و القدس و غيرها، حافظا على التفاف الجماهير الفلسطينية الواسعة حول الثورة.

و يصف تقرير عسكري الوضع في البلاد في تلك الفترة (آب/ أغسطس ١٩٣٨ م) كما يلي: «أحرقت محطات القطار بين القدس و اللد جميعها، و كذلك معظم المحطات الواقعة بين اللد و الحدود المصرية. و وقعت غارات (raids) على بئر السبع، و الخليل، و بيت لحم، و أريحا، و رام الله، أحرقت خلالها مكاتب البريد و البلديات و مراكز الشرطة و ما شابه ذلك. و هوجم، بصورة خاصة، مركز الشرطة في هذه المنطقة، و وقعت كمية كبيرة من الأسلحة و الذخيرة في يد الثوار. و كان يخدم في معظم مراكز الشرطة شرطة عرب مشكوك في ولائهم، و لذا جرّدوا من أسلحتهم.

و نظرا إلى عدم وجود شرطة بريطانيين للحلول محلهم، فقد أغلقت مراكز الشرطة في المنطقة، باستثناء مركزى غزة و الخليل اللتين كانت تعسكر فيهما سرايا الجيش ...

و باستثناء طرق المواصلات الرئيسية و الأمكنة التي كان يعسكر فيها الجيش، فقدت الحكومة عمليا السيطرة على مناطق واسعة في البلد.»

إزاء هذه الأوضاع، و إذ انتهت، و لو مرحليا، أزمة تشيكوسلوفاكيا (اتفاقية ميونخ)، عادت الحكومة البريطانية لتفرض هيبتها على البلد. فاستدعت في ٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨ م المندوب السامي، سير هارولد مكمايكل، الذي حل محل واكهوب (آذار/ مارس ١٩٣٨ م)، إلى لندن للتشاور في الإجراءات. و أفاد مكمايكل أن سياسة القبض القوي لم تحقق الهدف منها، و أنه لا يمكن إخماد الثورة من دون تنازلات سياسية كبيرة للعرب. فقررت الحكومة العمل في اتجاهين في آن معا: حرب شعواء على العصابات، و الشروع في تحقيق مصالحة سياسية مع الزعماء العرب.

و بينما عادت الحكومة البريطانية إلى التكتيك السياسي الذي اتبعته في صيف سنه

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٧٩

١٩٣٦ م، فإنها عمدت إلى تعزيز قواتها العسكرية في فلسطين. فاستدعت تيغارت لتنظيم الحرب ضد الثورة، و حشدت في البلد فرقتين، اشتملتا على ١٨ كتيبة مشاة و كتيبتى فرسان و كتيبة مدرعات و كتيبة مدفعية، و جميع الوحدات الملحقة بها. هذا فضلا عن الشرطة و الوحدات الليلية الخاصة من الهاغاناه، و التي تعززت، و عمل فيها ضباط بريطانيون و عناصر يهودية. و بذلك، بدأت مرحلة جديدة و حاسمة في الصراع، يقودها الجنرال روبرت هاينغ، الذي حل محل و يفل (٩ نيسان/ أبريل ١٩٣٨ م).

و في هذه المرحلة بالذات، و بعد الطفرة الكبيرة في نشاط الثورة و اتساع نطاقها، بدأت تبرز سلبيات اللامركزية و «الانفلاش» التنظيمي، بما يرافقه من تدنى الانضباط، في غياب قيادة سياسية موحدة على مسرح الأحداث. لقد سعدت الحكومة البريطانية حدة الصراع بهدف حسمه، و استطاعت جرّ الثورة إلى التكتيكات التي أرادتتها.

و استغلت نقاط الضعف في الثورة، و خصوصا من الناحية التنظيمية و المسلكية.

و إذ كانت وحدة الموقف السياسي لا تزال هي السمة البارزة للثورة، فإن الوحدة التنظيمية راحت تغيب، و معها الانضباط، و خصوصا نتيجة تعذر الإمكان لتوفير مستلزمات الاستمرار في الثورة، من دون تحميل الجماهير عبئا ثقيلًا. و في النتيجة، تضافرت عوامل عدة، موضوعية و ذاتية، و بالأخص تنظيمية و قيادية، لتجعل الثورة عاجزة عن القيام بالعمل النضالي القادر على مواجهة متطلبات المرحلة الجديدة. و في غياب الوحدة التنظيمية، و تدنى المسلكية الثورية، و انعدام الديمقراطية، سواء في اتخاذ القرار أو تنفيذه، بدأ التراجع

في الثورة. و في هذه المرحلة بالذات و إزاء التعزيزات العسكرية الضخمة التي وصلت إلى البلاد، و قبل تهيؤ أوضاع الثورة، شكلا و مضمونا، عمدت إلى مهاجمة المدن، بهدف السيطرة عليها، الأمر الذي تمخض عن نتائج سلبية- داخليا و خارجيا.

و في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨ م، و في أثناء وجود المندوب السامي في لندن، اتخذ قرار تصفية الثورة الفلسطينية تحسبا لاندلاع الحرب مع ألمانيا، و نقلت فرقة عسكرية أخرى إلى فلسطين على عجل. و وصف بعض البريطانيين الخطة أنها «احتلال فلسطين عسكريا من جديد، و إعادة الحكم البريطاني إليها». و لذلك وضعت البلاد كلها تحت الحكم العسكري، بينما راحت الحكومة تنشط اتصالاتها لإجراء مفاوضات مع العرب، الذين كانت تطمع في إبقائهم إلى جانبها في حال نشوب الحرب. و كان من معارك «الاحتلال الجديد» الأولى معركة بنى نعيم، إذ بالتعاون مع «فصائل السلام»، التي شكلها حزب الدفاع لمساندة قوات السلطة، أنزل الجيش ضربة قوية بالثوار في منطقة الخليل (٤ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨)، و أصيب عبد القادر الحسيني، قائد

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٠

المنطقة، و فقد الثوار السيطرة عليها. و في ١٨ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨ م، انتهز الجيش فرصة سيطرة الثوار على القدس القديمة لإظهار تصميمه على تنفيذ السياسة التي أعلنتها حكومة لندن. و خلال ثلاثة أيام من المعارك الشرسة سيطر الجيش على المدينة، و اعتقل الكثيرين من الثوار، و قتل كثيرين ممن استسلموا في الدفاع عن مواقعهم، و منهم الشيخ شقيب قطب، الذي قاد الثورة في المدينة.

و بعد نجاحه بالقدس، وسع الجيش نطاق عملياته، فجعل البلد كله تحت الحكم العسكري، و قسمه إلى أربع مناطق، على رأس كل منها حاكم عسكري برتبة بريغادير. و في نهاية تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨، أعيد احتلال يافا، و توالى العملية في المدن و القرى الأخرى. و أحكم الجيش سيطرته على الطرق، و راح يضيق الخناق على القرى، التي أجرى فيها عمليات تمشيط و نسف بيوت و إتلاف ممتلكات و تخريب بساتين و كروم، و اعتقال مشتبهين. و تحولت الثورة إلى مواقع الدفاع عن النفس، و راحت تنحسر بسرعة. و في المقابل، انتشرت «فصائل السلام» و القوى المضادة للثورة ترفع من عقيرتها، و تتأثر من رموز الحركة الوطنية، فتزايدت أعمال التآثر العشائرية. و في ٢٣ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨ م، أعلن وزير المستعمرات، مالكوم مكدونالد «أن النظام بدأ يعود إلى البلد شيئا فشيئا و بجهود مضيئة». و كان شتاء سنة ١٩٣٨- ١٩٣٩ م قاسيا على الثوار، و مع ذلك استمرت عمليات المقاومة، و استمر الجيش في المطاردة. و في ٢٧ آذار/ مارس ١٩٣٩ م، قتل القائد عبد الرحيم الحاج محمد في معركة سانور، بين نابلس و جنين، و شيعته الجماهير الواسعة بالتظاهرات و الإضرابات التي عمّت جميع أنحاء البلاد، و كأنها كانت تشيع ثلاثة أعوام من الثورة.

و بموازة العمل العسكري، نشط التحرك السياسي. و كانت حكومة لندن (٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٣٨ م) أعلنت نيتها إرسال لجنة فنية إلى فلسطين، «تكون مهمتها محصورة بالتأكد من الحقائق و النظر في تفاصيل إمكانات برنامج التقسيم». و وصلت لجنة و ددهيد، على اسم رئيسها، إلى البلاد و الثورة مستعرة فيها (٢٧ نيسان/ أبريل ١٩٣٨ م)، و أمضت فيها ثلاثة أشهر، و غادرتها و الثورة في أوجها (٣ آب/ أغسطس ١٩٣٨ م)، من دون أن يلتقيها عربي واحد. و في ٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨ م، أصدرت اللجنة تقريرها و توصياتها. ففرضت مشروع لجنة بيل، و تقدمت بمشروع أقل قابلية للتنفيذ، و خصوصا أنه يقلص المساحة المخصصة للدولة اليهودية، الأمر الذي يجعله غير مقبول للمنظمة الصهيونية.

و ترافق نشر تقرير لجنة و ددهيد مع صدور بيان حكومي بريطاني (٩ تشرين

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨١

الثاني/ نوفمبر ١٩٣٨ م)، يعلن تخليها عن مشروع التقسيم. و بررت الحكومة هذا الانعطاف بالموقف بما يلي: «بعد إنعام النظر و التدقيق في تقرير لجنة التقسيم، أظهر هذا التحقيق الإضافي أن الصعاب السياسية و الإدارية و المالية التي ينطوي عليها الاقتراح ... عظيمة لدرجة يكون معها هذا الحل للمعضلة غير عملي، و لذا فإن حكومة جلالتة ستواصل القيام بمسؤولياتها في حكم فلسطين بأجمعها.» و

لتحقيق التفاهم بين أطراف الصراع في فلسطين، الذي عادت لتعتبره الأساس الأكثر ثباتا للحل، قررت الحكومة دعوة وفود من فلسطين و الدول العربية و الوكالة اليهودية إلى التداول بالمسألة الفلسطينية. و حذرت من أنها ستتخذ قرارها الخاص و تنفذه، إذا لم تسفر مباحثات لندن عن أى اتفاق.

و فى الواقع، فإن هذا الانعطاف فى السياسة البريطانية، جاء نتيجة تضافر عوامل متعددة، و ضغوط مورست عليها فى مرحلة كان يلوح فى الأفق شبح حرب عالمية.

فالثورة فى فلسطين لا تزال مستمرة، و حتى فى حال قمعها بالقوة، فلا ضمانه أن البلاد ستخلد إلى الهدوء، أخذنا فى الاعتبار تجربة عشرين عاما من الانتداب. و من الأهمية بمكان، ما حركته الثورة من ردات فعل فى الأقطار العربية و الإسلامية التى كانت بريطانيا فى أشد الحاجة إلى إرضائها إذا نشبت حرب عالمية جديدة. و لكن فى المقابل، كانت الحركة الصهيونية و ما تستطيع حشده من دعم للضغط على حكومة لندن، سواء فى الداخل أو الخارج، و خصوصا فى أميركا. و هذا فضلا عن الحملة الإعلامية التى تقوم بها على الصعيد العالمى، مستفيدة من السياسة النازية ضد اليهود.

و إزاء مجمل هذه العوامل، و ما تصطدم به الحلول المتداوله من عقبات، كان الحل الأفضل أمام الحكومة البريطانية تأجيل المسألة، و إبقاء الوضع على حاله، و تحاشى الإقدام على حلول جذرية، و الاكتفاء بمعالجة الأوضاع الناشئة، و ترك القضية تنضج على نار هادئة.

لقد حركت الثورة الفلسطينية القوى الوطنية فى البلاد العربية، و سببت إحراجا للحكومات بحيث لم يعد سكوتها على القمع الذى تمارسه بريطانيا على الشعب الفلسطينى مقبولا. و عقد فى القاهرة المؤتمر البرلمانى العربى و الإسلامى من ٧ إلى ١١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٨ م بدعوة من اللجنة البرلمانية المصرية لدعم فلسطين، برئاسة محمد على علوبة. و حضره مندوبون من فلسطين و شرق الأردن و سورية و لبنان و العراق و مصر و المغرب و اليمن و الهند و الصين و يوغسلافيا و أميركا. و تبعه انعقاد

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٨٢

المؤتمر النسائى العربى الأول فى القاهرة أيضا. و ندد المؤتمران بالسياسة البريطانية، و هددتا باتخاذ مواقف عدائية منها، إذا لم تستجب للمطالب الفلسطينية. كما قرر المؤتمر البرلمانى إيفاد ممثلين عنه إلى لندن للدعوة إلى القضية الفلسطينية. و فى المقابل، حركت الصهيونية أعوانها فى أوروبا و الولايات المتحدة للضغط على بريطانيا من أجل فتح أبواب فلسطين لهجرة يهودية واسعة تحل مشكلة هؤلاء فى أوروبا الوسطى. و بعد لقاء تشمبرلين مع هتلر، كثفت إدارة روزفلت انتقادها للسياسة البريطانية، و ضغطها عليها «لاستعمال فلسطين وسيلة لحل المشكلة اليهودية»، كما طرح روزفلت فى رساله إلى تشمبرلين.

و إزاء الضغوط من الجهات المتعددة، تخلت الحكومة البريطانية عن مشروع التقسيم، و توجهت نحو عقد مؤتمر فى لندن، يضم ممثلين عرب و يهود، تحاول من خلاله التوصل إلى تفاهم بين الأطراف بشأن مستقبل فلسطين. و فى خطاب له أمام مجلس العموم، حاول وزير المستعمرات، مالكوم مكدونالد، التمهيد للمؤتمر، إذ أكد أنه لا يمكن أن تحل فلسطين وحدها المسألة اليهودية فى أوروبا، و حتى لو قمعت الثورة فإن الحلول العسكرية وحدها لن تكفى، و قال: «أنا لو كنت عربيا لتولانى الذعر من تدفق الهجرة.» و أضاف مكدونالد، «إذا نحن لم نزل مخاوف العرب من أن يصبحوا تحت سيطرة اليهود، فإننا نضطر إلى أن نجابه عداء جميع العرب ... و نضع قسما كبيرا من الجيوش البريطانية فى فلسطين دائما.»

و تسارعت الأحداث، فأفرت الحكومة البريطانية عن المعتقلين فى جزر سيشل (٢٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٣٨ م)، و دعت إلى مؤتمر لندن (٧ شباط/ فبراير ١٩٣٩). و حضرت وفود من مصر و المملكة العربية السعودية و العراق و اليمن و شرق الأردن، فضلا عن وفد فلسطين، الذى غاب عنه الحاج أمين، بسبب رفض الحكومة البريطانية إشراكه فى المفاوضات. و تشكل الوفد برئاسة جمال الحسينى، و عضوية حسين فخرى الخالدى و ألفرد روك و موسى العلمى و عونى عبد الهادى و أمين التيمى و يعقوب الغصين و

راغب النشاشيبي و يعقوب فراج. و تولى أعمال السكرتارية جورج أنطونيوس و فؤاد سابا. أمّا الوفد الصهيوني فضم أكثر من أربعين مندوبا، برئاسة حاييم وايزمن، و عضوية دافيد بن-غوريون و يتسحاق بن-تسفي، و ممثلين عن يهود بريطانيا و أميركا و فرنسا و بلجيكا و بولندا و جنوب إفريقيا.

و استمرت أعمال المؤتمر حتى ٢٧ آذار/ مارس ١٩٣٩ م، لم تجتمع خلالها الوفود

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٣

العربية مع الوفد الصهيوني، بل أدارت الحكومة البريطانية المفاوضات مع كل جانب على حدة.

و في المفاوضات عاد الطرفان- العربي و الصهيوني- إلى مطالبهما المتناقضة.

و إزاء التباين في مواقف الجانبين، و عدم التقدم في المفاوضات، عقدت الحكومة البريطانية في ٢٣ شباط/ فبراير ١٩٣٩ م لقاء غير رسمي بين الممثلين العرب و اليهود، أعلن فيه وزير المستعمرات ضرورة القيام بخطوتين: (١) إعلان انتهاء الانتداب و إنشاء دولة فلسطينية مستقلة، مرتبطة بحلف مع بريطانيا؛ (٢) السعي لتطبيق هذا الإعلان فور حلول السلام في البلد. و يتطلب إنشاء الدولة فترة انتقالية، يكون للحكومة البريطانية خلالها ضلع في شؤون الدولة كلها. و لم يقبل الطرفان بهذه الخطة، إلّا إن الموقف الصهيوني كان أشدّ اعتراضا عليها. و بينما أبدى الوفد العربي مرونة في التعامل مع الطرح البريطاني، فإن المنظمة الصهيونية رأت فيه تنكرا بريطانيا لوعده بلفور و صك الانتداب، و تخليا عن المشروع الصهيوني الذي تدعّمه الولايات المتحدة. و عليه، أصدرت الحكومة البريطانية «الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩».

و كمؤشر إلى تحديها لبريطانيا، قامت المنظمة العسكرية القومية (إيتسل) بسلسلة من أعمال الاغتيال، فقتلت بعض المارة العرب في تل أبيب، و ألقت متفجرة في السوق العربية بالقدس القديمة، راح ضحيتها ٣ من العرب، كما فجرت لغما كبيرا في سوق حيفا، أدى إلى مقتل ٢٦ عربيا. و اجتمع مؤتمر المندوبين اليهودي، و حذر من نية حكومة بريطانيا المتجهة إلى «تصفية سياسة الوطن القومي، و تسليم الاستيطان إلى حكم عربي.» و دعا المؤتمر المستوطنين إلى عدم الخضوع لهذه السياسة، و إلى تعبئة كل القوى للمعركة، و تنظيم عمليات هجرة غير شرعية إلى أن «يتم إحباط المؤامرة».

و أعلنت المنظمة الصهيونية الحرب على المشروع البريطاني الجديد، و بدأت نشاطا محمومًا ضده، قاده بصورة بارزة دافيد بن-غوريون، و راحت المنظمة بتعبئة بوتيرة حثيثة عن بريطانيا، و تقترب من الولايات المتحدة أكثر فأكثر، إلى أن نقلت مركزها خلال الحرب العالمية الثانية إلى أميركا. أمّا في فلسطين، فقد بدأت فترة من التمرد الصهيوني على الانتداب البريطاني.

في المقابل تباينت الآراء في تقويم موقف اللجنة العربية العليا برفض الاستجابة للسياسة البريطانية الجديدة، بين التأييد و الإدانة. و امتد الأمر إلى تقويم نتائج الثورة بصورة عامة، بين من يصمها بالفشل، و من يصفها بالنجاح. و المسألة بطبيعتها الحال

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٤

تتوقف على المعايير التي يعتمدها أصحاب هذه التقويمات. و مهما يكن الأمر، تجدر الإشارة إلى ما يلي: (١) صحيح أن الثورة لم تحقق أهدافها المعلنة، لكنها في الوقت نفسه حالت دون تحقيق المشروع الصهيوني لأغراضه المطلوبة في حينه. لم ينل العرب استقلالهم جزاء الثورة، لكن الثورة منعت قيام الدولة اليهودية، كما كانت المنظمة الصهيونية تطالب؛ (٢) لم تنشب الثورة الفلسطينية نتيجة تبلور أوضاع الشعب الفلسطيني تحت الانتداب، لكن هذا الأخير رفع حدة التناقض مع الشعب الفلسطيني إلى الدرجة التي جعلته يهب في ثورة تلقائية، سادتها العفوية بطبيعتها الحال؛ (٣) على أية حال، و بغض النظر عن الثغرات التي اعتورت إدارة الصراع، فلا بدّ من الأخذ في الاعتبار موازين القوى على الجانبين، و كذلك اصطفاة القوى المنخرطة في الصراع و تحالفاتها. فالثورة، التي انطلقت من موقع الدفاع، لم تتمتع في أية مرحلة بالدعم الذي تمتعت به المنظمة الصهيونية، ناهيك عن أن الصدام كان فعلا مع بريطانيا أصلا.

إشارة

مع نشوب الحرب العالمية الثانية، بأبعادها الكونية، تراجعت أهمية القضية الفلسطينية، بأبعادها الإقليمية. و في اصطفا القوى في أثناء الحرب، كان الوطن العربي في معسكر الحلفاء بصورة عامة. و بعد الثورة الفلسطينية و مؤتمر لندن و الكتاب الأبيض (١٩٣٩ م)، أصبح الصراع بشأن فلسطين قضية عربية مرة أخرى. و في الحرب، احتلت المنطقة العربية موقعا مهما في استراتيجية الحلفاء، ليس بسبب مشاركة العرب العسكرية في الحرب، كما كان الحال في الحرب العالمية الأولى، و إنما بسبب موقعها الاستراتيجي، و حيوية مواردها الطبيعية، و خصوصا النفط. و إزاء التطورات بالواجهة العسكرية، عادت بريطانيا لتمارس مناوراتها المعهودة من الحرب الأولى، بهدف كسب العرب إلى جانبها. و كانت أدواتها هذه المرة الكتاب الأبيض الذي راحت تسوقه كخطوة على طريق الاستقلال، و لكن بعد انتهاء الحرب. و على العموم، لم يشكّل العرب عبئا على المجهود الحربي البريطاني، بل على العكس، كانوا ذخرا له. فالتدخلات العربية بعد مؤتمر لندن، و أعمال القمع التي مارستها السلطات العسكرية البريطانية في فلسطين لإنهاء الثورة، و الإرهاب الذي أصاب الثورة و السكان، أدّت جميعها إلى استكانة العرب في فلسطين في أثناء الحرب.

و كان واضحا أن تراجع حكومة بريطانيا عشية اندلاع الحرب الثانية، مع أن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٥

الثورة الفلسطينية كانت تضمحل بوتيرة متسارعة، جاء تحت تأثير التضامن العربي مع الشعب الفلسطيني. و بينما كانت بريطانيا تعد لدخول الحرب مع ألمانيا، فقد طلبت من الدول العربية التدخل لإنهاء الثورة، استنادا إلى وعودها بإيفاء الشعب الفلسطيني حقه في وطنه. لقد قدرت بريطانيا أهمية ووقوف العرب إلى جانب الحلفاء في الحرب، وسعت لاسترضائهم، بعد أن جعلت القاهرة مركزا لقيادة قواتها في الشرق الأوسط، و قد نجحت في سعيها. و كان طبيعيا أن تثور المنظمة الصهيونية على هذه السياسة. و غداة إعلان حكومة لندن بيانها الجديد، قامت تظاهرات يهودية في فلسطين، أعلن في إثرها بن-غوريون، الذي كان يشغل منصب رئيس الوكالة اليهودية، ما يلي: «إن التظاهرات اليهودية التي وقعت أمس تشير إلى بداية المقاومة اليهودية للسياسة الكارثية التي تقترحها حكومة جلالته. و اليهود لن يدعوا لها بالإرهاب، حتى لو أريق دمهم. و في إخضاعنا لها، فإن المسؤولية عما يمكن أن يجري في هذا البلد جزاء فرض تلك السياسة بالقوة، تقع كاملا على عاتق الحكومة.»

و على أرضية التحالف العربي مع بريطانيا في الحرب، و بعد أن فترت الثورة، و عمدت السلطات العسكرية في فلسطين إلى العمل بالأحكام العرفية و قوانين الطوارئ و القمع السياسي، استكان عرب فلسطين إلى الأمل الذي عقده على تنفيذ حكومة بريطانيا و عودها الواردة في الكتاب الأبيض لعام ١٩٣٩. في المقابل، فالمنظمة الصهيونية، التي انتهزت نشوب الحرب العالمية الأولى لاستصدار وعد بلفور، رأت في الحرب الثانية فرصة مواتية لتأسيس الكيان الصهيوني و الإعلان عن قيامه. و هذا الهدف هو الذي حكم تصرف المنظمة و نشاطها خلال الحرب، و بناء عليه، نقلت مركز نشاطها إلى الولايات المتحدة، و بالتالي ربطت مصير مشروعها الاستيطاني بدور أميركا في الحرب، و موقعها الدولي بعد انتهائها، و استراتيجية واشنطن إزاء المنطقة بعد الحرب، و في ضوء نتائجها. أما إزاء بريطانيا، فقد انتهجت الوكالة اليهودية خطا سياسيا، عبر عنه دافيد بن-غوريون بالشعار: «مساعدة البريطانيين ضد هتلر و كأنه لا يوجد كتاب أبيض و مقاومة الكتاب الأبيض و كأن لا حرب هناك.» لكن المنظمة الصهيونية، و لاعتبارات موازين القوى الدولية، و ما توقعته من نتائج الحرب، ألقت عصا الترحال في الولايات المتحدة، معتبرة إياها «البلد الأم» الجديد للمشروع الصهيوني.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٦

و إزاء التحول في السياسة البريطانية عن المشروع الصهيوني، عمدت الوكالة اليهودية إلى الانتقال من مرحلة تجسيد وعد بلفور و تهيئة الأوضاع لإقامة «الوطن القومي اليهودي»، إلى المطالبة بإعلان الدولة اليهودية، حتى و إن كانت الأوضاع لم تنهيا بعد. و رأت الحركة

الصهيونية الفرصة تلوح في الأفق من خلال الحرب العالمية الثانية، معتمدة هذه المرة على الولايات المتحدة. و كانت هذه الأخيرة قد تخلصت من سنوات الركود، و تقدمت خطوة كبيرة في «سياسة الباب المفتوح»، على قاعدة «الصفقة الجديدة»، التي عرفت باسم «مبدأ روزفلت». و أرسل روزفلت مندوبا له إلى الشرق الأوسط، الجنرال باتريك هيرلي الذي عاد إليه بتقرير يقول إن المنظمة الصهيونية تريد دولة مستقلة في فلسطين، و تهجير سكانها إلى العراق، و ضمان موقع مسيطر على اقتصاد الشرق الأوسط و مشاريع التنمية فيه. و كان سلوك واشنطن في أثناء الحرب و بعدها يشير بوضوح إلى أنها أيدت هذه المطالب الصهيونية، فعملت على تجسيدها بكل نشاط.

و في الحرب، و عندما تفاقم خطر النازية على يهود أوروبا الوسطى، بعد أن حدّتها السياسة الألمانية «منطقة خالية من اليهود»، و طرحت مسألة تهجيرهم و استيعابهم في أوروبا الغربية و استراليا و الأميركتين، بما ينسجم مع رغبة هذه الدول، تراجعت الولايات المتحدة عن دعم المشروع بناء على طلب المنظمة الصهيونية، التي أصرت على أن تكون وجهة هجرتهم إلى فلسطين، لتثبيت أركان الاستيطان فيها و تهيئة الأوضاع لإعلان الدولة اليهودية. و لكن بريطانيا، و هي تخوض حربا عالمية، قدرت النتائج السلبية الناجمة عن تلبية مطالب الصهيونية، فعمدت إلى الخديعة مرة أخرى، و لكن بالاشتراك مع الولايات المتحدة هذه المرة، بديلا من فرنسا في الحرب الأولى. و عندما تفهمت إدارة روزفلت المناورة البريطانية أنهالت عليها الاحتجاجات الصهيونية، بعد البيان الأنكلو-أميركي، الذي رمى إلى تطمين العرب و ضمان عدم انحيازهم إلى جانب ألمانيا في الحرب. و تحرك بعض أذرع المنظمة الصهيونية للتعامل مع الاستخبارات الألمانية من أجل تهجير اليهود إلى فلسطين، الأمر الذي تولاه أدولف أيخمان في مراحل الأولى (١٩٤١ م). و في الواقع، فإن المنظمة الصهيونية، و خصوصا بعض أجنحتها اليمينية المتطرفة، أحبطت توطين يهود أوروبا الوسطى في الغرب، كما ساهمت في إنزال الكوارث ببعض الجاليات اليهودية الأوروبية و حملت حكومات الغرب المسؤولية الأخلاقية عنها.

و كما فعلت في الحرب العالمية الأولى، كان همّ بريطانيا في الثانية أن تجر الولايات المتحدة إليها، و رأت في المنظمة الصهيونية أداة لبلوغ مبتغاها. و مرة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٧

أخرى، كان شرط المنظمة لتكرار دورها الحصول على تعهد بإقامة الدولة اليهودية بعد الحرب. و أبدت بريطانيا استعدادها لذلك، و بالتالي التخلي عن الكتاب الأبيض (١٩٣٩ م)، بعد تولي تشرشل رئاسة الحكومة خلفا لتشرشلين (١٩٤٠ م). و طرح تشرشل سحب ذلك الكتاب، لكنه اصطدم بمعارضة حكومته الائتلافية، و تراجع لاعتبارات تكتيكية، كما امتنع من الإفصاح عن نواياه لأسباب تتعلق بما قد يسببه ذلك من ردات فعل عربية. و لذلك عاد تشرشل إلى الخديعة المزدوجة التي مارسها لويد جورج في الحرب الأولى، و تعهد لوايزمن أنه «بعد الحرب، ستقوم في فلسطين دولة تضم ثلاثة إلى أربعة ملايين يهودي».

و حمل وايزمن هذا التعهد، و غادر إلى الولايات المتحدة لتأليب المنظمة الصهيونية و أنصارها بالدعوة إلى دخول أميركا الحرب إلى جانب الحلفاء. و كان على جدول أعماله تشكيل فيلق يهودي للمشاركة في الحرب، و ليكون القوة العسكرية التي تستند إليها المنظمة لدى إعلان الدولة اليهودية. و مع تصاعد العمليات العسكرية، أصبحت بريطانيا أكثر فأكثر اعتمادا على الولايات المتحدة للتزود بالأغذية و الأعتدة، الأمر الذي دفع ألمانيا إلى تنشيط أسطولها من الغواصات في المحيط الأطلسي، التي ألحقت بالبحرية البريطانية و سفنها التجارية خسائر فادحة. و باستمرار هذه الحالة، أصبح صمود بريطانيا أمام ألمانيا متعلقا بالتدخل الأميركي في الحرب، و أصبحت الإدارة الأميركية تتحرق لإعلان الحرب على ألمانيا، و تنتظر الذريعة. و قد جاءت هذه في ٧ كانون الأول/ديسمبر ١٩٤١ م، عندما هاجمت القوات البحرية و الجوية اليابانية ميناء بيرل هاربر الأميركي في المحيط الهادي، فدخلت الولايات المتحدة الحرب، الأمر الذي غير موازين القوى فيها جذريا.

و لما تأكدت المنظمة الصهيونية من دخول أميركا الحرب، عمدت إلى نقل مركز نشاطها إليها، انطلاقا من الأهمية التي تعلقها على

الحرب في تحقيق أهدافها، و من تقديرها للموقع الذي ستحتله أميركا في العالم بعد الحرب، و من معرفتها للنفوذ الذي تتمتع به المنظمة هناك. و في أيار/ مايو ١٩٤٢ م، عقدت المنظمة مؤتمرا موسعا في مدينة نيويورك حضرته وفود متعددة، أهمها من الولايات المتحدة و بريطانيا و فلسطين. و انتهى المؤتمر إلى تبني برنامج بلمتور، على اسم الفندق الذي عقد فيه المؤتمر. و دعا البرنامج إلى إقامة دولة يهودية في فلسطين فورا، و إلى رفض الكتاب الأبيض (١٩٣٩ م)، الذي يهدد الهجرة اليهودية إليها، و إلى تشكيل قوة عسكرية بقيادة الوكالة اليهودية، التي تتولى بنفسها شؤون الهجرة إلى فلسطين، و بناء المستعمرات فيها. و توالى المنظمات الصهيونية على تبني البرنامج الذي جاء متطابقا مع الأهداف

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٨

المعلنة للتيارات المتطرفة، و بالتالي توحدت الحركة الصهيونية على برنامج بلمتور، الذي أصبح أساس العمل الصهيوني في أثناء الحرب و بعدها.

و أيدت الإدارة الأميركية المنظمة الصهيونية على أساس برنامج بلمتور.

و لأسباب داخلية، و لاعتبارات انتخابية، جاهرت بهذا التأييد، متجاهلة حساسية الوضع بالنسبة إلى علاقات بريطانيا مع العرب. و سارع مكتب الرئيس روزفلت إلى إصدار بيان يؤيد برنامج بلمتور على الرغم من أنه يتنافى مع البيان الأنكلو- أميركي، الذي صدر في آب/ أغسطس ١٩٤١ م، مؤكدا مبادئ ولسون بحق تقرير المصير للشعوب المقهورة. و ترافق نقل مركز النشاط الصهيوني إلى الولايات المتحدة، و تبني برنامج بلمتور، مع حملة إعلامية واسعة لمصلحة إقامة الدولة اليهودية، مستغلة الممارسات النازية إزاء يهود أوروبا الوسطى، و مستندة إلى النفوذ الصهيوني في وسائل الإعلام و بيوت المال في أميركا. و قد وفرت هذه الحملة الغطاء للسياسة الأميركية، التي تذرعت بدعم الكونغرس للصهيونية لأسباب انتخابية. و برز على هذا الصعيد عضو مجلس الشيوخ من ولاية نيويورك، روبرت واغنز.

إلا إنه على الرغم من تفاهم أزمة يهود أوروبا الوسطى، فإن إدارة روزفلت، و بتنسيق وثيق مع المنظمة الصهيونية، ظلت ترفض منحهم تأشيرات دخول إلى الولايات المتحدة، كما كانوا يرغبون. و على العكس، راحت تلك الإدارة تضغط على حكومة بريطانيا لفتح أبواب فلسطين أمامهم، بل و ترتيب وسائل نقلهم و حمايتهم.

و كانت بريطانيا تتحاشى ذلك لاعتبارات ردات الفعل العربية، و خصوصا أن «حملة رومل» على شمال إفريقيا وصلت إلى حدود مصر، و أصبحت تشكل خطرا على الوجود البريطاني في الشرق الأوسط، كما تهدد مصادر النفط الحيوية للآلة العسكرية البريطانية. و في رد لوزير خارجية بريطانيا، أنتوني إيدن، على رسالة لنظيره الأميركي كورديل هل (آذار/ مارس ١٩٤٣ م)، طلب فيها إيجاد حل سريع لمشكلة ٦٠،٠٠٠ - ٧٠،٠٠٠ يهودى بلغارى، قال: «إن مسألة اليهود في أوروبا صعبة للغاية، و إذا وافقنا على الحل المطروح ليهود بلغاريا، فسرعان ما سنواجه قضايا أخرى شبيهة، و سيستغل هتلر هذا التوجه من طرفنا، كما أننا بحاجة إلى السفن التي تنقل هؤلاء، و هي غير متوفرة لدينا.» و أصرت الإدارة الأميركية على رفض نقلهم، و لو مؤقتا، إلى الولايات المتحدة، في السفن التي تعود إليها فارغة بعد إنزال حمولتها من الأغذية و الأعتدة في أوروبا. و الواضح أن الحركة الصهيونية، و معها الإدارة الأميركية،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٨٩

لم تكن معنية بإنقاذ يهود أوروبا، بقدر ما كان يهمها إنقاذ المشروع الصهيوني و توظيف مأساة يهود أوروبا في هذا السبيل. و كان طبيعيا بعد مؤتمر بلمتور، و ما نجم عنه من نقل مركز ثقل النشاط الصهيوني إلى الولايات المتحدة، بما يعنيه ذلك من توطيد للعلاقة بين المشروع الصهيوني و الاحتكارات و بيوت المال الأميركية، و ما لهذه من تأثير في واشنطن و صنع القرار فيها، ازدياد شقة الخلاف بين المنظمة الصهيونية و الحكومة البريطانية. فقد وقعت هذه الأخيرة بين مطرقة النشاط الصهيوني، و خصوصا عبر الإدارة الأميركية، و سندان الشعور العربي العام المعادي للأهداف الصهيونية، الذي راح يتغذى من افتضاح النوايا الأميركية، مذكرا بعملية

الخداع التي مارسها الحلفاء على العرب في الحرب الأولى. و تحت وطأة الضغط الصهيوني، من جهة، و تنامي المعارضة العربية، من جهة أخرى، جرى الاتفاق بين تشرشل و روزفلت على تأجيل نشر و عود الأخير للملك ابن سعود، و على ضرورة إعادة النظر في القضايا المتعلقة بفلسطين شهريا.

و كان روزفلت (أيار/ مايو ١٩٤٣ م) تعهد للملك السعودي بأن يعطى العرب و اليهود الفرصة للتعبير عن وجهات نظرهم، قبل اتخاذ قرارات طويلة الأمد بشأن فلسطين.

و بناء على طلب وزارة الحرية الأمريكية جرى التكتّم على هذا الاتفاق بهدف عدم إلحاق الضرر بالمجهود الحربي للحلفاء. و كان لا بدّ للنشاط الصهيوني المكثف على الساحة الأمريكية سنة ١٩٤٣، من أن يترجم عمليا إلى مكاسب سياسية على الصعيد الرسمي. و في مطلع سنة ١٩٤٤ م، تقدم الكونغرس الأمريكي بمشروع قرار يدعم برنامج بلمتور، عبر مجموعة من الشيوخ و النواب، سمت نفسها لجنة فلسطين الأمريكية، و ضمت ٦٧ من أعضاء مجلس الشيوخ المته، و ١٤٣ من مجلس النواب، الأمر الذي يشير إلى حجم التأييد للمشروع الصهيوني في المؤسسة الأمريكية التشريعية، و الذي لا يمكن للإدارة الأمريكية تجاهله. و تمخض النشاط الصهيوني عن التمهيد لقرار أميركي رسمي يعارض القيود التي تفرضها حكومة لندن على الهجرة اليهودية إلى فلسطين. لكن تدخل البنتاغون بشخص الجنرال جورج مارشال، مدعما بموقف وزيرى الخارجية و الحرب، أوقف إصدار القرار بحجة أنه يلحق الأذى «بالمجمع العسكرى التدريبي و التمويني، الضخم، الذي أقيم في الدول العربية كجزء من الخطة الحربية». و مع ذلك، أوحى الرئيس روزفلت إلى بعض زعماء المنظمة الصهيونية أنهم يستطيعون التحدث باسمه عن موافقته على برنامج بلمتور، و الإفصاح أن الإدارة الأمريكية لم توافق قط على الكتاب الأبيض (١٩٣٩ م)، الذي يحدد الهجرة اليهودية إلى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩٠

فلسطين.

و قد واكب الضغط الصهيوني على حكومة لندن، عبر واشنطن، نشاط إرهابي في فلسطين، و امتد إلى القاهرة، إذ اغتيل اللورد موين، المندوب السامي هناك.

و كان موين يرفض المطالب الصهيونية، و يؤيد تشكيل الجامعة العربية، و ينفي حق اليهود التاريخي في فلسطين، و بالتالي يعارض وعد بلفور، و الأهم، أنه رفض التعاون مع أيخمان في مقايضة يهود أوروبا الوسطى بالبضائع المطلوبة لألمانيا في الغرب. و في إثر اغتيال موين، أصدر تشرشل تحذيرا حاد للهجرة للمنظمة الصهيونية و لقيادة الاستيطان في فلسطين، أسفر عن تراجع بعض المنظمات الصهيونية عن نشاطها ضد سلطات الانتداب في فلسطين، لكنه لم يثن الإرغون، بقيادة إياهو لانكين و مناحم بيغن، عن الاستمرار في العمليات الإرهابية.

لكن روزفلت لم يعش ليستكمل خديعته، فتركها لخلفه ترومان لإنجازها، فقد توفي بعد أسبوع واحد من تأكيده عهده لابن سعود في رسالة تتعلق بمستقبل فلسطين، جاء فيها: «يسعدني أن أجدد لجلالتكم التطمينات التي أعطيت لكم حول موقف حكومتي، و كذلك موقفى الخاص، بصفتي الرئيس التنفيذي، بشأن قضية فلسطين، و أعلمكم أن سياسة حكومتي في هذا الصدد لم تتغير». و في الواقع، فإن فترة رئاسة روزفلت الطويلة شهدت تصاعدا كبيرا للنشاط الصهيوني على الساحة الأمريكية، كتعبير واضح عن احتضان الولايات المتحدة للمشروع الصهيوني، جملة و تفصيلا، و بروزها كالبند الأم له، في مرحلة دخولها القوى إلى ساحة الشرق الأوسط، و استعدادها لانتزاع الموقع الإمبريالي الأول فيها، و بالتالي توجيه صوغ المشروع الصهيوني بما يخدم مصالحها في المنطقة. و إذ تضافرت للعمل الصهيوني على الساحة الأمريكية عوامل متعددة للنجاح، فإن العامل الأساسي لصوغ العلاقة بين المشروع الصهيوني و الإمبريالية الأمريكية، يبقى استعداد الحركة الصهيونية العالمية، و إثباتها ذلك عمليا، لوضع مشروعها في خدمة المصالح الأمريكية، و جعله مركزا إقليميا مضادا لحركة التحرر العربية، التي بطبيعتها أهدافها، و الشعارات التي رفعتها، تتناقض مع تلك المصالح، كما عبرت

عنها سياسة «الصفقة الجديدة» للرئيس روزفلت.

في مقابل النقلة النوعية للمشروع الصهيوني، التي جرى التعبير عنها بربطه بعجلة القوة الصاعدة عالميا، بما في ذلك بالشرق الأوسط- الولايات المتحدة- و ما

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩١

نجم عن ذلك من تطوير ذاتي لذلك المشروع، حدث تراجع في العمل الوطني الفلسطيني، ذاتيا و موضوعيا. لقد أصبح هذا العمل جزءا من الوضع العربي العام، الذي انحاز إلى القوة الهابطة جزاء الحرب، عالميا و إقليميا- بريطانيا. فما عدا «ثورة رشيد عالي الكيلاني» (١٩٤٠-١٩٤١ م) في العراق، التي انحازت إلى دول المحور، و انضم إليها بعض القادة الفلسطينيين، كانت الحكومات العربية تقف إلى جانب الحلفاء، عبر الارتباط ببريطانيا، بغض النظر عن مزاج شعوبها. لكن بريطانيا، التي سعت و لو شكليا لاسترضاء العرب، وجدت نفسها واقعة تحت ضغط أميركي- صهيوني، بينما هي في حالة حرب صعبة مع ألمانيا، لم تكن لها فيها اليد العليا في البداية، إذ كان الاتحاد السوفياتي لا يزال حليفا لألمانيا، و أميركا لم تدخل الحرب رسميا. و كان طبيعيا أن يعكس المأزق البريطاني نفسه على الوضع العربي، الذي وجد نفسه أمام خيار أهون الشرين، أخذا في الاعتبار الواقع الذي يعيشه، بينما فتح أمام المنظمة الصهيونية خيار أولى الحسنيين، فلم تتردد في انتهاز الفرصة.

لقد استغلت المنظمة الصهيونية مأزق العلاقات بين الحلفاء في أثناء الحرب لدفع مشروعها نحو غاياتها، و في المقابل، استغلت بريطانيا المأزق الذاتي العربي لتمرير مناوراتها الرامية إلى إخضاع العرب لإملاءات استراتيجيتها العسكرية في الحرب. و كما فعلت حكومة لويد جورج في الحرب العالمية الأولى، فعلت حكومة تشرشل في الثانية، بتمرير الخديعة على العرب. لكن تشرشل، الذي لم يأل جهدا في خدمة الصهيونية، لم يفلح في احتوائها، و بالتالي الحؤول دون انتقالها إلى الحاضنة الأميركية، فخرس صداقة العرب، و لم يكسب رضی الصهيونية. و إذ خرجت بريطانيا من الحرب الثانية في المعسكر المنتصر، لكن موقعها فيه ضعف كثيرا عما كان عليه في الحرب الأولى. ففي الأولى كانت بريطانيا قوة مهيمنة، و استطاعت بعدها أن تكبح جماح أميركا، و تستخف بها، كما حدث في أثناء تشكيل عصبة الأمم، أما في الثانية فقد انقلبت الآية تماما. و بغض النظر عن النوايا البريطانية إزاء العرب، فإنها بعد الحرب الثانية لم تكن في موقع يتيح لها فرض إرادتها. لقد فقدت موقعها، عالميا و إقليميا، لمصلحة الولايات المتحدة. و استغلت الصهيونية هذا الانقلاب، و هجرت بريطانيا و تعلقت بأهداب أميركا، بينما كان على العرب، حلفاء بريطانيا، أن يعيدوا ترتيب أوراقهم، بما ينسجم مع الوضع الجديد، الذي كان للصهيونية فيه موقع متقدم عليهم.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩٢

(أ) المشروع الصهيوني في الحاضنة الأميركية

لقد أصدرت الحكومة البريطانية الكتاب الأبيض (١٩٣٩ م) بغض النظر عن رأى العرب و اليهود فيه، على حد قولها. و لكن بعد إقراره في مجلسي العموم و اللوردات، و أصبح ملزما لها سياسيا، تخلت تلك الحكومة عن متابعة تنفيذ بنوده بجديته، في ضوء اندلاع الحرب العالمية الثانية. و تحديا للسياسة البريطانية، التي حاولت وضع بعض القيود على الهجرة اليهودية، عمدت المنظمة الصهيونية إلى تنشيط الهجرة غير الشرعية، على الرغم من أنها لم تستنفد التصاريح المحددة لها قانونيا. فتصدت السلطات البريطانية للبواخر التي تنقل المهاجرين، و احتجزتها بهدف ترحيل من على ظهرها إلى أماكن خارج فلسطين. فقام الموساد بإغراق سفينة قبالة شاطئ حيفا بمن عليها، احتجاجا على السياسة البريطانية، و إثارة للرأى العام العالمي ضدها. و أغرقت كذلك سفينة أخرى في البحر الأسود، بعد أن أعادتها السلطات التركية من ميناء إستنبول. و قد واكبت هذه الإجراءات البريطانية حملة من الأعمال الإرهابية ضد مراكز الحكومة في فلسطين، قامت بها عصابة شتيرن، التي قتل رئيسها في مطلع سنة ١٩٤٢ م.

و كان تشرشل، بعد توليه رئاسة الحكومة (أيار/ مايو ١٩٤٠ م)، اقترح إلغاء الكتاب الأبيض، فرفضت حكومته الائتلافية ذلك، و لم يتراجع هو عن اقتراحه. و مع ذلك، وافقت تلك الحكومة على تشكيل لواء يهودى بصورة نهائية، و وصل عدد أفرادها إلى ١٦،٠٠٠ فى سنة ١٩٤١ م. لكن ذلك لم يرض التطلعات الصهيونية، فاتخذت قرارا ببناء «الجيش اليهودى» فى مؤتمر بلمبور، الذى تمتعت قراراته بتأييد الإدارة الأميركية. و قد جاء فى القرار: «يجب الاعتراف بحق اليهود فى أداء قسطهم الكامل للمجهود الحربى و فى الدفاع عن بلادهم بواسطة قوة عسكرية يهودية تقاوت تحت رايتها الخاصة و بأمر القيادة العليا للأمم المتحدة و ذلك من خلال الكفاح ضد قوى العدوان و الطغيان التى أصبحت الآن تهدد الوطن القومى اليهودى، و التى كان اليهود فى طليعه ضحاياها.»

و فى النصف الثانى من سنة ١٩٤٢ م، و بينما القوات الألمانية العاملة فى شمال إفريقيا تتقدم نحو الحدود المصرية و تهدد الشرق الأوسط بمجمله، قررت القيادة

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٩٣

البريطانية تدريب وحدات من الهاغاناه و تسليحها للقيام بأعمال التخريب وراء الخطوط الألمانية، إذا جرى احتلال فلسطين، و إدارة شبكة إرسال للمحافظة على الاتصال مع قوات الحلفاء فى أثناء الاحتلال المفترض. و قررت الوكالة اليهودية وضع جهاز استخباراتها فى البلاد العربية فى خدمة الجيش البريطانى، و تزويده ببعض مجموعات الاستطلاع فى أثناء الحملة على سورية و لبنان، ضد القوات الفرنسية الموالية لحكومة «فيشى»، التى استسلمت لألمانيا و تعاونت معها. و فى تلك الفترة، ضاعفت المنظمة الصهيونية جهودها لتجنيد المتطوعين للخدمة فى الجيش المزمع إنشاؤه، و قامت بحملة واسعة لهذا الغرض فى فلسطين و بريطانيا و الولايات المتحدة و بلدان أوروبية أخرى، مطالبة بتشكيل جيش يهودى ينخرط فيه اللاجئون من الدول الأوروبية. و على الرغم من معارضة حكومة الانتداب، و كذلك المندوب السامى فى القاهرة، تخطى تشرشل ذلك، و اتخذ قرارا بتشكيل ذلك الجيش فى آب/ أغسطس ١٩٤٤ م، أى و الحرب توشك على نهايتها. و بذلك تشكلت الألوية العسكرية اليهودية التى أدت الدور المركزى فى احتلال فلسطين سنة ١٩٤٨. و قد تم ذلك بالاتفاق بين تشرشل و روزفلت، إعدادا للإعلان عن قيام الكيان الصهيونى فى الوقت الملائم، و تأهيله لحسم المعركة مع الشعب الفلسطينى عسكريا.

و ما عدا ثورة رشيد عالي الكيلانى، لم يحدث ما يلقى بريطانيا فى البلاد العربية فى أثناء الحرب. فلقد همدت الثورة الفلسطينة، و التفت الناس إلى أوضاعهم الاقتصادية، بعد الخسائر التى لحقت بهم فى أعوام الثورة، بينما ظلت القيادة السياسية فى الخارج، و الأحكام العسكرية تكبح كل نشاط سياسى فى الداخل، فساد وضع من الترقب بانتظار نهاية الحرب و نتائجها. و انتقل الحاج أمين و أعوانه المقربون من لبنان إلى العراق، و وقفوا إلى جانب ثورة الكيلانى، رغبة فى استغلال وضع بريطانيا الصعب لانتزاع ضمانات لإنقاذ فلسطين من الصهيونية. لكن بريطانيا أرادت ضمان ولاء العرب من دون شروط، و حشدتهم تحت كنفها عبر استغلال التناقضات بين حكاهم. و أحبط تشرشل المساعى للتوصل إلى تفاهم مع القيادة الفلسطينة و رشيد عالي الكيلانى، اقتناعا منه بإمكان سحب الحاميات البريطانية من فلسطين، إذا ما جرى تأهيل قوات يهودية هناك للدفاع عنها فى حال غزو ألماني محتمل. و بناء عليه، تقرر سحق ثورة الكيلانى بالقوة، و قامت بذلك وحدات بريطانية، تساندها قوات حدود شرق الأردن، بقيادة غلوب باشا (سير جون باغوت غلوب)، و عناصر من المنظمات الصهيونية، بينهم أحد قادة الإرغون (دافيد رزيثيل)، الذى قتل فى الهجوم على مطار الحبانية.

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٤٩٤

و لاستيعاب حالة التملل العربية، عمدت بريطانيا إلى طرح فكرة الجامعة العربية. و التقطت الحكومة المصرية الفكرة، و أجرت اتصالات و مشاورات، انتهت إلى وضع بروتوكول الإسكندرية، الذى وقعته حكومات مصر و العراق و السعودية و لبنان و شرق الأردن فى ٧ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٤ م. ثم وضع ميثاق جامعة الدول العربية، الذى وقع فى ١٢ آذار/ مارس ١٩٤٥ م. و لم تكن فلسطين عضوا فى الجامعة العربية، لكنها لم تغب عنها كقضية، إذ ورد فى بروتوكول الإسكندرية: «ترى اللجنة أن فلسطين ركن مهم

من أركان البلاد العربية، و أن حقوق العرب لا يمكن أن تمس من غير إضرار بالسلم و الاستقرار بالعالم العربي، كما ترى اللجنة أن التعهدات التي ارتبطت فيها الدولة البريطانية، و التي تقضى بوقف الهجرة اليهودية و المحافظة على الأراضي العربية، و الوصول إلى استقلال فلسطين، هي من حقوق العرب الثابتة، و التي تكون المبادرة إلى تنفيذها خطوة نحو الهدف المطلوب في استتباب السلم و تحقيق الاستقرار». الموجز في تاريخ فلسطين السياسي ؛ ص ٤٩٤

في ميثاق جامعة الدول العربية، عولجت قضية فلسطين في ملحق خاص، جاء فيه: «ترى الدول الموقعة على ميثاق الجامعة العربية أنه نظرا إلى ظروف فلسطين الخاصة، و إلى أن يتمتع هذا القطر بممارسة استقلاله فعلا، يتولى مجلس الجامعة أمر اختيار مندوب عربي من فلسطين للاشتراك في أعماله». و يتضح من هذا الملحق التهرب من مواجهة الواقع المتشكل في فلسطين، إذ تحاشى اتخاذ موقف صريح من المشروع الصهيوني، و اكتفى بالنيابة عن الشعب الفلسطيني في توكيل مجلس الجامعة بتعيين مندوب عن ذلك الشعب لدى الجامعة، فاختير موسى العلمي، بموافقة الأحزاب الفلسطينية. لقد وضع ميثاق الجامعة العربية قضية فلسطين في إطارها القومي الصحيح، بجعلها قضية عربية، و لكن في ملحق خاص، كمؤشر إلى تدنى أهميتها في سلم أولويات الدول التي تقاطعت مصالحها على تشكيل تلك الجامعة في حينه. و قد ظلت قضية فلسطين على جدول أعمال الجامعة العربية منذ تأسيسها، و لكن من دون إجماع على معالجتها بصورة تتوازي مع إلحاحيتها. و أصبحت الجامعة هي الناطق باسم القضية الفلسطينية، من دون امتلاك أداة ذاتية لتنفيذ القرارات بشأنها، و ترك الأمر للدول العربية، التي كانت مشغولة بقضاياها الخاصة بعد الحرب.

و في ٨ أيار/ مايو ١٩٤٥ م، وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها باستسلام ألمانيا من دون شروط، و لم يكن مّر على هاري ترومان أكثر من شهر في البيت الأبيض، كرئيس للولايات المتحدة. و في ٢٢ أيار/ مايو ١٩٤٥ م، تقدمت الوكالة اليهودية بطلب إلى الحكومة البريطانية للموافقة على برنامج بلمور، و إصدار بيان

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩٥

يتضمن ما يلي: (١) الإعلان الفوري عن تأسيس دولة يهودية في فلسطين «كاملة و غير منقوصة»؛ (٢) إيلاء مسألة الهجرة اليهودية إلى فلسطين للوكالة اليهودية؛ (٣) الحصول على قرض دولي لتمويل هجرة المليون الأول من المهاجرين اليهود؛ (٤) دفع تعويضات ألمانية إلى «الشعب اليهودي»، من أجل إعمار فلسطين، و مصادرة جميع الأملاك الألمانية فيها لمصلحة الاستيطان الصهيوني؛ (٥) توفير المرافق الدولية المجانية لخروج اليهود الراغبين في الهجرة إلى فلسطين، و عبورهم في البلدان المعنية في الطريق إليها. وردت الحكومة البريطانية على الطلب أن المسألة يجب أن تبحث في مؤتمر السلام بمشاركة الدول العظمى، الأمر الذي اعتبرته المنظمة الصهيونية دعوة إلى المشاركة في المؤتمر، أسوة بما حدث بعد الحرب الأولى.

و لأن الحرب قد انتهت، و لم يعد الرفض العربي للمشروع الصهيوني يتمتع بالأهمية نفسها، فقد أصبح بإمكان حكومتى بريطانيا و الولايات المتحدة الإفصاح أكثر فأكثر عن انحيازهما إليه. و بينما كانت حكومة تشرشل قد رفضت أيديها من الكتاب الأبيض (١٩٣٩ م) تماما، كان في البيت الأبيض الأميركي أحد أهم الركائز الصهيونية على الإطلاق، هاري ترومان. و في الواقع، فإن ترومان أدى دورا مركزيا خلال سنوات رئاسته في إقامة الكيان الصهيوني، و تأمين الاعتراف الدولي بشرعية اغتصابه لفلسطين، و طرد سكانها منها. ففي عهد ترومان جرى الإعلان عن قيام الكيان الصهيوني، و تعهدت الولايات المتحدة تأمين الغطاء السياسي له و الاعتراف الدولي به. و كذلك أرسيت قواعد «العلاقة المميزة» بين ذلك الكيان و الولايات المتحدة، التي أصبحت تشكل حجر الزاوية في أمنه على المستوى الاستراتيجي الأعلى، أي المتعلق بمرير قيامه و استمرار وجوده. و قد تم ذلك على حساب علاقة المشروع الصهيوني مع بريطانيا، التي احتضنته في مراحل التأسيس، أما بعد الحرب العالمية الثانية، فقد وجدت نفسها في ظروف ذاتية و موضوعية، اضطرتها إلى التخلي عن ذلك الدور لمصلحة الولايات المتحدة.

لقد عرف ترومان بارتباطه الوثيق بالأوساط الصهيونية على الساحة الأميركية منذ بداية حياته السياسية. و في مجلس الشيوخ كان حليفا

لعضويه، و اغتر و تافت، اللذين تصدرا مجموعة الضغط الصهيوني في الكونغرس، و هما يمثلان ولاية نيويورك، حيث التأثير الصهيوني القوي. و في أثناء توليه منصب نائب الرئيس، كان داعية متحمسا لدعم المطالب الصهيونية، داخل الإدارة الأمريكية و خارجها. و في فترة رئاسته،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩٦

و بموازة النشاط الصهيوني داخل الإدارة الأمريكية، كان البيت الأبيض رأس الحربة لتجنيد الكونغرس في دعم الأهداف الصهيونية. و قد تمحورت تلك الأهداف في حينه حول فتح أبواب فلسطين لهجرة اليهود الواسعة، و تأمين تبنى الولايات المتحدة للمشروع الصهيوني فيها، و الحصول على اعتراف الدول الكبرى به، عضوا في هيئة الأمم التي كانت قيد الإنشاء. و طوال سنوات رئاسته، ظل ترومان يصارع من دون هوادة لتثبيت أركان ذلك المشروع، كما في الولايات المتحدة، كذلك على الصعيد الدولي، و تقديم الدعم المادي له لتعزيز وجوده في فلسطين.

و كان مؤتمر بوتسدام (١٧ تموز/ يوليو - ٣ آب/ أغسطس ١٩٤٥ م) مناسبة جيدة للمنظمة الصهيونية لممارسة الضغط على حكومة بريطانيا، عبر ترومان، للاستجابة للطلبات التي تقدمت بها إليها. و في أثناء انعقاد المؤتمر هزم تشرشل في الانتخابات، فغادر بوتسدام، و حل محله رئيس حكومة جديد، أتلى و معه وزير خارجيه جديد، بيغن بدلا من إيدن. و كان ترومان، لدى سفره للقاء تشرشل و ستالين، تلقى عرضة موقعه من ٣٧ حاكم ولاية أميركية، تدعوه إلى طرح مسألة تكتيف الاستيطان الصهيوني في فلسطين مع رؤساء الدول المشاركين في مؤتمر بوتسدام. غير أنه لم يتم الاتفاق بهذا الشأن بسبب موقف بيغن، الذي أصبح عقبه في وجه المطالب الصهيونية، بعد أن كان من أنصارها في السابق، و كان ترومان يعول على تعاطف تشرشل مع الصهيونية، و قد كتب له في أثناء المؤتمر مذكرة، جاء فيها: «إن معرفتي بتعاطفك العميق مع الاستيطان الصهيوني في فلسطين، تشجعني على الإعراب عن الأمل أن تجد حكومة بريطانيا من الممكن، و من دون تأخير، رفع القيود التي يتضمنها الكتاب الأبيض بشأن هجرة اليهود إلى فلسطين.»

لكن تشرشل أخلى مكانه لأتلى، الذي أجاب على المذكرة بقوله: «إنكم لتفهمون بالتأكيد إنني لا- أستطيع أن أدلى بأى بيان عن السياسة حتى يتوفر لنا الوقت للنظر في الموضوع. و أردت فقط أن أحيطكم علما بأننا سنولي مذكرتك العناية و الاعتبار المبكر.» و جاء رد أتلى بينما المعارضة العربية للمطالب الصهيونية تتصاعد.

و حتى تشرشل أدلى بتصريحات مفادها أنه يجب ألا تتحمل بريطانيا وحدها المسؤولية عن النتائج الناجمة عن إنشاء «الوطن القومي اليهودي» في فلسطين. و كذلك رد بيغن أن المطالب الصهيونية تستلزم تجنيد نصف مليون جندي لفرصها بالقوة. و كانت قضية فلسطين موضع بحث و وجهات نظر في لندن بعد انتهاء الحرب، و ذلك في سياق

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩٧

ترتيبات ما بعد الحرب، و في ضوء نتائجها، و بالتالي السياسة الاستعمارية بمجملها، الأمر الذي راحت أميركا تعد نفسها لاستغلاله لمصلحتها. و لدى عودته من بوتسدام، أصدر ترومان بيانا للصحافة، جاء فيه: «إن وجهة النظر الأميركية بشأن فلسطين هي أننا نريد إدخال أكبر عدد ممكن من اليهود إليها. و بعد ذلك ستعالج بالطرق الدبلوماسية مع الإنكليز و العرب. و ليست لدى الرغبة في إرسال نصف مليون جندي أميركي للمحافظة على السلام في فلسطين.»

و أرسلت إدارة ترومان، عندما بدأت قوات الحلفاء تأهيل الأسرى و توطينهم في أوروبا، لجنة للتحقيق في أوضاع اليهود هناك. فعادت إلى واشنطن و قدمت تقريرا يؤكد رغبة يهود ألمانيا القوية في مغادرتها إلى فلسطين فورا. و ادعى التقرير أن هناك نحو ٥٠٠، ١٠٠ يهودي في معسكرات الاعتقال الألمانية، يريدون التوجه إلى فلسطين. و كتب ترومان إلى قائد القوات الأميركية في أوروبا، الجنرال أيزنهاور بإيلاء المهجرين اليهود عناية الخاصة، مؤكدا له أنه على اتصال مع حكومة بريطانيا لفتح أبواب فلسطين أمام هجرتهم و استيعابهم. و في الواقع، بدأت السلطات البريطانية، منذ نهاية سنة ١٩٤٥ تسمح بهجرة اليهود إلى فلسطين، متجاهلة الكتاب

الأبيض، تحت ضغط إدارة ترومان، الذي تواصل بوتيرة متصاعدة.

وعلى الرغم من نصائح وزارة الخارجية الأميركية بالتروي، فإن ترومان أوغل في تأييده للمطالب الصهيونية، والإلحاح على حكومة لندن، وصولاً إلى حد التهديد الصريح. وجاء ذلك على لسان رئيس بلدية نيويورك، الذي خاطب حشداً صهيونياً، ووجهها كلامه إلى السفير البريطاني، اللورد هاليفاكس، الذي راح يتبرم بالضغط الذي يتعرض له، فقال: «إذا كانت بريطانيا تريد أرصده مالياً، فالسبيل الأفضل إليها أن يبرّ المستدين بوعده.» وسرعان ما تحول التنديد إلى موجة تهديد لبريطانيا وسمعتها ومستقبلها الاقتصادي. وكانت بريطانيا قد خرجت لتوها من الحرب، منهكة اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً. وجاء الضغط الأميركي ليدفعها إلى البحث عن مخرج لها من المأزق الفلسطيني، الذي أصبح يشكل إحراجاً لها.

وبينما ضغوط واشنطن تشتد على حكومة لندن، صعّدت المنظمات الصهيونية عملياتها الإرهابية في فلسطين. وحاولت حكومة أتلي الصمود، حرصاً منها على حماية مصالحها في المنطقة، لكنها كانت قد ضعفت كثيراً جرّاء الحرب. وكان التعبير

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩٨

الأول عن رضوخها إلى التحالف الأميركي - الصهيوني، قبولها بتشكيل اللجنة الأنكلو - أميركية (١٩ تشرين الأول / أكتوبر ١٩٤٥ م) لمعالجة المسائل المتعلقة بفلسطين، الأمر الذي يعنى دخول أميركا على هذا الخط شريكاً متساوياً مع بريطانيا، كخطوة أولى. وبينما راحت الأخيرة تقترب أكثر فأكثر من العرب لاستغلال رفضهم المشروع الصهيوني، أوغلت الأولى في تبنيتها له، وجعلت منه قضية رئيسية لها.

والسلوك الأميركي بمجمله بعد الحرب يشير بكل وضوح إلى احتضان الولايات المتحدة للمشروع الصهيوني، واعتماده قاعدة لنفوذها في المنطقة، وركيزة لمخططاتها المستقبلية تجاه الشرق الأوسط، متعللة بالضغط الصهيوني على الساحة الأميركية لتغطي أهدافها الإمبريالية، وبالآثار التي تركتها الحرب على الجاليات اليهودية في أوروبا. وتؤكد الدلائل أن الإدارة الأميركية عملت على عرقلة الحلول التي طرحت لإعادة تأهيل اليهود في موطنهم، وأصرّت على فتح أبواب فلسطين أمام هجرتهم، تطابقاً مع السياسة الصهيونية.

لقد اصطدمت الحملة الصهيونية، المدعومة أميركياً، بموقف حكومة العمال البريطانية، الذي تصدره وزير الخارجية، إرنست بيغن، والذي راحت وزارته تؤدى الدور الرئيسي في قضية فلسطين بدلاً من وزارة المستعمرات. وفي هذه الأثناء اتضح التواطؤ الأميركي - الصهيوني لإنهاء الانتداب البريطاني، وتسليم فلسطين للاستيطان، لجعله ركيزة الاستراتيجية الأميركية في المنطقة. فما أن باشرت حكومة أتلي مهماتها، حتى تقدمت الوكالة اليهودية منها بطلب لإصدار ١٠٠,٠٠٠ تصريح هجرة إلى فلسطين، مع الإعلان الفوري أنها ستصبح دولة يهودية. وردّت وزارة المستعمرات بضرورة استنفاد التصاريح الممنوحة أولاً، وعددها ٢٠٠٠، ومن ثمّ ستسعى للحصول على موافقة العرب على معدل ١٥٠٠ تصريح شهرياً. لكن الوكالة اليهودية رفضت هذا الرد واعتبرته غير مقبول، وكذلك كان موقف الإدارة الأميركية.

وإزاء تردد الحكومة العمالية في لندن بالاستجابة للمطالب الصهيونية - الأميركية، ازداد الضغط عليها، سواء في بريطانيا نفسها، إذ ارتفعت أصوات تنادى بالتخلي عن الانتداب، والتخلص من المسؤولية عن نتائجه، أو في الولايات المتحدة بصور متعددة: سياسية واقتصادية وإعلامية. و مرة أخرى ترافقت هذه الحملة بموجة من تصعيد الأعمال الإرهابية الصهيونية، وتنشيط الهجرة غير الشرعية. وفي ضوء ذلك، لجأت الحكومة البريطانية إلى طرح فكرة تشكيل اللجنة الأنكلو - أميركية لتقصي الحقائق في فلسطين، وتقديم التوصيات لحل الإشكالات المتعلقة بهجرة يهود أوروبا إلى فلسطين. لقد ارتأت حكومة أتلي إشراك الولايات

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٤٩٩

المتحدة في تحمّل مسؤولية القرارات والإجراءات المتخذة بهذا الشأن.

وجاء الإعلان عن تشكيل اللجنة الأنكلو-أميركية في بيان قدمه بيغن في مجلس العموم (١٣ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٤٥ م)، و عرض فيه سياسة حكومته في فلسطين. و يتضح من خطوة الحكومة هذه، وغيرها من التصريحات والإجراءات، أنها أرادت التوصل إلى تفاهم مع الإدارة الأميركية و الوكالة اليهودية، لإيجاد سبل للخروج من المأزق. و بعد بيانه في مجلس العموم، صرح بيغن في مؤتمر صحافي إلى مراسلين أميركيين أن سياسة حكومته تنطوي على ما يلي: (١) تصبح فلسطين دولة تحت وصاية الأمم المتحدة، و في الوقت المناسب تكون لها حكومة ذاتية فلسطينية لا حكومة يهودية؛ (٢) سوف تحافظ بريطانيا على الحصص الشهرية للهجرة بمعدل ١٥٠٠، بعد استنفاد الحصص المحددة في الكتاب الأبيض؛ (٣) يجري التشاور مع العرب الآن بصدد الهجرة اليهودية؛ (٤) التمييز بين الدولة اليهودية، التي لن تتعهد حكومته بإنشائها، و «الوطن القومي اليهودي»، الذي يجب تنفيذه؛ (٥) ضرورة أن يمتنع اليهود من المبالغة في التأكيد على وضعهم العنصري. و ناشد بيغن يهود العالم، خارج المنظمة الصهيونية، أن يساعدوا في إيجاد حل لمشكلة فلسطين. و أندر بأن المسألة لا يمكن معالجتها إلا بالمداولة و التوفيق، و أن اللجوء إلى القوة سوف يقابل بالحزم. و كان بيغن قد ردّ على كلام لوايز من فيه تحدّ للحكومة البريطانية بقوله: «ما الذي تعنونه برفض شهادات الهجرة التي نصّ عليها الكتاب الأبيض؟ أتحاولون إرغامى على قبول رأيكم؟ إن أردتم قتالا فليكن.»

و باشرت اللجنة الأنكلو-أميركية عملها في واشنطن بتاريخ ٤ كانون الثاني/يناير ١٩٤٦ م، فاستمعت إلى شهادات من أنصار الصهيونية و القضية العربية. ثمّ انتقلت إلى لندن، حيث كانت هيئة الأمم تعقد اجتماعاتها، و استمعت إلى شهادات ممثلى الدول العربية و الوكالة اليهودية و بعض الشخصيات المؤيدة لهذا الطرف أو ذاك. و في ٢٨ شباط/فبراير ١٩٤٦ م، وصلت إلى القاهرة حيث استمعت إلى الأمين العام للجامعة العربية و غيره من أعضائها. و فى الطريق من لندن إلى القاهرة، توزع أعضاء اللجنة على الدول الأوروبية للنظر فى أحوال اليهود فى ألمانيا و بولونيا و تشيكوسلوفاكيا و النمسا و إيطاليا و اليونان. و من القاهرة انتقلت إلى فلسطين، حيث أمضت الفترة من ٦ إلى ٢٨ آذار/مارس ١٩٤٦ م تستمع إلى شهادات العرب و اليهود. و من فلسطين توزعت على العواصم العربية-دمشق و بيروت و بغداد و الرياض و عمان. و فى جميع

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٠٠

محطاتها، سمعت من الجانب العربى رفض المشروع الصهيونى، و عدم شرعيته، و التذمر من انحياز الغرب إليه ضد العرب. و فى المقابل، سمعت من الجانب الصهيونى المطالبة بإقامة «إسرائيل» فوراً، أخذاً فى الاعتبار التعهد الدولى تجاه الصهيونية، و الالتزام الأخلاقى العالمى تجاه مصير اليهود فى أوروبا فى أثناء الحرب العالمية الثانية.

و قد جاء فى توصيات اللجنة الأنكلو-أميركية (٢٠ نيسان/أبريل ١٩٤٦ م) ما يلى: (١) السماح خلال ١٠٠،٠٠٠ يهودى بالهجرة إلى فلسطين؛ (٢) أن لا تكون فلسطين دولة عربية أو يهودية؛ (٣) يقام الحكم الذاتى فيها بضمانات دولية، و لا تكون الكلمة العليا للأكثرية العرقية؛ (٤) تبقى تحت الانتداب البريطانى إلى أن يتسنى وضعها تحت وصاية الأمم المتحدة؛ (٥) تلغى جميع القيود المفروضة على انتقال الأراضى. و أشارت اللجنة فى تقريرها إلى رغبة العرب فى الاستقلال و الانضمام إلى الجامعة العربية. كما اعترفت بأن الوكالة اليهودية هى حكومة داخل حكومة الانتداب، و بأنها تمتلك قوة عسكرية يقدر عددها ب ٦٠،٠٠٠ رجل. و بذلك نسفت اللجنة الكتاب الأبيض (١٩٣٩ م).

و التقطت إدارة ترومان البند المتعلق بهجرة ١٠٠،٠٠٠ يهودى إلى فلسطين، و أعلنت تأييدها القوى له، متجاهلة البنود و التوصيات الأخرى. و قد دعا ذلك رئيس حكومة بريطانيا إلى تذكير الرئيس الأمريكى، فى أثناء مناقشة الموضوع فى مجلس العموم، أنه ينبغى أخذ التقرير ككل متكامل، و إلا استوجب الأمر فرضه بالقوة، و عندها لا بدّ من توضيح مقدار استعداد الإدارة الأميركية لتحمل مسؤولية ذلك عسكرياً و اقتصادياً. و ردّت المنظمات الصهيونية فى أميركا على أقوال أتلى بالتأكيد: «إننا نرغب فى طمأننة الشعب الأميركي أنه لا-حاجة قط، و لو لجندى أميركى واحد، للمحافظة على الأمن فى فلسطين، و أن طلب السيد أتلى إرسال جنود

أميركيين، مثله مثل إصراره على نزع سلاح القوات العبرية، ليس إلّا ذريعة للمماطلة... إن الإمبريالي المجرب قد نقل خطوط المناورة بعيدا جدا عن ساحة المعركة الحقيقية.» في المقابل، أذان الكثيرون من موظفي حكومة الانتداب تقرير اللجنة الأنكلو-أميركية، و اعتبروه صفقة تنازل بريطانية لمصلحة الولايات المتحدة و الصهيونية.

لقد تبين للجنة الأنكلو-أميركية تعذر التقريب بين مواقف العرب و اليهود

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠١

سلما، أو بالتراضي، و خصوصا نتيجة التطرف الصهيوني، فطرحت مسألة استعمال القوة العسكرية لفرض الحلول قسرا. لكن كلا من بريطانيا و أميركا كانت تتحاشى تولى الأمر بنفسها، خشية انعكاس ذلك على مصالحها في البلاد العربية، من جهة، و إمكان أن يفتح ذلك الباب واسعا أمام التدخل السوفياتي في المنطقة، من جهة أخرى. هذا في حين أصرت المنظمات الصهيونية على أن لا ضرورة لهاتين القوتين بالتدخل العسكري، ملمحة إلى أن القوات العسكرية الصهيونية، بدعم من المتطوعين اليهود، قادرة على تولى المسألة بنفسها. و بهذا أوجدت المخرج للرئيس الأميركي، و الإخراج لحكومة بريطانيا، التي كانت لا تزال الدولة المنتدبة.

و بعد مغادرة اللجنة الأنكلو-أميركية فلسطين، كثفت المنظمات الصهيونية أعمالها الإرهابية ضد حكومة الانتداب، و كذلك ضد الأفراد و الضباط، بما في ذلك محاولة اغتيال المندوب السامي. وردت القوات البريطانية بعنف على تلك الأعمال، و بدعم قوى من الفيلد-مارشال مونتغمري، قائد عام القوات البريطانية في الشرق الأوسط. و قد تسبب ذلك بردات فعل غاضبة في الولايات المتحدة، الأمر الذي شجع تلك المنظمات على تصعيد إرهابها، وصولا إلى نسف فندق الملك داود، مقر الإدارة البريطانية في القدس (٢٢ تموز/ يوليو ١٩٤٦ م). و في النتيجة، شهدت سنة ١٩٤٦ م توترا عاليا بين المنظمة الصهيونية، تدعمها الولايات المتحدة، و بين الحكومة البريطانية، بهدف دفع هذه الأخيرة لإنهاء الانتداب و تسليم فلسطين للاستيطان للصهيوني، الذي صار يعتبر نفسه مؤهلا لإقامته كيانه السياسي فيها، و بقوة السلاح إذا لزم الأمر.

إن تقويما شاملا للعمل السياسي المنسق بين الوكالة اليهودية و الإدارة الأميركية، و كذلك النشاط الإرهابي للعصابات الصهيونية ضد حكومة الانتداب، و الضغط السياسي و الاقتصادي الذي مارسه إدارة ترومان على حكومة أتلي، يظهر التآمر الأميركي-الصهيوني لإنهاء الانتداب البريطاني في فلسطين، و تحويلها إلى قاعدة للنفوذ الأميركي في المنطقة، عبر إقامة الكيان الصهيوني فيها. و كان أول من طرح فكرة الانسحاب من فلسطين علنا، و نستون تشرشل، الذي أصبح في سنة ١٩٤٦ م زعيم المعارضة. و تدرج بالضرر الذي تلحقه قضية فلسطين ببريطانيا و مصالحها في المنطقة و العالم، و قابل بين التكلفة و المردود مستخلصا أن مصلحة بريطانيا تملى عليها إنهاء الانتداب، و وضع القضية في أيدي الأمم المتحدة. و عرض تشرشل الأسباب التي أوصلته إلى هذا الطرح، فأورد عجز بريطانيا عن معالجة الوضع المتفاجم في فلسطين، و الحرص على عدم إلحاق الأذى بالأهداف الصهيونية، أو

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠٢

تعريض علاقات بلاده بالولايات المتحدة إلى التوتر، في حين تجد بريطانيا نفسها بحاجة إلى الدعم المالي الأميركي. و في المؤتمر الصهيوني الثاني و العشرين (كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٦ م) برز التحول بنقل المشروع الصهيوني من مجال النفوذ البريطاني إلى الأميركي. و في قرارات المؤتمر جرى التأكيد على «جعل فلسطين دولة يهودية مندمجة في البناء الديمقراطي العالمي»، و فتح أبوابها للهجرة اليهودية، و تولى الوكالة اليهودية المسؤولية عن ذلك. و تواكب ذلك مع تصاعد الدعوة إلى انسحاب بريطانيا من فلسطين و التخلي عن الانتداب، حتى من قبل الأوساط العسكرية، بمن فيهم الفيلد-مارشال مونتغمري نفسه. و نتيجة تصاعد الإرهاب الصهيوني، من دون قرار حكومي بريطاني بقمعه لاعتبارات ردات الفعل الأميركية، و حاجة بريطانيا إلى الدعم المالي الأميركي، لم يبق من مخرج إلّا التخلي عن الانتداب. و هذا يفسح المجال أمام الولايات المتحدة لتحقيق أهدافها بذريعة «ملء الفراغ»، و الحؤول دون «التمدد الشيوعي»، عبر الكيان الصهيوني في الشرق الأوسط.

و من خلال اللجنة الأنكلو-أميركية أصبحت واشنطن شريكا كاملا- في تقرير مصير الانتداب في فلسطين، و بالتالي الاستيطان الصهيوني فيها، على قدم المساواة مع الحكومة البريطانية. و من موقعها هذا، راحت تناور بالتواطؤ مع الوكالة اليهودية لإنهاء الانتداب البريطاني، و تهيئة الأوضاع لتسليم فلسطين للاستيطان. و قد استخدمت إدارة ترومان مسأله «هجرة المئه ألف يهودى إلى فلسطين فوراً»، أداة لنسف كل محاولات الحكومة البريطانية تدبر الأمور، و خصوصا أنها كانت فى خضم مفاوضات لعقد اتفاق مع الحكومة المصرية بشأن قناة السويس. و كان واضحا أن واشنطن كانت تسعى لإحباط مساعى لندن فى هذا السبيل. و عندما ضاق ذرع الحكومة البريطانية ببيانات الإدارة الأميركية، رد إرنست بيفن أن الإلحاح الأميركي ليس إلّا وسيلة للتغطية على قوانين الهجرة الأميركية «التي لا تحبذ دخول اليهود إلى الولايات المتحدة.» و قد أثار ذلك سخط إدارة ترومان، و استدر عددا من الردود الأميركية القاسية. و على أية حال، فإن الضغط الأميركي-الصهيونى، مترافقا مع تصاعد العمليات الإرهابية ضد حكومة الانتداب، و مع الرفض العربى للمشاريع المطروحة، فى مرحلة ما بعد الحرب، و بينما الحكومة البريطانية تواجه مشكلات اقتصادية و اجتماعية داخلية، و سياسية خارجية، بشأن موقعها فى التشكيلات الناجمة عن نتائج الحرب، قد دفعت جميعها تلك الحكومة إلى طرح قضية فلسطين على الأمم المتحدة، الأمر الذى انتهى بفعل الموقف الأميركي إلى قيام الكيان الصهيونى،

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٠٣

و الاعتراف بشرعية اغتصابه لفلسطين على الصعيد الدولى.

ب) القضية فى الأمم المتحدة

فى ٢ نيسان/ أبريل ١٩٤٧ م، تقدم المندوب البريطانى فى هيئة الأمم بطلب من الأمين العام لوضع قضية فلسطين على جدول أعمال الدورة القادمة للجمعية العامة. ثم بعد التداول، تقرر عقد جلسة خاصة للهيئة العامة لمناقشة الموضوع. و قد جاء ذلك، إضافة إلى الضغط الأميركي-الصهيونى، نتيجة الرفض العربى للطروحات البريطانية، سواء من قبل الجامعة العربية، أو اللجنة العربية العليا، و اتهام تلك الحكومة بالتراجع عن الكتاب الأبيض. و كانت توصيات اللجنة الأنكلو-أميركية قد خيبت آمال العرب، و فى إثرها عمّت فلسطين و الأقطار العربية موجة من التظاهرات و الإضرابات و الاحتجاج، و طالبت الحكومات العربية باتخاذ موقف حاسم إزاء قضية فلسطين.

كما ارتفعت أصوات تنادى بوجوب الاتجاه نحو الاتحاد السوفياتى و التعاون معه، بعد ما «انكشف غدر البريطانيين و الأميركيين، و وضع تأمرهم على العرب.» كما طالبت بوجوب الاستعداد للمقاومة المسلحة الرسمية و الشعبية، و البدء بترحيل النساء و الأطفال عن فلسطين تسهيلا لحركة الجهاد، و تشكيل لجان طوارئ... إلخ.

فى ١٠ أيار/ مايو ١٩٤٦ م، قدم ممثلو خمس دول عربية-مصر و العراق و سورية و لبنان و السعودية-مذكرة احتجاج إلى نائب وزير الخارجية الأميركي، دين أتشيسون، بشأن توصيات اللجنة الأنكلو-أميركية، فأكد لهم هذا فى رده أنه قبل اتخاذ أية إجراءات عملية سيجرى التشاور مع الزعماء العرب، و أن توصيات اللجنة غير ملزمة للسياسة الخارجية الأميركية فى شىء. كما بينت الحكومة البريطانية أنها ستعلن قرارها بعد التشاور مع الحكومة الأميركية، و كذلك مع العرب و اليهود. و عقد الملوك و الرؤساء العرب مؤتمرهم الأول فى أنشاص (مصر) لبحث القضية الفلسطينية من ٢٨ إلى ٢٩ أيار/ مايو ١٩٤٦ م، فأجمع فى مقرراته على أن «فلسطين قطر عربى، و هو القلب فى المجموعة العربية... و أن الأخذ بتوصيات لجنة التحقيق الأنكلو-أميركية تعتبره دول الجامعة عملا عدائيا موجها ضدها.» أما الإجراءات، فقد أحيلت إلى مجلس الجامعة، الذى تقرر عقده فى بلودان (سورية) من ٨ إلى ١٢ حزيران/ يونيو ١٩٤٦ م، للنظر فى تقرير اللجنة، و اتخاذ القرارات الملائمة بشأنه.

و فى اجتماع بلودان الاستثنائى، اتخذ مجلس الجامعة قرارات علنية و أخرى سرية. و يمكن تلخيص العلنية منها كالتالى: (١) رفض

توصيات اللجنة الأنكلو-أميركية، و اعتبار الأخذ بها عملاً غير ودي موجهاً ضد العرب؛ ٢) التفاوض مع

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠٤

الحكومة البريطانية بشأن قضية فلسطين، و عرضها على هيئة الأمم المتحدة فيما لو تعذر الوصول إلى حل مرض؛ ٣) إنشاء مكاتب مقاطعه الصهيونية؛ ٤) وضع تشريعات لبيع الأراضي لليهود؛ ٥) رفض التقسيم بجميع صورته؛ ٦) إنشاء لجان دفاع عن فلسطين في كل دولة عربية، و إصدار طابع بريد يرصد ريعه للقضية الفلسطينية؛ ٧) تشكيل هيئة جديدة تمثل الشعب الفلسطيني و قضيته، و توصية الحكومات العربية بدعمها. كما اتخذ المجلس القرارات السرية التالية: ١) حث الشعوب العربية على التطوع لنصرة عرب فلسطين بجميع الوسائل - بالمال و السلاح و المجاهدين؛ ٢) إذا قبلت توصيات اللجنة الأنكلو-أميركية، و شرع في تنفيذها، تتخذ الدول العربية التدابير التالية: أ) عدم السماح للدولتين - البريطانية و الأميركية - أو لإحدهما، أو لرعاياهما، بأى امتياز جديد؛ ب) عدم تأييد مصالح هاتين الدولتين في أية هيئة دولية؛ ج) مقاطعتهم مقاطعة أديبة؛ د) النظر في إلغاء ما يكون لهما من امتيازات في البلاد العربية؛ ه) رفع الشكوى إلى مجلس الأمن و إلى الأمم المتحدة. و بعثت دول الجامعة العربية بمذكرات تتضمن هذه القرارات إلى كل من حكومتى بريطانيا و الولايات المتحدة.

و استجابت الحكومة البريطانية لطلب الحكومات العربية التفاوض لحل القضية الفلسطينية، و حددت ١٠ أيلول / سبتمبر ١٩٤٦ م موعداً لعقد مؤتمر في لندن لهذه الغاية. و بناء عليه، عقد وزراء خارجية الدول العربية اجتماعاً في الإسكندرية، قرروا فيه ألا يجلس العرب مع ممثلى الوكالة اليهودية، و ألا يعترفوا لهم بحق التفاوض، و لا أميركا بحق التدخل، كما قرروا رفض كل مشروع يؤول إلى التقسيم. في هذه الأثناء، توصلت الإدارة الأميركية مع الحكومة البريطانية إلى اتفاق على مشروع موريسون، الذى تقدمت به الحكومة البريطانية إلى الوفد العربى. و هو يتضمن تقسيم فلسطين إلى أربع مناطق إدارية كالتالى: ١) منطقة يهودية؛ ٢) منطقة عربية؛ ٣) القدس و بيت لحم؛ ٤) النقب. و رفض العرب المشروع، فطلبت منهم حكومة بريطانيا تقديم مشروع بديل، ففعلوا، و قدموا مشروعاً يتضمن النقاط التالية: ١) استقلال فلسطين دولة موحدة، بحكم ديمقراطى، و جمعية تأسيسية تضع الدستور، و حكومة انتقالية برئاسة المندوب السامى؛ ٢) إيقاف الهجرة اليهودية؛ ٣) عقد معاهدة تحالف مع بريطانيا؛ ٤) ضمان حماية الأماكن المقدسة و حرية زيارتها للجميع. و فى النتيجة لم تتمخض المفاوضات عن توافق بين الأطراف، فعلقت المفاوضات لمدة شهرين.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠٥

و فى الدورة الثانية من المؤتمر (٢٨ كانون الثانى / يناير ١٩٤٧ م)، الذى دعيت إليه الهيئة العربية العليا بتشكيلها الجديد، ترأس الوفد جمال الحسينى، لأن السلطات لم تسمح للحاج أمين بدخول الأراضي البريطانية، و بداية رفضت الحكومة البريطانية المشروع العربى، و تقدمت بمشروع معدل عن مشروع موريسون، الذى تراجعت عنه الإدارة الأميركية، عرف باسم مشروع بيفن. و هو يقوم على مبدأ «الوصاية» البريطانية على فلسطين لخمسة أعوام، يجرى خلالها التمهيد للاستقلال، عبر خطوات إجرائية معقدة. و كان واضحاً أن الحكومة البريطانية تريد الخروج من المأزق، و كسب الوقت، أملاً فى حدوث تطورات تساعد على حلحلة الأزمة المستعصية. و رفضت الوفود العربية المشروع، و كذلك فعلت الوكالة اليهودية، لأنه لا يلبى المطالب العربية بالاستقلال، و لا المطالب الصهيونية بإقامة الدولة اليهودية. و عند هذا الحد، وصلت الحكومة البريطانية إلى الطريق المسدود، فأعلنت فى ١٤ شباط / فبراير ١٩٤٧ م عزمها على إحالة الموضوع بأكمله إلى الأمم المتحدة.

لقد كثرت التأويلات لقرار بريطانيا التخلي عن انتدابها على فلسطين و الانسحاب منها، و وجهت إليها اتهامات بالتآمر مع الولايات المتحدة و الصهيونية لتسليم فلسطين للاستيطان، لكى لا تتحمل مسؤولية ذلك منفردة. و فى المقابل، جرى تبرير إقدامها على هذه الخطوة بعجزها عن التوفيق بين مطالب الأطراف المتعددة، و إحجامها، لأسباب ذاتية و موضوعية، عن اللجوء إلى استخدام القوة لفرض إرادتها. و مهما يكن الأمر، فلا بدّ من النظر إلى المسألة من زاوية الاعتبارات البريطانية للحفاظ على مصالحها، فى ظروف

الزمان و المكان، و حساب التكلفة و المردود في سياستها الخارجية، و تحديدا إزاء فلسطين، و أبعاد قضيتها عربيا و أميركيا. فبعكس مرحلة ما بعد الحرب العالمية الأولى، لم تعد بريطانيا بعد الثانية قوة مهيمنة، و زاد اعتمادها على الولايات المتحدة، و خصوصا إزاء تصاعد قوة الاتحاد السوفياتي. و في هذا السياق، كان الحفاظ على التحالف مع أميركا مصيريا، و ظل راسخا رسوخ اهتمام بريطانيا بصيانة موقعها الدولي، و التباين في وجهات النظر بينهما بشأن فلسطين لم يكن من شأنه إحداث شرخ في العلاقات بين الدولتين. في المقابل كان طرح القضية الفلسطينية على الأمم المتحدة، فرصة مواتية للولايات المتحدة لاحتضان المشروع الصهيوني، و تأمين إقامة الدولة اليهودية، بقرار من الهيئة الدولية، فتحقق أهدافها من ذلك المشروع، تحت غطاء الشرعية الدولية. و في الأمم المتحدة، تولت الإدارة الأميركية، برئاسة ترومان، تمرير القرارات اللازمة لتجسيد المشروع الصهيوني، و الاعتراف الدولي به، لما كانت تتمتع به من تأثير

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠٦

و نفوذ في تلك المنظمة الدولية. و كذلك، و استنادا إلى الدعم الأميركي، توسمت الوكالة اليهودية الخير في نقل قضية فلسطين إلى أروقة الأمم المتحدة، و راحت تعد العدة للاستيلاء على البلد بقرار دولي. في المقابل، فالعرب الذين طالبوا بإنهاء الانتداب، و نقل القضية إلى الأمم المتحدة، وجدوا أنفسهم مرة أخرى بعد الحرب العالمية الثانية، كما كانوا بعد الأولى، في مواجهة تحالف دولي، تقوده هذه المرة الولايات المتحدة، و يعمل على استلاب فلسطين، و تحويلها إلى إسرائيل، بكل ما ينجم عن ذلك من نتائج، و خصوصا لناحية تغييب شعبها عنها، ماديا و سياسيا و حضاريا. و كان عليهم أن يخوضوا المعركة لصيانة حقوقهم مرة أخرى، و لكن من دون نجاح كبير.

و عقدت الجمعية العامة للأمم المتحدة دورة استثنائية لمناقشة الوضع في فلسطين بتاريخ ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٤٧ م، و قررت في ٧ أيار/ مايو ١٩٤٧ م تشكيل لجنة تحقيق دولية. و تشكلت لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (أنسكوب) من أحد عشر عضوا، بعد استبعاد الدول الخمس الكبرى عنها، بذريعة «الموضوعية»، و تداركا للانحياز الذي تتسم به مواقف تلك الدول، انطلاقا من مصالحها. و شارك فيها مندوبو: استراليا و كندا و تشيكوسلوفاكيا و غواتيمالا- و الهند و هولندا و إيران و بيرو و السويد و الأوروغواي و يوغسلافيا، و ترأسها القاضي السويدي، إميل ساندستروم.

و رفضت الدول العربية فكرة اللجنة و تركيبها. و صوتت ضد قرار تشكيلها، و أيدتها تركيا و أفغانستان. و أعلن المندوب البريطاني في الأمم المتحدة، سير ألكسندر كادوغان، (٩ أيار/ مايو ١٩٤٧ م) أن حكومته، على الرغم من احترامها لأي قرار تصدره الجمعية العامة، ترى ألا تتحمل بريطانيا وحدها مسؤولية تطبيقه، إذا رفضه اليهود و العرب.

و قررت الهيئة العربية العليا مقاطعة لجنة التحقيق التابعة للأمم المتحدة، و دعت إلى الإضراب يوم وصولها إلى القدس بتاريخ ١٧ حزيران/ يونيو ١٩٤٧ م، فاستجابت البلاد عامة. أما اللجنة السياسية للجامعة العربية فرأت ضرورة استقبال لجنة التحقيق، لأن حكوماتها أعضاء في الأمم المتحدة، و اتفقت على تقديم مذكرة موحدة باسم الحكومات العربية جميعا. و أوكلت مهمة الإدلاء بالمذكرة أمام اللجنة لوزير خارجية لبنان. و ورد في المذكرة الجماعية استنكار تشكيل لجان التحقيق المتكرر من دون جدوى، و التأكيد على عروبة فلسطين، و حقها في الاستقلال، و التحذير من مخاطر إقامة دولة يهودية في المنطقة، و أن الحل الوحيد هو قيام حكومة مستقلة يتمتع فيها العرب و اليهود بالحقوق و الواجبات الدستورية. و في هذه الأثناء، صعدت العصابات

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠٧

الصهيونية عملياتها الإرهابية، و كان أهمها اقتحام سجن عكا، و إطلاق سراح المعتقلين اليهود منه.

و أنهت اللجنة تقريرها، و عرضته على الجمعية العامة في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٧ م. و قد اتفق أعضاؤها على التوصيات العامة التالية: (١) إنهاء الانتداب و منح فلسطين الاستقلال؛ (٢) تسبق الاستقلال فترة انتقالية بإشراف الأمم المتحدة؛ (٣) يكون الحكم ديمقراطيا؛ (٤)

يتضمن الدستور المبادئ الأساسية للأمم المتحدة؛ (٥) ضمان حرية العبادة؛ (٦) المحافظة على الوحدة الاقتصادية للبلد؛ (٧) احترام الأماكن المقدسة وحرية زيارتها؛ (٨) صيانة تلك الأماكن؛ (٩) وضع حل سريع لمشكلة ٠٠٠، ٢٥٠ يهودى أوروبى؛ (١٠) وقف أعمال العنف.

لكن اللجنة لم تتفق حول صيغة تنفيذ توصياتها. وطرح الأكثرية -٧ أعضاء من مجموع ١١- مشروعا للتقسيم، يقوم على إجراءات متدرجة، برعاية بريطانيا، وإشراف الأمم المتحدة. وتبقى القدس تحت الإشراف الدولي. أميا مشروع الأقلية يقوم على تطوير الانتداب إلى دولة اتحادية مستقلة خلال ثلاثة أعوام، وتكون عاصمتها القدس، وتشتمل على حكومتين مستقلتين ذاتيا. وفضّل المشروع الخطوات الإجرائية وطبيعة العلاقات بين الحكومتين. وقدم المشروعان إلى هيئة الأمم المتحدة بكامل أعضائها ك لجنة خاصة. وردّ مندوب الهيئة العربية العليا على المشروعين، فرفضهما، معلنا التصميم على مقاومتها بالقوة، مؤكدا أن الحل الوحيد المقبول للعرب هو إقامة دولة ديمقراطية مستقلة، تشمل كل فلسطين. فى المقابل، أعلن مندوب الوكالة اليهودية القبول المبدئي بمشروع الأكثرية، مع التحفظ على التفاصيل.

واحتدم النقاش فى أروقة الأمم المتحدة، كما دخلت التحركات السياسية فى نشاط محموم، كانت الولايات المتحدة المحرك الرئيسى له. وتولت الإدارة الأمريكية تخطيط المناورات الإجرائية وتجديد الأصوات لدعم قرار التقسيم، بشتى الوسائل، من الإغراء والرشاوى إلى التهديد. وبعد أن أعلن المندوب الأمريكى تأييد بلاده لقرار التقسيم، عقبه المندوب السوفياتى، بشخص وزير الخارجية، أندريه غروميكو الذى كان خطابه مفاجأة دورة الأمم المتحدة تلك. وتوالى المتكلمون بين مؤيد للتقسيم ومعارض له، وبرز الموقف البريطانى بحياده الظاهرى. وفى التصويت على المشروعين سقط مشروع الأقلية (٢٤ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٤٧ م)، كما سقط

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٠٨

اقترح عربى بتحويل القضية إلى محكمة العدل الدولية فى لاهى. وبعد مناورات إجرائية أمريكية لتأجيل التصويت على مشروع الأغلبية ريثما يتم تجديد الأصوات اللازمة لإقراره، جرى التصويت عليه فى ٢٩ تشرين الثانى / نوفمبر ١٩٤٧ م فنال موافقة ٣٣ صوتا، و معارضة ١٣، و امتناع ١٠، فنجح المشروع وأصبح قرارا دوليا.

فى هذه الأثناء اتفقت الولايات المتحدة مع الاتحاد السوفياتى على دعوة بريطانيا إلى إنهاء الانتداب على فلسطين و سحب قواتها منها بحلول بداية أيار / مايو ١٩٤٨ م، على أن تقوم الدولتان -العربية واليهودية- قبل مطلع تموز / يوليو ١٩٤٨ م، و على أن تختار الجمعية العامة لجنة دولية، من الدول المؤيدة للتقسيم، تكون مسؤولة أمام مجلس الأمن، لتحقيق من أن ميليشيا الدولتين تقوم بالمحافظة على القانون و النظام. و توالى التصريحات البريطانية عن نية الانسحاب فى ١٥ أيار / مايو ١٩٤٨ م.

أما على الصعيد العربى، فقد رفضت الهيئة العربية العليا تقرير لجنة الأمم المتحدة و توصياتها، و أعلنت عزمها على مقاومة المشاريع الناجمة عنهما، و سارت تظاهرات فى فلسطين و الأقطار العربية تندد بهما، و تدعو لإنقاذ فلسطين. كما اجتمعت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية فى صوفر (لبنان) فى ١٦ أيلول / سبتمبر ١٩٤٧ م، و درست التقرير و التوصيات، و اتخذت مقررات يمكن تلخيصها كالتالى:

(١) أن تنفيذ المقترحات يشكل خطرا محققا يهدد الأمن و السلام فى فلسطين و البلاد العربية، و لذا فقد وطدت العزم على مقاومة ذلك بجميع الوسائل العملية الفعالة؛ (٢) ترى اللجنة مكاشفة الشعوب العربية بحقيقة المخاطر التى تهدد فلسطين، و دعوتها إلى نصره الشعب الفلسطينى؛ (٣) إرسال مذكرات إلى حكومتى لندن و واشنطن، تحذر من النتائج الناجمة عن تنفيذ التوصيات؛ (٤) دعوة الجامعة العربية إلى تقديم ما يمكن من معونة عاجلة للشعب الفلسطينى، من مال و سلاح و رجال، و تشكيل لجنة فنية لهذا الغرض، بإشراف مجلس الجامعة.

و عاد مجلس الجامعة إلى الانعقاد، أولاً في بيروت، ثم في عاليه من ٧ إلى ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٧ م نتيجة تواتر التصريحات عن استعداد بريطانيا للانسحاب من فلسطين، و ضرورة مواجهة ما ينجم عن ذلك. و درس المجلس تقرير اللجنة الفنية العسكرية عن القوة الصهيونية، و بالتالي مستلزمات مواجهتها، و كذلك حاجة الفلسطينيين إلى المال و السلاح و التدريب. و أوصت اللجنة العسكرية الدول العربية بحشد قوات على حدود فلسطين، و تشكيل قيادة عسكرية موحدة، و رصد ما لا يقل عن مليون جنيه كدفعه أولى لهذا الغرض. و في اجتماع عاليه، قرر

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٠٩

مجلس الجامعة تنفيذ مقررات بلودان السريه في حال تطبيق أى حل من شأنه أن يمس حقّ فلسطين في أن تكون دولة عربية مستقلة. كما أشار إلى ضرورة اتخاذ دول الجامعة احتياطات عسكرية على حدود فلسطين، و أن تؤدي ما يترتب عليها من مساعدات مادية و معنوية لعرب فلسطين. كما قرر تشكيل لجنة عسكرية تساعد على تهيئة وسائل الدفاع و تنظيمها و تجنيد الفلسطينيين و تدريبهم. و تم الاتفاق على أن تبقى الجيوش العربية مرابطة على حدود فلسطين، فلا تدخلها إلا إذا تلقى اليهود مساعدة أجنبية، و تعرض عرب فلسطين للخطر. و أشارت اللجنة العسكرية إلى وجوب تحمل الفلسطينيين عبء الدفاع عن بلادهم، على أن تزودهم الحكومات العربية بالمال و السلاح و الخبراء، و لا مانع من الاستعانة بالمتطوعين العرب.

و اتخذت اللجنة العسكرية من دمشق مقراً لها، و بدأت حركة واسعة للتطوع في الأقطار العربية، و استخدم معسكر قطنا، بالقرب من دمشق، لتدريب المتطوعين من فلسطين و الأردن و سورية و لبنان و العراق و مصر. و تشكلت اللجنة من: (١) أمير اللواء الركن إسماعيل صفوت (العراق)؛ (٢) المقدم محمود الهندي (سورية)؛ (٣) المقدم الركن شوكت شقير (لبنان)؛ (٤) الأستاذ عزة دروزة (فلسطين)؛ (٥) اللواء طه الهاشمي (العراق) كمفتش عام للمتطوعين. كما تشكلت لجنة أخرى للإشراف على إنفاق المال من: محمود الهندي و صبحي الخضرا (فلسطين) و إسماعيل صفوت و بهجت طبارة (الأردن) و شوكت شقير. و توزعت الدول العربية المساهمة المالية بالنسب التالية:

مصر ٤٢٪، و المملكة العربية السعودية ٢٠٪، و سورية ١٢٪، و لبنان ١١٪، و العراق ٧٪، و الأردن ٥٪، و اليمن ٣٪. و في البداية انحصر نشاط اللجنة العسكرية، بعد اعتراض بريطانيا على خطتها، كونها لا تزال الدولة المنتدبة على فلسطين، في تزويد بعض المناطق الفلسطينية بالسلاح، و تجميع المتطوعين و تدريبهم، و تشكيل وحدات مقاتلة منهم. و في الواقع، لم تحصل هذه اللجنة على كل ما وعدت به من مجلس الجامعة من مال و سلاح.

و عندما اتخذ قرار التقسيم بتاريخ ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٧ م، أعلنت الحكومة البريطانية قبولها به، و وعدت بالتعاون مع الأمم المتحدة على تنفيذه، شرط أن يتم ذلك بطريقة نظامية. أما في فلسطين و الأقطار العربية، فقد طغت موجة من الاستنكار و السخط، جرى التعبير عنها بالإضراب الشامل و المسيرات الصاخبة، التي تخللتها صدامات دموية. و أعلنت الهيئة العربية العليا يوم ٢٩ تشرين الثاني / نوفمبر يوم حداد، كما أعلنت الإضراب ثلاثة أيام (٢-٤ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧ م). و هاجم المتظاهرون السوق التجاري اليهودي (الشماعة) في القدس، كما وقعت صدامات في

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٠

مدن فلسطين الأخرى، من أهمها ما وقع في يافا، في الأحياء المجاورة لتل أبيب، حيث دمرت بيوت. و قد شلّ الإضراب جميع مرافق الحياة، و شكل نقطة انعطاف في الصراع نحو المقاومة المسلحة لقرار التقسيم.

و في هذه الأجواء المشحونة بالتوتر، عقدت اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية دورة اجتماعات في القاهرة في الفترة ٨-١٧ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٧ م، حضرها رؤساء الحكومات، للبحث بما يجب عمله. و في نهاية الدورة، أصدر مجلس الجامعة بياناً استنكر التقسيم و أكد العزم على مقاومته. و بعد عرض للقرار و مثالبه، ورد في البيان أن

حكومات دول الجامعة العربية تقف صفا واحدا في جانب شعوبها في نضالها لتدفع الظلم عن إخوانهم العرب و تمكنهم من الدفاع عن أنفسهم و تحقيق استقلال فلسطين و وحدتها. و قد قرر رؤساء و ممثلو هذه الحكومات ... أن التقسيم باطل من أساسه و قرروا كذلك عملا بإرادة شعوبهم أن يتخذوا من التدابير الحاسمة ما هو كفيل بإحباط مشروع التقسيم الظالم و نصره حق العرب فإنهم قد و طدوا العزم على خوض المعركة التي حملوا عليها و على السير بها حتى نهايتها الظاهرة ...»

ج) الحسم العسكري

في المؤتمر الصهيوني الثاني و العشرين (١٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٦ م)، قال بن- غوريون، الذي تولى مسؤولية دائرة الأمن في الوكالة اليهودية، إضافة إلى منصبه كرئيس لها، و ذلك في جلسة مغلقة للجنة السياسية، ما يلي: «إن المشكلة الرئيسية هي مشكلة الأمن ... و إلى فترة قريبة ماضية كانت المسألة هي فقط كيف نحمل أنفسنا من عرب أرض- إسرائيل الذين لم تكن لديهم، مثلنا، أجهزة رسمية، و كانوا من فترة إلى أخرى يهاجمون تجمعات سكانية يهودية ... لكننا نقف الآن في مواجهة وضع مختلف تماما. إن أرض- إسرائيل محاطة بدول عربية مستقلة ... دول يحق لها أن تشتري السلاح و تصنعه، و أن تنشئ الجيوش و تدريبها ... إن هجمات عرب أرض- إسرائيل لا تشكل خطرا على الاستيطان اليهودي، لكن هناك خطر يتمثل في أن ترسل الدول العربية المجاورة جيوشها لمهاجمة الاستيطان و إبادته ...»

و لا يجوز لنا الانتظار حتى يصبح الخطر جاثما. علينا أن نبدأ بالإعداد فورا، بأقصى ما لدينا من قدرة تقنية و مالية ... إن مشكلة الأمن تحتل مكان الصدارة، لأن وجودنا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١١

بالذات عرضة هنا للخطر. و المطلوب الآن هو موقف جديد من المشكلة، و إمكانيات أكبر، و إعادة تنظيم قواتنا لتأهب من نوع جديد تماما.»

و من موقعه، راح بن- غوريون يهيب الاستيطان الصهيوني للمعركة القادمة، و يعد الهاغاناه للحسم العسكري فيها، و يعمل على توفير الإمكانيات المادية و التسليحية لذلك. و بعد أن كان القوة الدافعة وراء برنامج بلمور و الانحياز إلى الولايات المتحدة، و القرار بإنشاء الدولة اليهودية، حتى في إطار التقسيم كمرحلة أولى، كان بن- غوريون يعمل على إخراج بريطانيا من فلسطين. و قبل إعلان بريطانيا نيتها الانسحاب، قال بن- غوريون في ٢٦ آب/ أغسطس ١٩٤٧ م، أمام اللجنة التنفيذية الصهيونية، ما يلي: «علينا أن نبذل كل الجهود السياسية لإبعاد الحكم البريطاني، بأسرع ما يمكن، و من دون أدنى تحفظ، و ألا نسعى لتجميله و (إصلاحه) فحسب و إنما لإبعاده فعلا عن البلد إبعادا ماديا فلا يبقى له أي أثر أو ذكر في أرض- إسرائيل.» و تابع بن- غوريون قائلا: «فالمسألة المركزية و الأكثر حيوية لليشوف و الصهيونية على حد سواء- إذ إن مستقبلنا القريب و البعيد متعلق بها، و بناء عليها ينبغي أن نقرر الاستراتيجية الصهيونية إزاء الخارج و الداخل معا- [هي مسألة أمن اليشوف و إنشاء قوة يهودية مسلحة.»

و يتضح من الذي تقدم، و غيره من الشهادات و الأدلة الكثيرة، أن القيادة الصهيونية بزعامه بن- غوريون، بعد أن حزمت أمرها بحسم المعركة عسكريا، عمدت بنشاط محموم لإعداد الأداة العسكرية الصهيونية لأداء المهمة. و يؤكد تقرير اللجنة الأنكلو- أميركية أن القوات اليهودية في فلسطين وصلت في بداية نيسان/ أبريل ١٩٤٦ م، إلى نحو ٦٨،٠٠٠ رجل، موزعين كالتالي: (١) قوة ثابتة من سكان المدن و المستعمرات و عددها نحو ٤٠،٠٠٠؛ (٢) جيش ميدان قوامه ١٦،٠٠٠؛ (٣) قوات ضاربة (بلماح) و عددها ٦٠٠٠. و هذه القوات الثلاث شكلت الهاغاناه. و فضلا عنها كانت عصابات الإرعون و شتيرن تضمان نحو ٦٠٠٠. و قد حصل أكثرهم على التدريب في صفوف الجيش البريطاني، سواء في فلسطين، أو الخارج، في أثناء الحرب العالمية الثانية. و كثيرون منهم كانوا في جيوش الدول الأوروبية الشرقية الحليفة،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٢

و رابطوا مع وحداتها في الشرق الأوسط، و فزوا منها، و انضموا إلى العصابات الصهيونية. و تؤكد المصادر أن نحو ٣٦٠٠ مجند يهودي من الذين تدرّبوا في بولونيا، و جاؤوا إلى فلسطين، ضاع أثرهم فيها بعد الحرب. و منهم مناحم بيغن، الذي عمل في قوات الجنرال أندرز، و سرعان ما تولى إعادة تنظيم عصابة الإرغون بعد موت جابوتنسكي.

و قد استفادت الوكالة اليهودية من الخبرات الفنية و المتطوعين، من اليهود و سواهم، الذين جرى استقدامهم إلى فلسطين للعمل على بناء الأداة العسكرية الصهيونية. و كان من أبرز هؤلاء الضابط البريطاني الموالي للصهيونية، أورد و ينغيت الذي عمل على تدريب كتائب الهاغاناه، و الأميركي، ماركوس الذي كان يعمل في هيئة أركان الجنرال أيزنهاور في أوروبا، و انتقل منها إلى فلسطين، و عمل في صفوف الهاغاناه، و تولى قيادة منطقة القدس، حيث قتل، و نقل إلى الولايات المتحدة ليدفن في المقابر العسكرية، بمراسم الشرف. و في مجال التسليح و الإنتاج الحربي، عملت الوكالة اليهودية على سدّ بعض حاجاتها من الورشات التي أقامتها في أثناء الحرب، و كانت تمد الجيش البريطاني ببعض العتاد، كما تقوم بأعمال الصيانة لمصلحته، و استمرت في عملها بعد الحرب، و لكن لمصلحة الهاغاناه. أمّا القسم الأكبر من السلاح فقد وصل إلى العصابات الصهيونية عن طريق الشراء و التهريب و السرقة من مستودعات الجيش البريطاني، و كذلك التجميع من مخلفات الجيوش الحليفة بعد الحرب مباشرة.

و في مقابل وحدة الموقف السياسي إلى حد كبير، إذ أجمعت الأحزاب الصهيونية على إقامة الدولة اليهودية، و وحدة القرار المركزي، الذي أصبح بيد دافيد بن-غوريون، و وحدة الهدف-الحسم العسكري- و وحدة الأداة و توفير مستلزماتها و تنظيمها، و تخطيط عملها و برمجته، كان كل شيء تقريبا على الجانب العربي يظهر العكس، ما عدا الحماسة الجماهيرية. و بغض النظر عن بيانات الجامعة العربية التي كانت تصدر باسم حكوماتها جميعا، فإن موقفها الحقيقي، أو بعضه على الأقل، لم يكن متطابقا مع تلك البيانات، لا نصّا و لا روحا. هذا فضلا عن أنها كانت جميعا حكومات حديثة العهد بالاستقلال، و تسود بينها خلافات قسمتها إلى محاور، و لديها من المشكلات الداخلية، و الارتباطات الخارجية، ما يعيقها عن تنفيذ تعهداتها العلنية. و قد غاب عن عملها القرار المركزي، بل القيادة المركزية، على الرغم من تشكيل الجامعة العربية، التي لم تكن قراراتها ملزمة لأعضائها، و حتى في حال الإجماع، ترك لكل طرف التنفيذ كما يرتئي. و لعل الأهم كان غياب وحدة الهدف

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٣

و الأداة، و بالتالي تأهيل الأداة و تسليحها و توفير مستلزماتها و توحيد قيادتها و خططها... إلخ. و بينما عادت الهيئة العربية العليا و تشكلت (١٩٤٦ م) بتدخل من الجامعة العربية، إلّا إنها لم تكن مؤهلة، لا شكلا و لا مضمونا، لإدارة مثل هذه المعركة. و عندما طرح الحاج أمين في اجتماع عاليه تشكيل حكومة فلسطينية، اعترض بعض الدول العربية، فأرجى الأمر. و مع أن اللجنة العسكرية، التي تشكلت بقرار من الجامعة، أوصت بإيلاء الفلسطينيين مسألة الدفاع عن بلدهم، إلّا إنه لم تتخذ إجراءات تمكنهم من ذلك، لا ذاتيا و لا موضوعيا.

و مع ذلك، فمنذ بداية سنة ١٩٤٧ م، بدأت مجموعات عربية مسلحة تغير على المستعمرات في وسط البلاد، و مع حلول الربيع، اتخذت وضعا أكثر تنظيما، و عقدت اجتماعا (٥ نيسان/ أبريل ١٩٤٧ م) للتنسيق بينها و تكثيف نشاطها. و بلغت هذه الأعمال ذروتها في أحداث يافا- تل أبيب (٣ آب/ أغسطس ١٩٤٧ م)، إذ جرت اشتباكات عنيفة في الأحياء المتجاورة بين المدينتين، قتل فيها عدد من الأشخاص، و أحرقت منازل و متاجر و مستودعات، و تواصلت بعدها الأعمال الانتقامية بين الجانبين و تصاعدت. أمّا البريطانيون، فبعد إجلاء عائلاتهم، أصبحوا يعيشون في المعسكرات، و لا- يتجولون إلّا في مهمات محددة. و بناء على أوامر صارمة من لندن، تصرف الجيش البريطاني إزاء الإرهاب الصهيوني بدرجة عالية من ضبط النفس، حتى عندما قتل جنود بريطانيون، و جلد ضباط، و شق رقبا.

و بعد البيانات العربية بشأن مقاومة قرار التقسيم بالقوة، أعادت الهاغاناه تنظيم قواتها. فقسمت إلى تشكيلين قطريين: (١) الجيش (هحايل)، الذي اشتمل على كتائب البلماح وقوة الميدان، و كان يتعين عليه مواجهة الأخطار الخارجية؛ (٢) الحرس (همشمار)، الذي ضم قوة الحراسة، و كان مخصصا للدفاع للأخطار المحلية.

و تقرر أن يتشكل الجيش من أربعة ألوية: لواء الشمال من ٥ كتائب، لواء الوسط من ٣ كتائب، لواء الجنوب من ٥ كتائب، و لواء القدس من كتيبتين. أما الحرس فيربط في ١٤ منطقة، منها ٣ مدينية، و ١١ ريفية. و تكون كل منطقة وحدة إدارية لأغراض التدريب و الإعداد و الدفاع المحلي. و اتخذ قرار أن يكون الجيش كله خاضعا مباشرة لرئيس هيئة الأركان العامة، الذي يصدر أوامره مباشرة إلى قادة الألوية. و كذلك كان الحرس في أوقات السلم، أما في الحرب، فتتبع المناطق لقيادة الجيش العامل فيها.

في المقابل، لم تتخذ في الجانب العربي إجراءات منسجمة مع القرارات السياسية المعلنة. و في فلسطين ذاتها، حيث الإحساس المباشر بالاستعدادات الصهيونية للمعركة، كانت الخطوات المضادة مبعثرة، و لا ترقى إلى المستوى

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٤

المطلوب. كان العرب الأكثرية، و كذلك انتشارهم هو الأوسع على الأرض، و بالتالي الأكثر ملاءمة لعزل التجمعات اليهودية و محاصرتها و ضربها. إلا إنه كانت تعتور ذلك ثغرات على الصعيد الذاتي لناحية وحدة الموقف و المركز و القرار، و بالتالي التنظيم و التخطيط و التنفيذ، و خصوصا ما يتعلق بتوفير مستلزمات المعركة. و البدايات التي برزت منذ مطلع سنة ١٩٤٧ م، و راحت تتصاعد في نهايتها، كانت على العموم تكرارا للنهج الذي تبلور سنة ١٩٣٦ م، إلا إن المعطيات الحالية كانت قد تغيرت كثيرا.

و في الواقع، فإنه على عكس ما كان عليه الحال سنة ١٩٣٦ م، إذ بادر الفلسطينيون إلى الهجوم العسكري التكتيكي، من موقع الدفاع السياسي الاستراتيجي، فقد كانوا في سنة ١٩٤٧ م في موقع الدفاع على الصعيدين. فبغض النظر عن العمليات المحدودة الهجومية، و خصوصا في وسط البلاد، كانت السمة العامة لاستعدادات العرب منذ منتصف سنة ١٩٤٧ م دفاعية. لقد قامت المنظمة الصهيونية بالهجوم، سياسيا و عسكريا، و إلى جانب العمليات ضد السلطات البريطانية، قامت بأعمال استفزازية ضد العرب. و لذلك، و قبل صدور أية قرارات بشأن العمل العسكري العربي، كان الفلسطينيون يشترطون السلاح، على الرغم من الحظر البريطاني الصارم على اقتنائه، و يقومون بأعمال الحراسة على قراهم، خوفا من الهجمات الصهيونية التي راحت تتكرر على قرى و مواقع معزولة. و بين التشكيك في صدق نية بريطانيا الانسحاب، الأمر الذي كان مشتركا مع الوكالة اليهودية، و الترقب لما ستمخض عنه قرارات الجامعة العربية و الهيئة العربية العليا، دوهم عرب فلسطين بالنشاط العسكري الصهيوني و هم غير مستعدين له، فكان همهم الأول الدفاع عن أنفسهم و أحيائهم و قراهم إزاء الغارات الليلية من قبل القوات الصهيونية.

و باحتدام الصراع السياسي في الأمم المتحدة، و تصاعد الضغط العسكري الصهيوني، على أرضية تواتر التصريحات البريطانية التي تؤكد العزم على الانسحاب من فلسطين، أصبح الأمن هاجس الناس الأول. فازداد البحث عن السلاح، و نشط قادة محليون في تشكيل مجموعات مسلحة، و تنظيم أعمال الحراسة، كل على أطراف قريته، أو حيه في المدينة. و اشتدت الصدامات، التي كان أكبرها في يافا- تل أبيب في ١٠ آب/ أغسطس ١٩٤٧، و الذي تصاعد ليبلغ الذروة في ٢٨ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ م في الهجوم الكبير على الحي الجنوبي من تل أبيب (هتكفاه)، بقيادة الشهيد حسن سلامة. ثم وقع الانفجار الكبير خلال الإضراب بعد صدور قرار التقسيم، إذ وقعت صدامات مسلحة في القدس، و راحت تتصاعد، و انتقلت إلى جميع أنحاء البلد. و سارعت القرى و المدن إلى تشكيل اللجان القومية استعدادا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٥

للقتال، و إلى شراء السلاح و تنظيم الجماعات المقاتلة. و خلال سنة ١٩٤٧ م، و إلى أن دخلت طلائع «جيش الإنقاذ» في بداية سنة ١٩٤٨ م، و من ثم الجيوش العربية في ١٥ أيار// مايو ١٩٤٨ م، تحملت القوى المحلية و جيش الجهاد المقدس وزر القتال، و لم تحقق

القوات الصهيونية عليهما انتصارات تذكر.

و بينما الوكالة اليهودية تهتئء لاحتلال فلسطين كلها و طرد سكانها منها، و تخطط لمواجهة الجيوش العربية مجتمعة، مستغلة الانسحاب البريطاني بمراحله، بعد أن تعهدت بريطانيا بالتعاون مع الأمم المتحدة بتنفيذ قرار التقسيم، كان التخطيط في الجانب العربي معدوما تقريبا. و نظرا إلى تذبذب مواقف الجامعة العربية من الهيئة العربية العليا، بين اعتمادها قيادة للشعب الفلسطيني، و معارضة ذلك لأسباب متعددة، فيما التوجه العام عدم دخول الجيوش العربية ما دام الانتداب قائما، تمخضت المداولات عن تشكيلين عسكريين، يقومان بالتصدي للنشاط الصهيوني المتصاعد، إلى جانب الجماعات المحلية المسلحة، ريثما ينتهي الانتداب. و لأن التوجه العربي كان ينطلق من تولى الفلسطينيين أصلا الدفاع عن «أرضهم و عرضهم»، بدعم من الدول العربية المجاورة، و لكن من دون وضع هذا الدعم بإمرة قيادة فلسطينية، و في المقابل رفض الهيئة العربية العليا التنازل عن دورها و موقعها، فقد تشكلت الأرضية للازدواجية منذ البداية. و بموازة جيش الجهاد المقدس الفلسطيني، بقيادة عبد القادر الحسيني، و بالتالي بإمرة الحاج أمين الحسيني، و دعم مصري، فقد شكلت اللجنة العسكرية التابعة للجامعة العربية جيش الإنقاذ، من متطوعين عرب و فلسطينيين.

و عندما عاد عبد القادر الحسيني سرًا من القاهرة (٢٢ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ م)، كانت اللجان القومية قد تشكلت في جميع أنحاء فلسطين بجهد ذاتي. لكن دخول عبد القادر لم يكن برضى اللجنة العسكرية في دمشق. و بعد وساطات سكتت عنه بشروط: (١) أن يخضع نشاطه لأوامرها؛ (٢) أن يحصر نشاطه في منطقة القدس فقط؛ (٣) ألما يجمع أموالا من السكان. و لم يتلق جيش الجهاد المقدس مساعدات تذكر من اللجنة العسكرية. و في ذروة قوته، كان هذا الجيش يضم فئتين: (١) قوة ضاربة قوامها ٥-٧ آلاف رجل؛ (٢) مجاهدين مقيمين في قراهم و عددهم نحو ٥٠٠، ١٠. و لم يلتزم عبد القادر بشروط اللجنة العسكرية، و كانت لجيشه امتدادات في جميع أنحاء فلسطين، لكن مركزه بقي في منطقة القدس. و ظل يعاني شح الموارد المالية المتوفرة للهيئة العربية العليا، و قلّة السلاح و العتاد، و ضعف التنظيم و الإدارة.

إلّا إنه على الرغم من العقبات الخارجية و الثغرات الداخلية، فإن جيش الجهاد المقدس أدى دورا بارزا في القتال قبل دخول الجيوش العربية إلى فلسطين (١٥ أيار).

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٦

مايو ١٩٤٨ م). و تركز نشاطه في منطقة القدس، و بفعله، و عملياته الجريئة، و استناده إلى متطوعين محليين، أصبحت هذه المنطقة نقطة الضعف الرئيسية في العمل الحربي الصهيوني. كما تحمل هذا الجيش و أنصاره، و لفترة طويلة، و زر الصمود في مواجهة التمركز الأقوى للقوات الصهيونية في تل أبيب، إذ تولى الدفاع عن يافا و اللد و الرملة و جوارها، بقيادة حسن سلامة. و عوض الجيش عن نقص الإمكانيات بالتفاف القوى المحلية حوله، و استبسال رجاله بالدفاع عن أنفسهم و أهلهم و أملاكهم. و لعل الإنجاز الأكبر لهذا الجيش كان عزل القدس و محاصرتها و إجبار الحى اليهودي في البلدة القديمة على الاستسلام.

في المقابل، شكلت اللجنة العسكرية جيش الإنقاذ من متطوعين عرب، جاؤوا من فلسطين و سورية و لبنان و العراق و الأردن و مصر و السعودية و اليمن، و عدد قليل من تركيا و يوغسلافيا و ألمانيا و إنكلترا. و قد بدأ تجميع المتطوعين في معسكر قطنا (سورية)، بعد قرار التقسيم، حيث كانوا يجتازون دورة تدريب قصيرة، بإشراف ضباط من الجيش السوري، ثم يتوجهون إلى فلسطين تباعا. و تشكل جيش الإنقاذ من ثمانية أفواج، و أربع سرايا منفصلة، كانت كالتالي:

(١) فوج اليرموك الأول ٣ سرايا ٥٠٠ مقاتل

(٢) فوج اليرموك الثاني ٣ سرايا ٤٣٠ مقاتلا

(٣) فوج اليرموك الثالث ٢ (سريتان) ٢٥٠ مقاتلا (تقريبا)

(٤) فوج حطين ٣ سرايا ٥٠٠ مقاتل

(٥) فوج الحسين (العراق) ٣ سرايا ٥٠٠ مقاتل (تقريباً)

(٦) فوج الدروز (جبل العرب) ٣ سرايا ٥٠٠ مقاتل

(٧) فوج القادسية ٣ سرايا ٤٥٠ مقاتلاً (تقريباً)

(٨) فوج أجنادين ٢ (سريتان) ٢٥٠ مقاتلاً (تقريباً)

(٩) ٤ سرايا منفصلة ٤ سرايا ٤٥٠ مقاتلاً

٣٨٣٠ مقاتلاً (تقريباً)

و دخلت أفواج (كتائب) جيش الإنقاذ إلى فلسطين بالتتابع، واتخذت مواقع لعملياتها، كالتالي:

(١) فوج اليرموك الثاني (٩ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ م)، بقيادة المقدم أديب الشيشكلي (سوري)، و تحرك قبل استكمال

استعداداته، و دخل الجليل الغربي عن الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٧

طريق جنوب لبنان، و تولى العمل في أفضية عكا و صفد و الناصرة، على جبهة طولها ٦٠ كلم.

(٢) فوج اليرموك الأول (٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨ م)، بقيادة المقدم محمد صفا (سوري). و تموضع في منطقة جنين - بيسان.

(٣) فوج القادسية (شباط/ فبراير ١٩٤٨ م)، بقيادة المقدم مهدي صالح العاني (عراقي)، و كان بتصريف قيادة الجيش في جبع، ثم انتقل

إلى العمل في قطاع رام الله - باب الواد.

(٤) فوج حطين (آذار/ مارس ١٩٤٨ م)، بقيادة النقيب مدلول عباس (عراقي)، و عسكر في طوباس، ثم تمدد إلى السامرة و طولكرم.

(٥) فوج الحسين (العراق)، بقيادة المقدم عادل نجم الدين (عراقي)، و تولى (آذار/ مارس ١٩٤٨ م) قيادة منطقة يافا بمن فيها من

وحداته و الحامية المحلثة.

و دخلت الأفواج و السرايا الأخرى لاحقاً.

و كان على رأس الهرم العسكري لجيش الإنقاذ المفتش العام، اللواء طه الهاشمي (عراقي)، و على رأس اللجنة العسكرية اللواء

إسماعيل صفوت (عراقي)، و فيها العقيد محمود الهندي (سوري)، و المقدم شوكت شقير (لبناني)، و عزة دروزة (فلسطيني)، حل

محلّه لاحقاً صبحي الخضرا (فلسطيني). و لم تشارك مصر و الأردن و السعودية و اليمن في هذه اللجنة. و قررت اللجنة أن يتولى

فوزي القاوقجي (لبناني) القيادة الميدانية، فدخل إلى فلسطين في ٥ آذار/ مارس ١٩٤٨ م، و أقام مقر قيادته في قرية جبع، بين نابلس و

جنين. و بعد دخول القاوقجي أعيد تنظيم الجيش على أساس ثلاثة ألوية: اليرموك الأول، بقيادة محمد صفا؛ اليرموك الثاني، بقيادة

أديب الشيشكلي؛ اليرموك الثالث، بقيادة مهدي صالح العاني. كما ظل «الفوج العلوي» بقيادة غسان جديد. و فضلاً عن هذه

التشكيلات، كانت هناك مجموعات من المتطوعين، مثل «كتائب الإخوان المسلمين» المصرية، التي عملت في النقب و العريش و

غزة، بعد أن سمحت لها السلطات المصرية بالتطوع، و زودتها ببعض الأسلحة و الضباط للتدريب (شباط/ فبراير ١٩٤٨ م). كما كانت

هناك مفارز شبه مستقلة: عراقية و حموية و شركسية و إديبية و أردنية و سورية نظامية و لبنانية و بدوية و حامية عكا و مفرزة مجدل

شمس و مفرزة يوغسلافية و سرية لبنانية بقيادة النقيب حكمت علي و سرية الفراتين بقيادة النقيب خالد مطرجي. و عمل مع

المتطوعين المصريين أفراد من تونس و ليبيا و السودان. كما شكلت جمعية مصر الفتاة مجموعة «القمصان الخضراء».

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٨

لقد دخلت وحدات جيش الإنقاذ إلى فلسطين و الانتداب البريطاني لا يزال قائماً فيها، و لم تعترض السلطات، التي كانت تعد نفسها

للرحيل، على هذا الانتشار العسكري، إذ جاء بناء على تفاهم مع الجامعة العربية. و يستدل من انتشاره أنه تموضع في المناطق المحددة

للدولة العربية في مشروع التقسيم. و في الواقع، فإنه ابتداء من شباط/ فبراير ١٩٤٨ م، اعتبرت قيادة الجيش البريطاني جيش الإنقاذ

مسؤولاً رسمياً عن الأمن في المناطق التي انتشر فيها، و تركزت مسؤولية الجيش البريطاني في المناطق اليهودية لحمايتها من أي هجوم

عربي. و ميدانيا، انقسم جيش الإنقاذ إلى ساحتي عمل مستقلتين: المنطقة الوسطى، حيث تمركزت أغلبية الوحدات، بقيادة فوزى القاوقجي؛ و المنطقة الشمالية، حيث عملت عدة وحدات منه و مفارز مستقلة إداريا و جيش الجهاد المقدس و مجموعات محلية و سواها، بقيادة أديب الشيشكلي.

و بقي الأمر كذلك إلى ما بعد دخول الجيوش العربية، إذ أنعم الأمير عبد الله على القاوقجي بلقب «باشا»، و طلب منه الانسحاب، ففعل في ١٧ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، و سلم مواقعه للجيشين -الأردني و العراقي- و عاد إلى سورية، و منها إلى جنوب لبنان، ثم فلسطين في حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م، فانسحب الشيشكلي، و تولى القاوقجي القيادة الميدانية في الشمال.

و بادر فوج اليرموك الثاني ليلة ٢١-٢٢ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨ م بهجوم مفاجيء على مستعمرة يبيعام (جدين) في الجليل الغربي. و نجح جنود الجيش بمساندة محلية قوية من مسلحي القرى المجاورة، بالتسلل إلى داخل سياج الأسلاك الشائكة المحيط بالمستعمرة، و مفاجأة المدافعين عنها، الذين سارعوا إلى التحصن داخل أسوار القلعة الصليبية الضخمة الموجودة هناك. و تدخلت قوات بريطانية، فأوقف الهجوم، لكن المستعمرة ظلت محاصرة حتى ربيع تلك السنة. و قام فوج اليرموك الأول بهجوم مماثل على طيرت تسفى (الزراعة)، في غور بيسان ليلة ١٦-١٧ شباط/ فبراير ١٩٤٨ م، و فشل الهجوم بسبب سوء التخطيط و الأحوال الجوية.

و مرة أخرى تدخلت القوات البريطانية، و انسحب المقاتلون العرب، لأنهم حملوا تعليمات بعدم الصدام مع الإنكليز. و سقط في المعركة ٣٧ شهيدا. و بعد انتشاره، ركر جيش الإنقاذ على قطع طرق المواصلات بين التجمعات اليهودية، و عزلها، و نجح في ذلك، في القدس و الجليل و النقب. و قد وقعت معارك ضارية من أجل السيطرة على الطرق، و خصوصا في باب الواد، بالقرب من القدس. و في آذار/ مارس ١٩٤٨ م، تكثفت عمليات الكمان على طرق المواصلات، شارك فيها إلى جانب جيش الإنقاذ متطوعون محليون، و خصوصا في منطقتي القدس

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥١٩

و الجليل. و خلال الأسبوع الأخير من ذلك الشهر، على سبيل المثال لا الحصر، قتل أكثر من ١٠٠ جندي صهيوني، في خمس قوافل كانت تنقل السلاح و التموين إلى مناطق يهودية معزولة، و هي: عطروت ١٤ قتيلا و هرطوف ١١ قتيلا و النبي دانييل ١٢ قتيلا و يبيعام ٤٦ قتيلا و خولدة ٢٤ قتيلا. و كانت مستعمرات غوش عتسيون محاصرة، و الطريق إلى القدس مقطوعا، و مستعمرات الجليل الغربي معزولة.

و في تلخيص الوضع القتالي، الذي أعده رئيس شعبة العمليات في هيئة أركان الهاغاناه، يغئيل سوكنيك (يادين)، و قدم إلى بن-غوريون (١ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ م)، ورد ما يلي: «يجب أن نذكر أن كل مراحل المعركة حتى الآن أملاها علينا العدو. و لم تتمكن حتى الآن -من التأثير على المجرى الاستراتيجي و العملياني للمعركة التي تطورت من أحداث إلى حرب بين قوتين شبه نظاميتين ... و الحل الوحيد هو أخذ زمام المبادرة العمليانية بأيدينا متطلعين إلى إحراز حسم عسكري ضد العدو». لقد حققت القوات العربية الانتصار في المعركة على طرق المواصلات، و دافعت حتى تلك اللحظة عن مواقعها بنجاح، و لكنها لم تحقق إنجازات في أعمالها الهجومية على المستعمرات.

لقد أخفق جيش الإنقاذ في الهجوم على يبيعام، و كذلك على طيرت تسفى.

و كان الهجوم الكبير على مشمار هعيمك، الذي قاده القاوقجي بنفسه، فاشلا في النتيجة، إذ استمر عدة أيام من دون جدوى. و تدخلت القوات البريطانية، و فرضت على جيش الإنقاذ الانسحاب، و بالتالي الحؤول دون تواصل قواته مع حامية حيفا، و السيطرة على منطقة مصفاة البترول، التي يحرسها الجيش العربي (الأردني)، بقيادة بريطانية. فعززت الهاغاناه قواتها هناك، و احتلت عددا من القرى في المنطقة، و أرغمت سكانها على الجلاء عنها. و كذلك، و على الرغم من استبسال جنود فوج جبل العرب في معركة رمات يوحنان (هوشة و الكسائر)، بين شفاعمرو و حيفا، و التي وقعت لمساندة الهجوم على مشمار هعيمك، فإنه لم يفلح في استثمار الفوز الأول، و

لم يحقق في يومين من القتال نتائج تذكر.

إلما إنه على الرغم من محدودية إنجازات جيش الإنقاذ، فقد حفزت قيادة الهاغاناه على تغيير خطتها، و التسريع في وضع «خطة د» موضع التنفيذ. وهذه الخطة هي تطوير للثلاث التي سبقتها، لناحية الأهداف و المنطلقات و أسلوب القتال، و بالتالي تنظيم القوات بما يتلاءم مع مهماتها. و هي تهدف إلى «مواجهه حالة غزو قوات نظامية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٢٠

من الدول المجاورة»، و تنطلق من الفرضية «أنه في أثناء تنفيذ الخطة، لن تكون قوات السلطة (البريطانية) موجودة في البلد»، كما لن تكون فيه «قوة دولية قادرة على العمل بصورة فعالة.» و أخذت الخطة بعين الاعتبار احتمال عزل مناطق يهودية، و السيطرة العربية على مناطق الجليل الشرقي و الغربي و النقب، و التغلغل في السهل الساحلي في اتجاه قليلية- طولكرم- نتانيا، لعزل المدن الثلاث الكبرى- القدس و تل أبيب و حيفا- و الإضرار بالتموين و الخدمات الحيوية الأخرى، مثل الماء و الكهرباء، و كذلك احتمال استخدام أسلحة ثقيلة و مدفعية ميدان و مركبات مدرعة و طائرات، بينما تقوم عصابات محلية بحرب مشاغلة. و بناء عليه، وضعت خطة لمواجهة هذه الاحتمالات، و تطوير الهاغاناه لتكون قادرة على أداء مهماتها.

و عدا قوة الحراسة، و فضلا عن البلماح، تقرر بناء على الخطة تشكيل ستة ألوية ميدانية هي: (١) غولاني، في الجليل و مرج ابن عامر؛ (٢) كرملي، في حيفا و جوارها؛ (٣) ألكسندروني، في السهل الساحلي؛ (٤) كرياتى، في تل أبيب و جوارها؛ (٥) غفعاتي، في منحدرات جبال القدس الجنوبية الغربية؛ (٦) عتسيوني، في منطقة القدس؛ (٧) شيفع، الذي تشكل لاحقا، عشية الانسحاب البريطاني. كما تشكلت خدمات طبية و سلاح مدفعية و مدرعات و بحرية و بداية قوة جوية. و نشط عملاء الموساد في شراء السلاح و تهريبه.

أما بالنسبة إلى الأعداد في هذه الألوية، فهناك بعض التضارب في المصادر، و لكن النصاب المكتمل لها، و هو ما يؤكد الكثيرون من الخبراء، كان كالتالي:

١- البلماح (الكتائب الضاربة)، و فيها ثلاثة ألوية: يفتاح و هرثيل و هنيغف.

و في كل منها ٢٧٥٠ جنديا، و هو ما يجعل مجموعها ٨٢٥٠.

٢- الألوية السبعة التي شكلت لتنفيذ الخطة د، و في كل منها ٢٧٥٠ جنديا، فيكون مجموعها ٢٥٠، ١٩؛ و يصبح مجموع قوات الميدان (حيس) نحو ٥٠٠، ٢٧.

٣- الحاميات المحلية و الاحتياط العام (حيم)، الملحقة بقوات الميدان، و تقاتل معها بحسب الحاجة، و عدا ذلك تقوم بأعمال الدفاع و النشاطات الإقليمية.

و كانت قد وصلت في خريف سنة ١٩٤٧ م نحو ٣٢، ٠٠٠، و قسمت إلى كتائب في كل منها ٦٠٠ رجل.

٤- شرطة المستعمرات، التي شكلها البريطانيون، و بلغ عددها في حزيران/

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٢١

يونيو ١٩٤٧ م نحو ٤١٠، ١٥.

٥- الحرس الشعبي، الذي بلغ عدده ٣٢، ٠٠٠.

٦- المنظمات الإرهابية «المنشقة»:

أ- إيتسل (الإرغون)، التي وصل عدد أعضائها إلى ما بين ٣٠٠٠ و ٥٠٠٠ بحسب تقرير اللجنة الأنكلو- أميركية (١٩٤٦ م).

ب- ليحي (شتيرن)، و عددها ٢٠٠-٣٠٠ بحسب التقرير نفسه.

د) العمليات العسكرية في إطار الخطة د

وقد جاء الانتقال المبكر لتطبيق الخطة د، و التحول من الدفاع إلى الهجوم الإقليمي، بهدف السيطرة على مناطق متصلة جغرافيا، قبل الانسحاب البريطاني، بكل ما ينجم عن ذلك من تغييرات في هيكلية الهاغاناه، وزيادة أعدادها و تسليحها، لسببين رئيسيين - الأول سياسى و الثانى عسكرى. فعلى الصعيد السياسى، وقع تحوّل مفاجئ في موقف الدول الكبرى من التقسيم، بعد أن تأكدت من استحالة تنفيذه سلما، و عدم استعدادها لفرضه بالقوة. أمّا عسكريا، فقد أدى دخول جيش الإنقاذ المعركة (آذار/ مارس ١٩٤٨ م) إلى إيجاد وضع صعب جدا بالنسبة إلى الهاغاناه و الاستيطان عامة. فعمدت القيادة الصهيونية إلى تقديم شكوى في مجلس الأمن ضد الدول العربية، مطالبة بتنفيذ التقسيم بالقوة على يد الدول الكبرى، من جهة، و إلى إيجاد واقع عسكري على الأرض، إزاء انسحاب القوات البريطانية، و احتلال مواقعها، استباقا لدخول الجيوش العربية، من جهة أخرى. و في هذه المرحلة، حدثت مناورات و مؤامرات، و على أكثر من صعيد، قلبت الأوضاع عشية الانسحاب البريطاني، و وضعت الجيوش العربية لدى دخولها إلى فلسطين أمام أمر واقع صعب، و تضاربت الآراء و تعاكست الخطط و عمت الفوضى و احتلت مدن و قرى، فرحل أهلها، و بدأت الهزيمة.

و بعد تقديم الشكوى الصهيونية في مجلس الأمن، رفعت لجنة التقسيم إلى المجلس تقريرا يؤكد استحالة العمل وسط العنف، و أنه ليس من سبيل أمام هيئة الأمم إلّا إرسال جيش دولي إلى فلسطين لتنفيذ التقسيم بالقوة، أو إهماله. و أعلنت دول عدة عدولها عن قرارها السابق بتأييد التقسيم. و اتخذ مجلس الأمن قرارا يقضى بأن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٢٢

تتشاور الدول الخمس الكبرى في وسيلة لتنفيذ التقسيم من دون استعمال القوة. و في ١٩ آذار/ مارس ١٩٤٨ م، سحبت الإدارة الأمريكية تأييدها لمشروع التقسيم، و اقترحت على مجلس الأمن وضع فلسطين تحت الوصاية، و إعادة القضية إلى هيئة الأمم للنظر فيها على هذا الأساس، و دعوة العرب و اليهود إلى عقد هدنة سياسية و عسكرية بانتظار النتيجة. و وافق مجلس الأمن على المشروع، و رفضته جامعة الدول العربية و الوكالة اليهودية، كل لأسبابه الخاصة.

و لم تتحقق الهدنة، بسبب استمرار القوات الصهيونية في تنفيذ الخطة د.

و اتخذت اللجنة السياسية للجامعة العربية (١٢ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ م)، في اجتماعها بدمشق، قرار «الزحف على فلسطين» في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ م. و اشتكت الوكالة اليهودية لمجلس الأمن، فأصدر في ١٧ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ م قرارا دعا فيه جميع الأشخاص و المنظمات إلى وقف العمليات العسكرية و العنف. و أخيرا بادرت الجمعية العامة، قبل انتهاء الانتداب بيوم واحد، إلى قبول اقتراح الولايات المتحدة بتعيين وسيط دولي للعمل مع لجنة الهدنة (من قناصل أميركا و بلجيكا و فرنسا في القدس)، و إيقاف لجنة التقسيم عن العمل. و في ٢٠ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، أى بعد الانسحاب البريطاني، و دخول الجيوش العربية إلى فلسطين، تمّ تعيين الكونت فولك برنادوت من السويد، وسيطا دوليا، لكن ساحة الفعل كانت في موقع آخر - المعركة العسكرية.

ففي ١ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ م، عقد في منزل بن - غوريون (تل أبيب) اجتماع ضم جميع قادة الهاغاناه لتدارس الوضع، بعد اتضاح أن أسلوب مرافقة القوافل على الطرق الرئيسية لم يصمد في الاختبار العملي. و تقرر حشد ١٥٠٠ جندي لفتح الطريق إلى القدس. و كلف قائد لواء غفعاتي، شمعون أفيدان بقيادة العملية، التي أطلق عليها اسم نحشون. و في التمهيد لها، جرت عمليتان خاطفتان - القسطل و اللد. و في القسطل، التي كانت تحتلها قوات الجهاد المقدس، وقعت معارك ضارية، و احتلت الهاغاناه القرية، ثم استعادتها القوات العربية، و استشهد فيها عبد القادر الحسيني، فاحتلتها الهاغاناه ثانية، و فتح الطريق إلى القدس موقتا، ثم قطع ثانية، بعد دخول الجيش الأردني، و استسلم الحي اليهودي في القدس القديمة، كما جرى اجتياح غوش عتسيون، و بقيت القدس محاصرة. و في اللد، نجحت مجموعة بالتسلل إلى مقر قيادة حسن سلامة، و نسفته، لكنه لم يكن في الموقع. و في النتيجة، يمكن اعتبار عملية نحشون فاشلة، لأنها لم تحقق الهدف النهائي لها بفك الحصار عن

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٢٣

القدس. و كذلك فشلت عملية هرييل (١٥ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م)، التي كانت استكمالاً لعملية نحشون، باحتلال منطقة اللطرون، و فتح الطريق إلى القدس.

و ظلت القدس نقطة الضعف الرئيسية لهاغاناه.

و في مشمار هعيمك (٤-١٣ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م)، فشل جيش الإنقاذ باحتلال المستعمرة، و استطاع اللواءان- ألكسندروني و كرملي- احتلال عدد من قرى مرج ابن عامر الغربي و ترحيل سكانها. و كذلك فشل جيش الإنقاذ في استثمار الفوز في معركة هوشة و الكساير (رمات يوحانان). و شكلت الإنجازات التي حققتها الهاغاناه في هذه المعارك، إضافة إلى النجاح الموقت في عملية نحشون، و ما عقبها في «مذبحة دير ياسين»، منعطفا عسكريا. و منذ ٨ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م بدأت المعركة على طبرية. و في ليلة ١٣-١٤ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م وقعت «مجزرة ناصر الدين»- القرية الصغيرة بجوار طبرية- عبر عملية خداع، قام بها أفراد عصابتى الإرعون و شتيرن. فدخلوا القرية و قتلوا أغلبية سكانها، و دمروا بيوتها. و في الليلة نفسها جرى تعزيز القوات الصهيونية في الحى اليهودى المحاصر في الجزء القديم من طبرية.

و اشتدت المعارك في ١٦ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م، و احتلت طبرية في ١٩ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م، و أعلن قائد لواء غولانى إقامة «حكم عبرى مستقل فى المدينة»، و رحل سكانها العرب.

و بعد معركتى مشمار هعيمك و رمات يوحانان، أصبحت مدينة حيفا- ميناء فلسطين الأكبر- معزولة، و فيها تفوق كبير للقوات الصهيونية على الحامية المحلية التى تعززها سرية لبنانية بقيادة النقيب أمين عز الدين. و فى ٢١ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م أخطر الجنرال ستوكويل، قائد حيفا البريطانى، العرب و اليهود، أن قواته ستسحب، و تتجمع فى منطقتى الميناء و الكرمل الغربى. فبادرت الهاغاناه إلى الهجوم على الأحياء العربية من ثلاثة محاور، بعد أن مهدت لذلك بقصف عنيف. و قاتلت الحامية العربية ببسالة، إلّا إن الذعر أصاب السكان، و بدأت موجة من الرحيل عن المدينة، و غادرها معظم سكانها، باستثناء نحو ٣٠٠٠. و لم يستطع الجيش العربى الأردنى، المرابط فى منطقة مصفاة البترول (آى. بى. سى.) تقديم المساعدة للمدينة.

فسقطت، و كانت الثانية خلال أسبوع، و أعلنها موشيه كرملي، قائد لواء كرملي، مدينة تحت «الحكم العبرى المستقل»، السلطة الوحيدة فيها.

و فى ٢٢ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م، صدرت الأوامر بتنفيذ عملية حميتس، لاحتلال يافا و جوارها، إلّا إنها تأجلت بسبب هجوم إيتسل عليها، و تدخل القوات البريطانية.

و كلفت بالعملية ثلاثة ألوية، ألكسندروني و كرياتى و غفعاتى، بقيادة دان إبشتاين

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٢٤

(إيبين)، قائد ألكسندروني. و بدأت العملية عند منتصف ليل ٢٨ نيسان / أبريل ١٩٤٨.

و قاتلت كتيبة أجنادين من جيش الإنقاذ، بقيادة ميشيل العيسى (فلسطينى)، معركة شرسة ضد لواء غفعاتى، الذى كان احتل تل الريش، فطرده الكتيبة، مكبدة إياه خسائر كبيرة، ٣٣ قتيلًا، و نحو ١٠٠ جريح، كما استولت منه على أسلحة كثيرة تركت فى أرض المعركة، حين هرب أفراد اللواء. و وقعت معارك شديدة فى المناطق الأخرى، إلّا إن القتال توقف بسبب تدخل القوات البريطانية. و جراء القصف العنيف، بدأ السكان بالرحيل، و بقى فى يافا نحو ٥٠٠٠ شخص عند احتلالها فى ١٣ أيار / مايو ١٩٤٨ م، و أعلنت منطقة عسكرية، يحظر على المدنيين دخولها.

بعد السيطرة على يافا، توجهت القيادة الصهيونية مرة أخرى نحو القدس، و وضعت خطة لإسقاط المدينة، فى عملية يوسى، تتم عبر الهجوم من ثلاثة محاور- النبى صموئيل من الشمال و أريحا من الشرق، و طريق بيت لحم من الجنوب. و عين يتسحاق ساديه (قائد البلماح) قائدا للعملية. و فى ٢٣ نيسان / أبريل ١٩٤٨ م وقع الهجوم على النبى صموئيل، لكنه فشل، و تكبد المهاجمون خسائر كبيرة

(٣٥ قبلا، بمن فيهم قائد المحور، شموئيل بوزننسكى). و في ٢٦ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ م تحرك البلماح على حى الشيخ جراح، من دون أن يحقق نتائج تذكر. و كذلك كان الحال (٢٩ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ م) في منطقة القطمون. و لما فشلت الخطة، عادت قيادة الهاغاناه للعمل على فتح طريق القدس من منطقة اللطرون. و وضعت خطة عملية مكابى يشارك فيها البلماح و لواء غفعاتى، و استمرت من ٧ إلى ١٣ أيار/ مايو ١٩٤٨ م لكنها فشلت فى النهاية. و انتظرت قيادة الهاغاناه خروج القوات البريطانية من القدس، بينما انتظرت القوات المحلية و جيش الإنقاذ دخول الجيش الأردنى. و استغلت الهاغاناه الفرصة، و قامت بعملية كلشون، و سيطرت على القدس الجديدة، و حاولت احتلال المدينة فى عملية شيففون، لكنها فشلت، و دارت معارك عنيفة مع الجيش الأردنى، و انقسمت القدس حتى سنة ١٩٦٧، و ظلت الطريق إليها مقطوعة من الغرب حتى الهدنة (حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م).

و فى الجليل، كانت قوات جيش الإنقاذ و الفصائل المحلية بقيادة أديب الشيشكلى. و كان الحى اليهودى فى مدينة صفد محاصرا، و المستعمرات فى الجليلين - الغربى و الشرقى - فى جيوب معزولة. و بدأ البريطانيون بالانسحاب من صفد فى ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٤٨ م، و معه بدأت عملية يفتاح، التى كلف قائد البلماح، يغال ألون، بقيادتها. و فى ٣ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، جرى احتلال المنطقة بين الجاعونة و مجرى نهر الأردن، فى عملية مطاطى (مكنسة). و فى فجر ٦ أيار/ مايو

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٢٥

١٩٤٨ م، بدأت معركة صفد، بهجوم يقوده موشيه كالمان، و صدّ بعد أن تكبد ٦ قتلى. و عاودت الهاغاناه الهجوم فجر ١١ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، و احتلت المدينة بعد معارك ضارية، و انسحاب جيش الإنقاذ من مواقعه فيها و بجوارها، و احتل عدد من القرى فى المنطقة.

و فى هذه الأثناء، جرت عملية غدعون، فى منطقة بيسان، انتهت إلى احتلال المدينة (١٢ أيار/ مايو ١٩٤٨ م). كما جرت عملية براك فى النقب (١٢ أيار/ مايو ١٩٤٨ م)، و احتلت قرية برير و دمرت، لكن العملية توقفت بسبب دخول القوات المصرية إلى فلسطين. و فى الجليل الغربى، كانت مستعمرة يحيعام لا تزال محاصرة منذ الهجوم عليها فى بداية السنة. و مستعمرات حانيتا و إيلون و متسوبا، و كذلك مدينة نهريا، معزولة، و الطريق إليها مقطوع عند عكا. و وقعت عملية بن عمى فى الفترة ٨-١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، سقطت فيها عكا، و القرى العربية إلى الشمال منها، وصولا إلى الحدود اللبنانية. و فى الشرق توقفت العملية فى الجليل الأعلى الغربى، على مشارف قرية معليا، التى ظلت فى خط الدفاع الأول حتى ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م، عندما سقطت فى نهاية الحرب.

و هكذا، و عشية الانسحاب البريطانى من فلسطين، و بالتالى دخول الجيوش العربية إليها (١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ م)، كانت الهاغاناه تسيطر على رقاع متعددة فى البلاد، تضم أغلبية المستعمرات اليهودية و المدن الرئيسية، و هى كالتالى: (١) من المطلة إلى طيرت تسفى (الزراعة) فى غور الأردن الشمالى و الحولة؛ (٢) من معوز حاييم فى غور الأردن حتى حيفا، بما يضم مرج ابن عامر؛ (٣) السهل الساحلى من حيفا حتى رأس الناقورة؛ (٤) السهل الساحلى من حيفا حتى نير عام فى النقب الشمالى. و كانت منطقة القدس معزولة، و كذلك نقاط الاستيطان فى النقب، و جنوب البحر الميت (سدوم). و مع ذلك، و فى الساعة الرابعة بعد ظهر يوم الجمعة ١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، أعلن دافيد بن - غوريون، أمام قيادة العمل الصهيونى، قيام «إسرائيل» فى اجتماع عقد لهذه الغاية فى قاعة متحف مدينة تل أبيب. و بعد عشر دقائق من إعلان قيامها، اعترف بها الرئيس الأمريكى، هارى ترومان، بينما الأمم المتحدة تناقش مشروع قرار أميركى، بوضع فلسطين تحت الوصاية الدولية، و تتالت الاعترافات الدولية بها. و بينما كان المندوب السامى يعلن نهاية الانتداب البريطانى على فلسطين، أذاعت الحكومات العربية بيانها فى تسويغ دخول جيوشها إليها، و بدأت تلك الجيوش تعبر الحدود من كل ناحية.

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٢٦

ه) دخول الجيوش العربية المعركة

في بيانها المطول بتاريخ ١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، سوغت الدول العربية دخولها المعركة في فلسطين كالتالي: «الآن وقد انتهى الانتداب البريطاني على فلسطين من دون أن تنشأ فيها سلطة دستورية شرعية تكفل صون الأمن واحترام القانون وتؤمن السكان على أرواحهم وأموالهم... رأيت حكومات الدول العربية نفسها مضطرة إلى التدخل في فلسطين لمجرد مساعدة سكانها على إعادة السلم والأمن وحكم العدل والقانون إلى بلادهم وحقنا للدماء.» وأكد البيان حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره، الأمر الذي حرم منه. وعرض مراحل الصراع بشأن فلسطين، والعدوان الصهيوني على العرب، وما نجم عنه من مجازر واحتلال للقري والمدن وتشريد للسكان. وأشار إلى التهديد الذي يتعرض له أمن الدول العربية، جراء قيام الكيان الصهيوني بصورة غير شرعية، وتقصير الدول الكبرى والأمم المتحدة في إيجاد حل عادل للقضية الفلسطينية. وأكدت الدول العربية اعترافها بحق الشعب الفلسطيني في الاستقلال، ورأيها «أن الحل الوحيد العادل لقضية فلسطين هو إنشاء دولة فلسطينية موحدة وفق المبادئ الديمقراطية يتمتع سكانها بالمساواة التامة أمام القانون، وتكفل للأقليات فيها جميع الضمانات المقررة في البلاد الديمقراطية الدستورية وتضمن الأماكن المقدسة وتكفل حرية الوصول إليها.»

وكان دخول جيوش خمس دول عربية إلى فلسطين في آن معاً، بغض النظر عن تأهبها، المنعطف الأخطر على الهاغاناه في حرب ١٩٤٨. فمع أن ميزان القوى العسكري ظل مائلاً إلى جانب القوات الصهيونية، وكذلك أفضلية تموضعها الاستراتيجي من حيث الانتشار، إلا إن مواجهة خمسة جيوش في الوقت نفسه، وضعت الهاغاناه في حالة الدفاع. وقررت قيادتها امتصاص الاندفاع العربية الأولى، وتثبيت الخطوط، ثم التحول إلى الهجوم، ضمن خطة استفرد كل جبهة على حدة، وتركيز القوة لمواجهة الوضع فيها، ثم الانتقال إلى جبهة أخرى. واستطاعت الهاغاناه أن تحقق خطتها، وأساساً لغياب خطة مضادة منسقة بين الجيوش العربية. ومع ذلك، كان شهر القتال الأول هو الأضعب على الهاغاناه في الحرب، إذ كانت المبادرة بأيدي الجيوش العربية، وبصورة عامة، لم تقم الهاغاناه بالمبادرة إلى الهجوم إلا في حالات قليلة، وباءت جميعها تقريباً بالفشل. وكان الملك عبد الله قد تولى القيادة العامة

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٢٧

للجيوش العربية، تساعده هيئة أركان شكلية، وكان مستشاره الفعلي، قائد الجيش الأردني، الجنرال البريطاني جون باغوت غلوب. وعمل كل جيش بمفرده، وأشرفت عليه حكومته، كما تولت هي تزويده بصورة منفردة. وبغض النظر عن قلة أعدادها، وسوء تسليحها، وضعف تدريبها، فقد وضعت لهذه الجيوش خطة عامة، كانت تفتقد عنصر التنسيق في تنفيذها، واقتصرت على تحديد مهمات عامة كالتالي:

١- الجيش اللبناني، ١٠٠٠ مقاتل بقيادة الزعيم فؤاد شهاب، يحتشد في رأس الناقورة، ويتقدم على طريق الساحل، يحتل نهرياً، ويواصل تقدمه إلى عكا.

٢- الجيش السوري، ١٨٧٦ مقاتل بقيادة العقيد عبد الوهاب الحكيم، يحتشد في منطقة بانياس و بنت جبيل، ويتحرك في اتجاه صفد-الناصره-العفولة.

٣- الجيش العراقي، ٢٥٠٠ مقاتل، بقيادة الزعيم محمد الزبيدي، يحتشد في منطقة إربد، ويعبر نهر الأردن نحو غور بيسان، ويتقدم في اتجاه العفولة.

٤- الجيش الأردني، ٤٥٥٠ مقاتل بقيادة الجنرال غلوب، وكلف بدفع لواء نحو نابلس، بينما يتقدم الآخر نحو باب الواد، ويتقدم اللواءان بعد ذلك لاحتلال الخضيره و نانيا، فتنشط القوات الصهيونية إلى شطرين.

٥- الجيش المصري، ٥٠٠٠ مقاتل، بقيادة اللواء أحمد علي المواوي، ويجتاز الحدود في رتلين - أحدهما من رفح، والثاني من العوجا- ويتقدم لاحتلال المجدل و بئر السبع.

إلا إنه إزاء إصرار القائد العام، الملك عبد الله، و بناء على توصية الجنرال غلوب جرى تعديل على هذه الخطة في ١٣ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، أي قبل الهجوم بيومين. وقد أربك هذا التعديل مهمات الجيوش، و محاور عملياتها، الأمر الذي يضع علامة استفهام على المغزى منه، و بالتالي على وحدة هدف دخول الجيوش العربية إلى فلسطين. و في الخطة المعدلة، انتقل محور عمليات الجيش السوري إلى جنوبي بحيرة طبرية، و بقي الجيش اللبناني وحده في الشمال، و نقل محور عملياته شرقا إلى المالكية، و أصبحت وجهته صغد. و كذلك الأمر بالنسبة إلى الجيش العراقي، الذي انتقل محور عملياته إلى الجنوب بمحاذاة الجيش الأردني، في منطقة جنين. أما جيش الإنقاذ العامل في منطقة عمليات الجيشين -الأردني و العراقي- فطلب منه الانسحاب، و تحرك شمالا إلى محور عمليات الجيش اللبناني، و ظل هناك إلى آخر الحرب، بقيادة القاوقجي.

و يمكن تقسيم وقائع حرب ١٩٤٨ على الجبهات المتعددة إلى أربع مراحل:

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٢٨

١- مرحلة القتال الأولى، من ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ م إلى ١٠ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م.

٢- الهدنة الأولى، من ١١ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م إلى ٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م.

٣- مرحلة القتال الثانية، من ٩ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م إلى ١٧ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م.

٤- الهدنة الثانية، من ١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م إلى ٧ كانون الثاني/ يناير ١٩٤٩ م.

و في مرحلة القتال الأولى، حققت الجيوش العربية، كل منها على جبهته، ما يلي:

الجبهة السورية: بعد التعديل بالمهمات، انتقل لواء المشاة الأول السوري من الجنوب اللبناني (١٤ أيار/ مايو ١٩٤٨ م)، إلى جنوب بحيرة طبرية، مرورا بدمشق فالجولان، و في صباح ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، قامت كتيبتان منه بالهجوم على سمخ، لكنهما فشلتا باحتلالها. و عاود اللواء الهجوم عليها في ١٨ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، و احتلها، مهددا بذلك مستعمرة دغانيا. و قام هذا اللواء بمحاولتين على مستعمرتي دغانيا (أ) و دغانيا (ب)، باءتا بالفشل. و بعد محاولة أولى فاشلة على مستعمرة مشمار هيردين، و أخرى على مستعمرة دان، نجح اللواء السوري الثاني باحتلال مشمار هيردين، و كذلك سقطت مستعمرتا شاعر هغولان و مسادا (١٠ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م).

الجبهة اللبنانية: تحركت القوات اللبنانية في اتجاه المالكية، لتجد القوات الصهيونية قد سبقتها إليها (١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ م)، إلا إن القوات اللبنانية استعادت المالكية و قدس، ثم احتلتها القوات الصهيونية في ٢٩ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، ثم ما لبثت قوة مشتركة لبنانية-سورية- جيش الإنقاذ، أن استعادتها في ٦ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م.

الجبهة العراقية: في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، تقدمت القوات العراقية من منطقة إربد في اتجاه مستعمرة غيشر، و احتلت مشروع الكهرباء (روتبرغ) في نهرايم، لكنها فشلت باجتياز النهر. و لم يكن الملك عبد الله يرغب في إلحاق الأذى بالمشروع، الذي كانت الشركة المالكة تدفع له رسوما على استثماره. و انتقل الجيش العراقي

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٢٩

جنوبا، و عبر عن طريق جسر ألبني و دامية، و توجه إلى نابلس، و منها إلى منطقة طولكرم، فأصبح على بعد ١٠ كلم من نتانيا، حيث اصطدم بالقوات الصهيونية، و توقف. في المقابل، قامت تلك القوات بهجوم على جنين، فاحتلت المدينة و عدة قرى (٢٨ أيار/ مايو ١٩٤٨ م) فقام الجيش العراقي بهجوم مضاد و طرد القوات الصهيونية من جنين و محيطها.

الجبهة الأردنية: فجر ١٢ أيار/ مايو ١٩٤٨، بدأت القوات الأردنية، يساندها متطوعون محليون بهجوم واسع على كتلة مستعمرات غوش عتسيون. و بعد معارك ضارية استمرت يومين، استسلم المستوطنون، بعد خسائر كبيرة يوم إعلان قيام إسرائيل. و وقع ٣٢٠ منهم بالأسر، ظلوا في المفرك (الأردن) إلى حين توقيع الهدنة الإسرائيلية-الأردنية (شباط/ فبراير ١٩٤٩ م). و في صباح ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨

م، أصدر الجنرال غلوب أوامره للجيش الأردني بعبور جسر اللنبي و الانتشار في مناطق واقعة داخل الجزء المخصص للدولة العربية في مشروع التقسيم. و تحركت الآليات الأردنية بسرعة نحو القدس، و احتلت وحدة منها مستعمرة عطروت (شمال القدس)، و بعدها مستعمرة نفى يعقوف. لكن المعارك العنيفة دارت داخل المدينة، و على مداخلة الجنوبية و الغربية، وصولاً إلى باب الواد و اللطرون. و انتهت المعارك العنيفة داخل القدس إلى تقسيمها لشطرين - البلدة القديمة بيد الجيش الأردني، و الحديثة بيد الهاغاناه، و استسلم الحى اليهودى فى البلدة القديمة فى ٢٨ أيار/ مايو ١٩٤٨ م. و قام لواء أردنى فى ١٧ أيار/ مايو ١٩٤٨ م باحتلال منطقة اللطرون، فأصبح على مسافة ٣٠ كلم من تل أبيب، و قطع الطريق منها إلى القدس، التى حوصرت مجدداً. كما دخلت وحدة أردنية مدينة بيت لحم و استولت القوات الأردنية على معامل البوتاس شمالى البحر الميت و على مستعمرة بيت هعرفاه، التى رحل سكانها إلى سدوم (جنوبى البحر الميت). و فى ١٩ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، احتلت القوات الأردنية محطة ضخ المياه قرب بيتح تكفا، و صدت فى اليوم التالى هجوماً معاكساً، و أصبح الوضع هناك يهدد تل أبيب، فتوقف.

الجهة المصرية: هاجمت القوات المصرية مستعمرة كفار داروم، بينما كانت تتقدم فى اتجاه غزة، و فشل الهجوم باحتلالها، و كذلك الأمر بالنسبة إلى نيريم. إلا إن القوات المصرية احتلت عراق سويدان، النقطة الاستراتيجية المهمة، و فى ٢٤ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، سقطت مستعمرة يد مردخاي فى يدها. كما تقدمت كتية نحو

المؤرخ فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٣٠

المجدل و تموضعت فيها. و بذلك سيطرت القوات المصرية على الطريق المؤدية إلى المستعمرات فى الجنوب. و فى ٢٩ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، تحرك اللواء المصرى الثانى إلى أسدود، و احتل مواقع شمالها، و تخندق هناك بعد أن اصطدم بتعزيزات صهيونية، جاءت من منطقة رحوفوت لصد الهجوم، الذى أصبح على بعد ٣٢ كلم من تل أبيب، الأمر الذى خفف الضغط على القوات الأردنية فى منطقة اللد و الرملة.

أما الرتل المصرى الثانى، الذى أخذ الطريق الداخلى فى اتجاه بئر السبع، فكان يتقدم بسرعة و من دون مقاومة. فدخل بئر السبع بتاريخ ٢٠ أيار/ مايو ١٩٤٨ م، و تابع تقدمه، فوصلت طلائعه إلى بيت لحم، حيث التقى مع الوحدات الأردنية، بينما كانت قوات الفدائيين المصريين (الإخوان المسلمين) قد وصلت إلى مسافة ٧ كلم جنوبى القدس، فأدى ذلك إلى حدوث توتر مصرى - أردنى، أثر فى مجرى الحرب، و استفاد منه العدو.

و فى ليل ٢-٣ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م، قامت القوات الصهيونية بهجوم على أسدود لتدمير اللواء المصرى، بعد أن قصفته بالمدفعية الجديدة التى تسلمتها للتو من أوروبا، و كذلك بالطيران الذى وصل حديثاً، و كان يعمل بطواقم من متطوعين جاؤوا من الخارج أيضاً. و فشل هذا الهجوم على محوريه - الشمالى و الجنوبى - بفعل صمود الجنود المصريين، الذين توقعوا الهجوم، و تصدوا له فى الوقت الملائم، و أنزلوا بالمهاجمين خسائر كبيرة اضطرتهم إلى الانسحاب. و مع ذلك، فهذا الهجوم جعل اللواء المصرى يتحول إلى الدفاع، و يتخندق شمالى أسدود، و لم يحاول التقدم شمالاً فى اتجاه تل أبيب. و بدلاً من ذلك، توجهت القوات المصرية لتأمين التواصل بين رتلها، فتم احتلال مستعمرة نتسانيم، و فشل الهجوم على نغبا، و مع ذلك، و قبل الهدنة الأولى، كانت القوات المصرية قد عزلت النقب تماماً، و لاحقاً أخليت مستعمرة كفار داروم.

(و) الهدنة الأولى

لم تكن الجيوش العربية بحاجة إلى هدنة، و القطاعات المشاركة منها فى الحرب كانت صغيرة، و فى الإمكان تعزيزها أو تبديلها و تسليحها، لو توفرت الجدية فى تطبيق الأهداف المعلنة لدخولها إلى فلسطين. و لكن الهدنة كانت ضرورة حيوية للقوات الصهيونية، إذ فى مواجهة خمس جهات مفتوحة، تأخذ الجيوش العربية فيها زمام المبادرة، و جددت تلك القوات نفسها فى موقع الدفاع، و بالتالى

تشيت القوي،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣١

الأمر الذي يتنافى مع «خطء د»، المعتمدة للوصول إلى الهدف الصهيوني المرحلي بإقامة إسرائيل، وذلك بعد إعادة ترتيب هيكلية الهاغاناه لتصبح «جيش الدفاع الإسرائيلي»، بكل ما ينجم عن ذلك شكلا و مضمونا. و بغض النظر عن الأسباب الذاتية الموجبة لذلك، فإن قبول الدول العربية بالهدنة، استجابة لقرار مجلس الأمن، و ضغط الدول الكبرى، كان بمثابة الاعتراف بالأمر الواقع، التقسيم، على أقل تقدير.

لقد أعلنت القيادة الصهيونية قيام إسرائيل، و اعترفت بها الدول الكبرى و غيرها، و بالتالي فإن تطور الأحداث اللاحقة للتعامل مع هذا الواقع على أساس التهادن معه، كان لا بد من أن يخدم تكريسه. و على افتراض صدقية البيانات العربية العلنية، فإن القبول بالهدنة كان ينذر بعواقب وخيمة.

لقد أرادت القيادة الصهيونية الهدنة لالتقاط الأنفاس، و تلافى الثغرات التي كشفها الهجوم العربي، و ذلك عبر توفير المستلزمات، البشرية و المادية، و خصوصا التسليحية، لتطبيق خطء د. فعلى الصعيدين - السياسي و العسكري- و على المستويين - الاستراتيجي و التكتيكي- كانت الهدنة في مصلحة إسرائيل، و ضد العرب. و قبل دخول الجيوش العربية المعركة، كانت إسرائيل في موقع الهجوم- السياسي و العسكري- أما بعده، فقد تحولت أداتها العسكرية إلى الدفاع، و بناء عليه، سعت للهدنة لترتيب أوضاعها، و للانتقال إلى الهجوم العسكري، بما يتلاءم و خطها السياسي. في المقابل، كان الموقف العربي في حالة الدفاع السياسي بعد قرارات الأمم المتحدة، و جاء الهجوم العسكري ليفتح أمام الدول العربية المجال للانتقال إلى الهجوم السياسي، لكنها بقبولها الهدنة أضاعت الفرصة، فأصبحت في موقع الدفاع- سياسيا و عسكريا. و تحولت إسرائيل إلى الهجوم السياسي استنادا إلى «الشرعية الدولية»، ثم العسكري بعد الهدنة، بينما تحولت الجيوش العربية من المبادرة الهجومية، إلى المراقبة الدفاعية، في خطوط قريبة من خطوط التقسيم، ما عدا الجبهة المصرية التي عزلت النقب، الذي كانت إسرائيل تطمع فيه. و لما أصبحت الجيوش العربية مرابطة، سهل الاستفراد بكل منها على حدة. و ما دامت القيادة الصهيونية لم تتراجع عن هدفها السياسي بإقامة الدولة اليهودية، فقد كان طبيعيا أن تستغل الهدنة، بغض النظر عن شروطها، للتقدم نحو أهدافها. و في الواقع، فإن قبولها للهدنة كان مشروطا باعتبار إسرائيل قائمة فعلا، و بالتالي كان قبول الحكومات العربية بالهدنة، اعترافا ضمنا بذلك. و في الهدنة التي حددت بأربعة أسابيع، قابلة للتجديد، استطاعت إسرائيل أن تحوّل الهاغاناه إلى جيش الدفاع الإسرائيلي، كما أراد بن- غوريون، و استقدمت المتطوعين اليهود من بلادهم

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٢

المتعددة مع التركيز على النوعية و الكفاءة القتالية. و بثت عملاءها في دول كثيرة لشراء الأسلحة المتنوعة- الطائرات و الدبابات و المدفعية .. إلخ. و كانت «الصفقة التشيكية»، من حيث الكم و النوع، هي الأكبر و الأجدد، و تمت بإيحاء من الاتحاد السوفياتي، بما يتناقض مع بنود الهدنة المعلنة.

و استنفرت القيادة الصهيونية مؤسساتها و أنصارها لجمع الأموال، و جندت طاقاتها للعمل السياسي، في الأمم المتحدة و على الصعيد الدولي، و قبلت بالهدنة، و الوساطة التي عين فولك برنادوت للقيام بها. و لما استنفدت أغراضها من مهمته، اغتالته بتاريخ ١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ م في القدس. و بقبول الجامعة العربية الهدنة، دخلت حيز التطبيق العملي في ١١ حزيران/ يونيو ١٩٤٨ م. و بينما الوسيط الدولي يعمل لوقف القتال، كانت القيادة الصهيونية تعد لاستغلال الهدنة لاستئنافه. و قد وصف أحد قادة الهاغاناه الهدنة أنها «نزلت علينا كالندي من السماء.» و بعد سريان مفعول الهدنة، عقدت القيادة العسكرية الإسرائيلية اجتماعا، و كان تقديرها أن الهدنة جاءت في الوقت الملائم، «فقد كانت الوحدات متعبة و خائرة القوى. و كانت الخسائر في كتائب سلاح المشاة عالية جدا. و كان من الضروري منح الرجال فترة استجمام لاسترداد القوى. كما كان من الضروري إرسال تعزيزات للكتائب.»

و في ختام المناقشات، لخص بن- غوريون الوضع بقوله: «إننا قمنا بعمل جبار في الأسابيع الأربعة السابقة، لكن العدو أحرز في أثنائها نقاط تفوق معينة. و إذا استؤنف القتال، و ينبغي الافتراض أنه سيستأنف، فسندخل معركة الحسم.» و من أجل الحسم، وضع بن- غوريون خطته لاستغلال الهدنة من أجل: (١) إرسال التموين إلى القدس؛ (٢) وقف النزوح من القدس؛ (٣) رفع مستوى التدريبات و الانضباط في الجيش، و إعادة تنظيم بنيته- إنشاء قيادات جهات .. إلخ، و زيادة الإنتاج الحربي؛ (٤) رفع مستوى الجهد القتالي للاستيطان برمته.

(ز) مرحلة القتال الثانية

بعد الهدنة، قدم برنادوت مشروعاً توفيقياً لم يقبل به أحد، فأصدر أوامره إلى المراقبين على الهدنة بالانسحاب من مواقعهم بتاريخ ٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م، فانتهدت الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٣

الهدنة و استؤنف القتال، الذي كانت القيادة الصهيونية تنتظره لتطبيق خطتها، مستغلة حالة الإرباك في الصف العربي، و الجمود على جهات القتال. و بدأت فترة من القتال استمرت عشرة أيام (٩-١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م)، على جميع الجبهات. و كانت القيادة الصهيونية قد أعادت ترتيب قواتها العسكرية، و استوعبت صنوفاً جديدة من السلاح، و بكميات كبيرة، و انطلقت بالهجوم مستغلة وضع الجبهات العربية الراكدة.

و كان واضحاً لتلك القيادة أنها لا تستطيع العمل على جميع الجبهات معاً، فحددت هدفها لضرب أضعف الحلقات، جيش الإنقاذ الذي انتشر في الجليل الأعلى و الغربي، و أخطر الجيوش بحسب تقديرها أي، الجيش السوري. و مع ذلك، فقد بادر الجيش المصري للعمل فتصدت له القوات الإسرائيلية. و وضعت خطة باروش لتصفية رأس الجسر السوري في مشمار هيردين (٩ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م)، بهجوم على ثلاثة محاور. لكن الجيش السوري، الذي كان في حالة تأهب، أحبط الهجوم، خلال يومين من القتال الضاري. و عاودت القوات الإسرائيلية الهجوم في ١٤ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م، لكنها اضطرت إلى التراجع أمام صمود القوات السورية في مواقعها، و حالة التأهب التي و وجه بها المهاجمون لدى انطلاقهم لتنفيذ العملية. و بعدها تحول الموقف هناك إلى حرب مواقع، و عمليات إغارة متبادلة.

و انتهد الجيش العراقي الفرصة (١٠ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م)، و قام بهجوم على خطوط القوات الإسرائيلية شمال جنين، فاخرقها و اضطرت تلك القوات إلى الانسحاب بعيداً عن المدينة، إلى الخط الذي ظل ثابتاً حتى سنة ١٩٦٧. و كذلك قام جيش الإنقاذ بهجوم على مستعمرة الشجرة (إيلانا)، التي تتحكم بمفصل استراتيجي مهم شمال الناصرة. و انضمت إلى الجيش وحدات من القرى العربية، و استمرت المعركة أكثر من أسبوع، و لم تسقط المستعمرة. و بينما جيش الإنقاذ يركز جهده، بالهجوم تلو الآخر على الشجرة، قامت قوات إسرائيلية بهجوم على الجليل الغربي، فصدت في معارك عنيفة على مشارف مجد الكروم و معليا، إلّا إنه تم اختراق الجبهة في شفاعمرو. و من هناك تحركت قوة مؤلفة في اتجاه الناصرة، بينما تحركت قوة أخرى من نهلال (في مرج ابن عامر)، و أطبقت على المدينة في عملية ديكل بتاريخ ١٦ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م. و بعد سقوط الناصرة، انهار الجليل الأسفل عملياً، بينما ظل الأعلى صامداً.

و في جبال الكرمل، و حتى بعد سقوط حيفا و ضواحيها، و كذلك الطريق الساحلي، صمدت القرى العربية بقواها الذاتية. و في مرحلة القتال الثانية، سقطت طيرة الكرمل (١٦ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م)، إلّا إن مثلث جبج و عين غزال و إجزم ظل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٤

صامداً، على الرغم من الهجمات المتكررة عليه. و كان بدوره قد استغل الهدنة لتحسين المواقع على الطرق المؤدية إليه. و انتهزت القوات الإسرائيلية الهدنة الثانية (١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م) لمهاجمتها، تحت يافطة عملية شوطير (الشرطي)، ادعاءً بأنها عملية داخلية

ضد متمردين في الدولة اليهودية (٢٤ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م).

وصمدت المقاومة المحلية في تلك القرى، وصدت خلال يومين متواصلين من القتال هجمات متعددة، مكبدة العدو خسائر كبيرة، و فرضت عليه الانكفاء عن الهجوم الأرضي. لكن هذه القرى راحت تتعرض لقصف متواصل بعيد المدى، الأمر الذي اضطر رجال المقاومة إلى الانسحاب منها بسلاحهم، والتحاقهم بالقوات العراقية في منطقة جنين، واستكمل احتلال الكرمل.

وفي الجبهة الوسطى، ضد الجيش الأردني أصلاً، خططت القيادة الإسرائيلية لعملية داني، وتحدد أهدافها كالتالي:

«أ) إزالة التهديد عن منطقة تل أبيب من جانب قوات الفيلق المعسكرة في الرملة- اللد- اليهودية وذلك بإبادة العدو في هذا القطاع.

«ب) توسيع الممر إلى القدس الذي نشأ بفضل طريق (بورما) وبفضل احتلال قرى العدو في كل القطاع الواقع شرقي اللطرون.

«ج) إيقاف الضغط على القدس عن طريق إشغال الفيلق في كل القطاع الممتد من الرملة إلى القدس.

«و بصورة عامة، أخذ زمام المبادرة من يد العدو في هذا القطاع وإلحاق الضرر به وإلغاء تفوقه الطبوغرافي.»

وحشدت للعملية قوات كبيرة، من أنواع متعددة، وعين قائد البلماح، يغال ألون قائدا لها، واتخذ مقر قيادته في قرية يازور المهجورة.

وفي ليل ٩- ١٠ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م، بدأ التنفيذ على مراحل. ودارت في إطار العملية، التي استمرت أسبوعاً، معارك ضارية، دافع

فيها الجيش الأردني والمقاتلون الفلسطينيون عن مواقعهم بشجاعة، وحالوا دون تحقيق أهداف العملية كاملة، وهي أكبر عملية

بادرت إليها القوات الإسرائيلية في ذلك الوقت. ومع ذلك، احتلت مدينتا اللد والرملة، وفتح طريق جديد إلى القدس (أشوع-

كسله- صوبا)، وتم الاستيلاء على جزء من خط سكة الحديد إلى القدس، وسقطت قرى كثيرة، وطردها أهلها منها. إلا إن القوات

الإسرائيلية فشلت في احتلال اللطرون، ومداخل القدس، وظل الطريق إليها مقطوعاً،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٥

على الرغم من الخسائر الكبيرة التي دفعتها ثمناً لذلك.

و على الجبهة الجنوبية، بادر الجيش المصري قبل انتهاء الهدنة (٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م) إلى احتلال مفترق الطرق الرئيسي في الجنوب

(بيت دراس و جولس و نغبا)، وحقق نجاحاً جزئياً باحتلاله النقطة ١١٣، وكذلك كوكبا و حليقات، إلا إنه أخفق في احتلال نغبا،

كما فشل هجومه على بئروت يتسحاق. ومع ذلك تم إخلاء كفار داروم. فبادرت القوات الإسرائيلية إلى عملية مافت لبوليش

(الموت للغازي)، التي كانت ترمي إلى فتح طريق النقب، وقطع التواصل بين انتشار القوات المصرية، لكن العملية فشلت في تحقيق

أهدافها، وظل طريق النقب مقطوعاً، والمستعمرات فيه معزولة، وعشية إعلان الهدنة الثانية (١٨ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م)، وفي مقابل

موقع كرتيا، الذي احتلته القوات الإسرائيلية، احتل الجيش المصري سبعة مواقع، الأمر الذي ترك النقب معزولاً بينما ظلت طرق

مواصلات الجيش المصري مفتوحة.

ج) الهدنة الثانية

اجتمع مجلس الأمن في ١٥ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م، وأصدر قراراً يقضي باعتبار الحالة في فلسطين تهديداً للسلم، وأمر الطرفين بوقف

إطلاق النار في الموعد الذي يحدده الوسيط الدولي، مهدداً باتخاذ إجراءات ضد أي طرف لا يمتثل لأوامره.

وبدأت الهدنة الثانية بتاريخ ١٩ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م، من دون تحديد موعد لنهايتها.

و توقف القتال بدايةً، ليعود متقطعاً في ظل الهدنة الثانية إلى نهاية الحرب. وفي ردّها على قرار مجلس الأمن، قالت اللجنة السياسية

للجامعة العربية (١٩ تموز/ يوليو ١٩٤٨ م): «إن الحكومات العربية لا ترى تعليلاً لموقف مجلس الأمن إلا رغبة بعض الدول الكبرى في

تمكين اليهود من فلسطين على حساب العرب والإنسانية تحقيقاً لما ربهما الخاصة.» وجاء في بيان اللجنة السياسية أن الجيوش العربية

ستظل مرابطة في مراكزها داخل الحدود الفلسطينية، حاضرة لاستئناف عملها، إلى أن تتحقق الغاية التي دخلت فلسطين من أجلها. و

بينما برنادوت يعد مشروعاً جديداً للتقسيم، والدول العربية مربكة جزاء الحالة التي تشكلت بعد معارك «الأيام العشرة»، واحتلال المدن و تهجير سكانها، كانت القيادة الإسرائيلية تعد لاستكمال خطتها، و تهتّىء مستلزمات المرحلة اللاحقة من القتال. فاستقدمت آلاف المتطوعين من ذوى الخبرات و الكفاءات، كما استوردت كميات كبيرة من الأسلحة المتعددة- زوارق الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٦

حربية و طائرات و مدفعية و غيرها.

بعد الهدنة الثانية، تقدم برنادوت بمشروع جديد، نشر في باريس في ٢٠ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ م، بعد اغتياله على يد عصابه ليحي بثلاثة أيام (١٧ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ م)، فكان بمثابة وصية سياسية. و جاء في مشروع برنادوت الجديد ما يلي: (١) اعتراف الدول العربية بقيام إسرائيل؛ (٢) تنفيذ الحدود بحسب قرار التقسيم مع تعديلات؛ (٣) ضم الأراضي العربية إلى شرق الأردن؛ (٤) ميناء حيفا و مطار اللد مرافق حرّة مفتوحة للدول المعنية؛ (٥) القدس تحت إشراف دولي؛ (٦) حق المشردين بالعودة إلى بيوتهم؛ (٧) يتولى مجلس فنى من الأمم المتحدة وضع الحدود، و من ثمّ توثيق العلاقات بين الدولتين.

عند هذا الحد، كان الموقف العربى قد تدهور سياسيا و عسكريا. و لم يعد قادرا حتى على الانسحاب المنظم، إذ ساءت العلاقات بين أطرافه، ليس بين الحكومات فحسب، بل بين الجيوش العاملة في فلسطين أيضا. و واضح أن مشروع برنادوت كان يعنى إلحاق الجزء المخصص للعرب بشرق الأردن، و لم يكن ذلك مصادفة، و كان طبيعيا أن يزيد في عدم الثقة بين الأطراف العربية، و خصوصا بين الهيئة العربية العليا و الملك عبد الله. و مع ذلك، لم تكن القيادة الإسرائيلية راضية عن ذلك المشروع تماما، و جاء ردها عليه بقتل صاحبه، إذ كانت قد حسمت أمرها لتحقيق أهدافها بالقوة العسكرية، و فرض الأمر الواقع على جميع الأطراف المعنية. و رأت القيادة الرسمية في اغتيال برنادوت عملا معرفلا لخططها العسكرية، و ليس مرفوضا مبدئيا، كونها كانت قد وضعت خطة عملية يوأف، الهادفة إلى «تحطيم القوات المصرية ...

و السيطرة على المنطقة [النقب].» و يبدو أن القيادة الإسرائيلية قد توصلت في هذه المرحلة إلى ضرورة اقتسام فلسطين مع الملك عبد الله، كمحطة على طريق إنجاز المشروع الصهيونى بتهويد فلسطين و تغييب شعبها.

و لذلك، و بعد سريان مفعول الهدنة الثانية، برز التفكك في الصف العربى.

و إزاء اتضاح نوايا الملك عبد الله في ضمّ الجزء العربى من فلسطين على أساس التقسيم، تحرك الحاج أمين الحسينى من القاهرة إلى غزة، بتأييد الحكومة المصرية بتاريخ ٢٨ أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ م. و أقام هناك حكومة عموم فلسطين، برئاسة أحمد حلمى عبد الباقي، بينما احتفظ لنفسه بمنصب رئيس المجلس الوطنى الفلسطينى.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٧

و فى جلسته بتاريخ ١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م، أقرّ المجلس استقلال فلسطين بحدودها الطبيعية «استقلالاً تاماً، و إقامة دولة حرّة ديمقراطية ذات سيادة، يتمتع فيها المواطنون بحرياتهم و حقوقهم، و تسير و شقيقاتها الدول العربية متأخية فى بناء المجد العربى و خدمة الحضارة الإنسانية، مستلهمين فى ذلك روح الأمة، و تاريخها المجيد، و مصممين على صيانه استقلالنا و الذود عنه.» و واضح أن البيان كان بمثابة إعلان نوايا، و تبرئة ذمة إزاء ما وصلت إليه الأمور. و فى أثناء انعقاد المجلس فى غزة، كان مؤتمر فلسطينى وطنى آخر يعقد فى عمان، يستنكر تشكيل حكومة عموم فلسطين، و يعلن الولاء للملك عبد الله، و يناشده «بسط حمايته على فلسطين.»

(ط) مرحلة القتال الثالثة و الأخيرة

كانت خطة عملية يوأف تنطوى على مرحلتين:

«أ) دق وتد فى اتجاه الساحل، من داخل النقب، بهدف تهديد و عزل القوات المصرية الموجودة فى شمالى هذا الوتد، و التى كانت

المجدل مركزها.

«ب) اختراق شريط المجدل- بيت جبرين لتحقيق الاتصال بالقوات في النقب، و بالتالي تصفية جزء كبير من قوات العدو المعسكرة في هذا الشريط بالتحديد.» و فضلا عن عمليات صغيرة ذات قيمة تكتيكية، كلف لأول مرة سلاح الجو الإسرائيلي بضرب الطائرات المصرية و هي جاثمة على أرض المطار، و غير ذلك من الأهداف. و انطلقت العملية في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م، و قاتلت القوات المصرية معارك دفاعية ضارية، و صدت الهجوم الكبير على عراق المنشية (١٦ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م)، مكبدة المهاجمين خسائر كبيرة بالأرواح و العتاد، الأمر الذي طرح على القيادة الإسرائيلية مسألة العدول عن استكمال العملية. و جرى تعديل على الخطة، و تحوّل الهجوم عن عراق المنشية إلى النقطة ١١٣، بقصد إحراز نجاح معنوي بعد الهزيمة، و فتح طريق فرعى إلى النقب. و حققت القوات الإسرائيلية نجاحا مكلفا باحتلال هذا الموقع، لكن الطريق إلى النقب، ظل مغلقا، إذ فشل الهجوم على حليقات. و عادت تلك القوات (١٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م) و احتلتها في معارك ضارية، و فتح الطريق إلى النقب. و في ٢٠ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م تمّ احتلال بئر السبع، بعملية مفاجئة من

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٨

الغرب، طريق غزة- بئر السبع، بعد السيطرة عليها من دون علم القائد المصري في المدينة، إذ وقع الهجوم من ناحية لم يكن يتوقعها. و في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م احتلت مواقع كان يتمركز فيها جنود مصريون و متطوعون محليون في منطقة بيت جبرين و عجور و الولجة و بيت نثيف، و قطع الطريق إلى بيت لحم، شريان المواصلات المهم للقوات المصرية هناك. و في ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م، الساعة الثالثة بعد الظهر، صدر الأمر بوقف إطلاق النار، و انتهت عملية يوأف بعد أسبوع من القتال الصعب. و كانت حصيلة عملية يوأف، بالنسبة إلى القوات الإسرائيلية، و بحسب مصادرها الرسمية، كالتالي: «فتح الطريق إلى النقب و هزم العدو المصري. أربك نظام تمرکز الجيش المصري تماما. بتر الشريط العرضي الممتد من المجدل إلى بيت جبرين، و نشأ جيب الفالوجة الممتد من مركز شرطة عراق سويدان في الغرب حتى عراق المنشية في الشرق. الشريط الساحلي بيت حنون- أشدود كان في قيد الإخلاء. و في الأيام التالية للعملية، احتلت قوات الجيش الإسرائيلي كل هذا الشريط. و في ٢٧/ ١٠ دخلت قواتنا أشدود و التل ٦٩ و نتسانيم. و في ٥/ ١١ دخلت المجدل و يد مردخاي.

و تجمع الجيش المصري بعد هذا التاريخ في قطاع غزة- رفح، على طول طريق العوجا- بير عسلوج الصحراوي، و في جيب الفالوجة.» و فور انتهاء عملية يوأف، بدأ الإعداد لعملية حيرام، التي تهدف إلى ضرب جيش الإنقاذ في وسط الجليل و احتلاله، و بالتالي استكمال التقدم إلى حدود الانتداب بين فلسطين و لبنان. و خلال أسبوع حشدت القوات اللازمة، و التي قاتلت أغليتها في النقب ضد القوات المصرية. و كانت الخطة أن تقوم القوات الإسرائيلية بعملية كماشة، تطبق على قلب الجليل من ثلاثة اتجاهات: الشرق، من صفد و الغرب، من نهريا و الجنوب، من الجليل الأسفل. و بدأت العملية ليلة ٢٨- ٢٩ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م، و استطاعت القوات على المحور الشرقي التقدم نحو سعسع، بعد معركة عنيفة في منطقة الصفصاف- الجش، حيث كانت قد وصلت لتوها كتيبة سورية جديدة، لم تتح لها فرصة الانتشار و اتخاذ مواقع لها، و فوجئت بالهجوم في قرية الجش. أمّا في الغرب، على محور- يانوح- ترشيحا- معليا- فقد صدّ الهجوم الأول، و صمدت الجبهة، إلى أن بلغها وصول القوات الإسرائيلية إلى سعسع، فانسحب جيش الإنقاذ و المقاتلون المحليون، خشية الوقوع في الطوق. و في هذه

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٣٩

الأثناء تحركت قوات إسرائيلية على طريق الناصرة- عيلبون- المغار شمالا، و استكمل احتلال الجليل إلى حدود الانتداب مع لبنان (٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨ م). و كانت عملية حيرام أكبر عملية للقوات الإسرائيلية في الشمال، شاركت فيها أربعة ألوية عسكرية، كما كانت الأخيرة في المنطقة، و في نهايتها احتلت ١٤ قرية في الجنوب اللبناني.

و بانتهاء عملية حيرام، عادت القوات الإسرائيلية بكامل زخمها إلى الجنوب في عملية حوريف. ففي ٩ تشرين الثاني / نوفمبر ١٩٤٨ م، احتلت عراق سويدان، بعد معركة عنيفة، بدأت بقصف مدفعي مركز على الموقع. و طوقت الفالوجة، و فيها لواء مصري، بقيادة سيد طه، الذي رفض الاستسلام. و جرت محاولة لتصفيته في أثناء عملية حوريف، ففشلت، مكلفه المهاجمين خسائر كبيرة بالأرواح في عراق المنشية، إذ استبسل الجنود المصريون في القتال دفاعا عن كرامتهم. و كان هؤلاء رفضوا العروض التي قدمها عدة مرات قائد البلماح يغال ألون في لقاءاته مع سيد طه و جمال عبد الناصر، للتفاوض على الاستسلام. و ظل هذا اللواء يقاتل بشراسته، إلى أن وقعت اتفاقية الهدنة الدائمة بين مصر و إسرائيل، فانسحب محافظا على شرفه العسكري.

و بدأت عملية حوريف في ٢٢ كانون الأول / ديسمبر ١٩٤٨ م، و كان هدفها «طرده العدو المصري نهائيا من أراضي إسرائيل و إبادته»، كما ورد في المصادر العسكرية الإسرائيلية. و حشدت للعملية خمسة ألوية، كما شارك فيها سلاحا الجو و البحر الإسرائيليان. و استمرت المعركة حتى ٧ كانون الثاني / يناير ١٩٤٩ م.

و صمدت القوات المصرية في بعض المواقع، بينما توغلت القوات الإسرائيلية في سيناء حتى أبو عجيلة. و انتهت عملية حوريف من دون تحقيق أهدافها كاملة، إذ صمدت القوات المصرية في قطاع غزة و جيب الفالوجة، بينما سقطت المواقع الأخرى. و بعد العملية بدأت مفاوضات الهدنة الدائمة بين مصر و إسرائيل.

بعد عملية حوريف اعتقدت القيادة الإسرائيلية أن النقب أصبح تابعا لدولتها، فكتشفت أن المملكة الأردنية تنوي الاحتفاظ بمواقع لها فيه، من ضمنها أم رشرش (إيلات)، و كان ذلك في أثناء المفاوضات على الهدنة الدائمة، فقررت استكمال احتلال النقب، و طرد القوات الأردنية منه، قبل التوقيع على الهدنة. و وضعت لهذا الغرض خطة عملية عوفدا، التي تقضى بالتقدم نحو إيلات على محورين: الأول في وسط النقب، و الثاني في وادي عربة. و كلف بالعملية لواءان، و انطلقت في ١٥ آذار /

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٠

مارس ١٩٤٩ م و حققت أهدافها من دون قتال يذكر، و انتهت باحتلال إيلات في ١٩ آذار / مارس ١٩٤٩ م. و استكملت المفاوضات مع المملكة الأردنية على الهدنة الدائمة. و كان القتال قد توقف على هذه الجبهة منذ مرحلة القتال الثانية. و بعد عملية عوفدا، اعترفت المملكة بسيادة إسرائيل على النقب حتى إيلات. و قرر الجيش العراقي الانسحاب من دون مفاوضات مع إسرائيل، و احتل الجيش الأردني مواقعه، و بالتالي المفاوضات على الهدنة في قطاعه. و في المفاوضات وافقت المملكة الأردنية على تعديلات في الخطوط، فتنازلت عن المثلث الصغير لإسرائيل، التي تنازلت في المقابل عن شريط في منطقة الظاهرية (الخليل) للمملكة.

و تم الاتفاق على خطوط الهدنة في رودس في ٣ نيسان / أبريل ١٩٤٩ م، و فك الحصار عن القدس، التي انقسمت إلى شطرين، و تشكلت «الضفة الغربية» من المملكة الأردنية الهاشمية، من الأراضي الفلسطينية التي ظلت في يدها حتى حرب ١٩٤٧.

و في رودس أيضا، تم التوقيع على اتفاقية الهدنة الأولى مع دولة عربية - مصر - في ٢٤ شباط / فبراير ١٩٤٩ م، و بنتيجة أخلى جيب الفالوجة، و ظل قطاع غزة بيد السلطة المصرية، من رفح حتى بيت حنون، و أيضا حتى حرب ١٩٤٧.

و في رأس الناقورة، وقعت اتفاقية الهدنة مع لبنان في ٢٣ آذار / مارس ١٩٤٩ م.

و في المفاوضات طلبت إسرائيل انسحابا سوريا من مشمار هيردين، في مقابل انسحابها من القرى ال ١٤ التي احتلتها في الجنوب اللبناني، إلا إنها عادت و تراجعت، و ثبت خط الهدنة على طول حدود الانتداب بين فلسطين و لبنان.

و كانت المفاوضات على الهدنة مع سورية هي الأطول و الأكثر تعقيدا، بسبب الوضع الاستراتيجي الخاص للمنطقة الحدودية في هذا القطاع. و أخيرا توصل الطرفان إلى توقيع اتفاقية الهدنة في ٢٠ تموز / يوليو ١٩٤٩ م، و انسحب الجيش السوري من مشمار هيردين، و حددت منطقة منزوعة السلاح على الحدود.

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤١

المراجع

باللغة العربية

- ١- أبو غربية، بهجت. «في خضم النضال العربي الفلسطيني». بيروت، ١٩٩٣.
 - ٢- الأمم المتحدة. «منشأ القضية الفلسطينية و تطورها». نيويورك، ١٩٩٠.
 - ٣- خلة، كامل محمود. «فلسطين و الانتداب البريطاني». بيروت، ١٩٧٤.
 - ٤- شوفاني، الياس. «العلاقة بين الثكنة و المركز، الكيان الصهيوني و الولايات المتحدة الأمريكية». دمشق، ١٩٩٢.
 - ٥- الكيالي، عبد الوهاب. «تاريخ فلسطين الحديث». بيروت، ١٩٧٠.
 - ٦- المسيري، عبد الوهاب محمد. «الأيدولوجية الصهيونية». سلسلة عالم المعرفة. الكويت، ١٩٨٨.
 - ٧- «موسوعة المفاهيم و المصطلحات الصهيونية». القاهرة، ١٩٧٤.
 - ٨- مؤسسة الدراسات الفلسطينية. «حرب فلسطين، ١٩٤٧-١٩٤٨» (الرواية الإسرائيلية الرسمية). ترجمه عن العبرية أحمد خليفة، قدم له وليد الخالدي، راجع الترجمة سمير جبور. نيقوسيا- قبرص، ١٩٨٦.
 - ٩- «فلسطين: تاريخها و قضيتها» (المرحلة الثانية). نيقوسيا- قبرص، ١٩٨٣.
 - ١٠- و جامعة الكويت. «الثورة العربية الكبرى في فلسطين، ١٩٣٦-١٩٣٩» (الرواية الإسرائيلية الرسمية). ترجمه عن العبرية أحمد خليفة، راجع الترجمة سمير جبور. بيروت، ١٩٨٩.
 - ١١- «الموسوعة الفلسطينية»، القسم العام. ٤ مجلدات. دمشق، ١٩٨٤.
 - ١٢-، القسم الثاني (الدراسات الخاصة). ٦ مجلدات. بيروت، ١٩٩٠.
 - ١٣- وزارة الدفاع الوطني- الجيش اللبناني، و مؤسسة الدراسات الفلسطينية. «القضية الفلسطينية و الخطر الصهيوني». بيروت، ١٩٧٣.
 - ١٤- ياسين، صبحي. «الثورة العربية الكبرى، ١٩٣٦-١٩٣٩». دمشق، ١٩٦١.
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٢

باللغات الأجنبية

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٣

فهرست

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٥

(أ) آبل: ١٣١

آحاب (ملك إسرائيل): ١٠٠، ١٠١

آسا (ملك يهودا): ٩٩، ١٠٠

آسيا: ٣، ١١، ١٤، ١٩، ٢٦، ٥٤-٥٧، ٦١، ٦٨-٧٠، ٧٣، ٧٦، ٨٤، ٩٨، ١٠٢، ١١٣، ١١٥، ١١٧، ١٦٥، ٢٢٦، ٢٤٠، ٣١٧، ٣٢٩، ٣٦١

آسيا الصغرى: ٥٤، ٨٥، ١٠٥، ١٠٧، ١١٢، ١١٦، ١٢٥، ١٣٥، ١٤١، ١٤٥، ١٥١، ١٦٨، ١٦٩، ١٩٤، ١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٣، ٢٣٤، ٢٣٧-

٢٣٩، ٢٤١، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٩، ٣٥٠

– أنظر أيضا: الأناضول؛ أناضوليا

آل البيت: ١٦٧

آمد: ٢١٩

آمورى (ملك عكا): ٢١٥، ٢١٦

آنو (الإله): ٦٥

آيرين (الإمبراطورة): ١٨١

أبرام العبرى: ٨٠

– أنظر أيضا: إبراهيم (النبي)

إبراهيم (النبي): ٧٦، ٧٨ – ٨٠، ٨٥، ٨٨، ٣٠٩

– أنظر أيضا: أبرام العبرى

إبراهيم، توفيق (أبو إبراهيم الصغير): ٤٥٧، ٤٧٦

إبراهيم باشا: ٢٦١ – ٢٦٦، ٢٦٨ – ٢٧٠، ٢٧٢، ٢٧٤ – ٢٧٨، ٢٨٥

إبراهيم بن محمد بن على العباسى: ١٧٦

إبراهيم الحلبي: ٢٤٢

أبشالوم (ابن داود): ٩٥، ٩٦

إبشتاين، دان: ٥٢٣، ٥٢٤

– أنظر أيضا: إيبين، دان

إبلا: ٧، ٨، ٤٣، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٤، ٥٥، ٦٣، ٧٥

– أنظر أيضا: تل مردوخ

إبلين: ٢٠٥

– أنظر أيضا: بيت إبلين؛ يبنى؛ يمينا إبلين (عائلة): ٢٠٥

ابن حوقل: ٩

ابن رشيد: ٣٤٨

ابن الزبير: ١٧٤

– أنظر أيضا: عبد الله بن الزبير

ابن سعود: ٣٤٨، ٤٦٧، ٤٨٩، ٤٩٠

– أنظر أيضا: عبد العزيز بن سعود ابن الشيخ (الوالى): ١٧٩

ابن الفقيه: ٩

ابن ملجم: ١٦٧

أبناء إسرائيل: ٦٢، ٧٦، ٨٢، ٩١، ٣١٠

– أنظر أيضا: الإسرائيليون؛ بنو إسرائيل؛ القبائل الإسرائيلية

أبناء شيت: ٦٦

- أنظر أيضا: العمونيون؛ المؤابيون أبتر (القائد): ٩٤
- أبو إبراهيم الصغير: أنظر: إبراهيم، توفيق
- أبو إبراهيم الكبير: أنظر: عيسى، خليل محمد أبو بكر الصديق: ١٦١، ١٦٢
- أبو تميم معد: ١٨٢
- أنظر أيضا: المعز لدين الله
- أبو جعفر المنصور (الخليفة): ١٧٨
- أبو خضراء، محمود: ٤٥٤
- أبو درة، يوسف سعيد: ٤٥٧، ٤٧٦
- أبو الذهب، محمد بك: ٢٥٠-٢٥٢
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٦
- أبو السعود، حسن: ٤٧٦
- أبو شوشة: ١١١
- أنظر أيضا: جيزر
- أبو العباس السفاح: ١٧٦، ١٧٨
- أبو عبيدة بن الجراح: ١٦٦، ١٦٧
- أبو عجيله: ٥٣٩
- أبو غوش (عائلة): ٢٧٦، ٢٨٠
- أبو غوش (موقع): ٣٧، ٢٠٩
- أبو غوش، مصطفى: ٢٦٣، ٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٧٧
- أبو فطرس: ١٧٧
- أنظر أيضا: أنتيباترس؛ رأس العين أبو القاسم أنوجور (ابن الإخشيد): ١٨٠
- أبو قير: ٢٥٥
- أبو لؤلؤة (المجوسي): ١٦٧
- أبو محمود (ابن جعفر بن فلاح): ١٨٤
- أبو مرق، محمد باشا: ٢٥٩
- أبو مسلم الخراساني: ١٧٦
- أبو النداء: ١٧٨
- أبو الهدى (نقيب الأشراف): ٢٩٠
- أبو هريرة (موقع): ٢٨
- أبولو (الإله): ١٢٤
- أبولونيا: ١٢٤، ١٣٨، ١٤٩
- أنظر أيضا: أرسوف
- أبولونيوس: ١١٥

- أيام بن رحبعام (ملك يهودا): ٩٨، ٩٩
 أييفانس: ١٢٠
 - أنظر أيضا: أنطيوخوس الرابع أييفيل: ١٤
 أييل: ١٦٦
 أيميلخ (القائد): ٩٣
 أتاتورك: ٣٨٤
 - أنظر أيضا: مصطفى كمال إتبعل (ملك صيدا): ١٠٠
 الاتحاد السوفياتي: ٤٩١، ٥٠٣، ٥٠٥، ٥٠٨، ٥٣٢
 الأتراك: ١٧٩، ١٨٦، ٢٠١، ٢٣٢، ٢٣٤، ٢٣٧، ٢٣٨، ٢٦٠، ٢٧١، ٢٧٣، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٩، ٢٩٠، ٢٩٤، ٣٠٠، ٣٣٥، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٥٠، ٣٦١، ٣٨٦
 - أنظر أيضا: بنو عثمان؛ الترك؛ العثمانيون أتسيز: ١٨٧
 - أنظر أيضا: أطسيز
 أتشيسون، دين: ٥٠٣
 الاتفاقية البريطانية-المصرية: ٤٦٦
 اتفاقية سايكس-بيكو: ٣٤١، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٥٨، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٦٧، ٣٧٣
 اتفاقية مكماهون-الحسين: ٣٤٩
 اتفاقية الهدنة بين سورية وإسرائيل (١٩٤٩):
 ٥٤٠
 اتفاقية الهدنة بين لبنان وإسرائيل (١٩٤٩): ٥٤٠
 اتفاقية الهدنة بين مصر وإسرائيل (١٩٤٩):
 ٥٤٠، ٥٤٠
 أتلي، كليمنت: ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠١
 أثينا: ١٠٧، ١١١، ١٢٤
 إثيوبيا: ١١٦
 إجزم: ٥٣٣
 أجنادين: ١٦٣، ١٧٠
 أحاد هعام: ٤٣٦
 - أنظر أيضا: غينزبرغ، آشر أحاز (ملك يهودا): ١٠٢
 أحباء صهيون: ٣١٩، ٣٢١، ٣٢٣
 - أنظر أيضا: جمعية أحباء صهيون؛ حركة أحباء صهيون؛ حوففي تسيون
 الأحساء: ١٨٤
 الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٧
 أحمد، سعيد عطية: ٤٥٦

- الأحمد، (الشيخ) قاسم: ٢٦١
الأحمد، مصطفى على: ٤٥٦
أحمد باشا: ٢٦٤
أحمد باشا الجزائر: ٦، ٢٥٢-٢٥٤، ٢٥٦-٢٥٩، ٢٦٨، ٢٧٥
أحمد باشا الحافظ (والى دمشق): ٢٤٥
أحمد بن طراباى (الحارثى): ٢٤٥
أحمد بن طولون: ١٧٩
أحمد بن ظاهر العمر الزيدانى: ٢٥٢
أحمد جمال باشا: ٣٤٤، ٣٤٥
- أنظر أيضا: جمال باشا
أحمس الأول: ٧٠
أخشاف: ٦٣، ٦٦
- أنظر أيضا: تل دور
الإخشيديون: ١٨٠
- أنظر أيضا: محمد بن طغج
الإخشيديون: ١٧٨-١٨٠، ١٨٢-١٨٥
أخناطون: ٧٣، ٨٩
أخيش (ملك جات): ٩٤
أداد نيرارى الثالث: ١٠٢
أدرينوبل: ٢٣٨، ٢٣٩
الإدريسيون: ١٧٨، ١٨٢
أدوم: ٨٠، ٩٠، ٩٨، ١٠٨، ١٣١، ١٩٩
أدوميا: ١٠٩، ١١٤
الأدوميون: ٥، ٨٣، ١٠١، ١٢٢، ١٣٠، ١٣٧، ١٤٧، ١٥٥، ١٥٦
أدونياهو (ابن داود): ٩٦
إديسا: ١٩٥-١٩٧، ١٩٩-٢٠٢، ٢٠٥
- أنظر أيضا: الرها
أديمار (الأسقف): ١٩٥
أذرح: ١٥٠، ١٦١، ١٦٧، ١٧٤
إذنا: ٢٧٧
أذينة (الملك): ١٥٦
الأراميون: ٥، ٤٩، ٥٣، ٨٣، ٩٠، ٩٥، ٩٨-١٠٢، ١٤٧، ١٧٤
أربان الثانى (البابا): ١٩٠، ١٩١، ١٩٣، ١٩٤

إربد: ٥٢٧، ٥٢٨

أربيل: ١١٢، ١٣١

أرتحشستا (ملك فارس): ١١٠

الأرجنتين: ٣٢٤، ٣٢٨، ٣٦٠

أرخيلاوس (ابن هيرودوس): ١٣٢، ١٣٣، ١٣٦

الأردن (شرق الأردن): ١٤، ٢١، ٢٣، ٢٨، ٣٧، ٣٨، ٥٩، ٧٨، ٧٩، ١١٦، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٠، ١٣١، ١٣٧، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٧، ١٦٣، ١٧٣،

١٧٥، ١٧٧، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٨، ٣٤٧، ٣٥٣، ٣٦٧، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٩، ٤١٠، ٤١٢، ٤٢١، ٤٢٢، ٤٢٩، ٤٣٣، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٥٠،

٤٦٩-٤٧٢، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠٩، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٩، ٥٣٦

- أنظر أيضا: المملكة الأردنية الهاشمية أرسطو: ١١٢

أرسطوبولوس (ابن هوركانوس): ١٢٢، ١٢٣

أرسطوبولوس (ابن هيرودوس): ١٣٢

أرسطوبولوس الثاني (ابن ألكسندر يناي):

١٢٣، ١٢٧، ١٢٨

أرسالان، أمين: ٢٩٣

أرسالان، شكيب: ٤٧٣

أرسالان، عادل: ٢٩٣

أرسالان، محمد: ٢٩٢

الأرسالانية: ٢٥٠

- أنظر أيضا: الأزيكية أرسوف: ١٢٤، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٣، ٢١٤، ٢٢٧

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٨

- أنظر أيضا: أبولونيا

أرشو: ٧٠

أرض غوشن: ٨٠

- أنظر أيضا: الدلتا

أرض - كنعان: ٧، ٤٨، ٤٧، ٤٩، ٧٣، ٧٤، ٧٦، ٧٨، ٨٠، ٨٢، ٨٦-٨٩، ٩١، ٩٢

أرطاس: ٢٨١

الإرغون: ٤٩٠، ٤٩٣، ٥١١، ٥١٢، ٥٢١، ٥٢٣

- أنظر أيضا: إرغون تسفاني لثومي؛ إيتسل؛ المنظمة العسكرية القومية

إرغون تسفاني لثومي: ٤٧٨

- أنظر أيضا: الإرغون؛ إيتسل؛ المنظمة العسكرية القومية

أركاديوس: ١٤٣

أرلوزوروف، حاييم: ٤٤٤، ٤٤٦

الأرمن: ١٤١، ١٤٧، ٢٩٣

- أرمينيا: ١٤٥، ١٦٩ - ١٧١، ٢١٨
 أرمينيا الصغرى: ٢١٣
 الأرناؤوط، معروف: ٣٠٢
 أرنون: ٢٢٩
 أرواد: ٨٥، ١١١
 أريتاس (ملك الأنباط): ١٢٣
 - أنظر أيضا: الحارث الثالث
 أريحا: ٤٤، ٤٨، ٤٣، ٨٧، ٩١، ١١١، ١١٧، ١٢١، ١٢٨، ١٢٩، ١٣١، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٦، ١٧٥، ١٩٧، ٢٠٩، ٢٧٨، ٣٠٢، ٤٧٨، ٥٢٤
 أريحا القديمة: ٢٦، ٢٧، ٣٥ - ٣٨
 - أنظر أيضا: تل السلطان
 الأزركية: ٢٥٠
 - أنظر أيضا: الأرسلائية
 الأزدي (قبيلة): ١٦٧، ١٧٣
 الأزرق (موقع، واحة): ١٤، ١٥٠
 إزمت: ٢٣٧
 - أنظر أيضا: نيكوميديا
 إزنك: ١٨٩، ٢٣٧
 - أنظر أيضا: نيقيا
 الأزهر: ٤٥٥
 أزوتس: ١١٤، ١٢٥، ١٣٨
 - أنظر أيضا: أسدود؛ أشدود أسامة بن زيد: ١٧٣
 إسبانيا: ٦، ١١٦، ١٨٢، ١٨٨، ١٩٣، ٢٤٥
 الإيبتياريون (الإيبتيارية): ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١
 الاستخبارات البريطانية: ٣٦١
 أستراليا: ٤٨٦، ٥٠٦
 إستنبول: ٢٤١، ٢٤٩، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٩ - ٢٧٢، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٨٩، ٢٩١، ٢٩٢، ٢٩٤ - ٢٩٦، ٢٩٩، ٣٠١
 ٣٠٣، ٣١٨، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٣ - ٣٣٥، ٣٣٨، ٣٤٢ - ٣٤٤، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٤، ٣٥٦، ٣٥٨، ٣٦١، ٤٩١
 - أنظر أيضا: إسطنبول؛ إسلامبول؛ القسطنطينية
 «استقلال العرب» (مجلة): ٢٩١
 إسحاق: ٧٦، ٧٨ - ٨٠
 - أنظر أيضا: يتسحاق
 أسد الدين شيركوه: ٢١١
 - أنظر أيضا: شيركوه

أسدود: ٤٣، ٨٥، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١٢٥، ١٣٨، ١٤٨، ١٥٠، ٥٣٠

- أنظر أيضا: أزوتس؛ أشدود

إسرائيل: ٨٠

- أنظر أيضا: يعقوب

إسرائيل: أنظر: مملكة إسرائيل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٤٩

إسرائيل: ٥، ٧، ٣١٩، ٣٦١، ٣٩٠، ٣٩٦، ٣٩٧، ٤٠١-٤٠٣، ٤٠٧، ٥٠٠، ٥٠٦، ٥٢٥، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٦، ٥٣٩، ٥٤٠

الإسرائيليون: ٥، ٧٦، ٨٣، ٨٥-١٠٣، ١٥٥

- أنظر أيضا: أبناء إسرائيل؛ بنو إسرائيل؛ القبائل الإسرائيلية

أسرحدون: ٥، ١٠٢

إسطمبول: ٢٤٢

- أنظر أيضا: إستنبول؛ إسلامبول؛ القسطنطينية

الأسعد، كامل بك: ٣٨٢

الإسكندر المقدوني: ٦، ٨٤، ١٠٥، ١٠٧، ١١٠-١١٧، ١٢٣، ١٢٥، ١٢٦، ١٤٦، ٢٥٥

الإسكندرون: ٣٤٤، ٣٦٦

إسكندرون (جنوب لبنان): ٢٠٥

- أنظر أيضا: حصن إسكندرون

الإسكندرية: ١١٢، ١١٥، ١١٦، ١١٨، ١١٩، ١٢٦، ١٤٥، ١٤٧، ١٨٢، ٢٠٤، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٤، ٥٠٤

أسكيشهر: ٢٣٧

- أنظر أيضا: دوريليوم الموجز في تاريخ فلسطين السياسي؛ ص ٥٤٩

لامبول: ٢٣٩

- أنظر أيضا: إستنبول؛ إسطمبول؛ القسطنطينية

إسماعيل: ٨٠

إسماعيل بك: ٢٥١

إسماعيل شاه الصفوي: ٢٣٩، ٢٤٠

الإسماعيلية (تنظيم): ٢١٤

أسيفات هنفحاريم: ٣٩٥، ٤٣٦

- أنظر أيضا: مجلس النواب الإسرائيلي أشبعل (ابن شأول): ٩٤

أشدود: ٥٣٨

- أنظر أيضا: أزوتس؛ أسدود الأشرف (ملك الجزيرة): ٢١٧-٢١٩

الأشرف خليل بن قلاوون: ٢٢٨، ٢٣١

الأشعريون (قبيلة): ١٧٣

الأشمر، الشيخ محمد: ٤٦٤

أشوننا: ٥٥

أشور: ٤، ٥، ٥٣، ٥٥، ٥٧، ٧٠، ٩٥، ٩٨، ١٠٠-١٠٢، ١٠٥، ١٠٦

الأشوريون: ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٨٣، ٩٨، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٨

أشوع: ٥٣٤

الإصيح: ٤٧٧

الإصطخرى: ٩

«الأصمعي» (صحيفة): ٣٠٢

أضنة: ٢٦٢

الأطرش، سلطان باشا: ٣٥٣

أطسيز: ١٨٧، ١٨٩

- أنظر أيضا: أتسيز

الأعصم: ١٨٤-١٨٦

- أنظر أيضا: الحسن الأعصم

الأغالبه: ١٧٩، ١٨٢

أغامنون (سفينة): ٣٥٣

أغريبا (حفيد هيرودوس): ١٣٦

أغسطس (القيصر): ١٣٣، ١٣٤، ١٣٨، ١٤٠

- أنظر أيضا: أكتافيوس

أغسطس (ملك فرنسا): ٢١٢

- أنظر أيضا: فيليب الثاني

الأغوار: ٢١٨، ٢٢٠

أفارس: ٥٧-٦٠، ٧٠

- أنظر أيضا: تل اليهودية

إفرايم (سبط): ٩٣، ٩٤، ٩٧، ٩٨

إفريقيا: ٣، ١١، ١٣-١٥، ١٩، ٢٦، ٨٥، ١٨٢، ١٩٣، ٢٤٠، ٢٥٥، ٢٦١، ٢٩١، ٣٠٣، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢١، ٣٢٥، ٣٤٥، ٣٦١، ٣٧٣، ٤٨٨، ٤٩٢

المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٠

الأفضل (ابن صلاح الدين): ٢١٥، ٢٢٤، ٢٤٠

الأفغان: ٢٤٦

أفغانستان: ٥٠٦

الأفغاني، جمال الدين: ٢٨٧

أفيدان، شمعون: ٥٢٢

أفيك: ٦٣، ٦٦

- أنظر أيضا: تل كيسان

- إقبطانا: ١٠٧
- «الإقدام» (صحيفة): ٣٠٣
- أكاد: ٥٣، ٥٤
- أكاديمية أثينا: ١٤١
- الأكاديون: ٤٦، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٥٧
- أكتافيوس: ١٢٨ - ١٣٠، ١٣٢ - ١٣٤، ١٣٨، ١٤٠
- أنظر أيضا: أغسطس (القيصر)
- أكتيوم: ١٢٩
- الأكراد: ٣٤٦
- الأكروبولس (مبنى): ٧٥
- أكزيب: ١٠٨، ١٠٩
- أنظر أيضا: الزيب
- أكيدر بن عبد المالك: ١٧٣
- الالاخ: ٧، ٥٥، ٦٣، ٦٧، ٧٠
- أنظر أيضا: تل عطشانة
- ألبتكين: ١٨٤
- ألقلي، (الحاخام) يهودا: ٣١٨، ٣٢٦، ٣٢٧
- الكساير: ٥١٩، ٥٢٣
- ألكسندر (ابن أرسطوبولس): ١٢٨
- ألكسندر (ابن هيرودوس): ١٣٢
- ألكسندر بالاس: ١٢٠
- ألكسندر الثاني: ٣٢٠
- ألكسندر سفيروس: ١٤٨، ١٤٩
- ألكسندر يناي: ١٢٢، ١٢٧
- ألكسندرا (أم مريم الحشمونية): ١٣٠
- ألكسندرون: ١٣٢
- ألكسيوس كومنينوس (إمبراطور بيزنطة): ١٩٠، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٩، ٢٠٠
- ألكيموس (الكاهن الأكبر): ١٢٠
- أللبي (الجنرال): ٣٥١، ٣٥٣، ٣٦٠، ٣٧١
- الألمان: ٢١٦، ٢٨١، ٢٨٢، ٣٤٥
- ألمانيا: ١٦، ١٩٤، ٢٠١، ٢٠٢، ٢٩٢، ٢٩٥، ٣٢٠، ٣٣٠، ٣٣٣، ٣٣٤، ٣٤٤، ٣٤٧، ٣٥٤ - ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦٣، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٠٩، ٤٤٥ - ٤٤٧، ٤٦٦، ٤٦٩، ٤٨٥ - ٤٨٧، ٤٩٠، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٤، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥١٦
- ألوسا: ١٥٠، ١٥١

- أنظر أيضا: الخلصة
ألون، يغال: ٥٢٤، ٥٣٤، ٥٣٩
الياس (شيخ صوفى): ٢٣١
إلياهو (النبي): ١٠١
- أنظر أيضا: الخضر؛ مار الياس
إليوتيروبولس: ١٤٨، ١٤٩
- أنظر أيضا: بيت جبرين؛ بيت غوفرين
أم الجمال: ١٥٠
أم رشرش: ٥٣٩
- أنظر أيضا: إيالات
أم الفحم: ٤٧٧
أم قيس: ١٢٤
- أنظر أيضا: جدرا
إمارة الجرمان: ٢٣٨
إمارة القرمان: ٢٣٨
- الإمام عبيد الله المهدي: ١٨٢
- أنظر أيضا: سعيد بن الحسين
الإمام يحيى: ٤٦٥
الإمبراطورية الأكادية: ٥٥
إمبراطورية بابل: ٦٢، ٦٧
- الإمبراطورية البيزنطية: ٦، ١٣٣، ١٤٠، ١٤١، ١٤٤، ١٤٦، ١٥٨، ١٨٢، ١٨٥،
الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥١
١٨٨، ١٨٩، ١٩٩، ٢٣٧، ٢٣٩، ٢٤٢، ٢٤٤
- الإمبراطورية الحثية: ٨٤، ١٠٥
- الإمبراطورية الرومانية: ٦، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٥، ١٤٦، ١٨٩
- الإمبراطورية الساسانية: ١٧٧
- الإمبراطورية العثمانية: ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٨١، ٢٩٤، ٣٣٥
- إمبراطورية فارس (الأخمينية): ١٠٦، ١٥٨، ١٦١، ١٦٨
- الإمبراطورية المصرية: ٨٤، ٩٥
- إمبراطورية الهكسوس: ٥٨، ٦٠، ٦٢، ٦٧، ٦٨، ٧٠
- امرؤ القيس: ١٧٣
- أمرك (ملك أورشليم): ٢٠٢
- الأمم المتحدة: ٤٩٢، ٥٠٠-٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٤، ٥١٥، ٥٢٥، ٥٢٦، ٥٣١، ٥٣٢، ٥٣٦

- أنظر أيضا: هيئة الأمم المتحدة
أمنون (ابن داود): ٩٦
أمورو: ٧
- أنظر أيضا: بلاد الشام؛ عمورو أمورو (قبائل): ٤٩، ٥٣
الأمويون: ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣-١٧٨، ١٨٠، ١٨٣، ١٨٩
- أنظر أيضا: بنو أمية
أمير مالك غازي (القائد التركي): ١٩٩
- أميركا: ٢٠، ٢٤٢، ٣٢٨، ٣٥٥-٣٥٨، ٣٦٤، ٤١٦، ٤٢٦، ٤٤٣، ٤٨١-٤٨٣، ٤٨٥، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠١، ٥٠٤، ٥٠٥، ٥٢٢
- أنظر أيضا: الولايات المتحدة الأميركية: ٥٠٣
الأمين (الخليفة): ١٧٨
أميين: ١٩٤
الأناضول: ٥٢، ٧٠، ٨٣
- أنظر أيضا: آسيا الصغرى؛ أناضوليا الأناضول (هضبة): ٢٦
أناضوليا: ٩، ٧٠، ٨٩، ١٠٥، ٣٥٠، ٣٥١
- أنظر أيضا: آسيا الصغرى؛ الأناضول الأنبار: ١٦٢
الأنباط: ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٩، ١٣٠، ١٣٣، ١٣٨، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٦، ١٨٩
- أنتياتر (ابن هيرودوس): ١٣٢
أنتياتر الأدمي: ١٢٣، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٠
أنتياترس: ١١٧، ١٢٦، ١٣١، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩، ١٧٧
- أنظر أيضا: أبو فطرس؛ رأس العين
أنتياس (ابن هيرودوس): ١٣٢، ١٣٣، ١٤٨، ١٤٩
أنتيون: ١٢٥، ١٣٢
أندرز (الجنرال): ٥١٢
أندروز، لويس: ٤٦٨، ٤٧٤
أندروماكوس (قائد الإسكندر): ١١٧
الأندلس: ١٧٥، ١٧٨، ١٨٣
- أنسكوب: أنظر: لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين
أنشاص: ٥٠٣
- أنطاكيا: ١١٦، ١٢٠، ١٢٦، ١٤٥، ١٤٦، ١٥٠، ١٨٠، ١٨١، ١٩٣، ١٩٥-١٩٧، ١٩٩-٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٢-٢١٥، ٢٢٧، ٢٦١
- أنطاليا: ٢٣٨
أنطونيوس: ١٢٨-١٣١، ١٥٦
- أنظر أيضا: ماركوس أنطونيوس
أنطونيوس، جورج: ٤٨٢

- أنطونبوس ييوس (الإمبراطور): ١٣٨
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٢
- الأنطونيون: ١١٣
- أنطيوخوس: ١١٣، ١٢٨، ١٢٩
- أنطيوخوس الثالث: ١١٣
- أنطيوخوس الرابع: ١١٩
- أنظر أيضا: أيفانس
- أنطيوخوس الخامس: ١٢٠
- أنطيوخوس السابع: ١٢١
- أنظر أيضا: سيدتس
- أنف الغزاة: ٥٧
- أنقرة: ٢٣٨
- أنظر أيضا: أنكورا
- الإنكشارية: ٢٦٠، ٢٦١
- إنكلترا: ٢١٤، ٢١٥، ٣٤١، ٣٤٥، ٣٤٩، ٣٦١، ٣٧١، ٣٧٥، ٣٩٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٧، ٤٤٢، ٤٤٦، ٤١٦
- أنظر أيضا: بريطانيا
- الإنكليز: ٢١٣، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٢، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٣، ٤١٣، ٤٩٧، ٥١٨
- أنظر أيضا: البريطانيون
- أنكورا: ٢٣٨
- أنظر أيضا: أنقرة
- أنور باشا: ٢٩٤، ٢٩٥
- إنوسنت (البابا): ٢١٦
- «الأهرام» (صحيفة): ٢٨٨، ٣٠٣
- أهرونسون، أهرون: ٣٦١
- أهورامازدا (إله فارس): ١٠٧
- الأوتيو: ٥٦
- أوديسا: ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٩
- أور: ٧٩، ٨٥
- الأورثوذكس: ٢٨٠، ٣٠٠
- أورخان (ابن عثمان بن أرطغرل): ٢٣٧، ٢٣٨
- أورشليم: ٨، ٦٤، ٦٦، ٧٩، ٨٨، ٩٠، ٩٤-٩٦، ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩-١١١، ١١٧-١٢٣، ١٢٦-١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٣٥-١٣٩، ١٤٣، ١٤٦، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٥، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢١٨
- أنظر أيضا: أورشاليم؛ إيليا كابيتولينا؛ إيلياء؛ بيت المقدس؛ سالم؛ القدس؛ مدينة داود؛ ييوس؛ يروشاليم

أورلوف (الكونت): ٢٥٠

أورمسي - غور: ٣٦٩، ٤٦٥، ٤٦٧، ٤٦٨

أوروبا: ١١، ١٤، ١٦، ٢٤، ١٠٧، ١٢٧، ١٥١، ١٨٧، ١٨٩ - ١٩٢، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠١، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٧ - ٢١٣، ٢١٥ - ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٧،

٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٨ - ٢٤١، ٢٤٤ - ٢٤٧، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٦٩، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢ - ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٥ - ٢٩٧،

٣٠١، ٣٠٩، ٣١٠، ٣١٢، ٣١٥، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٥ - ٣٢٧، ٣٢٩، ٣٣٥، ٣٣٧، ٣٤٢، ٣٥٢، ٣٥٥، ٣٥٩ - ٣٦١، ٣٨٦، ٤٠٦، ٤١٧، ٤٥٤، ٤٧٨،

٤٨٢، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٧، ٤٩٨، ٥٠٠، ٥١٢، ٥٣٠

أوروبا الشرقية: ٢٣٩، ٣١٥، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٦٣، ٣٦٤، ٤١٣

أوروبا الغربية: ٦، ١٨٢، ٢٠٦، ٣٢٦ - ٣٢٨، ٤٨٦

أوروبا الوسطى: ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٨٢، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٠

الأوروبيون: ٢١٤، ٢٢٨، ٢٤٩، ٣١٥، ٣٣٧

أوروشالم: ٨

- أنظر أيضا: أورشلیم؛ إيليا كاييتولينا؛ إيلياء؛ بيت المقدس؛ سالم؛ القدس؛ مدينة داود؛ ييوس؛ يروشالايم

الأوروغواي: ٥٠٦

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٣

أوروك: ٥١، ٥٣

- أنظر أيضا: الوركاء

أوسشكين، مناحم: ٣٦٩، ٤٧٢

أوغاريت: ٥٠، ٦٢، ٦٣، ٦٧، ٦٩، ٨٥

- أنظر أيضا: رأس الشمرا

أوغندا: ٣٣٤، ٣٣٧

أولدوفاي: ١٤

أوليفانت، لورنس: ٣٢١

أوني (القائد): ٥٧

أبيك (السلطان): ٢٢١، ٢٢٢

- أنظر أيضا: عز الدين أبيك

إيبين، دان: ٥٢٤

- أنظر أيضا: إيشتاين، دان

إيتابيريون: ١١٤

- أنظر أيضا: جبل الطابور؛ جبل الطور

إيتسل: ٥٢١، ٥٢٣

- أنظر أيضا: الإرغون؛ إرغون تسفائي لثومي؛ المنظمة العسكرية القومية

أيخمان، أدولف: ٤٨٦، ٤٩٠

إيدار: ٣٦٩

إيدن، أنتوني: ٤٨٨، ٤٩٦

أيدون: ١٢٦

- أنظر أيضا: ديون

إيران: ١٦، ٢٦، ١٠٦، ١٣٩، ٢١٧، ٢١٨، ٢٣٨، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٥٤، ٤٤٠، ٥٠٦

إيرتس بلشليم (أرض الفلسطينيين): ٧

إيزابيل (ابنة إتبعل): ١٠٠، ١٠١

أيزنهاور، دوايت: ٤٩٧، ٥١٢

إيسن: ٥٥

إيسوس: ١١٢

إيطاليا: ١٩٥، ٢٠٠-٢٠٢، ٢٠٦، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٤٥، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٣٥، ٣٥١، ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦٥، ٤٦٠، ٤٦٦، ٤٩٩

الإيطاليون: ٣٤٥

الأيطوريون: ١٢٢، ١٢٦، ١٤٧

أيكونيوم: ١٨٩

- أنظر أيضا: قونيا

إيل (الإله): ٥٦، ٦٦، ٨٦

إيلات: ٥٣٩، ٥٤٠

- أنظر أيضا: أم رشرش

إيلانا (مستعمرة): ٥٣٣

- أنظر أيضا: الشجرة

أيلة: ٩٧، ١٤٩، ١٦١، ١٧٢، ١٧٤، ١٩٩، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٩

- أنظر أيضا: العقبة

إيلون (مستعمرة): ٥٢٥

إيليا كابتولينا: ٨، ١٢٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٥٠

- أنظر أيضا: أورشليم؛ أورشالم؛ إيلياء، بيت المقدس؛ سالم؛ القدس؛ مدينة داود؛ ييوس؛ يروشالايم

إيلياء: ١٦٤-١٦٦

- أنظر أيضا: أورشليم؛ أورشالم؛ إيليا كابتولينا؛ بيت المقدس؛ سالم؛ القدس؛ مدينة داود؛ ييوس؛ يروشالايم

إيمري، ليوبولد: ٤٣٠

إينال: ٢٣٢

الأيوبي، حربي: ٤٥١

الأيوبيون: ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٨، ٢١٩، ٢٢٢-٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣٤

(ب) باب الواد: ٤٦٣، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٧، ٥٢٩

بابل: ٤، ٥، ٥٣، ٥٥، ٦٧، ٧٠، ٩٥، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١١٠

البابليون: ٤٩

- البابلون الجدد: ١٠٣
- أنظر أيضا: الكلدانيون
- بات شيع (أم سليمان): ٩٦
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٤
- باترسون (الكولونيل): ٣٦٠
- بادية السماوة: ١٧٣
- البادية السورية: ٢٨، ٢٧٧، ٢٧٨
- بادية الشام: ٥٣، ٧٩، ١٧٢
- باراليا: ١١٤
- بارسباي: ٢٣٢، ٢٣٣
- باركوخبا، شمعون: ١٣٩، ١٤٨
- أنظر أيضا: باركوزيا
- باركوزيا: ١٣٩
- أنظر أيضا: باركوخبا
- بارمينون (قائد جيش الإسكندر): ١١٢، ١١٧
- باروخ، بيرنارد: ٤٤٥
- باريس: ٢٥٧، ٢٨٦، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٤، ٣٠٦، ٣٢٨، ٣٦١، ٣٦٥، ٤٠٦، ٥٣٦
- بازل: ٣٣٠، ٣٣٥-٣٣٨، ٣٩٤
- أنظر أيضا: بال
- بازل الأول (الإمبراطور): ١٨١
- بازل الثاني (الإمبراطور): ١٨٢
- باسار: ٥٣
- أنظر أيضا: جبل بشري
- باسفيلد (اللورد): ٤٣٣، ٤٣٧، ٤٤١
- أنظر أيضا: وب، سدني
- باسوس (القائد): ١٣٨
- الباشان: ١٠٩، ١٣٢
- أنظر أيضا: عشروت قرنايم بال: ٣٣٠
- أنظر أيضا: بازل
- بالمرستون، هنري جون تمبل: ٣١٨، ٣٢٦، ٣٤١، ٣٤٣
- بالميرا: ١٥٦
- أنظر أيضا: تدمر باليرمو: ٥٦
- بانياس: ١١٣، ١٣٢، ١٥٠، ١٩٩، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٦، ٣٧٤، ٥٢٧

- أنظر أيضا: قيصريه فيلبى
بايزيد (ابن مراد الأول): ٢٣٨
بايزيد الثاني (ابن محمد الفاتح): ٢٣٩
البتراء: ٣٧، ١٢٥، ١٣٨، ١٤٧، ١٤٨، ١٥٠، ١٥٥، ١٥٦
بترونيوس (حاكم سورية): ١٣٦
بتير: ١٣٩
- أنظر أيضا: بيتار
البحر الأبيض المتوسط: ٣، ٤، ٦، ٧، ١٥، ١٦، ٢٥، ٢٦، ٢٩، ٤٩، ٥٤، ٥٩، ٨٢، ٨٤، ١٠٨، ١١١، ١١٥، ١٢٦، ١٢٧، ١٤٥، ١٥٦، ١٦٩، ١٨٢،
١٨٨، ١٩٣، ٢٠٨-٢١٠، ٢٢٤، ٢٣٨، ٢٤٠، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٢، ٢٦٤، ٣٤٣، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٦
- أنظر أيضا: البحر الأعلى؛ بحر أمورو البحر الأحمر: ٣، ٥، ٨١، ٢٠٤، ٢٥٥، ٢٦٢، ٢٧٨، ٣٥٠، ٣٦١
البحر الأسفل: ٥٤
- أنظر أيضا: البحر العربي؛ الخليج العربي البحر الأسود: ٨٢، ١٠٦، ٤٩٢
البحر الأعلى: ٥٤
- أنظر أيضا: البحر الأبيض المتوسط؛ بحر أمورو
بحر أمورو: ٧
- أنظر أيضا: البحر الأبيض المتوسط؛ البحر الأعلى
بحر إيجة: ٥٨، ٨٢-٨٤، ١٠٦، ١٠٧، ١١٦، ١٦٩، ٣٥٣
البحر العربي: ١٥٦
- أنظر أيضا: البحر الأسفل؛ الخليج العربي
بحر قزوين: ٢٨
البحر الميت: ٣٥، ٣٦، ٣٩، ٤٠، ١٣٢
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٥
١٣٨، ١٧١، ١٧٣، ١٧٥، ٢٨٢، ٤٣٢، ٤٧٠، ٥٢٥، ٥٢٩
البحرين: ٤٦
بحيرة الحولة: ١٤، ٢٦، ٣٢١، ٣٧٤
بحيرة طبرية: ١٣، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٤٠، ١٧٥، ٣٣١، ٣٤٠، ٣٧٤، ٤٠٠، ٥٢٧، ٥٢٨
بحيرة قطينة: ٢٦١
بدر الجمالى (والى الشام الفاطمى): ١٨٦، ١٨٧
البديرى، إسحاق: ٤٥٤
البراق: ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٩، ٤٤٠، ٤٤٢، ٤٤٩
- أنظر أيضا: حائط البراق؛ حائط المبكى براندايس، لويس: ٣٥٤-٣٥٩، ٣٦٥، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٩٠-٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٩
براين، جون دو: ٢١٦، ٢١٧
بربروسا (ملك ألمانيا): ٢١٣

- أنظر أيضا: فريديريك الأول

البرج: ٢٠٩

برج الأحمر: ٢٠٩

بردا بلكا: ١٤

بردكاس: ١٢٥

البرغوثي، عمر صالح: ٣٠٣

البرقاوي (آل، عائلة): ٢٥٩

برقياروق (سلطان الموصل): ١٨٧، ١٩٦

البرلمان البريطاني: ٤٢٠، ٤٢٧، ٤٥٩

- أنظر أيضا: مجلس العموم البريطاني

البرلمان العثماني: ٣٣٨، ٣٤٧

برلين: ٣١٩، ٣٥٤، ٣٥٦

برنادوت، (الكونت) فولك: ٥٢٢، ٥٣١، ٥٣٥، ٥٣٦

برنامج بازل: ٣٣٠، ٣٣١، ٣٣٦، ٣٥٤

- أنظر أيضا: مؤتمر بازل؛ المؤتمر الصهيوني الأول

برنامج بلمور: ٤٨٧-٤٩٠، ٤٩٤، ٥١١

- أنظر أيضا: مؤتمر بلمور بروتوكول الإسكندرية: ٤٩٤

بروتوكول دمشق: ٣٤٨، ٣٤٩

بروسا: ٢٣٧

- أنظر أيضا: بورصة بروسيا: ٢٦٤، ٢٨٠، ٢٨١

بروكوبيوس (المؤرخ): ١٥٢

بريجيا: ١٢١

بريز: ٥٢٥

بريطانيا: ٦، ١١٦، ١٤٢، ١٩٥، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦١-٢٦٥، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٩-٢٨١، ٢٩٤-٢٩٦، ٣١٧، ٣١٨، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٥-٣٢٧،

٣٣٦، ٣٣٦-٣٤١، ٣٤٤-٣٤٧، ٣٥٣، ٣٥٥-٣٦٥، ٣٦٧-٣٨٠، ٣٨٠، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٥، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٢-٣٩٤، ٣٩٦، ٤٠٥، ٤٠٩، ٤١٠،

٤١٢، ٤١٤، ٤١٧-٤٢٣، ٤٢٥-٤٢٧، ٤٢٩، ٤٤٠، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦-٤٤٩، ٤٥٩، ٤٦٥، ٤٦٦، ٤٦٧، ٤٧٣، ٤٧٥، ٤٧٨، ٤٨١-٤٨٨،

٤٨٨، ٤٩١، ٤٩٣-٤٩٩، ٥٠١، ٥٠٢، ٥٠٤-٥٠٩، ٥١١، ٥١٤، ٥١٥

- أنظر أيضا: إنكلترا

البريطانيون: ٢٩٦، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٨٩، ٤١٤، ٤٣٨، ٤٧٩، ٤٨٥، ٥٠٣، ٥١٣، ٥٢٠، ٥٢٤

- أنظر أيضا: الإنكليز

البساسيري (القائد التركي): ١٨٦

البستاني، بطرس: ٢٨٨، ٢٨٩

البشتاوي، وجيه: ٤٥٣

- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٦
 بشير الشهابي الثاني: ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٧٥
 بصرى: ١٢٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٤، ٢٠٠، ٢١٩، ٢٢٠
 البصرة: ١٧١، ٣٤٩
 البطاط، عيسى: ٤٧٦
 البطالسة: ٦، ١١٣-١١٥، ١١٨، ١١٩، ١٢٣-١٢٦، ١٥٦
 - أنظر أيضا: البطالمة
 البطالمة: ٦١، ١١٣
 - أنظر أيضا: البطالسة
 بطرس (الرسول): ١٣٥
 بطرس الأكبر (القيصر): ٢٤٦
 بطرس الناسك: ١٩٥
 بطليموس: ١٢١
 - أنظر أيضا: تلمي بن حبوب بطليموس الأول (ملك مصر): ١١٣
 بطليموس الثاني: ١١٥
 - أنظر أيضا: فيلادلفيوس
 بطليموس الثالث: ١١٨
 بطليموس الخامس: ١٢٥
 بطوليمائس: ١١٤، ١٢٤، ١٤٩
 - أنظر أيضا: عكا بعشا بن أختيا: ٩٩، ١٠٠
 بعل (الإله): ٦٥، ٨٦
 بعلبك: ٢١١، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٤٤، ٢٧٥، ٣٥٢
 بعله (الإلهة): ٦٥
 البعنة: ١١٤
 - أنظر أيضا: بيت عنات
 بغداد: ١٧٨، ١٧٩، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦، ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٣١، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٩٦، ٣٤٤، ٣٤٩، ٣٥١، ٤٥٠، ٤٥٤، ٤٦٤، ٤٩٩
 البقاع: ١٤، ٦٦، ٢١٩، ٢٤٤، ٢٤٥
 - أنظر أيضا: بقعات
 بقعات: ٦٦
 - أنظر أيضا: البقاع بكخيدس (القائد): ١٢٠
 البكري، محمد: ٣٥٣
 بلاجيوس (الكاردينال): ٢١٧
 بلاد حوران: ٢٧١

بلاد الرافدين: ٣١، ٤٦، ٥٣، ٥٤، ٥٨، ٦٢، ١٠٦

- أنظر أيضا: بلاد سومر؛ بلاد ما بين النهرين؛ العراق

بلاد الروم: ١٨٠

بلاد سومر: ٤٥

- أنظر أيضا: بلاد الرافدين؛ بلاد ما بين النهرين؛ العراق

بلاد الشام: ٤-٨، ٢٣، ٢٥، ٢٦، ٣٤، ٣٧، ٣٨، ٤٥، ٤٧، ٤٩، ٥٠، ٥٢-٥٥، ٥٨، ٦٠، ٦٢-٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٩-٧٤، ٧٦، ٨٤، ٩٩-١٠٢،

١٠٦، ١٠٨، ١١٢، ١١٥، ١٤١، ١٤٤-١٤٦، ١٥٠، ١٥٥-١٥٨، ١٦٠-١٧١، ١٧٣، ١٧٥-١٨٧، ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤-٢٢٧، ٢٢٩، ٢٣٣،

٢٣٩-٢٤٥، ٢٤٧، ٢٥٠-٢٥٤، ٢٥٦، ٢٥٨-٢٦٥، ٢٦٧-٢٧٤، ٢٧٧-٢٨٠، ٢٨٢-٢٨٥، ٢٨٨-٢٩١، ٢٩٥، ٣١٧، ٣٢٦، ٣٣٣-٣٤٦،

٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٣، ٣٦١، ٣٦٨، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٤، ٤١١

- أنظر أيضا: أمورو؛ عمورو بلاد الشقيف: ٢٧١

بلاد شوتو: ٦٦

بلاد ما بين النهرين: ٣، ٤٣، ١٥٦

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٧

- أنظر أيضا: بلاد الرافدين؛ بلاد سومر؛ العراق

بلاد اليونان: ٢٦، ٨٢، ٨٣، ١٠٥، ١٠٧، ١٠٨، ١١١-١١٣، ١١٧، ١٢٥، ١٣٥، ١٤١، ٢٠١، ٢٦١، ٣٥٧، ٤٩٩

البلاذري: ٩

بلجيكا: ٣٨٥، ٤٨٢، ٥٢٢

بلدوين: ٤٤٣

بلس، هوارد: ٣٦٧، ٣٧٣

بلعا: ٤٦٤

البلغار: ٢٣٨

بلغاريا: ١٩٤، ٢٩٨، ٣٠١، ٤٨٨

بلفور، آرثر جيمس: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٥٢، ٣٧٢، ٣٨٣، ٣٨٥، ٤٣٠

- أنظر أيضا: وعد بلفور

البلقاء: ١٥٧، ١٧٢-١٧٤، ٢١٨، ٢٧١، ٢٧٨

البلقان: ٨٤، ٢٣٨، ٢٤٦، ٢٩٤، ٢٩٥

بلقين (قبيلة): ١٦١

البلماح (الكتائب الضاربة): ٥١١، ٥١٣، ٥٢٠، ٥٢٤، ٥٣٤، ٥٣٩

بلودان: ٤٧٣، ٤٧٤، ٥٠٣، ٥٠٩

بلومر، (فيلد- مارشال لورد) تشارلز: ٤٣٠

بلي (قبيلة): ١٦١، ١٧٣

بليفيه: ٣٣٠، ٣٣٤

بلينى: ٩

بن- تسفى، يتسحاق: ٣٣٩، ٣٦٠، ٤٠٦، ٤٨٢

بن شيمان: ٣٣١، ٣٣٢

بن- غوريون، دافيد: ٣٦٠، ٣٩٦، ٤٠٢، ٤٠٥، ٤٣٦، ٤٣٦، ٤٤٦، ٤٦٩، ٤٧٢، ٤٨٢، ٤٨٥، ٥١٠، ٥١١، ٥١٢، ٥١٩، ٥٢٢، ٥٢٥، ٥٣١، ٥٣٢

بن هداد الأول (حداد) (ملك دمشق): ٩٩، ١٠٠

بن هداد الثاني: ١٠٠، ١٠١

بنت جيبيل: ٥٢٧

البتاغون: ٤٨٩

بنتوتش، نورمان: ٤١٠

البندقية: ٢١٦

- أنظر أيضا: جمهورية سان مارك؛ فينيسيا البندك، عيسى: ٤٥٤

بنسكر، ليو: ٣٢٠، ٣٢٣، ٣٢٧

بنك إسرائيل المركزي: ٣٩٩، ٤٠٠

- أنظر أيضا: بنك لثومي لاسرائيل

البنك الأنكلو- فلسطيني: ٣٣٢، ٣٩٩

بنك الرهونات العام: ٣٩٩

البنك الزراعي العثماني: ٣٨٧

- أنظر أيضا: المصرف الزراعي العثماني بنك العمال: ٤٠٠

- أنظر أيضا: بنك هبوعاليم

بنك لثومي لاسرائيل: ٣٩٩، ٤٠٠

- أنظر أيضا: بنك إسرائيل المركزي بنك هبوعاليم: ٤٠٠

- أنظر أيضا: بنك العمال

بنو إسرائيل: ٧٥، ٧٩-٨١، ٨٥، ٨٧، ٩١، ٩٥، ٩٧، ١٠٩

- أنظر أيضا: أبناء إسرائيل؛ الإسرائيليون؛ القبائل الإسرائيلية

بنو أمية: ١٦٧، ١٧٠، ١٧١، ١٧٣-١٧٦

- أنظر أيضا: الأمويون

بنو الجراح: ١٨٤-١٨٦

بنو الحارث (قبيلة): ٢٢٣

بنو حميد: ٢٣٨

بنو زيد (قبيلة): ٢٢٣

بنو سعد (قبيلة): ٢٢٣

بنو صخر (قبيلة): ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٧٨

بنو صقر (قبيلة): ٢٤٨

بنو الضبيب: ١٧٢

بنو عامر: ١٧٣

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٥٨

بنو العباس: ١٧٦

- أنظر أيضا: بنو عبد الله بن عباس؛ العباسيون

بنو عبد الله بن عباس: ١٧٤

- أنظر أيضا: بنو عباس؛ العباسيون

بنو عثمان: ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٤، ٢٤٧

- أنظر أيضا: الأتراك؛ الترك، العثمانيون بنو غسان: ١٥٥، ١٥٧

- أنظر أيضا: جفنة؛ الغساسنة؛ غسان؛ الغسانيون

بنو مخزوم: ١٧٤

بنو مذحج: ١٧٧

بنو مرة (قبيلة): ٢٢٣

بنو هاشم: ١٦٠، ١٧١، ١٧٤

بنى صعب: ٢٤٢، ٢٥٩، ٢٧١

بنى نعيم: ٤٧٩

بنيامين (سبط): ٩٣، ٩٤، ٩٦

بهاء (قبيلة): ١٧٣

بوبر، مارتين: ٣٣٦

بوتسدام: ٤٩٧

بوخارست: ٣٢٤

بورصة: ٢٣٧

- أنظر أيضا: بروسا

بوركهارت: ٩

بوزننسكى، شموئيل: ٥٢٤

البوسفور: ٢٣٧

البوسنة: ٣٤٤

بولدوين الثالث: ١٩٥، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٢

بولدوين الرابع: ٢٠٣-٢٠٤

بولز (الجنرال): ٣٧١، ٣٧٢

بولس (الرسول): ١٣٥

بولندا: ٤٨٢

- أنظر أيضا: بولونيا

بولونيا: ٣٢١، ٤٠٦، ٤٤٥، ٤٤٦، ٤٩٩، ٥١٢

– أنظر أيضا: بولندا

بوليبوس: ٩

بومبي (القائد الروماني): ١٢٣، ١٢٥، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠، ١٤٩، ١٥٦

بونابرت، نابليون: ٦، ٢٥٣–٢٥٨، ٢٦٠، ٢٦٤، ٢٧٥، ٢٨٤، ٣١٦، ٣١٧، ٣٢٥، ٣٢٧، ٣٤٢

بوهيمند: ١٩٥–١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠

بوهيمند الثالث: ٢٠٢

البويهون: ١٨٦

بويون، غودفري دو: ١٩٥–١٩٧

بئر السبع: ٤٠، ٤١، ٨٠، ١١١، ١٧٤، ٢٧٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٤٤١، ٤٧٠، ٤٧٥، ٤٧٧، ٤٧٨، ٥٢٧، ٥٣٠، ٥٣٧، ٥٣٨

بئر الصفدى: ٤٠

بئر طوفيا (مستعمرة): ٣٢١

– أنظر أيضا: قسطينة

بثروت يتسحاق (مستعمرة): ٥٣٥

بيرس البندقدارى: ٢٢١، ٢٢٥–٢٢٩، ٢٣١

– أنظر أيضا: الملك الظاهر

بييلوس: ٥٠، ٥٦

– أنظر أيضا: جيل

بيبي الأول: ٥٧

بيت، دوروثى: ١٩

بيت إبلين: ٢١٨

– أنظر أيضا: إبلين؛ يبنى؛ يمينا

البيت الأبيض: ٤٩٦

بيت إمرين: ٤٦٤

بيت أيل: ٨٠

بيت جبرين: ٩٣، ١٤٨–١٥٠، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٢، ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢٩، ٥٣٧، ٥٣٨

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٥٩

– أنظر أيضا: إليوتيربولوس؛ بيت غوفرين

بيت جن: ٣٦٦

بيت حنون: ٥٣٨، ٥٤٠

بيت دجون: ١٠٢

بيت دراس: ٥٣٥

بيت راس: ١٢٦، ١٦٦

– أنظر أيضا: بيت شان؛ سكيثوبولس البيضاء (موقع): ٢٨، ٣٧

البيطار، عمر: ٤٥٥

بيغن، مناحم: ٤٩٠، ٥١٢

بيفن، إرنست: ٤٩٦، ٤٩٨، ٥٠٢

بيكح (ملك إسرائيل): ١٠٢

بيكو، جورج: ٣٥١، ٣٦٣

بيل، (اللورد) إيرل: ٤٦٥

بيلا: ١٢٦

– أنظر أيضا: طبقة فحل

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٠

بيلاطس بونطوس (الحاكم الروماني): ١٣٥

البيمارستان الصلاحي (القدس): ٢٢٤

بيوس العاشر (البابا): ٣٣٥

(ت) التاجي، عبد الرحمن: ٤٥٣

التاجي الفاروقي، سليمان: ٤٢٨

تافت: ٤٩٥

تانكرد: ١٩٥، ١٩٧

تبريز: ٢٤٠

تبنين: ١٩٧، ٢٠٩، ٢١٥، ٢١٦، ٢١٩، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٤٢

تبوك: ١٦١، ١٧٣

التر: ٢٣١، ٢٣٤

– أنظر أيضا: المغول

تتش: ١٨٧

تحتمس الأول: ٧٠

تحتمس الثالث: ٤، ٧٠-٧٣

تدمر: ١٥٥-١٥٧، ٢٢٠

– أنظر أيضا: بالميرا

التدمريون: ١٥٧، ١٨٩

الترابين (قبيلة): ٢٧٨

تراجان (الإمبراطور الروماني): ١٣٨، ١٤٨-١٥٠، ١٥٦

تراخونيا: ١٣٢

ترايفون: ١٢١

ترشيحا: ٤٦٤، ٥٣٨

الترك: ١٨٥

- أنظر أيضا: الأتراك؛ بنو عثمان؛ العثمانيون

تركستان: ١٨٦، ٤٦

الترکمان: ٢٥٩

تركيا: ٢٩٠، ٢٩٣، ٢٩٤، ٢٩٦، ٣٣٥، ٣٣٨، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٩، ٣٦٣، ٣٦٨، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٨٤، ٣٨٦، ٤٢١، ٤٢٨، ٤٤٠،

٥٠٦، ٥١٦

تركيا الفتاة: ٢٩٠-٢٩٣، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٣٨

- أنظر أيضا: جمعية الاتحاد و الترقى؛ حزب تركيا الفتاة

ترومان، هارى: ٤٩٠، ٤٩٤-٤٩٧، ٥٠٠-٥٠٢، ٥٠٥، ٥٢٥

ترومبلدور، جوزف: ٣٨٢، ٣٥٩

تسجلاج: ٩٤

- أنظر أيضا: صقلج

تسدقيا (ملك يهودا): ١٠٣

- أنظر أيضا: صدقيا تسكانيا: ٢٤٥

تسيمسكس (الإمبراطور البيزنطى): ١٨١، ١٨٣، ١٨٤

تشانسلر، جون: ٤٣٣، ٤٣٨، ٤٤٤

تشرشل، ونستون: ٣٨٩، ٤١٠، ٤١٢-٤١٩، ٤٢٧، ٤٢٩، ٤٤٣، ٤٨٧، ٤٨٩-٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٦، ٥٠١

تشمبرلين، جوزف: ٣٣٠، ٣٣٤، ٤٤٣، ٤٨٢، ٤٨٧

تشيكو سلوفاكيا: ٤٧٨، ٤٩٩، ٥٠٦

التعامرة (قبيلة): ٢٧٨

تعنك: ٦٣، ٩٢

تغلات بليسر الأول: ٩٥، ١٠٢، ١٥٦

تغلب (قبيلة): ١٧٤

تقلا، بشير: ٢٨٨، ٢٨٩

تقلا، سليم: ٢٨٨، ٢٨٩

تكريت: ٢١١

التل: ٦٧

- أنظر أيضا: العى التل ٦٩ (موقع): ٥٣٨

تل أبو حوام: ١١٠

تل أبو شوشة: ٦٣

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٦١

تل أبو مطر: ٤٠

تل أبيب: ٣٣٢، ٤٠٤، ٤٠٦، ٤١٣، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٦٠، ٤٦٢-٤٦٠، ٤٨٣، ٥١٠، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦، ٥٢٠، ٥٢٢، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٤

- أنظر أيضا: ميناء تل أبيب
تل أسود: ٣٦، ٣٧
تل الأفحوانة: ٣٧
تل بلاطة: ٣٨، ٦٣، ٦٥، ١١١
- أنظر أيضا: شيكم
تل بيت مرسيم: ٥٧، ٦٣
تل الجريشة: ٦٠، ٦٣
تل جمعة: ١١٠
تل - حاي (مستعمرة): ٣٨٢
تل الحريري: ٧، ٥٠، ٥٥، ٦٣، ٦٧
- أنظر أيضا: ماري
تل دور: ٦٣
- أنظر أيضا: أخشاف
تل الدوير: ٦٠، ٦٣، ١١٠، ١١٤
- أنظر أيضا: لاختيش
تل دير علّا: ٦٣
- أنظر أيضا: دير علّا
تل الريش: ٥٢٤
تل السلطان: ٢٧، ٣٥، ٦٣
- أنظر أيضا: أريحا القديمة
تل الشيخ حسن: ٣٦
تل الصافي: ١١١، ١٩٨، ٢٠٩
تل صندحة: ١١٤
- أنظر أيضا: ماريسا
تل الضبعة: ٥٩
تل العجول: ٦٠، ٦٣، ٢١٥
- أنظر أيضا: بيت عجلايم
تل عطشانة: ٧، ٥٥، ٦٣، ٦٧
- أنظر أيضا: الالاح
تل العمارنة: ٧، ٨، ٦٧، ٨٨ - ٩٠
تل الفارعة: ٣٨، ٤٠
تل الفارعة الجنوبي: ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٨، ٧٠، ١١١
- أنظر أيضا: شاروحن

- تل الفارعة الشمالي: ٦٣
- تل القاضي: ٣٧، ٦٣، ٣٧٤
- أنظر أيضا: لايش
- تل القدح: ٥٥، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٧٥
- أنظر أيضا: تل وقاص
- تل-القصيعة: ٨٥، ١١١
- تل كيسان: ٦٠، ٦٣
- أنظر أيضا: أفيك
- تل المتسلم: ٣٨، ٤٠، ٦٣، ٧٥
- أنظر أيضا: مجدو
- تل مردوخ: ٧، ٨، ٥٠، ٥٥، ٦٣، ٧٥
- أنظر أيضا: إبلا
- تل المسخوطة: ٥٩
- تل المشرفة: ٥٥، ٦٠، ٧٥
- أنظر أيضا: قطنا
- تل النبي مند: ٥٥، ٦٠
- أنظر أيضا: قادش؛ كاداسا
- تل وقاص: ٥٥، ٦٠، ٧٥
- أنظر أيضا: تل القدح
- تل اليهودية: ٥٨-٦٠، ٦١
- أنظر أيضا: أفاريس
- تلمى (ملكك جشور): ٩٦
- تلمى بن حبوب: ١٢١
- أنظر أيضا: بطليموس
- تليلات الغسول: ٣٩-٤١
- تمبلرز (تنظيم): ٢١٠
- أنظر أيضا: فرسان الهيكل؛ الهيكلون
- تمنا: ١٣١
- تمنع: ٩٧
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٢
- أنظر أيضا: العرب
- التميمي، أمين: ٤٨٢
- التميمي، رفيق: ٢٩٤، ٣٧٩

- تزانيا: ١٤
التوبة، أحمد: ٤٥٦
توت عنخ أمون: ٧٣
توتيمايوس (الملك): ٦١
توعى (ملك حماة): ٩٥
توماس، جيمس هنرى: ٤٥٩
تونب: ٦٩
تونس: ٢٦، ٢٨، ١٧٩، ١٨٢، ١٨٣، ٢٨٨، ٥١٧
توينبى، أرنولد: ٣٤١
التياهة (قبيلة): ٢٧٨
تيرح: ٧٨
تيطس (ابن فسبسيان): ١٣٧، ١٣٨، ١٤٨
تيغارت، تشارلز: ٤٧٧، ٤٧٩
تيماء: ١٦١
تيمورلنك: ٢٣٤، ٢٣٨
التيوتون (تنظيم): ٢١٠، ٢١٥، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٧
(ث) ثابت، سعيد: ٤٧٤
ثعلبة بن سلامة العاملى: ١٧٣، ١٧٧
ثقيف (قبيلة): ١٧٣
ثيو الرابع (كونت شامبين، ملك نافاريا): ٢١٩
ثيودوسيوس الأول: ١٤٣
(ج) جابوتنسكى، زيف: ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٨١، ٣٨٢، ٣٩٦، ٤٠٤، ٤٠٥، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٧، ٤٤٦، ٤٦٩، ٥١٢
الجايبة: ١٥٥، ١٥٧، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٠-١٧٢
جات: ٨٥، ٩٤
جادير: ١٣١
جار الله، سعيد: ٣٠٢
الجاونة: ٣٢١، ٤٦٤، ٥٢٤
جامع الاستقلال (حيفا): ٤٥٥
الجامع العمري (القدس): ٢٢٤
جامع النصر (حيفا): ٤٥٥
جامعة خاركوف: ٣٢١
جامعة الدول العربية: ٤٩٠، ٤٩٤، ٤٩٩، ٥٠٠، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١٢-٥١٥، ٥١٨، ٥٢٢، ٥٣٢
الجامعة العبرية: ٣٣٦، ٤٣٠، ٤٣٦

الجامعة العربية: أنظر: جامعة الدول العربية «الجامعة العربية» (جريدة): ٤٤٨

الجانبلاتية: ٢٥٠

- أنظر أيضا: الجنبلاطية

جاوة: ٤٤٠

جاوس كالغولا: ١٣٦

جب جنين: ١٤

جياتا: ١٣٨

- أنظر أيضا: جبع

جبال البرز: ١٠٧

جبال جلبوع: ١٦٦

جبال الجليل: ١٨، ١٧٣، ٤٧٣

جبال الخضضر: ٤٦٥

جبال الخليل: ٤٧٥

جبال زاغروس: ٧٠، ١٠٥

جبال طوروس: ٢٢، ٦٤، ١٦٨

جبال عامله (عامل): ١٧٣

جبال العلويين (النصيرية): ٢٦٣، ٢٧٥

جبال القدس: ٢١، ٢٤-٢٦، ٣٦، ٦٣، ٩٤، ٤٧٥، ٥٢٠

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٣

جبال القفقاز: ٢٦، ١٠٦

جبال الكرمل: ١٤، ١٨، ٢١، ٢٢، ٢٧، ٥٧، ١٢٤، ١٦٦، ٣٢١، ٥٢٣، ٥٣٣

جبال نابلس: ٨١

جير، رشيد: ٢٤٨

جبع: ١١٦، ١٢٤، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩، ٤٦٤، ٥١٧، ٥٣٣

- أنظر أيضا: جياتا

الجبعونيون: ٩٣

جبل بشري: ٥٣

- أنظر أيضا: باسار

جبل جرزيم: ١٢٢، ١٢٥

- أنظر أيضا: جبل قبلي

جبل الجلجلة: ١٣٥

جبل حرمون: ٣٦٦

- أنظر أيضا: جبل الشيخ

جبل الدروز: ٢٦٣، ٢٧٥، ٣٤٦، ٣٥٣

- أنظر أيضا: جبل العرب

جبل الزيتون: ١٥١

جبل سيناء: ٨١، ٨٦

جبل شامى: ٢٤٢

- أنظر أيضا: عيال

جبل الشيخ: ٢٠٣، ٢٠٨، ٣٦٦

- أنظر أيضا: جبل حرمون

جبل صهيون: ٣٠٩

جبل طابور: ١١٤، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٩، ٢٥٧

- أنظر أيضا: إيتايرون؛ جبل الطور

جبل طارق: ٣٥٨

جبل الطور: ٢١٢، ٢١٩، ٢٢١

- أنظر أيضا: إيتايرون؛ جبل طابور

جبل عامل: ٢٥٠، ٢٥١، ٢٥٣، ٢٥٩

جبل العرب: ٢٦٣، ٢٧٥، ٣٤٦، ٣٥٣، ٤٦٤، ٥١٦

- أنظر أيضا: جبل الدروز

جبل قبلى: ٢٤٢

- أنظر أيضا: جبل جرزيم

جبله: ٤٥٥

جبل: ٣٧، ٣٨، ٤٨، ٥٠، ٥٦، ٦٤، ٦٦، ٦٧، ١١١، ٢٠٣

- أنظر أيضا: بيلوس

جدرا: ١٢٦، ١٣١، ١٦٦

- أنظر أيضا: أم قيس

جدعون (القائد): ٩٣

جديد، غسان: ٥١٧

جدين: ٢٠٩، ٥١٨

- أنظر أيضا: يحيعام

جدام (قبيلة): ١٧٠، ١٧٢، ١٧٩

جرار (آل، عائلة): ٢٤٨، ٢٥٩، ٢٧٥

جرازا: ١٢٦

- أنظر أيضا: جرش

الجرامنة (قبيلة): ٢٢٣

- جريا: ١٦١
- جرش: ١٢٦، ١٦٦
- أنظر أيضا: جازا
- جرف العجلة: ١٦
- جرم (قبيلة): ١٧٣
- الجرمان: ١٣٩، ١٤١، ٢٣٨
- جرير- شع: ٥٦
- أنظر أيضا: سكان الرمال
- الجزائري، سليم: ٢٩٣
- الجزائري، (الشيخ) طاهر: ٢٨٧
- الجزار: أنظر: أحمد باشا الجزار
- الجزيرة العربية: ٩، ٤٩، ١١٥، ١١٦، ١٢٥، ١٤٤، ١٥٠، ١٥١، ١٥٥، ١٥٦، ١٥٩-١٦٢، ١٦٥، ١٧٥، ١٧٩، ١٩٩، ٢١٨، ٢٢٢، ٢٥٠، ٢٥٨، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٧، ٢٧٨، ٣٠٣، ٣٤٥، ٣٤٨-٣٥٠
- جزيرة فرعون: ٢٠٨
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٤
- جزيرة القرم: ٢٥٢
- جزيرة ليمنوس: ٣٥٣
- جسر النبي: ٥٢٩
- جسر بنات يعقوب: ١٤، ٢٠٩
- جسر دامية: ٥٢٩
- جسر القرعون: ٣٦٦
- جسر المجامع: ٢٠٩
- الجش: ٥٣٨
- جشور: ٩٥
- الجعبري، (الشيخ) محمد علي: ٤٥٣
- جعفر (ذو الجناحين): ١٦١
- جعفر (القائد): ٢٤٦
- جعفر بن فلاح: ١٨٣
- جفنا: ١٣١
- جفنة (آل): ١٥٧
- أنظر أيضا: بنو غسان؛ الغساسنة؛ غسان؛ الغسانيون
- جفنة بن عمرو مزريقاء بن عامر ماء السماء: ١٥٧
- جقمق: ٢٣٢، ٢٣٣

جلال الدين منكوبرتي الخوارزمي (السلطان):

٢١٧-٢١٩

الجلعاد: ٩٠، ٩٣، ٩٥، ١٠٢، ١٠٩، ١٤٧، ١٦٢، ٢٠٣

خلق: ١٥٧

- أنظر أيضا: دمشق

جليات: ٩٣

الجيل: ٩١، ٩٨، ١٠٩، ١١٤، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٦-١٢٨، ١٣١، ١٣٢، ١٣٧، ١٤٧، ١٦٢، ١٩٧، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٦، ٢١٨، ٢٤٩، ٢٥٢

٢٦١، ٢٦٤، ٣٤١، ٣٧٤، ٣٨٢، ٤٠٤، ٤٦٣، ٤٧٧، ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٤، ٥٣٨، ٥٣٩

الجيل الأسفل: ٨٥، ٩١، ١١٤، ١٣٧، ٢٢٩، ٢٤٧-٢٤٩، ٣٢٥، ٣٣١، ٣٤٠، ٥٣٣، ٥٣٨

الجيل الأعلى: ٩٠، ٩١، ١١٤، ١٣١، ٣٨٢، ٥٢٥، ٥٣٣

الجيل الشرقي: ٥٢٠، ٥٢٤

الجيل الغربي: ٢٠٥، ٢١٠، ٥١٦، ٥١٨-٥٢٠، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٣٣

جمال باشا: ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٤٥-٣٤٧، ٣٥٢، ٣٦١

- أنظر أيضا: أحمد جمال باشا

مجموع، محمد: ٤٣٥، ٤٤١

جمعية الآثار التوراتية: ٢٨٢

جمعية الاتحاد و الترقى: ٢٩٠، ٣٣٥

- أنظر أيضا: تركيا الفتاة؛ حزب تركيا الفتاة جمعية أحياء صهيون: ٣٢٠

- أنظر أيضا: أحياء صهيون؛ حركة أحياء صهيون؛ حوفى تسيون

جمعية الإخاء العربي- العثماني: ٢٩١-٢٩٣

جمعية الاستعمار اليهودي: ٣٦٩، ٣٧٠

- أنظر أيضا: شركة بيكا

جمعية استكشاف فلسطين (الأميركية): ٢٨٢

الجمعية الإسلامية- المسيحية الفلسطينية: ٣٧٨

الجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية: ٢٨٢

الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية: ٢٨٢

جمعية الأليانس الإسرائيلية العالمية: ٣١٩

جمعية تعاون القرى: ٤٣١

جمعية حراسة الأماكن المقدسة: ٤٣٣

الجمعية العامة للأمم المتحدة: ٥٠٣، ٥٠٦-٥٠٨، ٥٢٢

جمعية العربية الفتاة: ٢٩٤، ٣٤٨، ٤٤٩

الجمعية العربية الفلسطينية: ٣٧٩

جمعية العهد: ٢٩٦، ٣٤٨، ٤٤٩

- الجمعية القحطانية: ٢٩٦، ٢٩٤، ٢٩٣
- جمعية مصر الفتاة: ٥١٧
- الجمل، شبلي: ٤٥٤
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٥
- جمهورية سان مارك: ١٩٣
- أنظر أيضا: البندقية؛ فينيسيا
- «الجنان» (صحيفة): ٢٨٨
- الجنبلاطية: ٢٥٠
- أنظر أيضا: الجانبلاطية
- جند الأردن: ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٧، ١٨٣
- جند الجزيرة: ١٦٧
- جند حلب: ١٨١
- جند حمص: ١٦٦، ١٨١
- أنظر أيضا: قنسرين
- جند دمشق: ١٦٦
- جند فلسطين: ٨، ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٧
- جنوب إفريقيا: ٤٨٢
- جنوة: ١٩٣، ٢٢١
- جنيف: ٢٨٦، ٤١٨
- جنين: ٨، ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٤٨، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٧١، ٤٥٦، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٧٥، ٤٨٠، ٥١٧، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣٣، ٥٣٤
- جهاز الاستخبارات النازي: ٤٠٦
- أنظر أيضا: الغستابو
- الجوتيون: ٥٤
- جورج، (الملك) لويد: ٣٥٦، ٣٦٤، ٣٧٣، ٣٧٥، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٧، ٤٤٣، ٤٨٧، ٤٩١
- جوستيان: ١٤٤، ١٤٥، ١٥٢، ١٥٧، ١٥٩
- جوستيان الثاني: ١٧١
- جوسلين الثاني (أمير إديسا): ٢٠٢
- جوسلين دو كورتني (عائلة): ٢٠٥
- الجوف: ١٥٠، ١٧٣
- أنظر أيضا: دومة الجندل
- الجولان: ١٣٢، ١٥٥، ١٥٧، ١٦٣، ١٧٢، ١٩٨، ٢٠٣، ٢١٦، ٢١٩، ٥٢٧
- أنظر أيضا: السواد
- الجولاني، عبد الحليم: ٤٧٦

جولس: ٥٣٥

جوهر الصقلي: ١٨٠، ١٨٣، ١٨٤

جيب الفالوجة: ٥٣٨-٥٤٠

جيروود (موقع): ٢٨

جيزر: ٦٣، ٦٧، ٩٠، ٩٤، ٩٧، ١١١، ١٢١، ١٢٨، ٢٠٣

- أنظر أيضا: أبو شوشة

الجيش الأردني: ٥٢٢، ٥٢٤، ٥٢٧، ٥٢٩، ٥٣٤، ٥٤٠

- أنظر أيضا: الجيش العربي الأردني الجيش الإسرائيلي: ٥١٣، ٥٣٨

- أنظر أيضا: «جيش الدفاع الإسرائيلي»؛ الهاغاناه

جيش الإنقاذ: ٥١٥-٥١٩، ٥٢١، ٥٢٣-٥٢٥، ٥٢٧، ٥٢٨، ٥٣٣، ٥٣٨

الجيش الإنكليزي: ٣٥٠

- أنظر أيضا: الجيش البريطاني

الجيش البريطاني: ٣٥١، ٣٥٣، ٣٥٩، ٣٦٤، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤١٢، ٤١٣، ٥١٨

- أنظر أيضا: الجيش الإنكليزي

الجيش التركي: ٣٤٥-٣٤٧

جيش الجهاد المقدس: ٤٥٤، ٤٦٤، ٥١٥، ٥١٨

- أنظر أيضا: قوات الجهاد المقدس

«جيش الدفاع الإسرائيلي»: ٥٣١

- أنظر أيضا: الجيش الإسرائيلي؛ الهاغاناه الجيش الرابع (العثماني): ٣٤٥، ٣٥٠-٣٥٣، ٣٧٥

الجيش السوري: ٥٢٧، ٥٣٣، ٥٤٠

الجيش العراقي: ٥٢٧-٥٢٩، ٥٣٣، ٥٤٠

الجيش العربي: ٣٥١-٣٥٣

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٦

الجيش العربي الأردني: ٥١٩، ٥٢٣

- أنظر أيضا: الجيش الأردني

الجيش اللبناني: ٥٢٧

الجيش المصري: ١٠٢، ٥٢٧، ٥٣٣، ٥٣٥، ٥٣٨

جيش المغاوير التركي: ٣٥١

- أنظر أيضا: قوات الصاعقة التركية الجيوسي (عائلة): ٢٥٩

الجيوسي، أبو عودة: ٢٥٩

(ح) حائط البراق: ٤٣٣، ٤٤٠

- أنظر أيضا: البراق؛ حائط المبكى حائط المبكى: ٤٣٣

- أنظر أيضا: البراق؛ حائط البراق الحايرو (قبائل): ٧٣، ٧٧

- أنظر أيضا: الخابيرو؛ الشاسو؛ الشوتو؛ شوسى؛ العابيرو

حاتوسلى الثالث (ملك الحثيين): ٨٢

الحاج إبراهيم، رشيد: ٤٥١، ٤٧٤

الحاج محمد، عبد الرحيم: ٤٧٦، ٤٨٠

حاران: ٧٩

- أنظر أيضا: حران

الحارث الثانى (الأعرج): ١٥٧

الحارث الثالث: ١٢٣

- أنظر أيضا: أريتاس

الحارثيون: ٢٤٤

حاصور: ٥٥، ٦٠، ٦٢-٦٤، ٦٦، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ٩٠، ٩٢، ٩٧، ١٠٩، ١١١، ١١٤

الحاكم بأمر الله الفاطمى: ١٨٢، ١٨٦، ١٩٠، ١٩٢

حانيتا (مستعمرة): ٥٢٥

حايمسون، ألبرت: ٤١٠

الجبانية: أنظر: مطار الجبانية

حبرون: ٧٩، ٨٠، ٩٤، ١٥٠

- أنظر أيضا: الخليل الحبشة: ٤٦٠

الحيثيون: ٥٧، ٧٠، ٧٣، ٧٤، ٨١، ٨٢، ٨٩، ٩٠، ٩٥

الحجاج بن يوسف الثقفى: ١٧٠، ١٧٥

الحجاز: ١٥٨، ١٦٧، ١٦٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٧، ٢٩٠، ٢٩٦، ٣٤٤، ٣٤٧، ٣٤٩-٣٥١، ٣٥٣، ٣٦٣، ٣٦٤

حجازى، فؤاد: ٤٣٥، ٤٤١

حجيت (زوجة داود): ٩٦

حدد (الإله): ٦٥

- أنظر أيضا: هدد

حديرا (مستعمرة): ٣٢١

- أنظر أيضا: الخضيره

«حديقه الأخبار» (صحيفة): ٢٨٨

حران: ٦٧، ٧٨، ٧٩، ٨٥، ١٧٧، ٢٠٠، ٢١٩

- أنظر أيضا: حاران

«حرس الحدود الأردنيه»: ٤٧٧

الحرس الشعبى: ٥٢١

حركة أحياء صهيون: ٣٢١، ٣٢٣

- أنظر أيضا: أحياء صهيون؛ جمعيه أحياء صهيون؛ حوفى تسيون

- حركة إيجود (الوحدة): ٤٣٦
- حركة برت شالوم: ٤٣٦، ٤٧٢
- أنظر أيضا: عصبة السلام
- حركة بيلو: ٣٢١، ٣٢٢
- الحركة القومية العربية: ٧، ٣١٣، ٣١٤، ٣٤٦، ٣٤٨، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٦٢، ٣٧٦-٣٧٩، ٤١١، ٤٥٠
- حركة هشومير هتسعير: ٤٧٢
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٧
- أنظر أيضا: حزب الحارس الفتى؛ حزب هشومير هتسعير
- حركة همزراحي: ٣٣٧
- الحركة الوطنية الفلسطينية: ٣٧٦، ٣٧٨-٣٨١، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤١٢، ٤١٧، ٤٢٠، ٤٢٦-٤٢٨، ٤٣٠-٤٣٢، ٤٣٤، ٤٤٣، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٩-٤٥٩، ٤٧١-٤٧٣، ٤٧٦، ٤٨٠
- الحرم (في المدينة المنورة): ١٦٠
- الحرم الشريف (القدس): ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٣١، ٢٣٣، ٢٣٤، ٤٥٠، ٤٧٣، ٤٧٤
- حريكة (المطران): ٤٧٣
- حزبيل (ملك أرام دمشق): ١٠١، ١٠٢
- حزب الائتلاف و الحرية: ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٨
- أنظر أيضا: حزب اللامركزية الإدارية العثمانية
- حزب أحداث هغفودا: ٤٠٤، ٤٠٦، ٤٣٦
- أنظر أيضا: حزب وحدة العمل
- حزب الأحرار البريطاني: ٤٤٣
- حزب الأحرار العثمانية: ٢٩٢
- حزب الاستقلال العربي: ٤٤٨، ٤٥١-٤٥٣، ٤٥٨
- حزب الإصلاح: ٤٥٤
- حزب بوعالي تسيون: ٣٤٠
- أنظر أيضا: حزب عمال صهيون
- حزب تركيا الفتاة: ٢٩٨، ٣٣٥
- أنظر أيضا: تركيا الفتاة؛ جمعية الاتحاد و الترقى
- حزب الحارس الفتى: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حركة هشومير هتسعير؛ حزب هشومير هتسعير
- حزب الدفاع الوطني: ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٦٩، ٤٧٣، ٤٧٩
- حزب الصهيونيين العموميين: ٤٣٧
- حزب العامل الفتى: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حزب هبوعيل هتسعير

- الحزب العربي الفلسطيني: ٤٥٣، ٤٥٤
- حزب عمال أرض إسرائيل: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حزب مباى؛ حزب مفليغت بوغالي إيرتس إسرائيل
- حزب العمال البريطاني: ٤٣٣
- حزب عمال صهيون: ٣٤٠
- أنظر أيضا: حزب بوغالي تسيون
- حزب الكتلة الوطنية: ٤٥٤
- حزب اللامركزية الإدارية العثمانية: ٢٩٤، ٢٩٥
- أنظر أيضا: حزب الائتلاف و الحرية حزب مباى: ٤٣٧
- أنظر أيضا: حزب عمال أرض إسرائيل؛ حزب مفليغت بوغالي إيرتس إسرائيل
- حزب المحافظين البريطاني: ٤٤٣
- حزب مزراحي: ٤٣٧
- حزب مفليغت بوغالي إيرتس إسرائيل: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حزب عمال أرض إسرائيل؛ حزب مباى
- حزب مؤتمر الشباب العربي الفلسطيني: ٤٥١
- الحزب النازي: ٣٨٦
- حزب هبوعيل هتسعير: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حزب العامل الفتى حزب هشومير هتسعير: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حركة هشومير هتسعير؛ حزب الحارس الفتى
- حزب وحدة العمل: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حزب أهدوت هعفودا
- الحزب الوطني: ٤٢٨، ٤٣١
- حسان بن الجراح: ١٨٥
- أنظر أيضا: حسان بن المفرج
- حسان بن مالك بن بحدل الكلبي: ١٧٠، ١٧٣
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٨
- حسان بن المفرج: ١٨٦
- أنظر أيضا: حسان بن الجراح
- حسان: ١٥٠
- أنظر أيضا: حشون
- الحسن الأعصم القرمطي: ١٨٣، ١٨٥
- أنظر أيضا: الأعصم
- حسن باشا (حاكم غزة): ٢٤٥

- حسن باشا (القبطان): ٢٥٢
- الحسين، أحمد مصلح: ٤٥٦
- حسين بن علي (الشريف): ٣٤١، ٣٤٥، ٣٤٧-٣٥٣، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٦٧، ٣٧٥، ٣٨٠، ٤٢٠
- الحسيني، جمال: ٤٤٨، ٤٥٣، ٤٦١، ٤٧٤، ٤٨٢، ٥٠٥
- الحسيني، حمدي: ٤٥٨، ٤٥١
- الحسيني، سعيد: ٣٠٤
- الحسيني، عبد القادر: ٤٥٤، ٤٦٣-٤٦٥، ٤٧٥، ٤٧٦، ٤٧٩، ٥١٥، ٥٢٢
- الحسيني، فهمي: ٤٥٤
- الحسيني، كامل أفندي: ٤١٥
- الحسيني، (الحاج) محمد أمين: ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٢، ٤١١، ٤١٥، ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٣١-٤٣٤، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥١-٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٧٣، ٤٨٢، ٤٩٣، ٥٠٥، ٥١٣، ٥١٥، ٥٣٦
- أنظر أيضا: المفتي
- الحسيني، محمد طاهر: ٣٠٣
- الحسيني، منيف: ٤٧٦
- الحسيني، موسى كاظم: ٣٨٠-٣٨٢، ٤١١، ٤١٢، ٤١٨، ٤٢٥، ٤٣٢، ٤٤٨، ٤٥٠، ٤٥٢، ٤٥٤
- حشبون: ١٣٢، ١٥٠
- أنظر أيضا: حسان
- الحشمونيون: ١١٥، ١١٨، ١٢٠-١٢٢، ١٢٥-١٢٧، ١٣٠-١٣٢
- حصن إسكندرون (جنوب لبنان): ١٩٧، ٢٠٩
- حصن الأكراد: ٢١٠
- حصن البردويل: ١٩٩
- حصن بيت نوبا: ١٩٨
- حصن حبيس جلدك: ١٩٩، ٢٠٨
- حصن الزيب: ٢٠٩
- حصن ستراتون: ١٢٤، ١٣٢
- حصن السموع: ٢٠٩
- حصن فصائيل: ١٣١، ١٤٨
- حصن كرميل: ٢٠٩
- حصن مونتريال: ١٩٩
- الحصين بن نمير السكوني: ١٧٣
- حطين: ٣٣١
- أنظر أيضا: معركة حطين
- الحكرا: ١١٩-١٢١، ١٢٦

- حكومة عموم فلسطين: ٥٣٦، ٥٣٧
- الحكيم، عبد الوهاب: ٥٢٧
- حلب: ٥٥، ٦٧، ٦٩، ٧٠، ٧٥، ١٧١، ١٨٠، ١٨١، ١٨٦، ١٨٧، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٢٢، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٦، ٢٦٢، ٢٧٠، ٢٧٨، ٢٨٨، ٢٩٦، ٣٤٩، ٣٥٣ الموجز في تاريخ فلسطين السياسي؛ ص ٥٦٨
- أنظر أيضا: قلعة حلب؛ يحاض
- حلوان: ٢٥، ٢٨
- حليقات: ٥٣٥، ٥٣٧
- حماة: ١٤، ٦٠، ٦٦، ٦٧، ٩٥، ٩٨، ١٠١، ٢٤١، ٢٧٨، ٢٩٥، ٣٤٩، ٤٦٤
- حماتا: ١٢٨
- حماد، (الحاج) نمر: ٤٥٤
- حمارة (مستعمرة): ٣٨٢
- أنظر أيضا: المحمرة الحمة: ٣٧٤، ٣٨٧
- الحمد، محمد صالح: ٤٥٧
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٦٩
- الحمدانيون: ١٧٩-١٨١، ١٨٣، ١٨٥، ١٨٦
- الحمير (موقع): ٢٨
- حمص: ٧٥، ١٧١، ١٨٠، ١٨٧، ٢٢٠، ٢٣١، ٢٤١، ٢٧٨، ٣٤٩
- حمورابي: ٦٢، ٦٧
- الحميمة: ١٧١، ١٧٤، ١٧٥
- حور: ٥٨
- الخوران: ١٠٩، ١٣٠، ١٥٧، ١٩٨، ٢٤٤، ٢٦٣، ٣٥٢
- حورون: ٦٦، ١٠٢
- الهوريون: ٥٧، ٧٠
- حوسان: ٤٦٥
- حوقفي تسبون: ٣١٩
- أنظر أيضا: أحباء صهيون؛ جمعية أحباء صهيون؛ حركة أحباء صهيون
- حونيو (الكاهن الأكبر): ١١٨
- حى الشيخ جراح (القدس): ٥٢٤
- حى المغاربة (القدس): ٤٤٠
- حى المنشية (يافا): ٤١٣
- حى مونتفيورى (القدس): ٣٤٢
- حى هتكفاه (تل أبيب): ٥١٤
- الحى اليهودى (الخليل): ٤٣٤

- الحى اليهودى (صفد): ٤٣٤، ٥٢٤
- الحى اليهودى (طبرية): ٥٢٣
- الحى اليهودى (القدس): ٤٣٤، ٥١٦، ٥٢٢، ٥٢٩
- حيان: ٥٨
- حيدر، رستم: ٢٩٤
- حيرام (ملك صور): ٩٥، ٩٨
- الحيرة: ١٥٧
- حيس: ٥٢٠
- أنظر أيضا: قوات الميدان
- حيفا: ٢١، ٣٦، ٨٥، ١١٠، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٣، ٢٢٧، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٧١، ٢٨١، ٢٩٨، ٣٠٢، ٣٣٢، ٣٤٤، ٣٨٠
- ٣٨٢، ٤٠٠، ٤٠٢، ٤١١، ٤٢٥، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٣٨، ٤٥٥، ٤٥٦، ٤٦٢ – ٤٦٤، ٤٧٠، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٩٢، ٥١٩، ٥٢٠، ٥٢٣، ٥٢٥، ٥٣٣
- أنظر أيضا: ميناء حيفا
- حيفا خاسوث (ملوك البلاد الأجنبية): ٥٨، ٥٩
- أنظر أيضا: الهكسوس
- (خ) الخابيرو: ٥٩
- أنظر أيضا: الحابيرو
- خار كوف: ٣٢١
- خالد بن الوليد: ١٦١، ١٦٢، ١٦٤
- الخالدى، حسين فخرى: ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦١، ٤٧٤
- الخالدى، راسم: ٤٥٠
- الخالدى، محمد روى: ٣٠٢، ٣٠٤، ٣٠٦
- الخالدى، يوسف ضياء: ٣٠٣، ٣٠٤
- خان السلطان: ٢٣١
- خان يونس: ٢٤١، ٢٥٦
- خانة: ٦٧
- الخانقاه الصلاحية (القدس): ٢٢٤
- الخانقاه الفخرية (القدس): ٢٣١
- خانكين، يحزقئيل: ٣٣٩
- خانكين، يهوشوع: ٣٢٤
- خثعم (قبيلة): ١٦٧، ١٧٣
- خراسان: ١٧٦
- خرية أفدان: ٤٠
- خرية أفنان: ٤٠

- خرية البيطار: ٤٠
- خرية جيفات: ١٣٧
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧٠
- خرية الشيخ ميسر: ٤١
- خرتبرت: ٢١٩
- الخضر: ١٠١
- أنظر أيضا: إياهو؛ مار الياس
- الخضراء، صبحي: ٤٤٨، ٤٥١، ٥٠٩، ٥١٧
- الخضيره: ٤١، ٣٢١، ٣٢٤، ٣٤٠، ٥٢٧
- أنظر أيضا: حديرا
- خطه باروش: ٥٣٣
- خطه د: ٥١٩، ٥٢١، ٥٢٢
- الخطيب، طاهر: ٤٤٤
- الخطيب، فؤاد: ٢٩٥
- الخلصه: ١٥٠، ١٥١
- أنظر أيضا: ألوسا
- خلف: ٥٣
- الخليج العربي: ٤٤، ٥٤، ٢٤٢
- أنظر أيضا: البحر الأسفل؛ البحر العربي خليج العقبة: ٣، ٢٠٨، ٣٦٧
- خليفة، حسني: ٤٥٤
- الخليل: ٧٩، ٨٠، ٩٤، ١١١، ١٥٠، ١٧٣، ١٧٥، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٧، ٢٨٢، ٤٠٠، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٧٣-٤٧٦، ٤٧٩، ٥٤٠
- أنظر أيضا: حبرون
- خليل (ابن الصالح أيوب): ٢٢١، ٢٢٢
- الخليل، عبد الكريم: ٢٩٣
- خليل باشا (وزير محمد الفاتح): ٢٣٩
- الخليلى، سعد الدين: ٤٥٤
- خمارويه بن أحمد بن طولون: ١٧٩
- الخوارج: ١٧٦
- الخوارزمية: ١٨٦، ١٨٧، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١
- أنظر أيضا: الخوارزميون
- الخوارزميون: ٢١٨، ٢٢٠
- أنظر أيضا: الخوارزمية

- خورشيد باشا التركي: ٢٦٠
 الخورى، خليل: ٢٨٨
 خوشقدم: ٢٣٢
 خولدة: ٣٣١، ٣٣٢، ٥١٩
 الخيام (موقع): ٣٦
 خير: ١٦١
 (د) دائن: ١٦٣
 الداروم: ٢٢٩
 داروين، تشارلز: ١٦
 داريوس (ملك فارس): ١٠٦-١٠٨
 داريوس الثالث: ١١٢، ١١٣
 الدامون: ٢٤٨
 دان (مستعمرة): ٥٢٨
 داود (الملك): ٨، ٨٦، ٩٣-٩٨، ١٠٠، ١٠٩، ٣٠٩، ٣٣٥
 دبورية: ٢٠٩
 الدجاني، حسن صدقي: ٤٥٣، ٤٦٢، ٤٦٨
 الدجاني، عارف: ٤٢٨
 الدجاني، كامل: ٤٥٣
 الدجاني، يوسف ضياء: ٤٥٣
 دحية بن خليفة الكلبي: ١٧٢، ١٧٣
 درايفوس: ٣٢٨
 درعا: ٢٨، ١٢٦، ٢٥٩، ٣٤٤، ٣٥٣
 الدرعية: ٢٦١
 الدروز: ٢٨٠، ٢٨١
 دروزة، محمد عزة: ٣٧٩، ٤٥١، ٤٥٨، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٧٦، ٥٠٩، ٥١٧
 درويش، إبراهيم: ٤٥٣
 درويش، إسحاق: ٤٧٦
 دغانيا (مستعمرة): ٣٣١، ٣٣٢، ٤٠٠، ٥٢٨
 الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧١
 الدلتا (مصر): ٥٤، ٥٦-٥٩، ٦٢، ٦٨، ٧٩، ٨٠، ٨٤، ٨٥
 - أنظر أيضا: أرض غوشن دلمون: ٤٦، ٥٤
 دمشق: ٥، ٢٨، ٣٦، ٦٦، ٨٣، ٩٠، ٩٥، ٩٨، ٩٩-١٠٢، ١٠٨، ١١٢، ١١٤، ١١٧، ١٢٦، ١٢٧، ١٣٢، ١٤٥، ١٥٠، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٢، ١٦٤-
 ١٦٦، ١٦٩، ١٧١، ١٧٤، ١٧٦-١٨١، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٧، ١٩٨-٢٠٢، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٥، ٢١٨-٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٢

- ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٤٧-٢٤٨، ٢٥٦، ٢٥٨-٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٦، ٢٦٩، ٢٧٠، ٢٨٥، ٢٨٦، ٢٨٨، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٤٤-٣٤٦، ٣٤٨-٣٥١، ٣٥٣، ٣٧٦-٣٨١، ٤١١، ٤٣٠، ٤٧٤، ٤٧٦، ٤٩٩، ٥٠٩، ٥١٥، ٥٢٢، ٥٢٨
- أنظر أيضا: جلق
- دمياط: ٢١٦، ٢١٧، ٢٢١، ٢٢٥
- دوتان: ٨٠
- دور: ٨٥، ١٠٢
- دورا: ١١٦، ١٢٤، ١٤٩، ٢٧٧
- أنظر أيضا: الطنطورة دوريليوم: ١٩٥
- أنظر أيضا: أسكيشهر دوسلدورف: ١٦
- دوفنوف (المؤرخ): ٣٢٠
- دوق ديفونشاير: ٤٢٧
- الدولة الإخشيدية: ١٧٩
- الدولة الأموية: ٥، ٦، ١٧١، ١٧٥
- دولة الأنباط: ١٤٩
- الدولة الأيوبية: ٢٢١
- الدولة البيزنطية: ١٧٥
- الدولة الساسانية: ١٤٦
- الدولة الصفوية: ٢٣٩
- الدولة الصليبية: ٥
- الدولة الطولونية: ١٧٩
- الدولة العباسية: ١٧٥-١٧٧، ١٨٠
- الدولة العثمانية: ٢٤١، ٢٤٥
- الدولة الفاطمية: ١٧٩
- دولة المماليك: ٢٣٩، ٢٤٠
- دومة الجندل: ١٥٠، ١٧٣
- أنظر أيضا: الجوف
- ديديوس (والى سورية): ١٣٠
- دير البلح: ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢٢٩
- دير جبل الطور: ١٥١
- دير حنا: ٢٤٩، ٢٥٣
- دير الزور: ٢٨
- دير علّا: ٨١
- أنظر أيضا: تل دير علّا

- دير كليني: ١٩١
- دير مار سابا: ١٥١
- دير ياسين: ٤٣٥، ٥٢٣
- ديران: ٣٢١
- أنظر أيضا: رحوفوت
- ديل، (الجنرال) جون غرير: ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٧٤
- ديمتريوس الأول: ١٢٠
- ديودوروس الصقلي: ٩
- ديوسبولس: ١٤٨، ١٤٩
- أنظر أيضا: اللد
- ديوسيزارية: ١٣٨، ١٤٩
- أنظر أيضا: سيورس؛ صفورية ديوقلتيان (الإمبراطور): ١٣٥، ١٤٠، ١٤٧
- ديون: ١٢٦
- أنظر أيضا: أيدون
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧٢
- (ذ) ذات السلاسل: ١٦١
- ذو القصة: ١٦٢
- (ر) رأس الرجاء الصالح: ٦، ٢٤٠، ٢٤٢، ٢٥٥، ٣٤٣
- رأس الزاوية: ٣٢١
- أنظر أيضا: روش بينا
- رأس الشمرا: ٥٠، ٦٣
- أنظر أيضا: أوغاريت
- رأس العين: ٣٧، ٦٣، ١١٧، ١٢٦، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩، ١٧٧
- أنظر أيضا: أبو فطرس؛ أنتيباترس
- رأس الكلب: ١٦
- رأس الناقورة: ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٤٠
- رابطة الوطن العربي: ٢٩١
- رازين (ملك دمشق): ١٠٢
- الراضي (الخليفة): ١٧٩
- رام الله: ٤٧٨، ٥١٧
- رامسيس: ٧٣
- أنظر أيضا: رعمسيس الأول
- راينس، (الحاخام) يتسحاق: ٣٣٧

- رباط علاء الدين البصير (القدس): ٢٣١
- الرباط المنصوري (القدس): ٢٣١
- رجاء بن حيوة: ١٧٣
- رجب عام (ابن سليمان): ٩٨
- رحوب: ٦٦، ٧٤
- رحوفوت (مستعمرة): ٣٢١، ٣٢٤، ٣٣٩، ٥٣٠
- أنظر أيضا: ديران
- رزيشيل، دافيد: ٤٩٣
- الرسول (ص): ١٦١، ١٧٢، ١٧٣، ٤٣٣
- أنظر أيضا: محمد (النبي) (ص) رضا، محمد رشيد: ٢٩٥، ٣٠١
- رعمسيس الأول: ٧٣
- أنظر أيضا: رامسيس
- رعمسيس الثاني: ٧٣، ٧٤، ٨١، ٨٣، ٩٠
- رعمسيس الثالث: ٨٢، ٨٣، ٨٥، ٩٢
- رفح: ١١٦، ١٢٥، ١٤٩، ١٥٠، ١٧٣، ٣٤٤، ٥٢٧، ٥٣٨، ٥٤٠
- أنظر أيضا: ريفا
- رفيا: ١٤٩
- أنظر أيضا: رفح
- رمات يوحنا (مستعمرة): ٥١٩، ٥٢٣
- الرملة: ١٦٦، ١٧١-١٧٣، ١٧٥، ١٧٩، ١٨٠، ١٨٤-١٨٦، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٣، ٢٤٩، ٢٥١
- ٢٥٦، ٣٣١، ٣٣٢، ٤٧٠، ٥١٦، ٥٣٠، ٥٣٤
- الرها: ١٤٤، ١٩٥، ٢١٩
- أنظر أيضا: إديسا
- روبرت (دوق نورماندي): ١٩٥
- روبرت الثاني (كونت فلنדרز): ١٩٥
- روبنسون: ٩
- روبين، آرثر: ٣٣١، ٣٣٧، ٤٣٦
- روتشيلد، (البارون) إدموند دو: ٣١٩، ٣٢٢-٣٢٤، ٣٢٨
- روتشيلد، ليونيل: ٣٤١، ٣٤٢، ٣٥٨
- روتشيلد (مؤسسة): ٣٥٥، ٣٥٧، ٣٦٨
- روتنبرغ، بنحاس: ٣٦٠، ٣٨٧، ٤٠٤، ٤١٦
- روجر النورمانى: ٢٠١، ٢٠٢
- روح بن زنباع الجذامى: ١٧٠، ١٧٨

رودس: ١٣٠، ٥٤٠

روديسيا: ٣١٦

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧٣

روزفلت، فرانكلن: ٤٤٥، ٤٨٢، ٤٨٦، ٤٨٨ - ٤٩٠، ٤٩٣

الروس: ٣٢٠

روسيا: ٢٤٢، ٢٤٦ - ٢٥٠، ٢٥٢، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٩، ٢٩٨، ٣٠٠، ٣٠١، ٣٠٣، ٣١٩ - ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٦، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٣٥، ٣٣٧

٣٣٩، ٣٥٠، ٣٥٢، ٣٥٤، ٣٥٦ - ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٦٤، ٣٩٣، ٤٣٧

روش بينا (مستعمرة): ٣٢١

- أنظر أيضا: رأس الزاوية

روك، ألفرد: ٤٥٣، ٤٦١، ٤٧٤، ٤٨٢

الروم: ١٥٩، ١٧٠، ١٧٢، ١٧٣

الروم الأورثوذكس: ٢٨١، ٣٥٠

الروم الكاثوليك: ٢٨١

روما: ٦، ١١٥، ١١٩ - ١٢٢، ١٢٦ - ١٣٠، ١٣٢ - ١٣٥، ١٣٨ - ١٤٠، ١٤٢، ١٤٩، ١٥٦، ١٩٠، ١٩١، ٢٠١، ٤١٨

الرومان: ٤، ١٢٥ - ١٢٧، ١٣٤، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٧، ١٤٩، ١٥٥، ١٥٦

رومانيا: ٢٩٨، ٣٠١، ٣٢٠، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٩٣، ٤٠٦

رومل، إروين: ٤٨٨

روميلي: ٢٣٨، ٢٥٩، ٢٦٧

رونمان، سامويل: ٤٤٥

الرياض: ٤٦٦، ٤٩٩

ريان (عائلة): ٢٧٥

ريتشارد الأول (قلب الأسد): ٢١٣ - ٢١٥، ٢١٧

ريتشارد كونول: ٢١٩

ريتنو: ٥٩، ٦٤

الريس، منير: ٤٦٤

ريشون لتسيون (مستعمرة): ٣٢١، ٣٢٤، ٣٣٩

ريلاندا: ٩

ريموند (كونت طولوز): ١٩٥، ١٩٦

- أنظر أيضا: ريموند الثالث

ريموند الثالث: ٢٠٢

- أنظر أيضا: ريموند (كونت طولوز)

(ز) زارزي (موقع): ٢٨

زاكارايوس (البطريك): ١٤٥

- زانغويل، إسرائيل: ٣٠٠، ٣٣٧
- الزاوية البسطامية (القدس): ٢٣١
- الزاوية الخثنية (القدس): ٢٢٤
- زاوية المغاربة (القدس): ٢٣١
- زايد، إسكندر: ٣٣٩
- الزباء: ١٥٦
- أنظر أيضا: زنوبيا
- الزبيدات: ٤٤٧
- الزبيدى، محمد: ٥٢٧
- زخرون يعقوف (مستعمرة): ٣٢١، ٣٢٤، ٣٣٩
- أنظر أيضا: زمارين
- الزراعة: ٥١٨، ٥٢٥
- أنظر أيضا: طيرت تسفى
- زرعين: ٢٠٤
- الزرقاء: ٣٧، ٣٨
- زعيتر، أكرم: ٤٥١، ٤٥٨، ٤٦٠، ٤٦٢، ٤٧٦
- زمارين: ٣٢١
- أنظر أيضا: زخرون يعقوف
- زنوبيا: ١٥٦
- أنظر أيضا: الزباء
- زوريخ: ٤٣٣، ٤٣٥
- الزيادنة (قبيلة): ٢٤٧، ٢٥١-٢٥٣
- الزيب: ١٠٨، ١٠٩، ٢١٠
- أنظر أيضا: أكزيب؛ حصن الزيب زيد بن حارثة: ١٦١، ١٧٣
- الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٧٤
- زيد بن الحرث: ١٧٢
- زيد بن الحسين بن على: ٣٤٩
- زيدان، جورجى: ٢٨٨، ٢٨٩، ٣٠٣
- الزير، عطا: ٤٣٥، ٤٤١
- زيرح الكوشى: ٩٩
- زينون: ٩، ١١٥
- زيوس: ١١٩
- (س) سابا، فؤاد: ٤٧٤، ٤٨٢

ساديه، يتسحاق: ٥٢٤

سارايفو: ٣١٨، ٣٤٤

ساره (أخت أهرونسون): ٣٦١

سارديس: ١٢٥

ساروننة: ٢٨١

الساسانيون: ١٣٩

سالم: ٨٠

– أنظر أيضا: أورشليم؛ أورشالم؛ إيليا كابتولينا؛ إيلياء؛ بيت المقدس؛ القدس؛ مدينة داود؛ ييوس؛ يروشالايم

سالونيك: ٢٩١

سامراء: ١٨١

السامرة: ٩٩، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٩، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١١٧، ١٢٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٩، ٢٠٤، ٢٧١، ٤٧٣، ٥١٧

– أنظر أيضا: سبسطية؛ سماريا

سامويل، هيريت: ٣٦٠، ٣٦١، ٣٧١، ٣٧٢، ٣٧٩–٣٨٣، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٤١٠–٤١٧، ٤٢٣، ٤٢٨–٤٣٠، ٤٥٢، ٤٧١

الساميون: ٤٦

– أنظر أيضا: الشعوب السامية

سان جان داكلر: ٢٠٠، ٢١٤، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٨

– أنظر أيضا: عكا؛ مملكة عكا الصليبية

سان ريمو: ٣٦٧، ٣٩١

ساندستروم، إميل: ٥٠٦

سانهيت (الوزير): ٦٥

– أنظر أيضا: سنوحى

سانور: ٤٨٠

– أنظر أيضا: قلعة سانور

سايكس، مارك: ٣٥١، ٣٥٨، ٣٦٣، ٣٧٢

سباير (مؤسسة): ٣٥٥

سبتيروس سفروس: ١٤٩

سبسطية: ١١١، ١٢٥، ١٢٦، ١٣٢، ١٤٨–١٥٠، ١٦٦

– أنظر أيضا: السامرة؛ سماريا السبع: ١٦٦

سبكحو (القائد): ٦٥

سيورس: ١٢٦

– أنظر أيضا: ديوسيزارية؛ صفورية سبسطية: ١٥١، ١٥٢

سبيل قايتباي: ٢٣١

ست مرخو: ١٤

- ستاتوس (الشاعر): ١٥٢
- ستالين، جوزيف: ٤٩٦
- سترابو: ٩
- ستورز (الكولونيل): ٣٧١
- ستوكويل (الجنرال): ٥٢٣
- سدوم: ٥٢٩، ٥٢٥
- سرايط الخادم (موقع): ٦٥
- سرجون الأول (الأكادي): ٥٣-٥٥، ٧٨
- سرجون الثاني: ١٠٢
- سرجون بن منصور: ١٧٤
- سرسق (عائلة): ٣٠٤، ٣٤٠
- سرسق، يوسف: ٣٤١
- السريان: ١٧٤
- سرية الفراتين: ٥١٧
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧٥
- سعد بن أبي وقاص: ١٦٨
- سعد الدولة الحمداني: ١٨١، ١٨٦
- السعدى، (الشيخ) فرحان: ٤٥٧، ٤٦٣، ٤٧٥
- سعسع: ٥٣٨
- السعودية: ٤٦٨، ٤٩٤، ٥٠٣، ٥١٦، ٥١٧
- أنظر أيضا: المملكة العربية السعودية
- السعيد، حافظ: ٢٩٥
- السعيد، نوري: ٢٩٦، ٤٦٥، ٤٦٦
- سعيد بن الحسين: ١٨٢
- أنظر أيضا: الإمام عبيد الله المهدي سعيير: ٨٠
- السفياني: ١٧٨
- السكاسك (قبيلة): ١٧٣
- السكاكيني، خليل: ٣٠٣
- سكان الرمال: ٥٦
- أنظر أيضا: جرير- شع
- سكاوروس (قائد جيش بومبي): ١٢٧
- سكيتوبولس: ١١٤، ١٢٢، ١٢٦، ١٤٩
- أنظر أيضا: بيسان

السلاجقة: ١٨٢، ١٨٦، ١٨٧، ١٨٩-١٩٥، ١٩٧-٢٠١، ٢٠٤، ٢١٩، ٢٨٤

السلاف: ١٤١، ١٩٤

سلامة، حسن: ٤٧٦، ٥١٤، ٥١٦، ٥٢٢

سلامة، سليم: ٤٥١

سلامش (ابن بيارس): ٢٢٧

سلاميس (معركة): ١٠٧

سلجوق: ١٨٦

السلط: ٢١٨

سلطنة روم: ١٨٩، ١٩٥، ٢١٨، ٢٣٧

سلع: ٢٠٩

- أنظر أيضا: العوير

سلوقس: ١١٣

السلوقيون: ٦، ١١٣-١٢١، ١٢٣-١٢٧

سليغمان (مؤسسة): ٣٥٥

سليم الأول: ٢٤٠-٢٤٢، ٢٤٤

سليم الثاني (ابن سليمان القانوني): ٢٤٤

سليم الثالث: ٢٦٠

سليمان (ابن بايزيد): ٢٣٩

سليمان (الملك): ٥، ٧٥، ٨٦، ٩٥-١٠٠

سليمان باشا: ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٨

سليمان بن عبد الملك: ١٧٠، ١٧٣، ١٧٥، ١٧٧

سليمان القانوني: ٢٤٢-٢٤٤، ٢٤٦، ٢٧٩

سماريا: ١٠٩، ١١٤، ١٢٢، ١٢٥

- أنظر أيضا: السامرة؛ سبسطية

سمتس: ٤٤٣

سمحان (آل، عائلة): ٢٧٦

سمخ: ٥٢٨

السمرة: ١١٧، ١٢٢، ١٢٥

سمرقند: ٢٣٨

سميث (الرحالة): ٩

سميث، سدني: ٢٥٦

ستان باشا (وزير سليم الأول): ٢٤١

سنحاريب: ١٠٢

سنفرو الأول: ٥٦

سنقر (الأشقر): ٢٢٨

سنوحى (الوزير): ٦٥

- أنظر أيضا: سانهيت

سهل الحولة: ٣٧، ٩٢، ٣٧٤، ٣٨٢، ٣٨٧، ٤٣٣، ٥٢٥

السهل الساحلى الفلسطينى: ٥٢، ٦٣، ٩٥، ١٠٨، ١١٤، ٣٢١، ٣٣٢، ٤٤٧، ٥٢٠، ٥٢٥

سهل عكا: ٦٠، ٣٢٤، ٣٢٥

سهل العمق: ٣٧، ٣٨

السواد: ٢١٩

- أنظر أيضا: الجولان

السودان: ٢٦١، ٢٨٩، ٣٤٥، ٥١٧

الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٥٧٦

سورية: ٣، ٧، ٨، ١٤، ١٦، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٨، ٣٤، ٣٦، ٣٩، ٤٨، ٥٠، ٥٢، ٥٥، ٥٩، ٦٠، ٦٢، ٦٣، ٦٦-٧١، ٧٣، ٧٥، ٨٣، ٨٥، ٨٨، ٩٠

٩٥، ٩٦، ١٠٨، ١١٣، ١١٥-١١٨، ١٢٠، ١٢١، ١٢٣، ١٢٦-١٣٠، ١٣٣، ١٣٦، ١٤٤، ١٤٥، ١٤٧، ١٤٩، ١٥١، ١٥٦، ١٥٧، ١٦٣، ١٦٤

١٧٥، ١٨١، ١٨٥، ١٨٦، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٣، ٢١٠، ٢١١، ٢١٦-٢١٨، ٢٢٦، ٢٣٢، ٢٥٠، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٨٧، ٢٩٥، ٣٤٤

٣٥٠-٣٥٣، ٣٦١، ٣٦٥، ٣٦٧، ٣٧٣-٣٧٥، ٣٧٧-٣٨٠، ٣٨٢-٣٨٤، ٣٩٩، ٤١٢، ٤٣٣، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦٨، ٤٧٣-٤٧٥

٤٧٧، ٤٨١، ٤٩٣، ٥٠٣، ٥٠٩، ٥١٦، ٥١٨، ٥٤٠

سورية الكبرى: ١٥، ٢٢، ٢٨٩

السوريون: ١٤١، ١٤٧، ٢٨٩، ٣٤٦، ٣٥١، ٤٦٤

سوسة: ١٠٧

سوفرونيوس (البطيرك): ١٦٤

السوق التجارى اليهودى: ٥٠٩

سوق حيفا: ٤٨٣

السوق العربية (القدس): ٤٨٣

سوكنيك، يغييل: ٥١٩

- أنظر أيضا: يادين، يغييل سوكولوف، ناحوم: ٣٦٦، ٣٩٠-٣٩٢، ٤٤٤

السومريون: ٤٦، ٥٣، ٦٦

السويد: ٥٠٦، ٥٢٢

السويدى، ناجى: ٤٧٣

السويديون: ٢٨١

سيام: ٣٥٧

سيتزن: ٩

سيتى الأول: ٧٣، ٧٤، ٨٩

سيدتس: ١٢٢

- أنظر أيضا: أنطيوخوس السابع

سيدنهام (اللورد): ٣٨٥

سيسل (جزر): ٤٧٤، ٤٨٢

سيف الدولة الحمداني: ١٨٠، ١٨١، ١٨٥

سيناء: ٤، ٣٩، ٥٥، ٥٦، ٦٤، ٦٥، ٧٣، ٨١، ٨٩، ١٠٨، ١٥٠، ١٧٢، ٢٧٧، ٣٣٤، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٠، ٥٣٩

(ش) شابور الأول (الشاه): ١٥٦

شاتو بيليرين: ٢١٦

- أنظر أيضا: عتليت؛ قلعة عتليت

شاتيون، رينالد دو: ٢٠٤

شارو حين: ٦٠، ٦١، ٦٣، ٦٨، ٧٠، ١١١

- أنظر أيضا: تل الفارعة الجنوبي

شاريت، موشيه: ٣٩٦، ٤٠٥، ٤٤٦، ٤٦٩

- أنظر أيضا: شرتوك، موشيه

الشاسو (قبائل): ٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٩

- أنظر أيضا: الحاييرو؛ الشوتو؛ شوسى؛ العاييرو

شاعر هغولان (مستعمرة): ٥٢٨

الشاغور (الجليل الأسفل): ٢٢٩

شافتسبرى، أنطونى: ٣٤١

شاميين، هنرى دو: ٢١٤

شانيدار (موقع): ٢٨

- أنظر أيضا: مغارة شانيدار

شاؤول: ٩٣، ٩٤

شاور (الوزير): ٢٠٢

شتيرن (عصابة): ٤٩٢، ٥١١، ٥٢١، ٥٢٣

- أنظر أيضا: ليحي

الشجرة (مستعمرة): ٣٢٥، ٥٣٣

- أنظر أيضا: إيلانا

شجرة الدر: ٢١١، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧٧

الشراة: ١٧٣

الشراكس: ٢٣٢

شرتوك، موشيه: ٣٩٦، ٤٠٥، ٤٤٦، ٤٦٩

- أنظر أيضا: شاريت، موشيه
شرحيل بن حسنة: ١٦٢، ١٦٣
- الشرق الأدنى: ٦-٨، ١٥-٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣١، ٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٤، ٤٧، ٤٩-٥٥، ٥٧، ٥٢، ٥٤، ٥٨، ٥٧، ٧٦، ٨٢-٨٤، ٨٦، ٩٥، ٩٦، ١٠٥، ١١١، ١٢٣، ١٥٥، ١٨٩، ٢٥٤، ٣١٢
- الشرق الأقصى: ٦، ٢٢٣، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٢
- الشرق الأوسط: ٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٥٨، ٣٢٧، ٣٢٨، ٣٣٣، ٣٣٨، ٣٤٣، ٣٤٧، ٣٥٨، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٩٢، ٤١٢، ٤١٦، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٨، ٤٩٠-٤٩٢، ٤٩٨، ٥٠١، ٥٠٢، ٥١٢
- شركة آي. بي. سي: ٥٢٣
- شركة إل عال للنقل الجوي: ٣٩٩
- الشركة الإنكليزية الفلسطينية: ٣٣١
- شركة بوتاس البحر الميت: ٣٦٨، ٣٨٧، ٣٩٩، ٤٣٣، ٤٦٣
- شركة بورتلاند للأسمت (نيسر): ٣٦٨
- شركة بيكا: ٣٢٤، ٣٢٥
- أنظر أيضا: جمعية الاستعمار اليهودي شركة تسييم للنقل البحري: ٣٩٩
- شركة تنوفا للتسويق الزراعي: ٤٠٣
- الشركة الروسية- الأورثوذكسية: ٢٨١
- شركة ستاندارد أويل: ٣٦٨، ٤٢١
- شركة سوليل بونيه: ٤٠٣
- شركة كهرباء فلسطين: ٣٦٨، ٣٩٩، ٤٣٣، ٤٣٥
- أنظر أيضا: مشروع روتنبرغ شركة كهرباء القدس: ٣٨٧
- شركة كور للصناعة الثقيلة: ٤٠٣
- شركة مورغان: ٣٥٧
- شركة المياه القطرية: ٣٩٩
- أنظر أيضا: مكوروت
- شركة هامشير للتسويق الصناعي و الاستهلاكى:
٤٠٣
- الشريف إدريس: ٣٤٨
- شريف باشا: ٢٦٢، ٢٦٥
- شربون: ٦٦
- شعوب البحر: ٣، ٧، ٧٤، ٨٢-٨٥، ٨٩، ٩٥
- الشعوب السامية: ٥٣
- أنظر أيضا: الساميون
- شفاعمرو: ٢٠٩، ٢٥٣، ٥١٩، ٥٣٣

شقيف، شوكت: ٥١٧، ٥٠٩،

الشقيف: ٢١٢، ٢١٦، ٢٢٩، ٢٤٢

– أنظر أيضا: قلعة بوفور؛ قلعة الشقيف

الشكعة، أحمد: ٤٦٠

شلبى: ٢٣٩

– أنظر أيضا: محمد الثاني؛ محمد الفاتح

شلمنصر الثالث (ملك آشور): ١٠١

شلمنصر الرابع: ١٠٢

شلومتسيون (زوجة ألكسندر ينادي): ١٢٢

شماش (الإله): ٦٥

– أنظر أيضا: شمش

الشماعة: ٥٠٩

شمش (الإله): ٦٥، ٦٦

– أنظر أيضا: شماش

شمعون الحشموني: ١٢٠، ١٢١

شموئيل (النبي): ٩٣

– أنظر أيضا: صموئيل

الشنطى، محمد: ٣٠٣

شهاب، فؤاد: ٥٢٧

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧٨

الشهابى، يوسف (أمير جبل لبنان): ٢٥٣

الشهابيون: ٢٤٨، ٢٦٢، ٢٦٨

الشهبندر، عبد الرحمن: ٣٤٧

شو، والتر: ٤٣٨

الشوا، عادل: ٤٥٣

الشوا، عز الدين: ٤٦٤

الشوبك: ١٩٩، ٢٠٣-٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٧، ٢١٨، ٢٢٦

شوبيلووما (ملك الحثيين): ٧٣

الشوتو (قبائل): ٧٥

– أنظر أيضا: الحاييرو؛ الشاسو؛ شوسى؛ العاييرو

شوحط، يسرائيل: ٣٣٩

شوسى (قبائل): ٧٣، ٧٧ الموجز في تاريخ فلسطين السياسي؛ ص ٥٧٨

أنظر أيضا: الحاييرو؛ الشاسو؛ الشوتو؛ العاييرو

الشيخ الزهراوى: ٢٩٥

الشيخ سعيد، أحمد: ٤٥٦

الشيخ عطية: أنظر: عوض، (الشيخ) عطية أحمد

الشيخ قبلان: ٢٥٠

شيركوه: ٢٠٢

- أنظر أيضا: أسد الدين شيركوه

شيرز: ١٩٦

شيشاك: ٩٨

- أنظر أيضا: شيشنق

الشيشكلي، أديب: ٥١٦-٥١٨، ٥٢٤

شيشنق: ٩٨

- أنظر أيضا: شيشاك

الشيعة: ٢٥٠

شيكم: ٦٣-٦٦، ٧٩، ٨٠، ٨٨، ٩٠، ٩١، ٩٧، ٩٩، ١١١، ١٢٢

شيلو: ٩٣

(ص) صالح بن على: ١٧٨

صالح بن مدرك (الطائي): ١٨٤

صالح بن مرداس: ١٨٦

الصالح نجم الدين أيوب (صاحب مصر): ٢١٩

- ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٥

الصحابة: ١٦١، ١٧٤

الصحراء السورية: ١٥٦

الصحراء العربية: ٣، ٥

صدقا (ملك يهودا): ١٠٣

- أنظر أيضا: تسدقا

الصرب: ٢٣٨، ٣٢٦

صربيا: ٢٣٨

صروف، يعقوب: ٢٨٨

صعب، حمد: ٤٦٤

الصعيد: ١٧٧

صفا، محمد: ٥١٧

صغد: ٢١٢، ٢٢٩، ٢٣٣، ٢٤٢-٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٣، ٢٦٤، ٢٧١، ٣٢١، ٣٣٢، ٤٠٠، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٦٢، ٤٦٤، ٤٧٠،

٤٧٦، ٥١٧، ٥٢٤، ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٣٨

- أنظر أيضا: قلعة صغد
الصفصاف: ٥٣٨
صفوت، إسماعيل: ٥٠٩، ٥١٧
صفورية: ١١٦، ١٢٦، ١٢٨، ١٣٨، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٦، ٢٠٤، ٢١٢، ٢١٨
- أنظر أيضا: ديوسيزارية؛ سبورس
الصفويون: ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٥
صفين: ١٦٧، ١٧٢
صقر قریش: ١٧٨
- أنظر أيضا: عبد الرحمن بن معاوية صقلج: ٩٤
- أنظر أيضا: تسجلاج
الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٧٩
صقلية: ١٩٣، ٢٠١، ٢١٣، ٢١٥، ٢١٨
صلاح، جورج: ٤٥٤
صلاح، عبد اللطيف: ٤٥٤، ٤٦٠، ٤٦١، ٤٧٤
صلاح الدين الأيوبي: ٢٠٠، ٢٠٢-٢٠٤، ٢١٢-٢١٧، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٢٥-٢٢٧، ٢٣١، ٢٤٠
- أنظر أيضا: صلاح الدين يوسف بن أيوب صلاح الدين يوسف بن أيوب (الملك الناصر- السلطان): ٢١١
- أنظر أيضا: صلاح الدين الأيوبي
الصلح، رياض: ٤٧٤
صلح الحديبية: ١٦٠
صلخد: ٢٠٠
- الصليبيون: ١٦٦، ١٩٣-٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٨، ٢١٠-٢١٣، ٢١٥، ٢١٧-٢١٩، ٢٢٢، ٢٢٤، ٢٢٤، ٢٨٤
- أنظر أيضا: الفرنجة
صموئيل (النبي): ٩٣، ٩٤
- أنظر أيضا: صموئيل
صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار: ٣٣١، ٣٩٩
- أنظر أيضا: المصرف الصهيوني للاستعمار صندوق استكشاف فلسطين: ٢٨٢
الصندوق التأسيسي لفلسطين: ٣٩١، ٣٩٢، ٣٩٧-٤٠٠
- أنظر أيضا: كيرن هيسود
الصندوق القومي اليهودي: ٣٠٦، ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٤٠، ٣٨٧، ٣٩٧، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠١
- أنظر أيضا: هكيرن هكيمات
صوبا: ٥٣٤
صوبا (مملكة): ٩٥، ٩٨
- صور: ١٤، ٦٦، ٩٥، ٩٨، ١٠٨-١١٢، ١٢٤، ١٢٥، ١٥٠، ١٦٦، ١٦٨، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٤-٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢-٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٤٢

٢٤٥، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٤

صوفى: ٥٠٨

صيدا: ١٤، ١٠٠، ١٠٨، ١١١، ١٢٤، ١٩٦-١٩٨، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٦-٢١٨، ٢٢٩، ٢٤٤-٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٨-٢٦٠، ٢٦٢،

٢٦٤، ٢٦٨، ٣٦٦، ٣٨٢

الصيداويون: ١٢٤

الصين: ١١٦، ١٤٤، ١٧٥، ٢٠٤، ٣٥٧، ٤٨١

(ض) ضبعان بن روح بن زنباع الجذامى: ١٧٧

الضبيبة: ٢٠٨

الضحاك بن قيس: ١٧٠

الضفة الغربية: ٥٤٠

ضياء بك: ٢٧٦

(ط) الطابور: ٢١٦

طافش، أحمد: ٤٣٤

طبارة، بهجت: ٥٠٩

طبرية: ١٣٨، ١٤٨، ١٥٠، ١٦٦، ١٧١، ١٧٢، ١٨٣، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٧، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٨، ٢١٩-٢٢١، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٤٩،

٢٥٧، ٢٦٤، ٢٧١، ٣٢١، ٣٣٢، ٣٤٠، ٣٨٢، ٤٠٠، ٤٦٢، ٤٧٠، ٤٧٥، ٥٢٣

طبقة فحل: ١٢٦

- أنظر أيضا: بيلا

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٠

طبنكين، يتسحاق: ٤٧٢

طراباى (آل، عائلة): ٢٤٤، ٢٤٦

طرابلس: ١٩٦، ١٩٧، ١٩٩، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٥، ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٤٢، ٢٤٤، ٢٥٤، ٢٥٩، ٢٦٢، ٣٥٣

طرسوس: ٢٦٢

طرسوس: ٢٢٩

طرقه: ٦٧

طروادة: ٨٤

طريق البحر (Via Maris): ٥٦، ٦٩، ٧٥، ١٤٩

طريق بورما: ٥٣٤

طريق تراجان الجديد (فيانوف): ١٣٨، ١٤٩، ١٥٠

طريق الحرير: ١٤٤، ١٩٣

طريق الملك: ٦٩، ١٣٢، ١٥٠

طغرل بيك (السلطان): ١٨٦

طلعت باشا: ٢٩٤، ٢٩٥

الطنطورة: ١٢٤، ١٤٩، ٢٥٠

-

أنظر أيضا: دورا

طه، سيد: ٥٣٩

طه، صالح أحمد: ٤٥٦

طوباس: ٥١٧

طوبيا العموني: ١١٤، ١١٨، ١١٩

طورانشاه (ابن الصالح أيوب): ٢٢١، ٢٢٥

طوقان (آل، عائلة): ٢٥٩، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠

طوقان، إبراهيم: ٤٣٥

طوقان، سليمان: ٤٥٣

طوقان، موسى بك: ٢٥٩

طولكرم: ٢٧١، ٤٦٠، ٤٦٣، ٤٦٤، ٤٧٦، ٥١٧، ٥٢٠، ٥٢٩

طولون: ٢٥٥

الطولونيون: ١٧٨، ١٧٩، ١٨٤، ١٨٥

طومان بي (السلطان): ٢٤١

طبيء (قبيلة): ١٨٤

طياربوس (الإمبراطور): ١٤٩

طبيئة: ٦١، ٨٣

الطبيئة: ٢٨

الطبيئة (جنوب لبنان): ٣٨٢

طيرت تسفى (مستعمرة): ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٥

- أنظر أيضا: الزراعة

طيرة الكرمل: ٥٣٣

طيوممكن، زئيف: ٣٢٤

(ظ) الظاهر سيف الدين برقوق (السلطان): ٢٢٩، ٢٣٢

ظاهر العمر الزيداني: ٦، ٢٤٧-٢٥٣، ٢٦٨، ٢٧٥

الظاهرية: ٥٤٠

(ع) عا أو سير رع أبو فيس: ٥٨

العابيرو (قبائل): ٧٣-٧٥، ٧٧، ٧٩، ٨١، ٨٩، ٩٠

- أنظر أيضا: الحاييرو؛ الشاسو؛ الشوتو؛ شوسى

العادل (أخو صلاح الدين): ٢٠٤، ٢١٥-٢١٧، ٢٢٣، ٢٢٤

العارف، عارف: ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٢

- عازورى، نجيب: ٢٩٠، ٢٩١، ٣٠١
- العاص، سعيد: ٤٦٣-٤٦٥
- عاليه: ٥٠٨، ٥١٣
- عاملة (قبيلة): ١٧٣
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨١
- عامو: ٥٦
- أنظر أيضا: غامو
- العانى، مهدي صالح: ٥١٧
- عباس، مدلول: ٥١٧
- العباسيون: ١٧١، ١٧٣، ١٧٥-١٧٨، ١٨٠، ١٨١، ١٨٥، ١٨٩، ١٩١، ٢٢٤، ٢٢٦
- أنظر أيضا: بنو العباس؛ بنو عبد الله بن عباس
- العبد، محمد صالح: ٤٧٦
- عبد الباقي، أحمد حلمي: ٤٦١، ٤٧٤، ٥٣٦
- عبد الحميد الثاني (السلطان): ٢٨٨-٢٩٣، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٣٤
- عبد الرازق، عارف: ٤٧٦
- عبد الرحمن، سليم: ٣٧٩، ٤٥٨، ٤٦٢، ٤٦٤
- عبد الرحمن بن معاوية: ١٧٨
- أنظر أيضا: صقر قريش
- عبد الرحمن الثالث (الخليفة الأموي): ١٨٢
- أنظر أيضا: الناصر
- عبد العزيز (السلطان): ٢٦٩، ٢٨٦
- عبد العزيز بن سعود: ٤٦٥
- أنظر أيضا: ابن سعود
- عبد العزيز بن مروان بن الحكم: ١٧٠
- عبد الله، (الشيخ) يوسف: ٤٥٦
- عبد الله باشا (والى دمشق): ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٨، ٢٧٥
- عبد الله بن الحسين (الأمير، الملك): ٣٤٧-٣٤٩، ٤١٢، ٤٥٣، ٤٦٥، ٤٦٧-٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٢، ٥١٨، ٥٢٦-٥٢٨، ٥٣٦، ٥٣٧
- عبد الله بن الزبير: ١٧٠، ١٧٣
- أنظر أيضا: ابن الزبير
- عبد الله بن على العباسي: ١٧٧، ١٧٨
- أنظر أيضا: بنو العباس؛ بنو عبد الله بن عباس؛ العباسيون
- عبد المجيد (السلطان): ٢٦٩، ٢٨٦
- عبد الملك بن مروان بن الحكم: ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٦

- عبد الناصر، جمال: ٥٣٩
- عبد الهادي (آل، عائلة): ٢٥٩، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠
- عبد الهادي، إبراهيم: ٣٧٩
- عبد الهادي، حسين: ٢٦١
- عبد الهادي، سليم: ٢٩٥
- عبد الهادي، عونى: ٢٩٤، ٣٦٦، ٤٤٩، ٤٥١، ٤٦١، ٤٦٨، ٤٧٤، ٤٨٢
- عبد: ١٥١، ١٥٢
- عبد، محمد: ٢٨٧، ٤٥٥
- عبدى هبة: ٩٠
- عبر نهرا: ٥، ٥٤، ١٠٨، ١١٠
- العبرانيون: ٥٣، ٥٩، ٧٥-٨٠، ٨٥، ٨٦، ١٥٥
- أنظر أيضا: القبائل العبرانية
- عيسان: ١٧٢
- العبوشى، فهمى: ٤٥١
- العبيد: ٥٣
- العبيدية: ١٤
- عتاليا (ابنة آحاب): ١٠٠-١٠٢
- عتسيون جبير: ٩٧
- عتليت: ٢١، ٢٢، ١١١، ٢٠٩، ٢١٧، ٢٢٧، ٢٢٩، ٣٦١
- أنظر أيضا: شاتو بيليرين؛ قلعة عتليت
- عثمان (آل، عائلة): ٢٥٩
- عثمان بن أرطغرل: ٢٣٧
- أنظر أيضا: غازى عثمان
- عثمان بن عفان: ١٦٧-١٦٩، ١٧٢
- العثمانيون: ٢١٤، ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٣٧-٢٤٣
- المؤرخ في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٢
- ٢٤٦، ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٤، ٢٦٧، ٢٧٠، ٢٧٤، ٢٧٦، ٢٧٧، ٢٨٤، ٢٩٠، ٢٩١، ٢٩٨، ٢٩٩، ٣٠١، ٣٠٥، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٤٧-٣٤٩، ٣٥٢
- ٣٨٤، ٣٨٦
- أنظر أيضا: الأتراك؛ بنو عثمان؛ الترك عجلون: ٢٤٥
- عجور: ٥٣٨
- عدن: ٣٤٨
- العدوان (قبيلة): ٢٧٨
- عذرة (قبيلة): ١٦١، ١٧٣

عراية: ٢٤٨

عراية البطوف: ٤٧٧

عرايى باشا، أحمد: ٢٨٩

عراد: ٥٦، ١١١

العراق: ٤، ٧-٩، ١٤، ١٦، ٢٥، ٢٦، ٢٨، ٣٧، ٤٣-٥٥، ٥٧، ٥٩، ٦٢، ٦٣، ٦٦-٧٠، ٧٦، ٧٨، ٧٩، ٨٤، ٨٩، ٩٠، ٩٦، ٩٩، ١٠٦، ١١٢، ١٤٤، ١٥٧، ١٦٠-١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٨-١٧١، ١٧٥، ١٧٦، ١٨٠، ١٨٤-١٨٦، ٢٠٠، ٢١١، ٢٤٧، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٣٤٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٧، ٣٧٣، ٣٨٤، ٤١٦، ٤٤٠، ٤٤٣-٤٤٥، ٤٤٨، ٤٧٣، ٤٧٤، ٤٨١، ٤٨٦، ٤٩١، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠٣، ٥٠٩، ٥١٦، ٥١٧

- أنظر أيضا: بلاد الرافدين؛ بلاد سومر؛ بلاد ما بين النهرين

عراق سويدان: ٥٢٩، ٥٣٨، ٥٣٩

عراق المنشية: ٥٣٧-٥٣٩

العراقيون: ٣٤٦

العرب: ٤، ١٤١، ١٤٧، ١٥٥، ١٥٨، ١٥٩، ١٦٣-١٦٥، ١٦٨، ١٧٦، ١٩٣، ٢٩٠، ٢٩٣، ٣٠٠، ٣١٨، ٣٢٤، ٣٢٩، ٣٣٩، ٣٤٠، ٣٤٥-٣٤٧، ٣٤٩-٣٥٣، ٣٦٢، ٣٦٣، ٣٦٦، ٣٧٣، ٣٧٥، ٣٧٦، ٣٧٨، ٣٨٠، ٣٨٥-٣٨٧، ٤٠٨، ٤٠٩، ٤١٣، ٤١٤، ٤١٦-٤١٨، ٤٢٠، ٤٢٦-٤٢٩، ٤٣٢-٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤٠-٤٤٢، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٨، ٤٤٩، ٤٥٥، ٤٦٠، ٤٦٣-٤٦٥، ٤٧٣، ٤٧٧، ٤٧٩، ٤٨٠، ٤٨٣-٤٨٦، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩١-٤٩٤، ٤٩٧-٥٠٠، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٠، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٨، ٥٢٢، ٥٢٣، ٥٢٦، ٥٣١، ٥٣٥

عرب (لواء): ١٣١

عرب السردية (قبيلة): ٢٤٨

العربية: ٩٧

- أنظر أيضا: تمنع عربستان: ٢٤٥

عرطوف: ٤٧٥

عررة: ٢٠٩

- أنظر أيضا: وادي عارة عرق الأحمر (ملجأ): ٢١

عرقا: ٦٦

عرقه: ١٩٦

عرقا: ٦٦

العروب (نبح): ٢٢٤

العريسي، عبد الغنى: ٢٩٤

العريش: ٢٤٥، ٢٥٦، ٣٣٤، ٣٥٠، ٣٥١، ٥١٧

عز الدين، أمين: ٥٢٣

عز الدين أيبك: ٢٢٥

- أنظر أيضا: أيبك العزازمة (قبيلة): ٢٧٨

عزرا (الكاتب): ١١٠، ١١٨

العزير (ابن صلاح الدين): ٢١٥

- العزیز باللہ (الخلیفۃ الفاطمی): ١٨٤
- العسافات (موقع): ٢٨
- الموجز فی تاریخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٣
- عسقلان: ٦٣، ٦٤، ٦٦، ٨٥، ٩٠، ١٠٢، ١١١، ١١٤، ١١٦، ١٢٥، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٨٤، ١٨٦، ١٨٧، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٩، ٢٢١
- عسکر مکرم: ١٧١
- عسل، شفيق: ٤٥٤
- العسلی، شکری: ٢٩٣، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٤٠، ٣٤١
- عشتار (الإله): ٨٦
- عشتروت: ٦٦، ٩٠
- عشتروت قرنايم: ١٠٩
- أنظر أيضا: الباشان؛ قرنايم
- عصبۃ الأمم: ٣٦٧-٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٩، ٣٨٣-٣٨٦، ٣٨٩، ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٩٦، ٣٩٨، ٤١١، ٤١٥، ٤١٨-٤٢٢، ٤٣٢، ٤٣٧، ٤٣٩، ٤٤٦، ٤٧١، ٤٩١
- عصبۃ الدفاع عن فلسطين: ٤٦٤
- عصبۃ السلام: ٤٣٦
- أنظر أيضا: حركة بريت شالوم
- عطروت (مستعمرة): ٥١٩، ٥٢٩
- العظم (آل، عائلة): ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٤٨
- العظم، أسعد باشا (والی دمشق): ٢٤٩، ٢٥٠
- العظم، سليمان باشا (والی دمشق): ٢٤٨-٢٥٠
- العظم، صادق باشا: ٢٩١
- العظمۃ، نبيه: ٤٧٤
- العظمۃ، يوسف: ٣٨٠
- عقربلا: ٢٠٩
- العقولة: ٤٤٧، ٥٢٧
- العقبۃ: ٩٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٦١، ١٩٩، ٣٤٤، ٣٥٠، ٣٥٩، ٣٦٩، ٤٧٠
- أنظر أيضا: أيلۃ
- عقربا: ١٣١
- عقرون (مستعمرة): ٨٥، ٩٤، ١٠٢، ٣٢٢
- عقيل (زعيم قبيلة الهنادی): ٢٧٩
- عكا: ٩٠، ١٠٨، ١٠٩، ١١٤، ١١٦، ١٢٤، ١٣٧، ١٤٩، ١٥٠، ١٦٣، ١٦٦، ١٦٨، ١٧٠، ١٧٢، ١٨٧، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٠، ٢٠٢، ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٩، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢٥، ٢٢٧-٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٩-٢٥٩، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٧١، ٣٤٤، ٣٣٥، ٣٣٨، ٤٦٤، ٤٧٥، ٤٧٦، ٥٠٧، ٥١٧، ٥٢٥

- أنظر أيضا: بطوليمائيس؛ سان جان داکر؛ مملكة عكا الصليبية؛ ميناء عكا

علقمه بن حكيم: ١٧٢

علقمه بن محرز: ١٧٢

العلمي، موسى: ٤٨٢، ٤٩٤

علوبه، محمد علي: ٤٨١

علي (ابن قلاوون): ٢٢٨

علي، حكمت: ٥١٧

العلي، (الشيخ) صالح: ٤٥٥

علي بك الكبير: ٢٤٧-٢٥٣

علي بن أبي طالب: ١٦٧، ١٦٩

علي بن الحسين بن علي: ٣٤٩

علي بن ظاهر العمر الزيداني: ٢٥٢، ٢٥٣

علي بن عبد الله بن عباس: ١٧٦

عماد الدين إسماعيل (ابن الأشرف): ٢١٩، ٢٢٠

عماد الدين زنكي: ٢٠٠، ٢١١

عمارات تيغارت: ٤٧٥

العمالقة: ٩٣

- أنظر أيضا: عماليق

عماليق: ٨٠

- أنظر أيضا: العمالقة

عمان: ٣٧، ١٢٦، ١٦٦، ٢٠٩، ٤٦٦، ٤٩٩، ٥٣٧

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٤

- أنظر أيضا: فيلادلفيا

عمان: ٥٤

عمانوييل الثالث (ملك إيطاليا): ٣٣٥

عمر بن الخطاب: ١٦٤، ١٦٦-١٦٨، ١٧٢

عمر بن صالح الزيداني: ٢٤٨

عمر بن عبد العزيز: ١٧٣، ١٧٧

عمرو، عبد الرحمن: ٢٧٧

عمرو، محمد: ٢٧٧

عمرو بن العاص: ١٦١-١٦٣، ١٦٨

عمري (قائد جيش بعشا): ١٠٠

- عملية براك: ٥٢٥
 عملية بن عمى: ٥٢٥
 عملية حميتس: ٥٢٣
 عملية حوريف: ٥٣٩
 عملية حيرام: ٥٣٨، ٥٣٩
 عملية داني: ٥٣٤
 عملية ديكل: ٥٣٣
 عملية شيفون: ٥٢٤
 عملية شوثير: ٥٣٤
 عملية عوفدا: ٥٣٩، ٥٤٠
 عملية غدعون: ٥٢٥
 عملية القسطل: ٥٢٢
 عملية كلشون: ٥٢٤
 عملية اللد: ٥٢٢
 عملية مافت لبوليش: ٥٣٥
 عملية مطأطى: ٥٢٤
 عملية مكابى: ٥٢٤
 عملية نحشون: ٥٢٢، ٥٢٣
 عملية هرئيل: ٥٢٣
 عملية يبوسى: ٥٢٤
 عملية يفتاح: ٥٢٤
 عملية يوآف: ٥٣٦-٥٣٨
 عمواس: ١٣١، ١٣٧، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩، ١٦٦
 - أنظر أيضا: نيكوبولس
 عمورو: ٧، ٥٤، ٧٤
 - أنظر أيضا: أمورو؛ بلاد الشام
 عمورو (قبائل): ٤٩، ٥٣، ٥٩
 العموريون: ٥، ٧، ٤٩، ٥٣-٥٧، ٥٩، ٦٦، ٦٧
 عمون: ٨٠، ٩٠
 العمونيون: ٥، ٦٦، ٨٠، ٨٣، ٩٣، ٩٥، ٩٦، ١٠١، ١٠٩، ١٥٥
 - أنظر أيضا: أبناء شيت
 عنات هار: ٥٨
 العنب: ٢٧٦

- عنتابا: ٤٦٠
- العنتاباوى، فريد: ٤٥٣، ٤٦٠
- عنجر: ٢٤٥
- عنزة (قبيلة): ٢٧٨
- العوجا: ٥٢٧، ٥٣٨
- عوض، الشيخ عطية أحمد: ٤٥٧، ٤٧٦، ٤٧٧
- العوير: ٢٠٩
- أنظر أيضا: سلع
- العى: ٦٧، ٨٠، ٩١
- أنظر أيضا: التل
- عيبال: ٢٤٢
- أنظر أيضا: جيل شامى
- عيسى (ابن بايزيد): ٢٣٩
- العيسى، حنا عبد الله: ٣٠٢
- عيسى، خليل محمد (أبو إبراهيم الكبير):
- ٤٥٦، ٤٥٧، ٤٧٦
- العيسى، عيسى داود: ٣٠٢، ٤٥٣
- العيسى، ميشيل: ٥٢٤
- العيسى، يوسف: ٣٠٢
- عيسو: ٨٠
- عيلبون: ٥٣٩
- عين التمر: ١٦٢
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٥
- عين جالود: ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٩
- عين جدى: ١١١، ١٣١، ١٥١
- عين حارود: ٤٦٣
- عين راحوب (موقع): ٢٨
- عين السلطان: ٣٥
- عين غزال: ٥٣٣
- عين غزال (موقع): ٣٨
- عين الملاحة: ٢٦-٢٨، ٣٧، ٣٨٧
- عينان (موقع): ٣٧
- عيون قارة: ٣٢١

(غ) غابنيوس: ١٢٨، ١٤٩

غازان خان محمود: ٢٣٢

غازى بن فيصل: ٤٦٥، ٤٦٧

غازى عثمان: ٢٣٧

- أنظر أيضا: عثمان بن أرطغرل

غاستنر: ٣٩٣

غاليا: ١٣٣

غاليبولي: ٣٦٠

غامو: ٥٩

- أنظر أيضا: عامو

غان شموييل (مستعمرة): ٣٣٢

غاولر، (الكولونيل) جورج: ٣١٨

غديرا (مستعمرة): ٣٢١

- أنظر أيضا: قطرة

غرانيكوس: ١١٢

غروميكو، أندريه: ٥٠٧

غريغوريوس السابع (البابا): ١٩٠، ١٩١

الغزالي (والى دمشق): ٢٤٢، ٢٤٣

غزة: ٧٠، ٧٤، ٨٥، ١٠٨، ١٠٩، ١١٢، ١١٤-١١٦، ١٢٥، ١٣٢، ١٤٧، ١٥٠، ١٥١، ١٥٦، ١٦٣، ١٦٥، ١٧٢، ١٧٤، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١٠،

٢١٢، ٢١٥، ٢١٩، ٢٢٠، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٤٢-٢٤٥، ٢٥١، ٢٥٦، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٨، ٣٥٠، ٣٥١، ٤٧٧، ٤٧٨، ٥١٧،

٥٢٩، ٥٣٦-٥٤٠

غزة البحرية: ١٤٩

- أنظر أيضا: ميوماس

الغساسنة: ١٥٨، ١٥٩، ١٧٣، ١٧٥، ١٨٩

- أنظر أيضا: بنو غسان؛ جفنة؛ غسان؛ الغسانيون

غسان (قبيلة): ١٦٧، ١٧٢

- أنظر أيضا: بنو غسان؛ جفنة؛ الغساسنة؛ الغسانيون

الغسانيون: ١٤٧، ١٥٧

- أنظر أيضا: بنو غسان؛ جفنة؛ الغساسنة؛ غسان

الغستابو: ٤٠٦

- أنظر أيضا: جهاز الاستخبارات النازى الغصين، فايز: ٣٦٦

الغصين، يعقوب: ٤٥٠، ٤٦١، ٤٧٤، ٤٨٢

الغلايينى، أحمد: ٤٥٦

غلوب، جون باغوت: ٤٩٣، ٥٢٥

- أنظر أيضا: غلوب باشا

غلوب باشا (الجنرال): ٤٩٣، ٥٢٩

- أنظر أيضا: غلوب، جون باغوت

غواتيمالا: ٥٠٦

غور الأردن: ٣، ١٣، ١٤، ٢٢، ٢٥، ٢٦، ٣٨، ٤٠، ٥٢، ٥٣، ٥٤، ١٣٢، ١٦٢، ١٧٥، ٢٧١، ٥٢٥

- أنظر أيضا: وادي الأردن

غور بيسان: ٣٠٢، ٥١٨، ٥٢٧

الغوري، إميل: ٤٥٣

غوش عتسيون (مستعمرة): ٥١٩، ٥٢٢، ٥٢٩

غوطة دمشق: ٣٥٢، ٣٥٣

غولدمان، ناحوم: ٤٠٧

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٦

غولومب، إيلياهو: ٣٦٠، ٤٠٥، ٤٠٦

غيشر (مستعمرة): ٥٢٨

غيتزبرغ، آشر: ٤٣٦

- أنظر أيضا: أحاد هعام

(ف) فابري: ٩

الفاتيكان: ١٩٠

فارس: ٤، ١٠٦، ١١٠-١١٣، ١٤٤، ١٥٦

فاروس (والي سورية الروماني): ١٣٣

فاطمة (ابنة الرسول ص): ١٨٣

الفاطميون: ١٧٨-١٨٧، ١٩٣، ١٩٥، ١٩٧-١٩٩، ٢٠٤

الفالوجة: ٥٣٩

فاليريان (الإمبراطور الروماني): ١٥٦، ١٥٧

الفاهوم، عبد الله: ٢٥٩

فحل: ٧٤، ١٦٤، ١٦٦

فخر الدين (قائد جيش الصالح أيوب): ٢٢١

فخر الدين المعنى الأول: ٢٤٤

فخر الدين المعنى الثاني: ٢٤٤-٢٤٧

فدك: ١٦١

فراج، يعقوب: ٤٥٣، ٤٦١، ٤٦٩، ٤٨٢

الفراعنة: ٤، ٥٥، ٥٦، ٦١، ٦٤، ٦٩

فرانكفورتر، فيلكس: ٣٥٨، ٣٩٠، ٤٤٥

الفرثيون: ١٢٢، ١٢٨، ١٢٩، ١٣٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٥٦

فرج (السلطان المملوكي): ٢٣١

الفرخ، خالد: ٤٥٣

فرديناند مديتشي (دوق تسكانيا): ٢٤٥

الفرس: ٦، ٧٤، ١٠٧-١١١، ١١٣، ١١٤، ١١٧، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٩، ١٤١، ١٤٤-١٤٦، ١٥٦، ١٥٧، ١٥٩، ١٧٦، ١٨٥

فرسان الهيكل: ٢٢١

- أنظر أيضا: تمبلرز؛ الهيكليون

الفرنجة: ١٨٧، ١٩٤، ٢٠٠-٢٠٦، ٢١٢، ٢١٥، ٢١٨-٢٢٠، ٢٢٢-٢٢٩، ٢٣١-٢٣٣

- أنظر أيضا: الصليبيون

فرنسا: ٦، ٧، ١٤، ٢١، ١٣٣، ١٨٧، ١٩١، ١٩٣-١٩٥، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٩، ٢٢١، ٢٤٦، ٢٤٩، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦١، ٢٦٢، ٢٦٤، ٢٨٠-

٢٨٢، ٢٩٤، ٢٩٥، ٣١٧، ٣١٩، ٣٢٥، ٣٢٦، ٣٤٤، ٣٤٥، ٣٤٧، ٣٤٩-٣٥٣، ٣٥٥-٣٥٧، ٣٥٩، ٣٦٠، ٣٦٣-٣٦٥، ٣٦٧، ٣٦٧-٣٧٥

٣٧٧-٣٨٠، ٣٩٠، ٤١٢، ٤٢٦، ٤٨٢، ٤٨٦، ٥٢٢

الفرنسيون: ٢٠١، ٢٠٢، ٢١٣، ٢٤٩، ٢٥٥-٢٥٧، ٢٨٢، ٢٩٦، ٣٢١، ٣٤٥، ٤١٦، ٤٥٥

فروة بن عمرو الجذامي: ١٧٢

فروخ (عائلة): ٢٤٦

فريدريك الأول (ملك ألمانيا): ٢١٣

- أنظر أيضا: بريوسا

فريدريك الثاني هوهنشتاوفن (قيصر ألمانيا و ملك صقلية): ٢١٧-٢٢١

الفريسيون: ١٢٢، ١٢٣، ١٢٧

فسبسيان: ١٣٧، ١٤٨، ١٤٩

الفسطاط: ١٨٣

فصائل السلام: ٤٧٩

فصائل (ابن أنتيباتر الأدمي): ١٢٨

فلافيا يوبي: ١٣٨

- أنظر أيضا: يافا؛ يوبا؛ يوبي فلسطين: ٧

- أنظر أيضا: فلسطينا

فلسطين: ٧

- أنظر أيضا: فلسطينو

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٧

«فلسطين» (صحيفة): ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦

الفلسطينيون: ٥، ٧، ٨١-٨٣، ٨٥، ٨٦، ٩٢-٩٥، ١٠١، ١٢٥

فلوريوس: ١٣٦، ١٣٧

فندق الملك داود (القدس): ٥٠١

فوج أجنادين: ٥١٦

- أنظر أيضا: كتيبة أجنادين

فوج جبل العرب: ٥١٩

- أنظر أيضا: فوج الدروز

فوج الحسين: ٥١٦، ٥١٧

فوج حطين: ٥١٦، ٥١٧

فوج الدروز: ٥١٦

- أنظر أيضا: فوج جبل العرب

الفوج العلوي: ٥١٧

فوج القادسية: ٥١٦، ٥١٧

فوج اليرموك الأول: ٥١٦-٥١٨

فوج اليرموك الثاني: ٥١٦-٥١٨

فوج اليرموك الثالث: ٥١٦، ٥١٧

فوشيل: ٣٨٥

الفولة: ٢٠٩، ٢٥٧، ٣٤٠

فون كريسنشتاين، (الكولونيل) كريس: ٣٤٥

فون مولتكه، هلموت: ٢٦٣

فوهلروت، يان: ١٦

فيصل بن الحسين: ٣٤٨-٣٥٣، ٣٥٩، ٣٦٣-٣٦٧، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨٠، ٤١١، ٤٥٠

فيلاذلفيا: ١٢٦

- أنظر أيضا: عمان

فيلاذلفيوس: ١١٥

- أنظر أيضا: بطليموس الثاني

فيلبس (ابن هيرودوس): ١٣٢، ١٣٣

الفيلق الألماني الآسيوي: ٣٥١

فيلكس (الحاكم الروماني): ١٣٦

فيليب (والد الإسكندر): ١١٢

فيليب الثاني (ملك فرنسا): ٢١٢، ٢١٣

- أنظر أيضا: أغسطس فينيسيا: ١٩٣، ٢١٦، ٢٢١

- أنظر أيضا: البندقية؛ جمهورية سان مارك فينيقيا: ١٠٨، ١٠٩

الفينيقيون: ٥، ٥٧، ٥٩، ١٠٠، ١٠٨، ١١٠، ١١٢، ١١٤، ١٢٤، ١٤١

فيينا: ٢٤٦، ٣٢٨، ٣٣٨

- (ق) القائم (الخليفة العباسي): ١٨٦
 قاش: ٥٥، ٦٠، ٦٧، ٦٩-٧١، ٧٤، ١١٤
 - أنظر أيضا: تل النبي مند؛ كاداسا
 قاقون: ٢٠٩، ٢٢٧، ٢٢٩، ٢٤٢
 قانصوه الغوري: ٢٣٢، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٤
 القاهرة: ١٨٤، ١٩٣، ١٩٨، ٢٠٣، ٢١١، ٢١٧، ٢١٩-٢٢١، ٢٢٦، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٨٨، ٢٩٥، ٣٤٣، ٣٤٤، ٣٤٧-٣٤٩، ٣٥١، ٣٦٩، ٣٧١، ٣٧٢، ٤١٢، ٤١٦، ٤٥٤، ٤٨١، ٤٨٥، ٤٩٠، ٤٩٣، ٤٩٩، ٥١٠، ٥١٥، ٥٣٦
 - أنظر أيضا: قاهرة المعز
 قاهرة المعز: ١٨٣
 - أنظر أيضا: القاهرة
 القاوقجي، فوزي: ٤٦٤، ٤٦٧، ٥١٧-٥١٩، ٥٢٧
 قايتباي: ٢٣٢، ٢٣٩
 القبائل الإسرائيلية: ٩٠-٩٣، ٩٥، ٩٦
 - أنظر أيضا: أبناء إسرائيل؛ بنو إسرائيل؛ الإسرائيليون
 القبائل العبرانية: ٨٦
 - أنظر أيضا: العبرانيون
 الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٨
 قبة الصخرة: ١٦٥، ١٧٣، ١٧٤، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٥٩، ٤٣٣
 قبر صلاح الدين: ٢٢٧
 قبرص: ١٠٨، ١١٦، ١٦٩، ١٨١، ٢٠٥، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢١، ٢٢٧
 قبيبة: ٢٠٩
 قدس: ١١٤، ١٦٦، ٥٢٨
 القدس: ٨، ٢٥، ٣٧، ٥٧، ١١١، ١٤٩، ١٥١، ١٦٠، ١٦٤-١٦٦، ١٧١-١٧٤، ١٨٠، ١٨٢، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ١٩٦-١٩٨، ٢٠٢، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦-٢٢١، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٢٩، ٢٣٠، ٢٣٣، ٢٤١-٢٤٤، ٢٥٩، ٢٦١-٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٧-٢٧٧، ٢٨٠-٢٨٢، ٢٩١، ٢٩٨، ٣٠١، ٣٠٣، ٣٠٤، ٣٠٩، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٣١-٣٣٣، ٣٤٢، ٣٥١، ٣٥٣، ٣٧١، ٣٧٦، ٣٧٧، ٣٨١، ٣٩٨، ٤٠٠، ٤٠٤، ٤١١، ٤١٥، ٤١٧، ٤١٨، ٤٢٨-٤٣١، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٣٧، ٤٥٢، ٤٥٣، ٤٦٢-٤٦٤، ٤٧٠، ٤٧٣-٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨٠، ٤٨١، ٤٨٤، ٤٨٦، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٣، ٤٩٦-٤٩٨، ٥٠٠، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٥، ٥١٦، ٥١٨-٥٢٠، ٥٢٢-٥٢٥، ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٢، ٥٣٤، ٥٣٦، ٥٤٠
 - أنظر أيضا: أورشليم؛ أورشالم؛ إيليا كابيتولينا؛ إيلياء؛ بيت المقدس؛ سالم؛ مدينة داود؛ ييوس؛ يروشالايم
 القرامطة: ١٧٩، ١٨٣-١٨٦
 قرطاجنة: ١٢٧
 قرقر: ١٠١
 القرم: ٢٧٦، ٢٨٠، ٣٢٦
 القرماشي: ١٤

قرنايم: ١٠٢

- أنظر أيضا: عشروت قرنايم

قره قرم: ٢٢٢، ٢٢٦

قريش: ١٦٠، ١٦١، ١٦٦، ١٩٣ الموجز في تاريخ فلسطين السياسي؛ ص ٥٨٨

قسام، (الشيخ) عز الدين: ٤٥٥-٤٥٩، ٤٦٣، ٤٧٥

القسطل: ٥٢٢

قسطنطين الكبير (الأول): ٨، ٩، ١٣٣، ١٣٥، ١٤٠، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٧، ١٥١، ١٥٢

القسطنطينية: ١٤٠-١٤٢، ١٤٥، ١٥١، ١٦٢، ١٦٩، ١٧٧، ١٨٠، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢-١٩٥، ٢٠٠-٢٠٤، ٢١٥، ٢١٦، ٢٣٨، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٤

٢٩٣، ٣٥٠

- أنظر أيضا: إستنبول؛ إسطمبول؛ إسلامبول

قسطينة: ٣٢١

- أنظر أيضا: بئر طوفيا

قسيس، سعد الله: ٤٥٤

قصر البردويل: ٢٠٨-٢٠٩

- أنظر أيضا: قصر بولدوين

قصر بولدوين: ٢٠٨

- أنظر أيضا: قصر البردويل

قصر العطاره: ٢٠٩

قصر عمرة: ١٧٥

قضاة (قبيلة): ١٦٧، ١٧٢

قطب، (الشيخ) شقيب: ٤٨٠

قطر الندى (ابنة خمارويه): ١٧٩

قطرة: ٣٢١

- أنظر أيضا: غديرا

قطز: ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٢٩، ٢٣١

القطمون: ٥٢٤

قطنا: ٥٥، ٦٠، ٦٢، ٦٧، ٧٠، ٧٥، ٥٠٩، ٥١٦

- أنظر أيضا: تل المشرفة

القعدان، (الشيخ) سعد: ٢٥٩

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٨٩

قفصة: ٢٦، ٢٨

القفقازيون: ٢٥٣

القفقاس: ٣٤٥

قلاوون الألفى: ٢٢٧، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢

– أنظر أيضا: الملك المنصور سيف الدين قلاوون

قلعة أرناول: ١٩٨

قلعة أنطونيا: ١٣١

قلعة أوما: ٥٣

قلعة بلانشغارد: ١٩٨

قلعة بوفور: ٢١٨

– أنظر أيضا: الشقيف؛ قلعة الشقيف

قلعة بيسان: ٧٤

قلعة جبلين: ١٩٨

قلعة الحصن: ١٢٦

– أنظر أيضا: هبوس

قلعة حلب: ٢٤١

قلعة دارون: ١٩٨، ٢٠٣

قلعة سانور: ٢٧٥

– أنظر أيضا: سانور

قلعة الشقيف: ٢١٨، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٧

– أنظر أيضا: الشقيف؛ قلعة بوفور

قلعة صفد: ٢٠٩، ٢١٩، ٢٢٧

قلعة عتليت: ٢١٦

– أنظر أيضا: شاتو بيليرين؛ عتليت

قلعة القرن: ٢٠٩

– أنظر أيضا: قلعة القرنين؛ قلعة مونتفورت

قلعة القرنين: ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٧

– أنظر أيضا: قلعة القرنين؛ قلعة مونتفورت

قلعة لاجاش: ٥٣

قلعة محمد على: ٢٦٠

قلعة مسادا: ١٣٢، ١٣٨

قلعة مونتفورت: ٢١٠، ٢١٧، ٢٢٧

– أنظر أيضا: قلعة القرنين؛ قلعة القرنين قلعة ييلن: ١٩٨

قلعة يودفات: ١٣٧

قلقيبية: ٤٦٠، ٥٢٠

قلنسوة: ٢٠٩

قمبيز (ملك فارس): ١٠٦، ١٠٧، ٥

قنات: ١٣٠

قناة السويس: ٧، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٦٨، ٣١٦، ٣١٩، ٣٢٧، ٣٣٠، ٣٣٤، ٣٤٣، ٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٩، ٣٦١، ٣٧٢، ٣٧٤، ٤١٦، ٤٦٦، ٥٠٢

قناتا: ١٢٦

- أنظر أيضا: قنات

قنسرين: ١٦٦

- أنظر أيضا: جند حمص قنات: ١٢٦

- أنظر أيضا: قناتا

قوات الجهاد المقدس: ٥٢٢

- أنظر أيضا: جيش الجهاد المقدس

قوات الصاعقة التركية: ٣٥١

- أنظر أيضا: جيش المغاوير التركي

قوات الفدائيين المصريين (الإخوان المسلمين):

٥٣٠

- أنظر أيضا: كتائب الإخوان المسلمين المصرية

قوات الميدان: ٥١١، ٥١٣، ٥٢٠

- أنظر أيضا: حيس

قوة الحراسة: ٥٢٠

- أنظر أيضا: همشمار

القوقاز: ٥٧

قولة: ٢٦٠

القوميون العرب: ٢٩١-٢٩٦، ٣٤٧-٣٤٩، ٣٥١، ٣٥٢، ٤٤٨-٤٥١

قونيا: ١٨٩، ٢٠٣، ٢٦١

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٠

- أنظر أيضا: أيكونيوم

القوية: ١٥٠

قديم: ٨٠، ٩٣

القيريغيز: ١٨٦

القيروان: ١٧١، ١٨٢

قيساريا: ٩، ١٢٤، ١٢٦، ١٣٢، ١٣٦-١٣٨، ١٤٧-١٥١، ١٦٣، ١٦٤، ١٦٦، ١٧٠، ١٨١، ١٩٦، ١٩٧، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٦، ٢١٧

٢٢٧

- أنظر أيضا: قيصريه

القيسية: ١٧٧، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٧٦

- قيصرية: ١٢٤، ١٢٦، ١٣٢، ١٤٩
- أنظر أيضا: قيساريا
- قيصرية فيلبى: ١٥٠
- أنظر أيضا: بانياس
- القين (قبيلة): ١٧٣
- (ك) كبادوكيا: ١٢١، ١٤٥
- كابول (قضاء): ٩٨
- كاتسنلسون، بيرل: ٤٧٢
- الكاثوليك: ٢٨٠
- كاداسا: ١١٤
- أنظر أيضا: تل النبي مند؛ قادش كادوغان، ألكسندر: ٥٠٦
- كاسيوس: ١٢٨
- الكاشيون: ٧٠
- أنظر أيضا: الكوشيون
- كافور الإخشيدى: ١٨٠
- كالفارسكى، حايم مرغليت: ٣٢٥، ٤٣٦
- كالمان، موشيه: ٥٢٥
- كاليشر، (الحاخام) تسفى هيرش: ٣١٨، ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٧
- الكامل (ابن العادل): ٢٠٤، ٢١٧-٢٢٠، ٢٢٣
- كامل، مصطفى: ٢٨٨، ٢٨٩
- كاهان، صادوق: ٣٠٤
- كتائب الإخوان المسلمين المصرية: ٥١٧
- أنظر أيضا: قوات الفدائيين المصريين
- الكتائب العبرية: ٣٥٩
- كتبغا نوين: ٢٢٢، ٢٢٦
- كتيبة أجنادين: ٥٢٤
- أنظر أيضا: فوج أجنادين
- كتيبة البغالة: ٣٦٠
- كتيبة القناصة الملكية: ٣٦٠
- كرانا: ٥٥
- كربلاء: ٣٤٦
- كرتيا: ٥٣٥
- الكرجى، عثمان: ٢٤٩-٢٥١

- كرد علي، محمد: ٣٠٣، ٣٤٧
 كردستان: ١٦
 الكرك: ١٥٠، ١٩٩، ٢٠٣-٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٧-٢٢١، ٢٢٦، ٢٢٧
 كر كيميش: ٦٢، ٧٠، ٧١، ٧٥، ٨٥
 «الكرمل» (صحيفة): ٣٠٢، ٣٠٣، ٣٠٥، ٣٠٦
 كرمل، موشيه: ٥٢٣
 كرنب: ١٥١، ١٥٢
 كرويسوس (ملك ليديا): ١٠٥
 كريت: ٥٨، ١٦٩
 كريم خان زند: ٢٥٤
 كسار عقيل: ١٦، ٢٢
 كسرى أنو شروان (ملك فارس): ١٤٥
 كسله: ٥٣٤
 الكعبة: ١٥٩، ١٧٤
 الكف الأخضر (تنظيم): ٤٣٥، ٤٣٦
 كفار داروم (مستعمرة): ٥٢٩، ٥٣٠، ٥٣٥
 الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩١
 كفار طابور (مستعمرة): ٣٢٥
 كفار غلعادي (مستعمرة): ٣٨٢
 كلايتون (الجنرال): ٣٦٣، ٣٧١، ٣٧٢
 كلب (قبيلة): ١٦٩، ١٧٠، ١٧٣
 كلج أرسلان (أمير قونيا السلجوقي): ٢٠٣
 الكلدانيون: ٩٨، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٩
 - أنظر أيضا: البابليون الجدد
 كلوديوس: ١٣٦
 كليبر (الجنرال): ٢٥٧
 كليرفو، بيرنارد دو: ٢٠١
 كليرمونت: ١٩٣، ١٩٤
 كليمنصو، جورج: ٣٦٤
 كليوباترا (ابنة أنطيوخوس الكبير): ١٢٥، ١٢٩، ١٣٠
 كمال، واصف: ٤٦٠
 كناخني (كناخني): ٦٧
 - أنظر أيضا: كناخني

- كناخي (كناخنا): ٧
- أنظر أيضا: كناخني
- كنانة (قبيلة): ١٦٧، ١٧٣
- كندا: ٣٦٠، ٥٠٦
- كندة (قبيلة): ١٧٣
- الكنعانيون: ٥، ٨، ٤٩، ٥٣، ٥٧، ٥٩، ٦١، ٦٢، ٦٥، ٦٦، ٦٨، ٦٩، ٧٥، ٧٦، ٨٣، ٨٥، ٨٦، ٩٢
- أنظر أيضا: اليوسيون
- كثيرت (مستعمرة): ٣٢٥، ٣٣١
- كنيسة البشارة: ١٤٣، ١٥١
- كنيسة سان جورج: ٢٠٥، ٢٠٩
- كنيسة الصعود: ١٤٣، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٢
- كنيسة غزة: ١٥١
- كنيسة القديس يوحنا: ١٧٤
- كنيسة القديسة صوفيا: ٢٣٩
- كنيسة القيامة: ١٤٣، ١٥١، ١٨٢، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٤، ٢٢٠
- كنيسة المهد: ١٤٣، ١٥١، ١٩٢
- كهف الدوارة: ١٦
- كهلان (قبيلة): ١٧٢، ١٨٤
- الكواكبي، عبد الرحمن: ٢٩٠، ٢٩٥
- كوبيريلي (آل): ٢٤٦
- كوتشوك، أحمد (والى دمشق): ٢٤٦
- كورش (أمير فارس): ١٠٦، ١٠٧، ١٠٩، ١٤٦
- كوشو: ٦٦
- الكوشيون: ٧٠
- أنظر أيضا: الكاشيون
- الكوفة: ١٧١
- كوكب الهوى: ٢٠٩، ٢١٩
- كوكبا: ٥٣٥
- كوكس (الحاكم العسكري): ٤٠٤
- كوكس، بيرسى: ٣٥١
- الكوم: ١٤، ٢٨
- كونراد الثالث (ملك ألمانيا): ٢٠١، ٢٠٢
- كونستانتين الثاني: ١٤٣

الكونغرس الأميركي: ٤٨٩، ٤٩٥، ٤٩٦

الكويت: ٣٤٨

كيتشنر (اللورد): ٢٩٦، ٣٤٤، ٣٤٨

كيرزون (اللورد): ٣٨٣، ٣٨٥، ٤١٥

كيرن هيسود: ٣٩١، ٣٩٧

– أنظر أيضا: الصندوق التأسيسي لفلسطين

كيزيلرماك: ١٠٥

كيش: ٤١٠

كيشنيف: ٣٣٠

الكيلاي، رشيد عالي: ٤٩١، ٤٩٣

كيليكيا: ١٨١، ٣٥٠

كينيا: ٣٣٤

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٢

(ل) لاختيش: ٦٠، ٦٣، ١٠٢، ١٠٩-١١١، ١١٤

اللاذقية: ٢٩٨

لارسا: ٥٥

لازار (مؤسسة): ٣٥٥

لالا شاهين: ٢٣٨

لانسنغ: ٣٦٥

لانكين، إيلياهو: ٤٩٠

لاهاران، إرنست: ٣١٧

لاهاي: ٣٣٧، ٥٠٨

لايش: ٦٣

– أنظر أيضا: تل القاضي

لبعايو: ٩٠

لبنان: ١٤، ١٦، ٢١، ٢٥، ٢٨، ٣٧-٣٩، ٤٨، ٥٦، ٥٩، ٧٤، ٩٠، ١٦٦، ١٩٦، ٢٠٥، ٢١١، ٢١٥، ٢٢٩، ٢٤٤-٢٥٠، ٢٥٣، ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢،

٢٦٥، ٢٦٨-٢٧٠، ٢٧٥، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٨٦، ٢٩٥، ٣٤٤، ٣٤٦، ٣٥٠، ٣٥٣، ٣٦٦، ٣٧٣، ٣٧٤، ٣٨٢، ٣٨٤، ٣٨٣، ٣٨٨، ٤٤٠، ٤٦٨، ٤٦٩،

٤٧٤، ٤٧٦، ٤٧٧، ٤٨١، ٤٩٣، ٤٩٤، ٥٠٣، ٥٠٦، ٥٠٨، ٥٠٩، ٥١٦-٥١٨، ٥٣٨، ٥٣٩

اللبنانيون: ٣٥١، ٤٠٠

لبو: ٦٦

اللجان الشعبية الفلسطينية: ٤٧٣

اللجان القومية في فلسطين: ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٦٣، ٤٦٧، ٤٧٤، ٥١٤، ٥١٥

لجنة الأحزاب: ٤٥٨، ٤٥٩

لجنة الأمم المتحدة الخاصة بفلسطين (أنسكوب): ٥٠٦-٥٠٨

اللجنة الأميركية: ٣٨٣

- أنظر أيضا: لجنة كنج - كرين

اللجنة الأنكلو - أميركية: ٤٩٨-٥٠٤، ٥١١، ٥٢١

لجنة بالين: ٣٨١، ٤٢٠

لجنة البراق: ٤٤٠

اللجنة البرلمانية المصرية: ٤٨٢

لجنة بيل: ٤٦٦-٤٧٣، ٤٨٠

- أنظر أيضا: اللجنة الملكية للتحقيق

لجنة التقسيم: ٤٨١، ٥٢١، ٥٢٢

- أنظر أيضا: لجنة و ودهيد

اللجنة التنفيذية الصهيونية: ٥١١

اللجنة التنفيذية العربية: ٤١٢-٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٣٤، ٤٣٥، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٨-٤٥٠، ٤٥٣

لجنة التوزيع المشتركة اليهودية الأميركية: ٤٠٧

لجنة الدفاع عن فلسطين (سورية): ٤٧٣، ٤٧٤

لجنة الدفاع عن فلسطين (العراق): ٤٧٤

اللجنة السياسية لجامعة الدول العربية: ٥٠٨، ٥١٠، ٥٢٢، ٥٣٥

لجنة شو: ٤٣٨-٤٤٠، ٤٤٢

اللجنة العربية العليا: ٤٥٣، ٤٥٤، ٤٦١، ٤٦٤-٤٦٩، ٤٧١، ٤٧٣، ٤٨٣، ٥٠٣

اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية:

٥٠٩، ٥١٣، ٥١٥-٥١٧

لجنة فلسطين الأميركية: ٤٨٩

اللجنة الفنية العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية: ٥٠٨

لجنة كنج - كرين: ٣٦٧، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٧-٣٧٩

- أنظر أيضا: اللجنة الأميركية

اللجنة المركزية للجهاد الوطني في فلسطين:

٤٧٦

اللجنة الملكية للتحقيق: ٣٥٦، ٤٦٥، ٤٦٧

- أنظر أيضا: لجنة بيل

لجنة المندوبين الصهيونية: ٣٦٨-٣٧٢، ٣٧٦، ٣٨٩

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٣

لجنة هايكرافت: ٤١٣-٤١٥، ٤٢٠

لجنة الهجرة غير الشرعية: ٤٠٦

- أنظر أيضا: الموساد؛ هموساد لعلياه بيت لجنة الهدنة: ٥٢٢

لجنة الوفود اليهودية: ٤٠٧

لجنة وودهديد: ٤٨٠

- أنظر أيضا: لجنة التقسيم للجنة اليهودية الأميركية: ٤٤٣

اللجون: ١٣٩، ١٤٩، ١٥٠، ١٧٢، ١٨٠، ٢٠٩، ٢٤٢، ٢٤٤-٢٤٦، ٢٤٨

- أنظر أيضا: ليجيو؛ مجدو

اللحام (عائلة): ٢٨٠

لخم (قبيلة): ١٦٧، ١٧٢، ١٦٧

اللخميون: ١٥٧، ١٥٩، ١٨٩

- أنظر أيضا: المناذرة

اللد: ١١٩، ١٣١، ١٤٨-١٥٠، ١٦٦، ١٧٢، ١٧٥، ٢٠٣، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٩، ٢٤٢، ٢٤٩، ٢٧١، ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٨، ٢٧٩

٥١٥، ٥٢٢، ٥٣٠، ٥٣٤

- أنظر أيضا: ديوسبولس؛ مطار اللد اللطامنة: ١٤

اللطرون: ١٩٨، ٢٠٩، ٢١٤، ٥٢٣، ٥٢٤، ٥٢٩، ٥٣٤

لفتة: ٤٣٥

لندن: ٢٨٦، ٣٣٠-٣٣٢، ٣٤١، ٣٤٣، ٣٥٣، ٣٥٤، ٣٥٧، ٣٦٠، ٣٦١، ٣٦٩-٣٧٢، ٣٨٢، ٣٨٣، ٣٨٧، ٣٨٩، ٣٩٠، ٣٩٢-٣٩٤، ٣٩٦-٤٠٠

٤٠٧، ٤٠٩، ٤١٤، ٤١٥، ٤١٧-٤١٩، ٤٢١، ٤٢٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٢٨-٤٣٠، ٤٣٥، ٤٣٧، ٤٤٠، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٥٩-٤٦١، ٤٦٤، ٤٦٦، ٤٦٨

٤٧٣، ٤٧٥، ٤٧٨-٤٨٢، ٤٨٥، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٦-٤٩٩، ٥٠٤، ٥٠٨، ٥١٣

لواء ألكسندروني: ٥٢٠، ٥٢٣، ٥٢٤

لواء شفيح: ٥٢٠

لواء عتسيوني: ٥٢٠

لواء غفعاتي: ٥٢٠، ٥٢٢-٥٢٤

لواء غولاني: ٥٢٠، ٥٢٣

لواء كرملي: ٥٢٠، ٥٢٣

لواء كرياتى: ٥٢٠، ٥٢٣

لواء المشاة الأول السورى: ٥٢٨

اللواء المصرى الثانى: ٥٣٠

لواء هرتيل: ٥٢٠

لواء هنيغف: ٥٢٠

لواء يفتاح: ٥٢٠

لويبة: ٢٤٩، ٢٥٧

لوجال زاغيسى: ٥٣، ٥٤

لورنس (ضابط الاستخبارات البريطانى): ٣٥٠، ٣٥١، ٣٦٩

- لوزينيان، غى دو: ٢١٣، ٢١٤
 لوط: ٧٨، ٩٣
 لوك، هارى: ٤٣٥
 لويس السابع (ملك فرنسا): ٢٠١، ٢٠٢
 لويس التاسع: ٢٠٩، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٥
 ليبيا: ٨٣، ٨٤، ٢٩٥، ٣٤٥، ٥١٧
 ليجيو: ١٣٩، ١٤٩
 - أنظر أيضا: اللجون؛ مجدو
 ليحي (عصابة): ٥٢١، ٥٣٦
 - أنظر أيضا: شتيرن
 ليديا: ١٢٥
 لسياس (القائد): ١٢٠
 ليلينبلوم، موشيه ليب: ٣٢٠
 لينش، وليام ف: ٢٨٢
 لينين: ٣٥٢
 ليو الثالث (الإمبراطور): ١٨٠
 الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٤
 (م) مادبا: ١٢٢
 المأمون (الخليفة): ١٧٨، ١٨١
 مار الياس: ١٠١
 - أنظر أيضا: إلباهو؛ الخضر
 الماراتون: ٧٤
 مارشال، (الجنرال) جورج: ٤٨٩
 ماركس، كارل: ٣١٩
 ماركوس: ٥١٢
 ماركوس أنطونيوس: ١٣١
 - أنظر أيضا: أنطونيوس
 ماركوس أوريليوس (الإمبراطور الرومانى):
 ١٣٨، ١٣٩
 ماري: ٧، ٤٨، ٥٠، ٥١، ٥٣، ٥٥، ٥٦، ٥٧، ٦٣، ٦٤، ٦٥، ٧٧، ٧٩
 - أنظر أيضا: تل الحريرى
 ماريسا: ١١٤
 - أنظر أيضا: تل صندحة

- ماضى (آل): ٢٤٨
- الماضى، معين: ٣٧٩، ٤٥١، ٤٧٦
- ماغنس، يهودا: ٤٣٦
- مالطا: ٢١٠، ٢٥٥، ٢٦٤
- مالك: ١٣٠
- أنظر أيضا: مالكوس
- مالكوس (ملك الأنباط): ١٣٠
- أنظر أيضا: مالك
- المالكية: ٥٢٧، ٥٢٨
- مانويل (إمبراطور بيزنطة): ٢٠١-٢٠٣
- مانيتو (المؤرخ): ٥٧، ٦١
- ماير (مؤسسة): ٣٥٥
- المبرقع اليماني: ١٧٨
- متياهو (ابن شمعون الحشموني): ١٢١
- متياهو الحشموني: ١١٩-١٢١
- مترى، عبد الله: ٤٥٤
- مترى، ميشيل: ٤٥٨
- متسيه (مستعمرة): ٣٢٥
- متسوبا (مستعمرة): ٥٢٥
- المتوكل (الخليفة العباسي): ١٨١، ٢٤١
- متولا (مستعمرة): ٣٢١
- أنظر أيضا: المطله
- المثلث: ٥٣٣، ٥٤٠
- المثنى بن حارثة الشيباني: ١٨٤
- مجد الكروم: ٥٣٣
- المجدل: ٥٢٧، ٥٣٠، ٥٣٧، ٥٣٨
- مجدل (لواء): ١٣١
- مجدل شمس: ٥١٧
- مجدل يابا: ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٩
- مجدو: ٣٨، ٤٠، ٤٣، ٤٧، ٧١، ٧٥، ٩٠، ٩٧، ١٠٢، ١١٠، ١١١، ١٣٩، ١٤٩، ١٦٦
- أنظر أيضا: اللجون؛ ليجيو
- المجر: ٢٣٨، ٣٢٨
- المجلس الإسلامى الأعلى: ٤٢٨، ٤٢٩، ٤٥٢، ٤٥٤، ٤٥٥، ٤٧٤

- المجلس الأعلى للحلفاء: ٣٨٤، ٣٨٥، ٤٢٥
- المجلس الاقتصادي و المالي: ٣٩٩
- مجلس الأمن: ٥٠٤، ٥٠٨، ٥٢١، ٥٢٢، ٥٣١، ٥٣٥
- المجلس التشريعي لفلسطين: ٤٢٠، ٤٢٣، ٤٢٥-٤٢٧، ٤٤٤، ٤٤٥، ٤٥٩
- مجلس الشيوخ الأميركي: ٣٦٨، ٤٢١، ٤٨٩، ٤٩٥
- مجلس العموم البريطاني: ٣٨٥، ٤١٦، ٤١٩، ٤٣٨، ٤٤٠، ٤٤٥، ٤٦٧، ٤٨٢، ٤٩٢، ٤٩٩، ٥٠٠
- أنظر أيضا: البرلمان البريطاني
- مجلس اللوردات البريطاني: ٣٨٥، ٤١٦
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٥
- ٤١٨، ٤١٩، ٤٩٢
- مجلس النقد الفلسطيني: ٤٣٠
- مجلس النواب الإسرائيلي: ٤٣٦
- أنظر أيضا: أسيفات هنفحاريم
- مجلس النواب الأميركي: ٣٦٨، ٤٢١، ٤٨٩
- المجلس الوطني الفلسطيني: ٥٣٦، ٥٣٧
- مجمع خلکیدون: ١٤٤
- مجموعه القمصان الخضراء: ٥١٧
- المجنون (شيخ صوفى): ٢٣١
- محطة التجارب الزراعية (عتليت): ٣٦١، ٣٩٧
- محطة ضخ المياه (بيتح تكفا): ٥٢٩
- محكمة العدل الدولية (لاهاي): ٥٠٨
- محمد (النبي ص): ١٦٠
- أنظر أيضا: الرسول (ص)
- محمد (ابن بايزيد): ٢٣٩
- محمد الثاني: ٢٣٩
- أنظر أيضا: شلبي؛ محمد الفاتح
- محمد الثالث: ٢٤٤
- محمد الرابع: ٢٤٦
- محمد الخامس رشاد (السلطان): ٢٩٢
- محمد صقلي (وزير سليم الثاني): ٢٤٤
- محمد الفاتح: ٢٣٩
- أنظر أيضا: شلبي؛ محمد الثاني محمد قبرصلى باشا: ٢٧٦، ٢٧٧
- محمد بن رائق: ١٧٩

- محمد بن طنج: ١٧٩
 - أنظر أيضا: الإخشيد
 محمد بن علي العباسي: ١٧٦
 محمد بن فروخ: ٢٤٥
 محمد علي باشا: ٧، ٢٥٨-٢٤٥، ٢٦٩، ٢٧٩، ٢٨٤-٢٨٦، ٣١٦، ٣١٨، ٣٢٦، ٣٢٧، ٣٤١-٣٤٣
 المحمرة: ٣٨٢
 - أنظر أيضا: حمارة
 المحمصاني، محمد: ٢٩٤
 محمود الثاني (السلطان): ٢٥٨-٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٨٦
 محمود شوكت: ٢٩٢
 المحيط الأطلسي: ٣، ٣٤٣، ٤٨٧
 المحيط الهادي: ٤٨٧
 المحيط الهندي: ٣، ٣٤٨، ٣٦٦، ٤٧٤
 مخلص، عبد الله: ٣٠٣، ٣٠٤، ٤٥٤
 مدحت باشا: ٢٩٠
 مدرسة أثينا: ١٥٢
 مدرسة الإسكندرية: ١٥٢
 المدرسة الإسلامية (حيفا): ٤٥٥
 المدرسة الأشرفية: ٢٣١
 المدرسة الأفضلية: ٤٤٠
 المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية: ٢٨٢
 المدرسة الأمينية: ٢٣١
 مدرسة أنطاكيا: ١٥٢
 المدرسة الباسطية: ٢٣١
 المدرسة التنكزية: ٢٣١
 المدرسة الجاولية: ٢٣١
 المدرسة الجوهريّة: ٢٣١
 المدرسة الحسنية: ٢٣١
 مدرسة الحقوق (بيروت): ١٤١، ١٤٧، ١٥٢
 المدرسة الخاثونية: ٢٣١
 المدرسة الدوادارية: ٢٣١
 المدرسة الزراعية: ٣١٩
 - أنظر أيضا: مكفي إسرائيل

- المدرسة السلامية: ٢٣١
- المدرسة الصلاحية: ٢٣١، ٢٢٤
- المدرسة العثمانية: ٢٣١
- مدرسة غزة: ١٥٢
- المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية: ٢٨٢
- مدرسة القسطنطينية: ١٥٢
- المدرسة الكريمة: ٢٣١
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٦
- المدرسة المعظمية: ٢٣١
- المدرسة الملكية: ٢٣١
- المدرسة الوجيهية: ٢٣١
- المدفعي، جميل: ٢٩٦
- مدينة داود: ٨
- أنظر أيضا: أورشليم؛ أورشالم؛ إيليا كابتولينا؛ إيلياء؛ بيت المقدس؛ سالم؛ القدس؛ ييوس؛ يروشالايم
- المدينة المنورة: ١٦٠، ١٦٨، ١٦٩، ١٧٤، ٢٠٤
- أنظر أيضا: يثرب
- المدينيون: ٨٣
- مذحج (قبيلة): ١٦٧، ١٧٣
- «مرآة الغرب» (صحيفة): ٣٠٣
- مراد الأول: ٢٣٨
- مراد الثاني: ٢٣٩
- مراد الثالث: ٢٤٤
- مراد الرابع: ٢٤٥، ٢٤٦
- مرج ابن (بني) عامر: ٣٨، ٤٠، ٥٢، ٦٣، ٧٥، ٨٥، ٩١، ٩٢، ٩٤، ١٠٣، ١٢٤، ١٣٩، ١٤٩، ١٥١، ١٦٢، ١٧٣، ٢٠٤، ٢٠٩، ٢٢٢، ٢٢٦، ٢٤٨
- ٢٤٩، ٢٥٧، ٣٠٤، ٣٢٤، ٣٣٢، ٣٤٠، ٤٤٧، ٤٦٣، ٥٢٠، ٥٢٣، ٥٢٥، ٥٣٣
- مرج دابق: ٢٤٠، ٢٤١
- مرج الصفر: ٢٣٢
- مرج قنا: ٧١
- مرحافيا (مستعمرة): ٣٠٤، ٣٣٢، ٣٤٠
- المرداسيون: ١٨٦
- مردم، جميل: ٢٩٤
- مرعش: ١٨١
- مرنفتاح: ٨١، ٨٤، ٨٥، ٩٢

- مروان بن الحكم: ١٧٠، ١٧٣
- مروان بن محمد: ١٧٣، ١٧٦، ١٧٧
- المربيط (موقع): ٢٨، ٣٦
- مريغولد، ناثن: ٤٤٥
- مريم الحشمونية (زوجة هيرودوس): ١٣٠، ١٣٢
- المزيريب: ٢٥٩
- مسادا (مستعمرة): ٥٢٨
- المستضيء (الخليفة العباسي): ٢١١
- المستنصر بالله: ٢٢٦
- المسجد الأقصى: ١٦٥، ١٧٤، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٤، ٢٥٩، ٤٣٤
- المسجد الأموي: ١٧٤
- المسجد الحرام: ١٧٤
- مسجد النبي (ص) (المدينة المنورة): ١٧٤
- مسحة (مستعمرة): ٣٤٠
- مسلمة بن عبد الملك: ١٧٧، ١٨٠
- المسلمون: ١٦٠، ١٦١، ١٦٤-١٦٦، ١٦٩، ١٧٢، ١٧٣، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٣، ٢٠٧، ٢٠٨، ٢١٤، ٢١٨، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٦٩، ٢٨٠، ٢٨٥، ٢٨٧، ٤٣٣، ٤٣٤، ٤٤٨، ٤٧١
- المسيح (عليه السلام): ١٣٣، ١٣٥، ١٤٢-١٤٤، ١٩٠، ١٩٢، ٣١٨، ٣١٩
- أنظر أيضا: يسوع الناصري
- المسيحيون: ١٣٣، ١٣٥، ١٣٩، ١٤٣، ١٤٦، ١٦٤، ١٨٢، ١٨٩، ١٩٠، ١٩٢، ١٩٣، ٢١٤، ٢٤٦، ٢٨٦، ٣٠٠، ٣٨١، ٤٥٢
- مشئال: ٦٦
- مشروع برنادوت: ٥٣٦
- مشروع بيفن: ٥٠٥
- مشروع الحمه (المياه الكبريتية): ٣٨٧
- مشروع روتنبرغ: ٣٨٧، ٤٢٦، ٥٢٨
- أنظر أيضا: شركة كهرباء فلسطين
- مشروع رى الحولة (عين الملاحه): ٣٨٧
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٧
- مشروع موريسون: ٥٠٤، ٥٠٥
- مشمار هعيمك (مستعمرة): ٥١٩، ٥٢٣
- مشمار هيردين: ٥٢٨، ٥٣٣، ٥٤٠
- مصر: ٤-٩، ٢٨، ٣٥، ٣٨، ٣٩، ٤٧-٤٦، ٤٤، ٤٦-٤٧، ٧٨-٧٩، ٩٠، ٩٦، ٩٨، ٩٩، ١٠٢، ١٠٥-١٠٧، ١٠٩، ١١٠، ١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢١، ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٤١، ١٤٤، ١٤٥، ١٥٠، ١٦١، ١٦٦، ١٦٨-١٧٠، ١٧٥-١٨٠، ١٨٢-١٨٧، ١٩٣، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠٢، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢١١، ٢١٥-٢١٥

٢٢٧، ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٧-٢٥٤، ٢٥٦-٢٥٨، ٢٦٠-٢٦٤، ٢٦٧-٢٦٩، ٢٧٥، ٢٧٩، ٢٨٤، ٢٨٥، ٢٨٧، ٢٨٩-٢٩١، ٢٩٣، ٢٩٦، ٣٠٣، ٣١٧، ٣٢٧، ٣٤١-٣٤٥، ٣٥١، ٣٥٩-٣٦٢، ٣٦٩، ٣٧٤، ٤١٦، ٤٤٠، ٤٤٠، ٤٦٠، ٤٧٨، ٤٨١، ٤٨٨، ٤٩٤، ٥٠٣، ٥٠٩، ٥١٦، ٥١٧، ٥٤٠

المصرف الزراعي العثماني: ٣٧٠

- أنظر أيضا: البنك الزراعي العثماني المصرف الصهيوني للاستعمار: ٣٩٩

- أنظر أيضا: صندوق الائتمان اليهودي للاستعمار

المصري، حكمت: ٤٦٠

المصري، عزيز علي: ٢٩٣، ٢٩٦

المصريون: ٥٥-٥٨، ٦٥، ٦٨، ٦٩، ٧٣، ٨١، ٨٢، ٨٨-٩٠، ٩٠، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٩، ٢١٩، ٢٧٦، ٢٨٠، ٥١٧، ٥٣٠

مصطفى باشا (والي دمشق): ٢٤٥

مصطفى الثاني: ٢٤٦

مصطفى ثريا (الوالي): ٢٧٠

مصطفى كمال: ٢٩٢، ٣٦٨، ٣٨٤، ٤٢٨

- أنظر أيضا: أتاتورك

مصعب بن الزبير: ١٧٠

مصفاة البترول (حيفا): ٥١٩، ٥٢٣

مطار الحبانية: ٤٩٣

مطار اللد: ٤٧٥، ٥٣٦

مطرجي، خالد: ٥١٧

المطلة (مستعمرة): ٣٢١، ٣٨٢، ٥٢٥

- أنظر أيضا: متولا

معان: ١٧٢، ١٧٤، ٣٤٤، ٣٥٢

معاهدة آميين (١٨٠٢ م): ٢٦٠

معاهدة برلين (١٨٧٨ م): ٢٨١

معاهدة سان ريمو (١٩٢٠): ٣٨٠

معاهدة سيفر (١٩٢٠): ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨٠، ٣٨٤، ٤٢٠

معاهدة الصداقة البريطانية-الفرنسية (١٩٠٣):

٣٤٤

معاهدة فرساي (١٩١٩): ٣٦٧، ٣٧٩، ٣٨٤

معاهدة فينيسيا (١١٧٧ م): ٢٠٣

معاهدة كارلوفيتس (١٦٩٩ م): ٢٤٦، ٢٤٧ الموجز في تاريخ فلسطين السياسي ؛ ص ٥٩٧

اهدة كوتاهية (١٨٣٣ م): ٢٦٢

معاهدة كوتشوك كايبرجي (١٧٧٤ م): ٢٤١، ٢٥٢، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٠٠

معاهدة لوزان (١٩٢٣): ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٨٤، ٣٨٦، ٣٩٢، ٤٢١

معاهدة يافا (١٢٢٩ م): ٢١٧-٢١٩

معاوية بن أبي سفيان: ١٦٤، ١٦٦-١٧٠، ١٧٢-١٧٥

معاوية بن يزيد: ١٧٠

المعتصم (الخليفة): ١٧٨، ١٧٩، ١٨١، ٢٢٤

المعتضد (الخليفة): ١٧٩

المعتمد على الله (الخليفة): ١٧٩

معخا (ابنة تلمي ملك جشور): ٩٦

معرة النعمان: ١٩٦

معركة حطين: ٢٠٤، ٢٠٨، ٢١١، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٢٣

معركة ذات الصواري: ١٦٩

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٨

معركة الزاب: ١٧٦، ١٧٧

معركة الطيبة: ٢٠٤

معركة كوسوفا: ٢٣٨، ٢٣٩

معركة مانجكرت: ١٨٩

معركة مرج راهط: ١٧٠

معركة مغنيزيا: ١٢٧

معركة ميريو سيفالو: ٢٠٣

معركة ميسلون: ٣٨٠

معركة نصيبين: ٢٦٤

معركة نفارينو: ٢٥٩، ٢٦١، ٢٦٢

معركة اليرموك: ١٦٣، ١٦٤، ١٧٢، ١٧٣

معركة يعبد: ٤٥٦

المعز لدين الله (الخليفة): ١٨٠، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٥

- أنظر أيضا: أبو تميم معد

المعظم (ملك دمشق): ٢١٧، ٢١٨، ٢٣١

معلوت (قضاء): ٩٨

معلبا: ٢٠٩، ٢١٢، ٥٢٥، ٥٣٣، ٥٣٨

المعنيون: ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٦٨

معهد البحوث الاقتصادية (التابع للوكالة اليهودية): ٣٩٧

معوز حاييم (مستعمرة): ٥٢٥

المغار: ١٧٣، ٥٣٩

- مغارة الأميرة: ١٨، ٢٢
- مغارة بلط: ٢٨
- مغارة بني حسن: ٦٥
- مغارة بيسيتون: ١٦
- مغارة جعيتا: ٢٨
- مغارة الزطية: ١٨
- مغارة السخول: ١٨
- مغارة شانيدار: ١٦
- أنظر أيضا: شانيدار
- مغارة شقبة: ٢٥
- مغارة الطابون: ١٤، ١٨
- مغارة القفزة: ١٨، ٢٢
- مغارة كبارة: ٢١، ٢٢، ٢٨
- مغارة كرومانيون: ٢١
- مغارة الواد: ٢٢، ٢٧، ٢٨
- أنظر أيضا: وادي فلاح
- المغرب: ١٧٨، ١٨٢، ٣٤٥، ٣٧٣، ٤٨١
- مغنم، مغنم: ٤٥٣
- المغول: ١٤١، ٢١٨-٢٢٢، ٢٢٤-٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٢، ٢٣٨
- أنظر أيضا: التتر
- المغيرة بن شعبة الثقفي: ١٦٧
- المفتي: ٤٥٤، ٤٧٤، ٤٧٥، ٤٧٦
- أنظر أيضا: الحسيني، (الحاج) محمد أمين
- مفرج بن دغفل بن الجراح: ١٨٥، ١٨٦
- مفرزة مجدل شمس: ٥١٧
- المفرق: ٥٢٩
- «المقتبس» (صحيفة): ٣٠٣، ٣٠٤
- «المقتطف» (مجلة): ٢٨٨، ٣٠١
- المقدسي: ٩
- مقدونيا: ١١٢، ١١٣، ١٤٢، ٢٦٠، ٢٩١
- المقدونيون: ١١٢، ١٢٣
- «المقطم» (جريدة): ٢٨٨، ٣٠٣
- مقنا: ١٦١

- مكة: ١٥٩، ١٦٠، ١٧٣، ١٧٤، ٢٠٤، ٣٤٤
- المكتب العربي: ٣٧١
- مكتب فلسطين: ٣٣١، ٣٣٢، ٣٣٧، ٣٦٩
- مكتبة الإسكندرية: ١٤١
- المكتبة الظاهرية: ٢٢٧
- مكدونالد، رامزي: ٤٣٣، ٤٣٧، ٤٤٠، ٤٤٢-٤٤٥، ٤٤٧
- مكدونالد، مالكوم: ٤٨٠، ٤٨٢
- مكفي يسرائيل: ٣١٩
- أنظر أيضا: المدرسة الزراعية
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٥٩٩
- مكماهون، هنري: ٣٤١، ٣٤٨، ٣٤٩، ٣٥٨، ٣٦٣، ٤٢٠
- مكمايكل، هارولد: ٤٧٤، ٤٧٨
- المكثور: ١٣٢
- مكوروت: ٣٩٩
- أنظر أيضا: شركة المياه القطرية ملازجرت: أنظر: معركة مانجكرت ملبس: ٣٢١
- أنظر أيضا: بيتح تكفا
- ملتست (اللورد): ٤٤٣
- الملك السعيد بركة (ابن بيبرس): ٢٢٧
- الملك الظاهر: ٢٢٦
- أنظر أيضا: بيبرس البندقداري
- الملك المنصور سيف الدين قلاوون: ٢٢٧
- أنظر أيضا: قلاوون الألفي
- ملكشاه (السلطان): ١٨٧
- المماليك: ٢٠٠، ٢٠٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٤-٢٣٤، ٢٣٩-٢٤٤، ٢٤٧، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦١، ٢٦٣، ٢٦٧، ٢٨٤
- مملكة آل جفنة: ١٥٧
- مملكة الأراميين: ٩٨
- المملكة الأردنية الهاشمية: ٥٣٩، ٥٤٠
- أنظر أيضا: الأردن
- مملكة إسرائيل: ٥، ٨٣، ٨٧، ٩٤، ٩٦-١٠٢
- مملكة أشور: ٥، ١٠٣
- مملكة الأنباط: ٥، ١٥٥
- مملكة أورشليم اللاتينية (الصليبية): ٥، ٦، ١٨٧، ١٩٥، ١٩٦، ١٩٨-٢٠٠، ٢٠٢-٢١١، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٦-٢١٨، ٢٢٢
- مملكة أورشليم اليوسية: ٩٤

- مملكة البطالسة: ١٢٧
- المملكة الجديدة (في مصر): ٦٩
- مملكة الحثيين: ٨٥
- مملكة الحشمونيين: ١٢٣
- مملكة داود: ٩٥، ٩٩، ١٠٦
- مملكة داود و سليمان: ٥، ٧٦، ٩٢، ١٠٣، ١٢٢
- أنظر أيضا: المملكة المتحدة
- المملكة السلوقية: ١٢٢، ١٢٧
- مملكة سليمان: ٩٨
- المملكة العربية السعودية: ٤٨٢، ٥٠٩
- أنظر أيضا: السعودية
- مملكة عكا الصليبية: ٢١٨، ٢٢١، ٢٢٢، ٢٢٨
- أنظر أيضا: سان جان داکر؛ عكا
- مملكة عمورو: ٧٤، ٨٥، ٩٠
- مملكة فارس: ٥
- مملكة قادش: ٧١
- المملكة القديمة (في مصر): ٥٤، ٥٥، ٦٤
- المملكة الكنعانية: ٩٢
- مملكة ليديا: ١٠٥-١٠٧
- المملكة المتحدة: ٨٦، ٩٨
- أنظر أيضا: مملكة داود و سليمان
- مملكة مؤاب: ١٠١
- المملكة الموحدة الأولى (في مصر): ٥٥
- مملكة ميتاني (الكوشية): ٦٨، ٧٠-٧٣
- المملكة الوسطى (في مصر): ٤٨، ٦٤
- مملكة يهودا: ٥، ٩٦، ٩٨-١٠٣، ١٠٦، ١٢٧-١٣١، ١٣٣، ١٣٦، ١٣٧
- «المنادي» (صحيفة): ٣٠٢
- المنادرة: ١٥٧
- أنظر أيضا: اللخميون
- «المنار» (صحيفة): ٣٠١
- المنتدى الأدبي: ٢٩٣-٢٩٥
- منتفرات، كونراد دو: ٢٠٤، ٢١٢-٢١٤
- المنحة: ٣٧

- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٠
 منحمة (مستعمرة): ٣٢٥
 المنذر بن الحارث الثاني: ١٥٧
 المنصور إبراهيم (صاحب حمص): ٢٢٠
 المنصورة: ٢١٧، ٢٢١
 المنظمة الإقليمية اليهودية: ٣٣٧
 منظمة الحارس: ٣٣٩، ٣٤٠
 - أنظر أيضا: منظمة هشومير
 المنظمة الصهيونية الأميركية: ٣٩٢، ٣٣٧
 المنظمة الصهيونية البريطانية: ٣٩٢، ٣٩٤، ٣٣٧
 المنظمة الصهيونية الجديدة: ٣٩٦، ٣٤٤
 المنظمة الصهيونية العالمية: ٣٣٠-٣٣٨، ٣٦٠-٣٦٢، ٣٦٦، ٣٦٧، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩-٣٩٦، ٤٠٠، ٤٠١، ٤٠٦-
 ٤٠٨، ٤١٠، ٤١١، ٤١٤-٤١٧، ٤١٩-٤٢١، ٤٢٣-٤٢٥، ٤٢٨، ٤٣١-٤٣٣، ٤٣٦، ٤٣٩، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٤٥، ٤٤٩، ٤٧١، ٤٧٢، ٤٨١،
 ٤٨٣-٤٩٣، ٤٩٥، ٤٩٦، ٤٩٩، ٥٠١، ٥١٤
 المنظمة العسكرية القومية: ٤٧٨، ٤٨٣
 - أنظر أيضا: الإرغون؛ إرغون تسفائي لثومي؛ إيتسل
 منظمة الفتوة للشباب: ٤٥٣
 منظمة النساء الصهيونيات في الولايات المتحدة: ٤٠٧
 - أنظر أيضا: منظمة هداسا
 منظمة النساء الصهيونية العالمية: ٤٠٧
 - أنظر أيضا: ويتسو
 منظمة هداسا: ٣٩٩، ٤٠٧
 - أنظر أيضا: منظمة النساء الصهيونيات في الولايات المتحدة
 منظمة هشومير: ٣٣٩، ٣٤٠، ٤٠٤
 - أنظر أيضا: منظمة الحارس
 منكو خان (الخان الأكبر): ٢٢٢
 السنوات: ٢٠٩
 المنيوتو: ٥٦
 المهدي (الخليفة العباسي): ١٨٠
 المهدي (السودان): ٢٨٩
 مؤاب: ٨٠، ٩٠، ١٢٢، ١٩٩، ٢٠٣
 المؤابيون: ٥، ٦٦، ٨٠، ٨٣، ٩٥، ١٠١، ١٥٥
 - أنظر أيضا: أبناء شيت

مؤتة: ١٦١، ١٧٢، ١٧٣

المؤتمر الإسلامي (القدس، ١٩٢٨): ٤٣٣، ٤٣٤

المؤتمر الإسلامي (١٩٣١): ٤٤٩، ٤٥١

مؤتمر أنشاص (١٩٤٦): ٥٠٣

مؤتمر بازل (١٨٩٧): ٢٩٧، ٣٠١، ٣٣١، ٣٣٥

– أنظر أيضا: برنامج بازل؛ المؤتمر الصهيوني الأول

المؤتمر البرلماني العربي و الإسلامي (القاهرة، ١٩٣٨): ٤٨١

مؤتمر بلمبور (١٩٤٢): ٤٨٩، ٤٩٢

– أنظر أيضا: برنامج بلمبور

مؤتمر بوتسدام (١٩٤٥): ٤٩٦

– أنظر أيضا: مؤتمر السلام (١٩٤٥)

مؤتمر حزب أحداث هعفودا (١٩٢٠): ٤٠٦

المؤتمر الرابع لحركة أحياء صهيون (١٨٩٠):

٣٢٣

مؤتمر سان ريمو (١٩٢٠): ٣٦٧، ٣٦٨، ٣٧٩، ٣٨٤، ٣٩٠، ٤٢٠

مؤتمر السلام (باريس، ١٩١٩): ٣٦٣–٣٦٦، ٣٧٢، ٣٧٣، ٣٧٦–٣٧٨، ٣٨٠، ٣٩٠، ٣٩٥، ٤٠٧، ٤١٧

مؤتمر السلام (بوتسدام، ١٩٤٥): ٤٩٥

– أنظر أيضا: مؤتمر بوتسدام

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠١

المؤتمر السوري العام (دمشق، ١٩١٩): ٣٧٨، ٣٧٩

مؤتمر الشباب العربي (١٩٣٢): ٤٥٠

المؤتمر الصهيوني الأول (بال، ١٨٩٧):

٣٣٠، ٣٩٤

– أنظر أيضا: برنامج بازل؛ مؤتمر بازل

المؤتمر الصهيوني الثاني (بازل، ١٨٩٨): ٣٣٦

المؤتمر الصهيوني الثالث (بازل، ١٨٩٩):

٣٣٦، ٣٩٩

المؤتمر الصهيوني الرابع (لندن، ١٩٠٠):

٣٣٤، ٣٣٦

المؤتمر الصهيوني الخامس (لندن، ١٩٠١):

٣٣١، ٣٣٦، ٤٠٠

المؤتمر الصهيوني السادس (بازل، ١٩٠٣):

٣٣٤، ٣٣٧

المؤتمر الصهيوني السابع (بازل، ١٩٠٥):

٣٣٧، ٣٣٤

المؤتمر الصهيوني الثامن (لاهاي، ١٩٠٧):

٣٣٧

المؤتمر الصهيوني العاشر (بازل، ١٩١١):

٣٣٨

المؤتمر الصهيوني الحادي عشر (فيينا، ١٩١٣): ٣٣٨، ٣٩٠

المؤتمر الصهيوني السادس عشر (زوريخ، ١٩٢٩): ٣٩٧، ٤٣٣، ٤٣٥

المؤتمر الصهيوني السابع عشر (بازل، ١٩٣١): ٤٤٤

المؤتمر الصهيوني الثامن عشر (براغ، ١٩٣٣):

٤٤٦

المؤتمر الصهيوني التاسع عشر (لوسيرن، ١٩٣٥): ٤٤٦

المؤتمر الصهيوني الثاني والعشرون (بازل، ١٩٤٦): ٥٠٢، ٥١٠

المؤتمر العربي الأول (باريس، ١٩١٣): ٢٩٤، ٢٩٥، ٣٠٦

المؤتمر العربي العام (١٩٢٩): ٤٣٨

المؤتمر العربي الفلسطيني الأول (القدس، ١٩١٩): ٣٧٦، ٣٧٧

المؤتمر العربي الفلسطيني الثاني (دمشق، ١٩٢٠): ٣٧٨

المؤتمر العربي الفلسطيني الثالث (حيفا، ١٩٢٠): ٣٨٠، ٣٨١، ٤١١، ٤١٢، ٤١٥

المؤتمر العربي الفلسطيني الرابع (القدس، ١٩٢١): ٤١٥، ٤١٧، ٤٢٦

المؤتمر العربي الفلسطيني الخامس (نابلس، ١٩٢٢): ٤٢٥-٤٢٧

المؤتمر العربي الفلسطيني السادس (يافا، ١٩٢٣): ٤٢٨، ٤٣١

المؤتمر العربي الفلسطيني السابع (القدس، ١٩٢٨): ٤٣١، ٤٣٢، ٤٤٨

مؤتمر عكا (١١٤٨ م): ٢٠٢

مؤتمر القاهرة (١٩٢١): ٤١٢

مؤتمر لندن (١٨٤٠ م): ٢٥٨، ٢٦٤، ٣٢٦

مؤتمر لندن (١٩٢٠): ٣٩٥، ٤٠١

مؤتمر لندن (١٩٣٩): ٤٨٢-٤٨٤

مؤتمر لوزان (١٩٢٣): ٤٢٨

مؤتمر المندوبين اليهودي: ٤٨٣

المؤتمر النسائي العربي الأول (القاهرة، ١٩٣٨): ٤٨٢

المؤتمر النسائي الفلسطيني الأول (١٩٢٩):

٤٣٥

مؤتمر يافا للمستوطنين (١٩١٨): ٣٦٩، ٣٧٦

المؤتمر اليهودي العالمي (جنيف، ١٩٣٩):

٤٠٧

المؤسسة الصناعية و المالية لفلسطين: ٣٩٩

مؤسسة فلسطين الاقتصادية: ٣٩٩

المؤيد، شفيق: ٢٩٦

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٢

المؤيد شيخ (السلطان): ٢٣٢

الموارنة: ٢٨٠، ٢٨١

المواوي، أحمد علي: ٥٢٧

موتسا (مستعمرة): ٣٢١، ٤٣٥

موديعين: ١١٩

مورسيلي الحثي: ٧٤

مورغنتاوا: ٣٠٣، ٣٥٨

موسى (النبي): ٧٩، ٨١، ٨٢، ٨٥-٨٨، ٩٥، ٣٨١

موسى (ابن بايزيد): ٢٣٩

موسى بن نصير: ١٧٥

الموساد: ٤٠٦، ٤٩٢، ٥٢٠

- أنظر أيضا: لجنة الهجرة غير الشرعية؛ هموساد لعلياه بيت

موسكو: ٣٢٤

الموصل: ١٨١، ٢٠٠، ٢٩٦، ٣٤٦، ٣٥١، ٣٦٧، ٣٧٣

الموفق (الخليفة): ١٧٩

موقعه بيلان: ٢٦١

مونتاغو، إدوين: ٣٥٨، ٣٩٣

مونتغومري (الفيلد- مارشال): ٥٠١، ٥٠٢

مونتفيوري، كلود: ٣٥٨

مونتفيوري، موزس: ٣٢١، ٣٤١، ٣٤٢

موني (الجنرال): ٣٧١، ٣٧٢

موهيلفر، شموتيل: ٣٢٠

موين (اللورد): ٤٩٠

ميثا شعاريم: ٣٤٢

ميديا: ١٠٦

الميديون: ١٠٥، ١٠٦

ميسون بنت بحدل الكلبية: ١٧٣

ميشع: ١٠١

ميلانجيا: ٢٣٧

- أنظر أيضا: ينيشهر

ميناء بيرل هاربر: ٤٨٧

ميناء تل أبيب: ٣٩٩، ٤٦٢

ميناء حيفا: ٣٥٠، ٤٣٣، ٤٦٤، ٥٣٦

ميناء عكا: ١٥١، ٢١٤، ٣٥٠

ميناء مودروس: ٣٥٣

ميناء يافا: ١٢٨، ١٥١، ٤٦١، ٤٦٢

ميوماس: ١٤٩

- أنظر أيضا: غزة البحرية

ميونخ: ٤٧٨

(ن) نابلس: ٣٨، ٤٠، ٤٣، ٧٩، ١١١، ١٣٨، ١٤٨ - ١٥٠، ١٦٦، ١٧٣، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٤، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٩، ٢٤٢ - ٢٤٦، ٢٤٨

٢٤٩، ٢٥٩، ٢٦١ - ٢٦٣، ٢٧٠، ٢٧١، ٢٧٥، ٢٧٦، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٦، ٣٥٣، ٤٢٥، ٤٢٦، ٤٣٤، ٤٣٨، ٤٤٩، ٤٥٤، ٤٦٠ - ٤٦٤، ٤٦٧، ٤٧٦

٤٨٠، ٤٨٧، ٥٢٧، ٥٢٩

- أنظر أيضا: نيابولس

النابلسي، حمدي: ٤٥٤

النابلسي، (الحاج) نمر: ٤٥٣

نابليون الثالث: ٣١٧

ناتل بن قيس الجذامي: ١٧٠

ناتان، ماثيو: ٣٥٨

ناحاش (ملك العمونيين): ٩٣

ناحور: ٧٨

النادي العربي: ٣٧٩

نارام سين الأكادي: ٥٤، ١٥٥

نارمير (الملك): ٥٦

الناصر (الخليفة الأموي): ١٨٢

- أنظر أيضا: عبد الرحمن الثالث الناصر داود بن المعظم: ٢١٨ - ٢٢١

ناصر الدين: ٥٢٣

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٣

الناصر محمد بن قلاوون (السلطان): ٢٢٩، ٢٣١، ٢٣٢

الناصر يوسف (صاحب حلب): ٢٢٥، ٢٢٦

الناصر: ١٨، ٢٢، ١٤٣، ١٥١، ١٨١، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤، ٢١٦، ٢١٨، ٢٢٩، ٢٤٤، ٢٤٨، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٥٩، ٢٦٤، ٢٧١، ٣٠٤، ٣٤٠

٣٥٣، ٤٧٠، ٤٧٤، ٤٧٦، ٥١٧، ٥٢٧، ٥٣٣، ٥٣٩

نصيف، فارس: ٢٥٩

الناطور، توفيق: ٢٩٤

نامق باشا: ٢٧٢

الناوكية: ١٨٦

نايسوس: ١٤٢

- أنظر أيضا: نيش

نبوخذنصر: ٥، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٦، ١٠٩

النبي دانييل: ٥١٩

النبي صموئيل: ٢٠٩، ٥٢٤

نتانيا (مستعمرة): ٥٢٠، ٥٢٧، ٥٢٩

نتسانيم (مستعمرة): ٥٣٠، ٥٣٨

النجار، إبراهيم سليم: ٣٠٣

نجد: ٢٥٨، ٢٧٨، ٣٤٨، ٣٤٩

النجف: ٣٤٦

نجم الدين، عادل: ٥١٧

نحميا (الوزير): ١١٠، ١١٨

النداء اليهودي الموحد: ٤٠٧

نرفا (الإمبراطور الروماني): ١٣٨

النساطرة: ١٤٤

- أنظر أيضا: النسطوريون

الנסطوريون: ١٤٦

- أنظر أيضا: النساطرة

النشاشيبي، إسعاف: ٣٠٢

النشاشيبي، راغب: ٣٠٥، ٣٨٢، ٤٢٨، ٤٣١، ٤٣٢، ٤٥٢-٤٥٤، ٤٦١، ٤٦٨، ٤٦٩، ٤٧١، ٤٨٢

النشاشيبي، علي: ٢٩٣

النشاشيبي، فخرى: ٤٦٢

النصار، نصيف: ٢٥٠، ٢٥٣

نصار، نجيب: ٣٠٢، ٣٠٣

نصر بن شيبث العقيلي: ١٧٨

نصير (آل): ١٧٥

نعامة (ابنة الملك العموني): ٩٥

النعمان بن المنذر: ١٥٧

- نغبا (مستعمرة): ٥٣٥، ٥٣٠
- نفي يعقوف (مستعمرة): ٥٢٩
- نقابة العمال القومية: ٤٤٦
- نقابة العمال اليهود: ٣٨٧، ٣٩٧، ٤٠١
- أنظر أيضا: الهستدروت
- النقب: ٢٢، ٧٩، ٨٠، ٨٩، ٩٢، ٩٤، ١١٠، ١٥١، ١٥٢، ١٥٦، ٢٠٣، ٢٠٩، ٢٢٩، ٢٧٨، ٣٦٨، ٤٢١، ٥٠٤، ٥١٧، ٥١٨، ٥٢٠، ٥٢٥، ٥٣٠، ٥٣١، ٥٣٥-٥٤٠
- النقطة ١١٣: ٥٣٧، ٥٣٥
- النقيب: ٢٢، ٢٣
- نلسون، (الأميرال) هوراشيو: ٢٥٥
- النمر (عائلة): ٢٧٥
- النمر، فارس: ٢٨٨، ٢٨٩
- النمسا: ٢٦٤، ٢٨٠، ٢٨١، ٣٢٠، ٣٩٣، ٤٩٩
- نهر الأردن: ١٤، ١٥، ٣٨، ٣٩، ٤٨، ٧٤، ٨٠، ٨٣، ٨٨-٩٠، ٩٢، ٩٤، ٩٥، ١٠٠، ١٠١، ١٠٩، ١١٣، ١١٤، ١١٧، ١١٨، ١٢٠-١٢٢، ١٣٨، ١٥٠، ١٥٦، ١٦٢، ١٦٦، ١٩٩، ٢٠٣، ٢١٨، ٢٤٤، ٢٥٧، ٢٧٨، ٢٨٢، ٣١٩، ٣٥٠، ٣٥١، ٣٧٣، ٣٧٤، ٤٢٢، ٤٦٧، ٤٧٤، ٥٢٤، ٥٢٧
- نهر الحاصباني: ٣٧٤
- نهر دان: ٣٧٤
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٤
- نهر دجلة: ٦٧، ١١٦
- نهر الرقاد: ١٦٣
- نهر السند: ١١٢
- نهر العاصي: ١٤، ١٥، ٧١، ٧٣
- نهر الفرات: ٤، ٧، ٢٢، ٢٨، ٢٩، ٣٦، ٤٩، ٥٣، ٥٤، ٥٧، ٦٧، ٧٠، ٨٢، ١٠٨، ١٢٧، ١٧٢، ٣٣٣، ٣٣٧، ٣٥٢
- النهر الكبير الشمالي: ١٤
- نهر الكلب: ٧٤
- نهر الليطاني: ١٤، ١٥
- نهر المعاملتين: ٢٠٣
- نهر مغنية: ٣٦٦
- نهر النيل: ٢٩، ٤٧، ٢٢١، ٣٣٣، ٣٣٤
- نهر هاليس: ١٠٥
- نهر اليرموك: ٢٠٩، ٣٧٤
- نهر ايم: ٥٢٨
- نهر يا: ٥٢٥، ٥٢٧، ٥٣٨

نهلال: ٥٣٣

النوبة: ٦٥، ٦٨، ٦٩، ٢٦٠، ٢٦١

نوبيا: ١١٦

نوخاشي: ٦٩

نور الدين زنكي: ٢٠٠-٢٠٣، ٢١١، ٢٢٤

نور شمس: ٤٦٣

نور الله، عارف: ٤٥٨

نوردو، ماكس: ٣٣٧، ٤٢٤، ٤٢٥

نورس: ٢٥٧، ٤٦٣

النورمان: ١٩٣، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢

نوروك، ماكس: ٤١٠

نوزي: ٧، ٦٧، ٧٩

نويهض، عجاج: ٤٥١، ٤٥٨

نيابولس: ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩

- أنظر أيضا: نابلس

نيتسانا: ١٥١

نيخو: ١٠٣

نير عام (مستعمرة): ٥٢٥

نيرون (الإمبراطور): ١٣٧، ١٥٠

نيريم (مستعمرة): ٥٢٩

نيس تسيونا (مستعمرة): ٣٢١

نيسفوروس (البطريك): ١٨٢

نيسفوروس فوكاس: ١٨١

نيش: ١٤٢

- أنظر أيضا: نايوسوس

نيقيا: ١٩٥، ٢٠١، ٢١٣، ٢٣٧

- أنظر أيضا: إزنك

نيكانور (القائد): ١٢٠

نيكوبولس: ١٣٧، ١٣٨، ١٤٨، ١٤٩

- أنظر أيضا: عمواس

نيكوميدا: ٢٣٧

- أنظر أيضا: إزمت

نيلي (شبكة التجسس): ٣٦١

- نينوى: ١٠٣، ١٠٥
- «نيوفراى برس» (صحيفة): ٣٢٨
- نيويورك: ٣٠٣، ٤٨٧، ٤٨٨، ٤٩٥، ٤٩٧
- (ه) هابو: ٨٢
- هاردنغ: ٣٦٨، ٤٢١
- هارون الرشيد: ١٧٨، ١٨٠، ١٨١
- هاشم بن عمر العنسى: ١٧٧
- الهاشمى، طه: ٥٠٩، ٥١٧
- الهاشمى، عبد الله: ٢٩٦
- الهاغاناه: ٣٦٠، ٣٩٥، ٣٩٧، ٤٠٣-٤٠٦، ٤٣٧، ٤٥٩، ٤٦٠، ٤٧٧، ٤٧٩، ٤٩٣، ٥١١، ٥١٢، ٥١٣، ٥١٩-٥٢٦، ٥٢٩، ٥٣١، ٥٣٢
- أنظر أيضا: الجيش الإسرائيلي؛ «جيش الدفاع الإسرائيلي»
- هاليفاكس (اللورد): ٤٩٧
- الموجز فى تاريخ فلسطين السياسى، ص: ٦٠٥
- هاوس: ٣٥٨، ٣٦٥
- هاينغ، (الجنرال) روبرت: ٤٧٩
- هبوس: ١٢٦
- أنظر أيضا: قلعة الحصن
- هتلر، أدولف: ٣٨٦، ٤٤٥، ٤٨٢، ٤٨٥، ٤٨٨
- هحايل: ٥١٣
- أنظر أيضا: الجيش الإسرائيلي
- هداد (الإله): ٦٦
- هدد (الإله): ٦٥
- أنظر أيضا: حد
- هدريان (الإمبراطور): ٧، ٨، ١٢٦، ١٣٨، ١٣٩، ١٤٨-١٥٠
- الهدنة الإسرائيلية-الأردنية: ٥٢٩
- هذيل (قبيلة): ١٧٣
- هربيا: ٢٢٠
- هرطوف (مستعمرة): ٤٣٥، ٥١٩
- هرقل: ١٤٥، ١٦٤
- أنظر أيضا: هيراكليوس
- هس، موزس: ٣١٩، ٣٢٦، ٣٢٧
- الهستدروت: ٤٠١-٤٠٦، ٤٣٣، ٤٣٧، ٤٤٦
- أنظر أيضا: نقابة العمال اليهود

- هسوخنوت هيهوديت: ٣٩٥
- أنظر أيضا: الوكالة اليهودية
- هشام بن عبد الملك: ١٧٠، ١٧١، ١٧٥، ١٧٧
- هشام بن يزيد: ١٧٨
- الهكسوس: ٤، ٥، ٥٥، ٥٧-٥٢، ٥٤، ٥٦-٥٨، ٥٩، ٧٠، ٧٢، ٧٥، ٧٩، ٨١
- أنظر أيضا: حيقا خاسوث
- هكوهين، دافيد: ٤٠٥
- هكيرن هكيمات: ٣٣١، ٣٨٧، ٣٩٨، ٤٠٠
- أنظر أيضا: الصندوق القومي اليهودي هل، كورديل: ٤٨٨
- «الهلال» (مجلة): ٢٨٨، ٣٠٣
- الهلال الخصيب: ٣، ١١، ١٤، ٢٨، ٣٠، ٣١، ٣٥، ٣٨، ٥٨، ٥٩، ٦٢، ٦٧، ٧٠، ٧٨، ٧٩، ٨٣
- همدان (قبيلة): ١٦٧، ١٧٣
- همشمار: ٥١٣
- أنظر أيضا: قوة الحراسة
- هموساد لعلياه بيت: ٤٠٦
- أنظر أيضا: لجنة الهجرة غير الشرعية؛ الموساد
- الهنادى (قبيلة): ٢٧٨، ٢٧٩
- الهند: ٦، ١٠٦، ١٠٧، ١١٣، ١١٦، ١٩٣، ٢٤٠، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٢، ٣٢٧، ٣٤٢، ٣٧٩، ٤٧٦، ٤٨١، ٥٠٦
- الهندي، محمود: ٥٠٩، ٥١٧
- هنرى السادس: ٢١٥، ٢١٦
- هنغاريا: ١٩٤، ٢١٣، ٢١٦
- الهنود الحمر: ٢٠
- هوب- سمبسون، جون: ٤٤٠-٤٤٢
- هوركانوس (ابن يوسف بن طوبيا): ١١٩
- هوركانوس الثانى (ابن ألكسندر يناى): ١٢٣، ١٢٧، ١٢٨، ١٣٠
- هوركانيا (سجن): ١٣٢
- هوشة: ٥١٩، ٥٢٣
- هوغارت (البروفسور): ٣٥٢
- هولاكو: ٢٢٢، ٢٢٥، ٢٢٦
- هولندا: ٥٠٦
- هومل: ٣٣٩
- هونين: ٢٠٩، ٢٢٧
- هيئة الأمم المتحدة: ٤٩٦، ٤٩٩، ٥٠٣، ٥٠٤، ٥٠٧، ٥٢١، ٥٢٢

- أنظر أيضا: الأمم المتحدة
الهيئة العربية العليا: ٥٠٥-٥٠٩، ٥١٣-٥١٥، ٥٣٦
الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٦
هيراكليوس: ١٤٥، ١٤٦، ١٥٩، ١٦٤
- أنظر أيضا: هرقل
هيرتز: ٣٩٣
هيرتسل، تيودور: ٣٠٤، ٣١٩، ٣٢٧-٣٣٠، ٣٣٢-٣٣٧، ٣٥٤، ٣٥٨، ٣٩١، ٣٩٩
هيرش (البارون): ٣٢٤، ٣٢٨
هيرلي، باتريك: ٤٨٦
هيوودوتس (المؤرخ): ٧، ٩، ١٠٨، ١٢٥
هيوودوس: ١٢٤-١٢٦، ١٢٨-١٣٤، ١٣٦، ١٤٨، ١٤٩
هيووديون: ١٣١
هيكل سليمان: ٤٣٣
الهيكليون (تنظيم): ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٨، ٢٢٠، ٢٢٧، ٢٨١
- أنظر أيضا: تمبلرز؛ فرسان الهيكل
هيل (الجنرال): ٣٦٠
هيلينا (القديسة): ١٤٢، ١٤٣
هيماش: ٣٨٥
هيو (كونت فيرماندوا): ١٩٥
(و) وادي الأردن: ١٧٤
- أنظر أيضا: غور الأردن
وادي التيم: ٣٦٦
وادي جرار: ٨٠
- أنظر أيضا: وادي غزة
وادي الحوارث: ٤٤٧
وادي دجلة: ٤، ٤٥
- أنظر أيضا: وادي الرافدين
وادي الرافدين: ٤٦، ٤٧
- أنظر أيضا: وادي دجلة؛ وادي الفرات وادي رباح: ٣٧
وادي السرحان: ١٥٠
وادي الطاحون: ٣٦
وادي عارة: ٧١، ٧٥، ١٤٩، ٢٠٩
- أنظر أيضا: عرعر

- وادي عربية: ٤٠، ٥٣٩
- وادي عزّون: ٤٦٣
- وادي عفرين: ١٦
- وادي العمود: ١٨، ٢٢، ٤٧٧
- وادي غزة: ٨٠
- أنظر أيضا: وادي جرار
- وادي الفرات: ٤، ٤٥
- أنظر أيضا: وادي الرافدين
- وادي فلاح: ٢٢، ٢٧، ٣٥، ٣٦
- أنظر أيضا: مغارة الواد
- وادي القرى: ١٦١
- وادي القرعون: ٣٦٦
- وادي قطفة: ١٤
- وادي موسى: ١٩٩، ٢٠٩
- وادي النطوف: ٢٤، ٢٥
- وادي نياندر: ١٦
- وادي النيل: ٣، ٤، ٢٥، ٢٦، ٤٦، ٥٣، ٥٤، ٥٨، ٦٩
- «وادي النيل» (صحيفة): ٢٨٨
- واربرغ (مؤسسة): ٣٥٥ الموجز في تاريخ فلسطين السياسي ؛ ص ٦٠٦
- ربرغ، أوتو: ٣٣٧، ٣٣٨
- واربرغ، فيلكس: ٤٤٣
- واشنطن: ٣٥٧-٣٥٩، ٣٦٥، ٣٦٨، ٣٩٤، ٤٠٩، ٤٢١، ٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٩، ٤٩٠، ٤٩٧، ٤٩٩، ٥٠٢، ٥٠٨
- واطسون (الجنرال): ٣٧١
- واغتر، روبرت: ٤٨٨، ٤٩٥
- الواقوفة: ١٦٣
- واكهوب، آرثر: ٤٤٤، ٤٤٧، ٤٥٨، ٤٦٥، ٤٧٨
- وايز، (الحاخام) ستيفن: ٣٦٥، ٣٩٠، ٤٠٧
- وايزمن، حايم: ٣٣٦، ٣٣٨، ٣٥٤-٣٥٩
- الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٧
- ٣٦٥، ٣٦٦، ٣٦٩، ٣٧٦، ٣٩٠-٣٩٤، ٣٩٦، ٤٠٥، ٤٠٦، ٤١٥، ٤١٦، ٤٣٧، ٤٤٣، ٤٤٤، ٤٤٦، ٤٦٩، ٤٨٧، ٤٩٩
- وب، سدني: ٤٣٣، ٤٣٧
- أنظر أيضا: باسفيلد
- الوركاء: ٥١، ٥٣

يافا: ٤١، ٤٠، ٤٣، ٨٥، ١٠٢، ١١١، ١١٤، ١٢١، ١٢٤، ١٢٥، ١٣٨، ١٤٨،

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٨

١٤٩، ١٦٦، ١٨٤، ١٩٧، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٤-٢١٧، ٢٢١، ٢٢٧، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥١، ٢٥٩، ٢٦١-٢٦٥، ٢٧٠، ٢٧٦، ٢٨١، ٢٨٢،

٣١٩، ٣٢١، ٣٢٣، ٣٢٤، ٣٣٢، ٣٣٥، ٣٥١، ٣٩٩، ٤٠٦، ٤١٣، ٤١٧، ٤٣٤-٤٣٦، ٤٤٩، ٤٥٠، ٤٥٣، ٤٦٠-٤٦٣، ٤٧٠، ٤٧٦، ٤٧٨، ٤٨٠،

٥١٠، ٥١٣، ٥١٤، ٥١٦، ٥١٧، ٥٢٣، ٥٢٤

- أنظر أيضا: فلافيابوي؛ ميناء يافا؛ يوبا؛ يوبي

الياقوصة: ١٦٣

اليامون: ١٧٢، ٤٧٧

يانوح: ٥٣٨

يبرود (ملجأ): ١٤، ٢٢، ٢٨

بينثيل (مستعمرة): ٣٢٥

يبنى: ١١٤، ١١٦، ١٢٥، ١٣٦، ١٣٨، ١٤٨، ١٦٦، ١٩٨، ٢٠٥، ٢٠٩، ٢١٢، ٢١٨

- أنظر أيضا: إبلين؛ بيت إبلين؛ يمينا ييوس: ٨

- أنظر أيضا: أورشليم؛ أورشالم؛ إيليا كابيتولينا؛ إيلياء؛ بيت المقدس؛ سالم؛ القدس؛ مدينة داود؛ يروشالايم

اليوسيون: ٨، ٩٤

- أنظر أيضا: الكنعانيون

يتسحاق: ٧٩

- أنظر أيضا: إسحاق

يثرب: ١٦٠

- أنظر أيضا: المدينة المنورة

يحيعام (مستعمرة): ٥١٨، ٥١٩، ٥٢٥

- أنظر أيضا: جدين

يد مردخاي (مستعمرة): ٥٢٩، ٥٣٨

يربعام بن نباط: ٩٨، ٩٩

اليرموك (دلتا): ٣٧، ٣٨، ١٧٢

يروشالايم: ٨

- أنظر أيضا: أورشليم؛ أورشالم؛ إيليا كابيتولينا؛ إيلياء؛ بيت المقدس؛ سالم؛ القدس؛ مدينة داود؛ ييوس

يزيد بن أبي سفيان: ١٦٢، ١٦٤، ١٦٦، ١٦٧

يزيد بن روح بن زنباع الجذامي: ١٧٧

يزيد بن عبد الملك: ١٧٠

يزيد بن معاوية بن أبي سفيان: ١٧٠، ١٧٣-١٧٥

يسخار (سبط): ٩٩

يسود همعلا (مستعمرة): ٣٢١

يسوع الناصري: ٣٤

- أنظر أيضا: المسيح (عليه السلام)

يعقوب: ٧٦، ٧٨، ٨٠، ٣٢١

- أنظر أيضا: إسرائيل

يعقوب (ابن مراد الأول): ٢٣٨

يعقوب باشا: ٢٧٧

يعقوب البرادعي: ١٥٧

يعقوب هار: ٥٨

اليمانية: ١٧٧

- أنظر أيضا: اليمانية

يمحاض: ٥٥، ٦٢، ٦٧، ٧٠، ٧٥

- أنظر أيضا: حلب

اليمن: ١٨٤، ٣٤٨، ٣٤٩، ٤٨١، ٥٠٩، ٥١٦، ٥١٧

يمنيا: ١١٤، ١٢٥، ١٣٨

- أنظر أيضا: إبلين؛ بيت إبلين؛ يبنى اليمانية: ٢٧٠، ٢٧٥، ٢٧٦

- أنظر أيضا: اليمانية

ينثيت، راحيل: ٣٦٠، ٤٠٦

ينوعام: ٧٤

ينيشهر: ٢٣٧

الموجز في تاريخ فلسطين السياسي، ص: ٦٠٩

- أنظر أيضا: ميلانجيا

يهو: ١٠١

يهوى (إله إسرائيل): ٨٦، ٨٧، ٩١، ٩٥، ٩٧، ٣٠٩

يهود: ١٠٨-١١٠، ١١٧، ١١٨

- أنظر أيضا: يوديا

اليهود: ٨، ٧٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٠، ١٢٥، ١٣١، ١٣٤، ١٣٩، ١٤١، ١٤٥-١٤٨، ١٦٤، ٢٨٠، ٢٨١، ٢٩٧، ٢٩٩-٣٠٢، ٣٠٩-٣١٢، ٣١٥-

٣٢١، ٣٢٣-٣٢٧، ٣٣٠-٣٣٢، ٣٣٤-٣٣٦، ٣٣٩، ٣٤١، ٣٤٢، ٣٥٤-٣٥٦، ٣٦٢، ٣٧٠، ٣٧٨، ٣٧٩، ٣٨١، ٣٨٦، ٣٨٧، ٣٨٩-

٤٠١، ٤٠٦-٤٠٨، ٤١٣، ٤١٤، ٤٢٠-٤٢٤، ٤٢٦، ٤٢٨، ٤٣٠، ٤٣٢-٤٣٤، ٤٣٦، ٤٣٨، ٤٤١، ٤٤٢، ٤٤٥، ٤٦٠، ٤٦٨-٤٧٢، ٤٨٢، ٤٨٣،

٤٨٥، ٤٨٦، ٤٨٨-٤٩٠، ٤٩٢، ٤٩٥، ٤٩٧-٥٠١، ٥٠٤، ٥٠٦، ٥٠٧، ٥٠٩، ٥١٢، ٥٢٣، ٥٣١، ٥٣٥

يهودا (ابن شمعون الحشموني): ١٢١

يهودا (سبط): ٩٢، ٩٣، ٩٥-٩٨

يهودا المكابي: ١٢٠

يهورام (ابن يهوشافاط): ١٠٠

يهوشافاط (ابن آحاب): ١٠٠

يهوشوع: ٨٧

يواش (ملك يهودا): ١٠٢

يوبا: ١١٤

- أنظر أيضا: فلافيابوبى؛ يافا؛ يوبى يوبى: ١٢٤، ١٤٩

- أنظر أيضا: فلافيابوبى؛ يافا؛ يوبا يوحنا بن رؤبة: ١٦١

يوحنا بن سرجون (الدمشقي): ١٧٤

يوحنا المعمدان: ١٣٢-١٣٤

يوحنا هوركانوس: ١٢١، ١٢٢

يودوكية (الإمبراطورة): ١٥١

يوديا: ١١٤، ١١٧، ١١٨، ١٢٠-١٢٣، ١٢٧

- أنظر أيضا: يهود

يوسف (النبي): ٧٨، ٧٩، ٨١، ٩٨

يوسف بن طوييا: ١١٨، ١١٩

يوسف بن متياهو (المؤرخ): ١٣٧

- أنظر أيضا: يوسفوس فلافيوس

يوسف كنج آغا الكردي: ٢٥٩

يوسيبوس القيصري: ٩، ١٤٧، ١٥٢

يوسيفوس فلافيوس (المؤرخ): ١٣٧

- أنظر أيضا: يوسف بن متياهو

يوشيا (ملك يهودا): ١٠٣

يوغسلافيا: ٤٨١، ٥٠٦، ٥١٦

يوليوس قيصر: ١٢٨

يوناتان بن عنان (الكاهن الأكبر): ١٣٦

يوناتان الحشموني: ١٢٠، ١٢١

اليونانيون (اليونان): ٤، ٦، ٧٤، ١٠٥، ١١٠، ١١٣-١١٥، ١١٧، ١١٩، ١٢٣-١٢٧، ١٤١، ١٤٧، ٣٢٦

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون (التوبة/٤١).

قال الإمام على بن موسى الرضا - عليه السلام: رجم الله عبداً أحمياً أهرنا... يتعلم علومنا ويعلمها الناس؛ فإن الناس لو علموا محاسن كلامنا لأتبعونا... (بناذر البحار - فى تلخيص بحار الأنوار، للعلامة فيض الاسلام، ص ١٥٩؛ عيون أخبار الرضا(ع)، الشيخ الصدوق، الباب ٢٨، ج ١/ ص ٣٠٧).

مؤسس مجتمع "القائمية" الشافى بأصفهان - إيران: الشهيد آية الله "الشمس آبادى" - رجمه الله - كان أحداً من جهابذة هذه

المدينة، الذي قد اشتَهَرَ بِشَعْفِهِ بأهل بَيْتِ النَّبِيِّ (صلواتُ اللهِ عَلَيْهِم) و لا سِيَّما بحضرة الإمامِ عَلِيِّ بنِ مَوْسَى الرِّضَا (عليه السَّلام) و بِسَاحَةِ صَاحِبِ الزَّمانِ (عَجَّلَ اللهُ تَعَالَى فَرَجَهُ الشَّرِيفَ)؛ و لهذا سَيَس مع نظره و درايتِهِ، فى سَنَةِ ١٣٤٠ الهجرية الشمسية (= ١٣٨٠ الهجرية القمرية)، مؤسَّسَةً و طريقَةً لَمْ يَنْطَفِئِ مِصْبَاحُهَا، بل تُتَبَّعُ بِأَقْوَى و أَحْسَنِ مَوْقِفٍ كُلِّ يَوْمٍ.

مركز "القائمة" للتحري الحاسوبى - بأصبهان، إيران - قد ابتدأ أنشيطته من سَنَةِ ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية) تحت عناية سماحة آية الله الحاج السيد حسن الإمامى - دامَ عَزُّهُ - و مع مساعده جمع من خريجى الحوزات العلميه و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فى مجالات شتى: دينيه، ثقافيه و علميه...

الأهداف: الدفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثقافة الثقلين (كتاب الله و اهل البيت عليهم السلام) و معارفهما، تعزيز دوافع الشباب و عموم الناس إلى التحري الأذق للمسائل الدينيه، تخليف المطالب النافعة - مكان البلايتى المتبدله أو الرديئه - فى المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوترية)، تمهيد أرضيه واسعة جامع ثقافيه على أساس معارف القرآن و اهل البيت -عليهم السلام - بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطلاب، توسعة ثقافه القراءه و إغناء أوقات فراغه هواء برامج العلوم الإسلاميه، إناله المنابع اللزومه لتسهيل رفع الإبهام و الشبهات المنتشرة فى الجامعه، و...

- منها العداة الاجتماعيه: التى يُمكن نشرها و بثها بالأجهزة الحديثه متصاعده، على أنه يُمكن تسريع إبراز المرافق و التسهيلات - فى آكناف البلد - و نشر الثقافه الاسلاميه و الإيرانيه - فى أنحاء العالم - من جهه أخرى.

- من الأنشطة الواسعه للمركز:

(الف) طبع و نشر عشرات عنوان كتب، كتيبه، نشره شهرية، مع إقامة مسابقات القراءه

(ب) إنتاج مئات أجهزة تحقيقيه و مكتبيه، قابله للتشغيل فى الحاسوب و المحمول

(ج) إنتاج المعارض ثلاثيه الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرسوم المتحركه و... الأماكن الدينيه، السياحيه و...

(د) إبداع الموقع الانترنتى "القائمة" www.Ghaemiyeh.com و عدده مواقع أخرى

(ه) إنتاج المنتجات العرضيه، الخطابات و... للعرض فى القنوات القمرية

(و) الإطلاع و الدعم العلمى لنظام إجابة الأسئلة الشرعيه، الاخلاقيه و الاعتقديه (الهاتف: ٠٠٩٨٣١١٢٣٥٠٥٢٤)

(ز) ترسيم النظام التلقائى و اليدوى للبلوتوث، ويب كَشَك، و الرسائل القصيره SMS

(ح) التعاون الفخرى مع عشرات مراكز طبيعه و اعتباريه، منها بيوت الآيات العظام، الحوزات العلميه، الجوامع، الأماكن الدينيه كمسجد جَمَكَرَانَ و...

(ط) إقامة المؤتمرات، و تنفيذ مشروع "ما قبل المدرسه" الخاص بالأطفال و الأحداث المُشاركين فى الجلسه

(ى) إقامة دورات تعليميه عموميه و دورات تربية المربى (حضوراً و افتراضاً) طيله السنه

المكتب الرئيسى: إيران/أصبهان/ شارع "مسجد سيد" / ما بين شارع "بنج رمضان" و "مفترق وفائى" / بنايه "القائمة"

تاريخ التأسيس: ١٣٨٥ الهجرية الشمسية (= ١٤٢٧ الهجرية القمرية)

رقم التسجيل: ٢٣٧٣

الهويه الوطنيه: ١٠٨٦٠١٥٢٠٢٦

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المتجر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ٢٥-٢٣-٢٣٥٧٠٢٣-٢٣٥٧٠٢٣ (٠٠٩٨٣١١)

الفاكس: ٢٣٥٧٠٢٢ (٠٣١١)

مكتب طهران ٨٨٣١٨٧٢٢ (٠٢١)

التجارية و المبيعات ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩

امور المستخدمين ٢٣٣٣٠٤٥ (٠٣١١)

ملاحظة هامة:

الميزاتية الحالية لهذا المركز، شعبيته، تبرعته، غير حكوميته، و غير ربحيته، اقتنيت باهتمام جمع من الخيرين؛ لكنها لا توافي الحجم المتزايد و المتسع للامور الدينيه و العلميه الحالية و مشاريع التوسعه الثقافيه؛ لهذا فقد ترجى هذا المركز صاحب هذا البيت (المسمى بالقائمية) و مع ذلك، يرجو من جانب سماحه بقيه الله اعظم (عجل الله تعالى فرجه الشريف) أن يوفق الكل توفيقاً متزائداً ليعانتهم - في حد التمكن لكل احد منهم - إيانا في هذا الأمر العظيم؛ إن شاء الله تعالى؛ و الله ولي التوفيق.

مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية
أصبحان
الغائمة

WWW



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩

